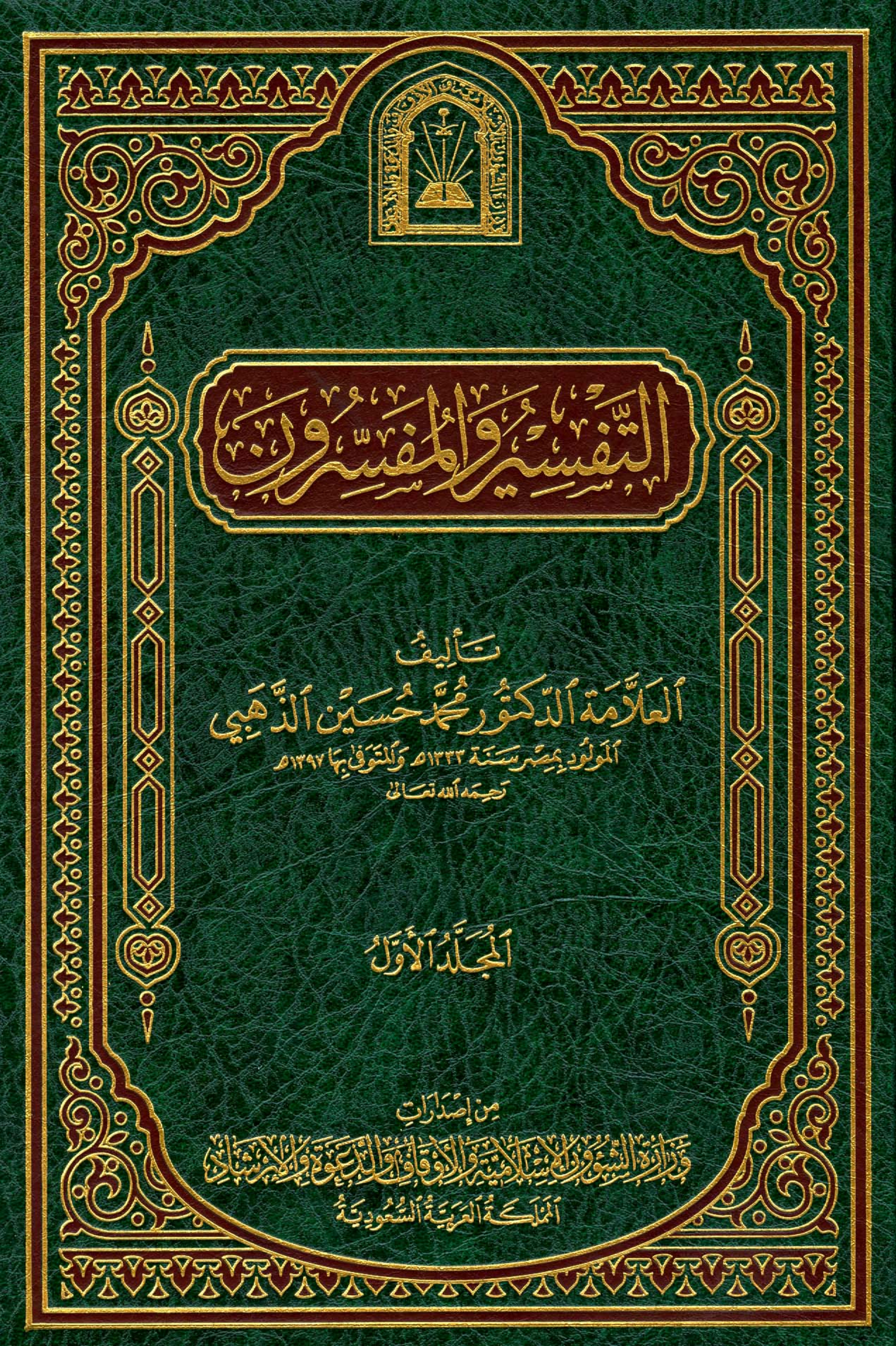


التفسير والمفسرون
تأليف
العلامة الدكتور محمد حسين الذهبي
المولود بمصر سنة ١٣٣٣هـ والمتوفى بها ١٣٩٧هـ
رحمه الله تعالى
المجلد الأول
من إصدارات
وزارة الشئون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية



تأليف

العلامة الدكتور محمد حسين الذهبي

المولود بمصر سنة ١٣٣٣هـ والمتوفى بها ١٣٩٧هـ

رحمه الله تعالى

المجلد الأول

من إصدارات

وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد

المملكة العربية السعودية

بسم الله الرحمن الرحيم

« كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الأَلْبَابِ » .

« صدق الله العظيم »

(سورة ص الآية ٢٩)

طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ لِـ
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

قامت بالإشراف على الطباعة
دار النوادر
شركة دار النوادر الكويتية - ذ. م. م - الكويت
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

تقديم الكتاب

الحمد لله الذى أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً ، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله ، الذى أرسله ربه شاهداً ومبشرا ونذيرا ، وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وبعد ... فقد مر على الإنسانية حين من الدهر وهى تتخبط فى مهمه من الضلال متسع الأرجاء ، وتسير فى غمرة من الأوهام ومضطرب فسيح من فوضى الأخلاق وتنازع الأهواء ، ثم أراد الله لهذه الإنسانية المعذبة أن ترقى بروح من أمره وتسعد بوحى السماء ، فأرسل إليها على حين فترة من الرسل رسولا صنعه الله على عينه ، واختاره أمينا على وحيه ، فطلع عليها بنوره وهديه ، كما يطلع البدر على المسافر البادى بعد أن افتقده فى الليلة الظلماء .

ذلك هو محمد بن عبد الله - عليه صلاة الله وسلامه - نبى الرحمة ، ومبدد الظلمة ، وكاشف الغمة ...

أرسله الله إلى هذه الإنسانية الشقية المعذبة ، ليزيل شقوتها ، ويضع عنها إصرها والأغلال التى فى أعناقها ، وأنزل عليه كتابا - يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم - وجعل له منه معجزة باهرة ، شاهدة على صدق دعوته . مؤيدة لحقية رسالته ، فكان القرآن هو الهداية والحجة . هداية الخلق وحجة الرسول .

لم يكد هذا القرآن الكريم يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم ، وتملك عليهم حسهم ومشاعرهم ، ولم يعرض عنه إلا نفر قليل ، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها ، ثم لم يلبث أن دخل الناس فى دين الله أفواجا ، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع الكفر ، وأقام المسلمون صرح الحق مشيدا على أنقاض الباطل .

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم ، الذى جعل الله فيه الهدى والنور ، ومنه طب الإنسانية وشفاء ما فى الصدور ، وأيقنوا بصدق الله حيث يصف القرآن فيقول (إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم)[١] ، وبصدق الرسول حيث يصف القرآن فيقول هو أيضا (فيه نبأ ما كان قبلكم ، وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم ، هو الفصل ، ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، وهو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، هو الذى لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا : إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ، من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم[٢] .

صدق المسلمون هذا ، وأيقنوا أنه لا شرف إلا والقرآن سبيل إليه ، ولا خير إلا وفى آياته دليل عليه ، فراحوا يثورون[٣] القرآن ليقفوا على ما فيه من مواعظ وعبر ، وأخذوا يتدبرون فى آياته ليأخذوا من مضامينها ما فيه سعادة الدنيا وخير الآخرة .

وكان القوم عربا خلصا ، يفهمون القرآن ، ويدركون معانيه ومراميه بمقتضى سليقتهم العربية ، فهما لا تعكره عجمة ، ولا يشوبه تكدير ، ولا يشوهه شىء من قبح الابتداع ، وتحكم العقيد الزائفة الفاسدة .

وكانت للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية التى دقت مراميها ، وخفيت معانيها ، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات ، إذ كانوا يرجعون فى مثل ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيكشف لهم مادق عن أفهامهم

---

(١) فى الآية ٩ من سورة الإسراء . (٢) الترمذى ج ٢ ص ١٤٩ .

(٣) أى ينقرون عنه ويبحثون عن معانيه .

ويجلى لهم ما خفى عن إدراكهم ، وهو الذى عليه البيان كما أن عليه البلاغ ، والله تعالى يقول له وعنه : (وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون)[١] .

ظل المسلمون على هذا يفهمون القرآن على حقيقته وصفائه ، ويعملون به على بينة من هديه وضيائه ، فكانوا من أجل ذلك أعزاء لا يقبلون الذل ، أقوياء لا يعرفون الضعف ، كرماء لا يرضون الضيم ، حتى دانت لهم الشعوب وخضعت لهم الدول .

ثم خلف من بعدهم خلف تفرقوا فى الدين شيعا ، وأحدثوا فيه بدعا وبدعا ، وكانت فتن كقطع الليل المظلم ، لا خلاص منها إلا بالرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله ، ولا نجاة من شرها إلا بالتمسك بالقرآن ، وهو الحبل الذى طرفه بيد الله وطرفه بأيديهم .

وكان من بين المسلمين من أهمل هداية القرآن ، وركب رأسه فى طريق الغواية ، فلم ينهج هذا المنهج الواضح القويم الذى سلكه سلفه الصالح فى فهم القرآن الكريم والأخذ به ، فأخذ يتأول القرآن على غير تأويله ، وسلك فى شرح نصوصه طريقا ملتوية فيها، تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول ، وكان الذى رمى به فى هذه الطريق الملتوية التى باعدت بينه وبين هداية القرآن ، هو تسلط العقيدة على عقله وقلبه ، وسمعه وبصره ، فحاول أن يأخذ من القرآن شاهدا على صدق بدعته ، وتحايل على نصوصه الصريحة لتكون دعامة يقيم عليها أصول عقيدته ونزعته ، فحرف القرآن عن مواضعه ، وفسر ألفاظه على تحمل ما لا تدل عليه ، فكان من وراء ذلك فتنة فى الأرض وفساد كبير !! ..

وكان بجوار هذا الفريق من المسلمين ، فريق آخر منهم ، برع فى علوم

---

(١) فى الآية ٤٤ من سورة النحل .

حدثت فى الملة ، ولم يكن للعرب بها عهد من قبل ، فحاولوا أن يصلوا بينها وبين القرآن ، وأن يربطوا بين ما عندهم من قواعد ونظريات وبين ما فى القرآن من أصول وأحكام وعقائد ، وتم لهم ذلك على اختلاف بينهم فى الدوافع والحوافز على هذا العمل ، منهم من قصد خدمة هذه العلوم وترويجها على حساب القرآن ، ومنهم من أراد خدمة الدين وتفهم القرآن على ضوء هذه العلوم ، وأخيراً خرج هذا الفريق على الناس بتفاسير كثيرة ، فيها خير وشر ، وبينها تفاوت فى المنهج . واختلاف فى طريقة الشرح ووسيلة البيان .

وكان من وراء هؤلاء وهؤلاء فريق التحف الإسلام وتبطن الكفر ، يحمل بين فكيه لسانا مسلما ، وبين جنبيه قلبا كافرا مظلما ، يحرص كل الحرص على أن يطفىء نور الإسلام ويهدم عز المسلمين ، فلم يجد أعون له على هذا الغرض السيء ، من أن يتناول القرآن بالتحريف والتبديل ، والتأويل الفاسد الذى لا يقوم على أساس من الدين ، ولا يستند إلى أصل من اللغة ، ولا يرتكز على دليل من العقل ... وأخيراً خرج هؤلاء أيضا على الناس بتأويلات فيها سخف ظاهر وكفر صريح ، خفى على عقول بعض الأغمار الجهلة ، ولكن لم يجد إلى قلوب عقلاء المسلمين سبيلا ، ولم يلق من نفوسهم رواجا ولا قبولا ، بل وكان منهم من أفرغ همه لدحض هذه التأويلات ، وأعمل لسانه وقلمه لإبطال هذه الشبهات ، فوقى الله بهم المسلمين من شر ، وحفظ بهم الإسلام من ضر ، فجزاهم الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

خلف لنا هؤلاء جميعا — مسلمون وأشباه مسلمين ، مبتدعون وغير مبتدعين ، كتبا كثيرة فى تفسير القرآن الكريم ، كل كتاب منها يحمل طابع صاحبه ، ويتأثر بمذهب مؤلفه ، ويتلون باللون العلمى الذى يروج فى العصر الذى ألف فيه ، ويغلب على غيره من النواحى العلمية لكاتبه ، وعنى المسلمون بدراسة بعض هذه الكتب ، وقل اهتمامهم ببعض آخر منها ، فأحببت أن أقدم

للمكتبة الإسلامية كتاباً يعتبر باكورة إنتاجى فى التأليف[١] عنوانه :

(التفسير والمفسرون)

وهو كتاب يبحث عن نشأة التفسير وتطوره ، وعن مناهج المفسرين وطرائقهم فى شرح كتاب الله تعالى ، وعن ألوان التفسير عند أشهر طوائف المسلمين ومن ينتسبون إلى الإسلام ، وعن ألوان التفسير فى هذا العصر الحديث . . . وراعيت أن أضمن هذا الكتاب بعض البحوث التى تدور حول التفسير ، من تطرق الوضع إليه ، ودخول الإسرائيليات عليه ، وما يجب أن يكون عليه المفسر عندما يحاول فهم القرآن أو كتابة التفسير ، وما إلى ذلك من بحوث يطول ذكرها ، ويجدها القارىء مفصلة مسهبة فى هذا الكتاب .

ورجوت من وراء هذا العمل أن أنبه المسلمين إلى هذا التراث التفسيرى ، الذى اكتظت به المكتبة الإسلامية على سعتها وطول عهدها ، وإلى دراسة هذه التفاسير على اختلاف مذاهبها وألوانها ، وألا يقصروا حياتهم على دراسة كتب طائفة واحدة أو طائفتين ، دون من عداهما من طوائف كان لها فى التفسير أثر يذكر فيشكر أو لا يشكر .

ورجوت أيضاً أن يكون لعشاق التفسير من وراء هذا المجهود موسوعة تكشف لهم عن مناهج أشهر المفسرين وطرائقهم التى يسيرون عليها فى شرحهم لكتاب الله تعالى ، ليكون من يريد أن يتصفح تفسيراً منها على بصيرة من الكتاب الذى يريد أن يقرأه ، وعلى بينة من لونه ومنهجه ، حتى لا يغتر بباطل أو ينخدع بسراب .

وفى اعتقادى أن فى هذا الموضوع جدة وطرافة ، جدة ؛ إذ لم أسبق إليه إلا بمحاولات بسيطة غير شاملة ، وطرافة ؛ إذ أنه يعطى القارىء صوراً متنوعة عن لون من التفكير الإسلامى فى عصوره المختلفة ، ويكشف له عن أفكار

---

(١) تقدم المؤلف بهذا البحث للحصول على شهادة العالمية من درجة أستاذ فى علوم القرآن والحديث سنة ١٩٤٦ م .

وأفهام تفسيرية ، فيها غرابة وطرافة ، وحق وباطل ، وإنصاف واعتساف ومحاورة شيقة ، وجدل عنيف .

وقد رتبت الكتاب على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة .

أما المقدمة ، فقد جعلتها على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول : فى معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما .
المبحث الثانى : فى تفسير القرآن بغير لغته .
المبحث الثالث : فى اختلاف العلماء فى التفسير ، هل هو من قبيل التصورات ، أو من قبيل التصديقات ؟ .

وأما الباب الأول ، فقد جعلته للكلام عن المرحلة الأولى من مراحل التفسير ، أو بعبارة أخرى ، عن التفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول :

الفصل الأول : فى فهم النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة للقرآن الكريم ، وأهم مصادر التفسير فى هذه المرحلة .

الفصل الثانى : فى الكلام عن المفسرين من الصحابة .
الفصل الثالث : فى قيمة التفسير المأثور عن الصحابة .
الفصل الرابع : فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة .

وأما الباب الثانى ، فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثانية من مراحل التفسير ، أو بعبارة أخرى عن التفسير فى عهد التابعين ، وقد رتبت هذا الباب على أربعة فصول :

الفصل الأول : فى ابتداء هذه المرحلة ، ومصادر التفسير فى عصر التابعين ، ومدارس التفسير التى قامت فيه .

الفصل الثانى : فى قيمة التفسير المأثور عن التابعين .

الفصل الثالث : فى مميزات التفسير فى هذه المرحلة .

الفصل الرابع : فى الخلاف بين السلف فى التفسير .

وأما الباب الثالث، فقد جعلته للكلام عن المرحلة الثالثة من مراحل التفسير، أو بعبارة أخرى عن التفسير فى عصور التدوين ، وهى تبدأ من العصر العباسى ، وتمتد إلى عصرنا الحاضر ، وقد رتبت هذا الباب على ثمانية فصول .

الفصل الأول : فى التفسير بالمأثور وما يتعلق به من مباحث ، كتطرق الوضع إليه ، ودخول الإسرائيليات عليه .

الفصل الثانى : فى التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث ، كالعلوم التى يحتاج إليها المفسر ، والمنهج الذى يجب عليه أن ينهجه فى تفسيره حتى يكون بمأمن من الخطأ ،

الفصل الثالث : فى أهم كتب التفسير بالرأى الجائز .

الفصل الرابع : فى التفسير بالرأى المذموم ، أو بعبارة أخرى تفسير الفرق المبتدعة وهم : المعتزلة - الإمامية الإثنا عشرية - الباطنية القدامى، وهم الإمامية الإسماعيلية - الباطنية المحدثون، وهم : البابية والبهائية - الزيدية - الخوارج.

الفصل الخامس : فى تفسير الصوفية .

الفصل السادس : فى تفسير الفلاسفة .

الفصل السابع : فى تفسير الفقهاء .

الفصل الثامن : فى التفسير العلمى .

وأما الخاتمة ، فقد جعلتها عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث، وقصرت الكلام على أهم ألوان التفسير فى هذا العصر وهى :

أولا — اللون العلمى .
ثانياً — اللون المذهبى .
ثالثاً — اللون الإلحادى .
ربعاً — اللون الأدبى الاجتماعى .

والله أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه الكريم ، وأن يسدد خطانا ، ويحقق رجاءنا ، إنه سميع مجيب ، وهو حسبى ونعم الوكيل ؟

محمد حسين الذهبى

حدائق حلوان فى ١٨ محرم سنة ١٣٩٦ هـ
أول يوليه سنة ١٩٧٦ م

المقدمة

المبحث الأول

معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما :

التفسير فى اللغة : — التفسير هو الإيضاح والتبيين ، ومنه قوله تعالى فى سورة الفرقان آية ٣٣ « ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً » أى بيانا وتفصيلا ، وهو مأخوذ من الفسر وهو الإبانة والكشف ، قال فى القاموس « (الفسر) الإبانة وكشف المغطى كالتفسير ، والفعل كضرب ونصر .... اهـ(١) .

وقال فى لسان العرب . « (الفسر) البيان ؛ فسر الشيء يفسره بالكسر ويفسره بالضم فسراً . وفسره أبانه . والتفسير مثله ... ثم قال الفسر كشف المغطى ، والتفسير كشف المراد عن اللفظ المشكل ... » اهـ(٢) .

وقال أبو حيان فى البحر المحيط : « ... ويطلق التفسير أيضاً على التعرية للانطلاق ، قال ثعلب : تقول فسرت الفرس: عريته لينطلق فى حصره ، وهو راجع لمعنى الكشف ، فكأنه كشف ظهره لهذا الذى يريده منه من الجرى » اهـ(٣) .

ومن هذا يتبين لنا أن التفسير يستعمل لغة فى الكشف الحسى ، وفى الكشف عن المعانى المعقولة ، واستعماله فى الثانى أكثر من استعماله فى الأول .

---

(١) جـ ٢ ص ١١٠ (٢) جـ ٦ ص ٣٦١ (٣) جـ ١ ص ١٣

التفسير فى الاصطلاح : - يرى بعض العلماء : أن التفسير ليس من العلوم التى يتكلف لها حد ، لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة من مزاولة القواعد كغيره من العلوم التى أمكن لها أن تشبه العلوم العقلية ، ويكتفى فى إيضاح التفسير بأنه بيان كلام الله ، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها .

ويرى بعض آخر منهم : أن التفسير من قبيل المسائل الجزئية أو القواعد الكلية ، أو الملكات الناشئة من مزاولة القواعد ، فيتكلف له التعريف ، فيذكر فى ذلك علوما أخرى يحتاج إليها فى فهم القرآن ، كاللغة ، والصرف ، والنحو والقراءات ، وغير ذلك .

وإذا نحن تتبعنا أقوال العلماء الذين تكلفوا الحد للتفسير ، وجدناهم قد عرفوه بتعاريف كثيرة ، يمكن إرجاعها كلها إلى واحد منها ، فهى وإن كانت مختلفة من جهة اللفظ ، إلا أنها متحدة من جهة المعنى وما تهدف إليه .

فقد عرفه أبو حيان فى البحر المحيط : بأنه « علم يبحث عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، ومدلولاتها ، وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ، وتتمات لذلك » .

ثم خرج التعريف فقال : فقولنا علم ، هو جنس يشمل سائر العلوم ، وقولنا يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ، هذا هو علم القراءات ، وقولنا ومدلولاتها أى مدلولات تلك الألفاظ ، وهذا هو علم اللغة الذى يحتاج إليه فى هذا العلم ، وقولنا وأحكامها الإفرادية والتركيبية ، هذا يشمل علم التصريف ، وعلم الإعراب ، وعلم البيان ، وعلم البديع ، وقولنا ومعانيها التى تحمل عليها حالة التركيب ، يشمل ما دلالته عليه بالحقيقة ، وما دلالته عليه بالمجاز ، فإن التركيب قد يقتضى بظاهره شيئاً ويصد عن الحمل على الظاهر صاد فيحتاج لأجل ذلك أن يحمل على الظاهر وهو المجاز ، وقولنا وتتمات لذلك ، هو معرفة النسخ

وسبب النزول ، وقصة توضح بعض ما انبهم فى القرآن ، ونحو ذلك » اه[١]

وعرفه الزركشى : بأنه « علم يفهم به كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، وبيان معانيه ، واستخراج أحكامه وحكمه » اه[٢]

وعرفه بعضهم : بأنه « علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد ، من حيث دلالته على مراد الله تعالى ، بقدر الطاقة البشرية » اه[٣]

والناظر لأول وهلة فى هذين التعريفين الأخيرين ، يظن أن علم القراءات وعلم الرسم لا يدخلان فى علم التفسير ، والحق أنهما داخلان فيه ؛ وذلك لأن المعنى يختلف باختلاف القراءتين أو القراءات ، كقراءة « وإذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيراً » بضم الميم وإسكان اللام ، فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ « وملكا كبيراً » بفتح الميم وكسر اللام . وكقراءة « حتى يطهرن » بالتسكين فإن معناها مغاير لقراءة من قرأ « يطهرن » بالتشديد ، كما أن المعنى يختلف أيضاً باختلاف الرسم القرآنى فى المصحف ، فمثلا قوله تعالى « أمن يمشى سويا » بوصل أمن ، يغاير فى المعنى « أم من يكون عليهم وكيلا » بفصلها ، فإن المفصولة تفيد معنى بل دون الموصولة ،

وعرفه بعضهم : بأنه « علم نزول الآيات ، وشؤونها ، وأقاصيصها ، والأسباب النازلة فيها ، ثم ترتيب مكيها ومدنيها ، ومحكمها ومتشابهها ، وناسخها ومنسوخها ، وخاصها وعامها ، ومطلقها ومقيدها ، ومجملها ومفسرها ، وحلالها وحرامها ، ووعدها ووعيدها ، وأمرها ونهيها ، وعبرها وأمثالها » اه[٤]

وهذه التعاريف الأربعة تتفق كلها على أن علم التفسير علم يبحث عن مراد الله تعالى بقدر الطاقة البشرية ، فهو شامل لكل ما يتوقف عليه فهم المعنى ، وبيان المراد .

التأويل فى اللغة : التأويل : مأخوذ من الأول وهو الرجوع ، قال فى القاموس : « آل إليه أولا ومآلا : رجع ، وعنه ارتد . . . ثم قال : وأول الكلام

---

(١) جـ ١ ص ١٣ - ١٤ (٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٤
(٣) منهج الفرقان ٢ ص ٦ (٤) الإتقان جـ ٢ ص ١٧٤

تأويلا وتأوله دبره وقدره وفسره ، والتأويل عبارة الرؤيا »[١]

وقال فى لسان العرب : الأول : الرجوع ، آل الشيء يؤول أولا ومآلا رجع ، وأول الشيء رجعه ، وألت عن الشيء ارتددت ، وفى الحديث : « من صام الدهر فلا صام ولا آل» أى ولا رجع إلى خير ... ثم قال وأول الكلام وتأوله دبره وقدره . وأوله وتأوله فسره ... الخ »[٢]

وعلى هذا فيكون التأويل مأخوذاً من الأول بمعنى الرجوع، إنما هو باعتبار أحد معانيه اللغوية ، فكأن المؤول أرجع الكلام إلى ما يحتمله من المعانى .

وقيل التأويل مأخوذ من الإيالة وهى السياسة ، فكأن المؤول يسوس الكلام ويضعه فى موضعه - قال الزمخشرى فى أساس البلاغة : « آل الرعية يؤولها إيالة حسنة ، وهو حسن الإيالة ، وائتالها ، وهو مؤتال لقومه مقتال عليهم أى سائس محتكم ...) اهـ[٣]

والناظر فى القرآن الكريم يجد أن لفظ التأويل قد ورد فى كثير من آياته على معان مختلفة ، فمن ذلك قوله تعالى فى سورة آل عمران آية (٧) «فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله ... » فهو فى هذه الآية بمعنى التفسير والتعيين - وقوله فى سورة النساء آية (٥٩) « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » فهو فى هذه الآية بمعنى العاقبة والمصير - وقوله فى سورة الأعراف آية (٥٣) « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله ... » ، وقوله فى سورة يونس آية (٣٩) « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتيهم تأويله ... » فهو فى الآيتين بمعنى وقوع المخبر به - وقوله فى سورة يوسف آية (٦) « وكذلك يجتبيك ربك ويعلمك من تأويل الأحاديث ... » وقوله فيها أيضاً آية (٢٧) « قال لا يأتيكما طعام ترزقانه إلا نبأتكما بتأويله ... »

---

(١) ج ٣ ص ٣٣١ (٢) ج ١٣ ص ٣٣ - ٣٤ (٣) ج ١ ص ١٥

وقوله فى آية (٤٤) منها « ... وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين » ، وقوله فى آية (٤٥) منها « ... أنا أنبئكم بتأويله ... » ، وقوله فى آية (١٠٠) منها « ... هذا تأويل رؤياى من قبل ... » فالمراد به فى كل هذه الآيات نفس مدلول الرؤيا ، وقوله فى سورة الكهف آية (٧٨) « ... سأنبئك بتأويل مالم تستطع عليه صبراً » ، وقوله فيها أيضاً آية (٨٢) « ... ذلك تأويل مالم تسطع عليه صبراً » فمراده بالتأويل هنا تأويل الأعمال التى أتى بها الخضر من خرق السفينة ، وقتل الغلام ، وإقامة الجدار ، وبيان السبب الحامل عليها ، وليس المراد منه تأويل الأقوال .

التأويل فى الاصطلاح :

١ — التأويل عند السلف : التأويل عند السلف له معنيان :

أحدهما : تفسير الكلام وبيان معناه ، سواء أوافق ظاهره أو خالفه ، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين ، وهذا هو ما عناه مجاهد من قوله « إن العلماء يعلمون تأويله » يعنى القرآن ، وما يعنيه ابن جرير الطبرى بقوله فى تفسيره : « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » . وبقوله : « اختلف أهل التأويل فى هذه الآية » ، ونحو ذلك ، فإن مراده التفسير .

ثانيهما : هو نفس المراد بالكلام ؛ فإن كان الكلام طلبا كان تأويله نفس الفعل المطلوب ، وإن كان خبراً ، كان تأويله نفس الشىء المخبر به ، وبين هذا المعنى والذى قبله فرق ظاهر ، فالذى قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام ، كالتفسير ، والشرح ، والإيضاح ، ويكون وجود التأويل فى القلب ، واللسان ، وله الوجود الذهنى واللفظى والرسمى ، وأما هذا فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة فى الخارج ، سواء أكانت ماضية أم مستقبلة ، فإذا قيل : طلعت الشمس ، فتأويل هذا هو نفس طلوعها ، وهذا فى نظر ابن تيمية هو لغة القرآن التى نزل بها ، وعلى هذا فيمكن إرجاع كل ما جاء فى القرآن من لفظ التأويل إلى هذا المعنى الثانى .

٢ — التأويل عند المتأخرين من المتفقهة ، والمتكلمة ، والمحدثة ، والمتصوفة .

التأويل عند هؤلاء جميعاً : هو صرف اللفظ عن المعنى الراجح إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به ، وهذا هو التأويل الذى يتكلمون عليه فى أصول الفقه ومسائل الخلاف . فإذا قال أحد منهم : هذا الحديث أو هذا النص مؤول أو هو محمول على كذا . قال الآخر : هذا نوع تأويل ، والتأويل يحتاج إلى دليل . وعلى هذا فالمتأول مطالب بأمرين :

الأمر الأول : أن يبين احتمال اللفظ للمعنى الذى حمله عليه وادعى أنه المراد .

الأمر الثانى : أن يبين الدليل الذى أوجب صرف اللفظ عن معناه الراجح إلى معناه المرجوح ، وإلا كان تأويلا فاسداً ، أو تلاعباً بالنصوص .

قال فى جمع الجوامع وشرحه : « التأويل حمل الظاهر على المحتمل المرجوح ، فإن حمل عليه لدليل فصحيح ، أو لما يظن دليلا فى الواقع ففاسد ، أولا لشىء فلعب لا تأويل[1] .

وهذا أيضاً هو التأويل الذى يتنازعون فيه فى مسائل الصفات ، فمنهم من ذم التأويل ومنعه ، ومنهم من مدحه وأوجبه[2] .

وستطلع عند الكلام على الفرق بين التفسير والتأويل على معان أخرى اشتهرت على ألسنة المتأخرين .

---

(١) ج ٢ ص ٥٦ .

(٢) لخصنا هذا الموضوع من (الاكليل فى المتشابه والتأويل) للعلامة ابن تيمية ج ٢ ص ١٥ — ١٧ من مجموعة الرسائل الكبرى له . وانظر مقالته فى القاعدة الخامسة من جواب المسألة التدبيرية .

الفرق بين التفسير والتأويل

والنسبة بينهما

اختلف العلماء فى بيان الفرق بين التفسير والتأويل، وفى تحديد النسبة بينهما اختلافا نتجت عنه أقوال كثيرة، وكأن التفرقة بين التفسير والتأويل أمر معضل استعصى حله على كثير من الناس إلا من سعى بين يديه شعاع من نور الهداية والتوفيق، ولهذا بالغ ابن حبيب النيسابورى فقال: «نبغ فى زماننا مفسرون لو سئلوا عن الفرق بين التفسير والتأويل ما اهتدوا إليه»(١). وليس بعيداً أن يكون منشأ هذا الخلاف، هو ماذهب إليه الأستاذ أمين الخولى حيث يقول «وأحسب أن منشأ هذا كله، هو استعمال القرآن لكلمة التأويل، ثم ذهاب الأصوليين إلى اصطلاح خاص فيها، مع شيوع الكلمة على ألسنة المتكلمين من أصحاب المقالات والمذاهب»(٢).

وهذه هى أقوال العلماء أبسطها بين يدى القارىء ليقف على مبلغ هذا الاختلاف، وليخلص هو برأى فى المسألة يوافق ذوقه العلمى ويرضيه.

١ — قال أبو عبيدة وطائفة معه: «التفسير والتأويل بمعنى واحد»(٣) فهما مترادفان. وهذا هو الشائع عند المتقدمين من علماء التفسير.

٢ — قال الراغب الأصفهانى: «التفسير أعم من التأويل. وأكثر مايستعمل التفسير فى الألفاظ، والتأويل فى المعانى، كتأويل الرؤيا. والتأويل يستعمل أكثره فى الكتب الإلهية. والتفسير يستعمل فيها وفى غيرها. والتفسير أكثره يستعمل فى مفردات الألفاظ. والتأويل أكثره يستعمل

---

(١) الاتقان ج٢ ص ١٧٣.

(٢) التفسير معالم حياته — منهجه اليوم ص ٦.

(٣) الاتقان ج٢ ص١٧٣.

فى الجمل، فالتفسير إما أن يستعمل فى غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة أو فى تبيين المراد وشرحه كقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة: «وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة»، وإما فى كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة التوبة: «إنما النسىء زيادة فى الكفر» وقوله تعالى فى الآية (١٨٩) من سورة البقرة: «وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها» الآية.

وأما التأويل: فإنه يستعمل مرة عاما، ومرة خاصاً، نحو الكفر المستعمل تارة فى الجحود المطلق، وتارة فى جحود البارى خاصة. والإيمان المستعمل فى التصديق المطلق تارة، وفى تصديق دين الحق تارة، وإما فى لفظ مشترك بين معان مختلفة، نحو لفظ وجد، المستعمل فى الجد والوجد والوجود» اهـ[1]:

٣ — قال الماتوريدى: «التفسير القطع على أن المراد من اللفظ هذا، والشهادة على الله أنه عنى باللفظ هذا، فإن قام دليل مقطوع به فصحيح، وإلا فتفسير بالرأى، وهو المنهى عنه، والتأويل ترجيح أحد المحتملات بدون القطع والشهادة على الله» اهـ[2]، وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين.

٤ — قال أبو طالب الثعلبى: «التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً، كتفسير الصراط بالطريق، والصيب بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ، مأخوذ من الأول، وهو الرجوع لعاقبة الأمر. فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد، والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد، والكاشف دليل، مثاله قوله تعالى فى الآية (١٤) من سورة الفجر: «إن ربك لبالمرصاد» تفسيره أنه من الرصد، يقال رصدته: رقبته، والمرصاد مفعال منه، وتأويله التحذير من التهاون

---

(١) مقدمة التفسير للراغب ص ٤٠٢ — ٤٠٣ بآخر كتاب تنزيه القران عن المطاعن للقاضى عبد الجبار.

(٢) الاتقان ج٢ ص ١٧٣.

بأمر الله ، والغفلة عن الأهية والاستعداد للعرض عليه . وقواطع الأدلة تقتضى بيان المراد منه على خلاف وضع اللفظ فى اللغة » اهـ[١] وعلى هـذا فالنسبة بينهما التباين .

٥ — قال البغوى ووافقه الكواشى : « التأويل هو صرف الآية إلى معنى محتمل يوافق ما قبلها وما بعدها ، غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاستنباط . والتفسير هو الكلام فى أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها » اهـ[٢] بتصرف . وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين .

٦ — قال بعضهم : التفسير ما يتعلق بالرواية ، والتأويل ما يتعلق بالدراية » اهـ[٣] . وعلى هذا فالنسبة بينهما التباين .

٧ — التفسير هو بيان المعانى التى تستفاد من وضع العبارة ، والتأويل هو بيان المعانى التى تستفاد بطريق الإشارة . فالنسبة بينهما التباين ، وهـذا هو المشهور عند المتأخرين ، وقد نبه إلى هذا الرأى الأخير العلامة الألوسى فى مقدمة تفسيره حيث قال بعد أن استعرض بعض أقوال العلماء فى هذا الموضوع « وعندى أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه — ما سمعتها ومالم تسمعها — مخالف للعرف اليوم إذ قد تعورف من غير نكير: أن التأويل إشارة قدسية ، ومعارف سبحانية ، تنكشف من سجف العبارات للسالكين ، وتنهل من سحب الغيب على قلوب العارفين . والتفسير غير ذلك .

وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة ، فلا أظنك فى مرية من رد هذه الأقوال . أو بوجه ما ، فلا أراك ترضى إلا أن فى كل كشف إرجاعا ، وفى كل إرجاع كشفا ، فافهم » اهـ[٤] .

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٧٣ (٢) تفسير البغوى ج ١ ص ١٨ .
(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٧٣ (٤) الآلوسى ج ١ ص ٥

هذه هى أهم الأقوال فى الفرق بين التفسير والتأويل . وهناك أقوال أخرى أعرضنا عنها مخافة التطويل .

والذى تميل إليه النفس من هذه الأقوال : هو أن التفسير ما كان راجعاً إلى الرواية ، والتأويل ما كان راجعاً إلى الدراية ، وذلك لأن التفسير معناه الكشف والبيان . والكشف عن مراد الله تعالى لا نجزم به إلا إذا ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو عن بعض أصحابه الذين شهدوا نزول الوحى وعلموا ما أحاط به من حوادث ووقائع ، وخالطوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجعوا إليه فيما أشكل عليهم من معانى القرآن الكريم .

وأما التأويل فملحوظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل . والترجيح يعتمد على الاجتهاد ، ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها فى لغة العرب ، واستعمالها بحسب السياق ، ومعرفة الأساليب العربية ، واستنباط المعانى من كل ذلك . قال الزركشى : « وكان السبب فى اصطلاح كثير على التفرقة بين التفسير والتأويل التمييز بين المنقول والمستنبط ، ليحيل على الاعتماد فى المنقول ، وعلى النظر فى المستنبط » اهـ[1] .

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٣ .

المبحث الثاني

تفسير القرآن بغير لغته

تفسير القرآن بغير لغته ، أو الترجمة التفسيرية للقرآن ، بحث نرى من الواجب علينا أن نعرض له ؛ لما له من تعلق وثيق بموضوع هذا الكتاب ، وقبل الخوض فيه يحسن بنا أن نمهد له بعجالة موجزة تكشف عن معنى الترجمة وأقسامها ، ثم نتكلم عما يدخل منها تحت التفسير وما لا يدخل ، فنقول : الترجمة تطلق فى اللغة على معنيين :

الأول : نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى بدون بيان لمعنى الأصل المترجم ، وذلك كوضع رديف مكان رديف من لغة واحدة .

الثانى : تفسير الكلام وبيان معناه بلغة أخرى .

قال فى تاج العروس « والترجمان المفسر للسان ، وقد ترجمه وترجم عنه إذا فسر كلامه بلسان آخر . قال الجوهرى « وقيل نقله من لغة إلى لغة أخرى » اهـ[1] .

وعلى هذا فالترجمة تنقسم إلى قسمين . ترجمة حرفية ، وترجمة معنوية أو تفسيرية .

أما الترجمة الحرفية : فهى نقل الكلام من لغة إلى لغة أخرى ، مع مراعاة الموافقة فى النظم والترتيب ، والمحافظة على جميع معانى الأصل المترجم .

---

(١) جـ ٨ ص ٢١١

وأما الترجمة التفسيرية : فهى شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون مراعاة لنظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه .

وليس من غرضنا فى هذا البحث أن نعرض لما يجوز من نوعى الترجمة بالنسبة للقرآن وما لا يجوز ، ولا لمقالات العلماء المتقدمين والمتأخرين ، ولكن غرضنا الذى نريد أن نكشف عنه ونوضحه هو : أى نوعى الترجمة داخل تحت التفسير ؟ أهو الترجمة الحرفية ؟ أم الترجمة التفسيرية ؟ أم هما معا ؟ فنقول :

الترجمة الحرفية للقرآن

الترجمة الحرفية للقرآن : إما أن تكون ترجمة بالمثل ، وإما أن تكون ترجمة بغير المثل ، أما الترجمة الحرفية بالمثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفرداته ، وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى المقيدة بكيفياتها البلاغية وأحكامها التشريعية ، وهذا أمر غير ممكن بالنسبة لكتاب الله العزيز ؛ وذلك لأن القرآن نزل لغرضين أساسيين :

أولهما : كونه آية دالة على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فيما يبلغه عن ربه، وذلك بكونه معجزاً للبشر ، لا يقدرون على الإتيان بسورة مثله ولو اجتمع الأنس والجن على ذلك .

وثانيهما : هداية الناس لما فيه صلاحهم فى دنياهم وأخراهم .

أما الغرض الأول ، وهو كونه آية على صدق النبى صلى الله عليه وسلم فلا يمكن تأديته بالترجمة اتفاقاً ؛ فإن القرآن - وإن كان الإعجاز فى جملته لعدة معان كالإخبار بالغيب ، واستيفاء تشريع لا يعتريه خلل ، وغير ذلك مما عد من وجوه إعجازه - إنما يدور الإعجاز السارى فى كل آية منه على ما فيه

من خواص بلاغية جاءت لمقتضيات معينة ، وهذه لا يمكن نقلها إلى اللغات الأخرى اتفاقاً : فإن اللغات الراقية وإن كان لها بلاغة ، ولكن لكل لغة خواصها لا يشاركها فيها غيرها من اللغات، وإذاً فلو ترجم القرآن ترجمة حرفية ـ وهذا محال ـ لضاعت خواص القرآن البلاغية ، ولنزل من مرتبته المعجزة ، إلى مرتبة تدخل تحت طوق البشر ، ولفات هذا المقصد العظيم الذى نزل القرآن من أجله على محمد صلى الله عليه وسلم .

وأما الغرض الثانى ، وهو كونه هداية للناس إلى ما فيه سعادتهم فى الدارين فذلك باستنباط الأحكام والإرشادات منه ، وهذا يرجع بعضه إلى المعانى الأصلية التى يشترك فى تفاهمها وأدائها كل الناس ، وتقوى عليها جميع اللغات ، وهذا النوع من المعانى يمكن ترجمته واستفادة الأحكام منه ، وبعض آخر من الأحكام والإرشادات يستفاد من المعانى الثانوية : ونجد هذا كثيراً فى استنباطات الأئمة المجتهدين ؛ وهذه المعانى الثانوية لازمة للقرآن الكريم وبدونها لا يكون قرآنا . والترجمة الحرفية إن أمكن فيها المحافظة على المعانى الأولية ، فغير ممكن أن يحافظ فيها على المعانى الثانوية ؛ ضرورة أنها لازمة للقرآن دون غيره من سائر اللغات .

ومما تقدم يعلم : أن الترجمة الحرفية للقرآن ، لا يمكن أن تقوم مقام الأصل فى تحصيل كل ما يقصد منه ؛ لما يترتب عليها من ضياع الغرض الأول برمته ، وفوات شطر من الغرض الثانى .

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل : فمعناها أن يترجم نظم القرآن حذوا بحذو بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته ، وهذا أمر ممكن ، وهو وإن جاز فى كلام البشر ، لايجوز بالنسبة لكتاب الله العزيز ؛ لأن فيه من فاعله إهداراً لنظم القرآن ؛ وإخلالا بمعناه ؛ وانتهاكا لحرمته ، فضلا عن كونه فعلا لا تدعو إليه ضرورة .

الترجمة الحرفية ليست تفسيراً للقرآن

اتضح لنا مما سبق معنى الترجمة الحرفية بقسميها ، وأقمنا الدليل بما يناسب المقام على عدم إمكان الترجمة الحرفية بالمثل ، وعدم جواز الترجمة الحرفية بغير المثل، وإن كانت ممكنة ، ولكن بقي بعد ذلك هذا السؤال : هل الترجمة الحرفية بقسميها ـ على فرض إمكانها فى الأول وجوازها فى الثانى ـ تسمى تفسيراً للقرآن بغير لغته ؟ أو لا تدخل تحت مادة التفسير ؟ وللجواب عن هذا نقول :

إن الترجمة الحرفية بالمثل ، تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم الأصل بلغة أخرى تحاكيه حذوا بحذو ، بحيث تحل مفردات الترجمة محل مفردات الأصل وأسلوبها محل أسلوبه ، حتى تتحمل الترجمة ما تحمله نظم الأصل من المعانى البلاغية ، والأحكام التشريعية . وتقدم لنا أيضاً أن هذه الترجمة بالنسبة للقرآن غير ممكنة ؛ وعلى فرض إمكانها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته ؛ لأنها عبارة عن هيكل القرآن بذاته، إلا أن الصورة اختلفت باختلاف اللغتين : المترجم منها والمترجم إليها . وعلى هذا فأبناء اللغة المترجم إليها يحتاجون إلى تفسيره وبيان ما فيه من أسرار وأحكام ، كما يحتاج العربى الذى نزل بلغته إلى تفسيره والكشف عن أسراره وأحكامه ؛ ضرورة أن هذه الترجمة لا شرح فيها ولا بيان ، وإنما فيها إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه ، ونقل معنى الأصل كما هو من لغة إلى لغة أخرى .

وأما الترجمة الحرفية بغير المثل ، فقد تقدم لنا أن معناها ترجمة نظم القرآن حذواً بحذو ، بقدر طاقة المترجم وما تسعه لغته وتقدم لنا أن هذا غير جائز بالنسبة للقرآن وعلى فرض جوازها فهى ليست من قبيل تفسير القرآن بغير لغته ، لأنها عبارة عن هيكل للقرآن منقوص غير تام ، وهذه الترجمة لم يترتب عليها سوى إبدال لفظ بلفظ آخر يقوم مقامه فى تأدية بعض معناه ، وليس فى ذلك شيء من الكشف والبيان ، لا شرح مدلول ، ولا بيان مجمل ، ولا تقييد مطلق ولا استنباط أحكام، ولا توجيه معان ، ولا غير ذلك من الأمور التى اشتمل عليها التفسير المتعارف.

الترجمة التفسيرية للقرآن

الترجمة التفسيرية أو المعنوية ، تقدم لنا أنها عبارة عن شرح الكلام وبيان معناه بلغة أخرى ، بدون محافظة على نظم الأصل وترتيبه ، وبدون المحافظة على جميع معانيه المرادة منه ، وذلك بأن نفهم المعنى الذى يراد من الأصل ، ثم نأتى له بتركيب من اللغة المترجم إليها يؤديه على وفق الغرض الذى سيق له .

وعلم مما تقدم مقدار الفرق بين الترجمة الحرفية والترجمة التفسيرية ، ولإيضاح هذا الفرق نقول :

لو أراد إنسان أن يترجم قوله تعالى « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط[1] » ترجمة حرفية لأتى بكلام يدل على النهى عن ربط اليد فى العنق ، وعن مدها غاية المد ، ومثل هذا التعبير فى اللغة المترجم إليها ربما كان لا يؤدى المعنى الذى قصده القرآن ، بل قد يستنكر صاحب تلك اللغة هذا الوضع الذى ينهى عنه القرآن ، ويقول فى نفسه : إنه لا يوجد عاقل يفعل بنفسه هذا الفعل الذى نهى عنه القرآن ؛ لأنه مثير للضحك على فاعله والسخرية منه ، ولا يدور بخلد صاحب هذه اللغة ، المعنى الذى أراده القرآن وقصده من وراء هذا التشبيه البليغ . أما إذا أراد أن يترجم هذه الجملة ترجمة تفسيرية ، فإنه يأتى بالنهى عن التبذير والتقتير ، مصورين بصورة شنيعة ، ينفر منها الإنسان، حسبما يناسب أسلوب تلك اللغة المترجم إليها ، ويناسب إلف من يتكلم بها . ومن هذا يتبين أن الغرض الذى أراده الله من هذه الآية ، يكون مفهوما بكل سهولة ووضوح فى الترجمة التفسيرية ، دون الترجمة الحرفية .

إذا علم هذا ، أصبح من السهل علينا وعلى كل إنسان أن يقول بجواز

---

(١) سورة الإسراء . آية ٢٩ .

ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية بدون أن يتردد أدنى تردد ، فإن ترجمة القرآن ترجمة تفسيرية ليست سوى تفسير للقرآن الكريم بلغة غير لغته التى نزل بها .

وحيث اتفقت كلمة المسلمين ، وانعقد إجماعهم على جواز تفسير القرآن لمن كان من أهل التفسير بما يدخل تحت طاقته البشرية ؛ بدون إحاطة بجميع مراد الله ؛ فإنا لا نشك فى أن الترجمة التفسيرية للقرآن داخلة تحت هذا الإجماع أيضا ؛ لأن عبارة الترجمة التفسيرية محاذية لعبارة التفسير ، لا لعبارة الأصل القرآنى ؛ فإذا كان التفسير مشتملا على بيان معنى الأصل وشرحه ، بحل ألفاظه فيما يحتاج تفهمه إلى الحل ؛ وبيان مراده كذلك ، وتفصيل معناه فيما يحتاج للتفصيل ، وتوجيه مسائله فيما يحتاج للتوجيه ، وتقرير دلائله فيما يحتاج للتقرير ، ونحو ذلك من كل ماله تعلق بتفهم القرآن وتدبره ؛ كانت الترجمة التفسيرية أيضا مشتملة على هذا كله ؛ لأنها ترجمة للتفسير لا للقرآن .

وقصارى القول : أن فى كل من التفسير وترجمته بيان ناحية أو أكثر من نواحى القرآن التى لا يحيط بها إلا من أنزله بلسان عربى مبين ؛ وليس فى واحد منهما إبدال لفظ مكان لفظ القرآن ، ولا إحلال نظم محل نظم القرآن بل نظم القرآن باق معهما ؛ دال على معانيه من جميع نواحيه .

الفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية

لو تأملنا أدنى تأمل ؛ لوجدنا أنه يمكن أن يفرق بين التفسير والترجمة التفسيرية من جهتين .

الجهة الأولى : اختلاف اللغتين . فلغة التفسير تكون بلغة الأصل ، كما هو المتعارف المشهور . بخلاف الترجمة التفسيرية فإنها تكون بلغة أخرى .

الجهة الثانية : يمكن لقارىء التفسير ومتفهمه أن يلاحظ معه نظم الأصل ودلالته فإن وجده خطأ نبه عليه وأصلحه . ولو فرض أنه لم يتنبه لما فى التفسير

من خطأ تنبه له قارىء آخر ، أما قارىء الترجمة فإنه لا يتسنى له ذلك ؛ لجهله بنظم القرآن ودلالته ، بل كل ما يفهمه ويعتقده ؛ أن هذه الترجمة التى يقرؤها ويتفهم معناها تفسير صحيح للقرآن ، وأما رجوعه إلى الأصل ومقارنته بالترجمة فليس مما يدخل تحت طوقه ما دام لم يعرف لغة القرآن .

شروط الترجمة التفسيرية

تفسير القرآن الكريم : من العلوم التى فرض على الأمة تعلمها ، والترجمة التفسيرية : تفسير للقرآن بغير لغته ، فكانت أيضاً من الأمور التى فرضت على الأمة ، بل هى آكد لما يترتب عليها من المصالح المهمة ، كتبليغ معانى القرآن وإيصال هدايته إلى المسلمين ، وغير المسلمين ممن لا يتكلمون بالعربية ولا يفهمون لغة العرب ، وأيضاً حماية العقيدة الإسلامية من كيد الملحدين ، والدفاع عن القرآن بالكشف عن أضاليل المبشرين الذين عمدوا إلى ترجمة القرآن ترجمة حشوها بعقائد زائفة وتعاليم فاسدة ؛ ليظهروا القرآن لمن لم يعرف لغته فى صورة تنفر منه وتصد عنه ، وكثيراً ما علت الأصوات بالشكوى من هذه التراجم الفاسدة ؛ لهذا نرى أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر وتراعى ، لتكون الترجمة التفسيرية ترجمة صحيحة مقبولة ، وإليك هذه الشروط .

أولا — أن تكون الترجمة على شريطة التفسير ، لا يعول عليها إلا إذا كانت مستمدة من الأحاديث النبوية ، وعلوم اللغة العربية ، والأصول المقررة فى الشريعة الإسلامية ، فلابد للمترجم من اعتماده فى استحضار معنى الأصل على تفسير عربى مستمد من ذلك ؛ أما إذا استقل برأيه فى استحضار معنى القرآن ، أو اعتمد على تفسير ليس مستمداً من تلك الأصول ، فلا تجوز ترجمته ولا يعتد بها ، كما لا يعتد بالتفسير إذا لم يكن مستمداً من تلك المناهل ، معتمداً على هذه الأصول .

ثانيا — أن يكون المترجم بعيداً عن الميل إلى عقيدة زائغة تخالف ما جاء به القرآن ، وهذا شرط فى المفسر أيضاً ، فإنه لو مال واحد منهما إلى عقيدة فاسدة لتسلطت على تفكيره ، فإذا بالمفسر وقد فسر طبقاً لهواه ، وإذا بالمترجم وقد ترجم وفقاً لميوله ، وكلاهما يبعد بذلك عن القرآن وهداه .

ثالثاً — أن يكون المترجم عالماً باللغتين : المترجم منها والمترجم إليها ، خبيراً بأسرارهما ، يعلم جهة الوضع والأساليب والدلالة لكل منهما .

رابعاً — أن يكتب القرآن أولا ، ثم يؤتى بعده بتفسيره ، ثم يتبع هذا بترجمته التفسيرية حتى لا يتوهم متوهم أن هذه الترجمة ترجمة حرفية للقرآن .

هذه هى الشروط التى يجب مراعاتها لمن يريد أن يفسر القرآن بغير لغته ، تفسيراً يسلم من كل نقد يوجه ، وعيب يلتمس[1] .

---

(١) المراجع : المدخل المنير ص ٤١ — إلى النهاية ، ومجلة نور الاسلام «الأزهر» السنة الثالثة ص ٥٧ — ٦٥ ، ومنهج الفرقان ج ٢ ص ٧١ — ٩٠

المبحث الثالث

هل تفسير القرآن من قبيل التصورات

أو من قبيل التصديقات ؟

اختلف العلماء فى علم التفسير : هل هو من قبيل التصورات أو من قبيل التصديقات ؟ فذهب بعضهم إلى أنه من قبيل التصورات . لأن المقصود منه تصور معانى ألفاظ القرآن ، وذلك كله تعاريف لفظية ، وقد صرح بهذا عبد الحكيم على المطول حيث قال: « وما قالوا من أن لكل علم مسائل فإنما هو فى العلوم الحكمية ، وأما العلوم الشرعية والأدبية فلا يتأتى فى جميعها ذلك ، فإن علم اللغة ليس إلا ذكر الألفاظ ومفهوماتها ، وكذلك التفسير والحديث » اهـ[1] .

وذهب السيد : إلى أن التفسير من قبيل التصديقات ، لأنه يتضمن الحكم على الألفاظ بأنها مفيدة لهذه المعانى ؛ وعلى هذا يكون التفسير عبارة عن مسائل جزئية، مثل قولنا : يا أيها الناس : خطاب لأهل مكة ؛ ويا أيها الذين آمنوا : خطاب لأهل المدينة ، والإسم ، معناه : الدال على المسمى ، والله ، معناه : الذات الأقدس ، والرحمن ، معناه : المحسن ، وغير ذلك ، ولا شك أن هذه قضايا جزئية[2] .

---

(١) ص ٤٩١ - ٤٩٢

(٢) انظر اللؤلؤ المنظوم فى مبادىء العلوم ص ١٦٠ — ١٦١

الباب الأول

المرحلة الأولى للتفسير

أو التفسير فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه

الفصل الأول

فهم النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة للقرآن

تمهيد :

نزل القرآن الكريم على نبى أمى ، وقوم أميين ، ليس لهم إلا ألسنتهم وقلوبهم ، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم ويتواردون عليها ، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف ، وأنواعاً من الحكم ، وطائفة من الأخبار والأنساب ، وقليلا مما يجرى هذا المجرى ، وكان كلامهم مشتملا على الحقيقة والمجاز ، والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب .

وجرياً على سنة الله تعالى فى إرسال الرسل ، نزل القرآن بلغة العرب وعلى أساليبهم فى كلامهم « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(١) ، فألفاظ القرآن عربية ، إلا ألفاظاً قليلة، اختلفت فيها أنظار العلماء ، فمن قائل : إنها عربت وأخذت من لغات أخرى ، ولكن العرب هضمتها وأجرت عليها قوانينها فصارت عربية بالاستعمال . ومن قائل إنها عربية بحتة ، غاية الأمر أنها

---

(١) سورة إبراهيم آية ٤ .

مما تواردت عليه اللغات ، وعلى كلا القولين فهذه الألفاظ لا تخرج القرآن عن كونه عربيا .

استعمل القرآن فى أسلوبه الحقيقة والمجاز والتصريح والكناية ، والإيجاز والإطناب ، على نمط العرب فى كلامهم غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربى ، بمعانيه الرائعة التى افتن بها فى غير مذاهبهم ، ونزع منها إلى غير فنونهم ، تحقيقا لإعجازه ، ولكونه من لدن حكيم عليم .

فهم النبى والصحابة للقرآن :

وكان طبيعيا أن يفهم النبى صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلا ، بعد أن تكفل الله تعالى له بالحفظ والبيان « إن علينا جمعه وقرآنه . فإذا قرأناه فاتبع قرآنه . ثم إن علينا بيانه »[1] ، كما كان طبيعياً أن يفهم أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم القرآن فى جملته ، أى بالنسبة لظاهره وأحكامه ، أما فهمه تفصيلا ، ومعرفة دقائق باطنه ، بحيث لا يغيب عنهم شاردة ولا واردة ، فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن ، بل لا بد لهم من البحث والنظر والرجوع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه ؛ وذلك لأن القرآن فيه المجمل ، والمشكل ، والمتشابه ، وغير ذلك مما لابد فى معرفته من أمور أخرى يرجع إليها .

ولا أظن الحق مع ابن خلدون حيث يقول فى مقدمته « إن القرآن نزل بلغة العرب ، وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه » اهـ[2] ، نعم لا أظن الحق معه فى ذلك ، لأن نزول القرآن بلغة العرب لا يقتضى أن العرب كلهم كانوا يفهمونه فى مفرداته وتراكيبه ،

---

(١) سورة القيامة . الآيات ١٧ ، ١٨ ، ١٩

(٢) ص ٤٨٩ .

وأقرب دليل على هذا ما نشاهده اليوم من الكتب المؤلفة على اختلاف لغاتها ، وعجز كثير من أبناء هذه اللغات عن فهم كثير مما جاء فيها بلغتهم ، إذ الفهم لا يتوقف على معرفة اللغة وحدها ، بل لا بد لمن يفتش عن المعانى ويبحث عنها من أن تكون له موهبة عقلية خاصة ، تتناسب مع درجة الكتاب وقوة تأليفه .

تفاوت الصحابة فى فهم القرآن :

ولو أننا رجعنا إلى عهد الصحابة لوجدنا أنهم لم يكونوا فى درجة واحدة بالنسبة لفهم معانى القرآن ، بل تفاوتت مراتبهم ، وأشكل على بعضهم ما ظهر لبعض آخر منهم ، وهذا يرجع إلى تفاوتهم فى القوة العقلية ، وتفاوتهم فى معرفة ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات ، وأكثر من هذا ، أنهم كانوا لا يتساوون فى معرفة المعانى التى وضعت لها المفردات ، فمن مفردات القرآن ما خفى معناه على بعض الصحابة ، ولا ضير فى هذا ، فإن اللغة لا يحيط بها إلا معصوم ، ولم يدع أحد أن كل فرد من أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها .

ومما يشهد لهذا الذى ذهبنا إليه ، ما أخرجه أبو عبيدة فى الفضائل عن أنس « أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر (وفاكهة وأباً) فقال : هذه الفاكهة قد عرفناها ، فما الأب ؟ . ثم رجع إلى نفسه فقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر »[1] . وما روى من أن عمر كان على المنبر فقرأ (أو يأخذهم على تخوف) ثم سأل عن معنى التخوف ، فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِدًا   كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ[2]

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) الموافقات ج ٢ ص ٨٧ – ٨٨ . والتامك : السنام . والقرد : الذى تجعد شعره ، فكان كأنه وقاية للسنام . والنبع : شجر للقسى والسهام . والسفن : كل ما ينحت به غيره .

وما أخرجه أبو عبيدة من طريق مجاهد عن ابن عباس قال : «كنت لا أدرى ما فاطر السموات حتى أتانى أعرابيان يتخاصمان فى بئر ، فقال أحدهما. أنا فطرتها ، والآخر يقول : أنا ابتدأتها »[١] .

فإذا كان عمر بن الخطاب يخفى عليه معنى الأب ومعنى التخوف ، ويسأل عنهما غيره ، وابن عباس — وهو ترجمان القرآن — لا يظهر له معنى فاطر إلا بعد سماعها من غيره . فكيف شأن غيرهما من الصحابة ؟ لا شك أن كثيراً منهم كانوا يكتفون بالمعنى الإجمالى للآية ، فيكفيهم — مثلا — أن يعلموا من قوله تعالى «وفاكهة وأباً» أنه تعداد للنعم التى أنعم الله بها عليهم ، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معنى الآية تفصيلا ما دام المراد واضحاً جلياً[٢] .

وماذا يقول ابن خلدون فيما رواه البخارى ، من أن عدى بن حاتم لم يفهم معنى قوله تعالى : «وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر »[٣]. وبلغ من أمره أن أخذ عقالا أبيض وعقالا أسود ، فلما كان بعض الليل ، نظر إليهما فلم يستبينا ، فلما أصبح أخبر الرسول بشأنه ، فعرض بقلة فهمه ، وأفهمه المراد[٤] .

الحق أن الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — كانوا يتفاوتون فى القدرة على فهم القرآن وبيان معانيه المرادة منه ، وذلك راجع - كما تقدم - إلى اختلافهم فى أدوات الفهم ، فقد كانوا يتفاوتون فى العلم بلغتهم ، فمنهم من كان واسع الاطلاع فيها ملماً بغريبها ، ومنهم دون ذلك ، ومنهم من كان

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١١٣ .

(٢) انظر ما كتبه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده عن قصة عمر فى سؤاله عن معنى الأب فى سورة عم من تفسيره لجزء عم ص ٢١ .

(٣) فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة .

(٤) الحديث عند البخارى فى باب التفسير ج ٨ ص ١٢٧ من فتح البارى .

يلازم النبي صلى الله عليه وسلم فيعرف من أسباب النزول مالا يعرفه غيره ، أضف إلى هذا وذاك أن الصحابة لم يكونوا فى درجتهم العلمية ومواهبهم العقلية سواء ، بل كانوا مختلفين فى ذلك اختلافاً عظيما .

قال مسروق : « جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذ - يعنى الغدير - فالإخاذ يروى الرجل ، والإخاذ يروى الرجلين ، والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم »[١] .

هذا ، وقد قال ابن قتيبة — وهو ممن تقدم على ابن خلدون بقرون — : « إن العرب لا تستوى فى المعرفة بجميع ما فى القرآن من الغريب والمتشابه ، بل إن بعضها يفضل فى ذلك على بعض »[٢] . ويظهر أن ابن خلدون قد شعر بذلك فصرح به فيما أورده بعد عبارته السابقة بقليل حيث قال : « وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبين المجمل ، ويميز الناسخ من المنسوخ ، ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولا عنه . . »[٣] . وهذا تصريح منه بأن العرب كان لا يكفيهم فى معرفة معانى القرآن معرفتهم بلغته ، بل كانوا فى كثير من الأحيان بحاجة إلى توقيف من الرسول صلى الله عليه وسلم .

---

(١) مذكرة تاريخ التشريع الاسلامى لكلية الشريعة ص ٨٤

(٢) التفسير — معالم حياته — منهجه اليوم ص ٦ ، نقلا عن المسائل والأجوبة لابن قتيبة ص ٨ .

(٣) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٩ .

مصادر التفسير فى هذا العصر

كان الصحابة فى هذا العصر يعتمدون فى تفسيرهم للقرآن الكريم على أربعة مصادر :

الأول : القرآن الكريم .

الثانى : النبي صلى الله عليه وسلم .

الثالث : الاجتهاد وقوة الاستنباط .

الرابع : أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

ونوضح كل مصدر من هذه المصادر الأربعة فنقول :

المصدر الأول

القرآن الكريم

الناظر فى القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على الإيجاز والإطناب ، وعلى الإجمال والتبيين ، وعلى الإطلاق والتقييد ، وعلى العموم والخصوص . وما أوجز فى مكان قد يبسط فى مكان آخر ، وما أجمل فى موضع قد يبين فى موضع آخر ، وما جاء مطلقاً فى ناحية قد يلحقه التقييد فى ناحية أخرى ، وما كان عاماً فى آية قد يدخله التخصيص فى آية أخرى .

لهذا كان لا بد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر فى القرآن أولا ، فيجمع ما تكرر منه فى موضوع واحد ، ويقابل الآيات بعضها ببعض ؛ ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً ، وبما جاء مبيناً على فهم ما جاء مجملا ، وليحمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن ، وفهم مراد الله بما جاء عن الله ، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها ، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى ، لأن صاحب الكلام أدرى بمعانى كلامه ، وأعرف به من غيره .

وعلى هذا فمن تفسير القرآن بالقرآن : أن يشرح ما جاء موجزاً فى القرآن بما جاء فى موضع آخر مسهبا ، وذلك كقصة آدم وأبليس ، جاءت مختصرة فى بعض المواضع ، وجاءت مسهبة مطولة فى موضع آخر ، وكقصة موسى وفرعون ، جاءت موجزة فى بعض المواضع ، وجاءت مسهبة مفصلة فى موضع آخر .

ومن تفسير القرآن بالقرآن : أن يحمل المجمل على المبين ليفسر به ، وأمثلة ذلك كثيرة فى القرآن . فمن ذلك تفسير قوله تعالى فى سورة المؤمن الآية ٢٨ «وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذى يعدكم» بأنه العذاب الأدنى المعجل فى الدنيا ؛ لقوله تعالى فى آخر هذه السورة آية (٧٧) . «فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون» . ومنه تفسير قوله تعالى فى سورة النساء آية (٢٧) «ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلاً عظيما» بأهل الكتاب لقوله تعالى فى السورة نفسها آية (٤٤) «ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل ...» ، ومنه قوله تعالى فى سورة البقرة آية (٣٧) «فتلقى آدم من ربه كلمات» فسرتها الآية (٢٣) من سورة الأعراف «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين» ومنه قوله تعالى فى سورة الأنعام آية (١٠٣) «لا تدركه الأبصار» فسرتها آية «إلى ربها ناظرة» (٢٣) من سورة القيامة . ومنه قوله تعالى فى سورة المائدة آية (١) «أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم» فسرتها آية «حرمت عليكم الميتة ...» الآية (٣) من السورة نفسها .

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل المطلق على المقيد ، والعام على الخاص ، فمن الأول : ما نقله الغزالى عن أكثر الشافعية من حمل المطلق على المقيد فى صورة اختلاف الحكمين عند اتحاد السبب ، ومثل له بآية الوضوء والتيمم ، فإن الأيدى مقيدة فى الوضوء بالغاية فى قوله تعالى فى سورة المائدة آية (٦) «فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق» ، ومطلقة فى التيمم فى قوله تعالى فى

الآية نفسها فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه ، فقيدت فى التيمم بالمرافق أيضاً[١]
ومن أمثلته أيضاً عند بعض العلماء : آية الظهار مع آية القتل ، ففى كفارة الظهار يقول الله تعالى فى سورة المجادلة آية (٣) « فتحرير رقبة » ، وفى كفارة القتل ، يقول فى سورة النساء آية (٩٢) « فتحرير رقبة مؤمنة » فيحمل المطلق فى الآية الأولى على المقيد فى الآية الثانية ، بمجرد ورود اللفظ المقيد من غير حاجة إلى جامع عند هذا البعض من العلماء[٢] .

ومن الثانى : نفى الخلة والشفاعة على جهة العموم فى قوله تعالى ، « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن تأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون[٣] » وقد استثنى الله المتقين من نفى الخلة فى قوله : « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين[٤] » ، واستثنى ما أذن فيه من الشفاعة بقوله « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى[٥] » ، ومثل قوله تعالى « من يعمل سوءاً يجز به[٦] » فإن ما فيها من عموم خصص بمثل قوله « وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير[٧] » .

ومن تفسير القرآن بالقرآن : الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف ، كخلق آدم من تراب فى بعض الآيات ، ومن طين فى غيرها ، ومن حمأ مسنون ، ومن صلصال ، فإن هـذا ذكر للأطوار التى مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه .

---

(١) مسلم الثبوت وشرحه ج ١ ص ٣٦١
(٢) جمع الجوامع وشرحه ج ٢ ص ٥٤ والمستصفى ج ٢ ص ١٨٥
(٣) سورة البقرة آية ٢٥٤
(٤) سورة الزخرف آية ٦٧
(٥) سورة النجم فى الآية ٢٦
(٦) سورة النساء آية ١٢٣
(٧) سورة الشورى آية ٣٠

ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على غيرها ، فبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ وتتفق فى المعنى ، فقراءة ابن مسعود رضى الله عنه « أو يكون لك بيت من ذهب » تفسر لفظ الزخرف فى القراءة المشهورة « أو يكون لك بيت من زخرف[١] » ، وبعض القراءات تختلف مع غيرها فى اللفظ والمعنى ، وإحدى القراءتين تعين المراد من القراءة الأخرى ، فمثلا قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله[٢] » فسرتها القراءة الأخرى « فامضوا إلى ذكر الله » ، لأن السعى عبارة عن المشى السريع ، وهو وإن كان ظاهر اللفظ إلا أن المراد منه مجرد الذهاب .

وبعض القراءات تختلف بالزيادة والنقصان ، وتكون الزيادة فى إحدى القراءتين مفسرة للمجمل فى القراءة التى لا زيادة فيها ، فمن ذلك : القراءة المنسوبة لابن عباس « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فى مواسم الحج » فسرت القراءة الأخرى التى لا زيادة فيها[٣] ، وأزالت الشك من قلوب بعض الناس الذين كانوا يتحرجون من الصفق فى أسواق الحج ، والقراءة المنسوبة لسعد بن أبى وقاص « وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس » فسرت القراءة الأخرى[٤] التى لا تعرض فيها لنوع الأخوة .

وهنا تختلف أنظار العلماء فى مثل هذه القراءات فقال بعض المتأخرين : إنها من أوجه القرآن ، وقال غيرهم : إنها ليست قرآنا ، بل هى من قبيل التفسير ، وهذا هو الصواب : لأن الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب

---

(١) سورة الإسراء آية ٩٣
(٢) سورة الجمعة آية ٩
(٣) سورة البقرة آية ١٩٨
(٤) سورة النساء آية ١٢

القرآن فظنها بعض الناس — لتطاول الزمن عليها — من أوجه القراءات التى صحت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ورواها عنه أصحابه .

ومما يؤيد أن القراءات مرجع مهم من مراجع تفسير القرآن بالقرآن ، ماروى عن مجاهد أنه قال « لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه »(١) .

هذا هو تفسير القرآن بالقرآن ، وهو ما كان يرجع إليه الصحابة فى تعرف بعض معانى القرآن ، وليس هذا عملا آليا لا يقوم على شىء من النظر ، وإنما هو عمل يقوم على كثير من التدبر والتعقل ؛ إذ ليس حمل المجمل على المبين ، أو المطلق على المقيد ، أو العام على الخاص ، أو إحدى القراءتين على الأخرى بالأمر الهين الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان ، وإنما هو أمر يعرفه أهل العلم والنظر خاصة .

ومن أجل هذا نستطيع أن نوافق الأستاذ جولد زيهر على ما قاله فى كتابه « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن » من أن « المرحلة الأولى لتفسير القرآن والنواة التى بدأ بها ، تتركز فى القرآن نفسه وفى نصوصه نفسها. وبعبارة أوضح : فى قراءاته ، ففى هذه الأشكال المختلفة ، نستطيع أن نرى أول محاولة للتفسير(٢) » ، نعم نستطيع أن نوافقه على أن المرحلة الأولى للتفسير تتركز فى القرآن نفسه على معنى رد متشابهه إلى محكمه ، وحمل مجمله على مبينه ، وعامه على خاصه ، ومطلقه على مقيده .. الخ ، كما تتركز فى بعض قراءاته المتواترة. وما كان من قراءات غير متواترة فلا يعول عليها باعتبارها قرآنا، وإن عول على بعض منها باعتبارها تفسيرا للنص القرآنى نعم نستطيع أن نوافقه على هذا إن أراده ، ولكن لا نستطيع أن نوافقه على ما يرمى إليه من إلحاد فى آيات الله، وما يهدف إليه من اتهام

---

(١) نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ج ١ ص ١٦٣

(٢) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم ج ١ ص ١

المسلمين بالتساهل فى قبول القراءات ، وذلك حيث يقول فى صفحة ١ و ٢ من الكتاب نفسه « وقد تسامح المسلمون فى هذه القراءات واعترفوا بها جميعاً على قدم المساواة بالرغم مما قد يفرض من أن الله تعالى قد أوحى بكلامه كلمة كلمة وحرفاً حرفاً وأن مثله من الكلام المحفوظ فى اللوح والذى تنزل به الملك على الرسول المختار يجب أن يكون على شكل واحد وبلفظ واحد » اه

كما لا نستطيع أن نوافقه على ما نسبه إلى الصحابة من أنهم هم الذين أحدثوا هذه القراءات جميعاً ، ونفى كونها من كلام الله ، وعلل ماذهب إليه بعلل واهية لا تقوم إلا على أوهام تخيلها فظنها حقائق ، وذلك حيث يقول فى صفحة «٦» بعد أن ساق هذه الآية « إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلا[1] » قال « قرأ بعضهم بدلا من وتعزروه بالراء وتعززوه بالزاى ، من العزة والتشريف ، وأنى أرى فى الانتقال من تلك القراءة إلى هذه القراءة ـ وإن كنت لا أجزم بذلك ـ أن شيئاً من التفكير فى تصور أن الله قد ينتظر مساعدة من الإنسان قد دعا إلى ذلك ، حقاً إنه قد جاءت فى القرآن آيات بهذا المعنى . (سورة الحج ٤٠ ومحمد ٧ والحشر ٨ وغيرها) بيد أن اللفظ المستعمل فى هذه الآيات وهو (نصر) يقوم على أساس أخلاقى تهذيبى ، وليس كالتعبير بلفظ (عزر) وهى الكلمة المتفقة مع اللفظ العبرى (عزار) ، والتعبير بعزر تعبير حاد يقوم على أساس من المساعدة المادية » اه

فهذا الكاتب دفعه إلى رأيه الذى رآه ولم يقطع به كما هى عادته ، جهله بأساليب العرب وأفانينها فى البلاغة ؛ فالعرب لا يفهمون من قوله تعالى (وتعزروه) بالراء معنى النصرة المادية ، بل أول ماتصل هذه الكلمة إلى أسماعهم يعلمون أن الله يريد منهم نصر دينه ونصر رسوله ، وكثير من مثل هذه العبارات وارد فى القرآن ؛ وما ذكره من التفرقة بين لفظ (نصر) ولفظ

---

(١) سورة الفتح الآيتان ٨ ، ٩

(عزر) من أن الأول يقوم على أساس أخلاقى تهذيبى ، والثانى يقوم على أساس من المساعدة المادية ، لايقوم على أساس من الفقه اللغوى .

ويقول الكاتب فى صفحة ١٩، ٢٠ من الكتاب نفسه : وأحب أن أهتم هنا ببعض ماذكرته من هذه القراءات ، لما فيه من طابع خاص ذى مبادىء جوهرية ، فبعض هذه الاختلافات ترجع أسبابها إلى الخوف من أن تنسب إلى الله ورسوله عبارات قد يلاحظ فيها بعض أصحاب وجوه النظر الخاصة مايمس الذات الإلهية العالية أو الرسول ، أو مما يرى أنه غير لائق بالمقام. وهنا تغيرت القراءات من هذه الناحية بسبب هذه الأفكار التنزيهية . » ثم ضرب لذلك أمثلة فقال : « فى سورة آل عمران آية ١٨ « شهد الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم ... » فقد فهم أن هناك مايصطدم بشهادة الله نفسه على قدم المساواة مع الملائكة وأولى العلم فقرأ بعضهم « شهداء الله » وبهذا يكون الكلام ملتئما مع الآية المتقدمة . « الصابرين والصادقين والقانتين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار ، شهداء الله أنه لاإله إلا هو والملائكة وأولوا العلم » اهـ .

والمتأمل أدنى تأمل يرى أن هـذا الوهم الذى ادعى حصوله من القراءة الأولى لايمكن أن يدور بخلد عاقل، ولم نر أحداً من العلماء خطر له هذا الإيهام، فشهادة الله مع الملائكة لاغبار عليها ، ولا تفيد مساواته لمن ذكروا معه .

ويقول فى صفحة ٢١ ، ٢٢ « وفى سورة العنكبوت آيتى ٢ ، ٣ (أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون . ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) فقوله تعالى (فليعلمن) قد يوحى إلى النفس أن الله قد علم ذلك أولا عند الفتنة كأنه لم يكن يعلم بذلك فى الأزل ، ويظهر أن مثل هـــذا الظن قد أدى إلى قراءة على والزهرى (فيعلمن) من الإعلام ، بمعنى فليعرفن الله الناس أخلاق هؤلاء وهؤلاء ، أو بمعنى ليسمنهم

بعلامة يعرفون بها ، من بياض الوجوه وسوادها ، وكحل العيون وزرقتها. وزرقة العيون عند العرب علامة على القبح والغدر ، وأحيانا على الجسد اه .

والرد على هذا نقول : إن الله تعالى لا يعلم الشيء موجوداً إلا بعد وجوده، فتعلق علمه بالحادث باعتبار أنه حدث حادث ، وهذا لا ينافي كونه عالما من الأزل بالشيء قبل وقوعه ، فالكاتب ظن أن العلم المترتب على الفتنة هو العلم الأزلي ، ونسي علم الانكشاف والظهور، فبنى على هذا أن من قرأ (فليعلمن) من الإعلام ، قرأ بها فراراً مما تفيده القراءة الأولى ، وهذا قول باطل ، ولا يخفى على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن فتنة الله لمن يشاء من عباده ، يراد منها أن يظهر للناس في الخارج ما اشتمل عليه علمه من الأزل ، فكيف يعقل أنهم عدلوا عن قراءة (فليعلمن) من العلم إلى قراءة (فليعلمن) من الإعلام لمجرد هذا الوهم الباطل ؟ ... اللهم إن الكاتب لا يريد إلا أن يوقع في أذهان الناس . أن القرآن كان عرضة للتبديل والتحريف من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد ساق الكاتب أمثلة كثيرة في كتابه ، كلها من هذا القبيل ولهذا الغرض بدون أن يفرق بين قراءة متواترة وقراءة شاذة، ولو أنه علم ما اشترطه المسلمون لصحة القراءة وقبولها من تواترها عن صاحب الرسالة. أو صحة السند وموافقة العربية وموافقة الرسم العثماني ، لما صار إلى هذا الرأي الباطل ، ولما نسب إلى الصحابة رضوان الله عليهم مثل هذا التحريف والتبديل في كتاب ضمن الله حفظه فقال : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

---

(١) الآية (٩) من سورة الحجر .

المصدر الثانى

النبي صلى الله عليه وسلم

المصدر الثانى الذى كان يرجع إليه الصحابة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان الواحد منهم إذا أشكلت عليه آية من كتاب الله ، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى تفسيرها ، فيبين له ماخفى عليه ، لأن وظيفته البيان ، كما أخبر الله عنه بذلك فى كتابه حيث قال « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون[١] » ، وكما نبه على ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه أبو داود بسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال: « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه . ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه . . . الحديث[٢] .

والذى يرجع إلى كتب السنة يجد أنها قد أفردت للتفسير باباً من الأبواب التى اشتملت عليها ، ذكرت فيه كثيراً من التفسير المأثور عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمن ذلك :

ما أخرجه أحمد والترمذى وغيرهما عن عدى بن حبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المغضوب عليهم هم اليهود ، وإن الضالين هم النصارى » .

وما رواه الترمذى وابن حبان فى صحيحه عن ابن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الوسطى صلاة العصر » .

وما رواه أحمد والشيخان وغيرهم عن ابن مسعود قال : « لما نزلت هذه

---

(١) سورة النحل آية ٤٤

(٢) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٣٧

الآية (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (شق ذلك على الناس فقالوا : يارسول الله وأينا لايظلم نفسه ؟ قال إنه ليس الذى تعنون ، ألم تسمعوا ماقال العبد الصالح : إن الشرك لظلم عظيم ؟ إنما هو الشرك » .

وما أخرجه مسلم وغيره عن عقبة بن عامر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وهو على المنبر (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة) ألا وإن القوة الرمى » .

وما أخرجه الترمذى عن على قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر فقال « يوم النحر » .

وما أخرجه الترمذى وابن جرير عن أبى بن كعب أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (وألزمهم كلمة التقوى) قال : « لا إله إلا الله » .

وما أخرجه أحمد والشيخان وغيرهما عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من نوقش الحساب عذب » قلت : أليس يقول الله « فسوف يحاسب حساباً يسيراً » ؟ قال : « ليس ذلك بالحساب ولكن ذلك العرض » .

وما أخرجه أحمد ومسلم عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الكوثر نهر أعطانيه ربى فى الجنة » (١) .

وغير هذا كثير مما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

الوضع على رسول الله فى التفسير :

غير أن القصاص والوضاع زادوا فى هذا النوع من التفسير كثيراً ، ونسبوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم مالم يقله ، وليس أدل على هذا مما أخرجه الحاكم عن أنس أنه قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٩١ – ٢٠٥

« والقناطير المقنطرة » قال : « القنطار ألف أوقية » ، وما أخرجه أحمد وابن ماجه عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القنطار اثنا عشر ألف أوقية »[1] .

فمثل هذا التناقض فى مقدار وزن القنطار، لا يمكن أن يصدر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا رد العلماء كثيرا مما ورد من التفسير منسوبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد نقل عن الإمام أحمد أنه قال: « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى » ومراده من قوله هذا ـ كما نقل عن المحققين من أتباعه ـ أن الغالب أنه ليس لها أسانيد صحاح متصلة[2] لا كما استظهره الأستاذ أحمد أمين حيث يقول : « وظاهر هذه الجملة أن الأحاديث التى وردت فى التفسير لا أصل لها وليست بصحيحة ، والظاهر ـ كما قال بعضهم ـ أنه يريد الأحاديث المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم فى التفسير . أما الأحاديث المنقولة عن الصحابة والتابعين فلا وجه لإنكارها ، وقد اعترف هو نفسه ببعضها اهـ[3] .

وحيث يقول « إن بعض العلماء أنكر هذا الباب بتاتاً ، أعنى أنه أنكر صحة ورود ما يروونه من هذا الباب . فقد روى عن الإمام أحمد أنه قال : « ثلاثة ليس لها أصل : التفسير ، والملاحم ، والمغازى[4] » .

نعم ، ليس الأمر كما استظهره صاحب ضحى الإسلام وفجر الإسلام؛ لأنه

---

(١) فجر الإسلام ص ٤٢٥ ؛ وقد حقق الحافظ ابن كثير عند تفسيره لهذه الآية « زين للناس حب الشهوات ... الخ » أنه لم يصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حديث فى تحديد القنطار، وما ورد من ذلك فموقوف على بعض الصحابة .

(٢) الإتقان جـ٢ ص ١٧٨

(٣) ضحى الإسلام جـ ٢ ص ١٤١

(٤) فجر الإسلام ص ٢٤٥

ممـا لا شك فيه أن النبي صلى الله عليه وسـلم صحت عنه أحاديث فى التفسير ، والإمام أحمد نفسه معترف بها . فكيف يعقل أن الإمام أحمد يريد من عبارته السابقة نفى الصحة عن جميع الأحاديث المرفوعة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى التفسير ؟ - وظنى أن الأستاذ أراد بالبعض المذكور ، المحققين من أصحاب الإمام أحمد ، غاية الأمر أنه حمل كلامهم على غير ما أرادوا فوقع فى هذا الخطأ ، والعجب أنه نقل عن الإتقان فى هامش فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ ما استظهرناه من كلام المحققين من أتباع الإمام أحمد .

واعترف فى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ ، وضحى الإسلام جزء ٢ صفحة ١٣٨ : بأنه قد صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم تفسيرات لبعض ما أشكل من القرآن ، وإن كان قد اضطرب فى كلامه فجعل ما ورد من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالغا حد الكثرة ، حيث قال فى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ « وهذا النوع كثير ، ووردت منه أبواب فى كتب الصحاح الستة ، وزاد فيه القصاص والوضاع كثيراً » ، ثم عاد فى ضحى الإسلام جزء ٢ صفحة ١٣٨ فجعل ما ورد عن الرسول من التفسير بالغاً حد القلة حيث قال « وما روى عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى ذلك قليل ، حتى روى عن عائشة أنها قالت : لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يفسر شيئاً من القرآن إلا آيات تعد ، علمهن إياه جبريل » ، وفاته أن الحديث مطعون فيه ، فذكره دليلا عن مدعاه ولم يعقب عليه ، مع أنه أحال على الطبرى فى نقل الحديث ، والطبرى وضح علته ، وتأوله على فرض الصحة كما سنوضح ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

هل تناول النبي القرآن كله بالبيان ؟

قد يقول قائل : إن الله تعالى يقول فى سورة النحل آية ٤٤ « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون » فهل بين رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه القرآن كله ، إفراداً وتركيباً ، وما يتبع ذلك من بيان الأحكام ؟ أو أنه بين لهم بعضه وسكت عن بعضه الآخر ؟ ، ثم على أى وجه

كان هـذا البيان من الرسول صلى الله عليه وسـلم لأصحابه ؟ . وللجواب عن هذا نقول :

المقدار الذى بينه رسول الله صلى الله عليه وسلم من القرآن لأصحابه :

اختلف العلماء فى المقدار الذى بينه النبى صلى الله عليه وسـلم من القرآن لأصحابه : فمنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معانى القرآن كما بين لهم ألفاظه ، وعلى رأس هؤلاء ابن تيمية[١]

ومنهم من ذهب إلى القول بأن رسول الله صلى الله عليه وسـلم لم يبين لأصحابه من معـانى القرآن إلا القليل ، وعلى رأس هـــؤلاء ، الخوبى والسيوطى[٢] ، وقد استدل كل فريق على ماذهب إليه بأدلة نوردها ليتضح لنا الحق ويظهر الصواب .

أدلة من قال بأن النبى صلى الله عليه وسلم بين كل معانى القرآن :

أولا : قوله تعالى « وأنزل إليك الذكر لتبين للناس مانزل إليهم ولعلهم يتفـكرون » . والبيان فى الآية يتناول بيان معانى القرآن ، كما يتناول بيان ألفاظه ، وقد بين الرسول ألفاظه كلها ، فلا بد أن يكون قد بين كل معانيه أيضا ، وإلا كان مقصراً فى البيان الذى كلف به من الله .

ثانياً : ماروى عن أبى عبد الرحمن السلمى[٣] أنه قال : « حدثنا الذين

---

(١) انظر مقالته فى مقدمته فى أصول التفسير ص٥

(٢) انظر مانقله السيوطى عن الخوبى فى الإتقان جـ٢ ص١٧٤ وما ارتضاه السيوطى فى الإتقان ٢ص ١٧٩

(٣) هو عبـد الله بن حبيب التابعى المقرى المتوفى سنة ٧٢ هـ وهو غـير أبى عبد الرحمن السلمى الصوفى المتوفى سنه ٤١٢هـ .

كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، قالوا فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً » ، ولهذا كانوا يبقون مدة طويلة فى حفظ السورة ، وقد ذكر الإمام مالك فى الموطأ : أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثمان سنوات ، والذى حمل الصحابة على هذا ، ما جاء فى كتاب الله تعالى من قوله « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته » وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن ، وقوله : « إنا أنزلناه قرآنا عربياً لعلكم تعقلون » وعقل الكلام متضمن لفهمه ، ومن المعلوم أن كل كلام يقصد منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه ، والقرآن أولى بذلك من غيره .

فهذه الآثار تدل على أن الصحابة تعلموا من رسول الله صلى الله عليه وسلم معانى القرآن كلها ، كما تعلموا ألفاظه .

ثالثا : قالوا إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتابا فى فن من العلم كالطب أو الحساب ولا يستشرحوه ، فكيف بكتاب الله الذى فيه عصمتهم ، وبه نجاتهم وسعادتهم فى الدنيا والآخرة ؟

رابعاً : ما أخرجه الإمام أحمد وابن ماجه عن عمر رضى الله عنه أنه قال: من آخر ما نزل آية الربا ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يفسرها ، وهذا يدل بالفحوى على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل ، وأنه إنما لم يفسر هذه الآية ، لسرعة موته بعد نزولها ، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه[1] .

---

(١) استخلصنا هذه الأدلة من مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٥ و ٦ ، ومن الإتقان حـ ٢ ص ٢٠٥ .

أدلة من قال بأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يبين لأصحابه إلا القليل من معانى القرآن:

استدل أصحاب هذا الرأى بما يأتى :

أولا : ما أخرجه البزار عن عائشة قالت : ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يفسر شيئا من القرآن إلا آياً بعدد ، علمه إياهن جبريل »[1] .

ثانيا : قالوا : إن بيان النبي صلى الله عليه وسلم لكل معانى القرآن متعذر ولا يمكن ذلك إلا فى آى قلائل ، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل ، ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد فى جميع آياته لأجل أن يتفكر عباده فى كتابه[2] .

ثالثاً : قالوا : لو كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معانى القرآن لما كان لتخصيصه ابن عباس بالدعاء له بقوله : « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » فائدة ؛ لأنه يلزم من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كل معانى القرآن استواؤهم فى معرفة تأويله، فكيف يخصص ابن عباس بهذا الدعاء ؟[3] .

مغالاة الفريقين :

ومن يتأمل فيما تقدم من أدلة الفريقين يتضح له أنهما على طرفى نقيض . ورأيى أن كل فريق منهم مبالغ فى رأيه . وما استند إليه كل فريق من الأدلة يمكن مناقشته بما يجعله لا ينهض حجة على المدعى .

مناقشة أدلة الفريق الأول :

فاستدلال ابن تيمية ومن معه على رأيهم بقوله تعالى : « لتبين للناس ما نزل إليهم » استدلال غير صحيح ، لأن الرسول — بمقتضى كونه مأموراً بالبيان —

---

(١) القرطبي ج ١ ص ٣١ ، ورواية الطبرى فى تفسيره ج ١ ص ٣١ (... إلا آياً تعد) وفى ضحى الإسلام ج ٢ ص ١٣٨ بلفظ (... إلا آيات تعد) .

(٢) انظر ما نقله السيوطى فى الإتقان عن الخوبى ج ٢ ص ١٧٤ .

(٣) انظر القرطبي ج ١ ص ٣٣

كان يبين لهم ما أشكل عليهم فهمه من القرآن ، لا كل معانيه ما أشكل منها وما لم يشكل .

وأما استدلالهم بما روى عن عثمان وابن مسعود وغيرهما من أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات من القرآن لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها ، فهو استدلال لا ينتج المدعى ، لأن غاية ما يفيده ، أنهم كانوا لا يجاوزون ما تعلموه من القرآن حتى يفهموا المراد منه ، وهو أعم من أن يفهموه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من غيره من إخوانهم الصحابة ، أو من تلقاء أنفسهم ، حسبما يفتح الله به عليهم من النظر والاجتهاد .

وأما الدليل الثالث ، فكل ما يدل عليه : هو أن الصحابة كانوا يفهمون القرآن ويعرفون معانيه ، شأن أى كتاب يقرؤه قوم ، ولكن لا يلزم منه أن يكونوا قد رجعوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فى كل لفظ منه :

وأما الدليل الرابع ، فلا يدل أيضاً ، لأن وفاة النبي عليه الصلاة والسلام قبل أن يبين لهم آية الربا لا تدل على أنه كان يبين لهم كل معانى القرآن ، فلعل هذه الآية كانت مما أشكل على الصحابة ، فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبي عليه السلام، شأن غيرها من مشكلات القرآن .

مناقشة أدلة الفريق الثانى :

وأما استدلال أصحاب الرأى الثانى بحديث عائشة ، فهو استدلال باطل ؛ لأن الحديث منكر غريب ، لأنه من رواية محمد بن جعفر الزبيرى، وهو مطعون فيه. قال البخارى : لا يتابع فى حديثه ، وقال الحافظ أبو الفتح الأزدى « منكر الحديث » وقال فيه ابن جرير الطبرى « إنه ممن لا يعرف فى أهل الآثار » ، وعلى فرض صحة الحديث فهو محمول — كما قال أبو حيان — على مغيبات القرآن ، وتفسيره لمجمله ، ونحوه مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله[1] . وفى معناه ماقاله ابن جرير[2] . وما قاله ابن عطية[3] .

---

(١) البحر المحيط جـ ١ ص ١٣ . (٢) فى تفسيره جـ ١ ص ٢٩ .

(٣) ونقله عنه القرطبي فى تفسيره جـ ١ ص ٣١ .

وأما الدليل الثانى ، فلا يدل أيضاً على ندرة ما جاء عن النبى عليه السلام فى التفسير ، إذ أن دعوى إمكان التفسير بالنسبة لآيات قلائل ، وتعذره بالنسبة للكل غير مسلمة . وأما ما قيل من أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يؤمر بالتنصيص على المراد فى جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس فى آيات القرآن فليس بشىء ، إذ أن النبى عليه الصلاة والسلام مأمور بالبيان ، وقد يشكل الكثير على أصحابه فيلزمه البيان ، ولو فرض أن القرآن أشكل كله على الصحابة ما كان للنبى عليه الصلاة والسلام أن يمتنع عن بيان كل آية منه « بمقتضى أمر الله له فى الآية « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم » .

وأما الدليل الثالث ، فلو سلمنا أنه يدل على أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل معانى القرآن، فلا نسلم أنه يدل على أنه فسر النادر منه كما هو المدعى .

اختيارنا فى المسألة :

والرأى الذى تميل إليه النفس - بعد أن اتضح لنا مغالاة كل فريق فى دعواه وعدم صلاحية الأدلة لإثبات المدعى - هو أن نتوسط بين الرأيين فنقول : إن الرسول صلى الله عليه وسلم بين الكثير من معانى القرآن ؛ لأصحابه ، كما تشهد بذلك كتب الصحاح ، ولم يبين كل معانى القرآن ؛ لأن من القرآن ما استأثر الله تعالى بعلمه ، ومنه ما يعلمه العلماء ، ومنه ما تعلمه العرب من لغاتها ، ومنه ما لا يعذر أحد فى جهالته كما صرح بذلك ابن عباس فيما رواه عنه ابن جرير ، قال : (التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها ، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته ، وتفسير تعرفه العلماء . وتفسير لا يعلمه إلا الله »[1] .

وبدهى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب ؛ لأن القرآن نزل بلغتهم ، ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذى لا يعذر أحد بجهله ؛ لأنه لا يخفى على أحد ، ولم يفسر لهم

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٥

ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة ، وحقيقة الروح ، وغير ذلك من كل ما يجرى مجرى الغيوب التي لم يطلع الله عليها نبيه ، وإنما فسر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض المغيبات التي أخفاها الله عنهم وأطلعه عليها وأمره ببيانها لهم، وفسر لهم أيضاً كثيراً مما يندرج تحت القسم الثالث ، وهو ما يعلمه العلماء ويرجع إلى اجتهادهم ، كبيان المجمل ، وتخصيص العام ، وتوضيح المشكل ، وما إلى ذلك من كل ما خفى معناه والتبس المراد به .

هذا ، وإن مما يؤيد أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يفسر كل معانى القرآن ، أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، وقع بينهم الاختلاف فى تأويل بعض الآيات ، ولو كان عندهم فيه نص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما وقع هذا الاختلاف ، أو لارتفع بعد الوقوف على النص .

بقى بعد هذا أن نجيب عن الشق الثانى من السؤال ، وهو : على أى وجه كان بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم للقرآن ؟ فنقول :

إن الناظر فى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد فيهما ما يدل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وظيفته البيان لكتاب الله ، أو بعبارة أخرى ، ما يدل على أن مركز السنة النبوية من القرآن ، مركز المبين من المبين .

فمن القرآن ، قوله تعالى : «وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم»
ومن السنة ، ما رواه أبو داود عن المقدام بن معديكرب ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ألا وإنى أوتيت الكتاب ومثله معه ، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول : عليكم بهذا القرآن ، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه ، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه ، ألا لا يحل لكم الحمار الأهلى ، ولا كل ذى ناب من السباع ، ولا لقطة معاهد ، إلا أن يستغنى عنها صاحبها ، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه ، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قراه »[1] .

---

(١) القرطبي جـ ١ ص ٣٧ – ٣٨

فقوله « أوتيت الكتاب ومثله معه » معناه أنه أوتى الكتاب وحياً يتلى ، وأوتى من البيان مثله . أى أذن له أن يبين ما فى الكتاب . فيعم ويخص، ويزيد عليه ويشرع ما فى الكتاب ، فيكون فى وجوب العمل به ولزوم قبوله كالظاهر المتلو من القرآن . ويحتمل وجهاً آخر : وهو أنه أوتى من الوحى الباطن غير المتلو ، مثل ما أعطى من الظاهر المتلو ، كما قال تعالى فى سورة النجم آيتى ٣ر٤ « وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى » ، وأما قوله : « يوشك رجل شبعان الخ » فالمقصود منه التحذير من مخالفة السنة التى سنها الرسول وليس لها ذكر فى القرآن ، كما هو مذهب الخوارج والروافض الذين تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التى ضمنت بيان الكتاب فتحيروا وضلوا[1] وروى الأوزاعى عن حسان بن عطية قال : « كان الوحى ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويحضره جبريل بالسنة التى تفسر ذلك »[2] وروى الأوزاعى عن مكحول قال : القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن »[3]

أوجه بيان السنة للكتاب :

وإذ قد اتضح لنا من الآية والحديث والآثار مقدار ارتباط السنة بالكتاب ، ارتباط المبيَّن بالمبيِّن — فلنبين بعد ذلك أوجه هذا البيان فنقول :

الوجه الأول : بيان المجمل فى القرآن ، وتوضيح المشكل ، وتخصيص العام ، وتقييد المطلق ، فمن الأول : بيانه عليه الصلاة والسلام لمواقيت الصلوات الخمس ، وعدد ركعاتها ، وكيفيتها ، وبيانه لمقادير الزكاة ، وأوقاتها ، وأنواعها ، وبيانه لمناسك الحج . ولذا قال : « خذوا عنى مناسككم » وقال : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » .

---

(١) أنظر طبى ج ١ ص ٣٧ — ٣٨

(٢ ، ٣) القرطبى ج ١ ص ٣٩

وقد روى ابن المبارك عن عمران بن حصين أنه قال لرجل « إنك رجل أحمق ، أتجد الظهر في كتاب الله أربعاً لايجهر فيها بالقراءة ؟ ثم عدد عليه الصلاة ، والزكاة ، ونحو ذلك، ثم قال: أتجد هذا في كتاب الله تعالى مفسراً ؟ إن كتاب الله تعالى أبهم هذا ، وان السنة تفسر هذا » (١)

ومن الثاني : تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى «حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر» (٢) بأنه بياض النهار وسواد الليل .

ومن الثالث : تخصيصه صلى الله عليه وسلم الظلم في قوله تعالى «الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم (٣) » بالشرك ، فإن بعض الصحابة فهم أن الظلم مراد منه العموم ، حتى قال : « وأينا لم يظلم نفسه ؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم « ليس بذلك ؛ إنما هو الشرك » .

ومن الرابع : تقييده اليد في قوله تعالى « فاقطعوا أيديهما » (٤) باليمين

الوجه الثاني : بيان معنى لفظ أو متعلقه ، كبيان المغضوب عليهم باليهود ، والضالين بالنصارى . وكبيان قوله تعالى « ولهم فيها أزواج مطهرة » (٥) بأنها مطهرة من الحيض والبزاق والنخامة ،وكبيان قوله تعالى « وادخلو الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين » فبدل الذين ظلموا قولا غير الذي قيل لهم ... (٦) » بأنهم دخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا : حبة في شعيرة .

---

(١) القرطبي جـ ١ ص ٣٩

(٢) في الآية (١٧٨) من سورة البقرة

(٣) في الآية (٨٢) من سورة الأنعام

(٤) في الآية (٣٨) من سورة المائدة

(٥) في الآية (٢٥) من سورة البقرة

(٦) في الآيتين (٥٧، ٥٩) من سوة البقرة

الوجه الثالث : بيان أحكام زائدة على ما جاء فى القرآن الكريم ، كتحريم نكاح المرأة على عمتها وخالتها ، وصدقة الفطر ، ورجم الزانى المحصن ، وميراث الجدة ، والحكم بشاهد ويمين ، وغير هذا كثير يوجد فى كتب الفروع .

الوجه الرابع : بيان النسخ : كأن يبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن آية كذا نسخت بكذا ، أو أن حكم كذا نسخ بكذا ، فقوله عليه الصلاة والسلام « لا وصية لوارث » بيان منه أن آية الوصية للوالدين والأقربين منسوخ حكمها وإن بقيت تلاوتها . وحديث « البكر بالبكر جلد مائة وتغريب عام » بيان منه أيضاً لنسخ حكم الآية (١٥) من سورة النساء « واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم ... » وغير هذا كثير .

الوجه الخامس : بيان التأكيد ، وذلك بأن تأتى السنة موافقة لما جاء به الكتاب ، ويكون القصد من ذلك تأكيد الحكم وتقويته ، وذلك كقوله عليه السلام « لا يحل مال امرىء مسلم إلا بطيب نفس منه » فإنه يوافق قوله تعالى « لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل »[١] وقوله عليه السلام « اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان فى أيديكم أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله » فإنه موافق لقوله تعالى « وعاشروهن بالمعروف[٢] » .

المصدر الثالث

من مصادر التفسير فى عصر الصحابة - الاجتهاد وقوة الاستنباط

كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، إذا لم يجدوا التفسير فى كتاب الله تعالى ، ولم يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجعوا فى ذلك إلى اجتهادهم وإعمال رأيهم ، وهذا بالنسبة لما يحتاج إلى نظر واجتهاد ،

---

(١) فى الآيه (٢٩) من سورة النساء .

(٢) فى الآية (١٩) من سورة النساء .

أما مايمكن فهمه بمجرد معرفة اللغة العربية فكانوا لايحتاجون فى فهمه إلى إعمال النظر ، ضرورة أنهم من خلص العرب،يعرفون كلام العرب ومناحيهم فى القول ، ويعرفون الألفاظ العربية ومعانيها بالوقوف على ماورد من ذلك فى الشعر الجاهلى الذى هو ديوان العرب ، كما يقول عمر رضى الله عنه .

أدوات الاجتهاد فى التفسير عند الصحابة :

وكثير من الصحابة كان يفسر بعض آى القرآن بهذا الطريق ، أعنى طريق الرأى والاجتهاد ، مستعيناً على ذلك بما يأتى :

أولا : معرفة أوضاع اللغة وأسرارها .
ثانياً : معرفة عادات العرب .
ثالثاً : معرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن .
رابعاً : قوة الفهم وسعة الإدرك .

فمعرفة أوضاع اللغة العربيةوأسرارها،تعين على فهم الآيات التى لايتوقف فهمها على غير لغة العرب .ومعرفة عادات العرب تعين على فهم كثير من الآيات التى لها صلة بعاداتهم ، فمثلا قوله تعالى « إنما النسىء زيادة فى الكفر » [1] وقوله « وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها » [2] لايمكن فهم المراد منه، إلا لمن عرف عادات العرب فى الجاهلية وقت نزول القرآن .

ومعرفة أحوال اليهود والنصارى فى جزيرة العرب وقت نزول القرآن ، تعين على فهم الآيات التى فيها الإشارة إلى أعمالهم والرد عليهم .

ومعرفة أسباب النزول ، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات ، تعين على فهم كثير من الآيات القرآنية ، ولهذا قال الواحدى « لايمكن معرفة

(١) فى الآية (٣٧) من سورة التوبة
(٢) فى الآية (١٨٩) من سورة البقرة

تفسير الآية دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها »(١) . وقال ابن دقيق العيد : « بيان سبب النزول طريق قوى فى فهم معانى القرآن »(٢) ، وقال ابن تيمية : « معرفة سبب النزول يعين على فهم الآية . فإن العلم بالسبب يورث العلم بالمسبب »(٣) .

وأما قوة الفهم وسعة الإدراك ، فهذا فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده . وكثير من آيات القرآن يدق معناه ، ويخفى المراد منه ، ولا يظهر إلا لمن أوتى حظاً من الفهم ونور البصيرة . ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر والحظ الأوفر من ذلك ، وهذا ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم له بذلك حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » .

وقد روى البخارى فى صحيحه بسنده إلى أبى جحيفة رضى الله عنه أنه قال « قلت لعلى رضى الله عنه: هل عندكم شىء من الوحى إلا ما فى كتاب الله ؟ قال : لا ، والذى فلق الحبة وبرأ النسمة ما أعلمه إلا فهما يعطيه الله رجلا فى القرآن ، وما فى هذه الصحيفة ، قلت : وما فى هذه الصحيفة ؟ قال: العقل ، وفكاك الأسير ، وألا يقتل مسلم بكافر »(٤) .

هذه هى أدوات الفهم والاستنباط التى استعان بها الصحابة على فهم كثير من آيات القرآن ، وهذا هو مبلغ أثرها فى الكشف عن غوامضه وأسراره .

تفاوت الصابة فى فهم معانى القرآن :

غير أن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، كانوا متفاوتين فى معرفتهم بهذه الأدوات ، فلم يكونوا جميعاً فى مرتبة واحدة ، السبب الذى من أجله اختلفوا فى فهم بعض معانى القرآن ، وإن كان اختلافاً يسيراً بالنسبة لاختلاف

(١ ، ٢ ، ٣) منهج الفرقان ج ١ ص ٣٦

(٤) البخارى فى باب الجهاد ج ٤ ص ٦٩

التابعين ومن يليهم . ومن أمثلة هذا الاختلاف: ماروى من أن عمر استعمل قدامة ابن مظعون على البحرين فقدم الجارود على عمر فقال: إن قدامة شرب فسكر، فقال عمر: من يشهد على ماتقول؟ قال الجارود: أبو هريرة يشهد على ما أقول، فقال عمر: ياقدامة إنى جالدك، قال: والله لو شربت كما يقولون ما كان لك أن تجلدنى، قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله يقول «ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا»[1] . فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ثم اتقوا وآمنوا، ثم اتقوا وأحسنوا، شهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدراً، وأحداً، والخندق، والمشاهد فقال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين، لأن الله يقول «يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان»[2]، قال عمر صدقت، اهـ[3] .

وماروى من أن الصحابة فرحوا حينما نزل قوله تعالى «اليوم أكملت لكم دينكم»[4] لظنهم أنها مجرد إخبار وبشرى بكمال الدين، ولكن عمر بكى وقال: مابعد الكمال إلا النقص، مستشعراً نعى النبى صلى الله عليه وسلم، وقد كان مصيباً فى ذلك، إذ لم يعش النبى صلى الله عليه وسلم بعدها إلا أحدا وثمانين يوماً كما روى»[5] .

وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر، فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال: لم يدخل هذا معنا

(١) الآية (٩٣) من سورة المائدة .
(٢) فى الآية (٩٠) من سورة المائدة .
(٣) فجر الإسلام ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .
(٤) فى الآية (٣) من سورة المائدة .
(٥) الموافقات جـ ٣ ص ٣٨٤ .

وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من أعلمكم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلني معهم فما رأيت أنه دعاني فيهم إلا ليريهم ، فقال . ماتقولون فى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح »؟ فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله و نستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ولم يقل شيئا ، فقال لى : أكذلك تقول يابن عباس ؟ فقلت : لا ، فقال . ماتقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له ، قال : إذا جاء نصر الله والفتح ، فذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ، فقال عمر : لا أعلم منها إلا ماتقول »(١) .

المصدر الرابع

من مصادر التفسير فى هذا العصر — أهل الكتاب من اليهود والنصارى

المصدر الرابع للتفسير فى عهد الصحابه هم أهل الكتاب من اليهود والنصارى .

وذلك أن القرآن الكريم يتفق مع التوراة فى بعض المسائل ، وبالأخص فى قصص الأنبياء ، وما يتعلق بالأمم الغابرة ، وكذلك يشتمل القرآن على مواضع وردت فى الإنجيل كقصة ميلاد عيسى ابن مريم ، ومعجزاته عليه السلام .

غير أن القرآن الكريم اتخذ منهجاً يخالف منهج التوراة والإنجيل ، فلم يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل ، ولم يستوف القصة من جميع نواحيها ، بل اقتصر من ذلك على موضع العبرة فقط .

ولما كانت العقول دائما تميل إلى الاستيفاء والاستقصاء ، جعل بعض الصحابة - رضى الله عنهم أجمين - يرجعون فى استيفاء هذه القصص التى لم يتعرض لها القرآن من جميع نواحيها إلى من دخل فى دينهم من أهل الكتاب ، كعبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، وغيرهم من علماء اليهود والنصارى .

---

(١) البخارى فى باب التفسير ج ٨ ص ٥١٩ من فتح البارى .

وهذا بالضرورة كان بالنسبة إلى ماليس عندهم فيه شيء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنه لو ثبت شيء فى ذلك عن رسول الله ما كانوا يعدلون عنه إلى غيره مهما كان المأخوذ عنه .

أهمية هذا المصدر بالنسبة للمصادر السابقة :

غير أن رجوع بعض الصحابة إلى أهل الكتاب ، لم يكن له من الأهمية فى التفسير ما للمصادر الثلاثة السابقة، وإنما كان مصدراً ضيقاً محدوداً ، وذلك أن التوراة والإنجيل وقع فيهما كثير من التحريف والتبديل . وكان طبيعياً أن يحافظ الصحابة على عقيدتهم ، ويصونوا القرآن عن أن يخضع فى فهم معانيه لشيء مما جاء ذكره فى هذه الكتب التى لعبت فيها أيدى المحرفين ، فكانوا لا يأخذون عن أهل الكتاب إلا ما يتفق وعقيدتهم ولا يتعارض مع القرآن . أما ما اتضح لهم كذبه مما يعارض القرآن ويتنافى مع العقيدة فكانوا يرفضونه ولا يصدقونه ، ووراء هذا وذاك ماهو مسكوت عنه ، لا هو من قبيل الأول ، ولا هو من قبيل الثانى ، وهذا النوع كانوا يسمعونه من أهل الكتاب ويتوقفون فيه ، فلا يحكمون عليه بصدق ولا بكذب ، امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم: « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . . . الآية » .

وسنوفق بمشيئة الله تعالى بين هذا الحديث وحديث « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج . . . » ، ونذكر مدى تأثير اليهودية والنصرانية على التفسير فى أدواره المختلفه من من لدن عصر الصحابة إلى عصر التدوين ، وذلك عند الكلام عن التفسير المأثور إن شاء الله تعالى .

الفصل الثانى

المفسرون من الصحابة

اشتهر بالتفسير من الصحابة عدد قليل ، قالوا فى القرآن بما سمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم مباشرة أو بالواسطة ، وبما شاهدوه من أسباب النزول ، وبما فتح الله به عليهم من طريق الرأى والاجتهاد .

أشهر المفسرين من الصحابة :

وقد عد السيوطى رحمه الله فى الإتقان من اشتهر بالتفسير من الصحابة وسماهم ، وهم : الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وأبى بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، رضى الله عنهم أجمعين .

وهناك من تكلم فى التفسير من الصحابة غير هؤلاء : كأنس بن مالك ، وأبى هريرة ، وعبد الله بن عمر ، وجابر بن عبدالله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص ، وعائشة ، غير أن ما نقل عنهم فى التفسير قليل جدا ، ولم يكن لهم من الشهرة بالقول فى القرآن ما كان للعشرة المذكورين أولا ، كما أن العشرة الذين اشتهروا بالتفسير ، تفاوتوا قلة وكثرة ، فأبو بكر وعمر وعثمان لم يرد عنهم فى التفسير إلا النزر اليسير ، ويرجع السبب فى ذلك إلى تقدم وفاتهم ، واشتغالهم بمهام الخلافة والفتوحات ، أضف إلى ذلك وجودهم فى وسط أغلب أهله علماء بكتاب الله ، واقفون على أسراره ، عارفون بمعانيه وأحكامه ، مكتملة فيهم خصائص العروبة ، مما جعل الحاجة إلى الرجوع إليهم فى التفسير غير كبيرة .

أما على بن أبى طالب رضى الله عنه ، فهو أكثر الخلفاء الراشدين رواية

عنه فى التفسير ، والسبب فى ذلك راجع إلى تفرغه عن مهام الخلافة مدة طويلة ، دامت إلى نهاية خلافة عثمان رضى الله عنه ، وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفى عنهم من معانى القرآن ، وذلك ناشئ من اتساع رقعة الإسلام ، ودخول كثير من الأعاجم فى دين الله ، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية .

وكذلك كثرت الرواية فى التفسير عن عبد الله بن عباس ، وعبد الله ابن مسعود ، وأبى بن كعب ، لحاجة الناس إليهم ، ولصفات عامة مكنت لهم ولعلى بن أبى طالب أيضاً فى التفسير ، هذه الصفات هى : قوتهم فى اللغة العربية ، وإحاطتهم بمناحيها وأساليبها ، وعدم تحرجهم من الاجتهاد وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم ، ومخالطتهم للنبى صلى الله عليه وسلم مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التى نزلت فيها آيات القرآن ، نستثنى من ذلك ابن عباس ، فإنه لم يلازم النبى عليه الصلاة والسلام فى شبابه . لوفاة النبى عليه الصلاة والسلام وهو فى سن الثالثة عشرة أو قريب منها ، لكنه استعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة ، يأخذ عنهم ويروى لهم .

أما باقى العشرة وهم : زيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعرى ، وعبد الله ابن الزبير ، فهم وإن اشتهروا بالتفسير إلا أنهم قلت عنهم الرواية ولم يصلوا فى التفسير إلى ما وصل إليه هؤلاء الأربعة المكثرون .

لهذا نرى الإمساك عن الكلام فى شأن أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وزيد ابن ثابت ، وأبى موسى الأشعرى ، وعبد الله بن الزبير ، ونتكلم عن على ، وابن عباس ، وابن مسعود ، وأبى بن كعب ، نظراً لكثرة الرواية عنهم فى التفسير ، كثرة غذت مدارس الأمصار على اختلافها وكثرتها .

ولو أنا رتبنا هؤلاء الأربعة حسب كثرة ما روى عنهم لكان أولهم عبد الله بن عباس ، ثم عبد الله بن مسعود ، ثم على بن أبى طالب ، ثم أبى بن كعب .

وسنتكلم عن كل واحد من هؤلاء الأربعة ، بما يتناسب مع مشربه فى التفسير ومنحاه الذى نحاه فيه .

١ — عبد الله بن عباس

ترجمته : هو عبد الله بن عباس بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشى الهاشمى ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأمه لبابة الكبرى بنت الحارث بن حزن الهلالية . ولد والنبى عليه الصلاة والسلام وأهل بيته بالشعب بمكة. فأتى به النبى عليه الصلاة والسلام فحنكه بريقه، وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، ولازم النبى عليه الصلاة والسلام فى صغره ؛ لقرابته منه ، ولأن خالته ميمونة كانت من أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتوفى رسول الله صلى الله عليه وسلم وله من العمر ثلاث عشرة سنة ، وقيل خمس عشرة ، فلازم كبار الصحابة وأخذ عنهم ما فاته من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت وفاته سنة ثمان وستين على الأرجح ، وله من العمر سبعون سنة . مات بالطائف ودفن بها ، وتولى وضعه فى قبره محمد ابن الحنفية، وقال بعد أن سوى عليه التراب : مات والله اليوم حبر هذه الأمة ...

مبلغه من العلم: كان ابن عباس يلقب بالحبر والبحر لكثرة علمه، وكان على درجة عظمية من الاجتهاد والمعرفة بمعانى كتاب الله ، ولذا انتهت إليه الرياسة فى فى الفتوى والتفسير ، وكان عمر رضى الله عنه يجلسه فى مجلسه مع كبار الصحابة ويدنيه منه ، وكان يقول له : إنك لأصبح فتياننا وجها ، وأحسنهم خلقا ، وأفقههم فى كتاب الله . وقال فى شأنه : ذاكم فتى الكهول ؛ إن له لسانا سئولا ، وقلبا عقولا . وكان لفرط أدبه إذا سأله عمر مع الصحابة عن شىء يقول : لا أتكلم حتى يتكلموا . وكان عمر رضى الله عنه يعتد برأى ابن عباس مع حداثة سنه ؛ يدلنا على ذلك ما رواه ابن الأثير فى كتابه أسد الغابة عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال: «إن عمر كان إذا جاءته الأقضية المعضلة قال

لابن عباس : إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل ، فأنت لها ولأمثالها ، فكان يأخذ بقوله ، وما كان يدعو لذلك أحداً سواه » قال عبيد الله : وعمر هو عمر فى حذقه واجتهاده لله وللمسلمين ، وما رواه البخارى من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه وقال : لم يدخل هذا معنا وإن لنا أبناء مثله ؟ فقال عمر إنه من أعلمكم ، فدعاهم ذات يوم فأدخلنى معهم، فما رأيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم، فقال : ماتقولون فى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح ... » ؟ فقال بعضهم أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم ولم يقل شيئاً ، فقال لى: أكذلك تقول يابن عباس؟ فقلت: لا، فقال: ماتقول ؟ قلت: هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه الله له، قال : إذا جاء نصر الله والفتح فذلك علامة أجلك، فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً ، فقال عمر : لا أعلم منها إلا ماتقول » اه. وهذا يدل على قوة فهمه وجودة فكره . وقال فيه ابن مسعود رضى الله عنه: « نعم ترجمان القرآن ابن عباس». وقال فيه عطاء « مارأيت أكرم من مجلس ابن عباس ، أصحاب الفقه عنده ، وأصحاب القرآن عنده، وأصحاب الشعر عنده ، يصدرهم كلهم من واد واسع» . وقال عبيد الله بن عبد الله بن عتبة « كان ابن عباس قد فات الناس بخصال: بعلم ماسبقه وفقه فيما احتيج إليه من رأيه، وحلم ونسب ، وتأويل ، ومارأيت أحداً كان أعلم بما سبقه من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم منه، ولا بقضاء أبى بكر وعمر وعثمان منه، ولا أفقه فى رأى منه ولا أثقب رأياً فيما احتيج إليه منه ، ولقد كان يجلس يوما ولا يذكر فيه إلا الفقه، ويوما التأويل ، ويوما المغازى ، ويوما الشعر ، ويوما أيام العرب ، ولا رأيت عالما قط جلس إليه إلا خضع له ، ومارأيت سائلا قط سأله إلا وجد عنده علما » . وقيل لطاوس لزمت هذا الغلام — يعنى ابن عباس ـ وتركت الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال : إنى رأيت سبعين رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا تدارءوا فى أمر صاروا إلى قول ابن عباس » . وروى الأعمش عن أبى وائل قال : « استخلف على عبد الله

ابن عباس على الموسم فقرأ فى خطبته سورة البقرة — وفى رواية سورة النور — ففسرها تفسيراً لو سمعته الروم والترك والديلم لأسلموا . وكان على بن أبى طالب يثنى على تفسير ابن عباس ويقول : « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق » .

وبالجملة، فقد كانت حياة ابن عباس حياة علمية، يتعلم ويعلم، ولم يشتغل بالإمارة إلا قليلا لما استعمله على على البصرة، والحق: أن ابن عباس قد ظهر فيه النبوغ العربى بأكمل معانيه . علما ، وفصاحة ، وسعة اطلاع فى نواح علمية مختلفة ، لاسيما فهمه لكتاب الله تعالى . وخير ما يقال فيه ما قاله ابن عمر رضى الله عنه: « ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد »[1] .

أسباب نبوغه : ونستطيع أن نرجع هذه الشهرة العلمية ، وهذا النبوغ الواسع الفياض ، إلى أسباب نجملها فيما يلى :

أولا : دعاء النبى صلى الله عليه وسلم له بقوله : اللهم علمه الكتاب والحكمة ، وفى رواية أخرى « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » ، والذى يرجع إلى كتب التفسير بالمأثور ، يرى أثر هذه الدعوة النبوية ، يتجلى واضحا فيما صح عن ابن عباس رضى الله عنه .

ثانياً : نشأته فى بيت النبوة ، وملازمته لرسول الله صلى الله عليه وسلم من عهد التمييز ، فكان يسمع منه الشىء الكثير ، ويشهد كثيراً من الحوادث والظروف التى نزلت فيها بعض آيات القرآن .

ثالثاً : ملازمته لأكابر الصحابة بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، يأخذ عنهم ويروى لهم ، ويعرف منهم مواطن نزول القرآن ، وتواريخ التشريع وأسباب النزول ، وبهذا استعاض عما فاته من العلم بموت رسول الله صلى الله

---

(١) انظر أسد الغابة جـ ص ١٩٢ — ١٩٥

عليه وسلم ، وتحدث بهذا ابن عباس عن نفسه فقال « وجدت عامة حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأنصار ، فإن كنت لآتى الرجل فأجده نائما ، لوشئت أن يوقظ لى لأوقظ ؛ فأجلس على بابه تسفى على وجهى الريح حتى يستيقظ متى ما استيقظ ، وأسأله عما أريد ، ثم أنصرف » .

رابعاً : حفظه للغة العربية ، ومعرفته لغريبها ، وآدابها ، وخصائصها ، وأساليبها ؛ وكثيراً ما كان يستشهد للمعنى الذى يفهمه من لفظ القرآن بالبيت والأكثر من الشعر العربى .

خامساً : بلوغه مرتبة الاجتهاد، وعدم تحرجه منه، وشجاعته فى بيان مايعتقد أنه الحق ، دون أن يأبه لملامة لائم ونقد ناقد ، مادام يثق بأن الحق فى جانبه ، وكثيراً ماانتقد عليه ابن عمر جرأته على تفسير القرآن ، ولكن لم ترق إليه همة نقده ، بل مالبث أن رجع إلى قوله ، واعترف بمبلغ علمه ، فقد روى أن رجلا أتى ابن عمر يسأله عن معنى قوله تعالى «أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما» [1] فقال: اذهب إلى ابن عباس ثم تعال أخبرنى، فذهب فسأله فقال : كانت السموات رتقا لا تمطر ، وكانت الأرض رتقا لا تنبت، ففتق هذه بالمطر ، وهذه بالنبات ، فرجع الرجل الى ابن عمر فأخبره فقال : قد كنت أقول : مايعجبنى جرأة ابن عباس على تفسير القرآن . فالآن قد علمت أنه أوتى علما .

هذه هى أهم الأسباب التى ترجع إليها شهرة ابن عباس فى التفسير ، يضاف إلى ذلك كونه من أهل بيت النبوة ، منبع الهداية ، ومصدر النور ، وماوهبه الله من قريحة وقادة ، وعقل راجح ، ورأى صائب ، وإيمـــان راسخ ، ودين متين .

---

(١) فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء

قيمة ابن عباس فى تفسير القرآن :

تتبين قيمة ابن عباس فى التفسير ، من قول تلميذه مجاهد « إنه إذا فسر الشىء رأيت عليه النور » ، ومن قول على رضى الله عنه يثنى عليه فى تفسيره « كأنما ينظر إلى الغيب من ستر رقيق » ، ومن قول ابن عمر « ابن عباس أعلم أمة محمد بما نزل على محمد » ، ومن رجوع بعض الصحابة وكثير من التابعين إليه فى فهم ما أشكل عليهم من كتاب الله ، فكثيراً ما توجه إليه معاصروه ليزيل شكوكهم ، ويكشف لهم عما عز عليهم فهمه من كتاب الله تعالى . فى قصة موسى مع شعيب أشكل على بعض أهل العلم ، أى الأجلين قضى موسى ؟ هل كان ثمان سنين ؟ أو أنه أتم عشراً ؟ ولما لم يقف على رأى يمم شطر ابن عباس ، الذى هو بحق ترجمان القرآن ، ليسأله عما أشكل عليه ، وفى هذا يروى الطبرى فى تفسيره ، عن سعيد بن جبير قال : « قال يهودى بالكوفة - وأنا أتجهز للحج - إنى أراك رجلا تتتبع العلم ، فأخبرنى أى الأجلين قضى موسى ؟ قلت : لا أعلم ، وأنا الآن قادم على حبر العرب - يعنى ابن عباس - فسائله عن ذلك ، فلما قدمت مكة سألت ابن عباس عن ذلك وأخبرته بقول اليهودى ، فقال ابن عباس قضى أكثرهما وأطيبهما ؛ إن النبى إذا وعد لم يخلف ، وقال سعيد : فقدمت العراق فلقيت اليهودى فأخبرته فقال : صدق وما أنزل على موسى ، هذا والله العالم اهـ[1]

وهذا عمر رضى الله عنه يسأل الصحابة عن معنى آية من كتاب الله ، فلما لم يجد عندهم جوابا مرضياً رجع إلى ابن عباس فسأله عنها ، وكان يثق بتفسيره ، وفى هذا يروى الطبرى « أن عمر سأل الناس عن هذه الآية ، يعنى (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب . . . الآية[2] » فما وجد أحدا

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٠ ص ٤٣

(٢) الآية ٢٦٦ من سورة البقرة

يشفيه ، حتى قال ابن عباس وهو خلفه : ياأمير المؤمنين إنى أجد فى نفسى منها شيئا ، فتلفت إليه فقال تحول ههنا ، لم تحقر نفسك ؟ قال : هذا مثل ضربه الله عز وجل فقال: أيود أحدكم أن يعمل عمره بعمل أهل الخير وأهل السعادة، حتى إذا كان أحوج مايكون إلى أن يختمه بخير حين فنى عمره واقترب أجله ، ختم ذلك بعمل من عمل أهل الشقاء فأفسده كله ، فحرقه أحوج ما كان إليه » اهـ(١)

وسؤال عمر له مع الصحابة عن تفسير قوله تعالى «إذا جاء نصر الله والفتح» وجوابه بالجواب المشهور عنه ، يدل على أن ابن عباس كان يستخرج خفى المعانى التى يشير إليها القرآن ، ولا يدركها إلا من نفحه الله بنفحة من روحه ، وكثيراً ما ظهر ابن عباس فى المسائل المعقدة فى التفسير بمظهر الرجل الملهم الذى ينظر إلى الغيب من ستر رقيق ، كما وصفه على رضى الله عنه ، الأمر الذى جعل الصحابة يقدرون ابن عباس ويثقون بتفسيره ، ولقد وجد هذا التقدير صداه فى عصر التابعين ، فكانت هناك مدرسة يتلقى تلاميذها التفسير عن ابن عباس . استقرت هذه المدرسة بمكة ، ثم غذت بعلمها الأمصار المختلفة ، وما زال تفسير ابن عباس يلقى من المسلمين إعجابا وتقديراً ، إلى درجة أنه إذا صح النقل عن ابن عباس لا يكادون يعدلون عن قوله إلى قول آخر . وقد صرح الزركشى بأن قول ابن عباس مقدم على قول غيره من الصحابة عند تعارض ماجاء عنهم فى التفسير .(٢)

رجوع ابن عباس إلى أهل الكتاب :

كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير ، يرجعون فى فهم معانى القرآن إلى ماسمعوه من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى ما يفتح الله به عليهم من طريق النظر والاجتهاد ، مع الاستعانة فى بمعرفة أسباب

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٣ ص ٤٧
(٢) الاتقان ج ٢ ص ١٨٣

النزول والظروف والملابسات التى نزل فيها القرآن . وكان رضى الله عنه يرجع إلى أهل الكتاب ويأخذ عنهم ، بحكم اتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى كثير من المواضع التى أجملت فى القرآن وفصلت فى التوراة أو الإنجيل ، ولكن كما قلنا فيما سبق إن الرجوع إلى أهل الكتاب كان فى دائرة محدودة ضيقة ، تتفق مع القرآن وتشهد له ، أما ماعدا ذلك مما يتنافى مع القرآن ، ولا يتفق مع الشريعة الإسلامية ، فكان ابن عباس لايقبله ولا يأخذ به .

اتهام الأستاذ جولد زيهر والأستاذ أحمد أمين لابن عباس وغيره من الصحابة بالتوسع فى الأخذ عن أهل الكتاب :

وإنا لنجد فى كتاب (المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن) مبلغ اتهام مؤلفه (جولد زيهر) لابن عباس بتوسعه فى الأخذ عن أهل الكتاب ، مخالفا ماورد من النهى عن ذلك فى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم» ونرى أن نذكر عبارة المؤلف بنصها ، ليتضح مبلغ اتهامه لابن عباس ، ثم نرد عليه بعد ذلك . قال : وكثيراً ما يذكر أنه فيما يتعلق بتفسير القرآن ، كان - أى ابن عباس - يرجع إلى رجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى ، الذى أثنى الناس عليه بأنه كان يقرأ الكتب ، وعن ميمونة ابنته أنها قالت : كان أبى يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام ، ويختم التوراة فى ستة ، يقرؤها نظرا ، فإذا كان يوم ختمها ، حشد لذلك ناس، وكان يقول : كان يقال تنزل عند ختمها الرحمة، وهذا الخبر المبالغ فيه من ابنته يمكن أن يبين لنا مكان الأب فى الاستفادة من التوراة .

ومن بين المراجع العلمية المفضلة عند ابن عباس ، نجد أيضاً كعب الأحبار اليهودى ، وعبد الله بن سلام ، وأهل الكتاب على العموم ، ممن حذر الناس منهم ، كما أن ابن عباس نفسه فى أقواله حذر من الرجوع إليهم ، ولقد كان إسلام هؤلاء عند الناس فوق التهمة والكذب ، ورفعوا إلى درجة أهل العلم الموثوق بهم ... ولم تكن التعاليم الكثيرة التى أمكن أن يستقيها ابن عباس ،

والتى اعتبرها من تلك الأمور التى يرجع فيها إلى أهل هذا الدين الآخر ، مقصورة على المسائل الإنجيلية والإسرائيلية ، فقد كان يسأل كعبا عن التفسير الصحيح لأم القرآن وللمرجان مثلا ، وقد رأى الناس فى هؤلاء اليهود أن عندهم أحسن الفهم - على العموم - فى القرآن وفى كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وما فيهما من المعانى الدينية ، ورجعوا إليهم سائلين عن هذه المسائل بالرغم من التحذير الشديد - من كل جهة - من سؤالهم » اه [1]

هذه هى عبارة الأستاذ جولد زيهر فى كتابه ، ومنها يتضح لنا مبلغ تجنيه على الصحابة وعلى ابن عباس على الأخص .

وقد تابعه الأستاذ أحمد أمين على هذا الرأى ، حيث يقول فى فجر الإسلام (وقد دخل بعض هؤلاء اليهود فى الإسلام ، فتسرب منهم إلى المسلمين كثير من هذه الأخبار ، ودخلت فى تفسير القرآن يستكملون بها الشرح ، ولم يتحرج حتى كبار الصحابة مثل ابن عباس عن أخذ قولهم . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم » ، ولكن العمل كان على غير ذلك ، وأنهم كانوا يصدقونهم وينقلون عنهم) اه [2] .

فالأستاذ جولد زيهر ، والأستاذ أحمد أمين ، يريان أن الصحابة - وبخاصة ابن عباس - لم يأبهوا لنهى الرسول صلى الله عليه وسلم ، فصدقوا أهل الكتاب وأخذوا عنهم الكثير فى التفسير ، وأن اللون اليهودى قد صبغ مدارس التفسير القديمة ، وبالأخص مدرسة ابن عباس ، بسبب اتصالهم بمن دخل فى الإسلام من أهل الكتاب .

رد هذا الاتهام :

والحق أن هذا غلو فى الرأى ، وبعد عن الصواب ، فابن عباس - كما قلت

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ - ٦٧ .

(٢) فجر الاسلام ص ٢٤٨

آنفا ـ وغيره من الصحابة ، كانوا يسألون علماء اليهود الذين اعتنقوا الإسلام ، ولكن لم يكن سؤالهم عن شيء يمس العقيدة. أو يتصل بأصول الدين أو فروعه، وإنما كانوا يسألون أهل الكتاب عن بعض القصص والأخبار الماضية ، ولم يكونوا يقبلون كل ما يروى لهم على أنه صواب لا يتطرق إليه شك ، بل كانوا يحكمون دينهم وعقلهم ، فما اتفق مع الدين والعقل صدقوه ، وما خالف ذلك نبذوه ، وما سكت عنه القرآن واحتمل الصدق والكذب توقفوا فيه . وبهذا المسلك يكون الصحابة ـ رضوان الله عليهم ـ قد جمعوا بين قوله عليه الصلاة والسلام « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ، وقوله « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » ، فإن الأول محمول على ما وقع فيهم من الحوادث والأخبار ، لما فيها من العظة والاعتبار ، بدليل قوله بعد ذلك (فإن فيهم أعاجيب) . والثانى محمول على ما إذا كان المخبر به من قبلهم محتملا ، ولم يقم دليل على صدقه ولا على كذبه ، لأنه ربما كان صدقا فى نفس الأمر فيكون فى التكذيب به حرج ، وربما كان كذبا فى نفس الأمر فيكون فى التصديق به حرج ، ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه ، كما أفاده ابن حجر ونبه عليه الشافعى رضى الله عنه [1] ـ وسيأتى مزيد للكلام عن هذين الحديثين عند الكلام عن الإسرائيليات فى التفسير .

ثم كيف يستبيح ابن عباس رضى الله عنه لنفسه أن يحدث عن بنى إسرائيل بمثل هذا التوسع الذى يجعله مخالفاً لأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد كان ابن عباس نفسه من أشد الناس نكيراً على ذلك، فقد روى البخارى فى صحيحه عنه أنه قال : « يامعشر المسلمين : تسألون أهل الكتاب وكتابكم الذى أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم أحدث الأخبار بالله ، تقرءونه لم يشب، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا ما كتب الله . وغيروا بأيديهم الكتاب فقالوا « هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا » [2] أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم،

---

(١) فتح البارى ج ٨ ص ١٢٠ (٢) فى الآية (٧٩) من سورة البقرة

ولا والله ما رأينا رجلا منهم قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم) اهـ[1] .

رجوع ابن عباس إلى الشعر القديم :

كان ابن عباس رضى الله عنه يرجع فى فهم معانى الألفاظ الغريبة التى وردت فى القرآن إلى الشعر الجاهلى ، وكان غيره من الصحابة يسلك هذا الطريق فى فهم غريب القرآن ، ويحض على الرجوع إلى الشعر العربى القديم ؛ ليستعان به على فهم معانى الألفاظ القرآنية الغريبة ، فهذا عمر بن الخطاب رضى الله عنه يسأل أصحابه عن معنى قوله تعالى فى الآية (٤٧) من سورة النحل « أو يأخذهم على تخوف » فيقوم له شيخ من هذيل فيقول له : هذه لغتنا ، التخوف : التنقص ، فيقول له عمر : هل تعرف العرب ذلك فى أشعارها ؟ فيقول له : نعم ، ويروى قول الشاعر :

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ منها تامِكاً قَرِدًا   كما تَخَوَّفَ عُودَ النبعةِ السَّفِنُ

فيقول عمر رضى الله عنه لأصحابه : عليكم بديوانكم لا تضلوا ، قالوا : وما ديواننا ؟ قال : شعر الجاهلية ، فإن فيه تفسير كتابكم ، ومعانى كلامكم »[2] .

غير أن ابن عباس ، امتاز بهذه الناحية واشتهر بها أكثر من غيره ، فكثيرا ما كان يسأل عن القرآن فينشد فيه الشعر ، وقد روى عنه الشىء الكثير من ذلك ، وأوعب ما روى عنه مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها ، وقد بلغت مائتى مسألة ، أخرج بعضها ابن الأنبارى فى كتاب الوقف والابتداء ،

---

(١) البخارى فى كتاب الشهادات جـ ٥ ص ١٨٥ من فتح البارى .

(٢) القصة فى الموافقات جـ ٢ ص ٨٨ وليس فيها ما يعارض ما جاء عن عمر من أنه لما سأل عن الأب رجع إلى نفسه وقال : إن هذا لهو التكلف يا عمر ؛ لأن الآية التى معنا يتوقف فهم معناها على معرفة معنى التخوف ؛ بخلاف الآية الأخرى ، فإن المعنى الذى يراد منها لا يتوقف على معرفة معنى الأب .

وأخرج الطبرانى بعضها الآخر فى معجمه الكبير ، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان بسنده مبدأ هذا الحوار الذى كان بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها ، فقال : « بينا عبد الله ابن عباس جالس بفناء الكعبة قد أكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن ، فقال نافع بن الأزرق لنجدة بن عويمر : بنا إلى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لاعلم له به ، فقاما إليه فقالا : إنا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا ، وتأتينا بمصادقه من كلام العرب ؛ فإن الله تعالى إنما أنزل القرآن بلسان عربى مبين ، فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما ، فقال نافع: أخبرنى عن قول الله تعالى « عن اليمين وعن الشمال عزين (١) قال : العزون : حلق الرفاق ، قال : هل تعرف العرب ذلك ؟ . قال : نعم ، أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يهرعون إليه حتى   يكونوا حول منبره عزينا ؟

قال أخبرنى عن قوله « وابتغوا إليه الوسيلة »(٢). قال : الوسيلة : الحاجة ، قال وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال: نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول:

إن الرجال لهم إليك وسيلة   إن يأخذوك تكحلى وتخضبى

إلى آخر المسائل وأجوبتها (٣) ، وهى تدل على قوة ابن عباس فى معرفته بلغة العرب ، وإلمامه بغريبها ، إلى حد لم يصل إليه غيره ، مما جعله - بحق - إمام التفسير فى عهد الصحابة ، ومرجع المفسرين فى الأعصر التالية للعصر الذى وجد فيه ، وزعيم هذه الناحية من التفسير على الخصوص ، حتى لقد قيل فى شأنه « إنه هو الذى أبدع الطريقة اللغوية لتفسير القرآن (٤) ».

---

(١) فى الآية (٣٧) من سورة المعارج .
(٢) فى الآية (٣٥) من سورة المائدة .
(٣) وهى فى الاتقان ج ١ ص ١٢٠ .
(٤) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ٦٩ .

هذا وقد بين لنا ابن عباس رضى الله عنه ، مبلغ الحاجة إلى هذه الناحية فى التفسير ، وحض عليها من أراد أن يتعرف غريب القرآن ، فقد روى أبو بكر بن الأنبارى عنه أنه قال : « الشعر ديوان العرب ، فإذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه [١] » .

وروى ابن الأنبارى عنه أيضا أنه قال : « إذا سألتمونى عن غريب القرآن فالتمسوه فى الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب [٢] » .

فابن عباس رضى الله عنه كان يرى رأى عمر فى ضرورة الرجوع إلى الشعر الجاهلى ، للاستعانة به على فهم غريب القرآن ، بل وكان أكثر الصحابة إلماما بهذه الناحية وتطبيقا لها .

وقد استمرت هذه الطريقة إلى عهد التابعين ومن يليهم ، إلى أن حدثت خصومة بين متورعى الفقهاء وأهل اللغة ، فأنكروا عليهم هذه الطريقة ، وقالوا : إن فعلتم ذلك جعلتم الشعر أصلا للقرآن [٣] ، وقالو : كيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن ، وهو مذموم فى القرآن والحديث .

والحق أن هذه الخصومة التى جدت فى الأجيال المتأخرة لم تقم على أساس ، فالأمر ليس كما يزعمه أصحاب هذا الرأى ، من جعل الشعر أصلا للقرآن ، بل هو فى الواقع ، بيان للحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى يقول « إنا جعلناه قرآنا عربيا [٤] » . وقال « بلسان عربى مبين [٥]

---

(١) الإتقان جـ ١ ص ١١٩ .

(٢) الاتقان جـ ١ ص ١١٩

(٣) ومن هؤلاء الامام النيسابورى صاحب التفسير المشهور ، فقد صرح بذلك فى مقدمة تفسيره جـ ١ ص ٦ .

(٤) فى الآية (٣) من سورة الزخرف

(٥) فى الآية (١٩٥) من سورة الشعراء .

ولهذا لم يتحرج المفسرون إلى يومنا هـذا من الرجوع إلى الشعر الجاهلى للاستشهاد به على المعنى الذى يذهبون إليه فى فهم كلا الله تعالى .

الرواية عن ابن عباس ومبلغها من الصحة :

روى عن ابن عباس رضى الله عنه فى التفسير مالا يحصى كثرة ، وتعددت الروايات عنه ، واختلفت طرقها ، فلا تكاد تجد آية من كتاب الله تعالى إلا ولابن عباس رضى الله عنه فيها قول أو أقوال ، الأمر الذى جعل نقاد الأثر ورواة الحديث يقفون إزاء هذه الروايات التى جاوزت الحد وقفة المرتاب ، فتتبعوا سلسلة الرواة فعدلوا العدول ، وجرحوا الضعفاء ، وكشفوا للناس عن مقدار هذه الروايات قوة وضعفا . وأرى أن أسوق هنا أشهر الروايات عن ابن عباس ، ثم أبين مبلغها من الصحة أو الضعف ، لنعلم إلى أى حد وصل الوضع والاختلاق على ابن عباس رضى الله عنه . وهذه هى أشهر الطرق :

أولها : طريق معاوية بن صالح ،عن على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس ، وهذه هى أجود الطرق عنه ، وفيها قال الإمام أحمد رضى الله عنه « إن بمصر صحيفة فى التفسير رواها على بن أبى طلحة ، لورحل رجل فيها إلى مصر قاصدا ما كان كثيراً[1] » . وقال الحافظ ابن حجر « .. وهذه النسخة كانت عند أبى صالح كاتب الليث ، رواها عن معاوية بن صالح ، عن على بن أبى طلحة، عن ابن عباس ، وهى عند البخارى عن أبى صالح، وقد اعتمدعليها فى صحيحه فيما يعلقه عن ابن عباس[2] » .

وكثيراً ما اعتمد على هذه الطريق ابن جرير الطبرى ، وابن أبى حاتم،

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٨ .

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٨ .

وابن المنذر بواسائط بينهم وبين أبي صالح . ومسلم صاحب الصحيح وأصحاب السنن جميعا يحتجون بعلى بن أبى طلحة .

طعن بعض النقاد على هذه الطريق :

ولقد حاول بعض النقاد أن يقلل من قدر هذه الطريق فقال « إن ابن أبى طلحة لم يسمع من ابن عباس التفسير ، وإنما أخذه عن مجاهد أو سعيد بن جبير »[1] وعلى هذا فهى طريق منقطعة لا يركن إليها ، ولا يعول عليها .

وقد استغل هذا القول الأستاذ جولد زيهر فى كتابه « المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن » فقال : « صرح النقدة المسلمون بأن ذلك الرجل - على بن أبى طلحة - لم يسمع التفسير الذى تضمنه كتابه مباشرة من ابن عباس ، وهكذا فإنه حتى فى صحة القسم الخاص بالتفسير الأكثر تصديقاً ، يحكم النقدة المسلمون بهذا الحكم فيما يتعلق بصحة نسبته لابن عباس على أنه هو المصدر الأول له »[2] اهـ .

تفنيد هذا الطعن :

ويظهر لنا أن الأستاذ جولد زيهر ، جهل أو تجاهل ما رد به النقاد المعتبرون على هذا الظن الذى لا قيمة له ، فقد فند ابن حجر هذا النقد بقوله « بعد أن عرفت الواسطة وهو ثقة فلا ضير فى ذلك »[3] وقال صاحب إيثار الحق « وقال الذهبى فى الميزان : وقد روى - يعنى على بن أبى طلحة عن ابن عباس تفسيرا كثيراً ممتعاً ، والصحيح عندهم أن روايته عن مجاهد عن ابن عباس ، وإن كان يرسلها عن ابن عباس فمجاهد ثقة يقبل »[4] . وجملة القول ، فهذه أصح الطرق فى التفسير عن ابن عباس ، وكفى بتوثيق البخارى لها واعتماده عليها شاهداً على صحتها .

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٨ .
(٢) ص ٧٧ .
(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٨٨ .
(٤) إيثار الحق ص ١٥٩ .

ثانيها : طريق قيس بن مسلم الكوفى ، عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير ، عن ابن عباس . وهذه الطريق صحيحة على شرط الشيخين ، وكثيراً ما يخرج منها الفريابى والحاكم فى مستدركه .

ثالثها : طريق بن إسحق صاحب السير ، عن محمد بن أبى محمد مولى آل زيد ابن ثابت ، عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس ، وهى طريق جيدة وإسنادها حسن ، وقد أخرج منها ابن جرير وابن أبى حاتم كثيرا ، وأخرج الطبرانى منها فى معجمه الكبير .

رابعا : طريق إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير ، تارة عن أبى مالك ، وتارة عن أبى صالح عن ابن عباس . وإسماعيل السدى مختلف فيه ، وحديثه عند مسلم وأهل السنن الأربعة ، وهو تابعى شيعى[1] . وقال السيوطى « روى عن السدى الأئمة مثل الثورى وشعبة ، لكن التفسير الذى جمعه رواه أسباط ابن نصر ، وأسباط لم يتفقوا عليه ، غير أن أمثل التفاسير تفسير السدى[2] » . وابن جرير يورد فى تفسيره كثيرا من تفسير السدى عن أبى مالك عن أبى صالح عن ابن عباس ، ولم يخرج منه ابن أبى حاتم شيئاً ؛ لأنه التزم أن يخرج أصح ما ورد .

خامسا : طريق عبد الملك بن جريج ، عن ابن عباس ، وهى تحتاج إلى دقة فى البحث ، ليعرف الصحيح منها والسقيم ، فإن ابن جريج لم يقصد الصحة فيما جمع ، وإنما روى ما ذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم ، فلم يتميز فى روايته الصحيح من غيره ، وقد روى عن ابن جريج هذا جماعة كثيرة ، منهم بكر ابن سهل الدمياطى ، عن عبد الغنى بن سعيد ، عن موسى بن محمد ، عن ابن جريج عن ابن عباس ، ورواية بكر بن سهل أطول الروايات عن ابن جريج وفيها نظر .

---

(١) إيثار الحق ص ١٥٩ .

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٨ .

ومنهم محمد بن ثور ، عن ابن جريج ، عن ابن عباس ، روى ثلاثة أجزاء كبار.
ومنهم الحجاج بن محمد عن ابن جريج ، روى جزءا وهو صحيح متفق عليه .

سادسها : طريق الضحاك بن مزاحم الهلالى عن ابن عباس : وهى غير مرضية ؛ لأنه وإن وثقه نفر فطريقه إلى ابن عباس منقطعة ؛ لأنه روى عنه ولم يلقه ، فإن انضم إلى ذلك رواية بشر بن عمارة ، عن أبى روق ، عن الضحاك، فضعيفة لضعف بشر ، وقد أخرج من هذه النسخة كثيراً ابن جرير وابن أبى حاتم. وإن كان من رواية جويبر عن الضحاك فأشد ضعفاً ؛ لأن جويبر شديد الضعف متروك . ولم يخرج ابن جرير ولا ابن أبى حاتم من هذه الطريق شيئا ، إنما خرجها ابن مردويه ، وأبو الشيخ بن حبان .

سابعها : طريق عطية العوفى ، عن ابن عباس ، وهى غير مرضية ؛ لأن عطية ضعيف ليس بواه ، وربما حسن له الترمذى . وهذه الطريق قد أخرج منها ابن جرير ، وابن أبى حاتم كثيرا .

ثامنها : طريق مقاتل ابن سليمان الأزدى الخراسانى ، وهو المفسر الذى ينسب إلى الشافعى أنه قال فيه « إن الناس عيال عليه فى التفسير »[١] ومع ذلك فقد ضعفوه ، وقالوا : إنه يروى عن مجاهد وعن الضحاك ولم يسمع منهما . وقد كذبه غير واحد ، ولم يوثقه أحد ، واشتهر عنه التجسيم والتشبيه[٢] ، وتكلم عنه السيوطى فقال : «إن الكلبى يفضل عليه، لما فى مقاتل من المذاهب الردية[٣] » وقد سئل وكيع عن تفسير مقاتل فقال : « لا تنظروا فيه ، فقال السائل : ما أصنع به ؟ قال ادفنه - يعنى التفسير - »[٤] وقال أحمد بن حنبل :

---

(١) وفيات الأعيان ج ٢ ص ٥٦٧
(٢) إيثار الحق ص ١٥٩
(٣) الاتقان ج ٢ ص ١٨٩
(٤) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١١١ .

لا يعجبني أن أروى عن مقاتل بن سليمان شيئاً [١] . وبالجملة فإن من استحسن تفسير مقاتل كان يضعفه ويقول « ما أحسن تفسيره لو كان ثقة » [٢] .

تاسعها : طريق محمد بن السائب الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس ، وهذه أوهى الطرق . والكلبي مشهور بالتفسير ، وليس لأحد تفسير أطول منه ولا أشبع كما قال ابن عدى في الكامل ، ومع ذلك فإن وجد من قال : رضوه في التفسير ، فقد وجد من قال : أجمعوا على ترك حديثه ، وليس بثقة ، ولا يكتب حديثه ، واتهمه جماعة بالوضع [٣] . وممن يروى عن الكلبي ، محمد بن مروان السدى الصغير ، وقد قالوا فيه : إنه يضع الحديث ، وذاهب الحديث متروك ، ولهذا قال السيوطي في الإتقان « فإن انضم إلى ذلك - أي طريق الكلبي - رواية محمد بن مروان السدى الصغير ، فهي سلسلة الكذب » [٤] ، وقال السيوطي أيضاً في كتابه الدر المنثور ج ٦ ص ٤٢٣ « الكلبي : اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه في مرضه : كل شيء حدثتكم عن أبي صالح كذب ، ومع ضعف الكلبي فقد روى عنه تفسيره مثله أو أشد ضعفاً ، وهو محمد بن مروان السدى الصغير » وكثيرا ما يخرج من هذه الطريق الثعلبي والواحدى .

هـذه هي أشهر الطرق عن ابن عباس ، صحيحها وسقيمها ، وقد عرفت قيمة كل طريق منها ، ومن اعتمد عليها فيما جمع من التفسير عن ابن عباس رضى الله عنه .

التفسير المنسوب إلى ابن عباس وقيمته :

هـذا ، وقد نسب إلى ابن عباس رضى الله عنه جزء كبير في التفسير ، وطبع في مصر مرارا باسم « تنوير المقباس من تفسير ابن عباس » جمعه أبو طاهر

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ج ٢ ص ١١١ .

(٢، ٣) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم ص ٩ .

(٤) الإتقان ج ٢ ص ١٨٩ .

محمد بن يعقوب الفيروز ابادى الشافعى ، صاحب القاموس المحيط ،وقد أطلعت على هذا التفسير ، فوجدت جامعه يسوق عند الكلام عن البسملة الرواية عن ابن عباس بهذا السند «أخبرنا عبد الله الثقة بن المأمون الهروى ، قال : أخبرنا أبى ، قال : أخبرنا أبو عبد الله محمود بن محمد الرازى ، قال : أخبرنا عمار بن عبد المجيد الهروى،قال:أخبرنا على بن إسحق السمر قندى،عن محمد بن مروان، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس» . وعند تفسير أول البقرة ، وجدته يسوق الكلام بإسناده إلى عبد الله بن المبارك ، قال : حدثنا على بن إسحق السمرقندى عن محمد بن مروان ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس . وفى مبدأ كل سورة يقول : وبإسناده عن ابن عباس .

... وهكذا يظهر لنا جلياً،أن جميع ماروى عن ابن عباس فى هذا الكتاب يدور على محمد بن مروان السدى الصغير ، عن محمد بن السائب الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس ، وقد عرفنا مبلغ رواية السدى الصغير عن الكلبى فيما تقدم . وحسبنا فى التعقيب على هذا ماروى من طريق ابن عبد الحكم قال : «سمعت الشافعى يقول: لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث»[1] وهذا الخبر - إن صح عن الشافعى - يدلنا على مقدار ما كان عليه الوضاعون من الجرأة على اختلاق هذه الكثرة من التفسير المنسوبة إلى ابن عباس ، وليس أدل على ذلك ، من أنك تلمس التناقض ظاهرا بين أقوال فى التفسير نسبت إلى ابن عباس ورويت عنه. وسيأتى- عند الكلام عن الوضع فى التفسير- أن هذا التفسير المنسوب إلى ابن عباس لم يفقد شيأ من قيمته العلمية فى الغالب، وإنما الشىء الذى لاقيمة له فيه ، هو نسبته إلى ابن عباس .

أسباب الوضع على ابن عباس :

ويبدو أن السر فى كثرة الوضع على ابن عباس،هو أنه كان من بيت النبوة والوضع عليه يكسب الموضوع ثقة وقوة أكثر مما لو وضع على غيره ، أضف

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١٨٩ .

إلى ذلك أن ابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون ، وكان من الناس من يتزلف إليهم ، ويتقرب منهم بما يرويه لهم عن جدهم...وسنعرض إلى أسباب الوضع فى التفسير ، وإلى القيمة العلمية للتفسير الموضوع بصرف النظر عن وضعه ، عند الكلام على منشأ الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى .

٢ — عبد الله بن مسعود

ترجمته : هو عبد الله بن مسعود بن غافل ، يصل نسبه إلى مضر ، ويكنى بأبى عبد الرحمن الهذلى ، وأمه أم عبد بنت عبدود ، من هذيل ، وكان ينسب إليها أحياناً فيقال ابن أم عبد . كان رحمه الله خفيف اللحم ، قصيراً ، شديد الأدمة ، أسلم قديماً . روى الأعمش ، عن القاسم بن عبد الرحمن ، عن أبيه قال : قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - « لقد رأيتنى سادس ستة ما على ظهر الأرض مسلم غيرنا » وهو أول من جهر بالقرآن بمكة وأسمعه قريشاً بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوذى فى الله من أجل ذلك ، ولما أسلم عبد الله بن مسعود أخذه رسول الله صلى الله على وسلم إليه فكان يخدمه فى أكثر شؤونه ، وهو صاحب طهوره وسواكه ونعله ، يلبسه إياه إذا قام ، ويخلعه ويحمله فى ذراعه إذا جلس، ويمشى أمامه إذا سار،ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام ، ويلج عليه داره بلاحجاب،حتى لقد ظنه أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه من أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنى البخارى ومسلم عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال : «قدمت أنا وأخى من اليمن فمكثنا حينا لا نرى ابن مسعود وأمه إلامن أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لما نرى من كثرة دخوله ودخول أمه على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولزومه له » . هاجر إلى الحبشة ، ثم إلى المدينة ، وصلى إلى القبلتين ، وشهد بدراً ، وأحداً ، والخندق ، وبيعة الرضوان،وسائر المشاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وشهد اليرموك بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم . وهو

الذى أجهز على أبى جهل يوم بدر ، وقد شهد له رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة وشهد له بالفضل وعلو المنزلة ؛ يدل على ذلك ما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده عن على قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو كنت مؤمرا أحدا دون مشورة المؤمنين لأمرت ابن أم عبد » . وقد ولى بيت المال بالكوفة لعمر وعثمان ، وقدم المدينة فى آخر عمره ، ومات بها سنة اثنتين وثلاثين ، ودفن بالبقيع ليلا ، تنفيذا لوصيته بذلك ، وكان عمره يوم وفاته ، بضعا وستين سنة .

مبلغه من العلم : كان ابن مسعود من أحفظ الصحابة لكتاب الله ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع منه القرآن ، وقد أخبر هو بنفسه عن ذلك فقال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : اقرأ على سورة النساء ، قال قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : إنى أحب أن أسمعه من غيرى ، فقرأت عليه حتى بلغت « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا[1] » فاضت عيناه صلى الله عليه وسلم . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من سره أن يقرأ القرآن رطبا كما أنزل ، فليقراه على قراءة ابن أم عبد » . وكان ابن مسعود يعرف ذلك من نفسه ويعتزه به ، حتى إنه كره لزيد ابن ثابت نسخ المصاحف فى عهد عثمان ، وكان يرى أنه أولى منه بذلك ، وقد قال فى هذا « يا معشر المسلمين : اعزل عن نسخ المصاحف ويتولاه رجل والله لقد أسلمت وإنه لفى صلب رجل كافر » يريد زيد بن ثابت . وعن مسروق أنه قال « انتهى علم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ستة: عمر ، وعلى ، وعبد الله بن مسعود ، وأبى بن كعب ، وأبى الدرداء ، وزيد بن ثابت ، ثم انتهى علم هؤلاء الستة إلى رجلين : على ، وعبد الله » ، وقيل لحذيفة : أخبرنا برجل قريب السمت والدل والهدى من رسول الله صلى الله عليه وسلم نأخذ عنه ،

---

(١) الآية (٤١) من سورة النساء

فقال « لا نعلم أحداً أقرب سمتا ولا هديا برسول الله صلى الله عليه وسلم من ابن أم عبد ، ولقد علم المحفوظون من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، أن ابن أم عبد أقربهم إلى الله وسيلة » . ولما سيره عمر رضى الله عنه إلى الكوفة كتب إلى أهلها « إنى قد بعثت عمار بن ياسر أميراً ، وعبد الله بن مسعود معلما ووزيرا ، وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما ، وأطيعوا واسمعوا قولهما ، وقد آثرتكم بعبد الله على نفسى » .

وقد أقام رضى الله عنه بالكوفة يأخذ عنه أهلها الحديث والتفسير والفقه ، وهو معلمهم وقاضيهم ، ومؤسس طريقتهم فى الاعتداد بالرأى حيث لا يوجد النص ، ولما قدم علىّ الكوفة ، حضر عنده قوم وذكروا له بعض قول عبد الله وقالوا : يا أمير المؤمنين ما رأينا رجلا أحسن خلقا ، ولا أرفق تعليما ، ولا أحسن مجالسة ، ولا أشد ورعا من ابن مسعود ، قال علىّ : أنشدكم الله أهو الصدق من قلوبكم ؟ قالوا : نعم ، قال : اللهم اشهد أنى أقول مثل ماقالوا وأفضل .

ومن هذا كله يتبين لنا مكانة ابن مسعود رضى الله عنه فى العلم ، ومنزلته بين إخوانه من الصحابة ، فالكل يشهد له ويقدمه على غيره ، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء من عباده[1] .

قيمة ابن مسعود فى التفسير :

روى ابن جرير وغيره عن ابن مسعود أنه قال « كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن » ، ومن هذا الأثر يتضح لنا مقدار حرص ابن مسعود على تفهم كتاب الله تعالى والوقوف على معانيه ، وعن مسروق قال « قال عبد الله - يعنى ابن مسعود - والذى لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم نزلت وأين نزلت ، ولو أعلم

---

(١) انظر ترجمة ابن مسعود فى أسد الغابة ج ٣ ص ٢٥٦ — ٢٦٠

مكان أحد أعلم بكتاب الله منى تناوله المطايا لأتيته) ، وهذا الأثر يدل على إحاطة ابن مسعود بمعانى كتاب الله ، وأسباب نزول الآيات ، وحرصه على تعرف ما عند غيره من العلم بكتاب الله تعالى ولو لقى عنتا ومشقة، وقال مسروق كان عبد الله يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار ، وروى أبو نعيم فى الحلية عن أبى البحترى قال : قالوا لعلى : أخبرنا عن ابن مسعود ، قال : علم القرآن والسنة ثم انتهى ، وكفى بذلك علما ، وقال عقبة ابن عامر : ما أدرى أحدا أعلم بما نزل على محمد من عبد الله ، فقال أبو موسى : إن تقل ذلك ، فإنه كان يسمع حين لا نسمع ، ويدخل حين لا ندخل ، وصح عن ابن مسعود أنه قال : أخذت من فى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وقال أبو وائل : لما حرق عثمان المصاحف بلغ ذلك عبد الله فقال : لقد علم أصحاب محمد أنى أعلمهم بكتاب الله وما أنا بخيرهم ، ولو أنى أعلم أن أحداً أعلم بكتاب الله منى تبلغه الإبل لأتيته ، قال أبو وائل : فقمت إلى الحلق أسمع ما يقولون ، فما سمعت أحدا من أصحاب محمد ينكر ذلك عليه ... وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد لمنزلة ابن مسعود العالية فى التفسير ، وإذا كان ابن مسعود يعلم هذا من نفسه ويتحدث به ، فإن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينكروا عليه ذلك ، بل وتحدثوا بمكانته فى العلم ، ومقدار فهمه لكتاب الله ، وعلل ذلك أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه ؛ بأنه كان يسمع حين لا يتيسر لهم السماع ، ويدخل حين لا يؤذن لهم بالدخول ، الأمر الذى جعله أوفر حظاً فى الأخذ عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأعظم نصيباً من الاغتراف من منهل النبوة الفياض ، ولئن صح عن أبى الدرداء أنه قال بعد موت ابن مسعود : ما ترك بعده مثله ، لهى شهادة منه على مقدار علمه ، وسمو مكانته بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبالجملة فابن مسعود كما قيل : أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى ، وأعرفهم بمحكمه ومتشابهه وحلاله وحرامه ، وقصصه وأمثاله ، وأسباب نزوله ، قرأ القرآن فأحل حلاله وحرم حرامه ، فقيه فى الدين ، عالم بالسنة ، بصير بكتاب الله .

الرواية عن ابن مسعود ومبلغها من الصحة :

ابن مسعود أكثر من روى عنه فى التفسير من الصحابة بعد ابن عباس رضى الله عنه ، قال السيوطى فى الإتقان : وأما ابن مسعود فقد روى عنه أكثر مما روى عن على[1] ، وقد حمل علم ابن مسعود فى التفسير أهل الكوفة نظرا لوجوده بينهم ، يجلس إليهم فيأخذون عنه ويروون له ، فمن رواته مسروق بن الأجدع الهمدانى ، وعلقمة بن قيس النخعى ، والأسود ابن يزيد ، وغيرهم من علماء الكوفة الذين تتلمذوا له ورووا عنه . وسنأتى نتكلم على هؤلاء جميعاً - إن شاء الله تعالى - عند الكلام عن التفسير فى عصر التابعين ، وقد وردت أسانيد كثيرة تنتهى إلى ابن مسعود ، نجدها مبثوثة فى كتب التفسير بالمأثور وكتب الحديث ، ومن هذه الروايات ما يمكن الاعتماد عليه والثقة به ، ومنها ما يعتريه الضعف فى رجاله ، أو الانقطاع فى إسناده ، وقد تتبع العلماء النقاد هذه الروايات ، كما تتبعوا غيرها بالنقد تجريحا وتعديلاً وهذه هى أشهر الطرق عن ابن مسعود .

أولا : طريق الأعمش ، عن أبى الضحى ، عن مسروق ، عن ابن مسعود . وهذه الطريق من أصح الطرق وأسلمها ، وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه .

ثانياً : طريق مجاهد ، عن أبى معمر ، عن ابن مسعود ، وهذه أيضاً طريق صحيحة لا يعتريها الضعف . وقد اعتمد عليها البخارى فى صحيحه أيضاً .

ثالثاً : طريق الأعمش ، عن أبى وائل ، عن ابن مسعود ، وهذه أيضاً طريق

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١٨٧ .

صحيحة يخرج البخارى منها ، وكفى بتخريج البخارى شاهدا على صحتها وصحة ما سبق .

رابعاً : طريق السدى الكبير ، عن مرة الهمدانى ، عن ابن مسعود . وهذه الطريق يخرج منها الحاكم فى مستدركه ، ويصحح ما يخرجه . وابن جرير يخرج منها فى تفسيره كثيرا ، وقد علمت فيما مضى قيمة السدى الكبير فى باب الرواية .

خامسا : طريق أبى روق . عن الضحاك ، عن ابن مسعود . وابن جرير يخرج منها فى تفسيره أيضاً . وهذه الطريق غير مرضية ؛ لأن الضحاك لم يلق ابن مسعود فهى طريق منقطعة .

٣ — على ابن أبى طالب

ترجمته : هو أبو الحسن ، على بن أبى طالب ، بن عبد المطلب ، القرشى الهاشمى ، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وصهره على ابنته فاطمة ، وذريته صلى الله عليه وسلم منهما . أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم . وهو أول هاشمى ولد من هاشميين، ورابع الخلفاء الراشدين، وأول خليفة من بنى هاشم ، وهو أول من أسلم من الأحداث وصدق برسول الله صلى الله عليه وسلم . هاجر إلى المدينة . وموقفه من الهجرة مشهور ، قيل ونزل فيه قوله تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله ... »[1] . وقد شهد علىٌّ المشاهد كلها إلا تبوك ؛ فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم خلفه على أهله ، وله فى الجميع بلاء عظيم ومواقف مشهورة ، وقد أعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم اللواء فى مواطن كثيرة ، وقال يوم خيبر : لأعطين الراية رجلا يفتح الله على يديه ، يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله، ثم أعطاها لعلى رضى الله عنه، وآخاه رسول الله

---

(١) فى الآية (٢٠٧) من سورة البقرة .

صلى الله عليه وسلم لما آخى بين أصحابه وقال له : أنت أخى فى الدنيا والآخرة. وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة ، اجتمع فيه من الفضائل مالم يحظ به غيره ، فمن ورع فى الدين ، إلى زهد فى الدنيا ، إلى قرابة وصهر برسول الله صلى الله عليه وسلم ، إلى علم جم وفضل غزير ، وقد توفى رحمه الله فى رمضان سنة أربعين من الهجرة ، مقتولا بيد عبد الرحمن بن ملجم الخارجى ، وعمره ثلاث وستون سنة ، وقيل غير ذلك .

مبلغه من العلم : كان رضى الله عنه بحراً فى العلم ، وكان قوى الحجة ، سليم الاستنباط ، أوتى الحظ الأوفر من الفصاحة والخطابة والشعر ، وكان ذا عقل قضائى ناضج ، وبصيرة نافذة إلى بواطن الأمور ، وكثيرا ما كان يرجع إليه الصحابة فى فهم ما خفى واستجلاء ما أشكل ، وقد ولاه رسول الله صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن ، ودعا له بقوله « اللهم ثبت لسانه واهد قلبه » فكان موفقاً ومسدداً ، فيصلا فى المعضلات ، حتى ضرب به المثل فقيل « قضية ولا أبا حسن لها » ، ولا عجب ، فقد تربى فى بيت النبوة ، وتغذى بلبان معارفها ، وعمته مشكاة أنوارها . روى علقمة عن ابن مسعود قال: كنا نتحدث أن أقضى أهل المدينة على بن أبى طالب . وقيل لعطاء : أكان فى أصحاب محمد أعلم من على؟ قال : لا ، والله لا أعلمه ، وروى سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : «إذا ثبت لنا الشىء عن على لم نعدل عنه إلى غيره » .

والذى يرجع إلى أقضية على رضى الله عنه وخطبه ووصاياه ، يرى أنه قد وهب عقلا ناضجا ، وبصيرة نافذة ، وحظاً وافراً من العلم وقوة البيان [1]

مكانته فى التفسير . جمع على رضى الله عنه إلى مهارته فى القضاء والفتوى، علمه بكتاب الله ، وفهمه لأسراره وخفى معانيه ، فكان أعلم الصحابة بمواقع التنزيل ومعرفة التأويل ، وقد روى عن ابن عباس أنه قال : « ما أخذت من

---

(١) أسد الغابة ج ٤ ص ١٦ — ٤٠ .

تفسير القرآن فعن على بن أبى طالب » ، وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن على رضى الله عنه أنه قال : « والله ما نزلت آية إلا وقد علمت فيم نزلت ، وأين نزلت ، وإن ربى وهب لى قلبا عقولا ، ولسانا سئولا » . وعن أبى الطفيل قال: « شهدت علياً يخطب وهو يقول : سلونى ، فوالله لا تسألونى عن شىء إلا أخبرتكم ، وسلونى عن كتاب الله ، فوالله مامن آية إلا وأنا أعلم أبليل نزلت أم بنهار ، أم فى سهل ، أم فى جبل » . وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن ابن مسعود قال : « إن القرآن أنزل على سبعة أحرف ، مامنها حرف ، إلا وله ظهر وبطن ، وإن على بن أبى طالب عنده منه الظاهر والباطن » . وغير هذا كثير من الآثار التى تشهد له بأنه كان صدر المفسرين والمؤيد فيهم :

الرواية عن على ومبلغها من الصحة :

كثرت الرواية فى التفسير عن على رضى الله عنه ، كثرة جاوزت الحد ، الأمر الذى لفت أنظار العلماء النقاد ، وجعلهم يتتبعون الرواية عنه ، بالبحث ، والتحقيق ؛ ليميزوا ماصح من غيره .

وما صح عن على فى التفسير قليل بالنسبة لما وضع عليه ، ويرجع ذلك إلى غلاة الشيعة ، الذين أسرفوا فى حبه فاختلقوا عليه ماهو برىء منه ، إما ترويجاً لمذهبهم وتدعيما له ، وإما لظنهم الفاسد ، أن الإغراق فى نسبة الأقوال العلمية إليه يعلى من قدره ، ويرفع من شأنه العلمى . وأظن أن مانسب إلى على من قوله « لوشئت أن أوقر سبعين بعيراً من تفسير أم القرآن لفعلت » لا أصل له ، اللهم إلا فى أوهام الشيعة ، الذين يغالون فى حبه ، ويتجاوزون الحد فى مدحه . ثم هناك ناحية أخرى أغرت الوضاع بالكذب عليه ، تلك الناحية هى نسبته إلى بيت النبوة ، ولا شك أن هذه الناحية ، تكسب الموضوع قبولا ، وتعطيه رواجا وذيوعا على ألسن الناس والحق أن كثرة الوضع على علىّ رضى الله عنه أفسدت الكثير من علمه ، ومن أجل ذلك لم يعتمد أصحاب الصحيح فيما يروونه عنه إلا على ما كان من طريق الأثبات من أهل بيته ، أو من

أصحاب ابن مسعود ، كعبيدة السلمانى وشريح ، وغيرهما . وهذه أهم الطرق عن على فى التفسير :

أولا : طريق هشام ، عن محمد بن سيرين ، عن عبيدة السلمانى ، عن على . طريق صحيحة ، يخرج منها البخارى وغيره .

ثانيا : طريق ابن أبى الحسين ، عن أبى الطفيل ، عن على . وهذه طريق صحيحة ، يخرج منها ابن عيينة فى تفسيره .

ثالثا : طريق الزهرى ، عن على زين العابدين ، عن أبيه الحسين ، عن أبيه على . وهذه طريق صحيحة جداً ، حتى عدها بعضهم أصح الأسانيد مطلقاً (١) ، ولكن لم تشتهر هذه الطريق اشتهار الطريقين السابقين نظراً لما ألصقه الضعفاء والكذابون بزين العابدين من الروايات الباطلة .

٤ — أبى بن كعب

ترجمته : هو أبو المنذر ، أو أبو الطفيل (٢) ، أبى بن كعب بن قيس ، الأنصارى الخزرجى ، شهد العقبة وبدراً ، وهو أول من كتب لرسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة ، وقد أثنى عليه عمر رضى الله عنه فقال « أبى سيد المسلمين » وقد اختلف فى وفاته على أقوال كثيرة ، والأكثر على أنه مات فى خلافة عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

مبلغه من العلم : كان أبى بن كعب سيد القراء ، وواحد كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال فيه صلى الله عليه وسلم: « وأقرؤهم

---

(١) مقدمة ابن الصلاح ص ٩ .
(٢) كناه النبى بالأولى ، وعمر بالثانية .

أبى بن كعب » ، وليس أدل على جودة حفظه لكتاب الله تعالى من قراءة النبي صلى الله عليه وسلم عليه، فقد أخرج الترمذى بسنده إلى أنس بن مالك رضى الله عنه أنه قال : « إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبى بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك « لم يكن الذين كفروا » قال : آلله سمانى لك ؟ قال : نعم، فجعل أبى يبكى » وفى رواية أنه قيل لأبى : وفرحت بذلك ؟ قال : وما يمنعنى وهو يقول « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون » (١) وروى الشعبى عن مسروق قال « كان أصحاب القضاء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ستة : عمر ، وعلى ، وعبد الله ، وأبى ، وزيد ، وأبو موسى » (٢) .

مكانته فى التفسير : كان أبى بن كعب من أعلم الصحابة بكتاب الله تعالى ، ولعل من أهم عوامل معرفته بمعانى كتاب الله ، هو أنه كان حبرا من أحبار اليهود ، العارفين بأسرار الكتب القديمة وما وردفيها ، وكونه من كتاب الوحى لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا بالضرورة يجعله على مبلغ عظيم من العلم بأسباب النزول ومواضعه ، ومقدم القرآن ومؤخره ، وناسخه ومنسوخه ، ثم لايعقل بعد ذلك أن تمر عليه آية من القرآن يشكل معناها عليه دون أن يسأل عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لهذا كله عُد أبى بن كعب من المكثرين فى التفسير ، الذين يعتد بما صح عنهم ، ويعول على تفسيرهم .

الرواية عنه فى التفسير ومبلغها من الصحة :

كثرت الرواية عن أبى بن كعب فى التفسير وتعددت طرقها ، وتتبع العلماء هذه الطرق بالنقد ، فعدلوا وجرحوا ؛ لأنه كغيره من الصحابة لم يسلم من الوضع عليه — وهذه هى أشهر الطرق عنه .

---

(١) الآية (٥٨) من سورة يونس .

(٢) انظر أسد الغابة ج ١ ص٤٩ — ٥١ .

أولا : طريق أبي جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبي العالية ، عن أبي رضى الله عنه . وهذه طريق صحيحة ، وقد ورد عن أبي ، نسخة كبيرة في التفسير ، يرويها أبو جعفر الرازى بهذا الإسناد إلى أبي ، وقد خرج ابن جرير وابن أبي حاتم منها كثيراً ، وأخرج الحاكم منها أيضاً في مستدركه ، والإمام أحمد في مسنده .

ثانياً : طريق وكيع عن سفيان ، عن عبد الله بن محمد بن عقيل ، عن الطفيل ابن أبي بن كعب ، عن أبيه ، وهذه يخرج منها الإمام أحمد في مسنده ، وهى على شرط الحسن ، لأن عبد الله بن محمد بن عقيل وإن كان صدوقا تكلم فيه من جهة حفظه ، قال الترمذى في سننه : « عبدالله ابن محمد بن عقيل ، هو صدوق وقد تكلم فيه بعض أهل العلم من قبل حفظه ، وسمعت محمد بن إسماعيل يقول : كان أحمد بن حنبل ، وإسحق بن إبراهيم ، والحميدى ، يحتجون بحديث عبد الله ابن محمد بن عقيل قال محمد — يعنى البخارى — وهو مقارب الحديث ، ونص الحافظ الهيثمى في مجمع الزوائد على أن حديثه حسن[1] .

---

(١) أنظر خلاصة تذهيب الكمال ص ١٨٠ ، وميزان الإعتدال جـ ٢ ص ٦٨ .

الفصل الثالث

قيمة التفسير المأثور عن الصحابة

أطلق الحاكم فى المستدرك : أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى ، له حكم المرفوع ، فكأنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وعزا هذا القول للشيخين حيث يقول فى المستدرك : « ليعلم طالب الحديث ، أن تفسير الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل - عند الشيخين - حديث مسند »[1] . ولكن قيد ابن الصلاح، والنووى، وغيرهما، هذا الإطلاق ، بما يرجع إلى أسباب النزول، ومالا مجال للرأى فيه ، قال ابن الصلاح فى مقدمته ص (٢٤) « ماقيل من أن تفسير الصحابى حديث مسند ، فإنما ذلك فى تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابى ، أو نحو ذلك مما لا يمكن ان يؤخذ إلا عن النبى صلى الله عليه وسلم ولا مدخل للرأى فيه ، كقول جابر رضى الله عنه : كانت اليهود تقول من أتى امرأته من دبرها فى قبلها جاء الولد أحول ، فأنزل الله عز وجل « نساؤكم حرث لكم ... الآية [(٢٢٣) من سورة البقرة] ، فأما سائر تفاسير الصحابة التى لا تشتمل على إضافة شىء إلى الرسول صلى الله عليه وسلم فمعدودة فى الموقوفات» ولكنا نجد الحاكم نفسه قد صرح فى (معرفة علوم الحديث) بما ذهب إليه ابن الصلاح وغيره حيث قال : ومن الموقوفات ما حدثناه احمد بن كامل بسنده عن أبى هريرة فى قوله «لواحة للبشر[2] » قال تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحما على عظم، قال : فهذا وأشباهه يعد فى تفسير الصحابة من الموقوفات، فأما ما نقول: إن تفسير الصحابة مسند ، فإنما نقوله فى غير هذا النوع ... » ، ثم أورد حديث جابر فى قصة اليهود وقال : فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف ؛

---

(١) تدريب الراوى ص ٦٤

(٢) الآيه (٢٩) من سورة المدثر

فإن الصحابى الذى شهد الوحى والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت فى كذا فإنه حديث مسند[١] ، اه .

فالحاكم قيد فى معرفة علوم الحديث ما أطلق فى المستدرك ، فاعتمد الناس ماقيد ، وتركوا ما أطلق ، وعلل السيوطى فى التدريب إطلاق الحاكم بأنه كان حريصاً على جمع الصحيح فى المستدرك حتى أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع . . ، ثم اعترض بعد ذلك على الحاكم ، حيث عد الحديث المذكور عن أبى هريرة من الموقوف ، وليس كذلك ؛ لأنه يتعلق بذكر الآخرة ، وهذا لامدخل للرأى فيه ، فهو من قبيل المرفوع[٢] .

وبعد هذا كله نخلص بهذه النتائج :

أولا : تفسير الصحابى له حكم المرفوع ، إذا كان مما يرجع إلى أسباب النزول ، وكل ما ليس للرأى فيه مجال ، أما ما يكون للرأى فيه مجال ، فهو موقوف عليه ما دام لم يسنده إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ثانياً : ماحكم عليه بأنه من قبيل المرفوع لايجوز رده اتفاقا ، بل يأخذه المفسر ولا يعدل عنه إلى غيره بأية حال .

ثالثا : ما حكم عليه بالوقف ، تختلف فيه أنظار العلماء :

فذهب فريق : إلى أن الموقوف على الصحابى من التفسير لايجب الأخذ به لأنه لما لم يرفعه ، علم أنه اجتهد فيه ، والمجتهد يخطىء ويصيب ، والصحابة فى اجتهادهم كسائر المجتهدين .

وذهب فريق آخر إلى أنه يجب الأخذ به والرجوع اليه ؛ لظن سماعهم له من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولأنهم إن فسروا برأيهم

---

(١) تدريب الراوى ص ٦٥ ، ومعرفة علوم الحديث ص ١٩ — ٢٠

(٢) التدريب ص ٦٥

فرأيهم أصوب ، لأنهم أدرى الناس بكتاب الله ، إذهم أهل اللسان ، ولبركة الصحبة والتخلق بأخلاق النبوة ، ولما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح ، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم كالأئمة الأربعة ، وعبد الله بن مسعود ، وابن عباس وغيرهم .

قال الزركشى فى البرهان : « اعلم أن القرآن قسمان : قسم ورد تفسيره بالنقل ، وقسم لم يرد . والأول : إما أن يرد عن النبى صلى الله عليه وسلم ، أو الصحابة ، أو رءوس التابعين ، فالأول يبحث فيه عن صحة السند ، والثانى ينظر فى تفسير الصحابى ، فإن فسره من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك فى اعتماده ، أو بما شاهدوه من الأسباب والقرائن فلاشك فيه . . . » اهـ[1] .

وقال الحافظ ابن كثير فى مقدمة تفسيره : « . . . وحينئذ إذ لم نجد التفسير فى القرآن ولا فى السنة ، رجعنا فى ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ، ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ، ولاسيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة ، والخلفاء الراشدين ، والأئمة المهتدين المهديين ، وعبد الله بن مسعود رضى الله عنهم »[2] .

وهذا الرأى الأخير هو الذى تميل إليه النفس ، ويطمئن إليه القلب لما ذكر .

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٣ .

(٢) جـ ١ ص ٣

الفصل الرابع

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

أولا : لم يفسر القرآن جميعه ، وإنما فسر بعض منه ، وهو ما غمض فهمه وهذا الغموض كان يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة ، فكان التفسير يتزايد تبعاً لتزايد هذا الغموض ، إلى أن تم تفسير آيات القرآن جميعها .

ثانيا : قلة الاختلاف بينهم فى فهم معانيه ، وسنعرض لهذا الموضوع بتوسع فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ثالثاً : كانوا كثيراً ما يكتفون بالمعنى الإجمالى ، ولا يلزمون أنفسهم بتفهم معانيه تفصيلا ، فيكفى أن يفهموا من مثل قوله تعالى « وفاكهة وأبا »[1] أنه تعداد لنعم الله تعالى على عباده .

رابعاً : الاقتصار على توضيح المعنى اللغوى الذى فهموه بأخصر لفظ ، مثل قولهم « غير متجانف لإثم[2] » أى غير متعرض لمعصية ، فإن زادوا على ذلك فما عرفوه من أسباب النزول .

خامساً : ندرة الإستنباط العلمى للأحكام الفقهية من الآيات القرآنية وعدم وجود الانتصار للمذاهب الدينية بما جاء فى كتاب الله : نظراً لاتحادهم

---

(١) الآية (٣١) من سورة عبس .

(٢) فى الآية (٣) من سورة المائدة .

فى العقيدة ، ولأن الاختلاف المذهبى لم يقم إلا بعد عصر الصحابة رضى الله عنهم .

سادساً : لم يدون شىء من التفسير فى هذا العصر ، لأن التدوين لم يكن إلا فى القرن الثانى . نعم أثبت بعض الصحابة بعض التفسير فى مصاحفهم فظنها بعض المتأخرين من وجوه القرآن التى نزل بها من عند الله تعالى .

سابعاً : اتخذ التفسير فى هذه المرحلة شكل الحديث ، بل كان جزءاً منه وفرعا من فروعه ، ولم يتخذ التفسير له شكلا منظما ، بل كانت هذه التفسيرات تروى منثورة لآيات متفرقة ، كما كان الشأن فى رواية الحديث ، فحديث صلاة بجانب حديث جهاد ، بجانب حديث ميراث ، بجانب حديث فى تفسير آية ، . . . وهكذا .

وليس لمعترض أن يعترض علينا بتفسير ابن عباس ، فإنه لا تصح نسبته إليه ، بل جمعه الفيروزابادى ونسبه إليه ، معتمداً فى ذلك على رواية واهية ، هى رواية محمد بن مروان السدى ، عن الكلبى ، عن أبى صالح ، عن ابن عباس وهذه هى سلسلة الكذب كما قيل .

الباب الثانى

المرحلة الثانية للتفسير

أو التفسير فى عصر التابعين

الفصل الأول

ابتداء هذه المرحلة ــ مصادر التفسير فى هذا العصر

مدارس التفسير التى قامت فيه

ابتداء هذه المرحلة :

تنتهى المرحلة الأولى للتفسير بانصرام عهد الصحابة ، وتبدأ المرحلة الثانية للتفسير من عصر التابعين الذين تتلمذوا للصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم .

وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم فى استجلاء بعض ماخفى من كتاب الله ، اشتهر أيضاً بالتفسير أعلام من التابعين ، تكلموا فى التفسير ، ووضحوا لمعاصريهم خفى معانيه .

مصادر التفسير فى هذا العصر :

وقد اعتمد هؤلاء المفسرون فى فهمهم لكتاب الله تعالى على ماجاء فى الكتاب نفسه ، وعلى ما رووه عن الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى ما رووه عن الصحابة من تفسيرهم أنفسهم ، وعلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء فى كتبهم ، وعلى مايفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر فى كتاب الله تعالى .

وقد روت لنا كتب التفسير كثيراً من أقوال هؤلاء التابعين فى التفسير، قالوها بطريق الرأى والاجتهاد، ولم يصل إلى علمهم شىء فيها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن أحد من الصحابة.

وقد قلنا فيما سبق: إن مانقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة من التفسير لم يتناول جميع آيات القرآن، وإنما فسروا ماغمض فهمه على معاصريهم، ثم تزايد هذا الغموض — على تدرج — كلما بعد الناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة، فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى أن يكملوا بعض هذا النقص، فزادوا فى التفسير بمقدار مازاد من غموض، ثم جاء من بعدهم فأتموا تفسير القرآن تباعا، معتمدين على ماعرفوه من لغة العرب ومناحيهم فى القول، وعلى ماصح لديهم من الأحداث التى حدثت فى عصر نزول القرآن، وغير هذا من أدوات الفهم ووسائل البحث.

مدارس التفسير فى عصر التابعين:

فتح الله على المسلمين كثيراً من بلاد العالم فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفى عهود الخلفاء من بعده، ولم يستقروا جميعا فى بلد واحد من بلاد المسلمين، بل نأى الكثير منهم عن المدينة مشرق النور الإسلامى ثم استقر بهم النوى، موزعين على جميع البلاد التى دخلها الإسلام، وكان منهم الولاة، ومنهم الوزراء، ومنهم القضاة، ومنهم المعلمون، ومنهم غير ذلك.

وقد حمل هؤلاء معهم إلى هذه البلاد التى رحلوا إليها، ماوعوه من العلم، وما حفظوه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجلس إليهم كثير من التابعين يأخذون العلم عنهم، وينقلونه لمن بعدهم، فقامت فى هذه الأمصار المختلفة مدارس علمية، أساتذتها الصحابة، وتلاميذها التابعون.

واشتهر بعض هذه المدارس بالتفسير، وتتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة، فقامت مدرسة للتفسير بمكة، وأخرى بالمدينة

وثالثة بالعراق ، وهذه المدارس الثلاث، هى أشهر مدارس التفسير فى الأمصار فى هذا العهد .

قال ابن تيمية : « وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة . لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد ، وعطاء بن أبى رباح ، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس ، كطاوس ، وأبى الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود ، ومن ذلك ماتميزوا به عن غيرهم ، وعلماء أهل المدينة فى التفسير ، مثل زيد بن أسلم ، الذى أخذ عنه مالك التفسير، وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن ، وعبد الله بن وهب » اهـ[١] .

وأرى أن أتكلم عن كل مدرسة من هذه المدارس الثلاث ، وعن أشهر المفسرين من التابعين الذين أخذوا التفسير عن أساتذة هذه المدارس من الصحابة ، فأقول وبالله التوفيق :

(١) مدرسة التفسير بمكة

قيامها على ابن عباس :

قامت مدرسة التفسير بمكة على عبد الله بن عباس رضى الله عنهما . فكان يجلس لأصحابه من التابعين ، يفسر لهم كتاب الله تعالى ، ويوضح لهم ما أشكل من معانيه ، وكان تلاميذه يعون عنه ما يقول ، ويروون لمن بعدهم ما سمعوه منه .

أشهر رجالها:

وقد اشتهر من تلاميذ ابن عباس بمكة : سعيد بن جبير ، ومجاهد، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان اليمانى ، وعطاء بن أبى رباح .

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ١٥

وهؤلاء كلهم كانوا من الموالى ، وهم يختلفون فى الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة ، كما اختلف العلماء فى مقدار الثقة بهم والركون إليهم .

ونسوق الحديث عن كل واحد منهم، ليتضح لنا مكانته فى التفسير، ومقدار الاعتماد عليه فيه .

١ — سعيد بن جبير

ترجمته : هو أبو محمد ، أو أبو عبد الله ، سعيد بن جبير بن هشام الأسدى الوالبى ، مولاهم . كان حبشى الأصل، أسود اللون أبيض الخصال . سمع جماعة من أئمة الصحابة . روى عن ابن عباس ، وابن مسعود ، وغيرهما .

مكانته فى التفسير : كان رحمه الله من كبار التابعين ومتقدميهم فى التفسير والحديث والفقه ، أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً ، وسمع منه التفسير ، وأكثر روايته عنه[١]، وقد جمع سعيد القراءات الثابتة عن الصحابة وكان يقرأ بها ، يدلنا على ذلك ماجاء عن إسماعيل بن عبد الملك أنه قال : « كان سعيد بن جبير يؤمنا فى شهر رمضان فيقرأ ليلة بقراءة عبد الله بن مسعود ، وليلة بقراءة زيد بن ثابت ، وليلة بقراءة غيره . وهكذا أبدا[٢] » ، ولاشك أن جمعه لهذه القراءات كان يعطيه المقدرة على التوسع فى معرفة معانى القرآن وأسراره ، ولكن يظهر لنا أنه كان يتورع من القول فى التفسير برأيه ، يدلنا على ذلك مارواه ابن خلكان : من أن رجلا سأل سعيداً أن يكتب له تفسير القرآن فغضب وقال : لأن يسقط شقى أحب إلى من ذلك[٣] . ولقد جمع سعيد علم أصحابه من التابعين، وألم بما عندهم من النواحى التى برزوا فيها، فقد قال خصيف:

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٥ .

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٥ .

« كان من أعلم التابعين بالطلاق سعيد بن المسيب . وبالحج عطاء ، وبالحلال والحرام طاوس ، وبالتفسير أبو الحجاج مجاهد بن جبر ، وأجمعهم لذلك كله سعيد بن جبير »[١] .

لهذا كله نجد أستاذه ابن عباس يثق بعلمه ، ويحيل عليه من يستفتيه ، وكان يقول لأهل الكوفة إذا أتوه ليسألوه عن شيء : أليس فيكم ابن أم الدهماء ؟ (يعنى سعيد بن جبير) . ويروى عمرو بن ميمون عن أبيه أنه قال : لقد مات سعيد بن جبير وما على ظهر الأرض أحد إلا وهو محتاج إلى علمه . ويرى بعض العلماء أنه مقدم على مجاهد وطاوس فى العلم ، وكان قتادة يرى أنه أعلم التابعين بالتفسير .

هذا وقد وثق علماء الجرح والتعديل سعيد بن جبير ، فقال أبو القاسم الطبرى : هو ثقة ، حجة ، إمام على المسلمين . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال : كان عبداً فاضلا ورعا . وهو مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة .

وقد قتل فى شعبان سنة ٩٥ خمس وتسعين من الهجرة ، وهو ابن تسع وأربعين سنة ، قال أبو الشيخ : قتله الحجاج صبراً . وله مناظرة قبل قتله مع الحجاج ، تدل على قوة يقينه ، وثبات إيمانه ، وثقته بالله ، فرضى الله عنه وأرضاه[٢] .

---

(١) المرجع السابق ج ١ ص ٣٦٥

(٢) تهذيب التهذيب ج ٤ ص ١٣ — ١٤

٢ ـ مجاهد بن جبر

ترجمته : هو مجاهد بن جبر ، المكى ، المقرىء ، المفسر . أبو الحجاج المخزومى ، مولى السائب بن أبى السائب . كان أحد الأعلام الأثبات . ولد سنة ٢١ إحدى وعشرين من الهجرة فى خلافة عمر بن الخطاب . وكانت وفاته بمكة وهو ساجد ، سنة أربع ومائة على الأشهر ، وعمره ثلاث وثمانون سنة .

مكانته فى التفسير: كان مجاهد ـ رحمه الله ـ أقل أصحاب ابن عباس رواية عنه فى التفسير ، [١] وكان أوثقهم ، لهذا اعتمد على تفسيره الشافعى والبخارى وغيرهما ، ونجد البخارى رضى الله عنه فى كتاب التفسير من الجامع الصحيح ، ينقل لنا كثيراً من التفسير عن مجاهد ، وهذه أكبر شهادة من البخارى على ثقته وعدالته ، واعتراف منه بمبلغ فهمه لكتاب الله تعالى ، وقد روى الفضل ابن ميمون أنه سمع مجاهداً يقول: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة[٢]. وروى عنه أيضاً أنه قال : عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات ، أقف عند كل آية ، أسأله فيم نزلت ، وكيف كانت ؟ [٣] . ولا تعارض بين هاتين الروايتين ، لأن الإخبار بالقليل لاينافى الإخبار بالكثير ، ولعله عرض القرآن على ابن عباس ثلاثين مرة لتمام الضبط ، ودقة التجويد ، وحسن الأداء ، وعرضه بعد ذلك ثلاث مرات طلباً لتفسيره ، ومعرفة مادق من أسراره ، وخفى من معانيه . كما تشعر بذلك ألفاظ الرواية . وعن ابن أبى مليكة قال : رأيت مجاهداً سأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فقال ابن عباس : اكتب ، حتى سأله عن التفسير كله [٤] وروى عبد السلام بن

---

(١) فجر الاسلام ص ٢٥١ .
(٢) ميزان الاعتدال ج ٣ ص ٩
(٣) تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ .
(٤) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ .

حرب عن مصعب قال : كان أعلمهم بالتفسير مجاهد ، وبالحج عطاء . وقال قتادة : أعلم من بقى بالتفسير مجاهد . وقال ابن سعد : كان ثقة ، فقيها ، عالما ، كثير الحديث . وقال ابن حبان : كان فقيها ، ورعا ، عابداً ، متقنا . وأخرج ابن جرير فى تفسيره عن أبى بكر الحنفى قال : سمعت سفيان الثورى يقول : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به[1] . وكان رحمه الله جيد الحفظ ، وقد حدث بهذا عن نفسه فقال: قال لى ابن عمر : وددت أن نافعاً يحفظ حفظك[2] وقال الذهبى فى الميزان ، فى آخر ترجمة مجاهد : أجمعت الأمة على إمامة مجاهد والاحتجاج به . وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة . .

كل هذه شهادات من العلماء النقاد تشهد بعلو مكانته فى التفسير .

ولكن مع هذا كله ، كان بعض العلماء لا يأخذ بتفسيره ، فقد روى الذهبى فى ميزانه : أن أبا بكر بن عياش قال : قلت للأعمش : ما بال تفسير مجاهد مخالف ؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد ؟ — كما هى رواية ابن سعد — قال : كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب .

هذا هو كل ما أخذ على تفسيره ، ولكن لم نر أحداً طعن عليه فى صدقه وعدالته . وجملة القول فإن مجاهدا ثقة بلا مدافعة ، وإن صح أنه كان يسأل أهل الكتاب فما أظن أنه تخطى حدود ما يجوز له من ذلك ، لا سيما وهو تلميذ حبر الأمة ابن عباس ، الذى شدد النكير على من يأخذ عن أهل الكتاب ويصدقهم فيما يقولونه مما يدخل تحت حدود النهى الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

مجاهد والتفسير العقلى :

وكان مجاهد — رضى الله عنه — يعطى عقله حرية واسعة فى فهم بعض

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠ .

(٢) ميزان الاعتدال جـ ٣ ص ٩

نصوص القرآن التى يبدو ظاهرها بعيدا ، فإذا ما مر بنص قرآنى من هذا القبيل ، وجدناه ينزله بكل صراحة ووضوح على التشبيه والتمثيل ، وتلك الخطة كانت فيما بعد مبدءا معترفاً به ومقرراً لدى المعتزلة فى تفسير القرآن بالنسبة لمثل هذه النصوص .

وإذا نحن رجعنا إلى تفسير ابن جرير وقرأنا بعض ما جاء فيه عن مجاهد نجده يطبق هذا المبدأ عمليا فى مواضع كثيرة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٥) من سورة البقرة « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » نجده يقول — كما يروى عنه ابن جرير — « مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم كمثل الحمار يحمل أسفاراً » . ولكن نجد ابن جرير لا يرتضى هذا التفسير من مجاهد فيقول معقباً عليه : وهذا القول الذى قاله مجاهد قول لظاهر ما دل عليه كتاب الله مخالف ... ثم يمضى فى تفنيد هذا القول بأدلة واضحة قوية[١] .

وكذلك نجد ابن جرير ينقل عن مجاهد أنه فسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢و٢٣) من سورة القيامة (وجوه يومئذ ناضرة ٭ إلى ربها ناظرة) بقوله « تنتظر الثواب من ربها ، لا يراه من خلقه شىء[٢] » وهذا التفسير عن مجاهد كان فيما بعد متكئاً قوياً للمعتزلة فيما ذهبوا إليه فى مسألة رؤية الله تعالى .

ولعل مثل هذا المسلك من مجاهد ، هو الذى جعل بعض المتورعين الذين كانوا يتحرجون من القول فى القرآن برأيهم يتقون تفسيره ، ويلومونه على قوله فى القرآن بمثل هذه الحرية الواسعة فى الرأى ، فقد روى عن ابن مجاهد

---

(١) تفسير الطبرى ج ١ ص ٢٣٥

(٢) تفسير الطبرى ج ٢٩ ص ١٢٠ .

أنه قال : قال رجل لأبى : أنت الذى تفسر القرآن برأيك ؟ فبكى أبى ثم قال : إنى إذاً لجرىء ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم .

ومهما يكن من شىء ، فجاهد رضى الله عنه إمام فى التفسير غير مدافع ، وليس فى إعطائه لنفسه مثل هذه الحرية ما يغض من قيمته . أو يقلل من مكانته(١) .

٣ — عكرمة

ترجمته : هو أبو عبد الله عكرمة البربرى المدنى مولى ابن عباس « أصله من البربر بالمغرب . روى عن مولاه ، وعلى بن أبى طالب ، وأبى هريرة ، وغيرهم .

اختلاف العلماء فى توثيقة :

وقد اختلف العلماء فى توثيقه ، فكان منهم من لا يثق به ولا يروى له ، وكان منهم من يوثقه ويروى له .

مطاعن من لا يوثقونه :

وإنا لنجد العلماء الذين لم يثقوا بعكرمة ، يصفونه بالجرأة على العلم ويقولون : إنه كان يدعى معرفة كل شىء فى القرآن ، ويزيدون على ذلك فيتهمونه بالكذب على مولاه ابن عباس ، وبعد هذا كله ، يتهمونه بأنه كان يرى رأى الخوارج ، ويزعم أن مولاه كان كذلك ، وقد نقل ابن حجر فى تهذيب التهذيب كل هذه التهم ونسبها لقائليها ، فمن ذلك : ما رواه شعبة عن عمرو بن مرة قال : سأل رجل ابن المسيب عن آية من القرآن ، فقال : لا تسألنى عن القرآن وسل

(١) أنظر ترجمة مجاهد فى تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٤٢ — ٤٤ .

من يزعم أنه لا يخفى عليه منه شيء (يعنى عكرمة) وحكى إبراهيم بن ميسرة أن طاوسا قال : لو أن مولى ابن عباس اتقى الله وكف من حديثه لشدت إليه المطايا ، وروى أبو خلف الجزار عن يحيى البكاء قال : سمعت ابن عمر يقول لنافع : اتق الله ، ويحك يانافع ، ولا تكذب على كما كذب عكرمة على ابن عباس . وروى أن سعيد بن المسيب قال مثل ذلك لمولاه ، وروى ابن سعد : أن على بن عبد الله كان يوثقه على باب الكنيف ويقول : إن هذا يكذب على أبى .

ثم بعد ذلك كله يصورون للناس مبلغ كراهة معاصريه له فيقولون : إنه مات هو وكثير عزة فى يوم واحد ، فلم يشهد جنازته أحد ، أما كثير فقد شيعه خلق كثير ....

تفنيد هذه المطاعن ودفاع عكرمة عن نفسه :

هذا الذى تقدم هو بعض الروايات التى رواها من لا يثق بعدالة عكرمة ، وكلها تهم باطلة لا تقوم على أساس ، فعكرمة مولى ابن عباس ، كان يلازمه ويخالطه ، فلا يضيره كثرة الرواية عنه ؛ لأن هذا أمر طبيعى ، ولا يمكن أن يعد افتراء على العلم وافتياتا على الرواية ، لأن كثرة الرواية ليست من المطاعن التى توجه إلى الراوى وتذهب بعدالته ، فهذا أبو هريرة قال الناس عنه فى عصره : أكثر أبو هريرة ، فبين لهم سبب إكثاره من الرواية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أنه كان يلازم النبى على ملء بطنه ، ولا شيء يشغله كما شغل غيره من الصحابة بالصفق فى الأسواق ، فهل ذهبت عدالة أبى هريرة وفقدنا الثقة به لكثرة روايته ؟ اللهم لا .

ثم إن هذا الإتهام لم يخف على عكرمة ، بل كان يبلغه عن متهميه فيود لو أنه ووجه به ليفنده ، فقد روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال : قال عكرمة : رأيت هؤلاء الذين يكذبوننى ، يكذبوننى من خلفى ، أفلا يكذبوننى فى وجهى ؟ فإذا كذبونى فى وجهى فقد والله كذبونى . . . ثم نراه يستشهد

بعض أصحابه على صدقه فيما يروى عن مولاه ، فعن عثمان بن حكيم قال : كنت جالساً مع أبى أمامة سهل بن حنيف، إذ جاء عكرمة فقال : يا أبا أمامة ، أذكرك الله ، هل سمعت ابن عباس يقول : ما حدثكم عكرمة عنى فصدقوه فإنه لم يكذب على ؟ فقال أبو أمامة : نعم .

هذا هو رد عكرمة على متهميه بالكذب ، وتفنيده لما نسب إليه من الافتراء على مولاه .

وأما ما رواه ابن سعد : من أن على بن عبد الله بن عباس كان يوثقه على باب الكنيف ويقول : إن هذا يكذب على أبى ، فإنه مردود بما رواه ابن حجر فى تهذيب التهذيب : من أن ابن عباس مات وعكرمة على الرق ، فباعه ولده على بن عبد الله بن عباس ، من خالد بن يزيد بن معاوية ، بأربعة آلاف دينار ، فأتى عكرمة مولاه عليا فقال له : ماخير لك ، بعت علم أبيك بأربعة آلاف ؟ فاستقاله فأقاله فأعتقه ، اهـ .

ثم نجد بعد هذا أن ما روى عن ابن عمر لايصح ؛ لأنه من رواية يحيى البكاء ، ويحيى البكاء متروك الحديث ، ومن المحال أن يجرح العدل بكلام المجروح (١)

وأما ما قيل من أنه توفى هو وكثير الشاعر فى يوم واحد فلم يشهد أحد جنازته ، بخلاف كثير فقد شيعه الكثير من الناس ، فلسنا نعلم نصيب هذا القول من الصحة ، ولعل ذلك على فرض صحته — كما يقول ابن حجر — كان بسبب تطلب الأمير له وتغيبه عنه حتى مات . وليس صحيحاً ماقيل من أن هذا يرجع إلى تحقير المولى إزاء تشريف الحر (٢)

---

(١) مقدمة فتح البارى ج ٢ ص ١٥٠ .

(٢) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٧٥

ويحقق ابن حجر بعد هذا : أن ما نقل من أنهم شهدوا جنازة كثير وتركوا عكرمة ، لم يثبت ، لأن ناقله لم يسم .

وأما مارمى به من الميل للخوارج ، فافتراء عليه ، ولا يكاد يتفق مع سلوكه فى حياته ، قال ابن حجر « فأما البدعة ، فإن ثبتت عليه فلا تضر حديثه ، لأنه لم يكن داعية ، مع أنها لم تثبت عليه »(١) .

شهادات الموثقين له :

ولو أننا تتبعنا أقوال المنصفين ، الذين عرفوا حقيقة هذا التابعى الجليل ، لوجدناه رجلا ثبتاً ، لا يتهم فى عدالته ، وكل ماقيل فى شأنه من التهم لا يراد به إلا أن يفقد الناس ثقتهم به وركونهم إليه ، وإليك ماقاله بعض علماء الجرح والتعديل لتقف على عدالة الرجل وصدق روايته . . .

قال المروزى : قلت لأحمد : يحتج بحديث عكرمة ؟ فقال نعم يحتج به . وقال ابن معين : إذا رأيت إنسانا يقع فى عكرمة ، وفى حماد بن سلمة ، فاتهمه على الإسلام . وقال العجلى فيه : مكى تابعى ثقة ، برىء مما يرميه به الناس من الحرورية . وقال البخارى : ليس أحد من أصحابنا إلا وهو يحتج بعكرمة . وقد وثقه النسائى وأخرج له فى كتابه السنن ، كما أخرج له البخارى ، ومسلم ، وأبو داود ، وغيرهم ، وكان مسلم بن الحجاج من أسوئهم رأيا فيه ، ثم عدله بعد ماجرحه . وقال المروزى : أجمع عامة أهل العلم بالحديث على الاحتجاج بحديث عكرمة ، واتفق على ذلك رؤساء أهل الحديث من أهل عصرنا ، منهم أحمد بن حنبل ، وابن راهويه ، ويحيى بن معين ، وأبو ثور ، ولقد سألت إسحق بن راهويه عن الاحتجاج بحديثه فقال : عكرمة عندنا إمام الدنيا ، تعجب من سؤالى إياه ؟

---

(١) مقدمه فتح البارى ج٢ ص١٤٨

ربعد ... فهل هناك من يقدم على البخارى ومسلم وجميع من ذكرت من علماء الرواية فى باب التعديل والتجريح ؟ ، وإذا كان هؤلاء هم أعلم الناس بالرجال، فهل نقبل تجريح من عداهم ونترك توثيقهم ؟؟

الحق أن عكرمة تابعى موثوق بعدالته ودينه ، وكل مارمى به كذب واختلاق !! ..

مبلغه من العلم ومكانته فى التفسير : هذا وإن عكرمة رضى الله عنه ، كان على مبلغ عظيم من العلم ، وعلى مكانة عالية من التفسير خاصة، وقد شهد له العلماء بذلك ، فقال ابن حبان : كان من علماء زمانه بالفقه والقرآن . وقال : عمرو بن دينار : دفع إلى جابر بن زيد مسائل أسأل عنها عكرمة وجعل يقول. هذا عكرمة مولى ابن عباس ، هذا البحر فسلوه . وكان الشعبي يقول : مابقى أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة . وقال حبيب بن أبى ثابت : اجتمع عندى خمسة : طاوس ، ومجاهد ، وسعيد بن جبير ، وعكرمة ، وعطاء ، فأقبل مجاهد وسعيد بن جبير يلقيان على عكرمة التفسير ، فلم يسألاه عن آية إلا فسرها لهما، فلما نفد ماعندهما جعل يقول : أنزلت آية كذا فى كذا ، وأنزلت آية كذا فى كذا . وقال يحيى بن أيوب المصرى : سألنى ابن جريج : هل كتبتم عن عكرمة؟ فقلت : لا ، قال : فاتكم ثلثا العلم .

هذا بعض ماقيل فى عكرمة ، مما يشهد لمكانته فى العلم عامة ، وفى التفسير خاصة ، ولا عجب ، فإن ملازمته لمولاه ابن عباس ، ومبالغة مولاه فى تعليمه إلى درجة أنه كان يضع فى رجله الكبل[1] ، ويعلمه القرآن والسنن ، جعلته ينهل من معينه الفياض ، ويأخذ عنه علمه الغزير ، بل نجد أكثر من هذا فيما يرويه ابن حجر فى تهذيب التهذيب ، من أن عكرمة بين لابن عباس بعض ما أشكل عليه من القرآن ، قال : روى داود بن أبى هند عند عكرمة قال:

---

(١) الكبل : القيد .

قرأ ابن عباس هذه الآية « لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديداً[١] » ، قال ابن عباس : لم أدر أنجا القوم أم هلكوا ؟ قال : فما زلت أبين له حتى عرف أنهم نجو فكسانى حلة » ، وهذا الخبر يدل على مبلغ ثقة ابن عباس بمولاه وتلميذه ، وعلى مقدار إعجابه بعلمه ، وتقديره لفهمه .

وجملة القول ، فإن عكرمة أمين فى روايته ، مقدم فى علمه ، مبرز فى فهمه لكتاب الله ... وكيف لا يكون كذلك وهو وارث علم ابن عباس ؟ .

توفى رحمه الله سنة ١٠٤ هـ أربع ومائة من الهجرة ، فرضى الله عنه وأرضاه[٢] .

٤ ـ طاوس بن كيسان اليمانى

ترجمته ومكانته : فى التفسير : هو أبو عبد الرحمن طاوس بن كيسان ، اليمانى الحميرى الجندى[٣] مولى بحير بن ريسان ، وقيل مولى همدان . وروى عن العبادلة الأربعة وغيرهم ، وروى عنه أنه قال : جالست خمسين من الصحابة . وكان رحمه الله عالماً متقنا ، خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى ، ويرجع ذلك إلى مجالسته لكثير من الصحابة يأخذ عنهم ويروى لهم ، ولكن نجده يجلس إلى ابن عباس أكثر من جلوسه لغيره من الصحابة ، ويأخذ عنه فى التفسير أكثر مما يأخذ عن غيره منهم ، ولهذا عددناه من تلاميذ ابن عباس ، وذكرناه فى رجال مدرسته بمكة .

ولقد كان طاوس على جانب عظيم من الورع والأمانة ، حتى شهد له بذلك أستاذه ابن عباس فقال فيه : إنى لأظن طاوسا من أهل الجنة ، وقال فيه

---

(١) فى الآية (١٦٤) من سورة الأعراف

(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ٧ ص ٢٦٣ - ٢٧٣

(٣) الجندى بفتح الجيم والنون نسبة إلى بلد باليمن كان يسكنها .

عمرو بن دينار : ما رأيت أحداً مثل طاوس . وقد أخرج له أصحاب الكتب الستة .وقال ابن معين . إنه ثقة. وقال ابن حبان : كان من عباد أهل اليمن ومن سادات التابعين ، وكان مستجاب الدعوة ، وحج أربعين حجة . وقال الذهبي : كان طاوس شيخ أهل اليمن، وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة(١).

٥ — عطاء ابن أبي رباح

ترجمته : هو أبو محمد عطاء بن أبي رباح المكي القرشي مولاهم، ولد سنة سبع وعشرين ، وتوفى سنة أربع عشرة ومائة من الهجرة على أرجح الأقوال . كان ـ رحمه الله ـ أسود ، أعور ، أفطس ، أشل ، أعرج ، ثم عمى ذلك .

روى عن ابن عباس، وابن عمر، وابن عمرو بن العاص ، وغيرهم . وحدث عن نفسه:أنه أدرك مائتين من الصحابة ، وكان ثقة ، فقيهاً،عالماً ، كثير الحديث، وانتهت إليه فتوى أهل مكة ، وكان ابن عباس يقول لأهل مكة إذا جلسوا إليه : تجتمعون إلى ياأهل مكة وعندهم عطاء ؟. وقال فيه أبو حنيفة : مارأيت فيمن لقيت أفضل من عطاء ، ولا لقيت فيمن لقيت أكذب من جابر الجعفي . وقال الأوزاعي : مات عطاء يوم مات وهو أرضى أهل الأرض عند الناس . وقال سلمة بن كهيل : مارأيت أحدا يريد بهذا العلم وجه الله إلا ثلاثة : عطاء ، ومجاهد ، وطاوس . وقال ابن حبان : كان من سادات التابعين فقهاً ، وعلماً ، وورعاً ، وفضلا(٢) . وهو عند أصحاب الكتب الستة .

مكانته فى التفسير : كل ماتقدم من أقوال العلماء فى عطاء يشهد لمكانته العلمية على وجه العموم ويدل على مبلغ ثقته وصدقه ، وليس أدل على ذلك من شهادة أستاذه ابن عباس له بذلك ، ونجد شهرة عطاء على غيره من أصحاب

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٨ - ١٠ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ٧ ص ١٩٩ - ٢٠٣ .

ابن عباس ، تتجلى فى معرفته بمناسك الحج ، ولهذا قال قتادة : كان أعلم التابعين أربعة : كان عطاء بن أبى رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير . وكان عكرمة أعلمهم بالسير . وكان الحسن أعلمهم بالحلال والحرام. وإذا نحن تتبعنا الرواة عن ابن عباس نجد أن عطاء بن أبى رباح لم يكثر من الرواية عنه كما أكثر غيره ، ونجد مجاهدا وسعيد بن جبير يسبقانه من ناحية العلم بتفسير كتاب الله ، ولكن هذا لا يقلل من قيمته بين علماء التفسير ، ولعل إقلاله فى التفسير يرجع إلى تحرجه من القول بالرأى ، فقد قال عبد العزيز ابن رفيع : سئل عطاء عن مسألة فقال : لا أدرى ، فقيل له : ألا تقول فيها برأيك ؟ قال إنى أستحى من الله أن يدان فى الأرض برأيى .

(٢) مدرسة التفسير بالمدينة

قيامها على أبى بن كعب:

كان بالمدينة كثير من الصحابة ، أقاموا بها ولم يتحولوا عنها كما تحول كثير منهم إلى غيرها من بلاد المسلمين ، فجلسوا لأتباعهم يعلمونهم كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، فقامت بالمدينة مدرسة للتفسير ، تتلمذ فيها كثير من التابعين لمشاهير المفسرين من الصحابة . ونستطيع أن نقول : إن قيام هذه المدرسة كان على أبى بن كعب ، الذى يعتبر بحق أشهر من تتلمذ له مفسروا التابعين بالمدينة ، وذلك لشهرته أكثر من غيره فى التفسير ، وكثرة ما نقل لنا عنه فى ذلك .

أشهر رجالها :

وقد وجد بالمدينة فى هذا الوقت كثير من التابعين المعروفين بالتفسير ، اشتهر من بينهم ثلاثة ، هم زيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظى. وهؤلاء منهم من أخذ عن أبى مباشرة ، ومنهم من أخذ عنه بالواسطة .

وأرى أن أسواق نبذة عن تاريخ كل واحد من هؤلاء الثلاثة ، بما يتناسب مع جانبه العلمى فى التفسير فأقول :

١ - أبو العاليـــة

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو العالية رفيع بن مهران الرياحى مولاهم ، أدرك الجاهلية ، وأسلم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم بسنتين . روى عن على ، وابن مسعود ، وابن عباس . وابن عمر ، وأبى بن كعب ، وغيرهم ، وهو من ثقات التابعين المشهورين بالتفسير . قال فيه ابن معين ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم : ثقة . وقال اللالكائى : مجمع على ثقته . وقال فيه العجلى : تابعى ثقة . من كبار التابعين . وقد أجمع عليه أصحاب الكتب الستة. وكان يحفظ القرآن ويتقنه ، وروى قتادة عنه أنه قال : قرأت القرآن بعد وفاة نبيكم بعشر سنين . وروى معمر عن هشام عن حفصة عنه أنه قال : قرأت القرآن على عهد عمر ثلاث مرات . وقال فيه ابن أبى داود : ليس أحد بعد الصحابة أعلم بالقراءة من أبى العالية .

وتروى عن أبى بن كعب نسخه كبيرة فى التفسير ، يرويها أبو جعفر الرازى ، عن الربيع بن أنس ، عن أبى العالية ، عن أبىّ . وقلنا فيما تقدم : إن هذا الإسناد صحيح ، وقلنا أيضاً : إن ابن جرير وابن أبى حاتم أخرجا من هذه النسخة كثيراً ، كما أخرج منها الحاكم فى مستدركه ، والإمام أحمد فى مسنده . وكانت وفاته سنة تسعين من الهجرة على أرجح الأقوال فى ذلك[1] .

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٢٨٤ ـ ٢٨٥

٢ ـ محمد بن كعب القرظى

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو حمزة ، أو أبو عبد الله ، محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظى المدنى ، من حلفاء الأوس . روى عن على ، وابن مسعود ، وابن عباس ، وغيرهم . وروى عن أبى بن كعب بالواسطة . وقد اشتهر بالثقة ، والعدالة ، والورع ، وكثرة الحديث ، وتأويل القرآن . قال ابن سعد : كان ثقة ، عالماً ، كثير الحديث ، ورعاً : وقال العجلى : مدنى ، تابعى ، ثقة ، رجل صالح . عالم بالقرآن : وهو عند أصحاب الكتب الستة . وقال ابن عون : ما رأيت أحداً أعلم بتأويل القرآن من القرظى[1] . وقال ابن حبان : كان من أفاضل أهل المدينة علماً وفقها ، وكان يقص فى المسجد فسقط عليه وعلى أصحابه سقف فمات وهو وجماعة معه تحت الهدم ، سنة ثمانى عشرة ومائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك ، وهو ابن ثمان وسبعين سنة .

٣ ـ زيد بن أسلم

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو أسامة ، أو أبو عبد الله ، زيد بن أسلم ، العدوى المدنى الفقيه المفسر ، مولى عمر بن الخطاب رضى الله عنه . كان من كبار التابعين الذين عرفوا بالقول فى التفسير والثقة فيما يروونه ، قال فيه الإمام أحمد ، وأبو زرعة ، وأبو حاتم . والنسائى : ثقة . ويكفينا شهادة هؤلاء الأربعة الأعلام دليلا قوياً على ثقته وعدالته ، كما أنه عند أصحاب الكتب الستة .

ولقد كان زيد بن أسلم معروفاً بين معاصريه بغزارة العلم ، فكان منهم من

---

(١) خلاصة تذهيب الكمال ص ٢٠٥ .

يجلس إليه ، ويأخذ عنه ، ويرى أنه ينفعه أكثر من غيره ، يدلنا على هذا ما رواه البخارى فى تاريخه أن على بن الحسين كان يجلس إلى زيد بن أسلم ويتخطى مجلس قومه ، فقال له نافع بن جبير بن مطعم : تتخطى مجالس قومك إلى عبد عمر بن الخطاب ؟ فقال على : إنما يجلس الرجل إلى من ينفعه فى دينه .

وقد عرف زيد بأنه كان يفسر القرآن برأيه ولا يتحرج من ذلك ، فقد روى حماد بن زيد ، عن عبيد الله بن عمر أنه قال فيه : لا أعلم به بأساً ، إلا أنه يفسر برأيه القرآن ويكثر منه ، وهذه شهادة من عبيد الله بن عمر أن زيداً ثقة لا يؤخذ عليه شىء إلا أنه كان يكثر من القول بالرأى ، وهذا لا يعد مغمزاً من عبيد الله فى ثقته وعدالته ، كما لا نستطيع أن نعد هذا طعناً منه فى علمه ، فلعل عبيد الله كان ممن يتورعون عن القول فى القرآن برأيهم كغيره من الصحابة والتابعين ، وكان زيد يرى جواز تفسير القرآن بالرأى فلا يتحرج منه كما لم يتحرج من ذلك كثير من الصحابة والتابعين ، ولا نجد فى العلماء من نسب زيد بن أسلم إلى مذهب من المذاهب المبتدعة حتى نقول إنه كان يفسر القرآن برأيه مطابقاً لمذهبه البدعى ، ولو كان شىء من ذلك لما سكت عبيد الله عن بيانه ، ولما حكم عليه حكمه هذا ، الذى يدل على ثقته وعدالته ، وإن دل على اختلافهما فى جواز التفسير بالرأى .

وأشهر من أخذ التفسير عن زيد بن أسلم من علماء المدينة : ابنه عبد الرحمن بن زيد ، ومالك بن أنس إمام دار الهجرة .

وكانت وفاته سنة ست وثلاثين ومائة من الهجرة وقيل غير ذلك .[1]

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٣ ص ٣٩٥ — ٣٩٧ .

(٣) مدرسة التفسير بالعراق

قيامها على ابن مسعود :

قامت مدرسة التفسير بالعراق على عبد الله بن مسعود رضى الله عنه، وكان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير ، غير أن عبد الله ابن مسعود كان يعتبر الأستاذ الأول لهذه المدرسة ، نظراً لشهرته فى التفسير وكثرة المروى عنه فى ذلك ، ولأن عمر رضى الله عنه لما ولى عمار بن ياسر على الكوفة ، سير معه عبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً ، فكونه معلم أهل الكوفة بأمر أمير المؤمنين عمر ، جعل الكوفيين يجلسون إليه ، ويأخذون عنه أكثر مما يأخذون عن غيره من الصحابة .

ويمتاز أهل العراق بأنهم أهل الرأى . وهذه ظاهرة نجدها بكثرة فى مسائل الخلاف ، ويقول العلماء : إن ابن مسعود هو الذى وضع الأساس لهذه الطريقة فى الاستدلال ، ثم توارثها عنه علماء العرق ، ومن الطبيعى أن تؤثر هذه الطريقة فى مدرسة التفسير ، فيكثر تفسير القرآن بالرأى والاجتهاد ، لأن استنباط مسائل الخلاف الشرعية ، نتيجة من نتائج إعمال الرأى فى فهم نصوص القرآن والسنة .

أشهر رجالها :

وقد عرف بالتفسير من أهل العراق كثير من التابعين ، اشتهر من بينهم علقمة بن قيس ، ومسروق ، والأسود بن يزيد ، ومرة الهمدانى ، وعامر الشعبى ، والحسن البصرى ، وقتادة ابن دعامة السدوسى . ونتكلم عن كل واحد من هؤلاء على الترتيب :

١ — علقمة بن قيس

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو علقمة بن قيس ، بن عبد الله ، بن مالك ، النخعى الكوفى ، ولد فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم . روى عن عمر وعثمان ، وعلى ، وابن مسعود ، وغيرهم . وهو من أشهر رواة عبد الله ابن مسعود ، وأعرفهم به ، وأعلمهم بعلمه . قال عثمان بن سعيد : قلت لابن معين : علقمة أحب إليك أم عبيدة ؟ فلم يخير ، قال عثمان: كلاهما ثقة ، وعلقمة أعلم بعبد الله . وقال أبو المثنى : إذا رأيت علقمة فلا يضرك أن لا ترى عبد الله ، أشبه الناس به سمتا وهديا . وقال داود بن أبى هند : قلت لشعبة : أخبرنى عن أصحاب عبد الله ، قال : كان علقمة أنظر القوم به . وروى عبد الرحمن ابن يزيد قال : قال عبد الله : ما أقرأ شيئاً ولا أعلمه إلا علقمة يقرؤه ويعلمه . وقال إبراهيم النخعى . كان أصحاب عبد الله الذين يقرئون الناس ويعلمونهم السنة ويصدر الناس عن رأيهم ستة : علقمة ، والأسود . . . وذكر الباقين . وكان رحمه الله ثقة مأمونا ، على جانب عظيم من الورع والصلاح . قال فيه الإمام أحمد : ثقة من أهل الخير . وهو عند أصحاب الكتب الستة . وقال مرة الهمدانى : كان علقمة من الربانيين ، قال أبو نعيم : مات سنة ٦١ إحدى وستين أو اثنتين وستين من الهجرة ، وعمره تسعون سنة .(١)

٢ — مسروق(٢)

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو عائشة ، مسروق بن الأجدع ابن مالك بن أمية الهمدانى الكوفى العابد . سأله عمر يوما عن اسمه فقال له : اسمى مسروق بن الأجدع، فقال عمر: الأجدع شيطان، أنت مسروق بن عبد الرحمن

---

(١) تهذيب التهذيب جـ٧ ص ٢٧٦ — ٢٧٨ .

(٢) قيل انه سرق فى صغره ، ثم وجد فسمى بذلك .

روى عن الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وأبي بن كعب ، وغيرهم . وكان أعلم أصحاب ابن مسعود ، يمتاز بورعه وعلمه وعدالته ، وكان شريح القاضى يستشيره فى معضلات المسائل . وقال مالك بن مغول : سمعت أبا السفر غير مرة قال : ما ولدت همدانية مثل مسروق . وقال الشعبي : ما رأيت أطلب للعلم منه . وقال على ابن المدينى : ما أقدم على مسروق من أصحاب عبد الله أحداً .
وهذه الشهادة من ابن المدينى ، يبدو أنها قائمة على ما امتاز به مسروق من غزارة العلم الذى استفاده من جلوسه لكثير من الصحابة ولابن مسعود على الأخص ، الأمر الذى جعله يجمع علم هؤلاء جميعاً ، ولقد حدث مسروق - رضى الله عنه - أنه جالس أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدهم كالإخاذ ، فالإخاذ يروى الرجل ، والإخاذ يروى الرجلين ، والإخاذ يروى العشرة ، والإخاذ يروى المائة ، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم .

ثم إن هذا التتلمذ لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولابن مسعود الذى اشتهر بتفسير القرآن ، جعل من مسروق إماماً فى التفسير ، وعالما خبيراً بمعانى كتاب الله تعالى . وقد حدث مسروق بما يدل على أنه استفاد الكثير من التفسير عن أستاذه ابن مسعود فقال : كان عبد الله — يعنى ابن مسعود — يقرأ علينا السورة ثم يحدثنا فيها ويفسرها عامة النهار .

أما ثقته وعدالته، فأمر اعترف به علماء الجرح والتعديل ، فقال ابن معين: ثقة ، لايسأل عن مثله . وقال ابن سعد : كان ثقة ، وله أحاديث صالحة . وذكره ابن حبان فى الثقات ، وقد أخرج له الستة . هذا وقد روى شعبة عن أبى إسحق أنه قال : حج مسروق فلم ينم الا ساجداً . وكانت وفاته سنة ثلاث وستين من الهجرة على الأشهر .(١)

٣ — الأسود بن يزيد

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو عبد الرحمن ، الأسود بن يزيد ابن قيس ، النخعى . كان من كبار التابعين ، ومن رواة عبد الله بن مسعود .

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ ١٠ ص ١٠٩ - ١١١ .

روى عن أبي بكر ، وعمر ، وعلى ، وحذيفة وبلال ، وغيرهم . وكان رحمه‌الله ثقة ، صالحاً ، على جانب عظيم من الفهم لكتاب الله تعالى . قال فيه الإمام أحمد : ثقة من أهل الخير . وقال فيه يحي بن معين : ثقة . وقال ابن سعد : ثقة وله أحاديث صالحة . وهو عند أصحاب الكتب الستة . وقال الحكم : كان الأسود يصوم الدهر ، وذهبت إحدى عينيه من الصوم . وذكره إبراهيم النخعى فيمن كان يفتى من أصحاب ابن مسعود . وقال ابن حبان فى الثقات : كان فقيها زاهداً . توفى بالكوفة سنة أربع وسبعين ، أو خمس وسبعين من الهجرة ، على الخلاف فى ذلك[1] .

٤ — مرة الهمدانى

ترجمته : هو أبو إسماعيل ، مرة ابن شراحيل الهمدانى ، الكوفى ، العابد المعروف بمرة الطيب ، ومرة الخير . لقب بذلك لعبادته ، وشدة ورعه ، وكثرة صلاحه . روى عن أبي بكر ، وعمر ، وعلى ، وابن مسعود ، وغيرهم . وروى عنه الشعبى ، وغيره من أصحابه . وثقه ابن معين ، والعجلى . وهو عند أصحاب الكتب الستة . قال فيه الحارث الغنوى : سجد مرة الهمدانى حتى أكل التراب وجهه . وكان يصلى كل يوم ستمائة ركعة ، وتوفى سنة ٧٦ ست وسبعين من الهجرة[2] .

٥ — عامر الشعبى

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو عمرو . عامر بن شراحيل الشعبى ، الحميرى ، الكوفى ، التابعى الجليل ، قاضى الكوفة . روى عن عمر ، وعلى ، وابن مسعود ، ولم يسمع منهم[3] . وروى عن أبي هريرة ، وعائشة ، وابن عباس

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ١ ص ٣٤٢ – ٣٤٣ .
(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ١٠ ص ٨٨ – ٨٩ .
(٣) خلاصة تذهيب الكمال ص ١٥٥ .

وأبى موسى الأشعرى ، وغيرهم . قال الشعبي : أدركت خمسمائة من الصحابة . وقال العجلى : سمع من ثمانية وأربعين من الصحابة .

وقال عبد الملك بن عمير : مر ابن عمر على الشعبي وهو يحدث بالمغازى فقال : لقد شهدت القوم ، فلهو أحفظ وأعلم بها . وقال : مكحول ما رأيت أفقه منه . وقال ابن عيينة : كان الناس تقول بعد الصحابة : ابن عباس فى زمانه ، والشعبي فى زمانه ، والثورى فى زمانه . وقال ابن شبرمة : سمعت الشعبي يقول : ما كتبت سوداء فى بيضاء ، ولا حدثنى رجل بحديث إلا حفظته ، ولا حدثنى رجل بحديث فأحببت أن يعيده على . وقال ابن معين . وأبوزرعة ، وغير واحد : الشعبي ثقه . وقال ابن حبان فى الثقات : كان فقيها شاعراً . وهو عند أصحاب الكتب الستة . وقال أبو جعفر الطبرى فى طبقات الفقهاء : كان ذا أدب وفقه وعلم . وحكى ابن أبى خيثمة فى تاريخه عن أبى حصين قال : ما رأيت أعلم من الشعبي ، فقال أبو بكر بن عياش : ولا شريح ؟ فقال . تريدنى أكذب ؟ ما رأيت أعلم من الشعبي . وقال أبو إسحق الحبال : كان واحد زمانه فى فنون العلم . وعن سليمان بن أبى مجلز قال : ما رأيت أحداً أفقه من الشعبي ، لا سعيد بن المسيب ، ولا طاوس ، ولا عطاء ، ولا الحسن ، ولا ابن سيرين . وعن أبى بكر الهذلى قال : قال لى ابن سيرين : الزم الشعبي ، فلقد رأيته يستفتى والصحابة متوافرون. وقال ابن سيرين : قدمت الكوفة وللشعبي حلقة ، وأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ كثير . وقال عاصم : ما رأيت أحداً أعلم بحديث أهل الكوفة والبصرة والحجاز من الشعبي .

كل هذه الشهادات من العلماء ، تدل على مبلغ علم الشعبي وعظيم حظه منه على اختلاف فنونه ، فمن حديث ، إلى تفسير ، إلى فقه ، إلى شعر ، إلى قوة حفظ ، وكثرة أخذ عن الصحابة وعلماء الأمصار المختلفة . وإذا كان الشعبي يفتى مع وجود الصحابة ووفرتهم ، ويجلس له كثير من أهل العلم يأخذون عنه ، فتلك لعمرى أكبر دلالة على عظيم مكانته العلمية ، وعلو منزلته بين أتباعه ومعاصريه.

وإذا كان الشعبى قد رزق حظاً وفراً من العلم ، ونال إعجاب معاصريه ، فإنه مع لم يكن جريئاً على كتاب الله حتى يقول فيه برأيه ، بل كان يتحرج من ذلك ، ويتوقف عن إجابة سائليه إذا لم يكن عنده شيء عن السلف ، فقد قال ابن عطية : كان جلة من السلف ، كسعيد بن المسيب ، وعامر الشعبى ، يعظمون تفسير القرآن . ويتوقفون عنه . تورعا واحتياطاً لأنفسهم ، مع إدراكهم وتقدمهم اه[١] ، وأخرج الطبرى عن الشعبى أنه قال : والله ما من آية إلا سألت عنها ولكنها الرواية عن الله اه[٢] . وأخرج عنه أيضا أنه قال : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن، والروح، والرأى »[٣] ومع هذا التوقف فإنا نرى الشعبى رجلا نقاداً لرجال التفسير فى عصره . وكثيراً ما كان يصرح بالطعن على من لا يعجبه مسلكه فى التفسير من معاصريه ، فقد ذكر أبو حيان : أن الشعبى كان لا يعجبه تفسير السدى ، ويطعن عليه وعلى أبى صالح ، لأنه كان يراهما مقصرين فى النظر »[٤]

وروى ابن جرير : أن الشعبى كان يمر بأبى صالح باذان[٥] فيأخذ بأذنه فيعركها ويقول : تفسر القرآن وأنت لا تقرأ القرآن[٦] . وروى ابن جرير أيضاً عن صالح بن مسلم قال : مر الشعبى على السدى وهو يفسر فقال : لأن يضرب على إستك بالطبل خير لك من مجلسك هذا[٧]

---

(١) مقدمة تفسير القرطبى جـ١ ص٣٤

(٢) مقدمة تفسير ابن جرير جـ١ ص٢٨

(٣) المرجع السابق

(٤) البحر المحيط جـ١ ص ١٣

(٥) باذان : اسمه ، ويقال : باذام بالميم

(٦) تفسير ابن جرير جـ١ ص ٣٠

(٧) المرجع السابق

هذا وإن الخلاف فى مولد الشعبي وفى وفاته كثير ، وأشهر الأقوال فى ذلك أنه ولد فى سنة عشرين وتوفى سنه ١٠٩ تسع ومائة من الهجرة (١) .

٦ — الحسن البصرى

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو سعيد ، الحسن بن أبى الحسن يسار البصرى مولى الأنصار ، وأمه خيرة مولاة أم سلمة . قال ابن سعد: ولد لسنتين بقيتا من خلافة عمر ونشأ بوادى القرى ، وكان فصيحاً ورعاً زاهداً ، لا يسبق فى وعظه ، ولا يدانى فى مبلغ تأثيره على قلوب سامعيه . روى عن على، وابن عمر ، وأنس ، وخلق كثير من الصحابة والتابعين .

هذا وإن الحسن البصرى ليجمع إلى صلاحه وروعه وبراعته فى الوعظ ، غزارة العلم بكتاب الله تعالى ، وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأحكام الحلال والحرام ، وقد شهد له بالعلم خلق كثير ، فقال أنس بن مالك : سلوا الحسن ، فإنه حفظ ونسينا . وقال سليمان التيمى : الحسن شيخ أهل البصرة . وقال مطر الوراق : كان جابر بن زيد رجل أهل البصرة ، فلما ظهر الحسن جاء رجل كأنما كان فى الآخرة ، فهو يخبر عما رأى وعاين . وروى أبو عوانة عن قتادة أنه قال : ما جالست فقيهاً قط إلا رأيت فضل الحسن عليه . وقال بكر المزنى من سره أن ينظر إلى أعلم عالم أدركناه فى زمانه ، فلينظر إلى الحسن ، فما أدركنا الذى هو أعلم منه . وقال الحجاج بن أرطاة : سألت عطاء بن أبى رباح فقال لى : عليك بذلك — يعنى الحسن — ذلك إمام ضخم يقتدى به . وكان إذا ذكر عند أبى جعفر الباقر قال : ذلك الذى يشبه كلامه كلام الأنبياء . وقال ابن سعد : كان الحسن جامعاً ، عالماً ، رفيعا ، فقيها ، ثقة ، مأمونا ، عابداً ، ناسكا ، كثير العلم فصيحاً ، جميلا ، وسيما . وقال حماد بن سلمة عن حميد : قرأت

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٦٥ — ٦٩ .

القرآن على الحسن ففسره على الإثبات يعنى — إثبات القدر — وكان يقول : من كذب بالقدر فقد كفر . وحديثه عند أصحاب الكتب الستة . توفى رحمه الله تعالى سنة عشر ومائة من الهجرة ، وهو ابن ثمان وثمانين سنة [1]

٧ — قتادة

ترجمته ومكانته فى التفسير : هو أبو الخطاب ، قتادة بن دعامة السدوسى الأكمه ، عربى الأصل . كان يسكن البصرة . روى عن أنس ، وأبى الطفيل ، وابن سيرين ، وعكرمة ، وعطاء بن أبى رباح . وغيرهم . وكان قوى الحافظة ، واسع الاطلاع فى الشعر العربى ، بصيراً بأيام العرب ، عليما بأنسابهم ، متضلعاً فى اللغة العربية ، ومن هنا جاءت شهرته فى التفسير . ولقد يشهد لقوة حفظه مارواه سلام بن مسكين قال حدثنى عمرو بن عبد الله ، قال : قدم قتادة على سعيد بن المسيب فجعل يسأله أياماً وأكثر ، فقال له سعيد : أكل ما سألتنى عن تحفظه ؟ قال نعم ، سألتك عن كذا فقلت فيه كذا ، وسألتك عن كذا فقلت فيه كذا ، وقال فيه الحسن كذا ، حتى رد عليه حديثاً كثيراً ، قال : فقال سعيد : ما كنت أظن أن الله خلق مثلك . وقد شهد له ابن سيرين بقوة الحافظة أيضاً ، فقال قتادة : هو أحفظ الناس

وكان قتادة على مبلغ عظيم من العلم فوق ما اشتهر به من معرفته لتفسير كتاب الله . حتى قدمه بعضهم على كثير من أقوانه ، وجعل بعضهم من النادر تقدم غيره عليه . وقال فيه سعيد بن المسيب : ما أتانى عراقى أحسن من قتادة . وقال معمر للزهرى : قتادة أعلم عندك أم مكحول ؟ قال : بل قتادة . وقال أبو حاتم : سمعت أحمد بن حنبل وذكر قتادة ، فأطنب فى ذكره ، فجعل ينشر من علمه وفقهه ومعرفته بالاختلاف والتفسير ، ووصفه بالحفظ والفقه ، وقال :

---

(١) انظر تهذيب التهذيب ج ٢ ص ٢٦٣ — ٢٧٠

قلما تجد من تقدمه ، أما المثل فلعل . وقال معمر : سالت ابا عمرو بن العلاء عن قوله تعالى « وما كنا له مقرنين »[١] فلم يجبنى ، فقلت : سمعت قتادة يقول : مطيقين ، فسكت ، فقلت له : ما تقول يا أبا عمرو ؟ فقال : حسبك قتادة ، ولولا كلامه فى القدر — وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا ذكر القدر فأمسكوا — ما عدلت به أحداً من أهل دهره[٢] » .

وهذا يدل على أن أبا عمرو كان يثق بعلم قتادة وبتفسيره للقرآن ، لولا ما ينسب إليه من الخوض فى القضاء والقدر . وكثيراً ما تحرج بعض الرواة من الرواية عنه لذلك ، ونجد أصحاب الصحاح يخرجون له، ويحتجون بروايته، ويكفينا هذا فى تعديله وتوثيقه : قال أبو حاتم : أثبت أصحاب أنس: الزهرى، ثم قتادة . وقال ابن سعد : كان ثقة مأمونا حجة فى الحديث ، وكان يقول بشىء من القدر . وقال ابن حبان فى الثقات : كان من علماء الناس بالقرآن والفقه ، ومن حفاظ أهل زمانه .

وكانت وفاته سنة سبع عشرة ومائة من الهجرة، وعمره إذ ذاك ست وخمسون سنة على المشهور[٣]

وبعد ... فهؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين ، وغالب أقوالهم فى التفسير تلقوها عن الصحابة ، وبعض منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب ، وما وراء ذلك فحض اجتهادهم ، ولا شك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة الفهم ، لقرب عهدهم من عهد النبوة ، واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة ، ولعدم فساد سليقتهم العربية ، الفساد الذى شاع فيما بعد ، حتى بلغ إلى درجة الهجنة والمزيج اللغوى .

---

(١) فى الآية (١٣) من سورة الزخرف .
(٢) وفيات الأعيان ج ٢ ص ١٧٩
(٣) انظر تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٣٥١ - ٣٥٦

ثم حمل أتباع التابعين هذا التراث العلمى الذى خلفه التابعون ، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من الغموض وما جد من اختلاف فى الرأى ، وعن هؤلاء أخذ من جاء بعدهم . . . وهكذا . تناقل الخلف علم السلف ، وحمل علماء كل جيل علم من سبقهم وزادوا عليه . سنة الله فى تدرج العلوم ، تبدأ ضيقة الدائرة ، محدودة المسائل ، ثم لا تلبث أن تتسع وتتضخم إلى أن تبلغ النهاية وتصل إلى الكمال .

° ° °

الفصل الثاني

قيمة التفسير المأثور عن التابعين

اختلف العلماء فى الرجوع إلى تفسير التابعين والأخذ بأقوالهم إذا لم يؤثر فى ذلك شيء عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين .

فنقل عن الإمام أحمد رضى الله عنه روايتان فى ذلك: رواية بالقبول، ورواية بعدم القبول ، وذهب بعض العلماء : إلى أنه لا يؤخذ بتفسير التابعى ، واختاره ابن عقيل ، وحكى عن شعبة . واستدل أصحاب هذا الرأى على ماذهبوا إليه: بأن التابعين ليس لهم سماع من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا يمكن الحمل عليه كما قيل فى تفسير الصحابى : إنه محمول على سماعه من النبى صلى الله عليه وسلم . وبأنهم لم يشاهدوا القرائن والأحوال التى نزل عليها القرآن ، فيجوز عليهم الخطأ فى فهم المراد وظن ما ليس بدليل دليلا ، ومع ذلك فعدالة التابعين غير منصوص عليها كما نص على عدالة الصحابة . نقل عن أبى حنيفة أنه قال: ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين ، وما جاء عن الصحابة تخيرنا ، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال .

وقد ذهب أكثر المفسرين : إلى أنه يؤخذ بقول التابعى فى التفسير ، لأن التابعين تلقوا غالب تفسيراتهم عن الصحابة ، فمجاهد مثلا يقول: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته ، أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها . وقتاده يقول : مافى القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً ، ولذا حكى أكثر المفسرين أقوال التابعين فى كتبهم ونقلوها عنهم مع اعتمادهم لها .

والذى تميل إليه النفس : هو أن قول التابعى فى التفسير لا يجب الأخذ به

إلا إذا كان مما لامجال للرأى فيه ، فإنه يؤخذ به حينئذ عند عدم الريبة ، فإن ارتبنا فيه ، بأن كان يأخذ من أهل الكتاب ، فلنا أن نترك قوله ولانعتمد عليه ، أما إذا أجمع التابعون على رأى فإنه يجب علينا أن نأخذ به ولا نتعداه إلى غيره .

قال ابن تيمية : قال شعبة بن الحجاج وغيره : أقوال التابعين ليست حجة ، فكيف تكون حجة فى التفسير ؟ يعنى أنها لاتكون حجة على غيرهم ممن خالفهم ، وهذا صحيح ، أما إذا أجمعوا على الشيء فلا يرتاب فى كونه حجة فإن اختلفوا فلايكون قول بعضهم حجة على بعض ولاعلى من بعدهم ، ويرجع فى ذلك إلى لغة القرآن ، أو السنة ، أو عموم لغة العرب ، أو أقوال الصحابة فى ذلك[1] .

---

(١) انظر مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٨ ـ ٢٩ ، وفواتح الرحموت ج ٢ ص ١٨٨ ، والإتقان ج ٢ ص ١٧٩ .

الفصل الثالث

مميزات التفسير فى هذه المرحلة

يمتاز التفسير فى هذه المرحلة بالمميزات الآتية :

أولا : دخل فى التفسير كثير من الإسرائيليات والنصرانيات ، وذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام ، وكان لا يزال عالقاً بأذهانهم من الأخبار مالايتصل بالأحكام الشرعية ، كأخبار بدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وبدء الكائنات . وكثير من القصص . وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية ، فتساهل التابعون فزجوا فى التفسير بكثير من الإسرائيليات والنصرانيات بدون تحر ونقد . وأكثر من روى عنه فى ذلك من مسلمى أهل الكتاب : عبد الله بن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبد الملك بن عبد العزيز ابن جريج . ولاشك أن الرجوع إلى هذه الإسرائيليات فى التفسير أمر مأخوذ على التابعين كما هو مأخوذ على من جاء بعدهم[1] .

وسنأتى نعرض لهذه الناحية عرضاً موسعا عند الكلام عن أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إن شاء الله تعالى .

ثانياً : ظل التفسير محتفظا بطابع التلقى والرواية[2] ، إلا أنه لم يكن

---

(١) انظر فجر الإسلام ص ٢٥٢ ، ومنهج الفرقان ج ٢ ص ٢٠ .

(٢) وماسبق من أن مجاهد بن جبر كتب التفسير كله عن ابن عباس ، وما يأتى بعد من أن سعيد بن جبير كتب تفسير القرآن ، لايخرج بالتفسير فى هذه المرحلة عن طابع التلقى والرواية ، لأن هذا عمل فردى لايؤثر على الطابع العام .

تلقيا ورواية بالمعنى الشامل كما هو الشأن فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، بل كان تلقيا ورواية يغلب عليهما طابع الاختصاص ، فأهل كل مصر يعنون - بوجه خاص - بالتلقى والرواية عن إمام مصرهم ، فالمكيون عن ابن عباس ، والمدنيون عن أبى ، والعراقيون عن ابن مسعود . . . وهكذا .

ثالثا : ظهرت فى هذا العصر نواة الخلاف المذهبى ، فظهرت بعض تفسيرات تحمل فى طياتها هذه المذاهب ، فنجد مثلا قتادة بن دعامة السدوسى ينسب إلى الخوض فى القضاء والقدر ويتهم بأنه قدرى ، ولاشك أن هذا أثر على تفسيره ، ولهذا كان يتحرج بعض الناس من الرواية عنه . . ونجد الحسن البصرى قد فسر القرآن على إثبات القدر ، ويكفر من يكذب به كما ذكرنا ذلك فى ترجمته .

رابعاً : كثرة الخلاف بين التابعين فى التفسير عما كان بين الصحابة رضوان الله عليهم ، وإن كان اختلافا قليلا بالنسبة لما وقع بعد ذلك من متأخرى المفسرين .

الفصل الرابع

الخلاف بين السلف فى التفسير

قلنا إن الصحابة ـ رضوان الله عليهم أجمعين ـ كانوا يفسرون القرآن بمقتضى لغتهم العربية ، وما يعلمونه من الأسباب التى نزل عليها القرآن ، وبما أحاط بنزوله من ظروف وملابسات ، وكانوا يرجعون فى فهم ما أشكل عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقلنا إن المفسرين من التابعين كانوا يجلسون لبعض الصحابة يتلقون عنهم ويروون لهم ، فأخذوا عنهم كثيراً من التفسير ، وقالوا فيه أيضا برأيهم واجتهادهم وكانت لغتهم العربية لم تصل إلى درجة الضعف التى وصلت إليها فيما بعد .

قلنا هذا فيما سبق. ونزيد عليه أن مادون من العلوم الأدبية، والعلوم العقلية، والعلوم الكونية، ومذاهب الخلاف الفقهية والكلامية، لم يكن قد ظهر شىء منها فى عصر الصحابة والتابعين، وإن كان قد وجدت النواة التى نمت فيما بعد وتفرعت عنها كل هذه الفروع المختلفة . كان هذا هو الشأن على عهد الصحابة والتابعين، فكان طبيعيا أن تضيق دائرة الخلاف فى التفسير فى هاتين المرحلتين من مراحله، ولا تتسع هذا الاتساع العظيم الذى وصلت إليه فيما بعد .

كان الخلاف بين الصحابة فى التفسير قليلا جداً ، وكذا بين التابعين وإن كان أكثر منه بين الصحابة ، وكان اختلافهم فى الأحكام أكثر من اختلافهم فى التفسير .

وإذا نحن تتبعنا ما نقل لنا من أقوال السلف فى التفسير ، وجمعنا ما هو مبثوث فى كتب التفسير بالمأثور لخرجنا بادى الرأى بكثير من الأقوال المختلفة فى المسألة الواحدة ، فقول لصحابى يخالف قول صحابى آخر ، وقول لتابعى

يخالف قول تابعى آخر ، بل كثيراً ما نجد قولين مختلفين فى المسألة الوحدة ، وكلاهما منسوب لقائل واحد ، فهل معنى هذا أن الخلاف فى التفسير قد اتسعت دائرته على عهد الصحابة والتابعين ؟ وهل معنى هذا أن الصحابى أو التابعى يناقض نفسه فى المسألة الواحدة ؟ .. لا ، فدائرة الخلاف لم تتسع ، ولم يناقض الصحابى أو التابعى نفسه. وذلك لأن غالب ما صح عنهم من الخلاف فى التفسير يرجع إلى اختلاف عبارة مثلا ، أو اختلاف تنوع ، لا إلى اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس لحكاه على أنه أقوال متباينة لا يرجع بعضها إلى بعض .

ونستطيع بعد البحث والنظر فى هذه الأقوال التى اختلفت ولم تتباين ، أن نرجع هذا الخلاف إلى عدة أمور ، نذكرها ليتبين لنا أنه لا تنافى ولا تباين بين هذه الأقوال التى تبدو متعارضة عن السلف ، وهى ما يأتى :

أولا : أن يعبر كل واحد من المفسرين عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى فى المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى ، وذلك مثل أسماء الله الحسنى ، وأسماء رسوله صلى الله عليه وسلم ، وأسماء القرآن ، فإن أسماء الله كلها على مسمى واحد ، فلا يكون دعاؤه باسم من أسمائه الحسنى مضاداً لدعائه باسم آخر منها ، بل الأمر كما قال الله تعالى « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى[1] » .

وإذا نحن نظرنا إلى كل اسم من أسمائه لوجدناه يدل على ذات الله تعالى وعلى صفة من صفاته تضمنها هذا الاسم ، فالعليم يدل على الذات والعلم ، والتقدير يدل على الذات والقدرة . . . وهكذا .

ثم إن كل اسم من هذه الأسماء يدل على الصفة التى فى الاسم الآخر بطريق

---

(١) فى الآية (١١٠) من سورة الإسراء :

اللزوم ، وكذلك الشأن فى أسماء النبى صلى الله عليه وسلم مثل : محمد وأحمد وحامد ، وأسماء القرآن مثل : القرآن والفرقان . والهدى ، والشفاء ، وأمثال ذلك .

فإن كان مقصود السائل تعيين المسمى عبر عنه بأى اسم كان إذا كان يعرف مسماه ، فمثلا قوله تعالى (ومن أعرض عن ذكرى[١]) إذا قيل : ما ذكره ؟ يقال : ذكره : قرآنه ، أو كتابه ، أو كلامه ، أو هداه ، ونحو ذلك . وهذا على القول المشهور من أن المصدر مضاف للفاعل ، كما يدل عليه سياق الآية وسباقها .

وإن كان مقصود السائل معرفة ما فى الاسم من الصفة المختصة به فلا بد فى ذلك من قدر زائد على تعيين المسمى ، مثل أن يسأل عن القدوس ، السلام المؤمن ، المهيمن ، وقد علم أنه الله ولكن يريد أن يعرف معنى كونه قدوسا ، وسلاما ، ومؤمنا ، ومهيمنا ، ونحو ذلك .

والسلف كثيراً ما يعبرون عن المسمى بعبارة تدل على عينه وإن كان فيها من الصفة ما ليس فى الاسم الآخر ، كمن يقول : القدوس : هو الله ، أو الرحمن ، أو الغفور ، ومراده أن المسمى واحد ، لا أن هذه الصفة هى هذه . ومعلوم أن هذا اختلاف لا يمكن أن يقال إنه اختلاف تباين وتضاد كما ظنه بعض الناس .

ومثال ذلك تفسيرهم للصراط المستقيم ، فقال بعضهم : هو اتباع القرآن ، لقوله صلى الله عليه وسلم فى حديث على عند الترمذى « ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبتى الصراط سوران ، وفى السورين أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وداع يدعو من فوق الصراط ، وداع يدعو على رأس الصراط ، قال : فالصراط المستقيم هو الإسلام ، والسوران حدود الله ،

---

(١) فى الآية (١٢٤) من سورة طه .

والأبواب المفتحة محارم الله ، والداعى على رأس الصراط كتاب الله ، والداعى فوق الصراط واعظ الله فى قلب كل مؤمن .

ومنهم من قال : هو اتباع السنة والجماعة ، ومنهم من قال : هو طريق العبودية ، ومنهم من قال : هو طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وقيل غير ذلك فهذه كلها أقوال لا منافاة بينها ولا تباين ، بل كلها متفقة فى الحقيقة، لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن ، وهو طاعة الله ورسوله ، وهو طريق العبودية لله ، فالذات واحدة ، وكل أشار إليها ووصفها بصفة من صفاتها .

ثانيا : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبيه المستمع على النوع ، لا على سبيل الحد المطابق للمحدود فى عمومه وخصوصه .

مثال ذلك مانقل فى قوله تعالى « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله[1] » فبعضهم فسر السابق بمن يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد بمن يصلى فى أثنائه ، والظالم بمن يصلى بعد فواته . وبعضهم فسر السابق بمن يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة ، والمقتصد بمن يؤديها وحدها ، والظالم بمانع الزكاة ، فكل من المفسرين ذكر فردا من أفراد العام على سبيل التمثيل لا الحصر ، لتعريف المستمع أن الآية تتناول المذكور، ولتنبيهه به على نظيره، فإن التعريف بالمثال قد يكون أسهل من التعريف بالحد المطابق . والعقل السليم ينفطن للنوع بذكر مثاله . وهذا الاختلاف فى ذكر المثال لا يؤدى الى التباين والتناقض بين الأقوال ، إذ من المعلوم أن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات . والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات . والسابق يتناول من تقرب بالحسنات مع الواجبات .

---

(١) فى الآية (٣٢) من سورة فاطر .

ومن هذا القبيل أن يقول أحدهم: نزلت هذه الآية فى كذا، ويقول الآخر نزلت فى كذا، وكل يذكر غير مايذكره صاحبه، لأن كلا منهم يذكر بعض ما يتناوله اللفظ، وهذا لاتنافى فيه مادام اللفظ يتناول قول كل منهما.

أما إذا قال أحدهم: سبب نزول هذه الآية كذا، وقال الآخر: سبب نزول هذه الآية كذا، وكل ذكر غير ماذكره الآخر. فيمكن أن يقال: إن الآية نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين: مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

ثالثاً: أن يكون اللفظ محتملا للأمرين أو الأمور، وذلك إما لكونه مشتركا فى اللغة، كلفظ قسورة، الذى يراد به الرامى ويراد به الأسد، ولفظ عسعس، الذى يراد به إقبال الليل ويراد به إدباره. وإما لكونه متواطئا فى الأصل لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين، كالضمائر فى قوله تعالى «ثم دنا فتدلى * فكان قاب قوسين أو أدنى[1]»، وكلفظ «والفجر * وليال عشر * والشفع والوتر *[2]» وما ماثل ذلك، فمثل هذا قد يجوز أن يرد به كل المعانى التى قالها السلف، وذلك إما لكون الآية نزلت مرتين، فأريد بها هذا تارة وهذا تارة. وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أن يراد به معنياه أو معانيه، وهذا يقول به أكثر الفقهاء من المالكية، والشافعية، والحنابلة، وكثير من أهل الكلام. وإما لكون اللفظ متواطئا، فيكون عاما إذا لم يكن هناك موجب لتخصيصه.

رابعاً: أن يعبروا عن المعانى بألفاظ متقاربة لامترادفة، فإن الترادف قليل فى اللغة، ونادر أو معدوم فى القرآن، وقل أن يعبر عن لفظ واحد

---

(١) الآيتان (٨، ٩) من سورة النجم.
(٢) الآيات (١، ٢، ٣) من سورة الفجر.

بلفظ واحد يؤدى جميع معناه ، وإنما يعبر عنه بلفظ فيه تقريب لمعناه ، فمثلا إذا قال قائل « يوم تمور السماء موراً [١] » المور : الحركة ، فذلك تقريب للمعنى ؛ لأن المور حركة خفيفة سريعة . كذلك إذا قال « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب [٢] » أى أعلمنا ؛ لأن القضاء إليهم فى الآية أخص من الإعلام ؛ فإن فيه إنزالا وإيحاء إليهم .

فإذا قال أحدهم فى قوله تعالى « وذكر به أن تبسل نفس بما كسبت [٣] » إن معنى تبسل تحبس ، وقال الآخر : ترتهن ، ونحو ذلك ، لم يكن من اختلاف التضاد ، لأن هذا تقريب للمعنى كما قلنا .

خامساً : أن يكون فى الآية الواحدة قراءتان أو قراءات فيفسر كل منهم على حسب قراءة مخصوصة فيظن ذلك اختلافا ، وليس باختلاف ، مثال ذلك : ما أخرجه ابن جرير عن ابن عباس وغيره من طرق فى قوله تعالى « ... لقالوا إنما سكرت أبصارنا [٤] » إن معنى سكرت : سدت ، ومن طريق أخرى عنه : أن سكرت بمعنى أخذت وسحرت ، ثم أخرج عن قتادة أنه قال : من قرأ سكرت مشددة ، فإنما يعنى سدت . ومن قرأ سكرت مخففة ، فإنه يعنى سحرت . ومن ذلك أيضاً قوله تعالى « سرابيلهم من قطران [٥] » أخرج ابن جرير عن الحسن : أنه الذى تهنأ به الإبل ، وأخرج من طرق عنه وعن غيره : أنه النحاس المذاب ، وليسا بقولين ،

---

(١) الآية (٩) من سورة الطور

(٢) فى الآية (٤) من سورة الإسراء

(٣) فى الآية (٧٠) من سورة الأنعام

(٤) فى الآية (١٥) من سورة الحجر

(٥) فى الآية (٥٠) من سورة إبراهيم

وإنما الثانى تفسير لقراءة من قرأ «من قطرآن» بتنوين قطر ، وهو النحاس المذاب ، وآن : شديد الحرارة ، وأمثلة هذا النوع كثيرة . وقد خرِّج على هذا ، الاختلاف الوارد عن ابن عباس وغيره فى تفسير قوله تعالى «أو لامستم (١)» هل هو الجماع ، أو الجس باليد ؟ فالأول تفسير لقراءة لامستم ، والثانى لقراءة لمستم ولا اختلاف .

هذه هى الأوجه التى بواسطتها نستطيع أن نجمع بين أقوال السلف التى تبدو متعارضة . أما ماجاء عنهم من اختلاف فى التفسير ويتعذر الجمع بينه بواحد من الأمور السابقة — وهذا أمر نادر ، أو اختلاف مخفف كما يقول ابن تيمية (٢) — فطريقنا فيه : أن ننظر فيمن نقل عنه الاختلاف ، فإن كان عن شخص واحد واختلفت الروايتان صحةوضعفا،قدم الصحيح وترك ماعداه ، وإن استويتافى الصحة وعرفنا أن أحد القولين متأخر عن الآخر ،قدم المتأخر وترك ماعداه.وإن لم نعرف نقدم أحدهماعلى الآخر رددنا الأمر إلى ماثبتفيه السمع. فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما،رجحناماقواه الاستدلال وتركنا ماعداه . وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نومن بمراد الله تعالى ولا نتهجم على تعيين أحد القولين ، ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

وإن كان الاختلاف عن شخصين أو أشخاص ، واختلفت الروايتان أو الروايات صحة وضعفا ، قدم الصحيح وترك ماعداه . وإن استوت الروايتان أو الروايات فى الصحة ، رددنا الأمر إلى ماثبت فيه السمع . فإن لم نجد سمعا وكان للاستدلال طريق إلى تقوية أحدهما رجحنا ما قواه الاستدلال وتركنا

---

(١) فى الآية (٤٣) من سورة النساء ، وفى الآية (٦) من سورة المائدة

(٢) مقدمته فى أصول التفسير ص ١٢

ما عداه . وإن تعارضت الأدلة فعلينا أن نؤمن بمراد الله تعالى ، ولا نتهجم على تعيين أحد القولين أو الأقوال . ويكون الأمر حينئذ فى منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

ويرى الزركشى : أن الاختلاف إن كان بين الصحابة وتعذر الجمع ، قدم قول ابن عباس على قول غيره ، وعلل ذلك فقال « لأن النبي صلى الله عليه وسلم بشره بذلك حيث قال « اللهم علمه التأويل »[1] .

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٣ ـ وقد اعتمدنا فى هذا البحث على مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ص ٦ ـ ١٣ ، والإتقان جـ ٢ ص ١٧٦ ـ ١٨٣ ، ومبادىء التفسير للخضرى ص ٦ ـ ٧

الباب الثالث

المرحلة الثالثة للتفسير

أو التفسير فى عصور التدوين

تمهيد

ابتداء هذه المرحلة ـ الخطوات التى تدرج فيها التفسير ألوان التفسير فى كل خطوة

ابتداء هذه المرحلة :

تبدأ المرحلة الثالثة للتفسير من مبدأ ظهور التدوين ، وذلك فى أواخر عهد بنى أمية ، وأول عهد العباسيين .

الخطوة الأولى للتفسير :

وكان التفسير قبل ذلك يتناقل بطريق الرواية ، فالصحابة يروون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كما يروى بعضهم عن بعض . والتابعون يروون عن الصحابة ، كما يروى بعضهم عن بعض . وهذه هى الخطوة الأولى للتفسير[1] .

---

(١) هذه الخطوات للتفسير ، خطوات علمية ، وأما المراحل فزمنية ، وإذاً فلاضير أن يخطو التفسير خطوة علمية واحدة فى مرحلتين زمنيتين: مرحلة عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة ، ومرحلة عصر التابعين

الخطوة الثانية :

ثم بعد عصر الصحابة والتابعين ، خطا التفسير خطوة ثانية ، وذلك حيث ابتدأ التدوين لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكانت أبوابه متنوعة ، وكان التفسير بابا من هذه الأبواب التى اشتمل عليها الحديث،فلم يفرد له تأليف خاص يفسر القرآن سورة سورة ، وآية آية ، من مبدئه إلى منتهاه ؛ بل وجد من العلماء من طوف فى الأمصار المختلفة ليجمع الحديث ، فجمع بجوار ذلك ماروى فى الأمصار من تفسير منسوب إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، أو إلى الصحابة ، أو إلى التابعين ، ومن هؤلاء : يزيد بن هرون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية، ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية ، وروح بن عبادة البصرى المتوفى سنه ٢٠٥ هجرية، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية ،وآدم ابن أبى إياس المتوفى سنة ٢٢٠ هجرية ، وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هجرية، وغيرهم ، وهؤلاء جميعاً كانوا من أئمة الحديث، فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ، ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد . وجميع ما نقله هؤلاء الأعلام عن أسلافهم من أئمة التفسير نقلوه مسنداً إليهم ، غير أن هذه التفاسير لم يصل إلينا شىء منها ، ولذا لا نستطيع أن نحكم عليها .

الخطوة الثالثة :

ثم بعد هذه الخطوة الثانية ، خطا التفسير خطوة ثالثة ، انفصل بها عن الحديث ، فأصبح علما قائماً بنفسه ، ووضع التفسير لكل آية من القرآن ، ورتب ذلك على حسب ترتيب المصحف . وتم ذلك على أيدى طائفة من العلماء منهم ابن ماجة المتوفى سنة ٢٧٣ ﻫ ، وابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ ، وأبو بكر بن المنذر النيسابورى المتوفى سنة ٣١٨ﻫ، وابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ ﻫ ، وأبو الشيخ بن حبان المتوفى سنة ٣٦٩ ﻫ، والحاكم المتوفى سنة ٤٠٥ﻫ وأبو بكر بن مردويه المتوفى ٤١٠ ﻫ ، وغيرهم من أئمة هذا الشأن .

وكل هذه التفاسير مروية بالإسناد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإلى الصحابة، والتابعين، وتابع التابعين، وليس فيها شيء من التفسير أكثر من التفسير المأثور، اللهم إلا ابن جرير الطبرى فإنه ذكر الأقوال ثم وجهها، ورجح بعضها على بعض، وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه حاجة، واستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآيات القرآنية ... وسنأتى نتكلم عن هذا التفسير عند الكلام عن الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور إن شاء الله تعالى.

وإذا كان التفسير قد خطا هذه الخطوة الثالثة التى انفصل بها عن الحديث، فليس معنى ذلك أن هذه الخطوة محت ما قبلها وألغت العمل به، بل معناه أن التفسير تدرج فى خطواته، فبعد أن كانت الخطوة الأولى للتفسير هى النقل عن طريق التلقى والرواية، كانت الخطوة الثانية له، وهى تدوينه على أنه باب من أبواب الحديث، ثم جاءت بعد ذلك الخطوة الثالثة، وهى تدوينه على استقلال وانفراد، فكل هذه الخطوات، تم إسلام بعضها إلى بعض، بل وظل المحدثون بعد هذه الخطوة الثالثة، يسيرون على نمط الخطوة الثانية، من رواية المنقول من التفسير فى باب خاص من أبواب الحديث، مقتصرين فى ذلك على ما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو عن الصحابة أو عن التابعين.

ليس من السهل معرفة أول من دون تفسير كل القرآن مرتباً:

هذا، ولا نستطيع أن نعين بالضبط، المفسر الأول الذى فسر القرآن آية آية، ودونه على التتابع وحسب ترتيب المصحف. ونجد فى الفهرست لابن النديم ص (٩٩) أن أبا العباس ثعلب قال «كان السبب فى إملاء كتاب الفراء فى المعانى [١] أن عمر بن بكير كان من أصحابه، وكان منقطعا الى الحسن بن سهل

---

(١) قامت دار الكتب المصرية بطبع هذا الكتاب، وقد تم منه الجزء الأول سنة ١٩٥٦ م، وهو ينتهى عند آخر سورة يونس، والى الآن لم يطبع غير هذا الجزء.

فكتب إلى الفراء : إن الأمير الحسن بن سهل ، ربما سألنى عن الشىء بعد الشىء من القرآن فلا يحضرنى فيه جواب ، فإن رأيت أن تجمع لى أصولا ، أو تجعل فى ذلك كتابا أرجع إليه فعلت ، فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملى عليكم كتابا فى القرآن ، وجعل لهم يوما ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان فى المسجد رجل يؤذن ويقرأ بالناس فى الصلاة ، فالتفت إليه الفراء فقال له: اقرأ بفاتحة الكتاب نفسرها ، ثم نوفى الكتاب كله ، فقرأ الرجل ويفسر الفراء ، قال أبو العباس : لم يعمل أحد قبله مثله ، ولا أحسب أن أحداً يزيد عليه » اهـ .

فهل نستطيع أن نستخلص من ذلك : أن الفراء المتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، هو أول من دون تفسيراً جامعاً لكل آيات القرآن مرتبا على وفق ترتيب المصحف ؟ ، وهل نستطيع أن نقول : إن كل من تقدم الفراء من المفسرين كانوا يقتصرون على تفسير المشكل فقط ؟ لا . . . لا نستطيع أن نفهم هذا من عبارة ابن النديم لأنها غير قاطعة فى هذا ، كما لا نستطيع أن نميل إليه كما مال إليه الأستاذ أحمد أمين فى كتابه ضحى الإسلام جـ ٢ ص ١٤١ ، وذلك لأن كتاب معانى القرآن للفراء شبيه فى تناوله للآى على ترتيبها فى السور بكتاب مجاز القرآن لأبى عبيدة، فإنه يتناول السور على ترتيبها ، ويعرض لما فى السورة من آى تحتاج لبيان مجازها — أى المراد منها — فليس للفراء أولية فى هذا ، بل تلك على ما يبدو كانت خطة العصر[١] ، ثم إن ما نقل لنا عن السلف يشعر — وإن كان غير قاطع — بأن استيفاء التفسير لسور القرآن وآياته كان عملا مبكراً لم يتأخر إلى نهاية القرن الثانى وأوائل الثالث ، فمثلا يقول ابن أبى مليكة « رأيت مجاهداً يسأل ابن عباس عن تفسير القرآن ومعه ألواحه ، فيقول له ابن عباس أكتب . قال : حتى سأله عن التفسير كله[٢] » .

---

(١) التفسير • معالم حياته • منهجه اليوم ص ٣١ — ٣٢ (هامش) .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٣٠ .

ونجد الحافظ بن حجر عند ما ترجم لعطاء بن دينار الهذلى المصرى فى كتابه تهذيب التهذيب يقول « قال على بن الحسن الهسنجانى ، عن أحمد ابن صالح : عطاء بن دينار، من ثقات المصريين ، وتفسيره فيما يروى عن سعيد بن جبير صحيفة ، وليس له دلالة على أنه سمع من سعيد بن جبير . وقال أبو حاتم : صالح الحديث إلا أن التفسير أخذه من الديوان، وكان عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هـ سأل سعيد بن جبير أن يكتب إليه بتفسير القرآن ، فكتب سعيد بهذا التفسير ، فوجده عطاء بن دينار فى الديوان فأخذه فأرسله عن سعيد بن جبير » اهـ .

فهذا صريح فى أن سعيد بن جبير رضى الله عنه جمع تفسير القرآن فى كتاب ، وأخذه من الكتاب عطاء بن دينار ، ومعروف أن سعيد بن جبير قتل سنة ٩٤ هـ أو سنة ٩٥ هجرية على الخلاف فى ذلك، ولا شك أن تأليفه هذا كان قبل موت عبد الملك بن مروان المتوفى سنة ٨٦ هجرية .

وكذلك نجد فى وفيات الأعيان ج (٢) ص (٢) : أن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة ، كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصرى . ومعلوم أن الحسن توفى سنة ١١٦ هجرية .

ومر بنا فيما سبق (ص ٨٠) أن ابن جريج المتوفى سنة ١٥٠ هجرية له ثلاثة أجزاء كبار فى التفسير رواها عنه محمد بن ثور ، فإذا انضم إلى هذا ما نلاحظه من قوة اتصال القرآن بالحياة الإسلامية ، وشدة عناية القوم بأخذ الأحكام وغيرها من آيات القرآن، وحاجتهم الملحة فى ذلك ، نستطيع أن نقول إن الفراء لم يسبق إلى هذا الاستيفاء والتقصى ، بل هو مسبوق بذلك، وإن كنا لا نستطيع أن نعين من سبق إلى هذا العمل على وجه التحقيق ، ولو أنه وقع لنا كل ما كتب من التفسير من مبدأ عهد التدوين. لأمكننا أن نعين المفسر الأول الذى دون التفسير على هذا النمط .

الخطوة الرابعة :

ثم إن التفسير لم يقف عند هذه الخطوة الثالثة بل خطا بعدها خطوة رابعة، لم يتجاوز بها حدود التفسير بالمأثور ، وإن كان قد تجاوز روايته بالإسناد ، فصنف فى التفسير خلق كثير ، اختصروا الأسانيد : ونقلوا الأقوال المأثورة عن المفسرين من أسلافهم دون أن ينسبوها لقائليها ، فدخل الوضع فى التفسير والتبس الصحيح بالعليل ، وأصبح الناظر فى هذه الكتب يظن أن كل ما فيها صحيح ، فنقله كثير من المتأخرين فى تفاسيرهم ، ونقلوا ماجاء فى هذه الكتب من إسرائيليات على أنها حقائق ثابتة ، وكان ذلك هو مبدأ ظهور خطر الوضع والإسرائيليات فى التفسير . وسنعرض لهذا بالبيان والتفصيل فيما بعد إن شاء الله تعالى .

ولقد وجد من بين هؤلاء المفسرين من عنى بجمع شتات الأقوال ، فصار كلما سنح له قول أورده ، وكلما خطر بباله شيء اعتمده ، فيأتى من بعده وينقل ذلك عنه بدون أن يتحرى الصواب فيما ينقل ، وبدون التفات منه إلى تحرير ماورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليهم فى التفسير ، ظنا منه أن كل ما ذكر له أصل ثابت !! وليس أدل على نهم هؤلاء القوم بكثرة النقل ،من أن بعضهم ذكر فى تفسير قوله تعالى « غير المغضوب عليهم ولا الضالين [1]» عشرة أقوال مع أن تفسيرها باليهود والنصارى،هو الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن جميع الصحابة والتابعين ، حتى قال ابن أبى حاتم «لا أعلم فى ذلك اختلافا بين المفسرين [2]» .

الخطوة الخامسة :

ثم خطا التفسير بعد ذلك خطوة خامسة ، هى أوسع الخطا وأفسحها ،

---

(١) فى الآية (٧) من سورة الفاتحة .

(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٩٠ .

امتدت من العصر العباسى إلى يومنا هذا ، فبعد أن كان تدوين التفسير مقصوراً على رواية ما نقل عن سلف هذه الأمة ، تجاوز بهذه الخطوة الواسعة إلى تدوين تفسير اختلط فيه الفهم العقلى بالتفسير النقلى، وكان ذلك على تدرج ملحوظ فى ذلك.

تدرج التفسير العقلى :

بدأ ذلك أولا على هيئة محاولات فهم شخصى ، وترجيح لبعض الأقوال على بعض ، وكان هذا أمراً مقبولا مادام يرجع الجانب العقلى منه إلى حدود اللغة ودلالة الكلمات القرآنية . ثم ظلت محاولات هذا الفهم الشخصى تزداد وتتضخم ، متأثرة بالمعارف المختلفة ، والعلوم المتنوعة ، والآراء المتشعبة ، والعقائد المتباينة ، حتى وجد من كتب التفسير ما يجمع أشياء كثيرة ، لا تكاد تتصل بالتفسير إلا عن بعد عظيم .

دونت علوم اللغة ، ودون النحو والصرف ، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهى ، وأثيرت مسائل الكلام ، وظهر التعصب المذهبى قائما على قدمه وساقه فى العصر العباسى ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وترجمت كتب كثيرة من كتب الفلاسفة ، فامتزجت كل هذه العلوم وما يتعلق بها من أبحاث بالتفسير [1] حتى طغت عليه ، وغلب الجانب العقلى

---

(١) وكان السبب فى مزج هذه العلوم بالتفسير ما يأتى :

أولا — فى العلوم الأدبية : ضعف السليقة العربية ؛ لاختلاط العرب بالعجم ؛ فاحتيج إلى مزج هذه العلوم بالتفسير لفهم ألفاظ القرآن ؛ والوقوف على بلاغته التى تعتبر أهم نواحى إعجازه .

ثانيا — فى العلوم الكونية : ماترجمه العلماء فى إبان شوكة الإسلام من كتب الفلاسفة ، فاحتاجوا إلى مزجها بالتفسير لتأييدها أو الرد عليها .

ثالثا — فى العلوم الكلامية : ظهور الفرق الاسلامية ؛ واستدلال كل طائفة منها ببعض آيات القرآن الكريم على ما تذهب إليه ، فاضطر العلماء الى الكلام على ذلك فى التفسير ؛ ليميزوا المقبول من المردود ، وما يدل عليه القرآن مما لا يدل عليه . =

على الجانب النقلى ، وصار أظهر شىء فى هذه الكتب ، هو الناحية العقلية،وإن كانت لا تخلو مع ذلك من منقول يتصل بأسباب النزول ، أو بغير ذلك من المأثور .

وهكذا تدرج التفسير ، واتجهت الكتب المؤلفة فيه اتجاهات متنوعة ، وتحكمت الاصطلاحات العلمية ، والعقائد المذهبية فى عبارات القرآن الكريم ، فظهرت آثار الثقافة الفلسفية والعلمية للمسلمين فى تفسير القرآن ، كما ظهرت آثار التصوف واضحة فيه ، وكما ظهرت آثار النحل والأهواء فيه ظهوراً جليا .

وإنا لنلحظ فى وضوح وجلاء : أن كل من برع فى فن من فنون العلم ، يكاد يقتصر تفسيره على الفن الذى برع فيه ، فالنحوى تراه لا هم له إلا الإعراب وذكر ما يحتمل فى ذلك من أوجه ، وتراه ينقل مسائل النحو وفروعه وخلافياته ، وذلك كالزجاج ، والواحدى فى البسيط ، وأبى حيان فى البحر المحيط . . .

وصاحب العلوم العقلية ، تراه يعنى فى تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، كما تراه يعنى بذكر شبههم والرد عليها ، وذلك كالفخر الرازى فى كتابه مفاتيح الغيب .

وصاحب الفقه تراه قد عنى بتقريره الأدلة للفروع الفقهية ، والرد على من يخالف مذهبه ، وذلك كالجصاص ، والقرطبى . . .

وصاحب التاريخ ، ليس له شغل إلا القصص ، وذكر أخبار من سلف ، ما صح منها وما لا يصح ، وذلك كالثعلبى والخازن . .

= رابعا — فى العلوم الفقهية : نضوج الفقه الإسلامى وتبحر العلماء فيه ؛ فعنى المفسرون بمزجها فى تفاسيرهم ؛ لتكون متممة للناحية التشريعية ؛ وشارحة لأصل الدين وهو القرآن .

وصاحب البدع ، ليس له قصد إلا أن يؤول كلام الله وينزله على مذهبه الفاسد ، وذلك كالرمانى ، والجبائى ، والقاضى عبد الجبار ، والزمخشرى من المعتزلة . والطبرسى ، وملا محسن الكاشى من الإمامية الإثنى عشرية .

وأصحاب التصوف قصدوا إلى ناحية الترغيب والترهيب ، واستخراج المعانى الإشاريةمن الآيات القرآنية بما يتفق مع مشاربهم،ويتناسب معرياضاتهم ومواجيدهم ، ومن هؤلاء ابن عربى ، وأبو عبد الرحمن السلمى . . .

وهكذا فسر كل صاحب فنأو مذهب بما يتناسب مع فنه أو يشهد لمذهبه، وقد استمرت هذه النزعة العلمية العقلية وراجت فى بعض العصور رواجا عظيما ، كما راجت فىعصرنا الحاضر تفسيرات يريد أهلها من ورائها أنيحملوا آيات القرآن كل العلوم ، ما ظهر منها وما لم يظهر ، كأن هذا فيما يبدو وجه من وجوه إعجاز القرآن وصلاحيته لأن يتمشى مع الزمن . وفى الحق أن هذا غلو منهم ، وإسراف يخرج القرآن عن مقصده الذى نزل من أجله، ويحيد به عن هدفه الذى يرمى إليه .

وسوف نتكلم على ذلك بتوسع عند الكلام عن التفسير العلمى إن شاء الله تعالى .

ثم إن هذا الطغيان العقلى العلمى ، لم يطغ على التفسير بالمأثور الطغيان الذى يجعله فى عداد ما درس وذهب ، بل وجد من العلماء فى عصور مختلفة ، من استطاع أن يقاوم تيار هذا الطغيان ، ففسر القرآن تفسيراً نقليا بحتا ، على توسع منهم فى النقل، وعدمتفرقة بين ما صح وما لم يصح، كما فعل السيوطى فى كتابه الدر المنثور .

التفسير الموضوعى:

وكذلك وجد من العلماء من ضيق دائرة البحث فى التفسير ، فتكلم عن ناحية واحدة من نواحية المتشعبة المتعددة ، فابن القيم — مثلا — أفرد كتابه

من مؤلفاته للكلام عن أقسام القرآن سماه « التبيان فى أقسام القرآن » . وأبو عبيدة ، أفرد كتابا للكلام عن مجاز القرآن . والراغب الأصفهانى ، أفرد كتابا فى مفردات القرآن . وأبو جعفر النحاس ، أفراد كتابا فى الناسخ والمنسوخ من القرآن . وأبو الحسن الواحدى ، أفرد كتابا فى أسباب نزول القرآن . والجصاص ، أفرد كتابا فى أحكام القرآن . . وغير هؤلاء كثير من العلماء الذين قصدوا إلى موضوع خاص فى القرآن يجمعون ما تفرق منه ، ويفردونه بالدرس والبحث .

توسع متقدمى المفسرين قعد بمتأخريهم عن البحث المستقل :

ثم إنا نجد متقدمى المفسرين قد توسعوا فى التفسير الى حد كبير ، جعل من جاء بعدهم من المفسرين لا يلقون عنتا ، ولا يجدون مشقة فى محاولاتهم لفهم كتاب الله ، وتدوين مادونوا من كتب فى التفسير ، فمنهم من أخذ كلام غيره وزاد عليه ، ومنهم من اختصر ، ومنهم من علق الحواشى وتتبع كلام من سبقه ، تارة بالكشف عن المراد ، وأخرى بالتفنيد والاعتراض ، ومع ذلك فاتجاهات التفسير ، وتعدد طرائقه وألوانه . لم تزل على ما كانت عليه ، متشعبة متكاثرة .

أما فى عصرنا الحاضر ، فقد غلب اللون الأدبى الاجتماعى على التفسير ، ووجدت بعض محاولات علمية ، فى كثير منها تكلف ظاهر وغلو كبير ، أما اللون المذهبى ، فقد بقى سنة إلى يومنا هذا بمقدار ما بقى من المذاهب الإسلامية ، وسوف نعرض للتفسير فى عصرنا الحاضر بما فيه الكفاية إن شاء الله تعالى .

هذا هو شأن التفسير فى مرحلته الثالثة — مرحلة التدوين — ، وهذه هى خطواته التى تدرج فيها من لدن نشأته إلى عصرنا الحاضر ، وتلك هى ألوانه وطرائقه وأرى أن من العسير علىّ أن أتمشى بالتفسير مع الزمن ، وأن أتكلم عن طرائقه ، ومميزاته ، واتجاهاته ، وألوانه فى كل عصر من العصور التى مرت عليه ، وذلك راجع إلى أننا لم نقف على كثير مما خلفته تلك العصور من آثار فيه وهى كثيرة كاثرة تنوعت مقاصدها واختلفت اتجاهاتها . وإننا لندهش

عند سماع ما ألف فى التفسير من الكتب التى بلغت حد الكثرة، و نسبت لرجاله لهم قيمتهم العلمية ، ففى القرن الثانى كتب عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة تفسيراً للقران عن الحسن البصرى، كما ذكره ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان(١)، ويذكر صاحب كتاب تبيين كذب المفترى: أن أبا الحسن الأشعرى كتب كتاباً فى التفسير يسمى المختزن، لم يترك آية تعلق بها بدعى إلا أبطل تعلقه بها، وجعلها حجة لأهل الحق(٢) ، كما ينسب إلى الجوينى تفسير كبير يشتمل على عشرة أنواع فى كل أية(٣) ،وينسب للقشيرى أيضاً تفسير كبير(٤) . وابن الأنبارى يذكرون أنه كان يحفظ مائة وعشرين تفسيرا من تفاسير القرآن بأسانيدها(٥) . وأبو هلال العسكرى ، له كتاب المحاسن فى تفسير القران، خمس مجلدات(٦)، وغير هذا كثير جداً من الكتب التى ألفت فى تفسير القرآن .

وبعد .... فهل يكون فى مقدورى — وقد أندرست معظم كتب التفسير — أن أتكلم عن التفسير وما ألف فيه فى جميع مراحله الزمنية ؟ اللهم إن هذا أمر لا أقدر عليه إلا إذا جمع بين يدى كل ما كتب فى التفسير من مبدأ نشأته إلى يومنا هذا، وكان لدى من الوقت ما يتسع لدراسته كله ، وأنى لى بذلك ؟..

على أننا لو نظرنا إلى مناحى المفسرين واتجاهاتهم ، لوجدناهم مع اختلاف عصورهم يشتركون فيها ، فبينما نجد من المتقدمين من دون التفسير بالمأثور خاصة ، نجد من المتأخرين من قصر تفسيره على المأثور أيضاً . وبينما نجد من

---

(١) جـ ٢ ص ١٠٢

(٢) تبيين كذب المفترى ص ١٣٣ وانظر ص ١٣٦ منه أو فى هامشها : وذكر المقريزى أنه فى سبعين مجلداً وعن ابن عربى أنه فى خمسمائه مجلد . . وابن فورك كثير النقل عن هذا التفسير . ويقول التاج السبكى إنه اطلع على جزء منه .

(٣) المرجع السابق ص ٢٥٧

(٤) المرجع السابق ص ٢٧٣

(٥ ، ٦) التفسير — معالم حياته — منهجه اليوم ص ١٥

المتقدمين من نحا فى تفسيره الناحية الإشارية نجد من المتأخرين من ينحو هذا المنحى بعينه ، وبينما نجد من المتقدمين من حاول إخضاع القرآن لمذهبه وعقيدته نجد من المتأخرين من حاول مثل هذه المحاولة(١) وهكذا نجد كثيراً من كتب التفسير على اختلاف أزمانها تتحد فى مشربها ، وتتجه إلى ناحية واحدة من نواحى التفسير المختلفة .

لهذا كله ، أرى نفسى مضطرا إلى أن أعدل فى هـــذه المرحلة الثالثة — مرحلة عصور التدوين — عن السير بالتفسير مع الزمن إلى التكلم عنه من ناحية هذه الاتجاهات التى اتجه إليها المفسرون فى تفاسيرهم وأتبع ذلك بالكلام عن أشهر الكتب المؤلفة فى التفسير ، فأتكلم أولا عن التفسير المأثور وأشهر مادون فيه ، ثم عن التفسير بالرأى الجائز وغير الجائز ، وعن أشهر الكتب المؤلفة فى ذلك . ويندرج فى هذا ، الكلام على تفاسير الفرق المختلفة ، ثم أتكلم بعد ذلك عن التفسير عند الصوفية وأهم كتبهم فيه ، ثم عند الفلاسفة ، ثم عند الفقهاء كذلك ، ثم أتكلم عن التفسير العلمى ، ثم أختم بكلمة عامة عن التفسير فى عصرنا الحاضر ، وأسأل الله العون والتوفيق .

---

(١) سيتضح لك فيما بعد التوافق فى مناحى التفسير بين المتقدمين والمتأخرين .

الفصل الأول

التفسير بالمأثور

ماهو التفسير المأثور - تدرجه - اللون الشخصى له - الضعف فى روايته وأسبابه — أشهر الكتب المدونة فيه وخصائصها

ما هو التفسير المأثور ؟

يشمل التفسير المأثور ماجاء فى القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته ، وما نقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وما نقل عن الصحابة رضوان الله عليهم ، وما نقل عن التابعين ، من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم .

وإنما أدرجنا فى التفسير المأثور ما روى عن التابعين — وإن كان فيه خلاف : هل هو من قبيل المأثور أو من قبيل الرأى — لأنا وجدنا كتب التفسير المأثور ، كتفسير ابن جرير وغيره ، لم تقتصر على ذكر ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وما روى عن أصحابه ، بل ضمت إلى ذلك ما نقل عن التابعين فى التفسير .

تدرج التفسير المأثور :

تدرج التفسير المأثور فى دوريه — دور الرواية ودور التدوين — أما فى دور الرواية ، فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه ما أشكل عليهم من معانى القرآن ، فكان هذا القدر من التفسير يتناوله الصحابة بالرواية بعضهم لبعض ، ولمن جاء بعدهم من التابعين .

ثم وجد من الصحابة من تكلم فى تفسير القرآن بما ثبت لديه عن الرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو بمحض رأيه واجتهاده ، وكان ذلك على قلة يرجع السبب فيها إلى الروعة الدينية التى كانت لهذا العهد ، والمستوى العقلى الرفيع لأهله ، وتحدد حاجات حياتهم العملية ، ثم شعورهم مع هذا بأن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا .

ثم وجد من التابعين من تصدى للتفسير ، فروى ما تجمع لديه من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة ، وزاد على ذلك من القول بالرأى والاجتهاد ، بمقدار ما زاد من الغموض الذى كان يتزايد كلما بعدالناس عن عصر النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة .

ثم جاءت الطبقة التى تلى التابعين وروت عنهم ما قالوا ، وزادوا عليه بمقدار ما زاد من غموض . . . وهكذا ظل التفسير يتضخم طبقة بعد طبقة ، وتروى الطبقة التالية ما كان عند الطبقات التى سبقتها ، كما أشرنا إلى ذلك فيما سبق .

ثم ابتدأ دور التدوين ـ وهو ما يعنينا فى هذا البحث ـ فكان أول ما دون من التفسير ، هو التفسير المأثور ، على تدرج فى التدوين كذلك ، فكان رجال الحديث والرواية هم أصحاب الشأن الأول فى هذا . وقد رأينا أصحاب مبادىء العلوم حين ينسبون ـ على عادتهم ـ وضع كل علم لشخص بعينه ، يعدون واضع التفسير ـ بمعنى جامعه لا مدونه ـ الإمام مالك بن أنس الأصبحى ، إمام دار الهجرة[١] .

وكان التفسير إلى هذا الوقت لم يتخذ له شكلا منظما ، ولم يفرد بالتدوين ، بل كان يكتب على أنه باب من أبواب الحديث المختلفة ، يجمعون فيه ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الصحابة والتابعين .

---

(١) المبادىء النصرية ٢٦ .

ثم بعد ذلك انفصل التفسير عن الحديث ، وأفرد بتأليف خاص ، فكان أول ما عرف لنا من ذلك ، تلك الصحيفة التى رواها على بن أبى طلحة عن ابن عباس(١) .

ثم وجد من ذلك جزء أو أجزاء دونت فى التفسير خاصة ، مثل ذلك الجزء المنسوب لأبى روق(٢) وتلك الأجزاء الثلاثة التى يرويها محمد بن ثور عن ابن جريج(٣) .

ثم وجدت من ذلك موسوعات من الكتب المؤلفة فى التفسير ، جمعت كل ما وقع لأصحابها من التفسير المروى عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم ، كتفسير ابن جرير الطبرى . ويلاحظ أن ابن جرير ومن على شاكلته - وإن نقلوا تفاسيرهم بالإسناد - توسعوا فى النقل وأكثروا منه ، حتى استفاض وشمل ما ليس موثوقا به . كما يلاحظ أنه كان لا يزال موجودا إلى ما بعد عصر ابن جرير ومن على شاكلته - ممن أفردوا التفسير بالتأليف - رجال من المحدثين بوبوا للتفسير بابا ضمن أبواب ما جمعوا من الأحاديث .

ثم وجد بعد هذا أقوام دونوا التفسير المأثور بدون أن يذكروا أسانيدهم فى ذلك ، وأكثروا من نقل الأقوال فى تفاسيرهم بدون تفرقة بين الصحيح والعليل ، مما جعل الناظر فى هذه الكتب لا يركن لما جاء فيها ، لجواز أن يكون من قبيل الموضوع المختلق ، وهو كثير فى التفسير .

ثم بعد هذا تغيرت موجهات الحياة ، فبعد أن كان التدوين فى التفسير لا يتعدى المأثور منه ، تعدى إلى تدوين التفسير بالرأى على تدرج فيه ، كما أشرنا إليه فيما سبق (ص ١٤٦) .

(١ ، ٢ ، ٣) الإتقان جـ ٢ ص ٨٨ .

اللون الشخصى للتفسير المأثور

من المعلوم أن الشخص الذى يفسر نصاً من النصوص ، يلون هذا النص بتفسيره إياه ؛ لأن المتفهم لعبارة من العبارات ، هو الذى يحدد معناها ومرماها وفق مستواه الفكرى ، وعلى سعة أفقه العقلى ، وليس فى استطاعته أن يفهم من النص إلا ما يرمى إليه فكره ، ويمتد إليه عقله ، وبمقدار هذا يتحكم فى النص ويحدد بيانه ، وهذا أصل ملحوظ ، نجد آثاره واضحة فى كتب التفسير على اختلافها ، فما من كتاب منها إلا وقد وجدنا آثار شخصية صاحبه وقد طبعت تفسيره بطابع خاص لا يعسر علينا إدراكه ...

غير أن هذا الطابع الشخصى الذى يطبع به التفسير ، إن ظهر لنا جليا واضحاً فى كتب التفسير بالرأى ، فإنا لا نكاد نجده لأول وهلة على هذا النحو من الوضوح والجلاء بالنسبة لكتب التفسير بالمأثور ، ولكن نستطيع أن نتبينه إذا ما قدرنا أن المتصدى لهذا التفسير النقلى إنما يجمع حول الآية من المرويات ما يشعر أنها متجهة إليه ، متعلقة به ، فيقصد إلى ما يتبادر لذهنه من معناها ، ثم تدفعه الفكرة العامة فيها إلى أن يصل بين الآية وما يروى حولها فى اطمئنان، وبهذا الاطمئنان ، يتأثر نفسياوعقليا ، حينما يقبل مروياويعنى به، أو يرفض مرويا حين لا يرتاح إليه .

وكذلك راج بين المتقدمين — كما لاحظه ابن خلدون فى مقدمته — ما هم فى شوق إليه وتعلق به ، من أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود ، وتفصيل الأحداث الكبرى فى تاريخ الإنسانية الأولى ، نظراً لبداوتهم وأميتهم ، وقلة المتداول بينهم منه ، فكان من وراء ذلك كثرة الإسرائيليات ، وليس من شك فى أن هذا صورة عقلية ، وطابع شخصى لهذا العصر الأول[١] ، كما أنه صورة عقلية ، وطابع شخصى لكل من يقبل هذه الإسرائيليات ويفسر بعض آيات القرآن على ضوئها .

(١) انظر التفسير — معالم حياته — منهجه اليوم ص ٢٨ .

ثم إننا بعد هذا نلحظ لوناً شخصياً آخر فى التفسير النقلى ، ذلك أن الشخص الذى يعرف قيمة الرجال ، ويستطيع أن ينقد السند ، ويعرف أسباب الضعف فى الرواية ، ترى تفسيره يطبع بهذا الطابع الشخصى الخاص ، فيتحرى الصحة فيما يرويه ، فلا يدخل فى كتابه مروياً اعتراه الضعف أو تطرق إليه الخلل . أما الشخص الذى لا دراية له بأسباب الضعف فى الرواية ، وليس عنده القدرة على نقد الرجال ونقد المروى عنهم لحاطب ليل ، يجمع كل ما ينقل له فى ذلك بدون أن يفرق بين الصحيح وغيره .

وبعد ... أفلا ترى أنه حتى فى رواج التفسير النقلى وتداوله تكون شخصية المتعرض للتفسير هى الملونة له ، المروجة لصنف منه ؟ أظن أن نعم .

الضعف فى رواية التفسير المأثور وأسبابه

علمنا مما تقدم أن التفسير المأثور يشمل ما كان تفسيراً للقرآن بالقرآن ، وما كان تفسيراً للقرآن بالسنة ، وما كان تفسيراً للقرآن بالموقوف على الصحابة أو المروى عن التابعين . أما تفسير القرآن بالقرآن ، أو بما ثبت من السنة الصحيحة ، فذلك مما لا خلاف فى قبوله ، لأنه لا يتطرق إليه الضعف ، ولا يجد الشك إليه سبيلا .

وأما ما أضيف إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو ضعيف فى سنده أو متنه فذلك مردود غير مقبول ، ما دام لم تصح نسبته إلى النبى صلى الله عليه وسلم .

وأما تفسير القرآن بما يروى عن الصحابة أو التابعين ، فقد تسرب إليه الخلل ، وتطرق إليه الضعف ، إلى حد كاد يفقدنا الثقة بكل ما روى من ذلك ، لولا أن قيض الله لهذا التراث العظيم من أزاح عنه هذه الشكوك ، فسلمت لنا منه كمية لا يستهان بها ، وإن كان صحيحها وسقيمها لا يزال خليطا فى كثير من الكتب التى عنى أصحابها بجمع شتات الأقوال .

ولقد كانت كثرة المروى من ذلك كثرة جاوزت الحد - وبخاصة عن ابن عباس وعلى بن أبى طالب رضى الله عنهما - أكبر عامل فى صرف همة العلماء ولفت أنظارهم إلى البحث والتمحيص ، والنقد والتعديل والتجريح ، حتى لقد نقل عن الإمام الشافعى رضى الله عنه أنه قال : «لم يثبت عن ابن عباس فى التفسير إلا شبيه بمائة حديث»[1] . وهذا العدد الذى ذكره الشافعى ، لا يكاد يذكر بجوار ما روى عن ابن عباس من التفسير . وهذا يدل على مبلغ ما دخل فى التفسير النقلى من الروايات المكذوبة المصنوعة .

أسباب الضعف :

ونستطيع أن نرجع أسباب الضعف فى رواية التفسير المأثور إلى أمور ثلاثة :

أولها : كثرة الوضع فى التفسير .

ثانيها : دخول الإسرائيليات فيه .

ثالثها : حذف الأسانيد .

وأرى أن أعرض لكل سبب من هذه الأسباب الثلاثة المجملة بالإيضاح والتفصيل ، حتى يتبين لنا مقدار ما كان لكل منها من الأثر فى فقدان الثقة بكثير من الروايات المأثورة فى التفسير .

(أولا) : الوضع فى التفسير

نشأته — أسبابه — أثره — قيمة التفسير الموضوع

نشأة الوضع فى التفسير :

نشأ الوضع فى التفسير مع نشأته فى الحديث ، لأنهما كانا أول الأمر

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٩

مزيجا لا يستقل أحدهما عن الآخر ، فكما أننا نجد فى الحديث ، الصحيح والحسن والضعيف ، وفى رواته من هو موثوق به ، ومن هو مشكوك فيه ، ومن عرف بالوضع ، نجد مثل ذلك فيما روى من التفسير . ومن روى من المفسرين .

وكان مبدأ ظهور الوضع فى سنة إحدى وأربعين من الهجرة ، حين اختلف المسلمون سياسيا ، وتفرقوا إلى شيعة وخوارج وجمهور ، ووجد من أهل البدع والأهواء من روجوا لبدعهم ، وتعصبوا لأهوائهم ، ودخل فى الإسلام من تبطن الكفر والتحف الإسلام بقصد الكيد له ، وتضليل أهله ، فوضعوا ما وضعوا من روايات باطلة ، ليصلوا بها إلى أغراضهم السيئة ، ورغباتهم الخبيثة.

أسبابه :

ويرجع الوضع فى التفسير إلى أسباب متعددة : منها التعصب المذهبى ، فإن ما جد من افتراق الأمة إلى شيعة تطرفوا فى حب على ، وخوارج انصرفوا عنه وناصبوه العداء ، وجمهور المسلمين الذين وقفوا بجانب هاتين الطائفتين بدون أن يمسهم شىء من ابتداع التشيع أو الخروج ، جعل كل طائفة من هذه الطوائف تحاول بكل جهودها أن تؤيد مذهبها بشىء من القرآن ، فنسب الشيعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وإلى على وغيره من أهل البيت ـ رضى الله عنهم ـ أقوالا كثيرة فى التفسير تشهد لمذهبهم . كما وضع الخوارج كثيرا من التفسير الذى يشهد لمذهبهم[1] ، ونسبوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه، وكان قصد كل فريق من نسبة هذه الموضوعات إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد أصحابه ، الترويج للمروى ، والإمعان فى التدليس ؛ فإن نسبة المروى إلى الرسول عليه الصلاة والسلام أو إلى أحد الصحابة ، تورث المروى

(١) وسيأتى شىء من ذلك عند الكلام عن تفسير الشيعة والخوارج

ثقة وقبولا ، لا يوجد شيء منهما عندما ينسب المروى لغير النبي عليه الصلاة والسلام أو لغير صحابي .

كذلك نجد اللون السياسي في هذا العصر يترك له أثراً بيناً في وضع التفسير، ويلاحظ أن المروى عن علي وابن عباس رضي الله عنهما قد جاوز حد الكثرة ، مما يجعلنا نميل إلى القول بأنه قد وضع عليهما في التفسير أكثر مما وضع على غيرهما ، والسبب في ذلك أن عليا وابن عباس رضي الله عنهما من بيت النبوة ، فالوضع عليهما يكسب الموضوع ثقة وقبولا ، وتقديساً ورواجا ، مما لا يكون لشيء مما ينسب إلى غيرهما . وفوق هذا فقد كان لعلي من الشيعة ما ليس لغيره ، فنسبوا إليه من القول في التفسير ما يظنون أنه يعلي من قدره ، ويرفع من شأنه . وابن عباس كان من نسله الخلفاء العباسيون ، فوجد من الناس من تزلف إليهم ، وتقرب بكثرة ما يرويه لهم عن جدهم ابن عباس ، مما يدل على أن اللون السياسي كان له أثر ظاهر في وضع التفسير .

كذلك نجد من أسباب الوضع في التفسير ما قصده أعداء الإسلام الذين اندسوا بين أبنائه متظاهرين بالإسلام ، من الكيد له ولأهله ، فعمدوا إلى الدس والوضع في التفسير بعد أن عجزوا عن أن ينالوا من هذا الدين عن طريق الحرب والقوة ، أو عن طريق البرهان والحجة .

أثر الوضع في التفسير :

وكان من وراء هذه الكثرة التي دخلت في التفسير ودست عليه ، أن ضاع كثير من هذا التراث العظيم الذي خلفه لنا أعلام المفسرين من السلف ؛ لأن ما أحاط به من شكوك ، أفقدنا الثقة به ، وجعلنا نرد كل رواية تطرق إليها شيء من الضعف ، وربما كانت صحيحة في ذاتها .

كما أن اختلاط الصحيح من هذه الروايات بالسقيم منها ، جعل بعض من ينظر فيها وليس عنده القدرة على التمييز بين الصحيح والعليل ، ينظر إلى جميع

ما روى بعين واحدة ، فيحكم على الجميع بالصحة ، وربما وجد من ذلك روايتين متناقضتين عن مفسر واحد فيتهمه بالتناقض فى قوله ، ويتهم المسلمين بقبول هذه الروايات المتناقضة المتضاربة .

يقول الأستاذ جولدزيهر فى كتابه (المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن) ص ٧٨ — ٨٢ — ما نصه « وإنه لما يلفت النظر فى هذا المحيط ، هذه الظاهرة الغريبة ، وهى أن التعاليم المنسوبة إلى ابن عباس تحمل طابع التصديق بشكل متساو ، وهى فى نفسها تظهر فى تضاد شديد بينها وبين بعضها ، مما لا يقبل التوسط أو التوفيق » .

ثم يسوق بعد ذلك مثالا لهذا التضاد ، فيذكر ما قام حول تعيين الذبيح من خلاف أسنده مثيروه إلى أقوال مأثورة عن السلف ، ويذكر فى ضمن كلامه : « أن كل فريق يعتمد فى رأيه على إسناد متصل بابن عباس يدعم به رأيه فالإسحاقيون عن عكرمة ، والإسماعيليون عن الشعبى أو مجاهد ، كل أولئك سمعوا ذلك عن ابن عباس ، وكل ادعى بأن هذا هو رأيه فى هذه المسألة ... » .

ثم يقول بعد كلام ساقه فى هذا الموضوع : « ويمكن أن يرى من ذلك إلى أى حد يكون مقدار صحة الرأى المستند إلى ابن عباس ، وإلى أى حد يمكن الاعتراف به . وما نعتبره بالنسبة له وللآراء المأثورة عنه ، يمكن أن يعتبر إلى أقصى حد بالنسبة للتفسير المأثور ، فالأقوال المتناقضة يمكن أن ترجع دائما إلى قائل واحد ، معتمدة فى الوقت نفسه على أسانيد مرضية موثوق بها ... »

ثم يقول بعد كلام ساقه عن الإسناد وما وقع فيه من اللعب والخداع : « ومن الملاحظات التى أبديناها ، يمكن أن نخلص بهذه النتيجة : وهى أنه لا يوجد بالنسبة لتفسير مأثور للقرآن ما نستطيع أن نسميه وحدة تامة أو كيانا قائما ، فإنه قد تروى عن الصحابة فى تفسير الموضوع الواحد آراء متخالفة

وفى أغلب الأحيان يناقض بعضها بعضا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد تنسب للصحابى الواحد فى معنى الكلمة الواحدة أو الجملة كلها آراء مختلفة ، وبناء على ذلك ، يعتبر التفسير الذى يخالف بعضه بعضاً ، والمناقض بعضه بعضا ، مساويا للتفسير بالعلم . . . »

هذا ما حكم به الأستاذ جولد زيهر على التفسير بالمأثور فى كتابه ، وكل ما قاله فى هذا الموضوع لايعدو أن يكون محاولات فاشلة، يريد من ورائها أن أن يظهر أن ابن عباس خاصة ، ومن تكلم فى التفسير من الصحابة عامة ، بمظهر الشخص الذى يناقض نفسه فى الكلمة الواحدة أو الموضوع الواحد . كما يرمى من وراء ذلك إلى أن يصرف نظر المسلمين عن هذه الثروة الضخمة التى خلفها لهم السلف الصالح فى التفسير ، زعما أن هـذا التناقض الموجود بين الروايات ، نتيجة لا ختلاف وجهات النظر من شخص واحد أو أشخاص ، وتفسير هذا شأنه نحن فى حل من التزامه ، لأنهم قالوا بعقولهم ، ونحن مشتركون معهم فى هذا القدر .

ونحن لا ننكر أن هناك اختلافا بين السلف فى التفسير ، كما لا ننكر أن هناك اختلافا بين قولين أو أقوال لشخص واحد منهم ، ولكن هذا الاختلاف قلنا عنه فيما سبق مفصلا : إن معظمه يرجع إلى اختلاف عبارة وتنوع، لا اختلاف تناقض وتضاد ، فما كان من هذا القبيل ، فالجمع بينه سهل ميسور ، وما لم يمكن فيه الجمع ، فالمتأخر من القولين عن الشخص الواحد مقدم إن استويا فى الصحة عنه ، وإلا فالصحيح المقدم .[1]

أما إذا تعارضت أقوال جماعة من الصحابة وتعذر الجمع أو الترجيح،فيقدم ابن عباس على غيره ، لأن النبى صلى الله عليه وسلم بشره بذلك حيث قال :

---

(١) الاتقان ج ٢ ص ١٧٩

اللهم علمه التأويل . وقد رجح الشافعى قول زيد فى الفرائض لحديث « أفرضكم زيد[١] » .

وأما ما ساقه على سبيل المثال من اختلاف الرواية عن ابن عباس فى تعيين الذبيح ، فقد رجعت إلى ابن جرير فى تفسيره، فوجدته قد ذكر عن ابن عباس هاتين الروايتين المختلفتين ، وساق كل رواية منها بأسانيد تتصل إلى ابن عباس ، بعضها يرفعه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، وبعضها موقوف عليه .

وابن جرير — كما نعلم — لم يلتزم الصحة فى كل ما يرويه ، ولو أننا عرضنا هاتين الروايتين على قواعد المحدثين فى نقد الرواية والترجيح، لتبين لنا بكل وضوح وجلاء ، أن الرواية القائلة بأن الذبيح هو إسماعيل، أصح من غيرها وأرجح مما يخالفها ، لأنها مؤيدة بأدلة كثيرة يطول ذكرها ، وأيضاً فإن الرواية التى يذكرها ابن جرير عن ابن عباس مرفوعة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ومفيدة أن الذبيح هو إسحق ، فى سندها الحسن بن دينار عن على ابن زيد ، والحسن بن دينار متروك ، وعلى بن زيد منكر الحديث ، كما ذكره الحافظ بن كثير فى تفسيره[٢] .

أما باقى الروايات الموقوفة على ابن عباس، والتى تفيد أن الذبيح هو إسحق، فهى — وإن كانت صحيحة الأسانيد — محمولة على أن ما تضمنته من أن الذبيح هو إسحق ، كان رأى ابن عباس فى أول الأمر . لأنه سمع ذلك من بعض الصحابة الذين كانوا يحدثون فى مثل هذا بما سمعوه من كعب وغيره من مسلمى اليهود ، ثم علم بعد أن ذلك قول اليهود فرجع عنه وصرح بنقيضه ، كما قال ابن جرير : « حدثنى يونس ؛ أخبرنا ابن وهب ؛ أخبرنى عمر بن قيس عن عطاء

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٣ .

(٢) جـ ٤ ص ١٧ .

ابن أبي رباح ، عن عبد الله بن عباس أنه قال: المفدى إسماعيل، وزعمت اليهود أنه إسحق وكذبت اليهود »(١) ، وهذا الأثر صحيح عن ابن عباس ، إسناده على شرط الصحيح ، وهو كما ترى صريح فى تكذيب اليهود فيما زعموه ، وهو يقضى على كل أثر بخلافه، وبهذا الطريق تنتظم الآثار الواردة عن ابن عباس فى هذا الباب . قال ابن كثير فى تفسيره ج ٤ ص ١٧ بعدما ساق الروايات فى أن الذبيح هو إسحق «وهذه الأقوال — والله أعلم — كلها مأخوذة عن كعب الأحبار؛ فإنه لما أسلم فى الدولة العمرية جعل يحدث عمر رضى الله عنه عن كتبه قديماً ، فربما استمع له عمر رضى الله عنه ، فترخص الناس فى استماع ما عنده ، ونقلوا ما عنده عنه ، غثها وسمينها، وليس لهذه الأمة — والله أعلم — حاجة إلى حرف واحد مما عنده » اه .

وأما مارمى إليه من جعل التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم ، وادعاؤه أنه لا توجد له وحدة تامة أو كيان قائم ، فهذا شطط منه فى الرأى ، ولا يكاد يسلم له هذا المدعى؛ لأن المأثور الذى صح عن النبى صلى الله عليه وسلم له مكانته وقيمته ؛ «إن هو إلا وحى يوحى»(٢). وأما ما صح عن الصحابة فغالبه مما تلقوه عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقليل منه قالوه عن نظر منهم واجتهاد ، وحتى هذا القليل — عند من لا يرى أن له حكم المرفوع — له أيضاً قيمته ومكانته ، ولا يجوز العدول عنه إذا صح إلى غيره ؛ لأنهم أدرى بذلك ، لما شاهدوه من القرائن والأحوال التى اختصوا بها ؛ ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح .

وبعد .. فهل يعد التفسير المأثور مساوياً للتفسير بالعلم ؟ اللهم إن هذا لا يقوله منصف .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٢٣ ص ٥٣ .

(٢) الآية (٤) من سورة النجم .

قيمة التفسير الموضوع :

ثم إن هذا التفسير الموضوع ، لو نظرنا إليه من ناحيته الذاتية بصرف النظر عن ناحيته الإسنادية ، لوجدنا أنه لا يخلو من قيمته العلمية ، لأنه مهما كثر الوضع فى التفسير فإن الوضع ينصب على الرواية نفسها ، أما التفسير فى حد ذاته فليس دائماً أمراً خيالياً بعيدا عن الآية ، وإنما هو — فى كثير من الأحيان — نتيجة اجتهاد علمى له قيمته،فمثلا من يضع فى التفسير شيئاً وينسبه إلى على أو إلى ابن عباس ، لا يضعه على أنه مجرد قول يلقيه على عواهنه ، وإنما هو رأى له ، واجتهاد منه فى تفسير الآية ، بناه على تفكيره الشخصى ، وكثيراً ما يكون صحيحاً ، غاية الأمر أنه أراد لرأيه رواجاً وقبولا ، فنسبه إلى من نسب إليه من الصحابة . ثم إن هذا التفسير المنسوب إلى على أو ابن عباس لم يفقد شيئاً من قيمته العلمية غالباً ، وإنما الشىء الذى لاقيمة له فيه هو نسبته إلى على أو ابن عباس .

فالموضوع من التفسير — والحق يقال — لم يكن مجرد خيال أو وهم خلق خلقاً ، بل له أساس ما ، يهم الناظر فى التفسير درسه وبحثه ، وله قيمته الذاتية وإن لم يكن له قيمته الإسنادية [١] .

---

(١) انظر فجر الاسلام ص ٢٥١ ؛ وضحى الاسلام ج ٢ ص ١٤٣ .

ثانيا : الإسرائيليات

تمهيد : فى بيان المراد بالإسرائيليات ومدى الصلة بينها وبين القرآن — مبدأ دخول الإسرائيليات فى التفسير وتطوره — أثرها فى التفسير — قيمة المروى منها — موقف المفسر إزاء هذه الإسرائيليات — أقطاب الروايات الإسرائيلية .

تمهيد : فى بيان المراد بالإسرائيليات ، ومدى الصلة بينها وبين القرآن

لفظ الإسرائيليات وإن كان يدل بظاهره على اللون اليهودى للتفسير ، وما كان للثقافة اليهودية من أثر ظاهر فيه، إلا أنا نريد به ماهو أوسع من ذلك وأشمل ، فنريد به مايعم اللون اليهودى واللون النصرانى للتفسير ، وما تأثر به التفسير من الثقافتين اليهودية والنصرانية .

وإنما أطلقنا على جميع ذلك لفظ الإسرائيليات ، من باب التغليب للجانب اليهودى على الجانب النصرانى ؛ فإن الجانب اليهودى هو الذى اشتهر أمره فكثر النقل عنه ؛ وذلك لكثرة أهله ، وظهور أمرهم ، وشدة اختلاطهم بالمسلمين من مبدأ ظهور الإسلام إلى أن بسط رواقه عن كثير من بلاد العالم ودخل الناس فى دين الله أفواجاً .

كان لليهود ثقافة دينية ، وكان للنصارى ثقافة دينية كذلك ، وكلتا الثقافتين كان لها أثر فى التفسير إلى حدما .

أما اليهود ، فإن ثقافتهم تعتمد أول ماتعتمد على التوراة التى أشار إليها القرآن بقوله : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور »[1] ، ودل على بعض

---

(١) فى الآية (٤٤) من سورة المائدة .

ماجاء فيها من أحكام بقوله : « وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالأنف والأذن بالأذن والسن بالسن والجروح قصاص[١] ».

وكثيراً مايستعمل المسلمون واليهود أنفسهم لفظ التوراة ويطلقونه على كل الكتب المقدسة عند اليهود فيشمل الزبور وغيره . وتسمى التوراة بما اشتملت عليه من الأسفار الموسوية وغيرها : العهد القديم .

وكان لليهود بجانب التوراة سنن ونصائح وشروح لم تؤخذ عن موسى بطريق الكتابة ، وإنما تحملوها ونقلوها بطريق المشافهة . ثم نمت على مرور الزمن وتعاقب الأجيال ، ثم دونت وعرفت باسم التلمود ، ووجد بجوار ذلك كثير من الأدب اليهودى ، والقصص ، والتاريخ ، والتشريع ، والأساطير .

وأما النصارى فكانت ثقافتهم تعتمد — فى الغالب الأهم — على الإنجيل وقد أشار القرآن إلى أنه من كتب السماء التى نزلت على الرسل فقال : « ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل[٢] » وغير هذا كثير من آيات القرآن التى تشهد له بذلك .

والأناجيل المعتبرة عند النصارى يطلق عليها وعلى ماانضم إليها من رسائل الرسل . اسم : العهد الجديد . والكتاب المقدس لدى النصارى يشمل : التوراة والإنجيل ويطلق عليه : العهد القديم والعهد الجديد .

وكان طبيعاً أن يشرح الإنجيل بشروح مختلفة ، كانت فيما بعد منبعا من منابع الثقافة النصرانية ، كما وجد بجوار ذلك مازاده النصارى من القصص ، والأخبار ، والتعاليم . التى زعموا أنهم تلقوها عن عيسى عليه السلام ، وهذا كله كان من ينابيع هذه الثقافة النصرانية .

---

(١) فى الآية (٤٥) من سورة المائدة .

(٢) فى الآية (٢٧) من سورة الحديد .

إذاً فقد كانت التوراة المصدر الاول لثقافة اليهود الدينية ، كما كان الإنجيل المصدر الأهم لثقافة النصارى الدينية .

وإذا نحن أجلنا النظر فى التوراة والإنجيل نجد أنهما قد اشتملا على كثير مما اشتمل عليه القرآن الكريم ، وبخاصة ما كان له تعلق بقصص الأنبياء عليهم السلام ، وذلك على اختلاف فى الإجمال والتفصيل ، فالقرآن إذا عرض لقصة من قصص الأنبياء — مثلا — فإنه ينحو فيها ناحية يخالف بها منحى التوراة أو الإنجيل ، فتراه يقتصر على مواضع العظة ، ولا يتعرض لتفصيل جزئيات المسائل ، فلا يذكر تاريخ الوقائع ، ولا أسماء البلدان التى حصلت فيها كما أنه لا يذكر فى الغالب أسماء الأشخاص الذين جرت على أيديهم بعض الحوادث . ويدخل فى تفاصيل الجزئيات ، بل يتخير من ذلك ما يمس جوهر الموضوع ، وما يتعلق بموضع العبرة .

وإذا نحن تتبعنا هذه الموضوعات التى اتفق فى ذكرها القرآن والتوراة ، أو القرآن والإنجيل ، ثم أخذنا موضوعا منها ، وقارنا بين ما جاء فى الكتابين وجدنا اختلاف المسلك ظاهراً جليا :

فمثلا قصة آدم عليه السلام ، ورد ذكرها فى التوراة ، كما وردت فى القرآن فى مواضع كثيرة ، أطولها ماورد فى سورة البقرة ، وماورد فى سورة الأعراف . وبالنظر فى هذه الآيات من السورتين ، نجد أن القرآن لم يتعرض لمكان الجنة ، ولا لنوع الشجرة التى نهى آدم وزوجه عن الأكل منها ، ولا بين الحيوان الذى تقمصه الشيطان فدخل الجنة ليزل آدم وزوجه . كما لم يتعرض للبقعة التى هبط إليها آدم وزوجه وأقام بها بعد خروجهما من الجنة ... إلى آخر ما يتعلق بهذه القصة من تفصيل وتوضيح .

ولكن نظرة واحدة يجيلها الإنسان فى التوراة يجد بعدها أنها قد تعرضت لكل ذلك وأكثر منه . فأبانت أن الجنة فى عدن شرقا ، وأن الشجرة التى نهيا

عنها كانت فى وسط الجنة ، وأنها شجرة الحياة ، وأنها شجره معرفة الخير والشر ، وأن الذى خاطب حواء هو الحية ، وذكرت ما انتقم الله به من الحية التى تقمصها إبليس، بأن جعلها تسعى على بطنها وتأكل التراب، وانتقم من حواء بتعبها هى ونسلها فى حبلها ... الخ ماذكر فيها مما يتعلق بهذه القصة[١] .

ومثلا نجد القرآن الكريم قد اشتمل على موضوعات وردت فى الإنجيل فمن ذلك قصة عيسى ومريم ، ومعجزات عيسى عليه السلام ، كل ذلك جاء به القرآن فى أسلوب موجز ، يقتصر على موضع العظة ومكان العبرة ، فلم يتعرض القرآن لنسب عيسى مفصلا ، ولا لكيفية ولادته ، ولا للمكان الذى ولد فيه ، ولا لذكر الشخص الذى قذفت به مريم ، كما لم يتعرض لنوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء ، ولا لحوادث جزئية من إبراء عيسى للأكمه والأبرص وإحياء الموتى ...

مع أننا لو نظرنا فى الإنجيل لوجدناه قد تعرض لنسب عيسى ، ولكيفية ولادة مريم له ، ولذكر الشخص الذى قذفت به مريم[٢] ، ولنوع الطعام الذى نزلت به مائد السماء[٣] ولحوادث جزئية من إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى[٤] ، ولكثير من مثل هذا التفصيل الموسع الذى أعرض عنه القرآن فلم يذكره لنا .

وبعد ... فهل يجد المسلمون هذا الإيجاز فى كتابهم ، ويجدون بجانب ذلك تفصيلا لهذا الإيجاز فى كتب الديانات الأخرى، ثم لا يقتبسون منها بقدر مايرون أنه شارح لهذا الإيجاز وموضح لما فيه من غموض ؟ .. هذا مانريد أن نعرض

---

(١) العهد القديم ، الاصحاح الأول من سفر التكوين ص ٤ — ٥ .

(٢) العهد الجديد إنجيل متى ، الاصحاح الأول ص ١ .

(٣) العهد الجديد ، انجيل مرقص ؛ الاصحاح الثانى ص٤٧ .

(٤) إنجيل متى ص ١٠٨ و ٤٠ .

له فى هذا البحث ، ليتبين لنا كيف دخلت الإسرائليات فى التفسير ، وكيف تطور هذا الدخول ، وإلى أى حد تأثر التفسير بالتعاليم اليهودية والنصرانية .

مبدأ دخول الإسرائليات فى التفسير وتطوره

نستطيع أن نقول : إن دخول الإسرائيات فى التفسير ، أمر يرجع إلى عهد الصحابة رضى الله عنهم ، وذلك نظرا لاتفاق القرآن مع التوراة والإنجيل فى ذكر بعض المسائل كما تقدم ، مع فارق واحد ، هو الإيجاز فى القرآن ، والبسط والإطناب فى التوراة والإنجيل . وسبق لنا القول بأن الرجوع إلى أهل الكتاب ، كان مصدراً من مصادر التفسير عند الصحابة ، فكان الصحابى إذا مر على قصة من قصص القرآن يجد من نفسه ميلا إلى أن يسأل عن بعض ماطواه القرآن منها ولم يتعرض له ، فلا يجد من يجيبه على سؤاله سوى هؤلاء النفر الذين دخلوا فى الإسلام ، وحملوا إلى أهله مامعهم من ثقافة دينية ، فألقوا إليهم ماالقوا من الأخبار والقصص الدينى .

غير أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شىء ، ولم يقبلوا منهم كل شىء ، بل كانوا يسألون عن أشياء لاتعدو أن تكون توضيحا للقصة وبيانا لما أجمله القرآن منها ، مع توقفهم فيما يلقى إليهم ، فلا يحكمون عليه بصدق أو بكذب مادام يحتمل كلا الأمرين ، امتثالا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا . . . الآية[1] » .

كما أنهم لم يسألوهم عن شىء مما يتعلق بالعقيدة أو يتصل بالأحكام ، اللهم إلا إذا كان على جهة الاستشهاد والتقوية لما جاء به القرآن . كذلك كانوا

---

(١) البخارى فى كتاب التفسير جـ٨ ص١٢٠ من فتح البارى .

لا يعدلون عما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك إلى سؤال أهل الكتاب ، لأنه إذا ثبت الشىء عن الرسول صلى الله عليه وسلم فليس لهم أن يعدلوا عنه إلى غيره ، . كما كانوا لا يسألون عن الأشياء التى يشبه أن يكون السؤال عنها نوعا من اللهو والعبث ، كالسؤال عن لون كلب أهل الكهف ، والبعض الذى ضرب به القتيل من البقرة ، ومقدار سفينة نوح ، ونوع خشبها ، واسم الغلام الذى قتله الخضر ... وغير ذلك ، ولهذا قال الدهلوى بعد أن بين أن السؤال عن مثل هذا تكلف مالا يعنى : « وكانت الصحابة رضى الله عنهم يعدون مثل ذلك قبيحا من قبيل تضييع الأوقات(١) » .

كذلك كان الصحابة لا يصدقون اليهود فيما يخالف الشريعة أو يتنافى مع العقيدة . بل بلغ بهم الأمر أنهم كانوا إذا سألوا أهل الكتاب عن شىء فأجابوا عنه خطأ ، ردوا عليهم خطأهم . وبينوا لهم وجه الصواب فيه ، فمن ذلك ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر يوم الجمعه فقال : فيه ساعة لا يوافقها عبد مسلم وهو قائم يصلى يسأل الله تعالى شيئا إلا أعطاه إياه . وأشار بيده يقللها(٢) » .

فقد اختلف السلف فى تعيين هذه الساعة ، وهل هى باقية أو رفعت ؟ وإذا كانت باقية ، فهل هى فى جمعة واحدة من السنة أو فى كل جمعة منها ؟ فنجد أبا هريرة رضى الله عنه يسأل كعب الأحبار عن ذلك ، فيجيبه كعب : بأنها فى جمعة واحدة من السنة ، فيرد عليه أبو هريرة قوله هذا ويبين له : أنها فى كل جمعة فيرجع كعب إلى التوراة ، فيرى الصواب مع أبى هريرة فيرجع إليه(٣) ، كما نجد أبا هريرة أيضا يسأل عبد الله بن سلام عن تحديد هذه الساعة ويقول له :

---

(١) الفوز الكبير فى أصول التفسير ص٣٥ .
(٢) البخارى فى باب الجمعة جـ٢ ص١٣
(٣) القسطلانى فى شرحه للحديث السابق جـ٢ ص ١٩٠

أخبرنى ولا تضن على ، فيجيبه عبد الله بن سلام بأنها آخر ساعة فى يوم الجمعة، فيرد عليه أبو هريرة بقوله : كيف تكون آخر ساعة فى يوم الجمعة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يصادفها عبد مسلم وهو يصلى » وتلك الساعة لا يصلى فيها ؟ ، فيجيبه عبد الله بن سلام بقوله : ألم يقل رسول الله صلى الله عليه وسلم : من جلس مجلساً ينتظر الصلاة فهو فى صلاة حتى يصلى ؟ . . . الحديث[1] .

فمثل هذه المراجعة التى كانت بين أبى هريرة وكعب تارة ، وبينه وبين ابن سلام تارة أخرى ، تدلنا على أن الصحابة كانوا لا يقبلون كل مايقال لهم، بل كانوا يتحرون الصواب ما استطاعوا ، ويردون على أهل الكتاب أقوالهم إن كانت لاتوافق وجه الصواب .

ومهما يكن من شىء فإن الصحابة — رضى الله عنهم — لم يخرجوا عن دائرة الجواز التى حدها لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما فهموه من الإباحة فى قوله عليه السلام « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار[2] » .

كما أنهم لم يخالفوا قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا.. الآية[3] »،ولا تعارض بين هذين الحديثين ، لأن الأول أباح لهم أن يحدثوا عما وقع لبنى إسرائيل من الأعاجيب ، لما فيها من العبرة والعظة، وهذا بشرط أن يعلموا أنه ليس مكذوبا، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يعقل أن يبيح لهم رواية المكذوب .

---

(١) المرجع السابق ؛ وسؤال أبى هريرة لابن سلام ؛ عند مالك ؛ وأبى داود ؛ والترمذى .

(٢) البخارى ج ٦ ص ٣٢٩ من فتح البارى .

(٣) البخارى فى باب التفسير ج ٨ ص ١٢٠ من فتح البارى .

قال الحافظ بن حجر فى الفتح[١] عند شرحه لهذا الحديث: وقال الشافعى: من المعلوم أن النبى صلى الله عليه وسلم لا يجيز التحدث بالكذب ، فالمعنى : حدثوا عن بنى إسرائيل بما لا تعلمون كذبه ، وأماما تجوزونه فلا حرج عليكم فى التحدث به عنهم . وهو نظير قوله : إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم : ولم يرد الإذن ولا المنع من التحدث بما يقطع بصدقه ، اه

وأما الحديث الثانى ، فيراد منه التوقف فيما يحدث به أهل الكتاب ، مما يكون محتملا للصدق والكذب ، لأنه ربما كان صدقاً فيكذبونه ، أو كذبا فيصدقونه ، فيقعون بذلك فى الحرج . أما ما خالف شرعنا فنحن فى حل من تكذيبه ، وأما ما وافقه فنحن فى حل من تصديقه .

قال الحافظ ابن حجر عند شرحه لهذا الحديث « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم » أى إذا كان ما يخبرونكم به محتملا ، لئلا يكون فى نفس الأمر صدقا فتكذبوه ، أو كذباً فتصدقوه ، فتقعوا فى الحرج . ولم يرد النهى عن تكذيبهم فيما ورد شرعنا بخلافه ، ولا عن تصديقهم فيما ورد شرعنا بوفاقه . نبه على ذلك الشافعى رحمه الله . . . . . ثم قال : وعلى هذا نحمل ما جاء عن السلف من ذلك[٢] .

وأما ما أخرجه الإمام أحمد ، وابن أبى شيبة ، والبزار ، من حديث جابر ابن عبد الله « أن عمر بن الخطاب أتى النبى صلى الله عليه وسلم بكتاب أصابه من بعض أهل الكتاب ، فقرأه عليه فغضب فقال: أمتهوكون[٣] فيها يابن الخطاب؟ والذى نفسى بيده ، لقد جئتكم بها بيضاء نقية . لاتسألوهم عن شىء فيخبروكم بحق فتكذبوا به ، أو بباطل فتصدقوا به ، والذى نفسى بيده ، لو أن موسى

---

(١) ج ٦ ص ٣٢٠ .
(٢) فتح البارى ج٨ ص ١٢٠
(٣) المتهوك . المتحير .

صلى الله عليه وسلم كان حيا ما وسعه إلا أن يتبعنى»[١] ، فلا يعارض ماقلناه من الجواز ، لأن النهى الوارد هنا كان فى مبدأ الاسلام وقبل استقرار الأحكام. والإباحة بعد أن عرفت الأحكام واستقرت ، وذهب خوف الاختلاط قال الحافظ ابن حجر فى الفتح[٢] : وكأن النهى وقع قبل استقرار الأحكام الاسلامية ، والقواعد الدينية خشية الفتنة ، لما زال المحذور وقع الأذن فى ذلك ، لما فى سماع الأخبار التى كانت فى زمانهم من الاعتبار » ها .

ويمكن أن ندفع ما يتوهم من التعارض بما نقله ابن بطال عن المهلب أنه قال : هذا النهى إنما هو فى سؤالهم عما لا نص فيه ، لأن شرعنا مكتف بنفسه، فإذا لم يوجد فيه نص ففى النظر والاستدلال غنى عن سؤالهم ، ولا يدخل فى النهى سؤالهم عن الأخبار المصدقة لشرعنا ، والأخبار عن الأمم السالفة»[٣].

ومن هذا كله يتبين لنا : أنه لا تعارض بين هذه الأحاديث الثلاثة ، كما يتبين لنا المقدار الذى أباحه الشارع من الرواية عن أهل الكتاب .

ولسنا بعد ما فهمناه من هذه الأحاديث ، وما عرفناه من حرص الصحابة على امتثال ما أمرهم به الرسول صلى الله عليه وسلم ، نستطيع أن نقر الأستاذ جولد زيهر والأستاذ أحمد أمين على هذا الاتهام الذى وجهاه إلى ابن عباس خاصة ، وإلى الصحابة عامة ، من رجوعهم إلى الكتاب فى كل شىء ، وقبولهم لما نهى الرسول عن أخذه من أهل الكتاب ، وقد ذكرنا كلامهما ورددنا عليه عند الكلام عن ابن عباس ، كما ذكرنا الأثر الذى أخرجه البخارى عن ابن عباس ، وفيه يشدد — رضى الله عنه — النكير على من يأخذون من أهل الكتاب ويصدقونهم فى كل شىء ، فهل يعقل بعد هذا ، وبعد ما عرفناه من

---

(١) مسند الإمام أحمد ج٣ ص٣٨٧

(٢) ج ٦ ص ٣٢٠ .

(٣) فتح البارى ج ١٣ ص٢٥٩ .

عدالة الصحابة وحرصهم على امتثال أوامر الله ورسوله ، ومراجعة أبى هريرة لكعب الأحبار وعبد الله بن سلام ، أن نعترف بتهاون الصحابة ومخالفتهم لتعاليم رسول الله صلى الله عليه وسلم !! ؟ اللهم إنا لا نقر ذلك ولا نرضاه .

وأما ما ذكره الأستاذ جولد زيهر : من أن ابن عباس كان يرجع لرجل يسمى أبا الجلد غيلان بن فروة الأزدى فى تفسير القرآن[١] ، فعلى فرض صحة ذلك . فإنا لا نكاد نصدق أن ابن عباس كان يرجع إليه فى كل شىء ، بل كان يرجع إليه فيسأله عن أشياء لا تعدو دائرة الجواز ، وليس من شك فى ذلك بعد ما عرفت من شدة نكير ابن عباس على من كان يرجع لأهل الكتاب ويأخذ عنهم .

وأما ما اعتمد عليه هذا المستشرق فى دعواه هذه ، من أن الطبرى عند تفسيره للفظ البرق فى قوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة الرعد « هو الذى يريكم البرق خوفاً وطمعاً » نسب إلى ابن عباس أنه قال : إن أبا الجلد يقول: إن معناه المطر[٢] فهو اعتماد لا يكاد ينهض بهذه الدعوى ؛ لأن ما رواه ابن جرير رواه عن المثنى ، قال : حدثنا حجاج ، قال : حدثنا حماد ، قال . أخبرنا موسى بن سالم أبو جهضم مولى ابن عباس قال : كتب ابن عباس إلى أبى الجلد يسأله عن البرق فقال : البرق : الماء . .)[٣] وهذا إسناد منقطع ، لأن موسى بن سالم أبا جهضم لم يدرك ابن عباس ، ولم يكن مولى له ، وإنما كان مولى العباسيين ، وروى عن أبى جعفر الباقر الذى كان بعد ابن عباس بمدة طويلة[٤]

---

(١) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ .

(٢) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٦٥ (هامش) .

(٣) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٨٢ .

(٤) انظر خلاصة تذهيب الكمال ص ٣٣٤ ؛ وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢١٠ .

ولعل ما قاله ابن جرير من أنه مولى ابن عباس سهو منه ، أو لعله خطأ وقع أثناء الطبع .

ثم إن سؤال ابن عباس عن معنى البرق، ليس سؤالا عن أمر يتعلق بالعقيدة أو الأحكام، وإنما هو سؤال يرجع إلى تعرف بعض ظواهر الكون الطبيعية، وليس فى هذا مايجر إلى مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم فى نهيه عن سؤال أهل الكتاب. على أن الحديث ليس فيه مايدل على أن ابن عباس صدق أبا الجلد فيما قال ، وكل مافيه : أنه حكى قوله فى البرق .

وأما مانسب لعبد الله ابن عمرو بن العاص من أنه أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب اليهود فكان يحدث منهما ،فليس على إطلاقه ، بل كان يحدث منهما فى حدود مافهمه من الإذن فى قوله عليه السلام (حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج) كما نص على ذلك ابن تيمية [١] .

هذا هو مبلغ رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب وأخذهم عنهم . أما التابعون فقد توسعوا فى الأخذ عن أهل الكتاب ، فكثرت على عهدهم الروايات الإسرائيلية فى التفسير ، ويرجع ذلك لكثرة من دخل من أهل الكتاب فى الإسلام ، وميل نفوس القوم لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث يهودية أو نصرانية. فظهرت فى هذا العهد جماعة من المفسرين أرادوا أن يسدوا هذه الثغرات القائمة فى التفسير بما هو موجود عند اليهود والنصارى . فحشوا التفسير بكثير من القصص المتناقض ، ومن هؤلاء : مقاتل ابن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ الذى نسبه أبو حاتم إلى أنه استقى علومه بالقرآن من اليهود والنصارى وجعلها موافقة لما فى كتبهم [٢] ، بل ونجد بعض المفسرين فى هذا العصر — عصر التابعين — يصل بهم الأمر إلى أن يصلوا بين القرآن

---

(١) مقدمته فى أصول التفسير ص ٢٦ .

(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٦٨ .

وما يتعلق بالإســلام فى مستقبله ، فيشرحوا القرآن بما يشبه التكهن عن المستقبل ، والتنبؤ بما يطويه الغيب ، فهذا مقاتل بن سليمان ، كان يرى أن قوله تعالى « وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذابا شديداً كان ذلك فى الكتاب مسطوراً » [١] يرجع إلى فتح القسطنطينية ، وتدمير الأندلس وغيرها من البلاد ، فقد جاء عنه أنه قال : وجدت فى كتاب الضحاك ابن مزاحم فى تفسيرها « أما مكة فتخربها الحبشة ، وتهلك المدينة بالجوع ، والبصرة بالغرق ، والكوفة بالترك ، والجبال بالصواعق والرواجف ، وأما خراسان فهلاكها ضروب ... ثم ذكر بلداً [٢] . وروى عن وهب بن منبه : أن الجزيرة آمنة من الخراب حتى تخرب أرمينية ، وأرمينية آمنة حتى تخرب مصر ، ومصر آمنة حتى تخرب الكوفة ، ولا تكون الملحمة الكبرى حتى تخرب الكوفة ، فإذا كانت الملحمة الكبرى ، فتحت قسطنطينية على يد رجل من بنى هاشم ، وخراب الأندلس من قبل الزنج ، وخراب أفريقية من قبل الأندلس ، وخراب مصر من انقطاع النيل واختلاف الجيوش فيها ، وخراب العراق من الجوع ، وخراب الكوفة من قبل عدو يحصرهم ويمنعهم من الشراب من الفرات ، وخراب البصرة من قبل العراق [الغرق] ، وخراب الأيلة من عدو يحصرهم براً وبحراً ، وخراب الرى من الديلم ، وخراب خراسان من قبل التبت ، وخراب التبت من قبل الصين ، وخراب الهند واليمن من قبل الجراد والسلطان ، وخراب مكة من الحبشة ، وخراب المدينة من قبل الجوع » اهـ [٣] .

ثم جاء بعد عصر التابعين من عظم شغفه بالإسرائيليات ، وأفرط فى الأخذ منها إلى درجة جعلتهم لا يردون قولا . ولا يحجمون عن أن يلصقوا

---

(١) الآية (٥٨) من سورة الاسراء .

(٢) تفسير الآلوسى جـ ١٥ ص ٩٣ .

(٣) المرجع السابق .

بالقرآن كل مايروى لهم وإن كان لايتصوره العقل !!. واستمر هذا الشغف بالإسرائيليات ، والولع بنقل هذه الأخبار التى أصبح الكثير منها نوعا من الخرافة إلى أن جاء دور التدوين للتفسير ، فوجد من المفسرين من حشوا كتبهم بهذا القصص الإسرائيلى ، الذى كاد يصد الناس عن النظر فيها والركون إليها .

مقالة ابن خلدون فى الإسرائليات :

ونرى بعد هذا أن نذكر عبارة ابن خلدون فى مقدمته ، ليتبين لنا أسباب الاستكثار من هذه المرويات الإسرائيلية ، وكيف تسربت إلى المسلمين ، فإنه خير من كتب فى هذا الموضوع ، وإليك نص عبارته :

قال رحمه الله « .... وقد جمع المتقدمون فى ذلك - يعنى التفسير النقلى - وأوعوا إلا أن كتبهم ومنقولاتهم تشتمل على الغث والسمين ، والمقبول والمردود . والسبب فى ذلك أن العرب لم يكونوا أهل كتاب ولا علم . وإنما غلبت عليهم البداوة والأمية ، وإذا تشوقوا إلى معرفة شىء مما تتشوق إليه النفوس البشرية فى أسباب المكونات ، وبدء الخليقة ، وأسرار الوجود فإنما يسألون عنه أهل الكتاب قبلهم ، ويستفيدونه منهم ، وهم أهل التوراة من اليهود ومن تبع دينهم من النصارى . وأهل التوراة الذين بين العرب يومئذ بادية مثلهم ، ولا يعرفون من ذلك إلا ماتعرفه العامة من أهل الكتاب ، ومعظم من حمير ، الذين أخذوا بدين اليهودية ، فلما أسلموا بقوا على ما كان عندهم مما لاتعلق له بالأحكام الشرعية التى يحتاطون لها ، مثل أخبار بدء الخليقة ، وما يرجع إلى الحدثان والملاحم ، وأمثال ذلك وهؤلاء مثل : كعب الأحبار ، ووهب ابن منبه ، وعبد الله بن سلام ، وأمثالهم ، فامتلأت التفاسير من المنقولات عنهم ، وفى أمثال هذه الأغراض أخبار موقوفة عليهم ، وليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل ، وتساهل المفسرون فى

مثل ذلك، وملئوا الكتب بهذه المنقولات ، وأصلها كما قلنا عن أهل التوراة الذين يسكنون البادية ولا تحقيق عندهم بمعرفة ماينقلونه من ذلك ، إلا أنهم بعد صيتهم ، وعظمت أقدارهم ، لما كانوا عليه من المقامات فى الدين والملة ، فتلقيت بالقبول من يومئذ ... »[1] .

ومن هذا يتضح لنا أن ابن خلدون أرجع الأمر إلى اعتبارات اجتماعية وأخرى دينية، فعد من الاعتبارات الاجتماعية غلبة البداوة والأمية على العرب وتشوقهم لمعرفة ما تتشوق إليه النفوس البشرية ، من أسباب المكونات وبدء الخليقة وأسرار الوجود ، وهم إنما يسألون فى ذلك أهل الكتاب قبلهم .

وعد من الاعتبارات الدينية التى سوغت لهم تلقى المرويات فى تساهل وعدم تحر للصحة ، أن مثل هذه المنقولات ليست مما يرجع إلى الأحكام فيتحرى فيها الصحة التى يجب بها العمل .

وسواء أكانت هذه هى كل الأسباب أم كانت هناك أسباب أخرى،فإن كثيراً من كتب التفسير قد اتسع لما قيل من ذلك وأكثر ، حتى أصبح مافيها مزيجاً متنوعاً من مخلفات الأديان المختلفة ، والمذاهب المتباينة .

أثر الإسرائيليات فى التفسير

ولقد كان لهذه الإسرائيليات التى أخذها المفسرون عن أهل الكتاب وشرحوا بها كتاب الله تعالى أثر سيئ فى التفسير ، ذلك لأن الأمر لم يقف على ما كان عليه فى عهد الصحابة ، بل زادوا على ذلك فرووا كل ماقيل لهم إن صدقاً وإن كذباً ، بل ودخل هذا النوع من التفسير كثير من القصص الخيالى المخترع ، مما جعل الناظر فى كتب التفسير التى هذا شأنها يكاد لا يقبل شيئاً مما

(١) مقدمه ابن خلدون ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

جاء فيها ، لاعتقاده أن الكل من واد واحد . وفى الحق أن المكثرين من هذه الاسرائيليات وضعوا الشوك فى طريق المشتغلين بالتفسير ، وذهبوا بكثير من الأخبار الصحيحة بجانب مارووه من قصص مكذوب وأخبار لاتصح ، كما أن نسبة هذه الإسرائيليات التى لايكاد يصح شيء منها إلى بعض من آمن من أهل الكتاب ، جعلت بعض الناس ينظر إليهم بعين الاتهام والريبة . وسوف نعرض لهذا فيما بعد ، ونرد عليه إن شاء الله تعالى .

قيمة ما يرى من الإسرائيليات

تنقسم الأخبار الإسرائيلية إلى أقسام ثلاثة ، وهى ما يأتى :

القسم الأول :

مايعلم صحته بأن نقل عن النبى صلى الله عليه وسلم نقلا صحيحاً ، وذلك كتعيين اسم صاحب موسى عليه السلام بأنه الخضر ، فقد جاء هذا الاسم صريحاً على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كما عند البخارى [1] أو كان له شاهد من الشرع يؤيده . وهذا القسم صحيح مقبول .

القسم الثانى :

مايعلم كذبه بأن يناقض ما عرفناه من شرعنا ، أو كان لايتفق مع العقل ، وهذا القسم لايصح قبوله ولاروايته .

القسم الثالث :

ماهو مسكوت عنه ، لاهو من قبيل الأول ، ولاهو من قبيل الثانى ، وهذا القسم نتوقف فيه ، فلا نؤمن به ولانكذبه ، وتجوز حكايته ، لما تقدم من قوله صلى الله عليه وسلم : « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم ، وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا ... الآية »

---

(١) باب التفسير ج ٨ ص ٢٩٧ من فتح البارى .

وهذا القسم غالبه مما ليس فيه فائدة تعود إلى أمر ديني، ولهذا يختلف علماء أهل الكتاب في مثل هذا اختلافاً كثيراً. ويأتي عن المفسرين خلاف بسبب ذلك، كما يذكرون في مثل هذا أسماء أصحاب الكهف، ولون كلبهم، وعصا موسى من أي الشجر كانت، وأسماء الطيور التي أحياها الله لإبراهيم، وتعيين بعض البقرة الذي ضرب به قتيل بني إسرائيل، ونوع الشجرة التي كلم الله منها موسى .. إلى غير ذلك مما أبهمه الله في القرآن ولا فائدة في تعيينه تعود على المكلفين في دنياهم أو دينهم.

ثم إذا جاء شيء من هذا القبيل - أعني ما سكت عنه الشرع ولم يكن فيه ما يؤيده أو يفنده - عن أحد من الصحابة (١) بطريق صحيح، فإن كان قد جزم به فهو كالقسم الأول، يقبل ولا يرد؛ لأنه لا يعقل أن يكون قد أخذه عن أهل الكتاب بعدما علم من نهي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديقهم. وإن كان لم يجزم به فالنفس أسكن إلى قبوله؛ لأن احتمال أن يكون الصحابي قد سمعه من النبي صلى الله عليه وسلم، أو ممن سمعه منه، أقوى من احتمال السماع من أهل الكتاب، ولا سيما بعدما تقرر من أن أخذ الصحابة عن أهل الكتاب كان قليلاً بالنسبة لغيرهم من التابعين ومن يليهم.

أما إن جاء شيء من هذا عن بعض التابعين، فهو مما يتوقف فيه ولا يحكم عليه بصدق ولا بكذب؛ وذلك لقوة احتمال السماع من أهل الكتاب؛ لما عرفوا به من كثرة الأخذ عنهم، وبعد احتمال كونه مما سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا إذا لم يتفق أهل الرواية من علماء التفسير على ذلك، أما إن اتفقوا عليه. فإنه يكون أبعد من أن يكون مسموعاً من أهل الكتاب، وحينئذ تسكن النفس إلى قبوله والأخذ به. والله أعلم. (٢)

---

(١) ومرادنا من الصحابي، الصحابي الذي لم يكن قبل اسلامه من أهل الكتاب.

(٢) انظر مقدمة ابن تيمية في أصول التفسير ص ١٣ — ١٤ وص ٢٦ — ٢٧

موقف المفسر إزاء هذه الاسرائيليات

علمنا أن كثرة النقل عن أهل الكتاب بدون تفرقة بين الصحيح والعليل دسيسة دخلت فى ديننا واستفحل خطرها ، كما علمنا أن قوله صلى الله عليه وسلم « لاتصدقوا أهل الكتاب ولاتكذبوهم » قاعدة مقررة لايصح العدول عنها بأى حال من الأحوال ، وبعد هذا وذاك نقول : إنه يجب على المفسر أن يكون يقظاً إلى أبعد حدود اليقظة، ناقداً إلى نهاية مايصل إليه النقاد من دقة وروية حتى يستطيع أن يستخلص من هذا الهشيم المركوم من الإسرائيليات ما يناسب روح القرآن، ويتفق مع العقل والنقل ، كما يجب عليه أن لا يرتكب النقل عن أهل الكتاب إذا كان فى سنة نبينا صلى الله عليه وسلم بيان لمجمل القرآن، فمثلا حيث وجد لقوله تعالى « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب [1] » مجمل فى السنة النبوية الصحيحة وهو قصة ترك (إن شاء الله) والمؤاخذة عليه [2] فلا يرتكب قصة صخر المارد . [3]

---

(١) الآية (٣٤) من سورة ص .

(٢) القصة عند البخارى فى باب الجهاد ج ٤ ص ٢٢ عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قال سليمان بن داود عليهما السلام : لأطوفن الليلة على مائة امرأة ، أو تسع وتسعين ، كلهن يأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله ، فقال له صاحبه : إن شاء الله ، فلم يقل : ان شاء الله ، فلم يحمل منهن الا امرأة واحدة جاءت بشق رجل ، والذى نفس محمد بيده لو قال : إن شاء الله ، لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون اه .

(٣) هذه القصة رواها ابن جرير فى تفسيره عن قتادة، ونصها : أن سليمان أمر ببناء بيت المقدس فقيل له : ابنه ولا يسمع فيه صوت حديد ، قال : فطلب ذلك فلم يقدر عليه ، فقيل له : إن شيطانا فى البحر يقال له صخر شبه المارد ، قال فطلبه وكانت عين فى البحر يردها فى كل سبعة أيام مرة ، فنزح ماؤها ، وجعل فيها خمر ، فجاء يوم وروده فإذا هو بالخمر فقال : إنك لشراب طيب الا أنك تصبين الحليم ، وتزيدين الجاهل جهلا ، قال: ثم رجع حتى عطش عطشا شديدا ، ثم أتاها فقال: انك لشراب =

كذلك يجب على المفسر أن يلحظ أن الضرورى يتقدر بقدر الحاجة ، فلا يذكر فى تفسيره شيئاً من ذلك إلا بقدر ما يقتضيه بيان الإجمال ؛ ليحصل التصديق بشهادة القرآن فيكف اللسان عن الزيادة .

نعم، إذا اختلف المتقدمون فى شىء من هذا القبيل وكثرت أقوالهم ونقولهم، فلا مانع من نقل المفسر لهذه الأقوال جميعاً ، على أن ينبه على الصحيح منها ، ويبطل الباطل ، وليس له أن يحكى الخلاف ويطلقه ، ولا ينبه على الصحيح من الأقوال ؛ لأن مثل هذا العمل يعد ناقصا لافائدة فيه مادام قد خلط الصحيح بالعليل ، ووضع أمام القارىء من الأقوال المختلفة ما يسبب له الحيرة والاضطراب .

على أن من الخير للمفسر أن يعرض كل الإعراض عن هذه الإسرائيليات

= طيب إلا أنك تصبين الحليم وتزيدين الجاهل جهلا ، قال : ثم شرب بها حتى غلبت على عقله ، قال : فأرى الخاتم أو ختم به بين كتفيه فذل ، قال : فكان ملكه فى خاتمه ، فأتى به سليمان فقال : إنا قد أمرنا ببناء هذا البيت ، وقيل لنا لايسمعن فيه صوت حديد ، قال : فأتى ببيض الهدهد فجعل عليه زجاجة ، فجاء الهدهد فدار حولها فجعل يرى بيضه ولايقدر عليه ، فجاء بالماس فوضعه عليه فقطعها به حتى أفضى إلى بيضه ، فأخذ الماس فجعلوا يقطعون به الحجارة ، فكان سليمان إذا أراد أن يدخل الخلاء أو الحمام لم يدخله بخاتمه ، فانطلق يوماً إلى الحمام وذلك الشيطان صخر معه وذلك عند مقارفة ذنب قارف فيه بعض نسائه ، قال : فدخل الحمام وأعطى الشيطان خاتمه ، فألقاه فى البحر ، فالتقمته سمكة ، ونزع ملك سليمان منه ، وألقى على الشيطان شبه سليمان ، قال : فجاء فقعد على كرسيه وسريره وسلط على ملك سليمان كله غير نسائه، قال : فجعل يقضى بينهم ، وجعلوا ينكرون منه أشياء حتى قالوا : لقد فتن نبى الله ، وكان فيهم رجل يشبهونه بعمر بن الخطاب فى القوة ، فقال : والله لأجربنه ، قال : فقال له يانبى الله — وهو لايرى إلا أنه نبى الله — أحدنا تصيبه الجنابة فى الليلة الباردة فيدع الغسل عمدا حتى تطلع الشمس ، أترى عليه بأسا ؟ قال : لا ، فبينا هو كذلك أربعين ليلة ، حتى وجد نبى الله خاتمه فى بطن سمكة فأقبل ، فجعل لايستقبله جنى ولاطير إلا سجد له ، حتى انتهى إليهم ، (وألقينا على كرسيه جسدا) قال : هو الشيطان صخر » اهـ ج ٢٣ ص ١٠١ .

وأن يمسك عما لاطائل تحته مما يعد صارفا عن القرآن ، وشاغلا عن التدبر فى حكمه وأحكامه ، وبدهى أن هذا أحكم وأسلم .

هذا ، وقد يشير إلى ماقلناه من جواز نقل الخلاف عن المتقدمين على شريطة استيفاء الأقوال وتزييف الزائف منها وتصحيح الصحيح ، وأن من الخير ان يمسك الإنسان عن الخوض فيما لا طائل تحته ، ماجاء فى الآية (٢٢) من سورة الكهف من قوله تعالى « سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بالغيب ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم قل ربى أعلم بعدتهم مايعلمهم إلا قليل فلا تمار فيهم إلا مراءاً ظاهراً ولا تستفت فيهم منهم أحداً » ، فقد اشتملت هذه الآية الكريمة — كما يقول ابن تيمية — على الأدب فى هذا المقام ، وتعليم ماينبغى فى مثل هذا ، فإنه تعالى أخبر عنهم بثلاثة أقوال ضعف القولين الأولين ، وسكت عن الثالث ، فدل على صحته ، إذ لو كان باطلا لرده كما ردهما ، ثم أرشد إلى أن الاطلاع على عدتهم لاطائل تحته ، فيقال فى مثل هذا (قل ربى أعلم بعدتهم) فإنه مايعلم بذلك إلا قليل من الناس ممن أطلعه الله عليه ، فلهذ قال (فلا تمار فيهم إلا مراء ظاهرا) أى لاتجهد نفسك فيما لاطائل تحته ، ولا تسألهم عن ذلك ، فإنهم لايعلمون من ذلك إلا رجم الغيب (١) .

أقطاب الروايات الإسرائيلية

يتصفح الإنسان كتب التفسير بالمأثور . فلا يلبث أن يلحظ أن غالب مايرى فيها من إسرائيليات ، يكاد يدور على أربعة أشخاص ، هم : عبد الله ابن سلام ، وكعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وعبدالملك بن عبد العزيز بن جريج وهؤلاء الأربعة اختلفت أنظار الناس فى الحكم عليهم والثقة بهم ، فمنهم من ارتفع بهم عن حد التهمة ، ومنهم من رماهم بالكذب وعدم التثبت فى الرواية

---

(١) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٧ .

ولهذا أرى أن أعرض لكل فرد منهم ؛ لأكشف عن قيمته فى باب الرواية ، وبخاصة ما يرجع من ذلك إلى ناحية التفسير ، لنرى أى الفريقين أصدق فى حكمه ، وأدق فى نقده :

(١) عبد الله بن سلام

ترجمته :

هو أبو يوسف ، عبد الله بن سلام بن الحارث الإسرائيلى الأنصارى ، حليف بنى عوف من الخزرج ، وهو من ولد يوسف بن يعقوب عليهما السلام. أسلم عند قدوم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة . ويحدثنا البخارى عن قصة إسلامه فيقول فى ضمن حديث ساقه فى باب الهجرة ، « ... فلما جاء نبى الله صلى الله عليه وسلم ، جاء عبد الله بن سلام فقال : أشهد أنك رسول الله ، وأنك جئت بحق ، وقد علمت يهود أنى سيدهم وابن سيدهم ، وأعلمهم وابن أعلمهم ، فادعهم فاسألهم عنى قبل أن يعلموا أنى قد أسلمت ؛ فإنهم إن يعلموا أنى قد أسلمت قالوا فى ما ليس فى ، فأرسل نبى الله صلى الله عليه وسلم ، فأقبلوا فدخلوا عليه ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم : يامعشر اليهود ، ويلكم ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنى رسول الله حقاً ، وأنى جئتكم بحق فأسلموا ، قالوا : مانعلمه : قالوا : للنبى صلى الله عليه وسلم ، قالها ثلاث مرات، قال : فأى رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا : ذلك سيدنا وابن سيدنا ، وأعلمنا وابن أعلمنا ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا ؛ حاشا لله ، ماكان ليسلم ، قال : أفرأيتم إن أسلم ؟ قالوا : حاشا لله ما كان ليسلم ، قال : أفرأيتم ان أسلم ؟ قالوا: حاشا لله ، ما كان ليسلم ، قال : يابن سلام ؛ اخرج عليهم ، فخرج ، فقال : يامعشر اليهود ، اتقوا الله ، فوالله الذى لا إله إلا هو ، إنكم لتعلمون أنه رسول الله ، وأنه جاء بحق، فقالوا : كذبت ، فأخرجهم رسول الله صلى الله عليه وسلم[١]

(١) البخارى فى باب الهجرة ج ٥ ص ٦٣ .

قيل : وكان اسمه الحصين ، فسماه النبي صلى الله عليه وسلم عبد الله ، وشهد له بالجنة . ونجد البخارى رضى الله عنه — عند الكلام عن مناقب الأنصار — يفرد لعبد الله بن سلام بابا مستقلا فى مناقبه ، فروى فيما روى من ذلك بإسناده إلى سعد بن أبى وقاص أنه قال : ماسمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول لأحد يمشى على الأرض إنه من أهل الجنة ، إلا لعبد الله بن سلام ، وقال : فيه نزلت هذه الآية « وشهد شاهد من بنى إسرائيل . . . . الآية [1] » :

ومما يذكر عنه رحمه الله : أنه وقف خطيباً فى المتألبين على عثمان رضى الله عنه يدافع عنه ، ويخذل الثائرين ، فقد روى عبد الملك بن عمير عن ابن أخى عبد الله بن سلام ، قال « لما أريد قتل عثمان رضى الله عنه ، جاء عبد الله بن سلام ، فقال له عثمان : ماجاء بك ؟ قال : جئت فى نصرك ، قال : اخرج إلى الناس فاطردهم عنى ، فإنك خارج خير لى منك داخل ، فخرج عبد الله إلى الناس فقال يا أيها الناس : إنه كان اسمى فى الجاهلية : فلاناً ، فسمانى رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله ، ونزلت فى آيات من كتاب الله عز وجل ، نزل فى « وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم » ونزل فى « قل كفى بالله شهيداً بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب [2] » . إن لله سيفاً مغمودا ، وإن الملائكة قد جاورتكم فى بلدكم هذا الذى نزل فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فالله الله فى هذا الرجل أن تقتلوه ، فوالله لئن قتلتموه لتطردن جيرانكم من الملائكة وليسلن سيف الله المغمود فيكم فلا يغمد إلى يوم القيامة . قالوا : اقتلوا اليهودى . . . وقتلوا عثمان . . . »

روى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وروى عنه ابناه : يوسف ومحمد ،

---

(١) البخارى ج ٥ ص ٣٧ : والآية رقم (١٠) من سورة الأحقاف .
(٢) فى الآية (٤٣) من سورة الرعد :

وعوف بن مالك ، وأبو هريرة ، وأبو بردة بن أبى موسى ، وعطاء بن يسار ، وغيرهم . وشهد مع عمر رضى الله عنه فتح بيت المقدس والجـابية . ومات بالمدينة سنه ٤٣ هـ ثلاث وأربعين من الهجرة ، وقيل غير ذلك . وقدعده بعضهم فى البدريين ، أما ابن سعد فذكره فى الطبقة الثالثة ممن شهد الخندق ومابعدها .

مبلغه من العلم والعدالة :

أما مبلغه من العلم ، فيكفى ماجاء فى حديث البخارى السابق من إخباره عن نفسه : أنه أعلم اليهود وابن أعلمهم ، وإقرار اليهود بين يدى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك . والحق أنه اشتهر بين الصحابة بالعلم ، حتى لقدروى أنه لما حضر معاذ بن جبل الموت قيل له : ياأبا عبد الرحمن أوصنا ، فقال : أجلسونى ... قال : إن العلم والإيمان عند أربعة رهط : عندعويمر أبىالدرداء ، وعند سلمان الفارسى ، وعند عبد الله بن مسعود ، وعند عبد الله بن سلام الذى كان يهوديا فأسلم ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنه عاشر عشرة فى الجنة . اهـ

وليس عجيبا أن يكون عبد الله بن سلام فى هذه المكانةالعالية من العلم بعد أن اجتمع لديه علم التوراةوعلم القرآن ، وبعد أن امتزجت فيه الثقافتاناليهودية والإسلامية ، ولقد نقل عنه المسلمون كثيرا مما يدل على علمه بالتوراة وماحولها ، ونجد ابن جرير الطبرى ينسب إليه فى تاريخه كثيراً من الأقوال فى المسائل التاريخية الدينية ، كما نجده يتجمع حول اسمه كثير من المسائل الإسرائيلية ، يرويها كثير من المفسرين فى كتبهم .

ونحن أمام مايروى عنه من ذلك لانزيف كل ماقيل ، ولا نقبل كل ماقيل ، بل علينا أن نعرض كل مايروى عنه على مقياس الصحة المعتبر فى باب الرواية ، فما صح قبلناه ، وما لم يصح رفضناه .

هذا ، وإنا لا نستطيع أن نتهم الرجل فى علمه ، ولا فى ثقته وعدالته ، بعد ما علمت أنه من خيار الصحابة وأعلمهم ، وبعد ما جاء فيه من آيات القرآن ، وبعد أن اعتمده البخارى وغيره من أهل الحديث ، كما أننا لم نجد من أصحاب الكتب التى بين أيدينا من طعن عليه فى علمه ، أو نسب إليه من التهم مثل ما نسب إلى كعب الأحبار ، ووهب بن منبه[١] .

(٢) كعب الأحبار

ترجمته :

هو أبو إسحق ، كعب بن ماتع الحميرى ، المعروف بكعب الأحبار ، من آل ذى رعين ، وقيل من ذى الكلاع ، وأصله من يهود اليمن ، ويقال : إنه أدرك الجاهلية وأسلم فى خلافة أبى بكر ، وقيل: فى خلافة عمر ، وقيل : إنه أسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم وتأخرت هجرته ، وقال ابن حجر فى الفتح : إن إسلامه فى خلافة عمر أشهر ، وبعد إسلامه انتقل إلى المدينة ، وغزا الروم فى خلافة عمر ، ثم تحول فى خلافة عثمان إلى الشام فسكنها إلى أن مات بحمص سنة ٣٢ هـ اثنتين وثلاثين من الهجرة على أرجح الأقوال فى ذلك . وذكره ابن سعد فى الطبقة الأولى من تابعى أهل الشام وقال : كان على دين يهود فأسلم وقدم المدينة ، ثم خرج إلى الشام فسكن حمص حتى توفى بها سنة اثنتين وثلاثين فى خلافة عثمان ، وقد بلغ مائة وأربعين سنة . وقال أبو مسهر : والذى حدثنى به غير واحد : أنه كان مسكنه اليمن ، فقدم على أبى بكر ، ثم أتى الشام فمات به . روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مرسلا ، وعن عمر ، وصهيب وعائشة . وروى عنه معاوية ، وأبو هريرة . وابن عباس ، وعطاء بن أبى رباح وغيرهم .

---

(١) انظر تهذيب التهذيب جـ ٥ ص ٢٤٩ ، وأسد الغابة جـ ٣ ص ١٧٦ - ١٧٧ .

مبلغه من العلم :

كان كعب بن ماتع على مبلغ عظيم من العلم ، ولهذا كان يقال له كعب الحبر وكعب الأحبار ، ولقد نقل عنه فى التفسير وغيره ما يدل على علمه الواسع بالثقافة اليهودية والثقافة الإسلامية ، ولم يؤثر عنه أنه ألف كما ألف وهب بن منبه ، بل كانت تعاليمه كلها — على ما يظهر لنا وما وصل إلينا — شفوية تناقلها عنه أصحابه ومن أخذوا عنه . وقد جاء فى الطبقات الكبرى حكاية عن رجل دخل المسجد فإذا عامر بن عبد الله بن قيس جالس إلى كتب وبينها سفر من أسفار التوراة وكعب يقرأ[١] ، وهذا يدلنا على أن كعبا كان لا يزال بعد إسلامه يرجع إلى التوراة والتعاليم الإسرائيلية . وقال ابن سعد : قالوا : ذكر أبو الدرداء كعبا فقال : إن عند ابن الحميرى لعلما كثيرا . وروى معاوية ابن صالح عن عبد الرحمن بن جبير أنه قال : قال معاوية : ألا إن أبا الدرداء أحد الحكماء ، ألا إن عمرو بن العاص أحد الحكماء ، ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء ، إن كان عنده علم كالثمار وإن كنا لمفرطين . وفى تاريخ محمد بن عثمان بن أبى شيبة ، من طريق ابن أبى ذئب ، أن عبد الله بن الزبير قال : ما أصبت فى سلطانى شيئاً إلا قد أخبرنى به كعب قبل أن يقع[٢] .

ثقته وعدالته :

أما ثقته وعدالته فهذا أمر نقول به ، ولا نستطيع أن نطعن عليه كما طعن بعض الناس ، فابن عباس على جلالة قدره ، وأبو هريرة على مبلغ علمه ، وغيرهما من الصحابة كانوا يأخذون عنه ويروون له ، ونرى الإمام مسلما يخرج له فى صحيحه ، فقد وقعت الرواية عنه فى مواضع من صحيحه فى أواخر كتاب

---

(١) فجر الاسلام ص ١٩٨ نقلا عن طبقات ابن سعد مجلد ٧ ص ٧٩
(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ٨ ص ٤٣٨ — ٤٤٠

الإيمان ، كما نرى أبا داود والترمذى والنسائى يخرجون له ، وهذا دليل على أن كعبا كان ثقة عند هؤلاء جميعاً ، وتلك شهادة كافية لرد كل تهمة تلصق بهذا الحبر الجليل .

اتهام الأستاذ أحمد أمين لكعب:

ولكنا نجد الأستاذ أحمد أمين — رحمه الله — يحاول أن يغض من ثقة كعب وعدالته ، بل ودينه ، فنراه يوجه إليه من التهم ما نعيذ كعبا من أن يلحقه شىء منها ، وذلك حيث يقول : « وقد لاحظ بعض الباحثين . أن بعض الثقات كابن قتيبة والنووى لا يروى عنه أبدا ، وابن جرير الطبرى يروى عنه قليلا ، ولكن غيرهم كالثعلبى ، والكسائى ينقل عنه كثيرا فى قصص الأنبياء ، كقصة يوسف والوليد بن الريان . وأشباه ذلك ، ويروى ابن جرير أنه جاء إلى عمر ابن الخطاب قبل مقتله بثلاثة أيام وقال له : اعهد فإنك ميت فى ثلاثة أيام ، قال : وما يدريك ؟ قال : أجده فى كتاب الله عز وجل .. فى التوراة ، قال عمر إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة ! قال اللهم لا ، ولكن أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك ، ثم قال الأستاذ أحمد أمين « وهذه القصة إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية ، كما تدلنا على مقدار اختلاقه فيما ينقل ، ثم قال « وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم - يريد كعبا ووهبا وغيرهما من أهل الكتاب - فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح » اهـ[1] .

تفنيد هذا الاتهام :

ونحن مع الأستاذ فى قوله « وهذه القصة ، إن صحت دلت على وقوف كعب على مكيدة قتل عمر ، ثم وضعها هو فى هذه الصيغة الإسرائيلية ، ولكن لسنا

---

(١) فجر الإسلام ص ١٩٨

نعتقد صحة هذه القصة ، ورواية ابن جرير لها لا تدل على صحتها ، لأن ابن جرير - كما هو معروف عنه - لم يلتزم الصحة فى كل ما يرويه ، والذى ينظر فى تفسيره يجد فيه مما لا يصح شيئاً كثيراً ، كما أن ما يرويه فى تاريخه لا يعدو أن يكون من قبيل الأخبار التى تحتمل الصدق والكذب ، ولم يقل أحد بأن كل ما يذكر فى كتب التاريخ ثابت صحيح .

ثم إن ما يعرف عن كعب الأحبار من دينه ، وخلقه ، وأمانته ، وتوثيق أكثر أصحاب الصحاح له ، يجعلنا نحكم بأن هذه القصة موضوعة عليه ، ونحن ننزه كعباً عن أن يكون على علم بمكيدة قتل عمر وما دبر من أمرها ، ثم لا يذكر لعمر من يدبر له القتل ويكيد له ، كما ننزهه عن أن يكون كذاباً وضاعاً يحتال على تأكيد ما يخبر به بنسبته إلى التوراة وصوغه فى قالب إسرائيلى .

وأما قوله « وعلى الجملة فقد دخل على المسلمين من هؤلاء وأمثالهم فى عقيدتهم وعلمهم كثير كان له فيهم أثر غير صالح » فإن أراد أن يرجع ذنب هذا الأثر السيء إلى كعب وأضرابه فنحن لا نوافقه عليه ؛ لأن ما يرويه كعب وغيره من أهل الكتاب لم يسندوه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكذبوا فيه على أحد من المسلمين ، وإنما كانوا يروونه على أنه من الإسرائيليات الموجودة فى كتبهم ، ولسنا مكلفين بتصديق شيء من ذلك ، ولا مطالبين بالإيمان به ، بعد ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم) ،

وإذا كانت هذه الإسرائيليات المروية عن كعب وغيره ، قد أثرت فى عقيدة المسلمين وعلمهم أثراً غير صالح ، فليس ذنب هذا راجعا إلى كعب وأضرابه ، لأنهم رووه على أنه مما فى كتبهم ، ولم يشرحوا به القرآن - اللهم إلا ما يتفق من هذا مع القرآن ويشهد له - ثم جاء من بعدهم فحاولوا أن يشرحوا القرآن بهذه الإسرائيليات فربطوا بينها وبينه على ما بينهما من بعد شاسع ، بل وزادوا على ذلك ما نسجوه من قصص خرافية ، نسبوها لهؤلاء الأعلام ، ترويجا لها وتمويها على العامة .

فالذنب إذاً ذنب المتأخرين الذين ربطوا هذا الإسرئيليات بالقرآن وشرحوه على ضوئها ، واخترعوا من الأساطير مانسبوه زوراً وبهتانا إلى هؤلاء الأعلام وهم منه براء .

اتهام الشيخ رشيد رضا لكعب :

كذلك نجد السيد محمد رشيد رضا — رحمه الله — فى مقدمة تفسيره بعد أن ذكر كلاما لابن تيمية فى شأن مايروى من الإسرائيليات عن كعب ووهب يقول مانصه (فأنت ترى أن هذا الإمام المحقق — يريد ابن تيمية — جزم بالوقف عن تصديق جميع ما عرف أنه من رواة الإسرائيليات . وهذا فى غير مايقوم الدليل على بطلانه فى نفسه ، وصرح فى هذا المقام بروايات كعب الأحبار ووهب بن منبه ، مع أن قدماء رجال الجرح والتعديل اغتروا بهما وعدلوهما، فكيف لو تبين له ماتبين لنا من كذب كعب ووهب وعزوهما إلى التوراة وغيرها من كتب الرسل ماليس فيها شىء منه ولا حومت حوله ؟) اهـ(١)

تفنيد هذا الاتهام :

ونحن لاننكر ماذهب إليه ابن تيمية فى مقدمة أصول التفسير التى اعتمد عليها الشيخ فيما نقل عنه ، ولكن ننكر على الشيخ فهمه لعبارة ابن تيمية ، وذلك أنه ادعى أن بن تيمية جزم بالوقف عن تصديق جميع ماعرف أنه من رواة الإسرائيليت ، وهذا فى غير مايقوم الدليل على بطلانه فى نفسه — يعنى أنه لا يتوقف فيه بل يرفض رفضاً باتاً .

وعبارة ابن تيمية التى ذكرها الشيخ لاتفيد ذلك الذى قاله ، وإنما تفيد

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٩ .

أن ماجاء عن رواة الإسرائيليات يتوقف فيه إذا كان مما هو مسكوت عنه فى شرعنا ولم يقم دليل على بطلانه ، أما ماروى عنهم موافقا لما جاء فى شرعنا فهذا صحيح مقبول بدون توقف ، كما نص عليه ابن تيمية فى ص ٢٦، ٢٧ من مقدمة فى أصول التفسير ، وهو عين ما عناه بعبارته الموجودة فى ص ١٣، ١٤ وهى التى إعتمد عليها السيد محمد رشيد فى طعنه على كعب وغيره .

كما أننا لانقر الشيخ على هذا الاتهام البليغ لكعب ووهب ، ولا على رميهما بالكذب ، ولا على ادعاء عزوهما إلى التوراة وغيرها ماليس فيها، كما أنا لا نقره على اتهامه لعلماء الجرح والتعديل الذين طهروا لنا السنة ، وأزاحوا عنها مالصق بها من الموضوعات ، وبينوا لنا الصحيح والعليل منها ، والعدل والمجروح من رواتها ، حيث رماهم بالغفلة والاغترار ، وهم أهل هذا الفن الذى لا يصلح له إلا قليل من الناس ، ولا ندرى ماهذا الكذب الذى تبين له من كعب ووهب وخفى على ابن تيمية وهو من نعلم علما ومعرفة . وليت الشيخ — رحمه الله — بين لنا مايستند إليه فى دعواه ، ولا أظن إلا أنه استند إلى ماجاء عن معاوية رضى الله عنه عند البخارى فى شأن كعب ، وهذا نصه كما فى صحيح البخارى .

قال أبو اليمان : أخبرنا شعيب عن الزهرى : أخبرنى حميد بن عبد الرحمن : أنه سمع معاوية يحدث رهطا من قريش بالمدينة وذكر كعب الأحبار ، فقال : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب ، وإن كنا مع ذلك لنبلو عليه الكذب »[1] .

نعم أظن أن الشيخ - رحمه الله - اتهم كعباً وأضرابه بالكذب استنادا لهذا الأثر المروى عن معاوية ، والذى رجح لدى هذا الظن ماقاله الشيخ بعد كلامه السابق بقليل (وقد علم أن بعض الصحابة رووا عن أهل

---

(١) البخارى من كتاب التوحيد ج ١٣ ص ٢٥٩ من فتح البارى .

الكتاب حتى عن كعب الأحبار الذى روى البخارى عن معاوية أنه قال « إن كنا لنبلو عليه الكذب » ومنهم أبو هريرة وابن عباس) اهـ[١] .

وأرى أن الشيخ قد فند قول نفسه بنفسه حيث أثبت — كما هو الواقع — أن أبا هريرة وابن عباس وغيرهما من الصحابة أخذوا عن كعب ، وهل يعقل أن صحابيا يأخذ علمه عن كذاب وضاع ، بعد ما عرف عن الصحابة من العدالة والتثبت فى تحمل الأخبار ، خصوصاً ابن عباس الذى كان يتشدد فى الرواية ويتأكد من صحة ما يروى له ؟

نعم ، إن حديث البخارى الذى رواه عن معاوية : يشعر لأول وهلة بنسبة الكذب إلى كعب ، ولكن لو رجعنا إلى شراح الحديث لوجدناهم جميعاً يشرحونه بما يبعد هذه الوصمة الشنيعة عن كعب الأحبار ، وإليك بعض ما قيل فى ذلك .

قال ابن حجر فى الفتح عند قوله (وإن كنا لنبلو عليه الكذب) «أى يقع بعض مايخبرنا عنه بخلاف مايخبرنا به ، قال ابن التين : وهذا نحو قول ابن عباس فى حق كعب المذكور : بدل من قبله فوقع فى الكذب ، قال : والمراد بالمحدثين — فى قوله : إن كان من أصدق هؤلاء المحدثين الذين يحدثون عن أهل الكتاب — أنداد كعب ممن كان من أهل الكتاب وأسلم فكان يحدث عنهم ، وكذا من نظر فى كتبهم فحدث عما فيها . قال : ولعلهم كانوا مثل كعب ، إلا أن كعبا كان أشد منهم بصيرة ، وأعرف بما يتوقاه .

وقال ابن حبان فى كتاب الثقات : أراد معاوية أنه يخطىء أحيانا فيما يخبر به ، ولم يرد أنه كان كذابا . وقال غيره : الضمير فى قوله (لنبلو عليه) للكتاب لا لكعب ، وإنما يقع فى كتابهم الكذب لكونهم بدلوه وحرفوه . وقال

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ١٠

عياض : يصح عوده على الكتاب ، ويصح عوده على كعب وعلى حديثه وإن لم يقصد الكذب ويتعمده ، إذ لا يشترط فى مسمى الكذب التعمد ، بل هو الإخبار عن الشىء بخلاف ما هو عليه ، وليس فيه تجريح لكعب بالكذب . وقال ابن الجوزى : المعنى أن بعض الذى يخبر به كعب عن أهل الكتاب يكون كذبا ، لا أنه يتعمد الكذب ، وإلا فقد كان كعب من أخيار الأحبار » اهـ[1] .

هذه هى الأقوال التى سردها لنا الحافظ ابن حجر ، ونحن نميل إلى القول بأن كعبا كان يروى ما يرويه على أنه صحيح لم يبدل ولم يحرف ، فهو لم يتعمد كذبا ولا ينسب إلى كذب ، وإن كان ما يرويه كذبا فى حد ذاته ، خفى عليه كما خفى على غيره . ولهذا التحريف والتبديل نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تصديق أهل الكتاب وعن تكذيبهم فيما يروونه من ذلك ، لأنه ربما كان صدقا فيكذبونه أو كذباً فيصدقونه فيقعون فى الحرج .

ثم إن معاوية الذى قال هذا القول ، روينا عنه فيما سبق أنه قال « ألا إن كعب الأحبار أحد العلماء إن كان عنده علم كالثمار[2] وإن كنا لمفرطين » ، فمعاوية قد شهد لكعب بالعلم وغزارته ، وحكم على نفسه بأنه فرط فى علم كعب ، فهل يعقل أن معاوية يشهد هذه الشهادة لرجل كذاب ؟ ، وهل يعقل أنه يتحسر ويتندم على ما فاته من علم رجل يدلس فى كتب الله ويحرف فى وحى السماء ؟.. اللهم إنى لا أعقل ذلك ، ولا أقول إلا أن كعبا عالم له مكانته ، وثقة له قيمته ، وعدل له منزلته وشهرته ...

---

(١) فتح البارى جـ ١٣ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

(٢) وفى رواية كالبحار .

(٣) وهب بن منبه

ترجمته :

هو أبو عبد الله ، وهب بن منبه بن سيج بن ذى كناز ، اليمانى الصنعانى ، صاحب القصص ، من خيار علماء التابعين . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه : كان من أبناء فارس . وأصل والده (منبه) من خراسان من أهل هراة ، أخرجه كسرى منها إلى اليمن فأسلم فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان وهب ابن منبه يختلف إلى هراة ويتفقد أمرها ، وقيل : إنه تولى قضاء صنعاء . قال إسحق بن إبراهيم بن عبد الرحمن الهروى . ولد سنة ٣٤ هـ أربع وثلاثين فى خلافة عثمان ، وقال ابن سعد وجماعة : مات سنة ١١٠ هـ عشر ومائة ، وقيل غير ذلك .

روى عن أبى هريرة ، وأبى سعيد الخدرى ، وابن عباس ، وابن عمر ، وابن عمرو بن العاص ، وجابر ، وأنس ، وغيرهم ، وروى عنه ابناه : عبد الله وعبد الرحمن ، وعمر بن دينار ، وغيرهم . وأخرج له البخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والترمذى ، وأبو داود .

مبلغه من العلم والعدالة :

كان وهب بن منبه واسع العلم ، كثير الاطلاع على الكتب القديمة ، محيطا بأخبار كثيرة وقصص يتعلق بأخبار الأول ومبدأ العالم ، ومما يؤثر عنه أنه ألف كتابا فى المغازى[١] ، ويحدثنا ابن خلكان : أنه رأى لوهب بن منبه تصنيفا ترجمه بذكر الملوك المتوجة من حمير ، وأخبارهم ، وقصصهم ، وقبورهم وأشعارهم ، فى مجلد واحد ، قال : وهو من الكتب المفيدة[٢] .

---

(١) فجر الإسلام ص ١٩٤ .
(٢) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ١٨٠ .

وقال أحمد بن حنبل عن عبد الرزاق عن أبيه : حج عامة الفقهاء سنة مائة فحج وهب ، فلما صلوا العشاء أتاه نفر فيهم عطاء والحسن ، وهم يريدون أن يتذاكروا القدر ، قال : فأمعن فى باب الحمد ، فما زال فيه حتى طلع الفجر ، فافترقوا ولم يسألوه عن شيء ، قال أحمد : وكان يتهم بشيء من القدر ثم رجع. وقال حماد بن سلمة عن أبى سنان : سمعت وهب بن منبه يقول : كنت أقول بالقدر حتى قرأت بضعة وسبعين كتابا من كتب الأنبياء فى كلها (من جعل إلى نفسه شيئاً من المشيئة فقد كفر) فتركت قولى . وقال الجوزجانى : كان وهب كتب كتابا فى القدر ثم حدث أنه ندم عليه .

فأنت ترى من بين هذه الأخبار أن وهباً كان على ناحية عظيمة من المعرفة بالكتب الإلهية القديمة ، كما ترى أنه لم يثبت على رأيه وعقيدته فى القدر ، بل تركها بعد ما تبين له الحق ، وندم على ما كان منه بعد أن ظهر له الصواب ، وبعد رجوعه عن رأيه لا يصح أن نطعن عليه من هذه الناحية ، ولقد كان وهب يرى من نفسه أنه قد جمع علم ابن سلام وعلم كعب ، ويحدث هو بذلك عن نفسه فيقول : يقولون : عبد الله بن سلام أعلم أهل زمانه ، وكعب أعلم أهل زمانه ، أفرأيت من جمع علمهما ؟ (يريد نفسه) .

مطاعن بعض الناس عليه :

ومع تلك المنزلة العالية التى كان عليها وهب ، طعن عليه بعض الناس كما طعن على كعب ؛ ورموه بالكذب والتدليس وإفساد عقول بعض المسلمين وعقائدهم ، وقد سمعت مقالة السيد محمد رشيد رضا فيه وفى كعب ، وسمعت الرد عليه ، كما سمعت مقالة الأستاذ أحمد أمين وما تعقبناه به .

رأينا فيه وشهادات الموثقين له :

وأنا وإن كنت لا أنكر أن صاحبنا أكثر من الإسرائيليات ، وقص كثيرا من القصص إلا أنى لا أتهمه بشيء من الكذب ، ولا أنسب إليه إفساد العقول

والعقائد ، ولا أحمله تبعة ذلك ، لأن القوم هم الذين أفسدوا بإدخالهم فى التفسير مالا صلة له به ، وبالوضع عليه وعلى غيره ترويجا للموضوع كما سبق .

ولو أنا رجعنا إلى ما قاله العلماء النقاد فى شأن وهب لتبين لنا أنه رجل منزه عما رمى به ، مبرأ من كل مايخدش عدالته وصدقه . قال الذهبى : كان ثقة صادقاً ، كثير النقل من كتب الإسرائيليات . وقال العجلى : ثقة تابعى ، كان على قضاء صنعاء ، وقال ابن حجر : وهب بن منبه الصنعانى من التابعين ، وثقه الجمهور ، وشذ الفلاس فقال : كان ضعيفاً ، وكان شبهته فى ذلك أنه كان يتهم بالقول فى القدر. وقال أبو زرعة والنسائى: ثقة . وذكره ابن حبان فى الثقات . والبخارى نفسه يعتمد عليه ويوثقه ، ونرى له فى البخارى حديثاً واحدا عن أخيه همام عن أبى هريرة فى كتابة الحديث[1] ، وتابعه عليه معمر عن همام ، ولهمام هذا عن أبى هريرة نسخة مشهورة أكثرها فى الصحاح ، رواها عنه معمر ويحدثنا مثنى بن الصباح :أن وهبا لبث عشرين سنة لم يجعل بين العشاء والصبح وضوءا . . . وغير هذا كثير مما شهد لعدالة الرجل وحسن إيمانه . . .

ونحن أمام توثيق الجمهور له ، واعتماد البخارى وغيره لحديثه ، وما ثبت عنه من الورع والصلاح ، لانقول إلا أنه رجل مظلوم من متهميه ، ومظلوم هو وكعب من أولئك الذين استغلوا شهرة الرجلين ومنزلتهما العلمية ، فنسبوا إليهما ما لا يصح عنهما ، وشوهوا سمعتهما ، وعرضوهما للنقد اللاذع والطعن المرير ! ! ..[2]

---

(١) البخارى ج ١ ص ٣٤ .

(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ١١ ص ١٦٦ -١٦٧ ، وميزان الاعتدال ج ٣ ص ٢٧٨ ، ومجلة نور الاسلام (الأزهر) السنة الثالثة ص ٢٠٧ - ٢٠٨ .

(٤) عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج

ترجمته :

هو أبو خالد ، أو أبو الوليد، عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، الأموى مولاهم . أصله رومى نصرانى . كان من علماء مكة ومحدثيهم ، وهو من أول من صنف الكتب بالحجاز ، وهو قطب الإسرائيليات فى عهد التابعين ، ولو أننا رجعنا إلى تفسير ابن جرير الطبرى ، وتتبعنا الآيات التى وردت فى النصارى، لوجدنا كثيراً مما يرويه ابن جرير فى تفسير هذه الآيات يدور على عبد الملك، الذى يعبر عنه دائماً بـ (ابن جريج) .

روى عن أبيه ، وعطاء بن أبى رباح ، وزيد بن أسلم ، والزهرى ، وغيرهم . وروى عنه ابناه : عبد العزيز ومحمد ، والأوزاعى ، والليث ، ويحيى بن سعيد الأنصارى ، وحماد بن زيد ، وغيرهم . قال ابن سعد : ولد سنة ٨٠هـ ثمانين وأما وفاته فمختلف فيها ، فمنهم من قال : سنة ١٥٠ هـ خمسين ومائة . ومنهم من قال : سنة ١٥٩ هـ تسع وخمسين ومائة ، وقيل غير ذلك .

مبلغه من العلم والعدالة :

ابن جريج - كما قيل - هو أول من صنف الكتب بالحجاز ، ويعدونه من طبقة مالك بن أنس وغيره ممن جمعوا الحديث ودونوه . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل : قلت لأبى : من أول من صنف الكتب ؟ قال : ابن جريج وابن أبى عروبة . وقال ابن عيينة : سمعت أخى عبد الرزاق بن همام عن ابن جريج يقول : مادون العلم تدوينى أحد . وقد عرف عن ابن جريج أنه كان رحالة فى طلب العلم ، فقد ولد بمكة ثم طوف فى كثير من البلاد ، فرحل إلى البصرة واليمن وبغداد . ويقول ابن خلدون فى العبر إنه لم يطلب العلم إلا فى الكهولة ، ولو سمع فى عنفوان شبابه لحمل عن غير واحد من الصحابة ، فإنه قال

كنت أتتبع الأشعار العربية والأنساب فقيل لى : لو لزمت عطاء ؟ فلزمته ثمانية عشر عاماً ، اهـ[١] .

وقد رويت عن ابن جريج أجزاء كثيرة فى التفسير عن ابن عباس ؛ منها الصحيح ، ومنها ماليس بصحيح ؛ وذلك لأنه لم يقصد الصحة فيما جمع، بل روى ماذكر فى كل آية من الصحيح والسقيم[٢] .

أما منزلته من ناحية العدالة ، فإنه لم يظفر بإجماع العلماء على توثيقه وتثبته فيما يرويه ، وإنما اختلفت أنظارهم فيه ، فمنهم من وثقه ، ومنهم من ضعفه . قال فيه العجلى : مكى ثقة . وقال سليمان بن النضر بن مخلد بن يزيد : ما رأيت أصدق لهجة من ابن جريج وعن يحيى بن سعيد قال : كنا نسمى كتب ابن جريج كتب الأمانة ، وإن لم يحدثك بها ابن جريج من كتابه لم ينتفع به . وقال ابن معين : ثقة فى كل ماروى عنه من الكتاب . وعن يحيى بن سعيد قال : كان ابن جريج صدوقا فإذا قال حدثنى فهو سماع . وإذا قال أخبرنى فهو قراءة، وإذا قال : قال فهو شبه الريح . وقال الدارقطنى : تجنب تدليس ابن جريج فإنه قبيح التدليس، لايدلس إلا فيما سمعه من مجروح . وذكره ابن حبان فى الثقات وقال: كان من فقهاء أهل الحجاز وقرائهم ومتقنيهم وكان يدلس . وقال عنه الذهبى فى ميزان الاعتدال : أحد الأعلام الثقات يدلس ، وهو فى نفسه مجمع على ثقته مع كونه قد تزوج نحواً من تسعين امرأة نكاح متعة ، وكان يرى الرخصة فى ذلك وكان فقيه أهل مكة فى زمانه . قال عبد الله بن أحمد بن حنبل قال أبى : بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، كان ابن جريج لايبالى من أين يأخذها ، يعنى قوله : أخبرت وحدثت عن

---

(١) شذرات الذهب جـ ١ ص ٢٢٦ .

(٢) الإتقان جـ٢ ص ١٨٨ .

فلان[١] . وذكر الخزرجي في خلاصته[٢] أنه مجمع عليه من أصحاب الكتب الستة . ولكن نرى الأستاذ أحمد أمين ينقل فى ضحى الإسلام[٣] : أن البخارى لم يوثقه وقال : إنه لايتابع فى حديثه ، ولسنا ندرى من أين استقى صاحب ضحى الإسلام هذا الكلام الذى عزاه إلى البخارى رضى الله عنه .

هذه هى نظرة العلماء إليه وحكمهم عليه ، ونرى أن كثيراً منهم يحكم عليه بالتدليس وعدم الثقة ببعض مروياته ؛ ومع هذا فقد قال فيه الإمام أحمد : إنه من أوعية العلم ، ونحن معه فى ذلك ، ولكنه وعاء لعلم امتزج صحيحه بعليله ، ولا نظن إلا أن الإمام أحمد يعنى ذلك ، بدليل ماتقدم عنه من قوله « بعض هذه الأحاديث التى كان يرسلها ابن جريج أحاديث موضوعة ، وكان ابن جريج لايبالى من أين أخذها » .

وكان الإمام مالك رضى الله عنه يرى فيه أنه لايبالى من أين يأخذ ، فقد روى عنه أنه قال : كان ابن جريج حاطب ليل .

وأخيراً فعلى المفسر أن يكون على حذر فيما روى عن ابن جريج فى التفسير حتى لايروى ضعيفاً ، أو يعتمد على سقيم[٤] .

وبعد .... فهؤلاء هم أقطاب الإسرائيليات ، وعليهم يدور كثير مما هو مبثوث فى كتب التفسير ، وسواء أكان كل ماينسب إليهم صح عنهم أم وضع عليهم ، فقد علمت قيمة كل واحد منهم ، وعلمت قيمة مايروى من هذه الإسرائيليات وما يجوز روايته وما لايجوز .... وهذا هو جهد المقل

---

(١) ميزان الاعتدال ج ٢ ص ١٥١ .

(٢) ص ٢٠٧ .

(٣) ج ٢ ص ١٠٧ .

(٤) انظر تهذيب التهذيب ج ٦ ص ٤٠٢ — ٤٠٦ .

وغاية ما وصلت إليه فى هذا الموضوع الذى التوى ، ثم التوى ، حتى صار أعقد من ذنب الضب .

ثالثا : حذف الإسناد

حذف الإسناد هو السبب الثالث والأخير الذى يرجع إليه ضعف التفسير المأثور ، وسبق أن أشرنا إلى مبدأ اختصار الأسانيد ، ونعود إليه فنقول :

إن الصحابة — رضوان الله عليهم أجمعين — كانوا يتحرزون الصحة فيما يتحملون ، وكان الواحد منهم لا يروى حديثاً إلا وهو متثبت مما يقول ، ولكن لم يعرف عن الصحابة أنهم كانوا يسألون عن الإسناد ، لما عرفوا به جميعاً من العدالة والأمانة . وإذا كان الأمر قد وصل ببعضهم إلى أنه كان لا يقبل الحديث إلا بعد أن تثبت عنده صحته بالشهادة أو اليمين كما دلت على ذلك الآثار الكثيرة ، فإن الغرض من ذلك هو زيادة التأكد والتثبت ، لا عدم الثقة بمن يروون عنه منهم ، فقد روى أن عمر قال لأبى بن كعب — وقد روى له حديثا — لتأتينى على ما تقول ببينة ، فخرج فإذا ناس من الأنصار فذكر لهم ، قالوا : قد سمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال عمر : أما إنى لم أتهمك ، ولكن أحببت أن أثبت »[1] اهـ

ثم جاء عصر التابعين ، وفيه ظهر الوضع وفشا الكذب ، فكانوا لا يقبلون حديثا إلا إذا جاء بسنده ، وثبتت لهم عدالة رواته ، أما إن حذف السند ، أو ذكر وكان فى رواته من لا يوثق بحديثه ، فإنهم كانوا لا يقبلون الحديث الذى هذا شأنه ، فقد روى الإمام مسلم فى مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال : « لم يكونوا يسألون عن الإسناد ، فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم »[2] .

---

(١) الأسلوب الحديث ج ١ ص ١٠

(٢) صحيح مسلم ج ١ ص ١١٢

ظل الأمر فى عهد التابعين على هذا ، فكان ما يروونه من التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة ، لا يروونه إلا بإسناده ، ثم جاء بعد عصر التابعين من جمع التفسير ، ودون ما تجمع لديه من ذلك ، فألفت تفاسير تجمع أقوال النبي صلى الله عليه وسلم فى التفسير ، وأقوال الصحابة والتابعين ، مع ذكر الأسانيد ، كتفسير سفيان بن عيينة ، ووكيع بن الجراح ، وغيرهما ممن تقدم ذكرهم .

ثم جاء بعد هؤلاء أقوام ألفوا فى التفسير ، فاختصروا الأسانيد ، ونقلوا الأقوال غير معزوة لقائليها ، ولم يتحروا الصحة فيما يروون ، فدخل من هنا الدخيل ، والتبس الصحيح بالعليل .

ثم صار كل من يسنح له قول يورده ، ومن يخطر بباله شىء يعتمده ، ثم ينقل ذلك عنه من يجىء بعده ، ظانا أن له أصلا ، غير ملتفت إلى تحرير ما ورد عن السلف[1] .

وفى الحق أن هذا السبب يكاد يكون أخطر الأسباب جميعاً ؛ لأن حذف الأسانيد جعل من ينظر فى هذه الكتب يظن صحة كل ما جاء فيها ، وجعل كثيراً من المفسرين ينقلون عنها ما فيها من الإسرائيليات والقصص المخترع على أنه صحيح كله ، مع أن فيها ما يخالف النقل ولا يتفق مع العقل .

وإذا كان للوضع خطره ، وللإسرائيليات خطرها ، فإن هذا الخطر كان من الممكن تلافيه لو ذكرت لنا هذه الأقوال بأسانيدها ، ولكن حذفها — وللأسف — عمى علينا كل شىء ، وليت هؤلاء الذين حذفوا الأسانيد وعنوا بجمع شتات الأقوال فعلوا كما فعل ابن جرير من رواية كل قول بإسناده ، فهو وإن كان لم يتحر الصحة فيما يرويه ، إلا أن عذره فى ذلك ، أنه ذكر لنا

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٩٠ .

السند مع كل رواية يرويها ، وكانوا يرون أنهم متى ذكروا السند فقد خرجوا عن العهدة ؛ فإن أحوال الرجال كانت معروفة فى العهد الأول ، وبذلك تعرف قيمة ما يروونه من ضعف وصحة .

وبعد . . . فهذه هى الأسباب الثلاثة التى يرجع إليها ضعف التفسير المأثور، وكل واحد منها له خطره وأثره فى التفسير ، وقد أدرك المسلمون أخيراً هذا الخطر ، وقدروا ما كان لهذه الأسباب من أثر ، فتداعى علماؤهم وأشياخهم إلى تجريد كتب التفسير من هذه الإسرائيليات ، وتطهيرها من كل ما دخل عليها ، ولكن لم نجد منهم من نشط لهذا العمل ، وإنا لنرجوا آملين ، أن يهيء الله للمسلمين من بين علمائنا وأشياخنا من ينقد لهم هذه المجموعة المركومة من التفسير النقلى ، على هدى قواعد القوم فى نقد الرواية متناً وسنداً ، ليستبعد منها هذا الكثير الذى لا يستحق البقاء ، وليستريح الناظرون فى الكتاب الكريم من الوقوف أمام شيء لا أساس له إذا ما حاولوا تفهم آية منه .

ولست أظن أن هذا العمل الشاق المضنى يستطيع أن يقوم به فرد وحده ، بل لا بد له من جماعة كبيرة ، تتفرغ له . ويتسع أمامها الزمن ، وتتوفر لديها جميع المصادر والمراجع التى تتعلق بالموضوع وتتصل به .

ذلك ما نرجوه ونأمله، ونسأل الله تعالى أن يحقق الرجاء ويصدق الأمل . .

أشهر ما دون من كتب التفسير المأثور

وخصائص هذه الكتب

لا نريد أن نستقصى هنا جميع الكتب المدونة فى التفسير المأثور ، لأن هذا أمر لا يتيسر لنا ؛ نظراً لعدم وقوع كثير منها فى أيدينا . ولو تيسر لنا لوقفت عند عزمى هذا : وهو أنى لا أتعرض لكل كتاب ألف فى هذا النوع من التفسير ، بل أتكلم عما اشتهر وكثر تداوله فحسب ، لأنى لو ذهبت أتكلم عن جميع ما دون من هذه الكتب ، كتاباً كتاباً ، لطال على الأمر ، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول : (إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى) .

لهذا رأيت أن أتكلم عن ثمانية كتب منها ، هى أهمها وأشهرها وأكثرها تداولا ، وسبيلى فى هذا : أن أعرض أولا لنبذة مختصرة عن المؤلف ، ثم أبين خصائص كل كتاب وطريقة مؤلفه فيه ، وهذه الكتب التى وقع عليها اختيارى هى ما يأتى :

١ — جامع البيان فى تفسير القرآن : لابن جرير الطبرى
٢ — بحر العلوم : لأبى الليث السمرقندى
٣ — الكشف والبيان عن تفسير القرآن : لأبى إسحق الثعلبى
٤ — معالم التنزيل : لأبى محمد الحسين البغوى
٥ — المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : لابن عطية الأندلسى
٦ — تفسير القرآن العظيم : لأبى الفداء الحافظ ابن كثير
٧ — الجواهر الحسان فى تفسير القرآن : لعبد الرحمن الثعالبى
٨ — الدر المنثور فى التفسير المأثور : لجلال الدين السيوطى

وسنتكلم عن كل واحد منها بحسب هذا الترتيب فنقول وبالله التوفيق :

١ - جامع البيان فى تفسير القرآن

للطبرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو جعفر ، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الطبرى ، الإمام الجليل ، المجتهد المطلق ، صاحب التصانيف المشهورة ، وهو من أهل آمل طبرستان ، ولد بها سنة ٢٢٤ هـ أربع وعشرين ومائتين من الهجرة ، ورحل من بلده فى طلب العلم وهو ابن اثنتى عشرة سنة ، سنة ست وثلاثين ومائتين . وطوف فى الأقاليم ، فسمع بمصر والشام والعراق ، ثم ألقى عصاه واستقر ببغداد ، وبقى بها إلى أن مات سنة عشر وثلاثمائة .

مبلغه من العلم والعدالة :

كان ابن جرير أحد الأئمة الأعلام ، يحكم بقوله ، ويرجع إلى رأيه لمعرفته وفضله ، وكان قد جمع من العلوم ما لم يشاركه فيه أحد من أهل عصره ، فكان حافظاً لكتاب الله ، بصيراً بالقرآن ، عارفا بالمعانى فقيها فى أحكام القرآن ، عالماً بالسنن وطرقها ، وصحيحها وسقيمها . وناسخها ومنسوخها ، عارفاً بأقوال الصحابة والتابعين ومن بعدهم من المخالفين فى الأحكام ، ومسائل الحلال والحرام عارفاً بأيام الناس وأخبارهم ، هذا هو ابن جرير فى نظر الخطيب البغدادى وهى شهادة عالم خبير بأحوال الرجال . وذكر أن أبا العباس بن سريج كان يقول : محمد بن جرير فقيه عالم . وهذه الشهادة جد صادقة ، فإن الرجل برع فى علوم كثيرة ، منها : علم القراءات ، والتفسير ، والحديث ، والفقه . والتاريخ وقد صنف فى علوم كثيرة وأبدع التأليف وأجاد فيما صنف ، فمن مصنفاته : كتاب التفسير الذى نحن بصدده . وكتاب التاريخ المعروف بتاريخ الأمم والملوك ، وهو من أمهات المراجع ، وكتاب القراءات ، والعدد والتنزيل ،

وكتاب اختلاف العلماء ، وتاريخ الرجال من الصحابة والتابعين ، وكتاب أحـــكام شرائع الإسلام ، ألفه على ما أداه إليه اجتهاده ، وكتاب التبصر فى أصول الدين . . . وغير هـذا كثير من تصانيفه التى تدل على سعة علمه وغزارة فضله .

ولـكن هذه الـكتب قد اختفى معظمها من زمن بعيد ، ولم يحظ منها بالبقاء إلى يومنا هذا وبالشهرة الواسعة ، سوى كتاب التفسير ، وكتاب التاريخ .

وقد اعتبر الطبرى أبا للتفسير . كما اعتبر أبا للتاريخ الإسلامى ؛ وذلك بالنظر لما فى هذين الـكتابين من الناحية العلمية العالية . ويقول ابن خلـكان : إنه كان من الأئمة المجتهدين ، لم يقلد أحداً ، ونقل : أن الشيخ أبا إسحق الشيرازى ذكره فى طبقات الفقهاء فى جملة المجتهدين . قالوا : وله مذهب معروف ، وأصحاب ينتحلون مذهبه يقال لهم الجريرية ، ولـكن هذا المذهب الذى أسسه — على مايظهر — بعد بحث طويل ، ووجد له أتباعاً من الناس ، لم يستطع البقاء إلى يومنا هذا كثيره كغيره من مذاهب المسلمين ، ويظهر أن ابن جرير كان قبل أن يبلغ هذه الدرجة من الاجتهاد متمذهباً بمذهب الشافعى ؛ يدلنا على ذلك ماجاء فى الطبقات الـكبرى لابن السبكى ، من أن بن جرير قال : أظهرت فقه الشافعى ، وأفتيت به ببغداد عشر سنين ، وتلقاه منى ابن بشار الأحول ، أستاذ أبى العباس بن سريح . وقال السيوطى فى طبقات المفسرين [1] : وكان أولا شافعيا ، ثم انفرد بمذهب مستقل ، وأقاويل واختيارات ، وله أتباع ومقلدون ، وله فى الأصول والفروع كتب كثيرة اهـ وذكره صاحب لسان الميزان فقال « ثقة ، صادق ، فيه تشيع يسير ، وموالاة لاتضر . . . » ثم قال : أقذع أحمد بن على السليمانى الحافظ فقال : كان يضع للروافض ، وهـذا رجم بالظن الـكاذب ، بل ابن جرير من كبار أئمة الإسلام المعتمدين ، وما ندعى

(١) ص ٣

عصمته من الخطأ ، ولا يحل لنا أن نؤذيه بالباطل والهوى ، فإن كلام العلماء بعضهم فى بعض ينبغى أن يتأنى فيه ، ولا سيما فى مثل إمام كبير ، ولعل السليمانى أراد الآتى - يريد محمد بن جرير بن رستم الطبرى الرافضى - قال : ولو حلفت أن السليمانى ما أراد إلا الآتى لبررت ، والسليمانى حافظ متقن ، كان يدرى مايخرج من رأسه ، فلا أعتقد أنه يطعن فى مثل هذا الإمام بهذا الباطل » اه .

هذا هو ابن جرير ؛ وهذه هى نظرات العلماء إليه ، وذلك هو حكمهم عليه ، ومن كل ذلك تتبين لنا قيمته ومكانته [1] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعتبر تفسير بن جرير من أقوم التفاسير وأشهرها ، كما يعتبر المرجع الأول عند المفسرين الذين عنوا بالتفسير النقلى ؛ وإن كان فى الوقت نفسه يعتبر مرجعا غير قليل الأهمية من مراجع التفسير العقلى ؛ نظراً لما فيه من الاستنباط ، وتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، ترجيحا يعتمد على النظر العقلى ، والبحث الحر الدقيق .

ويقع تفسير ابن جرير فى ثلاثين جزءا من الحجم الكبير ، وقد كان هذا الكتاب من عهد قريب يكاد يعتبر مفقوداً لاوجود له ، ثم قدر الله له الظهور والتداول ، فكانت مفاجأة سارة للأوساط العلمية فى الشرق والغرب أن وجدت فى حيازة أمير (حائل) الأمير حمود ابن الأمير عبد الرشيد من

---

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٣٢ — ٢٣٣ ، ولسان الميزان جـ ٥ ص ١٠٠ — ١٠٣ ، وطبقات الشافعية الكبرى لابن السبكى جـ ٢ ص ١٣٥ — ١٣٨ ، ومعجم الأدباء جـ ١٨ ص ٤٠ — ٩٤ .

أمراء نجد نسخة مخطوطة كاملة من هذا الكتاب ، طبع عليها الكتاب من زمن قريب ، فأصبحت فى يدنا دائرة معارف غنية فى التفسير المأثور[١] .

ولو أننا تتبعنا ماقاله العلماء فى تفسير ابن جرير ، لوجدنا أن الباحثين فى الشرق والغرب قد أجمعوا الحكم على عظيم قيمته ، واتفقوا على أنه مرجع لاغنى عنه لطالب التفسير ، فقد قال السيوطى رضى الله عنه « وكتابه — يعنى تفسير محمد بن جرير — أجل التفاسير وأعظمها ، فإنه يتعرض لتوجيه الأقوال ، وترجيح بعضها على بعض ، والإعراب ، والاستنباط ، فهو يفوق بذلك على تفاسير الأقدمين[٢] » . وقال النووى « أجمعت الأمة على أنه لم يصنف مثل تفسير الطبرى »[٣] وقال أبو حامد الإسفرايينى « لو سافر رجل إلى الصين حتى يحصل على كتاب تفسير محمد بن جرير لم يكن ذلك كثيراً »[٤] وقال شيخ الإسلام ابن تيمية « وأما التفاسير التى فى أيدى الناس ، فأصحها تفسير ابن جرير الطبرى ؛ فإنه يذكر مقالات السلف بالأسانيد الثابتة ، وليس فيه بدعة ، ولا ينقل عن المتهمين ، كمقاتل بن بكير[٥] والكلبى »[٦] .

ويذكر صاحب لسان الميزان : أن ابن خزيمة استعار تفسير ابن جرير من ابن خالويه فرده بعد سنين ثم قال « نظرت فيه من أوله إلى آخره فما أعلم على أديم الأرض أعلم من ابن جرير » فابن خزيمة ماشهد هذه الشهادة إلا بعد أن أطلع على مافى هذا التفسير من علم واسع غزير .

---

(١) المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص٨٦

(٢) الإتقان جـ٢ ص١٩٠

(٣) المرجع السابق

(٤) معجم الأدباء جـ١٨ ص٤٢

(٥) هكذا بالأصل ؛ ولعله ابن سليمان ، وهو مقاتل بن سليمان بن بشير ؛ وهو متهم بالكذب

(٦) فتاوى ابن تيمية جـ٢ ص١٩٢ .

هذا وقد كتب (نولدكه) فى سنة ١٨٦٠ م بعد اطلاعه على بعض فقرات من هذا الكتاب « لو كان بيدنا هـــذا الكتاب لاستغنينا به عن كل التفاسير المتأخرة ، ومع الأسف فقد كان يظهر أنه مفقود تماما ، وكان مثل تاريخه الكبير مرجعا لا يغيض معينه أخذ عنه المتأخرون معارفهم »[1] .

ويظهر مما بأيدينا من المراجع ، أن هـذا التفسير كان أوسع مما هو عليه اليوم ، ثم اختصره مؤلفه إلى هذا القدر الذى هو عليه الآن ، كما أن كتابه فى التاريخ ظفر بمثل هـذا البسط والاختصار ، فابن السبكى يذكر فى طبقاته الكبرى[2] « أن أبا جعفر قال لأصحابه : أتنشطون لتفسير القرآن ؟ قالوا : كم يكون قدره ؟ ، فقال ثلاثون ألف ورقة ، فقالوا : هذا ربما تفنى الأعمار قبل تمامه ، فاختصره فى نحو ثلاثة آلاف ورقة ، ثم قال : هل تنشطون لتاريخ العالم من آدم إلى وقتنا هذا ؟ ، قالوا : كم قدره ؟ ، فذكر نحوا مما ذكره فى التفسير ، فأجابوه بمثل ذلك ، فقال إنا لله ، ماتت الهمم ، فاختصره فى نحو ما اختصر التفسير » اهـ .

هذا ونستطيع أن نقول إن تفسير ابن جرير هو التفسير الذى له الأولية بين كتب التفسير ، أولية زمنية ، وأولية من ناحية الفن والصناعة .

أما أوليته الزمنية ، فلأنه أقدم كتاب فى التفسير وصل إلينا ، وما سبقه من المحاولات التفسيرية ذهبت بمرور الزمن ، ولم يصل إلينا شىء منها ، اللهم إلا ما وصل إلينا منها فى ثنايا ذلك الكتاب الخالد الذى نحن بصدده .

وأما أوليته من ناحية الفن والصناعة ، فذلك أمر يرجع إلى ما يمتاز به

---

(١) المذاهب الاسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٥

(٢) جـ ٢ ص ١٣٧ .

الكتاب من الطريقة البديعة التى سلكها فيه مؤلفه ، حتى أخرجه للناس كتابا له قيمته ومكانته .

ونريد أن نعرض هنا لطريقة ابن جرير فى تفسيره ، بعد أن أخذنا فكرة عامة عن الكتاب ، حتى يتبين للقارىء أن الكتاب واحد فى بابه ، سبق به مؤلفه غيره من المفسرين ، فكان عمدة المتأخرين ، ومرجعا مهماً من مراجع المفسرين ، على اختلاف مذاهبهم ، وتعدد طرائقهم ، فنقول :

طريقة ابن جرير فى تفسيره :

تتجلى طريقة ابن جرير فى تفسيره بكل وضوح إذا نحن قرأنا فيه وقطعنا فى القراءة شوطا بعيدا، فأول مانشاهده ، أنه إذا أراد أن يفسر الآية من القرآن يقول « القول فى تأويل قوله تعالى كذا وكذا » ثم يفسر الآية ويستشهد على ما قاله بما يرويه بسنده إلى الصحابة أو التابعين من التفسير المأثور عنهم فى هذه الآية ، وإذا كان فى الآية قولان أو أكثر، فإنه يعرض لكل ماقيل فيها ، ويستشهد على كل قول بما يرويه فى ذلك عن الصحابة أو التابعين .

ثم هو لايقتصر على مجرد الرواية ، بل نجده يتعرض لتوجيه الأقوال ، ويرجح بعضها على بعض ، كما نجده يتعرض لناحية الإعراب إن دعت الحال إلى ذلك ، كما أنه يستنبط الأحكام التى يمكن أن تؤخذ من الآية ، مع توجيه الأدلة وترجيح ما يختار .

إنكاره على من يفسر بمجرد الرأى :

ثم هو يخاصم بقوة أصحاب الرأى المستقلين فى التفكير ، ولا يزال يشدد فى ضرورة الرجوع إلى العلم الراجع إلى الصحابة أو التابعين ، والمنقول عنهم نقلا صحيحا مستفيضا ، ويرى أن ذلك وحده هو علامة التفسير الصحيح ، فمثلا عند ماتكلم عن قوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة يوسف « ثم يأتى من بعد ذلك

عام فيه يغاث الناس وفيه يعصرون » نجده يذكر ماورد فى تفسيرها عن السلف مع توجيهه للأقوال وتعرضه للقراءات بقدرمايحتاج إليه تفسير الآية، ثم يعرج بعد ذلك على من يفسر القرآن برأيه ، وبدون اعتماد منه على شىء إلا على مجرد اللغة ، فيفند قوله ، ويبطل رأيه ، فيقول مانصه « . . . وكان بعض من لاعلم له بأقوال السلف من أهل التأويل ، ممن يفسر القرآن برأيه على مذهب كلام العرب ، يوجه معنى قوله (وفيه يعصرون) إلى وفيه ينجون من الجدب والقحط بالغيث ، ويزعم أنه من العصر ، والعصر التى بمعنى المنجاة ، من قول أبى زبيد الطائى :

صاديا يستغيث غير مغاث ولقد كان عصرة المنجود

أى المقهور — ومن قول لبيد :

فبات وأسرى القوم آخر ليلهم وما كان وقافا بغير معصر

وذلك تأويل يكفى من الشهادة على خطئه خلافه قول جميع أهل العلم من الصحابة والتابعين .[1] »

وكثيراً ما يقف ابن جرير مثل هذا الموقف حيال ما يروى عن مجاهد أو الضحاك أو غيرهما ممن يروون عن ابن عباس .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٦٥) من سورة البقرة « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » يقول مانصه « حدثنى المثنى ، قال : حدثنا أبو حذيفة ، قال : حدثنا شبل، عن ابن أبى نجيح، عن مجاهد «ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين» قال : مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة ، وإنما هو مثل ضربه الله لهم ، كمثل الحمار يحمل أسفارا » اهـ ثم يعقب ابن جرير بعد ذلك على قول مجاهد فيقول مانصه:

(١) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ١٣٨ .

« وهذا القول الذى قاله مجاهـــد ، قول لظاهر مادل عليه كتاب الله مخالف ..... » الخ[١].

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة أيضاً « تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » نجده يروى عن الضحاك فى معنى هذه الآية : أن من طلق لغير العدة فقد اعتدى وظلم نفسه ، ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، ثم يقول: وهذا الذى ذكر عن الضحاك لامعنى له فى هذا الموضع ، لأنه لم يجر للطلاق فى العدة ذكر فيقال تلك حدود الله ، وإنما جرى ذكر العدد الذى يكون للمطلق فيه الرجعة والذى لايكون له فيه الرجعة ، دون ذكر البيان عن الطلاق للعدة » اهـ[٢]

... وهكذا نجد ابن جرير فى غير موضع من تفسيره ، ينبرى للرد على مثل هـــذه الآراء التى لاتستند على شىء إلا على مجرد الرأى أو محض اللغة .

موقفه من الأسانيد :

ثم إن ابن جرير وإن التزم فى تفسيره ذكر الروايات بأسانيدها ، إلا أنه فى الأعم الأغلب لايتعقب الأسانيد بتصحيح ولاتضعيف ، لأنه كان يرى — كما هو مقرر فى أصول الحديث — أن من أسند لك فقد حملك البحث عن رجال السند ومعرفة مبلغهم من العدالة أو الجرح ، فهو بعمله هذا قد خرج من العهدة ومع ذلك فابن جرير يقف من السند أحيانا موقف الناقد البصير ، فيعدل من يعدل من رجال الإسناد ، ويجرح من يجرح منهم ، ويرد الرواية التى لايثق بصحتها ، ويصرح برأيه فيها بما يناسبها ، فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٢٥٢ — ٢٥٣ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ٢ ص ٢٨٩.

الآية (٩٤) من سورة الكهف (... فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سداً) يقول ما نصه « روى عن عكرمة فى ذلك — يعنى فى ضم سين سداً وفتحها — ماحدثنا به أحمد بن يوسف . قال : حدثنا القاسم ، قال : حدثنا حجاج ، عن هرون ، عن أيوب ، عن عكرمة قال: ما كان من صنعة بنى آدم فهو السَّد يعنى بفتح السين ، وما كان من صنع الله فهو السُّد ، ثم يعقب على هذا السند فيقول : وأما ماذكر عن عكرمة فى ذلك ، فإن الذى نقل ذلك عن أيوب هرون ، وفى نقله نظر ، ولا نعرف ذلك عن أيوب من رواية ثقاة أصحابه » اه [1] .

تقديره للإجماع :

كذلك نجد ابن جرير فى تفسيره يقدر إجماع الأمة ، ويعطيه سلطانا كبيراً فى اختيار ما يذهب إليه من التفسير ، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة (... فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) يقول ما نصه : « فإن قال قائل : فأى النكاحين عنى الله بقوله : فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ؟ النكاح الذى هو جماع ؟ أم النكاح الذى هو عقد تزويج ؟ قيل كلاهما . وذلك أن المرأة إذا نكحت زوجاً نكاح تزويج ثم لم يطأها فى ذلك النكاح ناكحها ولم يجامعها حتى يطلقها لم تحل للأول ، وكذلك إن وطئها واطىء بغير نكاح لم تحل للأول ، لإجماع الأمة جميعاً ، فإذا كان ذلك كذلك ، فمعلوم أن تأويل قوله : فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ، نكاحا صحيحاً ، ثم يجامعها فيه ، ثم يطلقها ، فإن قال : فإن ذكر الجماع غير موجود فى كتاب الله تعالى ذكره ، فما الدلالة على أن معناه ما قلت ؟ قيل : الدلالة على ذلك إجماع الأمة جميعاً على أن ذلك معناه » [2] .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٣ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

موقفه من القراءات :

كذلك نجد ابن جرير يعنى بذكر القراءات وينزلها على المعانى المختلفة ، وكثيراً مايرد القراءات التى لاتعتمد على الأئمة الذين يعتبرون عنده وعند علماء القراءات حجة ، والتى تقوم على أصول مضطربة مما يكون فيه تغيير وتبديل لكتاب الله ، ثم يتبع ذلك برأيه فى آخر الأمر مع توجيه رأيه بالأسباب فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة الأنبياء «ولسليمان الريح عاصفة» يذكر أن عامة قراء الأمصار قرءوا (الريح) بالنصب على أنها مفعول لسخرنا المحذوف ، وأن عبد الرحمن الأعرج قرأ (الريح) بالرفع على أنها مبتدأ ثم يقول : والقراءة التى لا أستجيز القراءة بغيرها فى ذلك ما عليه قراء الأمصار لإجماع الحجة من القراء عليه .

ولقد يرجع السبب فى عناية ابن جرير بالقراءات وتوجيهها إلى أنه كان من علماء القراءات المشهورين، حتى أنهم ليقولون عنه : إنه ألف فيها مؤلفاً خاصاً فى ثمانية عشر مجلداً ، ذكر فيه جميع القراءات من المشهور والشواذ وعلل ذلك وشرحه ، واختار منها قراءة لم يخرج بها عن المشهور[1]، وإن كان هذا الكتاب قد ضاع بمرور الزمن ولم يصل إلى أيدينا ، شأن الكثير من مؤلفاته .

موقفه من الإسرائيليات :

ثم إننا نجد ابن جرير يأتى فى تفسيره بأخبار مأخوذة من القصص الإسرائيلى ، يرويها بإسناده إلى كعب الأحبار ، ووهب بن منبه ، وابن جريج والسدى ، وغيرهم ونراه ينقل عن محمد بن إسحق كثيراً مما رواه عن مسلمة النصارى . ومن الأسانيد التى تسترعى النظر، هذا الإسناد : حدثنى ابن حميد ، قال : حدثنا سلمة عن ابن إسحق عن أبى عتاب .. رجل من تغلب كان نصرانيا

---

(١) معجم الأدباء ج ١٨ ص ٤٥ .

عمراً من دهرة ثم أسلم بعد فقرأ القرآن وفقه فى الدين ، وكان فيما ذكر ، أنه كان نصرانياً أربعين سنة ثم عمر فى الإسلام أربعين سنة .

يذكر ابن جرير هذا الإسناد، ويروى لهذا الرجل النصرانى الأصل خبراً عن آخر أنبياء بنى إسرائيل، عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الإسراء « إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا (١) » .

كما نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٤) من سورة الكهف « قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأرض ... الآية » يسوق هذا الإسناد : حدثنا ابن حميد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنا محمد بن إسحق قال : حدثنى بعض من يسوق أحاديث الأعاجم من أهل الكتاب ممن قد أسلم ، مما توارثوا من علم ذى القرنين أن ذا القرنين كان رجلا من أهل مصر ، اسمه مرزبا ابن مردبة اليونانى من ولد يونن بن يافث بن نوح ... الخ » (٢)

« ... وهكذا يكثر ابن جرير من رواية الإسرائيليات ، ولعل هذا راجع إلى ما تأثر به من الروايات التاريخية التى عالجها فى بحوثه التاريخية الواسعة .

وإذا كان ابن جرير يتعقب كثيرا من هذه الروايات بالنقد، فتفسيره لا يزال يحتاج إلى النقد الفاحص الشامل ، احتياج كثير من كتب التفسير التى اشتملت على الموضوع والقصص الإسرائيلى ، على أن ابن جرير - كما قدمنا - قد ذكر لنا السند بتمامه فى كل رواية يرويها ، وبذلك يكون قد خرج من العهدة ، وعلينا نحن أن ننظر فى السند ونتفقد الروايات .

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٥ ص ٣٣ - ٣٤ .

(٢) تفسير ابن جرير ج ١٦ ص ١٤ .

انصرافه عما لافائدة فيه :

وبما يلفت النظر فى تفسير ابن جرير أن مؤلفه لايهتم فيه — كما يهتم غيره من المفسرين — بالأمور التى لاتعنى ولا تفيد ، فنراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى سورة المائدة « إذ قال الحواريون ياعيسى بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ... » الآيات (١١٢ ، ١١٣ ، ١١٤) إلى قوله « وارزقنا وأنت خير الرازقين » يعرض لذكر ماورد من الروايات فى نوع الطعام الذى نزلت به مائدة السماء ... ثم يعقب على هذا بقوله « وأما الصواب من القول فيما كان على المائدة فأن يقال : كان عليها مأكول ، وجائز أن يكون سمكا وخبزا ، وجائز أن يكون ثمراً من الجنة ، وغير نافع العلم به ، ولا ضار الجهل به ، إذا أقرّ تالى الآية بظاهر مااحتمله التنزيل » اهـ (١) .

كما نراه عند تفسير قوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة يوسف « وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين » يعرض لمحاولات قدماء المفسرين فى تحديد عدد الدراهم ، هل هى عشرون ؟ أواثنان وعشرون ؟ أو أربعون ؟ ... إلى آخر ماذكره من الروايات ... ثم يعقب على ذلك كله بقوله « والصواب من القول أن يقال : إن الله ـ تعالى ذكره ـ أخبر أنهم باعوه بدراهم معدودة غير موزونة ، ولم يحد مبلغ ذلك بوزن ولاعدد ، و لاوضع عليه دلالة فى كتاب ولاخبر من الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد يحتمل أن يكون كان اثنين وعشرين ، وأن يكون كان أربعون ، وأقل من ذلك وأكثر . وأى ذلك كان فإنها كانت معدودة غير موزونة ، وليس فى العلم بمبلغ وزن ذلك فائدة تقع فى دين ، ولا فى الجهل به دخول ضُرّ فيه ، والإيمان بظاهر التنزيل فرض ، وماعداه فموضوع عنا تكلف علمه » اهـ (٢)

---

(١) تفسير ابن جرير جـ ٧ ص ٨٨ .

(٢) تفسير ابن جرير جـ ١٢ ص ١٠٣ .

احتكامه إلى المعروف من كلام العرب :

وثمة أمر آخر سلكه ابن جرير فى كتابه ، ذلك أنه اعتبر الاستعمالات اللغوية بجانب النقول المأثورة وجعلها مرجعاً موثوقا به عند تفسيره للعبارات المشكوك فيها ، وترجيح بعض الأقوال على بعض .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة هود « حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين ... الآية » نراه يعرض لذكر الروايات عن السلف فى معنى لفظ التنور ، فيروى لنا قول من قال : إن التنور عبارة عن وجه الأرض ، وقول من قال : إنه عبارة عن تنوير الصبح ، وقول من قال إنه عبارة عن أعلى الأرض وأشرفها ، وقول من قال : إنه عبارة عما يختبز فيه ... ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله « وأولى هذه الأقوال عندنا بتأويل قوله (التنور) قول من قال : التنور : الذى يختبز فيه ، لأن ذلك هو المعروف من كلام العرب ، وكلام الله لا يوجه إلا إلى الأغلب الأشهر من معانيه عند العرب ، إلا أن تقوم حجة على شيء منه بخلاف ذلك فيسلم لها ، وذلك أنه جل ثناؤه إنما خاطبهم بما خاطبهم به لإفهامهم معنى ما خاطبهم به ... » اهـ(١)

رجوعه إلى الشعر القديم:

كذلك نجد ابن جرير يرجع إلى شواهد من الشعر القديم بشكل واسع ، متبعاً فى هذا ما أثاره ابن عباس فى ذلك ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة « ... فلا تجعلوا لله أنداداً .. » يقول ما نصه قال أبو جعفر . والأنداد جمع ند ، والند : العدل والمثل ، كما قال حسان ابن ثابت :

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٢ ص ٢٥

أتهجوه ولست له بند فشركما لخيركما الفداء

يعنى بقوله : ولست له بند ، لست له بمثل ولا عدل ، وكل شىء كان نظيراً لشىء وشبيها فهو له ند »[1] ثم يسوق الروايات عمن قال ذلك من السلف ...

اهتمامه بالمذاهب النحوية :

كذلك نجد ابن جرير يتعرض كثيراً لمذاهب النحويين من البصريين والكوفيين فى النحو والصرف ، ويوجه الأقوال ، تارة على المذهب البصرى ، وأخرى على المذهب الكوفى ، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة إبراهيم «مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف» يقول ما نصه « اختلف أهل العربية فى رافع (مثل) فقال بعض نحوى البصرة: إنما هو كأنه قال : ومما نقص عليكم مثل الذين كفروا ، ثم أقبل يفسره كما قال : مثل الجنة .. وهذا كثير . وقال بعض نحوى الكوفيين : إنما المثل للأعمال ، ولكن العرب تقدم الأسماء لأنها أعرف ، ثم تأتى بالخبر الذى تخبر عنه مع صاحبه ، ومعنى الكلام : مثل أعمال الذين كفروا بربهم كرماد ... الخ[1] .

وهكذا يكثر ابن جرير فى مناسبات متعددة من الاحتكام إلى ما هو معروف من لغة العرب ، ومن الرجوع إلى الشعر القديم ليستشهد به على ما يقول . ومن التعرض للمذاهب النحوية عند ما تمس الحاجة ، مما جعل الكتاب يحتوى على جملة كبيرة من المعالجات اللغوية والنحوية التى أكسبت الكتاب شهرة عظيمة .

والحق أن ما قدمه لنا ابن جرير فى تفسيره من البحوث اللغوية المتعددة

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ١٢٥ .
(٢) تفسيرابن جرير ج ١٣ ص١٣١ .

والتى تعتبر كنزا ثميناً ومرجعاً مهماً فى بابها ، أمر يرجع إلى ما كان عليه صاحبنا من المعرفة الواسعة بعلوم اللغة وأشعار العرب ، معرفة لا تقل عن معرفته بالدين والتاريخ . ونرى أن ننبه هنا إلى أن هذه البحوث اللغوية التى عالجها ابن جرير فى تفسيره لم تكن أمراً مقصودا لذاته ، وإنما كانت وسيلة للتفسير ، على معنى أنه يتوصل بذلك إلى ترجيح بعض الأقوال على بعض ، كما يحاول بذلك — أحيانا — أن يوفق بين ما صح عن السلف وبين المعارف اللغوية بحيث يزيل ما يتوهم من التناقض بينهما .

معالجته للأحكام الفقهية :

كذلك نجد فى هذا التفسير آثارا للأحكام الفقهية ، يعالج فيها ابن جرير أقوال العلماء ومذاهبهم ، ويخلص من ذلك كله برأى يختاره لنفسه ، ويرجحه بالأدلة العلمية القيمة ، فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة النحل « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق مالا تعلمون » نجده يعرض لأقوال العلماء فى حكم أكل لحوم الخيل والبغال والحمير ، ويذكر قول كل قائل بسنده . . . وأخيرا يختار قول من قال : إن الآية لا تدل على حرمة شىء من ذلك ، ووجه اختياره هذا فقال : ما نصه « والصواب من القول فى ذلك عندنا ما قاله أهل القول الثانى — وهو أن الآية لا تدل على الحرمة — وذلك أنه لو كان فى قوله - تعالى ذكره - (لتركبوها) دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للركوب للأكل ، لكان فى قوله (فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون)[1] دلالة على أنها لا تصلح إذ كانت للأكل والدفء للركوب . وفى إجماع الجميع على أن ركوب ما قال تعالى ذكره (ومنها تأكلون) جائز حلال غير حرام ، دليل واضح على أن أكل ما قال (لتركبوها) جائز حلال غير حرام ، إلا بما نص على تحريمه ، أو وضع على تحريمه دلالة من كتاب أو وحى إلى رسوله

---

(١) فى الآية (٥) من سورة النحل .

الله صلى الله عليه وسلم ، فأما بهذه الاية فلا يحرم أكل شيء . وقد وضع الدلالة على تحريم لحوم الحمر الأهلية بوحيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعلى البغال بما قد بينا فى كتابنا كتاب الأطعمة بما أغنى عن إعادته فى هذا الموضع ؛ إذ لم يكن هذا الموضع من مواضع البيان عن تحريم ذلك ، وإنما ذكرنا ما ذكرنا ليدل على أن لا وجه لقول من استدل بهذه الآية على تحريم لحم الفرس » اهـ[1] .

خوضه فى مسائل الكلام :

ولا يفوتنا أن ننبه على ما نلحظه فى هذا التفسير الكبير ، من تعرض صاحبه لبعض النواحى الكلامية عند كثير من آيات القرآن ، مما يشهد له بأنه كان عالما ممتازا فى أمور العقيدة ، فهو إذا ما طبق أصول العقائد على ما يتفق مع الآية أفاد فى تطبيقه . وإذا ناقش بعض الآراء الكلامية أجاد فى مناقشته ، وهو فى جدله الكلامى وتطبيقه ومناقشته ، موافق لأهل السنة فى آرائهم ، ويظهر ذلك جلياً فى رده على القدرية فى مسألة الاختيار .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى آخر سورة الفاتحة آية (٧) « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » نراه يقول ما نصه « وقد ظن بعض أهل الغباء من القدرية أن فى وصف الله جل ثناؤه النصارى بالضلال بقوله (ولا الضالين) وإضافة الضلال إليهم دون إضافة إضلالهم إلى نفسه ، وتركه وصفهم بأنهم المضللون كالذى وصف به اليهود أنه مغضوب عليهم ، دلالة على صحة ما قاله إخوانه من جهلة القدرية ، جهلا منه بسعة كلام العرب وتصاريف وجوهه . ولو كان الأمر على ما ظنه الغبى الذى وصفنا شأنه ، لوجب أن يكون كل موصوف بصفة أو مضاف إليه فعل لا يجوز أن يكون فيه سبب لغيره ، وأن يكون كل ما كان فيه من ذلك من فعله ، ولوجب أن يكون خطأ قول القائل : تحركت

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١٤ ص ٦٧ — ٥٨ .

الشجرة إذا حركتها الرياح ، واضطربت الأرض إذا حركتها الزلزلة ، وما أشبه ذلك من الكلام الذى يطول بإحصائه الكتاب . وفى قوله جل ثناؤه « حتى إذا كنتم فى الفلك وجرين بهم[1]» وإن كان جريها بإجراء غيرها إياها ، ما يدل على خطأ التأويل الذى تأوله من وصفنا قوله فى قوله ولا الضالين ، وادعائه أن فى نسبة الله جل ثناؤه الضلالة إلى من نسبها إليه من النصارى تصحيحاً لما ادعى المنكرون أن يكون الله جل ثناؤه فى أفعال خلقه بسبب من أجلها وجدت أفعالهم ، مع إبانة الله عز ذكره نصا فى آى كثيرة من تنزيله: أنه المضل الهادى ، فمن ذلك قوله جل ثناؤه « أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون[2] » فأنبأ جل ذكره أنه المضل الهادى دون غيره ، ولكن القرآن نزل بلسان العرب على ما قدمنا البيان عنه فى أول الكتاب ، ومن شأن العرب إضافة الفعل إلى من وجد منه وإن كان مشيئة غير الذى وجد منه الفعل غيره ، فكيف بالفعل الذى يكتسبه العبد كسباً ، ويوجده الله جل ثناؤه عينا منشأة ، بل ذلك أحرى أن يضاف إلى مكتسبه كسبا له بالقوة منه عليه ، والاختيار منه له ، وإلى الله جل ثناؤه بإيجاد عينه وإنشائها تدبيرا »[3] اهـ .

وكثيراً ما نجد ابن جرير يتصدى للرد على المعتزلة فى كثير من آرائهم الاعتقادية ، فنراه مثلا يجادلهم مجادلة حادة فى تفسيرهم العقلى التنزيهى للآيات التى تثبت رؤية الله عند أهل السنة ، كما نراه يذهب إلى ما ذهب إليه السلف من

---

(١) فى الآية (٢٢) من سورة يونس.

(٢) الآية (٢٣) من سورة الجاثية .

(٣) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٦٤ .

عدم صرف آيات الصفات عن ظاهرها ، مع المعارضة لفكرة التجسيم والتشبيه ، والرد على أولئك الذين يشبهون الله بالإنسان(١) .

... وهكذا نجد ابن جرير لم يقف كمفسر موقفاً بعيداً عن مسائل النزاع التى تدور حول العقيدة فى عصره ، بل نراه يشارك فى هذا المجال من الجدل الكلامى بنصيب لا يستهان به ، مع حرصه كل الحرص على أن يحتفظ بسنيته ضد وجوه النظر التى لا تتفق وتعاليم أهل السنة .

وبعد ... فإن ما جمعه ابن جرير فى كتابه من أقوال المفسرين الذين تقدموا عليه ، وما نقله لنا عن مدرسة ابن عباس ، ومدرسة ابن مسعود ، ومدرسة على ابن أبى طالب ، ومدرسة أبى بن كعب ، وما استفاده مما جمعه ابن جريج والسدى وابن إسحق وغيرهم من التفاسير جعلت هذا الكتاب أعظم الكتب المؤلفة فى التفسير بالمأثور ، كما أن ما جاء فى الكتاب من إعراب ، وتوجيهات لغوية ، واستنباطات فى نواح متعددة ، وترجيح لبعض الأقوال على بعض ، كان نقطة التحول فى التفسير ، ونواة لما وجد بعد من التفسير بالرأى ، كما كان مظهراً من مظاهر الروح العلمية السائدة فى هذا العصر الذى يعيش فيه ابن جرير .

وفى الحق أن شخصية ابن جرير الأدبية والعلمية ، جعلت تفسيره مرجعا مهما من مراجع التفسير بالرواية ، فترجيحاته المختلفة تقوم على نظرات أدبية ولغوية وعلمية قيمة ، فوق ما جمع فيه من الروايات الأثرية المتكاثرة .

وعلى الإجمال فخير ما وصف به هذا الكتاب ما نقله الداودى عن أبى

---

(١) انظر ما كتبه على قوله تعالى فى الآية (٦٤) من سورة المائدة (وقالت اليهود يد الله مغلولة ... الآية) ج ٦ ص ١٩٣ وما بعدها ؛ وما كتبه على قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة الزمر (... والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه) ج ٢٤ ص ١٦ وما بعدها .

محمد عبد الله بن أحمد الفرغانى فى تاريخه حيث قال « فتم من كتبه — يعنى محمد بن جرير — كتاب تفسير القرآن ، وجوده ، وبين فيه أحكامه ، وناسخه ومنسوخه ، ومشكله وغريبه ، ومعانيه ، واختلاف أهل التأويل والعلماء فى أحكامه وتأويله ، والصحيح لديه من ذلك ، وإعراب حروفه ، والكلام على الملحدين فيه ، والقصص ، وأخبار الأمة والقيامة ، وغير ذلك مما حواه من الحكم والعجائب كلمة كلمة ، وآية آية ، من الاستعاذة ، وإلى أبى جاد ، فلو ادعى عالم أن يصنف منه عشرة كتب كل كتاب منها يحتوى على علم مفرد وعجيب مستفيض لفعل اهـ[1] .

هذا وقد جاء فى معجم الأدباء ج ١٨ ص ٦٤ — ٦٥ وصف مسهب لتفسير ابن جرير ، جاء فى آخره ما نصه « . . . . . . وذكر فيه من كتب التفاسير المصنفة عن ابن عباس خمسة طرق ، وعن سعيد بن جبير طريقين ، وعن مجاهد بن جبر ثلاثة طرق ، وعن الحسن البصرى ثلاثة طرق ، وعن عكرمة ثلاثة طرق وعن الضحاك بن مزاحم طريقين ، وعن عبد الله بن مسعود طريقا ، وتفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم ، وتفسير ابن جريج ، وتفسير مقاتل بن حبان ، سوى ما فيه من مشهور الحديث عن المفسرين وغيرهم ، وفيه من المسند حسب حاجته إليه ، ولم يتعرض لتفسير غير موثوق به ، فإنه لم يدخل فى كتابه شيئاً عن كتاب محمد بن السائب الكلبى ، ولا مقاتل بن سليمان ، ولا محمد بن عمر الواقدى ؛ لأنهم عنده أظناء والله أعلم . وكان إذا رجع إلى التاريخ والسير وأخبار العرب حكى عن محمد بن السائب الكلبى ، وعن ابنه هشام ، وعن محمد بن عمر الواقدى ، وغيرهم فيما يفتقر إليه ولا يؤخذ إلا عنهم

وذكر فيه مجموع الكلام والمعانى من كتاب على بن حمزة الكسائى ، ومن كتاب يحيى بن زياد الفراء ، ومن كتاب أبى الحسن الأخفش ،

---

(١) طبقات المفسرين للداودى ، ص ٢٣ .

كتاب أبى على قطرب ، وغيرهم مما يقتضيه الكلام عند حاجته إليه ، إذ كان هؤلاء هم المتكلمون فى المعانى ، وعنهم يؤخذ معانيه وإعرابه ، وربما لم يسمهم إذا ذكر شيئاً من كلامهم ، وهذا كتاب يشتمل على عشرة آلاف ورقة أو دونها حسب سعة الخط أو ضيقه » اهـ .

كما نجد فى معجم الأدباء أيضاً قبل ذلك بقليل ، ما يدل على أن الطبرى أتم تفسيره هذا فى سبع سنوات ، إملاء على أصحابه ، فقد جاء فى الجزء ١٨ ص ٤٢ عن أبى بكر بن بالويه أنه قال « قال لى أبو بكر محمد بن إسحق - يعنى بن خزيمة : بلغنى أنك كتبت التفسير عن محمد بن جرير ؟ قلت : نعم ، كتبنا التفسير عنه إملاء ، قال : كله ؟ قلت : نعم ، قال : فى أى سنة ؟ . قلت من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة تسعين . . . . الخ » .

وبعد فأحسب أنى قد أفضت فى الكلام عن هذا التفسير ، وتوسعت فى الحديث عنه ، وأقول : إن السر فى ذلك هو أن الكتاب يعتبر المرجع الأول والأهم للتفسير بالمأثور ، وتلك ميزة لا نعرفها لغيره من كتب التفسير بالرواية .

٢ — بحر العلوم

للسمرقندى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو الليث ، نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندى الفقيه الحنفى . المعروف بإمام الهدى . تفقه على أبى جعفر الهندوانى ، واشتهر بكثرة الأقوال المفيدة ، والتصانيف المشهورة . ومن أهم تصانيفه تفسير القرآن المسمى ببحر العلوم ، والمعروف بتفسير أبى الليث السمرقندى ، وهو ما نحن بصدده الآن ، وكتاب النوازل فى الفقه ، وخزانة الفقه فى مجلد وتنبيه الغافلين

والبستان . وكانت وفاته رحمه الله سنة ٣٧٣ هـ ثلاث وسبعين وثلاثمائة وقيل سنة ٣٧٥ خمس وسبعين وثلاثمائة من الهجرة[1] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

قال فى كشف الظنون « تفسير أبى الليث ، نصر بن محمد الفقيه السمرقندى الحنفى ، المتوفى سنة ٣٧٥هـ خمس وسبعين وثلاثمائة، وهو كتاب مشهور لطيف مفيد ، خرج أحاديثه الشيخ زين الدين قاسم بن قطلوبغا الحنفى سنة ٨٥٤ أربع وخمسين وثمانمائة » اهـ[2] .

وهذا التفسير مخطوط فى ثلاث مجلدات كبار ، وموجود بدار الكتب المصرية ، وتوجد منه نسختان مخطوطتان بمكتبة الأزهر . واحدة فى مجلدين والأخرى فى ثلاث مجلدات .

وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً ، فوجدت مؤلفه قد قدم له بباب فى الحث على طلب التفسير وبيان فضله ، واستشهد على ذلك بروايات عن السلف ، رواها بإسناده إليهم ، ثم بين أنه لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه من ذات نفسه ما لم يتعلم أو يعرف وجوه اللغة وأحوال التنزيل ، واستدل على حرمة التفسير بمجرد الرأى بأقوال رواها عن السلف بإسناده إليهم أيضاً ، ثم بين أن الرجل إذا لم يعلم وجوه اللغة وأحوال التنزيل ، فليتعلم التفسير ويتكلف حفظه ، ولا بأس بذلك على سبيل الحكاية ... وبعد أن فرغ من المقدمة شرع فى التفسير .

تتبعت هذا التفسير فوجدت صاحبه يفسر القرآن بالمأثور عن السلف ، فيسوق الروايات عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم فى التفسير ، ولكنه

---

(١) انظر طبقات المفسرين للداودى ص ٣٢٧ .

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٤ .

لا يذكر إسناده إلى من يروى عنهم ، ويندر سياقه للإسناد فى بعض الروايات وقد لاحظت عليه أنه إذا ذكر الأقوال والروايات المختلفة لا يعقب عليها ولا يرجح كما يفعل ابن جرير الطبرى — مثلا — اللهم إلا فى حالات نادرة أيضاً ، وهو يعرض للقراءات ولكن بقدر[1] ، كما أنه يحتكم إلى اللغة أحيانا ويشرح القرآن بالقرآن إن وجد من الآيات القرآنية ما يوضح معنى آية أخرى[2] كما أنه يروى من القصص الإسرائيلى ، ولكن على قلة وبدون تعقيب منه على ما يرويه ، وكثيراً ما يقول : قال بعضهم كذا ، وقال بعضهم كذا ، ولا يعين هذا البعض . وهو يروى أحيانا عن الضعفاء فيخرج من رواية الكلبي ومن رواية أسباط عن السدى ، ومن رواية غيرهما ممن تكلم فيه ، ووجدته يوجه بعض إشكالات ترد على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[3] كما يعرض لموهم الاختلاف والتناقض فى القرآن ويزيل هذا الإيهام[4] وبالجملة ، فالكتاب قيم فى ذاته ، جمع فيه صاحبه بين التفسير بالرواية والتفسير بالدراية إلا أنه غلب الجانب النقلى فيه على الجانب العقلى ، ولهذا عددناه ضمن كتب التفسير المأثور .

---

(١) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (١٢٤) من سورة البقرة (لا ينال عهدى الظالمين) ج ١ ص ٤٠ .

(٢) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران (وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم) ج ١ ص ٩٧ .

(٣) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة البقرة « كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحيا كم » ج ١ ص ١٤ .

(٤) ارجع إليه عند قوله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة البقرة (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات . . . الآية) ج ١ ص ٢٥ .

٣ ـ الكشف والبيان عن تفسير القرآن

للثعلبي

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو إسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي النيسابوري المقرىء ، المفسر . كان حافظاً واعظاً ، رأساً في التفسير والعربية ، متين الديانة. قال ابن خلكان : «كان أوحد زمانه في علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذي فاق غيره من التفاسير»[1] . وقال ياقوت في معجم الأدباء : «أبو إسحق الثعلبي ، المقرىء ، المفسر ، الواعظ ، الأديب ، الثقة ، الحافظ ، صاحب التصانيف الجليلة : من التفسير الحاوي أنواع الفرائد من المعاني والإشارات ، وكلمات أرباب الحقائق ووجوه الإعراب والقراءات . . .»[2] . وله من المؤلفات كتاب العرائس في قصص الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين ، وله غير ذلك من المؤلفات . ونقل السمعاني عن بعض العلماء أنه يقال له الثعلبي والثعالبي ، وهو لقب له وليس بنسب . وذكره عبد الغفار بن إسماعيل الفارسي في كتاب سياق تاريخ نيسابور ، وأثنى عليه ، وقال : هو صحيح النقل موثوق به . حدث عن أبي طاهر بن خزيمة والإمام أبي بكر بن مهران المقرىء . وعنه أخذ أبو الحسن الواحدي التفسير وأثنى عليه ، وكان كثير الحديث كثير الشيوخ . ولكن هناك من العلماء من يرى أنه لا يوثق به . ولا يصح نقله . وسنذكر بعض من يرى ذلك فيه ومقالاتهم عند الكلام عن تفسيره . هذا . . وقد توفى الثعلبي رحمه الله سنة ٤٢٧ هـ سبع وعشرين وأربعمائة . فرحمه الله وأرضاه[3] .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٧ — ٣٨ .

(٢) معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٧ .

(٣) يرجع في ترجمته معجم الأدباء ج ٥ ص ٣٦ ـ ٣٨ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ٢٢ ، وشذرات الذهب ج ٣ ص ٢٣٠ — ٢٣١ .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

ألقى مؤلف هذا التفسير ضوءاً عليه فى مقدمته ، وأوضح فيها عن منهجا وطريقته التى سلكها فيه . فذكر أولا اختلافه منذ الصغر إلى العلماء ، واجتهاده فى الاقتباس من علم التفسير الذى هو أساس الدين ورأس العلوم الشرعية ، ومواصلته ظلام الليل بضوء الصباح بعزم أكيد وجهد جهيد ، حتى رزقه الله ما عرف به الحق من الباطل ، والمفضول من الفاضل ، والحديث من القديم ، والبدعة من السنة ، والحجة من الشبهة ، وظهر له أن المصنفين فى تفسير القرآن فرق على طرق مختلفة :

فرقة أهل البدع والأهواء ، وعد منهم الجبائى والرمانى .

وفرقة من ألفوا فأحسنوا ، إلا أنهم خلطوا أباطيل المبتدعين بأقاويل السلف الصالحين ، وعد منهم أبا بكر القفال .

وفرقة اقتصر أصحابها على الرواية والنقل دون الدراية والنقد ، وعد منهم أبا يعقوب إسحق بن إبراهيم الحنظلى .

وفرقة حذفت الإسناد الذى هو الركن والعماد ، ونقلت من الصحف والدفاتر ، وحررت على هوى الخواطر ، وذكرت الغث والسمين ، والواهى والمتين ، قال : وليسوا فى عداد العلماء ، فصنت الكتاب عن ذكرهم .

وفرقة حازوا قصب السبق ، فى جودة التصنيف والحذق . غير أنهم طولوا فى كتبهم بالمعادات ، وكثرة الطرق والروايات ، وعد منهم ابن جرير الطبرى .

وفرقة جردت التفسير دون الأحكام ، وبيان الحلال والحرام ، والحل عن الغوامض والمشكلات ، والرد على أهل الزيغ والشبهات ، كمشايخ السلف الماضين ، مثل مجاهد والسدى والكلبى .

ثم بين أنه لم يعثر فى كتب من تقدمه على كتاب جامع مهذب يعتمد . .
ثم ذكر ما كان من رغبة الناس إليه فى إخراج كتاب فى تفسير القرآن وإجابته لمطلوبهم ، رعاية منه لحقوقهم ، وتقرباً به إلى الله .. ثم قال : فاستخرت الله تعالى فى تصنيف كتاب ، شامل ، مهذب ، ملخص ، مفهوم ، منظوم ، مستخرج من زهاء مائة كتاب مجموعات مسموعات . سوى ماالتقطته من التعليقات والأجزاء المتفرقات ، وتلقفته عن أقوام من المشايخ الأثبات ، وهم قريب من ثلاثمائة شيخ ، نسقته بأبلغ ماقدرت عليه من الإيجاز والترتيب. ثم قال : وخرجت فيه الكلام على أربعة عشر نحوا : البسائط والمقدمات ، والعدد والتنزلات ، والقصص والنزولات ، والوجوه والقراءات ، والعلل والاحتجاجات ، والعربية واللغات ، والإعراب والموازنات ، والتفسير والتأويلات ، والمعانى ، والجهات ، والغوامض والمشكلات ، والأحكام والفقهيات ، والحكم والإشارات ، والفضائل والكرامات ، والأخبار والمتعلقات ، أدرجتها فى أثناء الكتاب بحذف الأبواب ، وسميته : كتاب الكشف والبيان عن تفسير القرآن .. ثم ذكر فى أول الكتاب أسانيده إلى من يروى عنهم التفسير من علماء السلف ، واكتفى بذلك عن ذكرها أثناء الكتاب ، كما ذكر أسانيده إلى مصنفات أهل عصره ـ وهى كثيرة ـ وكتب الغريب والمشكل والقراءات، ثم ذكر باباً فى فضل القرآن وأهله، وباباً فى معنى التفسير والتأويل ، ثم شرع فى الفسير ،

عثرت على هذا التفسير بمكتبة الأزهر فوجدته مخطوطاً غير كامل ، وجدت منه أربع مجلدات ضخام (الاول والثانى والثالث والرابع) . والرابع ينتهى عند أواخر سورة الفرقان ، وباقى الكتاب مفقود لم أعثر عليه بحال .

قرأت فى هذا التفسير فوجدته يفسر القرآن بما جاء عن السلف ؛ مع اختصاره للأسانيد ، اكتفاء بذكرها فى مقدمة الكتاب ، ولاحظت عليه أنه يعرض للمسائل النحوية ويخوض فيها بتوسع ظاهر ، فمثلا عند تفسيره لقوله

تعالى فى الآية (٩٠) من سورة البقرة « بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله .. الآية » نجده يتوسع فى الكلام على نعم وبئس ويفيض فى ذلك[١].

كما أنه يعرض لشرح الكلمات اللغوية وأصولها وتصاريفها ، ويستشهد على مايقول بالشعر العربى ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧١) من سورة البقرة « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء.. الآية» نجده يحلل كلمة (ينعق) تحليلا دقيقاً ويصرفها على وجوهها كلها [٢] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من السورة نفسها « فمن اضطر غير باغ ولا عاد . . الآية » نجده يحلل لفظ البغى ويتكلم عن أصل المادة بتوسع [٣] :

ومما لاحظته على هذا التفسير أنه يتوسع فى الكلام عن الأحكام الفقهية عندما يتناول آية من آيات الأحكام ، فتراه يذكر الأقوال والخلافات والأدلة ويعرض للمسألة من جميع نواحيها ، إلى درجة أنه يخرج عما يراد من الآية ، انظر إليه عندما يعرض لقوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء « يوصيكم الله فى أولادكم .. الآية » تجده يفيض فى الكلام عما يفعل بتركة الميت بعد موته ، ثم يذكر جملة الورثة والسهام المحددة ، ومن فرضه الربع ، ومن فرضه الثمن ، والثلثان ، والثلث ، والسدس .. وهكذا ، ثم يعرض لنصيب الجد والجدة والجدات ، ثم يقول بعد هذا : فصل فى بساط الآية ، وفيه يتكلم عن نظام الميراث عند الجاهلية وقبل مبعث الرسول [٤] .

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء

---

(١) جـ ١ ص ٨٣ — ٨٤ .
(٢) جـ ١ ص ١٠٢ .
(٣) جـ ٢ ص ١٢٥ .
(٤) جـ ١ ص ٩١ .

« فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » تجده قد توسع فى نكاح المتعة وتعرض لأقوال العلماء ، وذكر أدلتهم بتوسع ظاهر [١] .

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة النساء « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم .. الآية » تجده يقول « (فصل) فى أقاويل أهل التأويل فى عدد الكبائر ، مجموعة من الكتاب والسنة ، مقرونة بالدليل والحجة » .. ثم يسردها جميعاً ويذكر أدلتها على وجه التفصيل [٢] .

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء «وإن كنتم مرضى أوعلى سفر أوجاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيباً .. الآية» تجده يعرض لأقوال السلف فى معنى اللمس والملامسة .. ثم يقول : واختلف الفقهاء فى حكم الآية على خمسة مذاهب ، ويتوسع على الخصوص فى بيان مذهب الشافعى ويسرد أدلته ، ويذكر تفصيل كيفية الملامسة عنده ، كما يعرض لأقوال العلماء فى التيمم ومذاهبهم وأدلتهم بتوسع ظاهر عندما يتكلم عن قوله تعالى « فتيمموا صعيداً طيباً [٣] .

وهكذا يتطرق الكتاب إلى نواح علمية متعددة ، فى إكثار وتطويل يكاد يخرج به عن دائرة التفسير بالمأثور .

ثم إن هناك ناحية أخرى يمتاز بها هذا التفسير ، هى التوسع إلى حد كبير فى ذكر الإسرائيليات بدون أن يتعقب شيئاً من ذلك أو ينبه على مافيه رغم استبعاده وغرابته ، وقد قرأت فيه قصصاً إسرائيليا نهاية فى الغرابة

---

(١) ج ٢ ص ١٠٢ — ١٠٤ .
(٢) ج ٢ ص ١١٠ — ١١٢ .
(٣) ج ٢ ص ١٢٥ — ١٣٦ .

ويظهر لنا أن الثعلبي كان مولعاً بالأخبار والقصص إلى درجة كبيرة، بدليل أنه ألف كتابا يشتمل على قصص الأنبياء ، ولو أنك رجعت إليه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية ١٠ من سورة الكهف « إذ أوى الفتية إلى الكهف ... الآية » لوجدته يروى عن السدى ووهب وغيرهما كلاما طويلا في أسماء أصحاب الكهف ، وعددهم ، وسبب خروجهم إليه ، ولوجدته يروى عن كعب الأحبار ، ماجرى لهم مع الكلب حين تبعهم إلى الغار ، ولعجبت حين تراه يروى أن النبي صلى الله عليه وسلم طلب من ربه رؤية أصحاب الكهف فأجابه الله بأنه لن يراهم في دار الدنيا ، وأمره بأن يبعث لهم أربعة من خيار أصحابه ليبلغوهم رسالته ... إلى آخر القصة التي لا يكاد العقل يصدقها (١).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (٩٤) من سورة الكهف أيضاً « ... إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض ... الآية » تجده قد أطال وذكر كلاما لا يمكن أن يقبل بحال ؛ لأنه أقرب إلى الخيال منه إلى الحقيقة (٢).

ثم ارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى : في الآية (٢٧) من سورة مريم « فأتت به قومها تحمله .... الآية » تجده يروى عن السدى ووهب وغيرهما قصصاً كثيراً ، وأخباراً في نهاية الغرابة والبعد (٣).

ثم إن الثعلبي لم يتحر الصحة في كل ما ينقل من تفاسير السلف ، بل نجده — كما لاحظنا عليه وكما قال السيوطي في الإتقان (٤) — يكثر من الرواية عن السدى الصغير عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس .

---

(١) ج ٤ ص ١٢١ — ١٢٥ .
(٢) ج ٤ ص ١٤٠ — ١٤٣ .
(٣) ج ٤ ص ١٤٧ — ١٤٩ .
(٤) ج ٢ ص ١٨٩ .

كذلك نجده قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بالأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن سورة سورة ، فروى فى نهاية كل سورة حديثا فى فضلها منسوباً إلى أبى بن كعب ، كما اغتر بكثير من الأحاديث الموضوعة على ألسنة الشيعة فسود بها كتابه دون أن يشير إلى وضعها واختلافها . وفى هذا ما يدل عن أن الثعلبى لم يكن له باع فى معرفة صحيح الأخبار من سقيمها .

هذا .. وإن الثعلبى قد جر على نفسه وعلى تفسيره بسبب هذه الكثرة من الإسرائيليات ، وعدم الدقة فى اختيار الأحاديث ، اللوم المرير والنقد اللاذع من بعض العلماء الذين لاحظوا هذا العيب على تفسيره ، فقال ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير [١] «والثعلبى هو فى نفسه كان فيه خير ودين ، وكان حاطب ليل ، ينقل ما وجد فى كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع» وقال أيضا فى فتاواه [٢] وقد سئل عن بعض كتب التفسير «وأما الواحدى فإنه تلميذ الثعلبى ، وهو أخبر منه بالعربية ، لكن الثعلبى فيه سلامة من البدع وإن ذكرها تقليداً لغيره وتفسيره وتفسير الواحدى البسيط والوسيط والوجيز فيها فوائد جليلة ، وفيها غث كثير من المنقولات الباطلة وغيرها . اه

ومن يقرأ تفسير الثعلبى يعلم أن ابن تيمية لم يتقول عليه ، ولم يصفه إلا بما هو فيه .

وقال الكتانى فى الرسالة المستطرفة[٣] عند الكلام عن الواحدى المفسر «ولم يكن له ولا لشيخه الثعلبى كبير بضاعة فى الحديث ، بل فى تفسيرهما — وخصوصا الثعلبى — أحاديث موضوعة وقصص باطلة» اه .

---

(١) ص ١٩ .
(٢) ج ٢ ص ١٩٣ .
(٣) ص ٤٩ .

والحق أن الثعلبي رجل قليل البضاعة فى الحديث ، بل ولا أكون قاسياً عليه إذا قلت إنه لا يستطيع أن يميز الحديث الموضوع من غير الموضوع وإلا لما روى فى تفسيره أحاديث الشيعة الموضوعة على على ، وأهل البيت ، وغيرها من الأحاديث التى اشتهر وضعها ، وحذر العلماء من روايتها .

والعجب أن الثعلبي بعد هذا كله يعيب كل كتب التفسير أو معظمها ، حتى كتاب محمد بن جرير الطبرى الذى شهد له خلق كثير ، وليته إذ ادعى فى مقدمة تفسيره أنه لم يعثر فى كتب من تقدمه من المفسرين على كتاب جامع مهذب يعتمد ، أخرج لنا كتابه خالياً مما عاب عليه المفسرين . . . ليته فعل ذلك . . . إذاً لكان قد أراحنا وأراح الناس من هذا الخلط والخبط الذى لا يخلو منه موضع من كتابه .

٤ — معالم التنزيل للبغوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف معالم التنزيل هو أبو محمد ، الحسين بن مسعود بن محمد المعروف بالفراء [١] البغوى [٢] ، الفقيه ، الشافعى ، المحدث ، المفسر ، الملقب بمحيي السنة وركن الدين . تفقه البغوى على القاضى حسين وسمع الحديث منه ، وكان تقياً ، ورعا ، زاهداً ، قانعاً ، إذا ألقى الدرس لا يلقيه إلا على طهارة ، وإذا أكل لا يأكل إلا الخبز وحده ، ثم عدل عن ذلك فصار يأكل الخبز

(١) الفراء نسبة الى عمل الفراء وبيعها :

(٢) البغوى نسبه الى بلدة بخراسان بين مرو وهراة يقال لها بغ ، وبغشور ، وهذه النسبة شاذة على خلاف الأصل . قاله السمعانى فى كتاب الأنساب .

مع الزيت . توفى رحمه الله فى شوال سنة ٥١٠ ﻫ عشر وخمسمائة من الهجرة بمروروز وقد جاوز الثمانين ، ودفن عند شيخه القاضى حسين بمقبرة الطالقانى.

مبلغه من العلم :

كان البغوى إماما فى التفسير ، إماما فى الحديث ، إماما فى الفقه ، وعده التاج السبكى من علماء الشافعية الأعلام ، وقال : كان إماماً جليلا ، ورعا زاهداً فقيها ، محدثا مفسرا ، جامعا بين العلم والعمل ، سالكا سبيل السلف وصنف فى تفسير كلام الله تعالى ، وأوضح المشكلات من قول النبى صلى الله عليه وسلم ، وروى الحديث واعتنى بدراسته ، وصنف كتباً كثيرة ، فمن تصانيفه : معالم التنزيل فى التفسير ، وهو الذى ترجمناله ، وسنتكلم عنه ، وشرح السنة فى الحديث ، والمصابيح فى الحديث أيضا ، والجمع بين الصحيحين ، والتهذيب فى الفقه ، وغير ذلك ، وقد بورك له فى تصانيفه ورزق فيها القبول لحسن نيته (١) .

التعريف بمعالم التنزيل وطريقة مؤلفه فيه :

قال فى كشف الظنون (٢) « معالم التنزيل فى التفسير . للإمام محي السنة ، أبى محمد حسين بن مسعود الفراء البغوى الشافعى المتوفى سنة ٥١٦ ست عشرة وخمسمائة (٣) ، وهو كتاب متوسط ، نقل فيه عن مفسرى الصحابة والتابعين ومن بعدهم ، واختصره الشيخ تاج الدين أبو نصرى عبد الوهاب بن محمد الحسينى المتوفى سنة ٨٧٥ خمس وسبعين وثمانمائة ، اﻫ .

---

(١) انظر طبقات المفسرين للسيوطى ص ١٣ ، ووفيات الأعيان ج ١ ص ١٤٥- ١٤٦ ، والطبقات الكبرى لابن السبكى ج ٤ ص ٢١٤ - ٢١٥ .

(٢) ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٣) هكذا قال ، والصحيح ماتقدم ، وكثيراً مايخطىء صاحب كشف الظنون فى تعيين التواريخ .

ووصفه فى الخازن فى مقدمة تفسيره بأنه « من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها ، وأنبلها وأسناها ، جامع للصحيح من الأقاويل ، عار عن الشبه والتصحيف والتبديل ، محلى بالأحاديث النبوية ، مطرز بالأحكام الشرعية ، موشى بالقصص الغريبة ، وأخبار الماضين العجيبة ، مرصع بأحسن الإشارات ، مخرج بأوضح العبارات ، مفرغ فى قالب الجمال بأفصح مقال » اهـ .

وقال ابن تيمية فى مقدمته فى أصول التفسير (١) « والبغوى تفسيره مختصر من الثعلبي ، لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعة والآراء المبتدعة » اهـ .

وقال فى فتاواه (٢) — وقد سئل عن أى التفاسير أقرب إلى الكتاب والسنة ؟ الزمخشرى ؟ . أم القرطبي ؟ . أم البغوى ؟ أم غير هؤلاء ؟ — . . . وأما التفاسير الثلاثة المسئول عنها ، فأسلمها من البدعة والأحاديث الضعيفة البغوى ، لكنه مختصر من تفسير الثعلبي ، وحذف منه الأحاديث الموضوعة والبدع التى فيه ، وحذف أشياء غير ذلك » اهـ .

وقال الكتانى فى الرسالة المستطرفة ص ٥٨ « وقد يوجد فيه — يعنى معالم التنزيل — من المعانى والحكايات مايحكم بضعفه أو وضعه » اهـ .

وقد طبع هذا التفسير فى نسخة واحدة مع تفسير ابن كثير القرشى الدمشقى ، كما طبع مع تفسير الخازن ، وقد قرأت فيه فوجدته يتعرض لتفسير الآية بلفظ سهل موجز ، وينقل ما جاء عن السلف فى تفسيرها ، وذلك بدون أن يذكر السند ، يكتفى فى ذلك بأن يقول مثلا : قال ابن عباس كذا وكذا ، وقال مجاهد كذا وكذا ، وقال عطاء كذا وكذا ، والسر

---

(١) ص ١٩ :

(٢) ج ٢ ص ١٩٣ :

فى هذا هو أنه ذكر فى مقدمة تفسيره إسناده إلى كل من يروى عنهم . وبين أن له طرقا سواها تركها اختصاراً . ثم إنه إذا روى عمن ذكر أسانيده إليهم بأسناد آخر غير الذى ذكره فى مقدمة تفسيره فإنه يذكره عند الرواية، كما يذكر إسناده إذا روى عن غير من ذكر أسانيده إليهم من الصحابة والتابعين ، كما أنه - بحكم كونه من الحفاظ المتقنين للحديث - كان يتحرى الصحة فيما يسنده إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويعرض عن المناكير ومالا تعلق له بالتفسير ، وقد أوضح هذا فى مقدمة كتابه فقال « وماذكرت من أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أثناء الكتاب على وفاق آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة . وعليها مدار الشرع وأمور الدين - فهى من الكتب المسموعة للحفاظ وأئمة الحديث ، وأعرضت عن ذكر المناكير ومالا يليق بحال التفسير » اهـ[١]

وقد لاحظت على هذا التفسير أنه يروى عن الكلبى وغيره من الضعفاء، كما لاحظت أنه يتعرض للقراءات ، ولكن بدون إسراف منه فى ذلك ، كما أنه يتحاشى ماولع به كثير من المفسرين من مباحث الإعراب ، ونكت البلاغة ، والاستطراد إلى علوم أخرى لاصلة لها بعلم التفسير ، وإن كان فى بعض الأحيان يتطرق إلى الصناعة النحوية ضرورة الكشف عن المعنى ، ولكنه مقل لايكثر . ووجدته يذكر أحيانا بعض الإسرائيليات ولايعقب عليها[٢] ووجدته يورد بعض إشكالات على ظاهر النظم ثم يجيب عنها[٣] ، كما وجدته ينقل الخلاف عن السلف فى التفسير ويذكر الروايات عنهم فى ذلك، ولا يرجح رواية على رواية ، ولايضعف رواية ويصحح أخرى .

---

(١) جـ ١ ص ٩ .

(٢) انظر ما ذكره فى قصة هاروت وماروت ، وانظر مارواه عن الضحاك وغيره عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥١) من سورة البقرة (وقتل داود جالوت) جـ ١ ص ٦٠٤ — ٦٠٩ .

(٣) انظر ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٧) من سورة البقرة (وإذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون) جـ ١ ص ٢٩٤ .

وعلى العموم فالكتاب فى جملته أحسن وأسلم من كثير من كتب التفسير بالمأثور وهو متداول بين أهل العلم .

٥ — المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز

لابن عطية

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسى المغربى الغرناطى [١] الحافظ القاضى . ولى القضاء بمدينة المرية بالأندلس . ولما تولى توخى الحق وعدل فى الحكم وأعز الخطة . ويقال : إنه قصد مرسية بالمغرب ليتولى قضاءها ، فصد عن دخولها ، وصرف منها إلى الرقة بالمغرب ، واعتدى عليه رحمه الله ، وكان مولده سنة إحدى وثمانين وأربعمائة . وتوفى بالرقة سنة ست وأربعين وخمسمائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك .

مكانته العلمية :

نشأ القاضى أبو محمد بن عطية فى بيت علم وفضل ، فأبوه أبو بكر غالب

---

(١) اقتصرنا هنا على ما ذكره أبو حيان فى البحر المحيط ج ١ ص ٩ ، وقد راجعت بعض الكتب فوجدت الاختلاف فى ذكر نسبه كثيراً ، ففى الديباج المذهب فى معرفة أعيان المذهب « عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرءوف ابن تمام بن عطية بن خالد بن عطية بن خالد بن خفاف بن أسلم ابن مكرم المحاربى يكنى أبو محمد من ولد زيد بن محارب بن حفصة بن قيس غيلان من مضر » اهـ .

وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة « عبد الحق بن غالب بن عبد الرحيم ، وقيل عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عبد الرءوف بن عبد الله بن تمام بن عطية الغرناطى ، صاحب التفسير ، الإمام أبو محمد اهـ .

وفى كشف الظنون عند التعريف بكتابه المحرر الوجيز « أبو محمد عبد الحق بن أبى بكر بن غالب بن عطية الغرناطى » ، وفيه أيضا « أبو محمد عبد الله بن عبد الحق » اهـ.

ابن عطية ، إمام حافظ ، وعالم جليل . رحل فى طلب العلم وتفقه على العلماء . وجده عطية أنسل كثيرا لهم قدر وفيهم فضل ، فلا عجب إذاً أن يشبه الفرع أصـــله .

كان أبو محمد بن عطية غاية فى الدهاء والذكاء وحسن الفهم وجلالة التصرف، شغوفا باقتناء الكتب ، وكان على مبلغ عظيم من العلم ، فكان فقيها جليلا ، عارفا بالأحكام والحديث والتفسير ، نحويا لغويا ، أديباً شاعراً ، مفيداً ضابطاً سنياً فاضلا . وصفه صاحب قلائد العقيان بالبراعة فى الأدب ، والنظم، والنثر وذكر شيئاً من شعره ، ووصفه أبو حيان فى مقدمة البحر المحيط بأنه « أجل من صنف فى علم التفسير ، وأفضل من تعرض فيه للتنقيح والتحرير[1] .

روى عن أبيه ، وأبى على الغسانى ، والصفدى . وروى عنه أبو بكر ابن أبى حمزة ، وأبو القاسم بن حبيش ، وأبو جعفر بن مضاء ، وغيرهم .

وقد خلف من المؤلفات كتاب التفسير ، المسمى بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز ، وهو الكتاب الذى ترجمنا له وسنتكلم عنــــه ، كما ألف برنامجاً ضمنه مروياته وأسماء شيوخه ، وقد حرر هذا الكتاب وأجاد فيه .

وعلى الجملة ، فالقاضى أبو محمد بن عطية عالم له شهرته العلميـة فى نواح مختلفة ، وقد عده ابن فرحون فى الديباج المذهب من أعيان مذهب المالكية، كما عده السيوطى فى بغية الوعاة من شيوخ النحو وأساطين النحاة . [2]

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

تفسير ابن عطية المسمى « بالمحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز »

---

(١) البحر المحيط جـ ١ ص ٩ .

(٢) أنظر ترجمة ابن عطية فى الديباج المذهب فى أعيان المذهب ص ١٧٤ ، وفى بغية الوعاة فى طبقات النحاة للسيوطى ص ٢٩٥ .

تفسير له قيمته العالية بين كتب التفسير وعند جميع المفسرين ، وذلك راجع إلى أن مؤلفه أضفى عليه من روحه العلمية الفياضة ما أكسبه دقة ، ورواجاً ، وقبولا . وقد لخصه مؤلفه - كما يقول ابن خلدون فى مقدمته - من كتب التفاسير كلها - أى تفاسير المنقول - وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة منها ، ووضع ذلك فى كتاب متداول بين أهل المغرب والأندلس ، حسن المنحى » اه(١) .

والحق أن ابن عطية أحسن فى هذا التفسير وأبدع ، حتى طار صيته كل مطار ، وصار أصدق شاهد لمؤلفه بإمامته فى العربية وغيرها من النواحى العلمية المختلفة ومع هذه الشهرة الواسعة لهذا الكتاب فإنه لا يزال مخطوطاً إلى اليوم ، وهو يقع فى عشر مجلدات كبار ، ويوجد منه فى دار الكتب المصريه أربعة أجزاء فقط : الجزء الثالث ، والخامس ، والثامن ، والعاشر . وقد رجعت إلى هذه الأجزاء وقرأت منها ما شاء الله أن أقرأ ، فوجدت المؤلف يذكر الآية ثم يفسرها بعبارة عذبة سهلة ، ويورد من التفسير المأثور ويختار منه فى غير إكثار ، وينقل عن ابن جرير الطبرى كثيراً ، ويناقش المنقول عنه أحيانا ، كما يناقش ماينقله عن غير ابن جرير ويرد عليه . وهو كثير الاستشهاد بالشعر العربى ، معنى بالشواهد الأدبية للعبارات ، كما أنه يحتكم إلى اللغة العربية عندما يوجه بعض المعانى ، وهو كثير الاهتمام بالصناعة النحوية ، كما أنه يتعرض كثيراً للقراءات وينزل عليها المعانى المختلفة .

ونجد أبا حيان فى مقدمة تفسيره يعقد مقارنة بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى فيقول « وكتاب ابن عطية أنقل ، وأجمع ، وأخلص ، وكتاب الزمخشرى ألخص ، وأغوص »(٢) .

ونجد ابن تيمية يعقد مقارنة بين الكتابين — كتاب ابن عطية وكتاب

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١ .
(٢) تفسير البحر المحيط ج ١ ص ١٠ .

الزمخشرى — فى فتاواه فيقول : « وتفسير ابن عطية خير من تفسير الزمخشرى . وأصح نقلا وبحثاً ، وأبعد عن البدع وإن اشتمل على بعضها ، بل هو خير منه بكثير ، بل لعله أرجح هذه التفاسير » اهـ[١] كما يعقد مثل هذه المقارنة فى مقدمته فى أصول التفسير فيقول : « وتفسير ابن عطية وأمثاله أتبع للسنة والجماعة ، وأسلم من البدعة من تفسير الزمخشرى ، ولو ذكر كلام السلف الموجود فى التفاسير المأثورة عنهم على وجهه لكان أحسن وأجمل ؛ فإنه كثيراً ما ينقل من تفسير محمد بن جرير الطبرى - وهو من أجل التفاسير وأعظمها قدراً - ثم إنه يدع ما نقله ابن جرير عن السلف لا يحكيه بحال ، ويذكر ما يزعم أنه قول المحققين ، وإنما يعنى بهم طائفة من أهل الكلام الذين قرروا أصولهم بطرق من جنس ما قررت به المعتزلة أصولهم ، وإن كان أقرب إلى السنة من المعتزلة » اهـ[٢] .

وأنا فى أثناء قراءتى فى هذا التفسير ، رأيت ابن عطية عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٦) من سورة يونس « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة » يقول ما نصه «قالت فرقة هى الجمهور: الحسنى : الجنة . والزيادة : النظر إلى الله عز وجل ، وروى فى ذلك حديث عن النبى صلى الله عليه وسلم ، رواه صهيب ، وروى هذا القول عن أبى بكر الصديق ، وحذيفة ، وأبى موسى الأشعرى . . » ثم يقول « وقالت فرقة : الحسنى هى الحسنة . والزيادة هى تضعيف الحسنات إلى سبعمائة ، فروتها حسب ماروى فى نص الحديث وتفسير قوله تعالى « يضاعف لمن يشاء »[٣] ، وهذا قول يعضده النظر ، ولولا عظم القائلين بالقول الأول لترجح هذا القول » .. ثم يأخذ فى ذكر طرق الترجيح للقول الثانى .

وهذا يدلنا على أنه يميل إلى ما تميل إليه المعتزلة ، أو على الأقل يقدر

---

(١) فتاوى ابن تيمية ج ٢ ص ١٩٤ .
(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٣ .
(٣) فى الآية (٢٦١) من سورة البقرة .

ماذهبت إليه المعتزلة فى مسألة الرؤية وإن كان يحترم مع ذلك رأى الجمهور . ولعل مثل هـذا التصرف من ابن عطية هو الذى جعل ابن تيمية يحكم عليه بحكمه السابق .

٦ - تفسير القرآن العظيم
لابن كثير

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو الإمام الجليل الحافظ، عماد الدين، أبو الفداء ، إسماعيل بن عمرو بن كثير بن ضوء بن كثير بن زرع البصرى ثم الدمشقى ، الفقيه الشافعى ، قدم دمشق وله سبع سنين مع أخيه بعد موت أبيه . سمع من ابن الشحنة ، والآمدى ، وابن عساكر ، وغيرهم ، كما لازم المزى وقرأ عليه تهذيب الكمال ، وصاهره على ابنته . وأخذ عن ابن تيمية ، وفتن بحبه، وامتحن بسببه . وذكر ابن قاضى شهبة فى طبقاته : أنه كانت له خصوصية بابن تيمية ، ومناضلة عنه ، واتباع له فى كثير من آرائه ، وكان يفتى برأيه فى مسألة الطلاق وامتحن بسبب ذلك وأوذى .

وقال الداودى فى طبقات المفسرين « كان قدوة العلماء والحفاظ ، وعمدة أهل المعانى والألفاظ ، ولى مشيخة أم الصالح بعد موت الذهبى - وبعد موت السبكى مشيخة الحديث الأشرفية مدة يسيرة ، ثم أخذت منه » اهـ[١] .

وكان مولده سنة ٧٠٠ هـ سبعمائة أو بعدها بقليل وتوفى فى شعبان سنه ٧٧٤هـ أربع وسبعين وسبعمائة من الهجرة ، ودفن بمقبرة الصوفية عند شيخه ابن تيمية، وكان قد كف بصره فى آخر عمره . رحمه الله رحمة واسعة .

---

(١) طبقات المفسرين للداودى ص ٣٢٧

مكانته العلمية :

كان ابن كثير على مبلغ عظيم من العلم ، وقد شهد له العلماء بسعة علمه ، وغزارة مادته ، خصوصا فى التفسير والحديث والتاريخ . قال عنه ابن حجر « اشتغل بالحديث مطالعة فى متونه ورجاله ، وجمع التفسير ، وشرع فى كتاب كبير فى الأحكام لم يكمل ، وجمع التاريخ الذى سماه البداية والنهاية ، وعمل طبقات الشافعية ، وشرع فى شرح البخارى .. وكان كثير الاستحضار حسن المفاكهة ، وصارت تصانيفه فى البلاد فى حياته ، وانتفع بها الناس بعد وفاته ، ولم يكن على طريق المحدثين فى تحصيل العوالى ، وتمييز العالى من النازل ، ونحو ذلك من فنونهم ، وإنما هو من محدثى الفقهاء ، وقد اختصر مع ذلك كتاب ابن الصلاح، وله فيه فوائد » . وقال الذهبى عنه فى المعجم المختص « الإمام المفتى ، المحدث البارع ، فقيه متفنن ، محدث متقن ، مفسر نقال ، وله تصانيف مفيدة » ، وذكره صاحب شذرات الذهب فقال : « كان كثير الاستحضار ، قليل النسيان ، جيد الفهم » ، وقال ابن حبيب فيه « زعيم أرباب التأويل ، سمع وجمع وصنف ، وأطرب الأسماع بالفتوى وشنف ، وحدث وأفاد ، وطارت أوراق فتاويه فى البلاد ، واشتهر بالضبط والتحرير ، وانتهت إليه رياسة العلم فى التاريخ والحديث والتفسير » ، وقال فيه أحد تلاميذه ابن حجى « أحفظ من أدركناه لمتون الحديث ، وأعرفهم بجرحها ورجالها ، وصحيحها وسقيمها ، وكان أقرانه وشيوخه يعترفون له بذلك ، وما أعرف أنى اجتمعت به على كثرة ترددى عليه إلا واستفدت منه » .

وعلى الجملة ، فعلم ابن كثير يتجلى بوضوح لمن يقرأ تفسيره أو تاريخه ، وهما من خير ما ألف ، وأجود ما أخرج للناس (١) .

---

(١) انظر ترجمة ابن كثير فى الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ج ١ ص ٣٧٣ — ٣٧٤ ، وفى شذرات الذهب ج ٦ ص ٢٣١ — ٢٣٢ وفى طبقات المفسرين للداودى ص ٣٢٧ .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

تفسير ابن كثير من أشهر ما دون في التفسير المأثور ، ويعتبر في هذه الناحية الكتاب الثاني بعد كتاب ابن جرير . اعتنى فيه مؤلفه بالرواية عن مفسري السلف ، ففسر فيـــه كلام الله تعالى بالأحاديث والآثار مسندة إلى أصحابها ، مع الكلام عما يحتاج إليه جرحاً وتعديلا . وقد طبع هذا التفسير مع معالم التفسير للبغوي ، ثم طبع مستقلا في أربعة أجزاء كبار (١) .

وقد قدم له مؤلفه بمقدمة طويلة هامة ، تعرض فيها لكثير من الأمور التي لها تعلق واتصال بالقرآن وتفسيره ، ولكن أغلب هذه المقدمة مأخوذ بنصه من كلام شيخه ابن تيمية الذي ذكره في مقدمته في أصول التفسير .

ولقد قرأت في هذا التفسير فوجدته يمتاز في طريقته بأنه يذكر الآية ، ثم يفسرها بعبارة سهلة موجزة ، وإن أمكن توضيح الآية بآية أخرى ذكرها وقارن بين الآيتين حتى يتبين المعنى ويظهر المراد ، وهو شديد العناية بهذا النوع من التفسير الذي يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، وهذا الكتاب أكثر ما عرف من كتب التفسير سرداً للآيات المتناسبة في المعنى الواحد .

ثم بعد أن يفرغ من هذا كله ، يشرع في سرد الأحاديث المرفوعة التي تتعلق بالآية ، ويبين ما يحتج به وما لا يحتج به منها ، ثم يردف هذا بأقوال الصحابة والتابعين ومن يليهم من علماء السلف .

ونجد ابن كثير يرجح بعض الأقوال على بعض ، ويضعف بعض الروايات ، ويصحح بعضاً آخر منها ، ويعدل بعض الرواة ويجرح بعضاً آخر (٢) . وهذا يرجع إلى ما كان عليه من المعرفة بفنون الحديث وأحوال الرجال .

---

(١) وقد قام المرحوم الشيخ أحمد شاكر بطبع هذا الكتاب أخيراً بعد أن جرده من الأسانيد .

(٢) انظر إليه وقد ضعف أبا معشر نجيح بن عبد الرحمن المدني الذي يروي =

وكثيراً ما نجـد ابن كثير ينقل من تفسير ابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وتفسير ابن عطية ، وغيرهم ممن تقدمه .

وممـا يمتاز به ابن كثير ، أنه ينبه إلى ما فى التفسير المـأثور من منكرات الإسرائيليات ، ويحذر منها على وجه الإجمال تارة ، وعلى وجه التعيين والبيان لبعض منكراتها تارة أخرى .

فمثلا عنـد تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. إلى آخر القصة » نراه يقص لنا قصة طويلة وغريبة عن طلبهم للبقرة المخصوصة ، وعن وجودهم لها عند رجل من بنى إسرائيل كان من أبر الناس بأبيه .. الخ ، ويروى كل ما قيل فى ذلك عن بعض علماء السلف .. ثم بعد أن يفرغ من هذا كله يقول ما نصه : « وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم ،فيها اختلاف ، والظاهر أنها مأخوذة من كتب بنى إسرائيل ، وهى ممـا يجوز نقلها ولـكن لا تصدق ولا تـكذب ، فلهذا لا يعتمد عليها إلا ما وافق الحق عندنا . والله أعلم »[1] .

ومثلا عنـد تفسيره لأول سورة « ق » نراه يعرض لمعنى هذا الحرف فى أول السورة (ق) ويقول « ... وقد روى عن بعض السلف أنهم قالوا « ق » جبل محيط بجميع الأرض يقال له جبل قاف ، وكأن هذا — والله أعلم — من خرافات بنى إسرائيل التى أخذها عنهم مما لا يصدق ولا يكذب ، وعندى أن هذا وأمثاله وأشباهه من اختلاق بعض زنادقتهم ، يلبسون به على الناس أمر

= عنه أبو حاتم ، عنـد قوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة (... وبينات من الهـدى والفرقان ...) جـ ١ ص ٢١٦ . وانظر إليه وقد ضعف يحي بن سعيد عند قوله تعالى فى الآية (٢٥١) من سورة البقرة (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض .. الآية) جـ ١ ص ٣٠٣ .

(١) جـ ١ ص ١٠٨ — ١١٠ .

دينهم ، كما افترى فى هذه الأمة مع جلالة قدر علمائها وحفاظها وأئمتها أحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وما بالعهد من قدم ، فكيف بأمة بنى إسرائيل مع طول المدى وقلة الحفاظ النقاد فيهم ، وشربهم الخمور وتحريف علمائهم الكلم عن مواضعه ، وتبديل كتب الله وآياته ؟ . وإنما أباح الشارع الرواية عنهم فى قوله « وحدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج ، فيما قد يجوزه العقل ، فأما فيما تحيله العقول ، ويحكم فيه بالبطلان ، ويغلب على الظنون كذبه ، فليس من هذا القبيل . والله أعلم »[1] اهـ .

كما نلاحظ على ابن كثير أنه يدخل فى المناقشات الفقهية ، ويذكر أقوال العلماء وأدلتهم عندما يشرح آية من آيات الأحكام ، وإن شئت أن ترى مثالا لذلك فارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآيه (١٨٥) من سورة البقرة « ... فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ... الآية » فإنه ذكر أربع مسائل تتعلق بهذه الآية ، وذكر أقوال العلماء فيها ، وأدلتهم على ما ذهبوا إليه[2] ، وارجع إليه عند تفسير قوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة أيضاً « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره ... الآية » فإنه قد تعرض لما يشترط فى نكاح الزوج المحلل ، وذكر أقوال العلماء وأدلتهم[3] .

وهكذا يدخل ابن كثير فى خلافات الفقهاء ، ويخوض فى مذاهبهم وأدلتهم كلما تكلم عن آية لها تعلق بالأحكام ، ولكنه مع هذا مقتصد مقل لا يسرف كما أسرف غيره من فقهاء المفسرين .

---

(١) جـ ٤ ص ٢٢١ .

(٢) جـ ١ ص ٢١٦ — ٢١٧ .

(٣) جـ ١ ص ٢٧٧ — ٢٧٩ ، وانظر إليه قبل ذلك مباشرة تجده قد أطال الكلام عن الخلع ومذاهب الفقهاء فيه .

وبالجملة ، فإن هذا التفسير من خير كتب التفسير بالمأثور ، وقد شهد له بعض العلماء ، فقال السيوطى فى ذيل تذكرة الحافظ، والزرقانى فى شرح المواهب: إنه لم يؤلف على نمطه مثله [1]

٧ — الجواهر الحسان فى تفسير القرآن

للثعالبى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف الجواهر الحسان ، هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبى . الجزائرى ، المغربى ، المالكى ، الإمام الحجة ، العالم العامل ، الزاهد الورع ، ولى الله الصالح العارف بالله . كان من أولياء الله المعرضين عن الدنيا وأهلها ، ومن خيار عباد الله الصالحين . قال ابن سلامة البكرى : كان شيخنا الثعالبى ، رجلا صالحا ، زاهدا عالما ، عارفا ، وليا من أكابر الأولياء وبالجملة فقد اتفق الناس على صلاحه وإمامته ، وأثنى عليه جماعة من شيوخه بالعلم والدين والصلاح ، كالإمام الأبى ، والولى العراقى ، وغيرهما . وقد عرف هو بنفسه فى مواضع من كتبه ، وبين أنه رحل من الجزائر لطلب العلم فى آخر القرن الثامن فدخل بجاية، ثم تونس ، ثم رحل إلى مصر، ثم رجع إلى تونس. ويقول هو : لم يكن بتونس يومئذ من يفوتنى فى علم الحديث ، إذا تكلمت أنصتوا وقبلوا ما أرويه ، تواضعا منهم وإنصافا ، واعترافا بالحق ، وكان بعض المغاربة يقول لى لما قدمت من المشرق : أنت آية فى علم الحديث . وذكر كل شيوخه الذين سمع منهم فى تلك البلاد .

وكان الثعالبى إماما علامة مصنفا ، خلف للناس كتبا كثيرة نافعة ، منها : الجواهر الحسان فى تفسير القرآن ، وهو التفسير الذى نحن بصدده ، وكتاب

---

(١) الرسالة المستطرفة للكتانى ص ١٤٦

الذهب الإبريز فى غرائب القرآن العزيز ، وتحفة الإخوان فى إعراب بعض آيات القرآن ، وكتاب جامع الأمهات فى أحكام العبادات ، وغير ذلك من الكتب النافعة فى نواح علمية مختلفة . وكانت وفاته سنة ٨٧٦ هـ ست وسبعين وثمانمائة من الهجرة أو فى أواخر التى قبلها ، عن نحو تسعين سنة ، ودفن بمدينة الجزائر فرحمه الله ورضى عنه[1] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

نستطيع أن نأخذ فكرة عامة واضحة عن هذا التفسير من كلام مؤلفه نفسه الذى ذكره فى مقدمته وخاتمته . يقول الثعالبى رحمه الله فى مقدمة تفسيره بعد حمد الله والصلاة والسلام على رسول الله « . . . فإنى قد جمعت لنفسى ولك فى هذا المختصر ما أرجو أن يقر الله به عينى وعينك فى الدارين ، فقد ضمنته بحمد الله المهم مما اشتمل عليه تفسير ابن عطية . وزدته فوائد جمة ، من غيره من كتب الأئمة ، وثقات أعلام هذه الأمة ، حسبما رأيته أو رويته عن الأثبات وذلك قريب من مائة تأليف . وما فيها تأليف إلا وهو لإمام مشهور بالدين ومعدود فى المحققين ، وكل من نقلت عنه من المفسرين شيئاً فمن تأليفه نقلت ، وعلى لفظ صاحبه عولت ، ولم أنقل شيئاً من ذلك بالمعنى خوف الوقوع فى الزلل ، وإنما هى عبارات وألفاظ لمن أعزوها إليه ، وما انفردت بنقله عن الطبرى ، فمن اختصار الشيخ أبى عبد الله محمد بن عبد الله بن أحمد اللخمى النحوى لتفسير الطبرى نقلت ، لأنه اعتنى بتهذيبه » .

ثم أبان المؤلف عن رموز الكتاب فقال « وكل ما فى آخره انتهى فليس هو من كلام ابن عطية ، بل ذلك مما انفردت بنقله من غيره ، ومن أشكل عليه لفظ فى هذا المختصر فليراجع الأمهات المنقول عنها فليصلحه منها ، ولا

---

(١) انظر ترجمته فى الضوء اللامع ج ٤ ص ١٥٢ ، وفى نيل الابتهاج بتطريز الديباج ص ١٧٣ – ١٧٥ .

يصلحه برأيه وبديهة عقله فيقع فى الزلل من حيث لا يشعر . وجعلت علامة التاء لنفسى بدلا من قلت ، ومن شاء كتبها قلت . وأما العين فلابن عطية . وما نقلته من الإعراب عن غير ابن عطية فمن الصفاقصى مختصر أبى حيان غالبا . وجعلت الصاد علامة عليه ، وربما نقلت عن غيره معزوا لمن عنه نقلت . وكل ما نقلته عن أبى حيان - وإنما نقلى له بواسطة الصفاقصى - أقول : قال الصفاقصى . وجعلت علامة ما زدته على أبى حيان (م) وما يتفق لى إن أمكن فعلامته (قلت) .

« وبالجملة فحيث أطلق ، فالكلام لأبى حيان . . . ثم قال : وما نقلته من الأحاديث الصحاح والحسان عن غير البخارى ومسلم وأبى داود والترمذى فى باب الأذكار والدعوات ، فأكثره من النووى وسلاح المؤمن . وفى الترغيب والترهيب وأصول الآخرة ، فمعظمه من التذكرة للقرطبى ، والعاقبة لعبد الحق . وربما زدت زيادة كثيرة من مصابيح البغوى وغيره ، كما ستقف إن شاء الله تعالى على كل ذلك معزواً لمحاله . وبالجملة فكتابى هذا محشو بنفائس الحكم ، وجواهر السنن الصحيحة والحسان ، المأثورة عن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم . وسميته بالجواهر الحسان فى تفسير القرآن . . . » ثم نقل كثيراً مما جاء فى مقدمة تفسير ابن عطية ، فذكر بابا فى فضل القرآن ، وبابا فى فضل تفسير القرآن وإعرابه ، وفصلا فيما قيل فى الكلام فيه ، والجرأة عليه ، ومراتب المفسرين ، وفصلا فى اختلاف الناس فى معنى قوله صلى الله عليه وسلم : أنزل القرآن على سبعة أحرف . وفصلا فى ذكر الألفاظ التى فى القرآن مما للغات العجم بها تعلق ، وبابا فى تفسير أسماء القرآن وذكر السورة والآية . . . ثم شرع فى التفسير بعد ذلك كله ، وفى كل ما تقدم يعتمد على ابن عطية وينقل عنه[1] .

---

(١) جـ١ من أول الجزء إلى ص٥ .

وفى خاتمة التفسير يقول « وقد أودعته بحمد الله جزيلا من الدرر ، وقد استوعبت بحمد الله مهمات ابن عطية . وأسقطت كثيراً من التكرار وما كان من السواذ فى غاية الوهى ، وزدت من غيره جواهر ونفائس لا يستغنى عنها ، مميزة معزوة لمحالها ، منقولة بألفاظها ، وتوخيت فى جميع ذلك الصدق والصواب[1] » .

هذا هو وصف المؤلف لكتابه وبيانه له ، ومنه يتضح جليا أن الكتاب عبارة عن مختصر لتفسير ابن عطية ، مع زيادة نقول نقلها الثعالبى عمن سبقه من المفسرين ، ومن أجل هذا نستطيع أن نقول : إن الثعالبى فى تفسيره هذا ليس له بعد الجمع والترتيب إلا عمل قليل ، وأثر فكرى ضئيل .

والكتاب مطبوع فى الجزائر فى أربعة أجزاء ، وتوجد منه نسخة بدار الكتب المصرية ، وأخرى بالمكتبة الأزهرية ، وفى آخر الكتاب معجم مختصر فى شرح ما وقع فيه من الألفاظ الغريبة ، ألحقه به مؤلفه ، وزاد فيه كلمات أخرى وردت فى غيره يحتاج إلى معرفتها ، وحلها مما جاء فى الموطأ وصحيحى البخارى ومسلم وغيرهما من الكتب الستة ، وبعد هذا ذكر الثعالبى مرائيه التى رآى فيها النبى صلى الله عليه وسلم .

وقد قرأت فى هذا التفسير فلاحظت أنه التزم ما ذكره فى مقدمته ، فنقل عمن ذكرهم ، ورمز إليهم بالحروف المذكورة ، ووجدته يتعرض للقراءات أحيانا ، ويدخل فى الصناعة النحوية ناقلا عن ذكره ومن عند نفسه ، ورأيته يستشهد فى بعض المواضع بالشعر العربى على المعنى الذى يذكره ، وهو إذ يذكر الروايات المأثورة فى التفسير يذكرها بدون أن يذكر سنده إلى من يروى عنه ، وقد وجدت الثعالبى يذكر بعض الروايات الإسرائيلية ، ولكنه يتعقب

---

(١) ج ٤ ص ٤٥٤ .

ما يذكره بما يفيد عدم صحته ، أو على الأقل بما يفيد عدم القطع بصحته ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة النمل « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » نجده يذكر بعض الأخبار الإسرائيلية ، ثم يقول بعد الفراغ منها « والله أعلم بما صح من ذلك[١] » ، ومثلا عند ما تكلم عن (بلقيس) فى نفس السورة السابقة نجده يقول « وأكثر بعض الناس فى قصصها بما رأيت اختصاره لعدم صحته ، وإنما اللازم من الآية ، أنها امرأة ملكة على مدائن اليمن ، ذات ملك عظيم ، وكانت كافرة من قوم كفار[٢] » .

وجملة القول ، فإن الكتاب مفيد ، جامع لخلاصات كتب مفيدة ، وليس فيه ما فى غيره من الحشو المخل ، والاستطراد الممل .

٨ — الدر المنثور ، فى التفسير المأثور

للسيوطى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو الحافظ جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن بن أبى بكر بن محمد ، السيوطى الشافعى ، المسند المحقق ، صاحب المؤلفات الفائقة النافعة ، ولد فى رجب سنة ٨٤٩ هـ تسع وأربعين وثمانمائة ، وتوفى والده وله من العمر خمس سنوات وسبعة أشهر ، وأسند وصايته إلى جماعة ، منهم الكمال بن الهمام ، فقرره فى وظيفة الشيخونية ولحظه بنظره ، وختم القرآن وله من العمر ثمان سنين ، وحفظ كثيرا من المتون ، وأخذ عن شيوخ كثيرين ، عدهم تلميذه الداودى فبلغ بهم واحدا وخمسين ، كما عد مؤلفاته فبلغ بها مايزيد

---

(١) جـ ٣ ص ١٥٩

(٢) المرجع السابق .

على الخمسمائة مؤلف ، وشهرة مؤلفاته تغنى عن ذكرها ، فقد اشتهرت شرقا وغربا ورزقت قبول الناس . وكان السيوطى — رحمه الله — آية فى سرعة التأليف حتى قال تلميذه الداودى : عاينت الشيخ وقد كتب فى يوم واحد ثلاثة كراريس تأليفا وتحريرا .

وكان أعلم أهل زمانه بعلم الحديث وفنونه ، رجالا ، وغريبا ، ومتنا وسندا ، واستنباطا للأحكام . ولقد أخبر عن نفسه أنه يحفظ مائتى ألف حديث ، قال : لو وجدت أكثر لحفظت . ولما بلغ الأربعين سنة تجرد للعبادة ، وانقطع إلى الله تعالى ، وأعرض عن الدنيا وأهلها ، وترك الإفتاء والتدريس ، واعتذر عن ذلك فى مؤلف سماه بالتنفيس ، وأقام فى روضة المقياس ولم يتحول عنها إلى أن مات . وله مناقب وكرامات كثيرة . وله شعر كثير جيد ، أغلبه فى الفوائد العلمية ، والأحكام الشرعية . وتوفى فى سحر ليلة الجمعة تاسع عشر جمادى الأولى سنة ٩١١ هـ إحدى عشرة وتسعمائة فى منزله بروضة المقياس ، فرضى الله عنه وأرضاه[١] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

عرف الجلال السيوطى نفسه هذا التفسير ، وبين لنا الحامل له على تأليفه ، وذلك بمجموع ما ذكره فى آخر كتاب الإتقان له ، وما ذكره فى مقدمة الدر المنثور نفسه ، فقال فى آخر الإتقان جـ ٢ ص ١٨٣ « وقد جمعت كتابا مسندا فيه تفاسير النبى صلى الله عليه وسلم ، فيه بضعة عشر ألف حديث ما بين مرفوع وموقوف ، وقد تم ولله الحمد فى أربع مجلدات ، وسميته (ترجمان القرآن) اهـ .

وقال فى مقدمة الدر المنثور جـ ١ ص ٢ « ... وبعد ، فلما ألفت كتاب

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ ٨ ص ٥١ — ٥٥ .

ترجمان القرآن — وهو التفسير المسند عن رسول الله صلى الله عليه وسلم — وتم بحمد الله فى مجلدات ، فكان ما أوردته فيه من الآثار بأسانيد الكتب المخرجة منها واردات [١] ، رأيت قصور أكثر الهمم عن تحصيله ، ورغبتهم فى الاقتصار على متون الأحاديث دون الإسناد وتطويله ، فلخصت منه هذا المختصر ، مقتصرا فيه على متن الأثر ، مصدراً بالعزو والتخريج إلى كل كتاب معتبر ، وسميته بالدر المنثور ، فى التفسير المأثور ... » اه .

ومن هاتين العبارتين يتبين لنا أن السيوطى اختصر كتابه الدر المنثور من كتابه ترجمان القرآن ، وحذف الأسانيد مخافة الملل ، مع عزوه كل رواية إلى الكتاب الذى أخذها منه .

ويقول السيوطى فى آخر الإتقان ج ٢ ص ١٩٠ « وقد شرعت فى تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المنقولة ، والأقوال المعقولة ، والاستنباطات والإشارات ، والأعاريب واللغات ، ونكت البلاغة ومحاسن البدائع وغير ذلك ، بحيث لايحتاج معه إلى غيره أصلا ، وسميته بمجمع البحرين ومطلع البدرين ، وهو الذى جعلت هذا الكتاب — يعنى الإتقان — مقدمة له » اه .

ومن هذه العبارة يتبين لنا أن كتاب (مجمع البحرين ، ومطلع البدرين) يشبه فى منهجه وطريقته — إلى حد كبير — تفسير ابن جرير الطبرى ، ولكن لاندرى إذا كان السيوطى قد أتم هذا التفسير أم لا ، ويظهر لنا أنه لاصلة بينه وبين كتاب الدر المنثور ، وذلك لأنى استعرضت كتاب الدر المنثور فوجدته لايتعرض فيه مطلقاً لما ذكره من منهجه فى مجمع البحرين ومطلع البدرين ، فلا استنباط ، ولا إعراب ، ولا نكات بلاغية ، ولا محسنات بديعية ، ولا شىء مما ذكر أنه سيعرض له فى مجمع البحرين ومطلع البدرين . وكل ما فيه

---

(١) أى طرقا كثيرة .

هو سرد الروايات عن السلف فى التفسير بدون أن يعقب عليها ، فلا يعدل ولا يجرح ، ولا يضعف ولا يصحح ، فهو كتاب جامع فقط لما يروى عن السلف فى التفسير ، أخذه السيوطى من البخارى ، ومسلم ، والنسائى والترمذى وأحمد ، وأبى داود ، وابن جرير ، وابن أبى حاتم ، وعبد بن حميد ، وابن أبى الدنيا ، وغيرهم ممن تقدمه ودون التفسير .

والسيوطى رجل مغرم بالجمع وكثرة الرواية ، وهو مع جلالة قدره ، ومعرفته بالحديث وعلله ، لم يتحر الصحة فيما جمع فى هذا التفسير ، وإنما خلط فيه بين الصحيح والعليل ؛ فالكتاب يحتاج إلى تصفية حتى يتميز لنا غثه من سمينه ، وهو مطبوع فى ست مجلدات ، ومتداول بين أهل العلم .

ولا يفوتنا هنا أن ننبه إلى أن كتاب الدر المنثور ، هو الكتاب الوحيد الذى اقتصر على التفسير المأثور من بين هذه الكتب التى تكلمنا عنها ، فلم يخلط بالروايات التى نقلها شيئاً من عمل الرأى كما فعل غيره .

وإنما اعتبرنا كل هذه الكتب من كتب التفسير بالمأثور ؛ نظراً لما امتازت به عما عداها من الإكثار فى النقل ، والاعتماد على الرواية ، وما كان وراء ذلك من محاولات تفسيرية عقلية ، أو استطرادات إلى نواح تتصل بالتفسير ، فذلك أمر يكاد يكون ثانويا بالنسبة لما جاء فيها من روايات عن السلف فى التفسير .

وإلى هنا نمسك عن الكلام عن بقية الكتب المؤلفة فى التفسير المأثور لما قدمناه من عدم وصول جميعها إلينا ، ومن مخافة التطويل ... ولعل القارىء الكريم يتفق معى على أن هذه الكتب التى تقدمت ، يغنى الكلام عنها عن الكلام عما عداها من الكتب التى نهجت هذا المنهج وسلكت هذا الطريق .

الفصل الثاني

التفسير بالرأى وما يتعلق به من مباحث

معنى التفسير بالرأى ـ موقف العلماء من التفسير بالرأى ـ العلوم التى يحتاج إليها المفسر ـ مصادر التفسير ـ الأمور التى يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره ـ أنواع علوم القرآن ـ المنهج الذى يجب على المفسر أن ينهجه فى تفسيره ـ منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى ـ التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى .

معنى التفسير بالرأى :

يطلق الرأى على الاعتقاد ، وعلى الاجتهاد ، وعلى القياس ، ومنه أصحاب الرأى ، أى أصحاب القياس .

والمراد بالرأى هنا الاجتهاد ، وعليه فالتفسير بالرأى ، عبارة عن تفسير القرآن بالاجتهاد بعد معرفة المفسر لكلام العرب ومناحيهم فى القول ، ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها ، واستعانته فى ذلك بالشعر الجاهلى ووقوفه على أسباب النزول ، ومعرفته بالناسخ والمنسوخ من آيات القرآن ، وغير ذلك من الأدوات التى يحتاج إليها المفسر ، وسنذكرها قريباً إن شاء الله تعالى .

موقف العلماء من التفسير بالرأى

اختلف العلماء من قديم الزمان فى جواز تفسير القرآن بالرأى ، ووقف المفسرون بإزاء هذا الموضوع موقفين متعارضين :

فقوم تشددوا فى ذلك فلم يجرءوا على تفسير شىء من القرآن ، ولم يبيحوه لغيرهم ، وقالوا : لا يجوز لأحد تفسير شىء من القرآن وإن كان عالماً أديباً متسعاً فى معرفة الأدلة ، والفقه ، والنحو ، والأخبار ، والآثار ، وإنما له أن ينتهى إلى ما روى النبى صلى الله عليه وسلم ، وعن الذين شهدوا التنزيل من الصحابة رضى الله عنهم ، أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين[1] .

وقوم كان موقفهم على العكس من ذلك ، فلم يروا بأساً من أن يفسروا القرآن باجتهادهم ، ورأوا أن من كان ذا أدب وسيع فوسع له أن يفسر القرآن برأيه واجتهاده .

والفريقان على طرفى نقيض فيما يبدو ، وكل يعزز رأيه ويقويه بالأدلة والبراهين .

أما الفريق الأول ـ فريق المانعين ـ فقد استدلوا بما يأتى :

أولا : قالوا : إن التفسير بالرأى قول على الله بغير علم ، والقول على الله بغير علم منهى عنه ، فالتفسير بالرأى منهى عنه ، دليل الصغرى : أن المفسر بالرأى ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى ، ولا يمكنه أن يقطع بما يقول ، وغاية الأمر أنه يقول بالظن ، والقول بالظن قول على الله بغير علم . ودليل الكبرى : قوله تعالى : « وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » وهو معطوف على ما قبله من المحرمات فى قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأعراف : « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن . . . الآية » ، وقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة الإسراء : « ولا تقف ما ليس لك به علم » .

---

(١) مقدمة التفسير للراغب الأصفهانى ، الملحقة بآخر تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضى عبد الجبار ص ٤٢٢ ـ ٤٢٣ .

وقد رد المجيزون هذا الدليل فقالوا : نمنع الصغرى . لأن الظن نوع من العلم ، إذ هو إدراك الطرف الراجح . وعلى فرض تسليم الصغرى فإنا نمنع الكبرى ، لأن الظن منهى عنه إذا أمكن الوصول إلى العلم اليقينى القطعى ، بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع ، أو دليل عقلى موصل لذلك . أما إذا لم يوجد شيء من ذلك ، فالظن كاف هنا ، لاستناده إلى دليل قطعى من الله سبحانه وتعالى على صحة العمل به إذ ذاك . كقوله تعالى : «لا يكلف الله نفساً إلا وسعها»[1] وقوله عليه الصلاة والسلام : « جعل الله للمصيب أجرين وللمخطيء واحداً » ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لمعاذ حين بعثه إلى اليمن فبم تحكم ؟ قال : بكتاب الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال : بسنة رسول الله ، قال : فإن لم تجد ؟ قال اجتهد رأيي ، فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى صدره وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » .

ثانياً : استدلوا بقوله تعالى : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[2] » فقد أضاف البيان إليه ، فعلم أنه ليس لغيره شيء من البيان لمعانى القرآن .

وأجاب المجيزون عن هذا الدليل فقالوا : نعم إن النبى صلى الله عليه وسلم مأمور بالبيان ، ولكنه مات ولم يبين كل شيء فما ورد بيانه عنه صلى الله عليه وسلم ففيه الكفاية عن فكرة من بعده ، وما لم يرد عنه ففيه حينئذ فكرة أهل العلم بعده ، فيستدلون بما ورد بيانه على ما لم يرد ، والله تعالى يقول فى آخر الآية « ولعلهم يتفكرون » .

ثالثا : استدلوا بما ورد فى السنة من تحريم القول فى القرآن بالرأى فمن ذلك :

١ ـ مارواه الترمذى عن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبى صلى الله

---

(١) فى الآية ٢٨٦ من سورة البقرة .
(٢) فى الآية ٤٤ من سورة النحل .

عليه وسلم أنه قال : « اتقوا الحديث عنى إلا ما علمتم ، فمن كذب على متعمداً فليتبوأ مقعده من النار ، ومن قال فى القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » . - قال أبو عيسى : هذا حديث حسن[١] :

٢ - ما رواه الترمذى وأبو داود عن جندب أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قال فى القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ »[٢] .

وأجاب المجيزون عن هذين الحديثين بأجوبة :

منها : أن النهى محمول على من قال برأيه فى نحو مشكل القرآن ، ومتشابهه ، من كل ما لا يعلم إلا عن طريق النقل عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة عليهم رضوان الله .

ومنها : أنه أراد بالرأى الرأى الذى يغلب على صاحبه من غير دليل يقوم عليه ، أما الذى يشده البرهان ، ويشهد له الدليل ، فالقول به جائز ، فالنهى على هذا متناول لمن كان يعرف الحق ولكنه له فى الشىء رأى وميل إليه من طبعه وهواه ، فيتأول القرآن على وفق هواه ، ليحتج به على تصحيح رأيه الذى يميل إليه ، ولو لم يكن له ذلك الرأى والهوى لما لاح له هذا المعنى الذى حمل القرآن عليه . ومتناول لمن كان جاهلا بالحق ولكنه يحمل الآية التى تحتمل أكثر من وجه على ما يوافق رأيه وهواه ، ويرجح هذا الرأى بما يتناسب مع ميوله ، ولولا هذا لما ترجح عنده ذلك الوجه . ومتناول أيضاً لمن كان له غرض صحيح ولكنه يستدل لغرضه هذا بدليل قرآنى يعلم أنه ليس مقصوداً به ما أراد ، مثل الداعى إلى مجاهدة النفس الذى يستدل على

---

(١) سنن الترمذى (فى أبواب التفسير) ج ٢ ص ١٥٧ .

(٢) المرجع السابق

ذلك بقوله تعالى ، اذهب إلى فرعون إنه طغى[1] ، ويريد من فرعون النفس ، ولا شك أن مثل هذا قائل فى القرآن برأيه .

ومنها : أن النهى محمول على من يقول فى القرآن بظاهر العربية ، من غير أن يرجع إلى أخبار الصحابة الذين شاهدوا تنزيله ، وأدوا إلينا من السنن ما يكون بياناً لكتاب الله تعالى ، وبدون أن يرجع إلى السماع والنقل فيما يتعلق بغريب القرآن ، وما فيه من المبهمات . والحذف ، والاختصار ، والإضمار ، والتقديم ، والتأخير ، ومراعاة مقتضى الحال ، ومعرفة الناسخ والمنسوخ ، وما إلى ذلك من كل ما يجب معرفته لمن يتكلم فى التفسير ، فإن النظر إلى ظاهر العربية وحده لا يكفى ، بل لا بد من ذلك أولا ، ثم بعد ذلك يكون التوسع فى الفهم والاستنباط .

فمثلا قوله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها »[2] معناه : وآتينا ثمود الناقة معجزة واضحة ، وآية بينة على صدق رسالته ، فظلموا بعقرها أنفسهم ، ولكن الواقف عند ظاهر العربية وحدها بدون أن يستظهر بشىء مما تقدم ، يظن أن مبصرة من الإبصار بالعين ، وهو حال من الناقة ، وصف لها فى المعنى ، ولا يدرى بعد ذلك بم ظلموا ، ولا من ظلموا .

كل من هذه الأجوبة الثلاثة . يمكن أن يجاب به على من يستند فى قوله بحرمة التفسير بالرأى على هذين الحديثين المتقدمين ، وهى أجوبة سليمة دامغة ، كافية لإسقاط حجتهما والاعتماد عليهما .

هذا ويمكن الإجابة عن حديث جندب — زياده عما تقدم — بأن هذا الحديث لم تثبت صحته ، لأن من رواته سهيل بن أبى حزم ، وهو متكلم فيه ، قال فيه أبو حاتم : ليس بالقوى ، وكذا قال البخارى والنسائى ، وضعفه ابن

---

(١) فى الآية ٥٩ من سورة الإسراء . (٢) الآية ٢٤ من سورة طه

معين ، وقال فيه الإمام أحمد : روى أحاديث منكرة[1] ، والترمذى نفسه يقول بعد روايته لهذا الحديث « وقد تكلم بعض أهل الحديث فى سهيل ابن أبى حزم » .

رابعاً : ما ورد عن السلف من الصحابة والتابعين ، من الآثار التى تدل على أنهم كانوا يعظمون تفسير القرآن ويتحرجون من القول فيه بآرائهم .

فمن ذلك : ما جاء عن أبى مليكة أنه قال : سئل أبو بكر الصديق رضى الله عنه فى تفسير حرف من القرآن فقال : « أى سماء تظلنى ، وأى أرض تقلنى ، وأين أذهب ، وكيف أصنع ، إذا قلت فى حرف من كتاب الله بغير ما أراد تبارك وتعالى ؟ » .

وما ورد عن سعيد بن المسيب : أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم ، وإذا سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً .

وما روى عن الشعبى أنه قال : « ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت : القرآن ، والروح ، والرأى » .

وهذا ابن مجاهد يقول « قال رجل لأبى : أنت الذى تفسر القرآن برأيك؟ فبكى أبى ، ثم قال إنى إذاً لجرىء ، لقد حملت التفسير عن بضعة عشر رجلا من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم » .

وهذا هو الأصمعى إمام اللغة ، كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز فى تفسير الكتاب ، بل والسنة ، فإذا سئل عن معنى شىء من ذلك يقول : « العرب تقول : معنى هذا كذا ، ولا أعلم المراد منه فى الكتاب والسنة أى شىء هو » .

---

(١) انظر ميزان الاعتدال جـ ١ ص ٤٣٢ ، وتهذيب التهذيب جـ ٤ ص ٢٦١ .

. . . وغير هذا كثير من الآثار الدالة على المنع من القول فى التفسير بالرأى .

وقد أجاب المجيزون عن هذه الآثار : بأن إحجام من أحجم من السلف عن التفسير بالرأى ، إنما كان منهم ورعاً واحتياطاً لأنفسهم ، مخافة ألا يبلغوا ما كلفوا به من إصابة الحق فى القول ، وكانوا يرون أن التفسير شهادة على الله بأنه عنى باللفظ كذا وكذا ، فأمسكوا عنه خشية أن لايوافقوا مراد الله عز وجل ، وكان منهم من يخشى أن يفسر القرآن برأيه فيجعل فى التفسير إماماً يبنى على مذهبه ويقتفى طريقه ، فربما جاء أحد المتأخرين وفسر القرآن برأيه فوقع فى الخطأ ، ويقول : إمامى فى التفسير بالرأى فلان من السلف .

ويمكن أن يقال أيضاً : إن إحجامهم كان مقيداً بمالم يعرفوا وجه الصواب فيه ، أما إذا عرفوا وجه الصواب فكانوا لا يتحرجون من إبداء مايظهر لهم ولو بطريق الظن ، فهذا أبو بكر رضى الله عنه يقول ـ وقد سئل عن الكلالة ـ « أقول فيها برأيى فإن كان صوابا فمن الله ، وإن كان غير ذلك فمنى ومن الشيطان : الكلالة كذا وكذا » .

ويمكن أن يقال أيضا : إنما أحجم من أحجم ،لأنه كان لا يتعين للإجابة، لوجود من يقوم عنه فى تفسير القرآن وإجابة السائل ، وإلا لكانوا كاتمين للعلم ، وقد أمرهم الله ببيانه للناس .

وهناك أجوبة أخرى غير ما تقدم . والكل يوضح لنا سر إحجام من أحجم من السلف عن القول فى التفسير برأيهم ، ويبين أنه لم يكن عن اعتقاد منهم بعدم جواز التفسير بالرأى .

وأما الفريق الثانى ــ فريق المجوزين ــ فقد استدلوا على ما ذهبوا إليه بما يأتى :

أولا : بنصوص كثيرة وردت فى كتاب الله تعالى : منها قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »[١] ، وقوله « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »[٢] ، وقوله « ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم »[٣] .
ووجه الدلالة فى هذه الآيات : أنه تعالى حث فى الآيتين الأوليين على تدبر القرآن والاعتبار بآياته ، والاتعاظ بعظاته ، كما دلت الآية الأخيرة على أن فى القرآن ما يستنبطه أولوا الألباب باجتهادهم ، ويصلون إليه بإعمال عقولهم وإذا كان الله قد حثنا على التدبر ،وتعبدنا بالنظر فى القرآن واستنباط الأحكام منه ، فهل يعقل أن يكون تأويل مالم يستأثر الله بعلمه محظوراً على العلماء ، مع أنه طريق العلم ، وسبيل المعرفة والعظة ؟ لو كان ذلك لكنا ملزمين بالاتعاظ والاعتبار بما لا نفهم ، ولما توصلنا لشىء من الاستنباط ، ولما فهم الكثير من كتاب الله تعالى .

ثانياً : قالوا : لو كان التفسير بالرأى غير جائز لما كان الاجتهاد جائزاً ، ولتعطل كثير من الأحكام ، وهذا باطل بين البطلان ، وذلك لأن باب الاجتهاد لا يزال مفتوحاً إلى اليوم أمام أربابه ، والمجتهد فى حكم الشرع مأجور أصاب أو أخطأ ، والنبى صلى الله عليه وسلم لم يفسر كل آيات القرآن ، ولم يستخرج لنا جميع ما فيه من أحكام

ثالثاً : استدلوا بما ثبت من أن الصحابة — رضوان الله عليهم — قرءوا القرآن واختلفوا فى تفسيره على وجوه ، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه فى تفسير القرآن من النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ أنه لم يبين لهم كل

---

(١) الآية (٢٤) من سورة محمد صلى الله عليه وسلم .
(٢) الآية (٢٩) من سورة ص .
(٣) فى الآية (٨٣) من سورة النساء .

معانى القرآن ، بل بين لهم بعض معانيه ، وبعضه الآخر توصلوا إلى معرفته بعقولهم واجتهادهم ، ولو كان القول بالرأى فى القرآن محظورا لكانت الصحابة قد خالفت ووقعت فيما حرم الله ، ونحن نعيذ الصحابة من المخالفة والجرأة على محارم الله .

رابعاً : قالوا : إن النبى صلى الله عليه وسلم دعا لابن عباس رضى الله عنهما ، فقال فى دعائه له « اللهم فقهه فى الدين ، وعلمه التأويل » فلو كان التأويل مقصوراً على السماع والنقل كالتنزيل ، لما كان هناك فائدة لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء ، فدل ذلك على أن التأويل الذى دعا به الرسول صلى الله عليه وسلم لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسماع ، ذلك هو التفسير بالرأى والاجتهاد ، وهذا بين لا إشكال فيه .

هذه هى أدلة الفريقين ، وكل يحاول بما ذكر من الأدلة أن يثبت قوله ويركز مدعاه . والغزالى - فى الإحياء ، بعد الاحتجاج والاستدلال على بطلان القول بأن لا يتكلم أحد فى القرآن إلا بما يسمعه - يقول : « فبطل أن يشترط السماع فى التأويل ، وجاز لكل واحد أن يستنبط من القرآن بقدر فهمه وحد عقله »[1] كما قال قبل ذلك بقليل « إن فى فهم معانى القرآن مجالا رحباً ، ومتسعاً بالغاً ، وإن المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الإدراك فيه »[2] .

والراغب الأصفهانى - بعد أن ذكر المذهبين وأدلتهما فى مقدمة التفسير - يقول « وذكر بعض المحققين : أن المذهبين هما الغلو والتقصير ، فمن اقتصر على المنقول إليه فقد ترك كثيراً مما يحتاج إليه ، ومن أجاز لكل أحد الخوض فيه فقد عرضه للتخليط ، ولم يعتبر حقيقة قوله تعالى « . . . ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الألباب » اهـ[3] .

---

(١) الإحياء ج ٣ ص ١٢٧ .

(٢) الإحياء ج ٣ ص ١٣٦ .

(٣) مقدمه التفسير للراغب ص ٤٢٣ .

حقيقة الخلاف:

ونحن مع هذا البعض الذى نقل عنه الراغب هذا التحقيق إن وقف الفريق الأول عند المنقول فلم يتجاوزه ، وأجاز الفريق الثانى لكل أحد الخوض فى التفسير والكلام فيه ؛ إذ أن الجمود على المنقول تقصير وتفريط بلا نزاع ، والخوض فى التفسير لكل إنسان غلو وإفراط بلا جدال .

ولكن لو رجعنا إلى هؤلاء المتشددين فى التفسير وعرفنا سر تشددهم فيه ، ثم رجعنا إلى هؤلاء المجوزين للتفسير بالرأى ووقفنا على ماشرطوه من شروط لابد منها لمن يتكلم فى التفسير برأيه ، وحللنا أدلة الفريقين تحليلا دقيقاً ، لظهر لنا أن الخلاف لفظى لا حقيقى ، ولبيان ذلك نقول :

الرأى قسمان : قسم جار على موافقة كلام العرب ومناحيهم فى القول ، مع موافقة الكتاب والسنة ، ومراعاة سائر شروط التفسير ، وهذا القسم جائز لا شك فيه ، وعليه يحمل كلام المجيزين للتفسير بالرأى .

وقسم غير جار على قوانين العربية ، ولا موافق للأدلة الشرعية ، ولا مستوف لشرائط التفسير ، وهذا هو مورد النهى ومحط الذم ، وهو الذى يرمى إليه كلام ابن مسعود إذ يقول: « ستجدون أقواما يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم ، فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع،وأياكم والتنطع » وكلام عمر إذ يقول « إنما أخاف عليكم رجلين ، رجل يتأول القرآن على غير تأويله ، ورجل ينافس الملك على أخيه » وكلامه إذ يقول « ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهاه إيمانه ، ولا من فاسق بين فسقه ، ولكنى أخاف عليها رجلا قد قرأ القرآن حتى أذلقه بلسانه ، ثم تأوله على غير تأويله » . . . . فكل هذا ونحوه ، وارد فى حق من لا يراعى فى تفسير القرآن قوانين اللغة ولا أدلة الشريعة ، جاعلا هواه رائده ، ومذهبه قائده ، وهذا هو الذى يحمل عليه كلام المانعين للتفسير بالرأى، وقد قال ابن تيمية ـ بعد أن ساق الآثار عمن

تحرج من السلف من القول فى التفسير - فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف ، محمولة على تحرجهم عن الكلام فى التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روى عن هؤلاء وغيرهم أقوال فى التفسير ، ولا منافاة ، لأنهم تكلموا فيما علموه ، وسكتوا عما جهلوه ، هذا هو الواجب على كل أحد ، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به ، فكذلك يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه ، لقوله تعالى « لتبيننه للناس ولا تكتمونه [1] » ولما جاء فى الحديث المروى من طرق (من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار [2]) اهـ .

وإذ قد علمنا أن التفسير بالرأى قسمان : قسم مذموم غير جائز ، وقسم ممدوح جائز ، وتبين لنا أن القسم الجائز محدود بحدود ، ومقيد بقيود ، فلا بد لنا من أن نعرض هنا لما ذكروه من العلوم التى يحتاج إليها المفسر ، وماذكروه من الأدوات التى إذا توافرت لديه وتكاملت فيه ، خرج عن كونه مفسراً للقرآن بمجرد الرأى ، ومحض الهوى . [3]

العلوم التى يحتاج إليها المفسر

اشترط العلماء فى المفسر الذى يريد أن يفسر القرآن برأيه بدون أن يلتزم الوقوف عند حدود المأثور منه فقط ، أن يكون ملماً بجملة من العلوم التى يستطيع بواسطتها أن يفسر القرآن تفسيرا عقليا مقبولا ، وجعلوا هذه العلوم

---

(١) فى الآية (١٨٧) من سورة آل عمران

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٣١ — ٣٢ .

(٣) رجعنا فى هذا البحث إلى مقدمة تفسير القرطبى ج ١ ص ٣١ — ٣٥ ، والإحياء للغزالى ج ٢ ص ١٣٤ — ١٤٢ ، والإتقان ج ٢ ص ١٧٩ — ١٨٠ ، ومقدمة التفسير للراغب الأصفهانى ص ٤٢٢ — ٤٢٥ ومقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٩ — ٣٢ .

بمناسبة أدوات تعصم المفسر من الوقوع فى الخطأ ، وتحميه من القول على الله بدون علم . وإليك هذه العلوم مفصلة ، مع توضيح ما لكل علم منها من الأثر فى الفهم وإصابة وجه الصواب :

الأول : علم اللغة : لأن به يمكن شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع . قال مجاهد « لايحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم فى كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب » ، ثم إنه لا بد من التوسع والتبحر فى ذلك ، لأن اليسير لا يكفى ؛ إذ ربما كان اللفظ مشتركا ، والمفسر يعلم أحد المعنيين ويخفى عليه الآخر ، وقد يكون هو المراد .

الثانى : علم النحو : لأن المعنى يتغير ويختلف باختلاف الإعراب ، فلا بد من اعتباره . أخرج أبو عبيد عن الحسن أنه سئل عن الرجل يتعلم العربية يلتمس بها حسن المنطق ويقيم بها قراءته فقال : حسن فتعلمها ؛ فإن الرجل يقرأ الآية فيعي بوجهها فيهلك فيها .

الثالث : علم الصرف : وبواسطته تعرف الأبنية والصيغ . قال ابن فارس « ومن فاته المعظم ؛ لأن (وجد) مثلا كلمة مبهمة ، فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها » ، وحكى السيوطى عن الزمخشرى أنه قال (من بدع التفاسير قول من قال : إن الإمام فى قوله تعالى « يوم ندعو كل أناس بإمامهم » [١] جمع أم ، وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم دون آبائهم قال : وهذا غلط أوجبه جهله بالتصريف ، فإن أما لا تجمع على إمام) [٢] .

---

(١) فى الآية (٧١) من سورة الإسراء .

(٢) ونص عبارة الزمخشرى : ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأمهاتهم ، وأن الحكمة فى الدعاء بالأمهات دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام ، وإظهار شرف الحسن والحسين ، وألا يفتضح أولاد الزنى وليت شعرى أيهما أبدع ؟ أصحة لفظه ؟ أم بهاء حكمته ؟ ا هـ .

الرابع : الاشتقاق : لأن الاسم إذا كان اشتقاقه من مادتين مختلفتين ، اختلف باختلافهما ، كالمسيح مثلا ، هل هو من السياحة أو من المسح ؟ .

الخامس والسادس والسابع : علوم البلاغة الثلاثة (المعانى ، والبيان ، والبديع) فعلم المعانى ، يعرف به خواص التراكيب الكلام من جهة إفادتها المعنى . وعلم البيان ، يعرف به خواص التراكيب من حيث اختلافها بحسب وضوح الدلالة وخفائها . وعلم البديع ، يعرف به وجوه تحسين الكلام وهذه العلوم الثلاثة من أعظم أركان المفسر ، لأنه لابد له من مراعاة مايقتضيه الإعجاز ، وذلك لايدرك إلا بهذه العلوم .

الثامن : علم القراءات : إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بض

التاسع : علم أصول الدين : وهو علم الكلام ، وبه يستطيع المفسر أن يستدل على مايجب فى حقه تعالى ، ومايجوز ، وما يستحل ، وأن ينظر فى الآيات المتعلقة بالنبوات ، والمعاد ، وما إلى ذلك نظرة صائبة ، ولولا ذلك لوقع المفسر فى ورطات .

العاشر : علم أصول الفقه : إذ به يعرف كيف يستنبط الأحكام من الآيات ويستدل عليها ، ويعرف الإجمال والتبيين ، والعموم ، والخصوص ، والإطلاق والتقييد ، ودلالة الأمر والنهى ، وما سوى ذلك من كل ما يرجع إلى هذا العلم .

الحادى عشر : علم أسباب النزول : إذ أن معرفة سبب النزول يعين على فهم المراد من الآية .

الثانى عشر : علم القصص : لأن معرفة القصة تفصيلا يعين على توضيح ما أجمل منها فى القرآن .

الثالث عشر : علم الناسخ والمنسوخ : وبه يعلم المحكم من غيره . ومن فقد هذه الناحية ، ربما أفتى بحكم منسوخ فيقع فى الضلال والإضلال .

الرابع عشر : الأحاديث المبينة لتفسير المجمل والمبهم ، ليستعين بها على توضيح مايشكل عليه .

الخامس عشر : علم الموهبة : وهو علم يورثه الله تعالى لمن عمل بما علم ، وإليه الإشارة بقوله تعالى « واتقوا الله ويعلمكم الله [١] » . وبقوله صلى الله عليه وسلم « من عمل بما علم ورثه الله علم مالا يعلم » . قال السيوطى بعد أن عد علم الموهبة من العلوم التى لابد منها المفسر (ولعلك تستشكل علم الموهبة وتقول : هذا شيء ليس فى قدرة الإنسان. وليس الأمر كما ظننت من الإشكال، والطريق فى تحصيله ارتكاب الأسباب الموجبة له من العمل والزهد . قال فى البرهان « اعلم أنه لايحصل للناظر فهم معانى الوحى ولاتظهر له أسراره ، وفى قلبه بدعة ، أو كبر ، أو هوى ، أوحب دنيا ، أو وهو مصر على ذنب . أوغير متحقق بالإيمان ، أو ضعيف التحقيق ، أو يعتمد على قول مفسر ليس عنده علم ، أو راجع إلى معقوله ، وهذه كلها حجب وموانع بعضها آكد من بعض » قلت : وفى هذا المعنى قوله تعالى « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق [٢] » قال ابن عيينه : أنزع عنهم فهم القرآن . أخرجه ابن أبى حاتم [٣] اهـ .

هذه هى العلوم التى اعتبرها العلماء أدوات لفهم كتاب الله تعالى ، وقد ذكرناها مسهبة مفصلة ، وإن كان بعض العلماء ذكر بعضاً وأعرض عن

---

(١) فى الآية (٢٨٢) من سورة البقرة .
(٢) فى الآية (١٤٦) من سورة الأعراف .
(٣) الإتقان ج ٢ ص ١٨ — ١٨٢ — وقد رجعنا فى هذا البحث إلى الإتقان ج ٢ ص ١٨٠ — ١٨٢ .

بعض آخر ، ومنهم من أدمج بعضها فى بعض وضغطها حتى كانت أقل عدداً مما ذكرنا ، وليس هذا العدد الذى ذكرنا حاصراً لجميع العلوم التى يتوقف عليها التفسير ، فإن القرآن — مثلا — قد اشتمل على أخبار الأمم الماضية وسيرهم وحوادثهم ، وهى أمور تقتضى الإلمام بعلمى التاريخ وتقويم البلدان ، لمعرفة العصور والأمكنة التى وجدت فيها تلك الأمم ، ووقعت فيها هذه الحوادث . وأرى أن أسوق هنا مقالة الأستاذ المرحوم السيد محمد رشيد رضا فى مقدمة تفسيره تتميما للفائدة ، وإليك نص هذه المقالة التى اقتبسها من دروس أستاذه الإمام الشيخ محمد عبده عليه رضوان الله .

قال رحمة الله « للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف النفس عن الشر ، ويجذبها إلى الخير ، وهذه هى التى قلنا إنها متيسرة لكل أحد « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(١) وأما المرتبة العليا فهى لا تتم إلا بأمور :

أحدها : فهم حقائق الألفاظ المفردة التى أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة ، غير مكتف بقبول فلان وفهم فلان ؛ فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل فى زمن التنزيل لمعان ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ، من ذلك لفظ التأويل اشتهر بمعنى التفسير مطلقاً ، أو على وجه مخصوص ، ولكنه جاء فى القرآن بمعان أخرى ، كقوله تعالى « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق »(٢) فما هذا التأويل ؟ يجب على من يريد الفهم الصحيح أن يتتبع الإصطلاحات التى حدثت فى الملة ، ليفرق بينها وبين ما ورد فى الكتاب ، فكثيراً ما يفسر المفسرون كلمات القرآن بالاصطلاحات التى حدثت فى الملة بعد القرون الثلاثة الأولى ،

---

(١) الآية (١٧) من سورة القمر ، وفى مواضع أخرى من السورة نفسها .
(٢) فى الآية (٥٣) من سورة الأعراف .

فعلى المدقق أن يفسر القرآن بحسب المعانى التى كانت مستعملة فى عصر نزوله ، والأحسن أن يفهم اللفظ من القرآن نفسه ، بأن يجمع ما تكرر فى مواضع منه وينظر فيه ، فربما استعمل بمعان مختلفة كلفظ الهداية وغيره ، ويحقق كيف يتفق معناه مع جملة معنى الآية ، فيعرف المعنى المطلوب من بين معانيه ، وقد قالوا : إن القرآن يفسر بعضه بعضاً ، وإن أفضل قرينة تقوم على حقيقة معنى اللفظ موافقته لما سبق له من القول ، واتفاقه مع جملة المعنى ، وائتلافه مع القصد الذى جاء له الكتاب بجملته .

ثانيها : الأساليب ، فينبغى أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته ، مع التفطن لنكته ومحاسنه ، والعناية بالوقوف على مراد المتكلم منه . نعم إننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ، ولكن يمكننا فهم ما نهتدى به بقدر الطاقة ، ويحتاج فى هذا إلى علم الإعراب وعلم الأساليب (المعانى والبيان) ولكن مجرد العلم بهذه الفنون وفهم مسائلها وحفظ أحكامها لا يفيد المطلوب .

ترون فى كتب العربية أن العرب كانوا مسددين فى النطق ، يتكلمون بما يوافق القواعد قبل أن توضع ، أتحسبون أن ذلك كان طبيعياً لهم ؟ كلا وإنما هى ملكة مكتسبة بالسماع والمحاكاة ، ولذلك صار أبناء العرب أشد عجمة من العجم عندما اختلطوا بهم ، ولو كان طبيعياً ذاتياً لما فقدوه فى مدة خمسين سنة بعد الهجرة .

ثالثها علم أحوال البشر ، فقد أنزل الله هذا الكتاب وجعله آخر الكتب ، وبين فيه مالم يبين فى غيره ، بين فيه كثيراً من أحوال الخلق وطبائعهم ، والسنن الإلهية فى البشر ، وقص علينا أحسن القصص عن الأمم وسيرها

الموافقة لسنته فيها ، فلا بد للناظر فى هذا الكتاب من النظر فى أحوال البشر فى أطوارهم وأدوارهم ، ومناشىء اختلاف أحوالهم من قوة وضعف ، وعز وذل ، وعلم وجهل ، وإيمان وكفر ، ومن العلم بأحوال العالم الكبير ، علويه وسفليه ، ويحتاج هذا إلى فنون كثيرة من أهمها التاريخ بأنواعه .

قال الأستاذ الإمام : أنا لا أعقل كيف يمكن لأحد أن يفسر قوله تعالى ٢ : ٢١٢ «كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين» الآية ، وهو لا يعرف أحوال البشر ، وكيف اتحدوا ، وكيف تفرقوا ، وما معنى تلك الوحدة التى كانوا عليها ، وهل كانت نافعة أو ضارة ، وماذا كان من آثار بعثة النبيين فيهم .

أجمل القرآن الكلام عن الأمم وعن السنن الإلهية ، وعن آياته فى السموات والأرض ، وفى الآفاق والأنفس ، وهو إجمالى صادر عمن أحاط بكل شىء علما ، وأمرنا بالنظر والتفكر ، والسير فى الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذى يزيدنا ارتقاء وكمالا ، ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة فى ظاهره ، لكنا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده ، لا بما حواه من علم وحكمة .

رابعها : العلم بوجه هداية البشر كلهم بالقرآن ، فيجب على المفسر القائم بهذا الفرض الكفائى ، أن يعلم ما كان عليه الناس فى عصر النبوة من العرب وغيرهم ، لأن القرآن ينادى بأن الناس كلهم كانوا فى شقاء وضلال ، وأن النبى صلى الله عليه وسلم بعث به لهدايتهم وإسعادهم ، وكيف يفهم المفسر ما قبحته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها ، إذا لم يكن عارفا بأحوالهم وما كانوا عليه ؟ .

هل يكتفى من علماء القرآن ـ دعاة الدين والمناضلين عنه بالتقليد ـ بأن يقولوا تقليداً لغيرهم : إن الناس كانوا على باطل ، وإن القرآن دحض أباطيلهم فى الجملة ؟ كلا .

وأقول الآن : يروى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : إن جهل الناس بأحوال الجاهلية هو الذى يخشى أن ينقض عرى الإسلام عروة عروة . اه بالمعنى ، والمراد : أن من نشأ فى الإسلام ولم يعرف حال الناس قبله ، يجهل تأثير هدايته ، وعناية الله بجعله مغيراً لأحوال البشر ، ومخرجا لهم من الظلمات إلى النور ، ومن جهل هذا يظن أن الإسلام أمر عادى ، كما ترى بعض الذين يتربون فى النظافة والنعيم يعدون التشديد فى الأمر بالنظافة والسواك من قبيل اللغو ؛ لأنه من ضروريات الحياة عندهم ، ولو اختبروا غيرهم من طبقات الناس لعرفوا الحكمة فى تلك الأوامر ، وتأثير تلك الآداب من أين جاء .

خامسها : العلم بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، وما كانوا عليه من علم وعمل ، وتصرف فى الشؤون دنيويها وأخرويها اه[1] .

هذه هى عبارة الأستاذ الشيخ رشيد رضا بنصها ، وفيها تركيز وإدماج لبعض ما قلناه من قبل ، وفيها شرح وإيضاح لبعض آخر منه ، وهى تلقى ضوءاً على ما تقدم ، وتوضح بعض ما فيه من إيجاز .

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢١ — ٢٤ .

مصادر التفسير

خرجنا من المعركة التى قامت بين المتحرجين من القول فى التفسير بالرأى والمجيزين له ، بأن الخلاف لفظى لا حقيقى ، وأسفرت النتيجة عن انقسام التفسير بالرأى إلى قسمين : قسم جائز ممدوح ، وقسم حرام مذموم ، وعرفنا العلوم التى يجب على المفسر معرفتها حتى يكون أهلا للتفسير بالرأى الجائز ، وبقى علينا بعد ذلك أن نذكر المصادر التى يجب على المفسر أن يرجع إليها عند شرحه للقرآن ، حتى يكون تفسيره جائزا ومقبولا ، وإليك أهم هذه المصادر :

أولا : الرجوع إلى القرآن نفسه ، وذلك بأن ينظر فى القرآن نظرة فاحص مدقق ، ويجمع الآيات التى فى موضوع واحد ، ثم يقارن بعضها ببعضها الآخر ، فإن من الآيات ما أجمل فى مكان وفسر فى مكان آخر ، ومنها ما أوجز فى موضع وبسط فى موضع آخر ، فيحمل المجمل على المفسر ، ويشرح ما جاء موجزا بما جاء مسهباً مفصلا ، وهذا هو ما يسمونه تفسير القرآن بالقرآن ، فإن عدل عن هذا وفسر برأيه فقد أخطأ وقال برأيه المذموم .

ثانياً : النقل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، مع الاحتراز عن الضعيف والموضوع فإنه كثير ، فإن وقع له تفسير صحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فليس له أن يعدل عنه ويقول برأيه ؛ لأن النبى مؤيد من ربه ، وموكول إليه أن يبين للناس ما نزل إليهم ، فمن يترك ما يصح عن النبى صلى الله عليه وسلم فى التفسير إلى رأيه فهو قائل بالرأى المذموم .

ثالثاً : الأخذ بما صح عن الصحابة فى التفسير ، ولا يغتر بكل ما ينسب لهم من ذلك ؛ لأن فى التفسير كثيرا مما وضع على الصحابة كذبا واختلاقاً ، فإن وقع على قول صحيح لصحابى فى التفسير ، فليس له أن يهجره ويقول

برأيه ؛ لأنهم أعلم بكتاب الله ، وأدرى بأسرار التنزيل ؛ لما شاهدوه من القرائن والأحوال ، ولما اختصوا به من الفهم التام والعلم الصحيح ، لا سيما علماؤهم وكبراؤهم ، كالأئمة الأربعة : الخلفاء الراشدين ، وأبى بن كعب ، وابن مسعود ، وابن عباس وغيرهم . وقد سبق لنا أن عرضنا لقول الصحابى ، هل له حكم المرفوع أولا ، واستوفينا الكلام فى ذلك بما يغنى عن إعادته هنا .

ثم هل للمفسر أن يعدل عن أقوال التابعين فى التفسير ، أو لابد له من الرجوع إلى أقوالهم ؟ خلاف سبق لنا أن عرضنا له أيضاً فلا داعى لإعادته .

رابعاً : الأخذ بمطلق اللغة ، لأن القرآن نزل بلسان عربى مبين ، ولكن على المفسر أن يحترز من صرف الآية عن ظاهرها إلى معان خارجة محتملة ، يدل عليها القليل من كلام العرب ، ولا توجد غالباً إلا فى الشعر ونحوه ، ويكون المتبادر خلافها ، روى البيهقى فى الشعب عن مالك رضى الله عنه أنه قال « لا أوتى برجل غير عالم بلغة العرب يفسر كتاب الله إلا جعلته نكالا » .

خامساً : التفسير بالمقتضى من معنى الكلام والمقتضب من قوة الشرع ، وهذا هو الذى دعا به النبى صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل » والذى عناه على رضى الله عنه بقوله — حين سئل : هل عندكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم شىء بعد القرآن — لا والذى فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهم يؤتيه الله عز وجل رجلا فى القرآن.

ومن هنا اختلف الصحابة فى فهم بعض آيات القرآن ، فأخذ كل بما وصل إليه عقله ، وأداه إليه نظره[1] .

---

(١) انظر ما نقل عن الزركشى فى الإتقان ج ٢ ص ١٧٨ — ١٧٩

الأمور التي يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره

هناك أمور يجب على المفسر أن يتجنبها فى تفسيره حتى لا يقع فى الخطأ ويكون ممن قال فى القرآن برأيه الفاسد ، وهذه الأمور هى ما يأتى :

أولا : التهجم على بيان مراد الله تعالى من كلامه مع الجهالة بقوانين اللغة وأصول الشريعة ، وبدون أن يحصل العلوم التى يجوز معها التفسير .

ثانياً . الخوض فيما استأثر الله بعلمه ، وذلك كالمتشابه الذى لا يعلمه إلا الله فليس للمفسر أن يتهجم على الغيب بعد أن جعله الله تعالى سراً من أسراره وحجبه عن عباده .

ثالثاً : السير مع الهوى والاستحسان ، فلا يفسر بهواه ، ولا يرجح باستحسانه .

رابعاً : التفسير المقرر للمذهب الفاسد ، بأن يجعل المذهب أصلا والتفسير تابعا ، فيحتال فى التأويل حتى يصرفه إلى عقيدته ، ويرده إلى مذهبه بأى طريق أمكن ، وإن كان غاية فى البعد والغرابة .

خامساً : التفسير مع القطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل ، وهذا منهى عنه شرعاً ، لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة البقرة « وأن تقولوا على الله مالا تعلمون »[1] .

وإذ قد بينا أن المفسر لا يجوز له أن يتهجم على تفسير ما استأثر الله تعالى بعلمه وحجبه عن خلقه ، وبينا أنه لا يجوز له أن يقطع بأن مراد الله كذا وكذا من غير دليل ، لزم علينا أن نبين أنواع العلوم التى اشتمل عليها القرآن ما يمكن معرفته منها وما لا يمكن ، فنقول :

---

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب فى الإتقان ج ٢ ص ١٨٣

أنواع علوم القرآن

تتنوع علوم القرآن إلى أنواع ثلاثة، وهى ما يأتى:

النوع الأول ، علم لم يطلع الله عليه أحداً من خلقه ، وهو ما استأثر به من علوم أسرار كتابه ، من معرفة كنه ذاته وغيوبه التى لا يعلمها إلا هو ، وهذا النوع لا يجوز لأحد الخوض فيه والتهجم عليه بوجه من الوجوه إجماعاً .

النوع الثانى : ما أطلع الله عليه نبيه صلى الله عليه وسلم من أسرار الكتاب واختصه به ، وهذا لا يجوز الكلام فيه إلا له صلى الله عليه وسلم ، أو لمن أذن له . قيل : ومنه الحروف المقطعة فى أوائل السور ، ومن العلماء من يجعلها من النوع الأول .

النوع الثالث : علوم علمها الله نبيه مما أودع فى كتابه من المعانى الجلية والخفية وأمره بتعليمها ، وهذا النوع قسمان :

قسم لا يجوز الكلام فيه إلا بطريق السمع ، وذلك كأسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والقراءات ، واللغات ، وقصص الأمم الماضية ، وأخبار ما هو كائن من الحوادث ، وأمور الحشر والمعاد .

وقسم يؤخذ بطريق النظر ، والاستدلال والاستنباط والاستخراج من العبارات والألفاظ ، وهو ينقسم إلى قسمين : (أحدهما) اختلفوا فى جوازه، وهو تأويل الآيات المتشابهات فى الصفات ، (وثانيهما) اتفقوا على جوازه ، وهو استنباط الأحكام الأصلية والفرعية ، والمواعظ والحكم والإشارات وما شاكل ذلك من كل ما لا يمتنع استنباطه من القرآن واستخراجه منه لمن كان أهلا لذلك[١] .

---

(١) انظر ما نقل عن ابن النقيب فى الإتقان ج ٢ ص ١٨٣

المنهج الذى يجب على المفسر أن ينهجه فى تفسيره

علمنا مما سبق : أن المفسر برأيه لابد أن يلم بكل العلوم التى هى وسائل لفهم كتاب الله، وأدوات للكشف عن أسراره ، كما علمنا مما سبق أيضاً: أن المفسر لا بد أن يطلب المعنى أولا من كتاب الله ، فإن لم يجده طلبه من السنة ، لأنها شارحة للقرآن وموضحة له ؛ فإن أعجزه ذلك رجع إلى أقوال الصحابة ؛ لأنهم أدرى بكتاب الله وأعلم بمعانيه ؛ لما اختصوا به من الفهم التام ، والعلم الصحيح ، والعمل الصالح ، ولاحتمال أن يكونوا سمعوه من الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإن عجز عن هذا كله ، ولم يظفر بشىء من تلك المراجع الأولى للتفسير ، فليس عليه بعد ذلك إلا أن يعمل عقله ، ويقدح فكره ، ويجتهد وسعه فى الكشف عن مراد الله تعالى ، مستندا إلى الأصول التى تقدمت ، مبتعدا عن كل ما ذكرنا من الأمور التى تجعل المفسر فى عداد المفسرين بالرأى المذموم ، وعليه بعد ذلك أن ينهج فى تفسيره منهجا يراعى فيه القواعد الآتية ، بحيث لا يحيد عنها ، ولا يخرج عن نطاقها ، وهذه القواعد هى ما يأتى :

أولا : مطابقة التفسير للمفسر ، من غير نقص لما يحتاج إليه فى إيضاح المعنى ، ولا زيادة لا تليق بالغرض ولا تناسب المقام ، مع الاحتراز من كون التفسير فيه زيغ عن المعنى وعدول عن المراد .

ثانيا : مراعاة المعنى الحقيق والمعنى المجازى ؛ فلعل المراد المجازى، فيحمل الكلام على الحقيقة أو العكس .

ثالثا : مراعاة التأليف والغرض الذى سيق له الكلام ، والمؤاخاة بين المفردات .

رابعا : مراعاة التناسب بين الآيات ، فيبين وجه المناسبة ، ويربط بين السابق واللاحق من آيات القرآن، حتى يوضح أن القرآن لا تفكك فيه ، وإنما هو آيات متناسبة يأخذ بعضها بحجز بعض .

خامساً : ملاحظة أسباب النزول . فكل آية نزلت على سبب فلا بد من ذكره بعد بيان المناسبة وقبل الدخول فى شرح الآية ، وقد ذكر السيوطى فى الإتقان أن الزركشى قال فى أوائل البرهان « قد جرت عادة المفسرين أن يبدءوا بذكر سبب النزول ، ووقع البحث فى أنه : أيهما أولى بالبداءة ؟ أيبدأ بذكر السبب ، أو بالمناسبة لأنها المصححة لنظم الكلام ، وهى سابقة على النزول ؟ قال . والتحقيق التفصيل بين أن يكون وجه المناسبة متوقفا على سبب النزول كآية « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها »[1] فهذا ينبغى فيه تقديم ذكر السبب ، لأنه حينئذ من باب تقديم الوسائل على المقاصد . وإن لم يتوقف على ذلك، فالأولى تقديم وجه المناسبة[2]» اه

سادساً : بعد الفراغ من ذكر المناسبة وسبب النزول ، يبدأ بما يتعلق بالألفاظ المفردة ، من اللغة ، والصرف ، والاشتقاق ، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب ، فيبدأ بالإعراب ، ثم بما يتعلق بالمعانى ، ثم البيان ، ثم البديع ، ثم يبين المعنى المراد ، ثم يستنبط ما يمكن استنباطه من الآية فى حدود القوانين الشرعية .

سابعاً : على المفسر أن يتجنب ادعاء التكرار فى القرآن ما أمكن .
نقل السيوطى عن بعض العلماء أنه قال : « مما يدفع توهم التكرار فى عطف المترادفين نحو « لا تبقى ولا تذر[3] » .. « صلوات من ربهم ورحمة[4] » ، وأشباه ذلك ، أن يعتقد أن مجموع المترادفين يحصل معنى لا يوجد عند انفراد

---

(١) فى الآية ٥٨ من سورة النساء
(٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٥
(٣) الآية ٢٨ من سورة المدثر
(٤) فى الآية ١٥٧ من سورة البقرة

أحدهما ، فإن التركيب يحدث معنى زائداً ، وإذا كانت كثرة الحروف تفيد زيادة المعنى ، فكذلك كثرة الألفاظ »(١) .

وعلى المفسر أيضاً أن يتجنب كل ما يعتبر من قبيل الحشو فى التفسير كالخوض فى ذكر علل النحو ، ودلائل مسائل أصول الفقه ، ودلائل مسائل الفقه ، ودلائل مسائل أصول الدين ، فإن كل ذلك مقرر فى تآليف هذه العلوم ، وإنما يؤخذ ذلك مسلما فى علم التفسير دون استدلال عليه .

وكذلك على المفسر أن يتجنب ذكر مالا يصح من أسباب النزول وأحاديث الفضائل ، والقصص الموضوع ، والأخبار الإسرائيلية ؛ فإن هذا مما يذهب بجمال القرآن، ويشغل الناس عن التدبر والاعتبار .

ثامناً : على المفسر بعد كل هذا أن يكون يقظا ، فطنا ، علما بقانون الترجيح ، حتى إذا ما كانت الآية محتملة لأكثر من وجه أمكنه أن يرجح ويختار(٢) .

وإذا كان المفسر لا بد له من أن يحتكم إلى قانون الترجيح عندما تحتمل الآية أكثر من وجه ، فإنا فى حاجة إلى بيان هذا القانون ، الذى هو الحكم الفصل عند تزاحم الوجوه وكثرة الاحتمالات، فنقول :

---

(١) الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦

(٢) يراجع الإتقان ج ٢ ص ١٨٥ — ١٨٦ ، ومناهل العرفان ج ١ ص ٤٤٥ و ٤٤٦ ومنهج الفرقان ج ٢ ص ٤١

قانون الترجيح فى الرأى

أجمع كلمة قيلت فى بيان هذا القانون ، هى الكلمة التى نقلها لنا السيوطى فى كتابه الإتقان عن البرهان للزركشى ، ونرى أن نسوقها هنا نقلا عن الإتقان ، ونكتفى بذلك لما فيها من الكفاية :

قال الزركشى رحمه الله تعالى : « كل لفظ احتمل معنيين فصاعدا هو الذى لا يجوز لغير العلماء الاجتهاد فيه ، وعليهم اعتماد الشواهد والدلائل دون مجرد الرأى ، فإن كان أحد المعنيين أظهر ؛ وجب الحمل عليه ، إلا أن يقوم الدليل على أن المراد هو الخفى .

وإن استويا ، والاستعمال فيهما حقيقة، لكن فى أحدهما حقيقة لغوية أو عرفية ، وفى الآخر شرعية ، فالحمل على الشرعية أولى ، إلا أن يدل دليل على إرادة اللغوية ، كما فى « وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم[1] » ، ولو كان فى أحدهما عرفية ، والآخر لغوية، فالحمل على العرفية أولى . وإن اتفقا فى ذلك أيضاً ، فان تنافى اجتماعهما ولم يمكن إرادتهما باللفظ الواحد ، كالقرء للحيض والطهر ، اجتهد فى المراد منهما بالأمارات الدالة عليه ، فما ظنه فهو مراد الله تعالى فى حقه . وإن لم يظهر له شىء فهل يتخير فى الحمل على أيهما شاء ؟أو يأخذ بالأغلظ حكما ؟ أو بالأخف ؟ أقوال . وإن لم يتنافيا وجب الحمل عليهما عند المحققين ، ويكون ذلك أبلغ فى الإعجاز والفصاحة ، إلا إن دل دليل على إرادة أحدهما » اهـ[2] .

---

(١) فى الآية ١٠٣ من سورة التوبة (٢) الإتقان جـ ٢ ص ١٨٢ .

منشأ الخطأ فى التفسير بالرأى

يقع الخطأ كثيراً فى التفسير من بعض المتصدرين للتفسير بالرأى ، الذين عدلوا عن مذاهب الصحابة والتابعين ، وفسروا بمجرد الرأى والهوى ، غير مستندين إلى تلك الأصول التى قدمنا أنها أول شىء يجب على المفسر أن يعتمد عليه . ولا متذرعين بتلك العلوم التى هى فى الواقع أدوات لفهم كتاب الله والكشف عن أسراره ومعانيه .

ونرى هنا أن نذكر منشأ هذا الخطأ الذى وقع فيه كثير من طوائف المفسرين فنقول :

يرجع الخطأ فى التفسير بالرأى غالباً ، إلى جهتين حدثتا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان . فإن الكتب التى يذكر فيها كلام هؤلاء صرفا غير ممزوج بغيره ، كتفسير عبد الرزاق ، وعبد بن حميد ، وغيرهما ، لا يكاد يوجد فيها شىء من هاتين الجهتين ، بخلاف الكتب التى جدت بعد ذلك فإن كثيراً منها ، كتفاسير المعتزلة والشيعة . مليئة بأخطاء لا تغتفر ، حملهم على ارتكابها نصرة المذهب والدفاع عن العقيدة .

أما هاتان الجهتان اللتان يرجع إليهما الخطأ فى الغالب فهما ما يأتى :

الجهة الأولى : أن يعتقد المفسر معنى من المعانى ، ثم يريد أن يحمل ألفاظ القرآن على ذلك المعنى الذى يعتقده .

الجهة الثانية : أن يفسر القرآن بمجرد ما يسوغ أن يريده بكلامه من كان من الناطقين بلغة العرب . وذلك بدون نظر إلى المتكلم بالقرآن ، والمنزل عليه ، والمخاطب به .

فالجهة الأولى مراعى فيها المعنى الذى يعتقده المفسر من غير نظر إلى ما تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان .

والجهة الثانية مراعى فيها مجرد اللفظ وما يجوز أن يريد به العربى ، من من غير نظر إلى ما يصلح المتكلم به والمخاطب ، وسياق الكلام .

ثم إن الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الأولى يقع على أربع صور .

الصورة الأولى : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً ، فمراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن ، مع أنه لا يدل عليه ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لا ينفى المعنى الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل لا فى المدلول ، وهذه الصورة تنطق على كثير من تفاسير الصوفية والوعاظ الذين يفسرون القرآن بمعان صحيحة فى ذاتها ولكنها غير مرادة ، ومع ذلك فهم يقولون بظاهر المعنى ، وذلك مثل كثير مما ذكره أبو عبد الرحمن السلمى فى حقائق التفسير ، فمثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٦٦) من سورة النساء « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم . . . الآية » نجده يقول ما نصه : اقتلوا أنفسكم بمخالفة هواها ، أو اخرجوا من دياركم ، أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم .. إلخ [١] .

الصورة الثانية : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته صواباً فمراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن ما يدل عليه ويراد به . ويحمله على ما يريده هو ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعاً فى الدليل لا فى المدلول أيضاً ، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير بعض المتصوفة الذين يفسرون القرآن بمعان إشارية صحيحة فى حد ذاتها ، ومع ذلك فإنهم يقولون : إن المعانى الظاهرة غير مرادة ، وتفسير هؤلاء أقرب ما يكون إلى تفسير الباطنية ، ومن ذلك ما فسر به سهل التسترى قوله تعالى فى الآية (٣٢) من سورة البقرة « . . . ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » حيث يقول ما نصه : لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة ، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره إلخ [٢] .

---

(١) تفسير السلمى ص ٤٩

(٢) تفسير التسترى ص ١٦

الصورة الثالثة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ ، فراعاة لهذا المعنى يحمل عليه لفظ القرآن ، مع أنه لايدل عليه ولا يراد منه ، وهو مع ذلك لاينفى الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ واقعا فى الدليل والمدلول معاً ، وهذه الصورة تنطبق على ما ذكره بعض المتصوفة من المعانى الباطلة ، وذلك كالتفسير المبنى على القول بوحدة الوجود ، كما جاء فى التفسير المنسوب لابن عربى عند ماعرض لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة المزمل « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا » من قوله فى تفسيرها : واذكر اسم ربك الذى هو أنت ، أى اعرف نفسك ولا تنسها فينسك الله . . . إلخ[١] .

الصورة الرابعة : أن يكون المعنى الذى يريد المفسر نفيه أو إثباته خطأ ، فراعاة لهذا المعنى يسلب لفظ القرآن مايدل عليه ويراد به ، ويحمله على ذلك الخطأ دون الظاهر المراد ، وعلى هذا يكون الخطأ فى الدليل والمدلول معا ، وهذه الصورة تنطبق على تفاسير أهل البدع ، والمذاهب الباطلة ، فتارة يلوون لفظ القرآن عن ظاهره المراد إلى معنى ليس فى اللفظ أى دلالة عليه ، كتفسير بعض غلاة الشيعة الجبت والطاغوت بأبى بكر وعمر ، وتارة يحتالون على صرف اللفظ عن ظاهره إلى معنى فيه تكلف غير مقبول ،وذلك إذا أحسوا أن اللفظ القرآنى يصادم مذهبهم الباطل، كما فعل بعض المعتزلة ففسر لفظ (إلى) فى قوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة ٭ إلى ربها ناظرة » بالنعمة ، ذهابا منهم إلى أن (إلى) واحد الآلاء ، بمعنى النعم ، فيكون المعنى : ناظرة نعمة ربها ، على التقديم والتأخير[٢] ، وذلك كله ليصرف الآية عما تدل عليه من رؤية الله فى الآخرة .

وأما الخطأ الذى يرجع إلى الجهة الثانية فهو يقع على صورتين :

الصورة الأولى : أن يكون اللفظ محتملا للمعنى الذى ذكره المفسر لغة ، ولكنه غير مراد ، وذلك كاللفظ الذى يطلق فى اللغة على معنيين أو أكثر ،

---

(١) التفسير المنسوب لابن عربى ج ٢ ص ٣٥٢ .

(٢) أمالى السيد المرتضى ج ١ ص ٢٨ .

والمراد منه واحد بعينه ، فيأتى المفسر فيحمله على معنى آخر من معانيه غير المعنى المراد ، وذلك كلفظ (أمة) فإنه يطلق على معان ، منها : الجماعة،والطريقة المسلوكة فى الدين ، والرجل الجامع لصفات الخير ، فحمله على غير معنى الطريقة المسلوكة فى الدين فى قوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة الزخرف «إنا وجدنا آباءنا على أمة » غير صحيح وإن احتمله اللفظ لغة .

الصورة الثانية : أن يكون اللفظ موضوعا لمعنى بعينه ، ولكنه غير مرادفى الآية ، وإنما المراد معنى آخر غير ما وضع له اللفظ بقرينة السياق مثلا ، فيخطىء المفسر فى تعيين المعنى المراد ؛ لأنه اكتفى بظاهر اللغة ، فشرح اللفظ على معناه الوضعى ، وذلك كتفسير لفظ (مبصرة) فى قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء « وآتينا ثمود الناقة مبصرة ... » بجعل مبصرة من الإبصار بالعين ، على أنها حال من الناقة ، وهذا خلاف المراد ، إذ المراد:آية واضحة [1] .

التعارض بين التفسير المأثور والتفسير بالرأى

قلنا إن التفسير بالرأى قسمان : قسم مذموم غير مقبول ، وقسم ممدوح ومقبول ، أما القسم المذموم ، فلا يعقل وجود تعارض بينه وبين المأثور ؛ لأنه ساقط من أول الأمر ، وخارج عن محيط التفسير بمعناه الصحيح .

وأما التفسير بالرأى المحمود ، فهذا هو الذى يعقل التعارض بينه وبين التفسير المأثور ، وهذا هو الذى نريد أن نتكلم فيه ونعرض له بالبحث والبيان، غير أنه يتحتم علينا — ليكون الكلام على بصيرة — أن نعرض لبيان معنى هذا التعارض فنقول :

---

(١) انظر فى هذا البحث مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٠ — ٢٤ .

التعارض بين التفسير العقلى والتفسير المأثور معناه التقابل والتنافى بينهما وذلك بأن يدل أحدهما على إثبات أمر مثلا ، والآخر يدل على نفيه ، بحيث لا يمكن اجتماعهما بحال من الأحوال ، فكأن كلا منهما وقف فى عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه . وأما إذا وجدت المغايرة بينهما بدون منافاة وأمكن الجمع ، فلا يسمى ذلك تعارضا ، وذلك كتفسيرهم (الصراط المستقيم) بالقرآن ، وبالإسلام ، وبطريق العبودية ، وبطاعة الله ورسوله ، فهذه المعانى وإن تغايرت غير متنافية ولا متناقضة ، لأن طريق الإسلام هو طريق القرآن ، وهو طريق العبودية ، وهو طاعه الله ورسوله . ومثلا تفسيرهم لقوله تعالى « فمنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات »[1] قيل فيه السابق هو الذى يصلى فى أول الوقت ، والمقتصد هو الذى يصلى فى أثنائه ، والظالم هو الذى يصلى بعد فواته. وقيل : السابق من يؤدى الزكاة المفروضة مع الصدقة والمقتصد من يؤدى الزكاة المفروضة وحدها ، والظالم لنفسه من يمنع الزكاة ولا يتصدق . وغير خاف أنه لا تنافى بين هذين التفسيرين وإن تغايرا ، لأن الظالم لنفسه يتناول المضيع للواجبات والمنتهك للحرمات ، والمقتصد يتناول فاعل الواجبات وتارك المحرمات ، والسابق يتناول من يفعل الواجبات ويتقرب بعد ذلك بزيادة الحسنات ، فكل ذكر فرداً العام على سبيل التمثيل لا الحصر .

هذا وإن الصور العقلية التى يحصل فيها التعارض بين التفسير العقلى والتفسير النقلى هى ما يأتى :

أولا : أن يكون العقلى قطعياً والنقلى قطعياً كذلك .

ثانياً : أن يكون أحدهما قطعيا والآخر ظنياً .

---

(١) فى الآية (٣٢) من سورة فاطر

ثالثاً : أن يكون أحدهما ظنيا والآخر ظنياً كذلك .

أما الصورة الأولى ، ففرضية ؛ لأنه لا يعقل تعارض بين قطعى وقطعى ، ومن المحال أن يتناقض الشرع مع العقل .

وأما الصورة الثانية.فالقطعى منهما مقدم على الظنى إذا تعذر الجمع ولم يمكن التوفيق ؛ أخذاً بالأرجح وعملا بالأقوى .

وأما الصورة الثالثة ، فإن أمكن الجمع بين العقلى والنقلى ، وجب حمل النظم الكريم عليهما . وإن تعذر الجمع ، قدم التفسير المأثور عن النبي صلى الله عليه وسلم إن ثبت من طريق صحيح ، وكذا يقدم ما صح عن الصحابة ؛ لأن ما يصح نسبته إلى الصحابة فى التفسير ، النفس إليه أميل ؛ لاحتمال سماعه من الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ ولما امتازوا به من الفهم الصحيح والعمل الصالح ؛ ولما اختصوا به من مشاهدة التنزيل .

وأما ما يؤثر عن التابعين ففيه التفصيل،وذلك إما أن يكون التابعى معروفا بالأخذ عن أهل الكتاب أولا ، فإن عرف بالأخذ عن أهل الكتاب قدم التفسير العقلى . وإن لم يعرف بالأخذ عن أهل الكتاب وتعارض ما جاء عنه مع التفسير العقلى — كما هو الفرض — فحينئذ نلجأ إلى الترجيح ، فإن تأيد أحدهما بسمع أو استدلال رجحناه على الآخر ، وإن اشتبهت القرائن ، وتعارضت الأدلة والشواهد ، توقفنا فى الأمر ، فنؤمن بمراد الله تعالى ، ولا نتهجم على تعيينه ، وينزل ذلك منزلة المجمل قبل تفصيله ، والمتشابه قبل تبيينه .

وبعد . . . فهذا هو التفسير العقلى بقسميه، وهذه هى نظرات العلماء إليه، وتلك هى حقيقة الخلاف ، ثم هذه هى البحوث التى تتعلق به تعلقاً قويا ، وتتصل به اتصالا وثيقاً ، وأرى بعد ذلك أن أتكلم عن أهم كتب التفسير

بالرأى الجائز وأشهرها ، متعرضاً لنبذة قصيرة عن كل مؤلف ، تلقى لنا ضوءا على شخصيته الذاتية والعلمية ، ملتزماً بيان المسلك الذى سلكه كل منهم فى تفسيره ، وطريقته التى جرى عليها وامتاز بها ، بما يظهر لى من ذلك أثناء قراءتى فى هذه الكتب ، مستعينا فى ذلك بما أظفر به من مقدمات قدمها أصحاب هذه الكتب لكتبهم ، ثم بعد الفراغ من ذلك يكون لنا كلام آخر عن موقف بعض الفرق من التفسير ، وعن أشهر مؤلفاتهم فيه ، وهى لا تكاد تخرج عن دائرة التفسير بالرأى المذموم .

الفصل الثالث

أهم كتب التفسير بالرأى الجائز

تمهيد :

ابتدأ عهد التدوين من قديم ، وظفر التفسير بالتدوين كغيره من العلوم ، فألفت فيه كتب اختلفت فى منهجها ، حسب اختلاف مشارب مؤلفيها ، وظفرت هذه الناحية من التفسير - ناحية التفسير بالرأى الجائز - بكثرة زاخرة من الكتب المؤلفة ، كثرة تضخمت على مر العصور وكر الدهور ، ففى كل عصر يجد جديد من الكتب المؤلفة فى التفسير بالرأى الجائز ، ثم تنضم إلى ما سبق من ذلك ، حتى ازدحمت بها المكتبة الإسلامية على اتساعها وطول عهدها .

ولكن هل احتفظت لنا المكتبة الإسلامية بكل هذه الكتب ؟ أو عفى رسمها وذهب أثرها ؟ لا ... لا هذا ، ولا ذاك ، بل احتفظت لنا ببعضها ، وذهب بعضها الآخر بتقادم الزمن عليه : ومع هذا ، فإن القصور المكتبى ، حال بيننا وبين الإطلاع على جميع ما خلفته لنا المكتبة الإسلامية العامة .... لهذا ، ولعدم القدرة على الاطلاع على كل ما يوجد من هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراسة ، أكتفى بأن أتعرض لبعض هذه الكتب واستيعابه بالبحث والدراسة ، أكتفى بأن أتعرض لبعض هذه الكتب على ضوء المنهج الذى بينته ، ولعل فى ذلك غنى عن بعضها الآخر ، الذى حال بينى وبينه القصور المكتبى تارة ، والقصور الزمنى تارة أخرى .

هذا ، ولا يفوتنى أن أنبه إلى أن هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى ، يتجه كل منها إلى اتجاه معين ، وتغلب عليه ناحية خاصة من نواحى التفسير

وألوانه ، فمنها ما تغلب عليه الصناعة النحوية ، ومنها ما تغلب عليه النزعة الفلسفية والكلامية ، ومنها ما تطغى فيه الناحية القصصية والإسرائيلية ، ومنها غير ذلك. ولكن الجميع ينضم تحت شيء واحد هو التفسير بالرأى الجائز ، فلا على إذاً إن كنت قد جمعت بين هذه الكتب المختلفة المنازع والاتجاهات ، وهذا أمر اعتبارى لا أقل ولا أكثر .

أما هذه الكتب التى وقع عليها اختيارى ، فهى ما يأتى :

١ — مفاتيح الغيب : للفخر الرازى
٢ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل : للبيضاوى
٣ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل : للنسفى
٤ — لباب التأويل فى معانى التنزيل : للخازن
٥ — البحر المحيط : لأبى حيان
٦ — غرائب القرآن ورغائب الفرقان : للنيسابورى
٧ — تفسير الجلالين : للجلال المحلى ، والجلال السيوطى
٨ — السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير : للخطيب الشربينى
٩ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم : لأبى السعود
١٠ — روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى : للآلوسى

هذه هى الكتب التى وقع عليها اختيارى ، وسأتكلم عنها على حسب هذا الترتيب ، فأقول وبالله التوفيق :

١ — مفاتيح الغيب

للرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو عبدالله، محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن على ، التميمى ، البكرى ، الطبرستانى ، الرازى ، الملقب بفخر الدين ، والمعروف بابن الخطيب الشافعى ، المولود سنة ٥٤٤ ﻫ أربع وأربعين وخمسمائة من الهجرة . كان رحمه الله فريد عصره ، ومتكلم زمانه ، جمع كثيرا من العلوم ونبغ فيها ، فكان إماما فى التفسير والكلام ، والعلوم العقلية ، وعلوم اللغة ، ولقد أكسبه نبوغه العلمى شهرة عظيمة . فكان العلماء يقصدونه من البلاد ، ويشدون إليه الرحال من مختلف الأقطار ، وقد أخذ العلم عن والده ضياء الدين المعروف بخطيب الرى ، وعن الكمال السمعانى ، والمجد الجيلى ، وكثير من العلماء الذين عاصرهم ولقيهم ، وله فوق شهرته العلمية شهرة كبيرة فى الوعظ ، حتى قيل إنه كان يعظ باللسان العربى واللسان العجمى ، وكان يلحقه الوجد فى حال الوعظ ويكثر البكاء ، ولقد خلف — رحمه الله — للناس مجموعة كبيرة من تصانيفه فى الفنون المختلفة ، وقد انتشرت هذه التصانيف فى البلاد ، ورزق فيها الحظوة الواسعة ، والسعادة العظيمة ، إذ أن الناس اشتغلوا بها ، واعرضوا عن كتب المتقدمين . ومن أهم هذه المصنفات : تفسيره الكبير ، المسمى بمفاتيح الغيب ، وهو ما نحن بصدده الآن ، وله تفسير سورة الفاتحة فى مجلد واحد ، ولعله هو الموجود بأول تفسيره مفاتيح الغيب ، وله فى علم الكلام : المطالب العالية ، وكتاب البيان والبرهان فى الرد على أهل الزيغ والطغيان . وله فى أصول الفقه : المحصول : وفى الحكمة : الملخص ، وشرح الإشارات لابن سينا ، وشرح عيون الحكمة ، وفى الطلسمات : السر المكنون ، ويقال إنه شرح المفصل فى النحو للزمخشرى ، وشرح الوجيز فى الفقه للغزالى . . . وغير هذا كثير من مصنفاته ، التى يتجلى فيها علم الرجل الواسع الغزير .

هذا ، وقد كانت وفاة الرازى — رحمه الله — سنة ٦٠٦ هـ ، ست وستمائة من الهجرة بالرى ، ويقال فى سبب وفاته : إنه كان بينه وبين الكرامية خلاف كبير وجدل فى أمور العقيدة ، فكان ينال منهم وينالون منه سبا وتكفيرا وأخيرا سموه فمات على أثر ذلك واستراحوا منه[١] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير فى ثمانى مجلدات كبار ، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم ، ويقول ابن قاضى شهبة : إنه - أى الفخر الرازى - لم يتمه[٢] ، كما يقول ذلك ابن خلكان فى وفيات الأعيان[٣] ، إذا فمن الذى أكمل هذا التفسير ؟ وإلى أى موضع من القرآن وصل الفخر الرازى فى تفسيره ؟

الحق أن هذه مشكلة لم نوفق إلى حلها حلا حاسما ، لتضارب أقوال العلماء فى هذا الموضوع ، فابن حجر العسقلانى . فى كتابه الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة ، يقول : « الذى أكمل تفسير فخر الدين الرازى ، هو أحمد بن محمد بن أبى الحزم مكى نجم الدين المخزومى القمولى مات سنة ٧٢٧ هـ وهو مصرى »[٤] . وصاحب كشف الظنون يقول : « وصنف الشيخ نجم الدين أحمد بن محمد القمولى تكملة له وتوفى سنة ٧٢٧ وقاضى القضاة ، شهاب الدين بن خليل الخوبى الدمشقى ، كمل ما نقص منه أيضاً . وتوفى سنة ٦٣٩ هـ تسع وثلاثين وستمائة »[٥] .

---

(١) انظر وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٥ - ٢٦٨ ، وشذرات الذهب جـ ٥ ص ٢١ .
(٢) شذرات الذهب جـ ٥ ص ٢١
(٣) جـ ٢ ص ٢٦٧
(٤) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٣٠٤
(٥) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٩٩

فأنت ترى أن ابن حجر يذكر أن الذى أتم تفسير الفخر هو نجم الدين القمولى ، وصاحب كشف الظنون يجعل لشهاب الدين الخويى مشاركة على وجه ما فى هذه التكملة ، وإن كانا يتفقان على أن الرازى لم يتم تفسيره .

وأما إلى أى موضع وصل الفخر فى تفسيره ؟ فهذه كالأولى أيضاً ، وذلك لأننا وجدنا على هامش كشف الظنون ما نصه : « الذى رأيته بخط السيد مرتضى نقلا عن شرح الشفا للشهاب ، أنه وصل فيه إلى سورة الأنبياء » ا هـ . (١)

وقد وجدت فى أثناء قراءتى فى هذا التفسير عند قوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة الواقعة « جزاءاً بما كانوا يعملون » هذه العبارة « المسألة الأولى أصولية ، ذكرها الإمام فخر الدين رحمه الله فى مواضع كثيرة ، ونحن نذكر بعضها . . . الخ » (٢).

وهذه العبارة تدل على أن الإمام فخر الدين ، لم يصل فى تفسيره إلى هذه السورة .

كما وجدت عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة : « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . . الآية » أنه تعرض لموضوع النية فى الوضوء ، واستشهد على اشتراط النية فيه بقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة البينة « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » وبين أن الإخلاص عبارة عن النية ، ثم قال : « وقد حققنا الكلام فى هذا الدليل فى تفسير قوله تعالى : « وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين » فليرجع إليه فى طلب زيادة الإتقان » اهـ(٣). وهذه العبارة تشعر بأن الفخر الرازى فسر سورة البينة ، أى أنه

---

(١) كشف الظنون جـ ٢ ص ٢٩٩ (هامش) .
(٢) مفاتيح الغيب جـ ٨ ص ٦٨ .
(٣) مفاتيح الغيب جـ ٣ ص ٥٢٩ .

وصل إليها فى تفسيره ؛ وهذا طبعا بحسب ظاهر العبارة المجرد عن كل شىء .

والذى أستطيع أن أقوله كحل لهذا الاضطراب : هو أن الإمام فخر الدين ، كتب تفسيره هذا إلى سورة الأنبياء ، فأتى بعده شهاب الدين الخويى ، فشرع فى تكملة هذا التفسير ولكنه لم يتمه ، فأتى بعده نجم الدين القمولى فأكمل ما بقى منه . كما يجوز أن يكون الخويى أكمله إلى النهاية ، والقمولى كتب تكملة أخرى غير التى كتبها الخويى،وهذا هو الظاهر من عبارة صاحب كشف الظنون .

وأما إحالة الفخر على ما كتبه فى سورة البينة ، فهذا ليس بصريح فى أنه وصل إليها فى تفسيره ؛ إذ لعله كتب تفسيرا مستقلا لسورة البينة ، أو لهذه الآية وحدها ، فهو يشير إلى ما كتب فيها ويحيل عليه .

أقول هذا ، وأعتقد أنه ليس حلا حاسماً لهذا الاضطراب،وإنما هو توفيق يقوم على الظن ، والظن يخطىء ويصيب .

ثم إن القارىء فى هذا التفسير،لا يكاد يلحظ فيه تفاوتا في المنهج والمسلك، بل يجرى الكتاب من أوله إلى آخره على نمط واحد ، وطريقة واحدة ، تجعل الناظر فيه لا يستطيع أن يميز بين الأصل والتكملة ، ولا يتمكن من الوقوف على حقيقة المقـــدار الذى كتبه الفخر ، والمقدار الذى كتبه صاحب التكملة .

هذا ، وإن تفسير الفخر الرازى ليحظى بشهرة واسعة بين العلماء ، وذلك لأنه يمتاز عن غيره من كتب التفسير ، بالأبحاث الفياضة الواسعة ، فى نواح شتى من العلم،ولهذا يصفه ابن خلكان فيقول : « إنه — أى الفخر الرازى — جمع فيه كل غريب وغريبة [1] » .

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٦٧ .

اهتمام الفخر الرازى ببيان المناسبات بين آيات القرآن وسوره :

وقد قرأت فى هذا التفسير، فوجدت أنه يمتاز بذكر المناسبات بين الآيات بعضها مع بعض ، وبين السور بعضها مع بعض ، وهو لا يكتفى بذكر مناسبة واحدة بل كثيراً ما يذكر أكثر من مناسبة .

اهتمامه بالعلوم الرياضية والفلسفية :

كما أنه يكثر من الاستطراد إلى العلوم الرياضية والطبيعية ، وغيرها من العلوم الحادثة فى الملة ، على ما كانت عليه فى عهده ، كالهيئة الفلكية وغيرها ، كما أنه يعرض كثيرا لأقوال الفلاسفة بالرد والتفنيد ، وإن كان يصوغ أدلته فى مباحث الإلهيات على نمط استدلالاتهم العقلية ، ولكن بما يتفق ومذهب أهل السنة .

موقفه من المعتزلة :

ثم إنه — كسنى يرى مايراه أهل السنة، ويعتقد بكل ما يقررونه من مسائل علم الكلام — لايدع فرصة تمر دون أن يعرض لمذهب المعتزلة بذكر أقوالهم والرد عليها ، رداً لايراه البعض كافياً ولا شافياً .

فهذا هو الحافظ بن حجر يقول عنه فى لسان الميزان « وكان يعاب بإيراد الشبهة الشديدة ، ويقصر فى حلها ، حتى قال بعض المغاربة : « يورد الشبه نقداً ويحلها نسيئة» اهـ(١) وقال ابن حجر أيضاً فى لسان الميزان «ورأيت فى الإكسير فى علم التفسير للنجم الطوفى ما ملخصه : مارأيت فى التفاسير أجمع لغالب علم التفسير من القرطبى ، ومن تفسير الإمام فخر الدين ، إلا أنه كثير العيوب ،

(١) لسان الميزان جـ ٤ ص ٤٢٧ .

فحدثنى شرف الدين النصيبى عن شيخه سراج الدين السرمياحى المغربى ، أنه صنف كتاب المأخذ فى مجلدين ، بين فيهما ما فى تفسير الفخر من الزيف والبهرج، وكان ينقم عليه كثيراً ويقول : يورد شبه المخالفين فى المذهب والدين على غاية مايكون من التحقيق ، ثم يورد مذهب أهل السنة والحق على غاية من الوهاء . قال الطوفى : ولعمرى ، إن هذا دأبه فى كتبه الكلامية والحكمة . حتى اتهمه بعض الناس ، ولكنه خلاف ظاهر حاله ؛ لأنه لو كان اختار قولا أو مذهباً ما كان عنده من يخاف منه حتى يستر عنه، ولعل سببه أنه كان يستفرغ أقوالا فى تقرير دليل الخصم ، فإذا انتهى إلى تقرير دليل نفسه لايبقى عنده شيء من القوى ، ولا شك أن القوى النفسانية تابعة للقوى البدنية ، وقد صرح فى مقدمة نهاية العقول : أنه مقرر مذهب خصمه تقريراً لو أراد خصمه تقريره لم يقدر على الزيادة على ذلك » اهـ(١) .

موقفه من علوم الفقه والأصول والنحو والبلاغة :

ثم إن الفخر الرازى لايكاد يمر بآية من آيات الأحكام إلا ويذكر مذاهب الفقهاء فيها ، مع ترويجه لمذهب الشافعى — الذى يقلده — بالأدلة والبراهين.

كذلك نجده يستطرد لذكر المسائل الأصولية ، والمسائل النحوية ، والبلاغية ، وإن كان لايتوسع فى ذلك توسعه فى مسائل العلوم الكونية والرياضية .

وبالجملة فالكتاب أشبه مايكون بموسوعة فى علم الكلام ، وفى علوم الكون والطبيعة ؛ إذ أن هذه الناحية ، هى التى غلبت عليه حتى كادت تقلل من أهمية الكتاب كتفسير للقرآن الكريم .

ومن أجل ذلك قال صاحب كشف الظنون (إن الإمام فخر الدين الرازى

---

(١) لسان الميزان جـ ٤ ص٤٢٧ — ٤٢٨

ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة ، وخرج من شيء إلى شيء ، حتى يقضى الناظر العجب)[1] ونقل عن أبى حيان أنه قال فى البحر المحيط « جمع الإمام الرازى فى تفسيره أشياء كثيرة طويلة لا حاجة بها فى علم التفسير ، ولذلك قال بعض العلماء : فيه كل شيء إلا التفسير »[2] .

ويظهر لنا أن الإمام فخر الدين الرازى كان مولعا بكثرة الاستنباطات والاستطرادات فى تفسيره ، مادام يستطيع أن يجد صلة مابين المستنبط أو المستطرد إليه وبين اللفظ القرآنى ، والذى يقرأ مقدمة تفسيره لايسعه إلا أن يحكم على الفخر هذا الحكم ، وذلك حيث يقول : « اعلم أنه مر على لسانى فى بعض الأوقات ، أن هذه السورة الكريمة — يريد الفاتحة — يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ، فاستبعد هذا بعض الحساد ، وقوم من أهل الجهل والغى والعناد ، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعانى ، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاقد والمبانى ، فلما شرعت فى تصنيف هذا الكتاب ، قدمت هذه المقدمة ، لتصير كالتنبيه على أن ماذكرناه أمر ممكن الحصول ، قريب الوصول ... الخ »[3] .

وبعد ... فالكتاب بين يديك ، فأجل نظرك فى جميع نواحيه ، فسوف لاترى إلا ماقلته فيه ، وما حكمت به عليه .

(٢) أنوار التنزيل وأسرار التأويل

للبيضاوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير : هو قاضى القضاة ، ناصر الدين أبو الخير ، عبدالله بن عمر بن

(١ و٢) كشف الظنون ج١ ص ٢٣٠ — ٢٣٢

(٣) مفاتيح الغيب ج١ ص ٢ — ٣

محمد بن على ، البيضاوى الشافعى ، وهو من بلاد فارس ، قال ابن قاضى شهبة فى طبقاته : « صاحب المصنفات ، وعالم أذربيجان ، وشيخ تلك الناحية . ولى قضاء شيراز » . وقال السبكى : « كان إماما مبرزاً نظاراً خيراً ، صالحاً متعبداً » وقال ابن حبيب : « تكلم كل من الأئمة بالثناء على مصنفاته ، ولو لم يكن له غير المنهاج الوجيز لفظه المحرر لكفاه » . ولى القضاء بشيراز، وتوفى بمدينة تبريز . قال السبكى والأسنوى : سنة ٦٩١ هـ إحدى وتسعين وستمائة ، وقال ابن كثير وغيره : سنة ٦٨٥ هـ خمس وثمانين وستمائة . ومن أهم مصنفاته : كتاب المنهاج وشرحه فى أصول الفقه ، وكتاب الطوالع فى أصول الدين ، وأنوار التنزيل وأسرار التأويل فى التفسير ، وهو ما نحن بصدده الآن . وهذه الكتب الثلاثة من أشهر الكتب وأكثرها تداولا بين أهل العلم .(١)

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

تفسير العلامة البيضاوى ، تفسير متوسط الحجم ، جمع فيه صاحبه بين التفسير والتأويل ، على مقتضى قواعد اللغة العربية ، وقرر فيه الأدلة على أصول أهل السنة .

وقد اختصر البيضاوى تفسيره من الكشاف للزمخشرى ، ولكنه ترك مافيه من اعتزالات ، وإن كان أحيانا يذهب إلى ما يذهب إليه صاحب الكشاف ومن ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . . . . الآية ، وجدناه يقول « إلا قياما كقيام المصروع ، وهو وارد على ما يزعمون أن الشيطان يخبط الإنسان فيصرع » . . ثم يفسر المس بالجنون ويقول «وهذا أيضاً من زعماتهم أن الجنى يمس الرجل فيختلط عقله »(٢) .

---

(١) انظر ترجمة البيضاوى فى شذرات الذهب جـ ٥ ص ٣٩٢ — ٣٩٣ ، وفى طبقات المفسرين للداودى ص ١٠٢ — ١٠٣ . وفى طبقات الشافعية جـ ٥ ص ٥٩

(٢) جـ ١ ص ٢٦٧

ولا شك أن هذا موافق لما ذهب إليه الزمخشرى من أن الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالوسوسة والإغواء .

كما أننا نجد البيضاوى قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف ، من ذكره فى نهاية كل سورة حديثا فى فضلها وما لقارئها من الثواب والأجر عند الله ، وقد عرفنا قيمة هذه الأحاديث ، وقلنا إنها موضوعة باتفاق أهل الحديث ، ولست أعرف كيف اغتربها البيضاوى فرواها وتابع الزمخشرى فى ذكرها عند آخر تفسيره لكل سورة ، مع ماله من مكانة علمية ، وسيأتى اعتذار بعض الناس عنه فى ذلك ، وإن كان اعتذارا ضعيفاً ، لا يكفى لتبرير هذا العمل الذى لا يليق بعالم كالبيضاوى له قيمته ومكانته .

وكذلك استمد البيضاوى تفسيره من التفسير الكبير المسمى بمفاتيح الغيب للفخر الرازى ، ومن تفسير الراغب الأصفهانى ،وضم لذلك بعض الآثار الواردة عن الصحابة والتابعين ، كما أنه أعمل فيه عقله ، فضمنه نكتا بارعة ،ولطائف رائعة ، واستنباطات دقيقة ، كل هذا فى أسلوب رائع موجز ، وعبارة تدق أحيانا وتخفى إلا على ذى بصيرة ثاقبة ، وفطنة نيرة . وهو يهتم أحيانا بذكر القراءات ، ولكنه لا يلتزم المتواتر منها فيذكر الشاذ ، كما أنه يعرض للصناعة النحوية ، ولكن بدون توسع واستفاضة ، كما أنه يتعرض عند آيات الأحكام لبعض المسائل الفقهية بدون توسع منه فى ذلك ، وإن كان يظهر لنا أنه يميل غالباً لتأييد مذهبه وترويجه ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء » يقول مانصه : وقروء جمع قرء ، وهو يطلق للحيض كقوله عليه الصلاة والسلام : « دعى الصلاة أيام أقرائك » وللطهر الفاصل بين الحيضتين ، كقول الأعشى :

مورثة مالا وفى الحى رفعـــة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

وأصله الانتقال من الطهر إلى الحيض ، وهو المراد فى الآية ؛ لأنه الدال

على براءة الرحم لا الحيض كما قاله الحنفية ، لقوله تعالى « فطلقوهن لعدتهن »[١] أى وقت عدتهن، والطلاق المشروع لا يكون فى الحيض . وأما قوله عليه الصلاة والسلام : طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان، فلا يقاوم ما رواه الشيخان فى قصة ابن عمر : مره فليراجعها ، ثم ليمسكها حتى تطهر ، ثم تحيض ، ثم تطهر ، ثم إن شاء أمسك بعد ، وإن شاء طلق قبل أن يمس ، فتلك العدة التى أمر الله تعالى أن تطلق لها النساء .. الخ[٢] .

كذلك نجد البيضاوى كثيراً ما يقرر مذهب أهل السنة ومذهب المعتزلة ، عندما يعرض لتفسير آية لها صلة بنقطة من نقط النزاع بينهم .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢، ٣) من سورة البقرة « .. هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » نراه يعرض لبيان معنى الإيمان والنفاق عند أهل السنة والمعتزلة والخوارج ، بتوسع ظاهر ، وترجيح منه لمذهب أهل السنة[٣] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة البقرة أيضاً « . . . ومما رزقناهم ينفقون » نراه يتعرض للخلاف الذى بين أهل السنة والمعتزلة فيما يطلق عليه اسم الرزق ، ويذكر وجهة نظر كل فريق ؛ مع ترجيحه لمذهب أهل السنة[٤] .

والبيضاوى رحمه الله مقل جداً من ذكر الروايات الإسرائيلية ، وهو يصدر الرواية بقوله : روى أو قيل ، إشعاراً منه بضعفها .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة النمل « فمكث غير

---

(١) فى الآية الأولى من سورة الطلاق
(٢) ج ١ ص ٢٤٠
(٣) ج ١ ص ٥٣ – ٥٦
(٤) ج ١ ص ٥٨ – ٥٩

بعيد فقال أحطت بما لم تحط به وجئتك من سبأ بنبأ يقين » يقول بعد فراغه من تفسيرها : روى أنه عليه السلام لما أتم بناء بيت المقدس تجهز للحج .الخ القصة التي يقف البيضاوى بعد روايتها موقف المجوز لها. غير القاطع بصحتها، حيث يقول ما نصه « ولعل فى عجائب قدرة الله وما خص به خاصة عباده أشياء أعظم من ذلك ، يستكبرها من يعرفها ، ويستنكرها من ينكرها »[1] .

ثم إن البيضاوى إذا عرض للآيات الكونية ، فإنه لا يتركها بدون أن يخوض فى مباحث الكون والطبيعة ، ولعل هذه الظاهرة سرت إليه من طريق التفسير الكبير للفخر الرازى، الذى استمد منه كما قلنا . فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الصافات « ... فأتبعه شهاب ثاقب» نراه يعرض لحقيقة الشهاب فيقول : الشهاب ما يرى كأن كوكبا انقض ، ثم يرد على من يخالف ذلك فيقول : وما قيل إنه بخار يصعد إلى الأثير فيشتعل فتخمين ، إن صح لم يناف ذلك .. » إلى آخر كلامه فى هذا الموضوع[2] .

هذا وأرى أن أسوق لك بعض العبارات الشارحة لمنهج البيضاوى فى تفسيره ، والمبينة لمصادره التى رجع إليها واختصره منها ، كشاهد على بعض ما ذكرناه من ناحية ، وتتميما للفائدة من ناحية أخرى .

قال البيضاوى نفسه فى مقدمة تفسيره هذا بعد الديباجة ما نصه « .. ولطالما أحدث نفسى بأن أصنف فى هذا الفن — يعنى التفسير — كتاباً يحتوى على صفوة ما بلغنى من عظماء الصحابة ، وعلماء التابعين ومن دونهم من السلف الصالحين ، وينطوى على نكات بارعة ، ولطائف رائعة ، استنبطتها أنا ومن قبلى من أفاضل المتأخرين ، وأماثل المحققين ، ويعرب عن وجوه القراءات المشهورة المعزية إلى الأئمة الثمانية المشهورين ، والشواذ المروية عن القراء

---

(١) جـ ٤ ص ١١٥

(٢) جـ ٥ ص ٣٠

المعتبرين ، إلا أن قصور بضاعتى يثبطنى عن الإقدام ، ويمنعنى عن الانتصاب فى هذا المقام ، حتى سنح لى بعد الاستخارة ماصمم به عزمى على الشروع فيما أردته ، والإتيان بما قصدته ، ناوياً أن أسميه بأنوار التنزيل وأسرار التأويل . . » (١)

ويقول فى آخر الكتاب مانصه : « وقد اتفق إتمام تعليق سواد هذا الكتاب المنطوى على فوائد فوائد ذوى الألباب . المشتمل على خلاصة أقوال أكابر الأئمه ، وصفوة آراء أعلام الأمة : فى تفسير القرآن وتحقيق معانيه . والكشف عن عويصات ألفاظه ومعجزات مبانيه ،مع الإيجاز الخالى عن الإخلال ، والتلخيص العارى عن الاضلال ، المرسوم بأنوار التنزيل وأسرار التأويل . . » (٢) .

وكأنى به فى هذه الجملة الأخيرة ، يشير إلى أنه اختصر من تفسير الكشاف ولخص منه ، ضمن مااختصره ولخصه من كتب التفسير الأخرى ، غير أنه ترك مافيه من نزعات الضلال ، وشطحات الاعتزال .

ويقول الجلال السيوطى ـ رحمه الله ـ فى حاشيته على هذا التفسير المسماة بـ (نواهد الأبكار وشوارد الأفكار) مانصه : « وإن القاضى ناصر الدين البيضاوى لخص هذا الكتاب فأجاد ، وأتى بكل مستجاد ، ومازفيه أماكن الاعتزال ، وطرح موضع الدسائس وأزال ، وحرر مهمات ، واستدرك تتمات ، فظهر كأنه سبيكة نضار ، واشتهر اشتهار الشمس فى رابعة النهار ، وعكف عليه العاكفون ، ولهج بذكر محاسنه الواصفون ، وذاق طعم دقائقه العارفون ،

---

(١) جـ١ ص ٦ .

(٢) جـ ٥ ص ٢٠٤

فأكب عليه العلماء تدريساً ومطالعة، وبادروا إلى تلقيه بالقبول رغبة فيه ومسارعة» (١)

ويقول صاحب كشف الظنون ما نصه : «وتفسيره هذا — يريد تفسير البيضاوى — كتاب عظيم الشأن غنى عن البيان، لخص فيه من الكشاف مايتعلق بالإعراب والمعانى والبيان، ومن التفسير الكبير مايتعلق بالحكمة والكلام، ومن تفسير الراغب مايتعلق بالاشتقاق وغوامض الحقائق ولطائف الإشارات. وضم إليه ماورى زناد فكره من الوجوه المعقولة، فجلا رين الشك عن السريرة، وزاد فى العلم بسطة وبصيرة، كما قال مولانا المنشى :

أولوا الألباب لم يأتوا بكشف قناع مايتلى
ولكن كان للقاضى يد بيضاء لاتبلى

ولكونه متبحراً جال فى ميدان فرساون الكلام، فأظهر مهارته فى العلوم حسبما يليق بالمقام. كشف القناع تارة عن وجوه محاسن الإشارة، وملح الاستعارة، وهتك الأستار أخرى عن أسرار المعقولات بيد الحكمة ولسانها. وترجمان المناطقة وميزانها، فحل ما أشكل على الأنام، وذلل لهم صعاب المرام، وأورد فى المباحث الدقيقة ما يؤمن به عن الشبه المضلة وأوضح لهم مناهج الأدلة. والذى ذكره من وجوه التفسير ثانياً أو ثالثاً أو رابعا بلفظ قيل، فهو ضعيف ضعف المرجوح أو ضعف المردود.

وأما الوجه الذى تفرد فيه، وظن بعضهم أنه مما لاينبغى أن يكون من الوجوه التفسيرية السنية، كقوله : وحمل الملائكة العرش وحفيفهم حوله مجاز عن حفظهم وتدبيرهم له (٢)، ونحوه، فهو ظن من لعله يقصر فهمه عن

---

(١) المدخل المنير للشيخ مخلوف ص ٤١

(٢) انظر تفسير البيضاوى لقولة تعالى فى الآية (٧) من سورة غافر «الذين يحملون العرش ومن حولة يسبحون بحمد ربهم ... الآية» ج ٥ ص ٣٤ :

تصور مبانيه ، ولا يبلغ علمه إلى الإحاطة بما فيه ، فمن اعترض بمثله على كلامه كأنه ينصب الحبالة للعنقاء ، ويروم أن يقنص نسر السماء ؛ لأنه مالك زمام العلوم الدينية ، والفنون اليقينية ، على مذهب أهل السنة والجماعة. وقد اعترفوا له قاطبة بالفضل المطلق ، وسلموا اليه قصب السبق ، فكان تفسيره يحتوى فنونا من العلم وعرة المسالك ، وأنواعاً من القواعد المختلفة الطرائق ، وقل من برز فى فن إلا وصده عن سواه وشغله ، والمرء عدو لما جهله ، فلا يصل إلى مرامه إلا من نظر إليه بعين فكره ، وأعمى عين هواه ، واستعبد نفسه فى طاعة مولاه ، حتى يسلم من الغلط والزلل ، ويقتدر على رد السفسطة والجدل .

وأما أكثر الأحاديث التى أوردها فى أواخر السور ، فإنه لكونه ممن صفت مرآة قلبه ، وتعرض لنفحات ربه ، تسامح فيه ، وأعرض عن أسباب التجريح والتعديل ، ونحا نحو الترغيب والتأويل ، عالما بأنها مما فاه صاحبه بزور ، ودلى بغرور .

ثم إن هذا الكتاب رزق من عند الله سبحانه وتعالى بحسن القبول عند جمهور الأفاضل والفحول ، فعكفوا عليه بالدرس والتحشية ، فمنهم من علق تعليقة على سورة منه ، ومنهم من حشى تحشية تامة ، ومنهم من كتب على بعض مواضع منه ، [1] ...... ثم عد من هذه الحواشى ما يزيد عدده على الأربعين ، ولا أطيل بذكرها ، ومن شاء الاطلاع على ذلك فليرجع إليه فى موضعه الذى أشرت إليه ، وحسبى أن أقول : إن أشهر هذه الحواشى وأكثرها تداولا ونفعاً : حاشية قاضى زاده ، وحاشية الشهاب الخفاجى ، وحاشية القونوى .

وجملة القول ، فالكتاب من أمهات كتب التفسير ، التى لا يستغنى عنها من

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ١٢٧ — ١٢٨ .

يريد أن يفهم كلام الله تعالى ، ويقف على أسراره ومعانيه ، وهو مطبوع عدة طبعات ومتوسط فى حجمه .

٣ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل

للنسفى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو البركات،عبد الله بن أحمد بن محمود النسفى[١] الحنفى ، أحد الزهاد المتأخرين ، والأئمة المعتبرين . كان إماما كاملا عديم النظير فى زمانه ، رأسا فى الفقه والأصول ، بارعا فى الحديث ومعانيه ، بصيرا بكتاب الله تعالى ، وهو صاحب التصانيف المفيدة المعتبرة فى الفقه ،والأصول وغيرهما . فمن مؤلفاته : متن الوافى فى الفروع،وشرحه الكافى،وكنز الدقائق فى الفقه أيضاً ، والمنار فى أصول الفقه ، والعمدة فى أصول الدين ، ومدارك التنزيل وحقائق التأويل ، وهو التفسير الذى نحن بصدد الكلام عنه ، وغير ذلك من المؤلفات التى تداولها العلماء ، وتناولوها دراسة وبحثا ، وليس هذا التراث العلمى بكثير على رجل تفقه على كثير من مشايخ عصره وأخذ عنهم ، ومن هؤلاء : شمس الأئمة الكردى وعليه تفقه ، وأحمد بن محمد العتابى الذى روى عنه الزيادات .

وكانت وفاة النسفى — رحمه الله — سنة ٧٠١ ﻫ إحدى وسبعمائة من الهجرة ، ودفن ببلدة أيذج[٢] فرضى الله عنه وأرضاه[٣] .

---

(١) النسفى نسبة إلى نسف من بلاد ماوراء النهر .

(٢) قال فى القاموس ج ١ ص ١٧٧ : وأيذج كأحمد بلد بكرستان .

(٣) انظر ترجمته فى الدرر الكامنة ج ٢ ص ٢٤٧ ، وفى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ١٠٢ .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير ، اختصره النسفى - رحمه الله - من تفسير البيضاوى ومن الكشاف للزمخشرى ، غير أنه ترك ما فى الكشاف من الاعتزالات . وجرى فيه على مذهب أهل السنة والجماعة ، وهو تفسير وسط بين الطول والقصر ، جمع فيه صاحبه بين وجوه الإعراب والقراءات ، وضمنه ما اشتمل عليه الكشاف من النكت البلاغية ، والمحسنات البديعة ، والكشف عن المعانى الدقيقة الخفية ، وأورد فيه ما أورده الزمخشرى فى تفسيره من الأسئلة والأجوبة ، لكن لا على طريقته من قوله : « فإن قيل ... قلت » بل جعل ذلك فى الغالب كلاما مدرجا فى ضمن شرحه الآية ، كما أنه لم يقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف من ذكره للأحاديث الموضوعة فى فضائل السور .

هذا وقد أورد النسفى فى مقدمة تفسيره عبارة قصيرة ، أوضح فيها عن طريقته التى سلكها فيه ، وأرى أن أسوقها لك بنصها لتمام الفائدة :

قال رحمه الله : « قد سألنى من تتعين إجابته ، كتابا وسطا فى التأويلات ، جامعا لوجوه الإعراب والقراءات ، متضمنا لدقائق علمى البديع والإشارات ، حاليا بأقاويل أهل السنة والجماعة ، خاليا عن أباطيل أهل البدع والضلالة ، ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، وكنت أقدم فيه رجلا وأؤخر أخرى ، استقصارا لقوة البشر عن درك هذا الوطر ، وأخذا لسبيل الحذر عن ركوب متن الخطر ، حتى شرعت فيه بتوفيق الله والعوائق كثيرة ، وأتممته فى مدة يسيرة ، وسميته بمدارك التنزيل وحقائق التأويل ... » .

وقال صاحب كشف الظنون : « اختصره - يعنى تفسير النسفى - الشيخ زين الدين ، أبو محمد ، عبد الرحمن بن أبى بكر بن العينى ، وزاد فيه[1] » ، ولكن لم يقع فى يدنا هذا المختصر ، ولم نظفر به حتى نحكم عليه .

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٢٤٨

قرأت فى هذا التفسير فوجدته كما قلت آنفا موجز العبارة سهل المـأخذ ، مختصرا من تفسير الكشاف ، جامعا لمحاسنه ، متحاشيا لمساوئه ، ومن تفسير البيضاوى أيضاً حتى أنه ليأخذ عبارته بنصها أو قريبا منه ويضمنها تفسيره[١].

خوضه فى المسائل النحوية :

كذلك وجدته — كما يقول صاحبه — جامعا بين وجوه الإعراب والقراءات ، غير أنه من ناحية الإعراب لا يستطرد كثيراً . ولا يزج بالتفاصيل النحوية فى تفسيره كما يفعل غيره ؛ فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٧) من سورة البقرة « يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام ... الآية » .

يقول ما نصه : « والمسجد الحرام عطف على سبيل الله ، أى وصد عن سبيل الله وعن المسجد الحرام ، وزعم الفراء أنه معطوف على الهاء فى به ، أى كفر وبالمسجد الحرام ، ولا يجوز عند البصريين العطف على الضمير المجرور إلا بإعادة الجار ، فلا تقول مررت به وزيد ، ولكن تقول وبزيد ، ولو كان معطوفا على الهاء هنا لقيل : وكفر به وبالمسجد الحرام[٢] » اه .

موقفه من القراءات :

وأما من ناحية القراءات فهو ملتزم للقراءات السبع المتواترة مع نسبة كل قراءة إلى قارئها

خوضه فى مسائل الفقه :

كذلك عند تفسيره لآية من آيات الأحكام نجده يعرض للمذاهب الفقهية التى لها تعلق وارتباط بالآية ، ويوجه الأقوال ولكن بدون توسع .

---

(١) راجع — مثلا — تفسير البيضاوى وتفسير النسفى لسورة النجم لترى مبلغ التوافق أو التقارب بين عبارتيهما .

(٢) جـ ١ ص ٨٤ — ٨٥

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٢) من سورة البقرة «ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله ...» يقول ما نصه : «.... ثم عند أبى حنيفة وأبى يوسف — رحمهما الله — يجتنب ما اشتمل عليه الإزار . ومحمد — رحمه الله — لا يوجب إلا اعتزال الفرج ، وقالت عائشة رضى الله عنها يجتنب شعار الدم وله ماسوى ذلك ، (ولا تقربوهن) مجامعين، أو ولا تقربوا مجامعتهن (حتى يطهرن) بالتشديد ، كوفى غير حفص ، أى يغتسلن ، وأصله يتطهرن فأدغم التاء فى الطاء لقرب مخرجيهما . غيرهم (يطهرن) أى ينقطع دمهن ، والقراءتان كآيتين ، فعملنا بهما . وقلنا : له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل ، عملا بقراءة التخفيف ، وفى أقل منه لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت الصلاة ، عملا بقراءة التشديد ، والحمل على هذا أولى من العكس ، لأنه حينئذ يجب ترك العمل باحداهما لما عرف . وعند الشافعى — رحمه الله — لا يقربها حتى تطهر وتتطهر ، دليله قوله تعالى : (فإذا تطهرن فأتوهن) فجامعوهن ، فجمع بينهما ...» اهـ.(١)

وهو ينتصر لمذهبه الحنفى ويرد على من خالفه فى كثير من الأحيان ، وإن أردت الوقوف على ذلك فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ...) جـ ١ ص ٨٩ ، وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٧) من سورة البقرة أيضاً (وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ..) جـ ١ ص ٩٥ وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الطلاق (أسكنوهن من حيث سكنتم من وجدكم ... الآية) جـ ٤ ص ٢٠١

(١) جـ ١ ص ٨٧ . وراجع فى هذا الموضوع ماذكره عند قوله تعالى «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء» جـ ١ ص ٨٩

موقفه من الإسرائيليات :

ومما نلحظه على هذا التفسير أنه مقل جدا فى ذكره للاسرائيليات ، وما يذكره من ذلك يمر عليه بدون أن يتعقبه أحياناً ، وأحياناً يتعقبه ولا يرتضيه

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل (وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير) يقول : روى أنه صاحت فاختة فأخبر أنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا ، وصاح طاوس فقال : يقول كما تدين تدان . وصاح هدهد فقال : يقول استغفروا الله يا مذنبون وصاح خطاف فقال : يقول قدموا خيراً تجدوه ، وصاحت رخمة فقال : تقول سبحان ربى الأعلى ملء سمائه وأرضه ، وصاح قمرى فأخبر أنه يقول : سبحان ربى الأعلى ، وقال : الحدأة تقول كل شىء هالك إلا الله ، والقطاة تقول : من سكت سلم ، والديك يقول : أذكروا الله يا غافلون ، والنسر يقول : يا بن آدم عش ما شئت آخرك الموت ، والعقاب يقول : فى البعد عن الناس أنس . والضفدع يقول : سبحان ربى القدوس . ثم يتكلم عن قوله تعالى (وأوتينا من كل شىء) بدون أن يتعقب ما ذكره من ذلك كله [١] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل أيضاً ، وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون ، نراه يذكر خبر هدية بلقيس لسليمان وما كان من امتحانها له ، وهو خبر أشبه ما يكون بقصة نسجها خيال شخص مسرف فى تخيله، ومع ذلك فلا يعقب عليها الإمام النسفى بكلمة واحدة[٢]

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢١ ، ٢٢) فى سورة ص ، وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم قالوا لا تخف

---

(١) جـ ٣ ص ١٥٦
(٢) جـ ٣ ص ١٦١

خصمان بغى بعضنا على بعض فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط » نراه - بعد أن يذكر من الروايات مالا يتنافى مع عصمة داود عليه السلام - يقول مانصه « وما يحكى أنه بعث مرة بعد مرة أوريا إلى غزوة البلقاء وأحب أن يقتل ليتزوجها — يعنى زوجة أوريا — فلا يليق من المتسمين بالصلاح من أفناء الناس ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء ، وقال على رضى الله عنه : من حدثكم بحديث داود عليه السلام على مايرويه القصاص ، جلدته مائة وستين ، وهو حد الفرية على الأنبياء .... » اهـ [1] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة ص أيضاً « ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسدا ثم أناب » نراه يذكر من الروايات مالا يتنافى مع عصمة سليمان عليه السلام ، ثم يقول مانصه : « وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان ، وعبادة الوثن فى بيت سليمان عليه السلام ، فمن أباطيل اليهود » . [2] .

ففى هذه الآية الآخيرة وما قبلها نجد النسفى — رحمه الله — يتصدى للتنبيه والرد على القصص المكذوب الذى يتنافى مع عصمة الأنبياء ، ولا يتساهل هنا كما تساهل فيما مثلنا به قبل ذلك ، ولعله يرى أن كل ما يمس العقيدة من هذا القصص يجب التنبيه على عدم صحته ، ومالا يمس العقيدة فلا مانع من روايته بدون تعقيب عليه ، ما دام يحتمل الصدق والكذب فى ذاته ، ولا يتنافى مع العقل أو يتصادم مع الشرع .

هذا ، وإن الكتاب لمتداول بين أهل العلم ، ومطبوع فى أربعة أجزاء متوسطة الحجم ، وقد نفع الله به الناس كما نفعهم بغيره من مؤلفات النسفى رحمه الله .

---

(١) جـ ٤ ص ٢٩ — ٣٠

(٢) جـ ٤ ص ٣٢ .

٤ — لباب التأويل فى معانى التنزيل

للخازن

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير . هو علاء الدين ، أبو الحسن ، على بن محمد بن إبراهيم بن عمر إبن خليل الشيحى [١] . البغدادى ، الشافعى ، الصوفى ، بالخازن المعروف اشتهر بذلك لأنه كان خازن كتب خانقاه السميساطية بدمشق . ولد ببغداد سنة ٦٧٨ هـ ثمان وسبعين وستمائه من الهجرة ، وسمع بها من ابن الدواليبى ، وقدم دمشق فسمع من القاسم ابن مظفر ووزيرة بنت عمر ، واشتغل بالعلم كثيرا . قال ابن قاضى شهبة : « كان من أهل العلم ، جمع وألف ، وحدث ببعض مصنفاته » . وقد خلف رحمه الله كتباً جمة فى فنون مختلفة ، فمن ذلك : لباب التأويل فى معانى التنزيل ، وهو التفسير الذى نريد الكلام عنه ، وشرح عمدة الأحكام ، ومقبول المنقول فى عشر مجلدات ، جمع فيه بين مسندى الشافعى وأحمد والكتب الستة والموطأ وسنن الدارقطنى ، ورتبه على الأبواب ، وجمع سيرة نبوية مطولة . وكان رحمه الله صوفيا حسن السمت بشوش الوجه ، كثير التودد للناس . توفى سنة ٧٤١ هـ إحدى وأربعين وسبعمائة من الهجرة بمدينة حلب ، فرحمه الله رحمة واسعة . [٢] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير اختصره مؤلفه من معالم التنزيل للبغوى ، وضم إلى ذلك

---

(١) الشيحى بالحاء المهملة ، نسبة الى بلد اسمها شيحة من اعمال حلب .

(٢) انظر ترجمته فى الدار الكامنة ج ٣ ص ٩٧ — ٩٨ وفى طبقات المفسرين للداوودى ص ١٧٨ وفى شذرات الذهب ج ٦ ص ١٣١

ما نقله ولخصه من تفاسير من تقدم عليه ، وليس له فيه — كما يقول — سوى النقل والانتخاب ، مع حذف الأسانيد وتجنب التطويل والإسهاب .

وهو مكثر من رواية التفسير المأثور إلى حد ما ، معنى بتقرير الأحكام وأدلتها ، مملوء بالأخبار التاريخية ، والقصص الإسرائيلى الذى لا يكاد يسلم كثير منه أمام ميزان العلم الصحيح والعقل السليم ، وأرى أن أسوق هنا ما قاله الخازن نفسه فى مقدمة تفسيره ، مبينا به طريقته التى سلكها ، ومنهجه الذى نهجه فيه ، وفيها غنى عن كل شىء .

قال رحمه الله تعالى « ولما كان كتاب معالم التنزيل ، الذى صنفه الشيخ الجليل ، والحبر النبيل ، الإمام العالم محى السنة ، قدوة الأمة ، وإمام الأئمة، مفتى الفرق . ناصر الحديث ، ظهير الدين ، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوى — قدس الله روحه ، ونور ضريحه — من أجل المصنفات فى علم التفسير وأعلاها ، وأنبلها وأسناها . جامعاً للصحيح من الأقاويل ، عاريا عن الشبه والتصحيف والتبديل ، محلى بالأحاديث النبوية ، مطرزا بالأحكام الشرعية ، موشى بالقصص الغريبة، وأخبار الماضين العجيبة، مرصعاً بأحسن الإشارات، مخرجا بأوضح العبارات ، مفرغا فى قالب الجمال بأفصح مقال ، فرحم الله تعالى مصنفه وأجزل ثوابه. وجعل الجنة متقلبه ومآبه . لما كان هذا الكتاب كما وصفت، أحببت أن انتخب من غرر فوائده، ودرر فرائده، وزواهر نصوصه، وجواهر فصوصه ، مختصرا جامعا لمعانى التفسير ، ولباب التأويل والتعبير ، حاويا لخلاصة منقوله ، متضمنا لنكته وأصوله ، مع فوائد نقلتها ، وفرائد لخصتها من كتب التفسير المصنفة ، فى سائر علومه المؤلفة ، ولم أجعل لنفسى تصرفا سوى النقل والانتخاب ، مجتنباً حد التطويل والإسهاب ، وحذفت منه الإسناد لأنه أقرب إلى تحصيل المراد . فما أوردت فيه من الأحاديث النبوية والأخبار المصطفوية ، على تفسير آية أو بيان حكم - فإن الكتاب يطلب بيانه من السنة، وعليها مدار الشرع وأحكام الدين - عزوته إلى مخرجه ، وبينت اسم ناقله ، وجعلت عوض كل

اسم حرفاً يعرف به ، ليهون على الطالب طلبه . فما كان من صحيح أبى عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى فعلامته قبل ذكر الصحابى الراوى للحديث (خ) وما كان من صحيح أبى الحسين مسلم بن الحجاج النيسابورى فعلامته (م). وما كان مما اتفقا عليه فعلامته (ق) . وما كان من كتب السنن ، كسنن أبى داود، والترمذى ، والنسائى فإنى أذكر اسمه بغير علامة . وما لم أجده فى هذه الكتب ووجدت البغوى قد أخرجه بسنده له انفرد به . قلت :روى البغوى بسنده، ومارواه البغوى بإسناد الثعلبى قلت : روى البغوى بإسناد الثعلبى . وما كان فيه من أحاديث زائدة وألفاظ متغيرة فاعتمده ؛ فانى اجتهدت فى تصحيح ماأخرجته من الكتب المعتبرة عند العلماء كالجمع بين الصحيحين للحميدى ، وكتاب جامع الأصول لابن الأثير الجزرى، ثم إنى عوضت عن حذف الإسناد شرح غريب الحديث وما يتعلق به ؛ ليكون أكمل فائدة فى هذا الكتاب ، وأسهل على الطلاب ، وسقته بأبلغ ماقدرت عليه من الإيجاز وحسن الترتيب ، مع التسهيل والتقريب . وينبغى لكل مؤلف كتابا فى فن قد سبق إليه ، أن لايخلو كتابه من خمس فوائد : استنباط شىء إن كان معضلا . أو جمعه إن كان متفرقا . أو شرحه إن كان غامضاً . أو حسن نظم وتأليف . أو إسقاط حشو وتطويل وأرجو أن لايخلو هذا الكتاب عن هذه الخصال التى ذكرت . وسميته (لباب التأويل فى معانى التنزيل) اهـ .... ثم قدم الخازن لتفسيره بخمسة فصول : الفصل الأول : فى فضل القرآن و تلاوته وتعليمه . الفصل الثانى : فى وعيد من قال فى القرآن برأيه من غير علم ، ووعيد من أوتى القرآن فنسيه ولم يتعهده . الفصل الثالث : فى جمع القرآن وترتيب نزوله ، وفى كونه نزل على سبعة أحرف . الفصل الرابع : فى كون القرآن نزل على سبعة أحرف وماقيل فى ذلك . الفصل الخامس : فى معنى التفسير والتأويل . ثم ابتدأ بعد ذلك فى التفسير ،

توسعه فى ذكر الإسرائيليات :

وقد قرأت فى هذا التفسير كثيراً فوجدته يتوسع فى ذكر القصص الإسرائيلى وكثيراً ما ينقل ماجاء من ذلك عن بعض التفاسير التى تعنى بهذه الناحية

كتفسير الثعلبي وغيره ، وهو في الغالب لا يعقب على ما يذكر من القصص الإسرائيلي ، ولا ينظر إليه بعين الناقد البصير ، وإن كان في بعض المواضع لا يترك القصة تمر بدون أن يبين لنا ضعفها أو كذبها ، ولكن على ندرة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في سورة (ص) (وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب ... الآيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) إلى قوله تعالى (وظن داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخر راكعا وأناب) نراه يسوق قصصاً أشبه ما يكون بالخرافة كقصة الشيطان الذي تمثل لداود في صورة حمامة من ذهب فيها من كل لون حسن ، وجناحاها من الدر والزبرجد ، فطارت ثم وقعت بين رجليه وألهته عن صلاته ، وقصة المرأة التي وقع بصره عليها فأعجبه جمالها فاحتال على زوجها حتى قتل رجاء أن تسلم له هذه المرأة التي فتن بها وشغف بحبها ، وغير ذلك من الروايات العجيبة الغريبة ، ولكنه يأتي بعد كل هذا فيقول : (فصل في تنزيه داود عليه الصلاة والسلام عما لا يليق به وينسب إليه) ويفند في هذا الفصل كل ما ذكره مما يتنافى مع عصمة نبي الله داود عليه السلام [١] .

ولكنا نرى الخازن يمر بقصص كثيرة لا يعقب عليها ، مع أن بعضها غاية في الغرابة ، وبعضها مما يخل بمقام النبوة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى في الآية (١٠) من سورة الكهف « إذ أوى الفتية إلى الكهف .. الآية » نراه يذكر قصة أصحاب الكهف ، وسبب خروجهم إليه عن محمد بن إسحق ومحمد بن يسار ، وهي غاية في الطول والغرابة ومع ذلك فهو يذكرها ولا يعقب عليها بلفظ واحد [٢] .

---

(١) ج ٦ ص ٣٨ — ٤٢
(٢) ج ٤ ص ١٦٠ — ١٦٥

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٣ ، ٨٤) من سورة الأنبياء « وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين ، فاستجبنا له فكشفنا ما به من ضر وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين » ، نراه يروى فى حق أيوب عليه السلام ، قصة طويلة جدا عن وهب بن منبه ، وهى مما لا يكاد يقرها الشرع أو يصدقها العقل ، لما فيها من المنافاة لمقام النبوة ، ومع ذلك ، فهو يذكر هذه القصة ويمر عليها بدون أن يعقب عليها بأية كلمة (١) .

عنايته بالأخبار التاريخية :

كذلك نلاحظ على هذا التفسير أنه يفيض فى ذكر الغزوات التى كانت على عهد النبى صلى الله عليه وسلم وأشار إليها القرآن .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الأحزاب « يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً » نراه بعد أن يفرغ من التفسير يقول « ذكر غزوة الخندق وهى الأحزاب » ثم يذكر وقائع الغزوة وماجرى فيها باستفاضة وتوسع (٢) .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة الأحزاب أيضاً : « وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤها وكان الله على كل شىء قديراً » نراه يستطرد إلى ذكر غزوة بنى قريظة ، بتوسع ظاهر ، وتفصيل تام .

عنايته بالناحية الفقهية :

كذلك نجد هذا التفسير يعنى جدا العناية بالناحية الفقهية ، فإذا تكلم عن

---

(١) ج ٤ ص ٢٥٠ — ٢٥٤
(٢) ج ٥ — ١٩٣ — ٢٠٠

آية من آيات الأحكام ، استطرد إلى مذاهب الفقهاء وأدلتهم ، وأقحم فى التفسير فروعاً فقهية كثيرة ، قد لا تهم المفسر بوصف كونه مفسراً فى قليل ولا كثير .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٦) من سورة البقرة « للذين يؤلون من نسائهم تربص أربعة أشهر فإن فاءوا فإن الله غفور رحيم » نراه بعد أن ينتهى من التفسير يقول : «فروع تتعلق بحكم الآية » ثم يذكر خمسة فروع : الفرع الأول: فى حكم ما إذا حلف أنه لا يقرب زوجته أبداً أو مدة هى أكثر من أربعة أشهر . والثانى : فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أقل من أربعة أشهر ، والثالث : فى حكم ما لو حلف ألا يطأها أربعة أشهر ، والرابع : فى مدة الإيلاء فى حق الحر والعبد واختلاف المذاهب فى ذلك . والخامس : فيما إذا خرج من الإيلاء بالوطء ، فهل تجب عليه كفارة أو لا تجب ؟ . [(١)]

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة «والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ... الآية » نراه يعرض لمذهب الحنفية ومذهب الشافعية فيما تنقضى به عدة الحائض ... ثم يقول : « فصل فى أحكام العدة ، وفيه مسائل » فيذكر أربع مسائل ، يتكلم فى المسألة الأولى منها عن عدة الحوامل ، وفى الثانية عن عدة المتوفى عنها زوجها ، وفى الثالثة عن عدة المطلقة المدخول بها ، وفى الرابعة عن عدة الإماء[(٢)] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة « ... فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به . . الآية » نجده يقول «فصل فى حكم الخلع ، وفيه مسائل » ويذكر ثلاث مسائل : المسألة الأولى : فيما يباح

---

(١) ج ١ ص ١٨٧ — ١٨٨
(٢) ج ١ ص ١٨٩

من أجله الخلع ، والثانية : فى جواز الخلع بأكثر مما أعطاها وعدم جوازه ، الثالثة : فى اختلاف العلماء فى الخلع هل هو فسخ أو طلاق ؟[1] :

ومثلا عند تفسيره لآية الظهار التى فى أول سورة المجادلة نراه يسوق فصلا فى أحكام الكفارة ، وما يتعلق بالظهار ، ويورد فيه ثمانى مسائل[2] لا نطيل بذكرها .

عنايته بالمواعظ :

ثم إن هذا التفسير كثيراً ما يتعرض للمواعظ والرقاق ، ويسوق أحاديث الترغيب والترهيب ، ولعل نزعة الخازن الصوفية هى التى أثرت فيه فجعلته يعنى بهذه الناحية ويستطرد إليها عند المناسبات .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة السجدة «تتجافى جنوبهم عن المضاجع . . . الآية» نراه يقول بعد الانتهاء من التفسير «فصل فى فضل قيام الليل والحث عليه» . . . ثم يسوق فى ذلك أحاديث كثيرة عن النبى صلى الله عليه وسلم كلها تدور على البخارى ومسلم والترمذى[3] .

وهكذا نجد هذا التفسير يطرق موضوعات كثيرة فى نواح من العلم مختلفة . ولكن شهرته القصصية ، وسمعته الإسرائيلية ، أساءت إليه كثيرا ، وكادت تصد الناس عن الرجوع إليه والتعويل عليه !! . ولعل الله يهىء لهذا الكتاب من يعلق عليه بتعليقات توضح غثه من سمينه ، وتستخلص صحيحه من سقيمه . والكتاب مطبوع فى سبعة أجزاء متوسطة الحجم ، وهو متداول بين الناس ، خصوصاً من له شغف بالقصص وولوع بالأخبار .

---

(١) جـ ١ ص ١٩٣ – ١٩٤

(٢) جـ ٦ ص ٣٩ – ٤٠

(٣) جـ ٥ ص ١٨٦ – ١٨٧

٥ — البحر المحيط

لأبي حيان

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أثير الدين ، أبو عبد الله ، محمد بن يوسف بن على ابن يوسف بن حيان ، الأندلسى ، الغرناطى ، الحيانى ، الشهير بأبى حيان ، المولود سنة ٦٥٤ هـ أربع وخمسين وستمائة من الهجرة .

كان — رحمه الله — ملما بالقراءات صحيحها وشاذها ، قرأ القرآن على الخطيب عبد الحق بن على إفراداً وجمعاً ، ثم على الخطيب أبى جعفر بن الطباع ، ثم على الحافظ أبى على بن أبى الأحوص بمالقة ، وسمع الكثير من العلماء ببلاد الأندلس وأفريقية ، ثم قدم الإسكندرية فقرأ القراءات على عبد النصير بن على المريوطى ، وبمصر على أبى طاهر إسماعيل بن عبد الله المليجى ، ولازم بها الشيخ بهاء الدين بن النحاس ، فسمع عليه كثيراً من كتب الأدب . قال أبو حيان « وعدة من أخذت عنه أربعمائة وخمسون شخصاً ، وأما من أجازنى فكثير جداً » وقال الصفدى « لم أره قط إلا يسمع ، أو يشتغل ، أو يكتب ، أو ينظر فى كتاب ، ولم أره على غير ذلك » .

كذلك عرف أبو حيان ، بكثرة نظمه للأشعار والموشحات ، كما كان على جانب كبير من المعرفة باللغة ، أما النحو والتصريف فهو الإمام المطلق فيهما ، خدم هذا الفن أكثر عمره ، حتى صار لا يذكر أحد فى أقطار الأرض فيهما غيره ، وبجانب هذا كله كان لأبى حيان اليد الطولى فى التفسير ، والحديث ، وتراجم الرجال ، ومعرفة طبقاتهم ، خصوصاً المغاربة .

ولقد أخذ كثير عنه العلم حتى صار من تلامذته أئمة وأشياخ فى حياته ، وهو الذى جسر الناس على كتب ابن مالك ورغبهم فيها وشرح لهم غامضها . وأما مؤلفاته فكثيرة ، انتشرت فى حياته وبعد وفاته فى كثير من أقطار الأرض وتلقاها الناس بالقبول ، ومن أهمها : تفسير البحر المحيط الذى نحن

بصدده الآن ، وغريب القرآن فى مجلد واحد ، وشرح التسهيل ، ونهاية الإعراب ، وخلاصة البيان ، وله منظومة على وزن الشاطبية فى القراءات بغير رموز، وهى أخصر وأكثر فوائد ، ولكنها لم ترزق من القبول حظ الشاطبية. هذا ، وقد قيل : إن أبا حيان كان ظاهرى المذهب، ثم رجع عنه وتبع الشافعى على مذهبه ، وكان عريا من الفلسفة ، بريئا من الاعتزال والتجسيم ، متمسكا بطريقة السلف . أما وفاته فكانت بمصر سنة ٧٤٥ هـ خمس وأربعين وسبعمائة من الهجرة ، فرحمه الله ورضى عنه (١) .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير فى ثمان مجلدات كبار ، وهو مطبوع ومتداول بين أهل العلم.ومعتبر عندهم المرجع الأول والأهم لمن يريد أن يقف على وجوه الإعراب لألفاظ القرآن الكريم ؛ إذ أن الناحية النحوية هى أبرز ما فيه من البحوث التى تدور حول آيات الكتاب العزيز . والمؤلف إذ يتكلم عن هذه الناحية ، فهو ابن بجدتها ، وفارس حلبتها ، غير أنه — والحق يقال — قد أكثر من مسائل النحو فى كتابه ، مع توسعه فى مسائل الخلاف بين النحويين ، حتى أصبح الكتاب أقرب ما يكون إلى كتب النحو منه إلى كتب التفسير .

هذا ، وإن أبا حيان وإن غلبت عليه الصناعة النحوية فى تفسيره إلا أنه مع ذلك لم يهمل ما عداها من النواحى التى لها اتصال بالتفسير ، فنراه يتكلم على المعانى اللغوية للمفردات ، ويذكر أسباب النزول ، والناسخ والمنسوخ ، والقراءات الواردة مع توجيهها ، كما أنه لا يغفل الناحة البلاغية فى القرآن ، ولا يهمل الأحكام الفقهية عندما يمر بآيات الأحكام ، مع ذكره لما جاء عن السلف ومن تقدمه من الخلف فى ذلك ، كل هذا على طريقة وضعها لنفسه ، ومشى عليها فى كتابه ، ونبهنا عليها فى مقدمته ، وذلك حيث يقول :

---

(١) انظر الدرر الكامنة جـ ٤ ص ٣٠٢ — ٣١٠

« وترتيبى فى هذا الكتاب، أنى أبتدىء أولا بالكلام على مفردات الآية التى أفسرها لفظة لفظة ، فيما يحتاج إليه من اللغة والأحكام النحوية التى لتلك اللفظة قبل التركيب ، وإذا كان للكلمة معنيان أو معان ذكرت ذلك فى أول موضع فيه تلك الكلمة ، لينظر ما يناسب لها من تلك المعانى فى كل موضع تقع فيه فيحمل عليه ، ثم أشرع فى تفسير الآية ذاكرا سبب نزولها إذا كان لها سبب ، ونسخها ، ومناسبتها ، وارتباطها بما قبلها ، حاشداً فيها القراءات ، شاذها ومستعملها . ذاكرا توجيه ذلك فى علم العربية ، ناقلا أقاويل السلف والخلف فى فهم معانيها ، متكلما على جليها وخفيها ، بحيث أنى لا أغادر منها كلمة وإن اشتهرت حتى أتكلم عليها ، مبديا ما فيها من غوامض الإعراب ، ودقائق الآداب ، من بديع وبيان ، مجتهداً أنى لا أكرر الكلام فى لفظ سبق ، ولا فى جملة تقدم الكلام عليها ، ولا فى آية فسرت ، بل أذكر فى كثير منها الحوالة على الموضع الذى تكلم فيه على تلك اللفظة أو الجملة أو الآية ، وإن عرض تكرير فبمزيد فائدة ، ناقلا أقاويل الفقهاء الأربعة وغيرهم فى الأحكام الشرعية مما فيه تعلق باللفظ القرآنى ، محيلا على الدلائل التى فى كتب الفقه ، وكذلك ما نذكره من القواعد النحوية أحيل فى تقريرها والاستدلال عليها على كتب النحو ، وربما أذكر الدليل إذا كان الحكم غريبا أو خلاف مشهور ما قال معظم الناس ، بادئا بمقتضى الدليل وما دل عليه ظاهر اللفظ ، مرجحا له لذلك ، ما لم يصد عن الظاهر ما يجب إخراجه به عنه متنكبا فى الإعراب عن الوجوه التى تنزه القرآن عنها . مبينا أنها مما يجب أن يعدل عنه ، وأنه ينبغى أن يحمل على أحسن إعراب وأحسن تركيب ؛ إذ كلام الله تعالى أفصح الكلام ، فلا يجوز فيه جميع ما يجوزه النحاة فى شعر الشماخ والطرماح وغيرهما من سلوك التقادير البعيدة ، والتراكيب القلقة ، والمجازات المعقدة ، ثم أختتم فى جملة من الآيات التى فسرتها إفرادا وتركيبا بما ذكروا فيها من علم البيان والبديع ملخصا ، ثم أتبع آخر الآيات بكلام منثور ، أشرح به مضمون تلك الآيات على ما اختاره من تلك المعانى ، ملخصا جملها أحسن تلخيص ، وقد

ينجر معها ذكر معان لم تتقدم فى التفسير ، وصار ذلك أنموذجا لمن يريد أن يسلك ذلك فيما بقى من سائر القرآن ، وستقف على هذا المنهج الذى سلكته إن شاء الله تعالى ، وربما ألممت بشىء من كلام الصوفية بما فيه بعض مناسبة لمدلول اللفظ ، وتجنبت كثيراً من أقاويلهم ومعانيهم التى يحملونها الألفاظ(١) ، وتركت أقوال الملحدين الباطنية (٢) ، المخرجين الألفاظ العربية عن مدلولاتها فى اللغة ، إلى هذيان افتروه على الله ، وعلى على كرم الله تعالى وجهه ، وعلى ذريته ، ويسمونه علم التأويل ... (٣) » اهـ .

هذا ، وإن أبا حيان — رحمه الله تعالى — ينقل فى تفسيره كثيراً من تفسير الزمخشرى ، وتفسير ابن عطية ، خصوصاً ما كان من مسائل النحو ووجوه الإعراب كما أنه يتعقبهما كثيراً بالرد والتفنيد لما قالاه فى مسائل النحو على الخصوص ، ولكثرة هذا التعقيب منه على كلام الزمخشرى وابن عطية نجد تلميذه تاج الدين أحمد بن عبدالقادر (بن أحمد) بن مكتوم المتوفى سنة ٧٤٩هـ تسع وأربعين وسبعمائة من الهجرة يختصر هذا التفسير فى كتاب سماه (الدر اللقيط من البحر المحيط) يكاد يقتصر فيه على مباحثه مع ابن عطيه والزمخشرى ورده عليهما (٤) وهذا المختصر توجد منه نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر ، كما أنه مطبوع على هامش البحر المحيط .

كذلك نجد الشيخ يحيى الشاوى المغربى يفرد مؤلفا عنوانه « بين أبى حيان والزمخشرى » يجمع فيه اعتراضات أبى حيان على الزمخشرى وهو مخطوط فى مجلد كبير بالمكتبة الأزهرية .

---

(١) انظر ما تعقب به تفسير القشيرى للآية (١١٤) من سورة البقرة (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه ... الآية) ج ١ ص ٣٦٠

(٢) عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة المائدة (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) ج ٣ ص ٤٤٩

(٣) ج ١ ص ٤ — ٥

(٤) انظر كشف الظنون ج ٢ ص ١٤٥

وكثيرا ما يحمل أبو حيان على الزمخشرى حملات ساخرة قاسية من أجل آرائه الاعتزالية جـ٢ص ٢٧٦ ، جـ٧ ص٨٥ ، ومع ذلك نجده يشيد بما للزمخشرى من مهارة فائقة فى تجلية بلاغة القرآن وقوة بيانه . حيث يصفه بأنه أوتى من علم القرآن أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ . جـ ٧ ص ٨٥

هذا ، وإن أبا حيان يعتمد فى أكثر نقول كتابه هذا — كما يقول — « على كتاب التحرير والتحبير لأقوال أئمة التفسير ، من جمع شيخه ، الصالح ، القدوة ، الأديب ، جمال الدين أبى عبد الله ، محمد بن سليمان بن حسن بن حسين المقدسى ، المعروف بابن النقيب ، رحمه الله . إذ هو أكبر كتاب صنف فى علم التفسير ، يبلغ فى العدد مائة سفر أو يكاد (١) » اهـ .

ونهاية القول ، فإن أبا حيان قد غلبت عليه فى تفسيره الناحية التى برز فيها وبرع فيها وهى الناحية النحوية التى طغت على ما عداها من نواحى التفسير .

٦ — غرائب القرآن ورغائب الفرقان

للنيسابورى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو الإمام الشهير ، والعلامة الخطير ، نظام الدين ، ابن الحسن بن محمد بن الحسين ، الخراسانى النيسابورى ، المعروف بالنظام الأعرج . أصله وموطن أهله وعشيرته مدينة قم ، وكان منشؤه وموطنه بديار نيسابور . كان رحمه الله من أساطين العلم بنيسابور ، ملما بالعلوم العقلية ، جامعا لفنون اللغة العربية ، له القدم الراسخ فى صناعة الإنشاء ، والمعرفة الوافرة بعلم التأويل والتفسير .

---

(١) البحر المحيط جـ ١ ص ١١ ، ومع اعتماد أبى حيان على هذا التفسير نجده يصفه بكثرة التكرير وقلة التحرير جـ١ ص ١١ ، كما نجده لا يرضى عما أولع به مؤلفه من كثرة النقول عن غلاة الصوفية فيضرب عنها صفحا جـ ٨ ص ١٩١

وهو معدود فى عداد كبار الحفاظ والمقرئين ، وكان مع هذه الشهرة العلمية الواسعة على جانب كبير من الورع والتقوى ، وعلى مبلغ عظيم من الزهد والتصوف،ويظهر أثر ذلك واضحاً جلياً فى تفسيره الذى أودع فيه مواجيده الروحية ، وفيوضاته الربانية ، ولقد خلف رحمه الله للناس كتباً مفيدة نافعة ، ومصنفات فريدة واسعة ، فمن ذلك شرحه على متن الشافية فى فن الصرف للإمام ابن الحاجب ، وهو معروف بشرح النظام ، وشرحه على تذكرة الخواجة نصير الملة والدين الطوسى فى علم الهيأة ، وهو المسمى بتوضيح التذكرة ، ورسائل فى علم الحساب ، وكتاب فى أوقاف القرآن على حذو ماكتبه السجاوندى المشهور ، وأهم مصنفاته تفسيره لكتاب الله تعالى المعروف بـ«غرائب القرآن ورغائب الفرقان» ، وهو مانحن بصدده الآن ، وله مجلد آخر فى لب التأويل نظير تأويلات المولى عبد الرزاق القاشانى .

أما تاريخ وفاته ، فلم نعثر عليه فى الكتب التى بين أيدينا ، وكل ماعثرنا عليه هو قول صاحب روضات الجنات«إنه كان من علماء رأس المائة التاسعة،على قرب من درجة السيدالشريف،والمولى جلال الدين الدوانى،وابن حجر العسقلانى، وقرنائهم الكثيرين من علماء الجمهور ، وتاريخ إنهاء مجلدات تفسيره المذكور ، صادفت حدود مابعد الثمانمائة والخمسين من الهجرة . . .»[1] قال :«ويوجد أيضاً بالبال نسبة التشيع إليه فى بعض مصنفات الأصحاب» اهـ[2] .

(١) ويوجد بآخر النسخة التى بأيدينا من تفسير النيسابورى ما نصه «وجد بآخر بعض النسخ ما نصه : علقه مؤلفه ، الحسن بن محمد بن الحسين ، المشتهر بنظام الأعرج النيسابورى ببلاد الهند فى دار مملكتها بدولة آباد فى أوائل صفر سنة ٧٣٠ سبعمائة وثلاثين من هجرة سيد الأولين والآخرين ، صلاة الله وسلامه عليه وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، كما جاء فى ترجمة النيسابورى بآخر النسخة أيضا أنه فرغ من شرحه للتذكرة النصيرية فى غرة ربيع الأول سنة ٧١١ هـ إحدى عشرة وسبعمائة.

وفى كشف الظنون عند الكلام عن تفسير النيسابورى أنه توفى سنة ٧٢٨هـ

(٢) انظر ترجمة النيسابورى فى آخر تفسيره ، وفى روضات الجنات ص ٢٢٥ — ٢٢٦

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

اختصر النيسابورى تفسيره هذا من التفسير الكبير للفخر الرازى ، وضم إلى ذلك بعض ماجاء فى الكشاف وغيره من التفاسير ، ومافتح الله به عليه من الفهم لمحكم كتابه ، وضمنه ماثبت لديه من تفاسير سلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين .

موقفه من الزمخشرى والفخر الرازى :

وهو إذ يختصر كلام الفخر الرازى . أو يقتبس من تفسير الكشاف أو غيره ، لايقف عند النص وقوف من يجمد عند النصوص ويرى أنها ضربة لازب عليه فلا يعترض ولايتصرف ، بل نجده حراً فى تفكيره ، متصرفاً فيما يختصر أو يقتبس ، فإن وجد فساداً نبه عليه وأصلحه ، وإن رأى نقصاً تداركه فأتمه وأكمله .

وكثيرا مانجده ينقل عن الكشاف فيقول : قال فى الكشاف كذا وكذا ، أو قال جار الله كذا وكذا ، وقد ينقل ماذكره صاحب الكشاف وما اعترض به عليه الفخر الرازى ثم ينصب نفسه حكما بين الإمامين ، ويبدى رأيه على حسب مايظهر له .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة الزمر « . . . والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة . . . » يقول ما نصه « قال جار الله : الغرض من هذا الكلام — إذا أخذته كما هو بجملته — تصوير عظمته ، والتوقيف على كنه جلاله ، من غير ذهاب بالقبضة واليمين إلى جهة حقيقة أو إلى جهة مجاز ، وكذلك حكم مايروى عن عبد الله بن مسعود : أن رجلا من أهل الكتاب جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : ياأبا القاسم إن الله يمسك السموات يوم القيامة على إصبع ، والأرض على إصبع ، والجبال على إصبع ، والشجر على

إصبع ، والثرى على إصبع ، وسائر الخلق على إصبع ، ثم يهزهن فيقول : أنا الملك ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم تعجباً مما قال ، وأنزل الله الآية تصديقاً له . قال جار الله : وإنما ضحك أفصح العرب وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا مايفهمه علماء البيان من غير تصور إمساك ، ولا إصبع ، ولاهز ، ولاشيء من ذلك . ولكن فهمه وقع أول شيء وآخره على الزبدة والخلاصة ، التي هي الدلالة على القدرة الباهرة . وأن الأفعال العظام التي لا تكتنهها الأوهام هينة عليه . . . ثم ذكر كلاماً آخر طويلا ،واعترض عليه الإمام فخر الدين الرازي : بأن هذا الكلام الطويل لا طائل تحته ؛ لأنه هل يسلم أن الأصل في الكلام حمله على حقيقته أم لا ؟ وعلى الثاني يلزم خروج القرآن بكليته عن كونه حجة ؛ فإن لكل أحد حينئذ أن يؤول الآية بما يشاء ، وعلى الأول — وهو الذي عليه الجمهور — يلزم بيان أنه لا يمكن حمل اللفظ الفلاني على معناه الحقيقي لتعين المصير الى التأويل ، ثم إن كان هناك مجازان وجب إقامة الدليل على تعيين أحدهما ، في هذه الصورة لاشك أن لفظ القبضة واليمين مشعر بهذه الجوراح ، إلا أن الدلائل العقلية قامت على امتناع الأعضاء والجوارح لله تعالى ، فوجب المصير إلى التأويل صوناً للنص عن التعطيل ، ولا تأويل إلا أن يقال المراد كونها تحت تدبيره وتسخيره ، كما يقال فلان في قبضة فلان ، وقال تعالى (وما ملكت أيمانهم [١]) ويقال هذه الدار في يد فلان ويمينه ، وفلان صاحب اليد . .

وأنا أقول : هذا الذي ذكره الإمام طريق أصولي ، والذي ذكره جار الله طريق بياني . وإنهم يحيلون كثيراً من المسائل إلى الذوق فلا منافاة بينهما ، ولا يرد اعتراض الإمام وتشنيعه ، وقد مر لنا في هذا الكتاب الأصل الذي كان يعمل به السلف في باب المتشابهات في مواضع ، فتذكر ، اهـ[٢] .

---

(١) في الآية (٥٠) من سورة الأحزاب .

(٢) جـ ٢٤ ص ١٧ — ١٨

منهجه فى التفسير :

ثم إننا نجد الإمام النيسابورى ، قد سلك فى تفسيره مسلكا قد يكون منفردا به من بين المفسرين ، ذلك أنه يذكر الآيات القرآنيه أولا ، ثم يذكر القراءات ، مع التزامه ألا يذكر إلا ما كان منها منسوباً إلى الأئمة العشرة ، وإضافة كل قراءة إلى صاحبها الذى تنسب إليه ، ثم بعد ذلك يذكر الوقوف مع التعليل لكل وقف منها ، ثم بعد ذلك يشرع فى التفسير ، مبتدئاً بذكر المناسبة وربط اللاحق بالسابق مع عناية كبيرة بذلك سرت إليه من التفسير الكبير للفخر الرازى ، ثم بعد ذلك يبين معانى الآيات بأسلوب بديع ، يشتمل على إبراز المقدرات ، وإظهار المضمرات ، وتأويل المتشـــابهات ، وتصريح الكنايات ، وتحقيق المجاز والاستعارات ، وتفصيل المذاهب الفقهية ، مع مع توجيه أدلة كل مذهب وما حملت عليه الآية القرآنية ، لتكون مؤيدة لمذهب من المذاهب ، أو غير متعارضة معه ولا منافية له .

فمثلا عند تفسير . لقوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة (والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما . . الآية) نجده يقول : واعلم أن الكلام فى السرقة ، يتعلق بأطراف المسروق ، ونفس السرقة ، والسارق . . ثم يمضى فيتكلم عن هذه النواحى الثلاث من الناحية الفقهية ، بتفصيل واسع وتوجيه للأدلة »[1] .

خوضه فى المسائل الكلامية :

كذلك نجده يخوض فى المسائل الكلامية ، فيذكر مذهب أهل الســـنة ومذهب غيرهم ، مع ذكره لأدلة كل مذهب ، وانتصارة لمذهب أهل السنة وتأييده له ، ورد ما يرد عليه من جانب المخالفين .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة الأنعام « ومنهم

---

(١) جـ ٦ ص ١٣٢ — ١٣٥

من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقرا .. الآية» تجده يقول : « وفى الآية دلالة على أن الله تعالى هو الذى يصرف عن الإيمان، ويحول بين المرء وبين قلبه ، وقالت المعتزلة : لا يمكن إجراؤها على ظاهرها ، وإلا كان حجة للكفار ، ولأنه يكون تكليفا للعاجز ، ولم يتوجه ذمهم فى قولهم (وقالوا قلوبنا غلف) ، فلا بد من التأويل . وذلك من وجوه . . ثم ساق خمسة أوجه للمعتزلة ، وبعد أن فرغ منها تعقبها بالرد عليها ، تنفيداً لمذهب المعتزلة ، وتصحيحاً لمذهب أهل السنة (١) .

خوضة فى المسائل الكونية والفلسفية :

كذلك إذا مر النيسابورى على آية من الآيات الكونية فإنه لا يمر عليها بدون أن يخوض بأسرار الكون وكلام الطبيعيين والفلاسفة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٨٩) من سورة البقرة (يسألونك عن الأهلة . . الآية) نراه يذكر سبب نزول الآية ، ثم يبين الحكمة التى أرادها الله من وراء جوابه لهم على غير مقصودهم ، وهنا يتعرض للسبب الذى من أجله يبدو الهلال دقيقا ثم يزيد شيئاً فشيئاً حتى يصير بدراً ، ثم يأخذ فى النقصان إلى أن يعود كما بدأ (٢) .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة الزمر « الله يتوفى الأنفس حين موتها . . الآية » يقول ما نصه : (وقال حكماء الإسلام : النفس الإنسانية جوهر مشرق نورانى ، إذا تعلق بالبدن حصل ضوءه فى جميع الأعضاء ظاهرها وباطنها ، وهو الحياة واليقظة ، وأما فى وقت النوم فإن ضوءه لا يقع إلا على باطن البدن وينقطع عن ظاهره ، فتبقى نفس الحياة التى بها النفس

(١) ج ٧ ص ١٢٩

(٢) ج ٢ ص ٢٢٢ — ٢٢٣

وعمل القوى البدنية فى الباطن ويفنى ما به التمييز والعقل ، وإذا انقطع هذا الضوء بالكلية عن البدن فهو الموت[١] .

وهذا المسلك الذى سلكه النيسابورى فى الكونيات والآراء الفلسفية . ليس هو فى الواقع إلا صدى لما جاء فى تفسير الفخر الرازى الذى لخص منه تفسيره . وإن كان النيسابورى ليس بوقا للرازى فى كل ما يقول بل كثيراً مايستدرك عليه ولا يرتضى قوله.

فمثلا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١ ، ٢) من سور الإنفطار « إذا السماء انفطرت ، وإذا الكواكب انتثرت » يقول ما نصه (وفيه — يعنى فى قوله تعالى إذا السماء انفطرت ، وكذا فى قوله وإذا الكواكب انتثرت — إبطال قول من زعم أن الفلكيات لاتنخرق ، أما الدليل المعقول الذى ذكره الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره ، وهو أن الأجسام متماثلة فى الجسمية ، فيصح على كل واحد منها مايصح على الباقى ، لكن السفليات يصح عليها الانخراق ، فيصح على العلويات أيضاً ، فغير مفيد ولا مقنع ، لأن الخصم لو سلم الصحة فله أن ينازع فى الوقوع لمانع ، كالصورة الفلكية وغيرها) اهـ[٢] .

النزعة الصوفية فى تفسير النيسابورى :

ثم إن النيسابورى بعد أن يفرغ من تفسير الآية يتكلم عن التأويل ، والتأويل الذى يتكلم عنه هو عبارة عن التفسيرات الإشارية للآيات القرآنية التى يفتح الله بها على عقول أهل الحقيقة من المتصوفة ، والنيسابورى رحمه

---

(١) جـ ٢٤ ص ٧ — ٨ .
(٢) جـ ٣٠ ص ٣٩ .

الله كان صوفياً كبيراً ، أفاض من روحه الصوفية الصافية على تفسيره ، فنراه لذلك يستطرد أثناء التفسير إلى كثير من المواعظ المبكيات.والحكم الغاليات، كما نراه فى تأويله الإشارى يمثل الفلسفة التصوفية بأعلى أنواعها .

ليس فى تفسير النيسابورى مايدل على تشيعه :

وعلى كثرة ما قرأت فى هذا التفسير لم أقع على نص منه يدل على تشيع مؤلفه ، وكل ماوقعت عليه ، أنه قال فى خاتمة تفسيره ج ٣٠ ص ٢٢٨ « وإنى أرجو فضل الله العظيم،وأتوسل إليه بوجهه الكريم،ثم بنبيه القرشى الأبطحى ووليه المعظم العلى ... إلخ » وهذه الجملة الأخيرة (ووليه المعظم العلى) وإن كانت اعترافا منه بولاية على رضى الله عنه ، ليست دليلا قاطعاً على تشيعه ، بل نجد النيسابورى على العكس من ذلك يعترف فى نفس خاتمة تفسيره ج ٣٠ ص ٢٢٤ بأنه لم يمل فى تفسيره إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة وإذا رجعت إلى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥٤ ، ٥٥) من سورة المائدة (ياأيها الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأت الله بقوم يحبهم ويحبونه)... إلخ ج٦ ص ١٩٥ ومابعدها لوجدته يرد على الشيعة استدلالهم بهاتين الآيتين على ولاية على رضى الله عنه وأنه الخليفة بعد رسول الله - صلى الله عليه وسلم -،وإن كان ماذكره تلخيصاً لما قال الفخر الرازى فى تفسيره .

وهنا — وبعد ماذكرت — أرى لزاما على أن أذكر كلام النيسابورى الذى أوضح فيه مسلكه فى تفسيره ومنهجه الذى نهجه فيه، فإن صاحب البيت أعرف به وأدرى بما فيه .

قال رحمه الله فى مقدمة تفسيره مانصه:(وإذا وفقنى الله تعالى لتحريك القلم فى أكثر الفنون المنقولة والمعقولة — كما اشتهر بحمد الله تعالى ومنه فيما بين أهل الزمان — وكان علم التفسير من العلوم بمنزلة الانسان من العين والعين من الإنسان، وكان قد رزقنى الله تعالى من إبان الصبا وعنفوان الشباب ، حفظ لفظ القرآن

وفهم معنى الفرقان ، وطالما طالبنى بعض أجلة الإخوان ، وأعزة الأخدان ممن كنت مشارا إليه عندهم بالبنان فى البيان — والله المنان يجازيهم عن حسن ظنونهم ، ويوفقنا لإسعاف سؤلهم ، وإنجاح مطلوبهم — أن أجمع كتابا فى علم التفسير ، مشتملا على المهمات ، منبئاً عما وقع إلينا من نقل الأثبات ، وأقوال الثقات من الصحابة والتابعين ، ثم من العلماء الراسخين ، والفضلاء المحققين ، المتقدمين والمتأخرين - جعل الله تعالى سعيهم مشكوراً ، وعملهم مبروراً - فاستعنت بالمعبود ، وشرعت فى المقصود ، معترفاً بالعجز والقصور فى هذا الفن وفى سائر الفنون لا كمن هو بابنه وشعره مفتون ، كيف وقد قال عز من قائل « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[1] ومن أصدق من الله قيلا ، وكفى بالله وليا وكفى بالله وكيلا .

ولما كان التفسير الكبير المنسوب إلى الإمام الأفضل ، والهمام الأمثل ، والحبر النحرير والبحر الغزير ، الجامع بين المعقول والمنقول ، الفائز بالفروع والأصول ، أفضل المتأخرين ، فخر الملة والحق والدين محمد بن عمر بن الحسين الخطيب الرازى ، تغمده الله برضوانه وأسكنه بحبوبة جنانه ، اسمه مطابق لمسماه، وفيه من اللطائف والبحوث ما لا يحصى، ومن الزوائد والفتوى ما لا يخفى فإنه قد بذل مجهوده، ونثل موجوده ، حتى عسر كتبه على الطالبين، وأعوز تحصيله على الراغبين ،فحاذيت سياق مرامه،وأوردت حاصل كلامه،وقربت مسالك أقدامه والتقطت عقود نظامه من غير إخلال بشيء من الفوائد، وإهمال لما يعد من اللطائف والفرائد وضممت إليه ما وجدت فى الكشاف وفى سائر التفاسير من اللطائف المهمات ، أو رزقنى الله تعالى من البضاعة المزجاة ، وأثبت القرآت المعتبرات والوقوف المعللات ، ثم التفسير المشتمل على المباحث اللفظيات ، والمعنويات مع إصلاح ما يجب إصلاحه وإتمام ما ينبغى إتمامه من المسائل الموردة فى التفسير الكبير والاعتراضات ، ومع كل ما يوجد فى الكشاف من المواضع المعضلات ، سوى الأبيات المعقدات ، فإن ذلك يوردها من ظن أن تصحيح

---

(١) فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء .

القرآت وغرائب القرآن ، إنما يكون بالأمثال والمستشهدات، كلا فإن القرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، فلا علينا أن نقتصر فى غرائب القرآن على تفسيرها بالألفاظ المشتهرات ، وعلى إيراد بعض المتجانسات التى نعرف منها أصول الاشتقاقات ، وذكرت طرفا من الإشارات المقنعات، والتأويلات الممكنات ، والحكايات المبكيات ، والمواعظ الرادعة عن المنهيات ، الباعثة على أداء الواجبات ، والتزمت إيراد لفظ القرآن الكريم أولا ، مع ترجمته على وجه بديع ، وطريق منيع ، يشتمل على إبراز المقدرات ، وإظهار المضمرات ، وتأويل المتشابهات ، وتصريح الكنايات وتحقيق المجازات والاستعارات ، فإن هذا النوع من الترجمة مما تسكسب فيه العبرات ، وترن[1] المترجمون هنالك إلى العثرات ، وقلما يفطن له الناشىء الواقف على متن اللغة العربية ، فضلا عن الدخيل الزحيل القاصر فى العلوم الأدبية ، واجتهدت كل الاجتهاد ، فى تسهيل سبيل الرشاد ، ووضعت الجميع على طرف التمام ، ليكون الكتاب كالبدر التمام ، وكالشمس فى إفادة الخاص والعام ، من غير تطويل يورث الملام ، ولا تقصير يوعر مسالك السالك ويبدد نظام الكلام ، فخير الكلام ما قل ودل (وحسبك من الزاد ما بلغك المحل) اه[2]

وقال فى آخر تفسيره ما نصه : (وقد تضمن كتابى هذا حاصل التفسير الكبير ، الجامع لأكثر التفاسير ، وجل كتاب الكشاف الذى رزق له القبول من أساتذة الأطراف والأكتاف ، واحتوى مع ذلك على النكت المستحسنة الغريبة والتأويلات المحكمة العجيبة ، مما لم يوجد فى سائر تفاسير الأصحاب ، أو وجدت متفرقة الأسباب ، أو مجموعة طويلة الذيول والأذناب .

---

(١) هكذا بالأصل ، وفى هامش بعض النسخ « ولعل الصواب ويزل » وليس بظاهر . أقول : ولعلها يذن بمعنى يمشى : قال فى أساس البلاغة : وفلان يذن فى مشيته إذا مشى بضعف ، وما زال يذن فى هذه الحاجة : يتردد بتؤدة ورفق .

(٢) جـ ١ ص ٥ — ٦

أما الأحاديث ، فإما من الكتب المشهورة ، كجامع الأصول ، والمصابيح وغيرها ، وإما من كتاب الكشاف والتفسير الكبير ونحوهما ، إلا الأحاديث الموردة فى الكشاف فى فضائل السور ، فإنا قد أسقطناها لأن النقد زيفها إلا ما شذ منها .

وأما الوقوف فللإمام السجاوندى ، مع اختصار لبعض تعليلات ، وإثبات للآيات لتوقفها على التوقيف .

وأما أسباب النزول ، فمن كتاب جامع الأصول ، والتفسيرين ، او من تفسير الواحدى :

وأما اللغة ، فمن صحاح الجوهرى ، ومن التفسيرين كما نقلا .

وأما المعانى والبيان وسائر المسائل الأدبية ، فمن التفسيرين ، والمفتاح ، وسائر الكتب العربية .

وأما الأحكام الشرعية ، فمنهما ، ومن الكتب المعتبرة فى الفقه ، ولا سيما شرح الوجيز للإمام الرافعى .

وأما التأويل ، فأكثرها للشيخ المحقق ، المتقى المتقن نجم الملة والدين المعروف بداية قدس نفسه وروح رمسه ، وطرف منها مما دار بخلدى ، وسمحت به ذات يدى غير جازم بأنه المراد من الآية ، بل خائف من أن يكون ذلك جرأة منى وخصوصا فيما لا يعنينى ، وإنما شجعنى على ذلك سائر الأئمة الذين اشتهروا بالذوق والوجدان ، وجمعوا بين العرفان والإيمان والإتقان فى معنى القرآن ، الذى هو باب واسع ، يطمع فى تصنيفه كل طامع فإن أصبت فبها ، وإن أخطأت فعلى الإمام ما سها ، والعذر مقبول عند أهل الكرم والنهى ، والله المستعان لنا ولهم فى مظان الخلل والزلل ، وعلى رحمته التكلان فى محال الخطأ والخطل ، فعلى المرء أن يبذل وسعه لإدراك الحق . ثم الله معين لإرادة الصواب . ومعين لإلهام الصدق .

وكذا الكلام فى بيان الرباطات والمناسبات بين السور والآيات ، وفى أنواع التكريرات وأصناف المشتبهات ، فإن للخواطر والظنون فيها مجالا ، وللناس الأكياس فى استنباط الوجوه والنسب هناك مقالا . . . ثم مضى فقال . وإنى لم أمل فى هذا الإملاء إلا إلى مذهب أهل السنة والجماعة ، فبينت أصولهم ، ووجوه استدلالاتهم بها ، وما ورد عليها من الاعتراضات ، والأجوبة عنها .

وأما فى الفروع ، فذكرت استدلال كل طائفة بالآية على مذهبه ، من غير تعصب ومراء وجدال وهراء . . . . ثم مضى فقال : ولقد وفقت لإتمام هذا الكتاب فى مدة خلافة على رضى الله عنه . وكنا نقدر إتمامه فى مدة خلافة الخلفاء الراشدين وهى ثلاثون سنة . ولو لم يكن ما اتفق فى أثناء التفسير من وجود الأسفار الشاسعة ، وعدم الأسفار النافعة ، ومن غموم لا يعد عديدها ، وهموم لا ينادى وليدها ، لكان يمكن إتمامه فى مدة خلافة أبى بكر ، كما وقع لجار الله العلامة . . . (١) اهـ .

هذا ، وقد نوه صاحب روضات الجنات بمكانة هذا التفسير فقال «وتفسيره يريد النيسابورى من أحسن شروح كتاب الله المجيد ، وأجمعها للفوائد اللفظية والمعنوية ، وأحوزها للفوائد القشرية واللبية ، وهو قريب من تفسير مجمع البيان كما وكيفا ، وسمة وترتيبا ، بزيادة أحكام الأوقاف فى أوائل تفسير الآى ، ومراتب التأويل فى آخره ، والإشارة الى جملة من دقائق نكات العربية فى البين» اهـ (٢) .

والكتاب مطبوع على هامش تفسير ابن جرير الطبرى ومتداول بين أهل العلم .

---

(١) جـ ٣٠ ص ٢٢٢ — ٢٢٥

(٢) روضات الجنات ص ٢٢٦

٧ — تفسير الجلالين

لجلال الدين المحلى وجلال الدين السيوطى

التعريف بمؤلفى هذا التفسير :

ألف هذا التفسير الإمامان الجليلان ، جلال الدين المحلى ، وجلال الدين السيوطى . أما جلال الدين السيوطى ، فقد سبق التعريف به عند الكلام عن تفسيره المسمى بالدر المنثور .

وأما جلال الدين المحلى ، فهو جلال الدين ، محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم المحلى الشافعى ، تفتازانى العرب ، الإمام العلامة . قال : فى حسن المحاضرة « ولد بمصر سنة ٧٩١ هـ إحدى وتسعين وسبعمائة ، واشتغل وبرع فى الفنون فقها ، وكلاما ، وأصولا ، ونحواً ، ومنطقا ، وغيرها . وأخذ عن البدر محمود الأقصرائى ، والبرهان البيجورى ، والشمس البساطى ، والعلاء البخارى ، وغيرهم ، وكان علامة آية فى الذكاء والفهم ، حتى كان بعض أهل عصره يقول فيه : إن ذهنه يثقب الماس ، وكان هو يقول عن نفسه إن فهمه لا يقبل الخطأ ، ولم يك يقدر على الحفظ .... » .

وكان غرة عصره فى سلوك طريق السلف ، على مبلغ عظيم من الصلاح والورع ، آمراً بالمعروف ، ناهياً عن المنكر ، لا تأخذه فى الحق لومة لائم ، فكان يواجه بالحق أكابر الظلمة والحكام ، وكانوا يأتون إليه فلا يلتفت إليهم ، ولا يأذن لهم فى الدخول عليه ، وكان حديد الطبع ، لا يراعى أحداً فى القول ، وقد عرض عليه القضاء الأكبر فلم يقبله ، وولى تدريس الفقه بالمؤيدية والبرقوقية ، وسمع من جماعة ، وكان مع هذا متقشفا فى معيشته يتكسب بالتجارة ، وقد ألف كتبا كثيرة تشد إليها الرحال ، وهى غاية فى الاختصار ، والتحرير والتنقيح ، وسلامة العبارة وحسن المزج والحل ، وقد أقبل الناس على مؤلفاته وتلقوها ،

بالقبول وتداولوها فى دراساتهم ، فمن مؤلفاته : شرح جمع الجوامع فى الأصول وشرح المنهاج فى فقه الشافعية وشرح الورقات فى الأصول ، ومنها هذا التفسير الذى نحن بصدده .

توفى رحمه الله فى أول يوم من سنة ٨٦٤ هـ أربع وستين وثمانمائة من الهجرة ،[١]

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه :

اشترك فى هذا التفسير — كما قلنا — الإمامان الجليلان ، جلال الدين المحلى . وجلال الدين السيوطى .

أما جلال الدين المحلى ، فقد ابتدأ تفسيره من أول سورة الكهف إلى آخر سورة الناس ، ثم ابتدأ بتفسير الفاتحة ، وبعد أن أتمها اخترمته المنية فلم يفسر ما بعدها .

وأما جلال الدين السيوطى ، فقد جاء بعد الجلال المحلى فكمل تفسيره ، فابتدأ بتفسير سورة البقرة ، وانتهى عند آخر سورة الإسراء ، ووضع تفسير الفاتحة فى آخر تفسير الجلال المحلى لتكون ملحقة به .

هذا هو الواقع . ولا أظن صاحب كشف الظنون مصيبا حيث يقول عند الكلام على تفسير الجلالين ما نصه « تفسير الجلالين من أوله إلى آخره سورة الإسراء للعلامة جلال الدين محمد بن أحمد المحلى الشافعى المتوفى سنة ٨٦٤ هـ أربع وستين وثمانمائة ، ولما مات كمله الشيخ المتبحر جلال الدين عبد الرحمن ابن أبى بكر السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ إحدى عشرة وتسعمائة . . » وحيث

---

(١) أنظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ ٧ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ وطبقات المفسرين للداودى ٢١٩ — ٢٢٠ .

يقول بعد ذلك بقليل « وكأن المحلى لم يفسر الفاتحة ، وفسرها السيوطى تفسيراً مناسباً »[1] .

نعم . لا أظن صاحب كشف الظنون مصيباً فى ذلك ، لأن السيوطى – فى مقدمة هذا التفسير وقبل الكلام على سورة البقرة – يقول بعد الديباجة ما نصه « هذا ما اشتدت إليه حاجة الراغبين فى تكملة تفسير القرآن الكريم ، الذى ألفه الإمام العلامة المحقق ، جلال الدين ، محمد بن أحمد ، المحلى الشافعى رحمه الله ، وتتميم ما فاته وهو – يريد ما فات الجلال المحلى وقام هو بتفسيره — من أول سورة البقرة إلى آخر سورة الإسراء ... »

ويقول فى آخر سورة الإسراء ما نصه « قال مؤلفه : هذا آخر ما كملت به تفسير القرآن الكريم ، الذى ألفه الشيخ الإمام ، العالم العلامة المحقق ، جلال الدين المحلى الشافعى رضى الله عنه ... »[2]

هذا من ناحية تعيين القدر الذى فسره كل منهما . وأما من الناحية الأخرى وهى ادعاء صاحب كشف الظنون أن المحلى لم يفسر الفاتحة ، وإنما الذى فسرها هو السيوطى ، فهى أيضاً دعوى يظهر لنا أنها غير صحيحة وذلك لما يقوله الشيخ سليمان الجمل فى مقدمة حاشيته على هذا التفسير ج ١ ص ٧ « وأما الفاتحة ففسرها المحلى ، فجعلها السيوطى فى آخر تفسير المحلى لتكون منضمة لتفسيره . وابتدأ هو من أول سورة البقرة .... » اهـ – ولقوله فى الحاشية نفسها ج ٤ ص ٦٢٦ عند نهاية ما كتبه على تفسير سورة الفاتحة « إنه — أى الجلال المحلى — كان قد شرع فى تفسير النصف الأول ، وأنه ابتدأ بالفاتحة ، وأنه اخترمته المنية بعد الفراغ منها وقبل الشروع فى البقرة وما بعدها ... » اهـ

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٦ .

(٢) ج ١ ص ٢٣٧ .

وهذا ، وقد قال صاحب كشف الظنون بعد ما نقلناه عنه آنفاً بقليل « ولم يتكلم الشيخان على البسملة ، فتكلم عليها بأقل مما ينبغى من الكلام بعض العلماء من زبيد وكتب ذلك حاشية بالهامش ، وهذا صحيح ، فإن الجلال المحلى لم يتكلم عن تفسير البسملة مطلقاً فى الجزء الذى فسره ، لا فى أول سورة الكهف ، ولا فى أول فاتحة الكتاب ، كذلك الجلال السيوطى ، لم يتكلم عن تفسيرها مطلقاً فى الجزء الذى فسره .

وبعد هذا ... فالجلال المحلى ، فسر الجزء الذى فسره بعبارة موجزة محررة ، فى غاية الحسن ونهاية الدقة . والجلال السيوطى تابعه على ذلك ولم يتوسع ؛ لأنه التزم بأن يتم الكتاب على النمط الذى جرى عليه الجلال المحلى ، كما أوضح هو ذلك فى مقدمته . وذكر فى خاتمة سورة الإسراء أنه ألف الجزء الذى ألفه فى قدر ميعاد الكليم ، وهو أربعون يوماً ، كما ذكر فى هذا الموضع نفسه : أنه استفاد فى تفسيره من تفسير الجلال المحلى ، وأنه اعتمد عليه فى الآى المتشابهة ، كما أنه اعترف — جازما — بأن الذى وضعه الجلال المحلى فى قطعته أحسن مما وضعه هو بطبقات كثيرة .[١]

وعلى الجملة ، فالسيوطى قد نهج فى تفسيره منهج المحلى « من ذكر ما يفهم من كلام الله تعالى ، والاعتماد على أرجح الأقوال ، وإعراب ما يحتاج إليه ، والتنبيه على القراءات المختلفة المشهورة ، على وجه لطيف ، وتعبير وجيز ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية ، وأعاريب محلها كتب العربية[٢] .

ولاشك أن الذى يقرأ تفسير الجلالين ، لايكاد يلمس فرقا واضحاً بين طريقة الشيخين فيما فسراه ، ولا يكاد يحس بمخالفة بينهما فى ناحية من نواحى التفسير المختلفة ، اللهم إلا فى مواضع قليلة لا تبلغ العشرة كما قيل .

---

(١) تفسير الجلالين جـ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ فى الخاتمة .

(٢) مقدمة السيوطى لتفسير الجلالين .

فمن هذه المواضع أن المحلى فى سورة (ص) فسر الروح بأنها جسم لطيف يحيا به الإنسان بنفوذه فيه . والسيوطى تابعه على هذا التفسير فى سورة الحجر ثم ضرب عليه لقوله تعالى فى الآية(٨٥) من سورة الإسراء : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا » فهى صريحة أو كالصريحة فى أن الروح من علم الله تعالى ، فالإمساك عن تعريفها أولى .

ومنها : أن المحلى قال فى سورة الحج « الصابئون : فرقة من اليهود » ، والسيوطى فى سورة البقرة تابعه على ذلك وزاد عليه « أو النصارى » بيانا منه لقول ثان [1] .... وهكذا تلمح الخلاف بين الشيخين قليلا نادراً .

ثم إن هذا التفسير ، غاية فى الاختصار والإيجاز ، حتى لقد ذكر صاحب كشف الظنون عن بعض علماء اليمن أنه قال « عددت حروف القرآن وتفسيره للجلالين فوجدتهما متساويين إلى سورة المزمل . ومن سورة المدثر التفسير زائد على القرآن ، فعلى هذا يجوز حمله بغير الوضوء » اهـ [2]

ومع هذا الاختصار ، فالكتاب قيم فى بابه ، وهو من أعظم التفاسير انتشاراً ، وأكثرها تداولا ونفعاً ، وقد طبع مراراً كثيرة ، وظفر بكثير من تعاليق العلماء وحواشيهم عليه ، ومن أهم هذه الحواشى : حاشية الجمل ، وحاشية الصاوى ، وهما متداولتان بين أهل العلم .

وذكر صاحب كشف الظنون : أن عليه حاشية لشمس الدين محمد بن العلقمى سماها : قبس النيرين ، فرغ من تأليفها سنة ٩٥٢ هـ اثنتين وخمسين وتسعمائة ، وحاشية مسماة بالجمالين ، لمولانا الفاضل نور الدين على بن سلطان محمد القارى نزيل مكة المكرمة ، والمتوفى بها عام ١٠١٠ هـ عشر وألف ،

---

(١) خاتمة الجزء الأول من تفسير الجلالين ص ٢٣٨ .

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ٢٣٦ .

وشرح لجلال الدين محمد بن محمد الكرخي ، وهو كبير فى مجلدات سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين ، وله حاشية صغرى) اه[1]. . . . .
ولكن شيئا مما ذكره صاحب كشف الظنون لم يقع تحت أيدينا ، ولم نظفر بالاطلاع عليه .

٨ — السراج المنير

فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير
للخطيب الشربينى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو الإمام العلامة شمس الدين ، محمد بن محمد الشربينى ، القاهرى الشافعى الخطيب . تلقى العلم عن كثير من مشايخ عصره ؛ فمنهم الشيخ أحمد البرلسى ، والنور المحلى ، والبدر المشهدى ، والشهاب الرملى ، وغيرهم . ولما أنس منه أشياخه ورأوه أهلا للفتوى والتدريس أجازوه بها ، فدرس وأفتى فى حياتهم ، وانتفع به خلائق لايحصون .

ولقد كان رحمه الله على جانب عظيم من الصلاح والورع ، وقد أجمع أهل مصر على ذلك ، ووصفوه بالعلم والعمل ، والزهد والورع ، وكثرة التنسك والعبادة . وكان من عادته أن يعتكف من أول رمضان فلا يخرج من الجامع إلا بعد صلاة العيد ، وكان إذا حج لا يركب إلا بعد تعب شديد ، وكان يؤثر

---

(١) المرجع السابق ، وقد تقدم عند الكلام عن تفسير الدر المنثور ، أن السيوطى شرع فى تأليف تفسير سماه مجمع البحرين ومطلع البدرين ، ولم تعرف هل أتمه أولا ، وهو بالضرورة غير مجمع البحرين ومطلع البدرين لجلال الدين ، محمد ابن محمد الكرخى وإن كان صاحب كشف الظنون عند الكلام عن مجمع البحرين ومطلع البدرين لم يذكر غير ما نسب للجلال السيوطى .

الخمول ولا يكترث بأشغال الدنيا . وعلى الجملة ، فقد كان آية من آيات الله تعالى ، وحجة من حججه على خلقه . توفى فى عصر يوم الخميس ثانى شعبان سنة ٩٧٧ هـ سبع وسبعين وتسعمائة من الهجرة . ومن أهم مؤلفاته شرحه لكتاب المنهاج وكتاب التنبيه ، وهما شرحان عظيمان ، جمع فيهما تحريرات أشياخه بعد القاضى زكريا ، وأقبل الناس على قراءتهما وكتابتهما فى حياته ، وتفسيره لكتاب الله تعالى ، هو الذى نحن بصدده الآن [١] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

ذكر مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته : أن أئمة السلف ألفوا فى التفسير كتبا ، كل على قدر فهمه ومبلغ علمه ، وأنه خطر له أن يتقى أثرهم ، ويسلك طريقهم ، ولكنه تردد فى ذلك مدة من الزمن ؛ مخافة أن يدخل تحت الوعيد الوارد فى حق من فسر القرآن برأيه أو بغير علم ، ثم ذكر أنه استخار الله تعالى فى حضرته ، بعد أن صلى ركعتين فى روضته ، وسأله أن يشرح صدره لذلك وييسره له ، فشرح الله له صدره ، ولما رجع من سفره ، كتم ذلك فى سره ، حتى قال له شخص من أصحابه : إنه رأى فى المنام أن النبى صلى الله عليه وسلم أو الشافعى يقول : قل لفلان يعمل تفسيراً على القرآن . وذكر المؤلف أنه لم يمض عليه إلا القليل حتى قرر فى وظيفة مشيخة تفسير فى البيمرستان ، وذكر أن جماعة من أصحابه ممن لهم شغف بالعلم ، طلبوا منه بعد فراغه من شرح منهاج الطالبين ، أن يجعل لهم تفسيراً وسيطاً بين الطويل الممل والقصير المخل . فأجابهم إلى ذلك ، متمثلا وصية الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، حيث قال فيما يرويه عنه أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه : (إن رجالا يأتونكم من أقطار الأرض يتفقهون فى الدين ، فإذا أتوكم فاستوصوا بهم خيراً) ومقتديا بالماضين من السلف ، فى تدوين العلم إبقاء على الخلف ، وذكر أنه ليس على ما فعلوه مزيد ، ولكن لا بد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد ، وقصر للطالبين

---

(١) انظر ترجمته فى شذرات الذهب جـ ٨ ص ٣٨٤ .

فيه الجد والجهد ، تنبيها للمتوقفين ، وتحريضاً للمتثبطين ، وليكون ذلك عوناله وللقاصرين أمثاله (كما يقول) .

وذكر أنه اقتصر فيه على أرجح الأقوال ، وإعراب مايحتاج إليه عند السؤال ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية، وأعاريب محلها كتب العربية، وذكر أن مايذكره فيه من القراءات فهو من السبع المشهورات . قال : وقد أذكر بعض أقوال وأعاريب لقوة مداركها ، أو لورودها ولكن بصيغة قيل ؛ ليعلم أن المرضى أولها . وسميته « السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير » ... ثم قال : وقد تلقيت التفسير — بحمد الله — من تفاسير متعددة رواية ودراية، عن أئمة ظهرت وبهرت مفاخرهم واشتهرت وانتشرت مآثرهم ... »

وقال فى خاتمة الكتاب : فدونك تفسيراً كأنه سبيكة عسجد ، أو در منضد ، جمع من التفاسير معظمها ، ومن القراءات متواترها ، ومن الأقاويل أظهرها ، ومن الأحاديث صحيحها وحسنها ، محرر الدلائل فى هذا الفن ، مظهراً لدقائق استعملنا الفكر فيها إذا الليل جن ... إلخ » .

وقد قرأت فى هذا التفسير فوجدته تفسيراً سهل المأخذ ، ممتع العبارة ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخل . نقل فيه صاحبه بعض تفسيرات مأثورة عن السلف ، كما أنه يذكر أحيانا أقوال من سبقه من المفسرين كالزمخشرى والبيضاوى ، والبغوى ، وقد يوجه مايذكره من هذه الأقوال ويرتضيها . وقد يناقشها ويرد عليها [1] .

---

(١) انظر ما نقله عن البيضاوى متابعا فيه الزمخشرى ، وما ذكره من رد أبى حيان عليه ، عند قوله تعالى فى الآية ١٨٠ من سورة البقرة « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقا على المتقين » ج ١ ص ١١١ .

موقفه من القراءات والأعاريب والحديث :

وقد وفى فيه صاحبه بما وعد فلم يذكر من القراءات إلا ما تواتر منها . ولم يقحم نفسه فيما لا يعنى المفسر من ذكر الأعاريب التى لاتمت إلى التفسير بسبب ، كما أنه وفى بما التزمه من أنه لا يذكر فيه إلا حديثاً صحيحاً أو حسناً ، ولهذا نراه يتعقب الزمخشرى والبيضاوى فيما ذكراه من الأحاديث الموضوعة فى فضائل القرآن سورة سورة ، كما ينبه على الأحاديث الضعيفة إن روى شيئا منها فى تفسيره .

فمثلا فى آخر سورة آل عمران يقول ما نصه : « روى الطبرى لكن بإسناد ضعيف : من قرأ السورة التى يذكر فيها آل عمران يوم الجمعة صلى الله عليه وملائكته حتى تحجب الشمس ... أى تغيب ، وما رواه البيضاوى تبعاً للزمخشرى وتبعهما ابن عادل من أنه صلى الله عليه وسلم قال : من قرأ سورة آل عمران أعطى بكل آية منها أمانا على جسر جهنم ، فهو من الأحاديث الموضوعة على أبى بن كعب فى فضائل السور ، فليتنبه لذلك ويحذر منه، وقد نبه أئمة الحديث قديماً وحديثاً على ذلك، وعابوا من أورده من المفسرين فى تفاسيرهم، والله أعلم » اهـ (١)

وفى آخر سورة الأعراف يقول ما نصه : (والحديث الذى ذكره البيضاوى تبعاً للزمخشرى وهو : من قرأ سورة الأعراف جعل الله يوم القيامة بينه وبين إبليس سداً ، وكان آدم شفيعاً له يوم القيامة ، حديث موضوع) اهـ(٢)

وفى آخر سورة الجاثية يقول ما نصه:(وما رواه البيضاوى تبعاً للزمخشرى من أنه صلى الله عليه وسلم قال: « من قرأ سورة حم الجاثية ، ستر الله عورته، وسكن روعته يوم الحساب ، حديث موضوع) (٣)

---

(١) جـ ١ ص ٢٦٥ . (٢) جـ ٣ ص ٥٦٨ . (٣) جـ ٣ ص ٥٦٨ .

اهتمامه بالنكت التفسيرية ومشكلات القرآن :

ومما نلحظه فى هذا التفسير ، أنه يورد بعض النكت التفسيرية ، وبعض الإشكالات والإجابة عنها ، تارة بقوله : تنبيه ، وتارة بقوله : فإن قيل كذا أجيب بكذا .

عنايته بالمناسبات بين الآيات :

كما أنه شديد العناية بذكر المناسبات بين آيات القرآن،عظيم الاهتمام بتقرير الأدلة وتوجيهها .

موقفه من المسائل الفقهية :

كما أننا نلاحظ عليه أنه يستطرد إلى ذكر الأحكام الفقهية . ومذاهب العلماء وأدلتهم ، وإن كان مقلا فى هذه الناحية ، فلا يتوسع ولا يكثر من ذكر الفروع .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة : (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم والله غفور حليم) نراه يعرض لبعض أقوال العلماء فى معنى اليمين اللغو،ثم بعد الفراغ من تفسير الآية يقول : (تنبيه) ثم يذكر ماينعقد به اليمين،وما يترتب على الحنث فى اليمين المنعقدة ، وهل تجب الكفارة بالحنث فى اليمين الغموس أو لا تجب ؟ فيذكر عن الشافعية أنهم يقولون بوجوبها ، وعن بعض العلماء أنه لا كفارة فيها كأكثر الكبائر ، ويعرض لحكم الحلف بغير الله كالكعبة والنبى والأب وغير ذلك (١) .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة (الطلاق

---

(١) ج ١ ص ١٣٩ .

مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ...) يقول بعد الفراغ من التفسير: (تنبيه) اختلف العلماء فيما إذا كان أحد الزوجين رقيقا ، فذهب الأكثر ومنهم الشافعى رضى الله عنه ، إلى أنه يعتبر عدد الطلاق بالزوج ، فالحر يملك على زوجته الأمة ثلاث تطليقات ، والعبد لا يملك على زوجته الحرة إلا طلقتين . وذهب الأقل ومنهم أبو حنيفة رضى الله تعالى عنه ، إلى أن الاعتبار بالمرأة فى عدد الطلاق كالعدة ، فيملك العبد على زوجته الحرة ثلاث طلقات ، ولا يملك الحر على زوجته الأمة إلا طلقتين) اهـ[1] .

خوضه فى الإسرائيليات :

هذا ، ولم يخل تفسير الخطيب ، من ذكر بعض القصص الإسرائيلى الغريب . وذلك بدون أن يتعقبه بالتصحيح أو التضعيف .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير ... الآية » نراه يروى خبرا طويلا عن كعب فيه أنه صاح ورشان عند سليمان عليه السلام فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال : إنه يقول : لدوا للموت وابنوا للخراب . وصاحت فاختة فقال : أتدرون ما تقول ؟ قالوا : لا . قال : فإنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا . وصاح طاوس فقال : أتدرون ما يقول ؟ قالوا : لا . قال : فإنه يقول : كما تدين تدان ... إلى آخر ما ذكره من صيحات حيوانات متعددة ، ومعانى هذه الصيحات ، ثم يروى ما يشبه هذا عن مكحول ، وعن فرقد السنجى كما يروى بعد ذلك أن جماعة من اليهود سألوا ابن عباس عن معانى ما تقوله بعض الطيور ، وما كان من جواب ابن عباس عن ذلك ، وهو شبيه بما تقدم أيضا ، ومع كون القصة فى نهاية الغرابة والبعد فإن الخطيب يمر عليها مر الكرام ولا يعقب عليها بكلمة واحدة[2] .

---

(١) جـ ١ ص ١٤١ .
(٢) جـ ٣ ص ٤٣ – ٤٤ .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة النمل أيضا (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) نراه يقص لنا عن وهب بن منبه وغيره قصة غريبة فيها بيان نوع هدية بلقيس لسليمان ، وما كان من اختبارها له ، وما كان من سليمان عليه السلام من إجابته على ما اختبرته به ، وإظهاره لعظمة ملكه وقوة سلطانه ، مما يبعث الدهشة ويثير العجب ، ومع ذلك لا يعقب على ما رواه بكلمة واحدة[1] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الصافات (وإن إلياس لمن المرسلين) نراه يقول : (تنبيه) أذكر فيه شيئا من قصته عليه السلام ... ثم يروى لنا قصة طويلة وعجيبة عن علماء السير والأخبار ، وبعد الفراغ منها لا يتعقبها بتصحيح أو تضعيف[2] .

ولكن الخطيب إن مر على مثل هذه القصص بدون أن يعقب عليها ، لا يرضى لنفسه أن يمر على قصة فيها ما يخل بمقام النبوة إلا بعد أن يعقب عليها بما يظهر بطلانها وعدم صحتها .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤) من سورة (ص) « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . . . الآيات » إلى آخر القصة ، نراه يذكر لنا عبارة الفخر الرازى التى ذكرها فى تفسيره لتفنيد الروايات الباطلة فى هذه القصة ، وتقرير ما هو لائق فى حق نبى الله داود عليه السلام[3] .

... وهكذا نلاحظ على هذا التفسير أنه يغلب عليه الجانب القصصى بالنسبة لغيره من بقية جوانب التفسير .

---

(١) ج ٣ ص ٥٤ — ٥٥ .
(٢) ج ٣ ص ٢٦٦ — ٢٦٩ .
(٣) ج ٣ ص ٣٨٤ — ٣٨٦ .

كثرة نقوله عن تفسير الفخر الرازى :

هذا ولا يفوتنا أن الخطيب الشربينى ، كثيراً ما يعتمد على التفسير الكبير للفخر الرازى ، والذى يقرأ فى تفسيره هذا ، يجد أنه يكثر من النقول عنه .

والكتاب مطبوع فى أربعة أجزاء كبار ، ومتداول بين أهل العلم ، لما فيه من السهولة والجمع لخلاصة التفاسير التى سبقته مع الدقة والإيجاز .

٩ — إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم
لأبى السعود

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو السعود محمد بن محمد بن مصطفى ، العمادى ، الحنفى المولود فى سنة ٨٩٣ هـ ثلاث وتسعين وثمانمائة من الهجرة بقرية قريبة من القسطنطينية ، وهو من بيت عرف أهله بالعلم والفضل حتى قال بعضهم فيه : تربى فى حجر العلم حتى ربى ، وارتضع ثدى الفضل إلى أن ترعرع وحبا ، ولا زال يخدم العلوم الشريفة حتى رحب باعه ، وامتد ساعده واشتد اتساعه . قرأ كثيرا من كتب العلم على والده ، وتتلمذ لكثير من جلة العلماء ، فاستفاد منهم علماً جما ، ثم طارت سمعته ، وفاضت شهرته ، وعظم صيته ، وتولى التدريس فى كثير من المدارس التركية ، ثم قلد قضاء بروسه ثم نقل إلى قضاء القسطنطينية ، ثم نقل إلى قضاء ولاية العسكر فى ولاية روم أيلى ، ودام على قضائها مدة ثمان سنين ، ثم تولى أمر الفتوى بعد ذلك ، فقام بها خير قيام بعد أن اضطرب أمرها بانتقالها من يد إلى يد ، وكان ذلك سنة ٩٥٢ هـ اثنتين وخمسين وتسعمائة من الهجرة . ومكث فى منصب الإفتاء نحواً من ثلاثين سنة أظهر فيها الدقة العلمية التامة ، والبراعة فى الفتوى والتفنن فيها ، وقد ذكروا

عنه أنه كان يكتب جواب الفتوى على منوال ما يكتبه السائل من الخطاب ، فإن كان السؤال منظوماً ، كان الجواب منظوماً كذلك ، مع الاتفاق بينهما فى الوزن والقافية ، وإن كان السؤال نثراً مسجعاً ، كان الجواب مثله ، وإن كان بلغة العرب فالجواب بلغة العرب ، وإن كان بلغة الترك ، فالجواب بلغه الترك وهكذا مما يشهد للرجل بسعة أفقه وغزارة مادته . ولقد قرأنا فى ترجمته شيئاً من الاستفتاء والفتوى ، فوجدنا صدق ما قيل عنه فى ذلك .

وكان — رحمه الله — كما قيل عنه من الذين قعدوا من الفضائل والمعارف على سنامها وغاربها ، وسارت بذكره الركبان فى مشارق الأرض ومغاربها ، ولقد حاز قصب السبق بين أقرانه ، ولم يقدر أحد أن يجاريه فى ميدانه ، ولقد كان اشتغاله بالتدريس وتنقله بين كثير من المدارس وتوليه للقضاء ثم الفتوى سببا عائقاً له عن التفرغ والتصنيف والتأليف ، ولكنه اختلس فرصا من وقته فصرفها إلى كتابة التفسير ، فأخرج للناس كتابه الذى نحن بصدده ، كما أنه كتب بعض الحواشى على تفسير الكشاف ، وكتب حاشية على العناية من أول كتاب البيع من الهداية . وعلى الجملة فقد جمع صاحبنا بين العلم والأدب : فبينما نراه مجوداً فيما كتبه وألفه من كتب العلم ، نراه مبدعاً غاية الإبداع فيما أثر عنه من منثور ومنظوم ، ولا أظن أن صاحبه الذى رثاه بعد وفاته قد تغالى فى الثناء ، أو اشتط فى الرثاء حيث يقول فى مرثيته الطويلة :

ما العلم إلا ما حويت حقيقة وعلوم غيرك فى الورى كسراب

توفى رحمه الله بمدينة القسطنطينية ، ودفن بجوار أبى أيوب الأنصارى ، وذلك فى أوائل جمادى الأولى سنة ٩٨٢ هـ إثنتين وثمانين وتسعمائة من الهجرة . فرحمه الله رحمة واسعة (١) .

---

(١) يراجع العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم الموجود بهامش وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٢٨٢ — ٣٠٥

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

قلنا : إن صاحب هذا التفسير شغل كثيرا بالتدريس والقضاء والفتوى ، ولكنه اختلس فرصا من وقته ألف فيها كتابه فى التفسير ، قلنا هذا فيما سبق ، والمؤلف نفسه يقرر هذا فى مقدمة تفسيره، ولم يعرف أنه أخرج تفسيره للناس دفعة واحدة ، بل ذكروا أنه ابتدأ فيه ، فلما وصل إلى آخر سورة (ص) عرض له من الشواغل ما جعله يقف فى تفسيره عند هذا الحد ، فبيض ما كتب فى شعبان سنة ٩٧٣ هـ ثلاث وسبعين وتسعمائة من الهجرة ، ثم أرسله إلى الباب العالى ، فتلقاه السلطان سليمان خان بحسن القبول ، وأنعم عليه بما أنعم ، وزاد فى وظيفته كل يوم خمسمائة درهم ، ثم تيسر له بعد ذلك إتمامه ، فأتمه بعد سنة، ثم أرسله إلى السلطان ثانيا بعد إتمامه ، فقابله السلطان بمزيد لطفه وإنعامه ، وزاد فى وظيفته مرة أخرى .

والحق أن هذا التفسير غاية فى بابه ، ونهاية فى حسن الصوغ وجمال التعبير كشف فيه صاحبه عن أسرار البلاغة القرآنية ، بما لم يسبقه أحد إليه ، ومن أجل ذلك ذاعت شهرة هذا التفسير بين أهل العلم ، وشهد له كثير من العلماء بأنه خير ما كتب فى التفسير . فصاحب العقد المنظوم فى ذكر أفاضل الروم ، يقول عنه فى كتابه « وقد أتى فيه بما لم تسمح به الأزمان ، ولم تقرع به الآذان ، فصدق المثل السائر كم ترك الأول للآخر » . وصاحب الفوائد البهية ، فى تراجم الحنفية يقول « وقد طالعت تفسيره وانتفعت به وهو تفسير حسن ، ليس بالطويل الممل ، ولا بالقصير المخل ، متضمن لطائف ونكات ، ومشتمل على فوائد وإشارات » ونقل عن صاحب الكشف أنه قال « انتشرت نسخه فى الأقطار ، ووقع له التلقى بالقبول من الفحول الكبار ، لحسن سبكه وصدق تعبيره ، فصار يقال له خطيب المفسرين . ومن المعلوم أن تفسير أحد سواه بعد الكشاف والقاضى لم يبلغ إلى ما بلغه من رتبة الاعتبار [١] .

(١) الفوائد البهية ص ٨٢ .

ولم يظفر هذا التفسير كغيره من التفاسير بكثرة الحواشي والتعليقات التى تكشف عن مراده . أو تتعقبه فى بعض ما يقول ، ولم يقع تحت يدنا شىء من ذلك ، غير أننا نجد فى كشف الظنون عند الكلام عن هذا التفسير ، ذكر ما كتب عليه من التعليقات فمن ذلك : تعليقة الشيخ أحمد الرومى الآحصارى المتوفى سنة ١٠٤١هـ إحدى وأربعين وألف من الهجرة، من سورة الروم إلى سورة الدخان . وتعليقة الشيخ رضى الدين بن يوسف القدسى ، علقها إلى قريب من النصف ، وأهداها إلى المولى أسعد بن سعد الدين ، حين دخل المقدس زائراً ، وكان دأبه فيها نقل كلام العلامتين، الزمخشرى والبيضاوى وكلام ذلك الفاضل (أبى السعود) بقوله : قال الكشاف ، وقال القاضى ، وقال المفتى ، ثم المحاكمة فيما بينهم (١) . هذا ما ذكره صاحب كشف الظنون ، ولا نعلم أحداً كتب عليه غير من ذكرهما .

قرأت مقدمة الكتاب لمؤلفه ، فوجدته يثنى كثيراً على تفسير الكشاف ، وأنوار التنزيل للبيضاوى ، ويذكر أنه قرأهما قبل أن يؤلف تفسيره ، ثم يقول (ولقد كان فى سوابق الأيام ، وسوالف الدهور والأعوام ، أوان اشتغالى بمطالعتهما وممارستهما ، وزمان انتصابى لمفاوضتهما ومدارستهما ، يدور فى خلدى على استمرار ، آناء الليل وأطراف النهار ، أن أنظم درر فوائدهما فى سمط دقيق، وأرتب غرر فرائدهما على ترتيب أنيق، وأضيف إليهما ما ألفيته فى تضاعيف الكتب الفاخرة من جواهر الحقائق ، وصادفته فى أصداف العيالم الزاخرة من زواهر الدقائق ، وأسلك خلالها بطريق الترصيع ، على نسق أنيق وأسلوب بديع ، حسبما تقتضيه جلالة شأن التنزيل ، ويستدعيه جزالة نظمه الجليل ، ما سنح للفكر العليل بالعناية الربانية ، وسمح به النظر الكليل بالهداية السبحانية ، من عوارف معارف تمتد إليها أعناق الهمم من كل ماهر لبيب. وغرائب رغائب ترنو إليها أحداق الأمم من كل نحرير أريب ، وتحقيقات

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٦٧

رصينة تقيل عثرات الأفهام فى مداحض الأقدام ، وتدقيقات متينة تزيل خطرات الأوهام من خواطر الأنام ، فى معارك أفكار تشتبه فيها الشئون ، ومدارك أنظار تختلط فيها الظنون ، وأبرز من وراء أستار الكمون ، من دقائق السر المخزون فى خزائن الكتاب المكنون ، ما تطمئن إليه النفوس ، وتقر به العيون ، من خفايا الرموز وخبايا الكنوز . . ناويا أن أسميه عند تمامه ، بتوفيق الله وأنعامه (إرشاد العقل السليم ، إلى مزايا الكتاب الكريم) [1] .

ومن هنا يتبين لنا ، أن أبا السعود يعتمد فى تفسيره على تفسير الكشاف والبيضاوى وغيرهما ممن تقدمه ، غير أنه لم يغتر بما جاء فى الكشاف من الاعتزالات . ولهذا لم يذكرها إلا على جهة التحذير منها ، مع جريانه على مذهب أهل السنة فى تفسيره ، ولكن نجده قد وقع فيما وقع فيه صاحب الكشاف ، وصاحب أنوار التنزيل من أنه ذكر فى آخر كل سورة حديثاً عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضلها ، ومع لقارئها من الثواب والأجر عند الله ، مع أن هذه الأحاديث موضوعه باتفاق أهل العلم جميعاً .

عنايته بالكشف عن بلاغة القرآن وسر إعجازه :

قرأت فى هذا التفسير فلاحظت عليه — غير ما تقدم — أنه كثير العناية بسبك العبارة وصوغها ، مولع كل الولوع بالناحية البلاغية للقرآن ، فهو يهتم بأن يكشف عن نواحى القرآن البلاغية ، وسر إعجازه فى نظمه وأسلوبه ، وبخاصة فى باب الفصل والوصل ، والإيجاز والإطناب ، والتقديم والتأخير ، والاعتراض والتذييل ، كما أنه يهتم بإبداء المعانى الدقيقة التى تحملها التراكيب القرآنية بين طياتها ، مما لا يكاد يظهر إلا لمن أوتى حظا وافراً من المعرفة

(١) تفسير أبو السعود ج ١ ص ٣ ، ٤ من المقدمة .

بدقائق اللغة العربية ، ويكاد يكون صاحبنا هو أول المفسرين المبرزين فى هذه الناحية .

إهتمامه بالمناسبات وإلمامه ببعض القرآت :

ونلحظ على أبى السعود فى تفسيره أنه كثيراً ما يهتم بإبداء وجوه المناسبات بين الآيات ، كما نلحظ عليه أنه يعرض أحيانا لذكر القرآت ، ولكن بقدر ما يوضح به المعنى ، ولا يتوسع كما يتوسع غيره .

إقلاله من رواية الإسرائيليات :

ومن ناحية أخرى نجد أنه مقل فى سرد الإسرائيليات ، غير مولع بذكرها وإن ذكرها أحيانا فإنه لا يذكرها على سبيل الجزم بها ، والقطع بصحتها ، بل يصدر ذكر الرواية بقوله : روى ، أو قيل ، مما يشعر بضعفها ، وإن كان لا يعقب عليها بعد ذلك ، ولعله يكتفى بهذه الإشارة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل (وانى مرسلة إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون) يقول : روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى وحليهم الأساور والأطواق . . . إلى آخر ما ذكره من القصة العجيبة الغريبة [١] ، ومع ذلك فلم يعقب عليها ولا بكلمة واحدة ، ولعله اكتفى كما قلت بما يشير إليه لفظ روى من عدم صحة ما ذكره .

روايته عن بعض من اشتهر بالكذب :

كما نلاحظ عليه أنه يروى بعض القصص عن طريق الكلبى عن أبى صالح فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥) وما بعدها من سورة سبأ

---

(١) جـ ٤ ص ١٣١

لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال . . . الآيات إلى آخر القصة) نجده يقول : وأصل قصتهم ما رواه الكلبي عن أبى صالح : أن عمرو ابن عامر من أولاد سبأ ، وبينهما اثنى عشر أباً ، وهو الذى يقال له مزيقيا ابن ماء السماء ، أخبرته طريفة الكاهنة بخراب سد مأرب ، وتغريق سيل العرم الجنتين . . . . . » ويمضى فى ذكر روايات أخرى عن رجال آخرين[1] مع العلم أن الكلبي متهم بالكذب . فقد قال السيوطى فى خاتمة الدر المنثور ما نصه (الكلبى اتهموه بالكذب وقد مرض فقال لأصحابه فى مرضه : كل شىء حدثتكم عن أبى صالح كذب)[2] ولكن نجد أبا السعود ، يخلص من تبعة هذه الروايات التى سردها بقوله أخيراً (والله تعالى أعلم) وهذا يشعر بأنه يشك فى صدقها وصحتها .

إقلاله من ذكر المسائل الفقهية :

كذلك نجد أبا السعود — رحمه الله — يتعرض فى تفسيره لبعض المسائل الفقهية ، ولكنه مقل جداً ، ولا يكاد يدخل فى المناقشات الفقهية والأدلة المذهبية ، بل نجده يسرد المذاهب فى الآية ولا يزيد على ذلك .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم . . . الآية » نجده يعرض للخلاف المذهبى فى تحديد معنى اليمين اللغو فيقول « وقد اختلف فيه ، فعندنا هو أن يحلف على شىء يظنه على ما حلف عليه ثم يظهر خلافه ، فإنه لا يقصد فيه الكذب . وعند الشافعى - رحمة الله - هو قول العرب لا والله وبلى والله ، مما يؤكدون به كلامهم من غير إخطار الحلف بالبال)[3] ولا يزيد على ذلك بل يمضى فينزل الآية على قول الحنفية

---

(١) ج ٤ ص ٢٢٩ .

(٢) ج ٦ ص ٤٢٣ .

(٣) ج ١ ص ١٧١

تناوله لما تحتمله الآيات من وجوه الإعراب :

كما نلحظ عليه أنه يعرض أحياناً للناحية النحوية إذا كانت الآية تحتمل أوجهاً من الأعراب ، وينزل الآية على اختلاف الأعاريب ، ويرجح واحدا منها ويدلل على رجحانه .

وعلى الجملة . فالكتاب دقيق غاية الدقة ، بعيد عن خلط التفسير بما لا يتصل به ، غير مسرف فيما يضطر إليه من التكلم عن بعض النواحى العلمية، وهو مرجع مهم يعتمد عليه كثير ممن جاء بعده من المفسرين ، وقد طبع هذا التفسير مراراً ، وهو يقع فى خمسة أجزاء متوسطة الحجم .

١٠ – روح المعانى
فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى
الآلوسى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو : أبو الثناء ، شهاب الدين ، السيد محمود أفندى الآلوسى [١] البغدادى . ولد فى سنة ١٢١٧ هـ سبع عشرة ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية ، فى جانب الكرخ من بغداد .

كان رحمه الله شيخ العلماء فى العراق ، وآية من آيات الله العظام ، ونادرة من نوادر الأيام . جمع كثيراً من العلوم حتى أصبح علامة فى المنقول والمعقول فهامة فى الفروع والأصول ، محدثاً لا يجارى . ومفسراً لكتاب الله لا يبارى أخذ العلم عن فحول العلماء . منهم والده العلامة ، والشيخ خالد النقشبندى

---

(١) الآلوسى : نسبة إلى قرية اسمها آلوس ، وهى جزيرة فى منتصف نهر الفرات بين الشام وبغداد كانت موطن أجداده .

والشيخ على السويدى، وكان رحمه الله غاية فى الحرص على تزايد علمه، وتوفير نصيبه منه ، وكان كثيرا ماينشد :

سهرى لتنقيح العلوم ألذ لى من وصل غانية وطيب عناق

اشتغل بالتدريس والتأليف وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ودرس فى عدة مدارس، وعندما قلد إفتاء الحنفية ، شرع يدرس سائر العلوم فى داره الملاصقة لجامع الشيخ عبد الله العاقولى فى الرصافة . وقد تتلمذ له وأخذ عنه خلق كثير من قاصى البلاد ودانيها ، وتخرج عليه جماعات من الفضلاء من بلاد مختلفة كثيرة ، وكان ـ رحمه الله ـ يواسى طلبته من ملبسه ومأكله ، ويسكنهم البيوت الرفيعة من منزله، حتى صار فى العراق العلم المفرد، وانتهت إليه الرياسة لمزيد فضله الذى لايجحد ، وكان نسيج وحده فى النثر وقوة التحرير ، وغزارة الإملاء وجزالة التعبير ، وقد أملى كثيرا من الخطب والرسائل ، والفتاوى والمسائل ، ولكن أكثر ذلك ـ على قرب العهد ـ درس وعفت آثاره ، ولم تظفر الأيدى إلا بالقليل منه ، وكان ذا حافظة عجيبة، وفكرة غريبة، وكثيرا ما كان يقول : « مااستودعت ذهنى شيئا فخاننى ، ولادعوت فكرى لمعضلة إلا وأجابنى » . قلد إفتاء الحنفية فى السنة الثامنة والأربعين بعد المائتين والألف من الهجرة المحمدية ، وقبل ذلك بأشهر، ولى أوقاف المدرسة المرجانية، إذ كانت مشروطة لأعلم أهل البلد ، وتحقق لدى الوزير الخطير على رضا باشا ، أنه ليس فيها من يدانيه من أحد . وفى شوال سنة ١٢٦٣ هـ ثلاث وستين ومائتين بعد الألف انفصل من منصب الإفتاء ، وبقى مشتغلا بتفسير القرآن الكريم حتى أتمه ، ثم سافر إلى القسطنطينية فى السنة السابعة والستين بعد المائتين والألف، فعرض تفسيره على السلطان عبد المجيد خان ، فنال إعجابه ورضاه ، ثم رجع منها سنة ١٢٦٩ هـ تسع وستين ومائتين بعد الألف .

وكان ـ رحمه الله ـ عالما باختلاف المذاهب ، مطلعا على الملل والنحل ، سلفى الاعتقاد ، شافعى المذهب ، إلا أنه فى كثير من المسائل يقلد الإمام

الأعظم أبا حنيفة النعمان رضى الله عنه ، وكان فى آخر أمره يميل إلى الاجتهاد.
ولقد خلف ـ رحمه الله ـ للناس ثروة علمية كبيرة ونافعة ؛ فمن ذلك تفسيره لكتاب الله ، وهو الذى نحن بصدده الآن ، وحاشيته على القطر ، كتب منها فى الشباب إلى موضع الحال ، وبعد وفاته أتمها ابنه السيد نعمان الآلوسى ، وشرح السلم فى المنطق ، وقد فقد ، ومنها الأجوبة العراقية عن الأسئلة اللاهورية، والأجوبة العراقية على الأسئلة الإيرانية ، ودرة الغواص فى أوهام الخواص ، والنفحات القدسية فى المباحث الإمامية ، والفوائد السنية فى علم آداب البحث .

وقد توفى رحمه الله فى يوم الجمعة الخامس والعشرين من ذى القعدة سنة ١٢٧٠ هـ سبعين ومائتين بعد الألف من الهجرة ودفن مع أهله فى مقبرة الشيخ معروف الكرخى فى الكرخ ، فرضى الله عنه وأرضاه[١] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

ذكر مؤلف هذا التفسير فى مقدمته أنه منذ عهد الصغر ، لم يزل متطلباً لاستكشاف سر كتاب الله المكتوم ، مترقباً لارتشاف رحيقه المختوم ، وأنه طالما فرق نومه لجمع شوارده ، وفارق قومه لوصال خرائده ، لا يرفل فى مطارف اللهو كما يرفل أقرانه ، ولا يهب نفائس الأوقات لخسائس الشهوات كما يفعل إخوانه ، وبذلك وفقه الله للوقوف على كثير من حقائقه ، وحل وفير من دقائقه ، وذكر أنه قبل أن يكمل سنه العشرين ، شرع يدفع كثيراً من الإشكالات التى ترد على ظاهر النظم الكريم ، ويتجاهر بما لم يظفر به فى كتاب من دقائق التفسير ، ويعلق على ما أغلق مما لم تعلق به ظفر كل ذى ذهن خطير ، وذكر أنه استفاد من علماء عصره ، واقتطف من أزهارهم ، واقتبس من

---

(١) لخصنا هذه الترجمة من الترجمة الموجودة بأول النسخة الأميرية من تفسير الآلوسى .

أنوارهم ، وأودع علمهم صدره ، وأفنى فى كتابة فوائدهم حبره . . . ثم ذكر أنه كثيراً ما خطر له أن يحرر كتاباً يجمع فيه ما عنده من ذلك ، وأنه كان يتردد فى ذلك ، إلى أن رأى فى بعض ليالى الجمعة من شهر رجب سنة ١٢٥٢ ه اثنتين وخمسين ومائتين بعد الألف من الهجرة ، أن الله جل شأنه أمره بطى السموات والأرض ، ورتق فتقهما على الطول والعرض ، فرفع يداً إلى السماء ، . وخفض الأخرى الى مستقر الماء ، ثم انتبه من نومه وهو مستعظم لرؤيته ، فجعل يفتش لها عن تعبير ، فرأى فى بعض الكتب أنها إشارة إلى تأليف تفسير ، فشرع فيه فى الليلة السادسة عشرة من شهر شعبان من السنة المذكورة ، وكان عمره إذ ذاك أربعاً وثلاثين سنة ، وذلك فى عهد السلطان محمود خان بن السلطان عبد الحميد خان ، وذكر فى خاتمته أنه انتهى منه ليلة الثلاثاء لأربع خلون من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٦٧ ه سبع وستين ومائتين بعد الألف ، ولما انتهى منه جعل يفكر ما اسمه ؟ وبماذا يدعوه ؟ فلم يظهر له اسم تهتش له الضمائر ، وتبتش من سماعه الخواطر ، فعرض الأمر على وزير الوزراء على رضا باشا . فسماه على الفور : « روح المعانى ، فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى » .

هذه هى قصة تأليف هذا التفسير ، كما ذكرها صاحبه عليه رضوان الله .

وقد ذكروا أن سلوكه فى تفسيره هذا كان أمراً عظيما ، وسراً من الأسرار غريباً ، فإن نهاره كان للإفتاء والتدريس وأول ليلة لمنادمة مستفيد وجليس ، فيكتب بأواخر الليل منه ورقات ، فيعطيها صباحاً للكتاب الذين وظفهم فى داره فلا يكملونها تبييضاً إلا فى نحو عشر ساعات .

مكانة هذا التفسير من التفاسير التى تقدمته :

ثم إن هذا التفسير — والحق يقال — قد أفرغ فيه مؤلفه وسعه ، وبذل مجهوده حتى أخرجه للناس كتاباً جامعاً لآراء السلف رواية ودراية ، مشتملا

على أقوال الخالف بكل أمانة وعناية ، فهو جامع لخلاصة كل ما سبقه من التفاسير فتراه ينقل لك عن تفسير ابن عطية ، وتفسير أبى حيان ، وتفسير الكشاف وتفسير أبى السعود ، وتفسير البيضاوى ، وتفسير الفخر الرازى ، وغيرها من كتب التفسير المعتبرة . وهو إذا نقل عن تفسير أبى السعود يقول — غالباً — قال شيخ الإسلام . وإذا نقل عن تفسير البيضاوى يقول — غالباً — قال القاضى . وإذا نقل عن تفسير الفخر الرازى يقول — غالبا — قال الإمام . وهو إذ ينقل عن هذه التفاسير ينصب نفسه حكما عدلا بينها ، ويجعل من نفسه نقاداً مدققاً ، ثم يبدى رأيه حراً فيما ينقل ، فتراه كثيراً ما يعترض على ما ينقله عن أبى السعود ، أو عن البيضاوى ، أو عن أبى حيان ، أو عن غيرهم . كما تراه يتعقب الفخر الرازى فى كثير من المسائل . ويرد عليه على الخصوص فى بعض المسائل الفقهية ، إنتصاراً منه لمذهب أبى حنيفة ، ثم إنه إذا استصوب رأيا لبعض من ينقل عنهم ، انتصر له ورجحه على ما عداه .

موقف الآلوسى من المخالفين لأهل السنة :

والآلوسى سلفى المذهب سنى العقيدة ، ولهذا نراه كثيراً ما يفند آراء المعتزلة والشيعة ، وغيرهم من أصحاب المذاهب المخالفة لمذهبه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة البقرة « الله يستهزىء بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون » يقول بعد كلام طويل ما نصه « . . . وإضافته — أى الطغيان — إليهم ، لأنه فعلهم الصادر منهم ، بقدرهم المؤثرة بإذن الله تعالى فالاختصاص المشعرة به الإضافة . إنما هو بهذا الاعتبار ، لا باعتبار المحلية والاتصاف ، فإنه معلوم لا حاجة فيه إلى الإضافة ، ولا باعتبار الإيجاد استقلالا من غير توقف على إذن الفعال لما يريد ، فإنه اعتبار عليه غبار ، بل غبار ليس له اعتبار ، فلا تهولنك جعجعة الزمخشرى وقعقعته[1] .

---

(١) جـ ١ ص ١٦٠

وانظر إلى ما كتبه قبل ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من السورة نفسها « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » تجده يطيل بما لا يتسع لذكره المقام هنا ، من بيان إسناد الختم إليه عز وجل على مذهب أهل السنة ، ومن ذكر ما ذهب إليه المعتزلة فى هذه الآية وما رد به عليهم ، وفند به تأويلهم الذى يتفق مع مذهبهم الاعتزالى [١] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١) من سورة الجمعة « وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا إليها وتركوك قائما قل ما عند الله خير من اللهو ومن التجارة والله خير الرازقين » يقول ما نصه : « وطعن الشيعة لهذه الآية الصحابة رضى الله تعالى عنهم ، بأنهم آثروا دنياهم على آخرتهم، حيث انفضوا إلى اللهو والتجارة ، ورغبوا عن الصلاة التى هى عماد الدين ، وأفضل من كثير من العبادات ، لاسيما مع رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وروى أن ذلك قد وقع مراراً منهم . وفيه أن كبار الصحابة كأبى بكر وعمر وسائر العشرة المبشرة لم ينفضوا ، والقصة كانت فى أوائل زمن الهجرة ، ولم يكن أكثر القوم تام التحلى بحلية آداب الشريعة بعد ، وكان قد أصاب أهل المدينة جوع وغلاء سعر ، فخاف أولئك المنفضون اشتداد الأمر عليهم بشراء غيرهم ما يقتات به لو لم ينفضوا ، ولذا لم يتوعدهم الله على ذلك بالنار أو نحوها ، بل قصارى ما فعل سبحانه أنه عاتبهم ووعظهم ونصحهم . ورواية أن ذلك وقع منهم مراراً إن أريد بها رواية البيهقى فى شعب الإيمان عن مقاتل بن حيان أنه قال : بلغنى — والله تعالى أعلم — أنهم فعلوا ذلك ثلاث مرات ، فمثل ذلك لا يلتفت إليه ولا يعول عند المحدثين عليه. وإن أريد بها غيرها فليبين وليثبت صحته ، وأنى بذلك ؟ وبالجملة : الطعن بجميع الصحابة لهذه القصة التى كانت من بعضهم فى أوائل أمرهم - وقد عقبها منهم عبادات لا تحصى - سفه ظاهر وجهل وافر [٢]

---

(١) أنظر جـ ١ ص ١٣١ — ١٣٤

(٢) جـ ٢٨ ص ٩٤

الآلوسى والمسائل الكونية :

ومما نلاحظه على الآلوسى فى تفسيره ، أنه يستطرد إلى الكلام فى الأمور الكونية . ويذكر كلام أهل الهيئة وأهل الحكمة ، ويقر منه ما يرتضيه ، ويفند ما لا يرتضيه ، وإن أردت مثالا جامعاً ، فارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠) من سورة يس « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون »(١) .

وارجع إليه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة الطلاق « الله الذى خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن »(٢) . فسترى منه توسعاً فى هذه الناحية .

كثرة استطراده للمسائل النحوية :

كذلك يستطرد الآلوسى إلى الكلام فى الصناعة النحوية ، ويتوسع فى ذلك أحياناً إلى حد يكاد يخرج به عن وصف كونه مفسراً ، ولا أحيلك على نقطة بعينها ، فإنه لا يكاد يخلوا موضع من الكتاب من ذلك .

موقفه من المسائل الفقهية :

كذلك نجده إذا تكلم عن آيات الأحكام فإنه لا يمر عليها إلا إذا استوفى مذاهب الفقهاء وأدلتهم مع عدم تعصب منه لمذهب بعينه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة « . . . ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف حقاً على

(١) ج ٢٣ ص ١١ .
(٢) ج ٢٨ ص ١٢٥ — ١٢٨

المحسنين » يقول ما نصه . وقال الأمام مالك : المحسنون المتطوعون ، وبذلك استدل على استحباب المتعة وجعله قرينة صارفة للأمر إلى الندب وعندنا[١]: هى واجبة للمطلقات فى الآية ، مستحبة لسائر المطلقات . وعند الشافعى رضى الله عنه فى أحد قوليه : هى واجبة لكل زوجة مطلقة إذا كان الفراق من قبل الزوج إلا التى سمى لها وطلقت قبل الدخول ، ولما لم يساعده مفهوم الآية ولم يعتبر العموم فى قوله تعالى « وللمطلقات متاع بالمعروف » لأنه يحمل المطلق على المقيد . قال بالقياس، وجعله مقدماً على المفهوم ؛ لأنه من الحجج القطعية دونه ، وأجيب عما قاله مالك ، بمنع قصر المحسن على المتطوع . بل هو أعم منه ومن القائم بالواجبات ، فلا ينافى الوجوب ، فلا يكون صارفاً للأمر عنه مع ما انضم إليه من لفظ حقاً »[٢] .

وإذا أردت أن تتأكد من أن الآلوسى غير متعصب لمذهب بعينه فارجع إلى البحث الذى أفاض فيه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢٨) من سورة البقرة « والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء . . . الآية » تجده بعد أن يذكر مذهب الشافعية ، ومذهب الحنفية ، وأدلة كل منهم ، ومناقشاتهم يقول: « وبالجملة ، كلام الشافعية فى هذا المقام قوى ، كما لا يخفى على من أحاط بأطراف كلامهم ، واستقرأ ما قالوه ، تأمل ما دفعوا به من أدلة مخالفيهم »[٣].

موقفه من الإسرائيليات :

ومما نلاحظ على الآلوسى أنه شديد النقد للاسرائيليات والأخبار المكذوبة

---

(١) هذه اللفظة (وعندنا) تدل بوضوح على أن الآلوسى كان حنفى المذهب ، وما أكثر مثل هذا التعبير فى تفسيره مما يجعلنا لا نميل إلى ما نقلناه سابقاً من أنه كان شافعيا يقلد أبا حنيفة فى كثير من المسائل .

(٢) جـ ٢ ص ١٥٤

(٣) جـ ٢ ص ١٣٠ — ١٣٣

التى حشا بها كثير من المفسرين تفاسيرهم وظنوها صحيحة ، مع سخرية منه أحياناً .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة المائدة (ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا . . .) نجده يقص علينا قصة عجيبة عن عوج بن عنق ، يرويها عن البغوى ، ولكنه بعد الفراغ منها يقول ما نصه (وأقول قد شاع أمر عوج عند العامة ، ونقلوا فيه حكايات شنيعة ، وفى فتاوى العلامة ابن حجر ، قال الحافظ العماد ابن كثير : قصة عوج وجميع ما يحكون عنه ، هذيان لا أصل له ، وهو من مختلقات أهل الكتاب ، ولم يكن قط على عهد نوح عليه السلام ، ولم يسلم من الكفار أحد . وقال ابن القيم : من الأمور التى يعرف بها كون الحديث موضوعاً ، أن يكون مما تقوم الشواهد الصحيحة على بطلانه ، كحديث عوج بن عنق . وليس العجب من جرأة من وضع هذا الحديث وكذب على الله تعالى ، إنما العجب ممن يدخل هذا الحديث فى كتب العلم من التفسير وغيره ولا يبين أمره ، ثم قال ولا ريب أن هذا وأمثاله من صنع زنادقة أهل الكتاب الذين قصدوا الاستهزاء والسخرية بالرسل الكرام عليهم الصلاة والسلام وأتباعهم . . ثم مضى الآلوسى فى تفنيد هذه القصة بما حكاه عن غير من تقدم من العلماء الذين استنكروا هذه القصة الخرافية . (١)

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة هود (ويصنع الفلك وكلما مر عليه ملأٌ من قومه سخروا منه . . . الآية) نجده يروى أخباراً كثيرة فى نوع الخشب الذى صنعت منه السفينة ، وفى مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ، وفى المكان الذى صنعت فيه . . . ثم يعقب على كل ذلك بقوله (وسفينة الأخبار فى تحقيق الحال فيما أرى لا تصلح للركوب فيها ، إذ هى غير

---

(١) ج ٦ ص ٨٦ — ٨٧

سالمة عن عيب ، فالحرى بحال من لا يميل إلى الفضول ، أن يؤمن بأنه عليه السلام صنع الفلك حسبما قص الله تعالى فى كتابه ، ولا يخوض فى مقدار طولها وعرضها وارتفاعها ، ومن أى خشب صنعها ، وبكم مدة أتم عملها إلى غير ذلك مما لم يشرحه الكتاب ولم تبينه السنة الصحيحة[1] .

تعرضه للقراءات والمناسبات وأسباب النزول :

ثم إن الآلوسى يعرض لذكر القراءات ولكنه لا يتقيد بالمتواتر منها ، كما أنه يعنى بإظهار وجه المناسبات بين السور كما يعنى بذكر المناسبات بين الآيات ويذكر أسباب النزول للآيات التى أنزلت على سبب ، وهو كثير الاستشهاد بأشعار العرب على ما يذهب إليه من المعانى اللغوية .

الآلوسى والتفسير الإشارى :

ولم يفت الآلوسى أن يتكلم عن التفسير الإشارى بعد أن يفرغ من الكلام عن كل ما يتعلق بظاهر الآيات[2] ، ومن هنا عد بعض العلماء تفسيره هذا فى ضمن كتب التفسير الإشارى ، كما عد تفسير النيسابورى فى ضمنها كذلك ، ولكنى رأيت أن أجعلهما فى عداد كتب التفسير بالرأى المحمود ، نظراً إلى أنه لم يكن مقصودهما الأهم هو التفسير الإشارى، بل كان ذلك تابعاً — كما يبدو — لغيره من التفسير الظاهر ، وهذه — كما قلت من قبل — مسألة اعتبارية لا أكثر ولا أقل ، وإنما أردت أن أبين جهتى الاعتبار .

وجملة القول ، فروح المعانى للعلامة الآلوسى ليس إلا موسوعة تفسيرية قيمة . جمعت جل ما قاله علماء التفسير الذين تقدموا عليه ، مع النقد الحر ،

---

(١) ج ٢ : ص ٤٥ .

(٢) وسيأتى عند الكلام عن التفسير الإشارى توضيح لرأى الآلوسى فى هذا اللون من التفسير .

والترجيح الذى يعتمد على قوة الذهن وصفاء القريحة ، وهو وإن كان يستطرد إلى نواح علمية مختلفة ، مع توسع يكاد يخرجه عن مهمته كمفسر إلا أنه متزن فى كل ما يتكلم فيه ، مما يشهد له بغزارة العلم على اختلاف نواحيه ، وشمول الإحاطة بكل ما يتكلم فيه ، فجزاه الله عن العلم وأهله خير الجزاء ، إنه سميع مجيب .

وبعد . . . فهذه هى أهم كتب التفسير بالرأى الجائز ، وهناك كتب أخرى تدخل فى هذا النوع من التفسير ، ولها أهميتها وقيمتها ، كما أن لها شهرتها الواسعة بين أهل العلم الذين يعنون بالتفسير ، غير أنى أمسكت عنها هنا مخافة التطويل ، ولعدم إمكان الحصول على بعضها ، وأحسب أن فى هذا القدر كفاية وغنى عن كتب أخرى كثيرة .

الفصل الرابع

التفسير بالرأى المذموم

أو

تفسير الفرق المبتدعة

تمهيـــد فى بيان نشأة الفرق الإسلامية :

جرى التفسير منذ زمن النبوة إلى زمن أتباع التابعين ، على طريقة تكاد تكون واحدة ، فخلف كل عصر يحمل التفسير عمن سلف بطريق الرواية والسماع ، وفى كل عصر من هذه العصور ، تتجدد نظرات تفسيرية ، لم يكن لها وجود قبل ذلك ، وهذا راجع إلى أن الناس كلما بعدوا عن عصر النبوة ازدادت نواحى الغموض فى التفسير . فكان لا بد للتفسير من أن يتضخم كلما مرت عليه السنون .

لم يكن هذا التضخم فى الحقيقة إلا محاولات عقلية ، ونظرات اجتهادية ، قام بها أفراد ممن لهم عناية بهذه الناحية . غير أن هذه الناحية العقلية فى التفسير لم تخرج عن قانون اللغة ، ولم تتخط حدود الشريعة ، بل ظلت محتفظة بصبغتها العقلية والدينية ، فلم تتجاوز دائرة الرأى المحمود إلى دائرة الرأى المذموم الذى لا يتفق وقواعد الشرع .

ظل الأمر على ذلك إلى أن قامت الفرق المختلفة ، وظهرت المذاهب الدينية المتنوعة ، ووجد من العلماء من يحاول نصرة مذهبه والدفاع عن عقيدته بكل وسيلة وحيلة . وكان القرآن هو هدفهم الأول الذى يقصدون إليه جميعاً ، كل يبحث فى القرآن ليجد فيه ما يقوى رأيه ويؤيد مذهبه ، وكل واجد ما يبحث

عنه ولو بطريق إخضاع الآيات القرآنية لمذهبه ، والميل بها مع رأيه وهواه ، وتأويل مايصادمه منها تأويلا يجعلها غير منافية لمذهبه ولا متعارضة معه . ومن هنا بدأ الخروج عن دائرة الرأى المحمود إلى دائرة الرأى المذموم ، واستفحل الأمر إلى حد جعل القوم يتسعون فى حماية عقائدهم ، والترويج لمذاهبهم ، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله على وفق أهوائهم ، ومقتضى نزعاتهم ونحلهم ! ! .

ونحن نعلم بطريق الإجمال ـ وللتفصيل موضع غير هذا ـ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ستفترق أمتى ثلاثا وسبعين فرقة ، كلها فى النار ، إلا واحدة ، وهى ما أنا عليه وأصحابى » وقد حقق الله نبوءة رسوله ، وصدق قوله فتصدعت الوحدة الإسلامية إلى أحزاب مختلفة ، وفرق متنافرة متناحرة ، ولم يظهر هذا التفرق بكل ما فيه من خطر على الإسلام والمسلمين إلا فى عصر الدولة العباسية ، أما قبل ذلك ، فقد كان المسلمون يدا واحدة ، وكانت عقيدتهم واحدة كذلك ، إذا استثنينا ما كان بينهم من المنافقين الذين ينتسبون إلى الإسلام ويضمرون الكفر ، وما كان بين على ومعاوية من خلاف لم يكن له مثل هـــذا الخطر . وإن كان النواة التى قام عليها التحزب ، ونبت عنها التفرق والاختلاف .

بدأ الخلاف بين المسلمين أول ما بدأ ، فى أمور اجتهادية لاتصل بأحدمنهم إلى درجة الابتداع والكفر ، كاختلافهم عند قول النبى صلى الله عليه وسلم : « ائتونى بقرطاس أكتب لكم كتابا لاتضلوا بعدى » حتى قال عمر : إن النبى قد غيبه الوجع ، حسبنا كتاب الله ، وكثر اللغط فى ذلك حتى قال النبى صلى الله عليه وسلم : قوموا عنى ، لا ينبغى عندى التنازع » وكاختلافهم فى موضع دفنه صلى الله عليه وسلم « أيدفن بمكة ؛ لأنها مولده وبها قبلته ومشاعر الحج ؟ أم يدفن بالمدينة ، لأنها موضع هجرته ، وموطن أهل نصرته ؟ أم يدفن ببيت المقدس ، لأن بها تربة الأنبياء ومشاهدهم ؟ ، وكالخلاف الذى وقع بينهم

فى سقيفة بنى ساعدة فى تولية من يخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد وفاته ، وغير ذلك من الخلافات التى وقعت بينهم ، ولم يكن لها خطرها الذى ينجم عنه التفرق ووقوع الفتنة والبغضاء بين المسلمين .

ظل الأمر على ذلك إلى زمن عثمان رضى الله عنه ، وكان ما كان من خروج بعض المسلمين عليه ، ومحاصرتهم لداره ، وقتلهم له ، فعرى المسلمين من ذلك الوقت رجة فكرية عنيفة ، طاحت بالروية ، وذهبت بكثير من الأفكار مذاهب شتى ، فقام قوم يطالبون بدم عثمان ، ثم نشبت الحرب بين على ومعاوية رضى الله عنهما من أجل الخلافة ، وكان لكل منهم شيعة وأنصار يشدون أزره ، ويقوون عزمه ، وتبع ذلك انشقاق جماعة على كرم الله وجهه ، بعد مسألة التحكيم فى الخلاف الذى بينه وبين معاوية ، فى السنة السابعة والثلاثين من الهجرة ، فظهرت من ذلك الوقت فرقة الشيعة ، وفرقة الخوارج ، وفرقة المرجئة[1] ، وفرقة أخرى تنحاز لمعاوية ، وتؤيد الأمويين على وجه العموم .

ثم أخذ هذا الخلاف والتفرق ، يتدرج شيئا فشيئا ، ويترقى حينا بعد حين ، إلى أن ظهر فى أيام المتأخرين من الصحابة خلاف القدرية ، وكان أول من جهر بهذا المذهب ووضع الحجر الأساسى لقيام هذه الفرقة ، معبد الجهنى الذى أخذ عنه مذهبه غيلان الدمشقى ومن شاكله ، وكان ينكر عليهم مذهبهم هذا من بقى من الصحابة كعبد الله بن عمر ، وابن عباس ، وأنس ، وأبى هريرة ، وغيرهم .

ثم ظهر بعد هؤلاء وفى زمن الحسن البصرى بالبصرة ، خلاف واصل ابن عطاء فى القدر ، وفى القول بالمنزلة بين المنزلتين ، ومجادلته للحسن البصرى فى ذلك ، واعتزاله مجلسه ، ومن ذلك الوقت ظهرت فرقة المعتزلة .

ثم كان من أصحاب الديانات المختلفة كاليهودية والنصرانية ، والمجوسية ،

---

(١) انظر تبيين كذب المفترى ص ١٠ .

والصابئة ... إلخ من تزيا بزى الإسلام وأبطن الكيد له ؛ حنينا إلى ملتهم الأولى ، كعبد الله بن سبأ اليهودى ، فأوضعوا خلال المسلمين يبغونهم الفتنة ، ويرجون لهم الفرقة ، فأفلحوا فيما قصدوا إليه من تحزب المسلمين وتفرقهم .

وفى خلال ذلك غلا بعض الطوائف التى ولدها الخلاف ، فابتدعوا أقوالا خرجت بهم عن دائرة الإسلام كالقائلين بالحلول والتناسخ من السبئية وكالباطنية الذين لا يعدون من فرق الإسلام ، وإنما هم فى الحقيقة على دين المجوس .

لم يزل الخلاف يتشعب ، والآراء تتفرق ، حتى تفرق أهل الإسلام وأرباب المقالات ، إلى ثلاث وسبعين فرقة كما قال صاحب المواقف (١) ، وكما عدهم وبينهم الإمام الكبير ، أبو المظفر الإسفرايينى ، فى كتابه التبصير فى الدين (٢) ، وليس هذا موضع ذكرها واستقصائها .

والذى اشتهر من هذه الفرق خمس : أهل السنة ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والشيعة ، والخوارج . وماوراء ذلك من الفرق كالجبرية ، والباطنية ، والمشبهة ، وغيرها ، فمعظمها مشتق من هذه الفرق الخمس الرئيسية .

نحن نعلم هذا التفرق الذى أصاب المسلمين فى وحدتهم الدينية والسياسية ، ونعلم أيضاً ، أن الناس كانوا فى عصر النبى صلى الله عليه وسلم وبعده يقرءون القرآن أو يسمعونه فيعنون بتفهم روحه ، فإن عنى علماؤهم بشىء وراء ذلك ، فما يوضح الآية من سبب للنزول ، واستشهاد بأبيات من أشعار العرب تفسر لفظاً غريباً ، أو أسلوباً غامضاً . ولكننا لا نعلم فى هذا العصر الأول ، انحياز

---

(١) جـ ٨ ص ٣٧٧ .
(٢) ١٥ — ١٦ .

الصحابة إلى مذاهب دينية وآراء فى الملل والنحل ، فلما وقع هذا التفرق الذى أشرنا إليه وأجملنا مبدأه وتطوره ، رأينا كل فرقة من هذه الفرق تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها ، وتفسره بما يتلاءم مع مذهبها . فالمعتزلى يطبق القرآن على مذهبه فى الاختيار ، والصفات ، والتحسين والتقبيح العقليين . . . ويؤول مالا يتفق ومذهبه ، وكذلك يفعل الشيعى ، وكذلك يفعل كل صاحب مذهب حتى يسلم له مذهبه .

غير أننا لم نحط علما بكل هذه النظرات المذهبية فى القرآن ، ولم يقع تحت أيدينا من كتب التفسير المذهبية إلا القليل النادر بالنسبة لما حرمت منه المكتبة الإسلامية ، على أن هذا القليل ليس إلا لبعض الفرق دون بعض ، وهناك تفسيرات وتأويلات لبعض من آيات القرآن لبعض من الفرق ، ولكنها متفرقة مشتتة بين صحائف كتب التفسير خاصة وكتب العلم عامة . وهناك فرق أخرى لم نظفر لها بتفسير كامل ولا بشىء من التفسير ، ولهذا أرى أن أتكلم عن التفسير المذهبى لا لكل الفرق ، بل للفرق التى ألفت وخلفت لنا كتبا فى التفسير ، ووقعت تحت أيدينا ، فاستطعنا بعد القراءة فيها والنظر إليها أن نحكم عليها بما يتناسب مع المنهج الذى انتهجه فيها مؤلفوها ، والطريق الذى سلكوه فى شرحهم لكتاب الله تعالى .

وسبق لنا أن تكلمنا عن التفسير بالرأى الجائز وأهم ما ألف فيه من كتب ، وذلك هو تفسير أهل السنة والجماعة ، وتلك هى أشهر تفاسيرهم التى خلفوها للناس ، فلا نعود لذلك ، بل نشرع فى الكلام عن موقف غيرهم من الفرق ، بالنسبة لكتاب الله تعالى . وعن أهم ماخلفوه لنا من كتب فى التفسير ، والله يتولانا ويسدد خطانا ، إنه سميع مجيب .

المعتزلة

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن المعتزلة وأصولهم المذهبية :

نشأة المعتزلة .

نشأت هذه الفرقة فى العصر الأموى ، ولكنها شغلت الفكر الإسلامى فى العصر العباسى ردحا طويلا من الزمان . وأصل هذه الفرقة هو واصل ابن عطاء الملقب بالغزال[1] المولود سنة ٨٠ هـ ثمانين ، والمتوفى سنة ١٣١ هـ إحدى وثلاثين ومائة ، فى خلافة ، هشام بن عبد الملك ؛ وذلك أنه دخل على الحسن البصرى رجل فقال : يا إمام الدين ، ظهر فى زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة — يريد وعيدية الخوارج — وجماعة أخرى يرجئون الكبائر ، ويقولون : لا تضر مع الإيمان معصية ، كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فكيف تحكم لنا أن نعتقد فى ذلك ؟ فتفكر الحسن ، وقبل أن يجيب قال واصل : أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ، ولا كافر مطلق ، ثم قام إلى اسطوانة من اسطوانات المسجد ، وأخذ يقرر على جماعة من أصحاب الحسن ما أجاب به ، من أن مرتكب الكبيرة ليس بمؤمن ولا كافر ، ويثبت له المنزلة بين المنزلتين ، قائلا : إن المؤمن اسم مدح ، والفاسق لا يستحق المدح فلا يكون مؤمناً ، وليس بكافر أيضاً ؛ لإقراره بالشهادتين ، ولوجود سائر أعمال الخير فيه ، فإذا مات بلا توبة خلد فى النار ؛ إذ ليس فى الآخرة إلا فريقان فريق فى الجنة ، وفريق فى السعير . لكن يخفف عنه ، وتكون دركته فوق

(١) لقب بذلك لأنه كان يلازم حوانيت الغزالين .

دركات الكفار ، فقال الحسن : اعتزل عنا واصل ، فلذلك سمى هو وأصحابه معتزلة[1] .

ويلقب المعتزلة بالقدرية تارة، وبالمعطلة تارة أخرى ، أما تلقيبهم بالقدرية، فلأنهم يسندون أفعال العباد إلى قدرتهم ، وينكرون القدر فيها . وأما تلقيبهم بالمعطلة ، فلأنهم يقولون بنفى صفات المعانى فيقولون : الله عالم بذاته ، قادر بذاته ... وهكذا .

فأنت ترى مما تقدم ، أن الاعتزال نشأ فى البصرة ، ولكن سرعان ما انتشر فى العراق ، واعتنقه من خلفاء بنى أمية يزيد بن الوليد. ومروان بن محمد، وفى العصر العباسى ، استفحل أمر المعتزلة ، واحتلت فكرهم وعقائدهم من عقول الناس وجدل العلماء مكانا عظيما ، وما لبث أن تكونت للاعتزال مدرستان كبيرتان : مدرسة البصرة ، وعلى رأسها واصل بن عطاء . ومدرسة بغداد ، وعلى رأسها بشر بن المعتمر ، وكان بين معتزلى البصرة ومعتزلى بغداد جدال وخلاف فى كثير من المسائل .

ولا أطيل بذكر ما كان بين المدرستين من مسائل خلافية ،فإن هذه العجالة لا تتحمل الإطالة والتفصيل، ويكفى أن أجمل القول فى ذكر أصول المعتزلة، وأن أشير إلى تعدد فرقهم ، ومن أراد التفصيل فليرجع إلى الكتب التى ألفت فى تاريخ الفرق ، وهى كثيرة .

أصول المعتزلة :

أما أصول المعتزلة فهى خمسة : التوحيد ، والعدل ، والوعد والوعيد ،

---

(١) شرح المواقف جـ ٨ ، ويرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله والحسن ابنا محمد بن الحنفية . وعن أبى هاشم أخذ الاعتزال واصل بن عطاء — انظر مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠ — ١١ .

والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وهذه الأصول الخمسة يجمع الكل عليها ، ومن لم يقل بها جميعاً فليس معتزلياً بالمعنى الصحيح . قال أبو الحسن الخياط أحد زعماء المعتزلة فى القرن الثالث الهجرى « وليس يستحق أحد منهم اسم الاعتزال حتى يجمع القول بالأصول الخمسة : التوحيد، والعدل،والوعد والوعيد،والمنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . فإذا كملت هذه الخصال فهو معتزلى[1] » .

أما التوحيد : فهو لب مذهبهم ، ورأس نحلتهم، وقد بنوا على هذا الأصل: استحالة رؤية الله سبحانه وتعالى يوم القيامة ، وأن الصفات ليست شيئاً غير الذات ، وأن القرآن مخلوق لله تعالى .

وأما العدل : فقد بنوا عليه :أن الله تعالى لم يشأ جميع الكائنات ، ولا خلقها ولا هو قادر عليها كلها ، بل عندهم أن أفعال العباد لم يخلقها الله تعالى ، لاخيرها ولا شرها ، ولم يرد إلا ما أمر به شرعا ، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئته.

وأما الوعد والوعيد : فمضمونه ، أن الله يجازى من أحسن بالإحسان ، ومن أساء بالسوء ، لا يغفر لمرتكب الكبيرة مالم يتب، ولا يقبل فى أهل الكبائر شفاعة ، ولا يخرج أحداً منهم من النار . وأوضح من هذا أنهم يقولون : إنه يجب على الله أن يثيب المطيع ويعاقب مرتكب الكبيرة ، فصاحب الكبيرة إذا مات ولم يتب لا يجوز أن يعفو الله عنه ، لأنه أوعد بالعقاب على الكبائر وأخبر به ، فلو لم يعاقب لزم الخلف فى وعيده . وهم يعنون بذلك أن الثواب على الطاعات ، والعقاب على المعاصى قانون حتمى التزم الله به ، كما قالوا : إن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار ولو صدق بوحدانية الله وآمن برسله ، لقوله تعالى فى الآية(٨١) من سورة البقرة « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

---

(١) تاريخ الجدل لأبى زهرة ص ٢٠٨ .

وأما المنزلة بين المنزلتين : فقد سبق أن بيناها فى مناظرة واصل بن عطاء للحسن البصرى .

وأما الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ فهو مبدأ مقرر عندهم ، وواجب على المسلمين لنشر الدعوة الإسلامية وهداية الضالين وإرشاد الغاوين، ولكنهم بالغوا فى هذا الأصل ، وخالفوا ما عليه الجمهور ،فقالوا : إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر يكون بالقلب إن كفى ، وباللسان إن لم يكف القلب ، وباليد إن لم يغنيا ، وبالسيف إن لم تكف اليد ، لقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجرات « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله ... » وهم فى ذلك لا يفرقون بين صاحب السلطان وغيره ، كما أنهم لم يفرقوا بين الأصول الدينية المجمع عليها وعقائدهم الإعتزالية . (١)

وهناك مبادىء أخرى للمعتزلة ، لا يشتركون فيها ، بل هى مبادىء خاصة لكل فرقة من فرقهم المتعـــددة ، التى بلغت العشرين أو تزيد ، ولا أطيل بذكر هذه الفرق وبيان خصائص كل فرقة ، وأحيلك على المواقف ، أو التبصير فى الدين ، أو الفرق بين الفرق للبغدادى، أو الملل والنحل للشهرستانى، أو الفصل لابن حزم ، لتتعرف منها هذه الفرق وخصائصها ، إذ ليس هذا موضع التفصيل .

وبعد ..فقد عرفنا نشأة المعتزلة ، وعرفنا أصولهم التى أجمعوا عليها ، وما علينا بعد ذلك إلا أن نتكلم عن موقفهم الذى وقفوه من تفسير القرآن ، ثم

---

(١) انظر ما كتبه صاحب الكشاف على قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر » جـ١ ص ٣١٩ . وما كتبه على قوله تعالى فى الآية (٧٣) من سورة التوبة « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ... » جـ ١ ص ٥٦١ .

بعد ذلك نتكلم عن أهم من عرفناه من مفسرى المعتزلة.وعن كتبهم التى ألفوها فى التفسير ، ونسأل الله التوفيق والسداد .

موقف المعتزلة من تفسير القرآن الكريم

إقامة تفسيرهم على أصولهم الخمسة :

أقام المعتزلة مذهبهم على الأصول الخمسة التى ذكرناها آنفا ، ومن المعلوم أن هذه الأصول لا تتفق ومذهب أهل السنة والجماعة ، الذين يعتبرون أهم خصومهم ؛ لهذا كان من الضرورى لهذه الفرقة — فرقة المعتزلة — فى سبيل مكافحة خصومها ، أن تقيم مذهبها وتدعم تعاليمها على أسس دينية من القرآن ، وكان لا بد لها أيضا أن ترد الحجج القرآنية لهؤلاء الخصوم ، وتضعف من قوتها ، وسبيل ذلك كله هو النظر إلى القرآن أولا من خلال عقيدتهم ، ثم إخضاعهم عبارات القرآن لآرائهم التى يقولون بها ، وتفسيرهم لها تفسيراً يتفق مع نحلتهم وعقيدتهم.

ولا شك أن مثل هذا التفسير الذى يخضع للعقيدة ، يحتاج إلى مهارة كبيرة ، واعتماد على العقل أكثر من الاعتماد على النقل ، حتى يستطيع المفسر الذى هذا حاله ، أن يلوى العبارة إلى جانبه ، ويصرف ما يعارضه عن معارضته له وتصادمه معه .

والذى يقرأ تفسير المعتزلة ، يجد أنهم بنوا تفسيرهم على أسسهم من التنزيه المطلق ، والعدل وحرية الإرادة ، وفعل الأصلح ، ونحو ذلك ووضعوا أسسا للآيات التى ظاهرها التعارض فحكموا العقل ، ليكون الفيصل بين المتشابهات وقد كان من قبلهم يكتفون بمجرد النقل عن الصحابة أو التابعين ، فإذا جاءوا إلى المتشابهات سكتوا وفوضوا العلم لله .

إنكار المعتزلة لما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة :

ثم إن هذا السلطان العقلى المطلق ، قد جر المعتزلة إلى إنكار ماصح من الأحاديث التى تناقض أسسهم وقواعدهم المذهبية ، كما أنه نقل التفسير الذى كان يعتمد أولا وقبل كل شىء على الشعور الحى ، والإحساس الدقيق ، والبساطة فى الفهم وعدم التكلف والتعمق ، إلى مجموعة من القضايا العقلية ، والبراهين المنطقية ، مما يشهد للمعتزلة - رغم اعتزالهم - بقوة العقل وجودة التفكير .

ومع أن هذا السلطان العقلى المطلق ، كان له الأثر الأكبر فى تفسير المعتزلة للقرآن ، حتى اضطرهم فى بعض الأحيان الى رد ما يعارضهم من الأحاديث الصحيحة . فإنا لانستطيع أن نقول إن المعتزلة كانوا يقصدون الخروج على الحديث أو عدم الاعتراف بالتفسير المأثور ؛ وذلك لأن حالهم بإزاء التفسير المأثور وتصديقهم له، يظهر بأجلى وضوح من حكم النظام على استرسال المفسرين من معاصريه .

وكان النظام معتبراً فى مدرسة المعتزلة من الرءوس الحرة الواسعة الحرية وقد ذكر لنا تلميذه الجاحظ قوله الذى قاله فى شان هؤلاء المفسرين ، وهذا نصه : قال الجاحظ كان أبو إسحق يقول: لاتسترسلوا إلى كثير من المفسرين وإن نصبوا أنفسهم للعامة وأجابوا فى كل مسألة ؛ فإن كثيراً منهم يقول بغير رواية على غير أساس وكلما كان المفسر أغرب عندهم كان أحب إليهم ، وليكن عندكم عكرمة ، والكلبى ، والسدى ، والضحاك ، ومقاتل بن سليمان ، وأبو بكر الأصم فى سبيل واحدة ، وكيف أثق بتفسيرهم وأسكن إلى صوابهم وقد قالوا فى قوله عز وجل « وأن المساجد لله [1] » إن الله عز وجل ، لم يعن بهذا الكلام مساجدنا التى نصلى فيها ، بل إنما عنى الجباه ، وكل ما سجد الناس عليه من يد

---

(١) فى الآية (١٨) من سورة الجن .

وجبهة وأنف وثفنة — وقالوا فى قوله تعالى « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت »[1] إنه ليس يعنى الجمال والنوق، وإنما يعنى السحاب — وإذا سئلوا عن قوله « وطلح منضود »[2] ، قالوا الطلح هو الموز — وجعلوا الدليل على أن شهر رمضان قد كان فرضا على جميع الأمم وأن الناس غيروه قوله تعالى « ... كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم »[3] . — وقالوا فى قوله تعالى « ... رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً »[4] ،قالوا: إنه حشره بلا حجة — وقالوا فى قوله تعالى « ويل للمطففين »[5] : الويل واد فى جهنم ، ثم قعدوا يصفون ذلك الوادى . ومعنى الويل فى كلام العرب معروف ، وكيف كان فى الجاهلية قبل الإسلام ، وهو من أشهر كلامهم — وسئلوا عن قوله تعالى « قل أعوذ برب الفلق »[6] ، قالوا : الفلق واد فى جهنم . ثم قعدوا يصفونه ،وقال آخرون الفلق المقطرة بلغة اليمن ... إلى آخر ما ذكره من تفسيراتهم الغريبة[7] .

هذا ، وإن الزمخشرى — وهو أهم من عرفنا من مفسرى المعتزلة — نجده كثيرا ما يذكر ما جاء عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن السلف من التفسير ويعتمد على مايذكر من ذلك فى تفسيره .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٤١ ، ٤٢) من سورة الأحزاب : « ياأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيراً * وسبحوه بكرة

---

(١) فى الآية (١٧)من سورة الغاشية .
(٢) فى الآية (٢٩) من سورة الواقعة .
(٣) فى الآية (١٨٣) من سورة البقرة
(٤) فى الآية (١٢٥) من سورة طه .
(٥) أول سورة المطففين .
(٦) أول سورة الفلق .
(٧) الحيوان للجاحظ ج ١ ص ١٦٨ — ١٧٠

وأصيلا ، يقول مانصه (« اذكروا الله ، اثنوا عليه بضروب الثناء ، من التقديس ، والتحميد ، والتهليل ، والتكبير ، وما هو أهله ، وأكثروا ذلك « بكرة وأصيلا ، أى كافة الأوقات ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ذكر الله على فم كل مسلم » وروى « فى قلب كل مسلم » ، وعن قتادة « قولوا سبحان الله والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم » وعن مجاهد « هذه كلمات يقولها الطاهر والجنب والغفلان » أعنى اذكروا وسبحوا موجهان إلى البكرة والأصيل ، كقولك صم وصل يوم الجمعة ... إلخ[1]) اهـ .

ادعاؤهم أن كل محاولاتهم فى التفسير مرادة لله :

ثم إن المعتزلة — بناء على رأيهم فى الاجتهاد ، من أن الحكم ما أدى إليه اجتهاد كل مجتهد ، فإذا اجتهدوا فى حادثة فالحكم عند الله تعالى فى حق كل واحد مجتهده[2] — رفضوا أن يكون للآية التى تحتمل أوجها تفسيراً واحداً لا خطأ فيه ، وحكموا على جميع محاولاتهم التى حاولوها فى حل المسائل الموجودة فى القرآن ، بأنها مرادة لله تعالى ، وغاية ماقطعوا به هو عدم إمكان التفسير المخالف لمبادئهم وآرائهم .

وبدهى أن هذا الذى ذهب إليه المعتزلة ، يخالف مذهب أهل السنة من أن لكل آية من القرآن معنى واحداً مراداً لله تعالى ، وما عداه من المعانى المحتملة ، فهى محاولات واجتهادات ، يراد منها الوصول إلى مراد الله بدون قطع ، غاية الأمر أن المفسر يقول باجتهاده ، والمجتهد قد يخطىء وقد يصيب ، وهو مأجور فى الحالتين وإن كان الأجر على تفاوت .

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢١٥ .

(٢) التوضيح جـ ٢ ص ١١٨ .

المبدأ اللغوى فى التفسير وأهميته لدى المعتزلة :

كذلك نجد المعتزلة قد حرصوا كل الحرص على الطريقة اللغوية التى تعتبر عندهم المبدأ الأعلى لتفسير القرآن ، وهـذا المبدأ اللغوى ، يظهر أثره واضحا فى تفسيرهم للعبارات القرآنية التى لا يليق ظاهرها عندهم بمقام الألوهية ، أو العبارات التى تحتوى على التشبيه ، أو العبارات التى تصادم بعض أصولهم ، فنراهم يحاولون أولا إبطال المعنى الذى يرونه مشتبها فى اللفظ القرآنى ، ثم يثبتون لهـذا اللفظ معنى موجوداً فى اللغة يزيل هـذا الإشتباه ويتفق مع مذهبهم ، ويستشهدون على مايذهبون إليه من المعانى التى يحملون ألفاظ القرآن عليها بأدلة من اللغة والشعر العربى القديم .

فمثلا الآيات التى تدل على رؤية الله تعالى كقوله سبحانه فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة » وقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة المطففين « على الأرائك ينظرون » نجد المعتزلة ينظرون إليها بعين غير العين التى ينظر بها أهل السنة ، ويحاولون بكل مايستطيعون أن يطبقوا مبدأهم اللغوى ، حتى يتخلصوا من الورطة التى أوقعهم فيها ظاهر اللفظ الكريم ، فإذا بهم يقولون : إن النظر إلى الله معناه الرجاء والتوقع للنعمة والكرامة ، واستدلوا على ذلك بأن النظر إلى الشىء فى العربية ليس مختصاً بالرؤية المادية ، واستشهدوا على ذلك بقول الشاعر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعماً

ومثلا عندما يقرأ المعتزلى قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة الفرقان « وكذلك جعلنا لـكل نبى عدوا من المجرمين » يجد أن مذهبه الذى يقول بوجوب الصلاح والأصلح على الله لا يتفق وهذا الظاهر من معنى الجعل ، ولـكن سرعان ما يتخلص من هذه الضائقة العالم المعتزلى الـكبير أبو على الجبائى فيفسر « جعل » بمعنى بين لا بمعنى خلق ، ويستدل على ذلك بقول الشاعر :

جعلنا لهم نهج الطريق فأصبحوا ‏ على ثبت من أمرهم حين يمموا

فيكون المعنى على هذا ، أن الله سبحانه بين لكل نبى عدوه حتى يأخذ حذره منه[1] .

تصرف المعتزلة فى القراءات المتواترة المنافية لمذهبهم :

وأحياناً يحاول المعتزلة تحويل النص القرآنى من أجل عقيدتهم إلى مالا يتفق وما تواتر من القراءات عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمثلا ينظر بعض المعتزلة إلى قوله تعالى فى الآية (١٦٤) من سورة النساء « وكلم الله موسى تكليما » فيرى أن مذهبه لا يتفق وهذا اللفظ القرآنى حيث جاء المصدر مؤكداً للفعل ، رافعاً لاحتمال المجاز ، فيبادر إلى تحويل هذا النص إلى مايتفق ومذهبه فيقرؤه هكذا « وكلم الله موسى تكليما » . . . بنصب لفظ الجلالة على أنه مفعول ، ورفع موسى على أنه فاعل . وبعض المعتزلة يبقى اللفظ القرآنى على وضعه المتواتر ، ولكنه يحمله على معنى بعيد حتى لا يبقى مصادماً لمذهبه فيقول : إن كلم من الكلم بمعنى الجرح ، فالمعنى وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن ؛ وهذا ليفر من ظاهر النظم الذى يصادم عقيدته ويخالف هواه .

هذا الذى ذكرناه ، تعرض له الزمخشرى فى كشافه ، فرواه عمن قال به عند ماتكلم عن هذه الآية فقال «وعن إبراهيم ويحيى بن وثاب أنهما قرءا « وكلم الله» بالنصب ، ثم قال منددا بالرأى الثانى : ومن بدع التفاسير أنه من الكلم ، وأن معناه ، وجرح الله موسى بأظفار المحن ومخالب الفتن » اهـ[2] :

---

(١) انظر تفسير الفخر الرازى جـ ٦ ص ٤٧١ . والمذاهب الإسلامية فى القرآن الكريم ص ١٣٠ .

(٢) الكشاف جـ١ ص ٢٩٧ — ٣٩٨ .

ومن الأمثلة التى يظهر فيها هذا التصرف من أجل أغراضهم المذهبية ، قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة البقرة « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون » فبعض المعتزلة أحس من هذه الآية أنها لا تتفق ومذهبه ، لأنها تشعر بأن الله خلق قلوبهم على طبيعة وحالة لا تقبل معها الإسلام ، فيكون هو الذى منعهم عن الهدى وألجأهم إلى الضلال فقرأها هذا المعتزلى « غُلُف » جمع غلاف بمعنى الوعاء ، أى قلوبنا أوعية حاوية للعلم ، فهم مستغنون بما عندهم عما جاءهم به محمد عليه الصلاة والسلام ، وهذا الوجه يتمشى مع القراءة المعروفة « غُلْف » على أنه مخفف « غلُف » ، وبطبيعة الحال يكون هذا القول من اليهود افتخاراً منهم بأن قلوبهم أوعية للعلم ، فلا حاجة لهم بما جاء به محمد عليه الصلاة والسلام ، وليس اعتذارا منهم وتبريرا لكفرهم بأن الله خلق قلوبهم فى أكنة مما يدعوهم إليه ، ومغشاة بأغطية تمنع وصول دعوة الرسول إليها .

وهذا الذى ذكرنا من قراءة « غُلُف » بدون تخفيف تعرض لذكره الزمخشرى فقال « وقيل غُلْف : تخفيف غُلُف ، جمع غلاف أى قلوبنا أوعية للعلم فنحن مستغنون بما عندنا عن غيره . وروى عن أبى عمرو : « قلوبنا غلف » بضمتين » اهـ [١] .

كما ذكره أيضاً الإمام فخر الدين الرازى فى تفسيره لهذه الآية فقال : « . . . . . وثانيها — أى ثانى الأوجه — روى الأصم عن بعضهم أن قلوبهم غُلُفٌ بالعلم ، ومملوءة بالحكمة ، فلا حاجة معها بهم إلى شرع محمد عليه السلام . . . » اهـ [٢] .

وهكذا نجد شيوخ المعتزلة ، يحاولون التوفيق بين مذهبهم والقرآن ، بكل ما يستطيعون من وسائل التوفيق ، تارة بتطبيق مبدئهم اللغوى على كثير من

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٢٤ ، والقراءة المروية عن أبى عمرو شاذة .
(٢) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٦١٥

آيات القرآن الكريم ، حتى يتمشى النص القرآنى مع قواعد مذهبهم أو يتخلصوا من معارضته ومصادمته لهم على الأقل، وتارة بتحويل النص القرآنى والتصرف فيه ، بما يجعله فى جانبهم لا فى جانب خصومهم .

نقد ابن قتيبة لهذا المسلك الاعتزالى فى التفسير :

غير أن هذا المسلك قد أغضب العلامة ابن قتيبة وأهاجه عليهم . فانتقدهم انتقاداً مراً لاذعا فى كتابه: « تأويل مختلف الحديث » وإليك ما قاله بنصه لتقف على ما كان بين الفريقين — فريق أهل السنة وفريق المعتزلة — من جدال ومحاورة ، وليتبين لك مقدار الميل بالعبارات القرآنية إلى ناحية المذهب والعقيدة من كبار شيوخ المذهب الاعتزالى ...

قال أبو محمد « وفسروا — أى المعتزلة — القرآن بأعجب تفسير ; يريدون أن يردوه إلى مذهبهم ، ويحملوا التأويل على نحلهم ، فقال فريق منهم فى قوله تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض »[1] أى علمه ، وجاءوا على ذلك بشاهد لا يعرف ، وهذا قول الشاعر :

« ولا بكرْسِىءُ علم اللهِ مخلوقُ »

كأنه عندهم ، ولا يعلم علم الله مخلوق . والكرسى غير مهموز وبكرسىء مهموز ، يستوحشون أن يجعلوا لله تعالى كرسيا أو سريرا ، ويجعلون العرش شيئاً آخر ، والعرب لا تعرف من العرش إلا السرير وما عرش من السقف والآبار ، يقول الله تعالى « ورفع أبويه على العرش[2] » أى السرير ، وأمية ابن أبى الصلت يقول :

مجدوا الله ، وهو للمجد أهل   ربنا فى السماء أمسى كبيراً

---

(١) فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة .

(٢) فى الآية (١٠٠) من سورة يوسف .

بالبناء الأعلى الذى سبق النا س وسوى فوق السماء سريرا
شَرْجَعاً ما يناله بصر العـــين ترى دونه الملائك صورا (١)

وقال فريق منهم فى قوله تعالى « ولقد همت به وهم بها (٢) » : إنها همت بالفاحشة ، وهم هو بالفرار منها أو الضرب لها ، والله تعالى يقول « لولا أن رآى برهان ربه (٣) » أفتراه أراد الفرار منها أو الضرب لها ، فلما رآى البرهان أقام عندها ؟ وليس يجوز فى اللغة أن تقول : هممت بفلان وهم بى ، وأنت تريد اختلاف الهمين حتى تكون أنت تهم بإهانته ويهم هو بإكرامك ، وإنما يجوز هذا الكلام إذا اتفق الهمان .

وقال فريق منهم فى قوله تعالى « وعصى آدم ربه فغوى (٤) » : إنه أتخم من أكل الشجرة ، فذهبوا إلى قول العرب : غَوِىَ الفصيل يَغْوى غوًى إذا أكثر من شرب اللبن حتى يبشم . وذلك غَوَىَ يَغْوِى غَياً ، وهو من البشم غَوِىَ يَغْوَى غَوًى .

وقال فريق منهم فى قوله تعالى « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس (٥) » أى ألقينا فيها ، يذهب إلى قول الناس : ذرته الريح . ولا يجوز أن يكون ذرأنا من ذرته الريح ؛ لأن ذرأنا مهموز ، وذرته الريح تذروه غير مهموز . ولا يجوز أيضاً أن نجعله من أذرته الدابة عن ظهرها أى ألقته ؛ لأن ذلك من ذرأت تقدير فعلت بالهمز ، وهذا من أذريت تقدير أفعلت بلا همز ، واحتج بقول المثقب العبدى :

---

(١) شرجعا أى طويلا ؛ وصورا جمع أصور وهو المائل المنق اهـ منـــه (هامش) .
(٢ و٣) فى الآية (٢٤) من سورة يوسف .
(٤) فى الآية (١٢١) من سورة طه .
(٥) فى الآية (١٧٩) من سورة الأعراف .

تقول إذا ذرأت لها وضينى   أهذا دينه أبدا ودينى ؟[١]

وهذا تصحيف ، لأنه قال : تقول إذا درأت ، أى دفعت ، بالدال غير معجمة .

وقالوا فى قوله عز وجل « وذا النون إذ ذهب مغاضبا فظن أن لن نقدر عليه[٢] » : إنه ذهب مغاضباً لقومه ، استيحاشا من أن يجعلوه مغاضبا لربه مع عصمة الله ، فجعلوه مغاضبا لقومه حين آمنوا ، ففروا إلى مثل ما استقبحوا ، وكيف يجوز أن يغضب نبى الله صلى الله عليه وسلم على قومه حين آمنوا وبذلك بعث وبه أمر ؟ ، وما الفرق بينه وبين عدو الله إن كان يغضب من إيمان مائة ألف أو يزيدون ولم يخرج مغاضبا لربه ولا لقومه ؟ ـ وهذا مبين فى كتابى المؤلف فى مشكل القرآن ، ولم يكن قصدى فى هذا الكتاب الإخبار عن هذه الحروف وأشباهها ، وإنما كان القصد به الإخبار عن جهلهم وجرأتهم على الله بصرف الكتاب إلى ما يستحسنون ، وحمل التأويل على ما ينتحلون .

وقالوا فى قوله تعالى « واتخذ الله إبراهيم خليلا[٣] » أى فقيراً إلى رحمته ، وجعلوه من الخلة بفتح الخاء ، استيحاشا أن يكون الله تعالى خليلا لأحد من خلقه ، واحتجوا بقول زهير :

وإن أتاه خليل يوم مسغبة   يقول لا غائب مالى ولا حرم

أى إن أتاه فقير ، فأية فضيلة فى هذا القول لإبراهيم صلى الله عليه وسلم ؟ أما تعلمون أن الناس جميعاً فقراء إلى الله تعالى ، وهل إبراهيم خليل الله إلا كما قيل ، وموسى كليم الله ، وعيسى روح الله ؟

---

(١) الوضين : بطان عريض منسوج من سيور أو شعر ولا يكون إلا من جلد ودينه : أى عادته اهـ منه (هامش) :

(٢) فى الآية (٨٧) من سورة الأنبياء .

(٣) فى الآية (١٢٥) من سورة النساء .

وقالوا فى قوله تعالى «وقالت اليهود يد الله مغلولة[١]» إن اليد ههنا النعمة ؛ لقول العرب : لى عند فلان يد ، أى نعمة ومعروف . وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة ؛ لأنه قال «غلت أيديهم[٢]» معارضة عما قالوه فيها ، ثم قال «بل يداه مبسوطتان[٣]» ، ولا يجوز أن يكون أراد غلت نعمهم بل نعمتاه مبسوطتان ؛ لأن النعم لا تغل ، ولأن المعروف لا يكنى عنه باليدين كما يكنى عنه باليد . إلا أن يريد جنسين من المعروف فيقول : لى عنده يدان . ونعم الله تعالى أكثر من أن يحاط بها «[٤] اهـ .

تذرع المعتزلة بالفروض المجازية إذا بدا ظاهر القرآن غريباً :

هذا ، وإن المعتزلة فى كثير من الأحيان ، يعتمدون فى طريقتهم التفسيرية على الفروض المجازية . فمثلا إذا مروا بآية من الآيات التى تبدوا فى ظاهرها غريبة مستبعدة ، كقوله تعالى فى الآية (١٧٢) من سورة الأعراف «وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم .. الآية» ، وقوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب «إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها .. الآية» ، نجدهم يحملون الكلام على التمثيل أو التخييل ، ولا يقولون بالظاهر ولا يحومون عليه ، اللهم إلا للرد على من يقول به ويجوز حصوله ... نعم إن القرآن يمثل القمة العالية فى كمال الأسلوب وبراعة النظم ، وهو فى نفسه يقبل ما يقوله المعتزلة من المجازات والاستعارات ، ولكن ما الذى يمنع من إرادة الحقيقة ؟ ، وأى صارف يصرف اللفظ عن الظاهر إلى غيره من التمثيل أو التخييل بعد ما تقرر من أن اللفظ اذا أمكن حمله على الظاهر وجب حمله عليه وقبح صرفه إلى غير ما يتبادر منه ؟ ؟ ... اللهم لا شىء يمنع من إرادة المعنى الظاهر إلا استبعاد ذلك على قدرة الله تعالى ، ولسنا فى شك

(١ و ٢ و ٣) فى الآية (٦٤) من سورة المائدة .

(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ — ٨٤

من صلاحية القدرة لمثل ماجاء فى الآيات التى أشرنا إليها ، غاية الأمر ، إن كيفية أخذ الله ذرية بنى آدم من ظهورهم ، ومخاطبته لتلك الذرية ، وكيفية عرض الأمانة على ما ذكر من السموات والأرض والجبال وإبائها عن حملها ، أمر لا نستطيع أن نخوض فيه ، بل يجب علينا أن نفوض علمه وحقيقته إلى الله سبحانه .

وسيأتى الكلام عن هذه الناحية بالذات بما هو أوسع من هـــذا ، عند الكلام على الكشاف للزمخشرى ، فإنه صاحب اليد الطولى فى هذه الناحية ، وخير من أفاض فيها وأجاد .

تفسيرهم للقرآن على ضوء ما أنكروه من الحقائق الدينية :

وكذلك نجد المعتزلة قد وقفوا تجاه بعض الحقائق الدينية الثابتة عند جمهور أهل السنة موقف المعارضة والكفاح ، فأهل السنة يقولون بحقيقة السحر ، ويعترفون بما له من تأثير فى المسحور ، ويقولون بوجود الجن ، ويعترفون بما لهم من قوة التأثير فى الإنسان حتى ينشأ عن ذلك المس والصرع ، ويقولون بكرامات الأولياء . . . وما إلى ذلك ، ولكن المعتزلة الذين ربطوا التفسير بما شرطوه من جعل العقل مقياساً للحقائق الدينية وقفوا ضد هذا كله وجعلوه من قبيل الخرافات ، والتصورات المخالفة لطبيعة الأشياء ، وكان من وراء ذلك أن تمرد المعتزلة — فى حرية مطلقة من كل قيد — على الاعتقاد بالسحر والسحرة ، وما يدور حول ذلك ، وبلغ بهم الأمر أن أنكروا أو تأولوا ماصح من الأحاديث التى تصرح بأن الرسول صلى الله عليه وسلم قد سحر[1] ، ولم يقفوا طويلا أمام مايعارضهم من سورة الفلق ، بل تخلصوا بتأويلات ثلاث ذكرها الزمخشرى فى كشافه جـ ٢ ص ٥٦٨ .

---

(١) ينكر بعض أهل السنة أن رسول الله عليه وسلم قد سحر ، زعما منهم أن ذلك مما يقدح فى صحة نبوته ، وأنكروا ما صح من الأحاديث فى ذلك أو تأولوها ، =

كذلك تمرد بعض أعلام المعتزلة كالنظام على الاعتقاد بوجود الجن ، وثار بعضهم كالزمخشري ضد من يقول بأن الجن لها قوة التأثير في الإنسان مع الاعتراف منه بوجودها في نفسها . فأولوا ما يصادمهم من الآيات القرآنية ، وأنكروا أو تأولوا ماصح من الأحاديث النبوية ، كالحديث الصحيح الذي أخرجه البخاري ، وفيه : أن شيطاناً من الجن عرض للنبي صلى الله عليه وسلم وهو في الصلاة يريد أن يشغله عنها فأمكنه الله منه ، وكالحديث الصحيح الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو « ما من مولود يولد إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخاً من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها »[١] .

كذلك تمرد المعتزلة على الاعتقاد بكرامات الأولياء ، واعتمدوا في تمردهم هذا على قول الله تعالى في الآيتين (٢٦ ، ٢٧) من سورة الجن « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ۞ إلا من ارتضى من رسول . . » ونرى الزمخشري يستنتج من هذه الآية « أنه تعالى لايطلع على الغيب إلا المرتضى ، الذي هو مصطفى للنبوة خاصة ، لا كل مرتضى . وفي هذا إبطال للكرامات ، لأن الذين تضاف إليهم وإن كانوا أولياء مرتضين ، فليسوا برسل ، وقد خص الله الرسل من بين المرتضين بالاطلاع على الغيب ، وإبطال الكهانة والتنجيم ، لأن أصحابهما أبعد شيء من الارتضاء وأدخله في السخط »[٢] .

وبعد . . فإن المعتزلة لم يقفوا هذا الموقف الذي لا يتفق مع معتقدات أهل السنة ، ولم يعطوا العقل هذا السلطان الواسع في التفسير ، إلا من أجل أن يبعدوا — كما يزعمون — كل الأساطير الخرافية عن محيط الحقائق الدينية

= والحق — ما دامت الأحاديث قد صحت — أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر وأثر فيه السحر بمالا يخدش جانب نبوته وتأثير السحر عليه لا يعدو أن يكون مرضاً بدنيا كالعقد عن النساء

(١) الكشاف ج ١ ص ٣٠٢ — ٣٠٣

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٤٩٧ .

وليربطوا بين القرآن وبين عقيدتهم التى قامت على التوحيد الخالص من كل شائبة .

ولكن هل وقف أهل السنة حيال هـــذه المحاولات الاعتزالية فى فهم نصوص القرآن الكريم موقف التسليم لها والرضى بها ؟ أو أغضبهم هذا التصرف من خصومهم المعتزلة ؟ . الحق أن هذا التصرف من المعتزلة أثار عليهم خصومهم أهل السنة ، واستعداهم عليهم ، فرموهم بالعبارات اللاذعة ، واتهموهم بتحريف النصوص عن مواضعها، تمشيا مع الهوى وميلامع العقيدة . وقد مر بك آنفاً مقالة ابن قتيبة ، وفيها يشدد عليهم النكير من أجل مسلكهم اللغوى فى التفسير .

حكم الإمام أبى الحسن الأشعرى على تفسير المعتزلة :

وهذا هو الإمام أبو الحسن الأشعرى ، يحكم على تفسير المعتزلة بأنه زيغ وضلال ، وذلك حيث يقول فى مقدمة تفسيره المسمى بالمختزن والذى لم يقع لنا « أما بعد ، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على آرائهم ، وفسروه على أهوائهم : تفسيرا لم ينزل الله به سلطانا ، ولا أوضح به برهانا ، ولا رووه عن رسول رب العالمين ، ولا عن أهل بيته الطيبين ، ولا عن السلف المتقدمين ، من الصحابة والتابعين ، افتراءاً على الله ، قد ضلوا وما كانوا مهتدين .

وإنما أخذوا تفسيرهم عن أبى الهذيل بياع العلف ومتبعيه ، وعن إبراهيم نظام الخرز ومقلديه ، وعن الفوطى وناصريه ، وعن المنسوب إلى قرية جُبى ومنتحليه ، وعن الأشج جعفر بن حرب ومجتبييه، وعن جعفر بن مبشر القصبي ومتعصبيه ، وعن الإسكافى الجاهل ومعظميه ، وعن الفروى المنسوب إلى مدينة بلخ وذويه ؛ فإنهم قادة الضلال ، من المعتزلة

الجهال ، الذين قلدوهم فى دينهم ، وجعلوهم معولهم الذى عليه يعولون ، وركنهم الذى إليه يستندون .

ورأيت الجبائى ألف فى تفسير القرآن كتابا ، أوله على خلاف ما أنزل الله عز وجل ، وعلى لغة أهل قريته المعروفة بجُبى ، وليس من أهل اللسان الذى نزل به القرآن ، وما روى فى كتابه حرفا عن أحد من المفسرين . وإنما اعتمد على ماوسوس به صدره وشيطانه ، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيرا من العوام ، واستنزل به عن الحق كثيرا من الطغام ، لم يكن لتشاغلى به وجه ...»[1] اهـ .

حكم ابن تيمية على تفسير المعتزلة :

كذلك حكم ابن تيمية على تفسيرهم فقال : « إن مثل هؤلاء اعتقدوا رأيا ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه ، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، ولا من أئمة المسلمين ، لا فى رأيهم ولا فى تفسيرهم ، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة ، وذلك من جهتين : تارة من العلم بفساد قولهم ، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن إما دليلا على قولهم ، أو جوابا على المعارض لهم . ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحا ويدس البدع فى كلامه وأكثر الناس لا يعلمون ، كصاحب الكشاف ، ونحوه ، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله . وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر فى كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التى يعلم أو يعتقد فسادها ولا يهتدى لذلك »[2] اهـ .

---

(١) تبيين كذب المفترى ص ١٣٩ .

(٢) مقدمة ابن تيمية فى أصول التفسير ص ٢٢ .

حكم ابن القيم على تفسير المعتزلة :

كذلك نجد العلامة ابن القيم يحكم على تفسير المعتزلة حكماً قاسياً فيقول : « إنه زبالة الأذهان ، ونخالة الأفكار ، وعفار الآراء ، ووساوس الصدور ، فملئوا به الأوراق سواداً ، والقلوب شكوكا ، والعالم فساداً ، وكل من له مسكة من عقل يعلم أن فساد العالم إنما نشأ من تقديم الرأى على الوحى ، والهوى على العقل »(١)

أهم كتب التفسير الاعتزالى

صنف كثير من شيوخ المعتزلة تفاسير للقرآن الكريم على أصول مذهبهم ، ولم تكن هذه التفاسير أكثر حظاً من غيرها من كتب التفسير المختلفة ، حيث امتدت إلى كثير منها يد الزمان ، فضاعت بتقادم العهد عليها ، وحرمت المكتبة الإسلامية العامة من معظم هذا التراث العلمى الذى لو بقى إلى يومنا هذا لألقى لنا ضوءاً واضحاً على مدى التفكير التفسيرى ، لشيوخ هذا المذهب الاعتزالى ، ولكشف لنا عن حقيقة ما ينسب لبعض شيوخهم من تفسيرات واسعة النطاق ، نسمع بها من علمائنا المتقدمين ، ونقف منها موقف الحائر بين الشك واليقين ، لما يذكر عنها من الاستفاضة والتضخم إلى حد يكاد يكون متخيلا أو مبالغاً فيه .

نتصفح طبقات المفسرين للسيوطى ، وطبقات المفسرين لتلميذه الداودى ، وغيرهما من الكتب التى لها عناية بهذا الشأن ، فنجد أن من أشهر من صنف فى التفسير من المعتزلة : أبو بكر ، عبد الرحمن بن كيسان الأصم المتوفى سنة ٢٤٠ هـ أربعين ومائتين من الهجرة . أقدم شيوخ المعتزلة ، وشيخ إبراهيم ابن إسماعيل بن علية الذى كان يناظر الشافعى ، فقد ذكر ابن النديم فى الفهرست :

---

(١) أعلام الموقعين ج ١ ص ٧٨ .

أنه ألف تفسيراً للقرآن الكريم[١] . ولكننا لا نعلم عن هذا التفسير خبراً ، حيث أنه فقد بمرور الزمن وتقادم العهد عليه .

ومحمد بن عبدالوهاب بن سلام (أبو على الجبائى) المتوفى سنة ٣٠٣ ﻫ ثلاث وثلاثمائة من الهجرة ، وأحد شيوخ المعتزلة الذين كانت لهم شهرة واسعة فى الفلسفة والكلام ، فقد ذكر السيوطى فى طبقات المفسرين[٢] : أنه ألف فى التفسير ، وذكر ذلك ابن النديم فى الفهرست[٣] أيضا . ولكننا لا نعلم شيئاً عن هذا التفسير أكثر مما ذكرناه آنفاً عن أبى الحسن الأشعرى .

وأبو القاسم ، عبدالله بن أحمد البلخى الحنفى ، المعروف بالكعبى المعتزلى . المتوفى سنة ٣١٩ﻫ تسع عشرة وثلاثمائة من الهجرة ، فقد ذكر صاحب كشف الظنون : أنه ألف تفسيراً كبيراً يقع فى اثنى عشر مجلداً وقال : إنه لم يسبق إليه[٤] . ولكن لم يقع لنا هذا التفسير كغيره .

وأبو هاشم عبدالسلام بن أبى على الجبائى المتوفى سنة ٣٢١ ﻫ إحدى وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ، ذكر السيوطى فى طبقات المفسرين[٥] : أنه ألف تفسيراً ، وقال . إنه رأى جزءاً منه ، ولكننا لم نظفر به أيضاً .

وأبو مسلم ، محمد بن بحر الأصفهانى المتوفى سنة ٣٢٢ﻫ اثنتين وعشرين وثلاثمائة من الهجرة ، صنف تفسيراً اسمه : جامع التأويل لمحكم التنزيل يقع فى أربعة عشر مجلداً ، وقيل فى عشرين مجلداً . وقد أشار إلى هذا التفسير ابن النديم

---

(١) الفهرست ص ٥١ .

(٢) ص ٢٣ .

(٣) ص ٥٠ .

(٤) كشف الظنون ج ١ ص ٢٣٤ .

(٥) ص ٣٣ .

فى الفهرست[١]، والسيوطى فى بغية الوعاة فى طبقات النحاة[٢] . وهذا التفسير — فيما يبدو — هو الذى يعتمد عليه الفخر الرازى فيما ينقله فى تفسيره من أقوال منسوبة لأبى مسلم. وقد أخذ بعض المؤلفين ما جاء فى تفسير الفخر الرازى منسوباً لأبى مسلم ، وجمعه فى كتاب مستقل سماه تفسير أبى مسلم الأصفهانى ، وقد اطلعت على جزء منه صغير الحجم بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) .

وأبو الحسن على بن عيسى الرمانى المتوفى سنة ٣٨٤ ﻫ أربع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة ، وأحد شيوخ المعتزلة المتشيعين صنف تفسيراً للقرآن الكريم ، قال السيوطى فى طبقات المفسرين[٣] : إنه رآه . وذكر صاحب كشف الظنون : أنه اختصره عبد الملك بن على المؤذن الهروى المتوفى سنة ٤٨٩ ﻫ تسع وثمانين وأربعمائة من الهجرة[٤] . ولكنا لم نظفر به ولا بمختصره .

وعبيد الله بن محمد بن جرو الأسدى أبو القاسم النحوى العروضى المعتزلى المتوفى سنة ٣٨٧ ﻫ : سبع وثمانين وثلاثمائة من الهجرة . قال السيوطى فى طبقات المفسرين[٥] : إنه صنف تفسيراً للقرآن الكريم ، وذكر فى « بسم الله الرحمن الرحيم » مائة وعشرين وجهاً ولكنا لم نظفر به أيضاً .

والقاضى عبد الجبار بن أحمد الهمدانى ، المتوفى سنة ٤١٥ ﻫ خمس عشرة وأربعمائة من الهجرة ، ألف كتابه (تنزيه القرآن عن المطاعن) وهو بين

---

(١) ص ٥٠ .
(٢) ص ٣٣ .
(٣) ص ٢٤ .
(٤) كشف الظنون ج١ ص ٢٣٧ .
(٥) ص ١٩ .

أيدينا ، ومتداول بين أهل العلم ، ولكنه غير شامل لجميع آيات القرآن الكريم .

والشريف المرتضى ، العالم الشيعى العلوى المتوفى سنة ٤٣٦ هـ ست وثلاثين وأربعمائة من الهجرة ، كتب بحوثاً فياضة فى بعض آيات القرآن الكريم التى تصادم مذهب المعتزلة ، ووفق بين ظاهر النظم الكريم والعقيدة الإعتزالية . ونجد هذه البحوث التفسيرية ضمن ما دونه فى أماليه التى سماها : غرر الفوائد ودرر القلائد .

وعبدالسلام بن محمد بن يوسف القزوينى شيخ المعتزلة المتوفى سنة ٤٨٣ هـ ثلاث وثمانين وأربعمائة من الهجرة ، فسر القرآن تفسيراً واسعاً ، فقد جاء فى طبقات المفسرين[١] للسيوطى (أنه جمع التفسير الكبير الذى لم يرد فى التفاسير أكبر منه ولا أجمع للفوائد ، لولا أنه مزجه بكلام المعتزلة ، وبث فيه معتقده وهو فى ثلاثمائة مجلد ، منها سبع مجلدات فى الفاتحة) . ونقل عن ابن النجار أنه قال فى شأن القزوينى هذا (إنه كان طويل اللسان ، ولم يكن محققاً إلا فى التفسير ، فإنه لهج بالتفاسير حتى جمع كتاباً بلغ خمسمائة مجلد حشى فيه العجائب ، حتى رأيت منه مجلداً فى آية واحدة ، وهى قوله تعالى « واتبعوا ما تتلوا الشياطين .. الآية »[٢] .

وأبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، فسر القرآن الكريم تفسيراً عظيما جدا لولا ما فيه من نزعات الاعتزال ، وهو أشمل ما وصل إلينا من تفاسير المعتزلة .

هؤلاء هم أشهر من عرفناهم من مفسرى المعتزلة . وهذه هى تفاسيرهم التى

---

(١) ص ١٩ .

(٢) المرجع السابق . والآية فى سورة البقرة رقم (١٠٢) .

نسمع عنها ، ولم يصل إلينا منها إلا هذه المصنفات الثلاثة : تنزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبدالجبار ، وأمالي الشريف المرتضى ، والكشاف للزمخشري. لهذا نرى أن نتكلم عن هذه الكتب الثلاثة ، وعن المسلك الذي سلكه فيها أصحابها ، بما يلقي لنا ضوءا على المنحى الذي نحاه المعتزلة في تفسيرهم لكتاب الله تعالى ، وتأويلهم لنصوصه ، حتى تشهد لهم ، أو لا تتعارض معهم على الأقل .

١ — تنزيه القرآن عن المطاعن

للقاضي عبد الجبار

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو قاضي القضاة[١] ، أبو الحسن عبدالجبار بن أحمد ابن عبدالجبار بن أحمد بن الخليل الهمداني الأسدباذي الشافعي ، شيخ المعتزلة. سمع من أبي الحسن بن سلمة بن القطان ، وعبد الله بن جعفر بن فارس ، وغيرهما . عاش دهراً طويلا وفاق أقرانه ، وسار ذكره ، وعظم صيته ، ورحلت إليه الطلبة ، وأخذ عنه كثير من العلماء ، منهم : أبو القاسم علي بن الحسن التنوخي ، والحسن بن علي الصيمري الفقيه ، وأبو محمد عبد السلام القزويني المفسر المعتزلي .

استدعاه الصاحب إلى الري بعد سنة ٣٦٠هـ ستين وثلاثمائة من الهجرة ، فولي قضاءها ، وبقي بها مواظباً على التدريس إلى آخر حياته ، وكان الصاحب يقول فيه : هو أعلم أهل الأرض .

وقد خلف القاضي عبدالجبار مصنفات في أنواع مختلفة من العلوم ، منها : كتاب الخلاف والوفاق ، وكتاب المبسوط ، وكتاب المحيط ، وكلها في علم

---

(١) تلقبه المعتزلة بهذا ؛ ولا يعنون به عند الإطلاق غيره .

الكلام . وألف فى أصول ، الفقه : النهاية والعمدة ، وشرحه . وألف فى المواعظ كتاباً سماه نصيحة المتفقهة . وقال ابن كثير فى طبقاته : إن من أجل مصنفاته وأعظمها ، كتاب دلائل النبوة ، فى مجلدين ، أبان فيه عن علم وبصيرة جيدة . وبالجملة ، فقد طبق الأرض بكتبه ، وبعد صيته ، وعظم قدره ، حتى انتهت إليه الرياسة فى المعتزلة ، وصار شيخها وعالمها غير مدافع ، وكانت وفاته فى ذى القعدة ٤١٥ هـ خمس عشرة وأربعمائة[١] .

التعريف بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن وطريقة مؤلفه فيه :

ذكر مؤلف هذا الكتاب فى مقدمته ص ٣ ، ٤ : أنه لا ينتفع بكتاب الله إلا بعد الوقوف على معانى مافيه ، وبعد الفصل بين محكمه ومتشابهه ، وذكر أن كثيراً من الناس قل ضل بأن تمسك بالمتشابه حتى اعتقد أن قوله تعالى : « سبح لله مافى السموات وما فى الأرض[٢] » حقيقة فى الحجر والمدر والطير والنعم ، وربما رأوا فى ذلك تسبيح كل شىء من ذلك، ومن اعتقد ذلك لم ينتفع بما يقرؤه ، قال تعالى « أفلا يتدبرون القرآن[٣] » . وكذلك وصفه تعالى بأنه « يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين »[٤] . . ثم قال : وقد أملينا فى ذلك كتابا يفصل بين المحكم والمتشابه ، عرضنا فيه سور القرآن على ترتيبها ، وبينا معانى ماتشابه من آياتها ، مع بيان وجه خطأ فريق من الناس فى تأويلها ، ليكون النفع به أعظم ، ونسأل الله التوفيق للصواب إن شاء الله . اهـ

فالكتاب لم يقصد فيه مؤلفه أن يعرض لشرح كتاب الله آية آية ،

---

(١) يراجع طبقات المفسرين للسيوطى ص ١٦ ؛ وشذرات الذهب جـ ٣ ص ٢٠٢ — ٢٠٣ .

(٢) أول سورتى الحشر ؛ والصف .

(٣) فى الآية (٢٤) من سورة محمد « عليه الصلاة والسلام » .

(٤) فى الآية (٩) من سورة الإسراء .

بل كان كل همه - كما نأخذ من عبارته السابقة ، وكما يظهر لنا من مسلكه فى الكتاب نفسه - موجها إلى الفصل بين محكم الكتاب ومتشابهه ، وإلى بيان معانى هذه الآيات المتشابهة ، ثم إلى بيان خطأ فريق من الناس ، فى تأويلها ، وهو يقصد بهذا الفريق - فى الغالب - جماعة أهل السنة الذين لا يرون رأيه فى القرآن ، ولا ينظرون إليه نظرته الاعتزالية .

نقرأ هذا الكتاب ، فنجد أن مؤلفه قد ابتدأه بسورة الفاتحة ، واختتمه بسورة الناس ، ولكنه لا يستقصى جميع السورة ، ولا يعرض لكل آياتها بالشرح كما قلنا ، بل نجده يبنى كتابه على مسائل ، كل مسألة تتضمن إشكالا وجوابا ، وهذا الإشكال تارة يرد على ظاهر النظم الكريم من ناحية الصناعة العربية ، وتارة يرد عليه من ناحية أنه لا يتفق مع عقيدته الاعتزالية .

بعض مواقفه من مشكلات الصناعة العربية :

أما المسائل التى أوردها مشتملة على مشكلات الصناعة العربية وأجوبتها ، فهى لا تخرج عما عرض له عامة المفسرين فى تفاسيرهم ، وهذا الجانب يشمل جزءاً غير قليل من الكتاب ، وإليك بعض هذه المسائل :

فمثلا فى سورة الحمد يقول فى ص ٤ ، ٥ ما نصه : (مسألة) قالوا : الحمد لله خبر ، فإن كان حمد نفسه فلا فائدة لنا فيه . وإن أمرنا بذلك ، فكان يجب أن يقول : قولوا الحمد لله . وجوابنا عن ذلك : أن المراد به الأمر بالشكر والتعليم لكى نشكره ، لكنه وإن حذف الأمر فقد دل عليه بقوله « إياك نعبد وإياك نستعين » ، لأنه لا يليق بالله تعالى ، وإنما يليق بالعباد ، فإذا كان معناه قولوا « إياك نعبد » فكذلك قوله « الحمد لله » ، وهكذا كقوله « . . . والملائكة يدخلون عليهم من كل باب * سلام عليكم[1] » ، ومثله كثير فى القرآن . اهـ .

---

(١) فى الآيتين (٢٣ و ٢٤) من سورة الرعد .

ومثلا فى سورة البقرة يقول فى ص ٦ ما نصه : (مسألة) ومتى قيل : ولماذا قال تعالى « ذلك الكتاب[1] » ، ولم يقل هذا الكتاب ؟ . فجوابنا : أنه جل وعز وعد رسوله إنزال كتاب عليه لا يمحوه الماء ، فلما أنزل ذلك قال : « ذلك الكتاب » . والمراد ما وعدتك ، ولو قال هذا الكتاب لم يفد هذه الفائدة اهـ .

ويقول بعد ذلك مباشرة فى ص ٦ ، ٧ ما نصه : (مسألة) قالوا : ما معنى « لاريب فيه[2] » ، وقد علمتم أن خلقا يشكون فى ذلك فكيف يصح ذلك ؟ . وإن أراد لا ريب فيه عندى وعند من يعلم ، فلا فائدة فى ذلك ؟ . فجوابنا : أن المراد أنه حق يجب أن لا يرتاب فيه ، وهذا كما يبين المرء الشىء لخصمه فيحسن منه بعد البيان أن يقول : هذا كالشمس واضح ، وهذا لا يشك فيه أحد ، وهذا كما يقال عند إظهار الشهادتين إن ذلك حق وصدق ، وإن كان فى الناس من يكذب بذلك اهـ .

ومثلا فى سورة هود يقول فى ص ١٦٤ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه[3] » ، ما الفائدة فى هذا الابتداء ولا خبر له ؟ وجوابنا أن الخبر قد يحذف إذا كان كالمعلوم ، والمراد : أفمن كان بهذا الوصف كمن هو يكفر ولا يسلك طريق العبادة وما توجيه البينة اهـ .

ومثلا فى سورة الفرقان يقول فى ص ٢٥٤ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « قل أذلك خير أم جنة الخلد[4] » ، كيف يصح ذلك ولا خير فى النار أصلا ؟ وجوابنا : أن المراد أيهما أولى بأن يكون خيرا ؟ ، وقد يقول

(١و٢) فى الآية (٢) من سورة البقرة .
(٣) فى الآية (١٧) من سورة هود .
(٤) فى الآية (١٥) من سورة الفرقان .

الحكيم لغيره من العصاة : إن التمسك بالطاعة خير لك من المعصية ، والمراد ما قد ذكرنا اه .

هذه أمثلة من الإشكالات التى أوردها القاضى عبد الجبار على ظاهر النظم من ناحية الصناعة ، وهذه هى الأجوبة التى أجاب بها عن هذه الإشكالات .

بعض مواقفه من المشكلات العقيدية الاعتزالية:

وأما المسائل التى أوردها مشتملة على إشكالات ترد على ظاهر النظم من ناحية أنه لا يتفق وعقيدته ، وعلى أجوبة هذه الإشكالات ، فهى كثيرة جداً ، وهى تشغل الجزء الأكبر من هذا المؤلف ، وإليك بعض هذه المسائل .

الهداية والضلال :

فمثلا يقول فى سورة البقرة ص ٩ و ١٠ ما نصه : (مسألة) قالوا : فقد قال تعالى « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة[1] » وهذا يدل على أنه قد منعهم من الإيمان ، ومذهبكم بخلافه ، وكيف تأويل الآية ؟ . وجوابنا أن للعلماء فى ذاك جوابين : أحدهما : أنه شبه حالهم بحال الممنوع الذى على بصره غشاوة من حيث أزاح كل عللهم فلم يقبلوا ، كما قد تعين للواحد الحق فتوضحه فإذا لم يقبل صح أن تقول : إنه حمار قد طبع الله على قلبه ، وربما تقول : إنه ميت ، وقد قال تعالى للرسول : « إنك لا تسمع الموتى[2] » وكانوا أحياء ، فلما لم يقبلوا شبههم بالموتى ، وهو كقول الشاعر :

---

(١) فى الآية (٧) من سورة البقرة .

(٢) فى الآية (٨٠) من سورة النمل .

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادى

ويبين ذلك أنه تعالى ذمهم ، ولو كان هو المانع لهم لما ذمهم ، وأنه ذكر فى جملة ذلك الغشاوة على سمعهم وبصرهم ، وذلك لو كان ثابتا لم يؤثر فى كونهم عقلاء مكلفين .

والجواب الثانى : أن الختم علامة يفعلها تعالى فى قلبهم ؛ لتعرف الملائكة كفرهم وأنهم لا يؤمنون فتجتمع على ذمهم . ويكون ذلك لطفا لهم ، ولطفا لمن يعرف ذلك من الكفار أو يظنه ؛ فيكون أقرب إلى أن يقلع عن الكفر . وهذا جواب الحسن رحمه الله ، ولهذا قال تعالى « ولهم عذاب عظيم[1] » اه .

ومثلا فى سورة الأعراف يقول فى ص ١٤٠ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى : « من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون[2] » أليس ذلك يدل على أنه يخلق الهدى والضلال ؟ . وجوابنا : أن المراد من يهد الله إلى الجنة والثواب فهو المهتدى فى الدنيا ، ومن يضلل عن الثواب إلى العقاب فأولئك هم الخاسرون فى الدنيا ، وسبيل ذلك أن يكون بعثا من الله تعالى على الطاعة . وكذلك قوله تعالى « من يضلل الله فلا هادى له[3] » المراد من يضلله عن الثواب فى الآخرة فلا هادى له إليه ، وإن كنا قد أزحنا العلة وسهلنا السبيل إلى الطاعة . اه .

ومثلا فى سورة الحج يقول فى ص ٢٤٠ ، ٢٤١ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « وأن الله يهدى من يريد[4] » إن ذلك يدل على أنه يهدى

---

(١) فى الآية (٧) من سورة البقرة .
(٢) الآية (١٧٨) من سورة الأعراف .
(٣) فى الآية (١٨٦) من سورة الأعراف .
(٤) فى الآية (١٦) من سورة الحج

قوما دون قوم بخلاف قولكم : إن الهدى عام . وجوابنا : أن المراد يكلفه من يريد ، لأن فى الناس من لا يبلغه حد التكليف . أو يحتمل أن يريد الهداية إلى الثواب ؛ لأنها خاصة فى المطيعين دون العصاة . ورغب تعالى المؤمن فى تحمل المشاق واحتمال ما يناله من المبطلين بقوله تعالى « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة [1] » فيبين حسن عاقبة المؤمن عند الفصل ؛ ليكون فى الدنيا وإن لحقه الذل صابراً . وعلى هذا الوجه قال صلى الله عليه وسلم : « الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر » اه .

فأنت ترى من هذا كله : أنه يفر من القول بأن الله تعالى هو الذى يصرف العبد عن طريق الهدى إلى طريق الضلال أو العكس ، تمشيا مع مذهبه وعقيدته ...

مس الشيطان :

كذلك نراه يفسر الآيات التى تدل على أن الشيطان له قدرة على أن يؤثر فى الإنسان بما يوافق مذهبه ، فيقول فى سورة البقرة ص ٥٠ ما نصه: (مسألة) وربما قيل : إن قوله « الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس [2] » كيف يصح ذلك وعندكم أن الشيطان لا يقدر على مثل ذلك ؟ . وجوابنا . أن المس الشيطان إنما هو بالوسوسة كما قال تعالى فى قصة أيوب « مسنى الشيطان بنصب وعذاب [3] » كما يقال فيمن يفكر فى شىء يغمه : قد مسه التعب ، وبين ذلك قوله فى صفة الشيطان « وما كان لى عليكم

---

(١) فى الآية (١٧) من سورة الحج .
(٢) فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة .
(٣) فى الآية (٤١) من سورة ص .

من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى[1] ، ولو كان يقدر على أن يخبط لصرف همته إلى العلماء والزهاد وأهل العقول ، لا إلى من يعتريه الضعف . وإذا وسوس ضعف قلب من يخصه بالوسوسة فتغلب عليه المرة فيتخبط ، كما يتفق ذلك فى كثير من الإنس إذا فعلوا ذلك لغيرهم اه .

ويقول فى سورة الناس ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى (قل أعوذ برب الناس ملك الناس . إله الناس . من شر الوسواس . . .)[2] أليس ذلك يدل على أن الشيطان يؤثر فى الإنسان حتى أمرنا بأن نتعوذ من شره ، وأنتم تقولون : إنه لا يقدر على شىء من ذلك ؟ . وجوابنا : أنه تعالى بين أن هذا الوسواس من الجنة والناس ، ومعلوم أن من يوسوس من الناس لا يخبط ولا يحدث فيمن يوسوس له تغيير عقل وجسم ، فكذلك حال الشيطان ، ومع ذلك فلا بد فى وسوستهم من أن يكون ضرر يصح أن يتعوذ بالله تعالى منه ، وهذا يدل إذا تأمله المرء على قولنا بأن العبد مختار لفعله ؛ وذلك لأنه تعالى لو كان يخلق كل هذه الأمور فيه لم يكن لهذا التعوذ معنى ؛ لأنه إن أراد خلق مايضره فيه ، وخلق المعاصى فيه ، فهذا التعوذ وجوده كعدمه ، وإنما ينفع ذلك متى كان العبد مختاراً ، فإذا أتى بهذا التعوذ كان أقرب إلى أن لا يناله من قبل الجنة والناس ما كان يناله لولا ذلك . . . اه

رؤية الله :

ولما كان المعتزلة لايجوزون وقوع رؤية الله فى الآخرة ، فإن صاحبنا قد تخلص من كل آية تجوز وقوع الرؤية .

فمثلا فى سورة يونس يقول ص ١٥٩ مانصه : (مسألة) وربما قيل فى

---

(١) فى الآية (٢٢) من سورة إبراهيم .
(٢) الآيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ من سورة الناس

قوله تعالى « للذين أحسنوا الحسنى وزيادة [١] » أليس المراد بها الرؤية على ماروى فى الخبر ؟ . وجوابنا أن المراد بالزيادة التفضل فى الثواب ، فتكون الزيادة من جنس المزيد عليه ، وهذا مروى ، وهو الظاهر ، فلا معنى لتعلقهم بذلك ، وكيف يصح ذلك وعندهم أن الرؤية أعظم من كل الثواب فكيف تجعل زيادة على الحسنى ؟ ولذلك قال بعده « ولا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة [٢] » فبين أن الزيادة هى من هذا الجنس فى الجنة اه .

وفى سورة القيامة يقول فى ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة ◦ إلى ربها ناظرة [٣] » إنه أقوى دليل على أن الله تعالى يرى فى الآخرة . وجوابنا : أن من تعلق بذلك إن كان ممن يقول بأن الله تعالى جسم ، فإنا لا ننازعه فى أنه يرى . بل فى أنه يصافح ، ويعانق ، ويلمس ، تعالى الله عن ذلك ، وإنما نكلمه فى أنه ليس بجسم . وإن كان ممن ينفى التشبيه عن الله فلا بد من أن يعترف بأن النظر إلى الله تعالى لا يصح ، لأن النظر هو تقليب العين الصحيحة نحو الشىء طلباً لرؤيته ، وذلك لا يصح إلا فى الأجسام. فيجب أن يتأول على ما يصح النظر إليه وهو الثواب، كقوله تعالى « واسأل القرية [٤] » فإنا تأولناه على أهل القرية لصحة المسألة منهم . وبين ذلك أن الله ذكر ذلك ترغيبا فى الثواب كما ذكر قوله « ووجوه يومئذ باسرة. تظن أن يفعل بها فاقرة [٥] » زجرا عن العقاب ، فيجب حمله على ماذكرناه ... اه .

أفعال العباد :

كذلك يتأثر القاضى عبد الجبار بعقيدته الاعتزالية القائلة بأن الله تعالى

(١ و ٢) فى الآية (٢٦) من سورة يونس .

(٣) الآيتان (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة .

(٤) فى الآية (٨٢) من سورة يوسف .

(٥) الآيتان (٢٤ ٢٥) من سورة القيامة .

لايخلق أفعال العباد ، فيقول فى سورة الأنفال ص ١٤٤ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى (١) » كيف يصح ذلك مع القول بأن الله تعالى لا يخلق أفعال العباد ؟ وجوابنا : أنه صلى الله عليه وسلم كان يرمى يوم بدر، والله تعالى بلغ برميته المقاتل ، فلذلك أضافه تعالى إلى نفسه كما أضاف الرمية أولا إليه بقوله : إذ رميت ، والكلام متفق بحمد الله اه

ويقول فى سورة الصافات ص ٢٩٨ ، ٢٩٩ مانصه (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « . . أتعبدون ماتنحتون * والله خلقكم وما تعملون (٢) » أليس فى ذلك تصريح بخلق أعمال العباد ؟ وجوابنا : أن المراد والله خلقكم وما تعملون من الأصنام، فالأصنام من خلق الله .وإنما عملهم نحتها وتسويتها ، ولم يكن الكلام فى ذلك ؛ فإنه صلى الله عليه وسلم أنكر عبادتهم . فقال : أتعبدون ماتنحتون ، وذلك الذى تنحتون الله خلقه . ولا يصح لما أورده عليهم معنى إلا على هذا الوجه ، وذلك فى اللغة ظاهر . لأنه يقال فى النجار . عمل السرير وإن كان عمله قد تقضى ، وعمل الباب ، ونظير ذلك قوله تعالى فى عصا موسى « فإذا هى تلقف مايأفكون (٣) » المراد ماوقع إفكهم فيه ، فعلى هذا الوجه نتأول هذه الآية ، معنى قوله من بعد « وقال إنى ذاهب إلى ربى سيهدين * رب هب لى من الصالحين (٤) » اه .

المنزلة بين المنزلتين :

ولما كان القاضى عبد الجبار يقول — كغيره من المعتزلة — بالمعنزلة بين المنزلتين ، فإنا نراه يتأثر بهذه العقيدة ، ففى سورة الأنفال عند قوله تعالى « إنما

---

(١) فى الآية (١٧) من سورة الأنفال :

(٢) فى الآيتين (٩٥، ٩٦) من سورة الصافات .

(٣) فى الآية (٤٥) من سورة الشعراء .

(٤) فى الآيتان (٩٩، ١٠٠) من سورة الصافات .

المؤمنون . الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون * الذين يقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون* أولئك هم المؤمنون حقا[1] ... » نجده فى ص ١٤٣ يقول ما نصه ... وكل ذلك يدل على أن الإيمان قول وعمل ، ويدخل فيه كل هذه الطاعات ، وأن المؤمن لايكون مؤمنا إلا أن يقوم بحق العبادات ، ومتى وقعت منه كبيرة خرج عن أن يكون مؤمناً اهـ .

وفى سورة الإنسان يقول فى ص ٣٥٩ ، ٣٦٠ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفوراً[2] » . أما يدل ذلك على أنه ليس من المكلفين إلا كافر ومؤمن ؟ . وجوابنا : أن الشاكر قد يكون شاكراً وإن لم يكن مؤمنا براً تقياً ؛ لأن الفاسق بغضب أو غيره قد يكون شاكراً فلا يدل على ماقالوا ، بل فى الآية دلالة على ما نقول من أن الكافر والمؤمن هما سواء فى أن الله تعالى قد هداهما ، لا كما قالت المجبرة : إنه تعالى إنما هدى المؤمنين . والمراد به أنه دل الجميع وأزال علتهم ، فمن عصى فمن جهة نفسه أتى اهـ .

تذرعه بالمجاز والتشبيه فيما يستبعد ظاهره :

كذلك نرى القاضى عبد الجبار يقف أمام الآيات التى تبدو فى ظاهرها غريبة مستبعدة ، موقف النفور من جواز إرادة المعنى الحقيقى ، والتخلص من هذا الظاهر المستغرب بحمل الكلام على المجاز والتشبيه .

فمثلا يقول فى سورة الأعراف ص ١٤٠ ما نصه : (مسألة) وربما قيل فى قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم

---

(١) فى الآيات (٢ ، ٣ ، ٤) من سورة الأنفال .
(٢) فى الآية (٣) من سورة الإنسان .

ألست بربكم قالوا بلى [١] » وفى الخبر أن جميع بنى آدم أخذ عليهم المواثيق من ظهر آدم صلى الله عليه وسلم ، كيف يصح ذلك ؟ وجوابنا : أن القوم مخطئون فى الرواية فمن المحال أن يأخذ عليهم المواثيق وهم كالذر لاحياة لهم ولاعقل ، فالمراد أنه أخذ الميثاق من العقلاء ، بأن أودع فى عقلهم ما ألزمهم ، إذ فائدة الميثاق أن يكون منبها ، وأن يذكر المرء بالدنيا والآخرة ، وذلك لايصح إلا فى العقلاء ، وظاهر الآية بخلاف قولهم ؛ لأنه تعالى أخذ من ظهور بنى آدم ، لامن آدم ، والمراد أنه أخرج من ظهورهم ذرية أكمل عقولهم . فأخذ الميثاق عليهم ، وأشهدهم على أنفسهم بما أودعه عقلهم اهـ .

ومثلا فى سورة الرعد يقول فى ص ١٨١ مانصه : (مسألة)ومتى قيل : فما معنى قوله تعالى « ويسبح الرعد بحمده [٢] » وكيف يصلح التسبيح من الرعد ؟ . وجوابنا : أن المراد دلالة الرعد وتلك الأصوات الهائلة على قدرته وعلى تنزيهه ، وذلك بقوله تعالى « سبح لله مافى السموات والأرض [٣] » لدلالة الكل على أنه منزه عما لايليق . ولذلك قال « والملائكة من خيفته [٤] » ففصل بين الأمرين . وقوله بعد « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها [٥] » معناه يخضع ، فالمكلف العارف بالله يخضع طوعاً ، وغيره يخضع كرها ، لأنا نعلم أن نفس السجود لايقع من كل أحد اهـ .

وقد رأينا كيف حمل القاضى حملته الشعواء فى مقدمة كتابه على من يحمل مثل هذه الآية على حقيقتها ، وكيف حكم عليه بأنه ضال لاينتفع بما يقرأ من كتاب الله .

---

(١) فى الآية (١٧٢) من سورة الأعرف .
(٢) فى الآية (١٣) من سورة الرعد .
(٣) أول سورة الحديد .
(٤) فى الآية (١٣) من سورة الرعد .
(٥) فى الآية (١٥) من سورة الرعد .

... وهكذا نجد القاضى عبد الجبار يتأثر تأثرا عظيما بمذهبه الاعتزالى ، فلا يكاد يمر بآية تعارض مذهبه إلا صرفها عن ظاهرها ، ومال بها إلى ناحية مذهبه ... وعلى الجملة فالكتاب — رغم مافيه من هذه النزعات الاعتزالية — قد كشف لنا عن كثير من الشبهات التى ترد على ظاهر النظم الكريم ، وأوضح لنا عن كثير من جمال التركيب القرآنى الذى ينطوى على البلاغة والإعجاز ، مما يشهد لمؤلفه بقوة وغزارة العلم . وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ومتداول بين أهل العلم .

٢ ـ أمالى الشريف المرتضى (١)
أو
غرر الفوائد ودرر القلائد

التعريف بمؤلف هذا الكتاب :

مؤلف هذا الكتاب ، هو أبو القاسم ، على بن الطاهر أبى أحمد الحسين ابن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر

---

(١) لأخيه الشريف الرضى المتوفى سنة ٤٠٦ هـ كتاب حقائق التأويل فى متشابه التنزيل ، وهو يقرب من الأمالى فى منهجه وطريقته ، فمن أجوبة لما يرد من إشكالات على ظاهر النظم ، إلى ردما يتعارض مع مذهبه الاعتزالى من ظواهر القرآن ، إلى غير ذلك من البحوث التى يكاد يتفق فيها مشرب الشريف الرضى مع مشرب أخيه الشريف المرتضى ، وقد أمسكنا عن الكلام عن هذا المؤلف ؛ لأنه مفقود ولم يطبع منه إلا الجزء الخامس وهو يشتمل على بعض مسائل من سورة آل عمران وبعض سورة النساء ؛ ولأنه فى كثير من الأحيان يحيل الجواب على ماتقدم فى الأجزاء السابقة . ولو وقع لنا هذا الكتاب كاملا لكان مرجعا مهما لايقل عن الأمالى فى تصويره لعقلية هذا الإمام الكبير وتأثره بمذهبه الاعتزالى فى فهمه لكتاب الله تعالى ، ولقد نقل ابن خلكان فى وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٦٥ عن ابن جنى أستاذ الشريف الرضى أنه قال « صنف الشريف الرضى كتابا فى معانى القرآن يتعذر وجود مثله ، دل على توسعه فى علم النحو واللغة » ا هـ.

ابن على زين العابدين بن الحسين بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم ، وهو أخو الشريف الرضى ، وشيخ الشيعة ورئيسهم بالعراق ، وكان مع تشيعه معتزليا مبالغاً فى اعتزاله ، وقد تبحر - رحمه الله - فى فنون العلم ، وعرف بالإمامة فى الكلام والأدب ، والشعر ، أخذ عن الشيخ المفيد . وروى الحديث عن سهل الديباجى الكذاب ، وله تصانيف كثيرة على مذهب الشيعة ومقالة فى أصول الدين ، وله ديوان شعر كبير ، وله كتاب الأمالى الذى سماه غرر الفوائد ودرر القلائد ، جمع فيه بين التفسير الإعتزالى ، والحديث ، والأدب ، وهو مانحن بصدد الكلام عنه الآن ، واختلف الناس فى كتاب نهج البلاغة المنسوب إلى الإمام على بن أبى طالب ، هل هو جمعه ؟ أو جمع أخيه الشريف الرضى ؟. وبالجملة فقد كان الشريف المرتضى إمام أئمة العراق ، يفزع إليه علماؤها ويأخذ عنه عظماؤها . وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ خمس وخمسين وثلاثمائة من الهجرة وتوفى سنة ٤٣٦ ست وثلاثين وأربعمائة ببغداد ، ودفن فى داره عشية يوم وفاته ، فرضى الله عنه وأرضاه(١) .

التعريف بهذا الكتاب وطريقة مؤلفه التى سلكها فى التفسير :

كتاب غرر الفوائد ودرر القوئد ، كتاب يشتمل على محاضرات أو أمالى ، أملاها الشريف المرتضى فى ثمانين مجلساً ، تشتمل على بحوث فى التفسير والحديث ، والأدب ، وهو كتاب ممتع ، يدل على فضل كثير ، وتوسع فى الإطلاع على العلوم ، وهو لايحيط بتفسير القرآن كله ، بل ببعض من آياته التى يدور أغلبها حول العقيدة ، وعلى ضوء مافسره من الآيات نستطيع أن نلقى نظرة فاحصة على تفسير المعتزلة للقرآن فى ذلك العصر ، كما تستطيع أن نقف على مبلغ جهود الشريف المرتضى للتوفيق بين آرائه الإعتزالية وآيات القرآن التى تتصادم معها .

ونحن اذ نتكلم عن أمالى الشريف المرتضى لا نتكلم عنها إلا من

(١) أنظر ترجمته فى وفيات الأعيان جـ٢ ص ١٤ - ١٧ .

ناحية ما فيهـــا من التفسير ، أما الناحية الحديثية والأدبية فلا تعنينا فى هذا البحث ، وإن كان لها قيمتها ومكانتها العلمية بين رجال الدين والأدب .

نتصفح كتاب الأمالى ، ونجيل النظر بين ما فيـه من بحوث فى التفسير ، فنجد السيد الشريف يسعى بكل جهوده إلى الوصول إلى مبادئه الإعتزالية عن طريق التفسير ، مستعينا فى ذلك بنبوغه الأدبى ، ومعرفته بفنون اللغة وأساليبها ، حتى أننا لنراه يقف من الآيات التى تعارضه موقفا يلتزم فيه مخالفة ظاهر القرآن ، ويفضل فيه التفاسير الملتوية لبعض الألفاظ على مايتبادر منها إرضاء لعقيدته ، وتمشيا مع مذهبه .

وإليك بعض الأمثلة من تفسيره للآيات التى تدور حول العقيدة ، لتقف على حقيقة الأمر ، ولتلمس مقدار هـذا التعصب المذهبى عند هـذا الشريف العلوى .

رؤية الله :

يقول فى المجلس الثالث جـ١ ص ٢٨ — ٢٩ : (مسألة) اعلم بأن أصحابنا قد اعتمدوا فى إبطال ماظنه أصحاب الرؤية فى قوله تعالى: وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة[1]، على وجوه معروفة ، لأنهم بينوا أن النظر ليس يفيد الرؤية، ولا الرؤية من أحد محتملاته ، ودلوا على أن النظر ينقسم إلى أقسام كثيرة : منها تقليب الحدقة الصحيحة فى جهة المرئى طلباً للرؤية ، ومنها النظر الذى هو الانتظار ومنها النظر الذى هو التعطف والمرحمة ، ومنها النظر الذى هو الفكر والتأمل . وقالوا : إذا لم يكن فى أقسام النظر الرؤية ، لم يكن للقوم بظاهرها تعلق، واحتجنا جميعاً إلى طلب تأويل الآية من جهة غير الرؤية . وتأولها بعضهم على الانتظار للثواب ، وإن كان المنتظر فى الحقيقة محذوفا ، والمنتظر منه مذكوراً على عادة للعرب معروفة . وسلم بعضهم أن النظر يكون الرؤية بالبصر . وحمل الآية على

---

(١) الآيتان (٢٢ ؛ ٢٣) من سورة القيامة .

رؤية أهل الجنة لنعم الله تعالى عليهم ، على سبيل حذف المرئى فى الحقيقة . وهذا كلام مشروح فى مواضعه ، وقد بينا مايرد عليه ، وما يجاب به عن الشبهة المعترضة فى مواضع كثيرة .

وههنا وجه غريب فى الآية ، حكى عن بعض المتأخرين ، لايفتقر معتمده إلى العدول عن الظاهر ، أو إلى تقدير محذوف ، ولايحتاج إلى منازعتهم فى أن النظر يحتمل الرؤية أولا يحتملها ، بل يصح الاعتماد عليه ، سواء كان النظر المذكور فى الآية هو الانتظار بالقلب أم الرؤية بالعين ، وهو أن يحمل قوله تعالى : إلى ربها ، إلى أنه أراد نعمة ربها ، لأن الآلاء النعم ، وفى واحدها أربع لغات ، ألاً مثل قفاً وألى مثل رَمى وإِلى مثل مِعى ، وإلى مثل حنى . قال أعشى بكر بن وائل .

أبيض لا يرهب الهزال ولا يقطع رحما ولايخون إلى

أراد أنه لايخون نعمة . وأراد تعالى إلى ربها ، فأسقط التنوين للإضافة

فإن قيل . فأى فرق بين هـذا الوجه وبين تأويل من حمل الآية على أنه أراد به إلى ثواب ربها ناظرة ، بمعنى رائية لنعمه وثوابه ؟ . قلنا : ذلك الوجه يفتقر إلى محذوف ، لأنه إذا جعل إلى حرفا ، ولم يعلقها بالرب تعالى ، فلابد من تقدير محذوف ، وفى الجواب الذى ذكرناه لايفتقر إلى تقدير محذوف ، لأن إلى فيه اسم يتعلق به الرؤية ، ولا يحتاج إلى تقدير غيره . والله أعلم بالصواب اه .

الإرادة وحرية الأفعال :

وفى المجلس الرابع جـ ١ ص ٣٠ ، ٣٣ يقول مانصه . (تأويل آية) . . إن قال قائل ماتأويل قوله تعالى (وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإذن الله ويجعل الرجس على الذين لايعقلون [١]) فظاهر هذا الكلام يدل على أن الإيمان

(١) الآية (١٠٠) من سورة يونس .

إنما كان لهم فعله بإذنه وأمره ، وليس هذا مذهبكم . وإن حمل الإذن هنا على الإرادة ، اقتضى أن من لم يقع منه الإيمان لم يرده الله منه ، وهذا أيضاً بخلاف قولكم . ثم جعل الرجس الذى هو العذاب على الذين لايعقلون ، ومن كان فاقداً لعقله لايكون مكلفاً . فكيف يستحق العذاب . وهو بالضد من الخبر المروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : « أكثر أهل الجنة البله » ؟ . . .
الجواب : يقال له فى قوله تعالى إلا بإذن الله وجوه : منها أن يكون الإذن الأمر ، ويكون معنى الكلام أن الإيمان لايقع إلا بعد أن يأذن الله فيه ويأمر به ، ولايكون معناه ما ظنه السائل من أنه لايكون للفاعل فعله إلا بإذنه ، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى : (وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله [1]) ومعلوم أن معنى قوله ليس لها فى هذه الآية . هو ماذكرناه ، وإن كان الأشبه فى هذه الآية التى ذكر فيها الموت أن يكون المراد بالإذن العلم . . . ومنها أن يكون الإذن هو التوفيق ، والتيسير ، والتسهيل . ولاشبهة فى أن الله يوفق لفعل الإيمان ويلطف فيه ، ويسهل السبيل إليه . . . ومنها أن يكون الإذن العلم ، من قولهم : أذنت لكذا وكذا ، إذا سمعته وعلمته . وأذنت فلاناً بكذا إذا أعلمته ،فتكون فائدة الآية : الإخبار عن علمه تعالى بسائر الكائنات ؛ فإنه ممن لايخفى عليه الخفيات . . . وقد أنكر بعض من لا بصيرة له أن يكون الإذن بكسر الألف وتسكين الذال عبارة عن العلم ، وزعم أن الذى هو العلم ، الأذن بالتحريك واستشهد بقول الشاعر :

إن همى فى سماع وأذن

وليس الأمر على ماتوهم هذا المتوهم ؛ لأن الأذن هو المصدر ، والإذن هو اسم الفعل،فيجرى مجرى الحذر والحذر فى أنه مصدر،والحذر بالتسكين الاسم . على أنه لولم يكن مسموعا إلا الأذن بالتحريك لجاز التسكين مثل .

---

(١) فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران .

مثَل : ومثْل ، وشَبه وشِبه ، ونظائر ذلك كثيرة ... ومنها أن يكون الإذن العلم ، ومعناه إعلام الله المكلفين بفضل الإيمان وما يدعو إلى فعله ، ويكون معنى الآية : وما كان لنفس أن تؤمن إلا بإعلام الله لها بما يبعثها على الإيمان ومايدعوها إلى فعله . . فأما ظن السائل دخول الإرادة فى محتمل اللفظ فباطل ، لأن الإذن لايحتمل الإرادة فى اللغة، ولو احتملها أيضاً لم يجب ما توهمه ؛ لأنه إذا قال إن الإيمان لايقع إلا وأنا مريد له ، لم ينف أن يكون مريداً لما لم يقع ، وليس فى صريح الكلام ولادلالته شيء من ذلك . .) ثم انتقل من هذا إلى كشف الشبهة عن معنى قوله « ويجعل الرجس على الذين لايعقلون » بما لايتصل بعقيدته الاعتزالية .

وفى المجلس ٤١ جـ ٣ ص ٢ ، ٤ يقول مانصه : (تأويل آية) إن سأل سائل عن قوله تعالى « فأين تذهبون * إن هو إلا ذكر للعالمين » إلى آخر الآية [1] فقال : ماتأويل هذه الآية ؟ أوليس ظاهرها يقتضى أنا لانشاء شيئاً إلا والله تعالى شاءه ، ولم يخص إيمان من كفر ، ولا طاعة من معصية ... ؟ . الجواب: قلنا: الوجه المذكور فى هذه الآية أن الكلام متعلق بما تقدمه من ذكر الإستقامة؛ لأنه تعالى قال : « لمن شاء منكم أن يستقيم » ثم قال « وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » أى ماتشاءون الاستقامة إلا والله تعالى مريد لها، ونحن لاننكر أن يريد الله تعالى الطاعات وإنما أنكرنا إرادته المعاصى. وليس لهم أن يقولوا تقدم ذكر الاستقامة لايوجب قصر الكلام عليها. ولايمنع من عمومه ، كما أن السبب لايوجب قصر ما يخرج من الكلام عليه حتى لا يتعداه ، وذلك أن الذى ذكروه إنما يجب فيما يستقل بنفسه من الكلام دون مالا يستقل ...

---

(١) يريد إلى آخر السورة وهو قوله تعالى « لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين » والآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ من سورة التكوير .

وقوله تعالى : « وماتشاءون إلا أن يشاء الله » لا ذكر للمراد فيه ، فهو غير مستقل بنفسه ، وإذا علق بما تقدم من ذكر الاستقامة استقل . على أنه لو كان للآية ظاهر يقتضى ماظنوه — وليس لها ذلك — لوجب الانصراف عنه بالأدلة الثابتة على أنه تعالى لا يريد المعاصى ولا القبائح . على أن مخالفينا فى هذه المسألة لا يمكنهم حمل الآية على العموم ، لأن العباد قد يشاءون عندهم مالا يشاؤه الله تعالى بأن يريدوا الشىء ويعزموا عليه فلا يقع لمانع ، ممتنعا كان أو غيره . وكذلك قد يريد النبى عليه الصلاة والسلام من الكفار الإيمان ، وقد تعبدنا بأن نريد من المقدم على القبيح تركه ، وإن كان تعالى عندهم لا يريد ذلك إذا كان المعلوم أنه لا يقع ، فلا بد لهم من تخصيص الآية . فإذا جاز لهم ذلك بالشبهة ، جاز لنا مثله بالحجة وتجرى هذه الآية مجرى قوله تعالى: «إن هذه تذكرة . فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلا * وماتشاءون إلا أن يشاء الله . . . (١)» وقوله تعالى « وما يذكرون إلا أن يشاء الله (٢) » فى تعلق الكلام بما قبله ...
فإن قالوا : فالآية تدل على صحة مذهبنا من وجه وبطلان مذهبكم من وجه آخر ، وهو أنه عز وجل قال « وماتشاؤن إلا أن يشاء الله » ، وذلك يقتضى أنه يشاء الاستقامة فى حال مشيئتنا لها لأن أن الخفيفة إذا دخلت على الفعل المضارع اقتضت الاستقبال وهذا يوجب أنه يشاء أفعال العباد فى كل حال ، ويبطل ماتذهبون إليه من أنه إنما يريد الطاعات فى حال الأمر ... قلنا: ليس فى ظاهر الآية أنا لا نشاء إلا ماشاءه الله تعالى فى حال مشيئتنا كما ظننتم ، وإنما يقتضى حصول مشيئته لما تشاءوه من الاستقامة من غير ذكر لتقدم ولا تأخر ، ويجرى ذلك مجرى قول القائل : ما يدخل زيد هذه الدار إلا أن يدخلها عمرو ، ونحن نعلم أنه غير واجب بهذا الكلام أن يكون دخولهما فى حالة واحدة ، بل لا يمتنع أن يتقدم دخول عمرو ، ويتلوه دخول زيد . وأن الخفيفة وإن كانت للاستقبال -على ماذكر- فلم يبطل على تأويلنا معنى الاستقبال فيها ، لأن تقدير

(١) فى الآيتين (٢٩ ؛ ٣٠) من سورة الإنسان
(٢) فى الآية (٥٦) من سورة المدثر .

الـكلام وماتشاءون الطاعات إلا بعد أن يشاء الله تعالى ، ومشيئته تعالى قد كانت لها حال الاستقبال . وقد ذهب أبو على الجبائى إلى أنه لايمتنع أن يريد تعالى الطاعات حالا بعد حال ، وإن كان قد أرادها فى حال الأمر ، كما يصح أن يأمر بها أمرا بعد أمر ، قال : لأنه قد يصح أن يتعلق بإرادته ذلك منا بعد الأمر وفى حال الفعل مصلحة . ويعلم تعالى أنا نـكون متى علمنا ذلك كنا إلى فعل الطاعات أقرب ، وعلى هذا المذهب لايعترض بماذكروه . . . والجواب الأول واضح إذا لم نذهب إلى مذهب أبى على فى هذا الباب . على أن اقتضاء الآية للاستقبال من أوضح دليل على فساد قولهم ؛ لأن الـكلام إذ اقتضى حدوث المشيئة وأبطـل استقبالها بطل قول من قال منهم : إنه مريد بنفسه ، أو مريد بإرادة قديمـة ، وصح ما نقوله من أن إرادته محـدثة مجددة ويمكن فى تأويل الآية وجه آخر مع حملنا إياها على العموم من غير أن نخصها بما تقدم ذكره من الإستقامة ، ويكون المعنى وماتشاون شيئاً من فعالكم إلا أن يشاء الله تمـكينكم من مشيئتكم ، وإقداركم عليها ، والتخلية بينكم وبينها . وتـكون الفائدة فى ذلك الإخبار عن الافتقار إلى الله تعالى ، وأنه لاقدرة على مالم يقدره الله تعالى عز وجل . وليس يجب عليه أن يستبعد هذا الوجه ، لأن ماتتعلق به المشيئة فى الآية محذوف غير مذكور ، وليس لهم أن يعلقوا قوله تعالى « إلا أن يشاء الله » بالأفعال ، دون تعلقه بالقدرة ، لأن كل واحد من الأمرين غير مذكور ، وكل هذا واضح بحمد الله . . .

فأنت ترى من هـذه المثل وغيرها لورجعت إليها فى مكانها أن الشريف المرتضى تأثر فى تأويله للآيات القرآنيـة بعقيدته الاعتزاليـة ودافع بكل ما يستطيع عن مذهبه ، ورد كل شبهة ترد عليه بمـا يدل على قوة ذهنه وسعة اطلاعه .

رفضه لبعض ظواهر القرآن

كذلك نجد الشريف المرتضى — كغيره من المعتزلة — يرفض بشدة

المعانى القرآنية الظاهرة ، التى تبدو فى أول أمرها مستبعدة مستغربة ، والتى يجوزها أهل السنة ويرونها أولى بأن يحمل اللفظ عليها من غيرها ، ويتخلص من ذلك إما بحمل اللفظ على معنى حقيقى آخر لاغرابة فيه ، وإما بحمله على التمثيل أو التخييل ، ونجد لذلك مثلا جلياً واضحاً فى المجلس الثالث ج ١ ص ٢٠ ، ٢٢ حيث يقول مانصه : قال الله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بمافعل المبطلون »[1] .

وقد ظن بعض من لابصيرة له ولا فطنة عنده ، أن تأويل هذه الآية : أن الله استخرج من ظهر آدم جميع ذريته وهم فى خلق الذر ، فقررهم بمعرفته ، وأشهدهم على أنفسهم . وهذا التأويل مع أن العقل يبطله ويحيله ، مما يشهد ظاهر القرآن بخلافه ، لأن الله تعالى قال « وإذ أخذ ربك من بنى آدم » ولم يقل من ظهره . وقال « ذريتهم » ولم يقل ذريته . ثم أخبر تعالى بأنه فعل ذلك لئلا يقولوا إنهم كانوا عن هذا غافلين . أو يتعذروا بشرك آبائهم ، وأنهم نشئوا على دينهم وسنتهم ، وهذا يقتضى أن الآية لم تتناول ولد آدم لصلبه ، وأنها تناولت من كان له آباء مشركون ، وهذا يدل على اختصاصها ببعض ولد آدم ، فهذه شهادة الظاهر ببطلان تأويله . فأما شهادة العقل ، فمن حيث لاتخلو هذه الذرية التى استخرجت من ظهر آدم فخوطبت وقررت من أن تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف ، أولا تكون كاملة العقول مستوفية لشروط التكليف ، فإن كانت بالصفة الأولى وجب أن يذكر هؤلاء بعد خلقهم وإنشائهم وإكمال عقولهم ماكانوا عليه فى تلك الحال ، وما قرروا به واستشهدوا عليه ، لأن العاقل لاينسى مايجرى هذا المجرى وإن بعد العهد وطال الزمان ، ولهذا لايجوز أن يتصرف أحدنا فى بلد من البلدان وهو عاقل كامل ، فينسى مع بعد العهد جميع تصرفه المتقدم وسائر أحواله . وليس أيضا لتخلل الموت بين

(١) الآيتان (١٧٢ ، ١٧٣) من سورة الأعراف .

الحالين تأثير ؛ لأنه لو كان تخلل الموت يزيل الذكر ، لكان تخلل النوم ، والسكر ، والجنون ، والإغماء من أحوال العقلاء يزيل ذكرهم لما مضى من أحوالهم ؛ لأن سائر ماعددناه مما ينفي العلوم يجري مجرى الموت في هذا . وليس لهم أن يقولوا : إذا جاز في العاقل الكامل أن ينسى ما كان عليه في حال الطفولية جاز ماذكرناه ، وذلك إنما أوجبنا ذكر العقلاء لما ادعوه إذا كملت عقولهم ، من حيث يجري عليهم وهم كاملو العقول ، ولو كانوا بصفة الأطفال في تلك الحال لم نوجب عليهم ما أوجبناه . على أن تجويز النسيان عليهم ينقض الغرض في الآية ، وذلك أن الله تعالى أخبرنا بأنه إنما قررهم وأشهدهم ، لئلا يدعوا يوم القيامة الغفلة وسقوط الحجة عنهم ، فإذا جاز نسيانهم له ، عاد الأمر إلى سقوط الحجة وزوالها . وإن كانوا على الصفة الثانية من فقد العقل وشرائط التكليف ، قبح خطابهم ، وتقريرهم ، وإشهادهم ، وصار ذلك عبثاً قبيحاً . فإن قيل قد أبطلتم قول مخالفيكم ، فما تأويلها الصحيح عندكم ؟ . قلنا في الآية وجهان : أحدهما : أن يكون تعالى إنما عنى بها جماعة من ذرية بني آدم ، خلقهم وبلغهم ، وأكمل عقولهم ، وقررهم على ألسن رسله عليهم السلام بمعرفته ، وما يجب من طاعته ، فأمروا بذلك ، وأشهدهم على أنفسهم لئلا يقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ، أو يعتذروا بشرك آبائهم . وإنما أتى من اشتبه عليه تأويل الآية من حيث ظن أن اسم الذرية لا يقع إلا على من لم يكن عاقلا كاملا ، وليس الأمر كما ظن ؛ لأنه سمي جميع البشر بأنهم ذرية آدم وإن دخل فيهم العقلاء الكاملون ، وقد قال تعالى «ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم»[1] ، ولفظ الصالح لا يطلق إلا على من كان كاملا عاقلا ، فإن استبعدوا تأويلنا وحملنا الآية على البالغين المكلفين فهذا جوابهم .

والجواب الثاني : أنه تعالى لما خلقهم وركبهم تركيبا يدل على معرفته ، ويشهد بقدرته ووجوب عبادته ، فأراهم العبر ، والآيات ، والدلائل ،

---

(١) في الآية (٨) من سورة غافر .

فى أنفسهم وفى غيرهم ، كان بمنزلة المشهدلهم على أنفسهم وكانوا فى مشاهدة ذلك ومعرفته ، وظهوره فيهم على الوجه الذى أراده الله تعالى وتعذر امتناعهم منه وانفكاكهم من دلالته ، بمنزلة المقر المعترف وإن لم يكن هناك إشهاد ولا اعتراف على الحقيقة ، ويجرى ذلك مجرى قوله تعالى «ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[1]» ، وإن لم يكن منه تعالى قول على الحقيقة ، ولا منهما جواب . ومثله قوله تعالى «شاهدين على أنفسهم بالكفر[2]» ، ونحن نعلم أن الكفار لم يعترفوا بالكفر بألسنتهم ، وإنما ذلك لما ظهرمنهم ظهوراً لا يتمكنون من دفعه ، كانوا بمنزلة المعترفين به ، ومثل هذا قولهم : جوارحى تشهد بنعمتك ، وحالى معترفة بإحسانك ، وما روى عن بعض الحكماء من قوله : سل الأرض من شق أنهارك ؟ وغرس أشجارك ؟ وجنى ثمارك ؟ فإن لم تجبك حِوَاراً ، أجابتك اعتبارا وهذا باب كبير ، وله نظائر كثيرة فى النظم والنثر ، يغنى عن ذكر جميعها القدر الذى ذكرناه منها اهـ .

الطريقة اللغوية فى تفسيره للقرآن :

ثم إننا نجد الشريف المرتضى ، قد ولع بالطريقة اللغوية فى تفسيره للآيات القرآنية ، وحرص كل الحرص على تطبيق هذا المبدأ اللغوى ، الذى يعتبر الأصل المهم من قواعد التفسير عند المعتزلة ، وكثيراً ما نراه يظهر مهارة فائقة فى استعماله لهذه الطريقة عندما يساوره الشك فى ظاهر اللفظ الذى يتعلق بالعقيدة ، فنراه يفسره تفسيرا مقبولا لديه ، يقوم على أساس من الأسس اللغوية . والحق أن الشريف المرتضى قد ظهر تفوقه العلمى الصحيح ، عند تطبيقه لهذا المبدأ ، وذلك راجع إلى تمكنه العظيم من اللغة والشعر القديم .

---

(١) الآية (١١) من سورة فصلت .
(٢) فى الآية (١٧) من سورة التوبة .

ولهذا نجده لايعتبر من التفاسير اللغوية إلا ما كان له شاهد من اللغة أو الشعر العربى القديم . أما التفسير المطلق ، الذى لايعتمد على شاهد من ذلك ، فإنه يرفضه ولا يرضاه . وإليك بعض الأمثلة التى تصور لك عناية المرتضى بهذا المبدأ اللغوى .

فى المجلس ٢٣ ج ٢ ص ٦ — ٩ يقول ما نصه : إن سأل سائل عن قوله تعالى « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك[١] » ماالمراد بالنفس فى هذه الآية وهل المعنى فيها كالمعنى فى قوله « ويحذركم الله نفسه » ؟ أو يخالفه ؟ أو يطابق معنى الآيتين ، والمراد بالنفس فيهما مارواه أبو هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : يقول الله عز وجل : إذا أحب العبد لقائى أحببت لقاءه ، وإذا ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ، وإذا ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه ، وإذا تقرب إلى ذراعا تقربت إليه باعا . أو لايطابقه ؟ .. الجواب : قلنا : إن النفس فى اللغة لها معان مختلفة . ووجوه فى التصرف متباينة : فالنفس نفس الإنسان وغيره من الحيوان ، وهى التى إذا فقدها خرج عن كونه حيا ، ومنه قوله تعالى « كل نفس ذائقة الموت[١] » . والنفس ذات الشىء الذى يخبر عنه ، كقولهم : فعل ذلك فلان نفسه ، إذا تولى فعله . والنفس الأنفة ، من قولهم : ليس لفلان نفس ، أى لاأنفة له ، والنفس الإرادة ، من قولهم : نفس فلان فى كذا ، أى إرادته . قال الشاعر :

فنفساى نفس قالت آنت ابن بجدل   تجـــد فرجا من كل غم تهابها
ونفس تقول اجهد نجاك فلا تكن   كخاضبة لم يغن شيئا خضابها

ومنه : أن رجلا قال للحسن البصرى : ياأبا سعيد لم أحجج قط ، فنفس تقول لى حج ، ونفس تقول لى تزوج ، فقال الحسن : أما النفس فواحدة ، ولكن لك هم يقول : حج ، وهم يقول : تزوج ، وأمره بالحج ... وقال الممزق العبدى ، ويروى لمعقر بن حمار البارقى :

---

(١) فى الآية (١١٦) من سورة المائدة .

(٢) فى الآية ١٨٥ من سورة آل عمران .

ألا من لعين قد نآها حميمها   وأرقنى بعد المنام همومها
فباتت لها نفسان ، شتى همومها   فنفس تعزيها ، ونفس تلومها

وقال نمر بن تولب العكلى :

أما خليلى ، فإنى لست معجله   حتى يؤامر نفسيه كما زعما
نفس له من نفوس القوم صالحة   تعطى الجزيل،ونفس ترضع الغنما

أراد أنه بين نفسين : نفس تأمره بالجود ، وأخرى تأمره بالبخل ، وكنى برضاع الغنم عن البخل ؛ لأن البخيل يرضع اللبن من الشاة ولا يحلبها ؛ لئلا يسمع الضيف صوت الشخب فيهتدى إليه . ومنه قيل لئيم راضع، وقال كثير :

فأصبحت ذا نفسين : نفس مريضة   من الناس ، ماينفك هم يعودها
ونفس ترجى وصلها بعد صرمها   تجمل كى يزداد غيظا حسودها

والنفس العين التى تصيب الإنسان يقال . أصابت فلانا نفس أى عين ، وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يرقى فيقول : بسم الله أرقيك ، والله يشفيك ، من كل داء يؤذيك ، وداء هو فيك ، من كل عين عائن ، ونفس نافس ، وحسد حاسد . وقال ابن الأعرابى:النفوس:التى تصيب الناس بالنفس، وذكر رجلا فقال : كان والله حسودا نفوسا كذوبا ، وقال عبد الله بن قيس الرقيات ، وهو قرشى :

يتقى أهلها النفوس عليها   فعلى نحرها الرقى والتميم

وقال مضرس الفقعسى :

وإذا نموا صعدا فليس عليهم   منا الخيال ولا نفوس الحسد

وقال ابن هرمة ، يمدح عبد الواحد بن سليمان بن عبد الملك :

فاسلم ، سلمت من المكاره والردى   وعثارها ، ووقيت نفس الحسد

والنفس أيضاً من الدباغ بمقدار الدبغة ، تقول : أعطنى نفسا من دباغ ، أى قدر ما أدبغ به مرة . والنفس الغيب ، يقول القائل إنى لا أعلم نفس فلان أى غيبه . وعلى هذا تأويل قوله تعالى (تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك) أى تعلم غيبى وماعندى ، ولاأعلم غيبك . وقيل : إن النفس أيضاً العقوبة ، من قولهم أحذرك نفسى ، أى عقوبتى. وبعض المفسرين يحمل قوله تعالى « ويحذركم الله نفسه » على هذا المعنى كأنه يحذركم عقوبته ، وروى ذلك عن ابن عباس والحسن وآخرين ، قالوا : معنى الآية يحذركم الله إياه . وقد روى عن الحسن ومجاهد فى قوله تعالى « تعلم مافى نفسى ولا أعلم مافى نفسك » ماذكرناه من التأويل بعينه .

فإن قيل : ماوجه تسميته الغيب بأنه نفس ؟ قلنا : لايمتنع أن يكون الوجه فى ذلك ، أن نفس الإنسان لما كانت خفية الموضع ، نزل مايكتمه ويجتهد فى ستره منزلتها ، وسمى باسمها فقيل فيه : إنه نفسه ، مبالغة فى وصفه بالكتمان والخفاء . وإنما حسن أن يقول تعالى مخبرا عن نبيه عليه الصلاة والسلام « ولا أعلم مافى نفسك » من حيث تقدم قوله تعالى « تعلم مافى نفسى » ليزدوج الكلام ؛ ولهذا لايحسن ابتداءاً ، أنا لاأعلم مافى نفس الله تعالى وإن حسن على الوجه الأول ، ولهذا نظائر فى الاستعمال مشهورة مذكورة . فأما الخبر الذى يرويه السائل فتأويله ظاهر ، وهو خارج على مذهب العرب فى مثل هذا الباب المعروف ، ومعناه : أن من ذكرنى فى نفسه جازيته على ذكره لى ، وإذا تقرب إلىّ شبراً جازيته على تقربه إلىّ ... وكذلك الخبر إلى آخره ، فسمى المجازاة على الشىء باسمه اتساعا ، كما قال تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها[1]» ، « ويمكرون ويمكر الله[2] » . . « الله يستهزئ بهم[3] » . وكما قال الشاعر :

---

(١) فى الآية (٤٠) من سورة الشورى .
(٢) فى الآية (٣٠) من سورة الأنفال
(٣) فى الآية (١٥) من سورة البقرة .

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

ونظائر هذا كثير فى كلام العرب . ولما أراد تعالى المبالغة فى وصف ما يفعله به من الثواب والجازاة على تقربه بالكثرة والزيادة ، كنى عن ذلك بذكر المسافة المتضاعفة فقال : باعاً وذراعاً ، إشارة إلى المعنى من أبلغ الوجوه وأحسنها اه.

وقال فى المجلس ٤٥ ج ٣ ص ٤٦ — ٥٠ ما نصه : إن سأل سائل عن معنى قوله تعالى « كل شىء هالك إلا وجهه [١] » . وقوله تعالى « إنما نطعمكم لوجه الله [٢] » . وقوله « ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [٣] » وما شاكل ذلك من آى القرآن المتضمنة لذكر الوجه ... الجواب : قلنا : الوجه ينقسم فى اللغة العربية إلى أقسام : فالوجه المركب فيه العينان من كل حيوان . والوجه أيضاً : أول الشىء وصدره . ومن ذلك قوله تعالى «وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره [٤] » أى أول النهار . ومنه قول الربيع بن زياد :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليأت نسوتنا بوجه نهار

أى غداة كل يوم . وقال قوم : وجه نهار : اسم موضع . والوجه : القصد بالفعل ؛ من ذلك قوله تعالى « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله [٥] » . وقال الفرزدق

وأسلمت وجهى حين شدت ركائبى إلى آل مروان بناة المكارم

---

(١) فى الآية (٨٨) من سورة القصص .

(٢) فى الآية (٩) من سورة الإنسان .

(٣) الآية (٢٧) من سورة الرحمن .

(٤) الآية (٧٢) من سورة آل عمران .

(٥) فى الآية (١٢٥) من سورة النساء .

أى جعلت قصدى وإرادتى لهم .وأنشد الفراء :

استغفر الله ذنباً لست محصيه   ربّ العباد إليه الوجه والعمل

أى القصد ، ومنه قولهم فى الصلاة : وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض ، أى قصدت قصدى بصلاتى وعملى ، وكذلك قوله تعالى « فأقم وجهك للدين القيم [١] » .

والوجه الاحتيال فى الأمر ، من قولهم . كيف الوجه لهذا الأمر ، وما الوجه فيه ، أى الحيلة . والوجه : الذهاب والجهة والناحية . قال حمزة بن بيض الحنفى :

أى الوجوه انتجعت قلت لهم   لأى وجه إلا إلى الحكم
متى يقل صاحباً سرادقه   هذا ابن بيض بالباب يبتسم

والوجه : القدر والمنزلة ، ومنه قولهم : لفلان وجه عريض ، وفلان أوجه من فلان ، أى أعظم قدراً وجاها ، ويقال : أوجهه السلطان ، إذا جعل له جاها . قال امرؤ القيس :

ونادمت قيصر فى ملكه   فأوجهنى وركبت البريدا

يقال : حمل فلان فلانا على البريد إذا هيأ له فى كل مرحلة مركباً ليركبه ، فإذا وصل إلى المرحلة الأخرى نزل عن المعيى وركب المرفّه . . . وهكذا إلى أن يصل إلى مقصده . والوجه : الرئيس المنظور إليه ، يقال : فلان وجه القوم وهو وجه عشيرته . ووجه الشىء : نفسه وذاته ، قال أحمد بن جندل :

ونحن حفزنا الحوفزان بطعنة   فأفلت منها وجهه عتد بهد [٢]

---

(١) فى الآية (٤٣) من سورة الروم .

(٢) هكذا بالأصل ولا يظهر لقوله (عتد بهد) معنى . وأصل البيت بخلاف ذلك . راجع ما كتب على البيت بهامش الأمالى .

آراد أفلته ونجاه ، ومن ذلك قولهم : إنما أفعل ذلك لوجهك. ويدل أيضا على أن الوجه يعبر به عن الذات ، قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » إلى ربها ناظرة » ووجوه يومئذ باسرة » تظن أن يفعل بها فاقرة[1] » . . وقوله تعالى « وجوه يومئذ ناعمة » لسعيها راضية [2] » لأن جميع ما أضيف إلى الوجوه فى ظاهر الآى من النظر والظن والرضا لايصح إضافته على الحقيقة إليها ، وإنما يضاف إلى الجملة ، فمعنى قوله تعالى « كل شيء هالك إلا وجهه» أى كل شيء هالك إلا إياه . فكذلك قوله تعالى « كل من عليها فان » ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام [3]» لما كان المراد بالوجه نفسه لم يقل ذى، كما قال« تبارك اسم ربك ذى الجلال والإكرام» لما كان اسمه غيره ... ويمكن فى قوله تعالى«كل شيء هالك إلا وجهه » وجه آخر — وقد روى عن بعض المتقدمين — وهو أن يكون المراد بالوجه مايقصد به إلى الله تعالى ، ويوجه به إليه ، نحو القربة إليه جلت عظمته ، فيقول لاتشرك بالله ولاتدع إلها غيره ؛ فإن كل فعل يتقرب به إلى غيره ، ويقصد به سواه فهو هالك باطل ، وكيف يسوغ للمشبهة أن يحملوا هذه الآية والتى قبلها على الظاهر ؟ أوليس ذلك يوجب أنه تعالى يفنى ويبقى وجهه ، وهذا كفر وجهل من قائله ... فاما قوله تعالى « إنما نطعمكم لوجه الله » وقوله «إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى [4]»وقوله «وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله [5] » فمحمول على أن هذه الأفعال مفعولة له ، ومقصود بها ثوابه والقربة إليه ، والزلفة عنده . فأما قوله تعالى « فأينما تولوا فثم وجه الله [6] » فيحتمل أن يراد به فثم الله ، لاعلى معنى الحلول ، ولكن على معنى التدبير والعلم . ويحتمل أيضا أن يراد به فثم رضا الله وثوابه والقربة إليه . ويحتمل أن

(١) الآيات (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥) من سورة القيامة .
(٢) الآيتان (٨ ، ٩) من سورة الغاشية .
(٣) الآية (٧٨) من سورة الرحمن .
(٤) الآية (٢٠) من سورة الليل .
(٥) فى الآية (٣٩) من سورة الروم .
(٦) فى الآية (١١٥) من سورة البقرة .

يكون المراد بالوجه الجهة ، ويكون الإضافة بمعنى الملك : والخلق ، والإنشاء ، والإحداث ؛ لأنه عز وجل قال (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله (١) ، أي أن الجهات كلها لله ، وتحت ملكه ، وكل هذا واضح بين بحمد الله . . اه .

ونراه يقول فى المجلس ٢٩ ج ٢ ص ٥٣ — ٥٦ مانصه: إن سأل سائل عن قوله تعالى « أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب (٢) ، فقال أى تمدح فى سرعة الحساب وليس بظاهر وجه المدحة فيه ؟ . الجواب : قلنا فى ذلك وجوه : أولها : أن يكون المعنى أنه سريع الحساب للعباد على أعمالهم ، وأن وقت الجزاء قريب وإن تأخر ، ويجرى مجرى قوله تعالى (وما أمر الساعة إلا كلمح البصر أو هو أقرب (٣) ، وإنما جاز أن يعبر عن المجازاة أو الجزاء بالحساب ؛ لأن مايجازى به العبد هو كفؤ لفعله وبمقداره ، فهو حساب له إذا كان عملا ثلا مكافئا . ومما يشهد بأن فى الحساب معنى المكافأة قوله تعالى « جزاء من ربك عطاء حسابا (٤) ، أى عطاء كافياً . ويقال : أحسبنى الطعام يحسبنى إحساباً إذا كفانى . قال الشاعر :

وإذ لاترى فى الناس حسنا يفوتها وفى الناس حسنا لو تأملت محسب

معناه كاف — وثانيها: أن يكون المراد أنه عز وجل يحاسب الخلق جميعاً فى أوقات يسيرة . ويقال إن مقدار ذلك حلب شاة ؛ لأنه تعالى لا يشغله محاسبة بعضهم عن محاسبة غيره ، بل يكلمهم جميعاً ، ويحاسبهم كلهم على أعمالهم فى وقت واحد . وهذا أحد مايدل على أنه تعالىٰ ليس بجسم ، وأنه لايحتاج فى

---

(١) فى الآية (١١٥) من سورة البقرة .

(٢) الآية (٢٠٢) من سورة البقرة .

(٣) فى الآية (٧٧) من سورة النحل .

(٤) الآية (٢٦) من سورة النبأ .

فعل الكلام إلى آلة ؛ لأنه لو كان بهذه الصفات — تعالى عنها — لما جاز أن يخاطب اثنين فى وقت واحد بمخاطبتين مختلفتين ؛ ولكان خطاب بعض الناس يشغله عن خطاب غيره ، ولكانت مدة محاسبته للخلق على أعمالهم طويلة غير قصيرة ، كما أن جميع ذلك واجب فى المحدثين الذين يفتقرون فى الكلام إلى الآلات — وثالثها: ماذكره بعضهم من أن المراد بالآية أنه سريع العلم بكل محسوب ، وأنه لما كانت عادة بنى الدنيا أن يستعملوا الحساب والإحصاء فى أكثر أمورهم، أعلمهم الله تعالى أنه يعلم مايحسبون بغير حساب ، وإنما سمى العلم حسابا ؛ لأن الحساب إنما يراد به العلم ، وهذا جواب ضعيف ؛ لأن العلم بالحساب أو المحسوب لايسمى حساباً ، ولو سمى بذلك لما جاز أيضاً أن يقال إنه سريع العلم بكذا؛ لأن علمه بالأشياء ممالا يتجدد فيوصف بالسرعة —

— ورابعها : أن الله تعالى سريع القبول لدعاء عباده والإجابة لهم ؛ وذلك أنه يسأل فى وقت واحد سؤلات مختلفة من أمور الدنيا والآخرة ، فيجزى كل عبد بمقدار استحقاقه ومصلحته، فيوصل إليه عند دعائه ومسألته مايستوجبه بحد ومقدار ، فلو كان الأمر على مايتعارفه الناس لطال العدد واتصل الحساب، فأعلمنا تعالى أنه سريع الحساب ، أى سريع القبول للدعاء بغير إحصاء وبحث عن المقدار الذى يستحقه الداعى . كما يبحث المخلوقون للحساب والإحصاء . وهذا جواب مبنى أيضاً على دعوى أن قبول الدعاء يسمى حساباً ، ولم يعهد ذلك فى لغة ، ولا عرف ، ولا شرع . وقد كان يجب على من أجاب بهذا الجواب ، أن يستشهد على ذلك بما يكون حجة فيه ، وإلا فلا طائل فيما ذكره .

ويمكن فى الآية وجه آخر : وهو أن يكون المراد بالحساب محاسبة الخلق على أعمالهم يوم القيامة ، وموافقتهم عليها وتكون الفائدة فى الإخبار بسرعته ، الإخبار عن قرب الساعة، كما قال تعالى (سريع العقاب[1]) وليس لأحد أن يقول: فهذا هو الجواب الأول الذى حكيتموه وذلك أن بينهما فرقاً ؛ لأن الأول مبنى على أن الحساب فى الآية هو الجزاء والمكافأة على الأعمال ، وفى هذا

---

(١) فى الآية (١٦٥) من سورة الأنعام .

الجواب لم يخرج الحساب عن بابه ، وعن معنى المحاسبة المعروفة . والمقابلة بالأعمال وترجيحها ، وذلك غير الجزاء الذى يفضى الحساب إليه . وقد طعن بعضهم فى الجواب الثانى معترضا على أبى على الجبائى فى اعتماده إياه . بأن قال : مخرج الكلام فى الآية على وجه الوعيد ، وليس فى خفة الحساب وسرعة زمانه مايقتضى زجراً ، ولا هو مما يتوعد بمثله فيجب أن يكون المراد الإخبار عن قرب أمر الآخرة ، والمجازاة على الأعمال . وهذا الجواب ليس أبو على المبتدىء به ، بل قد حكى عن الحسن البصرى ، واعتمده أيضاً قطرب بن المستنير النحوى ، وذكره الفضل بن سلمة ، وليس الطعن الذى حكيناه عن هذا الطاعن بمبطل له ، لأنه اعتمد على أن مخرج الآية مخرج الوعيد ، وليس كذلك ، لأنه قال تعالى « . . . فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق * ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار * أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب » فالأشبه بالظاهر أن يكون وعدا بالثواب ، وراجعاً إلى الذين يقولون ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار ، أو يكون راجعاً إلى الجميع ، فيكون المعنى أن للجميع نصيباً مما كسبوا . فلا يكون وعيداً خالصاً بل إما أن يكون وعدا خالصاً ، أو وعدا ووعيدا . على أنه لو كان وعيداً خالصاً على ما ذكر الطاعن لكان لقوله تعالى « والله سريع الحساب » على تأويل من أراد قصر الزمان وسرعة الموافقة وجه وتعلق بالوعد والوعيد ؛ لأن الكلام على كل حال متضمن لوقوع المحاسبة على أعمال العباد ، والإحاطة بخيرها وشرها وإن وصف الحساب مع ذلك بالسرعة ، وفى هذا ترغيب وترهيب لامحالة . لأن من علم بأنه يحاسب بأعماله ، ويوقف على جميلها وقبيحها انزجر عن القبيح ، وعمل ورغب فى فعل الواجب ، فهذا ينصر الجواب ، وإن كنا لاندفع أن فى حمل الجواب على قرب المجازاة ، وقرب المحاسبة على الأعمال ترغيباً فى الطاعات ، وزجراً على المقبحات ، فالتأويل الأول أشبه بالظاهر ونسق الآية ، إلا أن التأويل الآخر غير مدفوع أيضاً ولا مردود إه

فأنت ترى فى المثالين الأولين كيف تخلص من ظاهر اللفظ الذى يمس عقيدته بمهارته اللغوية وتوسعه فى المعرفة بأشعار العرب ، كما ترى فى المثال الثالث كيف لم يقبل قول من قال : إن معنى سريع الحساب سريع العلم ، أو سريع القبول للدعاء ؛ لأن القولين لم يستندا — كما قال — إلى أصل لغوى ، أو عرفى ، أو شرعى .

دفعه لموهم الإختلاف والتناقض :

هذا ، وإن الشريف المرتضى لا يقتصر فى أماليه على هذا النوع المذهبى من التفسير ، بل نجده يعرض لبعض الإشكالات التى ترد على ظاهر النظم الكريم مما يوهم الاختلاف والتناقض ، ثم يجيب عنها بدقة بالغة ، ترجع إلى مهارته فى اللغة وإحاطته بفنونها .

فمثلا فى المجلس الثالث ج ١ ص ١٨ — ٢٠ يقول ما نصه : « تأويل آية » إن سأل سائل فقال : ما تقولون فى قوله تبارك وتعالى حكاية عن موسى « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين (١) » ، وقال تعالى فى موضع آخر « وأن ألق عصاك فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب »(٢) . والثعبان الحية العظيمة الخلقة . والجان الصغير من الحيات ، فكيف اختلف الوصفان والقصة واحدة؟ وكيف يجوز أن تكون العصا فى حال واحدة بصفة ما عظم خلقه من الحيات وبصفة ما صغر منها ؟ وبأى شىء تزيلون التناقض عن هذا الكلام ؟ (الجواب) أول ما نقوله : إن الذى ظنه السائل من كون الآيتين خبراً عن قصة واحدة باطل ، بل الحالتان مختلفتان ، فالحال التى أخبر أن العصا فيها بصفة الجان ، كانت فى ابتداء النبوة وقبل مصير موسى إلى فرعون . والحال التى صار العصا عليها ثعباناً ، كانت عند لقائه فرعون وإبلاغه الرسالة ، والتلاوة تدل على ذلك

---

(١) الآية (٣٢) من سورة الشعراء .

(٢) فى الآية (٣١) من سورة القصص .

وإذا اختلفت القصتان فلا مسألة ، على أن قوماً من المفسرين قد تعاطوا الجواب على هذا السؤال ؛ إما لظنهم أن القصة واحدة ، أو لاعتقادهم أن العصا الواحدة لا يجوز أن تنقلب فى حالتين ، تارة إلى صفة الجان ، وتارة إلى صفة الثعبان .

أو على سبيل الاستظهار فى الحجة ، وأن الحال لو كانت واحدة على ماظن لم يكن بين الآيتين تناقض . وهذا الوجه أحسن ما تكلف به الجواب لأجله ؛ لأن الأولين لا يكونان إلا عن غلط أو عن غفلة . وذكروا وجهين تزول بكل منهما الشبهة من تأويلها . . أحدهما : أنه تعالى إنما شبهها بالثعبان فى إحدى الحالتين لعظم خلقها ، وكبر جسمها ، وهول منظرها . وشبهها فى الآية الأخرى بالجان لسرعة حركتها ، ونشاطها ، وخفتها ، فاجتمع لها مع أنها فى جسم الثعبان وكبر خلقه ، نشاط الجان وسرعة حركته ، وهذا أبهر فى باب الإعجاز وأبلغ فى خرق العادة ، ولا تناقض بين الآيتين . وليس يجب إذا شبهها بالثعبان أن يكون لها جميع صفات الثعبان ، وإذا شبهها بالجان أن يكون لها جميع صفاته ، وقد قال الله تعالى « ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا ، قوارير من فضة ...[1] » ولم يرد تعالى أن الفضة قوارير على الحقيقة ؛ وإنما وصفها بذلك لأنه اجتمع لها صفاء القوارير وشفوفها ورقتها ، مع أنها من فضة ، وقد تشبه العرب الشىء بغيره فى بعض وجوهه ، فيشبهون المرأة بالظبية ، وبالبقرة ، ونحن نعلم أن فى الظباء والبقر من الصفات مالا يستحسن أن يكون فى النساء ، وإنما وقع التشبيه فى صفة دون صفة ، ومن وجه دون وجه . والجواب الثانى : أنه تعالى لم يرد بذكر الجان فى الآية الأخرى الحية ، وإنما أراد أحد الجن ، فكأنه تعالى أخبر بأن العصا صارت ثعباناً فى الخلقة وعظم الجسم ، وكانت مع ذلك كأحد الجن فى هول المنظر وإفزاعها لمن شاهدها ؛ ولهذا قال تعالى « فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب » . ويمكن أن يكون فى الآية تأويل آخر استخرجناه ، إن لم يزد على الوجهين الأولين لم

---

(١) فى الآيتين (١٥ ، ١٦) من سورة الإنسان

ينقص عنهما ، والوجه فى تكلفنا له ، ما بيناه من الاستظهار فى الحجة ، وأن التناقض الذى توهم زائل على كل وجه ، وهو أن العصا لما انقلبت حية صارت أولا بصفة الجان وعلى صورته ، ثم صارت بصفة الثعبان ، ولم تصر كذلك ضربة واحدة ، فتتفق الآيتان على هذا التأويل ولا يختلف حكمهما ، وتكون الآية الأولى تتضمن ذكر الثعبان إخباراً عن غاية حال العصا ، وتكون الآية الثانية تتضمن ذكر الحال التى ولى موسى منها هارباً ، وهى حال انقلاب العصا إلى خلقة الجان ، وإن كانت بعد تلك الحال انتهت إلى صورة الثعبان . فإن قيل : على هذا الوجه : كيف يصح ما ذكرتموه مع قوله تعالى « فإذا هى ثعبان مبين » وهذا يقتضى أنها صارت ثعباناً بعد الإلقاء بلا فصل ؟ قلنا : ليس تفيد الآية ما ظن ، وإنما فائدة قوله تعالى « فإذا هى » الإخبار عن قرب الحال التى صارت فيها بتلك الصفة ، وأنه لم يطل الزمان فى مصيرها كذلك ، ويجرى هذا مجرى قوله تعالى « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين[1] ، مع تباعد ما بين كونه نطفة وكونه خصيما مبيناً ، وقولهم : ركب فلان من منزله فإذا هو فى ضيعته ، وسقط من أعلا الحائط فإذا هو فى الأرض ، ونحن نعلم أن بين خروجه من منزله وبلوغه ضيعته زماناً ، وأنه لم يصل إليها إلا على تدريج وكذلك الهابط من الحائط ، وإنما فائدة الكلام الإخبار عن تقارب الزمان وأنه لم يطل ولم يمتد اهـ

ليس فى الأمالى أثر للتشيع ، وإنما فيه عزو أصول المعتزلة إلى الأئمة من آل البيت :

هذا ، وإنا لا نكاد نجد أثراً ظاهراً للتشيع فيما فسره الشريف المرتضى من الآيات فى آماليه ، رغم أنه من شيوخ الشيعة وعلمائهم ، غير أنا نجد منه محاولة جدية ، يريد من ورائها أن يثبت أن أصول المعتزلة مأخوذة من كلام

---

(١) الآية (٧٧) من سورة يس

أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه ، ومن كلام غيره من أئمة الشيعة وغيرهم ، وذلك حيث يقول فى المجلس العاشر ج ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ما نصه : اعلم أن أصول التوحيد والعدل مأخوذة من كلام أمير المؤمنين على عليه السلام وخطبه وأنها تتضمن من ذلك مالا مزيد عليه ولا غاية وراءه ، ومن تأمل المأثور فى ذلك من كلامه علم أن جميع ما أسهب المتكلمون من بعدُ فى تصنيفه وجمعه إنما هو تفصيل لتلك الجمل وشرح لتلك الأصول . وروى عن الائمة من أبنائه عليهم السلام مالا يكاد يحاط به كثرة ، ومن أحب الوقوف عليه وطلبه من مظانه أصاب منه الكثير الغزير الذى فى بعضه شفاء للصدور السقيمة ، ونتاج للعقول العقيمة ، ونحن نقدم على ما نريد ذكره شيئاً مما يروى عنهم فى هذا الباب ... ثم ساق أشياء كثيرة منها ما نصه : وروى صفوان بن يحي قال : دخل أبو قرة المحدث على أبى الحسن الرضا عليه السلام ، فسأله عن أشياء من الحلال والحرام ، والأحكام والفرائض ، حتى بلغ سؤاله إلى التوحيد ، فقال أبو قرة : إنا روينا : أن الله قسم الكلام والرؤية ، فقسم لموسى عليه السلام الكلام ، ولمحمد صلى الله عليه وسلم الرؤية ، فقال الرضا عليه السلام : فمن المبلغ عن الله إلى الثقلين — الجن والإنس — أنه لا تدركه الأبصار(١) ، « ولا يحيطون به علما(٢) » . و « ليس كمثله شىء(٣) » ؟ أليس محمد نبيا صادقا ؟ قال : بلى . قال : وكيف يجيء رجل إلى الخلق جميعاً فيخبرهم أنه جاء من عند الله يدعوهم إليه بأمره ويقول «لا تدركه الأبصار » « ولا يحيطون به علما » ، و « ليس كمثله شىء » ثم يقول سأراه بعينى ، وأحيط به علما ، ألا تستحيون ؟ ما قدرت الزنادقة أن ترميه بهذا ، أن يكون يأتى عن الله بشىء ، ثم يأتى بخلافه من وجه آخر . قال أبو قرة : فإنه يقول « ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى(٤) » .

---

(١) فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام .

(٢) الآية (١١٠) من سورة طه .

(٣) فى الآية (١١) من سورة الشورى .

(٤) فى الآية (١٣ و ١٤) من سورة النجم

قال عليه السلام : ماقبل هذه الآية يدل على مارآى حيث يقول «ما كذب الفؤاد مارآى (١) » يقول ما كذب فؤاد محمد مارأت عيناه ، ثم أخبر بما رأى فقال « لقد رآى من آيات ربه الكبرى (٢) » وأيات الله غير الله ، وقد قال الله تعالى « ولا يحيطون به علما » فإذا رأته الأبصار فقد أحاط به العلم فقال أبو قرة : فأكذب بالرؤية؟ فقال الرضا عليه السلام: إن القرآن كذبها وما أجمع عليه المسلمون أنه لايحاط به علما ، ولاتدركه الأبصار ، وليس كمثله شيء . اه

... ثم قال بعد قليل: وروى أن شيخاحضر صفين مع أمير المؤمنين عليه السلام فقال : أخبرنا يا أمير المؤمنين عن مسيرنا إلى الشام ، أكان بقضاء من الله تعالى وقدر ؟ قال له : نعم يا أخا أهل الشام.والذى فلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطئنا موطئا ، ولاهبطنا واديا ، ولاعلونا تلعة ، إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال الشامى : عند الله أحتسب عناى ياأمير المؤمنين ، وما أظن أن لى أجرا فى سعى إذا كان الله قضاه على وقدره ، فقال له عليه السلام : إن الله قد أعظم لكم الأجر على مسيركم وأنتم سائرون ، وعلى مقامكم وأنتم مقيمون ، ولم تكونوا فى شيء من حالاتكم مكرهين ، ولاإليها مضطرين ، ولاعليها مجبرين ، فقال الشامى : كيف ذاك والقضاء والقدر ساقانا.وعنهما كان مسيرنا وانصرافنا؟ فقال عليه السلام : ويحك يا أخا أهل الشام ، لعلك ظننت قضاء ، لازما ، وقدراً حاكما ، لو كان ذلك كذلك لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد ، والأمر من الله والنهى ، ولما كان المحسن أولى بثواب الإحسان من المسيء.والمسيء أولى بعقوبة الذنب من المحسن،تلك مقالة عبدة الأوثان، وحزب الشيطان ، وخصماء الرحمن ، وشهداء الزور ، وقدرية هذه الأمة ومجوسها . إن الله أمر عباده تخييراً ، ونهاهم تحذيراً،وكلف يسيراً ، وأعطى على القليل كثيراً. ولم يطع مكرها ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يكلف عسيراً ، ولم يرسل الأنبياء

---

(١) الآية (١١) من سورة النجم .
(٢) الآية (١٨) من سورة النجم .

لعباً ، ولم ينزل الكتب لعباده عبثاً ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار[١]» . قال الشامى: فما القضاء والقدر الذى كان مسيرنا بهما وعنهما ؟ قال : الأمر من الله بذلك والحكم ، ثم تلا « وكان أمر الله قدرا مقدوراً[٢] » فقام الشامى فرحاً مسروراً لما سمع هذا المقال ، وقال : فرجت عنى ، فرج الله عنك يا أمير المؤمنين ، وجعل يقول :

أنت الإمام الذى نرجو بطاعته
يوم الحساب من الرحمن غفرانا
أوضحت من أمرنا ما كان ملتبساً
جزاك ربك بالإحسان إحسانا اه

وهكذا يذكر الشريف المرتضى من الأخبار عن أهل البيت وعن وغيرهم ما يستدل به على أن أصول المعتزلة مستمدة من كلامهم ، والله يعلم مقدار ما عليه هذه الأخبار من الصحة ، وأنا لا أكاد أصدقها بالنسبة لعلى رضى الله عنه . فقد روى أبو القاسم بن حبيب فى تفسيره بإسناده : أن على بن أبى طالب رضى الله عنه سأله سائل عن القدر فقال: دقيق لا تمش فيه. فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال : بحر عميق لا تخض فيه ، فقال : يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال : سر خفى لله لا تفشه ، فقال يا أمير المؤمنين أخبرنى عن القدر ، فقال : على رضى الله عنه : يا سائل، إن الله خلقك كما شاء أو كما شئت ؟ فقال : كما شاء ، قال : إن الله تعالى يبعثك يوم القيامة كما شئت أو كما شاء ؟ فقال : كما يشاء ، فقال : يا سائل لك مشيئة مع الله أو فوق مشيئته أو دون مشيئته ؟ فإن قلت مع مشيئته ، ادعيت الشركة معه . وإن قلت دون مشيئته ، استغنيت عن مشيئته .

---

(١) فى الآية (٢٧) من سورة ص .
(٢) فى الآية (٣٨) من سورة الأحزاب .

وإن قلت فوق مشيئته ، كانت مشيئتك غالبة على مشيئته . ثم قال : ألست تسأل الله العافية ؟ فقال : نعم ، فقال : فمن ماذا تسأله العافية ؟ أمن بلاء هو ابتلاك به ؟ أو من بلاء غيره ابتلاك به ؟ قال : من بلاء ابتلانى به . فقال : ألست تقول : لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ؟ قال : بلى ، قال : تعرف تفسرها ؟ فقال يا أمير المؤمنين ، علمنى مما علمك الله ، فقال : تفسيره : أن العبد لا قدرة له على طاعة الله ولا على معصيته إلا بالله عز وجل ، يا سائل : إن الله يُسقم ويداوى ، منه الداء . ومنه الدواء ، اعقل عن الله ، فقال السائل : عقلت ، فقال له ، الآن صرت مسلماً ، قوموا إلى أخيكم المسلم وخذوا بيده ، ثم قال على : لو وجدت رجلا من أهل القدر لأخذت بعنقه ، ولا أزال أضربه حتى أكسر عنقه ؛ فإنهم يهود هذه الأمة . اهـ[1] .

وبعد ... فهذه هى أمالى الشريف المرتضى ، وهى وإن كانت لا تصور لنا تفسيراً متناولا للقرآن كله إلا أنها يمكن آن تكشف لنا عن مبلغ تأثر صاحبها بعقيدته الاعتزالية فى بحوثه التفسيرية التى عالجها ، كما تكشف لنا عن مبلغ ما كان لفنه الأدبى من الأثر الظاهر فى التفسير .

٣ ــ الكشاف عن حقائق التنزيل

وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

للزمخشرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد بن عمر الخوارزمى ، الإمام الحنفى المعتزلى ، الملقب بجار الله[2] ولد فى رجب سنة ٤٦٧ هـ سبع

(١) التبصير فى الدين ص ٥٨ .
(٢) لقب بذلك لأنه سافر إلى مكة وجاور بها زمانا حتى عرف بهذا اللقب واشتهر به وصار كأنه علم عليه .

وستين وأربعمائة من الهجرة بزمخشر ، قرية من قرى خوارزم ، وقدم بغداد، ولقى الكبار وأخذ عنهم ، دخل خراسان مراراً عديدة . وما دخل بلدا إلا واجتمع عليه أهلها وتتلمذوا له ، وما ناظر أحداً إلا وسلم له واعترف به . ولقد عظم صيته وطار ذكره حتى صار إمام عصره من غير مدافعة .

ليس عجيباً أن يحظى الزمخشرى بكل هذا وهو الإمام الكبير فى التفسير، والحديث ، والنحو . واللغة والأدب ، وصاحب التصانيف البديعة فى شتى العلوم . ومن أجل مصنفاته : كتابه فى تفسير القرآن العزيز الذى لم يصنف قبله مثله ، وهو ما نحن بصدده الآن ، والمحاجاة فى المسائل النحوية ، والمفرد والمركب فى العربية ، والفائق فى تفسير الحديث ، وأساس البلاغة فى اللغة ، والمفصل فى النحو ، ورءوس المسائل فى الفقه ... وغير هذا كثير من مؤلفاته.

قال صاحب وفيات الأعيان « كان الزمخشرى معتزلى الاعتقاد ، متظاهرا باعتزاله ، حتى نقل عنه : أنه كان إذا قصد صاحبا له واستأذن عليه فى الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن : قل له . أبو القاسم المعتزلى بالباب وأول ما صنف كتاب الكشاف كتب استفتاح الخطبة « الحمد لله الذى خلق القرآن» فيقال إنه قيل له : متى تركته على هذه الهيئة هجره الناس ولا يرغب أحد فيه ، فغيره بقوله « الحمد لله الذى جعل القرآن » وجعل عندهم بمعنى خلق ، والبحث فى ذلك يطول . ورأيت فى كثير من النسخ « الحمد لله الذى أنزل القرآن » وهذا إصلاح الناس لا إصلاح المصنف » اه .

الفيروز بادى وصاحب القاموس يقول فيما علقه على خطبة الكشاف : « قال بعض الطلبة — وأثبته بعض المعتنين بالكشاف فى تعليق له عليه — إنه كان فى الأصل كتب (خلق) مكان (أنزل) وأخيراً غيره المصنف أو غيره حذراً عن الشناعة الواضحة وهذا قول ساقط جدا وقد عرضته على أستاذى فأنكره غاية الإنكار ، وأشار إلى أن هذا القول بمعزل عن الصواب لوجهين : أحدهما أن الزمخشرى لم يكن أهلا لأن تفوته اللطائف المذكورة فى أنزل وفى نزل فى

مفتتح كلامه ووضع كلمة خالية من ذلك . والثانى : أنه لم يكن يأنف من انتمائه إلى الاعتزال ، وإنما كان يفتخر بذلك ، وأيضاً أتى عقيبه بما هو صريح فى المعنى [1] ولم يبال بأنه قبيح ، وقد رأيت النسخة التى بخط يده بمدينة السلام ، مختبئة فى تربة الإمام أبى حنيفة ، خالية عن أثر كشط وإصلاح ، اهـ [2].

وكانت وفاة الزمخشرى رحمه الله ليلة عرفة سنة ٥٣٨ هـ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة بجرجانية خوارزم بعد رجوعه من مكة ، ورثاه بعضهم، بأبيات من جملتها :

فأرض مكة تذرى الدمع مقلتها حزنا لفرقة جار الله محمود [3]

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

قصة تأليف الكشاف :

قبل الخوض فى التعريف بالكشاف للزمخشرى ، أرى أن أسوق لك قصة تأليفه وما كان من الزمخشرى من التردد بين الإقدام عليه والإحجام عنه أولا .. ثم العزم المصمم منه على تأليفه حتى أخرجه للناس كتابا جامعا نافعاً .

أسوق هذه القصة نقلا عن الزمخشرى فى مقدمة كشافه ، فقد أوضح ما كان منه أول الأمر ، وكشف عن السبب الذى دعاه إلى تأليف كتابه فى التفسير فقال :

« ولقد رأيت إخواننا فى الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية ، الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية ، كلما رجعوا إلى فى تفسير آية فأبرزت لهم

---

(١) حيث قال : أنشأه كتبا ساطعا بيانه .

(٢) كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٦ .

(٣) انظر ترجمة الزمخشرى فى وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٥٠٩ — ٥١٣ ، وشذرات الذهب جـ٤ ص ١٢١ ، وطبقات المفسرين للسيوطى ص ٤١ .

بعض الحقائق من الحجب ، أفاضوا فى الاستحسان والتعجب ، واستطيروا شوقا إلى مصنف يضم أطرافا من ذلك ، حتى اجتمعوا إلى مقترحين أن أملى عليهم الكشف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل ، فى وجوه التأويل ، فاستعفيت، فأبوا إلا المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين، وعلماء العدل والتوحيد. والذى حدانى إلى الاستعفاء — على علمى أنهم طلبوا ما الإجابة إليه على واجبة ، لأن الخوض فيه كفرض العين — ما أرى عليه الزمان من رثاثة أحواله ، وركاكة رجاله ، وتقاصر هممهم عن أدنى عدد هذا العلم ، فضلا أن تترقى إلى الكلام المؤسس على علمى البيان والمعانى ، فأمليت عليهم مسألة فى الفواتح ، وطائفة من الكلام فى حقائق سورة البقرة ، وكان كلاما مبسوطاً كثير السؤال والجواب ، طويل الذيول والأذناب ، وإنما حاولت به التنبيه على غزارة نكت هذا العلم ، وأن يكون لهم مناراً ينتحونه ، ومثالا يحتذونه ، فلما صمم العزم على معاودة جوار الله ، والإناخة بحرم الله فتوجهت تلقاء مكة ، وجدت فى مجتازى بكل بلد من فيه مسكة من أهلها — وقليل ماهم — عطشى الأكباد إلى العثور على ذلك المملى ، متطلعين إلى إيناسه ، حراصاً على اقتباسه ، فهز مارأيت من عطفى ، وحرك الساكن من نشاطى ، فلما حططت الرحل بمكة إذا أنا بالشعبة السنية من الدوحة الحسنية : الأمير الشريف ، الإمام شرف آل رسول الله ، أبى الحسن ، بن حمزة بن وهاس — أدام الله مجده — وهو النكتة والشامة فى بنى الحسن ، مع كثرة محاسنهم ، وجموم مناقبهم ، أعطش الناس كبداً ، وألهبهم حشى ، وأوفاهم رغبة ،حتى ذكر أنه كان يحدث نفسه فى مدة غيبتى عن الحجاز مع تزاحم ماهو فيه من المشادة ، بقطع الفيافى وطى المهامة ، والإفادة علينا بخوارزم؛ ليتوصل إلى إصابة هذا الغرض ، فقلت : قد ضاقت على المستعفى الحيل ، وعيّت به العلل . ورأيتنى قد أخذت منى السن ، وتقعقع الشن ، وناهزت العشر التى سمتها العرب دقاقة الرقاب [1] ،

---

(١) وهى مابين الستين إلى السبعين ، وهى معترك المنايا .

فأخذت فى طريقة أخصر من الأولى،مع ضمان التكثير من الفوائد ، والفحص عن السرائر ، ووفق الله وسدد،ففرغ منه فى مقدار مدة خلافة أبى بكر الصديق رضى الله عنه [١] وكان يقدر تمامه فى أكثر من ثلاثين سنة.وما هى إلا آية من آيات هـذا البيت المحرم ، وبركة أفيضت على من بركات هذا الحرم المعظم . أسأل الله أن يجعل ما تعبت فيه سبباً ينجينى ، ونوراً لى على الصراط يسعى بين يدى ويمينى ، ونعم المسئول [٢] .

هذه قصة تأليف الكشاف كما يرويها الزمخشرى نفسه .

قيمة الكشاف العلمية :

وأما قيمة هـذا التفسير . فهو - بصرف النظر عما فيه من الاعتزال - تفسير لم يسبق مؤلفه إليه ؛ لما أبان فيه من وجوه الإعجاز فى غير ما آية من القرآن ؛ ولما أظهر فيه من جمال النظم القرآنى وبلاغته وليس كالزمخشرى من يستطيع أن يكشف لنا عن جمال القرآن وسحر بلاغته ؛ لما برع فيه من المعرفة بكثير من العلوم . لاسيما ما برز فيه من الإلمام بلغة العرب . والمعرفة بأشعارهم . وما امتاز به من الإحاطة بعلوم البلاغة . والبيان . والإعراب . والأدب ، ولقد أضفى هذا النبوغ العلمى والأدبى على تفسير الكشاف ثوباً جميلا، لفت إليه أنظار العلماء وعلّق به قلوب المفسرين .

هذا وقد أحس الزمخشرى إحساساً قويا بضرورة الإلمام بعلمى المعانى والبيان قبل كل شىء ، لمن يريد أن يفسر كتاب الله عز وجل ، وجهر بذلك فى مقدمة الكشاف فقال : (... ثم إن أملأ العلوم بما يغمر القرائح ، وأنهضها

---

(١) وهى سنتان وأربعة أشهر ، أو وثلاثة أشهر وتسع ليال . وفى كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٢ أنه فرغ من تأليفه ضحوة الإثنين الثانى من ربيع الآخر فى عام ثمان وعشرين وخمسمائة ، وكذا فى خاتمة الكشاف .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٥ — ١٩ .

بما يبهر الألباب القوارح ، من غرائب نكت يلطف مسلكها ، ومستودعات أسرار يدق سبكها ، علم التفسير ، الذى لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذى علم - كما ذكر الجاحظ فى كتاب نظم القرآن - فالفقيه وإن برز على الأقران فى علم الفتاوى والأحكام ، والمتكلم وإن بزّ أهل الدنيا فى صناعة الكلام ، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القِرِّية (١) أحفظ ، والواعظ وإن كان من الحسن البصرى أوعظ ، والنحوى وإن كان أنحى من سيبويه ، واللغوى وإن علك اللغات بقوة لحييه ، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق ، إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن ، وهما : علم المعانى ، وعلم البيان ، وتمهل فى ارتيادهما آونة ، وتعب فى التنقير عنهما أزمنة ، وبعثته على تتبع مظانهما همة فى معرفة لطائف حجة الله ، وحرص على استيضاح معجزة رسول الله بعد أن يكون آخذا من سائر العلوم بحظ ، جامعا بين أمرين : تحقيق وحفظ ، كثير المطالعات ، طويل المراجعات ، قد رجع زمانا ورُجع إليه ، وردّ ورُد عليه ، فارساً فى علم الإعراب ، مقدما فى حملة الكتاب ، وكان مع ذلك مسترسل الطبيعة منقادها مشتعل القريحة وقادها ، يقظان النفس ، دراكا للمحة وإن لطف شأنها ، منتبها على الرمزة وإن خفى مكانها ، لا كزاً جاسياً ، ولا غليظا جافيا ، متصرفا ذا دراية بأساليب النظم والنثر ، مرتاضا غير ريض بتلقيح بنات الفكر ، قد علم كيف يرتب الكلام ويؤلف ، وكيف ينظم ويرصف ، طالما دفع إلى مضايقه. ووقع فى مداحضه ومزالقه » اهـ (٢)

وفى الحقيقة أن الزمخشرى قد جمع كل هذه الوسائل التى لا بد منها للمفسر، فأخرج للناس هذا الكتاب العظيم فى تفسير القرآن (الكشاف عن حقائقه ،

---

(١) القِرِّية : بكسر القاف وتشديد الراء المكسورة ، أحد فصحاء العرب ، واسمه أيوب ؛ والقرية اسم أمه .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ١٢ — ١٥ .

المخلص من مضايقه ، المطلع على غوامضه ، المثبت فى مداحضه ؛ الملخص لنكته ولطائف نظمه ، المنقر عن فقره وجواهر علمه ، المكتنز بالفوائد المفتنّة التى لا توجد إلا فيه ، المحيط بما لا يكتنه من بدع ألفاظه ومعانيه ، مع الإيجاز، الحاذف للفضول ، وتجنب المستكره المملول ، ولو لم يكن فى مضمونه ، إلا إيراد كل شىء على قانونه، لكفى به ضالة ينشدها محققة الأخبار وجوهرة يتمنى العثور عليها غاصة البحار)[1]

ولما علم الزمخشرى أن كتابه قد تحلى بهذه الأوصاف قال متحدثا بنعمة الله :

إن التفاسير فى الدنيا بلا عدد ... وليس فيها لعمرى مثل كشافى
إن كنت تبغى الهدى فالزم قراءته ... فالجهل كالداء والكشاف كالشافى[2]

وإذا كان الزمخشرى قد اعتز بكشافه، وبلغ إعجابه به إلى حد جعله يقول فيه ما قال من تقريظ له ، وإطراء عليه ، فإنا نعذره فى ذلك ولا نلومه عليه ؛ فالكتاب وحدٌ فى بابه ، وعلم شامخ فى نظر علماء التفسير وطلابه ، ولقد اعترف له خصومه بالبراعة وحسن الصناعة ، وإن أخذوا عليه بعض المآخذ التى يرجع أغلبها إلى ما فيه من ناحية الاعتزال ، وإليك مقالات بعض العلماء فى الكشاف :

مقالة ابن بشكوال فى الكشاف :

وإنا لنجد فى مقدمة تفسير أبى حيان، مقارنة للحافظ أبى القاسم بن بشكوال، بين تفسير ابن عطية وتفسير الزمخشرى ، ووصفا دقيقا وتحليلا عميقا لكتاب الكشاف يقول فيها :

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٦١٠ .
(٢) كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٣ .

« وكتاب ابن عطية أنقل وأجمع وأخلص . وكتاب الزمخشرى ألخص وأغوص ، إلا أن الزمخشرى قائل بالطفرة ، ومقتصر من الذؤابة على الوفرة، فربما سنح له آبى المقادة فأعجزه اعتياصه ، ولم يمكنه لتأنيه اقتناصه ، فتركه عقلا لمن يصطاده ، وغفلا لمن يرتاده . وربما ناقض هذا المنزع ، فثنى العنان إلى الواضح والسهل اللائح ، وأجال فيه كلاما ، ورمى نحو غرضه سهاما . هذا مع ما فى كتابه من نصرة مذهبه ، وتقحم مرتكبه ، وتجشم حمل كتاب الله عز وجل عليه ، ونسبة ذلك إليه ، فغتفر إساءته لإحسانه ، ومصفوح عن سقطه فى بعض، لإصابته فى أكثر تبيانه» اهـ(١)

مقالة الشيخ حيدر الهروى :

كذلك نجد للشيخ حيدر الهروى — أحد الذين علقوا على الكشاف — وصفا دقيقا لكتاب الكشاف وهذا نصه :

.... وبعد ، فإن كتاب الكشاف ، كتاب علىّ القدر رفيع الشأن ، لم ير مثله فى تصانيف الأولين ، ولم يرد شبيهه فى تآليف الآخرين. اتفقت على متانة تراكيبه الرشيقة كلمة المهرة المتقنين. واجتمعت على محاسن أساليبه الأنيقة ألسنة الكلمة المفلقين . ماقصر فى قوانين التفسير وتهذيب براهينه . وتمهيد قواعده وتشييد معاقده . وكل كتاب بعده فى التفسير ، ولو فرض أنه لايخلو عن النقير والقطمير ، إذا قيس به لاتكون له تلك الطلاوة ، ولا يوجد فيه شىء من تلك الحلاوة ، على أن مؤلفه يقتفى أثره ، ويسأل خبره . وقلما غير تركيباً من تراكيبه إلا وقع فى الخطأ والخطل. وسقط من مزالق الخبط والزلل، ومع ذلك كله إذا فتشت عن حقيقة الخبر ، فلا عين منه ولا أثر ، ولذلك قد تداولته أيدى النظار ، فاشتهر فى الأقطار ، كالشمس فى وسط النهار ، إلا أنه لإخطائه سلوك الطرق الأدبية ، وإغفاله عن إجلال أرباب الكمال . أصابته عين الكلالة . فالتزم فى كتابه أموراً أذهبت رونقه وماءه، وأبطلت منظره

(١) البحر المحيط جـ١ ص ١٠ .

ورواه . فتكدرت مشارعه الصافية ، وتضيقت موارده الضافية ، وتزلزلت رتبه العالية .

منها: أنه كلما شرع فى تفسير آية من الآى القرآنية مضمونها لا يساعد هواه، ومدلولها لا يطاوع مشتهاه ، صرفها عن ظاهرها بتكلفات باردة ، وتعسفات جامدة ، وصرف الآية - بلا نكتة بلاغية لغير ضرورة - عن الظاهر ، وفيه تحريف لكلام الله سبحانه وتعالى ، وليته يكتفى بقدر الضرورة ، بل يبالغ فى الإطناب والتكثير ؛ لئلا يوهم بالعجز والتقصير ، فتراه مشحوناً بالاعتزالات الظاهرة التى تتبادر إلى الأفهام ، والخفية التى لا تتسارق إليها الأوهام ، بل لا يهتدى إلى حبائله إلا ورّاد بعد وراد من الأذكياء الحذاق ، ولا ينتبه لمكائده إلا واحد من فضلاء الآفاق . وهذه آفة عظيمة ومصيبة جسيمة .

ومنها : أنه يطعن فى أولياء الله المرتضين من عباده ، ويغفل عن هذا الصنيع لفرط عناده . ونعم ماقال الرازى فى تفسير قوله تعالى «يحبهم ويحبونه»[1] ، خاض صاحب الكشاف فى هذا المقام فى الطعن فى أولياء الله تعالى ، وكتب فيها ما لا يليق بعاقل أن يكتب مثله فى كتب الفحش ، فهب أنه اجترأ على الطعن فى أولياء الله تعالى ، فكيف اجتراؤه على كتبه ذلك الكلام الفاحش فى تفسير كلام الله المجيد .

ومنها : أنه ... أورد فيه أبياتاً كثيرة ، وأمثالا غزيرة بنى على الهزل والفكاهة أساسها . وأورد على المزاح البارد نبراسها . وهذا أمر من الشرع والعقل بعيد ، لاسيما عند أهل العدل والتوحيد .

ومنها : أنه يذكر أهل السنة والجماعة — وهم الفرقة الناجية — بعبارات

---

(١) فى الآية (٥٤) من سورة المائدة .

فاحشة ، فتارة يعبر عنهم بالمجبرة ، وتارة ينسبهم على سبيل التعريض إلى الكفر والإلحاد . وهذه وظيفة السفهاء الشطار ، لا طريقة العلماء الأبرار(١) » اهـ .

مقالة أبي حيان :

ونجد أبا حيان صاحب البحر المحيط عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩) من سورة النمل « قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وإنا لصادقون » يتعقب الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى « وإنا لصادقون » . . ثم يصفه بقوله : وهذا الرجل وإن كان أوتى من علم القرآن أوفر حظ ، وجمع بين اختراع المعنى وبراعة اللفظ ، ففى كتابه فى التفسير أشياء منتقدة ، وكنت قريباً من تسطير هذه الأحرف قد نظمت قصيداً فى شغل الإنسان نفسه بكتاب الله ، واستطردت إلى مدح كتاب الزمخشرى ، فذكرت أشياء من محاسنه ، ثم نبهت على ما فيه مما يجب تجنبه ، ورأيت إثبات ذلك هنا لينتفع بذلك من يقف على كتابى هذا ، ويتنبه على ما تضمنه من القبائح ، فقلت بعد ذكر ما مدحته به :

ولكنه فيه مجال لناقد
وزلات سوء قد أخذن المخانقا
فيثبت موضوع الأحاديث جاهلا
ويعزو إلى المعصوم ما ليس لائقاً
ويشتم أعلام الأئمة ضلة
ولا سيما إن أولجوه المضايقا
ويسهب فى المعنى الوجيز دلالة
بتكثير ألفاظ تسمى الشقاشقا

---

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ١٧٦ — ١٧٧

يقوّل فيها الله ما ليس قائلا
وكان محباً فى الخطابة وامقاً

ويخطىء فى تركيبه لكلامه
فليس لما قد ركبوه موافقاً

وينسب إبداء المعانى لنفسه
ليوهم أغماراً وإن كان سارقاً

ويخطىء فى فهم القران لأنه
يجوز إعراباً أبى أن يطابقا

وكم بين من يؤتى البيان سليقة
وآخر عاناه فما هو لاحقاً

ويحتال الألفاظ حتى يديرها
لمذهب سوء فيه أصبح مارقا

فياخسره شيخ تخرق صيته
مغارب تخزيق الصبا ومشارقا

لئن لم تداركه من الله رحمة
لسوف يرى للكافرين مرافقا[1] اه

وأحسب أن القارىء لايفوته أن يدرك مافى الوصف من قسوة على الزمخشرى ، وما فيه من اتهامه بقلة بضاعته فى البيان والعربية ؛ مع أنه سلطان هذه الطريقة فى التفسير غير مدافع .

مقالة ابن خلدون :

وهذا هو العلامة ابن خلدون ، نجده عندما تكلم عن القسم الثانى من التفسير وهو ما يرجع إلى اللسان ، من معرفة اللغة والإعراب والبلاغة فى تأدية المعنى بحسب المقاصد والأساليب . يقول : ومن أحسن ما اشتمل عليه هذا

(١) البحر المحيط ج ٧ ص ٨٥

الفن من التفاسير كتاب الكشاف للزمخشرى من أهل خوارزم العراق ، إلا أن مؤلفه من أهل الاعتزال فى العقائد ، فيأتى بالحجاج على مذاهبهم الفاسدة حيث تعرض له فى آى القرآن من طرق البلاغة ، فصار بذلك للمحققين من أهل السنة انحراف عنه ، وتحذير للجمهور من مكامنه ، مع إقرارهم برسوخ قدمه فيما يتعلق باللسان والبلاغة ، وإذا كان الناظر فيه واقفا مع ذلك على المذاهب السنية ، محسنا للحجاج عنها ، فلا جرم أنه مأمون من غوائله ، فلتغتنم مطالعته لغرابة فنونه فى اللسان . ولقد وصل إلينا فى هذه العصور تأليف لبعض العراقيين ، وهو شرف الدين الطيبى من أهل توريز، من عراق العجم، شرح فيه كتاب الزمخشرى هذا ، وتتبع ألفاظه ، وتعرض لمذاهبه فى الاعتزال بأدلة تزيفها ، وتبين أن البلاغة إنما تقع فى الآية على ما يراه أهل السنة ، لا على ما يراه المعتزلة ، فأحسن فى ذلك ماشاء ، مع إمتاعه فى سائر فنون البلاغة ، وفوق كل ذى علم عليم » اه[١] .

مقالة التاج السبكى

وأخيراً . . . فهذا هو العلامة تاج الدين السبكى يقول فى كتابه معيد النعم ومبيد النقم « واعلم أن الكشاف كتاب عظيم فى بابه ، ومصنفه إمام فى فنه ، إلا أنه رجل مبتدع متجاهر ببدعته ، يضع من قدر النبوة كثيراً ، ويسىء أدبه على أهل السنة والجماعة ، والواجب كشط ما فى الكشاف من ذلك كله ، ولقد كان الشيخ الإمام — يعنى والده تقى الدين السبكى — يقرئه فإذا انتهى إلى كلامه فى قوله تعالى فى سورة التكوير الآية (١٩) «إنه لقول رسول كريم» اعرض عنه صفحاً ، وكتب ورقة حسبة سماها « سبب الانكفاف ، عن إقراء الكشاف » وقال فيها : قد رأيت كلامه على قوله تعالى « عفا الله عنك[٢] » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٤٩١

(٢) فى الآية (٤٣) من سورة التوبة؛ وفيها يقول الزمخشرى: «عفا الله عنك» =

وكلامه فى سورة التحريم (١) وغير ذلك من الأماكن التى أساء أدبه فيها على خير خلق الله تعالى ؛ سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعرضت عن إقراء كتابه حياء من النبى صلى الله عليه وسلم ، مع ما فى كتابه من الفوائد والنكت البديعة » اهـ (٢) .

هذه هى شهادات بعض العلماء فى تفسير الكشاف بماله وما عليه . ومهما يكن من شيء ، فالكل يجمع عن أن الزمخشرى هو سلطان الطريقة اللغوية فى تفسير القرآن ، وبها أمكنه أن يكشف عن وجه الإعجاز فيه ، ومن أجلها طار كتابه فى أقصى المشرق والمغرب ، واشتهر فى الآفاق ، واستمد كل من جاء بعده من المفسرين من بحره الزاخر ، وارتشف من معينه الفياض ، واعتنى الأئمة المحققون بالكتابة عليه : فمن مميز لما جاء فيه من الاعتزال ، ومن مناقش لما أتى فيه من وجوه الإعراب ، ومن محش وضح ونقح واستشكل وأجاب ، ومن مخرج لأحاديثه عزا وأسند وصحح وانتقد ، ومن مختصر لخص وأوجز .

ولا أطيل بذكر الكتب التى عنى فيها أصحابها بهذه النواحى ، ويكفى أن أقول : إن من أهم الحواشى على تفسير الكشاف ، حاشية العلامة شرف الدين الحسن بن محمد الطيبى ، المتوفى سنة ٧٤٣ هـ ثلاث وأربعين وسبعمائة من الهجرة ، وهى وتقع فى ست مجلدات كبارا ، وهى التى أشار إليها ابن خلدون فى مقالته السابقة . وقد سماها صاحبها « فتوح الغيب » فى الكشف عن قناع

= كناية عن الجناية ؛ لأن العفو رادف لها ، ومعناه : أخطأت وبئس مافعلت اهـ من الكشاف ج ٢ ص ٣٤ ط أميرية سنة ١٣١٨هـ .

(١) حيث يقول عند تفسيره للآية (١) من سورة التحريم « . . . لم تحرم ما أحل الله لك . . . الخ » . وكان هذا زلة منه ؛ لأنه ليس لأحد أن يحرم ما أحل الله . . . اهـ من الكشاف ج ٢ ص ١٩٨ ط أميرية سنة ١٣١٨ هـ

(٢) النماذج الخيرية ص ٣١٠

الريب، ومن يريد الوقوف على كل ما كتب على الكشاف فليرجع إلى كشف الظنون جـ ٢ ص ١٧٣ — ١٧٧ وسيراها كثيرة ، كثرة يضيق المقام عن ذكرها .

هذا ، وإن حظوة الكشاف بهذا التقدير والإعجاب حتى من خصومه ، وظفره بهذه الشهرة الواسعة التى أغرت العلماء بالكتابة عليه بمثل هذه الكثرة الوافرة الزاخرة من المؤلفات ، لدليل قاطع على أنه تفسير فى أعلى القمة .

وليس عجيباً أن يكون الكشاف كذلك وهو أول كتاب فى التفسير كشف لنا على سر بلاغة القرآن ، وأبان لنا عن وجوه إعجازه ، وأوضح لنا عن دقة المعنى الذى يفهم من التركيب اللفظى . كل هذا فى قالب أدبى رائع ، وصوغ إنشائى بديع ، لايتفق لغير الزمخشرى إمام اللغة وسلطان المفسرين وإذا كان الزمخشرى قد تأثر فى تفسيره بعقيدته الاعتزالية فمال بالألفاظ القرآنية إلى المعانى التى تشهد لمذهبه ، أو تأولها بحيث لاتتنافى معه على الأقل ، فإنه فى محاولاته هذه قد برهن بحق على براعته وقوة ذهنه ، وصور لنا مقدار ما كان من التأثر والتأثير بين التفسير وهوى العقيدة . وما كان لنا بعد هذا كله أن نغض الطرف عن هذا التفسير ، تأثراً بمذهبنا السنى ، وكراهة لمذهب المعتزلة ، وبخاصة بعدما هو ثابت وواقع من ثنـــاء كثير من علماء أهل السنة عليه — فيما عدا ناحيته الاعتزالية — واعتماد معظم مفسريهم عليه وأخذهم منه .

فالكشاف — والحق يقال — قد بلغ فى نجاحه مبلغاً عظيما ، ليس فقط لأنه لايمكن الاستغناء عنه فى بيان الأقوال الكثيرة لقدماء المعتزلة ، بل لأنه استطاع أيضاً أن يكون معترفاً به من الأصدقاء والخصوم على السواء ككتاب أساسى للتفسير ، وأن يأخذ طابعاً شعبياً يغرى الكل ويتسع للجميع .

وكما اعتبرنا تفسير الطبرى مثلا للقمة العالية فى التفسير بالمأثور فأطنبنا

فى وصفه وأطلنا الكلام عليه ، فهنا كذلك سنعتبر الكشاف للزمخشرى القمة العالية للتفسير الاعتزالى ؛ لأنه الكتاب الوحيد من تفاسير المعتزلة الذى وصل إلينا متناولا للقرآن كله . وشاملا للأفكار الاعتزالية التى تتصل بالقرآن الكريم باعتباره أصل العقيدة ومعتمد مايتشعب عنها من آراء وأفكار ؛ ولهذا أرانى مضطراً إلى الإطناب والإفاضة فى كلامى عن هذا التفسير ، ودراستى له من جميع نواحيه بمقدار مايفتح الله .

اهتمام الزمخشرى بالناحية البلاغية للقرآن :

عندما يلقى الإنسان نظرة فاحصة على العمل التفسيرى الذى قام به العلامة الزمخشرى فى كشافه ، يظهر له من أول وهلة ، أن المبدأ الغالب عليه فى جهوده التفسيرية ، كان فى تبيين مافى القرآن من الثروة البلاغية التى كان لها كبير الأثر فى عجز العرب عن معارضته والإتيان بأقصر سورة من مثله . والذى يقرأ ما أورده الزمخشرى عند تفسيره لكثير من الآيات من ضروب الاستعارات ، والمجازات ، والأشكال البلاغية الأخرى ، يرى أن الزمخشرى كان يحرص كل الحرص على أن يبرز فى حلة بديعة جمال أسلوبه وكمال نظمه ، وإنا لنكاد نقطع — إذا استعرضنا كتب التفسير وتأملنا مبلغ عنايتها باستخراج مايحتويه القرآن من ثروة بلاغية فى المعانى والبيان — بأنه لا يوجد تفسير أوسع مجالا فى جهوده فى هذا الصدد من تفسير الزمخشرى .

ولقد كانت لعناية الزمخشرى بهذه الناحيه فى تفسيره من الأثر بين المفسرين وبين مواطنيه من المشارقة ماهو واضح بين .

أما أثره بين المفسرين ، فإن كل من جاء بعده منهم - حتى من أهل السنة - استفادوا من تفسيره فوائد كثيرة كانوا لايلتفتون إليها لولاه ، فأوردوا فى تفسيرهم ماساقه الزمخشرى فى كشافه من ضروب الاستعارات ، والمجازات ،

والأشكال البلاغية الأخرى ، واعتمدوا مانبه عليه الزمخشرى من نكات بلاغية ، تكشف عمادق من براعة نظم القرآن وحسن أسلوبه .

وليس عجيباً أن يعتمد خصوم الزمخشرى كغيرهم على كتاب الكشاف ، وينظروا إليه كمرجع مهم من مراجع التفسير فى هذه الناحية ، بعد ما قدروا هذه الناحية البلاغية فى تفسير القرآن ، وبعد ما علموا أن الزمخشرى هو سلطان هذه الطريقة غير مدافع .

وأما أثره بين مواطنيه من المشارقة ، فإنهم أخذوا عنه هذا الفن البلاغى وبرعوا فيه ، حتى سبقوا من عداهم من المغاربة . وقد بين ابن خلدون فى مقدمته - عند الكلام عن علم البيان - ما لتفسير الزمخشرى من الأثر فى براعة المشارقة فى هذا الفن فقال :

« ... وبالجملة ، فالمشارقة على هذا الفن أقوم من المغاربة . وسببه - والله أعلم - أنه كمالى فى العلوم اللسانية ، والصنائع الكمالية توجد فى العمران والمشرق أوفر عمرانا من المغرب كما ذكرنا . أو نقول لعناية العجم - وهم معظم أهل المشرق - بتفسير الزمخشرى وهو كله مبنى على هذا الفن وهو أصله »[1] اهـ .

ثم إنا نستعرض هذه الروح البلاغية التى تسود فى تفسير الزمخشرى فنشهدها واضحة من أول الأمر عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة البقرة « هدى للمتقين » فبعد أن ذكر كل الاحتمالات التى تجوز فى محل هذه الجملة من الإعراب ، نبه على أن الواجب على مفسر كلام الله تعالى أن يلتفت للمعانى ويحافظ عليها ، ويجعل الألفاظ تبعا لها ، فقال ما نصه « ... والذى هو أرسخ عرقا فى البلاغة أن يضرب عن هذه المحال صفحا وأن يقال : إن قوله

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٦٤٦ .

« ألم » جملة برأسها أو طائفة من حروف المعجم مستقلة بنفسها، وذلك الكتاب، جملة ثانية « ولا ريب فيه » ثالثة « وهدى للمتقين » رابعة ، وقد أصيب بترتيبها مفصل البلاغة ، وموجب حسن النظم ، حيث جيء بها متناسقة هكذا من غير حرف نسق، وذلك لمجيئها متآخية آخذا بعضها بعنق بعض، فالثانية متحدة بالأولى معتنقة لها ... وهلم جرا إلى الثالثة والرابعة . بيان ذلك . أنه نبه أولا على أنه الكلام المتحدى به . ثم أشير إليه بأنه الكتاب المبعوت بغاية الكمال ، فكان تقريراً لجهة التحدى وشدا من أعضاده ، ثم نفى عنه أنه يتشبث به طرف من الريب ، فكان شهادة وتسجيلا بكماله ، لأنه لا كمال أكمل مما للحق واليقين ، ولا نقص أنقص مما للباطل والشبهة . وقيل لبعض العلماء : فيم لذتك ؟ فقال : فى حجة تتبختر اتضاحا ، وفى شبهة تتضاءل افتضاحا . ثم أخبر عنه بأنه هدى للمتقين، فقرر بذلك كونه يقينا لا يحوم الشك حوله، وحقا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ثم لم تخل كل واحدة من الأربع بعد أن رتبت هذا هذا الترتيب الأنيق ، ونظمت هذا النظم السرى ، من نكتة ذات جزالة . ففى الأولى : الحذف ، والرمز إلى الغرض بألطف وجه وأرشقه ، وفى الثانية: ما فى التعريف من الفخامة . وفى الثالثة : ما فى تقديم الريب على الظرف وفى الرابعة : الحذف ، وضع المصدر الذى هو هدى موضع الوصف الذى هو هاد، وإيراده منكرا ، والإيجاز فى ذكر المتقين. زادنا الله اطلاعا على أسرار كلامه، وتبينا لنكت تنزيله ، وتوفيقا للعمل بما فيه »[1] اهـ .

تذرعه بالمعانى اللغوية لنصرة مذهبه الاعتزالى :

كذلك نرى الزمخشرى - كغيره من المعتزلة - إذا مر بلفظ يشتبه عليه ظاهره ولا يتفق مع مذهبه ، يحاول بكل جهوده أن يبطل هذا المعنى الظاهر ، وأن يثبت للفظ معنى آخر موجودا فى اللغة .

فمثلا نراه عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٩٢ - ٩٤ .

سورة القيامة «وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة» يتخلص من المعنى الظاهر لكلمة ناظرة ، لأنه لا يتفق مع مذهبه الذى لايقول برؤية الله تعالى ، ونراه يثبت له معنى آخر هو التوقع والرجاء ، ويستشهد على ذلك بالشعر العربى فيقول ما نصه : « إلى ربها ناظرة » تنظر إلى ربها خاصة لا تنظر إلى غيره ، وهذا معنى تقديم المفعول ، ألا ترى إلى قوله « إلى ربك يومئذ المستقر[1] » ، « إلى ربك يومئذ المساق[2]» . «إلى الله تصير الأمور[3]» « إلى الله المصير[4]» « وإليه ترجعون[5] » . « عليه توكلت وإليه أنيب[6] » كيف دل فيها التقديم على معنى الاختصاص ، ومعلوم أنهم ينظرون إلى أشياء لا يحيط بها الحصر ، ولا تدخل تحت العدد ، وفى محشر يجتمع فيه الخلائق كلهم . فإن المؤمنين نظارة ذلك اليوم ، لأنهم الآمنون الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، فاختصاصه بنظرهم إليه لو كان منظورا إليه محال ، فوجب حمله على معنى يصح معه الاختصاص . والذى يصح معه ، أن يكون من قول الناس : أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بى ، تريد معنى التوقع والرجاء ، ومنه قول القائل :

وإذا نظرت إليك من ملك   والبحر دونك زدتنى نعما

وسمعت سروية[7] مستجدية بمكة وقت الظهر ، حين يغلق الناس أبوابهم ويأوون إلى مقائلهم ، تقول « عيينتى نويظرة إلى الله وإليكم » والمعنى : أنهم

---

(١) الآية (١٢) من سورة القيامة .

(٢) الآية (٣٠) من سورة القيامة .

(٣) فى الآية (٥٣) من سورة الشورى .

(٤) فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران ، (٤٢) من سورة النور ، (١٨) من سورة فاطر .

(٥) فى الآية (٢٤٥) من سورة البقرة . وفى مواضع أخرى كثيرة من القرآن

(٦) فى الآية (١٠) من سورة الشورى .

(٧) فعلها نسبة إلى سرو : محلة حمير .

لايتوقون النعمة والكرامة إلا من ربهم ، كما كانوا فى الدنيا لايخشون ولا يرجون إلا إياه » اهـ[1] .

اعتماده على الفروض المجازية، وتذرعه بالتمثيل والتخييل فيما يستبعد ظاهره

كذلك نرى الزمخشرى يعتمد فى تفسيره على الفروض المجازية فى الكلام الذى يبدو فى حقيقته بعيداً وغريبا .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال . . . الآية » يقول مانصه (وهو يريد بالأمانة الطاعة ، فعظم أمرها ، وفخم شأنها . وفيه وجهان :

أحدهما — أن هذه الأجرام العظام من السموات والأرض والجبال ، قد انقادت لأمر الله عز وعلا انقياد مثلها ، وهو مايتأتى من الجمادات ، وأطاعت له الطاعة التى تصح منها وتليق بها ، حيث لم تمتنع على مشيئته وإرادته إيجادا ، وتكوينا ، وتسوية على هيئات مختلفة وأشكال متنوعة ، كما قال « قالتا أتينا طائعين[2] » ، وأما الإنسان ، فلم تكن حاله فيما يصح منه من الطاعات ويليق به من الانقياد لأوامر الله ونواهيه — وهو حيوان عاقل صالح للتكليف — مثل حال تلك الجمادات فيما يصح منها ويليق بها من الانقياد وعدم الامتناع . والمراد بالأمانة الطاعة ؛ لأنها لازمة الوجود ، كما أن الأمانة لازمة الأداء . وعرضها على الجمادات وإباؤها وإشفاقها مجاز . وأما حمل الأمانة ؛ فمن قولك فلان حامل للأمانة ومحتمل لها ، تريد أنه لايؤديها إلى صاحبها حتى تزول عن ذمته ويخرج عن عهدتها ؛ لأن الأمانة كأنها راكبة للمؤتمن عليها وهو حاملها ألا تراهم يقول : ركبته الديون ، ولى عليه حق فإذا أداها لم تكن راكبة له

(١) الكشاف ج ٢ ص ٥٠٩ .
(٢) فى الآية (١١) من سورة فصلت .

ولا هو حاملا لها . ونحوه قولهم : لا يملك مولى لمولى نصراً ، يريدون أنه يبذل النصرة له ويسامحه بها ولا يمسكها كما يمسكها الخاذل ، ومنه قول القائل :

أخوك الذى لا تملك الحس(١) نفسه
وترفض عند المحفظات الكتائف

أى لا يمسك الرقة والعطف إمساك المالك الضنين مافى يده ، بل يبذل ذلك ويسمح به . ومنه قولهم : ابغض حق أخيك ؛ لأنه إذا أحبه لم يخرجه إلى أخيه ولم يؤده ، وإذا أبغضه أخرجه وأداه . فمعنى « فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان » فأبين إلا أن يؤدينها وأبى الانسان إلا أن يكون محتملا لها لا يؤديها . ثم وصفه بالظلم لكونه تاركا لأداء الأمانة ، وبالجهل لإخطائه ما يسعده مع تمكنه منه وهو أداؤه .

والثانى — أن ما كلفه الإنسان بلغ من عظمه وثقل محمله ، أنه عرض على أعظم ماخلق الله من الأجرام وأقواه وأشده أن يتحمله ويستقل به ، فأبى حمله والاستقلال به ، وأشفق منه ، وحمله الإنسان على ضعفه ورخاوة قوته « إنه كان ظلوماً جهولا » حيث حمل الأمانة ثم لم يف بها ، وضمنها ثم خاس بضمانه فيها : ونحو هذا الكلام كثير فى لسان العرب ، وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم . من ذلك قولهم « لو قيل للشحم أين تذهب لقال : أسوى العوج » ، وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات ، وتصور مقاولة الشحم محال ولكن الغرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه ؛ كما أن العجف مما يقبح حسنه ، فصور أثر السمن فيه تصويرا هو أوقع فى نفس السامع ، وهى به آنس ، وله أقبل وعلى حقيقته أوقف ، وكذلك تصوير عظم الأمانة ، وصعوبة أمرها ، وثقل محملها ، والوفاء بها ...

وهنا تقوم أمام الزمخشرى صعوبات ومشاكل يصورها لنا فى سؤاله

---

(١) الحس : مصدر قولك حس له ؛ أى دق له ؛ والبيت لذى الرمة .

« فإن قلت ، قد علم وجه التمثيل فى قولهم للذى لا يثبت على رأى واحد : أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى، لأنه مثلت حاله فى تميله وترجحه بين الرأيين، وتركه المضى على أحدهما ، بحال من يتردد فى ذهابه فلا يجمع رجليه المضى فى وجهة ، وكل واحد من الممثل والممثل به شيء مستقيم داخل تحت الصحة والمعرفة ، وليس كذلك مافى هذه الآية ؛ فإن عرض الأمانة على الجماد وإباءه وإشفاقه محال فى نفسه غير مستقيم ، فكيف صح بناء التمثيل على المحال ؟ وما مثال هذا إلا أن تشبه شيئاً والمشبه به غير معقول اه .

ولكن الزمخشرى لايقف طويلا أمام هذه الصعوبات ، بل نراه يتخلص منها بكل دقة وبراعة حيث يقول: (قلت الممثل به فى الآية، وفى قولهم لو قيل للشحم أين تذهب ، وفى نظائره ، مفروض ، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات . مثلت حال التكليف فى صعوبته وثقل محمله ، بحاله المفروضة لو عرضت على السموات والأرض والجبال لأبين أن يحملنها وأشفقن منها) اه[1] .

ثم إن هذه الطريقة التى يعتمد عليها الزمخشرى فى تفسيره ، أعنى طريقة الفروض المجازية ، وحمل الكلام الذى يبدو غريباً فى ظاهره على أنه من قبيل التعبيرات التمثيلية أو التخييلية ، قد أثارت حفيظة خصمه السنى ابن المنير الاسكندرى عليه ، فاتهمه بأشنع التهم فى كثير من المواضع التى تحمل هذا الطابع ، ونسبه فيها إلى قلة الأدب وعدم الذوق .

فمثلا عندما يعرض الزمخشرى لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحشر (لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) نراه يقول « هذا تمثيل وتخييل

---

(١) الكشاف جـ ٢ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ .

كما مر فى قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة) وقد دل عليه قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس) والغرض توبيخ الإنسان على قسوة قلبه وقلة تخشعه ، عند تلاوة القرآن وتدبر قوارعه وزواجره »[1] اهـ .

ولكن هذا قد أغضب ابن المنير على الزمخشرى فقال معقباً عليه (وهذا مما تقدم إنكارى عليه فيه ، أفلا كان يتأدب بأدب الآية ، حيث سمى الله هذا مثلا ، ولم يقل : تلك الخيالات نضربها للناس ؟ . ألهمنا الله حسن الأدب معه . والله الموفق) اهـ [2] .

ولكن الزمخشرى ولع بهذه الطريقة ، فمشى عليها من أول تفسيره إلى آخره ، ولم يقبل المعانى الظاهرة التى يجوزها أهل السنة ، بل ويرونها أقرب إلى الصواب من غيرها . وهو كل ما يذكر من المعانى لا يعدم مثلا عربياً سائراً ، أو بيتا من الشعر القديم يشهد لما يقوله ، كما أنه لا ينفك عن التنديد بأهل السنة الذين يقبلون هذه المعانى الظاهرة ويقولون بها ، وكثيراً ما ينسبهم من أجل ذلك إلى أنهم من أهل الأوهام والخرافات[3] . وإليك بعض الأمثلة لتقف على مقدار تمسكه بهذه الطريقة :

فنى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (٢٥٥) « وسع كرسيه السموات والأرض » يذكر الزمخشرى أربعة أوجه فى معنى الكرسى ، يقول فى الوجه الأول منها : إن كرسيه لم يضق عن السموات والأرض لبسطته وسعته ، وماهو إلا تصوير لعظمته وتخييل فقط ، ولا كرسى ثمة ، ولا قعود ، ولا قاعد ، كقوله « وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٤٤٩ .

(٢) هامش الكشاف ج ٢ ص ٤٤٩

(٣) انظر ما قاله عند قوله تعالى فى سورة آل عمران « وإنى أعيذك بك وذريتها من الشيطان الرجيم ج ١ ص ٣٠٢ .

مطويات بيمينه[١] ، من غير تصور قبضة وطى ويمين ، وإنما هو تخييل لعظمة شأنه ، وتمثيل حسن ، ألا ترى إلى قوله : « وما قدروا الله حق قدره » . . . اهـ[٢] .

وبطبيعة الحال لم يرتض ابن المنير هذا الكلام فتعقبه بقوله « قوله فى الوجه الأول : إن ذلك تخييل للعظمة ، سوء أدب فى الإطلاق ، وبعد فى الإصرار ؛ فإن التخييل إنما يستعمل فى الأباطيل وما ليست له حقيقة صدق ؛ فإن يكن معنى ما قاله صحيحاً ، فقد أخطأ فى التعبير عنه بعبارة موهمة ، لا مدخل لها فى الأدب الشرعى . وسيأتى له أمثالها مما يوجبُ الأدبُ أن يجتنب » اهـ[٣] .

وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧٢ ، ١٧٣) : « وإذ أخذ ربك من بنى آدام من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين ه أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون » يقول ما نصه : وقوله « ألست بربكم قالوا بلى شهدنا » من باب التمثيل ، ومعنى ذلك ، أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم ، وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم ، وقال لهم ألست بربكم ، وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا ، شهدنا على أنفسنا : وأقررنا بوحدانيتك. وباب التمثيل واسع فى كلام الله تعالى ورسوله عليه السلام وفى كلام العرب، ونظيره قوله تعالى « إنما قولنا لشىء إذا أردناه

---

(١) فى الآية (٦٧) من سورة الزمر .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٧٨ — ٢٧٩ .
(٣) المرجع السابق (هامش) .

أن نقول له كن فيكون[١] ، « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين[٢] ، وقوله :

« إذا قالت الأنساع للبطن الحق »

« قالت له ريح الصبا قرقار »

ومعلوم أنه لا قول وإنما هو تمثيل وتصوير للمعنى » اهـ[٣] .

ولكن ابن المنير السنى لم يرض هذا من الزمخشرى بطبيعة الحال ، ولذا تعقبه بقوله (إطلاق التمثيل أحسن ، وقد ورد الشرع به ، وأما إطلاقه التخييل على كلام الله تعالى فردود ولم يرد به سمع . وقد كثر إنكارنا عليه لهذه اللفظة ، ثم إن القاعدة مستقرة على أن الظاهر مالم يخالف المعقول يجب إقراره على ماهو عليه ، فكذلك أقره الأكثرون على ظاهره وحقيقته ولم يجعلوه مثالا . وأما كيفية الإخراج والمخاطبة فالله أعلم بذلك) اهـ[٤] .

ويتصل بهذه الآية السابقة قوله تعالى فى الآية (٨) من سورة الحديد « ومالكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين » فالزمخشرى يميل فى تفسير الميثاق هنا إلى المعنى الذى حمل عليه أخذ العهد فى آية الأعراف ، فيقول : والمعنى وأى عذر لكم فى ترك الإيمان والرسول يدعوكم إليه ، وينبهكم عليه ، ويتلو عليكم الكتاب الناطق بالبراهين والحجج : وقبل ذلك قد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان ، حيث ركب فيكم العقول ، ونصب لكم الأدلة ، ومكنكم من النظر وأزاح عللكم ، فإذ لم تبق لكم علة بعد أدلة العقول وتنبيه الرسول ، فما لكم لا تؤمنون ؟) اهـ[٥] :

---

(١) الآية (٤٠) من سورة النحل.

(٢) فى الآية (١١) من سورة فصلت

(٣) الكشاف جـ ١ ص٥١٧ .

(٤) هامش الكشاف ج ١ ص ٥١٧

(٥) الكشاف ج ٢ ص ٤٣٤ .

ولكن ابن المنير السنى ، يريد أن يحمل أخذ الميثاق الذى فى سورة الحديد ، على المعنى الذى ارتضاه للفظ العهد فى سورة الأعراف ؛ ولهذا نراه يرد على الزمخشرى ويشدد عليه النكير فيقول : وما عليه أن يحمل أخذ الميثاق على ما بينه الله فى آية غير هذه ، إذ يقول تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى » ولقد يريبنى منه إنكاره لكثير من مثل هذه الظواهر ، والعدول بها عن حقائقها مع إمكانها عقلا ، ووقوعها بالسمع قطعا ، إلى ما يتوهمه من تمثيل يسميه تخييلا . فالقاعدة التى تعتمد عليها كى لا يضرك ما يومىء إليه : أن كل ما جوزه العقل وورد بوقوعه السمع ، وجب حمله على ظاهره . والله الموفق اهـ[1] .

ومسألة التمثيل والتخييل يستعملها الزمخشرى بحرية أوسع فيما ورد من الأحاديث التى يبدو ظاهرها مستغربا ، وأسوق إليك مثالا أتى به الزمخشرى عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة آل عمران « وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم » قال رحمه الله (وما يروون من الحديث « ما من مولود إلا والشيطان يمسه حين يولد فيستهل صارخا من مس الشيطان إياه إلا مريم وابنها » فالله أعلم بصحته ، فإن صح فمعناه أن كل مولود يطمع الشيطان فى إغوائه إلا مريم وابنها ، فإنهما كانا معصومين ، وكذلك كل من كان فى صفتهما ، كقوله تعالى : « ... لأغوينهم أجمعين ، إلا عبادك منهم المخلصين »[2] . واستهلاله صارخا من مسه ، تخييل وتصوير لطمعه فيه ، كأنه يمسه ويضرب بيده عليه ، ويقول : هذا ممن أغويه . ونحوه من التخييل ، قول ابن الرومى :

لما تؤذن الدنيا به من صروفها يكون بكاء الطفل ساعة يولد

---

(١) هامش الكشاف جـ ٢ ص ٤٣٤

(٢) فى الآيتين (٨٢ و ٨٣) من سورة ص .

وأما حقيقة المس والنخس كما يتوهم أهـــل الحشو فـكلا ، ولو سلط إبليس على الناس بنخسهم لامتلأت الدنيا صراخا وعياطا بما يبلونا به من نخسه)[1] اهـ .

وبالضرورة لم يرتض ابن المنير هـذا الصنيع من خصمه المعتزلى ، فنراه يتورك عليه بقوله: أما الحديث فمذكور فى الصحاح متفق على صحته ، فلا محيص له إذا عن تعطيل كلامه عليه السلام بتحميله ما لا يحتمله ، جنوحا إلى اعتزال منتزع ، فى فلسفة منتزعة ، فى إلحاد . ظلمات بعضها فوق بعض . وقد قدمت عند قوله تعالى « لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس »[2] ما فيه كفاية . وما أرى الشيطان إلا طعن فى خواصر القدرية حتى بقرها ، وذكر فى قلوبهم حتى حمل الزمخشرى وأمثاله أن يقول فى كتاب الله تعالى وكلام رسوله عليه السلام بما يتخيل ، كما قال فى هذا الحديث . ثم تنظيره بتخييل ابن الرومى فى شعره جرأة وسوء أدب . ولو كان معنى ما قاله صحيحا لـكانت هذه العبارة واجبا أن تجتنب . ولو كان الصراخ غير واقع من المولود لأمكن على بعد أن يكون تمثيلا ، أما وهو واقع مشاهد فلاوجه لحمله على التخييل إلا الاعتقاد لتضليل ، وارتكاب الهوى الوبيل اهـ[3] .

مبدأ الزمخشرى فى التفسير عندما يصادم النص القرآنى مذهبه :

والمبدأ الذى يسير عليه الزمخشرى فى تفسيره ويعتمد عليه عندما تصادمه آية تخالف مذهبه وعقيدته ، هو حمل الآيات المتشابهة على الآيات المحكمة ، وهذا المبدأ قد وجده الزمخشرى فى قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران « هو الذى أنزل عليك الـكتاب منه آيات محكمات هن أم الـكتاب وأخر

---

(١) الـكشاف جـ ١ ص ٣٠٢ و ٣٠٣

(٢) فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة .

(٣) هامش الـكشاف جـ ١ ص ٣١٢

متشابهات ، (فالمحكمات) هى التى أحكمت عباراتها ، بأن حفظت من الاحتمال والاشتباه . (والمتشابهات) هى المتشبهات المحتملات . (وأم الكتاب) هى أصله الذى يحمل عليه المتشابه ، ويرد إليه ، يفسر به (١) .

على هذا التفسير جرى الزمخشرى فى كشافه عندما تعرض لهذه الآية ، وهو تفسير لا غبار عليه ، كما أن هذا المبدأ : أعنى مبدأ حمل الآيات المتشابهات على الآيات المحكمات ، مبدأ سليم يقول به غير الزمخشرى أيضاً من علماء أهل السنة ، ولكن الذى لا نسلمه للزمخشرى هو تطبيقه لهذا المبدأ على الآيات التى تصادمه ، فإذا مر بآية تعارض مذهبه ، وآية أخرى فى موضوعها تشهد له بظاهرها ، نراه يدعى الاشتباه فى الأولى والإحكام فى الثانية ، ثم يحمل الأولى على الثانية وبهذا يرضى هواه المذهبى ، وعقيدته الاعتزالية .

وقد مثل الزمخشرى لحمل المتشابه على المحكم ورده إليه بقوله تعالى فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » وقوله فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة ه إلى ربها ناظرة » فهو يرى أن الآية الأولى محكمة ، والآية الثانية متشابهة ، وعليه فتجب أن تكون الآية الثانية متفقة مع الآية الأولى ، ولا سبيل إلى ذلك إلى بحملها عليها ، وردها إليها .

ومثل أيضاً بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون » . وقوله فى الآية (١٦) من سورة الإسراء « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فهو يرى أن الآية الأولى محكمة ، والآية الثانية متشابهة : فلا بد من حمل الثانية على الأولى ليتفق المعنى ويتحدد المراد .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٩٤

ثم لا ينتهى الزمخشرى من تطبيقه لهذا المبدأ حتى يتساءل عن السبب الذى من أجله لم يكن القرآن كله محكما ، وعن السر الذى من أجله جعل الله فى القرآن آيات محتملات متشابهات ؟ . ولكن الزمخشرى يجيب بنفسه على ما تساءل عنه فيقول : (لو كان كله محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ، ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لايتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما فى المتشابه من الإبتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتعابهم القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة ، والعلوم الجمة ، ونيل الدرجات عند الله ، ولأن المؤمن المعتقد أن لا مناقضة فى كلام الله ولا اختلاف ، وإذا رأى فيه مايتناقض فى ظاهره ، وأهمه طلب مايوفق بينه ويجريه على سنن واحد ، ففكر وراجع نفسه وغيره ، ففتح الله عليه ، وتبين مطابقة المتشابه المحكم ، إزداد طمأنينة إلى معتقده وقوة فى إيقانه) اهـ[1] .

وهذا الجواب فى منتهى القوة والسداد ، وابن المنير السنى يمر على كل هذا الكلام فلا يرى فيه أدنى ناحية من نواحى الاعتزال ، لكنه يغضب على الزمخشرى فقط من أجل أنه عد قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة » إلى ربها ناظرة » من قبيل المتشابه الذى يجب حمله على آية الأنعام « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فيقول معقبا عليه : قال محمود « المحكمات التى أحكمت عباراتها إلخ » قال أحمد : هذا كما قدمته عنه من تكلفه لتنزيل الآى على وفق مايعتقده ، وأعوذ بالله من جعل القرآن تبعا للرأى ، وذلك أن معتقده إحالة رؤية الله تعالى ، بناء على زعم القدرية من أن الرؤية تستلزم الجسمية والجهة ، فإذا ورد عليهم النص القاطع الدال على وقوع الرؤية كقوله « إلى ربها ناظرة » مالوا إلى جعله من المتشابه حتى يردوه بزعمهم إلى الآية التى يدعون

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٩٤

أن ظاهرها يوافق رأيهم ، والآية قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار . . . » ثم جمع ابن المنير بين الآيتين بما يتفق مع مذهبه السنى . . . ثم قال : وأما الآيتان الأخريان اللتان إحداهما قوله تعالى : « إن الله لا يأمر بالفحشاء » والأخرى التى هى قوله تعالى : « أمرنا مترفيها ففسقوا فيها » فلا ينازع الزمخشرى فى تمثيل المحكم والمتشابه بهما » اهـ[1] .

انتصار الزمخشرى لعقائد المعتزلة:

هذا ، وأن الزمخشرى لينتصر لمذهبه الاعتزالى ، ويؤيده بكل ما يملك من قوة الحجة وسلطان الدليل ، وإنا لنلمس هذا التعصب الظاهر فى كثير مما أسلفنا من النصوص ، وفى غيرها مما نسوقه لك من الأمثلة . وهو يحرص كل الحرص على أن يأخذ من الآيات القرآنية ما يشهد لمذهبه ، وعلى أن يتأول ما كان منها معارضاً له .

انتصاره لرأى المعتزلة فى أصحاب الكبائر :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩٣) من سورة النساء « ومن يقتل مؤمناً متعمداً فجزاؤه جهنم خالداً فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذاباً عظيما » نجده يجعل لهذه الآية أهمية كبيرة فى نصرة مذهبه ، ويتيه بها على خصومه من أهل السنة ، ويندد بهم حيث يقولون بجواز مغفرة الذنب وإن لم يتب منه صاحبه ، وبأن صاحب الكبيرة لا يخلد فى النار ، فيقول مستغلا لهذه الفرصة المواتية للاستهزاء من خصومه السنيين (هذه الآية فيها من التهديد والإيعاد ، والإبراق والإرعاد ، أمر عظيم وخطب غليظ ، ومن ثم روى عن ابن عباس ما روى من أن توبة قاتل المؤمن عمداً غير مقبولة ، وعن سفيان : كان أهل العلم إذا سئلوا ، قالوا : لا توبة له ، وذلك محمول منهم على الاقتداء

---

(١) الانتصاف هامش الكشاف جـ ١ ص ٩٢٤ .

بسنة الله فى التغليظ والتشديد ، وإلا فكل ذنب ممحو بالتوبة ، وناهيك بمحو الشرك دليلا ، وفى الحديث (لزوال الدنيا أهون على الله من قتل امرىء مسلم) . وفيه (لو أن رجلا قتل بالمشرق وآخر رضى بالمغرب لأشرك فى دمه) وفيه (إن هذا الإنسان بنيان الله ، ملعون من هدم بنيانه) . وفيه (من أعان على قتل مؤمن بشطر كلمة جاء يوم القيامة مكتوب بين عينيه: آيس من رحمة الله) . والعجب من قوم يقرءون هذه الآية ويرون ما فيها ، ويسمعون هذه الأحاديث العظيمة وقول ابن عباس بمنع التوبة ، ثم لا تدعهم أشعبيتهم وطماعيتهم الفارغة ، واتباعهم هواهم ، وما يخيل إليهم مناهم ، أن يطمعوا فى العفو عن قاتل المؤمن بغير توبة (أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها)[1] ثم ذكر الله سبحانه وتعالى التوبة فى قتل الخطأ - لما عسى يقع من نوع تفريط فيما يجب من الاحتياط والتحفظ - فيه حسم للأطماع وأى حسم، ولكن لا حياة لمن تنادى، فإن قلت : هل فيها دليل على خلود من لم يتب من أهل الكبائر ؟ قلت : ما أبين الدليل ، وهو تناول قوله (ومن يقتل) أى قاتل كان ، من مسلم أو كافر ، تائب أو غير تائب ، إلا أن التائب أخرجه الدليل، فمن ادعى إخراج المسلم غير التائب فليأت بدليل مثله) اه[2] .

وفى سورة الأنعام عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٥٨) « يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن آمنت من قبل أو كسبت فى إيمانها خيراً » نجد الزمخشرى يمسك بهذه الآية « ويستدل بها على صحة عقيدته فى أن الكافر والعاصى سواء فى الخلود فى النار فيقول (والمعنى أن أشراط الساعة إذا جاءت - وهى آيات ملجئة مضطرة - ذهب أوان التكليف عندها ، فلم ينفع الإيمان حينئذ نفسا غير مقدمة إيمانها من قبل ظهور الآيات، أو مقدمة الإيمان غير كاسبة فى إيمانها خيراً ، فلم يفرق - كما ترى - بين النفس الكافرة

---

(١) الآية « ٢٤ » من سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٣٨١ .

إذا آمنت فى غير وقت الإيمان ، وبين النفس التى آمنت فى وقته ولم تكسب خيراً ؛ ليعلم أن قوله (الذين آمنوا وعملوا الصالحات) جمع بين قرينتين لا ينبغى أن تنفك إحداهما عن الأخرى ، حتى يفوز صاحبهما ويسعد ، وإلا فالشقوة والهلاك) اهـ[1] .

انتصاره لمذهب المعتزلة فى الحسن والقبح العقليين :

ولما كان الزمخشرى يقول بمبدإ المعتزلة فى التحسين والتقبيح العقليين ، كان لا بد له أن يتخلص من ظاهر هذين النصين المنافيين لمذهبه ، وهما : قوله تعالى فى الآية (١٦٥) من سورة النساء « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل » وقوله فى الآية (١٥) من سورة الإسراء (.... وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا) فنراه فى الآية الأولى يستشعر معارضة ظاهر الآية لهذا المبدأ فيسأل هذا السؤال : « كيف يكون للناس على الله حجة قبل الرسل وهم محجوجون بما نصبه الله من الأدلة التى النظر فيها موصل إلى المعرفة ، والرسل فى أنفسهم لم يتوصلوا إلى المعرفة إلا بالنظر فى تلك الأدلة ، ولا عرف أنهم رسل الله إلا بالنظر فيها ؟ ثم يجيب هو عن هذا السؤال فيقول : (قلت) الرسل منبهون عن الغفلة ، وباعثون على النظر ، كما ترى علماء أهل العدل والتوحيد ، مع تبليغ ما حملوه من تفصيل أمور الدين ، وبيان أحوال التكليف . وتعليم الشرائع ، فكان إرسالهم إزاحة للعلة ، وتتميما لإلزام الحجة لئلا يقولوا : لولا أرسلت إلينا رسولا فيوقظنا من سنة الغفلة ، وينبهنا لما وجب الانتباه له) اهـ[2] .

وعندما تكلم عن الآية الثانية نراه يستشعر مثل ما استشعر فى الآية الأولى ، ويسأل ويجيب بمثل ما سأل عنه وأجاب به فى الآية الأولى فيقول

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٤٧٧ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٣٩٨ .

(فإن قلت) الحجة لازمة لهم قبل بعثة الرسل ، لأن معهم أدلة العقل التي بها يعرف الله ، وقد أغفلوا النظر وهم متمكنون منه ، واستيجابهم العذاب لإغفالهم النظر فيما معهم ، وكفرهم لذلك ، لا لإغفال الشرائع التي لا سبيل إليها إلا بالتوقيف والعمل بها لا يصح إلا بعد الإيمان . (قلت) بعثة الرسل من جملة التنبيه على النظر والإيقاظ من رقدة الغفلة ، لئلا يقولوا كنا غافلين فلولا بعثت إلينا رسولا ينبهنا على النظر في أدلة العقل)[1] اهـ

انتصاره لمعتقد المعتزلة في السحر :

ثم إن الزمخشري - كغيره من المعتزلة - لا يقول بالسحر ولا يعتقد في السحرة ، ولهذا نجده عندما يفسر سورة الفلق التي تشهد لأهل السنة ولا تشهد له ، لا تخونه مهارته ، ولا تعوزه الحيلة التي يخرج بها في تفسيره من هذه الورطة الصريحة ، كما نجده يشدد النكير ويغرق في الاستهزاء والسخرية بأهل السنة القائلين بحقيقة السحر ، وذلك حيث يقول(النفاثات) النساء أو النفوس ، أو الجماعات السواحر ، اللاتي يعقدن عقداً في خيوط ، وينفثن عليها ويرقين . والنفث. النفخ مع ريق . ولا تأثير لذلك، اللهم إلا إذا كان ثم إطعام شيء ضار، أو سقيه ، أو إشمامه ، أو مباشرة المسحور به على بعض الوجوه ؛ ولكن الله عز وجل ، قد يفعل عند ذلك فعلا على سبيل الامتحان الذي يتميز به الثبت على الحق ، من الحشوية والجهلة من العوام ، فينسبه الحشو والرعاع إليهن وإلى نفثهن ، والثابتون بالقول الثابت لا يلتفتون إلى ذلك ولا يعبئون به . (فإن قلت) فما معنى الاستعاذة من شرهن ؟ (قلت) فيها ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يستعاذ من عملهن الذي هو صنعه السحر ومن إثمهن في ذلك
والثاني : أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن وما يخدعنهم به من باطلهن.
والثالث : أن يستعاذ مما يصيب الله به من الشر عند نفثهن .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٧٠٢ - ٧٠٣ .

ويجوز أن يراد بهن النساء الكيادات من قوله (إن كيدكن عظيم)[١] ، تشبيها لكيدهن بالسحر والنفث في العقد ، أو اللاتي يفتن الرجال بتعرضهن لهم وعرضهن محاسنهن ، كأنهن يسحرنهم بذلك)[٢] .

وفي الحق أن هذه محاولة عقلية عنيفة من الزمخشري يريد من ورائها أن يحول الحقائق التي ورد بوقوعها الكتاب والسنة . إلى ما يتناسب مع هواه وعقيدته . ولقد دهش ابن المنير من هذه المحاولة وحكم على الزمخشري بأنه (استفزه الهوى حتى أنكر ما عرف ، وما به إلا أن يتبع اعتزاله ، ويغطي بكفه وجه الغزالة[٣] .

انتصاره لمذهب المعتزلة في حرية الإرادة وخلق الأفعال :

ولقد تأثر الزمخشري برأيه الاعتزالي في حرية الإرادة وخلق الأفعال ، ولكنه وجد ما يصادمه من الآيات الصريحة في أن أفعال العباد كلها مخلوقة لله تعالى ، فأراد أن يتفادى هذا التصادم ويعمل على الخروج من هذه الورطة الكبرى ، فساعده على ما أراد ، هذا المعنى الذي تمسك به المعتزلة ونفعهم في كثير من المواضع . وهو (اللطف) من الله ، فباللطف منه تعالى يسهل عمل الخير على الإنسان ، وبسلبه يصعب عليه عمل الخير .

هذا (اللطف) وما يتصل به من (التوفيق) ساعد الزمخشري على الخروج من الضائقة التي صادفته عندما تناول بالتفسير تلك الآيات القرآنية الصريحة في أن الله يخلق أفعال العباد خيرها وشرها ، والتي يعتبرها أهل السنة سلاحا قويا لهم ضد هذه النظرية الاعتزالية .

ففي سورة آل عمران عندقوله تعالى في الآية (٨) «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد

---

(١) في الآية ٢٨ من سورة يوسف .

(٢) الكشاف حـ ٢ ص ٥٦٨ .

(٣) الإنصاف « هامش الكشاف » حـ ٢ ص ٥٦٨

إذ هديتنا ، نجد الزمخشرى يستشعر من هذه الآية أن قلوب العباد بيد الله يقلبها كيف يشاء ، فمن أراد الله هدايته هداه ، ومن أراد ضلاله أضله ، ولكنه يفر من هذا الظاهر فيقول : « لا تزغ قلوبنا ، لا تبلنا ببلايا تزيغ فيها قلوبنا « بعد إذ هديتنا ، وأرشدتنا لدينك . أو لا تمنعنا ألطافك بعد إذ لطفت بنا)[١] .

وفى سورة المائدة عند قوله تعالى فى الآية (٤١) (ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) نجد الزمخشرى لا يجزع من هذا الظاهر الذى يتشبث به أهل السنة ويتيهون به على خصومهم ، بل نراه يفسرها حسب هواه ووفق مبدئه فيقول : « ومن يرد الله فتنته » تركه مفتونا وخذلانه « فلن تملك له من الله شيئاً » ، فلن تستطيع له من لطف الله وتوفيقه شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يمنحهم من ألطافه ما يطهر به قلوبهم ، لأنهم ليسوا من أهلها ، لعلمه أنها لا تنفع فيهم ولا تنجع « إن الذين لا يؤمنون بآيات الله لا يهديهم الله[٢] ، « كيف يهدى الله قوما كفروا بعد إيمانهم[٣] » اهـ[٤] .

وهكذا نجد الزمخشرى بواسطة هذه التأويلات يخضع لمبدئه الاعتزالى فى الجبر والاختيار مثل هذه المواضع القرآنية التى لم تكن طيعة له . ولكن ابن المنير السكندرى لم ترقه هذه التأويلات ، ولم يسلم بها لخصمه ، فأخذ يناقشه فى معنى اللطف مناقشة حادة ساخرة ، فعند ما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٢٧٢) من سورة البقرة « ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء » ، وتذرع بلفظ (اللطف) تعقبه ابن المنير فقال : « المعتقد الصحيح ، أن الله هو الذى يخلق الهدى لمن يشاء هداه ، وذلك هو اللطف ، لا كما يزعم

---

(١) الكشاف حـ ١ ص ١٩٥

(٢) فى الآية «١٠٤» من سورة النحل .

(٣) فى الآية «٨٦» من سورة ال عمران .

(٤) الكشاف حـ ١ ص ٤١٦ .

الزمخشرى أن الهدى ليس خلق الله وإنما العبد يخلقه لنفسه ، وإن أطلق الله تعالى إضافة الهدى إليه كما فى هذه الآية فهو مؤول على زعم الزمخشرى بلطف الله الحامل للعبد على أن يخلق هداه . إن هذا إلا اختلاق . وهذه النزعة من توابع معتقدهم السيء فى خلق الأفعال ، وليس علينا هداهم ، ولكن الله يهدى من يشاء ، وهو المسئول ألا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ،[١] اهـ .

وعندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة الأنعام « من يشأ الله يضلله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » وقال : « من يشأ يضلله » أى يخذله ويخله وضلاله لم يلطف به ، لأنه ليس من أهل اللطف . « ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم » أى يلطف به ، لأن اللطف يجدى عليه[٢] . عندما قال ذلك تعقبه ابن المنير فقال : (وهذا من تحريفاته للهداية والضلالة اتباعاً لمعتقده الفاسد فى أن الله تعالى لا يخلق الهدى ولا الضلال ، وأنهما من جملة مخلوقات العباد . وكم تخرق عليه هذه العقيدة فيروم أن يرقعها ، وقد اتسع الخرق على الراقع[١] اهـ .

وعندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف « وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » وتأول الهداية هنا بمعنى اللطف والتوفيق كعادته . تعقبه ابن المنير ورد عليه رداً فى غاية التهكم والسخرية فقال : (وهذه الآية — يعنى قوله تعالى « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا » — تكفح وجوه القدرية بالرد ؛ فإنها شاهدة شهادة تامة مؤكدة باللام على أن المهتدى من خلق الله له الهدى ، وأن غير ذلك محال أن يكون ؛ فلا يهتدى إلا من هدى الله ولو لم يهده لم يهتد ، وأما القدرية فيزعمون أن كل مهتد خلق لنفسه الهدى فهو إذاً مهتد وإن لم يهده الله ؛ إذ هدى الله للعبد خلق

---

(١) الإنتصاف هامش الكشاف جـ ١ ص ٢٨٥ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٤٥١ .

(٣) الإنتصاف هامش الكشاف جـ ١ ص ٤٥١ .

الهدى له ، وفى زعمهم أن الله تعالى لم يخلق لأحد من المهتدين الهدى ولا يتوقف ذلك على خلقه . تعالى الله عما يقولون . ولما فطن الزمخشرى لذلك جرى على عادته فى تحريف الهدى من الله تعالى إلى اللطف الذى بسببه يخلق العبد الاهتداء لنفسه . فأنصف من نفسك ، وأعرض قول القائل : المهتدى من اهتدى بنفسه من غير أن يهديه الله — أى يخلق له الهدى — على قوله تعالى حكاية عن قول الموحدين فى دار الحق « وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » ، وانظر تباين هذين القولين ، أعنى قول المعتزلى فى الدنيا وقول الموحد فى الآخرة فى مقعد صدق ، وأختر لنفسك أى الفريقين تقتدى به . وما أراك — والخطاب لكل عاقل — تعدل بهذا القول المحكى عن أولياء الله فى دار السلام منوهاً به فى الكتاب العزيز ، قول قدرى ضال تذبذب مع هواه وتعصبه فى دار الغرور والزوال . نسأل الله حسن المآب والمآل » اﻫ[١] .

خصومة العقيدة بين الزمخشرى وأهل السنة :

ومن أجل هذا الخلاف العقيدى بين الزمخشرى وأهل السنة ، نجد الخصومة بينهم حادة عنيفة ، كل يتهم خصمه بالزيغ والضلال ، ويرميه بأوصاف يسلكه بها فى قرن واحد مع الكفرة الفجرة ، وتلك — على ما أعتقد — مبالغة مسفة فى الخصومة ، ما كان ينبغى لأحد الخصمين أن يخوض فيها على هذا الوجه . وبخاصة بعد ما عرف من أن كليهما يهدف إلى تنزيه الله عما لا يليق بكماله . وإليك بعض الحملات التى وجهها كل من الخصمين إلى الآخر ؛ لتلمس بنفسك مبلغ هذه الخصومة وتحكم عليها :

حملة الزمخشرى على أهل السنة :

هذا ، وإن المتتبع لما فى الكشاف من الجدول المذهبى ، ليجد أن الزمخشرى

---

(١) الإنتصاف : هامش الكشاف جـ ١ ص ٤٨٦ .

قد مزجه فى الغالب بشىء من المبالغة فى السخرية والاستهزاء بأهل السنة ، فهو لايكاد يدع فرصة تمر بدون أن يحقرهم ويرميهم بالأوصاف المقذعة ، فتارة يسميهم المجبرة ، وأخرى يسميهم الحشوية ، وثالثة يسميهم المشبهة ، وأحيانا يسميهم القدرية ، تلك التسمية التى أطلقها أهل السنة على منكرى القدر ، فرماهم بها الزمخشرى لأنهم يؤمنون بالقدر ، كما جعل حديث الرسول الذى حكم فيه على القدرية أنهم مجوس هذه الأمة منصباً عليهم ، وذلك حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة فصلت « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون بما كانوا يكسبون » ولو لم يكن فى القرآن حجة على القدرية الذين هم مجوس هذه الأمة بشهادة نبيها صلى الله عليه وسلم — وكفى به شاهداً — إلا هذه الآية لكفى بها حجة » اهـ.[1]

كما سماهم بهذا الإسم ورماهم بأنهم يحيون لياليهم فى تمحل فاحشة ينسبونها إلى الله تعالى ، حيث قال عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٩ ، ١٠) من سورة الشمس : « قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها » ، وأما قول من زعم أن الضمير فى زكى ودسى لله تعالى ، وأن تأنيث الراجع إلى من لأنه فى معنى النفس ، فمن تعكيس القدرية الذين يوركون على الله قدراً هو برىء منه ومتعال عنه ، ويحيون لياليهم فى تمحل الفاحشة ينسبونها إليه » اهـ[2] .

والظاهرة العجيبة فى خصومة الزمخشرى ، أنه يحرص كل الحرص على أن يحول الآيات القرآنية التى وردت فى حق الكفار إلى ناحية مخالفيه فى العقيدة من أهل السنة ، ففى سورة آل عمران حيث يقول الله تعالى فى الآية

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٣٢١ .

(٢) الكشاف ج ٢ ص ٥٤٧ .

(١٠٥) : « ولاتكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ماجاءهم البينات .. » نجد الزمخشرى بعد مايعترف بأن الآية واردة فى حق اليهود والنصارى ، يجوز أن تكون واردة فى حق مبتدعى هذه الأمة ، وينص على أنهم المشبهة ، والمجبرة ، والحشوية ، وأشباههم [١] .

وفى سورة يونس حيث يقول الله تعالى فى الآية (٣٩) « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله ... » يقول : بل سارعوا إلى التكذيب بالقرآن وفاجئوه فى بديهة السماع قبل أن يفقهوه ويعلموا كنه أمره ، وقبل أن يتدبروه ويقفوا على تأويله ومعانيه ، وذلك لفرط نفورهم عما يخالف دينهم ، وشرادهم عن مفارقة دين آبائهم ، كالناشىء على التقليد من الحشوية ، إذا أحس بكلمة لا توافق ما نشأ عليه وألفه — وإن كان أضوأ من الشمس فى ظهور الصحة وبيان الاستقامة — أنكرها فى أول وهلة ، واشمأز منها قبل أن يحس إدراكها بحاسة سمعه من غير فكر فى صحة أو فساد، لأنه لم يشعر قلبه إلا صحة مذهبه وفساد ما عداه من المذاهب .[٢]

ولقد أظهر الزمخشرى تعصباً قويا للمعتزلة ، إلى حد جعله يخرج خصومه السنيين من دين الله وهو الإسلام ، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٨) من سورة آل عمران : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم ... الآية » (فإن قلت) ما المراد بأولى العلم الذين عظمهم هذا التعظيم ، حيث جمعهم معه ومع الملائكة فى الشهادة على وحدانيته وعدله ؟ (قلت) هم الذين يثبتون وحدانيته وعدله بالحجج والبراهين القاطعة ، وهم علماء العدل والتوحيد — يريد أهل مذهبه — (فإن قلت) ما فائدة هذا التوكيد — يعنى فى قوله: إن الدين عند الله الإسلام — (قلت) فائدته أن قوله: لا إله إلا

---

(١) الكشاف ج ١ ص ٣١٩ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥٨٢ .

هو توحيد . وقوله قائماً بالقسط تعديل ، فإذا أردفه قوله « إن الدين عند الله الإسلام) فقد آذن أن الإسلام هو العدل والتوحيد ، وهو الدين عند الله ، وما عداه فليس عنده فى شىء من الدين . وفيه أن من ذهب إلى تشبيه أو ما يؤدى إليه كإجازة الرؤية ، أو ذهب إلى الجبر الذى هو محض الجور ، لم يكن على دين الله الذى هو الإسلام . وهذا بين جلى كما ترى ... اهـ (1)

هذه بعض الأمثلة التى يتجلى فيها تعصب الزمخشرى لمذهبه الاعتزالى ، وانتصاره له . ويتضح منها مبلغ إيغاله فى الخصومة ، ومقدار حملته على أهل السنه ، وهناك غيرها كثير مما أثار عليه خصومه من السنيين ، فتعقبوه بالمناقشة والتفنيد ، وردوا بشكل حاسم على ما أورده فى كشافه من استنتاجات اعتقادية من آى القرآن الكريم ، وقالوا : إنها جافة وقائمة على الرأى الطليق .

ومع ذلك لم يجحدوا ما كان للزمخشرى من أثر محمود فى التفسير ، فنراهم — على ما بينهم وبينه من خصومة ، ورغم ما سيمر بك من حملاتهم عليه — يقدرون إلى حد بعيد ما كان له من مجهود خاص فى عمله التفسيرى الذى ترجع إلى الناحية البلاغية واللغوية ، كما نراهم فى الغالب يسطون على كتابه ويأخذون منه ما يعجبون به ويرون أنه عزيز المنال إلا على الزمخشرى .

حملة ابن القيم على الزمخشرى :

فهذا هو العلامة ابن القيم ، كثيراً ما يثور على الزمخشرى من أجل تفسيره الاعتزالى .

فمثلا نراه يذكر ما فسر به الزمخشرى قوله تعالى فى الآية (١٧٦) من سورة الأعراف : « ... ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ... » ، ثم يقول (فهذا منه شنشنة نعرفها من قدرى ناف

(1) الكشاف جـ ١ ص ٢٩٧

للمشيئة العامة ، مبعد للنجعة فى جعل كلام الله معتزليا قدريا) اﻫ (١)

حملة ابن المنير على الزمخشرى :

ومن الذين خصصوا جهودهم للكشاف بعد قرون من ظهوره ، قاضى الإسكندرية ، أحمد بن محمد بن منصور المنير المالكى ، فقد كتب عليه حاشية خاصة سماها (الانتصاف) ناقش فيها الزمخشرى وجادله فى بعض ما جاء فى كشافه من أعاريب وغيرها ، ولكنه ركز مجهوده العظيم فى بيان ما تضمنه من الاعتزال ، وإبطال ما فيه من تأويلات تتناسب مع مذهب الزمخشرى وتتفق مع هواه .

ويظهر أن القاضى المالكى كان يميل بوجه عام إلى الجدال والنقاش ، فقد قيل : إنه كان بصدد أن يرد على كتب الإمام الغزالى ، تلك الكتب التى لم تكن مقبولة عند المالكية، ولم يصرفه عن قصده إلا أمه التى لم يطلب خاطرها بهذه الحرب التى يثيرها ابنها ضد الموتى كما أثارها ضد الأحياء (٢) ، ولكنه مع ذلك فعل هذا مع الزمخشرى، واعتقد أنه بعمله هذا قد ثار لأهل السنة من أهل البدعة . وقد صرح بذلك حيث توجه باللوم للزمخشرى على تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٣ ، ٢٤) من سورة آل عمران « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون * ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات وغرهم فى دينهم ما كانوا يفترون » فقال : (فانظر إليه كيف أشحن قلبه بغضاً لأهل السنة وشقاقا ، وكيف ملأ الأرض من هذه النزعات نفاقا ، فالحمد لله الذى أهّل عبده الفقير إلى التورك عليه، لأن آخذ من أهل البدعة بثأر أهل السنة ، فأصمى أفئدتهم من قواطع البراهين بمقومات الأسنة) (٣) .

---

(١) اعلام الموقعين ج ١ ص ٢٠٢

(٢) بغية الوعاة ص ١٦٨

(٣) الانتصاف ، هامش الكشاف ج ١ ص ٢٩٩

كما اعتقد أنه أدى للمسلمين وللاسلام خدمة عظيمة ، كافية لأن تقوم له عذراً أمام الله وأمام الناس عن تخلفه عن الخروج للغزو والجهاد فى سبيل الله وذلك حيث يقول بعد تعقيبه على الزمخشرى فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٢) من سورة التوبة : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون » : قال أحمد : ولا أجد فى تأخرى عن حضور الغزاة عذراً إلا صرف الهمة لتحرير هذا المصنف ، فإنى تفقهت فى أصل الدين وقواعد العقائد مؤيداً بآيات الكتاب العزيز ، مع ما اشتمل عليه من صيانة حوزتها من مكايد أهل البدع والأهواء ، وأنا مع ذلك أرجو من الله حسن التوجه . بلغنا الله الخير ، ووفقنا لما يرضيه ، وجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم اهـ[1]

وابن المنير ـ مع شدة خصومته للزمخشرى ـ لا ينسى ماله من أثر طيب فى التفسير ، فكثيراً ما يبدى إعجابه به « لتنويهه بأساليب القرآن العجيبة التى تنادى بأنه ليس من كلام البشر » . وكثيراً ما يعترف ـ بتقدير كبير وفى عدالة واعتدال ـ بتحليلاته اللغوية ، ونكاته البلاغية .

فمثلا عندما تعقب تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٩١) من سورة الأنعام : « وما قدروا الله حق قدره إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شىء قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نوراً وهدى للناس تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم قل الله ثم ذرهم فى خوضهم يلعبون » نجده يقول : وهذا أيضا من دقة نظره فى الكتاب العزيز والعمق فى آثار معادنه ، وإبراز محاسنه اهـ من الانتصاف « هامش الكشاف ج ١ ص ٤٦٠ ط أميرية سنة ١٩١٨ » .

وفى سورة يونس عند قوله تعالى فى الآية (١١) « ولو يجعل الله للناس

---

(١) الإنتصاف هامش الكشاف ج ١ ص ٥٧٢

الشر استعجالهم بالخير ... الآية ، نجده يثنى على تفسيره لها فيقول : وهذا أيضاً من تنبيهات الزمخشرى الحسنة التى تقوم على دقة نظره اه[١]

وفى سوره هود عند قوله تعالى فى الآية (٩١) « قالوا يا شعيب ما نفقه كثيرا مما تقول وإنا لنراك فينا ضعيفا ولولا رهطك لرجمناك وما أنت علينا بعزيز » أثنى على تفسيره لقوله : « وإنا لنراك فينا ضعيفاً » . فقال : وهذا من محاسن نكته الدالة على أنه كان ملياً بالحذاقة فى علم البيان اه[٢] .

وعندما بين الزمخشرى سر التعبير بقوله تعالى فى الآية (٥١) من سورة النحل : « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين ... » قال ابن المنير معترفا بدقة الزمخشرى وبراعته : وهذا الفصل من حسناته التى لا يدافع عنها اه[٣] .

ومع كل هذا الاعتراف ، فإن ابن المنير يلاحظ على الزمخشرى — أحيانا — أنه سيء النية فيما يقول ، فمن ذلك أن الزمخشرى لما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الرعد : « وجعلوا لله شركاء قل سموهم أم تنبئونه بما لا يعلم فى الأرض أم بظاهر من القول ... » وختم تفسيره للآية بقوله : « وهذا الاحتجاج وأساليبه العجيبة التى ورد عليها ، مناد على نفسه بلسان طلق ذلق : أنه ليس من كلام البشر لمن عرف وأنصف من نفسه . فتبارك الله أحسن الخالقين) لما قال الزمخشرى هذه المقالة ، لم يتركها ابن المنير تمر بدون أن ينبه على ما فيها فقال : (هذه الخاتمة كلمة حق أراد بها باطلا ، لأنه يعرض فيها بخلق القرآن ، فتنبه لها . وما أسرع المطالع لهذا الفصل أن يمر على لسانه وقلبه ويستحسنه ، وهو غافل عما تحته ، لولا هذا التنبيه والإيقاظ) اه[٤] .

---

(١) الانتصاف : هامش الكشاف ج ١ ص ٥٧٩
(٢) « « « ج ١ ص ٦١١
(٣) « « « ج ١ ص ٦٨٦
(٤) « « « ج ١ ص ٦٥٥

وفى الوقت نفسه لم يترك ابن المنير فرصة تمر بدون أن يكيل للزمخشرى بمثل كيله من الإقذاع فى القول والسخرية به وبأمثاله من المعتزلة ، فنراه يرد هجمات الزمخشرى التى يشنها على أهل السنة بعبارات شديدة يوجهها إلى الزمخشرى وأصحابه ، مع تحقيره له ولهم ، واستبشاعه لتفسيره وتفسيرهم .

فمثلا فى سورة آل عمران عندما تكلم الزمخشرى عن قوله تعالى فى الآية (١٨) « شهد الله أنه لا إله إلا هو ... الآية » ونوه بأنه وأصحابه أهل العدل والتوحيد . وأنهم أولوا العلم المرادون بالآية ، وصرح - أو كاد - بخروج أهل السنة من ملة الإسلام . عند ماتكلم الزمخشرى بهذا كله ، عقب عليه ابن المنير بتهكمه اللاذع ، وسخريته الفاضحة فقال : (وهذا تعريض بخروج أهل السنة من ربقة الإسلام ، بل تصريح ، وما ينقم منهم إلا أن صدقوا وعد الله عباده المكرمين على لسان نبيهم الكريم صلى الله عليه وسلم بأنهم يرون ربهم كالقمر ليلة البدر لا يضامون فى رؤيته ، ولأنهم وحدوا الله حق توحيده « فشهدوا أن لا إله إلا هو » ولا خالق لهم ولأفعالهم إلا هو ، واقتصروا على أن نسبوا لأنفسهم قدرة تقارن فعلهم « لا خلق لها ولا تأثير غير التمييز بين أفعالهم الاختيارية والاضطرارية . وتلك هى المعبر عنها شرعا بالكسب فى مثل قوله تعالى : « بما كسبت أيديهم » .

هذا إيمان القوم وتوحيدهم ، لا كقوم يغيرون فى وجه النصوص ، فيجحدون الرؤية التى يظهر أن جحدهم لها سبب فى حرمانهم إياها ، ويجعلون أنفسهم الخسيسة شريكة لله فى مخلوقاته ، فيزعمون أنهم يخلقون لأنفسهم ما شاءوا من أفعال على خلاف مشيئة ربهم « محادة ومعاندة لله فى ملكه ، ثم بعد ذلك يتسترون بتسمية أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، والله أعلم بمن اتقى ، ولجبر خير من إشراك ، إن كان أهل السنة مجبرة فأنا أول المجبرين .

ولو نظرت أيها الزمخشرى بين الإنصاف إلى جهالة القدرية وضلالها لانبعثت إلى حدائق السنة وظلالها ، ولخرجت من مزالق البدع ومزالها — ولكن كره

الله انبعاثهم ـ ولعلمت أى الفريقين أحق بالأمن ، وأولى بالدخول فى أولى العلم المقرونين فى التوحيد بالملائكة المشرفين بعطفهم على اسم الله عز وجل) اهـ[1] .

وفى سورة المائدة عند قوله تعالى فى الآية (٤١) « .. ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئا أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم .. الآية » نراه يمعن فى السخرية من المعتزلة ، ويغرق فى النكير على تفسير الزمخشرى لهذه الآية . وذلك حيث يقول : (كم يتلجلج والحق أبلج . هذه الآية ـ كما تراها ـ منطبقة على عقيدة أهل السنة فى أن الله تعالى أراد الفتنة من المفتونين، ولم يرد أن يطهر قلوبهم من دنس الفتنة ووضر الكفر ، لا كما تزعم المعتزلة من أنه تعالى ما أراد الفتنة من أحد ، وأراد من كل أحد الإيمان وطهارة القلب ، وأن الواقع من الفتن على خلاف إرادته ، وأن غير الواقع من طهارة قلوب الكفار مراد ، ولكن لم يقع ، فحسبهم هذه الآية وأمثالها لو أراد الله أن يطهر قلوبهم من وضر البدع . أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها .

وما أبشع صرف الزمخشرى هذه الآية عن ظاهرها بقوله : لم يرد الله أن يمنحهم ألطافه ، لعلمه أن ألطافه لا تنجع فيهم ولا تنفع ، فلطف من ينفع ؟ وإرادة من تنجع ؟ وليس وراء الله للمرء مطمع)[2] اهـ

ولقد يتطرف ابن المنير فيرمى خصومه من المعتزلة بالشرك ، ففى سورة يونس عند تفسير الزمخشرى لقوله تعالى فى الآية (٣١) « قل من يرزقكم من السماء والأرض ... الآية » نرى ابن المنير يقول . وهذه الآية كافحة لوجوه القدرية ، الزاعمين أن الأرزاق منقسمة ، فمنها ما رزقه الله للعبد وهو الحلال ،

---

(١) الانتصاف هامش الكشاف ج ١ ص ٢٩٨

(٢) الانتصاف هامش الكشاف ج ١ ص ٤١٦

ومنها ما رزقه العبد لنفسه وهو الحرام ، وهذه الآية ناعية عليهم هـذا الشرك الخفى لو سمعوا « أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون »[1] اهـ .

وإنا لنرى ابن المنير يعتمد فى حملاته الساخرة القاسية التى يحملها على الزمخشرى ، على ما يعتمد عليه الزمخشرى فى حملاته على أهل السنة ، أو على الأصح ، يأخذ من كلام الزمخشرى نفسه ما يبرر به موقفه الذى وقفه منه للرد على اعتزالاته ، فحيث يقول الزمخشرى فى تفسير قوله تعالى فى الآية (٧٣) من سورة التوبة « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » : « جاهد الكفار » بالسيف « والمنافقين » بالحجة « واغلظ عليهم » فى الجهادين جميعاً ولا تحابهم . وكل من وقف منه على فساد فى العقيدة فهذا الحكم ثابت فيه ، يجاهد بالحجة ، وتستعمل معه الغلظة ما أمكن ....»[2] عندما يقول الزمخشرى هذا ، ويرمى من ورائه إلى أن الآية شاملة لخصومه من أهل السنة ، نرى ابن المنير يستغل هـــذا الكلام لنفسه ويقلبه على خصمه المعتزلى فيقول : الحمد لله الذى أنطقه بالحجة لنا فى إغلاظ عليه أحيانا[3] .

وقد تبدو على ابن المنير علائم البشر ، وتأخذه نشوة الفرح والسرور ، عندما يرى أن الزمخشرى قد ابتعد عن متطرفى المعتزلة ، وخالفهم فى بعض آرائهم ، وأخذ برأى أهل السنة . ومثل هذا نراه واضحاً عند مافسر الزمخشرى قوله تعالى فى الآية « ١٨٥ » من سورة آل عمران « كل نفس ذائقة الموت وإنما توفون أجوركم يوم القيامة فمن زحزح عن النار وأدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » حيث قال فى تفسير هذه الآية : (فإن قلت) كيف اتصل به — أى بقوله كل نفس ذائقة الموت — « وإنما توفون أجوركم » (قلت) اتصاله به على أن كلكم تموتون ، ولا بد لكم من الموت ، ولا توفون

---

(١) الانتصاف هامش الكشاف ج ١ ص ٥٨١ .

(٢) الكشاف ج ١ ص ٥١٦ .

(٣) الانتصاف هامش الكشاف ج ١ ص ٥٦١

أجوركم على طاعاتكم ومعاصيكم عقب موتكم ، وإنما توفونها يوم قيامكم من القبور . (فإن قلت) فهذا يوهم نفى ما يروى أن القبر روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار (قلت) كلمة التوفية تزيل هذا الوهم ؛ لأن المعنى أن توفية الأجور وتكميلها يكون ذلك اليوم ، وما يكون قبل ذلك فبعض الأجور[1]) اهـ .

وهنا نرى ابن المنير يعترف بأن الزمخشرى قد أحسن فى مخالفته لأصحابه من المعتزلة ، وموافقته لأهل السنة ، فيقول : هذا — كما ترى — صريح فى اعتقاده حصول بعضها قبل يوم القيامة ، وهو المراد بما يكون فى القبر من نعيم وعذاب ، ولقد أحسن الزمخشرى فى مخالفة أصحابه فى هذه العقيدة ؛ فإنهم يجحدون عذاب القبر ، وها هو قد اعترف به اهـ[2] .

موقف الزمخشرى من المسائل الفقهية :

هذا ، وإن الزمخشرى — رحمه الله — يتعرض إلى حد ما ، وبدون توسع إلى المسائل الفقهية التى تتعلق ببعض الآيات القرآنية ، وهو معتدل لا يتعصب لمذهبه الحنفى .

ففى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية « ٢٢٢ » ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين » يقول (.... وبين الفقهاء خلاف فى الاعتزال : فأبو حنيفة وأبو يوسف يوجبان اعتزال ما اشتمل عليه الإزار . ومحمد بن الحسن لا يوجب إلا اعتزال الفرج وروى محمد حديث عائشة رضى الله عنها : أن عبد الله بن عمر سألها : هل يباشر

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٣٣٩ .

(٢) الانتصاف هامش الكشاف جـ ١ ص ٢٣٩

الرجل امرأته وهى حائض ؟ فقالت : تشد إزارها على سفلتها ، ثم ليباشرها إن شاء ، وما روى زيد بن أسلم : أن رجلا سأل النبى صلى الله عليه وسلم : ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال لتشد عليها إزارها ، ثم شأنك بأعلاها ثم قال : وهذا قول أبى حنيفة ، وقد جاء ما هو أرخص من هذا عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت: (يجتنب شعار الدم وله ماسوى ذلك). وقرىء يطّهرن بالتشديد ، أى يتطهرن، بدليل قوله «فإذا تطهرن» وقرأ عبد الله: حتى يتطهّرن ويَطْهرن بالتخفيف . والتطهر الاغتسال ، والطهر انقطاع دم الحيض. وكلتا القراءتين مما يجب العمل به ، فذهب أبو حنيفة إلى أن له أن يقربها فى أكثر الحيض بعد انقطاع الدم وإن لم تغتسل. وفى أقل الحيض لا يقربها حتى تغتسل أو يمضى عليها وقت صلاة. وذهب الشافعى إلى أنه لا يقربها حتى تَطْهر وتطّهر فتجمع بين الأمرين ، وهو قول واضح ، ويعضده قوله « فإذا تطهرن »[1] اهـ

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية « ٢٣٧ » من سورة البقرة « ... إلا أن يعفون أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح ... » قال: والذى بيده عقدة النكاح الولى ، يعنى إلا أن تعفو المطلقات عن أزواجهن فلا يطالبنهم بنصف المهر ، وتقول المرأة ما رآنى ، ولا خدمته ، ولا استمتع بى ، فكيف آخذ منه شيئاً . أو يعفو الولى الذى يلى عقد نكاحهن ، وهو مذهب الشافعى. وقيل هو الزوج وعفوه أن يسوق إليها المهر كاملا ، وهو مذهب أبى حنيفة . والأول ظاهر الصحة ... اهـ[2]

وفى سورة الطلاق عند قوله تعالى فى الآية(١) «يا أيها النبى إذا طلقتم النساء فطلقوهن لعدتهن وأحصوا العدة ... » يقول ما نصه : فطلقوهن مستقبلات لعدتهن ، كقولك : أتيته لليلة بقيت من المحرم ، أى مستقبلا لها . وفى قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى قبل عدتهن ، وإذا طلقت المرأة فى الطهر المتقدم للقرء الأول من أقرائها فقد طلقت مستقبلة لعدتها .

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٦٤ .

(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٧٢ .

والمراد أن يطلقن فى طهر لم يجامعن فيه ، ثم يخلين حتى تنقضى عدتهن ، وهذا أحسن الطلاق ، وأدخله فى السنة ، وأبعـده من الندم ، ويدل عليه ماروى عن إبراهيم النخعى : أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا يستحبون ألا يطلقوا أزواجهم للسنّـة إلا واحدة ، ثم لا يطلقوا غير ذلك حتى تنقضى العدة ، وكان أحسن عندهم من أن يطلق الرجل ثلاثا فى ثلاثة أطهار . وقال مالك بن أنس رضى الله عنه : لا أعرف طلاق السنة إلا واحدة ، وكان يكره الثلاث مجموعة كانت أو منفرقة .

وأما أبو حنيفة وأصحابه فإنما كرهوا مازاد على الواحدة فى طهر واحد ، فأما مفرقا فى الأطهار فلا ؛ لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لابن عمر حيث طلق امرأته وهى حائض:ماهكذا أمرك الله ، إنمـا السنة أن تستقبل الطهر استقبالا ، وتطلقها لـكل قرء تطليقة . وروى أنه قال لعمر : مر ابنك فليراجعها ، ثم ليدعها حتى تحيض ثم تطهر ، ثم ليطلقها إن شاء ، فتلك العدة التى أمر الله أن تطلق لها النساء .

وعند الشافعى رضى الله عنه لا بأس بإرسال الثلاث ، وقال : لا أعرف فى عدد الطلاق سنة ولا بدعة ، وهو مباح .

فمالك يراعى فى طلاق السنة الواحدة والوقت.وأبو حنيفة يراعى التفريق والوقت . والشافعى يراعى الوقت وحده اهـ(١) .

موقف الزمخشرى من الإسرائيليات :

ثم إن الزمخشرى مقل من ذكر الروايات الإسرائيلية،وما يذكره من ذلك إما أن يصدره بلفظ روى ، المشعر بضعف الرواية وبعدها عن الصحة ، وإما أن يفوض علمه إلى الله سبحانه ، وهذا فى الغالب يكون عند ذكره للروايات

(١) الـكشاف جـ ٢ ص ٤٦٦ .

التى لا يلزم من التصديق بها مساس بالدين ، وإما أن ينبه على درجة الرواية ومبلغها من الصحة أو الضعف ولو بطريق الإجمال ، وهذا فى الغالب يكون عند الروايات التى لها مساس بالدين وتعلق به .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النمل « وإنى مرسلة إليهم بهدية ... الآية » نجده يذكر هذه الرواية فيقول : روى أنها بعثت خمسمائة غلام عليهم ثياب الجوارى ، وحليهن الأساور والأطواق والقرطة ، راكبى خيل مغشاة بالديباج محلاة اللجم والسروج بالذهب المرصع بالجواهر ، وخمسمائة جارية على رماك فى زى الغلمان ، وألف لبنة من ذهب وفضة ، وتاجا مكللا بالدر والياقوت المرتفع والمسك والعنبر ، وحقا فيه درة عذراء وجزعة معوجة الثقب ، وبعثت رجلين من أشراف قومها : المنذر بن عمرو ، وآخر ذا رأى وعقل ، وقالت : إن كان نبيا ميز بين الغلمان والجوارى ، وثقب الدرة ثقبا مستويا ، وسلك فى الخرزة خيطا . ثم قالت للمنذر : إن نظر إليك نظر غضبان فهو ملك . فلا يهولنك ، وإن رأيته بشا لطيفا فهو نبى . فأقبل الهدهد فأخبر سليمان ، فأمر الجن فضربوا لبن الذهب والفضة ، وفرشوه فى ميدان بين يديه طوله سبعة فراسخ ، وجعلوا حول الميدان حائطا شرفه من الذهب والفضة ، وأمر بأحسن الدواب فى البر والبحر فربطوها عن يمين الميدان ويساره على اللبن ، وأمر بأولاد الجن - وهم خلق كثير - فأقيموا على اليمين واليسار ، ثم قعد على سريره والكراسى من جانبيه ، واصطفت الشياطين صفوفا فراسخ ، والأنس صفوفا فراسخ ، والوحش والسباع والهوام والطيور كذلك ، فلما دنا القوم ونظروا بهتوا ، ورأوا الدواب تروث على اللبن فتقاصرت إليهم نفوسهم ورموا بما معهم ، ولما وقفوا بين يديه نظر إليهم بوجه طلق وقال : ما وراءكم ؟ وقال أين الحق ؟ وأخبره جبريل عليه السلام بما فيه ، فقال لهم : إن فيه كذا وكذا ، ثم أمر الأرضة فأخذت شعرة ونفذت فيها فجعل رزقها فى الشجرة ، وأخذت دودة بيضاء الخيط بفيها ونفذت فيها فجعل رزقها فى الفواكه ، ودعا بالماء فكانت الجارية تأخذ الماء بيدها فتجعله فى الأخرى ثم تضرب به وجهها .

والغلام كما يأخذه يضرب به وجهه ، ثم رد الهدية وقال للمنذر : ارجع إليهم ، فقالت هو نبي وما لنا به طاقة ، فشخصت إليه فى اثنى عشر ألف قَيْلٍ تحت كل قَيْلٍ ألوف . اهـ[1] .

وفى سورة القصص عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٨) : وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيرى فأوقد لى ياهامان على الطين فاجعل لى صرحا ... الآية » قال : روى أنه لما أمر ببناء الصرح ، جمع هامان العمال حتى اجتمع خمسون ألف بناء سوى الأتباع والأجراء ، وأمر بطبخ الآجر والجص ونجر الخشب وضرب المسامير ، فشيده حتى بلغ مالم يبلغه بنيان أحد من الخلق ، فكان البانى لا يقدر أن يقوم على رأسه يبنى ، فبعث الله تعالى جبريل عليه السلام عند غروب الشمس فضربه بجناحه فقطعه ثلاث قطع ، وقعت قطعة على عسكر فرعون فقتلت ألف ألف رجل ، ووقعت قطعة فى البحر ، وقطعة فى المغرب ولم يبق أحد من عماله إلا قد هلك . ويروى فى هذه القصة أن فرعون ارتقى فوقه فرمى بنشابه إلى السماء ، فأراد الله أن يفتنهم ، فردت إليه ملطوخة بالدم ، فقال : قد قتلت إله موسى ، فعندها بعث الله جبريل عليه السلام لهدمه والله أعلم بصحته . اهـ[2] .

فالقصة الأولى صدرها الزمخشرى بلفظ « روى » المشعر بضعفها . والقصة الثانية صدرها أيضاً بهذا اللفظ وعقب عليها بقوله « والله أعلم بصحته » مما يدل على أنه متشكك فى صحة هذه الرواية . وكلتا القصتين على فرض صحتهما لا مطعن فيهما ولا مغمز من ورائهما يلحق الدين ، ولهذا اكتفى الزمخشرى بما ذكر فى حكمه عليهما .

وفى سورة « ص » عند تفسيره لقوله تعالى « وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب . . . » الآيات (٢١) وما بعدها إلى آخر القصة نراه يقول : (كان أهل

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ١٤٤

(٢) الكشاف ج ٢ ص ١٦٢

زمان داود عليه السلام يسأل بعضهم بعضاً أن ينزل له عن امرأته فيتزوجها إذا أعجبته ، وكانت لهم عادة فى المواساة بذلك قد اعتادوها - وقد روينا أن الأنصار كانوا يواسون المهاجرين بمثل ذالك - فاتفق أن عين داود وقعت على امرأة رجل يقال له أوريا فأحبها ، فسأله النزول له عنها ، فاستحيا أن يرده ، ففعل ، فتزوجها -وهى أم سليمان- فقيل له : إنك مع عظيم منزلتك ، وارتفاع مرتبتك وكبر شأنك ، وكثرة نسائك ، لم يكن ينبغى لك أن تسأل رجلا ليس له إلا امرأة واحدة النزول ، بل كان الواجب عليك مغالبة هواك ، وقهر نفسك ، والصبر على ما امتحنت به . وقيل خطبها اوريا ثم خطبها داود فآثره أهلها ؛ فكان ذنبه أن خطب على خطبة أخيه المؤمن مع كثرة نسائه .

وأما ما يذكر أن داود عليه السلام ، تمنى منزلة آبائه إبراهيم وإسحق ويعقوب ، فقال : يارب ، إن آبائى قد ذهبوا بالخير كله ، فأوحى إليه أنهم ابتلو ببلايا فصبروا عليها ، قد ابتلى إبراهيم بنمروذ وذبح ولده ، وإسحق بذبحه وذهاب بصره ، ويعقوب بالحزن على يوسف ، فسأل الابتلاء ، فأوحى الله إليه : إنك لمبتلى فى يوم كذا وكذا فاحترس ، فلما حان ذلك اليوم ، دخل محرابه ، وأغلق بابه ، وجعل يصلى ويقرأ الزبور ، فجاء الشيطان فى صورة حمامة من ذهب ، فمد يده ليأخذها لابن له صغير فطارت ، فامتد إليها فطارت ، فوقعت فى كوة فتتبعها ، فأبصر امرأة جميلة قد نقضت شعرها فغطى بدنها ، وهى امرأة أوريا ، وهو من غزاة البلقاء ، فكتب إلى أيوب بن صوريا — وهو صاحب بعث البلقاء — أن ابعث أوريا وقدمه على التابوت — وكان من يتقدم لا يحل له أن يرجع حتى يفتح الله على يده أو يستشهد — ففتح الله على يده وسلم ، فأمر برده مرة أخرى وثالثة حتى قتل ، فأتاه خبر قتله فلم يحزن كما يحزن على الشهداء ، وتزوج امرأته . فهذا ونحوه ، مما لا يصح أن يحدث به عن بعض المتسمين بالصلاح من أفناء المسلمين ، فضلا عن بعض أعلام الأنبياء . وعن سعيد بن المسيب والحارث الأعور : أن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : من حدثكم بحديث داود على ما يرويه القصاص ، جلدته مائة وستين جلدة ، وهو حد الفرية على الأنبياء .

وروى أنه حدّث بذلك عمر بن عبد العزيز وعنده رجل من أهل الحق فكذب المحدث به وقال: إن كانت القصة على ما فى كتاب الله فما ينبغى أن يلتمس خلافها، وأعظم بأن يقال غير ذلك، وإن كان كما ذكرت وكف الله عنها سترا على نبيه، فما ينبغى إظهارها عليه، فقال عمر: لسماعى هذا الكلام أحب إلى مما طلعت عليه الشمس. والذى يدل عليه المثل الذى ضربه الله لقصته عليه السلام ليس إلا طلبه إلى زوج المرأة أن ينزل عنها فحسب) اهـ [1].

فأنت ترى أن الزمخشرى يرتضى قصة النزول عن الزوجة، وقصة الخطبة على الخطبة، ولا يرى فى ذلك إخلالا بعصمة داود، ولا مساساً بمقام النبوة، ويمثل قصة النزول بما كان من تنازل الأنصار للمهاجرين عن أزواجهم فى مبدأ الهجرة، ويرى أن الآية تدل على ذلك، ولكنه يستنكر القصة الأخيرة، ويذكر من الأخبار ما يؤكد استبعادها، وذلك لأنه يرى فيها — لو صحت — إخلالا بمقام النبوة، وهدما لعصمة نبى الله داود عليه السلام.

كذلك نرى الزمخشرى فى السوره نفسها عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) «ولقد فتنا سليمان وألقينا على كرسيه جسداً ثم أناب» يقول (قيل فتن سليمان بعد ما ملك عشرين سنة، وملك بعد الفتنة عشرين سنة. وكان من فتنته، أنه ولد له ابن فقالت الشياطين: إن عاش لم ننفك من السخرة، فسبيلنا أن نقتله أو نخبله، فعلم. فكان يغذوه فى السحاب. فما راعه إلا أن ألقى على كرسيه ميتاً، فتنبه على خطئه فى أن لم يتوكل فيه على ربه، فاستغفر ربه وتاب إليه. وروى عن النبى صلى الله عليه وسلم (قال سليمان: لأطوفن الليلة على سبعين امرأة، كل واحدة تأتى بفارس يجاهد فى سبيل الله، ولم يقل إن شاء الله فطاف عليهن فلم يحمل إلا امرأة واحدة، جاءت بشق رجل والذى نفسى بيده لو قال: إن شاء الله لجاهدوا فى سبيل الله فرسانا أجمعون). فذلك قوله تعالى «ولقد فتنا سليمان». وهذا ونحوه مما لا بأس به.

---

(١) الكشاف ج ٢ ص ٢٧٩ — ٢٨٠

وأما ما يروى من حديث الخاتم والشيطان وعبادة الوثن فى بيت سليمان فالله أعلم بصحته . حكوا أن سليمان بلغه خبر صيدون ، وهى مدينة فى بعض الجزائر ، وأن بها ملكا عظيم الشأن لا يقوى عليه لتحصنه بالبحر ، فخرج إليه تحمله الريح حتى أناخ بجنوده من الجن والإنس فقتل ملكها ، وأصاب بنتا له اسمها جرادة ، من أحسن الناس وجها ، فاصطفاها لنفسه ، وأسلمت ، وأحبها . وكانت لا يرقأ دمعها على أبيها ، فأمر الشياطين فمثلوا لها صورة أبيها فكستها مثل كسوته ، وكانت تغدو إليها وتروح مع ولائدها يسجدن له كعادتهن فى ملكه ، فأخبر آصف سليمان بذلك ، فكسر الصورة ، وعاقب المرأة ، ثم خرج وحده إلى فلاة وفرش له الرماد فجلس عليه تائباً إلى الله متضرعاً . وكانت له أم ولد يقال لها أمينة إذا دخل للطهارة أو لإصابة امرأة وضع خاتمه عندها — وكان ملكه فى خاتمه — فوضعه عندها يوما ، وأتاها الشيطان صاحب البحر — وهو الذى دل سليمان على الماس حين أمر ببناء بيت المقدس ، واسمه صخر — على صورة سليمان فقال : يا أمينة ، خاتمى ، فتختم به وجلس على كرسى سليمان ، وعكفت عليه الطير والجن والإنس ، وغير سليمان من هيئته ، فأتى أمينة لطلب الخاتم فأنكرته وطردته ، فعرف أن الخطيئة قد أدركته ، فكان يدور على البيوت يتكفف ، فإذا قال : أنا سليمان حثوا عليه التراب وسبوه ، ثم عمد إلى السماكين ينقل لهم السمك فيعطونه كل يوم سمكتين فمكث على ذلك أربعين صباحاً عدد ما عبد الوثن فى بيته ، فأنكر آصف وعظماء بنى إسرائيل حكم الشيطان ، وسأل آصف نساء سليمان ، فقلن : ما يدع امرأة منا فى دمها ولا يغتسل من جنابة . وقيل بل نفذ حكمه فى كل شىء إلا فيهن . ثم طار الشيطان وقذف الخاتم فتختم به ووقع ساجداً ، ورجع إليه ملكه ، وجاب صخرة لصخر فجعله فيها ، وسد عليه بأخرى ، ثم أوثقها بالحديد والرصاص وقذفه فى البحر . وقيل : لما افتتن كان يسقط الخاتم من يده لا يتماسك فيها ، فقال له آصف : إنك لمفتون بذنبك ، والخاتم لا يقر فى يدك ، فتب إلى الله عز وجل . ولقد أبى العلماء المتقنون قبوله ، وقالوا : هذا

من أباطيل اليهود ، والشياطين لا يتمكنون من فعل هذه الأفاعيل : وتسليط الله إياهم على عباده حتى يقعوا فى تغيير الأحكام ، وعلى نساء الأنبياء حتى يفجروا بهن قبيح . وأما اتخاذ التماثيل فيجوز أن تختلف فيه الشرائع ، ألا ترى إلى قوله « من محاريب وتماثيل[١] » . وأما السجود للصورة فلا يظن بنبي الله أن يأذن فيه ، وإذا كان بغير علمه فلا عليه)[٢] اهـ .

وجلى أن الزمخشرى قد صرح بجواز الروايتين (الأولى والثانية) ورأى أنه لا بأس من وقوع إحداهما ، ولكنه فند الرواية الأخيرة — رواية صخر المارد — وبين أنها تذهب بعصمة الأنبياء ، ولا تتفق وقواعد الشريعة .

. . . . وهكذا لم يقع الزمخشرى فيما وقع فيه غيره من المفسرين من الاغترار بالقصص الإسرائيلى والأخبار المختلفة المصنوعة[٣] ، وهذه محمدة أخرى لهذا المفسر الكبير تحمد له ويشكر عليها .

وبعد . . . فهذه الكتب الثلاثة : تنزيه القرآن عن المطاعن ، وأمالى الشريف المرتضى ، وكشاف الزمخشرى ، هى كل ماوصل إلى أيدينا من تراث المعتزلة ومؤلفاتهم فى التفسير ، وهى وإن كانت قليلة بالنسبة لما لم تنله أيدينا من تفاسير المعتزلة ، يمكن أن تكون تعويضا مقبولا إلى حد كبير عن التفاسير التى طوتها يد النسيان ، وأدرجتها فى غضون الزمن السحيق . وهى بعد ذلك تعتبر أثراً خالداً ومهماً ، لا فى تاريخ التفسير الاعتزالى فقط ، بل فيه ، وفى تاريخ الأدب العربى كذلك ؛ لما تشتمل عليه من بحوث أدبية قيمة ، تلقى لنا ضوءاً على ما كان بين الأدب والتفسير من تأثر كل منهما بالآخر وتأثيره فيه . والله أعلم .

انتهى الجزء الأول ، ويليه الجزء الثانى بعون الله
وأوله : الشيعة ، وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

---

(١) فى الآية ١٣ من سورة سبأ . (٢) الكشاف جـ ٢ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .
(٣) وإن كان قد اغتر بالأحاديث الموضوعة فى فضائل السور فضمنها تفسيره .

الفهرس العام

للجزء الأول

ص الموضوع

ص	الموضوع

الباب الثالث

(المرحلة الثالثة للتفسير ، أو التفسير فى عصور التدوين . تمهيد فى ابتداء هذه المرحلة ـ الخطوات التى تدرج فيها)

ص	الموضوع

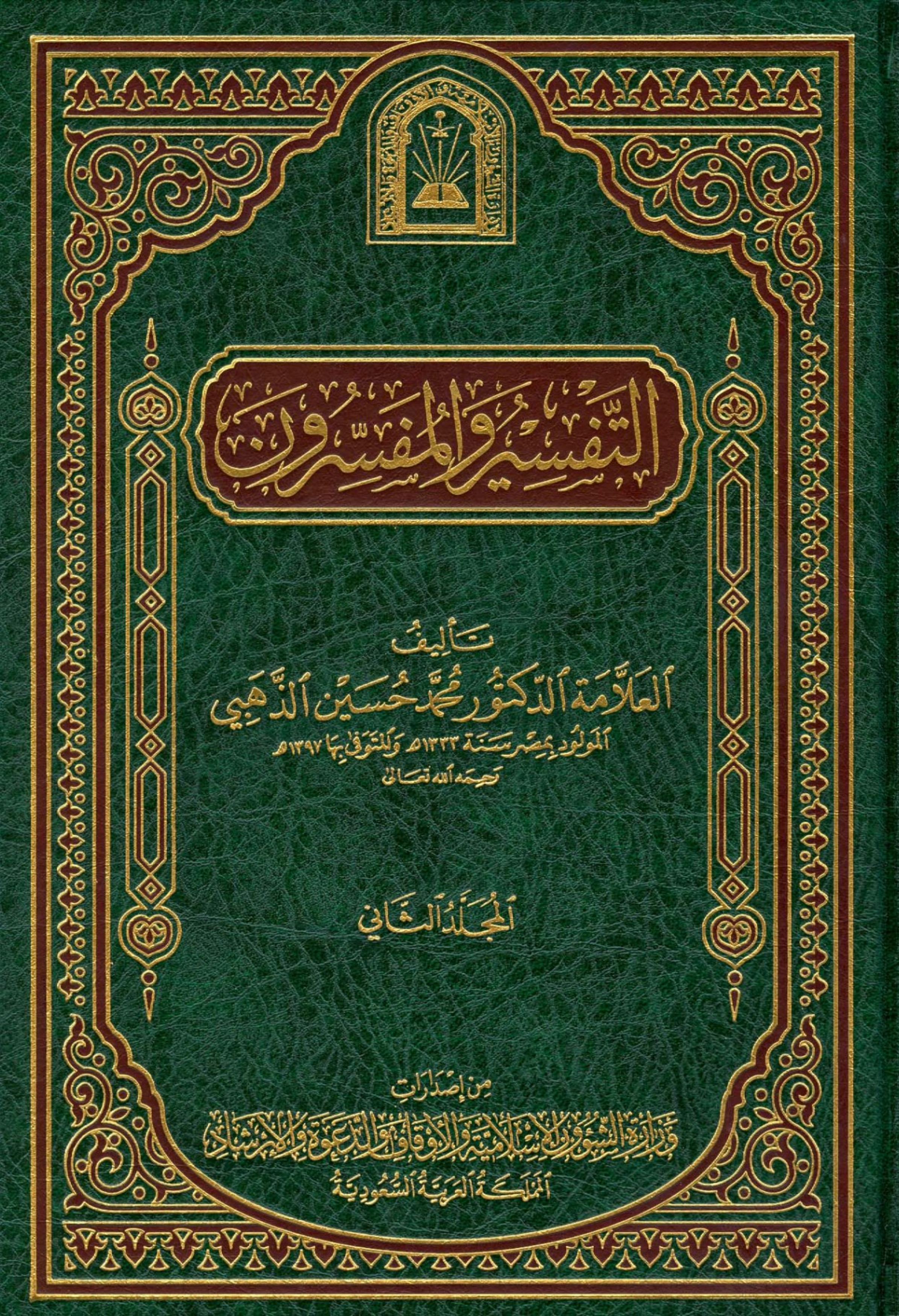
ص الموضوع

ص	الموضوع

ص	الموضوع

ص	الموضوع

﴿ انتهى ﴾



التفسير والمفسرون
تأليف
العلامة الدكتور محمد حسين الذهبي
المولود بمصر سنة ١٣٣٣هـ والمتوفى بها ١٣٩٧هـ
رحمه الله تعالى
المجلد الثاني
من إصدارات
وزارة الشؤون الإسلامية والأوقاف والدعوة والإرشاد
المملكة العربية السعودية

طَبْعَةٌ خَاصَّةٌ لِـ
وِزَارَةِ الشُّؤُونِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالأَوْقَافِ وَالدَّعْوَةِ وَالإِرْشَادِ
المَمْلَكَةُ العَرَبِيَّةُ السُّعُودِيَّةُ
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

قَامَتْ بِالإِشْرَافِ عَلَى الطِّبَاعَةِ
دَارُ النَّوَادِرِ
شَرِكَةُ دَارِ النَّوَادِرِ الكُوَيْتِيَّةِ - ذ.م.م - الكُوَيْت
الكويت - حولي - ص. ب: ٣٢٠٤٦ - هاتف: ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس: ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

الشيعة

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الشيعة وعقائدهم :

الشيعة فى الأصل ، هم الذين شايعوا عليا وأهل بيته ووالوهم ، وقالوا : إن عليا هو الإمام بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن الخلافة حق له ، استحقها بوصية من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى لا تخرج عنه فى حياته، ولا عن أبنائه بعد وفاته ، وإن خرجت عنهم فذلك يرجع إلى واحد من أمرين :

أحدهما : أن يغتصب غاصب ظالم هذا الحق لنفسه .

ثانيهما : أن يتخلى صاحب الحق عنه فى الظاهر ، تقية منه، ودرءاً للشر عن نفسه وعن أتباعه .

وهذا المذهب الشيعى، من أقدم المذاهب الإسلامية ، وقد كان مبدأ ظهوره فى آخر عهد عثمان رضى الله عنه[1] ثم نما واتسع على عهد على رضى الله عنه، إذ كان كلما اختلط رضى الله عنه بالناس تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة ، مما يظهر لهم من قوة دينه ، ومكنون علمه ، وعظيم مواهبه . فاستغل الدعاة كل هذا الإعجاب وأخذوا ينشرون مذهبهم بين الناس .

ثم جاء عصر بنى أمية وفيه وقعت المظالم على العلويين، ونزلت بهم محن قاسية، أثارت كامن المحبة لهم ، وحركت دفين الشفقة عليهم، ورأى الناس فى على وذريته شهداء هذا الظلم الأموى ، فاتسع نطاق هذا المذهب الشيعى وكثر أنصاره . ويظهر لنا أن هذا الحب لعلى وأهل بيته ، وتفضيلهم على من سواهم ، ليس بالأمر الذى جد وحدث بعد عصر الصحابة، بل وجد من الصحابة من كان يحب

---

(١) وقيل عند انتخاب الخليفة الأول بعد وفاة رسول الله صلى عليه وسلم .

عليا ويرى أنه أفضل من سائر الصحابة ، وأنه أولى بالخلافة من غيره ، كعمار ابن ياسر ، والمقداد بن الأسود ، وأبى ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ، وجابر ابن عبد الله . . . وغيرهم كثير .

غير أن هذا الحب والتفضيل لم يمنع أصحابه من مبايعة الخلفاء الذين سبقوا عليا رضى الله عنه ؛ لعلمهم أن الأمر شورى بينهم، وأن صلاح الإسلام والمسلمين لابد له من شمل متحد وكلمة مجموعة ، كما أن الأمر لم يصل بهم إلى القول بالمبدأ الذى تكاد تتفق عليه كلمة الشيعة ، ويرونه قوام مذهبهم وعقيدتهم وهو « أن الإمامة ليست من مصالح العامة التى تفوض إلى نظر الأمة ، ويعين القائم بها بتعيينهم ، بل هى ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبى إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة ، بل يجب عليه تعيين الإمام لهم ، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر ، وأن عليا رضى الله عنه ، هو الذى عينه رسول الله صلوات الله وسلامه عليه » (1)

لم يكن الشيعة جميعاً متفقين فى المذهب ، والعقيدة، بل تفرقت بهم الأهواء فانقسموا إلى فرق عدة ، يرجع أساس اختلافها وانقسامها إلى عاملين قويين، كان لهما كل الأثر تقريبا فى تعدد فرق الشيعة وتفرق مذاهبهم :

أولهما : اختلافهم فى المبادىء والتعاليم ، فمنهم من تغالى فى تشيعه وتطرف فيه إلى حد جعله يلق على الأئمة نوعا من التقديس والتعظيم ، ويرى كل من خالف عليا وحزبه بالكفر . ومنهم من اعتدل فى تشيعه فاعتقد أحقية الأئمة بالإمامة وخطأ من خالفهم ، ولكن ليس بالخطأ الذى يصل بصاحبه إلى درجة الكفر .

وثانيهما : الاختلاف فى تعيين الأئمة ، وذلك أنهم اتفقوا جميعاً على إمامة على رضى الله عنه ، ثم على إمامة ابنه الحسن من بعده ، ثم على إمامة الحسين من بعد أخيه . ولما قتل الحسين على عهد يزيد بن معاوية تعددت وجهة نظر

---

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٢٩٨ .

الشيعة فيمن يكون الإمام بعد الحسين رضى الله عنه : ففريق يرى أن الخلافة بعد قتل الحسين انتقلت إلى أخيه من أبيه، محمد بن على، المعروف بابن الحنفية، فبايعوه بها .

وفريق ثان، يرى حصر الإمامة فى ولد على من فاطمة، وقد أصبحت بعد قتل الحسين حقا لأولاد الحسن ؛ لأنه أكبر إخوته فلا يؤثر بها غير أولاده، وهم ينتظرون كبرهم ليبايعوا أرشدهم .

وفريق ثالث، يرى مايراه الفريق الثانى من حصرها فى ولد على من فاطمة، غاية الأمر أنه يقول : إن الحسن قد تنازل عنها فسقط حق أولاده فيها، وبقيت الإمامة حقا لأولاد الحسين الذى قتل من أجلها فهم أولى بالانتظار .

بلغ عدد الفرق التى انقسم إليها الشيعة حداً كبيراً من الكثرة، منها من تغالى فى تشيعه وتجاوز بمعتقداته حد العقل والإيمان، ومنها من اعتدل فى تشيعه فلم تبالغ كما بالغ غيرها .

ولست بمستوعب كل هذه الفرق، ولكنى سأقتصر على فرقتين هما : الزيدية، والإمامية (الإثنا عشر والإسماعيلية) ؛ لأنى لم أعثر على مؤلفات فى التفسير لغير هاتين الفرقتين من فرق الشيعة .

الزيدية :

أما الزيدية، فهم أتباع زيد بن على بن الحسين رضى الله عنهم، طمحت نفسه إلى استرداد الخلافة، فخرج على الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ولكن أتباعه خذلوه وتفرقوا عنه فقتل وصلب، ثم أحرق جسده . وقد ورد فى سبب تفرق أصحابه عنه وخذلانهم له « أنه لما اشتد القتال بينه وبين يوسف بن عمر الثقفى عامل هشام بن عبد الملك، قال الذين بايعوه : ماتقول فى أبى بكر وعمر ؟ فقال زيد : أثنى عليهما جدى على، وقال فيها حسناً، وإنما

خروجي على بني أمية ، فإنهم قاتلوا جدي علياً ، وقتلوا جدي حسينا ، فخرجوا عليه ورفضوه ، فسموا رافضة بذلك السبب [١] ، اه .

والزيدية أقرب فرق الشيعة إلى الجماعة الإسلامية ، إذا أنها لم تغل في معتقداتها ، ولم يكفر الأكثرون منها أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم ترفع الأئمة إلى مرتبة الإله أو إلى درجة النبيين .

قوام مذهب الزيدية :

وقوام مذهب زيد وأتباعه إلى ماقبل طرو التغير عليه والتفرق بين أصحابه ، هو ماياتي :

١ — أن الإمام منصوص عليه بالوصف لا بالإسم ، وهذه الأوصاف هي : كونه فاطميا ، ورعا ، سخيا ، يخرج داعيا الناس لنفسه .

٢ — أنه يجوز إمامة المفضول مع وجود من هو أفضل منه بتوفر هذه الصفات فيه .

وبنوا على هذا أنه لو وقع اختيار أولي الحل والعقد على إمام لم تتوفر فيه هذه الصفات مع وجود من تتوفر فيه صحت إمامته ، ولزمت بيعته ، ولهذا قالوا بصحة إمامة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما ، وعدم تكفير الصحابة ببيعتهما .

ولقد كان من مذهب الزيدية جواز خروج إمامين في قطرين مختلفين لا في قطر واحد ، كما كان من مذهبهم أن مرتكب الكبيرة إذا لم يتب فهو مخلد في النار ، وهذا هو عين مذهب المعتزلة . ويظهر أن هذه العقيدة تسربت من المعتزلة إلى الزيدية فقالوا بها كما قالوا بكثير من مبادئهم . والسر في ذلك هو أن زيداً رحمه الله تتلمذ لواصل بن عطاء ، فأخذ عنه آراءه الاعتزالية وقال بها [٢] .

غير أن الزيدية لم يدوموا على وحدتهم المذهبية زمنا طويلا ، بل تفرقوا

---

(١) التبصير في الدين ص ١٨ .

(٢) الملل والنحل للشهرستاني ج ٢ ص ٢٠٨ .

واختلفت عقائدهم . وقد ذكر لنا صاحب المواقف أنهم تفرقوا إلى ثلاث فرق، وذكر لكل فرقة خصائصها ومميزاتها وعقائدها[١] ، ولا نطيل بذكر ذلك . ومن أراد الوقوف عليه فليرجع إليه فى موضعه .

الإمامية[٢] :

أما الإمامية فهم القائلون بأن النبى صلى الله عليه وسلم نص على إمامة على رضى الله عنه نصا ظاهرا ، لا بطريق التعريض بالوصف كما يقول الزيدية ، كما أنهم يحصرون الإمامة بعد على فى ولده من فاطمة رضى الله عنها .

وأصحاب هذا المذهب قد بالغوا فى تشيعهم، وتعدوا حدود العقل والشرع، فكفروا الكثير من الصحابة ، واعتبروا أبا بكر وعمر مغتصبين للخلافة ظالمين لعلى رضى الله عنه ، فأوجبوا التبرؤ منهما ، ولم يسلم من هذا التطرف إلا نفر قليل ، كالعلامة الطبرسى صاحب التفسير .

وقد اتفق الإمامية على إمامة على رضى الله عنه ، ثم انتقلت الإمامة إلى ابنه الحسن بالوصية له من أبيه ، ثم إلى أخيه الحسين من بعده ، ثم إلى ابنه على زين العابدين ، ثم إلى ابنه محمد الباقر ، ثم إلى ابنه جعفر الصادق ، ثم اختلفوا بعد ذلك فى سوق الإمامة ، وانقسموا إلى فرق عدة أشهرها فرقتان : الإمامية الإثنا عشرية والإماميه الإسماعيلية .

الإمامية الإثنا عشرية :

أما الإمامية الإثنا عشرية ، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه موسى الكاظم ، ثم إلى ابنه على الرضا ، ثم إلى ابنه محمد الجواد ، ثم إلى ابنه على الهادى ، ثم إلى ابنه الحسن العسكرى ، ثم إلى ابنه محمد المهدى المنتظر

---

(١) المواقف ج ٨ ص ١٠ .

(٢) الإمامية : نسبة إلى الإمام لأنهم أكثروا من الاهتمام به ؛ وركزوا كثيراً من تعاليمهم حوله .

وهو الإمام الثانى عشر ، ويزعمون أنه دخل سرداباً فى دار أبيه بسر من رأى ولم يعد بعد ، وأنه سيخرج فى آخر الزمان ، ليملأ الدنيا عدلا وأمناً ، كما ملئت ظلماً وخوفاً .

وهؤلاء قد جاوزوا الحد فى تقديسهم للأئمة ، فزعموا : أن الإمام له صلة روحية بالله كصلة الأنبياء . وقالوا : إن الإيمان بالإمام جزء من الإيمان بالله ، وأن من مات غير معتقد بالإمام فهو ميت على الكفر ، وغير ذلك من اعتقاداتهم الباطله فى الأئمة .

أشهر تعاليم الإمامية الإثنى عشرية :

وأشهر تعاليم الإمامية الإثنى عشرية أمور أربعة : العصمة ، والمهدية ، والرجعة ، والتقية .

أما العصمة : فيقصدون منها أن الأئمة معصومون من الصغائر والكبائر فى كل حياتهم ، ولا يجوز عليهم شىء من الخطأ والنسيان .

وأما المهدية : فيقصدون منها الإمام المنتظر الذى يخرج فى آخر الزمان فيملأ الأرض أمنا وعدلا ، بعد أن ملئت خوفاً وجوراً . وأول من قال بهذا هو كيسان مولى على بن أبى طالب فى محمد بن الحنفية . ثم تسربت إلى طوائف الإمامية ، فكان لكل منها مهدى منتظر(١) .

---

(١) وردت بعض الأحاديث فى شأن المهدى ، رواها الترمذى وأبو داود وابن ماجه وغيرهم ، كقوله عليه السلام « لو لم يبق من الدنيا إلا يوم ؛ لطول الله ذلك حتى يبعث فيه رجلا منى أو من أهل بيتى ؛ يواطىء اسمه اسمى ؛ واسم أبيه اسم أبى » ومثل قوله « لو لم يبق إلا يوم ؛ لبعث الله رجلا من أهل بيتى يملؤها عدلا كما ملئت جورا » وقد وقع بين المسلمين خلاف فى شأن المهدى هذا ؛ فمنهم من يقول به ؛ ومنهم من ينكره ؛ ولكن لم نر من المسلمين من ذهب مذهب الإمامية فى تعيين المهدى ودعواهم أنه الامام الثانى عشر الذى اختفى حيا وسيعود فى آخر الزمان .

وأما الرجعة : فهى عقيدة لازمة لفكرة المهدية ، ومعناها : أنه بعد ظهور المهدى المنتظر ، يرجع النبى صلى الله عليه وسلم إلى الدنيا ، ويرجع على ، والحسن ، والحسين ، بل وكل الأئمة ، كما يرجع خصومهم ، كأبى بكر وعمر ، فيقتص لهؤلاء الأئمة من خصومهم ، ثم يموتون جميعا ، ثم يحيون يوم القيامة .

وأما التقية : فمعناها المداراة والمصانعة ، وهى مبدأ أساسى عندهم ، وجزء من الدين يكتمونه عن الناس ، فهى نظام سرى يسيرون على تعاليمه ، فيدعون فى الخفاء لإمامهم المختفى ويظهرون الطاعة لمن بيده الأمر ، فإذا قويت شوكتهم أعلنوها ثورة مسلحة فى وجه الدولة القائمة الظالمة .

هذه هى أهم تعاليم الإمامية الإثنى عشرية ، وهم يستدلون على كل ما يقولون ويعتقدون بأدلة كثيرة ، غير أنها لا تسلم لهم ، ولا تثبت مدعاهم . ونحن نمسك عنها وعن ردها خوف الإطالة ، وسيمر بك - إن شاء الله تعالى - شىء من ذلك .

الإمامية الإسماعيلية :

وأما الإمامية الإسماعيلية ، فيرون أن الإمامة بعد جعفر الصادق انتقلت إلى ابنه إسماعيل ، بالنص من أبيه على ذلك ، قالوا : وفائدة النص مع أنه مات قبل أبيه هو بقاء الإمامة فى عقبه ، ثم انتقلت الإمامة من إسماعيل إلى ابنه محمد المكتوم ، وهو أول الأئمة المستورين ، وبعده تتابع أئمة مستورون إلى أن ظهر بالدعوة الإمام عبد الله المهدى رأس الفاطميين .

ثم إن هؤلاء الإمامية الإسماعيلية لقبوا بسبعة ألقاب ، وبعض هذه الألقاب أسماء لبعض فرقهم ، وهذه الألقاب هى ما يأتى :

١ — الإسماعيلية : لإثباتهم الإمامة لإسماعيل بن جعفر الصادق كما قلناه .

٢ — الباطنية : لقولهم بالإمام الباطن أى المستور ، أو لقولهم بأن للقرآن ظاهرا وباطنا ، والمراد منه باطنه دون ظاهره .

٣ — القرامطة : لأن أولهم الذى دعا الناس إلى مذهبهم رجل يقال له حمدان قرمط[١] .

٤ — الحرمية : لإباحتهم المحرمات والمحارم .

٥ — السبعية : لأنهم زعموا أن النطقاء بالشرائع سبعة : آدم ، ونوح ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمد ، ومحمد المهدى المنتظر سابع النطقاء ، وبين كل اثنين من النطقاء سبعة أئمة يتممون شريعته ، ولا بد فى كل عصر من سبعة بهم يقتدى وبهم يهتدى .

٦ — البابكية أو الخرمية : لاتباع طائفة منهم بابك الخرمى الذى خرج بأذربيجان .

٧ — المحمرة : للبسهم الحمرة أيام بابك ، أو لتسميتهم المخالفين لهم حميرا[٢] .

هذا وسيأتى بعد ما يكشف لنا عن عقيدة هؤلاء الباطنية ، عندما نتكلم عن موقفهم من تفسير القرآن الكريم .

وقبل أن أخلص من هذه العجالة أسوق لك كلمة أنقلها بنصها عن أبى المظفر الإسفراينى فى كتابه (التبصير فى الدين) قال رحمه الله :

« واعلم أن الزيدية والإمامية منهم ، يكفر بعضهم بعضاً ، والعداوة بينهم قائمة دائمة ، والكيسانية يعدون فى الإمامية ، واعلم أن جميع من ذكرناهم من فرق الإمامية متفقون على تكفير الصحابة ، ويدعون أن القرآن قد غير عما كان ووقع فيه الزيادة والنقصان من قبل الصحابة ، ويزعمون أنه قد كان فيه النص على إمامة على فأسقطه الصحابة منه ، ويزعمون أنه لا اعتماد على القرآن الآن ولا على شىء من الأخبار المروية عن المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ويزعمون

---

(١) قرمط : قرية من قرى واسط ، أو نسبة لقرمطة فى خطوه — وقيل فى خطه وقرمطة الخطا تتابعها .

(٢) المواقف جـ ٨ ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

أنه لا اعتماد على الشريعة التى فى أيدى المسلمين ، وينتظرون إماماً يسمونه « المهدى » يخرج ويعلمهم الشريعة ، وليسوا على شىء من الدين وليس مقصودهم من هذا الكلام تحقيق الكلام فى الإمامة ، ولكن مقصودهم إسقاط كلفة تكاليف الشريعة عن أنفسهم حتى يتوسعوا فى استحلال المحرمات الشرعية ، ويعتذروا عند العوام بما يعدونه من تحريف الشريعة وتغير القرآن من عند الصحابة ، ولا مزيد على هذا النوع من الكفر ، إذ لا بقاء فيه على شىء من الدين[1] » اهـ

(١) التبصير فى الدين ص ٢٤ ، ٢٥ وقد تقدم أن هذا التطرف قد شذ عنه نفر قليل من الإمامية .

موقف الشيعة من تفسير القرآن الكريم

إذا نحن أجلنا النظر فى مذهب الشيعة، وجدنا أصحابه لم يسلموا من التفرق والتحزب والانقسام فى الرأى والعقيدة. فبينما نجد الغلاة الذين رفعوا عليا إلى مرتبة الآلهة فكفروا، نجد المعتدلين الذين يرون عليا أفضل من غيره من الصحابة، وأنه أحق بالولاية وأولى بها من غيره فحسب؛ ونجد من يقف موقفا وسطا بين هؤلاء وهؤلاء، فلا هو يؤله عليا، ولا هو يرى أنه بشر يخطىء ويصيب، بل يرى أنه معصوم، وأنه الخليفة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم غير منازع ولا مدافع وإن غلب على أمره واغتصبت الولاية منه.

ولم يقف أمر الشيعة عند حد الانقسام إلى حزبين أو ثلاثة، بل تفرقت بهم الأهواء - كما قلنا - إلى حد الكثرة فى التحزب، وكان كل حزب له عقيدة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ورأى خاص لا يقول به سواه.

وكان طبيعيا — وكل حزب من هذه الأحزاب يدعى الإسلام، ويعترف بالقرآن ولو فى الجملة — أن يبحث كل عن مستند يستند إليه من القرآن ويحرص كل الحرص على أن يكون القرآن شاهداً له لا عليه، فما وجده من الآيات القرآنية يمكن أن يكون دليلا على مذهبه تمسك به، وأخذ فى إقامة مذهبه على دعامة منه. وما وجده مخالفا لمذهبه حاول بكل ما يستطيع أن يجعله موافقا لا مخالفا، وإن أدى هذا كلها إلى خروج اللفظ القرآنى عن معناه الذى وضع له وسيق من أجله. وإليك طرفا من تأويلات هؤلاء الغلاة:

من تأويلات السبئية[1]:

فمثلا نجد بعض السبئية يزعم أن عليا فى السحاب، وعلى هذا يفسرون

---

(١) السبئية هم أتباع عبد الله بن سبأ اليهودى الذى تظاهر بالاسلام رغلا فى حب على حتى جعله نبيا؛ ثم بالغ فى الغلو حتى جعله إلها. وزعم أنه لم يقتل ولكنه رفع إلى السماء.

الرعد بأنه صوت علي والبرق بأنه لمعان سوطه أو تبسمه ، ولهذا كان الواحد منهم إذا سمع صوت الرعد يقول : عليك السلام يا أمير المؤمنين .

كذلك نجد زعيم السبئية يزعم أن محمداً صلى الله عليه وسلم سيرجع إلى الحياة الدنيا ، وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة القصص : « إن الذى فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد[١] » .

من تأويلات البيانية :

كذلك نجد بيان بن سمعان التميمى زعيم البيانية[٢] ، يزعم أنه هو المذكور فى القرآن بقوله تعالى فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » ويقول : أنا البيان ، وأنا الهدى والموعظة .

كما نراه يزعم أن الله تعالى رجل من نور ، وأنه يفنى كله غير وجهه ، ويتأول على زعمه هذا قوله تعالى فى الآية (٨٨) من سورة القصص . « كل شىء هالك إلا وجهه » وقوله فى الآيتين (٢٦، ٢٧) من سورة الرحمن . « كل من عليها فان ، ويبقى وجه ربك ...[٣] »

من تأويلات المغيرية :

كذلك نجد المغيرة بن سعيد العجلى زعيم المغيرية[٤] يقول : إن الله تعالى

---

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى ص ٢٢٤، وتاريخ الجدل لأبى زهرة ص ١٢٨

(٢) البيانية هم أتباع بيان بن سمعان التميمى ، وهم الذين زعموا أن الامامة صارت من محمد بن الحنفية إلى ابنه أبى هاشم عبد الله بن محمد ، ثم صارت من أبى هاشم إلى بيان ابن سمعان بوصيته إليه . واختلف هؤلاء فى بيان زعيمهم فمنهم من زعم أنه كان نبيا ، وأنه نسخ شريعة محمد صلى الله عليه وسلم . ومنهم من زعم وأنه كان إلها . انتهى من الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ .

(٣) الفرق بين الفرق ص ٢٢٧ – ٢٢٨ .

(٤) المغيرية هم أتباع المغيرة بن سعيد العجلى . وكان يظهر فى بدء أمره موالاة الامامية ثم ادعى النبوة . وادعى أنه يعرف الاسم الأعظم : وزعم أنه يحيي به الموتى ويهزم الجيوش : انتهى من الفرق بين ص ٢٢٩ .

لما أراد أن يخلق العالم تكلم بالإسم الأعظم ، فطار ذلك الاسم ووقع تاجا على رأسه ، وتأول على ذلك قوله تعالى فى الآية (١) من سورة الأعلى « سبح اسم ربك الأعلى » وزعم أن الاسم الأعلى إنما هو ذلك التاج[1] . . .

ويزعم المغيرة أيضا ، أن الله تعالى خلق أظلال الناس قبل أجسادهم، فكان أول ما خلق منها ظل محمد صلى الله عليه وسلم . قال : فذلك قوله فى الآية(٨١) من سورة الزخرف « قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين » . . قال : ثم أرسل ظل محمد إلى أظلال الناس ، ثم عرض على السموات والجبال أن يمنعن على بن أبى طالب من ظالميه فأبين ذلك ، فعرض ذلك على الناس . فأمر عمر أبا بكر أن يتحمل نصرة على ومنعه من أعدائه ، وأن يغدر به فى الدنيا ، وضمن له أن يعينه على الغدر به ، على شريطة أن يجعل له الخلافة من بعده ، ففعل أبو بكر ذلك . قال : فذلك تأويل قوله فى الآية (٧٢) من سورة الأحزاب « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوماً جهولا » فزعم أن الظلوم والجهول أبو بكر .

وتأول فى عمر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة الحشر : « كمثل الشيطان إذ قال للانسان اكفر فلما كفر قال إنى برىء منك . . . » والشيطان عنده عمر[2] .

من تأويلات المنصورية :

وكذلك نجد أبا منصور العجلى زعيم المنصورية[3] والمعروف بالكسف،

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٢٩ .

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٣٠ – ٢٣١ .

(٣) المنصورية هم أتباع أبى منصور العجلى ؛ الملقب بالكسف ؛ الذى زعم أن الامامة دارت فى أولاد على حتى انتهت إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين بن على المعروف بالباقر . وادعى هذا العجلى : أنه خليفة الباقر ثم ألحد فى دعواه فزعم ما نقلناه عنه بالأصل . اهـ من الفرق بين الفرق ص ٢٤٣ .

يزعم أنه عرج به إلى السماء ، وأن الله تعالى مسح بيده على رأسه وقال له : يابنى بلغ عنى ، ثم أنزله إلى الأرض ، وزعم أنه الكسف الساقط من السماء المذكور فى قوله تعالى فى الآية (٤٤) من سورة الطور : « وإن يروا كسفاً من السماء ساقطا يقولوا سحاب مركوم »[١] .

وتأولت هذه الطائفة الجنة بأنها رجل أمرنا بموالاته وهو الإمام ، والنار بالضد، أى رجل أمرنا ببعضه وهو ضد الإمام وخصمه كأبى بكر وعمر. وتأولوا الفرائض والمحرمات فقالوا : الفرائض أسماء رجال أمرنا بموالاتهم ، والمحرمات أسماء رجال أمرنا بمعاداتهم[٢] .

من تأويلات الخطابية :

كذلك نجد من الخطابية[٣] من يتأول الجنة بأنها نعيم الدنيا ، والنار بأنها آلامها[٤] .

ووجدنا منهم من يقول إنه لا مؤمن إلا والله تعالى يوحى إليه ، وعلى هذا المعنى كانوا يتأولون قوله تعالى فى الآية (١٤٥) من سورة آل عمران : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلا » ، ويقولون : إن معناه بوحى من الله ، ويقولون ، إذا جاز أن يوحى إلى النحل كما ورد فى قوله تعالى

---

(١) الفرق بين الفرق ص ٢٣٤ .

(٢) المواقف ج ٨ ص ٣٨٦ .

(٣) الخطابية أتباع أبى الخطاب الأسدى وهم خمس فرق ، يقولون إن الامامة كانت فى أولاد على إلى أن انتهت إلى محمد (الحبيب آخر الأئمه المستورين) ابن جعفر الصادق ويقولون : إن الأئمه كانوا آلهة ؛ وكان أبو الخطاب يقول فى أيامه : إن اولاد الحسن والحسين كانوا أبناء الله وأحباءه ، وكان يقول : إن جعفرا إله ، فلما بلغ ذلك جعفرا لعنه وطرده ، وكان أبو الخطاب يدعى بعد ذلك الألوهية . انتهى من التبصير فى الدين ص ٧٣ — ٧٤ .

(٤) المواقف ج ٨ ص ٣٨٦ .

فى الآية (٦٨) من سورة النحل : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ، لم لا يجوز أن يوحى إلينا[١] .

من تأويلات العبيديين :

كذلك نجد أبا إسحق الشاطبى يذكر لنا عن بعض العلماء : أن عبيد الله الشيعى المسمى بالمهدى ، حين ملك إفريقية واستولى عليها ، كان له صاحبان من كتامة ينتصر بهما على أمره ، وكان أحدهما يسمى بنصر الله ، والآخر يسمى بالفتح فكان يقول لهما : أنتما اللذان ذكركما الله فى كتابه فقال: «إذا جاء نصر الله والفتح» . قالوا : وقد كان عمل ذلك فى آيات من كتاب الله تعالى . فبدل قوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة آل عمران: «كنتم خير أمة أخرجت للناس» بقوله : (كتامة خير أمة أخرجت للناس[٢]) .

فأنت ترى أن هؤلاء الغلاة الذين كفروا بما يعتقدون ، يجدون فى صرف اللفظ القرآنى عن معناه الذى سيق له إلى معنى يتفق مع عقيدتهم ، ويتناسب مع أهوائهم ونزعاتهم ، وهم بعملهم هذا يحملون القرآن ما لا يحتمله ، ويقولون على الله بغير علم ولا برهان .

كذلك نجد الإمامية الإثنى عشرية يميلون بالقرآن نحو عقائدهم ، ويلوونه حسب أهوائهم ومذاهبهم ، وهؤلاء ليس لهم فى تفسيرهم المذهبى مستند صحيح يستندون إليه ، ولا دليل سليم يعتمدون عليه ، وإنما هى أوهام نشأت عن سلطان العقيدة الزائفة ، وخرافات صدرت من عقول عشش فيها الباطل وأفرخ ، فكان ما كان من خرافات وترهات !! .

نعم يعتمد الإمامية الإثنا عشرية فى تفسيرهم للقرآن الكريم ونظراتهم إليه، على أشياء لا تعدو أن تكون من قبيل الأوهام والخرافات التى لا توجد إلا فى عقول أصحابها ، فمن ذلك الذى يعتمدون عليه ما يأتى :

---

(١) التبصير فى الدين ص ٧٤ .

(٢) الموافقات جـ ٣ ص ٣٩٢

أولا : جمع القرآن الكريم وتأويله ، وهو كتاب جمع فيه على رضى الله عنه القرآن على ترتيب النزول (١) .

ثانيا : كتاب أملى فيه أمير المؤمنين عليه السلام ستين نوعا من أنواع علوم القرآن ، وذكر لكل نوع مثالا يخصه . ويعتقدون أنه الأصل لكل من كتب فى أنواع علوم القرآن ، وهم يروون عن على رضى الله عنه هذا الكتاب بطرق عدة ، وهو فى أيديهم إلى اليوم ، ويبلغ ثلاث عشرة ورقة إلا ربعا بالقطع الكبير الكامل ، كل صفحة منها سبعة وعشرون سطرا (٢) .

ثالثا : الجامعة وهى كتاب طوله سبعون ذراعا من إملاء رسول الله صلى الله عليه وسلم وخط على عليه السلام ، مكتوب على الجلد المسمى بالرق فى عرض الجلد ، جمعت الجلود بعضها ببعض حتى بلغ طولها سبعين ذراعا وعدها من مؤلفات على باعتبار أنه كتبها ورتبها من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وإملائه . قالوا : وفيها كل حلال وحرام ، وكل شىء يحتاج الناس إليه حتى الأرش فى الخدش (٣) .

رابعا : الجفر ، وهو غير الجامعة وفيه يقول ابن خلدون : « واعلم أن كتاب الجفر كان أصله أن هارون بن سعد العجلى وهو رأس الزيدية ، كان له كتاب يرويه عن جعفر الصادق ، وفيه علم ما سيقع لأهل البيت على العموم ، ولبعض الأشخاص منهم على الخصوص وقع ذلك لجعفر ونظائره من رجالاتهم ، على طريق الكرامة والكشف الذى يقع لمثلهم من الأولياء ، وكان مكتوبا عند جعفر فى جلد ثور صغير ، فرواه عنه هارون العجلى ، وكتبه ، وسماه : «الجفر» باسم الجلد الذى كتب فيه (٤) ؛ لأن الجفر فى اللغة هو الصغير . وصار هذا

---

(١) أعيان الشيعة ج ١ ص ١٥٤

(٢) المرجع السابق ج ١ ص ١٥٤ — ١٥٥

(٣) المرجع السابق ج ١ ص ١٦٦ — ١٦٨

(٤) المعروف من كتب اللغة أن الجفر ذكر الماعز إذا بلغ أربعة أشهر ، وفى القاموس : الجفر من أولاد الشاء ما عظم واستكرش .

الاسم علما على هذا الكتاب عندهم ، وكان فيه تفسير القرآن وما فى باطنه من غرائب المعانى ، مروية عن جعفر الصادق . وهذا الكتاب لم تتصل روايته ، ولا عرف عينه ، وإنما يظهر منه شواذ من الكلمات لا يصحبها دليل، ولو صح السند إلى جعفر الصادق لكان فيه نعم المستند من نفسه، أو من رجال قومه ؛ فهم أهل الكرامات [١] . . . . ، اهـ .

ويعرف صاحب أعيان الشيعة الجفر بأنه كتاب أملاه رسول الله صلى الله عليه وسلم على على رضى الله عنه ، ويذكر فى ذلك أقوالا متضاربة ثم يقول بعد فراغه منها : « الظاهر من الأخبار أن الجفر كتاب فيه العلوم النبوية من حلال ، وحرام ، وأحكام ، وأصول ما يحتاج إليه الناس فى أحكام دينهم وما يصلحهم فى دنياهم ، والإخبار عن بعض الحوادث ، ويمكن أن يكون فيه تفسير بعض المتشابه من القرآن المجيد [٢] »ثم ينكر على من يستبعد أن يكون الجفر فيه كل هذه العلوم ، ويتمثل بقول أبى العلاء المعرى :

لقد عجبوا لأهل البيت لما   أروهم علمهم فى مسك جفر
ومرآة المنجم وهى صغرى   أرته كل عامرة وقفر [٣]

خامسا : مصحف فاطمة ، جاء فى البصائر : « أن أبا عبد الله سأله بعض الأصحاب عن مصحف فاطمة،فقال:إنكم تبحثون عما تريدون وعما لا تريدون. إن فاطمة مكثت بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة وسبعين يوما، وقد كان دخلها حزن شديد على أبيها، وكان جبريل يأتيها ويحسن عزاءها على أبيها، ويطيب نفسها ، ويخبرها عن أبيها ومكانه ، ويخبرها بما يكون بعدها فى ذريتها. وكان علىّ عليه السلام يكتب ذلك ، فهذا مصحف فاطمة [٤] » .

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٣٧٣
(٢) أعيان الشيعة جـ١ ص ١٨٢
(٣) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٤
(٤) المرجع السابق جـ ١ ص ١٨٨

هذه هى أهم الأشياء التى يستند إليها الإمامية الاثنا عشرية فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى، وهى كلها أوهام وأباطيل لا ثبوت لها إلا فى عقول الشيعة... وكيف يكون سائغا ومقبولا أن ينبنى تفسير القرآن وفهم معانيه على أوهام وأباطيل ؟ ؟ لهذا نرى العلامة ابن قتيبة يشدد النكير على الشيعة فى تفسيرهم لكتاب الله تعالى فيقول :

« وأعجب من هذا التفسير — يعنى تفسير المعتزلة — تفسير الروافض للقرآن ، وما يدعونه من علم باطنه بما وقع إليهم من الجفر الذى ذكره هرون ابن سعد العجلى ، وكان رأس الزيدية فقال :

ألم تر أن الرافضين تفرقوا	فكلهم فى جعفر قال منكرا
فطائفة قالوا : إمام . ومنهم	طوائف سمته النبى المطهرا
ومن عجب لم أقضه جلد جفرهم	برئت إلى الرحمن ممن تجفرا
برئت إلى الرحمن من كل رافض	بصير بباب الكفر . . فى الدين أعورا
إذا كف أهل الحق عن بدعة مضى	عليها ، وإن يمضوا على الحق قصرا
ولو قال : إن الفيل ضب لصدقوا	ولو قال : زنجى تحول أحمرا
وأخلف من بول البعير فإنه	إذا هو للإقبال وُجِّه أدبرا
فقبح أقوام رموه بفرية	كما قال فى عيسى الفرى من تنصرا [1]

(١) هذا الذى ذكره ابن قتيبة عن هرون بن سعد العجلى ، يناقض ما تقدم عن ابن خلدون من أن الجفر كان عند هرون بن سعد العجلى وهو يرويه عن جعفر الصادق ويمكن دفع هذا التناقض بأن نقول : إن هرون بن سعد العجلى ، وكان رافضيا مغاليا أول أمره ، وكان يروى هذا الجفر ويصدق به ثم رجع عن مذهبه وغلوه وتصديقه بالجفر ، وقال مقالته التى رواها ابن قتيبة بعد توبته . وهذا الذى ذهبنا إليه اعتمدنا فيه على ما جاء فى تهذيب التهذيب عند الكلام عن هرون بن سعد العجلى ج ١١ ص ٦ وخلاصته : أن هرون ابن سعد العجلى ، ويقال الجعفى الكوفى الأعور . قال أحمد : روى عنه الناس .. وهو صالح . وروى عن ابن معين أنه قال : ليس به بأس وذكره =

قال أبو محمد: وهو جلد جفر ادعوا أنه كتب فيه لهم الإمام كل ما يحتاجون إلى علمه ، وكل ما يكون إلى يوم القيامة ، فمن ذلك قولهم فى قول الله عز وجل « وورث سليمان داود [1] » إنه الإمام، ورث النبى صلى الله عليه وسلم علمه . وقولهم فى قول الله عز وجل « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة [2] » إنها عائشة رضى الله عنها وفى قوله تعالى « فقلنا اضربوه ببعضها [3] » إنه طلحة والزبير . وقولهم فى الخمر والميسر : إنهما أبو بكر وعمرو (رضى الله عنهما). والجبت والطاغوت : إنهما معاوية وعمرو بن العاص . . . مع عجائب أرغب عن ذكرها ، ويرغب من بلغه كتابنا هذا عن استماعها .

وكان بعض أهل الأدب يقول : ما أشبه تفسير الرافضة للقرآن إلا بتأويل رجل من أهل مكة للشعر ، فإنه قال ذات يوم : ما سمعت بأكذب من بنى تميم زعموا أن قول القائل :

بيت زرارة محتب بفنائه ومجاشع ، وأبو الفوارس نهشل

أنه فى رجال منهم . . . قيل له : فما تقول أنت فيهم ؟ قال : البيت : بيت الله . وزرارة : الحجر ، قيل . فمجاشع ؟ قال : زمزم . . جشعت بالماء . قيل : فأبو الفوارس ؟ قال : أبو قيس ، قيل له : فنهشل ؟ قال نهشل . . . أشده ، وفكر ساعة ثم قال : نهشل : مصباح الكعبة ،لأنه طويل أسود، فذلك نهشل.

= ابن حبان فى الثقات ، وذكره أيضاً فى الضعفاء ؛ قال : وكان غاليا فى الرفض لاتحل عنه الرواية بحال . وروى عن ابن معين أيضاً أنه قال : كان من غلاة الشيعة . وقال الساجى : كان يغلو فى الرفض وحكى أبو العرب الصقلى عن ابن قتيبة أنه أنشد له شعراً يدل على نزوعه عن الرفض ، اه ملخصا، ونزع عن الرفض معناه: رجع عنه ، يقال نزع عن الأمر إذا انتهى عنه وأباه . كما أفاده صاحب القاموس وغيره .

(١) فى الآية ١٦ من سورة النمل
(٢) فى الآية ٦٧ من سورة البقرة
(٣) فى الآية ٧٣ من سورة البقرة

وهم أكثر أهل البدع اقترافا ونحلا ، فمنهم قوم يقال لهم البياينة ، ينسبون إلى رجل يقال له بيان ، قال لهم : إلى أشار الله تعالى إذ قال . « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[1] .

وهم أول من قال بخلق القرآن . ومنهم المنصورية ، أصحاب أبي منصور الكسف ، وكان قال لأصحابه : فى نزل قوله « وإن يروا كسفا من السماء ساقطا »[2] ومنهم الخناقون والشداخون ومنهم الغرابية ، وهم الذيين ذكروا أن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبي صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب ، فتغلط جبريل عليه السلام حيث بعث إلى على لشبهه به .

قال أبو محمد : ولا نعلم فى أهل البدع والأهواء أحدا ادعى الربوبية لبشر غيرهم ؛ فإن عبد الله بن سبأ ، ادعى الربوبية لعلى فأحرق على أصحابه بالنار ، وقال فى ذلك .

لما رأيت الأمر أمراً منكرا   أججت نارى ودعوت قنبرا[3]

ولا نعلم أحداً ادعى النبوة لنفسه غيرهم ؛ فإن المختار بن أبي عبيد ادعى النبوة لنفسه ، وقال : « إن جبريل وميكائيل يأتيان إلى جهته » فصدقه قوم واتبعوه ، وهم الكيسانية[4] » اه .

هذا ولا يفوتنا أن القول : إن هذه الطوائف من الشيعة قد باد معظمها ، وأشهر مابقى منها إلى اليوم ثلاث فرق ، هى : الإمامية الإثنا عشرية ، والإمامية الإسماعيلية ، وهم المسمون بالباطنية ، والزيدية .

أما الإمامية الأثنا عشرية ، فينتشرون اليوم فى بلاد إيران ، وبلاد العراق كما يوجد منهم جماعة بالشام .

---

(١) فى الآية (١٣٨) من سورة آل عمران (٢) فى الآية (٤٤) من سورة الطور .
(٤) قنبر هو مولى على الذى تولى طرحهم فى النار .
(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ — ٨٨ .

وأما الإسماعيلة ، فينتشرون فى بلاد الهند ، كما يوجدون فى نواح أخرى متفرقة ، وزعيمهم أغاخان الزعيم الهندى الإسماعيلى المعروف [1]
وأما الزيدية فيوجدون ببلاد اليمن .

إذاً فالأجدر بنا أن نمسك عن موقف هذه الفرق البائدة من تفسير القرآن ، مادامت قد بادت ولم يبق لها أثر ، ومادمنا لم نقف لها على شىء فى التفسير أكثر من هذه النبذ المتفرقة التى وجدناها للبعض منهم وجمعناها من بطون الكتب المختلفة .

والذى يستحق عنايتنا وبحثنا بعد ذلك ، هو تلك الفرق الثلاث التى لاتزال موجودة إلى اليوم محتفظة بتعاليمها وآرائها . وسنبدأ أولا بالإمامية الاثنى عشرية ، ثم بالإمامية الإسماعيلية ، ثم بالزيدية فنقول وبالله التوفيق .

---

(١) وهو من نسل الحسن بن الصباح صاحب قلعة الموت والحسن هذا من نسل على بن أبى طالب إهـ من ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢٢٥

(١) موقف الإمامية الإثنى عشرية

من تفسير القرآن الكريم

للامامية الإثنى عشرية معتقدات يدينون بها ، وينفردون بها عمن عداهم من طوائف الشيعة . وهم حين يعتقدون هذه المعتقدات لا بد لهم - ما داموا يقرون بالإسلام ويعترفون بالقرآن ولو بوجه ما - أن يقيموا هذه العقائد على دعائم من نصوص القرآن الكريم ، وأن يدافعو عنها بكل ما يمكنهم من سلاح الجدل وقوة الدليل .

موقفهم من الإئمة وأثر ذلك فى تفسيرهم :

وإذا نحن استعرضنا هذه المعتقدات وجدنا أن أهمها يدور حول أئمتهم ، فهم يلقون على الأئمة نوعا من التقديس والتعظيم ، ويرون أن الأئمة (أركان الأرض أن تميد بأهلها ، وحجة الله البالغة على من فوق الأرض ومن تحت الثرى)[١] ويرون أن الإمامة (زمام الدين ، ونظام المسلمين ، وصلاح الدنيا ، وعز المؤمنين[٢]) .

ولما كان الإمام عندهم فوق أن يحكم عليه ، وفوق الناس فى طينته وتصرفاته ، فإنا نراهم يعتقدون بأن له صلة روحية بالله تعالى كتلك الصلة التى للأنبياء والرسل ، وأنه مشروع ومنفذ ، وأن الله قد فوض النبى والإمام فى الدين ، ويروون عن الصادق أنه قال : (إن الله خلق نبيه على أحسن أدب وأرشد عقل ، ثم أدب نبيه فأحسن تاديبه فقال : « خذ العفو وأمر بالعرف واعرض عن الجاهلين[٣] » ثم أثنى الله عليه فقال : (وإنك لعلى

---

(١) ضحى الاسلام جـ ٣ ص ٢١٥ نقلا عن أصول الكافى ص ٩٣

(٢) المرجع السابق

(٣) فى الآية (١٩٩) من سورة الأعراف

خلق عظيم [١]) ثم بعد ذلك فوض إليه دينه ، فوض إليه التشريع فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا [٢] » و « من يطع الرسول فقد أطاع الله [٣] الله فوض دينه إلى نبيه . ثم أن نبي الله فوض كل ذلك إلى علي وأولاده سلمتم وجحده ، الناس ، فوالله لنحبكم أن تقولوا إذا قلنا وأن تصمتوا إذا صمتنا ، ونحن فيما بينكم وبين الله ، وما جعل الله لأحد خيراً فى خلاف أمرنا [٤]) .

وحيث إن الله تعالى خلق النبي وكل إمام بعده على أحسن أدب وأرشد عقل ، فلا يختار النبي ولا الإمام إلا ما فيه صلاح وثواب ، ولا يخطر بقلب النبي ولا بقلب الإمام ما يخالف مشيئة الله وما يناقض مصلحة الأمة . فيفوض الله تعيين بعض الأمور إلى رأى النبي ورأى الإمام مثل الزيادة فى عدد ركعات الفرض ومثل تعيين النوافل من الصلاة والصيام ، وذلك إظهارا لكرامة النبي والإمام ، ولم يكن أصل التعيين إلا بالوحى ، ثم لم يكن الاختيار إلا بالإلهام ، وله فى الشرع شواهد : حرم الله الخمر ، وحرم النبي كل مسكر فأجازه الله ، وفرض الله الفرائض ولم يذكر الجد ، فجعل النبي للجد السدس ، وكان النبي يبشر ويعطى الجنة على الله ويجيزه الله .

وأيضا فوض الله للنبي والأئمة من بعده أمور الخلق ، وأمور الإدارة والسياسة من التأديب والتكميل والتعليم ، وواجب على الناس طاعتهم فى كل ذلك . قالوا : وهذا حق ثابت دلت الأخبار عليه .

وأيضا فوضهم الله تعالى فى البيان ، بيان الأحكام والإفتاء وتفسير آيات القرآن وتأويلها ، ولهم أن يبينوا ولهم أن يسكتوا ، ولهم فوق ذلك البيان كيفما أرادوا وعلى أى وجه شاءوا تقيـة منهم وعلى حسب الأحوال والمصلحة.

---

(١) الآية ٤ من سورة نون

(٢) فى الآية ٦٤ من سورة النساء

(٣) فى الآية ٨٠ من سورة النساء

(٤) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٧

والتفويض بهذا المعنى يدعون أنه حق ثابت لهم. والاخبار ناطقة به وشاهدة عليه . يقول صاحب الكافى (سأل ثلاثة من الناس الصادق عن آية واحدة فى كتاب الله فأجاب كل واحد بجواب ، أجاب ثلاثة بأجوبة ثلاثة ، واختلاف الأجوبة فى مسألة واحدة كان يقع إما على سبيل التقية وإما على سبيل التفويض[1]) .

وهناك نوع آخر من التفويض يثبتونه للنبى والأئمة ، ذلك هو أن النبى أو الإمام له أن يحكم بظاهر الشريعة ، وله أن يترك الظاهر ويحكم بما يراه وما يلهمه الله من الواقع وخالص الحق فى كل واقعة ، كما كان لصاحب موسى فى قصة الكهف ، وكما وقع لذى القرنين[2] .

ثم كان من توابع هذه العقيدة التى يعتقدونها فى أئمتهم أن قالوا بعصمة الأئمة ، وقالوا بالمهدى المنتظر ، وقالوا بالرجعة ، وقالوا بالتقية ، وهذه كلها عقائد رسخت فى أذهانهم وتمكنت من عقولهم ، فأخذوا بعد هذا ينظرون إلى القرآن الكريم من خلال هذه العقائد ففسروا القرآن وفقاً لهواهم ، وفهموا نصوصه وتأولوها حسبما تمليه عليهم العقيدة ويزينه لهم الهوى ... وهذا تفسير بالرأى المذموم ، تفسير من اعتقد أولا ، ثم فسر ثانياً بعد أن اعتقد .

تأثر الإمامية الإثنى عشرية بآراء المعتزلة وأثر ذلك فى تفسيرهم :

وهذا وإن الإمامية الإثنى عشرية لهم فى نصوص القرآن التى تتصل بمسائل علم الكلام نظرة تتفق إلى حد كبير مع نظرة المعتزلة إلى هذه النصوص نفسها ولم يكن بينهم وبين المعتزلة خلاف إلا فى مسائل قليلة ، ويظهر أن هذا الارتباط الوثيق الذى كان بين الفريقين راجع إلى تتلمذ الكثير من شيوخ الشيعة وعلمائهم لبعض شيوخ المعتزلة ، كما يظهر لنا جليا أن هذا الارتباط فى التفكير شىء قديم غير جديد ، فالحسن العسكرى ، والشريف المرتضى .

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٩

(٢) المرجع السابق ص ٨٩

وأبو على الطبرسى ، وغيرهم من قدماء الشيعة ، ينظرون هذه النظرة الاعتزالية فى تفسيرهم التى بأيدينا،والتى تعرضنا لبعضها وسنعرض لبعضها الآخر قريبا، بل إننا نجد الشريف المرتضى فى أماليه يحاول محاولة جديدة أنه يجعل عليا رضى الله عنه معتزليا أو رأس المعتزلة على الأصح ،وقد تقدمت لنا مقالته التى عرضنا لها عند الكلام عن أماليه[1] . وليس من شك فى أن هذه النظرات الاعتزالية كان لها أثر كبير فى تفسيرهم ، وستقف على شىء من ذلك إن شاء الله تعالى .

تأثرهم بمذاهبهم الفقهية والأصولية فى تفاسيرهم .

ثم إن الشيعة لهم فى الفقه وأصوله آراء خالفوا بها من سواهم ،فمثلا نجدهم يذكرون أن أدلة الفقه أربعة وهى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ؛ ودليل العقل . أما الكتاب فلهم رأى فيه سنعرض له فيما بعد .

وأما السنة فهم غير أمناء عليها ولا ملتزمين ما صح منها ، وسنعرض لها فيما بعد أيضاً .

وأما الإجماع فليس حجة بنفسه ، وإنما يكون حجة إذا دخل الإمام المعصوم فى المجمعين ، أو كان الإجماع كاشفاً عن رأية فى المسألة ، أو كان الإجماع عن دليل معتبر ؛ فهو فى الحقيقة داخل فى الكتاب أو السنة .

---

(١) يرى بعض العلماء أن أول من قام بالاعتزال أبو هاشم عبد الله ، والحسن ، ابنا محمد بن الحنفية ، وعن أبى هاشم أخذ واصل بن عطاء ـ مقدمة تبيين كذب المفترى ص ١٠ ، ١١ ـ ويقول أبو الحسن الطرائفى الشافعى المتوفى سنة ٣٧٧ هـ فى كتابه رد أهل الأهواء والبدع (عندما بايع الحسن بن على معاوية وسلم له الأمر ، اعتزل جماعة من أصحاب على الحسن ومعاوية وجميع الناس ولزموا منازلهم ، وقالوا : نشتغل بالعلم والعبادة فسموا بذلك معتزلة . اهـ من هامش تبيين كذب المفترى ص ١٠ .

وأما دليل العقل عندهم فلا يدخل فيه القياس ، ولا الاستحسان ، ولا المصالح المرسلة ، لأن ذلك كله ليس حجة عندهم (١)

وفى الفقه لهم مخالفات يشذون بها. فمثلا تراهم يقولون: إن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح دون الغسل ، ولا يجوزون المسح على الخفين ، وجوزوا نكاح المتعة ، وجوزا أن تورث الأنبياء ، ولهم مخالفات فى نظام الإرث ، كإنكارهم للعول مثلا ، ولهم مخالفات كثيرة غير ذلك فى مسائل الاجتهاد :

لهذا كان طبيعياً أن يقف الإمامية الإثنا عشرية من الآيات التى تتعلق بالفقه وأصوله موقفاً فيه تعصب وتعسف ، حتى يستطيعوا أن يخضعوا هذه النصوص ويجعلوها أدلة لآرائهم ومذاهبهم ، كما كان طبيعياً ، أن يتأولوا ما يعارضهم من الآيات والأحاديث. بل وجدناهم أحياناً يزيدون فى القرآن ما ليس منه ويدعون أنه قراءة أهل البيت ، وهذا إمعان منهم فى اللجاج ، وإغراق فى المخالفة والشذوذ . .

احتيالهم على تركيز عقائدهم وترويجها :

ويظهر لنا أن الإمامية الاثنى عشرية لم يجدوا فى القرآن كل ما يساعدهم على أغراضهم وميولهم ، فراحوا — أولا — يدعون أن القرآن له ظاهر وباطن بل وبواطن كثيرة ، وأن علم جميع القرآن عند الأئمة ، سواء فى ذلك ما يتعلق بالظواهر وما يتعلق بالبواطن ، وحجروا على العقول فمنعوا الناس من القول فى القرآن بغير سماع من أئمتهم ، وراحوا - ثانيا - يدعون أن القرآن وارد كله أوجله فى أئمتهم ومواليهم ، وفى أعدائهم ومخالفيهم كذلك وراحوا - ثالثاً - يدعون أن القرآن حرّف وبدل عما كان عليه زمن النبى صلى الله عليه وسلم ، وكل هذا لا أعتقد إلا أنه من قبيل الاحتيال على تركيز

---

(١) أنظر أعيان الشيعة جـ ١ ص ٤٧٧ — وقد مثل لدليل العقل بالبراءة من التكليف بواجب لم يرد فيه نص . أنظر ص ٢٣٦ من كتاب أصول الاستنباط للسيد على تقى الحيدرى طبع شركة النشر والطباعة العراقية سنة ١٩٥٠ .

عقائدهم وإيهام النـاس أنها مستقاة من القرآن الذى هو المنبع الأساسى والأول للدين .

وأعجب من هذا ، أنهم أخذوا يموهون على الناس ، ويغرون العامة بما وضعوه من أحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى أهل بيته ، وطعنوا على الصحابة إلا نفراً قليلا منهم ، ورموهم بكل نقيصة فى الدين ؛ ليجدوا لأنفسهم من وراء ذلك ثغرة يخرجون منها عندما تأخذ بخناقهم الأحاديث الصحيحة التى يرويها هؤلاء الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ويحسن بنا ألا نمر سراعا على هذه النقط الأربعة بالذات ، بل علينا أن نقف أمامها وقفة طويلة ودقيقة حتى نستطيع أن نقف على مدى هذه الأوهام والدعاوى التى كان لها أكبر الأثر فى اتجاه التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية ، فنقول وبالله التوفيق .

(١) ظاهر القرآن وباطنه :

يقول الإمامية الاثنا عشرية : إن القرآن له ظاهر وباطن . وهذه حقيقة نقرهم عليها ولا نعارضهم فيها بعدما صح لدينا من الأحاديث التى تقرر هذا المبدأ فى التفسير(١) غاية الأمر أن هؤلاء الإمامية لم يقفوا عند هـذا الحد . بل تجاوزوا إلى القول بأن للقرآن سبعة وسبعين بطناً ، ولم يقتصروا على ذلك بل تمادوا وادعوا أن الله تعالى جعل ظاهر القرآن فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة ، وجعل باطنه فى الدعوة إلى الإمامة والولاية وما يتعلق بهما .

حرصهم على التوفيق بين ظاهر القرآن وباطنه :

ولقد كان من أثر هذا الرأى فى القرآن ، أن اشتد حرص هؤلاء القائلين به على أن يعقدوا صلة بين المعانى الظاهرة والمعانى الباطنة للقرآن ، ويعملوا بكل ما فى وسعهم وطاقتهم على إيجاد مناسبة بينهما حتى يقرّبوا هذا المبدأ من عقول

---

(١) سيأتى بيان المراد بالباطن قريبا ، وسترى أنه بمعزل عما ذهب إليه الإمامية .

الناس ويجعلوه أمرا سائغا مقبولا . ومن أمثلة هذا التوفيق والربط بين ظاهر القرآن وباطنه ، قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة محمد عليه السلام « مثل الجنة التى وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من خمر لذة للشاربين وأنهار من عسل مصفى ولهم فيها من كل الثمرات . » فهم يقرون أن هذا الظاهر مراد الله تعالى ، ومراد له مع هذا الظاهر معنى آخر باطنى هو علوم الأئمة عليهم السلام ، ويقولون : إن الجامع بين المعنيين هو الانتفاع بكل منهما وبمثل هذا يوفقون بين المعانى الظاهرة والباطنة ، حتى لا يكون مستبعدا إرادة الله لمعنى خاص بحسب ما يدل عليه ظاهر اللفظ ، وإرادته لمعنى آخر بحسب ما يدل عليه باطن الأمر .

حملهم الناس على التسليم بما يدعون من المعانى الباطنة للقرآن .

وكأنى بالإمامية الاثنى عشرية بعد أن ربطوا بين ظاهر القرآن وباطنه ، وجمعوا بينهما بجامع التناسب والتشابه . . . كأنى بهم يعتقدون أن مثل هذا الربط لا يكفى فى حمل الناس على أن يذهبوا مذهبهم هذا ، فحاولوا أن يحملوهم عليه من ناحية العقيدة والإرهاب الدينى ، الذى يشبه الإرهاب الكنسى للعامة فى العصور المظلمة ، من حمل الناس على ما يوحون به إليهم بعد أن حظروا عليهم إعمال العقل ، وحالوا بينهم وبين حريتهم الفكرية ، فقالوا : إن الإنسان يجب عليه أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء ، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكمه ومتشابهه ، وناسخه ومنسوخه ، ولا بد أن يكون ذلك على سبيل التفصيل إن وصل إليه علم ذلك مفصلا عن آل البيت ، ويكفى فيه الإجمال إن لم يصل إليه التفصيل . قالو : ولا يجوز له أن ينكر الباطن بحال ، وعليه أن يسلم بكل ما وصل إليه من ذلك عن طريق آل البيت وإن لم يفهم معناه . ولو أن إنساناً آمن بالظاهر وأنكر الباطن لكفر بذلك ، كما لو أنكر الظاهر وآمن بالباطن أو الظاهر والباطن جميعاً .

وحرصا منهم على تعطيل عقول الناس ومنعهم من النظر الحر فى نصوص القرآن الكريم ، قالوا : إن جميع معانى القرآن ، سواء منها ما يتعلق بالظاهر وما يتعلق بالباطن، اختص بها النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة من بعده ، فهم الذين عندهم علم الكتاب كله ، لأن القرآن نزل فى بيتهم (وأهل البيت أدرى بما فى البيت) . أما من عداهم من الناس فلا يرون أدنى شبهة فى قصور علمهم ، وعدم أدراكه لكثير من معانى القرآن الظاهرة ، فضلا عن معانيه الباطنة ، قالوا : ولهذا لا يجوز لإنسان أن يقول فى القرآن إلا بما وصل إليه من طريقهم غاية الأمر أنهم جوزوا لمن أخلص حبه وانقياده لله ولرسوله ولأهل البيت واستمد علومه من أهل البيت حتى أنس من نفسه العلم والمعرفة . . جوزوا لمثل هذا أن يستنبط من القرآن ما يتيسر له ، لانه بحبه لآل البيت وأخذه عنهم صار كأنه منهم وقد قيل (سلمان منا آ ل البيت) .

أثر التفسير الباطنى فى تلاعبهم بنصوص القرآن .

ولقد كان من نتائج هذا التفسير الباطنى للقرآن أن وجد القائلون به أمام أفكارهم مضطربا بالغا ومجالا رحبا ، يتسع لكل ما يشاؤه الهوى وتزينه لهم العقيدة ، فأخذو يتصرفون فى القرآن كما يحبون ، وعلى أى وجه يشتهون ، بعد ما ظنوا أن العامة قد انخدعت بأوهامهم وسلموا بأفكارهم ومبادئهم .

فقالوا — مثلا — : إن من لطف الله تعالى أن يشير بواسطة المعانى الباطنه لبعض الآيات إلى ما سيحدث فى المستقبل من حوادث ، ويعدون هذا من وجوه إعجازه ، ثم يفرعون على هذه القاعدة ما يشاؤه لهم الهوى ، وما يزينه فى أعينهم داعى العقيده وسلطانها ، فيقولون مثلا فى قوله تعالى فى الآية (١٩) من سورة الإنشقاق « لتركبن طبقا عن طبق » إنه إشارة إلى أن هذة الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء .

كذلك مكن لهم القول بباطن القرآن من أو يقولو : إن اللفظ الذى يراد به العموم ظاهرا كثيرا ما يراد به الخصوص بحسب المعنى الباطن ، فمثلا لفظ

الكافرين الذى يراد به العموم ، يقولون : هو فى الباطن مخصوص بمن كفر بولاية على .

كما مكنهم أيضا من أن يصرفوا الخطاب الذى هو موجه فى الظاهر إلى الأمم السابقة أو إلى أفراد منها ، إلى من يصدق عليه الخطاب فى نظرهم من هذه الأمة بحسب الباطن ، فمثلا قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأعراف (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) يقولون فيه : قوم موسى فى الباطن هم أهل الإسلام .

ولقد مكنهم أيضا من أن يتركوا أحياناً المعنى الظاهر ويقولوا بالباطن وحده ، كما فى قوله تعالى فى الآيتين (٧٤ ، ٧٥) من سورة الإسراء « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا . إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً » فالظاهر غير مراد عندهم، ويقولون عنى بذلك غير النبي ؛ لأن مثل هذا لا يليق أن يكون موجها للنبي عليه الصلاة والسلام ، وإنما هو معنى به من قد مضى ، أو هو من باب (إياك أعنى واسمعى يا جارة) .

كذلك مكنهم هذا المبدأ من إرجاع الضمير إلى مالم يسبق له ذكر ، كما فى قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة يونس « قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله ... » حيث يفسرون (أو بدله) بمعنى أو بدل علياً . ومعلوم أن علياً لم يسبق له ذكر ، ولم يكن الكلام مسوقا فى شأن خلافته وولايته .

ومما ساغ لهم أن يقولوه بعد تقريرهم لمبدأ القول بالباطن : إن تأويل الآيات القرآنية لا يجرى على أهل زمان واحد ، بل عندهم أن كل فقرة من فقرات القرآن لها تأويل يجرى فى كل آن ، وعلى أهل كل زمان ، فمعانى القرآن على هذا متجددة . حسب تجدد الأزمنة وما يكون فيها من حوادث . بل وساغ لهم ما هو أكثر من ذلك فقالوا : إن الآية الواحدة لها تأويلات كثيرة مختلفة متناقضة ، وقالوا : إن الآية الواحدة يجوز أن يكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء آخر..

ولا شك أن باب التأويل الباطنى باب واسع يمكن لكل من ولجه أن يصل منه إلى كل ما يدور بخلده ويجيش بخاطره .

وليس لقائل أن يقول : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم صرح بأن للقرآن باطنا ، وإن المفسرين جميعا يعترفون بذلك ويقولون به ، فكيف توجه اللوم إلى الإمامية وحدهم ؟ ليس لقائل أن يقول ذلك ؛ لأن الباطن الذى أشار إليه الحديث وقال به جمهور المفسرين ، هو عبارة عن التأويل الذى يحتمله اللفظ القرآنى ، ويمكن أن يكون من مدلولاته . أما الباطن الذى يقول به الشيعة فشىء يتفق مع أذواقهم ومشاربهم ، وليس فى اللفظ القرآنى الكريم ما يدل عليه ولو بالإشارة .

مخلصهم من تناقض أقوالهم فى التفسير :

ثم إن الإمامية الاثنى عشرية ، أحسوا بخطر موقفهم وتحرجه عندما جوزوا أن يكون للآية الواحدة أكثر من تفسير واحد مع التناقض والاختلاف بين هذه التفاسير . فأخذوا يموّهون على العامة ويضللونهم ، فقرروا من المبادىء ما أوجبوا الاعتقاد به أولا على الناس ليصلوا بعد ذلك إلى مخلص يتخلصون به من هذا المأزق الحرج ، فكان من هذه المبادىء التى قرروها وأوجبوا الاعتقاد بها ما يأتى :

أولا : أن الإمام مفوض من قبل الله فى تفسير القرآن .

ثانيا : أنه مفوض فى سياسة الأمة .

ثالثا : التقية .

وكل واحد من هذه الثلاثة يمكن أن يكون مخلصاً للخروج من هذا التناقض الذى وقع فى تفاسيرهم التى يروونها عن أئمتهم . فكون الإمام مفوضاً من قبل الله فى تفسير القرآن مخلص لهم ؛ لأن باب التفويض واسع . وكونه مفوضاً فى سياسة الأمة مخلص أيضاً ؛ لأن الإمام أعلم بالتنزيل والتأويل ، وأعلم بما فيه صلاح السائل والسامع ، فهو يجيب كل إنسان على حسب ما يرى فيه صلاح حاله .

والقول بالتقية مخلص أوسع من سابقيه ، لأن الإمام له أن يسكت ولا يجيب، تقية منه (قيل عند الباقر : إن الحسن البصرى يزعم أن الذين يكتمون العلم تؤذى ريح بطونهم أهل النار ، فقال الباقر : فهلك إذا مؤمن آل فرعون ، ما زال العلم مكتوما منذ بعث الله نوحاً ، فليذهب الحسن يميناً وشمالا ،لا يوجد العلم إلا ههنا . . وأشار إلى صدره [١]) .

وللإمام أن يجيب بحسب الأحوال وما يرى فيه المصلحة . . تقية منه أيضاً وبنوا على هذا (أن الإمام إن قال قولا على سبيل التقية ، فللشيعى أن يأخذ به ويعمل بما قاله الإمام إن لم يتنبه الشيعى إلى أن قول الإمام كان على سبيل التقية [٢] .

ونحن لا نظن أن الأئمة كانوا يلجئون إلى هذه التقية . . تقية الخداع فى الأخبار ، والنفاق فى الأحكام ، وإنما هى تمحلات يتمحلونها ،ليخلصوا بها أنفسهم من هذا الارتباك الذى وقعوا فيه .

(٢) موقف القرآن من الأئمة وأوليائهم وأعدائهم :

ثم إن الإمامية الإثنى عشرية ، قرروا أن الإقرار بإمامة على ومن بعده من الأئمة والتزام حبهم وموالاتهم ، وبغض مخالفيهم وأعدائهم ، أصل من أصول الإيمان ، بحيث لا يصلح إيمان المرء إلا إذا حصل ذلك ، مع الإقرار بباقى الأصول ، كما قرروا وجوب طاعة الأئمة،واعتقاد أفضليتهم على الخلائق أجمعين .

قرر الإمامية هذا كله ، ثم أخذوا ينزلون نصوص القرآن على ما قرروه ، بل وزادوا على ذلك فقالوا : إن كل آيات المدح والثناء وردت فى الأئمة ومن والاهم ، وكل آيات الذم والتقريع وردت فى مخالفيهم وأعدائهم، بل ويدعون

---

(١) الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة ص ٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٨٢ .

ما هو أكثر من ذلك فيقولون : إن جلّ القرآن بل كله ، أنزل فى الإرشاد إليهم ، والاعلان بهم ، والأمر بموافقتهم ، والنهى عن مخالفتهم .

ولقد كان من أثر زعمهم أن القرآن جله أوكله وارد فى أئمتهم ومن والاهم، وفى أعدائهم ومن وافقهم ، أن قالوا : إن ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره سره أن أراد إدخال النبى صلى الله عليه وسلم والأئمة معه . قالوا : وهو مجاز شائع معروف ، بل وبالغوا فقالوا : إن الأئمة هم المقصودن بالذات أحياناً كما فى قوله تعالى : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » حيث رووا عن أبى جعفر محمد الباقر أنه قال فيها : إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم ، ولكن خلطنا بنفسه فجعل ظلمه ، وولايتنا ولايته ، حيث يقول : « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا » بمعنى الأئمة منا (١) اه .

وأعجب من هذا، أنهم جعلوا لفظ الجلالة ، والإله والرب ،مراداً به الإمام وكذا الضمائر الراجعة إليه سبحانه . وتأولوا ما أضافة الله إلى نفسه من الإطاعة والرضى والغنى والفقر مثلا ، بما يتعلق بالإمام كإطاعته ، ورضاه وغناه ، وفقره ... الخ ، ويعدون ذلك من قبيل المجاز الشائع المعروف ... ولكن لا شيوع لمثل هذا المجاز ولا معرفة لنا به إذا المجاز المتعارف عليه بين العلماء هو استعمال اللفظ فى غير ما وضع له لعلاقة مع قرينة تمنع من إرادة المعنى الأصلى ، وأين العلاقة هنا ؟ . وإذا تكلفوا العلاقة فأين القرينة الصارفة للفظ عن حقيقته؟ ثم ... لم هذا التكلف والعدول إلى المجاز، وقد تقرر أنه لا يعدل إلى المجاز إلا عند تعذر الحقيقة ؟ .

(٣) تحريف القرآن وتبديله :

وأجسب أن الإمامية الإثنى عشرية ، عز عليهم أن يكون القرآن غير صحيح فى عقيدتهم بالنسبة للأئمة وموافقيهم ، وبالنسبة لأعدائهم ومخالفيهم ، وكأنى بهم

---

(١) مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار ص ٣٩ . والآية رقم (٥٥) من سورة المائدة .

وقد تساءلو فيما بينهم فقالوا: إذا كان القرآن جله وارداً فى شأن الأئمة وشيعتهم، وفى شأن أعدائهم ومخلفيهم، فلم لم يأت القرآن بذلك صريحاً مع أنه المقصود أولا وبالذات؟ ولم اكتفى بالإشارة الباطنة فقط؟ ... كأنى بهم بعد هذا التساؤل، وبعد هذا الاعتراض الذى أخذ بخناقهم، راحوا يتلمسون للتخلص منه كل سبيل، فلم يجدوا أسهل من القول بتحريف القرآن وتبديله، فقالوا: إن القرآن الذى جمعه على عليه السلام. وتوارثه الأئمة من بعده، هو القرآن الصحيح الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل، أما ما عداه فمحرف ومبدل، حذف منه كل ماورد صريحاً فى فضائل آل البيت، وكل ماورد صريحاً فى مثالب أعدائهم ومخالفيهم. وأخبار التحريف متواترة عند الشيعة، ولهم فى ذلك روايات كثيرة يروونها عن آل البيت، وهم منها براء.

يروى الكافى عن الصادق: أن القرآن الذى نزل به جبريل على محمد سبعة عشر ألف آية، والتى بأيدينا منها ستة آلاف ومائتان وثلاث وستون آية، والبواقى مخزونة عند أهل البيت فيما جمعه على [1].

ويقولون: إن سورة (لم يكن) كانت مشتملة على اسم سبعين رجلا من قريش بأنسابهم وآبائهم. وإن سورة (الأحزاب) كانت مثل سورة (الأنعام) أسقطوا منها فضائل أهل البيت. وإن سورة (الولاية) أسقطت بتمامها... وغير ذلك من خرافاتهم.

وأخف مالهم فى هذا الموضوع هو (أن جميع ما فى المصحف كلام الله، إلا أنه بعض ما نزل. والباقى مما نزل عند المستحفظ لم يضع منه شىء وإذا قام القائم يقرؤه الناس كما أنزله الله على ما جمعه أمير المؤمنين على) [2].

ولقد اصطدم مدعو التحريف والتبديل، بنصوص من القرآن صريحة فى هدم مدعاهم هذا، فمن تلك النصوص: قوله تعالى فى الآية (٩) من سورة

---

(١) الوشيعة ص ٢٣.

(٢) المرجع السابق ص ٢٧

الحجر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ولكن سرعان ما تخلصوا منها بالتأويل فقالوا : (وإنا لحافظون .. أى عند الأئمة) وبمثل هذا التأويل يتخلصون من باقى النصوص المعارضة لهم .

واصطدموا أيضاً بأمرين آخرين لهما عظيم الخطر على عقائدهم ومبادئهم .

أولهما : كيف تعتمدون فى تعاليمكم ومعتقداتكم على هذا القرآن الذى بأيدينا وقد جزمتم بوقوع التحريف والتبديل فيه ؟

ثانيهما : كيف توجبون على الناس أن يعترفوا بفضائل آل البيت ، ويتبرءوا من أعدائهم ومخالفيهم ، والحجة غير قائمة عليهم بعد أن حذف كل ذلك من القرآن ؟

وقد أجابوا عن الأول : بأن التحريف إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود كثير إخلال ، كحذف اسم على ، وآل محمد . وأسماء المنافقين .

وأجابوا عن الثانى : بأن الله تعالى علم ما سيكون من وقوع التحريف والتبديل فى القرآن ، فلم يكتف بما جاء صريحاً فى فضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم ، بل أشار إلى ذلك ودل عليه بحسب بطون القرآن وتأويله ، وهذا قد سلم من التحريف والتبديل قطعا ، فبقيت الحجة ، قائمة على الناس وإن بدلوا الظاهر وحرفوه .

والحق أن الشيعة هم الذين حرفوا وبدلوا ، فكثيراً ما يزيدون فى القرآن ماليس منه ، ويدعون أنه قراءة أهل البيت ، فمثلا نراهم عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة : « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك » يزيدون (فى شأن على) وهى زيادة لم ترد إلا من طريقهم ، وهى طريق مطعون فيها .

وهم الذين حرفوا القرآن أيضاً حيث تأولوه على غير ما أنزل الله (قيل للصادق: ألم يكن علىّ قوياً فى دين الله ؟ قال : بلى . قيل : فكيف ظهر عليه القوم ولم يدفعهم ؟ وما منعه من ذلك ؟ قال الصادق : آية فى كتاب الله منعته . قيل: أى آية ؟ قال : « لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما » كان لله ودائع

مؤمنون فى أصلاب قوم كافرين ومنافقين، ولم يكن على يقتل الآباء حتى تخرج الودائع ، فلما خرجت ظهر علىّ على من ظهر فقتلهم (١) .

وروى العياشى عن الباقر أنه قال : لما قال النبى : «اللهم أعز الإسلام بعمر ابن الخطاب أو بعمرو بن هشام » أنزل الله : « وما كنت متخذ المضلين عضدا (٢) » .

وتقول أصول الكافى فى قوله تعالى فى الآية (١٢٧) من سورة النساء : « إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفراً لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا » إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر وعمر وعثمان ، آمنوا بالنبى أولا ، ثم كفروا حيث عرضت عليهم ولاية على، ثم آمنوا بالبيعة لعلى، ثم كفروا بعد موت النبى . ثم ازدادوا كفراً بأخذ البيعة من كل الأمة (٣) .

هذه أمثلة نذكرها ونضعها بين يدى القارىء الكريم ليحكم بنفسه حكما صادقاً : أن هؤلاء الشيعة ، الذين يدعون التحريف والتبديل للقرآن ،هم أنفسهم المحرفون لكتاب الله ، المبدلون فيه ، بصرفهم ألفاظ القرآن إلى غير مدلولاتها وتقولهم على الله بالهوى والتشهى .

(٤) موقفهم من الأحاديث النبوية وآثار الصحابة :

ولقد رأى الإمامية الاثنا عشرية أنفسهم أمام كثرة من الأحاديث المروية عن رسول لله صلى الله عليه وسلم ، وأمام كثرة من الروايات المأثورة عن الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين . وفى تلك الأحاديث وهذه الآثار مايخالف تعاليمهم مخالفة صريحة . لذا كان بدهيا أن يتخلص القوم من كل هذه الروايات، إما بطريق ردها ، وإما بطريق تأويلها . والرد عندهم سهل ميسور. ذلك لأن الرواية إما أن تكون قولا لصحابى ، وإما أن تكون قولا لرسول الله صلى

---

(١) الوشيعة ص ٦٤ نقلا عن الوافى ج ٢ ص ١٥٢ .
(٢) الوشيعة ص ٦٤ .
(٣) الوشيعة ص ٦٥ نقلا عن أصول الكافى ج ٣ ص ٣٢٥ .

الله عليه وسلم عن طريق صحابى ، وهم يجرحون معظم الصحابة، بل ويكفرونهم لمبايعتهم أبا بكر أولا، ثم عمر من بعده، ثم عثمان من بعدهما . . . وأما التأويل فباب واسع . . وهم أهله وأربابه .

فمثلا نجدهم يردون الأحاديث والآثار التى ثبتت فى تحريم نكاح المتعة ونسخ حله ، كما نجدهم يردون أحاديث المسح على الخفين ويقولون: إنها من رواية المغيرة بن شعبة رأس المنافقين. ثم نجدهم يسلمون صحة الرواية جدلا ولكنهم يتأولونها فيقولون : إن الخف الذى كان يلبسه النبي صلى الله عليه وسلم كان مشقوقاً من أعلى ، فكان ، يمسح على ظاهر قدمه من هذا الشق . . وظاهر أن هذا تأويل بارد متكلف ،

فإذا كان هؤلاء لايقبلون أقوال الصحابة ،ولا يثقون بروايتهم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذاً فمن يقبلون قوله ؟ ومن يثقون بروايته ؟ .

الذى عليه الشيعة إلى اليوم ، أنهم لا يأخذون الحديث إلا ممن كان شيعياً ، ولا يقبلون تفسيرا إلا ممن كان شيعيا ، ولا يثقون بشىء مطلقاً إلا إذا وصل لهم من طريق شيعى !! . . . وبهذا حصروا أنفسهم فى دائرة خاصة ، حتى كأنهم هم المسلمون وحدهم ، فإن عاشور وسط السنيين فباطنهم لأنفسهم ، وظاهرهم للتقية !! . .

وليت الأمر وقف بهم عند هذا الحد — حد الثقة بأشياعهم والاتهام لمن عداهم — بل وجدنا الروسا من الشيعة كجابر بن يزيد الجعفى وغيره،قد استغلوا أفكار الجمهور الساذجة، وقلوبهم الطيبة الطاهرة، وحبهم لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فراحوا يضعون الأحاديث على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته ، ويضمنونها ما يرضى ميولهم المذهبية ، وأغراضهم السيئة الدنيئة ، ولم يفتهم أن يحكموا أسانيد هذه الشيعة لأنهم وجدوها مؤيدة لدعواهم . . .

ويعجبنى هنا ما ذكره أبو المظفر الإسفرائينى فى كتابه التبصير فى الدين ،

وهو : أن الروافض (لما رأوا الجاحظ يتوسع فى التصانيف ، ويصنف لكل فريق ، قالت له الروافض : صنف لنا كتاباً ، فقال لهم: لست أدري لكم شبهة حتى أرتبها وأتصرف فيها ، فقالو له . إذاً دلنا على شيء نتمسك به ، فقال : لا أرى لكم وجها إلا أنكم إذا أردتم أن تقولوا شيئا تزعمونه ، تقولون: إنه قول جعفر بن محمد الصادق، لا أعرف لكم سببا تستندون إليه غير هذا الكلام .. فتمسكو بحمقهم وغباوتهم بهذه السوءة التى دلهم عليها ، فكلما أرادوا أن يختلقوا بدعة أو يخترعوا كذبة ، نسبوها الى ذلك السيد الصادق ، وهو عنها منزه ومن مقالتهم فى الدارين بريء [1]) .

أهم الكتب التى يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار :

هذا .. وللامامية الاثنى عشرية كتب كثيرة ، يعتمدون عليها فى رواية الأحاديث والأخبار ، وينزلونها من أنفسهم منزلة سامية ، ويثقون بها وثوقاً بالغا ، فمن أهم هذه الكتب ما يأتى :

أولا : كتاب الكافى ، وهو أهم الكتب عند الإمامية الإثنى عشرية على الإطلاق ، وهو لأبى جعفر محمد بن يعقوب الكلينى المتوفى سنة ٣٢٨هـ أو ٣٢٩هـ. وهو عندهم كالبخارى عند أهل السنة وهذا الكتاب يحتوى على ستة عشر ألف حديث ، قسمها — كما فعل أهل السنة — إلى صحيح ، وحسن ، وضعيف . وهو يقع فى ثلاث مجلدات : المجلد الأول فى الأصول ، والثانى والثالث فى الفروع .

ثانيا : كتاب التهذيب لمحمد بن الحسن الطوسى مجلدان فى الفروع .

ثالثا : كتاب من لا يحضره الفقيه، لمحمد بن على بن بابويه. وهو فى الفروع.

رابعا : كتاب الاستبصار فيما اختلف فيه من الأخبار ، لمحمد بن الحسن الطوسى ، اختصره من كتاب التهذيب .

---

(١) التبصير فى الدين ص ٢٦ .

هذه الكتب الأربعة ، هى أمهات كتب الشيعة التى يعتمدون عليها ويثقون بها ، وقد جمعها كتاب الوافى فى ثلاث مجلدات كبيرة،وهو من مؤلفات محمد بن مرتضى ، المعروف بملاّ محسن الكاشى .

وهناك كتب فى الحديث ذكرها صاحب أعيان الشيعة غير ما تقدم ، منها: وسائل الشيعة إلى أحاديث الشريعة ، للشيخ محمد بن الحسن العاملى ، وبحار الأنوار فى أحاديث النبى والأئمة الأطهار ، للشيخ محمد الباقر ، وهى لا تقل أهمية عن الكتب المتقدمة [1] .

والذى يقرأ فى هذه الكتب لا يسعه أمام ما فيها من خرافات وأضاليل إلا أن يحكم بأن متونها موضوعة، وأسانيدها مفتعلة مصنوعة ، كما لا يسعه إلا أن يحكم على هؤلاء الأمامية بأنهم قوم لا يحسنون الوضع ؛ لأنهم ينقصهم الذوق ، وتعوزهم المهارة . وإلا فأى ذوق وأية مهارة فى تلك الرواية التى يروونها عن جعفر الصادق رضى الله عنه ، وهى : أنه قال: (ما من مولود يولد إلا وإبليس من الأبالسة بحضرته ، فإ علم الله أن المولود من شيعتنا حجبه من ذلك الشيطان ، وإن لم يكن المولود من شيعتنا أثبت الشيطان أصبعه فى دبر الغلام فكان مأبونا ، وفى فرج الجارية فكانت فاجرة [2]) .

أظن أن القارىء معى فى أن الذى وضع هذه الرواية واختلقها على جعفر الصادق ، رجل ينقصه الذوق ، وتعوزه المهارة ، ونحن أمام هذه الأحاديث والروايات ، لا يسعنا إلا أن نردها رداً باتاً ، وذلك للأسباب الآتية :

أولا : إن غالب هذه الأحاديث يروونها بدون سند، بل يعتمدون على مجرد وجودها فى كتبهم . تروى كتب الشيعة أن إماماً من أئمة أهل البيت أولاد على يقول : (ذروا الناس فإن الناس أخذوا عن الناس وإنكم أخذتم عن رسول الله). ولكن بأى سند ؟ تجيب كتب الشيعة : (إن شيوخنا رووا عن الباقر وعن

---

(١) أعيان الشيعة ج ١ ص ٢٩٢ – ٢٩٣ .

(٢) الوشيعة ص ٤٠ نقلا عن الوافى ج ١٣ ص ١٤ .

الصادق وكانت التقية شديدة ، وكانت الشيوخ تكتم الكتب ، فلما خلت الشيوخ وماتت وصلت كتب الشيوخ إلينا ، فقال إمام من الأئمة حدثوا بها فإنها صادقة [1]) .

ثانياً : إن ما روى من هذه الروايات مسنداً لا بد أن يكون فى سنده شيعى متعصب لمذهبه ، وقد قال رجال الحديث : إنه لا تقبل رواية المبتدع الذى يدعو لمذهبه ويروج له .

ثالثاً : (إن القاعدة المتفق عليها بين المحدثين أن كل متن يناقض المعقول . أو يخالف الأصول. أو يعارض الثابت من المنقول، فهو موضوع على الرسول) وغالب أحاديثهم لا تسلم لهم إذا عرضناها على هذه القاعدة .

وكلمة الحق والإنصاف : أنه لو تصفح إنسان أصول الكافى : وكتاب الوافى وغيرهما من الكتب التى يعتمد عليها الأمامية الإثنا عشرية ، لظهر له أن معظم ما فيها من الأخبار موضوع وضع كذب وافتراء ، وكثير مما روى فى تأويل الآيات وتنزيلها ، لايدل إلا على جهل القائل بها وافترائه على الله ، ولو صح ما ترويه هذه الكتب من تأويلات فاسدة للقرآن ، لما كان قرآن ، ولا إسلام ، ولا شرف لأهل البيت ، ولا ذكر لهم .

وبعد . . . فغالب مافى كتب الإمامية الإثنى عشرية فى تأويل الآيات وتنزيلها ، وفى ظهر القرآن وبطنه ، استخفاف بالقرآن الكريم ، ولعب بآيات الذكر الحكيم . . . وإذا كان لهم فى تأويل الآيات وتنزيلاتها أغلاط كثيرة ، فليس من المعقول أن تكون كلها صادرة عن جهل منهم ، بل المعقول أن بعضها قد صدر عن جهل . والكثير منها صدر عمداً عن هوى ملتزم ، وللشيعة — كما بينا — أهواء التزمتها .

---

(١) الوشيعة ص ٤٦ — ٤٧ نقلا عن الوافى ج ١ ص ١٢٤ وشرح الكافى ج ١ ص ٢٨ .

أهم كتب التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية

للإمامية الإثنى عشرية ثروة كبيرة من كتب التفسير ، منها ما تم ، ومنها مالم يتم ومنها القديم ومنها الحديث . ومنها ما بقى ، ومنها ما اندثر ، وكلها تدور حول تركيز عقيدتهم مع اختلاف بينها فى الغلو والاعتدال ، واختلاف فى المنهج الذى سلكه مؤلف كل منها ومن هذه الكتب ما يأتى : —

١ — تفسير الحسن العسكرى ، المتوفى سنة ٢٥٤ ﻫ أربع وخمسين ومائتين من الهجرة لم يتم ، وهو مطبوع فى مجلد واحد ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٢ — تفسير محمد بن مسعود بن محمد بن عياش السلمى الكوفى المعروف ، بالعياشى ، من علماء القرن الثالث الهجرى . وهو من أمهات كتب التفسير عند الشيعة . وعليه يعولون كثيراً ، ولم يقع لنا هذا التفسير .

٣ — تفسير على بن إبراهيم القمى . فى أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الهجرى ، وهو تفسير مختصر يعتمد عليه أرباب هذا المذهب كثيراً ، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٤ — التبيان: للشيخ أبى جعفر محمد بن الحسن بن على الطوسى المتوفى سنة ٤٦٠ ﻫ ستين وأربعمائة من الهجرة . وهو الذى استمد منه الطبرسى تفسيره ، وقد ذكر صاحب أعيان الشيعة أنه يقع فى عشرين مجلداً . ولم يقع لنا هذا التفسير أيضاً [1] .

٥ — مجمع البيان : لأبى على الفضل بن الحسن الطبرسى المتوفى سنة ٥٣٨ ﻫ

---

(١) ذكر لى عند ما كنت بالعراق : أن هذا التفسير يجرى طبعه فى النجف ، ولعله تم الآن .

ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة ، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين ، وموجود بدار الكتب المصرية وبالمكتبة الأزهرية [١] .

٦ — الصافى : لمحمد بن مرتضى ، الشهير بملا محسن الكاشى ، من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، وهو مطبوع فى مجلد واحد كبير ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

٧ — الأصفى : للمؤلف السابق ، وهو مختصر من الصافى ، ومطبوع فى مجلد واحد كبير ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، وأخرى بمكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) .

٨ — البرهان : لهاشم بن سليمان بن اسماعيل الحسينى البحرانى ، المتوفى سنة ١١٠٧ ﻫ سبع ومائة بعد الألف من الهجرة ، وهو مطبوع فى مجلدين ، وموجود بدار الكتب المصرية .

٩ — مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار : للمولى عبد اللطيف الكازرانى ، ولم يقع لنا هذا التفسير والموجود منه مقدمته فقط ، وهى مطبوعة فى مجلد كبير وموجودة فى دار الكتب المصرية .

١٠ — المؤلف : لمحمد مرتضى الحسينى ، المعروف بنور الدين ، من علماء القرن الثانى عشر الهجرى ، وهو مخطوط فى مجلد واحد صغير ، وموجود بدار الكتب المصرية .

١١ — تفسير القرآن : للمولى السيد عبد الله بن محمد رضا العلوى ، المتوفى سنة ١٢٤٢ ﻫ اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة ، وهو مطبوع فى مجلد كبير ، وموجود بدار الكتب المصرية .

١٢ — بيان السعادة فى مقامات العبادة : لسلطان بن محمد بن حيدر الخراسانى ، من علماء القرن الرابع عشر الهجرى ، وهو مطبوع فى مجلد كبير وموجود بدار الكتب المصرية .

---

(١) وقد طبع أخيراً فى إيران فى عشر مجلدات ، كما أن دار التقريب بالقاهرة تقوم على طبعه الآن وقد صدر منه جزء واحد .

١٣ — آلاء الرحمن فى تفسير القرآن : لمحمد جواد بن حسن النجفى المتوفى سنة ١٣٥٢ ﻫ اثنتين وخمسين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة . لم يتم ، والموجود منه بدار الكتب المصرية الجزء الأول ، وهو كل ما كتبه المؤلف، ثم عاجلته المنية قبل إتمامه . وهو يبدأ بسورة الفاتحة ، وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة النساء «إن الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً... الآية » .

هذا هو أهم ما عرفناه من كتب التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية . وقد أمكننى أن أطلع على كل ما ذكرته من الموجود من هذه الكتب . وعلى غير ما ذكرته مما هو موجود أيضاً بدار الكتب المصرية . فوقفت بنفسى على مشارب أصحابها فى التفسير ، واتجاهاتهم فى فهمهم لكتاب الله تعالى، وكم كنت أود أن أطلع على تفسير العياشى ، وتفسير الطوسى ؛ لأقف بنفسى على هذين الكتابين المعتبرين أهم المراجع فى التفسير عند أرباب هذا المذهب .

وأظننى لست بحاجة إلى أن أتكلم عن كل كتاب اطلعت عليه من كتب هؤلاء القوم فى التفسير ، بل يكفينى أن أتكلم عن بعض منها ، وهو أهمها ، مع ملاحظة أن يكون كل كتاب يقع عليه اختيارى ، له لون خاص من ألوان التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية ، وطالع يمتاز به عما سواه .

وقد رأيت أن ألخص أولا مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار للكازرانى، لأنها تعطينا فكرة واضحة عن التفسير من وجهة نظر هؤلاء القوم بوجه عام، ومن وجهة نظر مؤلفها بوجه خاص .

ثم أتكلم عن تفسير الحسن العسكرى ، لأنه يمثل لنا تفسير إمام من أئمتهم المعصومين ، الذين عندهم علم الكتاب كله ، ظاهره وباطنه .

ثم عن مجمع البيان للطبرسى ، لأنه يمثل لنا تفسير معتدلى الإمامية الإثنى عشرية كما أنه يعطينا فكرة واضحة عن طريقة الجدل عندهم ، ومقدار دفاعهم عن آرائهم وعقائدهم .

ثم عن الصافى للمحسن الكاشى ، لأنه يمثل لنا التفسير عند متطرفى الإمامية الأثنى عشرية .

ثم عن تفسير القرآن للسيد عبد الله العلوى ، لأنه يمثل لنا التفسير السهل الذى جمع بين الاختصار وكثره الفائدة .

ثم عن بيان السعادة فى مقامات العبادة ، لسلطان بن محمد الخراسانى ، لأنه يمثل لنا التفسير الصوفى الفلسفى عند الإمامية الأثنى عشرية .

هذه هى أهم الكتب التى سأتكلم عنها وعن مؤلفيها وسأعرض لها مرتبة حسب ترتيبها فى الذكر ، فأقول مستمداً من الله العون والتوفيق :

(١) مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار

للمولى عبد اللطيف الكازرانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو المولى عبد اللطيف الكازرانى مولدا ، النجفى مسكنا(١) .

التعريف بمرآة الأنوار ومشكاة الأسرار وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير يعد فى الحقيقة مرجعا مهما من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية ، وأصلا لابد من قراءته لمن يريد أن يقف على مدى تأثير عقيدة صاحبه ومن على شاكلته فى فهمه لكتاب الله ، وتنزيله لنصوصه على وفق ميوله المذهبية وهواه الشيعى . . . ولكن كيف نحكم بأهمية هذا التفسير كمرجع من مراجع التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية ، ونحن لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية ؟ أليس هـــذا يعد من قبيل الحكم على ما نجهله ، والقول فيما ليس لنا به علم ؟ ؟ . . . لا ، فالكتاب وإن لم نظفر به ولم نطلع عليه ، قد وجدنا ما هو عوض عنه إلى حد كبير ، ذلك هو مقدمته التى قدم بها مؤلفه لتفسيره هذا .

وجدت هذه المقدمة فى دار الكتب المصرية ، فقرأتها . فرأيتها تكشف لنا عن منهج صاحبها فى تفسيره ، وتوضح لنا كثيراً من آرائه فى فهم كتاب الله وتبين فى صراحة تامة كيف تأثر المولى الكازرانى بعقيدته الزائفة ، فحمل كتاب الله ما لا يحتمله بأى حال من الأحوال . وها أنا ذا ألخص لك أهم المباحث التى تشتمل عليها هذه المقدمة . وبذلك نلقى ضوءاً على هذا التفسير المفقود ونعطى القارىء فكرة واضحة إلى حد كبير عن طريقة المؤلف ومنهجه فى تفسيره

---

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من ذلك .

المؤلف يتكلم عن الباعث له على تأليف تفسيره وعلى مهجه الذى سلكه فيه:

يجد القارىء أول ما يقرأ فى هذه المقدمة، بيانا مسهبا من المؤلف، يكشف لنا فيه عن الباعث الذى حمله على تأليفه لهذا التفسير، وعن المنهج الذى نهجه لنفسه فيه وسار عليه، كما يكشف لنا فى أثناء بيانه هذا، عن نظرته لكتاب الله وموقفه من تفسيره. تلك النظرة التى لا نشك أنها نظرة رجل ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته، وذلك الموقف الذى لا نرتاب فى أنه موقف من أغراه مذهبه وخدعه هواه.

يقول المؤلف فى المقدمة ص ٢، ٣ ما نصه: «... إن من أبين الأشياء وأظهرها، وأوضح الأمور وأشهرها، أن لكل آية من كلام الله المجيد... وكل فقرة من كتاب الله الحميد، ظهراً وبطنا، وتفسيراً وتأويلا، بل لكل واحدة منها — كما يظهر من الأخبار المستفيضة — سبعة بطون وسبعون بطنا، وقد دلت أحاديث متكاثرة، كادت أن تكون متواترة، على أن بطونها وتأويلها، بل كثيراً من تنزيلها وتفسيرها، فى فضل شأن السادة الأطهار، وإظهار جلالة حال القادة الأخيار، أعنى النبى المختار. وآله الأئمة الأبرار، عليهم صلوات الله الملك الغفار. بل الحق المتين، والصدق المبين، كما لا يخفى على البصير الخبير بأسرار كلام العليم القدير، المرتوى من عيون علوم أمناء الحكيم الكبير، أن أكثر آيات الفضل والإنعام، والمدح والإكرام، بل كلها فيهم وفى أوليائهم نزلت، وأن جل فقرات التوبيخ والتشنيع، والتهديد والتفضيح، بل جملتها فى مخالفيهم وأعدائهم وردت. بل التحقيق الحقيق — كما سيظهر عن قريب — أن تمام القرآن إنما أنزل للإرشاد إليهم، والإعلام بهم، وبيان العلوم والأحكام لهم، والأمر بإطاعتهم وترك مخالفتهم، وأن الله عز وجل جعل جملة بطن القرآن فى دعوة الإمامة والولاية، كما جعل جل ظهره فى دعوة التوحيد والنبوة والرسالة».

وهذه الدعاوى من المولى الكازرانى لا نكاد نسلمها له، إذ أنها لا تقوم على دليل صحيح، وما ادعاه من دلالة الأخبار المستفيضة والأحاديث المتكاثرة

على ما ذهب إليه ، أمر لا يلتفت إليه ولا يعول عليه . لأن ما يعنيه من الأخبار والأحاديث لا يعدوا أن يكون موضوعا لا أصل له . ومن هذا يتضح لنا أن هذا الشيعي مبالغ فى تشيعه إلى حد جعله يحمل كتاب الله تعالى ما لا يحتمله ، ويجعله موزعاً بين دعوة الحق ودعوة الباطل ، تلك بظاهر القرآن وهذه بباطنه ! ! . .

ثم ذكر المؤلف بعد ذلك ما كان من تسامح مفسرى الشيعة الذين سبقوه ، وسكوتهم عن ذكر ما ثبت عن الأئمة فى تفاسيرهم ، وبين عذرهم فى ذلك .

ثم ذكر أنه كان يجيش بصدره ، ويدور بخاطره وخلده ، أن يجمع ما تفرق من الأخبار المأثورة عن آل البيت ويشرح مضامينها ، ثم يلحق نصوص كل آية بسورتها ، وذلك كله فى كتاب مستقل ، ولكن حال بينه وبين ما تطمح إليه نفسه — حقبة من الزمن — تفرقُ باله ، وتشتت حاله ، وكثرة أشغاله ، ثم ظفر بعد ذلك بجملة من الآثار التى كان حريصا على جمعها ، فرأى أن الذى تطمح إليه نفسه لا يصح التغافل والتسامح فيه ، فاستخار الله واستعان بحوله وقوته على تحقيق مرامه ، فشرع فى جمع الروايات وتحريرها ، وتفسير الآيات وتقريرها .

ثم بين لنا هدفه الذى يرمى إليه من وراء هذا التفسير ، وهو أنه أراد أن يفسر آيات القرآن ويقرر معانيها على وجه منيف ، وبيان لطيف ، وطور رشيق ، وطرز أنيق ، بطريق الإيجاز والاختصار ، مع ذكر لب المقصود من الآيات والأخبار ، بحيث يوضح غوامض أسرارها ، ويكشف عن خبايا أستارها ، ويتبين طريق الوصول إلى ذخائر كنوزها ، ويرفع النقاب عن وجوه رموزها ، من غير تطويل ممل ، ولا اختصار زائد مخل .

ثم بين لنا منهجه الذى سلكه فى تأليفه لهذا التفسير ، وهو يتلخص فيما يأتى :

١ — يختصر الأخبار فلا يذكرها بتمامها ، بل يقتصر على موضع الحاجة ، ويحذف الأسانيد رغبة منه فى الاختصار .

٢ - أنه لا يتعرض لبيان جمع ما يتعلق بظاهر الآيات إلا إذا وجد أن التصريح بالمعنى الظاهر أمر لازم محتوم ، وقد جعل مدار هذا التفسير على بيان ما يتعلق بالبطون لخلو أكثر التفاسير منها أو من جلها .

٣ - أنه إذا لم يعثر على نص يفسر به الآية اجتهد فى تفسيرها على وفق الأخبار العامة المطلقة التى يمكن استخلاص معنى الآية منها .

٤ - أنه يحرص كل الحرص على ذكر ما يعرفه من قراءة أهل البيت عند كل آية من القرآن .

ثم ذكر أنه وفق لما وفق إليه من كتابة التفسير « ببركات أول من آمن بالله بعين الإيقان ، وثانى أول ما خلق الله قبل الكون والمكان ، قاسم درجات الجنان ودركات النيران ... إمام المشارق والمغارب. أمير المؤمنين أبى الحسنين على بن أبى طالب » .

ثم قال : وكنت لا أرجو من الإقدام على هذا الأمر إلا أن يدخلنى فى شيعته الخاصين . وأوليائه الخالصين . وأن تدركنى شفاعته المقبولة ، وحمايته المأمولة وجعلته خدمة لسدته السنية ، وثوابه هدية إلى حضرته العلية ، وسميته (مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار) اهـ .

وبالجملة ، فهذا التفسير أشبه ما يكون بالتفسير المأثور ، لالتزام صاحبه فيه بيان المعنى بما ورد من الأخبار عن علماء أهل البيت إماصريحاً أو استخلاصاً من عموم الأخبار، غاية الأمر أن هذه الأخبار أخبار لا يوثق بصحتها، ولا يعول على صدق نسبتها إلى من تنسب إليه من علماء آل البيت رضى الله عنهم .

بعد هذا البيان قال المولى عبد اللطيف الكازرانى (ولنذكر قبل الشروع فى المقصود ثلاث مقدمات نافعة لا بد من بيانها هٰهنا) ونستعرض هذه المقدمات الثلاث فتراه قد جعل المقدمة الأولى فى بيان ما يوضح حقيقة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بدعوة الولاية والإمامة ، كما أن ورود ظهره فيما يتعلق بدعوة التوحيد والنبوة والرسالة ، وأن الأصل فى تنزيل آيات القرآن بتأويلها ،

إنما هو الإرشاد إلى ولاية النبي والأئمة صلوات الله عليهم وإعلام عز شأنهم وذل حال شانئهم ، بحيث لاخير أخبر به إلا وهو فيهم وفي أتباعهم وعارفيهم ولا سوء ذكر فيه إلا وهو صادق على أعدائهم وفي مخالفيهم . قال (ويستبين ذلك في ثلاث مقالات) .

المقالة الأولى . في بيان مايوضح المقصود بحسب الأخبار الواردة في خصوص هذه المقدمة . وهي تتم بفصول . ثم ذكر ثلاثة فصول .

جعل الفصل الأول منها في بيان نبذ مما يدل على أن للقرآن بطوناً ولآياته تأويلات . وأن مفاد فقرات القرآن غير مقصور على أهل زمان واحد ، بل بل لكل منها تأويل يجرى في كل أوان وعلى أهل كل زمان . . . ثم ساق الروايات الدالة على ذلك وكلها مسندة إلى آل البيت ، فمن هذه الروايات ما رواه العياشي: وغيره عن جابر قال (سألت أبا جعفر عليه السلام عن شيء من تفسير القرآن فأجابني ، ثم سألته ثانية فأجابني بجواب آخر ، فقلت : جعلت فداك كيف أجبت في هذه المسألة بجواب غير هذا قبل اليوم؟ فقال لي : يا جابر . إن للقرآن بطنا ، وللبطن بطناً وظهراً . يا جابر . وليس شيء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن . . إن الآية ليكون أولها في شيء وآخرها في شيء وهو كلام متصل يتصرف على وجوه) . ثم عقب المولى عبد اللطيف على هذا الخبر فقال (دلالة مبدأ هذا الخبر على وجود تأويل له باطن وظاهر ، وعلى تعدد تأويل آية واحدة ، وعلى عدم تنافي تأويل أول آية في شيء وآخرها في آخر ، بل عدم تنافي التفسير بالظاهر في أولها والباطن في آخرها أو بالعكس ظاهرة ، فإذا سمعت شيئاً من ذلك فلا تنكره ؛ لأنهم عليهم السلام أعلم بالتنزيل والتأويل . وبما فيه إصلاح السائل والسامع ، ولهذا ورد : إن القرآن ذلول ذو وجوه فاحملوه على أحسن الوجوه » ، ويؤيده ما في الكافي عن الصادق عليه السلام أنه قال لعمر بن يزيد لما سأله عن قوله تعالى : والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل [1] ، هذه نزلت في رحم آل محمد صلى الله عليه وسلم

---

(١) في الآية (٢١) من سورة الرعد .

وقد يكون فى قرابتك ، فلا تكونن ممن يقول للشيء إنه فى شيء واحد) .

ومن هذه الروايات ما نقله عن كتاب العلل بإسناده إلى أبى حكيم الزاهد قال : حدثنى أبو عبد الله بمكة قال : « بينما أمير المؤمنين عليه السلام مار بفناء الكعبة إذ نظر إلى رجل يصلى فاستحسن صلاته ، فقال : يا هذا الرجل ، إن الله تبارك وتعالى ما بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بأمر من الأمور إلا وله متشابه وتأويل وتنزيل ، وكل ذلك على التعبد ، فمن لم يعرف تأويل صلاته فصلاته كلها خداج ناقصة غير تامة » ثم عقب المولى على هذا فقال « الظاهر أن المراد بالمتشابه الشبيه ، وبالتأويل الباطن وبالتنزيل الظاهر ، وبالتعبد سبيل الإطاعة ، والمعنى: أن كل ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم وأمر به فى الظاهر فله شبيه ونظير مأمور به فى الباطن ، ويلزم الإيمان بهما جميعاً ، فمن لم يعرف شبيه الصلاة وباطنها الذى هو الإمام وإطاعته - كما سيأتى - فصلاته الظاهرية ناقصة » اهـ ص ٣ - ٤ .

وعند الفصل الثانى فى ذكر الأخبار الصريحة فى أن بطن القرآن وتأويله ، إنما - هو بالنسبة إلى الأئمة - وولايتهم وأتباعهم وما يتعلق بذلك ، فكان من جملة الأخبار التى ساقها : ما رواه الكلينى بإسناده إلى أبى بصير قال : « قال الصادق عليه السلام ؛ يا أبا محمد ، ما من آية تقود إلى الجنة ويذكر أهلها بخير إلا وهى فينا وفى شيعتنا ، وما من آية نزلت يذكر أهلها بشر وتسوق إلى النار إلا وهى فى عدونا ومن خالفنا » .

وما نقله عن الكافى وتفسير العياشى وغيرهما ، عن محمد بن ميمون ، عن الكاظم عليه السلام فى قوله تعالى « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن[1] . . . » قال : القرآن له ظهر وبطن ، فجميع ما حرم الله فى الكتاب هو الظاهر ، والباطن من ذلك أئمة الجور ، وجميع ما أحل الله فى الكتاب هو الظاهر والباطن من ذلك أئمة الحق .

وما رواه عن الباقر عليه السلام قال: قال النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبته

---

(١) فى الآية ٣٢ من سورة الأعراف .

يوم الغدير « معاشر الناس : هذا علىّ أحقكم بى . وأقربكم إلىّ ، والله وأنا عنه راضيان ، وما نزلت آية رضى إلا فيه ، وما خاطب الذين آمنوا إلا بدأ به ، وما نزلت آية مدح فى القرآن إلا فيه . معاشر الناس : إن فضائل على عند الله عز وجل ، وقد أنزلها علىّ فى القرآن أكثر من أن أحصيها فى مكان واحد، فمن نبأكم بها وعرفها فصدقوه .

وما رواه عن عبد الله بن سنان أنه قال : قال ذريح المحاربى ، سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله تعالى « ثم ليقضوا تفثهم (١) فقال : المراد لقاء الإمام » . فأتيت أبا عبد الله عليه السلام وقلت له : جعلت فداك ، قوله عز وجل - « ثم ليقضوا تفثهم » قال أخذ الشارب . وقص الأظافر ، وما أشبه ذلك » . فحكيت له كلام ذريح فقال ، صدق ذريح وصدقت ، إن للقرآن ظاهراً وباطناً ومن يحتمل ما يحتمل ذريح ؟ ثم عقب المولى على هذا فقال « الكلام من الإمام عليه السلام صريح فى أنهم عليهم السلام كانوا يكتمون أمثال هذه التأويلات عن أكثر الناس ، حتى عن ابن سنان الذى كان من فضلاء أصحابه » اهـ (ص ٥) .

وعقد الفصل الثالث فى بيان نبذ مما يدل على وجوه تناسب الظواهر مع البطون ، وجهات تشابه أهل التأويل مع أهل التنزيل فقال « اعلم أن مادلت عليه الأخبار الماضية ، وما تدل عليه الأخبار التى ستأتى من المعانى الباطنة والتأويلات . ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة ، بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ، ونهج الاستعارة ، وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية ، إذ أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة ، فلا استبعاد إن أراد الله عز وجل بحسب الاستعمال الذى يدل عليه ظاهر اللفظ معنى ، وبحسب التجوز الذى تدل عليه القرائن ويجتمع مع الظاهر بنوع من التناسب معنى آخر وسنشير الى كثير من وجوه التناسب فى المقدمة الثالثة وغيرها ، ولكن نذكر

---

(١) الآية (٢٩) من سورة الحج

فى هذا المقام من كليات تلك الوجوه بعض ما يستفاد من أخبار الأئمة الأطياب ، ونرفع عن وجوه الآيات لطالب تأويلها الحجاب ، ونكشف عنها النقاب ، تبصرة لمن أراد التبصر من أولى الألباب . وأما إحاطة العلم بالجميع ، فهى للراسخين فى العلم ومن عنده علم الكتاب . . . كما سيظهر فى الفصل الأخير .

فاعلم أنه يمكن تبيين المرام فى هذا المقام من وجوه وإن أمكن إرجاع بعضها إلى بعض ، ثم ساق وجوها خمسة يرجع بعضها إلى بعض كما قال ، فكان مما ذكره فى الوجه الرابع ما جاء فى البصائر عن نصر بن قابوس قال، سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قوله عز وجل (وظل ممدود * وماء مسكوب * وفاكهة كثيرة * لا مقطوعة ولا ممنوعة *[1] قال يانصر إنه ليس حيث يذهب الناس إنما هو العالمُ وما يخرج منه .

ثم قال المولى قال : شيخنا العلامة — رحمه الله — لعل المعنى ليس حيث مذهب الناس من انحصار جنة المؤمنين فى الجنة الصورية الأخروية، بل لهم فى الدنيا أيضاً ببركة أئمتهم عليهم السلام جنات روحانية من ظل حمايتهم ولطفهم الممدود فى الدنيا والآخرة . وماء مسكوب من علومهم الممتعة التى بها تحيى النفوس والأرواح ، وفواكه كثيرة من أنواع معارفهم التى لا تنقطع عن شيعتهم ولا يمنعون منها ، وفرش مرفوعة مما يتلذذون به من حكمهم وآدابهم بل لا يتلذذ المقربون فى الآخرة أيضاً فى الجنان الصورية إلا بتلك الملاذ المعنوية التى كانوا يتنعمون بها فى الدنيا كما تشهد به الأخبار — إنتهى كلامه أعلى الله مقامه ، فتأمل ولا تغفل عن جريان مثله فى ساير نعم الجنة ، مثل أنهار الخمر وأمثالها ، كما يشهد له ما سيأتى فى الأنهار واللبن من تأويل اللبن والخمر بعلوم الأئمة عليهم السلام . وسيأتى فى الجنة والنار وما بمعناهما من تأويل الأولى بولاية الأئمة ، والثانية بعداوتهم . وأمثال هذه التأويلات كثيرة ينادى بها كثير من الأخبار فى الترجمات الجائية المناسبة لها فافهم .

---

(١) الآيات (٣٠ — ٣٣) من سورة الواقعة .

وكذا كل ما ورد ظاهره فى العذاب ، والمسخ والهلاك ، والموت البدنى ، ونحو ذلك ، فباطنه فى الهلاك المعنوى بضلالاتهم وحرمانهم عن العلم والكمالات ، وموت قلوبهم ومسخها وعميها عن إدراك الحق ، فهم إن كانوا فى صور البشر لكنهم كالأنعام بل هم أضل ، وإن كانوا ظاهراً بين الأحياء ، فهم أموات ، ولكن لا يشعرون ، إذ لا يسمعون الحق ، ولا يبصرونه ، ولا يعقلونه ، ولا ينطقون به ، ولا يأتى منهم أمر ينفعهم فى أخراهم ، فهم شر من الأموات وكذا كل ما كان فى القرآن مما ظاهره فى النهى عن القبائح الصورية ، وتحريم الخبائث الظاهرية ، كالزنا ، والسرقة والإيذاء ، ونحوها مما هو علامة رذالة حال فاعله ، ودليل خباثة طبع مرتكبه ، كالخمر والميتة ، والدم ، ونحوها مما تستقذر منه الطبائع السليمة ، وتنفر منه القرائح المستقيمة ، فبطنه فى النهى عن القبائح الباطنة التى هى معاداة الأئمة عليهم السلام، والزجر عن الخبائث المعنوية التى هى أعاديهم ومنكروا ولايتهم والفضائل التى هى فيهم ، فإنها أيضاً — فى استقذار الأرواح ، وتخبث القلوب ، واستنفار العقول . . . ونحو ذلك مثل الخبائث الظاهرة والقبائح الصورية . بل أشد كما لا يخفى. وهكذا حال بطون ما ظاهره فى الترغيب بالمبرات والأمر بالخيرات بالنسبة إلى الأئمة وولايتهم ومعرفتهم . وبالجملة المدار على تشبيه الأمور المعنوية بالصورية ، كالحياة والموت والانتفاعات والتصورات الروحانية بالجسمية . . . وهكذا فى البواقى . على أن فى هذا الأخير تناسباً آخر أيضاً ، وهو أنه لا خفاء فى كون النبى والأئمة صلوات الله عليهم وسائط معرفة العبادات والمأمورات . وأنهم الأصل فى قبولها فلا بُعدَ إن أريدوا بها فى بطن القرآن . وكذا لا بعد فى كون أعدائهم من حيث مضادتهم لهم من المراد بالخبائث والمنهيات) اهـ ص ٨ .

وفى الوجه الخامس من العلل ، علل ما ورد من تأويل معرفة الله . وعبادته ومخالفته ، وأسفه ، وظلمه ، ورضاه ، وسخطه ، وأمثالها بمعرفة الإمام ، وإطاعته ومخالفته ، وأسفه وظلمه ورضاه ، وسخطه وكذا تأويل الإمام ـ

يد الله ، وعينه ، وجنبه ، وقلبه وسائر ما هو من هذا القبيل مما نسبه الله إلى نفسه وخصه به ، بالإمام عليه السلام ، وما ورد من الأخبار في تأويل روح الله ونفسه ، ولفظ الجلالة والإله والرب الإمام عليه السلام . . . على هذه التأويلات وما شاكلها بأن الذي جرى من عادة الأعاظم والملوك والأكابر أن ينسبوا ما وقع من خدمهم بأمرهم إلى نفسهم تجوزاً ، وكذا قد ينسبون مجازاً ما يصيب خدمهم ومقربيهم من الإطاعة والخير والشر إلى أنفسهم ، إظهاراً لجلالة حال أولئك الخدم عندهم ، وإشعاراً بأنهم في لزوم المراعاة والإطاعة ودفع الضر عنهم وجلب النفع إليهم بمنزلة مخاديمهم وفي حكمهم ، بحيث أن كل ما يصل إليهم فهو كالواصل إلى المخاديم .

قال الصادق عليه السلام – كما سيأتي عن الكافي وغيره – إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا ، ولكن خلق أولياء لنفسه يأسفون ويرضون وهم مخلوقون مربوبون ، فجعل رضاهم رضا نفسه ، وسخطهم سخط نفسه ، لأنهم جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه . . . الخبر . . . في رواية أخرى : ولكن الله خلطنا بنفسه فجعل ظلمنا ظلمه ، وولايتنا ولايته ، ثم أنزل بذلك قرآناً على نبيه . . . الخبر

قال المولى : وسيأتي بقية الأخبار مفصلة . وهكذا كثيراً ما يطلق تجوزاً على مقربي الرجل وأعوانه أسامي جوارحه وأعضائه وسائر ما يختص به في النفع كما يقال للوزير الكامل المقرب عند السلطان النافع له جداً : إنه يده وسيفه وعينه . . . وهكذا بناء على أنه في الدفع والنفع والقرب والعزة مثل ذلك ، حتى أنه قد يقال : إنه روحه ونفسه ، بل ربما يقال إنه السلطان تجوزاً بمعنى أنه جعل إطاعته إطاعته ، ومخالفته مخالفته ، بحيث لا يرضى بغير ذلك . اهـ ص ٩

ثم عقد الفصل الرابع في بيان ما يدل على أن الواجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه ، وتنزيله وتأويله معاً ، كما أن الواجب الإيمان بمحكمه ومتشابهه وناسخه ومنسوخه ، وبسائر ما يتعلق بذلك جميعاً مفصلا أو على سبيل الإجمال إن لم يعلم التفصيل من طريق أهل البيت الذين هم أدرى بما في البيت . وإن من أنكر الظاهر كافر وإن أقر بالباطن ، كما هو مذهب الباطنية من ملاحدة

الخطابية والإسماعيلية وغيرهم القائلين بسقوط العبادات كما سيظهر ، وكذا بالعكس : أى إنكار الباطن وإن أقر بالظاهر ، على كل مؤمن أن لا يجترىء بإنكار ما نقل عن الأئمة عليهم السلام فى ذلك تفسيراً وتأويلا وإن لم يفهم معناه ولم يدرك مغزاه . . . ثم ساق من الروايات ما يدل على ذلك ، وكلها منسوبة إلى أهل البيت ، فمن ذلك ما روى عن الباقر عليه السلام أنه قال : إن الله عز وجل قد أرسل رسله بالكتاب وبتأويله ، فمن كذب بالكتاب أو كذب بما أرسل به رسله من تأويل الكتاب فهو مشرك » اهـ ص ٩

ومنها ما روى عن الهيثم التميمى ، قال : (قال أبو عبد الله عليه السلام : ياهيثم إن قوماً آمنوا بالظاهر وكفروا بالباطن فلم ينفعهم ذلك شيئاً ، وجاء قوم من بعدهم فآمنوا بالباطن وكفروا بالظاهر فلم ينفعهم ذلك شيئاً لا إيمان بظاهر إلا بباطن ، ولا بباطن إلا بظاهر) اهـ ص ٩ .

وعقد الفصل الخامس : فى بيان ما يدل على أن علم تأويل القرآن كله عند الأئمة عليهم السلام ، وما ذكر فى الأخبار الواردة فى المنع من تفسير القرآن بالرأى وبغير سماع من الأئمة ، وفى الجمع بينها وبين ما يعارضها من الآيات والروايات وتوجيه ما هو الحق فى ذلك . فقال اعلم أنه لا ريب فى اطلاع النبى والأئمة على جميع وجوه آيات القرآن ومعانيها كلها ؛ ظواهرها وبواطنها تنزيلها وتأويلها ، وأنهم الذين عندهم علم الكتاب كله ، كما أنزله الله فى بيتهم ؛ فإن أهل البيت أدرى بما فى البيت . وقد دلت على هذا أخبار متواترة . . . . فمنها ما فى البصائر بسند صحيح عن أبى الصباح قال : والله لقد قال لى جعفر بن محمد عليهما السلام : إن الله علم نبيه صلى الله عليه وسلم التنزيل والتأويل . قال : فعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً عليه السلام ؛ قال : وعلمنا . . الخبر .

وما فيه أيضاً بإسناده عن يعقوب بن جعفر قال : كنت مع أبى الحسن عليه السلام بمكة ، فقال له رجل : إنك لتفسر من كتاب الله ما لم نسمع به ، فقال أبو الحسن : فنحن نعرف حلاله وحرامه ، وناسخه ومنسوخه ، وسفريه وحضريه ، وفى أى ليلة نزلت من آية ، فيمن نزلت ، وفيم أنزلت . . الخبر

واستدل أيضا بما فى الكافى عن أبى جعفر عليه السلام أنه قال : ما يستطيع أحد يدعى أن عنده علم جميع القرآن كله ظاهره وباطنه إلا الأولياء . . .

ثم قال المولى عبد اللطيف بعد سياقه لهذه الرويات وغيرها « وأما غيرهم عليهم السلام فلا شبهة فى قصور علومهم وعجز أفهامهم عن الوصول إلى ساحة إدراك كثير من تفسير الظواهر والتنزيل ، فضلا عن البواطن والتأويل ، بلا إسناد من الأئمة العاملين ، وعناية من الله رب العالمين » .

ثم بعد أن استدل على ذلك بما ذكره من روايات سابقة ولاحقة قال : « ولهذا ورد المنع من التفسير بغير الأخذ منهم عليهم السلام » . ثم استدل على عدم جواز تفسير القرآن بالرأى وضرورة الرجوع إلى الأئمة فى فهم معانيه ، فكان مما استدل به ، مارواه عن العياشى عن الصادق عليه السلام قال : « من فسر القرآن برأيه إن أصاب لم يؤجر ، وإن أخطأ فهو أبعد من السماء » وما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم « من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار » ، وماورد فى تفسير الإمام عليه السلام من قوله : « أتدرون من المتمسك بالقرآن الذى له الشرف العظيم ؟ هو الذى يأخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت ، أو عن وسائط السفراء عنا إلى شيعتنا ، لا عن آراء المجادلين ، وقياس الفاسقين ، فأما من قال فى القرآن برأيه فإن اتفق له مصادفة صواب فقد جهل فى أخذه عن غير أهله ، وإن أخطأ القائل فى القرآن برأيه فقد تبوأ مقعده من النار » اهـ ص ١١ - ١٢ .

ثم بعد ذلك وفق بين الأخبار الدالة بظواهرها على حرمة التفسير بالرأى وبين ماورد من قوله تعالى « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها [١] » ، وقوله « لعلمه الذين يستنبطونه منهم [٢] » ، وقوله عليه السلام « القرآن ذلول ذو وجوه ، فاحملوه على أحسن الوجوه » ، وغير ذلك من الآيات والأخبار

---

(١) الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام .
(٢) فى الآية (٨٣) من سورة النساء .

الدالة على أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغا ومجالا رحبا فقال : لنا فى هذا المقام توجيهات عديدة نشير ههنا إلى ماهو الأكمل منها ، وهو ماذكره بعض محققى علمائنا ، وقال « الصواب أن يقال : إن من أخلص الانقياد لله ورسوله ولأهل البيت ، وأخذ علمه منهم ، وتتبع آثارهم ، واطلع على جملة من أسرارهم ، بحيث يحصل له المراس فى العلم والطمأنينة فى المعرفة . وانفتح عينا قلبه ، وهجم به العلم على حقائق الأمور ، وباشر روح اليقين ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، فله أن يستفيد من القرآن غرائبه ، ويستنبط منه نبذا من عجائبه ، وليس ذلك من كرم الله بغريب ، ولا من جوده بعجيب ، وليست السعادة وقفا على قوم دون آخرين ، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم ، كما قالوا : سلمان منا أهل البيت ، فمن هذه صفته لا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم ، العالمين بالتأويل» اهـ ص ١٢ — ١٣ .

ثم قال : وأما التفسير المنهى عنه ، فقد نزله المحقق أيضاً على وجهين :

أحدهما : أن يكون للمفسر فى الشىء رأى وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ، ليحتج به على تصحيح غرضه ومدعاه ، فيكون قد فسر القرآن برأيه ؛ أى رأيه هو الذى حمله على ذلك التفسير ، ولولا رأيه لما كان يترجح عنده ذلك الوجه . وهذا كما أنه مع الجهل كأكثر تفاسير المخالفين مثلا كذلك قد يكون مع العلم ، كالذى يحتج ببعض آيات القرآن على تصحيح بدعته وهو يعلم أنه ليس المراد بالآية ذلك ، ولكن يلبس على خصمه ، ومن هذا مامر من تأويلات الباطنية ، وقد يصدر مثله عمن له غرض صحيح ، لكن يطلب له دليلا من القرآن ويستدل عليه بما يعلم أنه ماأريد به ذلك ، كالذى يدعو مثلا إلى مجاهدة القلب القاسى فيقول : قال الله تعالى : « إذهب إلى فرعون إنه طغى » ويشير إلى قلبه ويؤمىء إليه أنه المراد بفرعون . قال ذلك المحقق ، وهذا قد يستغله بعض الوعاظ فى المقاصد الصحيحة تحسيناً للكلام وترغيباً للمستمع وهو ممنوع .

ثانيهما : أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية ، من غير استظهار بالسماع والنقل عن الأئمة فيما يتعلق بغرائب القرآن وما فيها من الألفاظ المبهمة والمبدلة ، وما فيها من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، وفيما يتعلق بالناسخ والمنسوخ والخاص والعام والرخص والعزائم والمحكم والمتشابه ، إلى غير ذلك من وجوه الآيات المفتقرة إلى السماع إذ من بادر إلى استنباط المعانى فيها بمجرد فهم العربية كثر غلطه ، ودخل فى زمرة من يفسر بالرأى ، فلا بد له أولا من السماع وظاهر التفسير ليتقى مواضع الغلط ، ثم بعد ذلك يتسع التفهم والاستنباط ، فإن ظاهر التفسير يجرى مجرى تعليم اللغة التى لابد منها للفهم ، ومن هذا القبيل قوله تعالى : « وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها[1] » فإن معناه آية مبصرة فظلموا أنفسهم بقتلها . والناظر إلى ظاهر العربية يظن أن المراد أن الناقة كانت مبصرة ولم تكن عمياء ، ولا يدرى أنهم بماذا ظلموا ، وأنهم ظلموا غيرهم أو أنفسهم ، ومن ذلك الآيات التى سنشير إلى كونها واردة على سبيل الكناية والرموز بحيث لا يطلع على مافيها إلا من تجرع كؤوس علوم آل محمد صلوات الله عليه وعليهم أجمعين ، كما سيأتى فى الفصل السادس من المقالة الأولى من المقدمة الثالثة فى قوله تعالى : « وماظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون[2] » من أن المراد ظلم محمد وآله . ومنها ما سيأتى أيضا فى الفصل الثالث من المقالة المذكورة فى قوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا[3] » من أنه تعالى عنى بذلك غير النبى صلى الله عليه وسلم كما قال الصادق عليه السلام : « ما خاطب الله به نبيه فهو يعنى به من قد مضى » وقد روى الكلينى وغيره عنه عليه السلام أنه قال : « نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى ياجارة » . وعن الباقر عليه السلام : « إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر عنه خبر ما قد كان » وقد مر فى حديث جابر قوله عليه السلام : « وليس شىء أبعد من عقول الرجال من تفسير القرآن إن الآية ليكون أولها

---

(١) فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء .
(٢) فى الآيه (٥٧) من سورة البقرة .
(٣) الآية (٧٤) من سورة الإسراء .

فى شىء وآخرها فى شىء . . . الخبر ، وسنذكر عن قريب فى فصول المقالة المذكورة وغيرها ، ما يوضح حال تفسير الآيات التى كذا شأنها ; ليتبصر به الناظر فيما نذكره من تفسير تلك الآيات إن شاء الله تعالى اه ص ١٣ .

ونحن لا نرى أدنى خلل فيما ذكره من الوجهين السابقين بصرف النظر عما ذكره من تفسير ، ولكن نأخذ عليه أنه لم يأخذ بما قال ، بل جعل القرآن تبعاً لرأيه ، ونزّله على معان تتفق وهواه ، ورمى غيره بالداء الذى هو فيه .

ثم ذكر المقالة الثانية ، فجعلها فى بيان ما يوضح اشتمال كلام الله تعالى ، الوارد فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة صريحاً وتنزيلا ، على ما يتعلق بالولاية والإمامة بطنا وكناية وتأويلا ، بحسب الأخبار الواردة فى أن الولاية أى الإقرار بنبوة النبى وإمامة الأئمة والتزام حبهم وإطاعتهم وبغض أعدائهم ومخالفيهم أصل الإيمان ،مع توحيد الله عزوجل ; بحيث لا يصح الدين إلا بذلك كله ، بل إنها بسبب إيجاد العالم ، وبناء حكم التكليف ، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك ، وأنها التى عرضت كالتوحيد على الخلق جميعا ، وأخذ عليهم الميثاق ، وبعث بها الأنبياء . وأنزلت فى الكتب ، وكلف بها جميع الأمم ولو ضمنا ، وأن نسبة النبوة إلى الإمامة كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها ، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر. ولا يفيد الإيمان ببعض دون بعض ، وأن الأئمة مثل النبى فى فرض الطاعة والأفضلية بعده على الخلائق أجمعين ، وكونهم وسائط ووسائل لسائر عباد الله المكرمين ، من الأنبياء والأوصياء والملائكة المقربين .... عقد هذه المقالة الثانية لهذا الغرض فقال : « اعلم أن الأحاديث الغير المحصورة ، تدل على هذه الأمور المذكورة ، بل أكثرها مما هو مجمع عليه عند علمائنا الإماميين ، وقد نص على حقيقتها بل كون جلها من ضروريات هذا المذهب أعاظم أصحابنا المحدثين ، وكفى فى بيان ذلك ما ذكروه من مباحث الإمامة وكتب فضائل الأئمة ، وسنذكر فى هذا الكتاب لها شواهد كثيرة ، فلنكتف ههنا بنقل شىء من تصريحات محقق أصحابنا فى هذا الباب ، وذكر أقل قليل من نصوص الأئمة

الأطياب إذا ليس هنا موضع البسط والإطناب ويكفى ما سنذكر في تبصرة من هو من أولى الألباب ، فههنا فصول خمسة ، ... ثم ساق الفصول الخمسة :

فجعل الفصل الأول منها فى بيان نبذ من تصريحات علماء الشيعة الإمامية من عظم شأن الأئمة وولايتهم ، وكفر منكريهم ،

وجعل الفصل الثانى فى بيان نبذ من الأخبار التى وردت فى خصوص فرض ولاية أهل البيت وحبهم وطاعتهم ، وأن ذلك مناط صحة الإيمان ، وشرط قبول الأعمال والخروج عن حد الكفر والشرك ، وأورد فيه ما جاء من ذم إنكار الولاية والشك فيهم ، وكفر مبغضيهم ومخالفيهم .

وجعل الفصل الثالث فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن الإقرار بإمامة الأئمة وحبهم وولايتهم يتلو الإقرار بنبوة النبى صلى الله عليه وآله فى مدخلية صحة الدين وصدق الإيمان ، كما أن الإقرار بالنبوة يتلو التوحيد فى ذلك ، وأن نسبة النبوة إلى الإمامية ، كنسبتها إلى التوحيد فى تلازم الإقرار بها وبقرينها ، بحيث إن الكفر بكل فى حكم الكفر بالآخر ولا يفيد الإيمان ببعض دون الآخر .

وجعل الفصل الرابع فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى خصوص أن الولاية عرضت مع التوحيد على الخلق جميعا ، وأخذ عليهم الميثاق ، وبعث بها الأنبياء ، وأنزلت فى الكتب ، وكلف بها جميع الأمم ، وأورد فيه ما يدل على أنها سبب إيجاد الخلق أيضا .

وجعل الفصل الخامس فى بيان بعض الأخبار التى وردت فى أن النبى صلى الله عليه وآله والأئمة عليهم السلام أول المخلوقين ، وأفضلهم ، وأكملهم ، وأكرمهم ، بحيث كانت الملائكة والأنبياء تتوسل بهم وبولايتهم ، وتفخر الملائكة بخدمتهم ، وتعلموا التسبيح والتمجيد منهم ، وأنهم وولايتهم العلة فى الإيجاد ، والأصل فى الطاعة والمعرفة .

ثم ذكر [illegible] الثالثة [illegible] وروده بطون القرآن فيما يتعلق

بالولاية والإمامة، بحسب الأخبار التى تدل على أن هذه الأمة تقتفى سنن الأمم السابقة، وسيرة من كان قبلهم فى كل أفعالهم وجميع أطوارهم وأعمالهم، كما أنه كان كذلك فى سائر الأمم. قال . « فإنها بجملتها — يعنى بطون القرآن — تقتضى بحسب لطف الله تعالى أن لا يترك الإنذار والتبشير فيهم، كما لم يترك بالنسبة إلى سابقهم، وأن يشير إلى الزين والشين فى كل أوان بالنسبة إلى أهل كل زمان. وحيث لم يكن وقت نزول القرآن بعض ما علم الله صدوره من هذه الأمة صار أبعد منهم، فلا بد من ألطافه الكاملة أن يجعل ذلك تأويل كلامه البليغ، بحيث يستفاد من التنزيل والتبليغ، ولا شك أن هذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز . . . » وقد أورد فى جملة ما أورد من الاخبار فى ذلك، ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى : « لتركبن طبقا عن طبق[1] أى لتسلكن سبيل من كان قبلكم من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء . وما رواه الكلينى فى الصحيح عن زرارة عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى : « لتركبن طبقا عن طبق » قال : يازرارة . . أى لتركبن هذه الامة بعد نبيها طبقا عن طبق فى أمر فلان، وفلان . وفلان » قال المولى الكازرانى : « أقول : أى كانت ضلالتهم بعد نبيهم مطابقة لما صدر من الأمم السابقة فى ترك الخليفة واتباع العجل والسامرى وأشباه ذلك . . . قال : ويحتمل أن يكون المعنى تطابق أحوال خلفاء الجور فى الشدة والفساد » اهـ ص ٢٣ و ٢٤ .

ثم ذكر المقدمة الثانية فتكلم فى بيان ما يوضح وقوع بعض تغيير فى القرآن وأنه السر فى جعل الإرشاد إلى أمر الولاية والإمامة والإشارة إلى فضائل أهل البيت وفرض طاعة الأئمة بحسب بطن القرآن وتأويله، والإشعار بذلك على سبيل التجوز والرموز والتعويض فى ظاهر القرآن وتنزيله فقال : « اعلم أن الحق الذى لا محيص عنه بحسب الأخبار الواردة المتواترة الآتية وغيرها، أن هذا القرآن الذى فى أيدينا قد وقع فيه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله شىء

(١) الآية (١٩) من سورة الانشقاق .

من التغييرات ، وأسقط الذين جمعوه بعده كثيراً من الكلمات والآيات ، وأن القرآن المحفوظ عما ذكر ، الموافق لما أنزله الله تعالى ، ما جمعه عليٌّ عليه السلام وحفظه إلى أن وصل إلى ابنه الحسن عليه السلام . . . وهكذا إلى أن ينتهى إلى القائم عليه السلام ، وهو اليوم عنده صلوات الله عليه . ولهذا — كما قد ورد صريحاً حديث سنذكره — لما أن الله عز وجل قد سبق فى علمه الكامل صدور تلك الأفعال الشنيعة من المفسدين فى الدين ، وأنهم بحيث كلما اطلعوا على تصريح بما يضرهم ويزيد فى شأن على عليه السلام وذريته الطاهرين ، حاولوا إسقاط ذلك رأساً أو تغييره محرفين ، وكان فى مشيئته الكاملة ومن ألطافه الشاملة محافظة أوامر الإمامة والولاية ، ومحارسة مظاهر فضائل النبى صلى الله عليه وآله والأئمة ، بحيث تسلم عن تغيير أهل التضييع والتحريف ويبقى لأهل مفادها مع بقاء التكليف ، لم يكتف بما كان مصرحاً به منها فى كتابه الشريف ، بل جعل جلّ بيانها بحسب البطون وعلى نهج التأويل . وفى ضمن بيان ما تدل عليه ظواهر التنزيل ، وأشار إلى جمل من برهانها بطريق التجوز والتعريض ، والتعبير عنها بالرموز والتورية وسائر ما هو من هذا القبيل ، حتى تتم حجته على الخلائق جميعا ولو بعد إسقاط المسقطين ما يدل عليه صريحاً بأحسن وجه وأجمل سبيل » قال : « ويستبين صدق هذا المقال بملاحظة جميع ما نذكره فى هذه الفصول الأربعة المشتملة على كل هذه الأحوال .

ثم عقد الفصل الأول فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره ، من الروايات التى نقلها أصحابه من الإمامية فى كتبهم .

وعقد الفصل الثانى فى بيان نبذ مما ورد فى جمع القرآن ونقصه وتغييره ، والاختلاف فيه من الروايات التى نقلها المخالفون فى كتبهم .

وعقد الفصل الثالث فى بيان ما وعد به سابقا ، من الخبر المشتمل على التصريح بتغيير القرآن ، وأنه هو السر فى الإشارة إلى ما يتعلق بالولاية والإمامة على سبيل الرمز والتعريض .

وعقد الفصل الرابع فى بيان خلاصة أقوال علمائهم فى تغيير القرآن وعدمه وتزييف استدلال من أنكر التغيير .

ثم ذكر المقدمة الثالثة وقد عقدها لبيان ما يوضح نبذا من التأويلات المأثورة عن الأئمة السادات والمفهومة من بعض الروايات ، المرشدة إلى تأويل ما لم يظفر من تأويله على نص خاص من الكلمات القرآنية والآيات . قال : ويستبان بها أيضاً ما بينته من صحة ورود بطن القرآن فيما يتعلق بالولاية والإمامة ، وأن فى هـذا الأمر تأويل ما ورد تنزيله فيما يتعلق بالتوحيد والنبوة . . . عقد هذه المقدمة لبيان ما تقدم فقال :

إعلم أن التأويلات التى ظفرنا عليها من أخبار الأئمة الأطهار على ثلاثة أقسام :

الأول : ماورد مختصاً بكلمة أو آية مذكورة فى موضع واحد بحيث لايجرى فى غيرها ، ومحل ذكر مورده .

الثانى : ما ورد فى آية أو كلمة قرآنية لكنه بحيث يجرى فى غيرها ، بل ربما يكون الورود على سبيل العموم أيضا ، ونحن نذكر هذا القسم فى هـذه المقدمة مع نصه أو الإشارة إلى موضع ذكر النص .

الثالث : [illegible] فى تأويل آية إلا أنه مما يجرى فيها ، كقوله عليه السلام : [illegible] . وهذا أيضاً مما نذكره فى هـذه المقدمة مع ذكر نصه أو الإشارة إليه ، وفى هذين الأخيرين إذا وصلنا فى كتابنا هذا إلى موضع يجرى فيه أحدهما أولناه على وفقه بعد الإشارة إلى ورود التأويل وموضعه ، بل مع إعادة ذكر أكثر النصوص فى مواردها . ثم من هذه التأويلات ما هو على [illegible] المجازات العقلية . ومنها ما هو من قبيل المجاز [illegible] على مقالتين ، نذكر فى إحداهما ما ظاهره [illegible] المراد ذكره ، وفى الأخرى سائر التأويلات [illegible] خاتمة نختم بها المقدمات . اهـ ص ٣٦ .

ثم ذكر المقالة الأولى : فجعلها فى بيان بعض التأويلات التى لابد من إفراد ذكرها من حيث عظم فوائدها ، وجلها من قبيل المجازات العقلية ، والتجوز فى الإسناد ، والكناية ، والتعويض وإن أمكن التكلف فى إدخال بعضها تحت المجاز اللغوى ، وقد جعل هذه المقالة مشتملة على سبعة فصول :

جعل الفصل الأول منها : فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الله عز وجل كثيراً ما أراد فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ماصدقت عليه ، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك . قال : ويدل على هذا أحاديث كثيرة . منها ماسيأتى فى تأويل الكافرين بمن كفر بالولاية ، والمنافقين بمن نافق فيها ، والمشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام ، وأشباه ذلك ... ثم قال : والحق أنه إذا تأمل بصير فى أكثر ماورد من تفسير البطن علم أن معظم ذلك من هذا القبيل ، وهو مجاز شائع ذائع استعماله فى كثير من الألفاظ العامة والمطلقة ونحوها . . إلخ ا هـ ص ٣٦ .

وجعل الفصل الثانى : فى بيان مايظهر من الأخبار أن الله تعالى كثيراً ما يخاطب بخطاب أو وصف صادق على الماضين من أهل أزمان النبى صلى الله عليه وسلم والأمم السالفة بحسب الظاهر . ومراده بحسب التأويل والباطن من صدق ذلك الخطاب أو الوصف عليه من هذه الأمة بالنظر إلى حال الإمامة والولاية وإن لم يكن فى ذلك الزمان ... ثم ذكر فى ضمن مارواه من الأخبار الدالة على ذلك ما جاء فى تفسير العياشى عن عبد الله بن سنان عن أبى عبد الله فى قوله عز وجل « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون[1] » قال : قوم موسى : هم أهل الإسلام . قال المولى « والظاهر أن مراده عليه السلام ، أن نظيره جار فيهم ، وإنما ذكر فى الآية تمثيلا لحال هذه

---

(١) فى الآية (١٥٩) من سورة الأعراف

الأمة ، ويؤيده ماسيأتى فى الأئمة(١) فلا ينافى هذا ماهو الظاهر عن الآية من وجود جماعة فى قوم موسى هادين إلى الحق صريحا كما يظهر من بعض الأخبار) اهـ ص ٢٧

وجعل الفصل الثالث : فى بيان مايظهر من الأخبار من أن الله سبحانه قد يريد بخطابه فى كتابه بحسب التأويل والبطن مخاطباً غير من يفهم من الظاهر كون الخطاب متوجها إليه . وكان ذلك فى أثناء الخطاب وبين الخطاب مع المخاطب المفهوم من الظاهر وفى آية واحدة ، وذلك كما ورد فى خبر جابر من قوله عليه السلام « إن الآية لتكون أولها فى شىء وآخرها فى شىء » وما ورد فى الكافى وفى تفسير العياشى عن عبد الله بن بكير عن أبى عبد الله قال : « نزل القرآن بإياك أعنى واسمعى ياجارة » وفيهما أيضا عن أبى عمير عمن حدثه عن أبى عبد الله قال « ماخاطب الله به فهو يعنى به من قد مضى ذكره فى القرآن مثل قوله « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا » عنى بذلك غيره . قال بعض المحدثين : لعل المراد من مضى ذكره فى القرآن من الذين أسقط أسماءهم الملحدون فى آيات ... قال وفى كنز الفوائد عن الأعمش قال سمعت عطاء بن أبى رباح يقول سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل « ألقيا فى جهنم كل كفار عنيد(٢) » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا وعلى نلقى فى جهنم كل من عادانا ... الخبر » اهـ ص ٢٧ .

وجعل الفصل الرابع : فى بيان ما يظهر من الأخبار من أن الضمير فى القرآن قد يكون بحسب التأويل راجعاً إلى شىء ليس بمذكور صريحاً ، بل مقصود بحسب الباطن ومعهود تأويلا ، كالضمائر التى ورد رجوعها إلى الولاية أو إلى أمير المؤمنين عليه السلام أو نحو ذلك ، بلا سبق ذكر ظاهراً . ثم ذكر

---

(١) لعله يريد قوله تعالى بعد هذه الآية مباشرة « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما . « الآية » حيث يحمل على الأئمة الإثنى عشر

(٢) الآية (٢٤) من سورة ق

ماورد من الأخبار فى ذلك ، منها : ما رواه الكلينى عن المفضل قال . سألت أبا عبد الله عليه السلام عن قول الله عز وجل « قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله [1] » قال: قالوا أو بدل علياً ... وما ورد فى كنز الفوائد للكراكجى من تأويل أهل البيت فى حديث أحمد بن إبراهيم عنهم عليهم السلام قالوا « وتجعلون رزقكم [2] » أى أن شكر النعمة التى رزقكم ومامنّ عليكم بمحمد وآله « أنكم تكذبون » أى بوصيّته . فلولا إذا بلغت الحلقوم * وأنتم حينئذ تنظرون» إلى وصيه على عليه السلام يبشر وليه بالجنة « ونحن أقرب إليه منكم » يعنى أقرب إلى أمير المؤمنين على منكم « ولكن لاتبصرون » أى لا تعرفون . ومنها ماورد فى تفسير القمى عن أبى الشمال عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى فى سورة المدثر « إنها لإحدى الكبر » نذيراً للبشر [3] » قال : يعنى فاطمة : وكذا قال فى سائر الضمائر التى فى السورة اهـ ص ٣٨ .

وجعل الفصل الخامس : فى بيان ما يدل على أنه لا استبعاد فى أن يحمل ما عبر عنه بالماضى على ما هو المستقبل الآتى كما يقتضيه كثير من التأويلات فقال : روى الكلينى فى الكافى بإسناده عن أبى جعفر الباقر عليه السلام أنه قال : إذا علم الله شيئاً هو كائن أخبر خبر ما قد كان ، يعنى إذا كان فى علم الله تعالى الكامل وقوع الشىء لا محالة وأنه سيكون قطعا ، أخبر عنه على سبيل ما قد مضى وكان ، سواء كان ذلك مما يدل عليه ظاهر القرآن وتنزيله ، أو باطنه وتأويله ، كما هو مقتضى التطابق كأحوال يوم القيامة مثلا ، والثواب والعقاب وسائر ما هو من هذا القبيل كالرجعة وما يكون فيها ، وما يصدر من الأمة

---

(١) فى الآية (١٥) من سورة يونس

(٢) هى وما بعدها إلى قوله « ولكن لا تبصرون » الآيات (٨٢ — ٨٥) من سورة الواقعة .

(٣) الآيتان (٣٥ ، ٣٦) من سورة المدثر

بالنسبة إلى الإمامة وأمثال ذلك . . قال : ولا يخفى أنه بناءاً على هذا يرتفع الاستبعاد المذكور . اهـ ص ٣٨ .

وجعل الفصل السادس : في بيان ما يظهر من الأخبار من أن إيراد أكثر الأشياء التي نسبها الله عز وجل إلى نفسه على صيغة الجمع وضميره كقوله سبحانه وتعالى « فلما آسفونا انتقمنا منهم [1] » ، وقوله عز وجل « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم [2] » ، وأمثالها من الكلمات القرآنية فإن السر فيه إدخال النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة فيها ، بل إنهم هم المقصودون في كثير منها . وعد هذا من قبيل المجازات الشائعة في كلام الملوك والأعاظم ... ثم قال : فلنكتف ههنا بنقل بعض الأخبار الدالة عليه ، وذكر أخباراً . منها : مارواه الكليني في الصحيح عن حمزة بن بزيغ عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عز وجل « فلما آسفونا انتقمنا منهم » فقال : إن الله تعالى لا يأسف كأسفنا ، ولكنه خلق أولياء لنفسه يأسفون وهم مخلوقون مربوبون، فجعل رضاهم رضى نفسه ، وسخطهم سخط نفسه ؛ لأنه جعلهم الدعاة إليه والأدلاء عليه ... الخ، وليس أن ذلك يصل إلى الله كما يصل إلى خلقه، ولكن هذا معنى ما قال من ذلك ، وقد قال « من أهان لي ولياً فقد بارزني بالمحاربة ودعاني إليها » ، وقال « من يطع الرسول فقد أطاع الله [3] » ، وقال « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم [4] » ، قال وهكذا الرضا والغضب وغيرهما من الأشياء مما يشاكل ذلك الخبر ولا يخفى صراحة في المقصود ههنا ... قال : وفي الكافي وغيره عن زرارة عن أبي جعفر قال : سألته عن قول الله عز وجل « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » فقال : إن الله أعظم وأعز وأجل من أن يظلم ،

---

(١) في الآية (٥٥) من سورة الزخرف .
(٢) في الآيتان (٢٥، ٢٦) من سورة الغاشية .
(٣) في الآية (٨٠) من سورة النساء .
(٤) في الآية (١٠) من سورة الفتح .

ولـكن خلطنا بنفسه ، فجعل ظلمنا ظلمه ، وولايتنا ولايته حيث يقول . (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا)[1] يعنى الأئمة منا . اهـ ص ٣٩ .

وجعل الفصل السابع : فى بيان ما يظهر من الأخبار من إطلاق لفظ الجلالة والإله والرب بحسب بطن القرآن وتأويله على الإمام فى مواضع عديدة ، بل هكذا حال بعض الضمائر الراجعة بحسب التنزيل إليه سبحانه وأن تأويل ما نسبه الله إلى نفسه بإضافته إلى هذه الألفاظ من العبادة ، والإطاعة والمعرفة . والرضى ، والسخط ، والمخالفة ، والفقر ، والغنى ، إلى غير ذلك هو ما يتعلق بالإمام كمتابعته ، وإقامته ، وإطاعته ، ورضاه . وسخطه ، وسبه ، وأذاه ، ومخالفته ، وغناه ، وفقره ، ونحو ذلك . وعد ذلك من قبيل المجازات العقلية والتجوز فى الإسناد . قال : لكن يظهر من بعض ما سنذكره من الأخبار أن فى ذلك ما هو من قبيل المجاز اللغوى أو التشبيه بالمعنى العرفى . ثم ذكر بعض ما هو نص فى بيان المقصود ، فذكر من ذلك ما رواه الطبرسى فى الاحتجاج عن على عليه السلام أنه قال فى حديث له طويل : إن قوله تعالى : « وهو الذى فى السماء إله وفى الأرض إله[2] » ، وقوله « وهو معكم أينما كنتم[3] » ، وقوله « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم[4] » ، فإنما أراد بذلك استيلاء أمنائه بالقدرة التى ركبها فيهم على جميع خلقه ، وأن فعلهم فعله ... الخبر ، وما رواه العياشى فى تفسيره عن أبى بصير قال : سمعت أبا عبد الله عليه السلام يقول « وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد[5] » يعنى بذلك لا تتخذوا إمامين إنما هو إمام واحد ، وما جاء فى كنز الفوائد للكراكجى عن على بن أسباط عن إبراهيم الجعفرى عن أبى الجارود عن أبى عبد الله عليه

(١) فى الآية (٥٥) من سورة المائدة

(٢) فى الآية (٨٤) من سورة الزخرف .

(٣) فى الآية (٤) من سورة الحديد .

(٤) فى الآية (٧) من سورة المجادلة .

(٥) فى الاية (٥١) من سورة النحل .

السلام فى قوله تعالى : «أءلهٌ مع الله بل أكثرهم لايعلمون [١]» قال : أى أئمام هدى مع إمام ضلال فى قرن واحد ؟ وما رواه القمى فى تفسير قوله تعالى : « وأشرقت الأرض بنور ربها [٢] » أن الصادق عليه السلام قال : أى رب الأرض ، يعنى إمام الأرض ، وماجاء فى تفسير القمى فى قوله تعالى : « مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح ... الآية [٣] » قال : من لم يقر بولاية على عليه السلام بطل عمله مثل الرماد الذى تجىء الريح فتحمله ، وما جاء فى كنز الفوائد من تأويل قوله تعالى « قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا[٤] أن الإمام عليه السلام قال : هو يرد إلى أمير المؤمنين عليه السلام فيعذبه عذابا نكرا، ثم يقول «ياليتنى كنت ترابا [٥]» أى من شيعة أبى تراب . اهـ ص ٤١

وأما المقالة الثانية : فهى فى بيان سائر التأويلات العامة التى تجرى فى غير موضعها وتعم أكثر من موضع واحد مع نصوصها وأدلتها . وقد رتب المولى مافى هذه المقالة على ترتيب حروف الهجاء ونهج فيها منهج كتب اللغة بملاحظة الحرف الأول ، ثم الآخر ثم الثانى . فمن ذلك الذى ذكره ما يأتى :

(الإصر) قال هو فى سورة البقرة ، وآل عمران ، والأعراف . وفى أساس البلاغة : الإصر : الثقل . وفى القاموس : الإصر بالكسر : الذنب ، وسيأتى فى الذنب تأويله . وقد روى الكلينى أيضا عن الباقر عليه السلام فى قوله تعالى « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم [٦] » أنه قال « الإصر الذنوب التى كانوا فيها قبل معرفة فضل الإمام ، فلما عرفوا فضل

(١) فى الآية (٦١) من سورة النمل .
(٢) فى الآية (٦٩) من سورة الزمر .
(٣) فى الآية (١٨) من سورة إبراهيم .
(٤) فى الآية (٨٧) من سورة الكهف
(٥) فى الآية (٤٠) من سورة النبأ
(٦) فى الآية (١٥٧) من سورة الأعراف .

الإمام وضع عنهم الإصر ، قال : قال عليه السلام : الإصر الذنب ، وهى الآصار .. الخبر ، وتأويله ظاهر . وفى تفسير القمى عن الصادق عليه السلام أنه قال فى قوله تعالى « وأخذتم على ذلكم إصرى [1] » أى عهدى ، أى عهد الإيمان بالنبى صلى الله عليه وسلم ونصرة على عليه السلام . اه ص ٥٠

(الباطل) قال : الباطل والمبطلون ، والباطل ضد الحق وقد ورد تأويله بأعداء الأئمة ، وبدولة الباطل ؛ وبما كان عليه بنو أمية وأشباههم من غاصبى الخلافة ، كعداوة الأئمة وغيرها ، ومنه يظهر المراد بالمبطلين أى مدعى الباطل وأتباعهم ، ففى تفسير القمى عن الصادق عليه السلام فى قوله تعالى « ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل [2] » قال هم الذين اتبعوا أعداء على وآل الرسول .. الخبر . اه ص ٧٠

(الراجفة) قال : الراجفة ، والرادفة ، والرجفة ، والمرجفون : أصل الرجفة الحركة والاضطراب ، ومنها الأرجوفة للكذب الذى يوقع فى الاضطراب . وفى سورة الأحزاب [فى الآية ٦٠] « والمرجفون فى المدينة » قال : وسيأتى هناك عن الصادق عليه السلام : أن الراجفة الحسين عليه السلام ، والرادفة أبوه على عليه السلام ، وأن أول من ينفض التراب عن رأسه فى الرجعة الحسين عليه السلام . وقد فسرها المفسرون بالنفخ الأول ، والرادفة بالنفخ الثانى ، وهو أيضا مناسب للتأويل المذكور كما سيأتى فى الصور . وربما أمكن إجراء ماذكرناه من التأويل فى بعض موارد الرجفة على حسب التناسب ، بل يمكن التأويل أيضا بقيام القائم ورجعة الناس فلا تغفل . اه ص ١٠٩

(الزيت والزيتون) قال أما الزيتون فمعروف . وأما الزيت ففرد منه . ويأتى إن شاء الله فى المشكاة ، وفى سورة النور عند تأويل آية النور ما يدل على تأويل الزيت بالعلم ، وفى سورة (التين) ما يدل على تأويل الزيتون بالحسين ، وقد أوله القمى أيضا بعلى عليه السلام كما سيظهر فى السورة

---

(١) فى الآية (٨١) من سورة آل عمران .

(٢) فى الآية (٣) من سورة محمد صلى الله عليه وسلم .

المذكورة ، ولعله يمكن إجراء ذلك فى غير تلك السورة أيضا . وقد قيل فى وجه هذه الاستعارة : إن الزيتون فاكهة وإدام ودواء وله دهن مبارك لطيف ، وعلى عليه السلام وكذا الحسين عليه السلام كل واحد ثمرة فؤاد المقربين ، وعلومه قوة قلب المؤمنين ، وبنوره ونور أولاده الطاهرين اهتدى جميع المهتدين ، وقد مثل الله نوره بأنوارهم كما شاع فى أخبارهم ، ثم قد ورد تأويل الزيتون ببيت المقدس كما يأتى فى (الطور) اه ص ١١٣ .

(القبلة) قال فى القاموس : القبلة التى يصلى نحوها ، والجهة . والكعبة ، وكل ما يستقبل — يقال : ماله قبلة ولا دبرة بكسرهما أى وجهة . هذا وقد مر فى الصلاة ما يدل على تأويل القبلة بالأئمة عليهم السلام . وأنهم المراد بها بحسب بطن القرآن . واستقبالها كناية عن التمسك بهم واتباعهم ونحو هذا . وفى تفسير العياشى عن الصادق عليه السلام « نحن قبلة الله ونحن كعبة الله » وسيأتى بعض المؤيد فى (الكعبة) والله الهادى . اه ص١٨٣

ثم ذكر الخاتمة ، وجعلها مشتملة على فصلين :

الفصل الأول : فى بيان نبذ مما ورد من تأويلات الحروف المقطعة التى فى أوائل بعض السور فقال « اعلم أن أصل تركيب مقطعات أوائل السور من غير ملاحظة ما تكرر منها أربع عشرة بعدد المعصومين الأربعة عشر النبى وفاطمة والأئمة الإثنى . والسور هى هذه : الٓمٓ . الٓمٓصٓ الٓرٰ . الٓمٓرٰ . كٓهيعٓصٓ طه . طسٓمٓ . طسٓ . يسٓ . صٓ . حمٓ . حمٓعسٓقٓ . قٓ . نٓ . ثم قال: وفى معانى الأخبار بإسناده إلى أبى بصير عن أبى عبد الله عليه السلام قال : « ألم حروف من حروف اسم الله الأعظم المقطع فى القرآن ، الذى يؤلفه النبى والإمام عليه السلام ، فإذا دعا به أجيب » قال بعض الأفاضل : فى هذا الحديث دلالة على أن الحروف المقطعات أسرار بين الله ونبيه ، ورموز لم يقصد بها إفهام غيره وغير الراسخين فى العلم من ذريته . أقول : ويؤيده ما فى تفسير الإمام عليه السلام : أن معنى الٓمٓ أن هذا الكتاب الذى أنزلته هو الحروف المقطعة التى منها ألم وهو بلغتكم وحروف هجائكم ، فأتوا بمثله

إن كنتم صادقين . . . ثم قال وسنشير فيما ورد فى (ص) إلى ما يدل على أن جميع المقطعات القرآنية اسم للنبى صلى الله عليه وسلم ، ولنذكر بعض ما يتعلق بتأويلها على ترتيبها . فما ورد فى ألم ، وألمص ، وألر ، وألمر . ما قيل من أن معنى ألم : أنا الله أعلم وأرى . وألمص : أنا الله أعلم وأفصل . وعلى هذا يمكن التأويل بأنه أعلم حيث اختار محمداً وعلياً وآلهما الطيبين للنبوة والإمامة وأنزل لهم وفيهم كتابه المجيد ، وعلى هذا القياس تأويل ما يأتى بعده . . الخ) اهـ ص ٢٢١ .

ثم قال وأما (كهيعص) فمعناه أنا الكافى الهادى ، والوالى العالم الصادق الوعد . . .

أقول : تأويل هذا : ما ورد عنه عليه السلام أيضاً أنه قال : أى كاف لشيعتنا ، هاد لهم ، ولى لهم ، وعده حق ، يبلغ بهم المنزلة التى وعدهم إياها فى بطن القرآن — وما فى الاحتجاج والمناقب وإكمال الدين عن سعد بن عبد الله عن الحجة القائم عليه السلام أنه سأل عن تأويل (كهيعص) فقال . إن هذه الحروف من أنباء الغيب أطلع الله عبده زكريا ، ثم قصها على محمد صلى الله عليه وسلم، وذلك أن زكريا سأل ربه أن يعلمه بأسماء الخمسة ، فأهبط الله عليه جبريل عليه السلام فعلمه إياها ، فكان زكريا إذا ذكر محمداً وعلياً ، وفاطمة، والحسن سرى عنه همه وانجلى كربه. وإذا ذكر الحسين خنقته العبرة ووقعت عليه البهرة. فقال ذات يوم: إلهى ما بالى إذا ذكرت أربعا منهم تسليت بأسمائهم من همومى ، وإذا ذكرت الحسين تدمع عينى وتثور زفرتى ؟ فأنبأه تبارك وتعالى عن قصته فقال: كهيعص، فالكاف اسم كربلاء ، والهاء هلاك العترة والياء يزيد لعنه الله . . وهو ظالم الحسين ، والعين عطشه ، والصاد صبره. فلما سمع بذلك زكريا لم يفارق مسجده ثلاثة أيام ، ومنع فيها الناس من الدخول عليه . . . الخبر .

قال وسيأتى تتمته فى سورته . اهـ ص ٢٢٣ .

وجعل الفصل الثانى من الخاتمة فى ذكر بعض الفوائد .

فالفائدة الأولى : بين فيها أن دأبه فى هذا التفسير على شيئين :

أحدهما : تأويل ما ورد بحسب التنزيل بالنسبة إلى الأمم السابقة وما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة أنبيائه وعصيانهم، بأن المراد الإطاعة وعدمها فيما بلغوا إليهم وأمروهم به من الإقرار بولاية النبي والأئمة ، والاعتراف بحقهم ، والتمسك بهم ، مع التبرى من أعدائهم . بعد الإقرار بالله ورسله . وتصديقهم فيما بلغوا جميعاً ، لا سيما الولاية .

وثانيهما : تطبيق كثير مما ورد بالنسبة إلى تلك الأمم وإلى إطاعتهم وإلى معصيتهم وما ورد عليهم من الشر والنقم والخير والنعم وغير ذلك على طوائف هذه الأمة فيما صدر منهم بالنسبة إلى إطاعة النبي والأئمة فى أمر الولاية وعدمها، وما ورد ويرد عليهم من الشر والخير لذلك ، وذلك بتمثيل الأخيار بالأخيار ، والأشرار بالأشرار ، وتبيان وجه الشبه فى تنظيم أفعالهم بأفعالهم ، كتنظير أصحاب السبت بقتلة ذرية النبي كبنى أمية وبنى العباس مثلا، وأصحاب الكهف بأبى طالب ونظرائه مثلا ، وأصحاب العجل بأهل السقيفة، وغير ذلك . اهـ ص ٢٣٥.

والفائدة الثانية : بين فيها أن المراد فى الباطن بجميع ما حرم الله فى القرآن أئمة الجور ، وبما أحل أئمة الحق ، وأنهم أصل كل خير ، ومن فروعهم كل بر ، واعداؤهم أصل كل شر ، ومن فروعهم كل قبيح وفاحشة، وأن أعداءهم المراد بالفواحش والمناهى وما يعبد من دون الله . . . اهـ ص ٢٣٦ .

والفائدة الثالثة : قال فيها « إنه تقدم وجوب الإيمان بظاهر القرآن وباطنه معاً ، وأن كلا منهما مقصود البارى ، ولكن لما كانت التفاسير المتداولة مشتملة على جل ما يتعلق بالظاهر . وكان مقصدنا بالذات من وضع هذا الكتاب إبراز خبايا التأويلات المستفادة من الأئمة السادة ؛ لخلو أكثر التفاسير عنها جميعا ، ومن أكثرها ، جعلنا مدار كلامنا على تبيين هذا الأمر وبيان ما يتعلق بالبطون فلا نتعرض لما يتعلق بالظواهر مفصلا ، حذراً من التطويل والخروج عن المقصود الأصلى . اهـ ص ٢٣٦ .

والفائدة الرابعة : بين فيها أن كل ما ذكره من تأويل الآيات والكلمات القرآنية فى تفسيره ، فمبناه على التجوز فى المعنى ، أو الإسناد ، أو نحو ذلك من وجوه الاستعارات وأمثالها . قال : ومع هذا لا يجوز ذلك فى موضع إلا بعد وجدان مستند له فيه وفى مثله ، أو بحسب العموم والإطلاق الشامل اهـ . ص ٢٣٦ .

والفائدة الخامسة : بين فيها أنه اقتصر فى نقل الأخبار على موضع الحاجة منها وما يدل على المراد ، مخافة التطويل .

قال : فربما فرقنا مضمون خبر على مواضع ، وربما نقلنا خلاصة مضمون روايته، ولكن كل ذلك بحيث لا يخل بالحديث ولا يتغير منه معناه اهـ ص٢٢٦.

والفائدة السادسة : بين فيها أن كل ما ذكره فى تفسيره من التأويلات فهو غير خال من المستند المستفاد من الأئمة عليهم السلام ... اهـ ص ٢٣٦ .

والفائدة السابعة : بين فيها أن الرجعة من ضروريات مذهب الشيعى ، وادعى تواتر الأحاديث المثبتة لها فى الجملة وإن كانت مختلفة فى تفصيلها وقال: لقد وقفت على أزيد من مائتى حديث فيها ، ثم ذكر من الأخبار ما يدل على ذلك . . . . . اهـ ص ٢٣٧ — ٢٣٩ .

ثم قال . وليكن هذا آخر ما أردنا إيراده فى مقدمات تفسيرنا ، ونشرع بعد هذا فى أصل التفسير إن شاء الله تعالى وبحوله وقوته وتوفيقه ، حامداً ومصلياً ومسلماً ، والحمد لله رب العالمين . والصلاة والسلام على خير خلقه محمد وآله الأئمة المعصومين ، صلوات الله عليهم أجمعين ، حمداً وصلاة وتسليما كثيراً كثيراً كثيراً . اهـ . . . .

ولكن أين هذا التفسير ؟؟ . . . قلنا لم نعثر عليه فى مكتبة من مكاتبنا المصرية . وقلنا : إنه لو وقع لنا لكان خير مرجع يصور لنا معالم التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية ... ولكن ألست معى فى أن هذه المقدمة التى لخصت لك أهم مباحثها ، تكشف لنا إلى حد كبير عن مذهب صاحبها فى تفسيره ،

وعن مقدار تأثره بعقيدته فى فهمه لكتاب الله ؟ أظن أنك معى فى هذا وإليك أسوق أهم القواعد التى سار عليها المولى عبد اللطيف فى تفسيره ، وهى قواعد استخلصتها ولخصتها من مقدمة تفسيره ، ولا أحسب أنه تخطاها أو شذ عنها بعد مادافع عنها وقواها بما استطاع من الأدلة . وهذه هى أهم القواعد :

أولا : القرآن له ظهر وبطن، بل كل فقرة من كتاب الله لها سبعة وسبعون بطناً ، وجملة باطن الكتاب فى الدعوة إلى الإمامة والولاية . وجملة ظاهره فى الدعوة إلى التوحيد والنبوة والرسالة.وكل ماورد من الآيات المشتملة على المدح والإكرام ففى أئمتهم ، وكل ماورد من الآيات المشتملة على التهديد والوعيد والتوبيخ والتقريع ففى مخالفيهم وأعدائهم نزلت .

ثانياً : لاتقتصر معانى الآيات القرآنية على أهل زمان واحد، بل لكل آية تأويل يجرى فى كل أوان وعلى أهل كل زمان .

ثالثاً : معانى القرآن الظاهرة متناسبة مع معانيه الباطنة .

رابعاً:المعانى الباطنة ليست جملتها مما استعمل فيها اللفظ على سبيل الحقيقة بل أكثرها ومعظمها على طريق التجوز ونهج الاستعارة وسبيل الكناية ومن قبيل المجازات اللغوية والعقلية ، وهذا فى تقديره أمر لاغرابة فيه ولااستبعاد. إذ أن أبواب التجوز فى كلام العرب واسعة ، وموارده فى عبارات الفصحاء سائغة .

خامساً : يجب على الإنسان أن يؤمن بظاهر القرآن وباطنه على السواء ، كما يجب عليه أن يؤمن بمحكم القرآن ومتشابهه وناسخه ومنسوخه وبسائر مايعلق بذلك تفصيلا أو إجمالا إن لم يعلم التفصيل من أهل البيت ، ومن أنكر الظاهر وأقر بالباطن أو العكس فهو ملحد كافر ، بل ويجب على كل إنسان أن يصدق بكل ما نقل عن الأئمة من تفسير وتأويل وإن لم يفهم معناه ، ومن الجرأة أن ينكر أحد شيئاً من ذلك لخفائه عليه .

سادسا : علم تأويل القرآن جميعه عند الأئمة ، وهذا أمر اختصو به دون

من عداهم ؛ فلهذا لا يجوز لأحد أن يفسر القرآن برأيه وبدون سماع منهم . لأنه لاشبهة فى أن من عداهم تقصر علومهم وتعجز أفهامهم عن الوصول إلى كثير من ظواهر القرآن فضلا عن بواطنه وتأويله .

سابعاً : ما علم الله صدوره من هذه الأمة المحمدية فى الأزمنة المستقبلة — أى بعد نزول القرآن — أشار الله إليه ونبه عليه فى كتابه الكريم . فكل ماجد ويجد من الحوادث بعد نزول القرآن يستفاد من آياته عن طريق تأويلها ، وهذا أبلغ فى الإعجاز وأجمل للإيجاز ، فقوله تعالى (لتركبن طبقاً عن طبق) تأويله الإخبار من الله بأن هذه الأمة ستسلك سبيل من كان قبلها من الأمم فى الغدر بالأوصياء بعد الأنبياء .

ثامناً : القرآن الذى جمعه على عليه السلام وتوارثته الأئمة من بعده هو القرآن الصحيح ، وما عداه وقع فيه التغيير والتبديل، فكل ماورد صريحاً فى مدح أهل البيت وذم شانئيهم أسقط من القرآن أو حرف وبدل ، ولعلم الله بما سيكون من التغيير والتبديل لم يكتف الله تعالى بالإرشاد إلى أمر الإمامة والولاية وفضائل أهل البيت ومثالب أعدائهم بما صرح به القرآن ، بل أرشد إلى ذلك أيضا بحسب مايدل عليه باطن اللفظ وتأويله ، لتقوم بذلك الحجة على الناس وإن حرف القرآن وبدل .

تاسعاً : كثيراً مايريد الله فى كتابه بحسب الباطن بالألفاظ والخطابات الواردة ظاهراً على سبيل العموم خصوص بعض أفراد ماصدقت عليه ، كالأئمة أو شيعتهم أو أعدائهم أو نحو ذلك ، كما ورد فى تأويل المشركين بمن أشرك مع الإمام من ليس بإمام .

عاشراً : ماورد من الخطاب للأمم السابقة كثيراً مايراد به بحسب الباطن ما يصدق عليه الخطاب من هذه الأمة بحسب الإمامة والولاية وغيرهما ، مع إرادة الظاهر أيضاً مثل « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » أراد فى الباطن بقوم موسى أهل الإسلام

الحادية عشرة : قد يراد بالخطاب فى الباطن مخاطباً غير من نفهم من الظاهر

كون الخطاب له ، كما ورد عن أبي عبد الله أنه قال : « نزل القرآن بإياك أعنى واسمعي ياجارة » فقوله تعالى : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » عنى به غير النبي ،

الثانية عشرة : قد يرجع الضمير بحسب التأويل والباطن إلى ما لم يسبق له ذكر صريحاً ، مثل قوله تعالى : (قالوا أئت بقرآن غير هذا أو بدله) يعنى أو بدل علياً .

الثالثة عشرة : ما نسبه الله إلى نفسه بصيغة الجمع أو ضميره كقوله : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) السر فيه إدخال النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة فى مفهومه وهذا مجاز شائع معروف .

الرابعة عشرة: لفظ الجلالة وما شاكله والضمائر الراجعة إلى الله فى الظاهر مراد به الإمام باطناً وتأويلا ، وهذا مجاز شائع معروف .

هذه هى أهم القواعد التى سار عليها المؤلف فى تفسيره،وهى كما ترى ملخصة من مقدمة تفسيره .

(٢) تفسير الحسن العسكرى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد الحسن بن على الهادى بن محمد الجواد ابن على الرضا بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن على زين العابدين ابن الحسين بن على بن أبى طالب. الإمام الحادى عشر عند الإمامية الاثنى عشرية والمعروف بالحسن العسكرى (١) . وهو والد المهدى المنتظر .

ولد سنة ٢٣١ هـ إحدى وثلاثين ومائتين من الهجرة وقيل سنة ٢٣٢ هـ بالمدينة على الراجح ، وتوفى بسر من رأى سنة ٢٦٠ هـ ستين ومائتين ودفن بها بجانب أبيه (٢) .

التعريف بهذا التفسير :

عثرنا على هذا التفسير فى دار الكتب المصرية فوجدناه منسوبا إلى الإمام أبى محمد الحسن العسكرى ، ومرويا عنه برواية يعقوب يوسف بن محمد بن زياد ، وأبى الحسن على بن محمد بن محمد بن سيار، وهما من الشيعة الإمامية، وقد تلقيا هذا التفسير وكتباه عن الحسن العسكرى فى سبع سنين. ولهما فى تلقى هذا التفسير عن الحسن العسكرى قصة غريبة فى مقدمة الكتاب حدثا بها فقالا ما ملخصه : كنا صغيرين . وكان أبوانا إماميين ، وكانت الزيدية هم الغالبين بإستراباذ ، وكنا فى إمارة الحسن بن زيد العلوى ، الملقب بالداعى إلى الحق ، إمام الزيدية ، وكان كثير الإصغاء إليهم، يقتل الناس لسعاياتهم ، فخاف أبوانا

(١) العسكرى نسبة إلى العسكر وهى سر من رأى ؛ لأن المعتصم لما بناها وانتقل إليها بعسكره قيل لها العسكر . وإنما نسب المذكور اليها لأن المتوكل أشخص أباه عليا إليها وأقام بها مدة طويلة ، فنسب وولده هذا اليها .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ ، وله ترجمة مستفيضة فى أعيان الشيعة ج ٤ ص ٢٨٨ — ٣٢٥

الوشاية بهما عنده فخرجا بنا وبأهلينا إلى حضرة الإمام أبي محمد الحسن بن علي ابن محمد أبي القائم : فلما دخلا عليه قال لهما مرحبا بالآوين إلينا . المتجئين إلى كنفنا ، قد تقبل الله سعيكما ، وأمن روعكما ، وكفاكما أعداءكما ، فانصرفا آمنين على أنفسكما وأموالكما ، قالا : فماذا تأمر أيها الإمام ؟ أن نرجع في طريقنا إلى أن ننتهي إلى بلد خرجنا منه ؟ وكيف ندخل ذلك البلد ومنه هربنا وطلب سلطان البلد لنا حثيث ، ووعيده إيانا شديد ؟ فقال عليه السلام : خلفا على ولديكما هذين لأفيدهما العلم الذي يشرفهما الله به ، ثم لا تحفلا بالسعاة ولا بوعيد المسعى إليه ، فإن الله عز وجل يقصم السعاة ويلجئهم إلى شفاعتكم فيهم عند من هربتم منه .

قال أبو يعقوب وأبو الحسن : فأتمرا لما أمرا . وخرجا وخلفانا هناك ، فكنا نختلف إليه فيتلقانا ببر الإماء وذوى الأرحام الماسة، فقال لنا ذات يوم إذا أتاكما خبر كفاية الله عز وجل أبويكما ، وإخزائه أعداءهما، وصدق وعدى إياهما ، جعلت من شكر الله عز وجل أن أفيدكما تفسير القرآن مشتملا على بعض أخبار محمد صلى الله عليه وسلم ، فيعظم الله بذلك شأنكما ، قالا: ففرحنا وقلنا يابن رسول الله .. فإذاً نأتي جميع علوم القرآن ومعانيه ، قال : كلا إن الصادق علم ما أريد أن أعلمكما بعض أصحابه ففرح بذلك وقال: يابن رسول الله قد جمعت علوم القرآن كلها ، قال : قد جمعت خيراً كثيراً ، وأوتيت فضلا واسعا ، ولكنه مع ذلك أقل قليل أجزاء علم القرآن إن الله عز وجل يقول: « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربي ولو جئنا بمثله مدداً [1] » ، ويقول : ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله [2] » . وهذا علم القرآن ومعانيه وما أودع من عجائبه ، فكيف ترى مقدار ما أخذته من جميع هذا القرآن ؟ ولكن القدر الذي أخذته قد فضلك الله به على كل من لا يعلم كعلمك ولا يفهم كفهمك .

---

(١) الآية (١٠٩) من سورة الكهف . (٢) الآية (٢٧) من سورة لقمان .

ثم ذكرا ما كان من أمر عدول الحسن بن زيد العلوى عن بطشه وفتكه ، وعدم تعرضه للناس فى مذاهبهم ، وأمره لأبويهما بملازمة الإمام أبى محمد الحسن العسكرى لما سمع بهذا قال : هذا حين إنجازى ما وعدتكما من تفسير القرآن ، ثم قال : قد وظفت لكما كل يوم شيئاً منه تكتبانه ، فالزمانى وواظبا على توفيق الله تعالى من العبادة حظوظكما. فأول ما أملى علينا أحاديث فى فضل القرآن وأهله ، ثم أملى علينا التفسير بعد ذلك فكتبناه فى مدة مقامنا عنده ، وذلك سبع سنين ، نكتب فى كل يوم منه مقدار ما ننشط له. فكان أول ما أملى علينا وكتبناه قال : حدثنى أبى : على بن محمد، عن أبيه : محمد بن على ، عن أبيه : على بن موسى ، عن أبيه : موسى بن جعفر ، عن أبيه: جعفر بن محمد الصادق ، عن أبيه : الباقر محمد بن على ، عن أبيه : على بن الحسين زين العابدين ، عن أبيه : الحسين بن على سيد المستشهدين ، عن أبيه: أمير المؤمنين وسيد الوصيين وخليفة رسول الله رب العالمين ، فاروق الأمة ، وباب مدينة الحكمة ، ووصى رسول الرحمة ، على بن أبى طالب صلوات الله عليه وعليهم أجمعين، عن رسول رب العالمين ، وسيد المرسلين ، وقائد الغر المحجلين ، والمخصوص بأشرف الشفاعات فى يوم الدين ، صلى الله عليه وآله أجمعين . . . ، ثم ذكر شيئا من الأخبار فى فضل القرآن وحملته . . . ثم قال : « قال رسول الله : أتدرون من المتمسك الذى بتمسكه ينال هذا الشرف العظيم؟ هو الذى أخذ القرآن وتأويله عنا أهل البيت ، وعن وسائطنا السفراء عنا إلى شيعتنا ، لا عن آراء المجادلين وقياس القايسين... » ثم قال: «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى: « يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين » قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون» (١). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « فضل الله عز وجل القرآن والعلم بتأويله . وبرحمته : توفيقه لموالاة محمد وآله الطيبين ، ومعاداة أعدائهم . . . » ، ثم ذكر الحسن العسكرى تفسير أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم منسوباً إلى على رضى الله عنه ، وفيه يقول على : « ألا أنبئكم ببعض أخبارنا ؟ قالوا :

(١) الآيتان (٥٧ ، ٥٨) من سورة يونس .

بلى يا أمير المؤمنين . قال : إن رسول الله لما بنى مسجده بالمدينة وأشرع فيه بابه وأشرع المهاجرون والأنصار أبوابهم ،أراد الله إبانة محمد وآله الأفضلين بالفضيلة ، فنزل جبريل عن الله تعالى: بأن سدوا الأبواب عن مسجد رسول الله قبل أن ينزل بكم العذاب ، فأول من بعث إليه رسول الله يأمره بسد بابه العباس بن عبد المطلب ، فقال : سمعاً وطاعة لله ولرسوله — وكان الرسول معاذ بن جبل — ثم مر العباس بفاطمة فرآها قاعدة على بابها وقد أقعدت الحسن والحسين ، فقال لها : ما بالك قاعدة : انظروا إليها كأنها لبؤة بين يديها جرواها ، أتظن أن رسول الله يخرج عمه ويدخل ابن عمه فمر بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لها : ما بالك قاعدة ؟ قالت : انتظر أمر رسول الله بسد الأبواب ، فقال لها : إن الله تعالى أمرهم بسد الأبواب واستثنى منهم رسول الله ، وإنما أنتم نفس رسول الله . ثم إن عمر بن الخطاب جاء فقال : أحب النظر إليك يارسول الله إذا مررت إلى مصلاك ، فأذن لى فى فرجة أنظر إليك منها ، فقال : قد أبى الله عز وجل ذلك ، قال : فمقدار ما أضع عليه وجهى ، قال : قد أبى الله ذلك ، قال .فمقدار ما أضع عليه إحدى عينى ، قال : أبى الله ذلك ، ولو قلت قد طرف الإبرة لم آذن لك ، والذى نفس محمد بيده ما أنا أخرجتكم ولا أدخلتهم ولكن الله أدخلهم وأخرجكم. ثم قال : لا ينبغى لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت فى هذا المسجد جنباً إلا محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والمنتجبون [1] من آلهم الطيبين من أولادهم . قال: فأما المؤمنون فقد رضوا وسلموا ، وأما المنافقون فاغتاظوا لذلك وأنفوا ، ومشى بعضهم يقول إلى بعض فيما بينهم: ألا ترون محمداً لا يزال يخص بالفضائل ابن عمه ليخرجنا منها صفرا ، والله لئن أنفذنا له فى حياته لنأتين عليه بعد وفاته، وجعل عبد الله بن أبى يصغى إلى مقالتهم ويغضب تارة ويسكن أخرى ، ويقول لهم : إن محمداً لمتأله ، فإياكم ومكاشفته ، فإن من كاشف المتأله انقلب خاسئاً حسيراً وينغص عليه عيشه . وإن الفطن اللبيب من يتجرع على

---

(١) المنتجبون : أى المختارون .

الغصة لينتهز الفرصة . فبينماهم كذلك إذ طلع رجل من المؤمنين يقال له زيد ابن أرقم فقال لهم : يا أعداء الله أبالله تكذبون؟وعلى رسوله تطعنون؟ولدينه تكيدون ؟ والله لأخبرن رسول الله بكم ، فقال عبد الله بن أبى والجماعة :والله لئن أخبرته بنا لنكذبنك ولنحلفن له،فإنه إذاً يصدقنا ، ثم والله لنقيمن عليك من يشهد عليك عنده بما يوجب قتلك أو قطعك أو حدك . قال : فأتى زيد رسول الله فأسر إليه ما كان من عبد الله بن أبى وأصحابه ، فأنزل الله عز وجل (ولا تطع الكافرين [١]) المجاهدين لك يا محمد فيما دعوتهم إليه من الإيمان بالله والموالاة لك ولأوليائك ، والمعاداة لأعدائك (والمنافقين) الذين يطيعونك فى الظاهر ويخالفونك فى الباطن (ودع أذاهم) بما يكون منهم من القول السيىء فيك وفى ذويك (وتوكل على الله) فى إتمام أمرك وإقامة حجتك ، فإن المؤمن هو الظاهر بالحجة وإن غلب فى الدنيا ، لأن العاقبة له ، لأن غرض المؤمنين فى كدحهم فى الدنيا إنما هو الوصول إلى نعيم الأبد فى الجنة .وذلك حاصل لك ولآلك ولأصحابك وشيعتك . ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يلتفت إلى ما بلغه عنهم ، وأمر زيداً فقال : إن أردت أن لا يصيبك شرهم ولا ينالك مكرهم فقل إذا أصبحت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، فإن الله يعيذك من شرهم ؛ فإنهم شاطين يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ، وإذا أردت أن يؤمنك بعد ذلك من الغرق والحرق والسرق فقل إذا أصبحت : بسم الله ما شاء الله لا يصرف السوء إلا الله ، بسم الله لا يسوق الخير إلا الله ، بسم الله ما شاء الله ، ما يكون من نعمة فمن الله ، بسم الله ما شاء الله لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم ، بسم الله ما شاء الله وصلى الله على محمد وآله الطيبين ، فإن من قالها ثلاثا إذا أصبح أمن من الغرق والحرق والسرق حتى يمسى ، ومن قالها ثلاثا إذا أمسى أمن من الحرق والغرق حتى يصبح ، وإن الخضر وإلياس يلتقيان فى كل موسم ، فإذا تفرقا تفرقا عن هذه الكلمات ،

(١) من قوله تعالى «ولا تطع الكافرين» إلى قوله: «وتوكل على الله» فى الآية (٤٨) من سورة الأحزاب .

وإن ذلك شعار شيعتى ، وبه يمتاز أعدائى من أوليائى يوم خروج قائمهم ... »
ثم ذكر حديثاً آخر طويلا عن الباقر يتضمن ما كان من المحاورة بين العباس ورسول الله صلى الله عليه وسلم بشأن إغلاق باب العباس وغيره ، وإبقاء باب على وحده، وفيه شهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالفضل لعلى على غيره ، وفى آخره يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « ياعم رسول الله إن شأن على عظيم. إن حال على جليل . إن وزن على ثقيل . وما وضع حب على فى ميزان أحد إلا رجح على سيئاته ، ولا وضع بغضه فى ميزان أحد إلا رجح على حسناته ... الخ[1] .

هذا ، والكتاب مطبوع فى مجلد صغير يقع فى ٢٨٦ صحيفة. وهو غير شامل للقرآن كله ، بل بعد الفراغ من المقدمة وشرح الاستعاذة شرع فى الفاتحة ففسرها، ثم شرع فى سورة البقرة فوصل فيها إلى قوله تعالى فى الآية (١١٤) (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين. لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) وذلك يبدأ من أول الكتاب إلى ص ٢٣٦ .

ومن قوله تعالى فيها (إن الصفا والمروة .. الآية (١٥٨) إلى قوله : (ولكم فى القصاص حياة . الآية (١٧٩) وذلك يبدأ من ص ٢٣٦ إلى ص ٢٥٤.
ومن قوله تعالى فيها : (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم فإذا أفضتم من عرفات ... الآية (١٩٨) إلى قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ... الآية ٢١٠) وذلك يبدأ من ص ٢٥٤ إلى ص ٢٦٧ .
ومن قوله تعالى فيها (... أو ضعيفاً أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ... الآية (٢٨٢) إلى قوله (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) فى الآية (٢٨٣) وذلك يبدأ من ص ٢٦٧ إلى ص ٢٨٦ .

هذا هو كل ما وجد وطبع من التفسير المنسوب إلى الحسن العسكرى رحمه

(١) ص ٢ — ٧

الله تعالى ، وأرى أن أسوق لك بعض النماذج لتقف بنفسك على مسلكه فى التفسير ، وتأثره بمذهب الإمامية ، ولنرى بعد ذلك هل يمكن أن يكون هذا التفسير حقيقة لهذا الإمام الصالح ، أو نسب إليه زورا وبهتانا .

ولاية على :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨) من سورة البقرة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) يقول «قال العالم موسى بن جعفر : إن رسول الله لما أوقف أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى يوم الغدير موقفه المشهور المعروف ، ثم قال : يا عباد الله انسبونى . فقالوا : أنت محمد بن عبد الله . ابن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ، ثم قال: يا أيها الناس ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله ، فنظر إلى السماء وقال : اللهم اشهد بقول هؤلاء - وهو يقول ويقولون ذلك ثلاثا — ثم قال : ألا فمن كنت مولاه وأولى به فهذا على مولاه وأولى به ، اللهم وال من والاه . وعاد من عاداه ، وانصر من نصره . واخذل من خذله ، ثم قال : قم يا أبا بكر فبايع له بإمرة المؤمنين ، فقام وبايع له . ثم قال : قم يا عمر فبايع له بإمرة المؤمنين . فقام فبايع له ، ثم قال بعد ذلك لتمــــام التسعة رؤساء المهاجرين والأنصار فبايعوا كلهم ، فقام من بين جماعتهم عمر بن الخطاب فقال : بخ بخ يا ابن أبى طالب ، أصبحت مولاى ومولى كل مؤمن ومؤمنة ، ثم تفرقوا عند ذلك وقد وكّدت عليهم العهود والمواثيق . ثم إن قوما من متمرديهم وجبابرتهم تواطئوا بينهم لئن كان محمد كائنة ليدفعُن هذا الأمر من على ولا يتركونه . فعرف الله ذلك من قبلهم ، وكانوا يأتون رسول الله ويقولون: لقد أقمت علينا أحب خلق الله إلى الله وإليك وإلينا فكفيتنا مؤنة الظلمة لنا ، والمتجبرين فى سياستنا ، وعلم الله من قلوبهم خلاف ذلك من مواطأة بعضهم لبعض أنهم على العداوة مقيمون ، ولدفع الأمر عن مستحقه مؤثرون ، فأخبر الله عز وجل محمداً عنهم فقال : يا محمد (ومن الناس من يقول آمنا بالله) الذى أمرك بنصب على إماماً وسايساً لأمتك ومدبراً ، (وما هم بمؤمنين) بذلك ، ولكنهم يتواطئون على إهلاكك

وإهلاكه ، يوطنون أنفسهم على التمرد على علي إن كانت بك كائنة) ا ﻫ (١).

وعند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة البقرة (وإذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون) يقول « قال موسى بن جعفر : إذ قيل لهؤلاء الناكثين للبيعة ، قال لهم خيار المؤمنين كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار: آمنوا برسول الله وعلي الذى أوقفه موقفه وأقامه مقامه وأناط مصالح الدين والدنيا كلها به، وآمنوا بهذا النبي وسلموا لهذا الإمام ، وسلموا له فى ظاهر الأمر وباطنه كما آمن الناس المؤمنون كسلمان والمقداد وأبي ذر وعمار ،قالوا فى الجواب لمن يفضون إليه لا لهؤلاء المؤمنين؛ فإنهم لا يجسرون على مكاشفتهم بهذا الجواب ولكنهم يذكرون لمن يفضون إليه من أهلهم والذين يثقون بهم من المنافقين ومن المستضعفين من المؤمنين الذين هم بالستر عليهم واثقون بهم، يقولون لهم:(أنؤمن كما آمن السفهاء)يعنون سلمان وأصحابه لما أعطوا عليا خالص ودهم ومحض طاعتهم، وكشفوا رؤوسهم بموالاة وأوليائه ومعاداة أعدائه حتى أن اضمحل أمر محمد طحطحهم أعداؤه ، وأهلكهم سائر الملوك والمخالفين لمحمد، فهم بهذا التعرض لأعداء محمد جاهلون سفهاء ، قال الله عز وجل(ألا إنهم هم السفهاء)الأخفاء العقول والآراء، الذين لم ينظروا فى أمر محمد حق النظر فيعرفوا نبوته ، ويعرفوا صحة ما ناطه بعلمه من أمر الدين والدنيا ، حتى بقوا لتركهم تأمل حجج الله جاهلين ، وصاروا خائفين وجلين من محمد وذريته ومن مخالفيهم، لا يأمنون أيهم يغلب فيهلكون معه . فهم السفهاء حيث لا يسلم لهم بنفاقهم هذا لا محبة محمد والمؤمنين ولا محبة اليهود وسائر الكافرين ، لأنهم يظهرون لمحمد من موالاته وموالاة أخيه على ومعاداة أعدائهم اليهود والنصارى ، كما يظهرون لهم من معاداة محمد وعلى وموالاة أعدائهم ، فهم يقدرون فيهم نفاقهم معهم كنفاقهم مع محمد وعلى ، ولكن لا يعلمون أن الأمر كذلك وأن الله يطلع نبيه على أسرارهم فيخشاهم ويلعنهم ويسقطهم » (٢) ا ﻫ

---

(١) ص ٤١ – ٤٢ (٢) ص ٤٤ – ٤٥

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (١٥٩ ، ١٦٠) من سورة البقرة (وإن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس فى الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ٭ إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) يقول (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات من صفة محمد وصفة على وحليته ، والهدى بعد ما بيناه للناس فى الكتاب) . قال : والذى أنزلناه هو ما أظهرناه من الآيات على فضلهم ومحلهم ، كالغمامة التى تظل رسول الله فى أسفاره ، والمياه الأجاجة التى كانت تعذب فى الآبار بريقه ، والأشجار التى كانت تتهدل ثمارها بنزوله تحتها ، والعاهات التى كانت تزول بمسح يده عليها أو بنفث بريقه فيها ، وكالآيات التى ظهرت على على من تسليم الجبال والصخور والأشجار قائلة : ياولى الله وياخليفة رسول الله ، والسموم القاتلة التى تناولها من سمى باسمه عليها ولم يصبه بلاؤها ..... وسائر ماخصه الله تعالى به من فضائله ، فهذا من الهدى الذى بينه الله للناس فى كتابه ..... الخ [1] .

روايات مكذوبة فى فضل أهل البيت :

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة (... الذين يؤمنون بالغيب) يقول « ثم وصف هؤلاء المتقين الذين هذا الكتاب هدى لهم فقال : (الذين يؤمنون بالغيب) يعنى بما غاب عن حواسهم من الأمور التى يلزمهم الإيمان بها ، كالبعث ، والنشور ، والحساب ، والجنة ، والنار ، وتوحيد الله تعالى ، وسائر ما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل قد نصبها الله عز وجل عليها كآدم ، وحواء وإدريس ، ونوح ، وإبراهيم ، والأنبياء الذين يلزمهم الإيمان بهم بحجج الله تعالى وإن لم يشاهدوهم ، ويؤمنون بالغيب وهم من الساعة مشفقون ، وذلك أن سلمان الفارسى مر بقوم من اليهود فسألوه أن يجلس إليهم ويحدثهم بما سمع من محمد فى يومه هذا ، فجلس إليهم لحرصه على

(١) ص ٢٣٦ — ٢٣٧

إسلامهم فقال . سمعت محمداً يقول : إن الله عز عز وجل يقول : يا عبادى : أوليس من له إليكم حوائج كبار لا تجودون بها إلا أن يتجمل عليكم بأحب الخلق إليكم تقضونها كرامة لشفيعه ؟ ألا فاعلموا أن أكرم الخلق على وأفضلهم لدى محمد وأخوه على ، ومن بعده الأئمة الذين هم الوسائل إلى ، ألا فليدعنى من أهمته حاجة يريد نفعها ، أو دهته دهياء يريد كف ضررها بمحمد وآله الأفضلين الطيبين الطاهرين أقضها له أحسن مما يقضيها من تشفعون إليه بأعز الخلق عليه . قالوا لسلمان — وهم يستهزئون به — يا عبد الله فما بالك لاتقترح على الله وتتوسل بهم أن يجعلك أغنى أهل المدينة ؟ فقال سلمان : قد دعوت الله عز وجل بهم ، وسألته ما هو أجل وأفضل وأنفع من ملك الدنيا بأسرها ، وسألته بهم أن يهب لى لسانا لتمجيد شأنه ذاكرا ، وقلبا لآلائه شاكراً ، وعلى الدواهى الداهية لى صابراً ، وهو عز وجل قد أجابنى إلى ملتمسى من ذلك ، وهو أفضل من ملك الدنيا بحذافيرها وما يشتمل عليه من خيراتها مائة ألف ألف مرة . قال : فجعلوا يهزؤون ويقولون : ياسلمان ، لقد ادعيت مرتبة عظيمة يحتاج أن يمتحن صدقك من كذبك فيها وهانحن إذاً قائمون إليك بسياط عذابنا فضاربوك ، فاسأل ربك أن يكف أيدينا عنك ، فجعل سلمان يقول : اللهم اجعلنى على البلا ياصابراً ،وجعلوا يضربونه بسياطهم حتى أعيوا وملوا ، وجعل سلمان لا يزيد على قوله : اللهم اجعلنى على البلايا صابراً ، فلما ملوا وأعيوا قالوا : ياسلمان،ما ظننا أن روحا تثبت فى مقرها على مثل هذا العذاب الوارد عليك . فما بالك لا تسأل ربك أن يكفنا عنك ؟ قال : لأن سؤال ذلك ربى خلاف الصبر ، بل سلمت ؛ لإمهال الله تعالى لكم ، وسألته الصبر ، فلما استراحوا قاموا بعد إليه بسياطهم فقالوا : لا نزال نضربك بسياطنا حتى تزهق روحك أو تكفر بمحمد ، فقال: ماكنت أفعل ذلك ، فإن الله قد أنزل على محمد « الذين يؤمنون بالغيب » وإن احتمالى لمكارهكم لأدخل فى جملة من مدحه الله بذلك سهل على يسير ، فجعلوا يضربونه بسياطهم حتى ملوا ، ثم قعدوا وقالوا : ياسلمان، لو كان لك عند ربك قدر لإيمانك بمحمد لاستجاب

دعاءك وكفنا عنك ، فقال سلمان : ما أجهلكم . . كيف يكون مستجيبا دعائى إذا فعل بى خلاف ما أريد منه ، أنا أردت منه الصبر فقد استجاب لى وصبرت ، ولم أسأله كفكم عنى فيمنعنى حتى يكون ضد دعائى كما تظنون ، فقاموا إليه ثالثة بسياطهم فجعلوا يضربونه وسلمان لا يزيد على قوله : اللهم صبرنى على البلايا فى حب صفيك وخليلك محمـــد ، فقالوا له : ياسلمان ، ويحك أو ليس محمد قد رخص لك أن تقول كلمة الكفر به بما تعتقد ضدة للتقية؟ فقال سلمان : إن الله قد رخص لى ذلك ولم يفرضه على ، بل أجاز لى ألا أعطيكم ما تريدون واحتمل مكارهكم ، وجعله أفضل المنزلتين ، وأنا لا أختار غيره ، ثم قاموا إليه بسياطهم وضربوه ضربا كثيرا وسيلوا دماءه . وقالوا له وهم ساخرون : لو لم تسأل الله كفنا عنك ولا تظهر لنا ما نريد منك لنكف به عنك فادع علينا بالهلاك إن كنت من الصادقين فى دعواك أن الله لا يرد دعاءك بمحمد وآله الطيبين الطاهرين ، فقال سلمان : إنى لأكره أن أدعو الله بهلاككم مخافة أن يكون فيكم من قد علم الله أنه سيؤمن من بعد فأكون قد سألت الله اقتطاعه عن الإيمان ، فقالوا : قل : اللهم أهلك من كان فى علمك أنه يبقى إلى الموت على تمرده ، فإنك لا تصادف بهذا الدعاء ما خفته ، قال فانفرج له حائط البيت الذى هو فيه مع القوم وشاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول : ياسلمان ادع عليهم بالهلاك فليس فيهم أحد يرشد ، كما دعا نوح على قومه لما عرف أنه لن يؤمن من قومه إلا من قد آمن ، فقال سلمان . كيف تريدون أن أدعو عليكم بالهـــلاك ؟ فقالوا ندعو الله بأن يقلب سوط كل واحد منا أفعى تعطف رأسها ثم تمشش عظام سائر بدنه . . فدعا الله بذلك . فما من سياطهم سوط إلا قلبه الله تعالى أفعى لهـا رأسان تتناول برأس برأسه وبرأس آخر يمينه التى كان فيها سوطه ثم رضضتهم ومششتهم وبلعتهم والتقمتهم . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فى مجلسه : معاشر المؤمنين . إن الله تعالى قد نصر أخاكم سلمان ساعتكم هذه على عشرين فرقة من اليهود والمنافقين . قلبت سياطهم أفاعى رضضتهم ومششتهم وهشمت عظامهم والتقمتهم

فقوموا بنا ننظر إلى تلك الأفاعى المبعوثة لنصرة سلمان ، فقام رسول الله وأصحابه إلى تلك الدار وقد اجتمع إليها جيرانها من اليهود والمنافقين لما سمعوا ضجيج القوم بالتقام الأفاعى لهم ، فإذا هم خائفون منها ، نافرون من قربها ، فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم خرجت كلها إليه عن البيت إلى شارع المدينة ، وكان شارعا ضيقا فوسعه الله تعالى وجعله عشرة أضعافه ، ثم نادت الأفاعى : السلام عليك يامحمد ياسيد الأولين والآخرين ، السلام عليك ياعلى ياسيد الوصيين ، السلام على ذريتك الطيبين الطاهرين الذين جعلوا على الخلق قوامين ، هانحن سياط هؤلاء المنافقين الذين قلبنا الله تعالى أفاعى بدعاء هذا المؤمن سلمان قال : رسول الله : الحمد لله الذى جعل من يضاهى بدعائه عندقبضه وعند انبساطة نوحا نبيه . ثم نادت الأفاعى : يارسول الله . . قد اشتد غضبنا على هؤلاء الكافرين ، وأحكامك وأحكام وصيك علينا جائزة فى ممالك رب العالمين ، ونحن نسألك أن تسأل الله تعالى أن يجعلنا أفاعى جهنم حتى نكون فيها لهؤلاء معذبين كما كنا لهم فى هذه الدنيا ملتقمين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : قد أجبتكم إلى ذلك فالحقوا بالطبق الأسفل من جهنم ، بعد أن تقذفوا ما فى أجوافكم من أجزاء أجسام هؤلاء الكافرين ليكون أتم لخزيهم وأبقى للعار عليهم إذا كانوا بين أظهرهم مدفونين ، يعتبر بهم المؤمنون المارون بقبورهم ، يقولون هؤلاء الملعونون المخزيون بدعاء ولى محمد سلمان الخير من المؤمنين ، فقذفت الأفاعى مافى بطونها من أجزاء أبدانهم ، فجاء أهلوهم فدفنوهم ، وأسلم كثير من الكافرين ، وأخلص كثير من المنافقين ، وغلب الشقاء على كثير من الكافرين والمنافقين ، فقالوا : هذا سحر مبين . ثم أقبل رسول الله على سلمان فقال . يا عبد الله ، أنت من خواص إخواننا المؤمنين ، ومن أحباب قلوب ملائكة الله المقربين ، إنك فى ملكوت السموات والحجب والكرسى والعرش ومادون ذلك إلى الثرى أشهر فى فضلك عندهم من الشمس الطالعة فى يو لاغيم ولا قتر ولا غبار فى الجو ، فأنت من أفاضل الممدوحين بقوله (الذين يؤمنون بالغيب [1]) .

---

(١) ص ٢٤ - ٢٦ .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) يقول مانصه (... قال على بن الحسين : طلب هؤلاء الكفار الآيات ولم يقنعوا بما أتاهم به منها بما فيه الكفاية والبلاغ ، حتى قيل لهم (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله) أى إذا لم يقتنعوا بالحجج الواضحة الدامغة ، فهل ينظرون إلا أن يأتيهم الله ؟ وذلك محال ، لأن الإتيان على الله لايجوز ، كذلك النواصب اقترحوا على رسول الله فى نصب أمير المؤمنين على إماماً ، واقترحوا . . حتى اقترحوا المحال وذلك أن رسول الله لما نص على على بالفضيلة والإمامة ،وسكن إلى ذلك قلوب المؤمنين وعاند فيه أصناف الجاحدين من المعاندين ، وشك فى ذلك ضعفاء من الشاكين ، واحتال فى السلم من الفريقين من النبى وخيار أصحابه ومن أصناف أعدائه جماعة المنافقين ، وفاض فى صدورهم العداوة والبغضاء ، والحسد والشحناء ، حتى قال قائل المنافقين : لقد أسرف محمد فى مدح نفسه ، ثم أسرف فى مدح أخيه على ، وماذاك من عند رب العالمين ، ولكنه فى ذلك من المتقولين ، يريد أن يثبت لنفسه الرياسة علينا حيا ولعلى بعد موته ، قال الله تعالى : يامحمد ، قل لهم وأى شىء أنكرتم من ذلك ؟ هو عظيم كريم حكيم ، ارتضى عباداً من عباده ، قد اختصهم بكرامات ، لما علم من حسن طاعتهم ولا نقيادهم لأمره ، ففوض إليهم أمور عباده ، وجعل إليهم سياسة خلقه بالتدبير الحكيم الذى وفقهم له : أفلا ترون لملوك الأرض إذا ارتضى أحدهم خدمة بعض عبيده ووثق بحسن اصطناعه بما يندب له من أمور ممالكه ، جعل ماوراء بابه اليه وأعتمد فى سياسة جيوشه ورعاياه عليه ؟ كذلك محمد فى التدبير الذى رفعه له ربه ، وعلى من بعده الذى جعله وصية وخليفته فى أهله ، وقاضى دينه ومنجز عداته ، والموازر لأوليائه والمناصب لأعدائه فلم يقنعو بذلك ولم يسلموا ، وقالوا : ليس الذى تسنده إلى ابن أبى طالب أمرا صغيراً انما هو دماء الخلق ، ونساؤهم ، وأولادهم ، وأموالهم ، وحقوقهم ، وأنصباؤهم ، ودنياهم وأخراهم ، فلتأتنا بآية تليق بجلالة هذه الولاية ، فقال رسول الله : أما كفاكم نور على المشرق فى الظلمات الذى رأيتموه ليلة خروجه

من عند رسول الله إلى منزله ؟ أما كفاكم أن عليا جازو الحيطان بين يديه فقتحت له وطرقت ثم عادت والتأمت ؟ أما كفاكم يوم غدير خم أن عليا لما أقامه رسول الله رأيتم أبواب السماء مفتحة والملائكة فيها مطلعين تناديكم : هذا ولى الله فاتبعوه وإلا حل بكم عذاب الله فاحذروه ؟ أما كفاكم رؤيتكم على ابن أبى طالب وهو يمشى والجبال تسير من بين يديه لئلا يحتاج إلى انحراف عنها ، فلما جاز رجعت الجبال إلى أماكنها ؟ ثم قال اللهم زدهم آيات فإنها عليك سهلات يسيرات لتزيد حجتك عليهم تأكيداً . قال : فرجع القوم إلى بيوتهم فأرادوا دخولها فاعتقلتهم الأرض ومنعتهم ونادتهم : حرام عليكم دخولها حتى تؤمنوا بولاية على ، قالوا . آمنا .. ودخلوا ... ثم ذهبوا ينزعون ثيابهم ليلبسوا غيرها فثقلت عليهم ولم يقلوها ، ونادتهم : حرام عليكم سهولة نزعنا حتى تقروا بولاية على ، فأقروا . . ونزعوها .. ثم ذهبوا يلبسون ثياب الليل فثقلت عليهم ونادتهم : حرام عليكم لبسنا حتى تعترفوا بولاية على ، فاعترفوا ، ثم ذهبوا يأكلون فثقلت عليهم اللقم وما لم يثقل منها استحجر فى أفواههم وناداهم : حرام عليكم أكلنا حتى تعترفوا بولاية على ، فاعترفو... ثم ذهبوا يبولون ويتغوطون فتعذبوا وتعذر عليهم ونادتهم بطونهم ومذا كيرهم حرام عليكم السلامة منا حتى تعترفوا بولاية على بن أبى طالب ، فاعترفوا .. ثم ضجر بعضهم وقال : (اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم) قال الله عز وجل (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم [١] ... الخ [٢] .

الشجرة التى نهى آدم عن الأكل منها :

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة (وقلنا يآدم أسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغدا حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة .) يبين المراد من الشجرة ويعلل النهى عنها فيقول (... لا تقربا هذه الشجرة: شجرة العلم، شجرة علم محمد وآل محمد ، الذين آثرهم الله عز وجل به دون سائر خلقه،

(١) فى الآية (٣٣) من سورة الأنفال . (٢) ص ٢٦٥ – ٢٦٧ .

فقال الله تعالى : لا تقربا هذه الشجرة ، شجرة العلم ، فإنها لمحمد وآله خاصة دون غيرهم ، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم ... ومنها ما كان يتناوله النبى، وعلى ، وفاطمة والحسن ، والحسين ، بعد إطعامهم المسكين واليتيم والأسير حتى لم يحسوا بعد بجوع ولا عطش ولا تعب ولا نصب ، وهى شجرة تميزت من بين أشجار الجنة ، إن سائر أشجار الجنة كان كل نوع منها يحمل نوعا من الثمار والمأكول ، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر ، والعنب والتين والعناب وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة ، فلذلك اختلف الحاكون لتلك الشجرة ، فقال بعضهم : هى برة ، وقال آخرون : هى عنبة ، وقال آخرون : هى عنابه . قال الله تعالى : ولا تقربا هذه الشجرة تلتمسان بذلك دوحه محمد وآل محمد فى فضلهم ، فإن الله تعالى خصهم بهذه دون غيرهم ، وهى الشجرة التى من يتناول منها بإذن الله عز وجل ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم . ومن تناول منها بغير إذن الله خاب من مراده وعصى ربه ، (فتكونا من الظالمين) بمعصيتكما والتماسكما درجة قد أوثر بها غيركما كما إذا أردتما بغير حكم الله)[1] اهـ.

توسل الأنبياء والأمم السابقة بمحمد صلى الله عليه وسلم وبأهل البيت :

وقد جاء فى هذا التفسير من الأخبار ما يدل على أن الأنبياء والأمم السابقين كانوا إذا حزبهم أمر وأهمهم توسلوا بمحمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته رضوان الله تعالى عليهم .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة البقرة (... فإما يأتيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) نراه يقول (... فلما زلت من آدم الخطيئة واعتذر إلى ربه عز وجل قال : يارب ، تب على واقبل معذرتى ، وأعدنى إلى مرتبتى ، وارفع لديك درجتى فما أشد تبين بعض الخطيئة وذلها بأعضائى وسائر بدنى ، قال الله تعالى : يآدم ، أما تذكر أمرى إياك بأن تدعونى بمحمد وآله الطيبين عند شدائدك ودواهيك وفى النوازل تنزل بك؟ قال

---

(١) ص ٨٩ .

آدم : يارب بلى ، قال الله عز وجل له : فتوسل بمحمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين خصوصا ، فادعنى أجبك إلى ملتمسك وأزدك فوق مرادك ، فقال آدم : يارب وقد بلغ عندك من محلهم أنك بالتوسل بهم تقبل توبتى ، وتغفر خطيئتى ، وأنا الذى أسجدت له ملائكتك ، وأبحته جنتك ، وزجته حواء أمتك وأخدمته كرام ملائكتك؛ قال الله : يا آدم .. إنما أمرت الملائكة بتعظيمك بالسجود إذا كنت وعاء لهذه الأنوار ، ولو كنت سألتنى بهم قبل خطيئتك أن أعصمك منها وأن أفطنك لدواعى عدوك إبليس حتى تحذر منها لكنت قد جعلت ذلك ، ولكن المعلوم فى سابق علمى يجرى موافقا لعلمى ، فالآن بهم فادعنى لأجبك ، فعند ذلك قال آدم : اللهم بجاه محمد وآله الطيبين ، بجاه محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين والطيبين من آلهم لما تفضلت بقبول توبتى ، وغفران زلتى . وإعادتى من كراماتك إلى مرتبتى ، فقال الله عز وجل : قد قبلت توبتك وأقبلت برضوانى عليك ، ورزقت آلائى ونعمائى عليك ، وأعدتك إلى مرتبتك من كراماتى ، ووفرت نصيبك من رحماتى . فذلك قوله عز وجل (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه إنه هو التواب الرحيم [١]) اهـ [٢] .

ومثلا عند قوله تعالى فى الآية (٥٠) من سورة البقرة :

(وإذا فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون)

نجــــده يقول : (قال الله عز وجل واذكروا إذ جعلنا ماء البحر فرقا ينقطع بعضه من بعض ، فأنجيناكم هناك وأغرقنا فرعون وقومه وأنتم تنظرون إليهم وهم يغرقون ، وذلك أن موسى لما انتهى إلى البحر أوحى الله عز وجل إليه : قل لبنى إسرائيل جددوا توحيدى ، وأمِرُّوا بقلوبكم ذكر محمد سيد عبيدى وإمائى ، وأعيدوا على أنفسكم الولاية لعلى أخى محمد وآله الطيبين ، وقولوا : اللهم بجاههم جوزنا على متن هذا الماء ، فإن يتحول لكم أرضا ، فقال لهم موسى ذلك ، فقالوا : أتورد علينا ما نكره ، وهل فررنا من

(١) الآية (٣٧) من سورة البقرة .   (٢) ص ٩٠ — ٩١ .

آل فرعون إلا من خوف الموت،وأنت تقتحم بناهذا الماء الغمر بهذه الكلمات، وما يدرينا ما يحدث من هذه علينا ؟ فقال لموسى كالب بن يوحنا وهو على دابة له —وكان ذلك الخليج أربعة فراسخ — يا نبي الله، أمرك الله بهذا أن نقوله وندخل الماء ؟ قال : نعم ، قال وأنت تأمرني به ؟ قال : نعم ، فوقف وجدد على نفسه من توحيد الله ونبوة محمد وولاية على والطيبين من آلهما ما أمر به ، ثم قال :اللهم بجاههم جوزني على متن هذا الماء ، وإذا الماء قصته كأرض لينة ، حتى بلغ آخر الخليج ثم عاد راكضا ، ثم قال لبني إسرائيل : يا بني إسرائيل .. أطيعوا موسى ، فما هذا الدعاء إلا مفتاح أبواب الجنان ، ومغاليق أبواب النيران ، ومستنزل الأرزاق. وجالب على عباد الله وإمائه رضا المهيمن الخلاق. فأبوا وقالوا : لا نسير إلا على الأرض ، فأوحى الله : يا موسى . . اضرب بعصاك البحر وقل: اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما فلقته، ففعل فانفلق وظهرت الأرض إلى آخر الخليج ، فقال موسى : ادخلوها ، قالوا : الأرض وحلة ، نخاف أن نرسب فيها ، فقالها الله عز وجل : يا موسى . . قل : اللهم بحق محمد وآله الطيبين جففها ، فقالها فأرسل الله عليها ريح الصبا فجفت ، فقال موسى : أدخلوها ، فقالوا : يانبي الله . . نحن اثنتا عشرة قبيلة بنو اثنى عشر أباً ، وإن دخلناها رام كل فريق منا تقدم صاحبه.ولا نأمن من وقوع الشر بيننا،فلوكان لكل فريق منا طريق على حدة لأمنا ما نخافه،فأمر الله موسى أن يضرب البحر بعددهم إثنى عشر ضربة ، فى اثنتى عشرة موضعا إلى جانب ذلك الموضع ويقول : اللهم بجاه محمد وآله الطيبين بين الأرض لنا ، وأقصر الماء عنا فضار فيه تمام اثنى عشر طريقا ، وجف قرار الأرض بريح الصبا، فقال : ادخلوها ، فقالوا : كل فريق منا يدخل سكة من هذه السكك لا يدرى ما يحدث على الآخرين ، فقال الله عز وجل : فاضرب كل طود من الماء بين هذه السكك ، فضرب فقال : اللهم بجاه محمد وآله الطيبين لما جعلت فى هذا الماء طيقانا واسعة يرى بعضهم بعضا ، فحدثت طيقان واسعة يرى بعضهم بعضا ، ثم دخلوها ، فلما بلغوا آخرها جاء فرعون وقومه فدخل بعضهم ، فلما دخل آخرهم وهمّ أولهم

بالخروج أمر الله تعالى فانطبق عليهم فغرقوا ، وأصحاب موسى ينظرون إليهم. فذلك قوله عز وجل (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) اهـ [١].

التقيـــة :

وهو يعترف بالتقية ويدين بها ، ويروى عن رسول الله صلى عليه وسلم أحاديث فيها ، فمن ذلك : أنه روى عن الحسن بن على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الأنبيا إنما فضلهم الله على الخلق أجمعين لشدة مداراتهم لأعداء دين الله ، وحسن تقيتهم لأجل إخوانهم فى الله » اهـ [٢].

وروى عن أمير المؤمنين أنه قال « سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : من سئل عن علم فكتمه حيث يجب إظهاره وتزول عنه التقية ، جاء يوم القيامة ملجما بلجام من النار » اهـ . [٣]

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة « وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم » يقول . . . الرحيم بعباده المؤمنين من شيعة آل محمد، وسع لهم فى التقية ، يجاهرون بإظهار موالاة أولياء الله ومعاداة أعدائه إذا قدروا ، ويسرونها إذا عجزوا) اهـ . [٤].

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة « إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير . . . الآية » يقول « .... نظر الباقر إلى بعض شيعته وقد دخل خلف بعض المنافقين إلى الصلاة ، وأحس الشيعى بأن الباقر قد عرف ذلك منه بقصده وقال : أعتذر إليك يابن رسول الله عن صلاتى خلف فلان فإنها تقية ، ولولا ذلك لصليت وحدى ، قال له الباقر : يا أخى . . إنما كنت تحتاج أن تعتذر لو تركت ، يا عبد الله المؤمن . . ما زالت ملائكة السموات السبع والأرضين السبع تصلى عليك وتلعن إمامك ذاك ، وإن الله

---

(١) ص ٩٨ — ٩٩ .
(٢) ص ١٤٢ .
(٣) ص ١٦٢ .
(٤) ص ٢٣٩ .

تعالى أمر أن تحسب صلاتك خلفه للتقية بسبعمائة صلاة لو صليتها لوحدك .
فعليك بالتقية ا ه[1] .

تأثره بمذهب المعتزلة :

وإنا لنجد فى هذا التفسير تأثراً بمذهب المعتزلة ومعتقداتهم ، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٧) من سوره البقرة « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » نجد المؤلف لا يرتضى نسبة الختم إلى الله على ظاهره ، ونراه يتأول هذا الختم بما يتفق ورأى المعتزلة فيقول « أى وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته إذا نظروا إليها بأنهم الذين لا يؤمنون ، وعلى سمعهم كذلك بسمات ، وعلى أبصارهم غشاوة ، وذلك أنهم لما أعرضوا عن النظر فيما كلفوه ، وقصروا فيما أريد منهم ، جهلوا ما لزمهم من الإيمان به ، فصاروا كمن على عينه غطاء لا يبصر ما أمامه ؛ فإن الله عز وجل يتعالى عن العبث والفساد، وعن مطالبة العباد بما قد منعهم بالقهر منه ، فلا يأمرهم بمغالبته ولا بالمسير إلى ما قد صدهم بالعجز[2] » .

تأثره فى تفسيره بآراء الشيعة فى الفروع الفقهية .

كذلك نجد المؤلف يجرى فى تفسيره على وفق ما يميل إليه من الأحكام الفقهية التى يقول بها الإمامية الإثنا عشرية .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة . . .) نراه يروى حديثاً طويلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يؤخذ منه صراحة أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحهما لا غسلهما وأن غسلهما لا يجوز إلا للتقية ، وهذا الحديث هو : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن العبد إذا توضأ فغسل وجهه تناثرت ذنوب وجهه ، وإذا غسل يديه إلى المرفقين تناثرت عنه ذنوب يديه ، وإذا مسح رأسه تناثرت ذنوب

(١) ص ٢٤٥ – ٢٤٦ . (٢) ص ٣٦

رأسه ، وإذا مسح رجليه ، أو غسلهما تقية تناثرت ذنوب رجليه ... الخ[١].
... وهكذا نجد هذا التفسير يسير مع الهوى الشيعي، سيرا فيه كثير من التطرف والغلو والخروج عن دائرة المعقول المقبول . وإذا كان هذا التفسير من عمل الحسن العسكري ، الإمام المعصوم ، الذي عنده علم القرآن كله ، فتلك أكبر شهادة على أنه لا عصمة له ولا علم عنده، وكيف يصدر هذا التلاعب بنصوص القرآن من إمام له قيمته ومكانته .

وإذا كان ما يذكره صاحب أعيان الشيعة من علمه وصلاحه أمراً حقيقياً . فالظن بهذا الكتاب أن يكون منسوباً إلى هذا الإمام زوراً وبهتاناً ، وهذا ما أرجحه وأختاره، لأني لم أعثر على نقل صحيح يدل على غلو الرجل وتطرفه في التشيع كما فعل غيره .

---

(١) ٢١٥ - ٢١٦

٣ — مجمع البيان لعلوم القرآن

للطبرسى

ترجمة المؤلف ومكانته العلمية :

مؤلف هذا التفسير فى نظر أصحابه هو أبو على، الفضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى المشهدى [1] ، الفاضل العالم ، المفسر ، الفقيه ، المحدث ، الجليل ، الثقة ، الكامل ، النبيل . وهو من بيت عرف أهله بالعلم ، فهو وابنه رضى الدين أبو نصر حسن بن الفضل صاحب مكارم الأخلاق ، وسبطه أبو الفضل على ابن الحسن، وسائر سلسلته وأقربائه ، من أكابر العلماء . ويروى عنه جماعة من العلماء منهم : ولده المذكور ، وابن شهر اشوب ، والشيخ منتخب الدين ، والقطب الراوندى ،وغيرهم . ويروى هو عن الشيخ أبى على بن الشيخ الطوسى. قال الشيخ منتخب الدين فى الفهرس «هو ثقة ،فاضل،دين ، عين ، له تصانيف ، منها : مجمع البيان فى تفسير القرآن،والوسيط فى التفسير أربع مجلدات،والوجيز مجلدة ، وإعلام الورى بأعلام الهدى مجلدتين ، وتاج المواليد والآداب الدينية للخزانة المعينية » اهـ . قال صاحب روضات الجنات معقباً على هذا : وقد فرغ من تأليف المجمع فى منتصف ذى القعدة سنة ٥٣٤ هـ أربع وثلاثين وخمسمائة ولعل مراده بالوسيط هو تفسير جوامع الجامع المشهور . وبالوجيز ، الكاف الشاف عن الكشاف ، ويحتمل المغايرة . اهـ

وقال صاحب مجالس المؤمنين ما معناه « إن عمدة المفسرين ، أمين الدين ، ثقة الإسلام ، أبو على الفاضل بن الحسن بن الفضل الطبرسى ، كان من نحارير علماء التفسير،وتفسيره الكبير الموسوم بمجمع البيان ، بيان كاف ودليل واف لجامعيته لفنون الفضل والكمال ، ثم لما وصل إليه بعد هذا التأليف كتاب الكشاف واستحسن طريقته، ألف تفسيراً آخر مختصراً ،شاملا لفوائد تفسيره الأول ولطائف الكشاف ، وسماه الجوامع ، وله تفسير ثالث أيضاً أخصر من الأولين ، وتصانيف أخرى فى الفقه والكلام ، ويظهر من كتاب اللمعة

---

(١) الطبرسى: نسبة إلى طبرستان : والمشهد نسبة المشهدى الرضوى المدفون فيه.

الدمشقية فى مبحث الرضاع أن الطبرسى هذا كان داخلا فى زمرة مجتهدى علمائنا أيضاً ، ومقالته فى الرضاع معروفة ،وهى قوله بعدم اعتبار اتحاد الفحل فى نشر الحرمة ، وكذا قوله بأن المعاصى كلها كبائر ، وإنما يكون اتصافها بالصغيرة بالنسبة لما هو أكبر . اه

ومن العجيب أنهم يذكرون قصة فى غاية الطرافة والغرابة فى سبب تأليفه لتفسيره مجمع البيان الذى نحن بصدده فيقولون « ومن عجيب أمر هذا الطبرسى بل من غريب كراماته ، ما اشتهر بين الخاص والعام ، أنه قد أصابته السكتة فظنوا به الوفاة فغسلوه وكفنوه ودفنوه ثم رجعوا ، فلما أفاق وجد نفسه فى القبر ومسدوداً عليه سبيل الخروج عنه من كل جهة ، فنذر فى تلك الحالة أنه إذا نجى من تلك الداهية ألف كتاباً فى تفسير القرآن ، فاتفق أن بعض النباشين قصده لأخذ كفنه ، فلما كشف عن وجه القبر أخذ الشيخ بيده ، فتحير النباش ودهش مما رآه ، ثم تكلم معه فازداد به قلقاً ، فقال له : لا تخف ، أنا حى وقد أصابتنى السكتة ففعلوا بى هذا ، ولما لم يقدر على النهوض والمشىء من غاية ضعفه ، حمله النباش على عاتقه وجاء به إلى بيته الشريف ، فأعطاه الخلعة وأولاه مالا جزيلا ، وتاب على يده النباش ، ثم إنه بعد ذلك وفى بنذره الموصوف ، وشرع فى تأليفه مجمع البيان) . اه

وكانت وفاته ليلة النحر سنة ٥٣٨ ﻫ ثمان وثلاثين وخمسمائة من الهجرة[١]

الكلام على هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

قبل أن أخوض فى الكلام عن هذا التفسير أرى أن أسوق ما جاء فى مقدمة هذا التفسير للمؤلف رحمه الله ، لما جاء فيها من بيان الحوافز التى دفعت مؤلفه إلى تأليفه ، ولما أوضحه لنا من طريقته التى سلكها فى تفسيره ، فهو أدرى بها وأعلم .

---

(١) انظر روضات الجنات ٥١٢ - ٥١٤

الدواعى التى حملت الطبرسى على كتابة هذا التفسير :

ذكر الطبرسى هذه الدواعي فقال :

(... وقد خاض العلماء قديماً وحديثاً فى علم تفسير القرآن، واجتهدوا فى إبراز مكنونه وإظهار مضمونه ، وألفوا فيه كتباً جماً غاصوا فى كثير منها إلى أعماق لججه ، وشققوا الشعر فى إيضاح حججه ، وحققوا فى تفتيح أبوابه وتغلغل شعابه ، إلا أن أصحابنا — رضى الله عنهم — لم يدونوا فى ذلك غير مختصرات نقلوا فيها ما وصل إليهم فى ذلك من الأخبار ، ولم يعنوا ببسط المعانى فيه وكشف الأسرار ، إلا ماجمعه الشيخ الأجل السعيد ، أبو جعفر محمد بن الحسن الطوسى من كتاب التبيان ، فإنه الكتاب الذى يقتبس من ضيائه الحق ، ويلوح عليه رواء الصدق ، وقد تضمن فيه من المعانى الأسرار البديعة ، واختصر من الألفاظ اللغة الوسيعة ، ولم يقنع بتدوينها دون تبيينها ، ولا بتنميقها دون تحقيقها ، وهو القدوة وأستضىء بأنواره ، وأطأ مواقع آثاره، غير أنه خلط فى أشياء مما ذكره فى الإعراب والنحو الغث بالسمين ، والخاثر بالزباد ، ولم يميز الصلاح مما ذكر فيه والفساد ، وأدى الألفاظ فى مواضع من متضمناته قاصرة عن المراد ، وأخل بحسن الترتيب وجودة التهذيب، فلم يقع له لذلك من القلوب السليمة الموقع المرضى ، ولم يعل من الخواطر الكريمة المكان الملى » .

« وقد كنت فى ريعان الشباب وحداثة السن ، وريان العيش ونضارة الغصن ، كثير النزاع شديد التشوق إلى جمع كتاب فى التفسير ، ينتظم أسرار النحو اللطيفة ، ولمع اللغة الشريفة ، ويفى موارد القراءات من متوجهاتها ، مع بيان حججها الواردة من جميع جهاتها ، ويجمع جوامع البيان فى المعانى المستنبطة من معادنها ، المستخرجة من كوامنها ، إلى غير ذلك من علومه الجمة . مطلعة من الغلف والأكمة فيعترض لذلك جوائح الزمان ، وعوائق الحدثان ، ونواردت الهموم ، وهفوات القدر المحتوم ، وهلم جراً إلى الآن ، وقد زرف سنى على الستين واشتعل الرأس شيباً ، وامتلأت العيبة عيباً ، فحدانى على تصميم هذه العزيمة ما رأيت من عناية مولانا الأمير السيد الأجل العالم ، ولى النعيم

جلال الدين ركن الإسلام ... فخر آل رسول الله صلى الله عليه وآله ، أبي منصور محمد بن يحي بن هبة الله الحسين — أدام الله علاه — بهذا العلم ، وصدق رغبته فى معرفة هذا الفن ، وقصر همه على تحقيق حقائقه ،والاحتواء على جلائله ودقائقه،والله عز اسمه المسئول أن يحرس للإسلام والمسلمين رفيع حضرته ، ويفيض على الفضل والفضلاء سجال سيادته ، ويمد على العلم والعلماء أمداد سعادته ... فأوجبت على نفسى إجابته إلى مطلوبه ، وإسعافه بمحبوبه ، واستخرت الله تعالى،ثم قصرت وهمى وهمى على اقتناء هذه الذخيرة الخطيرة، واكتساب هذه الفضيلة النبيلة ، وشمرت عن ساق الجد ، وبذلت غاية الجهد والكد ، وأسهرت الناظر وأتعبت الخاطر ،وأطلت التفكير وأحضرت التفاسير واستمددت من الله التوفيق والتيسير [١] » .

وصف الطبرسى لتفسيره :

ثم وصف الطبرسى تفسيره فقال :

« وابتدأت فى تأليف كتاب هو فى غاية التلخيص والتهذيب ، وحسن النظم والترتيب ، يجمع أنواع هذا العلم وفنونه ، ويحوى فصوصه وعيونه ، من علم قراءاته وإعرابه ولغاته ، وغوامضه ومشكلاته ، ومعانيه وجهاته ، ونزوله وأخباره ، وقصصه وآثاره ، وحدوده وأحكامه ، وحلاله وحرامه،والكلام على مطاعن المبطلين فيه، وذكرنا ماينفرد به أصحابنا — رضى الله عنهم — من الاستدلال بمواضع كثيرة منه على صحة ما يعتقدونه من الأصول والفروع ، والمعقول والمسموع ، على وجه الاعتدال والاختصار ، فوق الإيجاز دون الإكثار ؛ فإن الخواطر فى هذا الزمان لا تحمل أعباء العلوم الكثيرة ، وتضعف عن الإجراء فى الحلبات الخطيرة إذ لم يبق من العلماء إلا الأسماء ، ومن العلوم إلا الذماء [٢] .

---

(١) هنا يذكر الشيخ الحوافز التى دفعته إلى تأليف هذا التفسير وهى كما ترى مخالفة للقصة المتقدمة .

(٢) الذماء فى الأصل بقية الروح فى المذبوح .

منهج الطبرسى فى تفسيره :

ثم وضح منهجه فقال :

« وقدمت فى مطلع كل سورة ذكر مكيها ومدنيها ، ثم ذكر الاختلاف فى عدد آياتها ، ثم ذكرت تلاوتها ، ثم أقدم فى كل آية الاختلاف فى القراءات ، ثم أذكر العلل والاحتجاجات ، ثم أذكر العربية واللغات ، ثم أذكر الإعراب والمشكلات ، ثم أذكر الأسباب والنزولات ، ثم أذكر المعانى والأحكام والتأويلات ، والقصص والجهات ، ثم أذكر انتظام الآيات. على أنى قد جمعت فى عربيته كل غرة لائحة ، وفى إعرابه كل حجة واضحة ، وفى معانيه كل قول متين ، وفى مشكلاته كل برهان مبين ، فهو بحمد الله للأديب عمدة ، وللنحوى عدة ، وللمقرىء بصيرة ، وللناسك ذخيرة، وللمتكلم حجة ، وللمحدث محجة ، وللفقيه دلالة ، وللواعظ آلة وسميته (مجمع البيان لعلوم القرآن) .

مقدمات الكتاب :

ثم استطرد إلى ذكر مقدمات تتعلق ببعض علوم القرآن فقال : وقبل أن نشرع فى تفسير السور والآيات ، فنحن نصدر الكتاب بذكر مقدمات لابد من معرفتها . لمن أراد الخوض فى علومه تجمعها فنون سبعة :

جعل الفن الأول منها : فى أعداد آى القرآن والفائدة من معرفتها .

والفن الثانى : فى ذكر أسامى القراء المشهورين فى الأمصار ورواتهم .

والفن الثالث : فى ذكر التفسير والتأويل والمعنى ، والتوفيق بين ماورد من الآيات والآثار من النهى عن التفسير بالرأى وإباحته .

والفن الرابع : فى ذكر أسامى القرآن ومعانيها .

والفن الخامس : فى أشياء من علوم القرآن يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على المواضع المختصة بها والكتب المؤلفة فيها كإعجاز القرآن ، والكلام عن زيادة القرآن ونقصانه .

وهنا يقول : فأما الزيادة فيه فجمع على بطلانه، وأما النقصان منه فقد روى جماعة من أصحابنا وقوم من حشوية العامة أن فى القرآن تغييراً ونقصاناً، والصحيح من مذهب أصحابنا خلافه ، وهو الذى نصره المرتضى قدس الله روحه ... الخ [١] ثم ذكر من جملة العلوم التى يحال فى شرحها وبسط الكلام فيها على الكتب المؤلفة فيها الكلام فى النسخ والناسخ والمنسوخ وغير ذلك من العلوم المتعلقة بالقرآن وليست داخلة فى التفسير .

والفن السادس : فى ذكر بعض ما جاء من الأخبار المشهورة فى فضل القرآن وأهله .

والفن السابع : فى ذكر ما يستحب للقارىء من تحسين اللفظ وتزيين الصوت بقراءة القرآن [٢] .

ثم شرع فى التفسير فتكلم عن الاستعاذة فالبسملة ففاتحة الكتاب وهكذا إلى آخر القرآن .

والحق أن تفسير الطبرسى — بصرف النظر عما فيه من نزعات تشيعية وآراء اعتزالية — كتاب عظيم فى بابه ، يدل على تبحر صاحبه فى فنون مختلفة من العلم والمعرفة . والكتاب يجرى على الطريقة التى أوضحها لنا صاحبه ، فى تناسق تام وترتيب جميل، وهو يجيد فى كل ناحية من النواحى التى يتكلم عنها ، فإذا تكلم عن القراءات ووجوهها أجاد ، وإذا تكلم عن المعانى اللغوية للمفردات أجاد ، وإذا تكلم عن وجوه الإعراب أجاد ، وإذا شرح المعنى الإجمالى أوضح المراد، وإذا تكلم عن أسباب النزول وشرح القصص استوفى الأقوال وأفاض ، وإذا تكلم عن الأحكام تعرض لمذاهب الفقهاء ، وجهر بمذهبه ونصره إن كانت هناك مخالفة منه للفقهاء ، وإذا ربط بين الآيات آخى بين الجمل ، وأوضح لنا عن حسن السبك وجمال النظم ، وإذا عرض لمشكلات

---

(١) جـ ١ ص ٦ .

(٢) جـ ١ ص ١ — ٦

القرآن أذهب الإشكال وأراح البال . وهو ينقل أقوال من تقدمه من المفسرين معزوة لأصحابها ، ويرجح ويوجه ما يختار منها . وإذا كان لنا بعض المآخذ عليه فهو تشيعه لمذهبه وانتصاره له ، وحمله لكتاب الله على ما يتفق وعقيدته ، وتنزيله لآيات الأحكام على ما يتناسب مع الاجتهادات التى خالف فيها هو ومن على شاكلته ، وروايته لكثير من الأحاديث الموضوعة . غير أنه — والحق يقال — ليس مغالياً فى تشيعه ، ولا متطرفا فى عقيدته ، كما هو شأن كثير غيره من علماء الإمامية الإثنى عشرية .

وإليك بعض المثل من هذا التفسير ، لترى كيف يميل الطبرسى بالآيات القرآنية إلى المعانى التى تتفق ومذهبه ، وكيف يحاول بكل قواه الجدلية العنيفة أن يقيم مذهبه على أسس من القرآن الكريم ، وأن يرد ما يصادمه من ظواهر النصوص ويدفع بها فى وجه خصمه .

إمامة على :

لما كان الطبرسى يدين بإمامة على رضى الله عنه ، ويرى أنه خليفة النبى صلى الله عليه وسلم بلا فصل ، فإنا نراه يحاول بكل جهوده أن يثبت إمامته وولايته من القرآن فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » يبذل مجهوداً كبيرا لاستخلاص وجوب إمامة على رضى الله عنه من هذه الآية ، فنجده أولا يتكلم عن المعانى اللغوية لبعض مفردات الآية فيفسر المولى بقوله « الولى هو الذى يلى النصرة والمعونة ، والولى هو الذى يلى تدبير الأمر . يقال : فلان ولى أمر المرأة إذا كان يملك تدبير نكاحها . وولى الدم من كان إليه المطالبة بالقود . والسلطان ولى أمر الرعية . ويقال لمن يرشحه للخلافة عليهم بعده ولى عهد المسلمين . قال الكميت يمدح عليا :

ونعم ولى الأمر بعد وليه ومنتجع التقوى ونعم المؤدب

(ويروى الفتوى) . وإنما أراد ولى الأمر والقائم بتدبيره ، قال المبرد فى كتاب العبادة عن صفات الله (أصل الولى الذى هو أولى أى أحق ، ومثله المولى) . ثم بعد ذلك فسر الطبرسى (الركوع) و (الحزب) ، ثم ذكر الإعراب ثم ذكر سبب النزول فقال بعد سياقه لسند طويل (... بيناعبدالله بن عباس جالس على شفير زمزم يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل رجل متعمم بعمامة ، فجعل ابن عباس لا يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا قال الرجل : قال رسول الله ، فقال ابن عباس : سألتك بالله من أنت ؟ فكشف العمامة عن وجهه وقال : يا أيها الناس من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى فأنا جندب بن جنادة البدرى أبو ذر الغفارى ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بهاتين وإلا صمتا ، ورأيته بهاتين وإلا عميتا يقول (على قائد البررة ، وقاتل الكفرة ، ومنصور من نصره ، ومخذول من خذله) أما إنى صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما من الأيام صلاة الظهر فسأل سائل فى المسجد فلم يعطه أحد شيئاً ، فرفع السائل يده إلى السماء فقال : اللهم إنى سألت فى مسجد رسول الله فلم يعطنى أحد شيئاً ، وكان على راكعا فأوى بخنصره اليمنى إليه — وكان يتختم فيها — فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره ، وذلك بعين رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما فرغ النبى من صلاته رفع رأسه إلى السماء فقاو : اللهم إن أخى موسى سالك فقال (رب اشرح لى صدرى ويسر لى أمرى * واحلل عقدة من لسانى * يفقهوا قولى * واجعل لى وزيراً من أهلى * هرون أخى * أشدد به أزرى * وأشركه فى أمرى)[1] فأنزلت عليه قرآنا ناطقا (سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما[2]) . اللهم وأنا محمد نبيك وصفيك ، اللهم فاشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واجعل لى وزيرا من أهلى ، عليا اشدد به ظهرى . قال أبو ذر : فوالله ما استتم رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلمة حتى نزل عليه جبريل من عند

---

(١) الآيات من ٢٥ إلى ٣٢ من سورة طه .

(٢) فى الآية (٣٥) من سورة القصص

ربه فقال : يا محمد .. اقرأ ، قال : وما أقرأ ؟ قال اقرأ (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنو) وروى هذا الخبر أبو إسحق الثعلبي في تفسيره بهذا الإسناد بعينه. وروى أبو بكر الرازي في كتاب أحكام القرآن ـ على ما حكاه المغربي عنه ـ والروماني ، والطبري أنها نزلت في علي حين تصدق بخاتمه وهو راكع ، وهو قول مجاهد والسدي . والمروي عن أبي جعفر وأبي عبد الله وجميع علماء أهل البيت . وقال الكلبي : نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه لما أسلموا فقطعت اليهود موالاتهم فنزلت الآية . وفي رواية عطاء قال عبد الله بن سلام يا رسول الله أنا رأيت عليا تصدق بخاتمه وهو راكع فنحن نتولاه . وقد رواه السيد أبو الحمد عن أبي القاسم الحسكاني بالإسناد المتصل المرفوع إلى أبي صالح أبي الصلاح عن ابن عباس قال : أقبل عبد الله بن سلام ومعه نفر من قومه ممن قد آمنو بالنبي صلى الله عليه وسلم فقالوا : يا رسول الله .. إن منازلنا بعيدة ، وليس لنا مجلس ولا متحدث دون هذا المجالس . وإن قومنا لما رأونا آمنا بالله ورسوله وصدقناه رفضونا وآلوا على أنفسهم أن لا يجالسونا ولا يناكحونا ولا يكلمونا فشق ذلك علينا ، فقال لهم النبي صلى الله عليه وسلم « إنما وليكم الله ورسوله ... الآية » ثم إن النبي خرج إلى المسجد والناس بين قائم وراكع، فبصر بسائل ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : هل أعطاك أحد شيئاً ؟ فقال : نعم .. خاتم من فضة ، فقال النبي : من أعطاكه ؟ قال : ذلك القائم ـ وأما بيده إلى علي — فقال النبي صلى الله عليه وسلم : على أي حال أعطاكه ؟ قال : أعطاني وهو راكع ، فكبر النبي ثم قرأ « ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون » فأنشأ حسان بن ثابت يقول في ذلك :

أبا حسن تفديك نفسي ومهجتي ... وكل بطيء في الهدى ومسارع

أيذهب مدحيك المحبر ضائعاً ... وما المدح في جنب الإله بضائع

فأنت الذي أعطيت إذ كنت راكعا ... زكاة فدتك النفس يا خير راكع

فأنزل فيك الله خير ولاية ... وثبتها ثبت الكتاب الشرائع

وفي حديث إبراهيم بن الحكم بن ظهير : أن عبد الله بن سلام أتى رسول

الله صلى الله عليه وسلم مع رهط من قومه يشكو إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما لقوا من قومهم ، فبيناهم يشكون إذ نزلت هذه الآية ، وأذن بلال فخرج رسول صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وإذا بمسكين يسأل ، فقال صلى الله عليه وسلم : ماذا أعطيت ! قال خاتم من فضة . قال: من أعطاكه ! قال: ذلك القائم . فإذا هو على ، قال: على أى حال أعطاكه ! قال : أعطانى وهو راكع ، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : ومن يتول الله ورسوله ...)

ثم شرح المعنى فقال « ثم بين تعالى من له الولاية على الخلق والقيام بأمرهم ، ويجب طاعته عليهم . فقال « إنما وليكم الله ورسوله » أى الذى يتولى مصالحكم بحقق تدبيركم هو الله تعالى ، ورسوله يفعله بأمره (والذين آمنو) ثم وصف الذين آمنو فقال (الذين يقيمون الصلاة) بشرائطها (ويؤنون) أى ويعطون الزكاة (وهم راكعون) أى فى حال الركوع . وهذه الآية من أوضح الدلالة على صحة إمامة على بعد النبى صلى الله عليه وسلم بلا فصل . والوجه فيه : أنه إذا ثبت أن لفظة وليكم فى الآية تفيد من هو أولى بتدبير أموركم ويجب طاعته عليكم ، وثبت أن المراد بالذين آمنو على ، ثبت النص عليه بالإمامة ووضح . والذى يدل على الأول هو الرجوع إلى اللغة ، فمن تأملها علم أن القوم نصوا على ذلك ، وقد ذكرنا قول أهل اللغة فيه قبل فلا وجه لإعادته . وإن الذى يدل على أنها فى الآية تفيد ذلك دون غيره ، أن لفظة إنما على ما تقدم ذكره تفيد التخصيص ونفى الحكم عمن عدا المذكور ، كما يقولون : إنما الفصاحة للجاهلية ، ويعنون نفى الفصاحة عن غيرهم . وإذا تقرر هذا لم يجز حمل لفظة الوالى على الموالاة فى الدين والمحبة . لأنه لا تخصيص فى هذا المعنى لمؤمن دون مؤمن آخر ، والمؤمنون كلهم مشتركون فى هذا المعنى ، كما قال سبحانه (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض [1]) وإذا لم يجز حمله على ذلك لم يبق إلا الوجه الآخر وهو التحقيق بالأمور ، وما يقتضى فرض الطاعة

---

(١) فى الآية (٧١) من سورة التوبة .

على الجمهور ؛ لأنه لا يحتمل للفظ إلا الوجهان ، فإذ بطل أحدهما ثبت الآخر . والذى يدل على أن المعنى بالذين آمنوا هو على ، الرواية الواردة من طريق العامة والخاصة بنزول الآية فيه لما تصدق بخاتمه فى حال الركوع ، وقد تقدم ذكرها ، وأيضاً فإن كل من قال إن المراد بلفظة ولى ما يرجع إلى فرض الطاعة والإمامة ، ذهب إلى أنه هو المقصود بالآية والمنفرد ، ولا أحد من الأمة يذهب إلى أن هذه اللفظة تقتضى ما ذكرنا ويذهب إلى أن المعنى بها سواه . وليس لأحد أن يقول : إن لفظة الذين آمنوا لفظ جمع فلا يجوز أن يتوجه إليه على الانفراد ، وذلك أن أهل اللغة قد يعبرون بلفظ الجمع عن الواحد على سبيل التفخيم والتعظيم ، وذلك أشهر فى كلامهم من أن يحتاج إلى الاستدلال عليه . وليس لهم أن يقولوا : إن المراد بقوله : وهم راكعون ، أن هذه شيمتهم وعادتهم ولا يكون حالا لإيتاء الزكاة ؛ وذلك لأن قوله : يقيمون الصلاة ، قد دخل فيه الركوع ؛ فلو لم يحمل قوله وهم راكعون على أنه حال من يؤتون الزكاة ، وحملناه على من صفتهم الركوع ، كان ذلك كالتكرار غير المفيد ، والتأويل المفيد أولى من البعيد الذى لا يفيد . ووجه آخر فى الدلالة على أن الولاية فى الآية مختصة: أنه قال (إنما وليكم الله) فخاطب جميع المؤمنين ، ودخل فى الخطاب النبى صلى الله عليه وسلم وغيره ، ثم قال : (ورسوله) فأخرج النبى صلى الله عليه وسلم من جملتهم لكونهم مضافين إلى ولايته ، ثم قال (والذين آمنوا) فوجب أن يكون الذى خوطب بالآية هو الذى جعلت له الولاية وإلا أدى إلى أن يكون المضاف هو المضاف إليه بعينه ، وإلى أن يكون كل واحد من المؤمنين ولى نفسه، وذلك محال . واستيفاء الكلام فى هذا الباب يطول به الكتاب ومن أراده فليطلبه من مظانه ... (١) » اهـ

ولا شك أن هذه محاولة فاشلة ؛ فإن حديث تصدق على بخاتمه فى الصلاة — وهو محور الكلام — حديث موضوع لا أصل له ، وقد تكفل العلامة ابن تيمية بالرد على هذه الدعوى فى كتابه منهاج السنة (جـ ٤ ص ٣ — ٩) .

(١) جـ ١ ص ٣٣٥ — ٣٣٦

عصمة الأئمة :

ولما كان الطبرسي يدين بعصمة الأئمة فإنا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً » يحاول محاولة جدية أن يقصر أهل البيت على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى وفاطمة والحسن والحسين؛ ليصل من وراء ذلك إلى أن الأئمة معصومون من جميع القبائح كالأنبياء سواء بسواء ، فلهذا يقول بعدما سرد من الروايات ما يشهد له بالقصر الذى يريده (... والروايات فى هذا كثيرة من طريق العامة والخاصة ، لو تصدينا لإيرادها لطال الكلام ، وفيما أوردناه كفاية ... واستدلت الشيعة على اختصاص الآية بهؤلاء الخمسة بأن قالوا : إن لفظة إنما محققة لما أثبت بعدها ، نافية لما لم يثبت ، فإن قول القائل إنما لك عندى درهم ، وإنما فى الدار زيد ، يقتضى أنه ليس عندى سوى الدرهم، وليس فى الدار سوى زيد . وإذا تقرر هذا فلا تخلو الإرادة فى الآية أن تكون هى الإرادة المحضة ، أو الإرادة التى يتبعها التطهير وإذهاب الرجس ، ولا يجوز الوجه الأول ؛ لأن الله تعالى قد أراد من كل مكلف هذه الإرادة المطلقة ، فلا اختصاص لها بأهل البيت دون سائر الخلق، ولأن هذا القول يقتضى المدح والتعظيم لهم بغير شك وشبهة ، ولا مدح فى الإرادة المجردة، فثبت الوجه الثانى. وفى ثبوته ثبوت عصمة الأئمة بالآية من جميع القبائح . وقد علمنا أن من عدا من ذكرنا من أهل البيت غير مقطوع على عصمته ، فثبت أن الآية مختصة بهم لبطلان تعلقها بغيرهم . ومتى قيل : إن صدر الآية وما بعدها فى الأزواج ، فالقول فيه : أن هذا لا ينكره من عرف عادة الفصحاء فى كلامهم ؛ فإنهم يذهبون من خطاب إلى غيره ويعودون إليه ، والقرآن من ذلك مملوء وكذلك كلام العرب وأشعارهم ...)[1] . اهـ

فأنت ترى أن الطبرسي يحاول من وراء هذا الجدل العنيف أن يثبت عصمة

(١) جـ ١ ص ٥٠

الأئمة، وهى عقيدة فاسدة يؤمن بها هو ومن على شاكلته من الإمامية الإثنى عشرية ،ولاشك أن هذا تحكم فى كلام الله تعالى دفعه إليه الهوى. وحمله عليه تأثير المذهب .

الرجعة :

ولما كان الطبرسى يقول بالرجعة ، فإنا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول ما نصه :(. . . واستدل قوم من أصحابنا بهذه الآية على جواز الرجعة. وقول من قال : إن الرجعة لا تجوز إلا فى زمن النبى لتكون معجزة له ودلالة على نبوته باطل ،لأن عندنا بل عند أكثر الأمة يجوز إظهار المعجزات على أيدى الأئمة والأولياء ، والأدلة على ذلك مذكورة فى كتب الأصول . . . [١]) اهـ .

المهدى :

والطبرسى يدين بالمهدى ، ويعتقد أنه اختفى وسيرجع فى آخر الزمان ، وقد تأثر بهذه العقيدة : فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة « الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » يذكر الأقوال الواردة فى المعنى المراد بالغيب ، وينقل فى جملة ما ينقل من الأقوال: أن ابن مسعود وجماعة من الصحابة فسروا الغيب بما غاب عن العباد علمه . ثم يقول : « وهذا أولى لعمومه ، ويدخل فيه ما رواه أصحابنا من زمان غيبة المهدى ووقت خروجه . [٢]) . اهـ

التقية :

ولما كان الطبرسى يقول بمبدأ التقية ، فإنا نجده يستطرد إلى الكلام فيها ويؤيد مذهبه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس

---

(١) جـ ١ ص ٥٠

(٢) جـ ١ ص ١٧

من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة ... الآية) فيقول : من اتخذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين فليس من الله فى شىء ، أى ليس هو من أولياء الله ، والله برىء منه ، وقيل : ليس هو من ولاية الله تعالى فى شىء. وقيل : ليس من دين الله فى شىء . ثم استثنى فقال : (إلا أن تتقوا منهم تقاة) والمعنى : إلا أن يكون الكفار غالبين والمؤمنون مغلوبين فيخافهم المؤمن إن لم يظهر موافقتهم ولم يحسن العشرة معهم ، فعند ذلك يجوز له إظهار مودتهم بلسانه ، ومداراتهم تقية منهم ودفعا عن نفسه من غير أن يعتقد ذلك . وفى هذه الآية دلالة على أن التقية جائزة فى الدين عند الخوف على النفس ، وقال أصحابنا : إنها جائزة فى الأحوال كلها عند الضرورة ، وربما وجبت فيها لضرب من اللطف والاستصلاح وليس تجوز من الأفعال فى قتل المؤمن ، ولا فيما يعلم أو يغلب على الظن أنه استفساد فى الدين .

قال المفيد : إنها قد تجب أحياناً وتكون فرضاً ، وتجوز أحياناً من غير وجوب ، وتكون فى وقت أفضل من تركها ، وقد يكون تركها أفضل وإن كان فاعلها معذور أو معفوا عنه متفضلا عليه بترك اللوم عليها. وقال الشيخ أبو جعفر الطوسى : وظاهر الروايات يدل على أنها واجبة عند الخوف على النفس ، وقد روى رخصته فى جواز الإفصاح بالحق عنده، وروى الحسن : أن مسيلمة الكذاب أخذ رجلين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأحدهما: أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : أفتشهد أنى رسول الله ؟ قال : نعم ، ثم دعا بالآخر فقال : أتشهد أن محمداً رسول الله ؟ قال : نعم . قال : افتشد أنى رسول الله ؟ قال : إنى أصم . قالها ثلاثا ، كل ذلك يجيبه بمثل الأول ، فضرب عنقه ، فبلغ ذلك رسول الله فقال : أما ذلك المقتول فمضى على صدقه ويقينه ، وأخذ بفضله فهنيئاً له ، وأما الآخر فقبل رخصة الله فلا تبعة عليه ، فعلى هذا تكون التقية رخصة والإفصاح بالحق فيضلة [1] .اهـ

---

(١) جـ ١ ص ١٨٣

تأثر الطبرسي بفقه الشيعة في تفسيره :

ونجد الطبرسي في تفسيره يتأثر بفقه الإمامية الاثنى عشرية وآرائهم الاجتهادية ، فنراه يستشهد بكثير من الآيات على صحة مذهبه ، أو يرد استدلال مخالفيه بآيات القرآن على مذاهبهم . وهو في استدلاله ، ورده ، ودفاعه وجدله ، عنيف كل العنف . قوى إلى حد بعيد ، بحيث يخيل لغير المدقق الخبير أن الحق بجانبه ، والباطل بجانب من يخالفه .

نكاح المتعة :

فمثلا نجد الإمامية الإثنى عشرية يقولون بجواز نكاح المتعة ، ولا يعترفون بنسخه كغيرهم من المسلمين ؛ فلهذا حاول الطبرسي — وهو واحد منهم — أن يأخذ هذا المذهب بدليله من كتاب الله تعالى فعندما فسر قوله تعالى في الآية (٢٤) من سورة النساء « والمحصنات من النساء إلا ماملكت إيمانكم كتاب الله عليكم وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ... الآية » يقول ما نصه (... فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ...) الآية . قيل: المراد بالاستمتاع هنادرك البغية والمباشرة وقضاء الوطر من اللذة.. عن الحسن ومجاهد وابن زيد . فمعناه على هذا: فما استمتعتم وتلذذتم من النساء بالنكاح فآتوهن مهورهن . وقيل : المراد نكاح المتعة ، وهو النكاح المنعقد بمهر معين إلى أجل معلوم .. عن ابن عباس والسدى وابن سعيد وجماعة من التابعين ، وهو مذهب أصحابنا الإمامية ، وهو الواضح ؛ لأن أصل الاستمتاع والتمتع وإن كان في الأصل واقعاً على الانتفاع والالتذاذ فقد صار بعرف الشرع مخصوصاً بهذا العقد ، لاسيا إذا أضيف إلى النساء ، فعلى هذا يكون معناه: فمتى عقدتم عليهن هذا العقد المسمى متعة فآتوهن أجورهن ، ويدل على ذلك أن الله علق وجوب إعطاء المهر بالاستمتاع وذلك يقتضي أن يكون معناه هذا العقد المخصوص دون الجماع والاستلذاذ ، لأن المهر لايجب إلا به . هذا ، وقد روى عن جماعة من الصحابة منهم أبي بن كعب ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود : أنهم قرءوا : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن . وفي ذلك

تصريح بأن المراد به عقد المتعة . وقد أورد الثعلبي في تفسيره عن حبيب بن أبي ثابت قال : أعطاني ابن عباس مصحفاً فقال هذا على قراءة أبي ، فرأيت في المصحف : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى . وبإسناده عن أبي نضرة قال : سألت ابن عباس عن المتعة فقال : أما تقرأ سورة النساء ؟ فقلت: بلى ، فقال : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى ، قلت : لا أقرؤها هكذا . قال ابن عباس : والله هكذا أنزلها الله تعالى (ثلاث مرات) وبإسناده عن سعيد بن جبير أنه قرأ : فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى . وبإسناده عن شعبة بن الحكم بن عيينة قال : سألته عن هذه الآية « فما استمتعتم به منهن » أمنسوخة هي ؟ قال : قال الحكم قال : على بن أبي طالب : لولا أن عمر نهى عن المتعة مازنى إلا شفى [1] . وبإسناده عن عمران ابن الحصين قال : نزلت آية المتعة في كتاب الله تعالى ولم تنزل آية بعدها تنسخها ، فأمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتمتعنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومات ولم ينهنا عنها ، فقال بعد رجل برأيه ماشاء . ومما أورده مسلم بن الحجاج في الصحيح قال : حدثنا الحسن الحلواني ، قال حدثنا عبد الرزاق ، قال: أخبرنا ابن جريج ، قال : قال عطاء : قدم جابر بن عبد الله معتمراً فجئناه في منزله ، فسأله القوم عن أشياء ، ثم ذكروا المتعة ، فقال: استمتعنا على عهد رسول الله وأبي بكر وعمر . ومما يدل أيضاً على أن لفظ الاستمتاع في الآية لايجوز أن يكون المراد به الانتفاع والجماع ، أنه لو كان كذلك لوجب أن لا يلزم شيء من المهر من لا ينتفع من المرأة بشيء ، وقد علمنا أنه لو طلقها قبل الدخول لزم نصف المهر ، ولو كان المراد به النكاح الدائم لوجب للمرأة بحكم الآية جميع المهر بنفس العقد ؛ لأنه قال : (فآتوهن أجورهن) أي مهورهن ، ولاخلاف في أن ذلك غير واجب ، وإنما يجب الأجر بكماله بنفس العقد في نكاح المتعة .

ومما يمكن التعلق به في هذه المسألة ، الرواية المشهورة عن عمر بن الخطاب أنه قال : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم حلالا ، أنا أنهى

---

(١) الا شفى بالفاء : أي الا قليل

عنهما وأعاقب عليهما. فأخبر بأن هذه المتعة كانت على عهد رسول الله وأضاف النهى عنها إلى نفسه بضرب من الرأى، فلو كان النبى صلى الله عليه وسلم نسخها أو نهى عنها أو أباحها فى وقت مخصوص دون غيره لأضاف التحريم إليه دون نفسه . وأيضاً فإنه قرن بين متعة الحج ومتعة النساء فى النهى ،ولاخلاف فى أن متعة الحج غير منسوخة ولا محرمة ، فوجب أن يكون حكم متعة النساء حكمها . وقوله (فلا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة) من قال إن المراد بالاستمتاع والانتفاع والجماع، قال :المراد به ولا حرج ولا إثم عليكم فيما تراضيتم به من زيادة مهر ونقصانه ، أو حط ، أو إبراء ، أو تأخير .وقال السدى معناه لا جناح عليكم فيما تراضيتم به من استئناف عقد آخر بعد انقضاء مدة الأجل المضروب فى عقد المتعة، يزيدها الرجل فى الأجر وتزيده فى المدة، وهذا قول الإمامية وتظاهرت به الروايات عن أئمتهم ... [1]) اهـ .

فرض الرجلين فى الوضوء :

كذلك يقول الطبرسى – كغيره من علماء مذهبه — بأن المسح هو فرض الرجلين فى الوضوء ، فلهذا نراه يجادل بكل قوة ، ويدافع عن مذهبه وينصره بادلة إن دلت على شىء فهو قوة عقلية هذا الرجل وسعة ذهنه وكثرة إطلاعه ، فعندما فسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة (يا أيها الذين آمنو إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرفق وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين .. الآية) يقول ما نصه (... وأرجلكم إلى الكعبين اختلف فى ذلك ، فقال جمهور الفقهاء : إن فرضهما الغسل .وقالت الإمامية: فرضهما المسح دون غيره ، وبه قال عكرمة . وقد روى القول بالمسح عن جماعة من الصحابة والتابعين كابن عباس ، وأنس وأبى العالية والشعبى . وقال الحسن البصرى بالتخيير بين المسح والغسل ، وإليه ذهب الطبرى والجبائى إلا أنهما قالا: يجب مسح جميع القدمين ولا يجوز الاقتصار على مسح ظاهر القدم . قال ناصر الحق من جملة أئمة الزيدية : يجب الجمع بين المسح والغسل. وروى عن ابن عباس أنه

---

(١) جـ ١ ص ٢٥٥

وصف وضوء رسول الله فمسح على رجلية . وروى عنه أنه قال : إن فى كتاب الله المسح ، ويأبى الناس إلا الغسل . وقال : الوضوء غسلتان ومسحتان . وقال قتادة : فرض الله غسلتين ومسحتين . وروى ابن علية ، عن حميد ، عن موسى ابن أنس : أنه قال لأنس ونحن عنده : إن الحجاج خطبنا بالأهواز فذكر الطهر فقال : اغسلوا وجوهكم وأيديكم وامسحوا برءوسكم ، وإنه ليس شىء من بنى آدم أقرب من خبثه من قدميه ، فاغسلوا بطونهما وظهورهما وعواقبهما ، فقال أنس : صدق الله وكذب الحجاج ، قال الله تعالى (وامسحوا برؤسكم وأرجلكم إلى الكعبين) قال : فكان أنس إذا مسح قدميه بلهما . وقال الشعبى : نزل جبريل عليه السلام بالمسح . وقال : إن فى التمم يمسح ما كان غسلا ، ويلغى ما كان مسحاً . وقال يونس : حدثنى من صحب عكرمة إلى واسط . قال : فما رأيته غسل رجليه ، إنما كان يمسح عليهما . وأما ماروى عن سادة أهل البيت فى ذلك فأكثر من أن يحصى ، فمن ذلك ماروى الحسين بن سعيد الأهوازى . عن فضالة ، عن حماد بن عثمان ، عن غالب بن هذيل قال : سألت أباجعفر عن المسح على الرجلين فقال : هو الذى نزل به جبريل . وعنه عن أحمد بن محمد قال : سألت أبا الحسن موسى بن جعفر عن المسح على القدمين كيف هو؟ فوضع بكفه على الأصابع ثم مسحهما إلى الكبين ، فقلت له : لو أن رجلا قال بأصبعين من أصابعه هكذا إلى الكعبين ؟ قال : لا . إلا بكفه كلها . وأما وجه القراءتين فى (أرجلكم) فمن قال بالغسل حمل الجر فيه على أنه عطف على برءوسكم، وقال: المراد بالمسح هو الغسل . وروى عن أبى زيد أنه قال : المسح خفيف الغسل ، فقد قالوا : تمسحت للصلاة ، وقوى ذلك بأن التحديد إنما جاء فى المغسول ولم يجىء فى الممسوح . فلما وقع التحديد فى المسح علم أنه فى حكم الغسل لموافقة الغسل فى التحديد ، وهذا قول أبى على الفارسى .

وقال بعضهم : هو خفض على الجوار ، كما قالوا جحر ضب خرب . وخرب من صفات الجحر لا الضب ، وكما قال امرؤ القيس :

كأن ثبيرا فى عرانين وبله   كبير أناس بجاد مزمل

وقال الزجاج : إذا قرىء بالجر يكون عطفا على الرءوس فيقتضى كونه

ممسوحاً . وذكر عن بعض السلف أنه قال : نزل جبريل بالمسح ، والسنة فيه الغسل . قال : والخفض على الجوار لايجوز فى كتاب الله تعالى ، ولكن المسح على هذا التحديد فى القرآن كالغسل. وقال الأخفش: هو معطوف على الرءوس فى اللفظ ، مقطوع فى المعنى ، كقول الشاعر :

« علفتها تبنا وماء بارداً »

المعنى وسقيتها ماء باردا .

وأما القراءة بالنصب، فقالوا فيه.. إنه معطوف على أيديكم، لأنا رأينا فقهاء الأمصار عملوا على الغسل دون المسح ، ولما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى قوماً توضأوا وأعقابهم تلوح . فقال : «ويل للعراقيب من النار» . ذكره أبو على الفارسى . وأما من قال بوجوب مسح الرجلين .. حمل الجر والنصب فى أرجلكم على ظاهره بدون تعسف ، فالجر للعطف على الرءوس ، والنصب للعطف على موضع الجار والمجرور ، وأمثال ذلك فى كلام العرب أكثر من أن تحصى . قالوا : ليس فلان بقائم ولا ذاهبا ، وأنشد :

معاوى إننا بشر فأسجح فلسنا بالجبال ولا الحديدا

وقال تأبط شراً :

هل أنت باعث ديناراً لحاجتنا أو عبد رب أخا عون بن مخراق

فعطف عبد على موضع دينار ، فإنه منصوب فى المعنى ، ومن ذلك قول الشاعر :

جئنى بمثل بنى بدر لقومهم أو مثل إخوة منظور بن سيار

فإنه لما كان معنى جئنى هات وأحضر لى مثلهم ، عطف بالنصب على المعنى ، وأجابوا الأولين عما ذكروه فى وجه الجر والنصب بأجوبة نوردها على وجه الإيجاز : قالوا : ما ذكروه أولا من أن المراد بالمسح الغسل فباطل من وجوه:

أحدها : أن فائدة اللفظين فى اللغة والشرع مختلفة ، وقد فرق الله سبحانه بين الأعضاء المغسولة وبين الأعضاء الممسوحة ، فكيف يكون معنى المسح والغسل واحداً ؟

وثانيها : أن الأرجل إذا كان معطوفا على الرءوس ، وكان الفرض فى الرءوس المسح الذى ليس بغسل بلا خلاف ، فيجب أن يكون حكم الأرجل كذلك ، لأن حقيقة العطف تقتضى ذلك .

وثالثها : أن المسح لو كان بمعنى الغسل لسقط استدلالهم بما رووه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه توضأ وغسل رجليه ، لأن على هذا لا ينكر أن يكون مسحهما فسموا المسح غسلا وفى هذا ما فيه .

فأما استشهاد أبى زيد بقولهم : تمسحت للصلاة ، فالمعنى فيه: أنهم لما أرادوا أن يخبروا عن الطهور بلفظ موجز ولم يجز أن يقولوا تغسلت للصلاة لأن ذلك تشبيه ، بالغسل ، قالوا بدلا من ذلك تمسحت، لأن المغسول من الأعضاء ممسوح أيضاً فتجوزوا لذلك تعويلا على أن المراد مفهوم ، وهذا لا يقتضى أن يكونوا جعلوا المسح من أسماء الغسل .

وأما ما قالوا فى تحديد طهارة الرجلين فقد ذكر المرتضى فى الجواب عنه : أن ذلك لا يدل على الغسل ، وذلك لأن المسح فعل قد أوجبته الشريعة كالغسل فلا ينكر تحديده كتحديد الغسل ، ولو صرح سبحانه وتعالى فقال : وامسحوا أرجلكم وانتهوا بالمسح إلى الكعبين لم يكن منكرا . فإن قالوا : إن تحديد اليدين لما اقتضى الغسل فكذلك تحديد الرجلين يقتضى الغسل قلنا : إنا لم نوجب الغسل فى اليدين للتحديد بل للتصريح بغسلهما ، وليس كذلك فى الرجلين ، وإن قالوا : عطف المحدود على المحدود أولى وأشبه بترتيب الكلام. قلنا : هذا لا يصح ؛ لأن الأيدى محدودة وهى معطوفة على الوجوه التى ليست فى الآية محدودة ، فإذاً جاز عطف الأرجل وهى محدودة ، على الرءوس التى ليست بمحدودة ، وهذا أشبه مما ذكروه ؛ لأن الآية تضمنت ذكر عضو مغسول غير محدود وهو الوجه ، وعطف عضو محدود مغسول عليه ، ثم استؤنف ذكر عضو ممسوح غير محدود ، فيجب أن يكون أرجل ممسوحة محدودة معطوفة على الرءوس دون غيره . ليتقابل الجملتان فى عطف مغسول محدود على مغسول غير محدود ، وعطف ممسوح محدود على ممسوح غير محدود .

وأما من قال : إنه عطف على الجوار ، فقد ذكرنا عن الزجاج أنه لم يجوز ذلك فى القرآن ، ومن أجاز ذلك فى الكلام فإنما يجوز مع فقد حرف العطف ، وكل ما استشهد به على الإعراب بالمجاورة فلا حرف فيه حائل بين هذا وذاك . وأيضا فإن المجاورة إنما وردت فى كلامهم عند ارتفاع اللبس والأمن من الاشتباه ، فإن أحداً لا يشتبه عليه أن خربا لا يكون من صفة الضب ، ولفظة مزمل لا يكون من صفة البجاد ، وليس كذلك الأرجل فإنها يجوز أن تكون ممسوحة كالرءوس . وأيضا فإن المحققين من النحويين نفوا أن يكون الإعراب بالمجاورة جائزاً فى كلام العرب ، وقالوا فى جحر ضب خرب : إنهم أرادوا خرب جحره ، فحذفوا المضاف الذى هو جحر وأقيم المضاف إليه وهو الضمير المجرور مقامه وإذا ارتفع الضمير استكن فى خرب . وكذلك القول فى كبير أناس فى بجاد مزمل ، فتقديره مزمل كبيره ، فبطل الإعراب بالمجاورة جملة ، وهذا واضح لمن تدبره .

وأما من جعله مثل قول الشاعر: علفتها تبنا وماء بارداً ، كأنه قدر فى الآية واغسلوا أرجلكم ، فقوله أبعد من الجميع ؛ لأن مثل ذلك لو جاز فى كتاب الله تعالى على ضعفه وبعده فى سائر الكلام، فإنما يجوز إذا استحال حمله على ظاهره، فأما إذا كان الكلام مستقيما ومعناه ظاهراً فكيف يجوز مثل هذا التقدير الشاذ البعيد ؟.

وأما ما قاله أبو على فى القراءة بالنصب على أنه معطوف على الأيدى ، فقد أجاب عنه المرتضى بأن قال : جعل التأثير فى الكلام للقريب أولى من جعله للبعيد ، فنصب الأرجل عطفا على الموضع أولى من عطفها على الأيدى والوجوه ، على أن الجملة الأولى المأمور فيها بالغسل قد انقضت وبطل حكمها باستئناف الجملة الثانية ، ولا يجوز بعد انقطاع حكم الجملة الأولى أن تعطف على ما فيها، فإن ذلك يجرى مجرى قولهم ضربت زيداً وعمرا وأكرمت خالداً وبكرا ، فإن رد بكر إلى خالد فى الإكرام هو الوجه فى الكلام لا يسوغ الذى سواه ، ولا يجوز رده إلى الضرب الذى قد انقطع حكمه ،ولو جاز ذلك

أيضاً لترجح ماذكرناه لتطابق معنى القراءتين ولا تتنافيان .

فأما ماروى فى الحديث أنه قال : ويل للعراقيب من النار ، وغير ذلك من الأخبار التى رووها عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه توضأ وغسل رجليه ، فالكلام فى ذلك أنه لايجوز أن يرجع عن ظاهر القرآن المعلوم بظاهر الأخبار الذى لايوجب علما وإنما يقتضى الظن ، على أن هذه الأخبار معارضة بأخبار كثيرة وردت من طرقهم ووجدت فى كتبهم ، ونقلت عن شيوخهم ، مثل ماروى عن أوس بن أبى أوس انه قال : رأيت النبى صلى الله عليه وسلم يتوضأ ومسح على نعليه ثم قام فصلى . وعن حذيفة قال : أتى رسول الله سباطة قوم فبال عليها ثم دعا بماء فتوضأ ومسح على قدميه ، وذكره أبو عبيدة فى غريب الحديث . إلى غير ذلك مما يطول ذكره .

وقوله : ويل للعراقيب من النار ، فقد روى فيه أن قوما من أجلاف الأعراب كانوا يبولون وهم قيام ، فيتشرشر البول على أعقابهم وأرجلهم فلا يغسلونها ، ويدخلون المسجد للصلاة ، وكان ذلك سبباً لهذا الوعيد .

وأما الكعبان فقد اختلف فى معناهما ، فعند الإمامية هما العظمان النابتان فى ظهر القدم عند معقد الشراك ، ووافقهم فى ذلك محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة، وإن كان يوجب غسل الرجلين إلى هذا الموضع . وقال جمهور المفسرين والفقهاء : الكعبان هما عظما الساقين ، قالوا : ولو كان كما قالوه لقال سبحانه : وأرجلكم إلى الكعاب ولم يقل إلى الكعبين ؛ لأن على ذلك القول يكون فى كل رجل كعبان) اه . (١)

نكاح الكتابيات :

ولما كان مذهب الطبرسى عدم جواز نكاح أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، فإنا نجده يتأثر بهذا المذهب فيفسر كلام الله على مقتضاه ، فنجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة . . . الاية) يقول بعدما تكلم

(١) ج ١ ص ٣١٤ - ٣١٦

عن اللغة والإعراب وسبب النزول (لما تقدم ذكر المخالطة بين تعالى من يجوز مخالطته بالنكاح فقال : (ولا تنكحوا المشركات) ، أى لا تزوجوا النساء الكافرات حتى يؤمن أى يصدقن بالله ، وهى عامة عندنا فى تحريم مناكحة جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم . وليست بمنسوخة ولا مخصوصة ، فاختلفوا فيه ، فقال بعضهم : لا يقع اسم المشركات على أهل الكتاب ، وقد فصل الله بينهما فقال : « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين[١] » و « مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين[٢] » وعطف أحدهما على الآخر ، فلا نسخ فى الآية ولا تخصيص . وقال بعضهم : الآية متناولة جميع الكفار ، والشرك يطلق على الكل ، ومن جحد نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فقد أنكر معجزته وأضافه إلى غير الله ، وهذا هو الشرك بعينه ؛ لأن المعجزة شهادة من الله له بالنبوة . ثم اختلف هؤلاء : فمنهم من قال : إن الآية منسوخة فى الكتاب بالآية التى فى المائدة (... والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب)[٣] . عن ابن عباس والحسن ومجاهد - ومنهم من قال : إنها مخصوصة بغير الكتابيات .. عن قتادة وسعيد بن جبير - ومنهم من قال : إنها على ظاهرها فى تحريم نكاح كل كافرة كتابية كانت أو مشركة .. عن ابن عمر وبعض الزيدية وهو مذهبنا . وسيأتى بيان آية المائدة فى موضعها إن شاء الله « ولأمة مؤمنة خير من مشركة » معناه مملوكة مصدقة مسلمة خير من حرة مشركة (ولو أعجبتكم) معناه ولو أعجبتكم بمالها أو حسبها أو جمالها ، فظاهر هذا يدل على أنه يجوز نكاح الأمة المؤمنة فى وجود الطول ، فأما قول تعالى (ومن لم يستطع منكم طولا .. الآية[٤]) فإنما هى على التنزيه دون التحريم (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) معناه : ولا تنكحوا النساء المسلمات جميع الكفار من أهل الكتاب وغيرهم حتى يؤمنوا ، وهذا يؤيد قول من يقول

---

(١) أول سورة البينة (٢) فى الآية (١٠٥) من سورة البقرة .

(٣) فى الآية (٥) من سورة المائدة (٤) فى الآية (٢٥) من سورة النساء .

إن قوله (ولا تنكحوا المشركات) يتناول جميع الكافرات ، وقوله (ولعبد مؤمن خير من مشرك) أى عبد مصدق مسلم خير من حر مشرك ولو أعجبكم ماله أو حاله أو جماله ... اهـ) (١)

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة (اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ... الآية) . نراه يقول ما نصه (... والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم) وهم اليهود والنصارى ، واختلف فى معناه : فقيل هن العفائف حرائر كن أو إماء ، حربيات كن ذميات ... عن مجاهد والحسن والشعبى وغيرهم — وقيل : هن الحرائر أو ذميات كن أو حربيات — وقال أصحابنا : لا يجوز عقد نكاح الدوام على الكتابية ، لقوله تعالى (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) ولقوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر) (٢) وأولوا هذه الآية بأن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ، اللاتى أسلمن منهن . والمراد بالمحصنات من المؤمنات ، اللاتى كن فى الأصل مؤمنات بأن ولدن على الإسلام ، وذلك أن قوما كانوا يتحرجون من العقد على من أسلمت عن كفر ، فبين سبحانه أنه لا حرج فى ذلك ، ولهذا أفردهن بالذكر ، حكى ذلك أبو القاسم البلخى . قالوا : ويجوز أن يكون مخصوصاً أيضاً بنكاح المتعة وملك اليمين ، فإن عندنا يجوز وطؤهن بكلا الوجهين ، على أنه قد روى أبو الجارود عن أبى جعفر أنه منسوخ بقوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وبقوله (ولا تمسكوا بعصم الكوافر ...) اهـ (٣)

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة (.. ولا تمسكوا بعصم الكوافر ...) قال ما نصه (أى لا تمسكوا بنكاح الكافرات ، وأصل

---

(١) جـ ١ ص ١٢٤ (٢) فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة
(٣) جـ ١ ص ٣١٣

العصمة المنع ، وسمى النكاح عصمة ، لأن المنكوحة تكون فى حبال الزوج وعصمته ، وفى هذا دلالة على أنه لايجوز العقد على الكافرة سواء كانت حربية أو ذمية ، وعلى كل حال ، الآية عامة فى الكوافر ، وليس لأحد أن يخص الاية بعابدة الوثن لنزولها بسببهن ، لأن العبرة بعموم اللفظ لا بالسبب . . . [١]) اه

الغنائم :

ولما كانت الإمامية الإثنا عشرية لهم فى الغنائم نظام خاص يخالفون به من عداهم فيجبون الخمس لمستحقيه فى مطلق الغنيمة ، فهو غير مختص عندهم بغنائم الحرب بل يشمل أنواعا سبعة هي : غنائم الحرب ، وغنائم الغوص ، والكنز الذى يعثر عليه ، والمعدن الذى يستنبط من الأرض ، وأرباح المكاسب ، والحلال المختلط بالحرام ، والأرض المنتقلة من المسلم إلى الذمى . وليس الخمس الهاشمى الذى يرون وجوبه فيما عدا الغنائم الحربية من الصدقات كما يتوهم البعض ، ولكنهم يعتبرونه حقاً امتيازياً لآل محمد الذين حرمت عليهم الصدقات نظير ماتمتاز به الأسر المالكة اليوم من التمتع بمخصصات خاصة . وقد تضافر الحديث عن الأئمة بأن الخمس حق سطانى بإرادة ملكية ، هى إرادة مليك الكائنات لمستحقيه الذين ذكرهم القرآن [٢] .

لما كان هذا فإنا نجد الطبرسى ينزل ماورد فى الغنائم من الآيات على مذهبه ، ولهذا عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شىء الآية » يقول متأثراً بمذهبه « . . . اختلف العلماء فى كيفية قسمة الخمس ومن يستحقه على أقوال .

أحدها : ماذهب إليه أصحابنا ، وهو أن الخمس يقسم على ستة أسهم ، فسهم لله ، وسهم للرسول ، وهذان السهمان مع سهم ذى القربى للإمام القائم مقام الرسول ، وسهم ليتامى آل محمد ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم ، لايشركهم فى ذلك غيرهم ، لأن الله سبحانه حرم عليهم الصدقات لكونها

---

(١) جـ ٢ ص ٤٩٧ (٢) تعريف الشيعة ص ٣١

أو ساخ الناس وعوضهم من ذلك الخمس ، وروى ذلك الطبرى عن على بن الحسين زين العابدين ، ومحمد بن على الباقر . وروى أيضاً عن أبى العالية والربيع أنه يقسم على ستة أسهم إلا أنهما قالا : سهم الله للكعبة ، والباقى لمن ذكره الله . وهذا القسم مما يقتضيه ظاهر الكتاب وَيقويه .

الثانى . أن الخمس يقسم على خمسة أسهم ، وأن سهم الله والرسول واحد ، ويصرف هذا السهم إلى الكراع والسلاح ، وهو المروى عن ابن عباس ، وإبراهيم ، وقتادة ، وعطاء .

الثالث : أن يقسم على أربعة أسهم : سهم لذى القربى ... لقرابة النبى صلى الله عليه وسلم ، والأسهم الثلاثة لمن ذكروا بعد ذلك من سائر المسلمين وهو مذهب الشافعى .

الرابع : أنه يقسم على ثلاثة أسهم ، لأن سهم الرسول قد سقط بوفاته ، لأن الأنبياء لا تورث فيما يزعمون ، وسهم ذوى القربى قد سقط ، لأن أبا بكر وعمر لم يعطيا سهم ذى القربى ولم ينكر ذلك أحد من الصحابة عليهما . . وهو مذهب أبى حنيفة وأهل العراق ـ ومنهم من قال : لو أعطى فقراء ذوى القربى سهماً والآخرون ثلاثة أسهم جاز ، ولو جعل ذوى القربى أسوة بالفقراء ولا يفرد لهم سهم جاز — واختلف فى ذى القربى : فقيل: هم بنو هاشم خاصة من ولد عبد المطلب ، لأن هاشماً لم يعقب إلا منه . . عن ابن عباس ومجاهد ، وإليه ذهب أصحابنا ـ وقيل هم بنو هاشم بن عبد مناف ، وبنو عبد المطلب ابن عبد مناف ... وهو مذهب الشافعى ، وروى ذلك عن جبير بن معطم عن النبى صلى الله عليه وسلم ـ وقال أصحابنا : إن الخمس واجب فى كل فائدة تحصل للإنسان من المكاسب ، وأرباح التجارات ، وفى الكنوز والمعادن ، والغوص ، وغير ذلك مما هو مذكور فى الكتب ، ويمكن أن يستدل على ذلك بهذه الآية ، فإن فى عرف اللغة يطلق على جميع ذلك اسم الغنم والغنيمة...)اه[1] .

---

(١) جـ ١ ص ٤٨٢ — ٤٨٣

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الآية) يقول ما نصه (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى) أى من أموال كفار أهل القرى (فلله) يأمركم فيه بما أحب (وللرسول) بتمليك الله إياه (ولذى القربى) يعنى أهل بيت رسول الله وقرابته ، وهم بنو هاشم (واليتامى والمساكين وابن السبيل) منهم ، لأن التقدير ولذى قرباه ، ويتامى أهل بيته ومساكينهم وابن السبيل منهم . وروى المنهال بن عمرو عن على بن الحسين قال : قلت قوله (ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) قال : هم أقرباؤنا ومساكيننا وأبناء سبيلنا . وقال جميع الفقهاء : هم يتامى الناس عامة ، وكذلك المساكين وأبناء السبيل . وقد روى أيضاً ذلك عنهم . وروى محمد بن مسلم عن أبى جعفر أنه قال : كان أبى يقول : لنا سهم رسول الله وسهم ذوى القربى ، ونحن شركاء الناس فيما بقى . والظاهر يقتضى أن ذلك لهم ، سواء كانوا أغنياء أو فقراء ... وهو مذهب الشافعى — وقيل : إن مال الفىء للفقراء من قرابة رسول الله وهم بنو هاشم وبنو المطلب . وروى عن الصادق أنه قال : نحن قوم فرض الله طاعتنا ، ولنا الأنفال ، ولنا صفو المال .. يعنى ما كان يصطفى لرسول الله صلى الله عليه وسلم من فره الدواب ، وحسان الجوارى والدرة الثمينة والشىء الذى لا نظير له[1]) اه

ميراث الأنبياء :

والطبرسى يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء عليهم السلام يورثون كما يورث سائر الناس ، ولهذا نراه يتأثر بمذهبه هذا ، فيحمل عليه كلام الله ، فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآيتين (٥ ، ٦) من سورة مريم (وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك ولياً * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا) يقول ما نصه (.. اختلف فى معناه ، فقيل : معناه يرثنى مالى ويرث من آل يعقوب النبوة .. عن أبى صالح - وقيل معناه

(١) جـ ٢ — ص ٢٩١ .

يرث نبوتى و نبوة آل يعقوب .. عن الحسن ومجاهد . واستدل أصحابنا بالآية على أن الأنبياء يورثون المال ، وأن المراد بالإرث المذكور فيها المال دون العلم والنبوة ، بأن قالوا : إن لفظ الميراث فى اللغة والشريعة لا يطلق إلا على ماينقل من الموروث إلى الوارث كالأموال ، ولا يستعمل فى غير المال إلا على طريق المجاز والتوسع ، ولا يعدل عن الحقيقة إلى المجاز بغير دلالة . وأيضاً فإن زكريا قال فى دعائه (واجعله رب رضيا) أى اجعل يارب ذلك المولى الذى يرثنى رضيا عندك ممتثلا لأمرك ، ومتى حملنا الإرث على النبوة لم يكن لذلك معنى ، وكان لغوا عبثا ، ألا ترى أنه لايحسن أن يقول أحد. اللهم ابعث لنا نبيا. واجعله عاقلا رضياً فى أخلاقه ، لأنه إذا كان نبياً فقد دخل الرضا وما هو أعظم من الرضا فى النبوة ، ويقوى ماقلناه أن زكريا صرح بأنه يخاف بنى عمه بعده بقوله (وإنى خفت الموالى من ورائى) وإنما يطلب وارثا لأجل خوفه ، ولا يليق خوفه منهم إلا بالمال دون النبوة والعلم ، لأنه كان أعلم بالله تعالى من أن يخاف أن يبعث نبيا من ليس بأهل النبوة ، وأن يورث علمه وحكمته من ليس لها بأهل ، ولأنه إنما بعث لإذاعة العلم ونشره فى الناس ، فكيف يخاف من الأمر الذى هو الغرض من بعثته . فإن قيل : إن هذا يرجع عليكم فى ورثة المال ، لأن فى ذلك إضافة الضن والبخل إليه ، إليه ، قلنا : معاذ الله أن يستوى الأمران ، فإن المال قد يروق المؤمن والكافر ، والصالح والطالح ، ولا يمتنع أن يأسى على بنى عمه إذا كانوا من أهل الفساد أن يظفروا بماله فيصرفوه فيما لا ينبغى ، بل فى ذلك غاية الحكمة ، فإن تقوية الفساق وإعانتهم على أفعالهم المذمومة محظورة فى الدين ، فمن عد ذلك بخلا وضناً فهو غير منصف . وقوله : « خفت الموالى من ورائى » يفهم منه أن خوفه إنما كان من أخلاقهم وأفعالهم ومعان فيهم لا من أعيانهم ، كما أن من خاف الله تعالى فإنما خاف عقابه ، فالمراد به : خفت تضييع الموالى مالى وإنفاقهم إياه فى معصية الله [1]) اه .

وعندما فسر قوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل(. . . وورث سليمان

---

(١) جـ ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ .

داود) نجده يقول مانصه : فى هذا دلالة على أن الأنبياء يورثون المال كتوريث غيرهم .. وهو قول الحسن - وقيل معناه أنه ورث علمه و نبوته وملكه دون سائر أولاده . ومعنى الميراث هنا أنه قام مقامه فى ذلك ، فأطلق عليه اسم الإرث كما أطلق على الجنة اسم الإرث . . عن الجبائى . وهذا خلاف الظاهر ، والصحيح عند أهل البيت هو الأول ..) (٢) اه .

الإجماع :

ولما كان الطبرى كعلماء مذهبه لا يعتبرون حجية الإجماع مهما كان نوعه إلا إذا كان كاشفاً عن رأى الإمام أو كان الإمام داخلا فى جملة المجمعين (٢) ، فإنا نراه يرد الأدلة القرآنية التى استدل بها الجمهور على حجية الإجماع ويناقشهم فى فهم هذه الآيات .

فمثلا عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة النساء (..فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا) نراه يرد استدلال الجمهور بهذه الآية على حجية الإجماع فيقول ما نصه (. . . واستدل بعضهم بقوله « فان تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول » على أن إجماع الأمة حجة بأن قالوا : إنما أوجب الله الرد إلى الكتاب والسنة بشرط وجود التنازع ، فدل على أنه إذا لم يوجد التنازع لا يجب الرد ، ولا يكون كذلك إلا والإجماع حجة . وهذا الاستدلال إنما يصح لو فرض أن فى الأمة معصوما حافظاً للشرع ، فأما إذا لم يفرض ذلك فلا يصح ، لأن تعليق الحكم بشرط أو صفة لايدل على أن ماعداه بخلافه عند أكثر العلماء . فكيف اعتمدوا عليه ههنا . على أن الأمة لاتجمع على شىء إلا عن كتاب أو سنة . وكيف يقال إنها إذا أجمعت على شىء لايجب عليها الرد إلى الكتاب والسنة وقد ردت إليهما ؟ . (٣) اه .

---

(١) ج ٢ ص ٢٢٩ . (٢) تعريف الشيخين ١٩ .
(٣) ج ١ ص ٣٧٠

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٥) من سورة النساء (ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ماتولى ... الآية) يقول مانصه (.. وقد استدل بهذه الآية على أن إجماع الأمة حجة، لأنه توعد على مخالفة سبيل المؤمنين كما توعد على مشاقة الرسول. والصحيح أنه لا يدل على ذلك، لأن ظاهر الآية يقتضى إيجاب متابعة من هو مؤمن على الحقيقة ظاهراً وباطنا، لأن من أظهر الإيمان لا يوصف بأنه مؤمن إلا مجازا، فكيف يحمل ذلك على إيجاب متابعة من أظهر الإيمان، وليس كل من أظهر الإيمان مؤمنا، ومتى حملوا الآية على بعض الأمة حملها غيرهم على من هو مقطوع على عصمته عنده من المؤمنين وهم الأئمة من آل محمد صلى الله عليه وسلم. على أن ظاهر الآية يقتضى أن الوعيد إنما يتناول من جمع بين مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، فمن أين لهم أن من يفعل أحدهما يتناوله الوعيد؟. ونحن إنما علمنا أن الوعيد إنما يتناول بمشاقة الرسول بانفرادها بدليل غير الآية. فيجب أن يسندوا تناول الوعيد باتباع غير سبيل المؤمنين إلى دليل آخر (١) اه.

تأثير الطبرسى بمذهب المعتزلة فى تفسيره.

هذا، وإن عقيدة الطبرسى كعقيدة غيره من الشيعة لها كثير الارتباط بمبادىء المعتزلة فى علم الكلام، ولهذا نراه فى تفسيره كثيراً مايوافق المعتزلة فى بعض آرائهم الكلامية، ويرتضى مذهبهم، ويدافع عنه، ويحاول أن يهدم ماعداه. وأحيانا نراه لا يرتضى ما يقوله المعتزلة ولا يسلمه لهم بل يقف موقف المنازع لهم. والمعارض لأدلتهم.

الهدى والضلال :

فى الآيات التى لها تعلق بهداية العبد وضلاله : نراه يوافق المعتزلة فى عقيدتهم، ويدافع عنها، ويهدم ماعداها.

---

(١) ج ١ ص ٢٩٠.

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام (فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا ... الآية) يقول مانصه (... قد ذكر فى تأويل الآية وجوه :

أحدها : أن معناه من يرد الله أن يهديه إلى الثواب وطريق الجنة يشرح صدره للإسلام فى الدنيا ، بأن يثبت عزمه عليه ، ويقوى دواعيه على التمسك به ، ويزيل عن قلبه وساوس الشيطان وما يعرض فى القلوب من الخواطر الفاسدة . وإنما يفعل ذلك لطفا له ومنا عليه وثوابا على اهتدائه بهدى الله وقبوله إياه ، ونظيره قوله سبحانه « والذين اهتدوا زادهم هدى[1] » ، « ويزيد الله الذين اهتدوا هدى[2] » . « ومن يرد أن يضله » عن ثوابه وكرامته « يجعل صدره » فى كفره « ضيقاً حرجاً » عقوبة له على ترك الإيمان من غير أن يكون سبحانه مانعا له عن الإيمان وساليا إياه القدرة عليه ، بل ربما يكون ذلك سببا داعيا له إلى الإيمان ، فإن من ضاق صدره بالشىء كان ذلك داعيا له إلى تركه . والدليل على أن شرح الصدر قد يكون ثواباً قوله تعالى « ألم نشرح لك صدرك ... الآيات[3] » ، ومعلوم أن وضع الوزر ورفع الذكر يكون ثوابا على تحمل أعباء الرسالة وكلفها ، وكذلك ماقرن به من شرح الصدر . والدليل على أن الهدى قد يكون إلى الثواب قوله « والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم » ، ومعلوم أن الهداية بعد القتل لاتكون إلا إلى الثواب ؛ فليس بعد الموت تكليف ، وقد وردت الرواية الصحيحة : أنه لما نزلت هذه الآية سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرح الصدر : ماهو ؟ فقال : نور يقذفه الله فى قلب المؤمن فيشرح له صدره وينفسح ، قالوا ؛ فهل لذلك من أمارة يعرف بها ؟ . قال : نعم .. الإنابة إلى دار الخلود ، والتجافى عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل نزول الموت .

---

(١) فى الآية (١٧) من سورة محمد عليه السلام .
(٢) الآية (٧٦) من سورة مريم
(٣) أول سورة الانشراح

وثانيها : أن معنى الآية : : فمن يرد الله أن يثبته على الهدى يشرح صدره من الوجه الذى ذكرنا جزاءاً له على إيمانه واهتدائه ، وقد يطلق لفظ الهدى والمراد به الاستدامة كما قلنا فى قوله « اهدنا الصراط المستقيم » ، « ومن يرد أن يضله » أى يخذله ويخلى بينه وبين ما يريده لاختياره الكفر وتركه الإيمان « يجعل صدره ضيقا حرجا » بأن يمنعه الألطاف التى ينشرح بها صدره لخروجه من قبولها بإقامته على كفره . فإن قيل : إنا نجد الكافر غير ضيق الصدر لما هو فيه ، ونراه طيب القلب على كفره ، فكيف يصح الخلف فى خبره سبحانه ؟ قلنا : إنه سبحانه بين أنه يجعل صدره ضيقا ولم يقل فى كل حال ،ومعلوم من حاله فى أحوال كثيرة أنه يضيق صدره بما هو فيه من ورود الشبه والشكوك عليه ، وعند ما يجازى الله المؤمنين على استعمال الأدلة الموصلة إلى الإيمان ، وهذا القدر هو الذى يقتضيه الظاهر .

وثالثها : أن معنى الآية من يرد الله أن يهديه زيادة الهدى التى وعدها المؤمن يشرح صدره لتلك الزيادة ، لأن من حقها أن تزيد المؤمن بصيرة «ومن يرد أن يضله » عن تلك الزيادة بمعنى يذهبه عنها من حيث أخرج هو نفسه من أن يصح عليه « يجعل صدره ضيقا حرجاً » لمكان فقد تلك الزيادة ؛ لأنها إذا اقتضت فى المؤمن ما قلناه أوجب فى الكافر ما يضاده ، ويكون الفائدة فى ذلك الترغيب فى الإيمان والزجر عن الكفر ... وهذا التأويل قريب مما تقدم . وقد روى عن ابن عباس أنه قال : إنما سمى الله قلب الكافر حرجاً ، لأنه لا يصل الخير إلى قلبه ، وفى رواية أخرى : لاتصل الحكمة إلى قلبه . ولايجوز أن يكون المراد بالإضلال فى الآية الدعاء إلى الضلال ، ولا الأمر به ، ولا الإجبار عليه ؛ لإجماع الأمة على أن الله تعالى لا يأمر بالضلال ولا يدعو إليه ، فكيف يجبر عليه ، والدعاء إليه أهون من الإجبار عليه . وقد ذم الله تعالى فرعون والسامرى على إضلالهما عن دين الهدى فى قوله : «وأضل فرعون قومه وما هدى [1] » ، وقوله (فأضلهم السامرى [2]) ولا خلاف فى أن إضلالهما

---

(١) الآية (٧٩) من سورة طه (٢) الآية رقم (٨٥) من سورة طه

إضلال أمر وإجبار ودعاء ، وقد ذمهما الله تعالى عليه مطلقا ، فكيف يتمدح بما ذم عليه غيره » اه (١) .

رؤية الله :

كذلك يقول الطبرسى بما يقول به المعتزلة من عدم جواز رؤية الله ووقوعها فى الآخرة ، ولهذا نراه يفسر قوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة ، إلى ربها ناظرة » بما يتفق ومذهبه فيقول « إلى ربها ناظرة » اختلف فيه على على وجهين :

أحدهما : أن معناه نظرة العين .

والثانى : أنه الانتظار . واختلف من حمله على نظر العين على قولين :

أحدهما : أن المراد إلى ثواب ربها ناظرة ، أى هى ناظرة إلى نعيم الجنة حالا بعد حال ، فيزداد بذلك سرورها . وذكر الوجوه والمراد به أصحاب الوجوه . . روى ذلك عن جماعة من علماء المفسرين من الصحابة والتابعين وغيرهم . . فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه ، كما فى قوله تعالى : « وجاء ربك (٢) » أمر ربك . وقوله : « وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار (٣) » أى إلى إطاعة العزيز الغفار وتوحيده . وقوله : « إن الذين يؤذون الله (٤) » أى أولياء الله .

والآخر : أن النظر بمعنى الرؤية ، والمعنى تنظر إلى الله معاينة ، روى ذلك عن الكلبى ومقاتل وعطاء وغيرهم . . وهذا لا يجوز ، لأن كل منظور إليه بالعين مشار إليه بالحدقة واللحاظ ، والله يتعالى عن أن يشار إليه بالعين ، كما يجل سبحانه عن أن يشار إليه بالأصابع ، وأيضا فإن الرؤية بالحاسة لا تتم

---

(١) جـ١ ص ٤٠١ (٢) الآية رقم (٢٢) من سورة الفجر
(٣) فى الآية (٤٢) من سورة غافر (٤) فى الآية (٥٧) من سورة الأحزاب .

إلا بالمقابلة والتوجه ، والله يتعالى عن ذلك بالاتفاق . وأيضاً فإن رؤية الحاسة لا تتم إلا باتصال الشعاع بالمرئى ، والله منزه عن اتصال الشعاع به . على أن النظر لا يفيد الرؤية فى اللغة ، فإنه إذا علق بالعين أفاد طلب الرؤية . كما أنه إذا علق بالقلب أفاد طلب المعرفة بدلالة قولهم نظرت إلى الهلال فلم أره ، فلو أفاد النظر الرؤية لكان هذا القول ساقطا متناقضا ، وقولهم مازلت أنظر إليه حتى رأيته ، والشىء لايجعل غاية لنفسه ، فلا يقال مازلت أراه حتى رأيته ولأنا نعلم الناظر ناظراً بالضرورة ، ولا نعلمه رائيا بالضرورة ، بدلالة أنا نسأله هل رأيت أم لا ؟ .

وأما من حمل النظر فى الآية على الانتظار فإنهم اختلفوا فى معناه على أقوال :

أحدها أن المعنى منتظرة لثواب ربها .. روى ذلك عن مجاهد ، والحسن وسعيد بن جبير ، والضحاك .. وهو المروى عن على . ومن اعترض على هذا بأن قال : إن النظر بمعنى الانتظار لايتعدى بإلى، فلا يقال انتظرت إليه ، وإنما يقال انتظرته ، فالجواب عنه على وجوه :

منها : أنه قد جاء فى الشعر بمعنى الانتظار ومعدى بإلى ، كما فى البيت الذى سبق ذكره (... ناظرات ٭ إلى الرحمن [1]) وكقول جميل بن معمر :

وإذا نظرت إليك من ملك والبحر دونك زدتنى نعما [2]

وقول الآخر :

إنى إليك لما وعدت لناظر نظر الفقير إلى الغنى الموسر

---

(١) وذلك حيث فسر النظر لغة فقال (... والنظر تقليب الحدقة الصحيحة نحو المرئى طلبا لرؤيته . ويكون النظر بمعنى الانتظار كما قال عز شأنه (وإنى مرسلة إليهم بهدية فناظرة) أى منتظرة ، وقال الشاعر :

وجوه يوم بـــدر ناظرات الى الرحمن تنظر الفـــلاحا

ثم يستعمل فى الفكر فيقال : نظرت فى هذه المسألة أى تفكرت : ومنه المناظرة : وتكون بمعنى المقابلة ، يقال : دور بنى فلان تتناظر أى تتقابل) ج ٢ ص ٥٥٢

(٢) وفى رواية جدتنى نعما ، أى : جدت على :

ونظائره كثيرة :

ومنها أن تحمل إلى فى قوله « إلى ربها ناظرة » ، على أنها اسم ، فهو واحد الآلاء التى هى النعم ، فإن فى واحدها أربع لغات : إلا وألا مثل معى وقفا وألى وإلى مثل جدى وحسى ، وسقط التنوين بالإضافة . وقال الأعشى :

أبيض لا يرهب الهزال ولا   يقطع رحما ولا يخون إلى

وليس لأحد أن يقول : إن هذا من أقوال المتأخرين وقد سبقهم الإجماع، فإنا لا نسلم ذلك ؛ لما ذكرناه من أن عليا ومجاهداً والحسن وغيرهم قالوا : المراد بذلك تنتظر الثواب .

ومنها : أن لفظ النظر يجوز أن يعدى بإلى فى الانتظار على المعنى ، كما أن الرؤية عديت بإلى فى قوله تعالى « ألم تر إلى ربك كيف مد الظل[1] » ، فأجرى الكلام على المعنى ، ولا يقال رأيت إلى فلان . ومن إجراء الكلام على المعنى قول الفرزدق :

ولقد عجبت إلى هوازن أن أصبحت   منى تلوذ ببطن أم جـــرير

فعدى عجبت بإلى لأن المعنى نظرت .

وثانيها : أن معناه مؤملة لتجديد الكرامة ، كما يقال عينى ممدودة إلى الله تعالى وإلى فلان ، وأنا شاخص الطرف إلى فلان . . ولما كانت العيون بعض أجزاء الوجوه أضيف الفعل الذى يقع بالعين إليها .. عن أبى مسلم .

وثالثها : أن المعنى أنهم قطعوا آمالهم وأطماعهم عن كل شىء سوى الله ، ورجوه دون غيره ، فكنى سبحانه عن الطمع بالنظر ، ألا ترى أن الرعية تتوقع نظر السلطان وتطمع فى أفضاله عليها وإسعافه فى حوائجها ، فنظر الناس مختلف: فناظر إلى السلطان، وناظر إلى تجارة ، وناظر إلى زراعة ، وناظر إلى ربه يؤمله.. وهذه الأقوال متقاربة فى المعنى ، وعلى هذا فإن هذا الإنتظار متى يكون ؟ فقيل : إنه بعد الاستقرار فى الجنة ، وقيل : إنه قبل استقرار الخلق فى الجنة والنار، فكل فريق ينتظر ماهو له أهل .. وهذا اختيار القاضى عبد الجبار ـ وذكر جمهور

(١) فى الآية (٤٥) من سورة الفرقان .

أهل العدل أن النظر يجوز أن يحمل على المعنيين جميعاً ، ولا مانع لنا من حمله على الوجهين ، فكأنه سبحانه أراد أنهم ينظرون إلى الثواب المعد لهم فى الحال من أنواع النعيم ، وينتظرون أمثالها حالا بعد حال ليتم لهم ما يستحقون من الإجلال. ويسأل على هذا فيقال : إذا كان بمعنى النظر بالعين حقيقة وبمعنى الانتظار مجازاً فكيف يحمل عليهما ؟ والجواب : أن عند أكثر المتكلمين فى أصول الفقه يجوز أن يرادا بلفظ واحد إذ لا تنافى بينهما .. وهو اختيار المرتضى قدس الله روحه ، ولم يجوز ذلك أبو هاشم إلا إذا تكلم به مرتين : مرة يريد النظر ، ومرة يريد الانتظار. وأما قولهم : المنتظر لا يكون نعيمه خالصاً فكيف يوصف أهل الجنة بالانتظار ؟ فالجواب عنه : أن من ينتظر شيئاً لا يحتاج إليه فى الحال وهو واثق بوصوله إليه عند حاجته فإنه لا يهتم بذلك ولا ينقص سروره به ، بل ذلك زايد فى نعيمه ، وإنما يلحق الهم المنتظر إذا كان يحتاج إلى ما ينتظره فى الحال ويلحقه بفوته مضرة وهو غير واثق بالوصول إليه . وقد قيل فى إضافة النظر إلى الوجوه : إن الغم والسرور وإنما يظهران فى الوجوه ، فبين الله سبحانه أن المؤمن إذا ورد يوم القيامة تهلل وجهه ، وأن الكافر يخاف مغبة أفعاله القبيحة فيكلح وجهه ... [1]) اهـ .

السحر :

والطبرسى ينكر حقيقة السحر ولا يقول به ، ويخالف جمهور أهل السنة فى ذلك ، ويرد أدلتهم ، وينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولهذا نراه فى آخر تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة « واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان ... الآية » يقول ما نصه (... واختلف فى ماهية السحر على أقوال :

فقيل : إنه ضرب من التخييل وصعنة لطيفة من من الصنائع ، وقد أمر الله تعالى بالتعوذ منه وجل التحرز منه بكتابه وقاية منه ، وأنزل فيه سورة الفلق .. وهو قول الشيخ المفيد أبى عبد الله من أصحابنا .

(١) ج ٢ ص ٣٩٤ - ٣٩٥ .

وقيل : إنه خدع ومخاريق وتمويهات لا حقيقة لها ، تخيل إلى المسحور لها حقيقة ....

وقيل : إنه يمكن الساحر أن يقلب الإنسان حماراً ويقلبه من صورة إلى صورة ، وينشيء الحيوان على وجه الإختراع . وهو لا يجوز ، ومن صدق به فهو لا يعرف النبوة ، ولا يأمن من أن تكون معجزات الأنبياء من هذا النوع ، ولو أن الساحر والمعزم قدرا على نفع أو ضرر ، وعلما الغيب لقدرا على إزالة الممالك واستخراج الكنوز من معادنها والغلبة على البلدان بقتل الملوك من غير أن ينالهم مكروه وضرر ، فلما رأيناهم أسوأ الناس حالا وأكثرهم مكيدة واحتيالا . علمنا أنهم لا يقدرون على شيء من ذلك . فأما ماروى من الأخبار أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر فكان يرى أنه فعل مالم يفعله أو أنه لم يفعل ما فعله فأخبار مفتعلة لا يلتفت إليها، وقد قال الله حكاية عن الكفار «إن تتبعون إلا رجلا مسحورا [١]» فلو كان السحر عمل فيه لكان الكفار صادقين فى مقالهم ، حاشيا النبى من كل صفة نقص تنفر عن قبول قوله ؛ فإنه حجة الله على خلقه وصفوته على بريته ... اهـ [٢]) .

الشفاعة :

هذا ولا يلتزم الطبرسى القول بكل معتقدات المعتزلة ، بل نراه يخالفهم فى كثير من الأحيان ، ويرد عليهم معتقداتهم ، ويجادلهم فيها جدالا عنيفا قويا .

فمذهب الطبرسى فى الشفاعة — مثلا — يخالف مذهب المعتزلة ، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) يقول مانصه (... ولا يقبل منها شفاعة) قال المفسرون : حكم هذه الآية مختص باليهود، لأنهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك فخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص، ويدل

(١) فى الآية (٨) من سورة الفرقان (٢) ج ١ ص ٧٥

على ذلك أن الأمة اجتمعت على أن للنبي شفاعة مقبولة وإن اختلفوا فى كيفيتها فعندنا هى مختصة بدفع المضار وإسقاط العقاب عن مستحقيه من مذنبي المؤمنين .

وقالت المعتزلة : هى فى زيادة المنافع للمطيعين والتائبين دون العاصين . وهى ثابتة عندنا للنبي . ولأصحابه المنتجبين ، وللأئمة من أهل بيته الطاهرين ، ولصالحى المؤمنين . وينجى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين ، ويؤيده الخبر الذى تلقته الأمة بالقبول وهو قوله : (ادخرت شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى) وما جاء فى روايات أصحابنا رضى الله عنهم مرفوعا إلى النبى أنه قال (إنى أشفع يوم القيامة فأشفع ، ويشفع على فيشفع ، ويشفع أهل بيتى فيشفعون ، وإن أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع فى أربعين من إخوانه كل قد استوجب النار) ، وقوله مخبراً عن الكفار عند حسراتهم على الفائت لهم مما حصل لأهل الإيمان من الشفاعة (فما لنا من شافعين ۝ ولا صديق حميم [(١)]) اهـ [(٢)] .

حقيقة الإيمان :

وهو أيضاً يخالف المعتزلة فى حقيقة الإيمان ، فلذلك لما عرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة (.. الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) قال ما نصه : (.. وقالت المعتزلة بأجمعها : الإيمان هو فعل الطاعة ، ثم اختلفوا فمنهم من اعتبر الفرائض والنوافل . ومنهم من اعتبر الفرائض فحسب . واعتبروا الاجتناب من الكبائر كلها ، وقد روى العام والخاص عن على بن موسى الرضى : أن الإيمان هو التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالأركان وقد روى ذلك على لفظ آخر منه أيضاً : الإيمان قول مقول ، وعمل معمول ، وعرفان بالعقول ، واتباع الرسول .

(وأقول أنا) : أصل الإيمان هو المعرفة بالله وبرسله وبجميع ما جاءت به رسله . وكل عارف بشيء فهو مصدق به ، يدل عليه هذه الآية ، فإنه تعالى لما ذكر الإيمان علقه بالغيب ، ليعلم أنه تصديق للمخبر فيما أخبر به من الغيب على

---

(١) الآيتان (١٠٠ ، ١٠١) من سورة الشعراء (٢) جـ ١ ص ٤٥

معرفة وثقة ، ثم أفرده بالذكر عن سائر الطاعات البدنية والمالية وعطفها عليه فقال : (ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) والشيء لا يعطف على نفسه وإنما يعطف على غيره ، ويدل عليه أيضا أنه تعالى حيث ذكر الإيمان أضافه إلى القلب فقال « وقلبه مطمئن بالإيمان [١] » وقال « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان [٢] » وقال النبى صلى الله عليه وسلم : الإيمان سر - وأشار إلى صدره - والإسلام علانية) وقد يسمى الإقرار إيمانا كما يسمى تصديقا إلا أنه متى صدر عن شك أو جهل كان إيمانا لفظيا لا حقيقيا ، وقد تسمى أعمال الجوارح أيضاً إيمانا استعارة وتلويحا كما يسمى تصديقاً كذلك ، فيقال : فلان تصدق أفعاله مقاله ، ولا خير فى قول لا يصدقه الفعل . والفعل ليس بتصديق حقيقى باتفاق أهل اللغة ، وإنما استعير هذا الاسم على الوجه الذى ذكرناه . فقد آل الأمر مع تسليم صحة الخبر وقبوله إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب والتصديق به على نحو ما تقتضيه اللغة ، ولا يطلق لفظه إلا على ذلك ، إلا أنه يستعمل فى الإقرار باللسان والعمل بالأركان مجازا واتساعا ، وبالله التوفيق ... [٣]) اهـ .

روايته للأحاديث الموضوعة :

هذا ، ولا يفوتنا أن نقول : إن الطبرسى رحمه الله لم يكن صادقا فى وصفه لكتابه هذا بأنه محجة للمحدث ، ذلك لأنا تتبعناه فوجدناه غير موفق فيما يروى من الأحاديث فى تفسيره ، فقد أكثر من ذكر الموضوعات ، خصوصاً ما وضعه الشيعة ونسبوه إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أهل البيت مما يشهد لمعتقداتهم ويدل على تشيعهم . وإذا نحن تتبعنا ما يرويه من الأحاديث فى فضائل السور لوجدناه قد وقع فيما وقع فيه كثير من المفسرين من الاغترار بما جاء من الأحاديث فى فضائل السور مسندا إلى أبى وغيره ، ومرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهى أحاديث موضوعة باتفاق أهل العلم .

---

(١) فى الآية (١٠٦) من سورة النحل

(٢) فى الآية (٢٢) من سورة المجادلة . (٣) جـ ١ ص ١٧

كذلك لو تتبعنا هذا التفسير لوجدنا صاحبه يروى فى تفسيره من الأحاديث مايشهد لمذهبه أو يتصل به . وهى أخبار نقرؤها ولا نكاد نرى عليها صبغة الصدق ورواء الحق .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الرعد (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) نجد أنه يذكر من الروايات ماهو موضوع على ألسنه الشيعة ، ثم يمر عليها بدون تعقيب منه ، بما يدل على أنه يصدقها ويقول بها . فهو بعد أن ذكر أقوالا أربعة فى معنى هذه الآية نقل عن ابن عباس أنه قال « لما نزلت الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنا المنذر وعلى الهادى من بعدى ، ياعلى .. بك يهتدى المهتدون » . ونقل بسنده إلى أبى بردة الأسلمى أنه قال « دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهور وعنده على بن أبى طالب ، فأخذ رسول الله بيد على بعد ماتطهر فألزمها بصدره ثم قال : إنما أنت منذر ، ثم ردها إلى صدره ، ثم قال : ولكل قوم هاد ، ثم قال : إنك منارة الأنام ، وغاية الهدى ، وأمير القرى وأشهد على ذلك أنك كذلك[1] » اه .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى (قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى) نجده يذكر أقوالا ثلاثة فى معنى هذه الآية :

أحدها : لا أسألكم على تبليغ الرسالة وتعليم الشريعة أجرا إلا التوادد والتحاب فيما يقرب إلى الله تعالى من العمل الصالح .

وثانيها : أن معناه : إلا أن تودونى فى قرابتى منكم وتحفظونى لها .

وثالثها : إلا أن تودوا قرابتى وتحفظونى فيهم ... وهنا يسوق من الروايات عن أهل البيت وغيرهم ما يصرح بأن الذين أمر الله بمودتهم : على وفاطمة وولدهما ، ويروى فيما يروى هذا الحديث الغريب الذى نقله من كتاب (شواهد

---

(١) ج ٢ ص ٥ .

التنزيل لقواعد التفضيل) مرفوعا إلى أبي أمامة الباهلي .. قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الأنبياء من أشجار شتى ، وخلقت أنا وعلى من شجرة واحدة ، فأنا أصلها ، وعلى فرعها ، وفاطمة لقاحها . والحسن والحسين ثمارها ، وأشياعنا أوراقها ، فمن تعلق بغصن من أغصانها نجا ، ومن زاغ عنها هوى ، ولو أن عبداً عبد الله بين الصفا والمروة ألف عام ثم ألف عام ثم ألف عام حتى يصير كالشن البالى ، ثم لم يدرك محبتنا كبه الله على منخريه فى النار ، ثم تلا « قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى » [١] اه .

موقفه من الإسرائيليات :

وكثيراً ما يروى الطبرسى فى تفسيره الروايات الإسرائيلية معزوة إلى قائليها ونلاحظ عليه أنه يذكرها بدون أن يعقب عليها .. اللهم إلا إذا كانت مما يتنافى مع العقيدة ، فإنه ينبه على كذب الرواية ، ويبين ما فيها من مجافاتها للحق وبعدها عن الصواب ، فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٢١) وما بعدها من سورة (ص) : وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب * إذ دخلوا على داود ... الآيات) نجده يقول « واختلف فى استغفار داود من أى شىء كان ، فقيل : إنه حصل منه على سبيل الانقطاع إلى الله تعالى والخضوع والتذلل بالعبادة والسجود ، كما أخبر سبحانه عن إبراهيم بقوله « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين [٢] » . وأما قوله (فغفرنا له ذلك) فالمعنى أنا قبلناه منه وأثبناه ، فأخرجه على لفظ الجزاء مثل قوله (يخادعون الله وهو خادعهم [٣]) وقوله (الله يستهزىء بهم [٤]) فلما كان المقصود من الإستغفار والتوبة القبول قيل فى جوابه : غفرنا . وهذا قول من ينزه الأنبياء عن جميع الذنوب من الإمامية وغيرهم . ومن جوز على الأنبياء الصغائر قال : إن استغفاره كان لذنب صغير وقع منه ، ثم إنهم اختلفوا فى ذلك على وجوه :

---

(١) ج ٢ ص ٣٨٧ — ٣٨٩ (٢) الآية (٨٢) من سورة الشعراء .

(٣) فى الآية (١٤٢) من سورة النساء . (٤) فى الآية (١٥) من سورة البقرة .

أحدها : أن أوريا بن حيان خطب امرأة وكان أهلها أرادوا أن يزوجوها منه ، فبلغ داود جمالها فخطبها أيضا فزوجوها منه، فقدموه على أوريا، فعوتب داود على الدنيا .. عن الجبائى .

وثانيها : أنه أخرج أوريا إلى بعض ثغوره فقتل فلم يجزع عليه جزعه على أمثاله من جنده إذ مالت نفسه إلى نكاح امرأته، فعوتب على ذلك بنزول الملكين.

وثالثها : أنه كان فى شريعته أن الرجل إذا مات وخلف امرأته فأولياؤه أحق بها إلا أن يرغبوا عن التزوج بها . فحينئذ يجوز لغيرهم أن يتزوج ، فلما قتل أوريا خطب داود امرأته ومنعت هيبة داود وجلالته أولياءه أن يخطبوها فعوتب على ذلك .

ورابعها : أن داود كان متشاغلا بالعبادة فأتاه رجل وامرأة متحاكمين فنظر إلى المرأة ليعرفها بعينها وذلك مباح ، فمالت نفسه إليها ميل الطباع ففصل بينهما وعاد إلى عبادة ربه ، فشغله الفكر فى أمرها عن بعض نوافله فعوتب .

وخامسها : أنه عوتب على عجلته فى الحكم قبل التثبت ، وكان يجب عليه حين سمع الدعوى من أحد الخصمين أن يسأل الآخر عما عنده فيها ويحكم عليه قبل ذلك ، وإنما أنساه التثبت فى الحكم فزعه من دخولها عليه فى غير وقت العادة .

وأما ذكر فى القصة أن داود كان كثير الصلاة فقال : يارب فضلت على إبراهيم فاتخذته خليلا ، وفضلت على موسى فكلمته تكليما . فقال ياداود : إنا أبتليناهم بما لم نبتلك بمثله فإن شئت ابتليت ، فقال : نعم يارب فابتلنى ، فبينا هو فى محرابه ذات يوم وقعت حمامة ، فأراد أن يأخذها فطارت إلى كوة المحراب، فذهب ليأخذها فاطلع من الكوة فإذا امرأة أوريا بن حيان تغتسل فهواها وهم بتزوجها ، فبعث بأوريا إلى بعض سراياه وأمر بتقديمه أمام التابوت الذى فيه السكينة ففعل ذلك وقتل ، فلما انقضت عدتها تزوجها وبنى بها فولد له منها سليمان ، فبينا هو ذات يوم فى محرابه يقرأ إذ دخل عليه

رجلان ففزع منهما ، فقالا : لاتخف «خصمان بغى بعضنا على بعض» إلى قوله: «وقليل ماهم» فنظر أحد الرجلين إلى صاحبه ثم ضحك فتنبه داود على أنهما ملكان بعثهما الله إليه فى صورة خصمين ليبكتاه على خطيئته فتاب وبكى حتى نبت الزرع من كثرة دموعه ، فمما لا شبهه فى فساده . فإن ذلك مما يقدح فى العدالة فكيف يجوز أن يكون أنبياء الله تعالى الذين هم أمناؤه على وحيه وسفراؤه بينه وبين خلقه بصفة من لاتقبل شهادته وعلى حالة تنفر عن الاستماع إليه والقبول منه؟ جل أنبياء الله عن ذلك . وقد روى عن أمير المؤمنين أنه قال : لا أوتى برجل يزعم أن داود تزوج امرأة أوريا إلا جلدته حدين حداً للنبوة وحداً للاسلام . .)[١] .

التفسير الرمزى :

والطبرسى مع أنه فى كتابه هذا يفسر القرآن تفسيراً يتمشى مع الظاهر المتبادر إلى الذهن إلا أنا نلاحظ عليه أحياناً أنه يذكر المعانى الباطنية ، أو بعبارة أخرى يذكر التفسير الرمزى الذى يقول به الشيعة ، وهو وإن كان ناقلا لهذه الأقوال إلا أنه يرتضيها ولا يرد عليها ، كثيراً مايؤيدها بأدلة من عنده .

مثال ذلك أنه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور (الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح . . . الآية) نجده يقول بعد كلام طويل (واختلف فى هذا المشبه والمشبه به على أقوال . . . ثم ذكر هذه الأقوال ، فكان من جملة ماذكره هذه الروايات التى لاتعدو أن تكون من وضع الشيعة ، وهى ما روى عن الرضا أنه قال (نحن المشكاة فيها المصباح محمد صلى الله عليه وسلم يهدى الله لو لايتنا من أحب) . وما نقله من كتاب التوحيد لأبى جعفر بن بابويه رحمه الله بالإسناد عن عيسى بن راشد عن أبى جعفر الباقر فى قوله (كمشكاة فيها مصباح) قال : نور العلم فى صدر النبى

---

(١) ج ٢ ص ٣٤٩

المصباح (فى زجاجة) الزجاجة صدر على ، صار علم النبي إلى صدر على ، علم النبي عليا (يوقد من شجرة مباركة) نور العلم (لاشرقية ولا غربية) لايهودية ولا نصرانية (يكاد زيتها يضىء ولو لم تمسسه نار) قال : يكاد العالم من آل محمد يتكلم بالعلم قبل أن يسأل (نور على نور) أى إمام مؤيد بنور العلم والحكمة فى إثر إمام من آل محمد صلى الله عليه وسلم ، ذلك من النبي آدم عليه السلام إلى أن تقوم الساعة . فهؤلاء الأوصياء الذين جعلهم الله خلفاء فى أرضه ، وحججه على خلقه ، لا تخل الأرض فى كل عصر من واحد منهم ، ويدل عليه قول أبى طالب :

أنت الأمير محمد قرم أغر مسود
لمسودين أطاهر كرموا وطاب المولد
أنت السعيد من السعو د تكنفتك الأسعد
من لدن آدم لم يزل فينا وصى مرشد
ولقد عرفتك صادقا والقول لا يتفند
مازلت تنطق بالصوا ب وأنت طفل أمرد

تحقيق هذه الجملة يقتضى أن الشجرة المباركة المذكورة فى الآية هى دوحة التقى والرضوان وعترة الهدى والإيمان ، شجرة أصلها النبوة ، وفرعها الإمامة ، وأغصانها التنزيل ، وأوراقها التأويل ، وخدمها جبريل وميكائيل ...)[1] اه .

اعتداله فى تشيعه :

والطبرسى معتدل فى تشيعه غير مغال فيه كغيره من متطرفى الإمامية الأثنى عشرية ، ولقد قرأنا فى تفسيره فلم نلمس عليه تعصباً كبيراً ، ولم نأخذ عليه أنه كفر أحداً من الصحابة أو طعن فيهم بما يذهب بعدالتهم ودينهم .

كما أنه لم يغال فى شأن على بما يجعله فى مرتبة الإله أو مصاف الأنبياء وإن كان يقول بالعصمة. ولقد وجدناه يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) ج ٢ ص ١٨٩ .

حديثاً فى شأن من والى علياً ومن عاداه ، وهو يصرف النظر عن درجته من الصحة يدل على أن الرجل وقف موقفاً وسطاً أو فوق الوسط إلى حد ما من حبه لعلى رضى الله عنه ، هذا الحديث هو ماروواه فى الوجه الرابع من الوجوه التى قيلت فى سبب نزول قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة الزخرف (لما ضرب ابن مريم مثلا إذا قومك منه يصدون) حيث قال (. . ورابعها : ماروواه سادة أهل البيت عن على عليهم أفضل الصلوات أنه قال : جئت إلى رسول الله يوما فوجته فى ملأ من قريش فنظر إلى ثم قال : ياعلى إنما مثلك فى هذه الأمة كمثل عيسى ابن مريم أحبه قوم فأفرطوا فى حبه فهلكوا ، وأبغضه قوم وأفرطوا فى بغضه فهلكوا ، واقتصد فيه قوم فنجوا ، فعظم ذلك عليهم فضحكوا وقالوا : يشبهه بالأنبياء والرسل فنزلت الآية . . .) اه[1] .

وكل مالا حظناه عليه من تعصبه أنه يدافع بكل قوة عن أصول مذهبه وعقائد أصحابه ، كما أنه إذا روى أقوال المفسرين فى آية من الآيات ونقل أقوال المفسرين من أهل مذهبه فيها نجده يرتضى قول علماء مذهبه ويؤيده بما يظهر له من الدليل .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها . . . الآية) يقول (قيل فى المعنى بهذه الآية أقوال . . . ثم يذكر الأقوال ، ويذكر ما رواه أصحابه عن أبى جعفر الباقر وأبى عبد الله الصادق من أنهما قالا (أمر الله كل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر إلى من بعده) ثم قال مؤيدا لهذا القول (ويعضده أنه أمر الرعية بعد هذا بطاعة ولاة الأمر . وروى عنهم أنهم قالوا : آيتان إحداهما لنا والأخرى لكم قال الله (إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها) وقال (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . . . الآية) اه[2] .

---

(١) ٢ ص ٣٩٩ — (٢) جـ ١ ص ٢٦٩

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء (يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . . . الآية) نجده بعد أن يذكر ما جاء عن بعض السلف من أن المراد بأولى الأمر الأمراء، وما جاء عن بعضهم من أن المراد بهم العلماء يقول (وأما أصحابنا فإنهم رووا عن الباقر والصادق أن أولى الأمر هم الأئمة من آل محمد، أوجب الله طاعتهم بالإطلاق كما أوجب طاعته وطاعة رسوله، ولا يجوز أن يوجب الله طاعة أحد على الإطلاق إلا من ثبت عصمته، وعلم أن باطنه كظاهره، وأمن منه الغلط والأمر بالقبيح، وليس ذلك بحاصل فى الأمراء ولا العلماء سواهم، جل الله أن يأمر بطاعة من يعصيه، أو بالانقياد للمختلفين فى القول والفعل؛ لأنه محال أن يطاع المختلفون، كما أنه محال أن يجتمع ما اختلفوا فيه. ومما يدل على ذلك أيضاً أن الله لم يقرن طاعة أولى الأمر بطاعة رسوله كما قرن طاعة رسوله بطاعته، إلا وأن أولى الأمر فوق الخلق جميعاً، كما أن الرسل فوق أولى الأمر وفوق سائر الخلق، وهذه صفة أئمة الهدى من آل محمد الذين ثبتت إمامتهم وعصمتهم، واتفقت الأمة على علو رتبتهم وعدالتهم . .)[1] اهـ.

وبعد . . . أفلا ترى معى أن هذا التفسير يجمع بين حسن الترتيب، وجمال التهذيب، ودقة التعليل، وقوة الحجة؟ أظن أنك معى فى هذا، وأظن أنك معى أيضاً فى أن الطبرسى وإن دافع عن عقدته ونافح عنها لم يغل غلو غيره ولم يبلغ به الأمر إلى الدرجة التى كان عليها المولى الكازرانى وأمثاله من غلاة الإمامية الاثنى عشرية.

---

(١) جـ ١ ص ٢٦٩ .

٤ — الصافى فى تفسير القرآن الكريم

لملا محسن الكاشى

التعريف بصاحب هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن الشاه مرتضى بن الشاه محمود ، المعروف بملا محسن وبالفيض الكاشى ، وأحد غلاة الإمامية الاثنى عشرية . قال صاحب روضات الجنات فى ترجمته ماملخصه (وأمره فى الفضل والفهم والنبالة فى الفروع والأصول ، والإحاطة بمراتب المعقول والمنقول ، وكثرة التأليف والتصنيف ، مع جودة التعبير والترصيف ، أشهر من أن يخفى فى هذه الطائفة على أحد إلى منتهى الأبد . وعمره كما استفيد لنامن تتبع تصانيفه الوافرة تجاوز حدود الثمانين . ووفاته بعد الألف من الهجرة الطاهرة بنيف يلحق تمام التسعين . وأبوه مرتضى المذكور أيضاً كان من العلماء ، وكذا أخوه محمد المعروف بنور الدين ، وكذا أخوه الآخر المشهور بالمولى عبد الغفور ، وبالجملة ، فقد كان بيته الجليل المرتفع قدره إلى ذروة الأفلاك ، من كبار بيوتات العلم والعمل والفضل والإدراك . وأما نفس الرجل فقد بلغ فضله إلى حيث لم يعرف بين هذه الطائفة مثله ، وخصوصاً فى مراتب المعرفة والأخلاق ، وتطبيق الظواهر بالبواطن بحسن المذاق ، وجودة الإشراق ، وكان يشبه مشروبه مشرب أبى حامد الغزالى ، وقد نسب إليه الشيخ على المشهدى العاملى فى ذيل رسالته فى تحريم الغناء وغيرها ، كثيراً من الأقاويل الفاسدة ، والآراء الباطلة العاطلة ، التى تفوح منها رائحة الكفر والمضارة بضروريات هذا الدين المتين ، والمضادة لما هو من قطعيات علم هذا الشرع المتين ، ولو أردنا تأويل جملة منها بمحامل وجيهة صحيحة لما أمكننا ذلك بالنسبة إلى ما تدل عليه ألفاظه الظاهرة بل الصريحة ... من منافيات أصول هذه الشريعة وفروع مذهب الشيعة . مثل قوله بوحدة الوجود ، وبعدم خلود الكفار فى عذاب النار ،

وعدم نجاة اهل الاجتهاد وإن كانوا من جملة أجلائنا الكبار ، وفى قوله بعدم منجسية المتنجس لغيره مثل النجس . . . وبالجملة فقد كان رحمه الله دائماً فى طرف النقيض من الشيخ على المذكور . . . ومن جملة من كان ينكر عليه أيضاً كثيراً من علماء زمانه الفاضل المحدث المولى محمد طاهر القمى صاحب كتاب حجة الإسلام وغيره ، وإن قيل إنه رجع فى أواخر عمره عن اعتقاده السوء فى حقه، فخرج من قم المباركة إلى بلدة كاشان للاعتراف عنده بالخلاف ، والاعتذار لديه بحسن الإنصاف ، ماشيا على قدميه إلى أن وصل إلى باب داره ، فنادى : يامحسن قد أتاك المسيء ، فخرج إليه مولانا المحسن وجعلا يتصافحان ويتعانقان ويستحل كل منهما من صاحبه ثم رحل من فوره إلى بلده وقال : لم أرد من هذه الحركة إلا هضم النفس وتدارك الذنب وطلب رضوان الله العزيز الوهاب . ويقال أيضاً : إن بعض من اعتقد فى حقه الباطل رجع عنه بعد وفاته لما رآه فى المنام على هيئة حسنة يأمره بالرجوع إلى بعض ما كتبه فى أواخر عمره وهو فى مكان كذا وكذا ، فلما استيقظ وطلبه وجده كما نسبه ، وكان فيه تبرئة نفسه من جميع ماينسب إليه من أقوال الضلال . . . وقد ذكره صاحب أمل الآمل فقال: المولى الجليل ، محمد بن مرتضى ، المدعى بمحسن الكاشى ، كان فاضلا عالماً ، حكيما متكلما ، محدثا فقيها ، شاعراً أديباً ، أحسن التصنيف ، من المعاصرين ، وله كتب : منها كتاب الوافى فى جمع الكتب الأربعة مع شرح أحاديثها المشكلة، وهو حسن إلا أن فيه ميلا إلى بعض طريقة الصوفية، وكذا جملة من كتبه، وكتاب سفينة النجاة فى طريقة العمل . وتفاسير ثلاثة كبير وصغير ومتوسط ، وكتاب عين اليقين ، وكتاب علم اليقين ، وكتاب حق اليقين . . . وقال صاحب لؤلؤة البحرين (وهذا الشيخ كان فاضلا ، محدثاً ، إخباريا ، صلبا ، كثير الطعن على المجتهدين، ولا سيما فى رسالة سفينة النجاة، حتى إنه يفهم منها نسبة جملة من العلماء إلى الكفر فضلا عن الفسق ، مثل إيراده لآية « يا بنى اركب معنا ولا تكن مع الكافرين»[1]، وهو تفريط وغلو بحت ، مع أن له أدلة من المقالات التى جرى

---

(١) فى الآية (٤٢) من سورة هود

فيها على مذهب الصوفية والفلاسفة مما يكاد يوجب الكفر والعياذ بالله ، مثل مايدل فى كلامه على القول بوحدة الوجود ، وقد وقفت له على رسالة قبيحة صريحة فى القول بذلك ، قد جرى فيها على عقائد ابن عربى الزنديق ، وأكثر فيها من النقل عنه وإن عبر عنه ببعض العارفين . ثم قال : وقد تتلمذ فى الحديث على السيد ماجد البحرانى ، وفى الحكمة والأصول على صدر الدين محمد بن ابراهيم الشيرازى ، كان صهره على ابنته ؛ ولذا ترى أن كتبه فى الأصول كلها على قواعد الصوفية والفلاسفة . ولاشتهار مذهب التصوف فى بلاد العجم وميلهم إليه ، بل وغلوهم فيه صارت إليه المرتبة العليا فى زمانه ، والغاية القصوى فى أوانه ، وفاق عند الناس جملة أقرانه . حتى جاء شيخنا المجلسى فسعى غاية السعى فى سد تلك الشقاشق الفاعرة ، وإطفاء ثائرة تلك البدع البائرة . وله تصانيف كثيرة أفرد لها فهرسا على حدة ونحن ننقل عنه ملخصا : كتاب الصافى فى تفسير القرآن يقرب من سبعين ألف بيت فرغ من تأليفه فى سنة ١٠٧٥ هـ خمس وسبعين بعد الألف من الهجرة . وكتاب الأصفى . . منتخب منه . . أحد وعشرين ألف بيت تقريباً . ثم عدد كتبه التى ألفها وهى كثيرة . وحكى السيد السعيد السيد نعمة الله الجزائرى التسترى قال : كان أستاذنا المحقق المولى محمد محسن الكاشانى صاحب مؤلفات وفيرة مما يقرب من مائتى كتاب ورسالة، وكان نشوه فى بلدة قم ، فسمع بقدوم السيد الأجل المحقق الإمام الهمام السيد ماجد البحرانى الصادقى إلى شيراز ، فأراد الارتحال إليه لأخذ العلوم منه، فتردد والده فى الرخصة إليه ، ثم بنوا الرخصة وعدمها على الإستخارة ، فلما فتح القرآن جاءت الآية « . . فلو لا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين . . الآية [١] » ثم بعده تفاءل بالديوان المنسوب إلى مولانا أمير المؤمنين فجاءت الأبيات هكذا :

تغرب عن الأوطان فى طلب العلا   وسافر ففى الأسفار خمس فوائد

تفرج هم ، واكتساب معيشة   وعلم ، وآداب ، وصحبة ماجد

---

(١) فى الآية (١٢٢) من سورة التوبة

هذه ترجمة المؤلف وفيها مايشهد للرجل بعلو كعبه بين أصحابه فى العلم ، كما أن الأقوال التى قيلت عن عقيدته تكاد تكون مجمعة على أنها عقيدة زائفة فاسدة ، وإن كان صاحب روضات الجنات يحاول تبرئته من هذه التهمة ويقول إنها فرية بلا مرية ... أما أنا فلم ألاحظ عليه فى تفسيره أثراً للقول بوحدة الوجود ، ولا مايشهد بأنه يرى عدم خلود الكفار فى عذاب النار . ولم أر على تفسيره ذلك اللون الصوفى الفلسفى ، ولعل الكتاب من أواخر مؤلفاته وبعد رجوعه عما نسب إليه واتهم به [١]) .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

الصافى فى تفسير القرآن الكريم ، كتاب فسر فيه صاحبه القرآن الكريم على وفق مبادىء الإمامية الأثنى عشرية . وهو تفسير وسط يقع فى جزئين كبيرين ومتناول لشرح الآيات القرآنية شرحاً مختصراً جداً ولا يطيل إلا إذا وجد فى الآية مايمكن أن يأخذ منه شاهداً على مبدأ من مبادئه ، أو دليلا على عقيدة من عقائده ، أو دفعاً يدفع به رأياً من آراء مخالفيه . كذلك يطيل عند مايعرض لشرح قصة من قصص القرآن، أو غزوة من غزوات الرسول صلى الله عليه وسلم . والكتاب يعتمد أولا وقبل كل شىء على ماورد من التفسير عن الأئمة وعلماء أهل البيت ، شأنه فى هذا شأن كل كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية ، الذين يعتقدون أن أهل البيت هم أدرى الناس بأسرار القرآن وأعلمهم بمعانيه . والكتاب فى جملته يدل على مقدار تعصب صاحبه لمذهبه وغلوه فى تشيعه ، فهو يجادل ويدافع عن مبادىء حزبه ، ويطعن فى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرميهم بالنفاق والكفر ... إلى غير ذلك مما ستقف عليه فيما بعد إن شاء الله تعالى . هذا وقد قدم ملا محسن الكاشى لتفسيره باثنتى عشرة مقدمة ، أرى أنه لاداعى لذكرها جميعا ، ولكن حسبى وحسب القارىء أن أذكر أهم الآراء التى يقول بها المؤلف ويشرحها لنا فى

---

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص ٥٤٢ — ٥٤٩

هذه المقدمات . ثم أذكر طريقته التي سار عليها في تفسيره كما أوضحها هو ، ثم أعرض على القارىء بعد ذلك بعض مواقف المؤلف في تفسيره ؛ ومنها يتبين جليا قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه ، ومسلكه الذى سلكه في شرحه لكتاب الله تعالى بما يتفق مع مذهبه ويتمشى مع عقيدته ، وإليك أهم هذه الآراء التي قالها المؤلف :

آل البيت هم تراجمة القرآن ؛ لأنهم جمعوا علمه كله دون من عداهم :

يرى المؤلف أن آل البيت هم تراجمة القرآن دون من عداهم ، فهم الذين جمعوا علم القرآن كله وأحاطوا بمعانيه وأسراره ، ووقفوا على رموزه وإشاراته ؛ ذلك لأن القرآن نزل في بيتهم — بيت النبوة — ورب البيت أدرى بما فيه ، وهو في هذه العقيدة لا يشذ وحده ، بل ذلك هو رأى هذه الطائفة كلها لا فرق بين معتدل ومتطرف .

يرى المؤلف هذا الرأى ويصرح به في مقدمة تفسيره فيقول (. . . وإن العترة تراجمة القرآن فمن الكشاف عن وجوه عرايس أسراه ودقائقه وهم خوطبوا به ؟ ومن لتبيان مشكلاته ولديه مجمع بيان معضلاته ومنبع بحر حقائقه وهم أبو حسنه ؟ ومن يشرح آيات الله وييسر تفسيرها بالرموز والصراح إلا من شرح الله صدره بنوره ومثله بالمشكاة والمصباح ؟ ومن عسى يبلغ علمهم بمعالم التنزيل والتأويل ، وفي بيوتهم كان ينزل جبريل ؟ . . . وهي البيوت التي أذن الله أن ترفع ، فعنهم يؤخذ ومنهم يسمع . إذاً أهل البيت بما في البيت أدرى ، والمخاطبون بما خوطبوا به أوعى ، فأين نذهب عن بابهم وإلى من نصير ؟ ؟ . . .) [1] .

ثم يمضي صاحبنا بعد ذلك فيؤيد قوله هذا بأحاديث يرويها عن أهل البيت كلها — فيما نعتقد وكما يظهر من أسلوبها — من وضع الشيعة وأخلاقهم ، فمن ذلك ما نقله عن الكافي بإسناده عن سليم بن قيس الهلالي قال : سمعت أمير المؤمنين

---

(١) ج ١ ص ٢

عليه السلام يقول .. وساق الحديث إلى أن قال : ما نزلت آية على رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أقرأنيها وأملاها على فأكتبها بخطى ، وعلمنى تأويلها وتفسيرها ، وناسخها ومنسوخها ، ومحكمها ومتشابهها ، ودعا الله أن يعلمنى فهمها وحفظها ، فما نسيت آية من كتاب الله ، ولا علما أملاه على فكتبته منذ دعا لى بما دعا ، وما ترك شيئا علمه الله من حلال وحرام ، ولا أمر ولا نهى كان أو يكون من طاعة أو معصية إلا علمنيه وحفظته فلم أنس منه حرفا واحدا ، ثم وضع يده صدرى ودعا الله أن يملأ قلبى علماً وفهماً وحكمة ونوراً ، فقلت: يا رسول الله . . . بأبى أنت وأمى منذ دعوت الله لى بما دعوت لم أنس شيئاً ولم يفتنى شىء لم أكتبه .. أو تتخوف على النسيان فيما بعد ؟ . فقال : لست أتخوف عليك نسيانا ولا جهلا) قال : ورواه العياشى فى تفسيره والصدوق فى إكمال الدين . بتفاوت يسير فى ألفاظه ، وزيد فى آخره « وقد أخبرنى ربى أنه قد استجاب لى فيك وفى شركائك الذين يكونون من بعدك ، فقلت: يارسول الله .. ومن شركائى من بعدى ؟ قال الذين قرنهم الله بنفسه وبى ، فقال «أطيعوا الله وأطيعو الرسول وأولى الأمر منكم » فقلت : ومن هم ؟ قال الأوصياء منى إلى أن يردوا على الحوض كلهم هادين مهتديين لا يضرهم من خذلهم ، هم مع القرآن والقرآن معهم ، لا يفارقهم ولا يفارقونه ، بهم تنصر أمتى وبهم تمطر ، وبهم يدفع عنهم البلاء ، وبهم يستجاب دعاؤهم . فقلت : يارسول الله .. سمهم لى .. فقال : ابنى هذا .. ووضع يده على رأس الحسن ، ثم ابنى هذا .. ووضع يده على رأس الحسين ، ثم ابن له يقال له : على وسيولد فى حياتك فأقرئه منى السلام ، ثم تكملة اثنى عشر من من ولد محمد . فقلت له : بأبى وأمى أنت فسمهم لى ، فسماهم رجلا رجلا ، فقال : منهم والله يا أخا بنى هلال مهدى أمة محمد ، الذى يملأ الأرض قسطا وعدلا كما ملئت ظلماً وجورا ، والله إنى لأعرف من يبايعه بين الركن والمقام وأعرف أسماء آبائهم وقبائلهم [1]) اه .

---

(١) ج ١ ص ٦٠٥

ومنها مانقله عن الكافى بإسناده إلى زيد الشحام .. قال : دخل قتادة بن دعامة على أبى جعفر عليه السلام فقال : ياقتادة أنت فقيه أهل البصرة ؟ فقال : هكذا يزعمون . فقال أبو جعفر عليه السلام : بعلم تفسيره أم بجهل ؟ قال لا .. بل بعلم ، فقال له أبو جعفر عليه السلام : فإن كنت تفسره بعلم فأنت أنت وأنا أسألك . قال قتادة : سل . قال : أخبرنى عن قول الله تعالى فى سبأ : « وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى وأياما آمنين »(١) ، فقال قتادة : من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت كان آمنا حتى يرجع إلى أهله . فقال أبو جعفر عليه السلام : نشدتك بالله ياقتادة هل تعلم أنه قد يخرج الرجل من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يريد هذا البيت فيقطع عليه الطريق فتذهب نفقته ويضرب مع ذلك ضربة فيها اجتياحه ؟ قال قتادة : اللهم نعم . فقال أبو جعفر عليه السلام : ويحك يا قتادة ... إن كنت إنما فسرت القرآن من تلقاء نفسك فقد هلكت وأهلكت ، وإن كنت أخذته من الرجال فقد هلكت وأهلكت ، ويحك ياقتادة .. ذلك من خرج من بيته بزاد وراحلة وكرى حلال يؤم هذا البيت عارفا بحقنا ، يهوانا قلبه ، كما قال الله تعالى « فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم »(٢) ولم يعين البيت فقيل إليه . نحن والله دعوة إبراهيم عليه السلام التى من هوانا قلبه قبلت حجته وإلا فلا ، ياقتادة فإذا كان كذلك كان آمنا من عذاب جهنم يوم القيامة . قال قتادة : لاجرم و الله لا أفسرها إلا هكذا ، فقال أبو جعفر عليه السلام : ويحك ياقتادة ... إنما يعرف القرآن من خوطب به(٣)) اهـ .

من يجوز له أن يفسر القرآن برأيه :

ولكن هل معنى ذلك أن ملا محسن يرى أن فهم معانى القرآن ومعرفة أسراره أصبح أمراً مقصوراً على أهل البيت وحدهم فيكون بذلك قد حجر

---

(١) فى الآية (١٨) من سورة سبأ .

(٢) فى الآية (٣٧) من سورة ابراهيم . (٣) المرجع السابق .

واسعاً وجحد فضل من عداهم من العلماء ؟ أو يرى أن القرآن فى فهمة قدر مشترك بين العلماء جميعاً لافرق بين أهل البيت وغيرهم ؟ . الحق أن صاحبنا يرى أن فى معانى القرآن لأرباب الفهم متسعاً بالغا ومجالا رحبا ، ولكن من هم أولوا الفهم الذين يجوز لهم أن يعملوا عقولهم فى فهم معانى القرآن واستنباط أحكامه ؟ . نرى المؤلف يحدد لنا أولى الفهم بحدود ، ويقيدهم بقيود لها صلة قوية بمذهبه الشيعى ، وذلك حيث يقول (. . . فالصواب أن يقال : إن من أخلص الانقياد لله ولرسوله ولأهل البيت عليهم السلام ، وأخذ علمه منهم ، وتتبع آثارهم ، واطلع على جملة من أسرارهم ، بحيث حصل له الرسوخ فى العلم ، والطمأنينة فى المعرفة ، وانفتح عينا قلبه ، وهجم به العلم على حقائق الأمور ، وباشر روح اليقين ، واستلان ما استوعره المترفون ، وأنس بما استوحش منه الجاهلون ، وصحب الدنيا ببدن روحه معلقة بالمحل الأعلى ، فله أن يستفيد من القرآن بعض غرائبه ، ويستنبط منه نبذا من عجائبه ، ليس ذلك من كرم الله بغريب ، ولا من جوده بعجيب ، فليست السعادة وقفا على قوم دون آخرين ، وقد عدوا عليهم السلام جماعة من أصحابهم المتصفين بهذه الصفات من أنفسهم ، كما قالوا : سلمان منا أهل البيت ، فمن هذه صفته فلا يبعد دخوله فى الراسخين فى العلم ، العالمين بالتأويل [١]) اهـ .

المؤلف يرى أن تفسيره للقرآن بما جاء عن أهل البيت هو التفسير المثالى ويطعن فى بقية الصحابة وفى تفسيرهم .

ولما كان المؤلف رحمه الله ـ قد جعل جل اعتماده فى تفسيره ، بل كله ، على ماوصل إليه من التفسير عن آل البيت ، لاعتقاده أنهم أدرى به من غيرهم ، فإنا نراه يرى — مع شىء من التواضع التقليدى — أن تفسيره هو التفسير المثالى الذى يجب أن يحتذى ، كما نراه لايعترف بتفسير غيره ممن تقدم عصره بل ويبالغ فى عدم الاعتراف فيطعن على من عدا أهل البيت من الصحابة

(١) جـ ١ ص ١٠

ويرميهم بالنفاق وغيره ، ولا يرتضى ماجاء عنهم من تفسير ، كأن عقول الصحابة جميعاً قد عقمت وضلت إلا عقول أهل البيت ومن والاهم ...

يقرر المؤلف هذا بكل صراحة وجراءة مع حملة ظالمة على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وذلك حيث يقول (. . . هذا ياإخوانى ماسألتمونى من تفسير القرآن ، بما وصل إلينا من أئمتنا المعصومين من البيان ، أتيتكم به مع قلة البضاعة ، وقصور يدى عن هذه الصناعة ، على قدر مقدور ، فإن المأمور معذور ، والميسور لا يترك بالمعسور ، ولا سيما أنى كنت أراه أمراً مهما ، وبدونه أوى الخطب مدلهما ، فإن المفسرين وإن أكثروا القول فى معانى القرآن ، إلا أنه لم يأت أحد منهم فيه بسلطان ؛ وذلك لأن فى القرآن ناسخا ومنسوخا ، ومحكما ومتشابها ، وخاصا وعاما ، ومبينا ومبهما ، ومقطوعا وموصولا ، وفرائض وأحكاما ، وسننا وآدابا ، وحلالا وحراما ، وعزيمة ورخصة ، وظاهراً وباطنا . وحداً ومطلعاً . ولا يعلم تمييز ذلك كله إلا من نزل فى بيته ، وذلك هو النبى صلى الله عليه وآله وأهل بيته ، فكل مالايخرج من بيتهم فلا تعويل عليه ، ولهذا ورد عن النبى صلى الله عليه وسلم : من فسر القرآن برأيه فأصاب الحق فقد أخطأ ، وقد جاءت عن أهل البيت صلوات الله عليهم فى تفسير القرآن وتأويله أخبار كثيرة ؛ إلا أنها خرجت متفرقة عن أسئلة السائلين ، وعلى أقدار أفهام المخاطبين ، وبموجب إرشادهم إلى مناهج الدين ، وبقيت بعد خبايا فى زوايا ، خوفا من الأعداء وتقية من البعداء ، ولعله مما برز وظهر لم يصل إلينا الأكثر ؛ لأن رواته كانوا فى محنة من التقية ، وشدة من الخطر ، وذلك أنه لما جرى فى الصحابة ماجرى ، وضل بهم عامة الورى . أعرض الناس عن الثقلين [١] ، وتاهوا فى بيداء ضلالاتهم عن النجدين إلا شرذمة من المؤمنين فمكث العامة بذلك سنين ، وعمهوا فى غمرتهم حتى حين فآل الحال إلى أن نبذ الكتاب حملته ، وتناساه حفظته ، فكان الكتاب

---

(١) أراد بالثقلين كتاب الله والعترة كما أفصح عن ذلك فى أول المقدمة ص ٢ .

وأهله فى الناس وليسا فى الناس ، ومعهم وليسا معهم ، لأن الضلالة لا توافق الهدى وإن اجتمعا . وكان العلم مكتوما ، وأهله مظلوما . لاسبيل لهم بإبرازه إلا بتعميته وإلغازه ، ثم خلف من بعدهم خلف غير عارفين ولا ناصبين ، لم يدروا ماصنعوا بالقرآن ، وعمن أخذوا التفسير والبيان . فعمدوا إلى طائفة يزعمون أنهم من العلماء ، فكانوا يفسرون لهم بالآراء ، ويروون تفسيره عمن يحسبونه من كبرائهم ؛ مثل أبى هريرة وأنس وابن عمرو ونظرائهم، وكانوا يعدون أمير المؤمنين من جملتهم، ويجعلونه كواحد من الناس ، وكان خير من يستندون إليه بعده ابن مسعود وابن عباس ، ممن ليس على قوله كثير تعويل ، ولا له إلى لباب الحق سبيل، وكان هؤلاء الكبراء ربما ينقلونه من تلقاء أنفسهم غير خائفين من مآله ، وربما يسندونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله ، ومن الآخذين عنهم من لم يكن له معرفة بحقيقة أحوالهم ، لما تقرر عندهم من أن الصحابة كلهم عدول ولم يكن لأحد منهم عن الحق عدول ، ولم يعلموا أن أكثرهم كانوا يبطنون النفاق ، ويجترئون على الله ويفترون على رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عزة وشقاق ، وهكذا كان حال الناس قرنا بعد قرن ، فكان لهم فى كل قرن رؤساء ضلالة ، عنهم يأخذون ، وإليهم يرجعون ، وهم بآرائهم يجيبون، أو إلى كبرائهم يستندون ، وربما يروون عن بعض أئمة الحق عليهم السلام فى جملة مايروون عن رجالهم ، ولكن يحسبونه من أمثالهم، فتبا لهم ولأدب الرواية ، إذ مارعوها حق الرعاية ، نعوذ بالله من قوم حذفوا محكمات الكتاب ، ونسوا الله رب الأرباب ، وراموا غير باب الله أبوابا ، واتخذوا من دون الله أربابا ، وفيهم أهل بيت نبيهم ، وهم أزمه الحق ، وسنة الصدق ، وشجرة النبوة ، وموضع الرسالة ، ومختلف الملائكة ، ومهبط الوحى ، وعيبة العلم ، ومنار الهدى ، والحجج على أهل الدنيا ، خزائن أسرار الوحى والتنزيل ، ومعادن جواهر العلم والتأويل ، والأمناء على الحقائق ، والخلفاء على الخلائق . أولو الأمر الذين أمروا بطاعتهم ، وأهل الذكر الذين أمروا بمسألتهم ، وأهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، والراسخون فى العلم الذين عندهم

القرآن كله تأويلا وتفسيرا ، ومع ذلك كله يحسبون أنهم مهتدون ، إنا لله وإنا إليه راجعون . ولما أصبح الأمر كذلك وبقى العلم سخريا هنالك صار الناس كأنهم أئمة الكتاب وليس الكتاب بإمامهم فضربوا بعضه ببعض لترويج مرامهم وحملوه على أهوائهم فى تفاسيرهم وكلامهم والتفاسير التى صنفها العامة من هذا القبيل، فكيف يصح عليها التعويل وكذلك التى صنفها متأخروا أصحابنا فإنها أيضا مستندة إلى رؤساء العامة وشذ ما نقل فيه حديث عن أهل العصمة عليهم السلام ، وذلك لأنهم إنما نسجوا على منوالهم ، واقتصروا فى الأكثر على أقوالهم ، مع أن أكثر ما تكلم به هؤلاء وهؤلاء — فإنما تكلموا فى النحو ، والصرف ، والاشتقاق ، واللغة ، والقراءة ، وأمثالها — مما يدور على القشور دون اللباب ، فأين هم والمقصود من الكتاب؟ وإنما ورد على طائفة منهم ماقويت فيه منته ، وتركمالا معرفةله به مما قصرت عنه همته . ومنهم من أدخل فى التفسير ما لا يليق به ، فبسط الكلام فى فروع الفقه وأصوله ، وطول القول فى اختلاف الفقهاء ، أو صرف همته فيه إلى المسائل الكلامية وذكر ما فيها من الآراء وأما ما وصل إلينامما ألفهقدماؤنا من أهل الحديث فغير تام ، لأنه إما غير منته إلى آخر القرآن ؛ وإما غير محيط بجميع الآيات المفتقرة إلى البيان ، مع أن منه مالم يثبت صحته عن المعصوم ، لضعف رواته أو جهالة حالهم ، ونكارة بعض مقالهم ..... إلى أن قال : وبالحرى أن يسمى هذا التفسير بالصافى ، لصفائه عن كدورات آراء العامة والممل والمحير والمتنافى . .)[1] اهـ

جل القرآن نازل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم :

ويعتقد صاحبنا أن معظم القرآن إنما نزل فى شأن آل البيت وأوليائهم وأعدائهم ، فما كان من آية مدح فهى فى آل البيت وأشياعهم ، وما كان من آية ذم أو وعيد أو تهديد فهى فى مخالفيهم ، ثم يقوى رأيه هذا ويستدل له بما يرويه عن علماء أهل البيت من روايات واردة فى هذا المعنى، فمن ذلك مانقله

(١) جـ ١ ص ٢ — ٤

عن الكافى وتفسير العياشى بالإسناد إلى أبى جعفر عليه السلام قال : « نزل القرآن على أربعة أرباع : ربع فينا ، وربع فى أعدائنا ، وربع سنن وأمثال وربع فرائض وأحكام » وزاد العياشى « ولنا كرائم القرآن » ... ثم مضى بعد ذكره لهذه الرواية وأمثالها فقال : « وقد وردت أخبار جمة عن أهل البيت عليهم السلام ، فى تأويل كثير من آيات القرآن بهم وبأوليائهم وبأعدائهم ، حتى إن جماعة من أصحابنا صنفوا كتباً فى تأويل القرآن على هذا النحو ، جمعوا فيها ما ورد عنهم عليهم السلام فى تأويل آية آية إما بهم أو بشيعتهم ، أو بعدوهم ، على ترتيب القرآن . وقد رأيت منها كتاباً يقرب من عشرين ألف بيت... ثم قال : وذلك مثل لما رواه الكافى عن أبى جعفر عليه السلام فى قوله تعالى « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربى مبين (١) ») قال هى الولاية لأمير المؤمنين عليه السلام . وفى تفسير العياشى عن محمد بن مسلم عن أبى جعفر عليه السلام قال : يا أبا محمد ... إذا سمعت الله ذكر قوماً من هذه الأمة بخير فنحن هم ، وإذا سمعت الله ذكر قوماً بسوء ممن مضى فهم عدونا وفيه عن عمير بن حنظلة عن أبى عبد الله عليه السلام : سأله عن قوله تعالى : « قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده علم الكتاب (٢)) قال : فلما رآنى أتتبع هذا وأشباهه من الكتاب قال : حسبك . . . كل شىء فى الكتاب من فاتحته إلى خاتمته مثل هذا فهو فى الأئمة عنوا به (٣)) اهـ .

رأى المصنف فى تحريف القرآن وتبديله :

يدين ملا محسن بأن علياً رضى الله عنه هو أول من جمع القرآن ، وأن القرآن الذى جمعه هو القرآن الكامل الذى لم يتطرق إليه تحريف ولا تبديل ، ويروى لنا أحاديث عن آل البيت كمستند له فى رأيه هذا ، فمن ذلك : ما نقله عن القمى فى تفسيره بإسناده عن أبى عبد الله عليه السلام أنه قال : إن النبى

---

(١) الآيات (١٩٣ ؛ ١٩٤ ؛ ١٩٥) من سورة الشعراء :

(٢) فى الآية (٤٣) من سورة الرعد

(٣) جـ ١ ص ٦ — ٧

صلى الله عليه وآله وسلم قال لعلى عليه السلام . ياعلى . . . إن القرآن خلف فراشي فى الصحف والحرير والقراطيس ، فخذوه واجمعوه ولا تضيعوه كما ضيعت اليهود التوراة ، فانطلق عليه السلام فجمعه فى ثوب أصفر ثم ختم عليه فى بيته وقال : لا أرتدى حتى أجمعه . قال : كان الرجل ليأتيه فيخرج إليه بغير رداء حتى جمعه) .

ومنها ماروواه القمى باسناده عن سالم بن سلمة قال : قرأ رجل على أبى عبد الله — وأنا أستمع — حروفا من القرآن ليس على ما يقرؤها الناس ، فقال أبو عبد الله : كف عن هذه القراءة . اقرأ كما يقرأ الناس حتى يقوم القائم ، فاذا قام اقرأ كتاب الله تعالى على حدة : وأخرج المصحف الذى كتبه على عليه السلام إلى الناس حين فرغ منه وكتبه ، فقال لهم : هذا كتاب الله كما أنزله اللهُ على محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد جمعته بين اللوحين . فقالوا : هو ذاعندنا مصحف جامع فيه القرآن لاحاجة لنا فيه ، فقال : أما والله ما ترونه بعد يومكم هذا أبداً ، إنما كان على أن أخبركم حين جمعته لقراءته .

ومن ذلك ماروى عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه : أنه لما توفى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جمع على عليه السلام القرآن وجاء به إلى المهاجرين والأنصار وعرضه عليهم ؛ لما قد أوصاه بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فلما فتحه أبو بكر خرج فى أول صفحة فتحها فضائح القوم ، فوثب عمر وقال : ياعلى اردده فلا حاجة لنا فيه ، فأخذه على عليه السلام وانصرف ، ثم حضر زيد بن ثابت — وكان قارئاً للقرآن — فقال له عمر : إن علياً جاءنا بالقرآن وفيه فضائح المهاجرين والأنصار ، وقد أردنا أن نؤلف لنا القرآن وتسقط منه ما كان فيه فضيحة وهتك للمهاجرين والأنصار ،فأجابه زيد إلى ذلك، ثم قال : فإن أنا فرغت من القرآن على ماسألتم وأظهر على القرآن الذى ألفه أليس قد بطل كل ماعملتم ؟ . ثم قال عمر : فما الحيلة ؟ قال زيد : أنتم أعلم بالحيلة ، فقال عمر : ما الحيلة دون أن نقتله ونستريح منه ، فدبر فى قتله على يد خالد بن الوليد فلم يقدر على ذلك . . . فلما استخلف عمر سأل عليا عليه السلام

أن يدفع إليه القرآن فيحر قوه فيما بينهم فقال : يا أبا الحسن .. إن كنت جئت به إلى أبي بكر فأت به إلينا حتى نجمع عليه ، فقال على عليه السلام : هيهات ليس إلى ذلك سبيل ، إنما جئت به لأبى بكر لتقوم به الحجة عليكم ولا تقولوا يوم القيامة : إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا : ماجئتنا به . إن القرآن الذى عندى لا يمسه إلا المطهرون والأوصياء من ولدى ، فقال عمر : فهل وقت لإظهاره معلوم ؟ قال على عليه السلام : نعم . إذا قام القائم من ولدى فيظهره ويحمل الناس عليه فتجرى السنة به [١]) اﻫ .

ولكنا نجد صاحبنا بعد ماساق هذه الروايات وكثيراً غيرها يقف منها موقف المستشكل فيقول « ويرد على هذا كله إشكال . وهو أنه على هذا التقدير لم يبق لنا اعتماد على شيء من القرآن ، إذ على هذا يحتمل كل آية منه أن يكون محرفا ومغيراً ، أو يكون على خلاف ماأنزل الله ، فلم يبق لنا فى القرآن حجة أصلا ، فتنتفى فائدة الأمر باتباعه والوصية بالتمسك به إلى غير ذلك . وأيضاً قال الله عز وجل « وإنه لكتاب عزيز * لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه [٢] » وقال « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون [٣]) فكيف يتطرق إليه التحريف والتغيير ؟ . وأيضا قد استفاض عن النبى والأئمة صلوات الله عليهم حديث عرض الخبر المروى على كتاب الله ليعلم صحته بموافقته له ، وفساده بمخالفته [٤] ، فإذا كان القرآن الذى بأيدينا محرفاً فما فائدة العرض ؟ مع أن خبر التحريف مخالف لكتاب الله مكذب له ، فيجب رده والحكم بفساده أو تأويله) ،

وهنا يجيب ملا محسن على إشكاله هذا بجوابين :

أولهما : أن هذه الأخبار إن صحت فلعل التغيير إنما وقع فيما لا يخل بالمقصود

---

(١) جـ ١ ص ١٠-١١ .

(٢) فى الآيتين (٤١ ، ٤٢) من سورة فصلت .

(٣) الآية (٥) من سورة الحجر

(٤) هذا الحديث المشار إليه موضوع بإجماع أهل العلم :

كثير إخلال ، كحذف اسم على وآل محمد ، وحذف أسماء المنافقين ؛ فإن انتفاء التعبير باق لعموم اللفظ .

وثانيهما : أن بعض المحذوفات كان من قبيل التفسير والبيان ولم يكن من أجزاء القرآن . فيكون التبديل من حيث المعنى ،أى حرفوه وغيروه فى تفسيره وتأويله ، بأن حملوه على خلاف ما يراد منه[١]) اه .

ثم ذكر بعد هذا أقوال من تقدمه من شيوخه وعلماء مذهبه وهم مابين مجيز للتحريف والنقصان ومانع لذلك ، ولكل أدلته وحجته ، ولا نطيل بذكرها ومن أرادها فليرجع إليها فى المقدمة السادسة (ص ١٤ و ١٥) .

طريقة المؤلف فى تفسيره .

بين المؤلف فى المقدمة الثانية عشرة من مقدمات تفسيره طريقته واصطلاحاته التى جرى عليها فى كتابه فقال « كل ما يحتاج من الآيات إلى بيان وتفسير لفهم المقصود من معانيه . أو إلى تأويل لمكان تشابه فيه . أو إلى معرفة سبب نزوله المتوقف عليه فهمه وتعاطيه ، أوإلى تعرف نسخ أوتخصيص أو صفة أخرى فيه ، وبالجملة ما يزيد على شرح اللفظ والمفهوم مما يفتقر إلى السماع عن المعصوم ، فإن وجدنا شاهداً من محكمات القرآن يدل عليه أتينا به فإن القرآن يفسر بعضه بعضا ، وقد أمرنا من جهة أئمة الحق عليهم السلام أن نرد متشابهات القرآن إلى محكماته ، وإلا فإن ظفرنا فيه بحديث معتبر عن أهل البيت عليهم السلام فى الكتب المعتبرة من طرق أصحابنا رضوان الله عليهم أوردناه ، وإلا أوردنا ماروينا عنهم عليهم السلام من طرق العامة ...

...... نظائره فى الأحكام ما روى عن الصادق :

إذا نزلت بكم حادثة لا تجدون حكمها فيما يروى عنا ، فانظروا إلى ماروه عن على عليه السلام فاعملوا به . . رواه الشيخ الطوسى فى العدة . وما لم نظفر

---

(١) ج ١ ص ١٠ - ١٤ .

فيه بحديث عنهم عليهم السلام أوردنا ما وصل إلينا من غيرهم من علماء التفسير إذا وافق القرآن وفحواه ، وأشبه حديثهم فى معناه ، فإن لم نعتمد عليه من جهة الاستناد ، اعتمدنا عليه من جهة الموافقة والشبه والسداد ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن على كل حق حقيقة ، وعلى كل صواب نوراً ، فما وافق كتاب الله فخذوه » وقال الصادق « ما جاءك فى رواية من راو فاجر يوافق القرآن فخذ به ، وماجاءك فى رواية من راو فاجر يخالف القرآن فلا تأخذ به » وقال الكاظم «إذا جاءك الحديثان المختلفان فقسهما على كتاب الله وعلى أحاديثنا. فإن أشبههما فهو حق ، وإن لم يشبههما فهو باطل » وما ورد فيه أخبار كثيرة فإن لم يكن فيها كثير اختلاف اقتصرنا منها على ما اشتمل على مجامعها ، وتركنا سائرها مما فى معناه روما للاختصار ، وصونا عن الإكثار ، وربما أشرنا إلى تعددها وتكثرها إذا أهمنا الاعتماد .

وإن كانت مختلفات نقلنا أصحها وأحسنها وأعمها فائدة ، ثم أشرنا إلى موضع الاختلاف ما استطعنا . وما لايحتاج إلا إلى شرح اللفظ والمفهوم ، والنكات المتعلقة لعلوم الرسوم ، مما لا يفتقر إلى السماع من المعصوم ،أوردنا فيه ماذكره المفسرون الظاهريون ، من كان تفسيره أحسن ، وبيانه أوجز وأتقن ، كائنا من كان ... ثم ذكر أنه اقتبس من تفسير الحسن العسكرى وغيره ، وذكر اصطلاحاته فى العزو إلى الكتب التى استقى منها ، وفى نسبة الأقوال إلى قائليها ولا نطيل بذكرها[1]) .

هذه هى أهم الآراء التى يقول بها ملا محسن ، والتى استخلصناها من مقدماته التى قدم بها تفسيره . وهذه هى طريقته التى سار عليها فى كتابه الذى نحن بصدده. والكتاب ـ كما أشرنا آنفا ـ مذهبى إلى حد التطرف والغلو، فهو لا يكاد يمر بآية من القرآن إلا ويحاول صاحبه أن يأخذ منها شاهداً لمذهبه أو دفعا لمذهب مخالفيه !! . . ولقد قرأت فى هذا الكتاب ، فلمست فيه روح التحيز

---

(١) ج ١ ص ١٩ - ٣٠ .

المزرى ، والتعصب الممقوت . ولأجل أن يكون القارىء على بينة من الأمر أسوق إليه نماذج من نواح شتى وفى موضوعات مختلفة ليلمس كما لمست مقدار هـــذا التعصب الذى يريد صاحبه من ورائه أن يحجب نور الحق ويطمس معالمه .

القرآن وأهل البيت :

فمثلا ، نجد كثيرا من آيات القرآن لها معان خاصة ، ولا صلة لهـا بأهل البيت، ولا بما لهم من مناقب وشمائل، ولكننا نجد صاحبنا يتأثر بمذهبه الشيعى، فيحاول أن يلوى هذه الآيات إلى معان لاصلة لها باللفظ . . معان تحمل فى طياتها طابع التعصب المذهبى بصورة مكشوفة مفضوحة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة « وإذا قلنا للملائـكة اسجدوا لآدم ... الآية » يقول ما نصه « وذلك لمـا كان فى صلبه من أنوار نبينا وأهل بيته المعصومين ، وكانوا قد فضلوا على الملائـكة باحتمالهم الأذى فى جنب الله ، فكان السجود لهم تعظيما وإكراما ، ولله سبحانه عبودية ، ولآدم طاعة . قال على بن الحسين : حدثنى أبى ، عن أبيه ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ياعباد الله .. آدم لما رأى النور ساطعا من صلبه إذ كان الله قد نقل أشباحنا من ذروة العرش إلى ظهره ، رأى النور ولم يتبين الأشباح ، فقال : يارب ما هذه الأنوار ؟ فقال الله عز وجل : أنوار أشباح نقلتهم من أشرف بقاع عرشى إلى ظهرك ؛ ولذلك أمرت الملائـكة بالسجود لك إذ كنت وعاء لتلك الأشباح ، فقال آدم : يارب . . لو بينتها لى ، فقال الله عز وجل : أنظر يا آدم إلى ذروة العرش ، فنظر آدم عليه السلام ووقع نور أشباحنا من ظهر آدم إلى ذروة العرش ، فانطبع فيه صور أنوار أشباحنا التى فى ظهره ، كما ينطبع وجه الإنسان فى المرآة الصافية ، فرأى أشباحنا فقال : ماهذه الأشباح يارب . قال الله : يا آدم . . هذه أشباح أفضل خلائق وبرياتى ، هذا محمد ، وأنا الحميد المحمود فى فعالى ، شققت له اسما من اسمى . وهذا على ، وأنا العالى ، شققت له اسما من اسمى . وهذه فاطمة ، وأنا فاطر

السموات والأرض ، فاطم أعدائى من رحمتى يوم فصل قضائى ، وفاطم أوليائى عما يعيرهم ويشينهم ، فشققت لها اسما من اسمى . وهذا الحسن ، وهذا الحسين، وأنا المحسن المجمل ، شققت اسميهما من اسمى . هؤلاء خيار خليقتى ، وكرام بريتى ، بهم آخذ ، وبهم أعطى ، وبهم أعاقب ، وبهم أثيب ، فتوسل بهم إلى يا آدم ، وإذا دهتك داهية فاجعلهم إلى شفعاءك ؛ فإنى آليت على نفسى قسما حقا لا أخيب بهم أملا ، ولا أرد بهم سائلا ، فلذلك حين زلت به الخطيئة دعا الله عز وجل بهم ، فتاب عليه وغفر له [1]) اهـ .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (١ ، ٢ ، ٣) من سورة البلد (لا أقسم بهذا البلد وأنت حل بهذا البلد * ووالد وما ولد) يقول مانصه (فى المجمع عن الصادق . يعنى آدم وما ولد من الأنبياء والأوصياء وأتباعهم . . . [2]) اهـ .

فأنت ترى من كل هذا أن المؤلف يجد فى إخضاع آيات القرآن لمذهبه، وتنزيلها على وفق هواه وعقيدته ، وهذا خروج بكتاب الله عن معانيه الظاهرة المرادة منه ! ! . .

طعن المؤلف على الصحابة :

كذلك نجد ملا محسن فى تفسيره هذا ، يطعن على أبى بكر ، وعمر ، وعثمان، وغيرهم من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويرميهم بما لا يليق بمؤمن فضلا عن صحابى جاهد مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبذل فى سبيل نصرته دمه وماله ، كما يطعن فى بنى أمية ويرميهم بكل نقيصة ، وهو فى حملته هذه مدفوع بدافع الخصومة المذهبية والنزعة الشيعية .

طعنه على عثمان رضى الله عنه :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٨٤ ، ٨٥) من سورة البقرة

---

(١) جـ ١ ص ٢٩ .

(٢) جـ ١ ص ٣٥٩

« وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون * ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزى فى الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون » نجده يفسر الآية تفسيراً مختصرا مقبولا ، ثم يروى عن القمى « أنها نزلت فى أبى ذر — رحمة الله عليه — وفيما فعل به عثمان بن عفان وكان سبب ذلك : أنه لما أمر عثمان بنفى أبى ذر — رحمة الله عليه — إلى الربذة ، دخل عليه أبو ذر وكان عليلا وهو متكىء على عصاه ، وبين يدى عثمان مائة ألف درهم أتته من بعض النواحى ، وأصحابه حوله ينظرون إليه ويطمعون أن يقسمها فيهم ، فقال أبو ذر لعثمان : ماهذا المال ؟ فقال : حمل إلينا من بعض الأعمال مائة ألف درهم أريد أن أضم إليها مثلها ثم أرى فيها رأيى ... قال أبو ذر : ياعثمان . . أيما أكثر ؟ مائة ألف درهم أم أربعة دنانير ؟ قال عثمان : بل مائة ألف درهم ، فقال : أما تذكر إذ أنا وأنت دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وآله عشاء فوجدناه كئيباً حزيناً فسلمنا عليه فلم يرد علينا السلام ، فلما أصبحنا أتيناه فرأيناه ضاحكا مستبشرا ، فقلت له : بأبى أنت وأمى . . دخلنا عليك البارحة فرأيناك كئيبا حزيناً ، وعدنا إليك اليوم فرأيناك ضاحكا مستبشراً ، فقال : نعم . . قد بقى عندى من فىء المسلمين أربعة دنانير لم أكن قسمتها ، وخفت أن يدركنى الموت وهى عندى ، وقد قسمتها اليوم فاسترحت . فنظر عثمان إلى كعب الأحبار فقال له : يا أبا إسحق . . ماتقول فى رجل أدى زكاة ماله المفروضة . . هل يجب عليه فيها بعد ذلك شىء ؟ فقال : لا ولو اتخذا لبنة من ذهب ولبنة من فضة ما وجب عليه شىء ، فرفع أبو ذر عصاه فضرب بها رأس كعب ، فقال : يابن اليهودية المشركة ، ما أنت والنظر فى أحكام المسلمين ؟ قول الله عز وجل أصدق من قولك حيث قال : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله

فبشرهم بعذاب أليم * (إلى قوله).. فذوقوا ما كنتم تكنزون[1] ».قال عثمان: ياأبا ذر .. إنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك ، ولولا صحبتك لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقتلتك ، فقال : كذبت ياعثمان .. ويلك .. أخبرنى حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لايفتنونك يا أباذر ولا يقتلونك . . أما عقلى فقد بقى منه ما أذكرنى حديثاً سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قاله فيك وفى قومك ، قال : وماسمعت من رسول الله فى وفى قومى؟ قال: سمعته يقول — وهو قوله صلى الله عليه وسلم — إذا بلغ إلى أبى العاص ثلاثون رجلا صيروا مال الله دولا ، وكتاب الله دغلا ، وعباد الله خولا ، والصالحين حربا ، والفاسقين حزبا قال عثمان : يامعشر أصحاب محمد . هل سمع أحد منكم هذا الحديث من رسول الله ؟ قالوا : لا ماسمعنا هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال عثمان : ادعوا عليا . . . فجاء أمير المؤمنين فقال له عثمان: ياأبا الحسن اسمع ما يقول هذا الشيخ الكذاب ، فقال أمير المؤمنين : ياعثمان . لاتقل كذابا ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ماأظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء على ذى لهجة أصدق من أبى ذر . قال أصحاب رسول الله : صدق على سمعنا هذا من رسول الله ، فعند ذلك بكى أبو ذر وقال : ويلكم .. كلكم قد مد عنقه إلى هذا المال ، ظننتم أنى أكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم نظر إليهم فقال : من خيركم ؟ فقالوا أنت تقول إنك خيرنا ، قال : نعم .. خلفت حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو على بعيره ، وأنتم قد أحدثتم أحداثا كثيرة ، والله سائلكم عن ذلك ولا يسألنى ، فقال عثمان : ياأبا ذر . . . أسألك بحق رسول الله إلا ماأخبرتنى عما أنا سائلك عنه . فقال أبو ذر : والله لو لم تسألنى بحق رسول الله صلى الله عليه وسلم لأخبرتك ، فقال : أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها ؟ فقال : مكة حرم الله وحرم رسوله ، أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت ، فقال : لا ولا كرامة لك ، قال المدينة حرم رسول الله ، فقال: لا ولا كرامة لك ، قال : فسكت أبو ذر . فقال: وأى البلاد أبغض إليك أن تكون بها ؟ :قال

(١) فى الآيتين (٣٤ ، ٣٥) من سورة التوبة .

الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام ، فقال عثمان : سر إليها ، فقال أبو ذر : قد سألتنى فصدقتك ، وأنا أسألك فاصدقنى ، قال : نعم ، قال :أخبرنى لو أنك بعثتنى فيمن بعثت من أصحابك إلى المشركين فأسرونى وقالوا لا نفديه إلا بثلث ما تملك .. ؟ قال : كنت أفديك ، قال : فإن قالوا : لا نفديه إلا بكل ما تملك ، قال : كنت أفديك ، فقال أبو ذر : الله أكبر .. قال لى حبيبى رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما : يا أبا ذر كيف أنت إذا قيل لك أى البلاد أحب إليك أن تكون فيها ؟ فتقول مكة حرم الله وحرم رسوله .. أعبد الله فيها حتى يأتينى الموت ، فيقال: لا ولا كرامة لك ، فتقول المدينة حرم رسول الله، فيقال لا ولا كرامة لك ، ثم يقال لك فأى البلاد أبغض إليك أن تكون فيها ؟ . فتقول: الربذة التى كنت بها على غير دين الإسلام ، فيقال لك: سر إليها، فقلت: وإن هذا الكائن يارسول الله ؟ فقال : والذى نفسى بيده إنه لكائن ، فقلت : يا رسول الله أفلا أضع سيفى على عاتقى فأضرب به قدما قدما ؟ قال : لا .. اسمع واسكت ولو لعبد حبشى ، وقد أنزل الله فيك وفى عثمان خصمك آية ، فقلت : وما هى يارسول الله ؟ فقال : قول الله ... وتلا الآية) اهـ (١)

طعنه على أبى بكر :

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة (... ثانى اثنين إذهما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ... الآية) نجده لا يعترف بهذه المنقبة لأبى بكر، رضى الله عنه ، بل ويحاول بكل جهوده أن يأخذ منها مغمزاً وطعناً على أبى بكر ، وذلك حيث يقول ما نصه « ..(إذيقول لصاحبه) وهو أبو بكر (لاتحزن) لاتخف(إن اللهمعنا) بالعصمةوالمعونة.. فى الكافى عن الباقر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل يقول لأبى بكر فى الغار : اسكن فإن الله معنا ، وقد أخذته الرعدة وهو لا يسكن ، فلما رأى رسول الله حاله قال له : تريد أن أريك أصحابى من الأنصار فى مجالسهم

---

(١) جـ ١ ص ٤٢ — ٤٣

يتحدثون ؟ وأريك جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون ؟ قال : نعم ، فمسح رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده على وجهه فنظر الى الأنصار يتحدثون ، وإلى جعفر وأصحابه فى البحر يغوصون ، فأضمر تلك الساعة أنه ساحر (فأنزل الله سكينته) أمنته التى تسكن إليها القلوب (عليه) فى الكافى عن الرضا : أنه قرأها (على رسوله) قيل له : هكذا ؟ قال: هكذا نقرؤها ، وهكذا تنزيلها. والعياشى عنه : إنهم يحتجون علينا بقوله تعالى « ثانى اثنين إذ هما فى الغار » وما لهم فى ذلك من حجة ، فوالله لقد قال الله « فأنزل الله سكينته على رسوله وما ذكره فيها بخير ، قيل : هكذا تقرءونها ؟ قال هكذا قراءتها ...)[1]

طعنه على أبى بكر وعمر وعائشة وحفصة :

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة التحريم « يا أيها النبى لم تحرم ما أحل الله لك ... الآيات إلى قوله فلما نبأها به قالت من أنباك هذا قال نبأنى العليم الخبير » نراه ينقل عن القمى فى سبب نزول هذه الآية « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان فى بعض بيوت نسائه ، وكانت مارية القبطية تكون معه تخدمه ، وكانت ذات يوم فى بيت حفصة ، فذهبت حفصة فى حاجة لها ، فتناول رسول الله مارية ، فعلمت حفصة بذلك فغضبت ، وأقبلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يارسول الله .. فى يومى ؟ وفى دارى وعلى فراشى ؟ فاستحيى رسول الله منها فقال : كفى فقد حرمت مارية على نفسى ، ولا أطؤها بعد هذا أبداً ، وأنا أفضى إليك سراً إن أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، فقالت : نعم . . ما هو ؟ فقال : إن أبا بكر يلى الخلافة بعدى ، ثم بعده أبوك ، فقالت : من أنباك هذا ؟ قال : نبانى العليم الخبير ، فاخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك ، وأخبرت عائشة أبا بكر فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له : إن عائشة أخبرتنى عن حفصة بشىء ولا أثق بقولها فاسأل أنت حفصة . فجاء عمر إلى حفصة فقال لها : ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة ، فأنكرت ذلك وقالت : ما قلت لها من

(١) جـ ١ ص ٢٥٧

ذلك شيئاً ، فقال لها عمر : إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه ، فقالت : نعم . قد قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله ، فنزل جبريل على رسول الله بهذه السورة ، قال (وأظهره الله عليه) يعنى أظهره الله على ما أخبرت به وما هموا به من قتله (عرف بعضه) أخبرها وقال : لم أخبرت بما أخبرتك ؟ (وأعرض عن بعض) قال : لم يخبرهم بما يعلم بما هموا به من قتله)[1] اه .

صرفه لآيات العتاب عن ظاهرها :

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس (عبس وتولى ٭ أن جاءه الأعمى ... الآيات) إلى آخر القصة ، نجده يصرف الآيات عن ظاهرها المتعارف بين المفسرين جميعاً ، ويجعل العتاب موجها إلى عثمان رضى الله عنه ، أو إلى رجل آخر من بنى أمية . والذى حمله على ذلك هو ما يراه من أن مثل هذا العتاب لا يليق أن يكون موجها إلى النبى صلى الله عليه وسلم أو إلى أحد من الأئمة المعصومين ، . كما أن سبب العتاب لا يليق أن يصدر منهم، أما توجه العتاب إلى عثمان وصدور سببه منه فهذا أمر جائز وواقع فى نظره ؛ لأن عثمان ليس له من العصمة ما للأئمة فلهذا تراه يروى عن القمى « أنها نزلت فى عثمان وابن أم مكتوم ، وكان ابن أم مكتوم مؤذنا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان أعمى ، وجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده أصحابه وعثمان عنده ، فقدمه رسول الله صلى الله عليه وسلم على عثمان فعبس عثمان وجهه وتولى عنه ، فأنزل الله (عبس وتولى ٭ أن جاءه الأعمى) ونقل عن مجمع البيان أنها نزلت فى رجل من بنى أمية كان عند النبى فجاء ابن أم مكتوم، فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه ، فحكى الله ذلك وأنكره عليه .. ثم قال : أقول : « وأما ما اشتهر من تنزيل هذه الآيات فى النبى صلى الله عليه وسلم دون عثمان فيأباه سياق مثل هذه المعاتبات الغير

---

(١) ج ٢ ص ٣٢٠

اللائقة بمنصبه ، وكذا ماذكره بعدها إلى آخر السورة كما لايخفى على العارف بأساليب الكلام ، ويمكن أن يكون من مختلقات أهل النفاق خذلهم الله[١]) اهـ

دفاع المؤلف عن أصول مذهبه :

كذلك نجد المؤلف ينظر إلى القرآن من خلال عقيدته ، ونراه ينتصر لمذهبه ويتعصب له ، ويؤيد أصوله بكل مايستطيع من الأدلة ، ويدفع الشبه عنها ، ويرد على الخصوم بما يستطيع من أوجه الرد ، فلهذا نجده إذا مر بآية من آيات القرآن التى يستطيع أن يستند إليها ويعتمد عليها فى نظره ، أخذ فى تأويلها على وفق مذهبه وهواه ، وإن كان فى ذلك خروج عن ظاهر النظم القرآنى

ولاية على :

فمثلا عند تفسيره لقوله ، تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » نراه يستند إلى هذه الآية استناداً قويا فى أن علياً رضى الله عنه هو وصى النبى صلى الله عليه وسلم وخليفته من بعده ، فيقول مانصه » فى الكافى عن الصادق فى تفسير هذه الآية : أولى بكم : أى أحق بكم وبأموركم من أنفسكم وأموالكم الله ورسوله والذين آمنوا — يعنى علياً وأولاده الأئمة إلى يوم القيامة — ثم وصفهم الله فقال « الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » وكان أمير المؤمنين فى صلاة الظهر ـ وقد صلى ركعتين ـ وهو راكع ، عليه حلة قيمتها ألف دينار ، وكان النبى أعطاه إياها ، وكان النجاشى أهداها له ، فجاء سائل فقال : السلام عليك ياولى الله وأولى بالمؤمنين من أنفسهم ... تصدق على مسكين ، فطرح الحالة إليه ، وأومأ بيده إليه أن احملها ، فأنزل الله عز وجل فيه هذه الآية ، وصير نعمة أولاده بنعمته « فكل من بلغ من أولاده مبلغ الإمامة يكون بهذه النعمة مثله ، فيتصدقون وهم راكعون . والسائل الذى سأل أمير المؤمنين من الملائكة ، والذين يسألون الأئمة من أولاده يكونون

---

(١) جـ ٢ ص ٣٤٨ — ٣٤٩

من الملائكة . وعنه عن أبيه عن جده فى قوله عز وجل « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها [١] » ، قال : لما نزلت « إنما وليكم الله . . . الآية » اجتمع نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسجد المدينة فقال بعضهم : إن كفرنا بهذه الآية نكفر بسائرها ، وإن آمنا فإن هذا ذل حين يسلط علينا على بن أبى طالب ، فقالوا قد علمنا أن محمداً صادق فيما يقول ، ولكنا نتولاه ولا نطيع علياً فيما أمرنا ، قال : فنزلت هذه الآية « يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها » يعنى ولاية على « وأكثرهم الكافرون » بالولاية وعنه أنه سئل : الأوصياء طاعتهم مفروضة ؟ . قال : نعم هم الذين قال الله « أطيعوا الله الرسول وأولى الأمر منكم » ، وهم الذين قال الله « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا . . . الآية » ، وروى المؤلف غير ذلك من الروايات ، وكلها يدور حول هذا الشأن . . ثم ادعى إجماع الأمة على أنه لم يؤت الزكاة يومئذ أحد منهم وهو راكع غير رجل واحد هو على . . ثم علل عدم ذكره باسمه فى الكتاب بأنه لو ذكر باسمه فى الكتاب لأسقط مع ماأسقط . . . ثم وفق بين الروايات القائلة بأنه تصدق بحلته وبين الروايات القائلة بأنه تصدق بخاتمة فقال : « لعله تصدق مرة فى ركوعه بالحلة ، ومرة بالخاتم . . . والآية نزلت بعد الثانية . وقوله تعالى « ويؤتون » إشعار بذلك ؛ لتضمنه التكرار والتجدد ، كما أن فيه إشعاراً بفعل أولاده أيضاً) اه [٢] .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة (يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته . . الآية) نراه يحمل التبليغ المأمور به عليه السلام على تبليغه للناس إمامة على وولايته . . ويروى هنا قصة طويلة جدا . . ويروى خطبة النبى لأصحابه عند غدير خم ، وهى خطبة طويلة كذلك ، وفى هذه الخطبة يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم مبيناً سبب نزول الآية « وأنا مبين لكم سبب هذه الآية : إن جبريل هبط إلى مراراً

---

(١) فى الآية (٨٣) من سورة النحل (٢) ج ١ ص ١٦٤

ثلاثة ، يأمرنى عن السلام ربى وهو السلام : أن أقوم فى هذا المشهد وأعلم كل أبيض وأسود أن على بن أبى طالب أخى ، ووصيى وخليفتى ، والإمام من بعدى ، الذى محله منى محل هرون من موسى ، إلا أنه لا نبى بعدى وهو وليكم بعد الله ورسوله ، وقد أنزل الله على بذلك آية من كتابه « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » وعلى بن أبى طالب أقام الصلاة وآتى الزكاة وهو راكع ، يريد لله عز وجل فى كل حال . وسألت جبريل أن يستغفر لى عن تبليغ ذلك إليكم أيها الناس ، لعلمى بقلة المتقين ، وكثرة المنافقين ، وإدغال الآثمين ، وحيل المستهزئين بالإسلام ، الذين وصفهم الله فى كتابه بأنهم يقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم ، ويحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، وكثرة أذاهم لى غير مرة حتى سموني أذنا ، وزعموا أنى كذلك لكثرة ملازمته إياى وإقبالى عليه ، حتى أنزل الله عز وجل فى ذلك « ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن قل أذن خير لكم .. الآية[1]) ولو شئت أن أسميهم بأسمائهم لسميت ، وأن أومىء إليهم لأعيانهم لأومات ، وأن أدل عليهم لدللت ، ولكنى — والله — فى أمورهم قد تكرمت ، وكل ذلك لا يرضى الله منى إلا أن أبلغ ما أنزل إلى . . ثم تلا : ياأيها الرسول بلغ ما أنزل إليك فى على وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس . .[2] الخ)اه.

أولو الأمر الذين تجب طاعتهم :

ومثلا عند قوله تعالى فى (٥٩) من سورة النساء (ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم .. الآية) نراه يحمل هذه الآية على وفق مذهبه ، فيقصر أولى الأمر على الأئمة من أهل البيت خاصة . أما من عداهم فليسوا أولى الأمر ، وليس يجب على أحد أن يقوم بطاعتهم ، ولهذا يقول عند تفسيره لهذه الآية مانصه « فى الكافى والعياشى عن الباقر : إيانا عنى خاصة ..

---

(١) فى الآية (٦١) من سورة التوبة (٢) جـ ١ ص ١٦٥ - ١٧١

أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا . وفى الكافى عن الصادق : أنه سئل عن الأوصياء ... طاعتهم مفترضة ؟ قال : نعم ، هم الذين قال الله : أطيعوا الله الآية وقال الله: إنما وليكم الله .. الآيةوفيهوالعياشىعنه فى هذهالآيةقال: نزلت فى على بن أبى طالب والحسن والحسين، فقال : إن الناس يقولون فما له لم يسم علياً وأهل بيته فى كتابه ؟ فقال : فقولوا لهم : نزلت الصلاة ولم يسم الله لهم ثلاثاً ولا أربعاً حتى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فسر ذلك لهم ، ونزلت (أطيعو الله وأطيعو الرسول وأولى الأمر منكم) ونزلت فى على والحسن والحسين ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى على : من كنت مولاه فهذا على مولاه ، وقال : أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتى ، فإنى سألت الله أن لا يفرق بينهما حتى يوردهما على الحوض ، فأعطانى ذلك . وقال : لاتعلموهم ، فإنهم اعلم منكم ، وقال : إنهم لم يخرجوكم من باب هدى ولم يدخلوكم فى باب ضلالة ، فلو سكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يبين من أهل بيته لادعاها آل فلان وآل فلان ، ولكن الله أنزل فى كتابه تصديقا لنبيه «إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا » فكان على والحسن والحسين وفاطمة ، فأدخلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت الكساء فى بيت أم سلمة ثم قال اللهم إن لكل نبى أهلا وثقلا ، وهؤلاء أهل بيتى وثقلى ، فقالت أم سلمة : ألست من أهلك ؟ فقال : إنك إلى خير ، ولكن هؤلاء أهل بيتى وثقلى . . . الحديث وزاد العياشى آل عباس ، وآل عقيل ، قبل قولة وآل فلان . عن الصادق أنه سئل عما بنيت عليه دعائم الإسلام التى إذا أخذ بها زكى العمل ولم يضر جهل ماجهل بعده ، فقال : شهادة أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، والإقرار بما جاء به من عند الله ، وحق فى الأموال الزكاة ، والولاية التى أمر الله بها ، ولاية آل محمد ، فإن رسول الله قال : من مات لايعرف إمامه مات ميتة جاهلية ... قال الله تعالى « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » فكان على ، ثم صار من بعده الحسن ، ثم بعده الحسين ، ثم من بعده على بن الحسين ، ثم من بعده محمد بن على ، ثم هكذا يكون الأمر .. إن الأرض لا تصلح إلا بإمام . . . . الحديث . وفى المعانى عن سليم بن قيس الهلالى عن

أمير المؤمنين أنه سأله : ماأدنى مايكون ، به الرجل ضالا ، فقال : أن لا يعرف من أمر الله بطاعته وفرض ولايته ، وجعله حجته فى أرضه ، وشاهده على خلقه . . قال : فمن هم ياأمير المؤمنين ، قال : الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » قال فقبلت رأسه وقلت : أوضحت لى ، وفرجت عنى ، وأذهبت كل شىء كان فى قلبى . وفى الإكمال عن جابر بن عبد الله الأنصارى قال : لما نزلت هذه الآية قلت : يارسول الله . . عرفنا الله ورسوله ، فمن أولو الأمر الذين قرن الله طاعتهم بطاعتك ، فقال : هم خلفائى ياجابر وأئمة المسلمين من بعدى ، أولهم على ابن أبى طالب ، ثم الحسن ، ثم الحسين ، ثم على بن الحسين ، ثم محمد بن على المعروف فى التوراة بالباقر . . وستدركه ياجابر ، فإذا لقيته فأقرئه منى السلام ثم الصادق جعفر بن محمد بن موسى بن جعفر ، ثم على بن موسى . ثم محمد بن على ، ثم على بن محمد ، ثم الحسن بن على ، ثم سمىى محمد ، وكنيته حجة الله فى أرضه ، وبقيته فى عباده ، ابن الحسن بن على ، ذاك الذى يفتح على يديه مشارق الأرض ومغاربها ، ذاك الذى يغيب عن شيعته وأوليائه غيبة لا يثبت فيها على القول بإمامته إلا من امتحن الله قلبه للإيمان . قال جابر : فقلت : يارسول الله . . فهل لشيعته الانتفاع به فى غيبته ، فقال : أى . . والذى بعثنى بالنبوة إنهم يستضيئون بنوره ، وينتفعون بولايته ، كانتفاع الناس بالشمس وإن تجللها سحاب . ياجابر . . هذا من مكنون سر الله ومخزون علم الله فاكتمه إلا عن أهله . . . والأخبار فى هذا المعنى فى الكتب المتداولة المعتبرة لا تحصى كثرة . وفى التوحيد عن أمير المؤمنين : اعرفوا الله بالله ، والرسول بالرسول وأولى الأمر بالمعروف والعدل والإحسان . وفى العلل عنه ، لا طاعة لمن عصى الله ، وإنما الطاعة لله ولرسوله ولولاة الأمر ، إنما أمر الله بطاعة الرسول لأنه معصوم مطهر لايأمر بمعصية ، وإنما أمر بطاعة أولى الأمر لأنهم معصومون مطهرون لا يأمرون بمعصية) اهـ [1] .

---

(١) جـ ١ ص ١٣٣

الإمام يوصى لمن بعده :

ولما كان مذهب المؤلف أن كل إمام يوصى بالإمامة لمن بعده ، وليس ذلك لأحد من المسلمين غيره ، فإنا نجده يتأثر بهذه العقيدة ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥٨) من سورة النساء « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... الآية على وفق هذه العقيدة فيقول (فى الكافى وغيره فى عدة روايات : إن الخطاب إلى الأئمة . . أمر كلا منهم أن يؤدى إلى الإمام الذى بعده ويوصى إليه ، ثم هى جارية فى سائر الأمانات . وفيه وفى العياشى عن الباقر . إيانا عنى أن يؤدى الإمام الأول إلى الذى بعده العلم والكتب والسلاح . . . . الخ)(١)

استدلاله على الرجعة .

ولما كان المؤلف يدين بالرجعة فإنا نجده يستدل على جوازها بقوله تعالى فى الآيتين (٥٥، ٥٦) من سورة البقرة « وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون * ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » وذلك حيث يقول (. . . أقول ، قيد البعث بالموت لأنه قد يكون عن إغماء ونوم ، وفيه دلالة واضحة على جواز الرجعة التى قال بها أصحابنا نقلا عن أئمتهم ، واحتج بهذه الآية أمير المؤمنين على ابن الكواء حين أنكرها كما رواه عنه الإصبع بن نباته ، والقمى ، هذا دليل على الرجعة فى أمة محمد صلى الله عليه وسلم . فإنه قال ، لم يكن فى بنى إسرائيل شىء إلا وفى أمته مثله - يعنى دليلا على وقوعها) اهـ(٢)

الإيمان بالرجعة وقيام القائم من الإيمان بالغيب ،

ولكون المؤلف يعتقد بالرجعة ويرى ضرورة الإيمان بها لكل مؤمن ، فإنا نراه يعد الإيمان بها من ضمن الإيمان بالغيب الذى مدح الله به عباده المتقين وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢ ، ٣) من سورة البقرة « .. هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ... » (الذين يؤمنون بالغيب).

---

(١) جـ ١ ص ١٣٢ جـ ١ ص ٣٥

بما غاب عن حواسهم من توحيد الله ، ونبوة الأنبياء ،وقيام القائم ، والرجعة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار ، وسائر الأمور التى يلزمهم الإيمان بها عما لا يعرف بالمشاهدة وإنما يعرف بدلائل نصبها الله عز وجل) [١] اهـ

التقية :

ولما كان ملا محسن يقول بالتقية ، ويراها ضرورة من ضروريات قيام مذهبه وصون أصحابه من الاضطهاد ، فإنا نراه يفيض فيها عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران « لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء .إلا أن تتقوا منهم تقاة .. الآية» فيقول (إلا أن تتقوا منهم تقاة) إلا أن تخافوا من جهتهم خوفا وأمراً يجب أن يخاف منه ، وقرىء (تقية) منع عن موالاتهم ظاهرا وباطنا فى الأوقات كلها إلا وقت المخافة، فان إظهار الموالاة حينئذ جائز بالمخالفة كما قيل ، كن وسطا وامش جانبا .... ثم قال «وفى العياشى عن الصادق قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، لا إيمان لمن لا تقية له ،ويقول ، قال الله (إلا أن تتقوا منهم تقاة) . وفى الكافى عنه قال ، التقية ترس الله بينه وبين خلقه . وعن الباقر قال : التقية فى كل شىء يضطر إليه ابن ادم ، وقد أحل الله له . والأخبار فى ذلك مما لا يحصى) اهـ [٢] .

تأثره فى تفسيره بالفروع الفقهية للإمامية ،

ولما كان المؤلف كغيره من علماء مذهبه له فى بعض المسائل الاجتهادية الفقهية رأى يخالف اراء مجتهدى المذاهب الأخرى ، فإنا نراه ينتصر لمذهبه ويعمل على تأييده بما يظهر له من ايات القرآن ... والمتتبع لتفسيره لآيات الأحكام يجد أثر هذا كله ظاهرا جليا ، فهو يحاول محاولة جدية أن يأخذ رأيه من النص القرآنى أو يدفع رأى مخالفية بما يظهر له منه ، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار تأثر هذا التفسير بمذهب صاحبة الفقهى ،

---

(١) جـ ١ ص ٢٣ (٢) جـ ١ ص ٩٦

المتعـة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية(٢٤) من سورة النساء «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن ..» نراه يتأثر بما يراه من حل نكاح المتعة فيحمل الآية على هذا ويجعلها دليلا على صحة مذهبه وذلك حيث يقول مانصه «فما استمتعتم به منهن فآتوهن» مهورهن ، سمى أجراً لأنه فى مقابلة الاستمتاع (فريضة) مصدر مؤكد . فى الكافى عن الصادق ، إنما أنزلت (فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى فآتوهن أجورهن فريضة) والعياشى عن الباقر . أنه كان يقرأها كذلك ، ورونه العامة أيضا عن جماعة من الصحابة «ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة» من زيادة فى المهر أو الأجل ، أو نقصان فيهما ، أو غير ذلك مما لا يخالف الشرع . فى الكافى مقطوعاً والعياشى عن الباقر «لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما ، تقول ، أستحللتك بأجل آخر برضى منها ، ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها ، وعدتها حيضتان «إن الله كان عليما» بالمصالح «فيما شرع من الأحكام . فى الكافى عن الصادق ، المتعة نزل بها القرآن ، وجرت بها السنة من رسول الله صلى الله عليه وآله ، وعن الباقر كان على يقول ، لولا ماسبقنى به ابن الخطاب مازنى إلا شفى بالفاء — يعنى إلا قليل — أراد أنه لولا ماسبقنى به عمر من نهيه عن المتعة وتمكن نهيه من قلوب الناس ، لندبت الناس عليها ، ورغبتهم فيها ، فاستغنوا بها عن الزنى ، فما زنى منهم إلا قليل ، وكان نهيه عنها تارة بقوله : متعتان كانتا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا محرمهما ومعاقب عليهما ، متعة الحج ، ومتعة النساء . وأخرى بقوله ، ثلاث كن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا محرمهن ومعاقب عليهن ، متعة الحج ومتعة النساء وحى على خير العمل فى الأذان . وفيه جاء عبد الله بن عمر الليثى إلى أبى جعفر فقال له ، ماتقول فى متعة النساء ، فقال : أحلها الله فى كتابه وعلى لسان نبيه ، فهى حلال إلى يوم القيامة ، فقال : يا أبا جعفر .. مثلك يقول هذا وقد حرمها عمر ونهى عنها ، فقال ، وإن كان فعل ، قال ، فإنى اعيذك بالله من ذلك أن تحل

شيئا حرمه عمر ، فقال له : فأنت على قول صاحبك وأنا على قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلم ألا عنك أن القول ماقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن الباطل ماقال صاحبك ، وقال : فأقبل عبد الله بن عمر فقال: أيسرك أن نساءك ، وبناتك ، وأخواتك ، وبنات عمك ، يفعلن ذلك ، فأعرض عنه أبو جعفر حين ذكر نساءه وبنات عمه . وفيه :سأل أبو حنيفة أباجعفر محمد ابن النعمان صاحب الطاق فقال : ياأبا جعفر : ماتقول فى المتعة ؟ أتزعم أنها حلال ؟ قال : نعم . قال : فما يمنعك أن تأمر نساءك ليستمتعن ويكسبن عليك فقال أبو جعفر : ليست كل الصناعات يرغب فيها وإن كانت حلالا ، وللناس أقدار ومراتب يرفعون أقدارهم ، ولكن ماتقول ياأبا حنيفة فى النبيذ أتزعم أنه حلال قال : نعم ، قال : فما يمنعك أن تقعد نساءك فى الحوانيت نباذات فيكسبن عليك فقال أبو حنيفة : واحدة بواحدة ، وسهمك أنفذ ، ثم قال : ياأبا جعفر . إن الآية التى فى سأل سائل تنطق بتحريم المتعة [1] والرواية عن النبى قد جاءت بنسخها ، فقال أبو جعفر :ياأبا حنيفة. إن سورة سأل سائل مكية وآية المتعة مدنية ، وروايتك شاذة ردية ، فقال أبو حنيفة : وآية الميراث أيضا تنطق بنسخ المتعة ، فقال أبو جعفر : قد ثبت النكاح بغير ميراث ، فقال أبو حنيفة من أين قلت ذاك؟فقال أبو جعفر: لو أن رجلا من المسلمين تزوج بامرأة من أهل الكتاب ثم توفى عنها . ماتقول فيها قال . لاترث منه ، فقال . قد ثبت النكاح بغير ميراث . . ثم افترقا . وعن الصادق أنه سأله أبو حنيفة عن المتعة فقال . عن أى المتعتين تسأل فقال . سألتك عن متعة الحج فانبئنى عن متعة النساء أحق هى؟ فقال: سبحان الله .. أماتقرأ كتاب الله «فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة » فقال أبو حنيفة . والله لكأنها آية لم أقراها قط . وفى الفقه عنه . ليس منا من لم يؤمن بكرتنا ويستحل متعتنا (أقول) الكرة . الرجعة ، وهى إشارة إلى ماثبت عندهم من رجوعهم إلى الدنيا مع جماعة من شيعتهم فى

---

(١) يريد قوله تعالى فى الآيتين (٢٩ ، ٣٠) والذين هم لفروجهم حافظون إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين .

زمن القائم لينصروه ، وقد مضت الإشارة إليه فيما سلف ، ويأتى أخبار أخر فيها إن شاء الله .) اهـ[١]

نكاح الكتابيات :

وملا محسن . لا يميل إلى حرمة نكاح الكتابيات من اليهود والنصارى ، بل نراه يذكر لنا فى تفسيره للآيات التى تتصل بهذا الموضوع أقوال العلماء ، ويفض فى سرده لأقوال المجيزين منهم ، ويعقب على أقوال المجيزين بما يدل على أنه مؤيد لعدم الحرمة، ومرتض لقول من يقول بالحل،ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٢١) من سورة البقرة « ولا تنكحوا المشركات .... الآية ، يقول ما نصه:(« ولا تنكحوا المشركات »لا تزوجوا الكافرات « حتى يؤمن» «ولأمة» مملوكة «مؤمنة خير من مشركة» حرة «ولو أعجبتكم»المشركة بجمالها أومالها أو حسبها«ولا تنكحوا المشركين » لا تزوجوا منهم المؤمنات « حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن » مملوك » خير من مشرك » حر « ولو أعجبكم » جماله أو ماله أو حاله « أولئك » إشارة إلى المشركين والمشركات « يدعون إلى النار » إلى الكفر المؤدى إلى النار ، فحقهم أن لا يوالوا ولا يصاهروا «والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة » إلى فعل ما يوجب الجنة والمغفرة من الإيمان والطاعة « بإذنه بأمره»وتوفيقه « ويبين آياته »أو امره ونواهيه » للناس لعلهم يتذكرون « ويتعظون . القمى :هى منسوخة بقوله تعالى فى الآية (٥)من سورة المائدة « اليوم أحل لكم الطيبات » إلى قوله « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن» قال : فنسخ هذه الآية «ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » وترك قوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) على حاله لم ينسخ ؛ لأنه لا يحل للمسلم أن ينكح المشرك ، ويحل له أن يتزوج المشركة من اليهود والنصارى ، وكذلك قال النعمان فى كتابه ، وكلاهما عد قوله تعالى « ولا تنكحوا المشركات » من منسوخ النصف من الآيات ، ويأتى تمام الكلام فيه فى سورة المائدة إن شاء الله تعالى) اهـ[٢]

---

(١) جـ ١ ص ١٢٦ - ١٢٧ . (٢) جـ ١ ص ٧٣ .

وعندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتو الكتاب من قبلكم ... الآية » يقول مانصه : « ... والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » فى الفقيه عن الصادق : هن العفائف . والعياشى عن الكاظم أنه سئل ما معنى إحصانهن ؟ قال : هن العفائف من نسائهم . وفى الكافى ، والمجمع ، والعياشى ، عن الباقر : أنها منسوخة بقوله « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » وزاد فى المجمع وبقوله (ولا تنكحوا المشركات) . القمى . أحل الله نكاح أهل الكتاب بعد تحريمه فى قوله فى سورة البقرة « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » قال: وإنما يحل نكاح أهل الكتاب الذين يؤدون الجزية ، وغيرهم لم تحل مناكحتهم (أقول) يؤيد هذا ، الحديث النبوى إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا فأحلوا حلالها وحرموا حرامها . وفى الكافى عن الحسن بن الجهم قال : قال لى أبو الحسن الرضا : يا أبا محمد ماتقول فى رجل يتزوج نصرانية على مسلمة ؟ قلت ، جعلت فداك . وما قولى بين يديك ؟ قال لتقولن . . فإن ذلك تعلم به قولى . قلت : لا يجوز تزوج نصرانية على مسلمة ولا على غير مسلمة ،قال :ولم؟ قلت : لقوله تعالى « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن » قال : فما تقول فى هذه الآية «والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم»؟ قلت : فقوله « ولا تنكحوا المشركات » نسخت هذه الآية ، فتبسم ثم سكت . وفيه وفى الفقيه عن الصادق فى الرجل المؤمن يتزوج النصرانية واليهودية قال: إذا اصاب المسلمة فماذا يصنع باليهودية والنصرانية ؟فقيل : يكون له فيها الهوى، فقال : إن فعل فيمنعها من شرب الخمر وأكل لحم الخنزير ، واعلم أن عليه فى دينه غضاضة . وعن الباقر : لا ينبغى للمسلم أن يتزوج يهودية ولا نصرانية وهو يجد مسلمة حرة أو أمة.وعنه : إنما يحل منهم نكاح البله . وفى الفقيه عنه أنه سئل عن الرجل المسلم يتزوج المجوسية قال : لا . . ولكن إن كانت له أمة مجوسية فلا بأس أن يطأها ويعزل عنها ولا يطلب ولدها،وفى رواية: لا يتزوج الرجل اليهودية ولا النصرانية على المسلمة،ويتزوج المسلمة على اليهودية والنصرانية

وفى التهذيب عن الصادق : لا بأس أن يتمتع الرجل باليهودية والنصرانية وعنده حرة . وفيه فى جواز التمتع بهما و بالمجوسية أخبار أخر . . .) هـ[١] .

وفى سورة الممتحنة عند قوله تعالى فى الآية (١٠) « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » قال ما نصه : « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » بما يعتصم به الكافرات من عقد ونسب . . جمع عصمة ، والمراد نهى المؤمنين عن المقام على نكاح المشركات . القمى عن الباقر فى هذه الآية قال : يقول : من كانت عنده امرأة كافرة — يعنى على غير ملة الإسلام — وهو على ملة الإسلام فليعرض عليها الإسلام ، فإن قبلت فهى امرأته ، وإلا فهى بريئة منه ، فنهى الله أن يمسك بعصمتها . وفى الكافى عنه قال : لا ينبغى نكاح أهل الكتاب ، قيل : وأين تحريمه ؟ قال قوله « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » (أقول) قد مضى فى سورة المائدة ما يخالف ذلك) اهـ[٢] .

فرض الرجلين فى الوضوء وحكم المسح على الخفين :

ويرى صاحبنا أن فرض الرجلين فى الوضوء مسحها لا غسلها ، كما يرى عدم جواز المسح على الخفين ، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية(٦) من سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا إلى قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين . . الآية » نراه يقول بوجوب وصول الماء إلى بشرة سائر الأعضاء كما هو مقتضى الأمر بالغسل والمسح ، وعليه فلا يجزىء المسح على القلنسوة ولا على الخفين ، ثم يروى ما جاء فى التهذيب عن الباقر من أن عمر جمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيهم على فقال : ما تقولون فى المسح على الخفين ، فقام المغيرة بن شعبة فقال : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على الخفين فقال على : قبل المائدة أو بعد المائدة ؟ قال : لا أدرى ، فقال على : سبق الكتاب الخفين ، إنما نزلت المائدة قبل أن يقبض بشهرين أو ثلاثة . وهنا يعقب ملا محسن على هذه الرواية فيقول : (أقول) المغيرة بن شعبة هذا هو أحد رؤساء المنافقين من

---

(١) جـ ١ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) جـ ٢ ص ٣١٠ .

أصحاب العقبة والسقيفة لعنهم الله . . ثم يقول : وفى الفقيه روت عائشة عن النبي أنه قال : أشد الناس حسرة يوم القيامة من رأى وضوءه على جلد غيره . وروى عنها أنها قالت : لأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على خفى . ولم يعرف للنبي خف إلا خف أهداه النجاشى وكان موضع ظهر القدمين منه مشقوقا ، فمسح النبي صلى الله عليه وسلم على رجليه وعليه خفاه ، فقال الناس : إنه مسح على خفيه ، على أن الحديث فى ذلك غير صحيح الإسناد . اهـ كلام الفقيه) اهـ [١] .

وبعد هذا انتقل المؤلف إلى الكلام على فرض الرجلين فى الوضوء ، فقال بعد ما بين أولا أن قراءة نصب الأرجل مردودة عندهم : (. . . ثم دلالة الآية على مسح الرجلين دون غسلهما أظهر من الشمس فى رابعة النهار ، وخصوصاً على قراءة الجر ، ولذلك اعترف بها جمع كثير من القائلين بالغسل ، وفى التهذيب عن الباقر أنه سئل عن قول الله عز وجل « فامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين » على الخفض هى أم على النصب ؟ قال : « بل هى على الخفض » ثم قال : (أقول) وعلى تقدير القراءة على النصب أيضا تدل على المسح ، لأنها تكون حينئذ معطوفة على محل الرءوس ، كما تقول : مررت بزيد وعمراً ؛ إذ عطفهما على الوجوه خارج عن قانون الفصاحة ، بل عن أسلوب العربية . . ثم روى من الأخبار عن أهل البيت ما يشهد لمذهبه . . [٢]) اهـ .

الغنائم :

وهو يرى فى الغنائم ما يراه غيره من علماء مذهبه من أن الخمس يقسم إلى ستة سهام : سهم لله . وسهم للرسول ، وسهم للإمام ، وسهم ليتامى آل الرسول ، وسهم لمساكينهم ، وسهم لأبناء سبيلهم . وسهم الله وسهم الرسول يرثهما الإمام ، فيكون للإمام ثلاثة أسهم من ستة . . ثم يعلل اختصاص الإمام من الخمس بالأسهم الثلاثة ، بأن الله تعالى قد ألزم الإمام بما ألزم به النبي

(١) جـ ١ ص ١٥٤
(٢) جـ ١ ص ١٥٥

من تربية الأمة ، ومؤمن المسلمين وقضاء ديونهم ، وحملهم فى الحج والجهاد ، وذلك قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « لما أنزل عليه «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وهو أب لهم » فلما جعله الله أبا للمؤمنين لزمه ما يلزم الوالد للولد، فقال عند ذلك : من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فعلىّ وإلىّ ، فلزم الإمام ما لزم الرسول . فلذلك صار له من الخمس ثلاثة أسهم .

والمؤلف يرى أن الله تعالى عوض يتامى آل البيت ومساكينهم وأبناء سبيلهم بما خصوا به من هذه السهام عن الصدقات التى حرمت عليهم ومنعوا من أخذها لكونها أوساخ الناس ، ويروى فى ذلك أخباراً كثيرة عن علماء آل البيت[١]) .

وعند ما فسر المؤلف قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى .. الآية» نقل من الكافى عن أمير المؤمنين أنه قال: (نحن والله الذين عنى الله بذى القربى الذين قرنهم الله بنفسه ونبيه فقال: «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين» منا خاصة ولم يجعل لنا سهماً فى الصدقة .. أكرم الله نبيه وأكرمنا أن يطعمنا أوساخ ما فى أيدى الناس[٢]) اهـ .

الاستنباط :

ويرى ملا محسن أن الاستنباط لا يجوز لأحد من الأمة إلا للأئمة ؛ لأنهم هم المعصومون عن الخطأ ، أما من عداهم فليس له هذه العصمة ؛ ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ... الآية» يقول ما نصه : وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف » مما يوجب الأمن والخوف « أذاعوا به » فشوه . قيل : كان قوم من ضعفة المسلمين إذا بلغهم خبر عن سرايا رسول الله

---

(١) ج ٢ ص ٢٤٤ (٢) ج ٢ ص ٣٠٦

صلى الله عليه وسلم أو أخبرهم الرسول بما أوحى اليه من وعد بالظفر أو تخويف من الكفرة أذاعوه ، وكانت إذاعتهم مفسدة « ولو ردوه » ردوا ذلك الأمر « إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ، قيل : أى يستخرجون تدبيره بتجاربهم وأنظارهم . فى الجوامع عن الباقر : هم الأئمة المعصومون . والعياشى عن الرضا : يعنى آل محمد صلى الله عليه وسلم وهم الذين يستنبطون من القرآن ، ويعرفون الحلال والحرام ، وهم حجة الله على خلقه. وفى الإكمال عن الباقر : من وضع ولاية الله وأهل استنباط علم الله فى غير أهل الصفوة من بيوتات الأنبياء فقد خالف أمر الله عز وجل ، وجعل الجهال ولاة أمر الله، والمتكلفين بغير هدى زعموا أنهم أهل استنباط علم الله فكذبوا على الله وزاغوا عن وصية الله وطاعته،فلم يضعوا فضل الله حيث وضعه الله تبارك وتعالى ، فضلوا وأضلوا أتباعهم ، فلا تكون لهم يوم القيامة حجة [1]) اه .

موقف المؤلف من مسائل علم الكلام :

والمؤلف كغيره من الشيعة متأثر إلى حد ما بتعاليم المعتزلة وآرائهم الكلامية ، فهو يوافقهم فى بعض المسائل ، ويخالفهم فى بعض آخر منها . وإنا لنلحظ هذا التأثر فى تفسيره للآيات التى لها ارتباط بالمسائل الكلامية ، وإليك بعض المثل التى وافق فيها المعتزلة ، وبعض المثل التى خالفهم فيها :

أفعال العباد :

يرى صاحبنا أن العبد يخلق أفعال نفسه ويوافق برأيه هذا رأى المعتزلة القائلين بخلق العباد أفعال أنفسهم . ولهذا نراه يتأثر بهذه العقيدة فى تفسيره .

فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة الأنعام « وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها . . الآية » نراه يفر من نسبة هذا الجعل إلى الله تعالى فيقول : (. . . والمعنى خليناهم وشأنهم ليمكروا ولم نكفهم عن المكر . . . [2]) اه .

---

(١) ج ١ ص ١٢٧　　(٢) ج ١ ص ١٩٦

رؤية الله :

كذلك يوافق ملا محسن المعتزلة فى أن رؤية الله تعالى غـير جائزة ولا واقعة ، ولهذا نراه يتأول آيات الرؤية كما تأولها المعتزلة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة » إلى ربها ناظرة » يقول ما نصه (وجوه يومئذ ناضرة) القمى : أى مشرقة (إلى ربها ناظرة) قال : ينظرون إلى وجه الله أى إلى رحمته ونعمته ، وفى العيون عن الرضا قال : يعنى مشرقة تنتظر ثواب ربها . وفى التوحيد والاحتجاج عن أمير المؤمنين فى حديث قال : ينتهى أولياء الله بعد ما يفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقا ، فيذهب عنهم كل قذى ووعث ، ثم يؤمرون بدخول الجنة ، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم ، قال : فذلك قوله تعالى « إلى ربها ناظرة » وإنما نعنى بالنظر إليه النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى . وزاد فى الاحتجاج : والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة ألم تسمع إلى قوله « فناظرة بم يرجع المرسلون[١] » أى منتظرة[٢]) اه .

الشفاعة .

ويخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالشفاعة فهو يرى أنها جائزة وواقعة يوم القيامة ، وأن أهل البيت يشفعون للعصاة من شيعتهم ، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل .. الآية » نراه ينقل من تفسيره الإمام عن الصادق أنه قال : (هذا يوم الموت فإن الشفاعة والفداء لا يغنى عنه ، فأما القيامة فإنا وأهلنا نجزى عن شيعتنا كل جزاء ، ليكونن على الأعراف بين الجنة والنار محمد ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين ،

---

(١) فى الآية (٣٥) من سورة النمل

(٢) ج ٢ ص ٢٤١

والطيبون من آلهم ، فنرى بعض شيعتنا فى تلك العرصات ، فمن كان منهم مقصراً وفى بعض شدائدها فنبعث عليهم خيار شيعتنا كسلمان والمقداد وأبى ذر ، وعمار ، ونظرائهم فى العصر الذى يليهم ، ثم فى كل عصر إلى يوم القيامة ، فينقضون عليهم كالبزاة والصقور ، ويتناولونهم كما تتناول البزاة والصقور صيدها ، فيزفونهم إلى الجنة زفا ، وإنا لنبعث على آخرين من محبينا خيار شيعتنا كالحمام فيلتقطونهم من العرصات كما يلتقط الطير الحب وينقلونهم إلى الجنان بحضرتنا ، وسيؤتى بالواحد من مقصرى شيعتنا فى أعماله بعد أن حاز الولاية والتقية وحقوق إخوانه ويوقف بإزائه مائة أو أكثر من ذلك إلى مائة ألف من النُّصَّاب [1] فيقال له : هؤلاء فداؤك من النار ، فيدخل هؤلاء المؤمنون الجنة وأولئك النصاب النار . وذلك ما قال الله عز وجل فى الآية (٣) من سورة الحجر « ربما يود الذين كفروا » يعنى بالولاية (لو كانوا مسلمين) فى الدنيا ، منقادين للأئمة ، ليجعل مخالفوهم من النار فداؤهم) اهـ[2] .

السحر :

كذلك يخالف المؤلف المعتزلة فى القول بالسحر ؛ فهو يعترف بحقيقته ولا ينكر أن النبى صلى الله عليه وسلم سحر ، ولهذا نراه عند تفسيره لسورة الفلق يقول ما نصه (... ومن شر النفاثات فى العقد) ومن شر النفوس أو النساء السواحر اللواتى يعقدن عقداً فى خيوط وينفثن عليها ، والنفث : النفخ مع ريق .... ثم ذكر الحديث الذى فيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سحر بفعل لبيد بن الأعصم اهـ[3] .

---

(١) النصاب جمع ناصب والناصب على حسب بيان كتب الشيعة من يقدم الأول والثانى يعنى أبا بكر وعمر — علىّ علىّ ، أو يعتقد إمامة الأول والثانى . اهـ من الوشيعة ص ٢٤ .

(٢) جـ ١ ص ٣٣ .

(٣) جـ ٢ ص ٣٧٦ .

روايته للأحاديث الموضوعة :

ثم لا يفوتنا أن ننبه على أن هذه الأحاديث التى يرويها المؤلف فى تفسيره عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن أهل البيت كشاهد لصحة ما يقول ، هى فى الغالب مكذوبة موضوعة لا أصل لها ، وقد مر بك الكثير من هذه الروايات ، وهى ناطقة على نفسها بالوضع ، فلست فى حاجة إلى بيان وضعها بميزان نقد الرواة ، إذ نحن فى غنى عن هذا بعد ما حمل الحديث تكذيب نفسه بنفسه فى ثنايا ألفاظه ومعانيه . والمصنف بعد هذا لا يفوته أن يذكر فى نهاية تفسير كل سورة من الروايات عن أهل البيت ما يشهد لفضل هذه السورة ، وما أعد الله لقارئها من الأجر والثواب ، وفى اعتقادى أن هذه الروايات لا تعدو أن تكون مكذوبة كالروايات المنسوبة إلى أبى وابن عباس فى فضائل السور ، وليس بغريب أن يذكر صاحبنا مثل هذه الروايات المكذوبة فى تفسيره بعد ما سود كتابه من أوله إلى آخره بالأحاديث الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آل بيته عليهم رضوان الله .

٥ — تفسير القرآن

للسيد عبد الله العلوى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو السيد عبد الله بن محمد رضا ، العلوى ، الحسينى ، الشهير بشبّر . ولد بأرض النجف سنة ١١٨٨ ﻫ ثمان وثمانين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية . . . ثم ارتحل مع والده إلى الكاظمية ومكث بها إلى أن مات سنة ١٢٤٢ ﻫ اثنتين وأربعين ومائتين بعد الألف من الهجرة . كان فى نظر أصحابه من أعيان الشيعة وفضلائهم ، فقيها ، محدثا ، مفسراً متبحراً ، جامعا لعلوم كثيرة ، آية فى الأخلاق . تلقى العلم على والده ، وعلى الإمام الكبير السيد محسن الأعرجى . وقد تتلمذ عليه خلق كثير ، لأنهم كانوا يعتبرونه علما من أعلام الشيعة ، وشخصية علمية بارزة لها مكانها ومقدارها . ولقد عكف مدة حياته العلمية على التأليف والتصنيف حتى أخرج للناس مع سنة الذى لم يتجاوز الأربع والخمسين سنة كتبا كثيرة ومصنفات عديدة نذكر منها (١) الدرر المنثورة فى المواعظ المأثورة عن الله تعالى والنبى والأئمة الطاهرين عليهم السلام والحكماء (٢) رسالة فى حجية خبر الواحد (٣) أعمال السنة . كتاب على نمط زاد المعاد للمجلسى (٤) رسالة فى حجية العقل والحسن والقبح العقليين (٥) مصباح الظلام فى شرح مفاتيح شرائع الإسلام (٦) قصص الأنبياء (٧) البرهان المبين فى فتح أبواب علوم الأئمة المعصومين (٨) كتاب شرح نهج البلاغة (٩) صفوة التفاسير فى ستين ألف بيت (١٠) الجوهر الثمين فى تفسير القرآن المبين . . . فى مجلدين فى ثلاثين ألف بيت (١١) التفسير الوجيز مجلد واحد فى ثمانية عشر ألف بيت . ولعل هذا التفسير هو الذى فى أيدينا . وهناك مؤلفات أخرى كثيرة مذكورة فى ترجمته لا نطيل بذكرها[١]) .

---

(١) انظر ترجمته فى روضات الجنات ص ٣٧٤ ، وترجمته الموجودة بأول الكتاب لتلميذه السيد محمد معصوم .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير يجرى على مذهب الإمامية الاثنى عشرية ، من حمل ألفاظ القرآن الكريم على معان تتفق وأصول المذهب وتعاليمه ، مع شىء من التعصب والغلو فى التنويه بشأن أهل البيت والحط من قدر الصحابة الذين يعتبرهم غير موالين لعلى وذريته . والكتاب مختصر فى ألفاظه ، موجز فى عباراته ، مع تضمنه للمعانى الكثيرة الدقيقة ، فهو أشبه مايكون بتفسير الجلالين من جهة إفادة المعانى الكثيره ، والنكات الخفية الدقيقة ، بعبارة سهلة موجزة .

ولقد حرص المؤلف فيه على أن يكون جل اعتماده على ما ورد من التفسير عن أهل البيت ، وإن كان لايعزو كل قول إلى قائله فى الغالب ، كما حرص على أن ينصر مذهبه ويدافع عنه سواء فى ذلك مايتعلق بأصول المذهب أو بفروعه، وهو بعد ذلك يشرح الآيات التى لها صلة بمسائل علم الكلام شرحا يتفق أحياناً كثيرة مع مذهب المعتزلة ، وأحياناً مع مذهب أهل السنة . وذلك راجع إلى أنه يأخذ بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل ، وبمذهب أهل السنة فى بعض آخر منها ، شأن الكثير الغالب من علماء الإمامية الاثنى عشرية . ثم لايفوت المؤلف فى تفسيره هذا أن يشير إلى بعض مشكلات القرآن التى ترد على ظاهر النظم الكريم . ثم يجيب عنها . كما لايفوته أن يكشف لنا عن كثير من النكات اللفظية والبيانية والمعنوية ، مع الخوض أحياناً فى المعانى اللغوية والمسائل النحوية ، كل هذا — كما قلت — فى أسلوب ممتع لايمل قارئه من تعقيد ولا يسأم من طول :

ولقد وصف المؤلف تفسيره هذا ، وبين مسلكه فيه فقال فى مقدمته :

(هذه كلمات شريفة ، وتحقيقات منيفة ، وبيانات شافية ، وإشارات وافية ، تتعلق ببعض مشكلات الآيات القرآنية ، وغرائب الفقرات الفرقانية ، وتتحرى غالبا ماورد عن خزان أسرار الوحى والتنزيل ، ومعادن جواهر العلم والتأويل ، الذين نزل فى بيوتهم جبرائيل ، بأوجز إشارة ، وألطف عبارة ،

وفيما يتعلق بالألفاظ والأغراض والنكات البيانية تفسير وجيز ، فإنه ألطف التفاسير بياناً وأحسنها تبيانا مع وجازة اللفظ وكثرة المعنى[١]) اه .

هذا ، وقد أتم المؤلف تفسيره هذا — كما قال في خاتمته — في جمادى الأولى سنة ١٢٣٩ هـ تسع وثلاثين ومائتين بعد الألف من الهجرة . والكتاب مطبوع في مجلد واحد كبير الحجم ، وموجود بدار الكتب المصرية ، وإليك بعض ما يكشف عن منهج هذا التفسير .

تعصب المؤلف لأصول مذهبه وأثر ذلك فى تفسيره :

هذا ، وإن المؤلف بحكم عقيدته وهواه يتأثر فى تفسيره بتعاليم الإمامية الاثنى عشرية وأصول مذهبهم ، فلا يكاد يمر بآية يلمح منها حجة لمذهبه أو دفعا لمذهب مخالفيه إلا فسرها كما يحب ويهوى .

الإمامة :

فمثلا نراه يتأثر بعقيدته فى الإمامة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » فيذكر أنها (نزلت فى على عليه السلام حين سأل سائل وهو راكع فى صلاته فأومأ إليه بخنصره فأخذ خاتمه منها) ويدعى إطباق أكثر المفسرين على ذلك واستفاضة الروايات فيه من الجانبين — جانب الموافقين وجانب المخالفين — ثم يقول بعد ذلك (وتدل — يعنى الآية — على إمامته دون من سواه ؛ للحصر وعدم اتصاف غيره بهذه الصفات ، وعبر عنه بصيغة الجمع تعظيما ، أو لدخول أولاده الطاهرين) اه[٢]

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة المائدة أيضا « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ... الآية » يروى عن أهل البيت وابن عباس وجابر : (أن الله أوحى إلى نبيه أن يستخلف

---

(١) ص ٢
(٢) ص ٢٦٤

عليا ، فكان يخاف أن يشق ذلك على جماعة من أصحابه فنزلت ، فأخذ بيده فقال ألست أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا : بلى . . قال : من كنت مولاه فعلى مولاه) اهـ [١] .

كل إمام يوصى لمن بعده :

ويدين المؤلف بأن أمر الإمامة ليس موكولا لأحد من الناس ، بل كل إمام يوصي لمن بعده ، ولهذا نراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٥) من سورة النساء « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... الآية » يعترف بأن الأمر يعم كل مكلف وكل أمانة . . ثم يقول (وعنهم عليهم السلام أنه أمر لكل واحد من الأئمة أن يسلم الأمر لمن بعده) [٢] اهـ .

وفى سورة الأحزاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) « وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم . . . . الآية » يقول (وفيه رد على من جعل الإمامة بالاختيار) [٣] اهـ .

وجود الأئمة فى كل زمان وعصمتهم ، ووجوب الرجوع إليهم عند الاختلاف دون غيرهم :

ولما كان المؤلف يرى أنه لا يخلو كل زمان من إمام ، وأن الأئمة لهم من الله العصمة كالأنبياء وليس هذا لغيرهم ، فإنه يوجب الرجوع إليهم عند الاختلاف وعدم وجود نص من الكتاب أو السنة ، أما من عداهم من الناس فلا يصح الرجوع إليه بحال من الأحوال ، لأن غير المعصوم لا يرجع إليه ، ولا يؤخذ برأيه فى مسائل الخلاف :

يقول المؤلف هذا ويدين به فنجده يتأثر به فى تفسيره ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم . . . الآية » يقول (دل على وجود أولى

---

(١) ص ٢٦٨ : (٢) ص ٢٠٣ (٣) ٨٧٣ .

الأمر فى كل زمان ، بحيث يجب طاعتهم لعلمهم وفضلهم ، وعصمتهم ، ولا ينطبق إلا على مذهب الإمامية ... وعنهم عليهم السلام : إيانا عنى خاصة .. أمر جميع المؤمنين إلى يوم القيامة بطاعتنا . « فإن تنازعتم » أيها المأمورون « فى شىء » من أمور الدين « فردوه » فراجعوا فيه « إلى الله » إلى محكم كتابه « والرسول » بالأخذ لسنته ، والمراجعة إلى من أمر بالمراجعة إليه ، فإنها رد إليه . وقرىء فإن خفتم تنازعاً فى شىء فردوه إلى الله وإلى الرسول وإلى أولى الأمر منكم ...) اهـ[1] .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٣) من سورة النساء أيضاً « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم .. » يقول (« ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم » هم آل محمد عليهم السلام « لعلمه الذين يستنبطون منهم » يستخرجون تدبيره بأفكارهم وهم آل محمد عليهم السلام ..)[2] اهـ .

الرجعة :

والمؤلف يدين بالرجعة ويتأثر بها فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة « هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب » نجده يفسر الغيب (بما غاب عن حواسهم من معرفة الصانع ، وصفاته ، والنبوة ، وقيام القائم ، والرجعة ، والبعث ، والحساب ، والجنة ، والنار) اهـ .

ومثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآيه (٥٦) من سورة البقرة أيضا « ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يقول (... وفيه حجة على صحة البعث والرجعة) اهـ

التقيـة :

ولتأثر المؤلف بعقيدته فى التقية نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة آل عمران « لايتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون

---

(١) ص ٢٠٤ (٢) ص ٢١٠ — ٢١١

(٣) ص ٧ (٤) ص ٢٥

المؤمنين ومن يفعل ذلك فليس من الله فى شىء إلا أن تتقوا منهم تقاة . . . الآية » يقول (. . رخص لهم إظهار موالاتهم إذا خافوهم مع إبطان عداوتهم وهى التقية التى تدين بها الإمامية ، ودلت عليها الأخبار المتواترة وقوله : « إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان) اه[1] .

تحريف القرآن :

كذلك نجد شبراً يعتقد بأن القرآن بدل وحرف ، ولما اصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » نجده يتفادى هذا الاصطدام بالتأويل فيقول (« وإنا له لحافظون » عند أهل الذكر واحداً بعد واحد إلى القائم ، أو فى اللوح . . وقيل الضمير للنبى) اه[2]

آيات العتاب :

والمؤلف يكبر عليه معاتبة الله لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم على أمر من الأمور ،فيحاول بكل مايستطيع أن يحول العتاب إلى غير النبى صلى الله عليه وسلم فمثلا عتاب الله لنبيه صلى الله عليه وسلم فى شأن ابن أم مكتوم يشق على شبر أن يكون مقصودا به النبى ، فنراه يقتصر على ماروى عن أهل البيت من أن آيات العتاب (نزلت فى رجل من بنى أمية ، كان عند النبى صلى الله عليه وسلم فجاء ابن ام مكتوم فلما رآه تقذر منه وجمع نفسه وعبس وأعرض بوجهه عنه[3]) .

طعنة على الصحابة :

وإنا لنلاحظ على المؤلف أنه يطعن على الصحابة ويرميهم بالكفر أو مايقرب منه ، ويجردهم من كل فضل نسب إليهم فى القرآن تنقيصا لهم ، وحطاً من قدرهم .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة التوبة « . . ثانى

---

(١) ص ١٢٩ . (٢) ص ٥٤٦ . (٣) ص ١١٩١ .

اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبة لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها ... الآية » نجده يعرض عن تعبين هذا الذى صحب النبى صلى الله عليه وسلم فى هجرته، وهو أبو بكر، ثم يصرح أو يلمح بما ينتقص من قدره ، أو يذهب بفضله المنسوب إليه والمنوه به فى القرآن الكريم فيقول : « ثانى اثنين » حال أى معه واحد لا غير « إذ هما فى الغار » نقب فى ثور ، وهو جبل بقرب مكة « إذ » بدل ثان « يقول لصاحبه » ولا مدح فيه إذ قد يصحب المؤمن الكافر كما قال « قال له صاحبه وهو يحاوره [1] » « لا تحزن » فإنه خاف على نفسه وقبض واضطرب حتى كاد أن يدل عليهما فنهاه عن ذلك « إن الله معنا » عالم بنا « ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ... إلى قوله ... إلا هو معهم [2] » أى عالم بهم « فأنزل الله سكينته » طمأنينته « عليه » على الرسول ... وفى إقراة صلى الله عليه وسلم ههنا مع اشتراك المؤمنين معه حيث ذكرت مالا يخفى ، وجعل الهاء لصاحبه ينفيه كونها للرسول قبل وبعد ... الخ [3])

تعصبه لآل البيت :

ولقد مر بنا عند قراءتنا فى هذا التفسير ، الكثير مما يدل على تعصب المؤلف لآل البيت تعصبا ممقوتا مرذولا ، فتارة نجدة يصرف اللفظ العام إلى علىّ رضى الله عنه ، كما فعل فى الآية (٤) من سورة التحريم عند قوله تعالى « ... فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير » فإنه صرف لفظ صالح المؤمنين عن عمومه وادعى أنه خاص بأمير المؤمنين على عليه السلام ، كما ادعى رواية العامة والخاصة لذلك) [4] اه .

كما نجده يحاول أن يأخذ من القرآن مايدل على أن آل البيت كانوا معروفين لدى الأمم السابقة وأنبيائهم يتوسلون إلى الله ، فيكشف عنهم الغمة ، ويزحزح عنهم الكربة .

---

(١) فى الآية (٣٧) من سورة الكهف (٢) فى الآية (٧) من سورة المجادلة
(٣) ص ٤١٧ — ٤١٨ (٤) ص ١١٣٥

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ... إلى آخر القصة ، نجده يدعى أن السجود لآدم إنما كان (لما فى صلبه من نور محمد صلى الله عليه وسلم وأهل بيته) ويدعى أن الكلمات التى تلقاها آدم من ربه ليتوب عليه هى (التوسل فى دعائه بمحمد صلى الله عليه وسلم وآله الطيبين [١]) .

ومثل هذا التعصب كثير فى مواضع من هذا التفسير .

علم القرآن كله عند آل البيت :

والمؤلف يدعى - كغيره من الإمامية الإثنى عشرية - أن علم القرآن كله عند أهل البيت دون غيرهم ، وإنا لنجد أثر هذا واضحا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة آل عمران « ... وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم . . .الآية ، وذلك حيث يقول (« ... وما يعلم تأويله» تاويل القرآن كله الذى يجب أن يحمل عليه « إلا الله والراسخون فى العلم » الثابتون فيه ومن لا يختلف فى علمه . . . عن الصادق عليه السلام : نحن الراسخون فى العلم ، ونحن نعلم تأويله . ومن وقف من الجمهور على الله ؛ فسر المتشابه بما استأثر الله تعالى بعلمه كوقت قيام الساعة ونحوه) [٢] اهـ .

تأثر المؤلف فى تفسيره بفروع الإمامية الفقهية :

ثم إن المؤلف يجرى فى تفسيره لآيات الأحكام على وفق ما يأخذ به ويميل إليه من اجتهادات فقهاء الإمامية .

نكاح المتعة :

فمثلا نجده يتأثر برأيه الذى يقول بجواز نكاح المتعة وعدم نسخه . فنراه عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النساء « . . وأحل لكم ماوراء ذلكم أن تبتغوا بأموالكم محصنين غير مسافحين فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن ... الآية ، يقول (... والمراد به نكاح المتعة بإجماع

(١) ص ١٩ — ٢٠ (٢) ص ١٩ — ٢٠

أهل البيت ، ويدل عليه قراءة أبي وابن عباس وابن مسعود « فما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى » . « فآتوهن أجورهن » مهورهن « فريضة » من الله « ولاجناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة » من استئناف عقد آخر بعد انقضاء المدة بزيادة فى الأجر والمدة) اﻫ (١) .

فرض الرجلين فى الوضو :

ولما كان المؤلف يرى أن فرض الرجلين فى الوضوء هو المسح لا الغسل ، فأنا نراه يشير إلى ذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ... الآية » فيقول (« وأرجلكم إلى الكعبين » بالجر كما عن حمزة وابن كثير وأبي عمرو ... ونصبه الباقون عطفا على رءوسكم محلا) اﻫ (٢) .

الغنائم :

كذلك يقول المؤلف بما يقول به علماء مذهبه فى تفسير خمس الغنائم ، ويجرى على مذهبه فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شيء فأن لله خمسه .. الآية » فيقول : (« فأن لله خمسه خبر محذوف ، أو مبتدأ ، أى فالحكم أو فواجب أن لله خمسه « وللرسول ولذى القربى » الإمام « واليتامى » يتامى الرسول « والمساكين » منهم « وابن السبيل » منهم ...) اﻫ (٣) .

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الحشر « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... الآية » يقول مثل ماقاله فى الآية السابقة وينبه على أنه مر فى الأنفال نحوه اﻫ (٤) .

---

(١) ص ١٢٢ (٢) ص ٢٤٦ (٣) ص ٣٩٥ (٤) ص ١١٠٧

ميراث الأنبياء :

ونجد شبراً يقول بأن الأنبياء يورثون المال كسائر الناس ، ولهذا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٥ ، ٦) من سورة مريم « وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقراً فهب لى من لدنك وليا * يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا » ، يقول مانصه : (« وإنى خفت الموالى » الذين يلونى فى النسب ، وهم بنو عمه « من ورائى » بعد موتى أن يرثوا مالى فيصرفوه فيما لا ينبغى ، إذ كانوا أشراراً « وكانت امرأتى عاقراً » لا تلد « فهب لى من لدنك وليا » ابنا « يرثنى ويرث من آل يعقوب » . . . الخ)[1] .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل « وورث سليمان داود ... الآية » يقول مانصه (وورث سليمان داود ماله وملكه ، وقيل: نبوته وعلمه ، بأن قام مقامه فى ذلك دون سائر بنيه وهم تسعة عشر ، والأول مروى) (٢) اهـ .

نكاح الكتابيات :

ولكن نرى المؤلف فى مسألة نكاح الكتابيات يميل إلى القول بالحل وعدم الحرمة ، ففى قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة « اليوم أحل لكم الطيبات وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم . . . الآية » يقول (« والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » ظاهره حل نكاح كل كتابية ذمية أو حربية ، دائما ، أو منقطعا ، أو ملكا ، فيخص آية ولا تنكحوا المشركات إن شملت الكتابية . وعن الباقر عليه السلام أنه منسوخ بتلك(٣)اهـ

وعند قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة الممتحنة « ولا تمسكوا بعصم الكوافر » نراه يمر عليها بدون أن يتعرض لهذا الموضوع أصلا .

---

(١) ص ٦٣٤ (٢) ص ٧٨٨ (٣) ص ٢٤٥

تأثره بمذهب المعتزلة فى تفسيره :

والمؤلف كغيره من علماء الإمامية الإثنى عشرية ينظر إلى بعض المسائل الكلامية نظرة المعتزلة إليها ، ويقول بما يقولون به فى كثير من أمور العقائد ، كما يخالف أهل الإعتزال فى بعض منها ويقول بما يقول به أهل السنة ، وإننا لنلمس أثر ذلك واضحا جليا فى تفسيره لكتاب الله تعالى .

حرية الإرادة وخلق الأفعال :

فمثلا نجد المؤلف يوافق المعتزلة فى أن العبد حر فى إرادته . خالق لأفعاله كلها ، ولهذا نراه كلما اصطدم بآية من الايات التى تدل على أن الله هو الذى يخلق أفعال العباد ، لجأ إلى التاويل الذى يتفق مع عقيدته هذه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٧) من سورة البقرة « . . . ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » نراه يفر من نسبة الختم إلى الله تعالى ويقول : (« ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم » وسمها بسمة يعرفها من يشاء من ملائكته وأوليائه ، إذا نظروا إليها علموا بأنهم لايؤمنون ، وعن الرضا عليه السلام : الختم هو الطبع على قلوب الكفار عقوبة على كفرهم ، كما قال تعالى « بل طبع الله عليها بكفرهم [١] » ، « وعلى أبصارهم غشاوة » غطاء . أقول : ويمكن أن يكون تهكما حكاية لقولهم « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب [٢] » . أو فى الآخرة . والتعبير بالماضى لتحققه ، ويشهد له قوله « ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما [٣] ») اهـ [٤] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٨) من سورة الأنعام « كذلك زينا لكل أمة عملهم . . . الآية » نراه يفر من نسبة التزيين إلى الله فيقول :

---

(١) فى الآية (١٥٥) من سورة النساء (٢) فى الآية (٥) من سورة فصلت
(٣) فى الآية (٩٧) من سورة الاسراء (٤) ص ٨ — ٩

« كذلك زينا لكل أمة عملهم » أى لم نكفهم حتى حسن عندهم سوء عملهم ، أو أمهلنا الشيطان حتى زينه لهم) اهـ [١] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من السورة نفسها « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن ... الآية » يتخلص من نسبة الجعل هنا إلى الله تعالى بتأويله بالتخلية فيقول (أسند الجعل إليه تعالى لأنه بمعنى التخلية ، أى لم يمنعهم من العداوة [٢]) اهـ .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٥) من السورة نفسها « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ... الآية » نراه يخرج من هذه الورطة بإرادة معنى اللطف والخذلان فيقول : (« فمن يرد الله أن يهديه » أى يلطف به « يشرح صدره للإسلام » بأن يفسح فيه وينور قلبه (ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجا » أى يمنعه ألطافه حتى ينبو عن قبول الحق فلا يدخله الإيمان ... [٣]) اهـ .

رؤية الله :

ولقد تأثر المؤلف أيضاً فى تفسيره باعتقاده بعدم رؤية الله وعدم وقوعها ولهذا لما فسر قوله تعالى فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف « ... قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل ... الآية) قال ما نصه (« قال رب أرنى أنظر إليك » روى لما كرر سؤال الرؤية أوحى الله إليه ياموسى سلنى ماسالوك فلن أؤاخذك بجهلهم . . قال « لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى » علق على المحال « فلما تجلى ربه للجبل » أى أظهر له أمره واقتداره أو نورة وعظمته ... « فلما أفاق قال سبحانك » تنزيها لك عما لا يليق بك من الرؤية وغيرها « تبت إليك » من طلب الرؤية ،

---

(١) ص ٣١٧ (٢) ص ٣١٨ (٣) ص ٣٢٢

أو السؤال بلا إذن « وأنا أول المؤمنين » بأنك لا ترى)[١] اهـ.

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٢، ٢٣) من سورة القيامة وجوه يومئذ ناضرة : إلى ربها ناظرة * » يقول (ناظرة إلى رحمته وإنعامه[٢]) اهـ

غفران الذنوب :

ولما كان المؤلف يخالف المعتزلة فى بعض معتقداتهم ، فإنا نراه يفسر الآيات التى يستندون إليها فى بعض عقائدهم بخلاف تفسيرهم لها ، فملا يرى المؤلف أنه يجوز فى حق الله تعالى أن يغفر الذنوب — إلا الشرك — بدون توبة من العبد تفضلا منه ورحمة ، وهذا مالا يقول به المعتزلة ؛ فلهذا نجده يجرى على هذه العقيدة فى تفسيره لقوله تعالى فى الاية (٤٨) من سورة النساء « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فيقول : (« إن الله لا يغفر أن يشرك) أى الشرك (به) بدون توبة للاجماع على غفر أنها بها (ويغفر مادون ذلك) ماسواه من الذنوب بدون توبة (لمن يشاء) تفضلا . ومقتضاه الوقوف بين الخوف والرجاء[٣]) اهـ .

وهكذا نجد هذا الكتاب يجمع بين الاختصار وسهولة العبارة مع كثير من التعصب للمذهب الشيعى ، والدفاع عن أصوله وفروعه .

---

(١) ص ٣٦٧ (٢) ص ١١٧٤ (٣) ص ٣٠٠

٦ – بيان السعادة فى مقامات العبادة

لسلطان محمد الخراسانى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو سلطان محمد بن حيدر الجنابذى الخراسانى أحد متطرفى الإمامية الإثنى عشرية فى القرن الرابع عشر الهجرى (١) .

قيمة هذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعطينا هذا التفسير لوناً آخر من ألوان التفسير عند الإمامية الإثنى عشرية، وذلك لأن كل ما تقدم لنا من كتبهم فى التفسير يكاد يكون متفقا على لون واحد ، وهو نقل ما جاء فى التفسير عن الأئمه وآل البيت ، وما كان من تفاوت بينها فهو لا يعدو أن يكون تفاوتا بمقدار ما بين مؤلفيها من اعتدال فى التشيع أو غلو فيه ، وبمقدار ما بينهم من تفاوت فى القدرة على تأييد مذهبهم وتدعيم أصوله بالأدلة والبراهين .

أما هذا الكتاب الذى نحن بصدده فقد سلك مؤلفه فيه مسلكا غير هذا المسلك ، مما جعل له لونا مخالفا للون تلك الكتب السابقة ؛ ذلك أن المؤلف وإن كان يعتقد كغيره من علماء مذهبه أن علم القرآن كله عند الأئمة ، إلا أنه لم يعتمد فى تفسيره على هذه الناحية كل الاعتماد ، بل نراه يمزج بها التفسير الصوفى الذى يقوم على الرموز والإشارات ، كما يخلط بالتفسير كثيراً من البحوث الفلسفية الدقيقة . والذى يقرأ هذا الكتاب ويتتبع ما فيه من الشطحات الصوفية العميقة فى إدراكها ، الغريبة فى لفظها وأسلوبها ، لا يسعه إلا أن يحكم على الكتاب بأنه مغلق فى إدراك معانيه ، عسير فى فهم مراده ومراميه . وأنا إذا أحكم على الكتاب هذا الحكم لا أكون مغاليا ولا متجنيا فيما حكمت،

---

(١) لم نقف له على ترجمة أكثر من هذا .

فكثيراً ما قرأت فيه العبارة المرة بعد المرة ، ولا أخرج منها إلا بالمعنى القاصر المبتور ، بعد أن يرتد إلى البصر خاسئاً وهو حسير ، ويرجع الذهن عاجزاً عن الفهم وهو كليل . . . وربما أكون واهما فى هذا الحكم ، لقصور معرفتى باصطلاحات القوم ، وعدم وقوفى على أصول مذهبهم ومرامى رموزهم التى يرمزون بها . . ولو تيسر لى ذلك لجاز أن يكون لى حكم على هذا التفسير مغاير لهذا الحكم ، ورأى فيه مخالف لهذا الرأى . .

والذى نلحظه فى هذا التفسير بعد ذلك : أنه يدافع عن أصول مذهبه ويطيل فى دفاعه ، مع تعصب كبير ، وتطرف بالغ إلى درجة الغلو والعناد . أما فروع المذهب ومسائله الاجتهادية الفقهية ، فيمر عليها مراً سريعاً بدون تفصيل للأدلة وبيان لوجهة النظر ، كما نلحظ فيه أنه لا يقتصر على النقل من تفاسير الشيعة بل ينقل من تفاسير أهل السنة أيضاً كالبيضاوى وغيره ، وكثيراً ما ينقل بعض العبارات الفارسية لبعض العلماء كشاهد على ما يقول .

وبالجملة ، فالكتاب يكاد فى جملته تفسيراً جارياً على النمط الذى يجرى عليه الصوفية فى تفاسيرهم ، ويظهر أن مؤلفه كان يقصد هذا اللون الصوفى فى تفسيره أولا وبالذات ، يدلنا على ذلك هذه العبارة التى نقتطفها من مقدمة تفسيره وهى قوله : (. . . . وقد كنت نشيطاً منذ أوان اكتسابى للعلوم وعنفوان شبابى بمطالعة كتب التفاسير والأخبار ومدارستها ، ووفقنى الله تعالى لذلك ، وقد كان يظهر لى بعض الأحيان من إشارات الكتب وتلويحات الأخبار لطائف ما كنت أجدها فى كتاب ولا أسمعها من خطاب ، فأردت أن أثبتها فى وريقات ، وأجعلها نحو تفسير للكتاب ، لتكون تذكرة لى ولإخوانى المؤمنين ، وتنبيها لنفسى ولجملة الغافلين ، راجيا من الله أن يجعلها لى ذخيرة ليوم الدين ، ولسان صدق فى الآخرين وهو جدير بأن يسمى (بيان السعادة فى مقامات العبادة . .) اهـ [1] .

فأنت ترى أن المؤلف يقرر هذه العبارة أن تفسيره هذا عبارة عن مجموعة

---

(١) جـ ١ ص ٣

تلك الإشارات والتلويحات التى فتح الله بها عليه ولم يسبق إليها فلو أنا جعلناه ضمن تفسير الصوفية لما كنا بعيدين عن وجهة الحق والصواب ، ولكنا آثرنا أن نجعله ضمن تفاسير الإمامية الإثنى عشرية ؛ لما فيه من اللون المذهبى والأثر الشيعى البالغ حد التطرف والغلو حتى فى ناحيته الصوفية والفلسفية . والكتاب مطبوع فى جزأين ، وموجود بدار الكتب المصرية ، آخره مايدل على أن مؤلفه فرغ منه سنة ١٣١١ هـ .

وأرى قبل كل شىء أن أسوق للقارىء الكريم أهم الآراء التى يقول بها المصنف ويجهر بها فى مقدمة تفسيره ، ثم أعرض بعد هذا لتوضيح مسلكه الذى سلكه فى هذا التفسير بما أذكره ضمن النماذج المختلفة. وإليك أهم هذه الآراء :

الإمامية الاثنا عشرية والمهدى المنتظر :

يدين صاحبنا بأن عليا أول العترة ، ووارث علم محمد صلى الله عليه وسلم ، وبعده الأحد عشر من ولده ، وأن الحادى عشر منهم غائب قائم منتظر لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد لطول الله ذلك اليوم حتى يخرج ويملأ الأرض قسطا وعدلا ، كما ملئت ظلما وجوراً ، وأن هؤلاء الاثنى عشر أئمة وشفعاؤه يوم القيامة ...)[1] اهـ

القرآن والعترة :

ويعتقد المؤلف أن القرآن دليل العترة ، وأن العترة مبينون للقرآن، ويقول: إن القرآن إمام صامت ، والعترة إمام ناطق ، كما يقول : « إن محبة العالم من العترة وتعظيمه ، والنظر إليه ، والجلوس عنده ، واستماع قوله وسماعه ، والتدبر فى أفعاله وأحواله وأخلاقه ، والتفكر فى شئونه والتسليم له ولمتشابهات ما منه ، وتخلية بيت القلب لنزوله بملكوته فيه ، بملاحظة أنه حبل الله الممدود إلى الناس من غير عناد منه من أعظم العبادات . كذلك تعظيم القرآن ، والنظر فى سطوره ،

---

(١) جـ ١ ص ٢ .

واستماع كلماته وسماعها ، والتدبر فى عباراته ، والتفكر فى إشاراته ولطائفه ، وتخلية بيت القلب لتجلى حقائقه ، واتباع أحكامه وتسليم متشابهاته من أعظم العبادات إذا كان بلحاظ كونه حبلا ممدوداً من الله) اه [١] .

علم القرآن جميعه عند محمد والأوصياء :

ويعتقد المؤلف أن علم القرآن جميعه عند النبي صلى الله عليه وسلم والأئمة ، أما من عداهم فعلمهم بمعانى القرآن قاصر لايبلغ المبلغ الذى خص به النبى والأئمة ، وذلك فى نظره راجع إلى تفاوت المقامات التى يتفاوت العلم بتفاوتها . ونظرية تفاوت المقامات التى يتفاوت من أجلها العلم بمعانى القرآن . نظرية فلسفية صوفية شيعية ؛ وإليك نص عبارة المؤلف فى الفصل العاشر من مقدمة كتابه لتكون على بصيرة بها :

يقول المؤلف ما نصه : (الفصل العاشر أن علم القرآن بتمام مراتبه منحصر فى محمد صلى الله عليه وسلم وأوصيائه الأثنى عشر وليس لغيرهم إلا بقدر مقامه ، قد مضى أن بطون القرآن وحقائقه كثيرة متعددة ، وأن بطنه الأعلى وحقيقته العليا هو محمدية محمد ، وعلوية على ، وهو مقام المشيئة التى هى فوق الإمكان ، وكل نبى ووصى كان لا يتجاوز مقامه الإمكان سوى محمد صلى الله عليه وسلم وأوصيائه ، ومن ولم يبلغ إلى مقام المشيئة لا يعلم مافيه ما أولا يتبين من ذلك المقام شيئا ، لأن المفسر لا يتجاوز فى تفسيره حد نفسه ، فكل من علم من القرآن شيئاً أو فسر منه شيئاً وإن بلغ من المقامات لايكون علمه وتفسيره بالنسبة الى علم القرآن إلا كقطرة من بحر محيط ؛ فإن حقيقة القرآن التى هى حقيقة محمد وعلى هى مقام الإطلاق الذى لانهاية له ، والممكن وإن كان أشرف الممكنات الذى هو العقل الكلى يكون محدوداً ، ولا يتصور النسبة بين المحدود وغير المتناهى الغير محدود ، فعلم كل عالم ومفسر القرآن بالنسبة إلى علم القرآن كقطرة إلى البحار . ولما كان مقام محمد صلى الله عليه وسلم وعلى وأولاده

---

(١) جـ ١ ص ٢

المعصومين مقام المشيئة كان علم القرآن كله عندهم ، و كان على هو من عنده علم الكتاب كما فى الآية بإضافة العلم إلى الكتاب المفيد للاستغراق . و كان آصف هو الذى عنده علم من الكتاب . و كان إبراهيم ابتلاه ربه بكلمات معدودة لا بجملة الكلمات ، مع أنه كان أكمل الأنبياء بعد نبينا . وكان محمد صلى الله عليه وسلم يؤمن بالله و كلماته جميعا فى قوله تعالى « فآمنوا بالله ورسوله النبى الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته [1] » فإن الكلمات جمع مضاف مفيد للاستغراق ، وليس المراد به الإيمان الإجمالى وإلا لشاركه غيره فيه، بل الإيمان التفصيلى ، والإيمان التفصيلى لا يكون إلا بإدراك المؤمن به شهوداً وعياناً) اهـ [2]

تحريف القرآن وتبديله :

والمؤلف يذكر لنا رأيه بوضوح فى تحريف القرآن و تبديله فيقول ما نصه: (اعلم أنه قد استفاضت الأخبار عن الأئمة الأطهار بوقوع الزيادة والنقيصة والتحريف والتغيير فيه بحيث لا يكاد يقع شك فى صدور بعضها منهم وتأويل الجميع بأن الزيادة والنقيصة والتغيير إنما هى فى مدركاتهم من القرآن لا فى لفظ القرآن كلفة ، ولا يليق بالكاملين فى مخاطباتهم العامة ؛ لأن الكامل يخاطب بما فيه حظ العوام والخواص ، وصرف اللفظ عن ظاهره من غير صارف ، وما توهموه صارفا من كونه مجموعاً عندهم فى زمن النبى ، وكانوا يحفظونه ويدرسونه ، وكانت الأصحاب مهتمين بحفظه عن التغيير والتبديل ،حتى ضبطوا قراءات القراء و كيفيات قراءاتهم .

فالجواب عنه : أن كونه مجموعاً غير مسلم ؛ فإن القرآن نزل فى مدة رسالته إلى آخر عمره نجوما ، وقد استفاضت الأخبار بنزول بعض السور وبعض الآيات فى العام الآخر ،وماورد من أنهم جمعوه بعد رحلته ، وأن علياً جلس فى بيته مشغولا بجمع القرآن، أكثر من أن يمكن إنكاره،وكونهم يحفظونه ويدرسونه

(١) فى الآية (١٥٨) من سور الاعراف .

(٢) جـ ١ ص ١٠

مسلم ، لكن كان الحفظ والدرس فيما كان بأيديهم ، واهتمام الأصحاب بحفظه وحفظ قراءات القراء وكيفيات قراءاتهم كان بعد جمعه وترتيبه ، وكما كانت الدواعى متوفرة فى حفظه ، كذلك كانت متوفرة من المنافقين فى تغييره. وأما ما قيل : إنه لم يبق لنا حينئذ اعتماد عليه ، والحال أنا مأمورون بالاعتماد عليه ، واتباع أحكامه ، والتدبر فى آياته ، وامتثال أوامره ونواهيه . وإقامة حدوده ، وعرض الأخبار عليه ، لا يعتمد عليه صرف مثل هذه الأخبار الكثيرة الدالة على التغيير والتحريف عن ظواهرها ، لأن الاعتماد على هذا المكتوب ووجوب اتباعه ، وامتثال أوامره ونواهيه . وإقامة حدوده وأحكامه ، إنما هى للأخبار الكثيرة الدالة على ما ذكر ، للقطع بأن ما بين الدفتين هو الكتاب المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم من غير نقيصة وزيادة وتحريف فيه. ويستفاد من هذه الأخبار : أن الزيادة والنقيصة والتغيير إن وقعت فى القرآن لم تكن مخلة بمقصود الباقى منه ؛ بل نقول: كان المقصود الأهم من الكتاب الدلالة على العترة والتوسل بهم ، وفى الباقى منه حجتهم أهل البيت ، وبعد التوسل بأهل البيت إن أمروا باتباعه كان حجة قطعية لنا ولو كان مغيراً تغييراً مخلا بمقصوده ، وإن لم نتوسل بهم أو لم يأمروا باتباعه ، وكان التوسل به ، واتباع أحكامه ، واستنباط أوامره ونواهيه ، وحدوده ، وأحكامه ، من قبل أنفسنا كان من قبيل التفسير بالرأى الذى منعوا منه ، ولو لم يكن مغيراً) [1] إه

نزول القرآن فى شأن الأئمة وأشياعهم وأعدائهم :

ويرى المؤلف أن القرآن نزل بتمامه فى الأئمة الإثنى عشر بوجه ، ونزل فيهم وفى أعدائهم بوجه ونزل أثلاثا : ثلث فيهم وفى أعدائهم . وثلث سنن وأمثال ، وثلث فرائض وأحكام . . بوجه . أو ثلث فيهم وفى أحبائهم ، وثلث فى أعدائهم ، وثلث سنة ومثل . . بوجه . ونزل أرباعا : ربع فيهم ، وربع فى عدوهم ، وربع سنن وأمثال ، وربع فرائض وأحكام . . بوجه .... ويرى أن

---

(١) جـ ١ ص ١٢

كل هذا قد أشعرت به الأخبار الواردة عن أهل البيت ، ويوجه ذلك فيقول (لما كان جميع الشرائع الإلهية والكتب السماوية لتصحيح الطريق الإنسانية ، وتوجيه الخلق إلى الولاية ، وكان أصل المتحققين بالطريق الإنسانية والولايه والمتحقق بالولاية المطلقه محمداً صلى الله عليه وسلم وعلياً وأولادهما ، صح أن يقال : جملة الشرائع الإلهية وجميع الكتب السماوية نزلت فيهم وفى توجيه الخلق إليهم ، وهو أيضاً وصف وتبجيل لهم . ولما كان كثير من آيات القران نزلت فيهم تصريحا أو تعريضاً أو تورية ، وما كان فى أعدائهم لم يكن المقصود منه إلا الاعتبار بمخالفيهم والانزجار عن مخالفتهم ليكون سبباً للتوجه إليهم ولمعرفة قدرهم وعظمة شأنهم ، وكان سائر آيات الأمر والنهى والقصص والأخبار لتأكد السير على الطريق الإنسانية إلى الولاية . صح أن يقال : جميع القرآن نزل فيهم ولما كان القران مفصلا يكون بعض آياته فيهم وفى محبيهم ، وبعضها فى أعدائهم ومخالفيهم ، وبعضها سننا وامثالا ، وبعضها فرائض وأحكاما ، صح أن يقال : نزل القرآن فيهم وفى أعدائهم ، أو نزل أثلاثا أو أرباعاً والآية الدالة على أخبار الأخيار والأشرار الماضين ، كلها تعريض بالأئمة وأخيار هذه الأمة وأشرارهم ، مع قطع النظر عن رجوعها إليهم وإلى أعدائهم بسبب كونهم أصلا فى الخير وكون أعدائهم أصلا فى الشر . بل نقول : كل آية ذكر فيها خير كان المراد بها أخيار الأمة ، وكل آية ذكر فيها شر كان المراد بها أشرار الأمة ؛ لكون الآية فيهم أو تعريضاً بهم ، أو لكونهم وكون أعدائهم أصلا فى الخير والشر)[1] اهـ .

هذه أهم آراء المصنف التى يراها فى القرآن وتفسيره ومفسريه . وإليك بعض النماذج التى توضح لك الطريقة التى جرى عليها المصنف فى تفسيره ، ومقدار تأثره بنزعته الصوفية ، وهواه الشيعى .

من التفسير الصوفى :

قلنا : إن هذا التفسير يغلب عليه الطابع الصوفى لكثرة ما فيه من التأويلات

---

(١) ج ١ ص ١٣

الإشارية ، والشطحات الصوفية ، والمواجيد التى نقرؤها للمؤلف فى تفسيره للآيات القرآنية ، وإليك بعض المثل لتعرف مقدار طغيان هذه الناحية على باقى النواحى فى هذا التفسير .

فمثلا عندما تكلم عن قوله تعالى فى الآية (٧٥) من سورة النساء « وما لكم لاتقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » يقول عند تفسيره لقوله تعالى « ربنا أخرجنا من هذه القرية ... الآية » (إن كان النزول فى ضعفاء قلة فلا اختصاص لها بهم كما فى الخبر ، فالقرية مكة وكل قرية لايجد الشيعة فيها وليا من الإمام وعشايخهم، وكل قرية وقع بها الأئمه بين منافقى الأمة ، وقرية النفس الحيوانية التى لايجد الجنود الإنسانية فيها ولياً ويطلبون الخروج منها إلى قرية الصدر ومدينة القلب . ويسألون الحضور عند إمامهم أو مشايخهم فى بيت القلب خالياً عن مزاحمة الأغيار بقولهم « واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيراً » تكرار اجعل ، لأن مقام التضرع والابتهال يناسبه التطويل والإلحاح فى السؤال ، ولأن المسئول ليس شخصاً واحداً ، ولو كان واحداً لم يكن مسئولا من جهة واحدة ، بل المسئول محمد صلى الله علية وسلم وعلى ، أو المسئول محمد من جهة هدايته ومن جهة نصرته ، أو على كذلك) .

(وقد بقى بين الصوفية أن يكون التعلم والتلقين بتعاضد نفسين متوافقتين، يسمى أحد الشخصين هاديا والآخر دليلا . والشيخ الهادى له الهداية وتولى أمور السالك فيما ينفعه ويجذبه ، والشيخ الدليل ينصره لمدافعة الأعداء ، ويخرجه عن الجهل والردى بدلالة طريق التوسل إلى شيخ الهدى ، وفى الآية إشارة إلى أن السالك ينبغى له أن يطلب دائماً حضوره عند شيخه بحسب مقام نورانيته ومقام صدره . وهو معنى انتظار ظهور الشيخ فى عالم الصغير ، وأما ظهور الشيخ بحسب بشريته على بشرية السالك . فلا يصدق عليه أنه من لدن الله، وإذا ظهر الشيخ بحسب النورانية كان ولياً من لدن الله ونصيراً من لدنه)[1] اهـ

---

(١) جـ١ ص٢١١

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة المائدة « ياأيها الذين آمنوا لاتحرموا طيبات ماأحل الله لكم ولا تعتدوا إن الله لايحب المعتدين» يقول (... اعلم أن الإنسان ذو مراتب عديدة بعضها فوق بعض إلى مالا نهاية له ، والتكاليف الإلهية الواردة عليه ليست لمرتبة خاصة منه بل — كما عرفت سابقا — للمفاهيم الواردة فى التكاليف مصاديق متعددة بتعدد مراتب الإنسان ، بعضها فوق بعض ، فكل ماورد فى الشريعة المطهرة من الألفاظ فهى مقصودة من حيث مفاهيمها العامة باعتبار جميع مصاديقها بحيث لا يشذ عنها مصداق من المصاديق ، فالإنسان بحسب مرتبته النباتية له محللات إلهية ، وبحسب مرتبته الحيوانية أخرى ، وبحسب الصدر أخرى ، وبحسب القلب أخرى ، وبحسب الروح أخرى ، والتحريم الإلهى فى كل مرتبة بحسبه ، وكذا تحريم الإنسان على نفسه . فالمحللات بحسب مرتبته الحيوانية والنباتية : ماأباح الله له من المأكول ، والمشروب ، والملبوس ، والمركوب ، والمنكوح والمسكن ، والمنظور . وبحسب الصدر : ماأباح الله له من الأفعال الإرادية ، والأعمال الشرعية ، والتدبيرات المعادية والمعاشية ، والأخلاق الجميلة ، والمكاشفات الصورية . وبحسب القلب : ماأباح الله له من الأعمال القلبية ، والواردات الإلهية ، والعلوم اللدنية ، والمشاهدات المعنوية الكلية ... وهكذا فى سائر المراتب . والطيبات من ذلك فى كل مرتبة : ماتستلذه المدارك المختصة بتلك المرتبة ، ومطلق المباح فى كل مرتبة طيب بالنسبة إلى مباح المرتبة الدانية منه ، وأن الله تعالى يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه ، ولا يحب الشره والاعتداء فى رخصه بحيث يؤدى إلى الانتقال إلى ماهو حرام محظور بأصل الشرع ، أو بحيث يؤدى إلى صيرورة المباح حراما بفرض التجاوز عن حد الترخيص بالإكثار فيه ، كما لايحب الامتناع عن رخصه ، فمعنى الآية : « ياأيها الذين آمنوا لاتمتنعوا من الرخص ، ولا تحرموا بقسم وشبهة ، ولا بكسل ونحوه ، على أنفسكم ماتستلذه المدارك بحسب كل مرتبة وقوة مما أباحه الله لكم ، لأن الله يحب أن يرى عبده مستلذاً بما أباحه له ، كما يحب

أن يراه مستلذاً بعباداته ومناجاته ، ولا تعتدوا بالاكتفاء بمستلذات المرتبة الدانية عن مستلذات المرتبة العالية ، فإنه يحب أن يرى عبده مصراً على طلب مستلذات المرتبة العالية ، كما يحب أن يراه فى هذه الحالة معرضا عن مباحات المرتبة الدانية ، مكتفياً بضرورياتها وراجحاتها . ولا تعتدوا عما أباح الله إلى ماحظره ، وفى المباح إلى حد الحظر . والآية إشارة إلى التوسط بين التفريط والإفراط فى كل الأمور من الأفعال والطاعات والأخلاق والعقائد والسير إلى الله . فإن المطلوب من السائر إلى الله يكون واقعاً بين إفراط الجذب وتفريط السلوك ...)

ثم بعد ذلك فسر قوله تعالى « وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » بما يشبه التفسير السابق ... ثم بعد ذلك ذكر أن الآية نزلت فى على وبلال وعثمان بن مظعون ، فأما على فحلف أن لاينام بالليل ، وأما بلال فحلف أن لا يفطر بالنهار أبداً ، وأما عثمان بن مظعون فإنه حلف أن لا ينكح أبداً ، فلما علم بذلك رسول الله خرج على الناس ونادى : الصلاة جامعة ، فاجتمع الناس فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : مابال أقوام يحرمون على أنفسهم الطيبات ؟ إنى أنام الليل وأنكح وأفطر بالنهار ، فمن رغب عن سنتى فليس منى ، فقام هؤلاء فقالوا : يارسول الله ... فقد حلفنا على ذلك ، فأنزل الله آيات الحلف ... ثم استشكل المؤلف على هذه الرواية إشكالين أولهما : أن مثال هذه المعاتبات ونسبة التحريم والاعتداء والتقوى ولغو الإيمان غير مناسبة لمقام على . وثانيهما : أن علياً إما كان عالماً بأن تحريم الحلال إن كان بالاستبداد والرأى كان من البدع والضلال ، وإن كان بالنذر وشبهه كما دل عليه الخبر ، كان مرجوحاً غير مرضى لله تعالى ، ومع ذلك حرمه على نفسه ، أو كان جاهلا بذلك ، وكلا الوجهين غير لائق بمقامه ... ثم أجاب عن هذين الإشكالين بجواب كله من قبيل النظرات الصوفية فقال (والجواب الجلى لطالبى الآخرة والسالكين إلى الله ، الذين بايعوا علياً بالولاية ، وتابعوه بقدم صدق ، واستشموا نفحات نشأته حال سلوكه أن يقال : إن السالك إلى الله يتم

سلوكه باستجماعه بين نشأتى الجذب والسلوك ، بمعنى توسطة بين تفريط السلوك الصرف ، وإفراط الجذب الصرف ، فإنه إن كان فى نشأة السلوك فقد جمد طبعه ببرودة السلوك حتى يقف عن السير ، وإن كان فى نشأة الجذب فقط ، ففى بحرارة الجذب عن أفعاله وصفاته وذاته ، بحيث لا يبقى منه أثر ولا خبر ، وهو وإن كان فى روح وراحة ، لكنه ناقص كال النقص من حيث أن المطلوب منه حضوره بالعودة لدى ربه مع جنوده ، وخدمه : وأتباعه ، وحشمه ، وهو طرح الكل ، وتسارع بوحدته ، فالسالك إلى الله تكميله مربوط بأن يكون فى الجذب والسلوك منكسرا برودة سلوكه بحرارة جذبه ، فالجذب والسلوك كالليل والنهار وكالصيف والشتاء ، من حيث أنهما يربيان المواليد بتضادهما ، فهما — مع كونهما متنازعين — متآلفان متوافقان .

إذا علمت ذلك ، فاعلم أن السالك إذا وقع فى نشأة الجذب ، وشرب من شراب الشوق الزنجبيلى ، سكر وطرب ووجد ، بحيث لا يبقى فى نظره سوى الخدمة للمحبوب ، وكل مارآة منافياً للخدمة رآه ثقلا ووبالا على نفسه ومكروها لمولاه ، فيصمم فى طرحه ، ويعزم على ترك الاشتغال به ، وهو من كمال الطاعة لا أنه ترك الطاعه كما يظن ، فلا ضير أن يكون أمير المؤمنين حال سلوكه وقع فى تلك النشأة ، وحرم على نفسه كل مايشغله عن الخدمة ؛ لكمال الاهتمام بالطاعة ، ولما لم يكن تحصيل الكمال التام إلا بالجمع بين النشأتين ، أسقاه محمد صلى الله عليه وسلم من شراب السلوك ، لأنه كان مكملا مربيا له ولغيره ، ولذا قالوا : لأن يكون للسالك شيخ وإلا فيوشك أن يقع فى الورطات المهلكة ، ولا منقصة فى أمثال هذه المعاتبات على الأحباب ، بل فيها من اللطف والترغيب فى الخدمة مالا يخفى ، وعلى كان عالماً بأن الكمال لا يحصل إلا بالنشأتين ، لكنه يرى حين الجذب أن كل مايشغله عن الخدمة فهو مكروه المحبوب ، ومرجوح عنده ، فحلف على ترك المرجوح . أو يقال : إن عليا لما كان شريكا للرسول صلى الله عليه وسلم فى تكميل السلاك لقوله . « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » وكان له شأن الدلالة ، ولمحمد شأن الإرشاد ، والمرشد بنشأته النبوية

شأنه تكميل السالك بحسب نشأة السلوك ، وإن كان بنشأته الولوية وشأن الإرشاد شأنه التكميل بحسب الجذب ، والدليل بنشأته الولوية شأنه التكميل بحسب نشأة الجذب ، وإن كان بنشأته النبوية وشأن الدلالة شأنه التكميل بحسب السلوك فالدليل بولايته يقرب السالك إلى الحضور ، ويعلمه آداب الحضور ، وطريق العبودية من عدم الالتفات إلى ماسوى المعبود ، وطرح جميع العوائق من طريقه ، والمرشد بنبوته يبعده عن الحضور ، ويقربه إلى السلوك ، ويرغبه فيه ، فهما فى فعلهما كالنشأتين : متضادان متوافقان ، فأمير المؤمنين لما رأى بلالا وعثمان مستعدين لنشأة الجذب ، رغبهما إلى تلك النشأة بطرح المستلذات وترك المألوفات ، وشاركهما فى ذلك ليستكمل بذلك شوقهما ويتم جذبهما ، ولما مضى مدة ورأى الرسول أن عودهما إلى السلوك أوفق وأنفع لهما ، ردهما إلى نشأة السلوك ، وعاتبهما بألطف عتاب ، ولا يرد نقص على أمير المؤمنين . ولما قالوا بعد عتابه : قد حلفنا . . نزل « لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم »[1] وهو الذى يؤتى به للتأكيد فى الكلام كما هو عادة العوام . . . الخ[2] ،

فأنت ترى من هذين المثالين السابقين ، أن المؤلف يفيض فى الناحية الصوفية فى تفسيرة للآيات ، كما أنه لم يخل تفسيره الصوفى من التشيع لعلى وذريته بل ومن اتخاذه مخرجا يخرج به من الإشكالات التى ترد عليه .

من التفسير الفلسفى :

كذلك نجد المؤلف فى كثير من الأحيان يخلط البحوث الفلسفية بتفسيره للآيات القرآنية ، فمثلا فى أول سورة الإسراء نراه يحقق أن المعراج كان بجسدة وروحه عليه السلام ، ويرد على الفلاسفة الذين ينكرون ذلك ، ويقدم لبحه هذا بمقدمة كلها نظريات فلسفية مخلوطة ببعض خرافات منسوبة إلى الإمام على رضى الله عنه ، وذلك حيث يقول :

---

(١) فى الآية (٢٢٥) من سورة البقرة ، وفى الآية (٨٩) من سورة المائدة .

(٢) جـ ١ ص ٢٤٩ — ٢٥١ .

(العالم ليس منحصراً فى هذا العالم المحسوس المعبر عنه بعالم الطبع بسماواته وأرضيه ، بل فوقه البرزخ ، وهو عالم بين عالم الطبع وعالم المثال ، وله الحكومة على عالم الطبع والتصرف فيه أى تصرف شاء ، من الإحياء ، والإماتة ، وإيجاد المعدوم ، وإعدام الموجود ، وستر المحسوس ، وإظهار غير المحسوس بصورة المحسوس . ومنه طى الأرض ، والسير على الماء والهواء ، والدخول فى النار سالما ، وقلب الماهيات. ومنه طىء الزمان، كما ورد فى الأخبار أنه قال المعصوم لمنافق : اخسأ فصار كلبا .وقال لآخر :أنت امرأة بين الرجال فصار امرأة وأنكر آخر قلب الماهيات عند المعصوم ، فسار إلى نهر ليغتسل فدخل الماء وارتمس[1] فخرج ورأى نفسه امرأة على ساحل بحر قرب قرية منكورة ، فدخلت القرية وتزوجت وعاشت مدة وولدت لها أولاد . . . ثم خرجت لتغتسل فى البحر فدخلت الماء وارتمست فخرجت على ساحل النهر المعهود وهو رجل وإذا بثيابه موضوعة كما وضعها. فلبسها ودخل بيته وأهله غير شاعرين بغيبته لقصر الزمان وأمثال ذلك رويت عن التابعين لهم على الصدق ، وهذا من قبيل بسط الزمان إن كان وقوعه فى عالم الملك ، كما نقل أن امرأة وقع لها ذلك فأخبرت وأنكرها جماعة فأتيت بأولادها بعد ذلك من بلدة بعيدة ، مع أنه لم يمض فى بلدها قدر ساعة . أو من قبيل البسط فى الدهر من غير تصرف فى الزمان إن كان وقوعه فى الملكوت . وفوق البرزخ عالم المثال ، وله التصرف فى البرزخ والطبع . وفوقه عالم النفوس الكليات المعبر عنها بالمدبرات أمراً . وفوقه الأرواح المعبر عنها بالصافات صفا ، ويعبر عنها فى لسان الإشرافيين بارباب الأنواع وأرباب الطلسمات . وفوقها العقول المعبر عنها بالمقربين . وفوقها الكرسى . وفوقه العرش ، وهو سرير الملك المتعال ، وهما بين الوجوب والإمكان لا واجبان ولا ممكنان ، بل فوق الإمكان وتحت الوجوب . وكل من تلك العوالم له الإحاطة والتصرف والحكومة على جميع ما دونه ،

---

(١) ارتمس من الارتماس وهو الانغماس .

فإذا غلب واحد من تلك العوالم على ما دونه صار مادونه بحكمة ، وذهب عنه حكم نفسه .

ثم اعلم أن الإنسان مختصر من تلك العوالم ، وله مراتب بإزاء تلك العوالم ، وكل مرتبة عالية لها الحكومة على مادونها من غير فرق ، كما نشاهده من حكومة النفس على البدن والقوى ، لكن تلك المراتب فى أكثر الناس بالقوة ، وما بالفعل من النفس المجردة التى هى بإزاء عالم النفوس ضعيفة غاية الضعف ، بحيث لا يمكنها التصرف فى بدنها زائداً على ماجعله الله فى جبلتها ، فكيف بغير بدنها ؟ فإذا صار بعض تلك المراتب بالفعل كما فى أكثر الأنبياء والأولياء ، أو جميعها كما فى خاتم الأنبياء وصاحب الولاية الكلية ، كان لهم التصرف فى أبدانهم باى نحو شاءوا ، وفى سائر أجزاء العالم ، كما روى عن الأنبياء والأولياء من طى المكان والزمان ، والسير على الماء والهواء ، ودخول النار ، وإحياء الموتى ، وإماتة الأحياء ، وقلب الماهيات ، وغير ذلك مما لا ينكر تمامها لكثرتها ، وتواتر الأخبار بمجموعها وإن كان آحادها غير متواترة . وأما التصرف فى البدن الطبيعى بحيث يخرجه عن حكم الإمكان ويدخله فى عالم العرش الذى هو فوق الإمكان وفوق عالم العقول والملائكه المقربين ، كما روى أن جبريل تخلف عن الرسول صلى الله عليه وسلم فى المعراج ، وقال : لو دنوت أنملة لاحترقت ، مع أنه من عالم العقول المقربين ، فهو من خواص خاتم الكل فى الرسالة والنبوة والولاية ، وهو من خواص نبينا صلى الله عليه وسلم لا يشاركه فيه غيره لا نبى مرسل ولا خاتم الأولياء . ولذلك جعلوا المعراج الجسمانى بالكيفيه المخصوصة من خواصه صلى الله عليه وسلم . ولما كان المعراج بتلك الكيفية أمراً لا يتصور أمر فوقه من الممكن ، وكان لا يتيسر إلا إذا غلب العالم الذى فوق الإمكان على البدن الطبيعى ، ولا تتيسر تلك الغلبة بسهولة ولكل أحد وفى كل زمان ، قالوا : إن المعراج للنبى صلى الله عليه وسلم كان مرتين ؛ مع أنه نسب إلى بعض العرفاء أنه قال : إنى أعرج كل ليلة سبعين مرة ، والمعراج بالروح أمر يقع لكثير من الرياضيين ، بل ورد أن الصلاة معراج المؤمن .

إذا تقرر ذلك نقول : إنه عرج ببدنه الطبيعى وعليه عباءة ونملاه إلى بيت المقدس ، ومنه إلى السموات ، ومنها إلى الملكوت ، ومنها إلى الجبروت ، ومنها إلى العرش الذى هو فوق الإمكان ، وفى هذا السير تخلف جبريل عنه صلى الله عليه وسلم ؛ لأنه كان من عالم الإمكان ، ولم يكن له طريق إلى ما فوق الإمكان؛ لأن الملائكة كل له مقام معلوم لا يتجاوزه، بخلاف الإنسان. ولم يكن منه ذلك المعراج إلا مرتين كما فى الأخبار ، ولا يلزم منه خرق السماوات ؛ لارتفاع حكم الملك عن بدنه بغلبة الملكوت - ولا استغراب فى عروج البدن الطبيعى إلى الملكوت والجبروت - ولسقوط حكم الملك بل حل الإمكان عنه مع بقاء عينه ، ولا غرو فى كثرة وقائعه فى المعراج ؛ فإنه من بسط الدهر مع قصر الزمان كما قال : «وإن يوماً عند ربك كألف سنة مما تعدون[١]»وقال أيضاً: «فى يوم كان مقداره خمسين ألف سنة[٢]» فقدر ساعة من الدهر بإزاء ساعة من الزمان تكون كألف ساعة من الزمان أو خمسين ألف ساعة [٣] ...اه).

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١) من سورة الحجر: «وما ننزله إلا بقدر معلوم» يقول ما نصه : (اعلم أنه قد يطلق الشىء ويراد به ما يساوق الموجود ، فيشمل الحق الأول تعالى شأنه . وقد يطلق ويراد به المشىء وجوده، فلا يشمل الحق الأول ، ولا حضره الأسماء ولا حضرة الفعل الذى هو مبدأ إضافاته ، ويشمل الممكنات كلها من حضرة العقول المعبر عنها بالأقلام العالية والملائكة المقربين،وحضرة الأرواح المعبر عنها بأرباب الأنواع والصافات صفا، وحضرة النفوس الكلية المعبر عنها بالأرواح الكلية المحفوظة والمدبرات أمرا، وحضرة النفوس الجزئية المعبر عنها بألواح المحو والإثبات وبعالم المثال باعتبارين ، ويشمل موجودات عالم الطبع تماما ، وكل ما فى تلك الحضرات له حقيقة فى حضرة الأسماء،وحقيقة فى حضرة الفعل والإضافة الإلهية الإشراقية.

---

(١) فى الآية (٤٧) من سورة الحج .

(٢) فى الآية (٤) من سورة المعارج .

(٣) جـ ١ ص ٤١٩ .

وكل ما فى حضرة الفعل له حقيقة أيضا فى حضرة الأسماء ،وكلما فى حضرة الأرواح له حقيقة فى حضرة الأقلام ، وحقيقة فى حضرة الفعل ، وحقيقة فى حضرة الأسماء ، وهكذا حضرة النفوس الكلية وما فيها ، وحضرة النفوس الجزئية وما فيها ، وعالم الطبع وما فيه . وبعبارة أخرى : كل دان له صورة بالاستقلال فى العالى ، وصورة بالاستقلال فى عالى العالى ، وصورة بتبع العالى فى عالى العالى ، فلكل شىء من الممكنات حقائق فى حضرة الأسماء استقلالا وتبعاً ، وهكذا فى حضرة الفعل ، وهكذا فى حضرة الأقلام إلى عالم المثال ، وكل تلك الحضرات من حيث أنها عوالم مجردة عن المادة وأغشيتها ، تسمى عند الله ، ولدن الله ،لحضورها فى محضره ،ولما كانت تلك الحقائق محفوظة عن التغير والتبدل كالأشياء النفيسة المخزونة المحفوظة ، سماها تعالى بالخزائن،فكل ما فى عالم الملك له حقيقة فى عالم المثال ، ينزله - تعالى شأنه - من عالم المثال إلى عالم الملك بقدر استعداد المادة لقبوله وحين استعدادها ، وهكذا من النفوس الكلية إلى عالم المثال ، وهكذا الأمر فى العالى والأعلى إلى حضرة الأسماء . ولما كان موجودات عالم الملك متجددة بالتجدد الذاتى : بمعنى ؛ أنها كل آن فانية عن ذواتها ، وموجودة بموجدها كما حقق فى محله ، فما من شىء مما فى عالم الملك إلا ويفنى آنا فآنا ،وينزله تعالى من خزائنه آنا فآنا،فلذلك قال:«وما ننزله إلا بقدر معلوم [1] ») اهـ .

آل البيت والأمم السابقة :

ومما نلاحظه على المؤلف أنه يذكر لنا من الأخبار ما يدل على أن محمداً صلى الله عليه وسلم وآل بيته كانوا معروفين عند الأمم السابقة ، وكان لهم أشياع وأتباع يوالونهم ، ويتوسلون بهم، وينالهم الخير والبركة بسبب حبهم.

وهذه الرويات لا نعتقد إلا أنها من قبيل الخرافات التى تسلطت على عقول أولئك القوم ، ومن هذه الروايات — مثلا — ما ذكره المؤلف فى قصة

(١) جـ ١ ص ٤٠٢ — ٤٠٣ .

قتيل بنى إسرائيل المذكورة فى قوله تعالى فى الآية (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . . الآيات» إلى آخر القصة من أن موسى جمع أماثل القبيلة التى وجد القتيل فيها، وألزمهم أن يحلف خمسون منهم بالله القوى الشديد إله بنى إسرائيل بفضل محمد وآله الطيبين على البرايا أجمعين ماقتلناه ولا علمنا له قاتلا[1] .

وبعد ذلك بقليل يذكر أنهم طلبوا هذه البقرة المذكورة بأوصافها فى القرآن فلم يجدوها إلا عند شاب من بنى إسرائيل أراه الله فى منامه محمداً وعلياً وطيبى ذريتهما فقالا : إنك كنت لنا محباً مفضلا ، ونحن نريد أن نسوق إليك بعض جزائك فى الدنيا، فإذا راموا شراء بقرتك فلا تبعها إلا بأمر أمك، فإن الله يلقنها مايغنيك وعقبك، وجاء القوم يطلبون بقرته، فقالوا : بكم تبيع بقرتك هذه؟ قال: بدينارين، والخيار لأمى قالوا : رضينا بدينار، فسألها، فقالت: بأربعة، فأخبرهم، فقالوا : نعطيك دينارين ، فأخبر أمه ، فقالت : ثمانية . . . فمازالوا يطلبون على النصف مما تقول أمه، ويرجع إلى أمه فتضعف الثمن حتى بلغ ثمنها ملء مسك ثور أكبر مايكون دنانير ، فأوجب لهم البيع فذبحوها وما كادوا يفعلون . [2] اهـ.

وبعد ذلك بقليل يقول : (وفى تفسير الإمام أن أصحاب البقرة ضجوا إلى موسى وقالوا : افتقرت القبيلة ، وانسلخنا بلجاجنا عن قليلنا وكثيرنا، فأرشدهم موسى إلى التوسل بنبينا صلى الله عليه وسلم ، فأوحى الله إليه : ليذهب رؤساهم إلى خربة بنى فلان ويكشفوا عن موضع كذا ويستخرجوا ماهناك، فإنه عشرة آلاف ألف دينار، وليردوا على كل من دفع من ثمن هذه البقرة مادفع، لتعود أحوالهم على ما كانت ، ثم ليتقاسموا بعد ذلك مايفضل وهو خمسة آلاف ألف دينار على قدر مادفع كل واحد منهم ، لتتضاعف أموالهم جزاء على توسلهم بمحمد وآله ، واعتقادهم لتفضيلهم[3]) اهـ :

---

(١) جـ ١ ص ٥٧   (٢) جـ ١ ص ٥٨ .

(٣) جـ ١ ص ٥٨ .

كما يروى أنهم توسلوا إلى الله تعالى بالنبى محمد وآله عند ضربهم للقتيل ببعض البقرة، لأجل أن يحييه لهم فاستجاب. وأن القتيل بعد حياته توسل إلى الله بمحمد وآله أن يبقيه فى الدنيا متمتعا بابنة عمه، ويجزى عنه أعداءه، ويرزقه رزقا كثيرا طيبا، فوهب له سبعين سنة زيادة على السنين التى عاشها قبل ذلك، وعاش فى الدنيا صحيحة حواسه، قوية شهواته، متمتعا بحلال الدنيا، وعاش معها لم يفارقها ولم تفارقه، وماتا جميعا معا، وصارا إلى الجنة وكانا فيها زوجين ناعمين)[1] اه.

قصص القرآن :

وإنا لنجد المؤلف يقرر فى غير موضع من كتابه : أن القصص القرآنى وما ورد فى شروحه من الروايات على اختلافها وتضاربها، ليس المقصود منه ظاهره الذى يتبادر إلى الذهن، بل هى من قبيل المرموزات التى رمزوا بها لأشياء يعلمونها ويريدونها، كما يقرر أن من يريد حملها على الظاهر فلابد وأن يتحير فيها، وليس يمكن له أن يصل إلى حقيقتها، والمقصود منها بمجرد قوته البشرية :فعند ما تكلم على قصة آدم فى أول البقرة وجدناه يقول :(ولما كان قصة آدم وخلقته، وأمر الملائكة بسجدته، وإباء إبليس عن السجود، وهبوطه من الجنة، وبكائه فى فراق الجنة وفراق حواء، وخلقته حواء من ضلع الجنب الأيسر، وغروره بقول الشيطان وحواء، وكثرة نسله، وحمل حواء فى كل بطن ذكرا وأنثى، وتزويج كل بطن لذكر البطن الآخر من مرموزات الأوائل، وقد كثر ذكره فى كتب السلف خصوصا كتب اليهود وتواريخهم، ووردت أخبارنا مختلفة فى هذا الباب اختلافا كثيرا، مرموزا بها إلى مارمزوه، ومن أراد أن يحملها على ظاهرها تحير فيها، ومن رام أن يدرك المقصود بقوته البشرية والمدارك الشيطانية منها طرد عنها، ولم يدرك منها إلا خلاف مدلولها)[2] اه.

---

(١) ج ١ ص ٥٨

(٢) ج ١ ص ٤٢

وبعد أن يقرر المؤلف هذا نراه يكشف لنا عن تلك الأمور المرموز إليها فى القصة ، لابقوته البشرية ؛ فإنها عاجزة عن إدراكها كما يقول ، بل بقوته الروحية التى تستلهم المعارف من الله ، وذلك حيث يقول فى أثناء تفسيره للقصة نفسها :(اعلم أن قصة خلق آدم وحواء من الطين ومن ضلعه الأيسر ، وأمر الملائكة بالسجود لآدم ، وإباء إبليس عن السجدة ، وإسكان آدم وحواء الجنة ، ونهيهما عن أكل شجرة من أشجارها ، ووسوسة إبليس لهما ، وأكلهما من الشجرة المنهية ، وهبوطهما ، من المرموزات المذكورة فى كتب الأمم السالفة وتواريخهم كما ذكرنا سابقا . فالمراد بآدم فى العالم الصغير : اللطيفة العاقلة الآدمية ، الخليفة على الملائكة الأرضيين ، وعلى الجنة والشياطين المطرودين عن وجه أرض النفس والطبع ، المسجودة للملائكة ، المخلوقة من الطين ، الساكنة فى جنة النفس الإنسانية ، وهى أعلا من مقام النفس الحيوانية ، المخلوق من ضلع جنبها الأيسر الذى يلى النفس الحيوانية زوجتها المسماة بحواء ، لكدورة لونها بقربها من النفس الحيوانية . والمراد بالشجرة المنهية : مرتبة النفس الإنسانية التى هى جامعة لمقام الحيوانية والمرتبة الآدمية . والمراد بالحية وإختفاء إبليس بين لحييها : القوة الواهمة ؛ فإنها لكونها مظهراً لإبليس ، تسمى بإبليس فى العالم الصغير ، ووسوسته تزيينها مالا حقيقة له للجنب الأيسر من آدم المعبر عنه بحواء . وهبوط آدم وحواء عبارة عن تنزيلهما إلى مقام الحيوانية . وهبوط الحية وذريتهما : عبارة عن تنزلها عن مقام التبعية لآدم ؛ فإن إبليس لما كان الواهمة أحد مظاهره كان رفعتها رفعته ، وشرافتها باستخدام آدم لها شرافته ، وهبوط الواهمة كان هبوطا له . وإذا أريد بالشجرة : النفس الإنسانية ارتفع الاختلاف من الأخبار ؛ فإن النفس الإنسانية شجرة لها أنواع الثمار والحبوب ، وأصناف الأوصاف والخصال ؛ لأن الحبوب والثمار وإن لم تكن بوجوداتها العينية الدانية الموجودة فيها لكن الكل بحقائقها موجودة فيها ، فتعيين تلك الشجرة بشىء من الحبوب والثمار ، والعلوم والأصناف بيان لبعض شئونها . روى فى تفسير الإمام : أنها شجرة علم محمد وآل محمد الذين آثرهم الله تعالى دون سائر خلقه ، فقال الله تعالى : « لا تقربا هذه الشجرة .. شجرة العلم ؛

فإنها لمحمد وآله دون غيرهم ، ولا يتناول منها بأمر الله إلا هم ، ومنها ما كان يتناوله النبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى ، وفاطمة ، والحسن ، والحسين بعد إطعامهم المسكين ، واليتيم ، والأسير ، حتى لم يحسوا بجوع ، ولا عطش ولا تعب ، ولا نصب وهى شجرة تميزت من بين سائر الأشجار بأن كلا منها إنما يحمل نوعا من الثمار ، وكانت هذه الشجرة وجنسها تحمل البر ، والعنب ، والتين ، والعناب ، وسائر أنواع الثمار والفواكه والأطعمة ، فلذلك اختلف الحاكون .. فقال بعضهم برة ، وقال آخرون : هى الشجرة التى من تناول منها بإذن الله ألهم علم الأولين والآخرين من غير تعلم ، ومن تناول بغير إذن الله خاب مراده وعصى ربه . (أقول) آخر الحديث يدل على ماقالته الصوفية من أن السالك مالم يتم سلوكه ، ولم ينته إلى مقام الفناء ، ولم يرجع إلى الصحو بعد المحو باذن الله ، لم يجز له الاشتغال بالكثرات ومقتضيات النفس زائداً على قدر الضرورة . وشجرة علم محمد وآل محمد إشارة إلى مقام النفس الجامع لكمالات الكثرة والواحدة [1]) اه .

وفى سورة البقرة أيضا عندما تكلم عن قصة هاروت وماروت يقول : (اعلم أن أكثر قصص سليمان كان من مرموزات الأوائل ، وأخذها المتأخرون بطريق الأسمار ، وأخذوا منها ظاهرها الذى لايليق بشأن الأنبياء ، وورد عن المعصومين تقرير ما أخذوه أسماراً نظراً إلى مارمزها الأقدمون ، وأمثال هذه ورد عنهم تكذيبها نظراً إلى ظاهر ماأخذها العوام ، وتصديقها نظراً إلى ما رمزوا إليه ...[2]) اه .

وفى أول سورة النساء عند قوله تعالى : « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ... الآية » يقول : (لما كان تلك الحكاية وأمثالها من مرموزات الأوائل من الأنبياء والأولياء والحكماء التابعين لهم ، وحملها العوام من الناس على ظاهرها ، اختلفت الأخبار فى تصديقها وتقريرها وتكذيبها وتوهينها فإن فى كيفية خلقه آدم وتناسلهما وتناكحهما وتناكح أولادهما ،

---

(١) ج ١ ص ٤٥ – ٤٦   (٢) ج ١ ص ٦٧ .

وكذا فى قصة هاروت وماروت . وقصة داود ، وغير ذلك ، اختلافا كثيرا فى الأخبار ، واضطرابا شديدا ، بحيث يورث التحير والاضطرابات لمن لا خبرة له ، حتى يكاد يخرج من الدين ، ولكن الراسخين فى العلم يعلمون أن كلا من معادن النبوة ومحال الوحى صدر ، ولا اختلاف فيها ولا اضطراب ، جعلنا الله منهم ، والله ولى التوفيق [1] اهـ .

وفى سورة (ص) عند قوله تعالى « ولقد فتنا سليمان . . الآيات من (٣٤) إلى تمام القصة » يقول بعد ماذكر قصة الفتنة : (وأمثال هذه ، وأمثال روايات سلب ملك سليمان ، وجلوس الشيطان على كرسيه ، وكون ملكه منوطا بخاتم ، ليس إلا من الرموز التى رمزها الأقدمون ، ثم أخذها العامة بصورها الظاهرة ، ومفاهيمها العامية ، ونسبوا إلى الأنبياء مالا يليق أن ينسب إلى مؤمن ، فكيف بكامل أو نبى ؟) [2] اهـ .

الإمامة :

والمؤلف يقرر فى تفسيره إمامة على رضى الله عنه ، وخلافته للنبى صلى الله عليه وسلم بدون فصل ، فمثلا فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » نجده يؤكد أن الآية نازلة فى حق على رضى الله عنه ، وأن المراد من الولاية ولاية التصرف لا ولاية المعاشرة ، ويرد على من يخالف ذلك بما يظهر له من الدليل ، كما يبين السر الذى من أجله ذكر على بوصفه دون اسمه . وذلك حيث يقول : (قد ورد من طريق العامة والخاصة أن الولاية نازلة فى على حين تصدق فى المسجد فى ركوع الصلاة بخاتمة أو بحلته التى كان قيمتها ألف دينار . ومفسر والعامة لا ينكرون الأخبار فى كونها نازلة فى أمير المؤمنين وقد نقلوا بطرق عديدة من رواتهم أنها نزلت فى على ، ومع ذلك يقولون فى تفسيرها : إن الاية نزلت بعد النهى عن اتخاذ أهل الكتاب أولياء ،

---

(١) جـ١ ص ١٩٠ . (٢) جـ ٢ ص ١٧٦

ولاشك أن المراد بالأولياء هناك أولياء المعاشرة ، بقرينة المقابلة ، وبقرينة جمع المؤمنين ، ولو كان المراد أمير المؤمنين وبالولاية ولاية التصرف لصرح باسمه ، أو لقال : والذى آمن بالإفراد ، وهم غافلون عن أنه لو صرح باسمه ، أو أفرد المؤمن — مع الاتفاق فى أنها نازلة فى أمير المؤمنين — لأسقطوه تمويها على عابدى عجلهم ، فنقول : نسبة الولاية أولا إلى الله ، ثم إلى رسوله صلى الله عليه وسلم وآله ، ثم إلى الذين آمنوا ، تدل على أن المراد بالولاية ولاية التصرف التى فى قوله تعالى « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم »(١) لأن ولاية الله ليست ولاية المعاشرة ولا ولاية الرسول ؛ بقرينة العطف ، وبما هو معلوم من الخارج ، فكذلك ولاية الذين آمنوا بقرينة العطف ، وبقرينة عدم تكرار الولى ، فإن المراد أن الولاية ههنا أمر واحد مترتب فى الظهور ، فإن ولاية الرسول ليست شيئا سوى ولاية الله ، وولاية الله تتحقق بولاية الرسول ، فهكذا ولاية الذين آمنوا ، فإنها ولاية الرسول صلى الله عليه وآله تظهر فى ولاية الذين آمنوا على ما قاله الشيعة ، ولو كان المراد ولاية المعاشرة كان أو لياؤكم بلفظ الجمع أولى ، وتقييد الذين آمنوا بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الركوع يدل على أنها ليست ولاية المعاشرة ، وإلا لكان جملة المؤمنين فيها سواء ، وليس كل المؤمنين متصفين بالصفات المذكورة ، على أنه لاخلاف معتدا فى أنها نزلت فى على وصورة الأوصاف خاصة به ، وقوله : « الذين يقيمون الصلاة » بالمضارع إشارة إلى أن هذا الوصف مستمر لهم ، يعنى حالهم استمرار إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة فى حال الخضوع لله ، لا فى حال بهجة النفس ، لأنهم « يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون »(٢) بخلاف الفاعل من قبل النفس فإن شأنه الإرتضاء بفعله ، وتوقع المدح من الغير على فعله ، لأن كل حزب من أحزاب النفس بما لديهم فرحون ، ويحبون أن يحمدوا على مالم يفعلوا ، فضلا عما فعلوا . واستمرار الصفات بحسب المعنى : لعلى وأولاده المعصومين بشهادة أعدائهم ، وبحسب الصورة :

---

(١) الآية (٦) من سورة الاحزاب (٢) فى الآية (٦٠) من سورة المؤمنون

ما كان أحد مصداقها إلا على نقلا عن طريق العامة والخاصة . ووقع صدور الزكاة فى الركوع من كل الأئمة كما ورد عن طريق الخاصة . وفى نسبة الولاية إلى الله دون المخاطب والإتيان بأداة الحصر دلالة تامة على أن المراد بها ولاية التصرف ، فإنها ثابتة لله ذاتا ولرسوله ولخلفاء رسوله باعتبار كونهما مظهرين لله ، وليس لأحد شركة فيها ، وليس المراد بها ولاية المعاشرة التى تكون بالمواضعة والاتخاذ ، وإلا لم يكن للحصر وجه ، وكان اقتضاء المقابلة أن يقول : بل أنتم أولياء الله الخ ، أو بل اتخذوا الله ورسوله والمؤمنين أولياء ، ولأن المراد بها ولاية التصرف التى كانت بالذات لله قال فى عكسه « ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا » إشعاراً بأن الولاية السابقة هى ولاية التصرف وليست لغير الله إلا قبولها ، ومن قبلها منهم باستعداده لظهورها فيه صار مرتبطا بالله وخلفائه ، ومن صار مرتبطا بالله صار من حزب الله ، ومن صار من حزب الله كان غالبا « فإن حزب الله هم الغالبون » ولو كان المراد بها المعاشرة لكان الأولى أن يقول : ومن يتخذ الله ، أو ومن صار وليا لله . والحاصل: أن فى لفظ الآية دلالات واضحة على أن المراد بالولاية ولاية التصرف ، وأنها بعد الرسول ليست لجملة المؤمنين، بل لمن اتصف بصفات خاصة كائنا من كان، متعدداً أو منفردا، سواء قلنا نزلت فى على أو لم نقل ، لكن باتفاق الفريقين لم توجد الأوصاف إلا فيه ، ونزلت الآية فى حقه ، والمراد بالذين آمنوا ههنا ، هم الموصوفون فى الآية السابقة ، لما تقرر عندهم أن المعرفة إذا تكررت كانت عين الأولى)[١] .

وفى سورة المائدة أيضا عند قوله تعالى فى الآية (٦٧) « ياأيها الرسول بلغ ماأنزل إليك من ربك . . الآية » نجده يدعى — كغيره من الإمامية — أن القراءة الصحيحة كانت « بلغ ماأنزل إليك من ربك فى على » ويحمل التبليغ المأمور به النبى على ذلك فحسب ، ويمنع إرادة العموم ، ويقيم الأدلة

---

(١) جـ ١ ص ١٢٤

على ذلك ردا على من يدعى العموم ، وغرضه من ذلك كله إثبات إمامه على رضى الله عنه بنص القرآن الكريم)[1] اه .

الرجعة :

والمؤلف يتأثر بعقيدة الرجعة ، فلهذا نراه عند مافسر قوله تعالى فى الآية (٥٦) من سورة البقرة « . . ثم بعثنا كم من بعد موتكم لعلكم تشكرون » يستدل بهذا البعث على جواز الرجعة فيقول : (وهذه الآية تدل على جواز الرجعة كما ورد الإخبار عنها وصارت كالضرورى فى هذه الأمة . وقد احتج أمير المؤمنين عليه السلام بها على ابن الكواء فى إنكاره الرجعة) اه .

تحريف القرآن :

ولما كان المؤلف ممن يقولون بوقوع التحريف والتبديل فى القرآن ، فإنا نجده عند مايصطدم بقوله تعالى فى الآية (٩) من سورة الحجر « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » يحاول أن يتخلص من هذا النص الذى يجبهه فيقول: (ولا ينافى حفظه تعالى للذكر بحسب حقيقة التحريف فى صورة تدوينه ، فإن التحريف إن وقع وقع فى الصورة المماثلة له كما قال : « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله » وكما قال : « يلوون ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله ») اه .

---

(١) ج ١ ص ٢٤٣ – ٢٤٧ وراجع ماكتبه على قوله تعالى « ياأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ج ١ ص ٢٠٦ – ٢٠٨ .

(٢) ج ١ ص ٥٤ .

(٣) فى الآية (٨٩) من سورة البقرة .

(٤) فى الآية (٨٧) من سورة آل عمران : وفى الأصل تحريف وحذف وخلط بين الآيتين .

(٥) ج ١ ص ٤٠١ — ٤٠٢ .

موقف المؤلف من الصحابة :

لم نلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا مايدل صراحة على أنه يكفر أحداً من الصحابة ، كما لاحظنا على ملامحسن فى تفسيره ، غاية الأمر أننا نأخذ عليه أنه أحيانا يقف من الآيات التى وردت فى شأن بعض الصحابة وما لهم من الفضل موقفا يراد منه سلب هذا الفضل عنهم أو تقليل أهميته ، وأحيانا ينسب إلى بعض الصحابة مايكاد يكون تصريحا منه بفسقهم أو كفرهم .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٤) من سورة آل عمران « ...ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين » نراه يصرف لفظ الشاكرين عن عمومه ويريد منه خصوص على ونفر معه فيقول:(والمراد بالشاكرين هنا : على ونفر يسير بقوا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حين انهزم المسلمون) وهنا يروى رواية عليها دليل الوضع وسمته فيقول :

(روى عن الصادق : أنه لما انهزم المسلمون يوم أحد عن النبى صلى الله عليه وسلم انصرف إليها بوجهه وهو يقول : أنا محمد رسول الله ، لم أقتل ولم أمت ، فالتفت إليه فلان وفلان فقالا : الآن يسخر بنا أيضا وقد هزمنا ، وبقى معه على وأبو دجانة رحمه الله ، فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يا أبا دجانة انصرف وأنت فى حل من بيعتك ، فأما على فهو أنا ، وأنا هو . فتحول وجلس بين يدى النبى وبكى وقال : لا والله ، ورفع رأسه إلى السماء وقال : لا والله ، لا جعلت نفسى فى حل من بيعتك ، إنى بايعتك فإلى من أنصرف يارسول الله ؟ إلى زوجة تموت ؟ أو ولد يموت ؟ أو دار تخرب ومال يفنى وأجل قد اقترب ؟ فرق له النبى صلى الله عليه وسلم ، فلم يزل يقاتل حتى قتل ، فجاء به على إلى النبى فقال يارسول الله .. أوفيت ببيعتى ؟ فقال: نعم ،وقال له النبى خيرا . وكان الناس يحملون على النبى صلى الله عليه وسلم الميمنة فيكشفهم على ، فإذا كشفهم أقبلت الميسرة إلى النبى فلم يزل كذلك حتى تقطع سيفه بثلاث قطع ، فجاء إلى النبى فطرحه بين يديه وقال : سيفى قد تقطع ، فيومئذ أعطاه النبى ذا الفقار ، ولما رأى النبى صلى الله عليه وسلم اختلاج ساقيه

من كثرة القتال ، رفع رأسه إلى السماء وهو يبكى وقال : يارب وعدتنى أن تظهر دينك وإن شئت لم يعيك ، فأقبل على إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله . أسمع دويا شديداً ، وأسمع : أقدم يا حيزوم ، وما أهم أضرب أحداً إلا سقط ميتا قبل أن أضربه ، فقال : هذا جبريل وميكائيل وإسرافيل والملائكة ، ثم جاء جبريل فوقف إلى جنب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يامحمد . . . إن هذه لهى المواساة ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : إن عليا منى وأنا منه ، فقال جبريل : وأنا منكم . . الخ الحديث . ونزل « وسنجزى الشاكرين »(١)) اهـ .

ومثلا نجد أن المؤلف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤) وما بعدها إلى آخر سورة الليل « فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى * وسيجنبها الأتقى * الذى يؤتى ماله يتزكى * وما لأحد عنده من نعمة تجزى * إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى * ولسوف يرضى » يصعب عليه أن يعترف اعترافا جازما بأن الأتقى مراد به الصديق رضى الله عنه كما يقول المفسرون من أهل السنة ، كما نراه حريصاً على أن يكون على هو أولى الناس بهذا الشرف، وهذا التنويه الإلهى، فلهذا نراه يقول ما نصه :(إن كانت الآيات نزلت فى رجل خاص فالمعنى عام ، والأصل فيمن أعطى واتقى: على ، وفيمن بخل واستغنى هو الثانى : وقيل المراد بمن أعطى : أبو بكر حيث اشترى بلالا فى جماعة من المشركين وكانوا يؤذون فأعتقه ، والمراد بالأشقى : أبو جهل وأمية ابن خلف(٢)) اهـ .

وفى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (١١) « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم . . . الآية » يقول : (قد نقل فى تفاسير الخاصة والعامة أن الآيات نزلت فى عائشة)، ثم يروى السبب المعروف لنا .. ثم يقول: (ونقل عن الخاصة أنها نزلت فى مارية القبطية وما رمتها به عائشة . روى عن الباقر أنه قال :

---

(١) جـ ١ ص ١٦٦ .　　(٢) ص ٣١٦ .

لما هلك إبراهيم بن رسول الله صلى الله عليه وسلم حزن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حزناً شديداً ، فقالت له عائشة : ما الذي يحزنك عليه ؟ فما هو إلا ابن جريج ، فبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً وأمره بقتله ، فذهب علي ومعه السيف ، وكان جريج القبطي في حائط ، فضرب علي باب البستان ، فأقبل إليه جريج ليفتح له الباب ، فلما رأى علياً عرف في وجهه الغضب، فأدبر راجعاً ولم يفتح باب البستان ، فوثب علي على الحائط ، ونزل إلى البستان واتبعه ، وولى جريج مدبراً ، فلما خشي أن يرهقه صعد في نخلة وصعد علي في أثره ، فلما دنى منه رمى بنفسه من فوق النخلة فبدت عورته ، فإذا ليس له ما للرجال، ولا له ما للنساء ، فانصرف علي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يارسول الله إذا بعثتني في أمر أكون فيه كالمسمار المحمي في الوبر أمضي على ذلك أم أتثبت ؟ قال : لا بل تتثبت ، قال : والذي بعثك بالحق ما له ما للرجال وماله ما للنساء ، فقال : الحمد لله الذي صرف عنا السوء أهل البيت)[1] اهـ .

وفي سورة التحريم عند تفسيره لقوله تعالى في أولها : « ياأيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك . . . الآيات » إلى آخر القصة . نراه يذكر سبب نزولها فيقول : (قال القمي وغيره : سبب نزول الآيات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في بيت عائشة أو في بيت حفصة ، فتناول رسول الله صلى الله عليه وسلم مارية ، فعلمت حفصة بذلك فغضبت ، وأقبلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : يا رسول الله في يومي ؟ وفي داري ؟ وعلى فراشي ؟ فاستحي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : كفى ، فقد حرمت مارية على نفسي ، وأنا أفضي إليك سرا إن أنت أخبرت به فعليك لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، فقالت : نعم . . . ماهو؟ فقال : إن أبا بكر يلي الخلافة بعدي ، ثم بعده أبوك ، فقالت : من أنبأك هذا ؟ قال . نبأني العليم الخبير ، فأخبرت حفصة به عائشة من يومها ذلك ، وأخبرت عائشة أبا بكر . فجاء أبو بكر إلى عمر فقال له : إن عائشة أخبرتني بشيء عن حفصة ولا أثق بقولها ، فاسأل

(١) ج ٢ ص ٦٦

أنت حفصة ، فجاء عمر إلى حفصة فقال : ما هذا الذى أخبرت عنك عائشة ؟ فأنكرت ذلك وقالت : ماقلت لها من ذلك شيئاً ، فقال لها عمر : إن هذا حق فأخبرينا حتى نتقدم فيه ، فقالت : نعم ..: قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجتمعوا أربعة على أن يسموا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم بهذه السورة «وأظهره الله عليه» يعنى أظهره الله على ماأخبرت به وما هموا من قتله و «عرف بعضه» أى خبرها وقال : لم أخبرت بما أخبرتك ؟ «وأعرض عن بعض» يعنى لم يخبرهم بما يعلمه مما هموا به من قتله) اهـ (١)

عتاب النبى صلى الله عليه وسلم :

ويرى المؤلف ـ كغيره من الشيعة ـ أن ماورد من الآيات مشتملا على عتاب النبى صلى الله عليه وسلم ؛ أوعلى التهديد والوعيد للنبى صلى الله عليه وسلم على فرض وقوع المعصية منه إنما هو من قبيل (إياك أعنى واسمعى ياجارة) والذى دفعه إلى ذلك ، هو ارتفاعه بمقام النبوة عن أن يوجه إليه عتاب من الله ، أو لوم وتهديد على فرض صدور المعصية .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٧٤ ؛ ٧٥) من سورة الإسراء «ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا * إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيراً» . نجده يقول : (.. وقد ورد فى الأخبار أن هذه الآية من قبيل إياك أعنى واسمعى ياجارة وورد أنها من فرية الملحدين ، ولو كان الخطاب له صلى الله عليه وسلم من غير كونه عن طريق إياك أعنى واسمعى ياجارة ، ولم تكن فرية لم يكن فيها ازدراء به صلى الله عليه وسلم بل يكون صدر الآية ازدراء بالملحدين ، لإشعاره بأنهم بالغوا فى فتنته ، يعنى أنهم ما أهملوا شيئا مما يفتن به ، ولو كان المفتون غيرك ولم يكن التثبيت

---

(١) جـ ٢ ص ٣٧٨

من الله لفتن ، وذيلها ببيان امتنانه عليه بأن ثبته فى مثل هذا المقام)[١] اهـ .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الكهف « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى يريدون وجهه . . الآية) يقول مانصه : (وهذا على إياك أعنى راسمعى ياجارة)[٢] اهـ .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة عبس « عبس وتولى * أن جاءه الأعمى . . . الآيات إلى قوله « فأنت عنه تلهى » يقول مانصه : (وقد استبعد بعض العلماء كون الآيات فى رسول الله ، لبعد مقامه عن العبوس والتولى عن الأعمى ، وعلو مرتبته عن أن يصير معاتبا بمثل هذا العتاب . (أقول) لو كانت الآيات فيه والعتاب له لم يكن فيه نقص لشأنه ، ولم يكن منافيا لما قاله تعالى فى حقه من قوله : (وإنك لعلى خلق عظيم[٣]) فإن إقباله وإدباره ، وعبوسه ، واستبشاره ، كان لله ، فإن عبوسه إن كان لمنع الأعمى عن نشر دين الله ، وإسماع كلماته لأعداء الله وأعداء دينه وتقريبهم إلى دينه ، لم يكن فيه نقص فيه وفى خلقه . وأما أمثال العتاب له صلى الله عليه وسلم فإنها تدل على تفخيمه والاعتداد به ، فإن كلها كانت بإياك أعنى واسمعى ياجارة ، فالخطاب والعتاب يكون لغيره لا له ، وكذا نسبة الله زرية عيب العبوس والقول له يكون متوجها إلى غيره فى الحقيقة) اهـ .

الناحية الفقهية فى هذا التفسير :

أما الناحية الفقهية فى هذا التفسير : فإنها تظهر فيه بمظهر التأثر بما لفقهاء الشيعة من الاجتهادات التى يخالفون فيها من عداهم ، غير أن المؤلف يطوى الكلام طيا ، فلا يتعرض لتفصيل المسائل الجزئية ، ولا يشغل نفسه بكثرة

---

(١) جـ ١ ص ٤٢٩ . (٢) جـ ١ ص ٤٢٧

(٣) الآية (٤) من سورة القلم

الأدلة والبراهين، ولا بالدفاع عن مذهبه ورد مذهب مخالفيه، كما يفعل الطبرسى مثلا :

نكاح الكتابيات :

فمثلا عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سوره المائدة (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ... الآية) يقول مانصه : (قد اختلفت الأخبار والأقوال فى نكاح النساء من أهل الكتاب، وكذا فى أن هذه الآية منسوخة بآية حرمة نكاح المشركات، وحرمة الأخذ بعصم الكوافر، أو ناسخة، وكذا فى الدوام والتمتع بهن . وقول النبى صلى الله عليه وآله : إن سورة المائدة آخر القرآن نزولا، فأحلوا حلالها وحرموا حرامها، ينفى كونها منسوخة)[1] اه .

المتعة :

وعند ما فسر قوله تعالى فى الآية (٢٤ من سورة النساء) « فما استمتعتم به منهن فآتوهن أجورهن فريضة ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به من بعد الفريضة» نجده يقول : (وفى لفظ الاستمتاع، وذكر الأجور، وذكر الأجل - على قراءة إلى أجل - دلالة واضحة على تحليل المتعة . . (ولا جناح عليكم فيما تراضيتم به) من إعطاء الزيادة على الفريضة أو إسقاطهن شيئا من الفريضة (من بعد الفريضة) وفيه إشعار بكون الأجر من أركان عقد التمتع كما عليه من قال به . وعن الباقر : لا بأس بأن تزيدها وتزيدك إذا انقطع الأجل فيما بينكما، تقول : استحللتك بأجر آخر برضى منها ولا تحل لغيرك حتى تنقضى عدتها ... وعدتها حيضتان (إن الله كان عليما حكيما) فحلل المتعة عن علم، ولغايات منوطة بالمصالح والحكم)[2] اه .

فرض الرجلين فى الوضوء :

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة (ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وامسحوا

---

(١) جـ ١ ص ٢٣٢ (٢) جـ ١ ص ١٩٥

برءوسكم وأرجلكم إلى الكعبين ... الآية ، يقول : (« وأرجلكم » بالجر عطف على رءوسكم ، وبالنصب على محل رءوسكم ، وعطفه على وجوهكم مع جواز العطف على رءوسكم فى غاية البعد ، غاية الأمر أنها فى هذا العطف محتملة مجملة كسائر أجزاء الآية محتاجة إلى البيان ، ولم يكن رأينا مبينا للقرآن لاستلزامه الترجيح بلا مرجح ، بل المبين : من نص الله ورسوله عليه ، لا من نصبوه لبيانه . فإن نصب شخص إنسانى لبيان القرآن وخلافة الرحمن ليس بأقل من نصب الأصنام لعبادة الأنام ، أو العجل المصنوع للعوام ، وتفصيل الوضوء وكيفيته قد وصل إلينا مفصلا مبينا عن أئمتنا المعصومين من الله ورسوله ، وقد فصله الفقهاء رضوان الله عليهم ، فلا حاجة الى التفصيل ههنا) اهـ (١) .

ميراث الأنبياء :

والمؤلف يقول كغيره من علماء مذهبه بأن الأنبياء يورثون كما يورث سائر الناس ، ولكننا نلاحظ عليه أنه لم يقف من الآيات التى استدل بها علماء مذهبه على أن الانبياء يورثون المال موقفاً فيه تلك المغالاة وهذا التطرف كالذى وقفه الطبرسى منها ، بل نجده عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة مريم (وإنى خفت الموالى من ورائى ...) يقول (وإنى خفت الموالى) فى الإرث الصورى من التضييع والنزاع والخلاف ، أو فى الإرث المعنوى من الاختلاف وتضييع العباد ، وهذا إشعار بأن دعاءه خال من مداخلة الهوى مقدمة للاجابة (٢) هذا هو كل ما قاله فى هذه الناحية من الآية فأنت ترى أنه لم يقطع أن الآية فى الإرث الصورى دون المعنوى ، بل جوز صدقها على كل منهما ، ولم يدافع عن مذهبه هذا الدفاع العنيف الذى كان من الطبرسى عندما أراد أن يقصر الإرث فى الآية على الإرث الصورى .

ونجده عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦) من سورة النمل وورث سليمان داود ... الآية) يقرر أن الميراث هو ميراث ماينبغى أن يرثه منه من الرسالة والعلم والملك والسلطنة ، ثم يقول : (ولذلك حذف المفعول الثانى)(٣)

---

(١) جـ ١ ص ٢٣٢ (٢) جـ ٢ ص ٢ (٣) جـ ١ ص ٩٨

يقول هذا أيضا ولا يحاول أن يخرج الآية عن ظاهرها وسياقها كما حاول غيره

الغنائم :

ويرى المؤلف كغيره من علماء مذهبه أن الغنائم لا تختص بما أخذ من الكفار بطريق القهر والغلبة ، بل تعم ذلك وكل ما استفاده الإنسان من أى وجه كان ، كما يرى أن الخمس يقسم بين ذوى القربى وهو الإمام ، ويتامى آل البيت ومساكينهم ، وأبناء سبيلهم . وذلك تعويض لهم من الله عن الصدقات التى هى أوساخ الناس .

يرى المؤلف هذا كله ويقرره فى تفسيره باختصار فيقول عند قوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الأنفال « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين .. الآية » ما نصه : (« واعلموا أنما غنمتم من شىء » اسم الغنيمة قد غلب على ما كان يؤخذ من الكفار بالقهر والغلبة حين القتال ، وإلا فهى اسم لكل ما استفاد الإنسان من أى وجه كان وأى شىء كان ، فعن الصادق هى والله الإفادة يوما بيوم « فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » وقد فسر ذوى القربى بالإمام من آل محمد ، فإنه ذو القربى حقيقة ، وفسر الثلاثة الأخيرة بمن كان من قرابات الرسول ، جعل ذلك لهم بدلا عن الزكاة التى هى أوساخ الناس تشريفاً لهم) اهـ[1] .

وفى سورة الحشر عند قوله تعالى فى الآية (٧) «ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم .. الآية » يقول : («ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى» أى ذى قربى الرسول صلى الله عليه وسلم واليتامى والمساكين وابن السبيل من قرابات الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد خصص فى الأخبار كل ذلك بأقرباء الرسول صلى الله عليه وسلم اهـ[2] .

(١) جـ ١ ص ٣١٨ (٢) جـ ٢ ص ٢٦٦

موقف المؤلف فى تفسيره من المسائل الكلامية :

وإنا لنجد المؤلف يتأثر بمذهب المعتزلة فى بعض المسائل الكلامية فيوافقهم عليها فى تفسيره ، ويخالفهم فى بعض آخر منها فيقول بما يقول به أهل السنة ، فمن المسائل التى يوافق فيها المعتزلة مثلا :

رؤية الله :

فهو ينكر جوازها ووقوعها ، ويجرى تفسيره لآيات الرؤية على هذه العقيدة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة « وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » نجده يقول ما نصه : (وورد أنه سئل الرضا كيف يجوز أن يكون كليم الله موسى بن عمران لا يعلم أن الله لا يجوز عليه الرؤية حتى يسأل هذا السؤال ؟ فقال إن كليم الله علم أن الله منزه عن أن يرى بالأبصار ، ولكنه لما كلمه وقربه نجيا رجع إلى قومه فأخبرهم أن الله كلمه وقربه وناجاه ، فقالوا : لن نؤمن لك حتى نسمع كلامه كما سمعته وكان القوم سبعمائة ألف ، فاختار منهم سبعين ألفا ، ثم اختار منهم سبعة آلاف ، ثم اختار منهم سبعمائة ، ثم اختار منهم سبعين رجلا لميقات ربه ، فخرج بهم إلى طور سيناء فأقامهم فى سفح الجبل ، وصعد موسى إلى الطور وسأل ربه أن يكلمه ويسمعهم كلامه ، وكلمه الله وسمعوا كلامه من فوق وأسفل ويمين وشمال ووراء وأمام — لا أن الله أحدثه فى الشجرة ، ثم جعله منبعثا منها — حتى سمعوه من جميع الوجوه ، فقالوا : لن نؤمن بأن هذا الذى سمعناه كلام الله حتى نرى الله جهرة ، فلما قالوا هذا القول العظيم واستكبروا وعتوا ، بعث الله عليهم صاعقة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، فماتوا ، فقال موسى : ما أقول لبنى إسرائيل إذا رجعت إليهم وقالوا إنك ذهبت بهم فقتلتهم ؛ لأنك لم تكن صادقا فيما ادعيت من مناجاة الله إياك ، فأحياهم وبعثهم . فقالوا : إنك لو سألت الله أن يريك تنظر إليه لأجابك فتخبرنا كيف هو ونعرفه حق معرفته ، فقال موسى : ياقوم . . إن الله لا يرى بالأبصار ولا كيفية له ، وإنما يعرف بآياته ويعلم بأعلامه ،

فقالوا : لن نؤمن لك حتى تسأله ، فقال موسى : يارب إنك قد سمعت مقالة بنى إسرائيل ، وأنت أعلم بصلاحهم ، فأوحى الله إليه : ياموسى سلنى ماسألوك فلن أآخذك بجهلهم ، فعند ذلك قال موسى « رب أرنى أنظر إليك [1] » قال « لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه » وهو يهوى « فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل » بآية « جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك » يقول : رجعت إلى معرفتى بك عن جهل قومى « وأنا أول المؤمنين » منهم بأنك لاترى [2]) اه .

وفى سورة القيامة عند قوله تعالى فى الآتين (٢٢ ، ٢٣) « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » يقول : (« إلى ربها ناظرة » أى إلى ربها المضاف لظهور الولاية وصاحبها فى ذلك اليوم ، أو إلى ربها المطلق لظهور آثاره ، أى إلى آثاره ناظرة ، أو منتظرة إلى ثواب ربها . روى عن أمير المؤمنين فى حديث « ينتهى أولياء الله بعد مايفرغ من الحساب إلى نهر يسمى الحيوان فيغتسلون فيه ويشربون منه فتبيض وجوههم إشراقا ، فيذهب كل قذى ووعث ، ثم يؤمرون بدخلول الجنة ، فمن هذا المقام ينظرون إلى ربهم كيف يثيبهم قال : فذلك قوله تعالى « إلى ربها ناظرة » وإنما يعنى بالنظر إليه ، النظر إلى ثوابه تبارك وتعالى . وفى الخبر : والناظرة فى بعض اللغة هى المنتظرة ، ألم تسمع إلى قوله « فناظرة بم يرجع المرسلون » ... أى منتظرة [3]) اه

ومن المسائل التى يخالف فيها المعتزلة :

السحر :

فهو يقول به ويعترف بحقيقته ويوضح لنا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة « واتبعوا ماتتلو الشاطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشاطين كفروا يعلمون الناس السحر . . . الآية »

---

(١) هى وما بعدها فى الآية (١٤٣) من سورة الأعراف .

(٢) جـ ١ ص ٥٤ : (٣) جـ ٢ ص ٢٩٤

حقيقة السحر وكيفية تأثيره فى المسحور وذلك حيث يقول (. . . والسحر اسم لقول أو فعل أو نقش فى صفحة يؤثر فى عالم الطبع تأثيرا خارجا عن الأسباب والمعتاد ، وذلك التأثير يكون بسبب مزج القوى الروحانية مع القوى الطبيعية ، أو بتسخير القوى الروحانية بحيث تتصرف على إرادة المسخر الساحر ، وهذا أمر واقع فى نفس الأمر ليس محض تخييل كما قيل . . . وتحقيقه أن يقال : إن عالم الطبع واقع بين الملكوت السفلى والملكوت العلوى كما مر ، وأن لأهل العالمين تصرفا بإذن الله عالم الطبع بأنفسهم ، أو بأسباب من قبل النفوس البشرية ، وأن النفوس البشرية إذا تجردت من علائقها ، وصفت من كدورتها بالرياضات الشرعية أو غير الشرعية ، وناسبت المجردات العلوية أو السفلية ، تؤثر بالأسباب أو بغير الأسباب فى أهل العالمين بتسخيرها إياهم ، وجذبها لهم إلى عالمها ، وتوجيههم فى مراداتها شرعية كانت أو غير شرعية . وإذا كان التأثير كان من أهل العالم السفلى تسمى أسبابه سحراً ، وقد يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به سحرا ، وإذا كان من أهل العالم العلوى يسمى ذلك التأثير والأثر الحاصل به معجزة وكرامة ، وقد تتقوى فى الجهة السفلية أو العلوية فتؤثر بنفسها من دون حاجة إلى التأثير فى الأرواح ، ويسمى ذلك التأثير والأثر أيضاً سحراً ومعجزة . فالسحر هو السبب المؤثر فى الأرواح الخبيثة الذى خفى سببيته ، أو تأثير تلك الأرواح وآثارها فى عالم الطبع بحيث خفى مدركها ، ثم أطلق على كل علم وبيان دقيق قلما يدرك مدركه ، ويطلق على العالم بذلك العلم اسم الساحر ، ومنه « ياأيها الساحر ادع لنا ربك » على وجه . . . فيستعمل على هذا فى المدح والذم) اه [١] .

وفى الآية (٤) من سورة الفلق نجده يعترف أيضا بالسحر ويروى أن الرسول سحر بيد لبيد بن الأعصم وذلك حيث يقول : (« ومن شر النفاثات فى العقد » أى من شر النفوس اللاتى يعقدن على الشعور والخيوط ، وينفثن

---

(١) جـ ١ ص ٦٨

فيها ، ويسحرن الناس بها . أو النساء اللآتى يفعلن ذلك ... ثم ساق حديث سحر الرسول صلى الله عليه وسلم) . اه [١] .

وهناك مسائل أخرى يوافق فيها المعتزلة ، ومسائل أخرى يخالفهم فيها ويوافق أهل السنة ، ولا أطيل بذكرها بعد أن ذكرت نموذجاً من كل طائفة، ومن أراد الرجوع إليها فليرجع إلى تفسيره للآيات التى تتعلق بهذه المسائل .

هذا .. ولا يفوتنا أن ننبه على أن المؤلف كثيراً ما يهتم فى بعض المواضع بالمسائل النحوية ، فتراه يذكر الأعاريب التى فى الآية ، كما يهتم فى بعض النواحى بالقراءات وإن كان يعتمد فى كثير من الأحيان ما نسب إلى أهل البيت من قراءات لا أصل لها ، كما نراه يذكر بعض النكات التى ترجع إلى نظم القرآن وأسلوبه ...

وبالجملة ، فهذا التفسير يكشف لنا عن مقدار تعصب صاحبه لمذهبه ، وتأثيره بعقيدته الشيعية، ونزعته الصوفية الفلسفية فى فهمه لكتاب الله تعالى ... والكتاب مطبوع فى جزأين كبيرين ، وموجود بدار الكتب المصرية .

---

(١) ج ٢ ص ٣٣٩

الإمامية الإسماعيلية (الباطنية)

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الإسماعيليه وعقائدهم وأغراضهم :

قلنا : إن الإسماعيلية من الشيعة الإمامية تنتسب إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقلنا : إنهم يلقبون بالباطنية أيضا لقولهم بباطن القرآن دون ظاهره ، أو لقولهم بالإمام الباطن المستور .

والحق أن هذه الطائفة لايمكن أن تكون داخلة فى عداد طوائف المسلمين . وإنما هى فى الأصل جماعة من المجوس رأوا شوكة الإسلام قوية لاتقهر ، وأبصروا عزة المسلمين فتية لاتغلب ولاتكسر ، فاشتعلت بين جوانحهم نار الحقد على الإسلام والمسلمين ، ورأوا أنه لاسبيل لهم إلى الغلب على المسلمين بقوة الحديد والنار ، ولا طاقة لهم بالوقوف أمام جيشهم الزاخر الجرار ، فسلكوا طريق الاحتيال الذى يوصلهم إلى مآربهم وأهوائهم ؛ ليطفئوا نور الله بأفواههم ، وخفى على هؤلاء الملاحدة أن الله متم نوره ولو كره الكافرون .

مؤسسو هذه الطائفة :

ظهرت بوادر هذه الفتنة ، ونبتت نواة هذه الطائفة : زمن المأمون ، وبيد جماعة جمع بينهم سجن العراق ، هم : عبد الله بن ميمون القداح ، وكان مولى جعفر بن محمد الصادق . ومحمد بن الحسين المعروف بذيذان ، وجماعة كانوا يدعون (الجهاربجة[1]) .

اجتمع هؤلاء النفر ، فوضعوا مذهب الباطنية وأسسوا قواعده ، فلما

---

(١) أى العلماء الأربعة .

خلصوا من السجن ظهرت دعوتهم ؛ ثم استفحل أمرها ، واستطار خطرها إلى كثير من بلاد المسلمين . ومازالت لها بقية إلى يومنا هذا بين كثير ممن يدعون الإسلام(١) .

احتيالهم على الوصول إلى أغراضهم :

رأى المؤسسون لمبادىء الباطنية أنه لاطاقة لهم بالوقوف فى وجه المسلمين صراحة وجهارا ، فاحتالوا — كما قلنا — على الوصول إلى مآربهم بشتى الحيل ، فاندسوا بين المسلمين باسم الحدب على الإسلام ، وتلفعوا بالتشيع والموالاة لأهل البيت ، وتظاهروا بالورع الكاذب ، وجعلوا ذلك كله ستارا لما يريدون أن يبذروه بين المسلمين من بذور الفساد والاضطراب فى العقيدة والسياسة .

ومن المحزن أن يدعى هؤلاء الملاحدة الانتماء إلى أهل بيت النبوة ، ويصلون أنسابهم بأنسابهم عن طريق آباء وأئمة مستورين ، فيلقى هذا الإدعاء رواجا وقبولا من أناس ضعفاء أغمار ، غرهم التباكى على آل البيت والتحزن عليهم ، فتحركت أحقاد دفينة ، وثارت فتن دامية بين المسلمين كان لها أثرها وخطرها .

أسس هؤلاء الباطنية الجمعيات السرية لنشر مذهبهم وهدم مذهب المسلمين ، ورسموا لهذا المذهب خطة دبروها بنوع من المكر والخديعة ، فجعلوا هدفهم الأول : الاحتيال على الطعام بتأويل الشرائع إلى ما يعود إلى قواعدهم من الإباحة والإلحاد ، وتدرجوا فى وصولهم إلى غرضهم هذا بجعلهم الدعوة على مراتب وهى ما يأتى :

مراتب الدعوة عند الباطنية :

أولا — الذوق : وهو تفرس حال المدعو ، هل هو قابل للدعوة أولا ؟ ولذلك منعوا من إلقاء البذر فى السبخة . أى دعوى من ليس قابلا لها ، ومنعوا التكلم فى بيت فيه سراج .. أى فى موضع فيه فقيه أو متعلم .

ثانيا — التأنيس : باستمالة كل أحد من المدعوين بما يميل إليه بهواه وطبعه ،

(١) انظر الفرق بين الفرق ص ٢٦٦ والتبصير فى الدين ص ٨٣ .

من زهد ، وخلاعة ، وغيرهما . فإن كان يميل إلى زهد زينه فى عينه وقبح نقيضه ، وإن كان يميل إلى الخلاعة زينها وقبح نقيضها ، ومن رآه الداعى مائلا إلى أبى بكر وعمر مدحهما عنده وقال : لهما حظ فى تأويل الشريعة . ولهذا استصحب النبى أبا بكر إلى الغار ، ثم إلى المدينة ، وأفضى إليه فى الغار تأويل الشريعة .... وهكذا حتى يحصل له الأنس به

ثالثا — التشكيك فى أصول الدين و أركان الشريعة : كأن يقول للمدعو : مامعنى الحروف المقطعة فى أوائل السور ؟ ولم تقضى الحائض الصوم دون الصلاة ؟ ولم يجب الغسل من المنى دون البول ؟ ولم اختلفت الصلوات فى عدد ركعاتها فكان بعضها ركعتين ، وبعضها ثلاثا ، وبعضها أربعاً ؟ .... وحيث يشككون بمثل هذا فلا يجيبون ليتعلق قلب من يشككونه بالرجوع إليهم والأخذ عنهم .

رابعا — الرابط : وهو أمران : أحدهما : أخذ الميثاق على الشخص بأن لايفشى لهم سرا ، ويستدلون على ذلك بقوله تعالى : « وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا[1] » وقوله : « ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا[2] » وثانيهما : حوالته على الإمام فى حل ما أشكل عليه من الأمور التى ألقيت إليه ، فإنها لاتعلم إلا من قبل الإمام .

خامسا — التدليس : وهو دعوى موافقة أكابر الدين والدنيا ليزداد الإقبال على مذهبهم .

سادسا — التأسيس : وهو تمهيد مقدمات يراعون فيها حال المدعو لتقع تعاليمهم منه موقع القبول من نفسه .

سابعاً — الخلع : وهو الطمأنينة إلى إسقاط الأعمال البدنية .

---

(٢) فى الآية (٩١) من سورة النحل .

(١) الآية (٧) من سورة الأحزاب .

ثامنا ــ السلخ : وهو سلخ المدعو من العقائد الإسلامية ، ثم بعد ذلك يأخذون فى تأويل الشريعة على ماتشاء أهواؤهم[1] .

فأنت ترى أن الباطنية توسلوا بكل هذه الحيل إلى تشكيك المسلمين فى عقائدهم ، وكأنهم رأوا أن القرآن مادام موجودا بين المسلمين ومحفوظا عندهم يرجعون إليه فى أمور الدين، ويهتدون بهديه كلما نزلت بهم نازلة ،فليس من السهل صرف الناس عنه إلا بواسطة تأويله ، وصرف ألفاظه وآياته عن مدلولاتها الظاهرة ، فأخذوا يجدون فى تأويل نصوص القرآن كما يحبون . وعلى أى وجه يرونه هدماً لتعاليم الإسلام ، الذى أصبح قذى فى أعينهم . وشجى فى حلوقهم !! ..

وحرصا منهم على أن تكون دعواهم فى تأويل القرآن مقبولة لدى من يستخفونه .. قالوا : (إن الأئمة هم الذين أودعهم الله سره المكنون ، ودينه المخزون ، وكشف لهم بواطن هذه الظواهر ، وأسرار هذه الأمثلة، وإن الرشد والنجاة من الضلال بالرجوع إلى القرآن وأهل البيت ؛ ولذلك قال عليه السلام ــ لما قيل : ومن أين يعرف الحق بعدك ؟ــ « ألم أترك فيكم القرآن وعترتى ؟ » .. وأراد به أعقابه ، فهم الذين يطلعون على معانى القرآن[2]) .

ولكن احتيال الباطنية بتأويل القرآن على هدم الشريعة لم يلق رواجا عند عقلاء المسلمين ، ولم يجد غباوة فى عقول علمائهم الذين نصبوا أنفسهم لحماية القرآن من أباطيل المضللين . . . وكيف يمكن أن يجد رواجا عند هؤلاء أو غباوة من أولئك وقد علموا وتيقنوا بأن الألفاظ إذا صرفت عن مقتضى ظواهرها بغير اعتصام فيه ينقل عن صاحب الشريعة ، ومن غير ضرورة تدعو إليه من دليل العقل ، اقتضى ذلك بطلان الثقة بالألفاظ ،وسقط به منفعة كلام الله تعالى وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ؛ فإن مايسبق منه إلى الفهم لايوثق

---

(١) راجع المواقف جـ ٨ ص ٣٨٩ ــ ٣٩٠ ، والفرق بين الفرق ص ٢٨٢ وما بعدها .

(٢) فضائح الباطنية ص ٦ .

به . والباطن لاضبط له . بل تتعارض فيه الخواطر ، ويمكن تنزيله على وجوه شتى .

إنتاج الباطنية فى تفسير القرآن الكريم :

ومع أن هؤلاء الباطنية قد اتخذوا من تأويل القرآن بابا للوصول إلى أغراضهم ، فإنا لم نقف لهم على كتب مستقلة فى تفسير كتاب الله تعالى ، ولم نسمع أن واحدا منهم كتب تفسيراً جامعاً للقرآن كله ، سورة سورة ، وآية آية، ولعل السر فى ذلك : أنهم لم يستطيعوا أن يتمشوا بعقائدهم مع القرآن آية آيه ، ولو أنهم حاولوا ذلك لاصطدموا بعقبات وصعاب لايستطيعون تذليلها ، ولا يقدرون على التخلص منها :

وكل الذى وجدناه لهم فى تفسير القرآن أو تأويله على الأصح : إنما هو نصوص متفرقة فى بطون الكتب ، تعطينا إلى حدما صورة واضحة ،وفكرة جلية عن موقف هؤلاء القوم من القرآن الكريم ، ومبلغ تهجمهم على القول فيه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير .

وأرى أن أقسم موقف الباطنية من القرآن الكريم إلى قسمين اثنين :

الأول : موقف الباطنية المتقدمين من القرآن الكريم :

والثانى : موقف الباطنية المتأخرين منه أيضا :

ونريد بالمتقدمين : الذين أسسوا مذهب الباطنية ومن قاربهم فى الزمن ، وبالمتأخرين : البابيه والبهائية . وسنوضح عند الكلام عن البابية والبهائية السبب الذى من أجله عددناهم من قبيل الباطنية .

موقف متقدمى الباطنية

من تفسير القرآن الكريم

علمت أن الغرض الأول الذى تقوم عليه دعوة الباطنية وتتركز فيه : هو العمل على هدم الشرائع عموما ، وشريعة الإسلام على الخصوص ؟ فكان لزاما عليهم وقد قاموا يحاربون الإسلام — أن يعملوا معاول الهدم فى ركن الإسلام المكين ، وهو القرآن الكريم،وقد عجموا معاولهم كلها فلم يجدوا معولا أصلب ولا أقوى على تنفيذ غرضهم من معول التأويل والميل بالآيات القرآنية إلى غير ما أراد الله .

كتب عبيد الله بن الحسن القيروانى إلى سليمان بن الحسن بن سعيد الجنانى رسالة طويلة جاء فيها (... وإنى أوصيك بتشكيك الناس فى القرآن والتوراة والزبور والإنجيل ، وتدعوهم إلى إبطال الشرائع ، وإلى إبطال المعاد والنشور من القبور ، وإبطال الملائكة فى السماء ، وإبطال الجن فى الأرض، وأوصيك أن تدعوهم إلى القول بأنه قد كان قبل آدم بشر كثير ، فإن ذلك عون لك على القول بقدم العالم)[1] اهـ .

رأى هذا الزعيم الباطنى أن التشكيك فى القرآن خير معوان لهم على تركيز عقائدهم ، ورأى رأيه أهل الباطن جميعاً فقالوا : (للقرآن ظاهر وباطن،والمراد منه باطنه دون ظاهره المعلوم من اللغة ، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر ، والمتمسك بظاهره معذب بالشقشقة فى الكتاب ، وباطنه مؤد إلى ترك العمل بظاهره ، وتمسكوا فى ذلك بقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الحديد « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب »)[2] .

---

(١) الفرق بين الفرق ص ١٨٠، وبمثل وهذه العبارة يستدل أبو منصور البغدادى على أنهم دهريون

(٢) المواقف جـ ٨ ص ٣٨٨ .

فانظر إليهم كيف وضعوا هذه القاعدة لفهم نصوص القرآن الكريم ، ثم اعجب ماشاء الله لك أن تعجب من استدلالهم بهذه الآية الكريمة على قاعدتهم التى قعدوها ،؟ والست أدرى ماصلة هذه الآية بتلك القاعدة والآية واردة فى شأن من شئون الآخرة ينساق إلى فهمه كل من يمر بالآية بدون كلفة ولا عناء .

من تأويلات الباطنية القدامى :

على هذه القاعدة السابقة جرى القوم فى شرحهم لكتاب الله تعالى ، فكان من تأويلاتهم ما يأتى :

(الوضوء) عبارة عن موالاة الإمام : و (التيمم) هو الأخذ من المأذون عند غيبة الإمام الذى هو الحجة : و (الصلاة) عبارة عن الناطق الذى هو الرسول بدليل قوله تعالى فى الآية (٤٥) من سورة العنكبوت « إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر » و (الغسل) تجديد العهد ممن أفشى سراً من أسرارهم من غير قصد ، وإفشاء السر عندهم على هذا النحو هو معنى (الاحتلام). (والزكاة) عبارة عن تزكية النفس بمعرفة ما هم عليه من الدين . و (الكعبة) النبى . و (الباب) على . و (الصفا) هو النبى: و (المروة) على . و (الميقات) الإيناس. و (التلبية) إجابة الدعوة . و (الطواف بالبيت سبعا) موالاة الأئمة السبعة . و (الجنة) راحة الأبدان من التكاليف . و (النار) مشقتها بمزاولة التكاليف[1].

وتأولوا أنهار الجنة فقالوا (أنهار من لبن) أى معادن العلم ... اللبن العلم الباطن، يرتضع به أهلها ، ويتغذون به تغذيا تدوم به حياتهم اللطيفة ؛ فإن غذاء الروح اللطيفة بارتضاع العلم من المعلم ، كما أن حياة الجسم الكثيف بارتضاع اللبن من ثدى الأم . (وأنهار من خمر) هو العلم الظاهر . (وأنهار من عسل مصفى) هو علم الباطن المأخوذ من الحجج والأئمة [2] .

كذلك تجد الباطنية يرفضون المعجزات ، ولا يعترفون بها للرسل ،

---

(١) المواقف جـ ٨ ص ٣٩٠ :

(٢) فضائح الباطنية للغزالى ص ١٣ :

وينكرون نزول ملائكة من السماء بالوحى من الله ، بل وزادوا على ذلك فأنكروا أن يكون فى السماء ملك وفى الأرض شيطان، وأنكروا آدم والدجال، ويأجوج ومأجوج ، ولكنهم وجدوا أنفسهم أمام آيات من القرآن تكذب دعواهم هذه ، فتخلصوا منها بمبدئهم الذى ساروا عليه فى تفسيرهم وهو إنكار الظاهر والأخذ بالباطن ، وأولوا هذه الآيات بما يتفق ومذهبهم ، فتأولوا (الملائكة) على دعاتهم الذين يدعون إلى بدعتهم . وتأولوا (الشياطين) على مخالفيهم . وتأولوا كل ما جاء فى القرآن من معجزات الأنبياء عليهم السلام ، فقالوا : (الطوفان) معناه طوفان العلم . . . أغرق به المتمسكون بالسنة . و (السفينة) حرزه الذى تحصن به من استجاب لدعوته . و (نار إبراهيم) عبارة عن غضب نمرود عليه لا النار الحقيقية . و (ذبح إسحق) معناه أخذ العهد عليه . و (عصا موسى) حجته التى تلقفت ما كانوا يأفكون من الشبه لا الخشب (وانفلاق البحر) افتراق علم موسى فيهم عن أقسام . و(البحر)هو العلم و (الغمام الذى أظلهم) معناه الإمام الذى نصبه موسى لإرشادهم وإفاضة العلم عليهم . و (الجراد والقمل والضفادع) هى سؤالات موسى والتزاماته التى سلطت عليهم . (والمن والسلوى) علم نزل من السماء لداع من الدعاة هو المراد بالسلوى . و(تسبيح الجبال) معناه معناه تسبيح رجال شداد فى الدين راسخين فى اليقين. و(الجن الذين ملكهم سليمان بن داود(باطنية ذلك الزمان . و(الشياطين) هم الظاهرية الذين كلفوا بالأعمال الشاقة . و (عيسى) له أب من حيث الظاهر ، وإنما أراد بالأب المنفى : الإمام ، إذ لم يكن له إمام، بل استفاد العلم من الله بغير واسطة ، وزعموا — لعنهم الله — أن أباه يوسف النجار . و(كلامه فى المهد) اطلاعه فى مهد القالب قبل التخلص منه على ما يطلع عليه غيره بعد الوفاة والخلاص من القالب . و (إحياء الموتى من عيسى) معناه الإحياء بحياة العلم عن موت الجهل بالباطن . و (إبراؤه الأعمى) عن عمى الضلالة . و (الأبرص) عن برص الكفر ببصيرة الحق المبين . و (إبليس وآدم) عبارة عن أبى بكر وعلى ، إذ أمر أبو بكر بالسجود لعلى والطاعة له فأبى واستكبر . و(الدجال) أبو بكر ،

وكان أعورا، إذ لم يبصر إلا بعين الظاهر دون عين الباطن و(يأجوج ومأجوج) هم أهل الظاهر)[1] .

بل بالغوا فقالوا : (إن الأنبياء قوم أحبوا الزعامة ، فساسوا العامة بالنواميس والحيل ، طلبا للزعامة بدعوى النبوة والإمامة)[2] .

هذا .. وإن مما زعمته الباطنية : أن من عرف معنى العبادة سقط عنه فرضها وتأولوا فى ذلك قوله تعالى فى الآية (٩٩) من سورة الحجر : « واعبد ربك حتى يأتيك اليقين » وحملوا اليقين على معرفة التأويل .

كذلك استحل الباطنية نكاح البنات والأخوات وجميع المحارم ، بحجة أن الأخ أحق بأخته ، والأب أولى بابنته ... وهكذا : ولست أدرى على أى وجه تأولوا آية النساء التى حرمت ذلك ، ومنعته منعاً باتاً ؛ .

ويقول القيروانى فى رسالته التى أرسلها إلى سليمان بن الحسن : (.... وينبغى أن تحيط علماً بمخاريق الأنبياء ومناقضاتهم فى أقوالهم، كعيسى ابن مريم ، قال لليهود : لا أرفع شريعة موسى ؛ ثم رفعها بتحريم الأحد بدلا من السبت ، وأباح العمل فى السبت ، وأبدل قبله موسى بخلاف جهتها .. وبذلك قتلته اليهود لما اختلفت كلمته ، ولا تكن كصاحب الأمة المنكوسة حين سألوه عن الروح فقال : « الروح من أمر ربى[3] » لما لم يحضره جواب المسألة ، ولا تكن كموسى فى دعواه التى لم يكن عليها برهان سوى المخرقة بحسن الحيلة والشعوذة ، ولما لم يجد المحق فى زمانه عنده برهاناً قال له . « لئن اتخذت إلهاً غيرى لأجعلنك من المسجونين[4] » وقال لقومه : « أنا ربكم الأعلى[5] » لأنه كان صاحب الزمان فى وقته . . .) .

---

(١) فضائح الباطنية ص ١٣

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٧٩

(٣) فى الآية (٨٥) من سورة الإسراء

(٤) الآية (٢٩) من سورة الشعراء

(٥) فى الآية (٢٤) من سورة النازعات

ثم قال فى آخر هذه الرسالة : (.... وما العجب من شىء كالعجب من رجل يدعى العقل، ثم يكون له أخت أو بنت حسناء وليس له زوجة فى حسنها، فيحرمها على نفسه وينكحها من أجنبى ، ولو عقل الجاهل لعلم أنه أحق بأخته ، وبنته من الأجنبى ، ما وجه ذلك إلا أن صاحبهم حرم عليهم الطيبات وخوفهم بغائب لا يعقل ، وهو الإله الذى يزعمونه ، وأخبرهم بكون مالا يرونه أبداً من البعث من القبور ، والحساب ، والجنة ، والنار ، حتى استعبدهم بذلك عاجلا وجعلهم له فى حياته ، ولذريته بعد وفاته خولا ، واستباح بذلك أموالهم بقوله « لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى[1] » فكان أمره معهم نقداً وأمرهم معه نسيئة ، وقد استعجل منهم بذل أرواحهم وأموالهم على انتظار موعود لا يكون ، وهل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ؟ وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب فى الصلاة والصيام والجهاد والحج) .

ثم قال لسليمان بن الحسن فى هذه الرسالة : (.... وأنت وإخوانك هم الوارثون الذين يرثون الفردوس ، وفى هذه الدنيا ورثتم نعيمها ولذاتها المحرمة على الجاهلين المتمسكين بشرائع أصحاب النواميس، فهنيئا لكم ما نلتم من الراحة عن أمرهم اه[2]) .

ومن جملة تأويلاتهم الباطلة التى يتوصلون بها إلى هواهم النفسى ، ومأربهم الشخصى ، أنهم بعد أن يلقوا على المدعو ما يشككونه به ، وتتطلع إلى معرفته من جهتهم نفسه ، يقولون له : لا نظهره إلا بتقديم خير عليه ، فيطلبون مائة وتسعة عشر درهما من السبيكة الخالصة . ويقولون : هذا تأويل قوله تعالى : « وأقرضوا الله قرضاً حسنا[3] » فالحاء والسين والنون والألف إذا جمع عددها بحساب الجمل يكون مبلغه مائة وتسعة عشر[4]) .

---

(١) فى الآية (٣٧) من سورة الشورى :

(٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨١ — ٢٨٢

(٣) فى الآية (٢٠) من سورة المزمل

(٤) التبصير فى الدين ص ٨٧

ومن ذا الذى قال إن القرآن يخضع فى تفسيره وفهم معانيه إلى حساب الجمل ؟ .. اللهم إن هذا لايصدر إلا عن مخرف أو زنديق يريد أن يضل الناس ويحتال على سلب أموالهم بدعوى يدعيها على كتاب الله !! ..

كذلك نجد الباطنية يحرصون على نفى وجود الإله الحق ، والنبى المرسل محمد صلى الله عليه وسلم ؛ ليتوصلوا بذلك إلى رفع التكاليف ، فنراهم يقولون للمبتدىء : (إن الله خلق الناس واختار منهم محمداً صلى الله عليه وسلم، فيستحسن المتبدىء هذا الكلام ، ثم يقول له : أتدرى من محمد ؟ فيقول نعم ... محمد رسول الله ، خرج من مكة ، وادعى النبوة ، وأظهر الرسالة، وعرض المعجزة . فيقول له : ليس هذا الذى تقول إلا كقول هؤلاء الحمير — يعنون به المؤمنين من أهل الإسلام — إنما محمد أنت، فيستعيذ السامع ويقول : لست أنا محمداً، فيقول له : الله تعالى وصفه فى هذا القرآن فقال : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم[1] » ، وهؤلاء الحمير يقولون : من مكة ... فيقول له الغر الغمر : على أى معنى تقول أنا محمد ؟ فيقول ، خلقك وصورك خلقة محمد ، فالرأس بمنزلة الميم ، واليدان بمنزلة الحاء ، والسرة بمنزلة الميم ، والرجلان بمنزلة الدال ، وكذلك أنت على أيضا، عينك هى العين ، والألف اللام هى ، والفم الياء[2]) .

وبهذا يوهمه أنه هو محمد الذى جاء ذكره فى القرآن ، أما مايدعى من وجود رسول اسمه محمد ، فهذا ظاهره غير مراد ،

ولأجل أن يوهمه أيضا بأنه لا إله موجود على الحقيقة ، وما جاء فى القرآن من ذلك فظواهر غير مرادة ، نجده يقول للمبتدىء : إن المراد بإثبات الذات يرجع إلى نفسك ، ويؤولون عليه قوله تعالى . فليعبدوا رب هذا البيت[3] » . ويقولون : الرب هو الروح والبيت هو البدن .

---

(١) الآية (١٢٨) من سورة التوبة (٢) التبصير فى الدين ص ٨٧—٨٨ .
(٣) الآية (٣) من سورة قريش .

ولقد وصل الغلو ببعض الباطنية إلى ادعاء ألوهية محمد بن إسماعيل ابن جعفر الصادق، وأنه هو الذى كلم موسى بقوله «إنى أنا ربك فاخلع نعليك[1]»، وفى هذا يروى لنا البغدادى صاحب الفرق بين الفرق قصة رجل دخل فى دعوة الباطنية، ثم وفقه الله لتركها والرجوع لرشده .. يحكى هذا الرجل قصته للبغدادى فيقول: (إنهم لما وثقوا بإيمانه قالوا له: إن المسمين بالأنبياء كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وكل من ادعى النبوة: كانوا أصحاب نواميس ومخاريق، أحبوا الزعامة على العامة، فخدعوهم بنيرنجات، واستعبدوهم بشرائعهم — قال الحاكى للبغدادى .. ثم ناقض الذى كشف لى هذا السر بأن قال: ينبغى أن تعلم أن محمد بن إسماعيل بن جعفر هو الذى نادى موسى بن عمران من الشجرة فقال له «إنى أنا ربك فاخلع نعليك»، ثم قال: فقلت: سخنت عينك: تدعونى إلى الكفر برب قديم خالق للعالم، ثم تدعونى مع ذلك إلى الإقرار بربوبية إنسان مخلوق، وتزعم أنه كان قبل ولادته إلها مرسلا لموسى؟ فإن كان موسى عندك كاذبا، فالذى زعمت أنه أرسله أكذب، فقال: إنك لاتفلح أبدا، وندم على إفشاء أسراره إلىّ وتبت من بدعتهم[2]) اه.

فانظر إليهم — لعنهم الله — كيف يصرفون القرآن عن أن يكون الله هو المتكلم به، ويدعون أنه كلام إلههم المزعوم محمد بن إسماعيل !! .. أليس هذا غلوا فى الإلحاد؟ وإغراقا فى الكفر والعناد؟.

وبين أيدينا كتاب أسرار الباطنية، وهو يكشف لنا عن نواياهم، ويفضح أسرارهم وخباياهم. وهو لمحمد بن مالك اليمانى أحد علماء القرن الخامس الهجرى، ولا أريد أن أطيل على القارىء بذكر ما فيه من مخازى القوم، ولكن أكتفى بذكر نبذة من الكتاب. ضمنها المصنف ماشهده بنفسه من ضلالهم وإضلالهم، وذلك حين اندس بينهم متظاهرا بدخوله فى زمرتهم، ليقف بنفسه على مابلغه

---

(١) فى الآية (١٢) من سورة طه (٢) الفرق بين الفرق ص ٢٨٨.

عنهم من أباطيل وأضاليل ، وإنما اخترت هذه النبذة بالذات . لأنها تعطينا فكرة واضحة عن مقدار تلاعب الباطنية بكتاب الله تحت ستار التأويل ، وعن مبلغ استهزائهم بعقول العامة الذين وقعوا فيما نصبوه لهم من الأحابيل !! ...

مقالة محمد بن مالك اليماني فى الباطنية :

يقول محمد بن مالك اليماني : (أول ما أشهد به وأشرحه ، وأبينه للمسلمين وأوضحه ، أن له — يريد على بن محمد الصليحى زعيم باطنية اليمن فى وقته — نواباً يسميهم الدعاة المأذونين ، وآخرين يلقبهم المكلبين ، تشبيها لهم بكلاب الصيد ، لأنهم ينصبون للناس الحبائل ، ويكيدونهم بالغوائل ، وينقبضون عن كل عاقل ، ويلبسون على كل جاهل ، بكلمة حق يراد بها الباطل ، ويحصونه على شرائع الإسلام ، من الصلاة والزكاة والصيام ، كالذى ينثر الحب للطير ليقع فى شركه ، فيقيم أكثر من سنة يمعنون به ، وينظرون صبره ، ويتصفحون أمره ، ويخدعونه بروايات عن النبى صلى الله عليه وسلم محرفة ، وأقوال مزخرفة ، ويتلون عليه القرآن على غير وجهه ، ويحرفون الكلم عن مواضعه ، فإذا رأوا منه الانهماك والركون والقبول والإعجاب بجميع ما يعلمونه ، والانقياد بما يأمرونه ، قالوا حينئذ : اكشف عن السرائر ولا ترض لنفسك ولا تقنع بما قنع به العوام من الظواهر ، وتدبر القرآن ورموزه ، واعرف مثله وممثوله ، واعرف معانى الصلاة والطهارة ، وماروى عن النبى صلى الله عليه وسلم بالرموز والإشارة ، دون التصريح فى ذلك والعبارة ، فإنما جميع ما عليه الناس أمثال مضروبة ، لممثولات محجوبة ، فاعرف الصلاة وما فيها ، وقف على باطنها ومعانيها ، فإن العمل بغير علم لا ينتفع به صاحبه . فيقول : عم أسأل ؟ فيقول : قال الله تعالى « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة[1] » فالزكاة مفروضة فى كل عام مرة ، وكذلك الصلاة ، من صلاها مرة فى السنة فقد أقام الصلاة بغير تكرار ، وأيضا فالصلاة والزكاة لهما باطن لأن الصلاة صلاتان ، والزكاة زكاتان ، والصوم صومان ، والحج حجان ، وماخلق الله سبحانه من ظاهر إلا وله باطن ، يدل على ذلك :

---

(١) فى الآية (٤٣) من سورة البقرة وفى مواضع أخرى من القرآن .

« وذروا ظاهر الإثم وباطنه[١] » و « قل إنما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن[٢] » ألا ترى أن البيضة لها ظاهر وباطن؟ فالظاهر ماتساوى به الناس، وعرفه الخاص والعام ، وأما الباطن فقصر علم الناس به عن العلم به ، فلا يعرفه إلا القليل ، من ذلك قوله « وما آمن معه إلا قليل[٣] » وقوله « وقليل ماهم[٤] » وقوله « وقليل من عبادى الشكور[٥] » فالأقل من الأكثر الذين لاعقول لهم .

و (الصلاة) و (الزكاة) سبعة[٦] أحرف دليل على محمد وعلى صلى الله عليهما ، لأنهما سبعة أحرف ، فالمعنى بالصلاة والزكاة ولاية محمد وعلى ، فمن تولاهما فقد أقام الصلاة وآتى الزكاة ، فيوهمون على من لا يعرف لزوم الشريعة والقرآن وسنن النبى صلى الله عليه وسلم ، فيقع هذا من ذلك المخدوع بموقع الاتفاق والموافقة ، لأن مذهب الراحة والإباحة يريحهم مما تلزمهم الشرائع من طاعة الله ، ويبيح لهم ما حظر عليهم من محارم الله ، فإذا قبل منهم ذلك المغرور هذا قالوا له : قرب قربانا يكون لك سلما ونجوى ، ونسأل الك مولانا يحط عنك الصلاة ، ويضع عنك هذا الإصر ، فيدفع اثنى عشر ديناراً ، فيقول ذلك الداعى : يا مولانا . . إن عبدك فلانا قد عرف الصلاة ومعانيها ، فاطرح عنه الصلاة وضع عنه هذا الإصر ، وهذا نجواه اثنا عشر ديناراً ، فيقول : اشهدوا أنى قد وضعت عنه الصلاة ويقرأ له : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم[٧]) فعند ذلك يقبل إليه أهل هذه الدعوة ويهنئونه ويقولون : الحمد لله الذى وضع عنك « وزرك الذى أنقض ظهرك »[٨] . . .

(١) فى الآية (١٢٠) من سورة الأنعام .
(٢) فى الآية (٣٣) من سورة الأعراف .
(٣) فى الآية (٤٠) من سورة هود
(٤) فى الآية (٢٤) من سورة ص
(٥) فى الآية (١٣) من سورة سبأ
(٦) لعله عدها سبعة بحذف إحدى الألفين لتكرارها فى الكلمتين .
(٧) فى الآيا (١٥٧) من سورة الأعراف
(٨) فى الآية (٣) من سورة الإنشراح

ثم يقول له ذلك الداعي — الملعون — بعد مدة : قد عرفت الصلاة وهى أول درجة ، وأنا أرجو أن يبلغك الله إلى أعلى الدرجات ، فاسأل وابحث ، فيقول : عم أسأل ؟ فيقول له : سل عن الخمر والميسر الذين نهى الله تعالى عنهما أبا بكر وعمر لمخالفتهما على على ، وأخذهما الخلافة دونه ، فأما ما يعمل من العنب والزبيب والحنطة وغير ذلك فليس بحرام ؛ لأنه مما أنبتت الأرض ، ويتلو عليه « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق[١] » إلى آخر الآية . ويتلو عليه : « ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا[٢] » إلى آخر الآية ، والصوم : الكتمان ، فيتلو عليه « فمن شهد منكم الشهر فليصمه[٣] » يريد كتمان الأئمة فى وقت استتارهم خوفا من الظالمين ، ويتلو عليه : « إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسياً »[٤] فلو كان عنى بالصيام ترك الطعام لقال : فلن أطعم اليوم شيئاً ، فدل على أن الصيام الصموت، فحينئذ يزداد ذلك المخدوع طغيانا وكفرا ، وينهمك إلى قول ذلك الداعى الملعون ؛ لأنه أتاه بما يوافق هواه ، والنفس أمارة بالسوء . . ثم يقول له : ادفع النجوى تكن لك سلما ووسيلة حتى نسأل مولانا يضع عنك الصوم ، فيدفع اثنى عشر دينارا ، فيمضى به إليه فيقول : يامولانا عبدك فلان . قد عرف معنى الصوم على الحقيقة ، فأبح له الأكل فى رمضان ، فيقول له : قد وثقته وأمنته على سرائرنا ؟ فيقول له : نعم ، فيقول : قد وضعت عنه ذلك ، ثم يقيم بعد ذلك مدة ، فيأتيه ذلك الداعى الملعون فيقول له : قد عرفت ثلاث درجات ، فاعرف الطهارة ما هى ، ومعنى الجنابة ما هى فى التأويل ، فيقول له : فسر لى ذلك ، فيقول له : اعلم أن معنى الطهارة طهارة القلب ، وأن المؤمن طاهر بذاته ، والكافر نجس لا يطهره الماء ولا غيره ، وأن الجنابة هى موالاة الأضداد أضداد الأنبياء والأئمة ، فأما المنى فليس بنجس ؛ منه خلق الله الأنبياء ،

---

(١) فى الآية (٣٢) من سورة الأعراف .
(٢) فى الآية (٩٣) من سورة المائدة .
(٣) فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة .
(٤) فى الآية (٢٦) من سورة مريم .

والأولياء، وأهل طاعته، وكيف يكون نجساً وهو مبدأ خلق الإنسان، وعليه يكون أساس البنيان ؟ فلو كان التطهير منه من أمر الدين لكان الغسل من الغائط والبول أوجب، لأنهما نجسان، وإنما معنى «وإن كنتم جنباً فاطهروا»(١) معناه : وإن كنتم جهلة بالعلم الباطن فتعلموا واعرفوا العلم الذى هو حياة الأرواح، كالماء الذى هو حياة الأبدان، قال تعالى : «وجعلنا من الماء كل شىء حى»(٢)، وقوله : «فلينظر الإنسان مم خلق . خلق من ماء دافق»(٣)، فلما سماه الله بهذا دل على طهارته، ويوهمون ذلك المخدوع بهذه المقالة، ثم يأمره ذلك الداعى أن يدفع اثنى عشر ديناراً، ويقول : يامولانا عبدك فلان قد عرف معنى الطهارة حقيقة وهذا قربانه إليك، فيقول : اشهدوا أنى قد حللت له ترك الغسل من الجنابة، ثم يقيم مدة فيقول له هذا الداعى الملعون : قد عرفت أربع درجات، وبقى عليك الخامسة، فاكشف عنها ؛ فإنها منتهى أمرك وغاية سعادتك، ويتلو عليه «فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين»(٤)، فيقول له : ألهمنى إياها ودلنى عليها، فيتلو عليه «لقد كنت فى غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد»(٥)، ثم يقول له : أتحب أن تدخل الجنة فى الحياة الدنيا ؟ فيقول : وكيف لى ذلك ؟ فيتلو عليه «وإن لنا للآخرة والأولى»(٦)، ويتلو عليه (قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة»(٧) والزينة ههنا : ما خفى على الناس من أسرار النساء التى لا يطلع عليها إلا المخصوصون

---

(١) فى الآية (٦) من سورة المائدة

(٢) فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء

(٣) الآيتان (٥ ، ٦) من سورة الطارق

(٤) فى الآية (١٧) من سورة السجدة

(٥) الآية (٢٢) من سورة ق .

(٦) الآية (١٣) من سورة الليل

(٧) فى الآية (٣٢) من سورة الأعراف

بذلك ، وذلك قوله « ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن[1] » والزينة مستورة غير مشهورة ، ثم يتلو عليه «وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون[2]» ، فمن لم ينل الجنة فى الدنيا لم ينلها فى الآخرة ؛ لأن الجنة مخصوص بها ذوو الألباب ، وأهل العقول دون الجهال ؛ لأن المستحسن من الأشياء ماخفى ؛ ولذلك سميت الجنة جنة لأنها مستجنة ، وسميت الجن جنا لاختفائهم عن الناس ، والجنة المقبرة لأنها تستر من فيها ، والترس المجن لأنه يستتر به ، فالجنة هاهنا : ما استتر عن هذا الخلق المنكوس الذين لاعلم لهم ولاعقول ، فحينئذ يزداد هذا المخدوع انهماكا ، ويقول لذلك الداعى الملعون . تلطف فى حالى ، وبلغنى إلى ما شوقتنى إليه ، فيقول : ادفع النجوى اثنى عشر ديناراً تكون لك قرباناً وسلماً ، فيمضى به فيقول : يا مولانا . . . إن عبدك فلانا قد صحت سريرته ، وصفت خبرته وهو يريد أن تدخله الجنة ، وتبلغه حد الأحكام ، وتزوجه الحور العين ، فيقول له : قد وثقته وأمنته ؟ فيقول : يا مولانا قد وثقته وأمنته وخبرته فوجدته على الحق صابراً ، ولأنعمك شاكراً ، فيقول : علمنا صعب مستصعب لا يحمله إلا نبى مرسل ، أو ملك مقرب ، أو عبد امتحن الله قلبه بالإيمان ، فإذا صح عندك حاله فاذهب به إلى زوجتك فاجمع بينه وبينها ، فيقول: سمعا وطاعة لله ولمولانا ، فيمضى به إلى بيته ، فيبيت مع زوجته ، حتى إذا كان الصباح قرع عليهما الباب وقال: قوما قبل أن يعلم نبأنا هذا الخلق المنكوس ، فيشكر ذلك المخدوع ويدعو له ، فيقول له : ليس هذا من فضلى ، هذا من فضل مولانا ، فإذا خرج من عنده تسامع به أهل هذه الدعوة الملعونة ، فلا يبقى منهم أحد إلا بات مع زوجته كما فعل ذلك الداعى الملعون ، ثم يقول له : لابد لك أن تشهد هذا المشهد الأعظم عند مولانا ، فادفع قربانك ، فيدفع اثنى عشر ديناراً ويصل به ويقول: يامولانا .. إن عبدك فلانا يريد أن يشهد المشهد الأعظم ، وهذا قربانه ، حتى إذا جن الليل ، ودارت الكؤوس وحميت الرءوس ، وطابت النفوس ، أحضر جميع أهل هذه الدعوى الملعونة

---

(١) فى الآية (٣١) من سورة النور .

(٢) الآيتان (٢٢ ، ٢٣) من سورة الواقعة .

حريمهم ، فيدخلن عليهم من كل باب ، وأطفئوا السراج والشموع ، وأخذ كل واحد منهم ما وقع عليه فى يده ، ثم يأمر المقتدى زوجته أن تفعل كفعل الداعى الملعون وجميع المسيجيبين ، فيشكره ذلك المخدوع على ما فعل له ، فيقول له : ليس هذا من فضلى ، هذا من فضل مولانا أمير المؤمنين فاشكروه ولا تكفروه على ما أطلق من وثاقكم ، ووضع عنكم أوزاركم ، وحط عنكم آصاركم ، ووضع عنكم أثقالكم ، وأحل لكم بعض الذى حرم عليكم جهالكم . « وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم[1] » .

قال محمد بن مالك ـ رحمه الله تعالى ـ هذا ما اطلعت عليه من كفرهم وضلالتهم ، والله تعالى لهم بالمرصاد ، والله تعالى على شهيد بجميع ما ذكرته مما اطلعت عليه من فعلهم وكفرهم وجهلهم ، والله يشهد على بجميع ما ذكرته عالم به ، ومن تكلم عليهم بباطل فعلية لعنة الله ، ولعنة اللاعنين ، والملائكة ، والناس أجمعين ، وأخزى الله من كذب عليهم ، وأعد له جهنم وساءت مصيرا ، ومن حكى عنهم بغير ماهم عليه فهو يخرج من حول الله وقوته إلى حول الشيطان وقوته . . . .[2]) اهـ .

وبعد . . . ألست ترى معى أن تأويلهم للقرآن تأويل فاسد لا يقوم على أساس ولا يستند إلى برهان ، وإنما هى أوهام وأباطيل ، غرروا بها ضعاف العقول ليسلخوهم من الدين ، وليدخلوهم فى زمرة الملحدين وحزب الشياطين ؟ أعتقد ذلك ، وأظن أن سؤالا يدور بخلد القارىء هو : كيف نجزم بنسبة هذه التأويلات كلها إلى الباطنية مع وجود التناقض والاختلاف بين بعض المعانى التى نقلت عنهم للفظ الواحد ؟ أليس هذا دليلا على عدم صحة كل ما ينسب إليهم ؟ . . والحق أن السؤال وارد ، ولكنه مدفوع بما ذكره الغزالى من أن سر هذا الاضطراب راجع إلى أنهم كانوا لا يخاطبون الخلق بمسلك واحد ، بل غرضهم الاستتباع والاحتيال ، فلذلك تختلف كلمتهم ، ويتفاوت نقل المذهب عنهم[3] .

(١) الآية (٣٥) من سورة فصلت . (٢) كشف أسرار الباطنيه ص ١١-١٦ .
(٣) فضائح الباطنيه ص ٨ .

موقف متاخرى الباطنية من تفسير القرآن الكريم

تمهيـــد : فى بيان انتشار الباطنية فى البلاد الآن وتعدد ألقابهم :

قلنا إن الباطنية يعرفون بأسماء عدة ، وقلنا إنه لا تزال منهم بقية إلى يومنا هذا فى كثير من بلاد المسلمين، والآن أزيدك على ما تقدم أن الباطنية يوجدون بالهند ، ويعرفون بالبهرة أو الإسماعيلية ، وزعيمهم أغا خان الزعيم الإسماعيلى المعروف . ويوجدون فى بلاد الأكراد ويعرفون (بالعلوية) حيث يقولون: على هو الله . ويوجدون فى تركيا ويعرفون (بالبكداشية) وفى مصر جماعة من البكداشية من أصل ألبانى يقيمون فى الجبل المعروف بالمغاورى[1]. ويوجدون فى بلاد العجم ويعرفون (بالبابية) . ويوجدون فى فلسطين ويعرفون (بالبهائية) ومنهم جماعات فى بلاد متفرقة[2] ، وتوجد بالهند فرقة أخرى من الباطنية هى القاديانية ، وهى أحدث فرقهم عهداً ، وأقربها ظهوراً .

هذه الفرق التى تنتشر بين المسلمين إلى اليوم لا بد أن يكون لكل منها رأى فى التأويل الباطنى للقرآن الكريم ، يتفق مع مبدئها ومشربها .

ولا بد أن يكون لعلمائها تأويلات قرآنية يميلون بها نحو مذاهبهم وعقائدهم . غير أننا لم نقف على شىء من ذلك ، اللهم إلا شيئاً يسيراً للبابية والبهائية . .

---

(١) لما قامت الثورة المصرية سنة ١٩٥٢ طردت جماعه البكداشيه من مصر وذلك لما ظهر من فساد حالهم وسوء فعالهم .

(٢) ومن محاسن ثورة ٢٣ يوليو سنه ٥٢ ، طرد البهائيين من مصر ، والاستيلاء على مركزهم العام ، وتحويله إلى جمعيه المحافظه على القرآن الكريم ، وقد تم ذلك فى حفل عام سنه ١٩٦١ م .

لهذا قصرنا كلامنا على هذه الطائفه[1] وموقفها من كتاب الله تعالى ، لأن ما وصلنا عنها - وإن قل - فهو يعطينا فكرة ولو إلى حد ما عن موقفها من تفسير القرآن الكريم .

واعتمادنا فى كل ما نكتب : على بعض الكتب التى وصلتنا عنهم ، وعلى ما نشر فى المجلات العلمية من البحوث التى تدور حولهم ، فنقول وبالله التوفيق :

(١) البابية والبهائية فى واقع الأمر طائفة واحدة ، نسبت إلى الباب زعيمها الأول فقيل لها بابية ، ثم نسبت إلى البهاء زعيمها الثانى ، فقيل لها بهائية كما هو موضح بعد .

البابية والبهائية

كلمة إجمالية عن نشأة البابية والبهائية :

البـابية :

نسبة إلى الباب ، وهو لقب ميرزا على محمد ، الذى ابتدع هذه النحلة ، وإليه تنسب هذه الطائفة ، باعتباره المؤسس الأول لها .

والبهائية :

نسبة إلى بهاء الله ، وهو لقب ميرزا حسين على ، الزعيم الثانى للبابية ، وإليه تنسب هذه الطائفة ، باعتباره المؤسس الثانى لها .

وأصل نشأة هذه الطائفة : أن ميرزا على محمد ، الملقب بالباب ، والمولود فى سنة ١٢٣٥ هجرية ، توفى عنه والده ميرزا محمد رضا قبل فطامه ، فربى فى حجر خاله ميرزا سيد على ، ونشأ معه فى مدينة شيراز بجنوب إيران ، واشتغل معه بالتجارة ، ولما بلغ سنه الخامسة والعشرين ادعى أنه الباب ـ والباب عند الشيعة معناه نائب المهدى المنتظر ـ وكان ادعاؤه هذا فى سنة ١٢٦٠ هجرية ، وما لبث أن وصلت هذه الدعوة إلى طائفة من الجاهلين فصدقوا بها ، وتتابعوا عليها ، وكان عدد من صدقه فى أول الأمر ثمانية عشر رجلا ، فسماهم بكلمة (حى) لأن عدد حرفيها بحساب الجمل ثمانية عشر ، ثم أمر أتباعه هؤلاء بالانتشار فى إيران وبلاد العراق ، يبشرون به وبدعوته ، وأوصاهم بكتمان اسمه حتى يظهره هو بنفسه . ولما حج وفرغ من أعمال الحج أعلن دعوته فى المجمع الكبير فاشتهر اسمه ، وذاعت دعوته ، فثارت عليه طوائف المسلمين ، وقاموا فى سبيل دعوته يحاربونها بكل الوسائل .

وقد عقد بعض الولاة بين العلماء وبين الباب مناظرات أظهرت ما فى دعوته من غواية وضلال ، فكفره بعض العلماء ، ورماه بعض آخر منهم بالجنون ، فاعتقله الوالى فى سجن شيراز ، ثم فى سجن أصفهان ، ثم فى طهران ، ثم فى أذربيجان .

وفى عهد السلطان ناصر الدين شاه اشتدت الخصومة بين البابيين ومخالفيهم ، وقامت بينهم حرب طاحنة كان من نتائجها أن أمر الصدر الأعظم بقتل الباب ، فعلق فى ميدان مدينة تبريز ، وقتل رميا بالرصاص ، وذلك فى سنة ١٢٦٥ هجرية.

وبعد قتله اختلف أتباعه على أنفسهم فى شأن من ينوب عنه ، وظهرت من بعض أتباعه دعاوى مختلفة ، من قبيل النبوة ، والوصاية ، والولاية . وأمثالها . وظلوا على هذا الأمر إلى أن حاول بعضهم اغتيال ناصر الدين شاه سنة ١٢٦٨ هجرية انتقاما لزعيمهم الباب ، ولما خاب سعيهم وفشلوا فى هذه المؤامرة ، أخذت الحكومة تضطهد زعماء البابيين ، وتسوقهم إلى التحقيق ، فقتل من قتل ، ونفى من نفى ، وكان من بين زعمائهم فى هذا الوقت — وقت الاضطهاد — ميرزا حسين على الملقب فيما بعد بـ (بهاء الله) .

(بهاء الله)

ولد بهاء الله سنة ١٢٣٣ هجرية . وكان ابنه ميرزا عباس من كبار وزراء الدولة فى وقته ، فلما قام الباب واشتهر أمره صدقه بهاء الله ، فاشتد به أزر البابيين وكثرت جماعتهم ، ولما حدثت حادثة سنة ١٢٦٨ هجرية ، وهى محاولة اغتيال ناصر الدين شاه ، قبض على بهاء الله وسجن نحو أربعة أشهر ، ثم أفرج عنه وأبعد إلى العراق ، فدخل بغداد سنة ١٢٦٩ هجرية ، ومكث بها اثنى عشر عاما ، يدعو الناس إلى نفسه ، ويزعم أنه هو الموعود به الذى أخبر عنه الباب ، وكان يشير إليه بلفظ (من يظهره الله) وهناك تجمع حوله بعض أتباعه الذين لحقوا به من البابيين ، وتسموا حينئذ بالبهائيين ، ووقعت بينهم وبين شيعة العراق فتنة كادت تفضى إلى قيام حرب أهلية بين الفريقين ، فقررت الحكومة العثمانية فى ذلك الوقت إرسال بهاء الله إلى الآستانة ، فأرسل إليها ومكث بها نحوا من أربعة أشهر ، ثم نفى إلى أدرنة[1] ومكث بها نحوا من خمس سنوات ، ثم نفى

---

(١) وقع بين أتباع البهاء وأتباع أخيه يحيي الملقب بصبح أزل — وكان ممن رفض دعوى أخيه . وأتباعه يعرفون بالأزلية — فتنة فى أدرنة ، فأمرت الحكومة العثمانية بإبعاد الفريقين من أدرنة فنفت البهاء وأتباعه إلى عكا ، ونفت يحيي وأتباعه إلى قبرص .

منها إلى عكة من بلاد الشام سنة ١٢٨٥ هجرية، وبقى بها إلى أن مات سنة ١٣٠٩ هجريه ، فتولى رئاسة الطائفة ابنه عباس المولود سنة ١٨٤٤ م والمتوفى سنة ١٩٢١ م والملقب ، (عبد البهاء) فأخذ يدعو إلى هذا المذهب ، ويتصرف فيه كيف يشاء ، فلم يرض هذا الصنيع أتباع البهاء فانشقوا عليه ، والتف فريق منهم حول أخيـــه الميرزا على ، وألفوا كتبا فى الطعن على عبد البهاء يتهمونه فيها بالمروق من دين البهاء . (١)

الصلة بين عقائد البابية وعقائد الباطنية القدامى :

بالرغم من أن هذه الفرقة لم تظهر إلا قريبا ، فإنا نجدها ليست بالفرقة المحدثة فى عقائدها وتعاليمها ، بل هى فى الحقيقة ونفس الأمر وليدة من ولائد الباطنية ، تغذت من ديانات قديمة ، وآراء فلسفية، ونزعات سياسية. ثم درجت تحذو حذو الباطنية الأول ، وتترسم خطاهم فى كل شىء ، وتهذى فى كتاب الله، فتأولته بمثل ماتأولوه : لتصرف عنه قلوبا تعلقت به ونفوسا اطمأنت إليه .

والذى يقرأ تاريخ الباطنية الأول ، ويطلع على ما فى كتبهم من خرافات وأباطيل ، ثم يقرأ تاريخ البابية والبهائية ، ويطلع على مافى كتبهم من خرافات وأباطيل ، لا يسعه إلا أن يحكم بأن روح الباطنية حلت فى جسم ميرزا على ، وميرزا حسين على ، فخرجت للناس أخيراً باسم البابية والبهائية .

تقوم دعوة قدماء الباطنية على إبطال الشريعة الإسلامية ، وينفذون إلى عقول العامة بإظهارهم الحب والتشيع، بل والانتساب إلى آل البيت، ثم يصلون إلى أهوائهم ومآربهم بصرفهم القرآن إلى معان باطنية لا يقبلها العقل ، ولا تمت إلى الدين بسبب ، وعلى هذا الأساس قامت دعوة البابية والبهائية ، وبمثل هذه الوسيلة وصلوا إلى أغراضهم وأهوائهم ، وإليك ما يوضح ذلك :

---

(١) لخصنا هذا البحث التاريخى من مقال لأبى الفضائل الإيرانى منشور بمجلة المقتطف الجزء التاسع ، السنة العشرين . ومن مقال السيد محمد الخضر حسين منشور بمجلة نور الاسلام (مجلة الأزهر فيما بعد) العدد الخامس من السنة الاولى .

أولا : فى الباطنية من يدعى النبوة لنفسه أو يدعيها لغيره ، وميرزا على الملقب بالباب يدعى أنه رسول للناس من قبل الله تعالى، وله كتاب اسمه (البيان) ادعى أنه منزل عليه من عند الله تعالى . وقد جاء فى رسالة بعث بها الباب إلى العلامة الآلوسى صاحب التفسير المعروف ، يدعوه فيها إلى الإيمان به ، (إننى أنا عبد الله ، قد بعثنى بالهدى من عنده) وسمى فى هذه الرسالة مذهبه دين الله فقال : (ومن لم يدخل فى دين الله ، مثله كمثل الذين لم يدخلوا فى الإسلام)[١].

ولا نعلم ماذا أجاب به الآلوسى على هذه الرسالة ، وإن كنا نعلم رأيه فى هذه الطائفة عند ما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٤٠) من سورة الأحزاب « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين » وذلك حيث يقول : (وقد ظهر فى هذا العصر عصابة من غلاة الشيعة لقبوا أنفسهم بالبابية ، لهم فى هذا الباب فصول يحكم بكفر معتقدها كل من انتظم فى سلك ذوى العقول ، وقد كاد يتمكن عرقهم من العراق لولا همة واليه النجيب الذى وقع على همته وديانته الاتفاق ، حيث خذلهم — نصره الله — وشتت شملهم ، وغضب عليهم — رضى الله تعالى عنه — وأفسد عملهم . فجزاه الله تعالى عن الإسلام خيراً ، ودفع عنه فى الدارين ضيما وضيراً[٢] .

وكذلك ادعى زعيمهم الثانى الملقب ببهاء الله : أنه رسول من عند الله ، جاء لتأسيس الإسلام على الأرض ، وبين أيدينا كتاب بهاء الله ، ويطلق عليه اسم (الكتاب) قرأنا فيه فوجدناه يقول :

(لعمر الله إن البهاء ما نطق عن الهوى ، قد أنطقه الذى أنطق الأشياء بذكره وثنائه ، لا إله إلا هو الفرد الواحد المقتدر المختار[٣]) .

(لعمرى ما أظهرت نفسى ، بل الله أظهرنى كيف أراد ، إنى كنت كأحد من العباد ، وراقداً على المهاد ، مرت على نسائم السبحان ، وعلمنى علم ما كان .

---

(١) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ٩٨

(٢) روح المعانى ج ٢٢ ص ٣٩

(٣) الكتاب ص ٧

ليس هـــذا من عندى بل من لدن عزيز عليم . وأمرنى بالنداء بين الأرض والسماء ، بذلك ورد على ما ذرفت به دموع العارفين . ما قرأت ما عند الناس من العلم ، وما دخلت المدارس ، فاسأل المدينة التى كنت فيها لتوقن بأنى لست من الكاذبين[١]) .

(قل قد أتى المختار ، فى ظل الأنوا ، ليحيي الأكوان ، من نفحات اسمه الرحمن ، ويتحد العالم ، ويجتمعوا على هذه المائدة التى نزلت من السماء[٢]) .

ويرى الباب أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية، فابتدع لأتباعه أحكاما خالف بها ما جاءت به الشريعة الإسلامية ، فجعل الصوم تسعة عشر يوماً من شروق الشمس إلى غروبها ، وعين لهذه الأيام وقت الاعتدال الربيعى . بحيث يكون عيدالفطر عندهم يوم (النيروز) على الدوام ، وفى كتاب البيان (..... أيام معدودات . وقد جعلنا النيروز عيداً لكم بعد إكمالها[٣] .

كذلك يرى بهاء الله أن شريعته ناسخة للشريعة الإسلامية : ويقرر ذلك فى كتابه فيقول (لو كان القديم هو المختار عندكم ، لما تركتم ماشرع فى الإنجيل؟ بينوا ياقوم .. لعمرى ليس لكم اليوم من محيص . إن كان هذا جرمى فقد سبقنى فى ذلك محمد رسول الله ، ومن قبله الروح ، ومن قبله الكليم . وإن كان ذنبى إعلاء كلمة الله وإظهار أمره ، فأنا أول المذنبين . لاأبدل هذا الدين بملكوت السموات والأرضين[٤]) .

وقرر البهاء أن الدين قسمان . عملى وروحانى، فالقسم الروحانى وهو مظاهر الألوهية والنبوة ، غير قابل للتبديل . والقسم العملى ، وهو المتعلق بالصور والأشكال الخارجية ، قابل للتغيير . وعلى هذا المبدأ جعل لأتباعه الصلاة تسع ركعات فى اليوم والليلة ، وجعل قبلتهم فى الصلاة أين يكون هو ..، وفى هذا

(١) المرجع السابق ص ٩ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٥ .

(٣) رسائل الاصلاح جـ ٢ ص ٩٩ .

(٤) كتاب بهاء الله ص ٣٩ .

يقول : (إذا أردتم الصلاة فولوا وجوهكم شطرى الأقدس[1]) وسوى بين الرجل والمرأة فى الحقوق الشرعية والسياسية ، وقرر عقوبات مالية للزنى والسرقة وغيرهما ، ومنع التسرى ، وحرم الزواج بأكثر من واحدة ، وقيد لهم الطلاق وصعبه . وحجته فى هذا كله : أن جميع الأديان أضحت لا تصلح لإصلاح العالم . فلابد من دين جديد يوافق هذا العصر .. عصر التقدم المادى العظيم . وهذا الدين الذى جاء به هو الذى يصلح فى نظره لمسايرة هذا العصر دون غيره[2] .

ثانياً : منع الحسن بن الصباح وغيره من زعماء الباطنية ، العوام من دراسة العلوم ، والخواص من النظر فى الكتب المتقدمة . وفعل الباب مثل ذلك فحرم فى كتابه (البيان) التعليم وقراءة كتب غير كتبه . فكان من وراء ذلك أن حرق أتباعه القرآن الكريم ، وما فى أيديهم من كتب العلم . . . ولكن بهاء الله أدرك أن هذا التحجير قد يصرف بعض الناس عن دعوته . فنسخ ذلك التحجير ، وذلك حيث يقول فى كتابه المسمى بـ (الأقدس) (قد عفا الله عنكم ما نزل فى البيان من محو الكتب ، وآذنا بكم بأن تقرءوا من العلوم ما ينفعكم[3]) .

ثالثاً : من الباطنية من يدعى حلول الإله فى بعض الأشخاص ، كالقرامطة الذين يدعون حلول الإله فى إمامهم محمد بن إسماعيل . ونجد مثل هذه الدعوى متجلية فى بعض مقالات البابية ، فهذا بهاء الله يقول فى الكتاب (لنا مع الله حالات نحن فيها هو ، وهو نحن ، ونحن نحن[4]) وهذا عباس الملقب بعبدالبهاء يقول : (وقد أخبرنا بهاء الله بأن مجىء رب الجنود والأب الأزلى ، ومخلص العالم الذى لابد منه فى آخر الزمان ، كما أنذر جميع الأنبياء ، عبارة عن تجليه فى

---

(١) رسائل الإصلاح جـ ٣ ص ٩٦

(٢) انظر مقال أبى الفضائل فى المقتطف العدد التاسع من السنة العشرين ، وانظر المحاضرة التى ألقاها عبد العزيز نصحى عن البهائيين بدار جمعية الهداية الاسلامية .

(٣) رسائل الاصلاح جـ ٣ ص ١٠٠ .

(٤) الكتاب ص ٣٣ .

الهيكل البشرى ، كما تجلى فى هيكل عيسى الناصرى ، إلا أن تجليه فى هذه المرة أتم وأكمل وأبهى، فعيسى وغيره من الأنبياء هيئوا الأفئدة والقلوب لاستعداد هذا التجلى الأعظم)[1] يريد بهذا : أن الله تجلى فيه بأعظم من تجليه فى أجسام الأنبياء على مايزعم . وهذا أبو الفضل الإيرانى أحد دعاتهم يقول : (..... فكل ماتوصف به ذات الله ويضاف ويسند إلى الله من العزة ، والعظمة ، والقدرة والعلم ، والحكمة ، والإرادة ، والمشيئة . وغيرها من الأوصاف ، إنما يرجع بالحقيقة إلى مظاهر أمره ، ومطالع نوره ، ومهابط وحيه ، ومواقع ظهوره[2]) ومثل هذا كثير فى كلام زعمائهم ودعاتهم .

رابعاً : يدعى الباطنية رجوع الإمام المعصوم بعد استتاره ، ويحصرون مدارك الحق فى أقواله . والبهائية يقولون هذا القول ويثبتونه فى كتبهم .

يقول بهاء الله فى الكتاب (يسند القائم ظهره إلى الحرم ، ويمد يده المباركة ، فترى بيضاء من غير سوء ، ويقول : هذه يد الله ، ويمين الله ، وعين الله ، وبأمر الله . أنا الذى لا يقع عليه اسم ولا صفة ، ظاهرى إمامة ، وباطنى غيب لا يدرك[3]) .

وقد عرفت أن البابية والبهائية يعبرون عن الإمام المعصوم بمن سيظهره الله، ويزعمون أنه هو الذى يعرف تأويل ماجاءت به الرسل عليهم السلام .

خامسا : من مبادىء قدماء الباطنية التفرس. وعلى هذا المبدأ منعوا التكلم بآرائهم فى بيت فيه سراج أى فقيه أو متعلم . والبهائية يسيرون على هذا المبدأ وإليك مايثبت ذلك .

أرسل إلى أبى الفضائل الإيرانى بعض إخوانه كتابا يرجوه فيه أن يرد على مقال كتبه جرجس صال الإنجليزى بإمضاء هاشم الشامى ، والمقال يتضمن

---

(١) رسائل الاصلاح ج٢ ص١٠٠

(٢) المرجع نفسه (٣) الكتاب ص ٨٣ .

توجيه الاعتراضات على فصاحة القرآن الكريم ، فاعتذر أبو الفضائل عن ذلك فى رسالة أرسل بها إلى صاحبه يقول فيها :

(..... إن هناك موانع جمة ، أعظمها وأشدها مانع كبير لا يستسهل العاقل تذليل صعوباته ، ولا يتسنم النبيه متن صهواته ، حيث إن قلوب الذين اكتفوا من الإسلام باسمه ، ومن القرآن برسمه ، تغذت فى مدة مديدة ، وأزمنة غير وجيزة بقشور المطالب ، وألفت سفاسف المسائل حتى بعدت عن لباب الكتاب ، وجهلت حقيقة معانى الخطاب ، فلو كشفنا عن حقائق الإشارات ، وأظهرنا المعانى المقصودة من ظواهر العبارات ، فطلعت صور الحقائق المقصورة فى قصر الآيات ، وتهللت وجوه المعانى المستورة فى خدور الإستعارات ، لندفع تلك الردود والاعتراضات ، ونظهر بطلان تلك الإيرادات والانتقادات ، تثور أولا أحقاد جهلائنا ، ويرتفع نعيب سفهائنا ، وينادون بالويل والثبور ، ويثيرون الأحقاد الكامنة فى الصدور ...) ثم يقول لصاحبه فى آخر الرسالة (... لتعلم حق العلم أنى ما نسيت ولم أكره صفة من صفاتك ، ولا خلة من خلالك ، ولكن — والحق يقال — إنك نسيت وصية روح الله الواردة فى سفر متى « لا تلقوا جواهركم تحت أرجل الخنازير » ، حيث تجاهر بجواهر الأسرار ومعالى المعانى ، عند من لا يستحق أن تخاطبه وتلاطفه ، وتجالسه وتؤانسه ، فكيف أنه يكون مستودع الحكمة الإلهية ، والأسرار الربانية ، فتمسك بالحكمة ، وكن على جانب عظيم من الفطنة[1]) .

ويقول فى رسالة أرسلها إلى الشيخ فرج الله زكى الكردى أحد أتباعهم فى مصر (...... واعلم ياحبيبى أنه سيدخل عليكم كثيرون ، ويتظاهرون بنوايا المتفحص الباحث ، ويظهرون السلم والوفاق ، وهم أهل النفاق وأصل الشقاق ، ومقصودهم معرفة أهل الإيمان ، واضطهاد أصحاب الإيقان ، كما تصرح وتنادى آى الفرقان : منها قوله تعالى : « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب

(١) رسائل أبى الفضائل ص١٢٦ — ١٢٧ .

بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . . . إلى آخر الآيات[١] ، فتحكم الآية المباركة أنه لابد من دخول أهل النفاق على أصحاب الوفاق ، للاستطلاع والاستراق ، فلا يغرنك تحببهم وترفقهم ، ولا يخدعنك ملاينتهم وتملقهم ، فإن التهور والتعجيل يوجب الندم والافتضاح ، والتروى يكفل النجاح والفلاح . ومن الحكم المأثورة (العجلة من الشيطان ، والتأنى من الرحمن[٢]) .

من كل ما تقدم يظهر لنا بوضوح : أن البابية والبهائية ليسوا أصحاب نحلة جديدة فى تعاليمها ومعتقداتها ، وإنما هم قوم من أهل الباطن يريدون الكيد للإسلام باسم الإصلاح الدينى ، وسيظهر لك من تأويلاتهم للقرآن — علاوة على ما سبق — أنهم ينهجون نهج الباطنية الأول ، ويترسمون خطاهم فى تحريفهم لكتاب الله ، والعبث بآياته ! ! .

---

(١) الآيات (١٣ ، ١٤ ، ١٥) من سورة الحديد .

(٢) رسائل أبى الفضائل ص ١٣٨ — ١٣٩

موقف البابية والبهائية من تفسير القرآن الكريم

لم تحل عقائد البابية والبهائية بينهم وبين الاعتراف بالقرآن الكريم ، ولم يمنعهم موقفهم الشاذ من الرجوع إليه ليأخذوا منه الشواهد على دعاواهم الباطلة ، ومذاهبهم الفاسدة ؛ تمويها على العامة ، وتغريرا بعقول الأغمار الجهلة .

أبو الفضائل الإيرانى يعيب تفاسير أهل السنة :

ولم يكن فى وجوههم قطرة من الحياة تمنعهم من التنديد بتفاسير علماء أهل السنة وتحقيرها ، فهذا داعيتهم أبو الفضائل الإيرانى ، نجده فى رسالة أرسلها لصديق له ، يعيب على تفاسير أهل السنة فيقول : (... ولقد يدهش الإنسان ويتحير ياحبيبى من تعاليمهم الباطلة ، وتفاسيرهم المضحكة . فإن أحباءنا الأمريكيين الذين تشرفوا بالوفود على الأرض المقدسة فى هذه الأيام الأخيرة ، قابلناهم فى بيروت ، وسافرنا ، معهم إلى الأرض الفيحاء مدينة حيفا ، أخبرونا بما يتحير منه الأريب ، ويدهش منه اللبيب ، كيف تقدمت كلمة الله فى تلك الأقطار البعيدة الشاسعة مع هذه التفاسير الباطلة الضائعة ، من النفوس الجاهلة الخادعة ؟ أليس ذلك من عظيم قدرة الله وشـــديد قوته ؟ وسطوع آياته وظهور بيناته ؟ ...)[1]

يعيب أبو الفضائل تفسير أهل السنة ؛ لأنه يرى فى زعمه أنه وأهل نحلته خير من يفهم القرآن ، ويعلم ما فيه من أسرار ورموز ، ويرى أنه ومن شاكله هم الراسخون فى العلم ، الذين يقفون على عجائب القرآن التى لا يدل عليها إلا باطنه ، أما ما يعنى به مفسرو أهل السنة من الظواهر فليس فى زعمه من المعانى التى يرمى إليها القرآن ، وفى هذا يقول ما نصه : (... لو كان معانى آيات القرآن ما هو ظاهر يعرفه كل من يعرف اللغة العربية ، ويتلذذ منه كل من له إلمام بالعلوم الأدبية ، كيف يتم هـذا القول — يريد قول رسول الله صلى الله عليه

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٦٦

وسلم فى شأن القرآن إنه لا تنقضى عجائبه ــ وكيف يصدق قول الله فى الآية (٧) من سورة آل عمران « وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم »[١]) .

إنتاج البابية والبهائية فى التفسير ، ومثل من تأويلاتهم الفاسدة :

ولكن هل وصل إلى أيدينا شىء من كتب هذه الطائفة فى تفسير القرآن ؟ لم نسمع ولم نقرأ أنهم ألفوا تفسيراً متناولا للقرآن آية آية ، وإنما قرأنا أن رئيسهم الأول فسر سورة البقرة ، وسورة يوسف ، وسورة الكوثر ، ولكن لم يصل إلى أيدينا شىء من ذلك ، وكل ماوصل إلينا هو نبذ من تفسيره ، وتفسير بعض أشياعه ودعاته ، قرأناها فى كتبهم أنفسهم ، وفى الكتب والمقالات التى كتبت عنهم ، وهذه النبذ مع قلتها تصور لنا مقدار تهجمهم على تحريف القرآن الكريم ، والميل بنصوصه إلى مايرضى أهواءهم ، ويشبع أطماعهم . وإليك بعض هذه التأويلات ، لتقف بنفسك على مقدار هذيان القوم ، وتلاعبهم بالقرآن وبالعقول ! !

من تأويلات الباب:

فسر الباب سورة يوسف ، فمشى فيها على طريقة التأويل الذى لا يقره الشرع ولا يقبله العقل ، ولا يمكن أن يفهمه إلا من يفهم لغة المبرسمين[٢] كما قيل .

وإليك بعض ما قاله الباب فى تفسيره لسورة يوسف ، لتقف على مقدار هذيانه ، وتلاعبه بالنصوص القرآنية .

عند قوله تعالى فى الآية (٤) « إذ قال يوسف لأبيه يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » يقول مانصه : (وقد قصد الرحمن من ذكر يوسف نفس الرسول ، وثمرة البتول ، حسين بن على بن أبى طالب مشهوداً . . . إذ قال حسين لأبيه يوماً : إنى رأيت أحد عشر كوكبا

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٧٦ .
(٢) البرسام بكسر الباء : علة يصحبها هذيان .

والشمس والقمر رأيتهم بالإجاطة على الحق لله القديم سجاداً . . . وإن الله قد أراد بالشمس فاطمة ، وبالقمر محمداً ، وبالنجوم أئمة الحق فى أم الكتاب معروفا ، فهم الذين يبكون على يوسف بإذن الله سجدا وقياما[1]) .

وفى قوله تعالى فى الآية (٥) « قال يابنى لاتقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً إن الشيطان للإنسان عدو مبين » يقول ما نصه : (إذ قال على يابنى لا تخبر بما أراك الله من أمرك إخوتك ترحما على إنفهم ، وصبرا لله العلى ، وهو الله كان عزيزا حميداً . إن كنت تخبر من أمرك فى بعض مما قضى الله فيك ، فيكيدوا لك كيدا ، بأن يقتلوا أنفسهم فى محبة الله من دون نفسك الحق شهيداً ، وإن الله لوجهك بدمك محمراً على الأرض بالحق على الحق صبيغاً وإن الله قد شاء كما شاء أن يراك مخضباً شعرك من دمك ، ونفسك على الأرض على غير الحق لدى الحق قتيلا . وجسمك على الأرض عرياً . وإن الله شاء كما شاء بأن يرى بناتك وحريمك فى أيدى الكافرين أسيراً . . .[2]) .

وعند قوله تعالى فى الآية (٨) « إذ قالوا ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا ونحن عصبة إن أبانا لفى ضلال مبين» يقول مانصه : (. . . إذ قالوا حروف لا إله إلا الله . وإن يوسف أحب إلى أبينا منا بما قد سبق من علم الله حرفا مستسراً بالسر مقنعا على السر محتجباً فى سطر ، غايباً فى سر السر مرتفعا عما فى الدنيا وأيدى العالمين جميعا . وإنا نحن عصبة فيما أراد الله فى شأن يوسف النبى محمد العربى حول السطر مسطوراً . وإن الله قد فضل أبانا بفضل نفسه وقدر الله سر المستسر من سر أمره بما فى أيدى العالمين بالكشف المبين على أهل النار من سر (الباء) ضلالا ... ألخ[3]) اه .

---

(١) مفتاح باب الأبواب ص ٣٠٩ .

(٢) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٠ .

(٣) مفتاح باب الأبواب ص ٣١٢ .

من تأويلات بهاء الله :

ويرى بهاء الله أن ماورد فى القرآن من الصراط ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، والكعبة ، والبلد الحرام ، وما إلى ذلك ، كله لايراد به ظاهره وإنما يراد به الأئمة . وفى هذا يقول فى الكتاب : (قال أبو جعفر الطوسى : قلت لأبى عبد الله : أنتم الصراط فى كتاب الله ، وأنتم الزكاة ، وأنتم الحج ؟ قال : يافلان .. نحن الصراط فى كتاب الله عز وجل ، ونحن الزكاة ، ونحن الصيام ، ونحن الحج ، ونحن الشهر الحرام ، ونحن البلد الحرام ، ونحن كعبة الله ، ونحن قبلة الله ، ونحن وجه الله[1]) .

وفى كتاب بهاء الله والعصر الجديد ، مايدل على أن البهائيين لايعترفون بالبعث ، ولا بالجنة والنار ؛ حيث يفسرون يوم الجزاء ويوم القيامة بمجىء ميرزا حسين الملقب ببهاء الله قال فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد (وطبقا للتفاسير البهائية ، يكون مجىء كل مظهر إلهى عبارة عن يوم الجزاء ، إلا أن مجىء المظهر الأعظم بهاء الله : هو يوم الجزاء الأعظم للدورة الدنيوية التى نعيش فيها) وقال : (ليس يوم القيامة أحد الأيام العادية ، بل هو يوم يبتدىء بظهور المظهر ؛ ويبقى ببقاء الدورة العالمية[2])

ويفسر البهائية الجنة بالحياة الروحانية ، والنار بالموت الروحانى ، فقد جاء فى كتاب بهاء الله والعصر الجديد (أن الجنة والنار فى الكتب المقدسة حقائق مرموزة) فالجنة ترمز إلى حياة الكمال ، والنار ترمز إلى حياة النقص . ولما كانت الحياة الروحية فى نظر البهاء هى الإيمان به ، والموت الروحى هو تكذيب دعوته . فإنا نراه يقرر ذلك فيقول : (... منهم من قال : هل الآيات نزلت ؟ قل : أى ورب السموات . قال : أين الجنة والنار ؟ قل : الأولى لقائى ، والأخرى نفسك يا أيها المشرك المرتاب[3]) .

---

(١) الكتاب ص ٨٣ .

(٢) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ١٠٣

(٣) كتاب بهاء الله ص ٩٧ .

من تأويلات عبد البهاء عباس :

كذلك نجد عبد البهاء ، يتكلم عن النبوة والوحى بما يوافق كلام قدماء الباطنية الذين قلدوا الفلاسفة فيقول : (الأنبياء مرايا تنبىء عن الفيض الإلهى، والتجلى الروحانى . وانطبعت فيها أشعة ساطعه من شمس الحقيقه ، وارتسمت فيها الصور العالية ممثلة لها تجليات أسماء الله الحسنى . ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى ، فهم معادن الرحمة ، ومهابط الوحى ، ومشارق الأنوار ، ومصادر الإرسال . وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين[١]) .

ونجد قرة العيون إحدى أتباع الباب ، تدعى أنها الصور الذى ينفخ فيه يوم القيامة ، وتقول : (إن الصور الذى ينتظرون فى اليوم الأخير هو أنا[٢])

وبين أيدينا رسائل أبى الفضائل ، محمد بن رضا الجرفادقانى ، المعروف بفضل الله الإيرانى ، أحد دعاة البابية المتعصبين ، وكتاب الحجج البهية له أيضا ، وفيهما تفسير لبعض الآيات القرآنية ، بما يتفق ومذهبه الباطل .

فمن ذلك مثلا أنه يفسر الروح الأمين الذى ورد فى القرآن بأنه الحقيقة المقدسة ، ثم يعرفها فيقول : (هى غيب فى ذاتها ، مجردة بحقيقتها عن الجسم أو الجسمانيات ، فلا توصف بأوصاف الماديات ، ولا تذكر بخصائصها ، ولا يطلق عليها الخروج والدخول ، ولا توصف بالتحيز والحلول ، وإنما هى حقيقه تنجلى فى مظاهر أمر الله تعالى ، عرشها قلوب الأصفياء ، ومرآة تجليها صدور الأولياء ، وإنما مثل طلوعها وإشراقها فى النفوس القدسيه كمثل انطباع الشمس فى المرايا ، فلا يقال : إن الشمس حلت فى المرآة ، ولا إنها دخلت فيها ، بل ولا يقال : إنها عرضت عليها ، بل يقال : إن الشمس تجلت فى المرآة، وظهرت منها وأشرقت ، وانطبعت بها[٣]) اه ... وهذا بعينه مذهب قدماء الباطينة والفلاسفة .

---

(١) خطابات ومحادثات عبد البهاء .

(٢) المبادىء البهائية ص ٢١ .

(٣) رسائل أبى الفضائل ص ٣٩ .

ومن ذلك أيضا أنه فسر قوله تعالى فى الآيتين (١٤٢ ، ١٤٣) من سورة الأعراف « وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة .. الآية » تفسيراً باطنيا فقال : (المراد بالليل - كما سمعته منى مرارا - هو عبارة عن أيام غيبة شمس الحقيقة ، واليوم على حسب ما نزل فى التوراة المقدس يحسب كل يوم واحد بسنة واحدة ، وكان موسى عليه السلام لما فارق أرض مصر ، وفر من فرعون وملئه إلى مدين ، كان ابن ثلاثين ، وأقام فى مدين عشر سنوات يشتغل فيها برعى أغنام شعيب النبى عليه السلام ، وكان فى طى هذه المدة التى كانت كالليالى المظلمة ، والدياجى الكالحة من ظلم الفراعنة ، وأوهام الصابئة ، مشتغلا بتهذيب أخلاقه ، وتطييب أعراقه ، وتنقية فؤاده ، والمناجاة مع ربه فى وحدته وانفراده ، فلما طاب خلقه ، وتم خلقه ، بعثه الله نبيا لهداية بنى إسرائيل ، وإنقاذهم من ذلك الوبيل . فالمراد بأربعين ليلة هو أربعون سنة أقام موسى عليه السلام فى أثنائها فى مصر ومدين ، ولا تنافى كلمة واعدنا هذا التفسير ، حيث ظاهرها يقتضى تكلم الرب مع موسى قبل بعثته ، فإن أمثال هذه الكلمة كثيرا ما أطلقت على ما ألقى فى الروع ، وألهم فى القلب ، حتى على الحيوانات ، كما يدل عليه قوله تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا[1] » . « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين » ظاهر الآية المباركة يدل على أن موسى عليه السلام أخلف أخاه هرون حينما كان مع الشعب فى البرية ، كما هو مذكور فى التواريخ ، إلا أن التواريخ القديمة مظلمة جدا ، حيث أن المؤرخين اعتمدوا فى هذه المسائل على ماجاء فى التوراة وسائر الكتب العتيقة ، ولكننا أثبتنا فى كتاب الدرر البهية ضعف هذا المستند من حيث العلم ، فيجوز أن يكون هارون مستخلفا عن موسى عليهما السلام ؛ لحفظ الشعب أيام غياب موسى فى مدين ، وقد كان بنو إسرائيل يحافظون على التوحيد من لدن جدهم إبراهيم عليه السلام ، فلما غاب موسى وضع بنو إسرائيل رسم عجل أبيس أحد معبودات المصريين

---

(١) فى الآية (٦٨) من سورة النحل .

تزلفا إلى فرعون وقومه ، فكأنهم تجنسوا بالجنسية المصرية ، واعتنقوا الديانة الوثنية ، فلما رجع موسى عليه السلام ورآهم على تلك الحال السيئة والعبادة الباطلة ، أنكر ذلك على هارون ، كما ذكره المؤرخون ، إذ لا يعقل أن بنى إسرائيل على ماعرفوا بصلابة الرأى يتركون دياناتهم الموروثة بسبب تأخير موسى عن الرجوع إليهم عشر ليال . . .

ثم قال تعالى « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرنى أنظر إليك قال لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » اعلم — حفظك الله — أن علماءنا — سامحهم الله — اختلفوا فى رؤية الله تعالى وعدم جواز رؤيته ، فالشيعة والمعتزلة أنكروا جواز رؤيته ، حيث تقتضى الجهة والمقابلة ، وهى من مقتضيات الجسد والتحيز والتحدد وأمثال ذلك ، وهو منزه عن تلك الأوصاف ، إذ لم يفهموا من لفظة الله سوى الذات ، ولا شك أن الذات منزهة عن تلك الصفات . وأهل السنة والجماعة جوزوا رؤية الله تعالى اعتمادا على صريح الآيات ، واستنادا على صريح الأحاديث والروايات ، وكانوا على هذه العقيدة الصالحة إلى أواسط القرون الهجرية ، فمزجوها بالعقائد الوهمية ، حيث شاعت فى تلك القرون بينهم المسائل الكلامية ، والمعارف الناقصة العقلية ، فإنهم قالوا : إن رؤية الله تعالى جائزة وواقعة فى القيامة ، إلا أنها ليست من قبيل الإحاطة بالنظر ، فترى ذات الله تعالى من غير مواجهة ، ومقابلة ، وكيفية وإحاطة ، مما يرجع إلى الوهم الصريح ، وانكار الرؤية حقيقة . وأهل البهاء المستظلين تظلال الفرع الكريم المتشعب من الدوحة المباركة العليا ، لما عرفوا — على حسب مايعلمون من القلم الأعلى — أن ذات الله بسبب تجردها وتقديسها الذاتى لاتدرك ، ولا توصف ولا تسمى باسم ، ولا تشارك بإشارة ، ولا تتعين بإرجاع ضمير . والأسماء والأوصاف وكل مايسند ويضاف إليها راجعة فى الحقيقة إلى مظاهرها ومطالعها ولذلك سهل عليهم فهم معنى أمثال تلك الألفاظ التى نزلت فى الكتب المقدسة

والصحف المطهرة ؛ من قبيل رؤية الله تعالى ، ولقاء الله وظهور الله ومجىء الله وغيرها مما ليس بخاف على أهل التحقيق . . ثم اعلم أيها الحبيب اللبيب أن أهل البيان كثيرا ما أطلقوا فى عباراتهم لفظ (جل) على أكابر الرجال استعارة ، سواء كانوا من صناديد الدولة والملك ؛ أو من قروم أهل العلم والفضل كما أطلق أمير المؤمنين عليه السلام على مالك بن الحارث النخعى المعروف بالأشتر ، لما اشتهر ذكر وفاته ، وأخبر بمماته ، ومقامه عليه السلام معلوم لديك فى الفصاحة والبراعة ، ورسائله وخطبه مستغنية عن المدح والإطراء بالطلاوة والصناعة ، وعبارته هذه مذكورة فى نهج البلاغة . وهذه استعارة فى غاية المناسبة واللطافة حيث أن أكابر الرجال هم بمنزلة الأوتاد ، لاستقرار أرض المعارف والديانة ، أو الأمة والدولة ، وكثيراً ما أطلقه داود عليه السلام فى مزاميره ، وسائر الأنبياء من بنى إسرائيل فى كتبهم على الرب تعالى ، كما جاء فى مزمور (٤٢) (أقول لله صخرتى لماذا نسيتنى) وجاء فى مزمور (٧١) (كن لى صخرة وملجأ أدخله دائما . أمرت بخلاصى لأنك صخرتى وحصنى) إلى كثير من أمثالها ، فإذا عرفت هذا ، فاعلم أن موسى عليه السلام إنما طلب رؤيا الله تعالى بسبب اقتراح الشعب عليه أن يريهم الله ، كما يدلك عليه قوله تعالى « أرنا الله جهرة » إلا أن الله تعالى أخبره بأن رؤيته موقوفة باستقرار جبال العلم والإيمان فى مكانهم من الإذعان واليقين ولكنهم بسبب عدم بلوغهم إلى المقام الثابت الراسخ المكين من العلم والمعرفة واليقين فلا بد وأن تندك جبال وجودهم ؛ ويتزعزع بنيان إذعانهم لمعبودهم حين لقائه فيتبدل إيمانهم بالكفر ، ويقينهم بالشك ، وإقبالهم بالإعراض ، حيث لم تكمل بعد مراتب عرفانهم ، ولم يبلغ إلى الدرجة العليا بنيان إيمانهم ؛ فلم يبلغوا بعد إلى رتبة استحقاق الرؤية واللقاء ولم يصعدوا إلى درجة الإستقرار والبقاء ؛ فلا بد من ظهور الأنبياء ، وقيام الأصفياء ، لتربية أشجار الوجودات البشرية ، وتكمل معارفهم بالإيمان على ممر الدهور وطى العصور . حتى يبلغوا إلى درجة التمكن والإستقرار ، حينئذ يتجلى عليهم رب الأرض

والسماء ، ويتشرف البالغون منهم إلى درجة المشاهدة واللقاء . فخلاصة تفسير الآية الكريمة : أن موسى عليه السلام قال : رب أرنى أنظر إليك ، حيث أن الشعب طلبوا منه رؤية الله تعالى فأجابه الله تعالى بأنك لن ترانى ، لأن بنى إسرائيل لم يبلغوا بعد إلى درجة كمال وجودهم ، ولم يستعدوا للقاء معبودهم ، فانظر إلى جبال الوجودات ، ومقادير استقرار الإيقان ، فإن استقر جبل الوجود فى مقام إيمانه وإيقانه حين تجلى المعبود ولم يتزلزل ولم يتزعزع من مقامه حين الشهود ، حينئذ استعد للقاء الله ، واستحق للوقوف بين يدى الله ، والتشرف برؤية الله . ثم تجلى الرب لأحد من تلك الأمة ممن كان من رؤساء الشعب ، ومن جبال الإيمان والإيقان ، فاندك وجوده ، وتضعضع إيمانه ، واضطرب إيقانه فانصعق موسى من ذلك الإمتحان ، وعرف مقدار صعوبة مقام الافتتان ، فندم على ماسأل الرؤية للطالبين ، ورجع فى الحين . وقال (سبحانك إنى تبت إليك وأنا أول المؤمنين [١]) .

فانظر إليه كيف أول الأربعين ليلة بأنها أربعين سنة . وهى التى يبعث الأنبياء على رأسها ، وكيف علل التعبير بلفظ ليلة بأن مدة الأربعين سنة كانت مظلمة كالليالى بظلم فرعون وملئه ، وكيف تخلص من منافاة لفظ واعدنا للمعنى الذى يهذى به . وكيف اتهم التوراة وسائر الكتب العتيقة - بما فيها القرآن طبعاً كما سيأتى بعد - بأنها لا يعول عليها فى الروايات التاريخية ، وكيف رمى المعتزلة وأهل السنة بعدم إصابة المعنى الحقيقى للرؤية الواردة فى الآية ، وكيف ادعى أنه ومن على شاكلته من البهائيين هم الذين أصابوا المعنى الحقيقى للآية ، وكيف صرف لفظ الجبل عن معناه المراد إلى معنى لا يفهم من لفظ القرآن وسياق الآية !! . . ولست فى حاجة الى أن أبين مافى هذا التفسير من خطأ وضلال ، فإن الحق بين واضح .[٢]

وفى كتاب الدرر البهية ، صرح أبو الفضائل بأن قصص القرآن غير واقعة ، وأنها فى الحقيقه رموز إلى معان خفية فقال (لايمكن للمؤرخ أن يستمد معارفه

---

(١) رسائل أبى الفضائل ص ٩٦ - ١٠٣

(٢) رسائل الإصلاح ج ٣ ص ٩٦ .

التاريخية من آيات القرآن)(١) وقال : (إن الأنبياء عليهم السلام تساهلوا مع الأمم فى معارفهم التاريخية ، وأقاصيصهم القومية ، ومبادئهم العلمية ، فتكلموا بما عندهم ، وستروا الحقائق تحت أستار الإشارات ، وسدلوا عليهــــا ستائر بليغ الاستعارات (٢)) .

ولا شك أن هذه دعوى كاذبة يراد بها إدخال الشك فى قلوب المؤمنين ، وإيهامهم بأن القرآن لا يعتمد على ظاهره ، وإنما يعتمد على باطنه الذى عندهم علمه دون من عداهم من الناس . وإلى يومنا هذا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، لم ولن يقوم دليل تاريخى أو عقلى على عدم صحة قصة من قصص القرآن ، وهو الذى « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » (٣) .

كذلك نجد أبا الفضائل يعرض فى كتابه المسمى (الدرر البهية) لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة يونس « بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله » ولقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الأعراف « هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق » فيقول :

(ليس المراد من تأويل آيات القرآن معانيها الظاهرية ومفاهيمها اللغوية ، بل المراد المعانى الخفية التى أطلق عليها الألفاظ على سبيل الاستعارة والتشبيه والكناية) ... ثم قال بعد هذا : (قرر الله تنزيل تلك الآيات على السنة الأنبياء وبيان معانيها وكشف الستر عن مقاصدها إلى روح الله حينما ينزل من السماء) وقال : (إنما بعثوا عليهم السلام لسوق الخلق إلى النقطة المقصودة ، واكتفوا منهم بالإيمان الإجمالى حتى يبلغ الكتاب أجله ، وينتهى سير الأفئدة إلى رتبة البلوغ فيظهر روح الله الموعود ويكشف لهم الحقائق المكنونة فى اليوم المشهود) وقال : (وفى نفس الكتب السماوية تصريحات بأن تأويل آياتها إلى معانيها

(١ ، ٢) رسائل الإصلاح جـ ٣ ص ٩٦ .

(٣) الآية (٤٢) من سورة فصلت .

الأصلية المقصودة لاتظهر إلا فى اليوم الآخر ، يعنى يوم القيامة ، ومجىء مظهر أمر الله وإشراق آفاق الارض ببهاء وجه الله) . ثم قال : (ولذلك جاءت من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان تافهة باردة عقيمه جامدة ، بل مضلة مبعدة محرفة مفسدة [١]) .

ومعلوم أن لفظ التأويل فى الآيتين عبارة عن وقوع المخبر به ولكن يأبى هذا المخرف المنحرف إلا أن يحمل التأويل على تأويل الآيات إلى المعانى الخفية وعجيب بعد هذا أن يتهم الرسل بأنهم لا يعرفون تأويل الآيات ، لأن وظيفتهم البلاغ فحسب ، وأما كشف الستر عن المعانى الخفية فإلى روح الله حين نزولة . وروح الله فى نظره ونظر أشياعه : هو البهاء الذى يعبر عنه بالنقطة ، ويدعى أن الرسل أرسلوا لسوق الخلق إليه ، ويدعى أيضاً أن ظهوره يكون يوم القيامة ، ولا شك أن هذا تفسير بارد عقيم ، وجامد مضل ، ولكنه لا يريد أن يعترف بهذا ، بل نجده يتعسف فيرمى كل التفاسير من لدن نزول التوراة إلى نزول البيان بأنها تافهة باردة ، عقيمة جامدة ، مضلة مبعدة ، محرفة مفسدة، لأن أصحابها خاضوا فيما لا علم لهم به ، والعلم فى نظره عند البهاء وحده .

كذلك نجد أبا الفضائل يفسر قوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة المدثر « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا» بما لا يقره شرع ، أو يرضى به عقل فيقول : (إن لفظ الملك واحد الملائكة ، والملائكة فى اللغة العربية توافق لفظا ومعنى مافى اللغة العبرانية ، حيث أنها مأخوذة من الأصل السامى ، الذى اشتقت منه اللغات السريانية ، والعبرانية والعربية ، والآشورية ، والكلدانية ، وهو يفيد معنى المالكية والاستيلاء على شىء فكما أنه أطلق لفظ الملك والملائكة فى الكلمات النبوية المحفوظه فى الكتب السماوية على النفوس القدسية ، والأئمة الهداة ، لخلعهم ثياب البشرية وتخلقهم بالأخلاق الروحانية الملكوتية ، فملكوا زمام الهداية ، وصاروا ملوك ممالك

---

(١) رسائل الاصلاح ج ٣ ص ٩٥ .

الولاية ،كأنهم أعطوا سلطة مطلقة فى سعادة الناس وشقاوتهم ، وهدايتهم وضلالهم ، وهذا هو معنى الولاية المطلقة التى جاءت فى الأخبار : ولذا سمى سيد الأبرار وأمير الابرار ، بقسيم الجنة والنار . كذلك أطلق هذا اللفظ فى الكلمات النبوية على رؤساء الأشرار ، وأئمة الضلال ، حيث إنهم قادة الفجار يقودونهم إلى النار ولذا أطلق عليهم لفظ الملائكة ، كما أنه أطلق عليهم لفظ الأئمة فى قوله : « وجعلناهم أئمة يدعون إلى النار [1] »...ثم استدل أبو الفضائل بعبارات من الكتب القديمة على جواز إطلاق الملائكة على أئمة الجور والضلال ثم تكلم عن سر تخصيص العدد بتسعة عشر ، فذكر أن الديانات أبواب لدخول جنة الله ورضوانه ، كما أنها أبواب للدخول فى جهنم بسخط الله حين تغييرها مثلا .. ثم استطرد من هذا إلى أن الباب كما يطلق على الديانات ، يطلق أيضا على الأنبياء وكبار الأولياء ، واستدل على هذا بعبارة نقلها عن الجامعة وردت فى شأن الأئمة وهى (أنتم باب المؤتى والمأخوذ عنه) قال : وإليه أشير فى الآية الكريمة « فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب [2] » بعد أن قرر هذا ، ادعى (أن أبواب الجنة كانت عند ظهور النقطة الأولى تسعة عشر ، وهى ثمانية عشر حروف (الحى) والنقطة الفردانية [3] وبهم صعد المخلصون إلى الذروة العليا ، ودخلوا الجنة ... ثم عارض الدجال الرب سبحانه فعين تسعة عشر إنساناً من روساء أصحابه ودهاة أحبابه ؛ لإضلال أهل الإيمان ، ومعارضة جمال الرحمن) ثم قال : (فالمراد بملائكة النار فى الآية المباركة هو هذه الرجال من أصحاب الدجال وأئمة الضلال)... ثم ذكر بعد ذلك أن عدد أبواب النار صار فى هذا الدور الحميد [4] ، والكون المجيد ثلاثة فقط وهى أيضا ملائكة الجحيم ، وقادة أصحاب الشمال إلى العذاب الأليم) .

واستدل على ذلك بقوله تعالى « انطلقوا الى ظل ذى ثلاث شعب * لا ظليل

---

(١) فى الآية (٤١) من سورة القصص .

(٢) فى الآية (١٣) من سوره الحديد .

(٣) يريد الباب نفسه والثمانية عشر الذين استجابوا له أولا .

(٤) لعله بريد زمن بهاء الله .

ولا يغنى من اللهب [١] ، ثم قال : (وفى كل دور وزمان تجد لكلمات الله تعالى مصاديق يعرفها أهل الإيمان ، وحملة القرآن ، ومخازن الحكمة ، ومطالع البيان . . .) اهـ [٢] .

وفى الحجج البهية يقرر أبو الفضائل : أن جميع الديانات السماوية ، وغير السماوية واحدة من ناحية الاتفاق على العقائد الأصلية ، وإن اختلفت فى الأحكام الفرعية ، وذلك حيث يقول فى تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى « شرع لكم من الدين ماوصى به نوحا والذى أوحينا إليك وماوصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (. . . فانظروا - وفقكم الله - كيف اعتبر فى الآية الكريمة ديانات الصابئة والزردشتية والموسوية ، والنصرانية والإسلامية ديناً واحداً ، كما اعتبر مؤسسها وشارعها إلهاً واحداً ، على اختلافها فى الأحكام والحدود والآداب [٣]) وهذا منه كفر صريح ، لأن الآية لاتدل على أكثر من اتحاد جميع الشرائع السماوية فى أصول العقائد ، أما الديانة الصابئية ، والديانة الزردشتية ، فلم يقل أحد أنها من الشرائع الله ، حتى يسوى بينها وبين سائر الشرائع السماوية .

كذلك نجد أبا الفضائل يقول بالرجعة ، ويريد بها : رجوع الحقيقة المقدسة التى هى الوحى ، على معنى أن الوحى بعد انقطاعه بموت محمد صلى الله عليه وسلم يرجع فينزل مرة ثانية على زعيمهم الباب ثم البهاء ، ويفسر القيامة : بأنها قيام مظهر الحقيقة المقدسة ، والساعة : بساعة طلوعها وإشراقها بعد الغيبة ويقول (وأما الرجعة والقيامة بالمعنى الذى تعتقد وتنتظره الأمم فهى أمر غير معقول ؛ إذ هو مخالف للنواميس الطبيعية ، ومباين للسنن الإلهية [٤]) .

ويقول : (إن جميع مانزل فى الكتب المقدسة من بشارات يوم الله ، ويوم

---

(١) الآيتان (٣٠ ، ٣١) من سورة المرسلات

(٢) رسائل أبى الفضائل ص ١٠٤ - ١٠٩

(٣) الحجج البهية ص ٢٨ .

(٤) الحجج البهية ص ٣٠ - ٣١

القيامة ، وظهور الرب ، وورود الساعة وأشراطها ... لابد أن تكون لتلك الألفاظ مقاصد معقولة، ومفاهيم ممكنة. ومعان غير المعانى الظاهرية، ومدلولات غير المدلولات الأولية) اه [١] .

وكأنى بأبى الفضائل ـ وقد قال بنبوة الباب والبهاء ـ نظر فى كتاب البيان وكتاب بهاء الله ، فلم يجدهما فى رصانة القرآن وفصاحته ، فأراد أن ينزل بالقرآن عن مستواه فى البلاغة ، ويسلب عنه إعجازه حتى يكون فى درجة البيان والكتاب فقال: (ولا يعرف ولا يمتاز كلام الله عن كلام البشر بفصاحته ، وبلاغته ، ورصف كلماته ، وتسجيع عباراته ، وترصيع جمله ، ولطيف استعاراته ، كما يدعيه قوم [٢]) كما أعتقد أنه ـ وقد ادعى نبوة الباب والبهاء ـ راح يفتش لهما عن معجزة تصدق دعواهما النبوة ، فلم يعثر ولا على جزء معجزة فجره ذلك أن ينكر معجزات الرسل ، ويتأول ماورد فى القرآن منها بأنها من قبيل الاستعارات عن الأمور المعقولة ، والحقائق الممكنة ، مما يجوزه العقل السليم ، كما جره إلى القول بأنه لاصلة بين دعوى الرسالة ، وبين القدرة على الإتيان بالخوارق فقال : (لا نسبة بين القدرة على إتيان المعجزات والعجائب ، وبين ادعاء النبوة والرسالة ، فإن الرسالة والنبوة ليست إلا بعث إنسان من قبل الله تعالى لهداية الخلق ، فما هو ارتباط هذا المعنى بالقدرة على شق البحار ، وجفاف الأنهار ، وإنطاق الأحجار والأشجار مثلا [٣]) .

ولا يشك عاقل فى أن هذا الزنديق يريد من وراء هذا أن يفتح باب شر عظيم ؛ ليدخل منه كل من يدعى النبوة والرسالة ، كما دخل منه أنبياء البابية البهائية من قبل .

وكما تأول متعصبو الشيعة الشجرة المباركة ، الشجرة الملعونه،فحملوا الأولى على آل البيت ، والثانية على أعدائهم من بنى أمية ، كذلك تأولها أبو الفضائل ،

---

(١) الحجج البهية ص ٥٨ (٢) الحجج البهية ص٣٧ (٣) الحجج البهية ص ٧٠

فقال فى شرحه لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لاشرقية ولا غربية ... الآية » . (أطلق لفظ شجرة مباركة زيتونة على مظهر أمر الله ، ومطلع شمس حقيقته وذاته . ومشرق أنوار أسمائه وصفاته ، فإن من هذه السدرة المباركة وحدها تتألق وتضىء الأنوار الإلهية ، وتشرق وتلمع أشعة العلم والقوة ، والقدرة الملكوتية السماوية ، وهذه استعارة فى غاية الرقة واللطافة ، وتجوز فى نهاية اللطافة والبراعة ، لم يوجد مثلها إلا فى الكلمات النبوية ، ولم يسمع شبيهها إلا من نغمات طيور القدس فى الحدائق القدسية) ... قال (وكذلك فى الآية «٦٠» من سورة بنى اسرائيل ، أطلق لفظ الشجرة الملعونة : استعارة على أعداء الله، ومحاربى رسول الله ، من السلالة الأموية ، والسلطه العضوضية السفيانية ، حيث قال جل وعلا « وما جعلنا الرؤيا التى أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة فى القرآن . . .) اه [1]

هذه نبذ من تأويلات البابية للقرآن الكريم ، تعطينا دليلا قويا ، وبرهانا صادقا على أن المذهب البابى ، أو البهائى يقوم على أطلال الباطنية ، ويحمل فى سريرته القصد إلى هدم شريعة الإسلام بمعول التأويل فى آيات القرآن، ودعوى النبوة والرسالة ، بعد أن ختمها الله برسالة محمد صلى الله عليه وسلم . وإذا كان لنا كلمة بعد ذلك فهى . أن البابية والبهائية وأسلافهم من الباطنية ، لم يكونوا أول من ابتدأ التأويل لنوص الشريعة على هذه الصورة التى تأتى على بنيان الدين من قواعده ، وإنما هو صنيع ألدوا فيه طائفة من فلاسفة اليهود الذين سبقوهم ، فهذا هو (فيلون) الفيلسوف اليهودى المولود ما بين عشرين وثلاثين سنة قبل الميلاد ، نجده ألف كتابا فى تأويل التوراة ، ذاهبا إلى أن كثيراً مما فيها رموز إلى أشياء غير ظاهرة ، ويقول الكاتبون فى تاريخ الفلسفة :

---

(١) الحجج البهية ص ١٧٥-١٧٦ .

إن هذا التأويل الرمزى كان موجودا ومعروفا عند أدباء اليهود بالإسكندرية قبل زمن (فيلون) ويذكرون أمثلة من تأويلهم : أنهم فسروا آدم بالعقل ، والجنة برياسة النفس ، وإبراهيم بالفضيلة الناتجة من العلم ، وإسحق عندهم هو الفضيلة الغريزية ، ويعقوب الفضيلة الحاصلة من التمرين . إلى أمثال هذا من التأويل الذى لايحوم عليه إلا الجاحدون المراءون ، ولا يقبله منهم إلا قوم هم عن مواقع الحكمة ودلائل الحق غافلون (١))

وبعد أن انتهينا من موقف الباطنية — قديمهم وحديثهم — من القرآن الكريم ، نتكلم عن موقف الزيدية منه فنقول وبالله التوفيق :

---

(١) رسائل الاصلاح جـ ٣ ص ٩٧ - ٩٨ .

الزيدية

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

تمهيد :

لم يقع بين الزيدية من الشيعة ، وبين جمهور أهل السنة خلاف كبير مثل ما وقع من الخلاف بين الإمامية وجمهور أهل السنة ، والذى يقرأ كتب الزيدية يجد أنهم أقرب فرق الشيعة إلى مذهب أهل السنة ، وما كان بين الفريقين من خلاف فهو خلاف لا يكاد يذكر .

يرى الزيدية : أن علياً أفضل من سائر الصحابة ، وأولى بالخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقولون : إن كل فاطمى عالم زاهد شجاع سخى خرج للامامة صحت إمامته ، ووجبت طاعته ، سواء أكان من أولاد الحسن ، أم من أولاد الحسين ، ومع ذلك فهم لا يتبرءون من الشيخين ، ولا يكفرونهما ، بل يجوزون إمامتهما ؛ لأنه تجوز عندهم إمامة المفضول مع وجود الفاضل ، كما أنهم لم يقولوا بما قالت به الإمامية من التقية ، والعصمة للأئمة ، واختفائهم ثم رجوعهم فى آخر الزمان . وغير ذلك من خرافات الإمامية ومن على شاكلتهم .

وكل الذى نلحظه على الزيدية ، أنهم يشترطون الاجتهاد فى أئمتهم ؛ ولهذا كثر فيهم الاجتهاد . وأنهم لا يثقون برواية الأحاديث إلا إذا كانت عن طريق أهل البيت . والذى يقرأ كتاب المجموع للزيدية يرى أن كل ما فيه من الأحاديث مروية عن زيد بن على زين العابدين ، عن آبائه من الأئمة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس فيه بعد ذلك حديث يروى عن صحابى آخر من غير أهل البيت رضى الله عنهم .

كما نلاحظ على الريدية أيضا أنهم تأثروا إلى حد كبير بآراء المعتزلة ومعتقداتهم ، ويرجع السر فى هذا إلى أن إمامهم زيد بن على ، تتلمذ على واصل ابن عطاء ، كما قلنا ذلك فيما سبق .

إذاً فلا نطمع بعد ذلك أن نرى للزيدية أثراً مميزا ، وطابعاً خاصا فى التفسير كما رأينا للامامية ؛ لأن التفسير إنما يتأثر بعقيدة مفسره، ويتخذله طابعاً خاصاً ، واتجاها معينا ، حينما يكون لصاحبه طابع خاص واتجاه معين ، وليست الزيدية — بصرف النظر عن ميولهم الاعتزالية — بمنأى بعيد عن تعاليم أهل السنة ، وعقائدهم ، حتى يكون لهم فى التفسير خلاف كبير .

أهم كتب التفسير عند الزيدية :

وإذا نحن ذهبنا نفتش عن تفاسير الزيدية فى المكتبات التى تحت أبصارنا ، وفى متناول أيدينا ، فإنا لا نكاد نظفر منها إلا بتفسير الشوكانى المسمى (فتح القدير) وهو تفسير متناول للقرآن كله ، وجامع بين الرواية والدراية . وتفسير آخر فى شرح آيات الأحكام اسمه (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف ابن أحمد : من علماء القرآن التاسع الهجرى . هذا هو كل ما عثرنا عليه للزيدية من كتب فى التفسير .

ولكن هل هذا هو كل ما أنتجته هذه الطائفة ؟ أو أن هناك كتبا أخرى ألفت فى التفسير ثم درست ؟ أو ألفت وبقيت إلى اليوم غير أنه لم يكتب لها الذيوع والانتشار ، ولذا لم تصل إلى ايدينا ؟

الحق أنى وجهت هذا السؤال إلى نفسى . فرجحت أن تكون هناك كتب كثيرة فى التفسير لهذه الطائفة ، منها مادرس ، ومنها مابقى إلى اليوم مطمورا فى بعض المكاتب الخاصة ؛ إذ ليس من المعقول أن لا يكون لطائفة إسلامية قامت من قديم الزمان ، وبقيت محتفظة بتعاليمها ومقوماتها إلى اليوم إلا هذا الأثر الضئيل فى التفسير ،

رجحت هذا الرأى ، فذهبت أفتش وأبحث فى بعض الكتب التى لها عناية بهذا الشأن ؛ على أعثر على أسماء لبعض كتب فى التفسير لبعض من علماء الزيدية . . . وأخيراً وجدت فى الفهرست لابن النديم : أن مقاتل بن سليمان

— وعده من الزيدية ـ له من الكتب ، كتاب التفسير الكبير ، وكتاب نوادر التفسير[١] .

ووجدت فى الفهرست أيضا : أن أبا جعفر محمد بن منصور المرادى الزيدى ، له كتابان فى التفسير ، أحدهما : كتاب التفسير الكبير ، والآخر : كتاب التفسير الصغير[٢] .

وقرأت مقدمة شرح الأزهار من كتب الزيدية فى الفقه ، وهى مقدمة تشتمل على تراجم الرجال المذكورة فى شرح الأزهار لأحمد بن عبد الله الجندارى ، فخرجت منها بما يأتى :

١ — تفسير غريب القرآن للإمام زيد بن على ، جمعه بإسناده محمد ابن منصور بن يزيد الكوفى ، أحد أئمة الزيدية ، المتوفى سنة نيف وتسعين ومائتين[٣] .

٢ — تفسير إسماعيل بن على البستى الزيدى ، المتوفى فى حدود العشرين وأربعمائة ، قال : وهو فى مجلد واحد[٤] .

٣ — التهذيب ، لمحسن بن محمد بن كرامة المعتزلى ثم الزيدى ، المقتول سنة ٤٩٤ هـ أربع وتسعين وأربعمائة . قال : وهذا التفسير مشهور ، ويمتاز من بين التفاسير بالترتيب الأنيق ؛ فإنه يورد الآية كاملة ، ثم يقول القراءة ويذكرها ، ويميز السبع من غيرها ، ثم يقول اللغة ويذكرها ، ثم يقول الإعراب ويذكره ، ثم يقول النظم ويذكره ، ثم يقول المعنى ويذكره ، ويذكر أقوالا متعددة ، وينسب كل قول إلى قائلة من المفسرين ، ثم يقول النزول ويذكر سببه ، ثم يقول الأحكام ويستنبط أحكاما كثيرة من الآية[٥] .

(١) الفهرست ص ٢٥٤ .

(٢) الفهرست ص ٢٧٤ .

(٣) مقدمة شرح الازهار ص ٣٦ .

(٤) ص ٧ من المرجع السابق .

(٥) ص ٣٢ من المرجع السابق .

٤ — تفسير عطية بن محمد النجوانى الزيدى ، المتوفى سنة ٦٦٥ هـ خمس وستين وستمائة . قال : وقد قيل إنه تفسير جليل ، جمع فيه صاحبه علوم الزيدية[١] .

٥ — التيسير فى التفسير ، للحسن بن محمد النحوى الزيدى الصنعانى ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ إحدى وتسعين وسبعمائة[٢] .

هذا هو كل ما قرأت عنه من كتب الزيدية فى التفسير . لكن هل بقيت هذه الكتب إلى اليوم ؟ أو ردست بتقادم العهد عليها ؟ سألت نفسى هذا السؤال ، وحاولت أن أقف على جوابه ، وأخيراً انتهزت فرصة وجود الوفد اليمنى فى مصر[٣] — وفيه الكثير من علماء الزيدية الظاهرين — فاتصلت بأحد أعضائه البارزين ، وهو القاضى محمد بن عبد الله العامرى الزيدى، فسألته عن أهم مؤلفات الزيدية فى التفسير ، وعن الموجود منها إلى اليوم ، فأخبرنى بأن للزيدية كتباً كثيرة فى تفسير القرآن الكريم ، منها ما بقى ، ومنها ما اندثر ، وما بقى منها إلى اليوم لا يزال مخطوطاً ، وموجوداً فى مكاتبهم ، وذكر لى من تلك المخطوطات الموجودة عندهم ما يأتى :

١ — تفسير ابن الأقضم .. أحد قدماء الزيدية .

٢ — شرح الخمسمائة آية (تفسير آيات الأحكام) لحسين بن أحمد النجرى ، من علماء الزيدية فى القرن الثامن الهجرى .

٣ — الثمرات اليانعة (تفسير آيات الأحكام) للشيخ شمس الدين يوسف ابن أحمد بن محمد بن عثمان ، من علماء الزيدية فى القرن التاسع الهجرى ،

٤ — منتهى المرام ، شرح آيات الأحكام ، لمحمد بن الحسين بن القاسم ، من علماء الزيدية فى القرن الحادى عشر الهجرى .

---

(١) ص ٢٣ من المرجع السابق .
(٢) ص ١١ من المرجع السابق .
(٣) كان ذلك فى سنة ١٩٤٥ م

٥ — تفسير القاضى بن عبد الرحمن المجاهد ، أحد علماء الزيدية فى القرن الثالث عشر الهجرى .

قال : وهناك كتب أخرى لايحضرنى اسمها ، ولا اسم مؤلفيها ،فسألته عن السر الذى من أجله بقيت هذه الكتب مخطوطة إلى اليوم ؟ وأى شىء يحول بينكم وبين طبعها ، حتى تصبح متداولة بين أهل العلم ، وعشاق التفسير؟ فأجابنى بأن السر فى هذا أمران : أحدهما : عدم تقدم فن الطباعة عندهم . وثانيهما :أن كل اعتمادهم فى التفسير على كتاب الكشاف للزمخشرى ؛ نظراً للصلة التى بين الزيدية والمعتزلة ، مما جعل أهل العلم ينصرفون عن كل ماعداه من كتب التفسير ، ورجا ورجوت معه أن يهيىء الله لهذا التراث العلمى فى التفسير من الأسباب مايجعله متداولا بين أهل العلم . ورجال التفسير .

وبعد ... فما دامت أيدينا لم تصل إلى شىء من كتب التفسير عند الزيدية سوى كتاب (فتح القدير) للشوكانى ، و (الثمرات اليانعة) لشمس الدين يوسف بن أحمد ؛ فإنى سأقتصر على هذين الكتابين فى دراستى وبحثى ،وسأبدأ بتفسير الشوكانى، وإن كان لايمثل لنا تفسير الزيدية تمثيلا وافيا شافياً .وأرجىء الكلام عن (الثمرات اليانعة) إلى أن أعرض للكلام عن تفاسير الفقهاء إن شاء الله :

فتح القدير

للشوكانى

التعريف بمؤلف هذ التفسير :

ومؤلف هذا التفسير هو العلامة محمد بن على بن عبد الله الشوكانى ، ولد فى سنة ١١٧٣ هـ ثلاث وسبعين ومائة بعد الألف من الهجرة النبوية ، فى بلدة هجرة شوكان . ونشأ ـ رحمة الله تعالى ـ بصنعاء ، وتربى فى حجر أبيه على العفاف والطهارة ، وأخذ فى طلب العلم والسماع من العلماء الأعلام ، وجد فى طلب العلم ، واشتغل كثيراً بمطالعة كتب التاريخ ومجاميع الأدب ، وسار على هذه الطريقة ما بين مطالعة وحفظ ، وما بين سماع وتلق ، إلى أن صار إماما يعول عليه ، ورأسا يرحل إليه « فريداً فى عصره، ونادرة لدهره ، وقدوة لغيره، بحراً فى العلم لايجارى ، ومفسراً للقرآن لايبارى ، ومحدثا لايشق له غبار ، ومجتهداً لايثبت أحد معه فى مضمار » .

ولقد خلف رحمه الله كتباً فى العلم نافعة وكثيرة ، أهمها : كتاب فتح القدير فى التفسير ، وهو الكتاب الذى نحن بصدد الكلام عنه ، وكتاب نيل الأوطار شرح منتقى الأخبار فى الحديث ، وكتاب إرشاد الثقات إلى اتفاق الشرائع على التوحيد والميعاد والنبوات .. رد به على موسى بن ميمون الأندلسى اليهودى ، وغير هذا كثير من مؤلفاته .

تفقه رحمه الله على مذهب الزيدية، وبرع فيه، وألف وأفتى، ثم خلع ربقة التقليدى ، وتحلى بمنصب الاجتهاد ، وألف رسالة (سماها القول المفيد فى أدلة الاجتهاد والتقليد) ، تحامل عليه من أجلها جماعة من العلماء ، وأرسل إليه أهل جهته سهام اللوم والمقت ، وثارت من أجل ذلك فتنة فى صنعاء اليمن بين من هو مقلد ومن هو مجتهد .

وعقيدة الشوكانى عقيدة السلف ، من حمل صفات الله تعالى الواردة فى القرآن والسنة على ظاهرها من غير تأويل ولا تحريف . وقد ألف رسالة فى ذلك سماها (التحف بمذهب السلف) .

هذا وقد توفى الشوكانى رحمه الله سنة ١٢٥٠ هـ فرحمه الله وأرضاه (١) .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعتبر هذا التفسير أصلا من أصول التفسير ، ومرجعاً مهما من مراجعه ، لأنه جمع بين التفسير بالدراية ، والتفسير بالرواية ، فأجاد فى باب الدراية ، وتوسع فى باب الرواية ، وقد ذكر مؤلفه فى مقدمته أنه شرع فيه فى شهر ربيع الآخر من شهور سنة ثلاث وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية ، وفرغ منه فى شهر رجب سنة تسع وعشرين بعد المائتين والألف من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية . كما ذكر أنه اعتمد فى تفسيره هذا على أبى جعفر النحاس ، وابن عطية الدمشقى ، وابن عطية الأندلسى ، والقرطبى ، والزمخشرى ، وغيرهم .

طريقة الشوكانى فى تفسيره :

وطريقة الشوكانى التى سلكها فى تفسيره يكفينا فى بيانها عبارته التى ذكرها فى مقدمة هذا التفسير مبينا بها منهجه فيه .

قال رحمه الله : (...... ووطنت النفس على سلوك طريقة هى بالقبول عند الفحول حقيقة ، وها أنا أوضح لك منارها ، وأبين لك إيرادها وإصدارها فأقول: إن غالب المفسرين تفرقوا فريقين، وسلكوا طريقين، الفريق الأول: اقتصروا فى تفاسيرهم على مجرد الرواية ، وقنعوا برفع هذه الراية ، والفريق الآخر : جردوا أنظارهم إلى ما تقتضيه اللغة العربية ، وما تفيده العلوم الآلية ، ولم يرفعوا إلى الرواية رأساً ، وإن جاءوا به لم يصححوا لها أساساً . وكلا

(١) أنظر ترجمة المؤلف فى أول فتح القدير ، وفى أول نيل الأوطار .

الفريقين قد أصاب ، وأطال وأطاب . وإن رفع عماد بيت تصنيفه على بعض الأطناب ، وترك منها مالا يتم بدونه كمال الانتصاب)...... ثم قال بعد أن دلل على قوله هذا : (وبهذا يعرف أنه لابد من الجمع بين الأمرين ، وعدم الاقتصار على مسلك أحد الفريقين ، وهذا هو المقصد الذى وطنت نفسى عليه ، والمسلك الذى عزمت على سلوكه إن شاء الله ، مع تعرضى للترجيح بين التفاسير المتعارضة مهما أمكن واتضح لى وجهه ، وأخذى من بيـــان المعنى العربى والإعرابى والبيانى بأوفر نصيب ، والحرص على إيراد ما ثبت من التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو الصحابة ، أو التابعين ، أو تابعيهم ، أو الأئمة المعتمدين وقد أذكر ما فى إسناده ضعف ؛ إما لأن فى المقام ما يقويه ، أو لموافقته للمعنى العربى . وقد أذكر الحديث معزوا إلى روايه من غير بيان حال الإسناد ؛ لأنى أجده فى الأصول التى نقلت عنها كذلك، كما يقع فى تفسير ابن جرير والقرطبى وابن كثير والسيوطى، وغيرهم، ويبعد كل البعد أن يعلموا فى الحديث ضعفاً ولا يبينوه ، ولا ينبغى أن يقال فيما أطلقوه : إنهم قد علموا ثبوته ؛ فإن من الجائز أن ينقلوه من دون كشف عن حال الإسناد ، بل هـذا هو الذى يغلب به الظن ؛ لأنهم لو كشفوا عنه فثبت عندهم صحته لم يتركوا بيان ذلك ، كما يقع منهم كثيراً التصريح بالصحة أو الحسن ، فمن وجد الأصول التى يروون عنها ، ويعزون ما فى تفاسيرهم إليها . فلينظر إلى أسانيدها موفقاً إن شاء الله .

واعلم أن تفسير السيوطى المسمى بالدر المنثور ، قد اشتمل على غالب ما فى تفاسير السلف من التفاسير المرفوعة إلى النبى صلى الله عليه وسلم ، وتفاسير الصحابة ومن بعدهم ، وما فاته إلا القليل النادر . وقد اشتمل هـذا التفسير على جميع ما تدعو إليه الحاجة منه مما يتعلق بالتفسير ، مع اختصار لما تكرر لفظا واتحد معنى بقولى : ومثله ونحوه ؛ وضممت إلى ذلك فوائد لم يشتمل عليها ، وجدتها فى غيره من تفاسير علماء الرواية ، أو من الفوائد التى لاحت لى ، من تصحيح، أو تحسين، أو تضعيف، أو تعقيب، أو جمع، أو ترجيح. فهذا التفسير وإن كبر حجمه فقد كثر علمه ، وتوفر من التحقيق قسمه ، وأصاب غرض الحق

سهمه ، واشتمل على مافى كتب التفاسير من بدائع الفوائد ، مع زوائد فرائد ، وقواعد شرائد ، ثم أرجع إلى تفاسير المعتمدين على الدراية ، ثم أنظر فى هذا التفسير بعد النظرين ، فعند ذلك يسفر الصبح لذى عينين ، ويتبين لك أن هذا الكتاب هو اللباب ، وعجب العجاب ، وذخيرة الطلاب ، ونهاية مآرب أولى الألباب .. وقد سميته (فتح القدير ، الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ......[1]) اه

مما تقدم يتضح لك جليا طريقة المؤلف التى سلكها فى تفسيره هذا ، وقد رجعت إلى هذا التفسير وقرأت فيه كثيراً . فوجدته يذكر الآيات ، ثم يفسرها تفسيراً معقولا ومقبولا ، ثم يذكر بعد الفراغ من ذلك : الروايات التفسيرية الواردة عن السلف ، وهو ينقل كثيراً عمن ذكر من أصحاب كتب التفسير . ووجدته يذكر المناسبات بين الآيات ، ويحتكم إلى اللغة كثيراً . وينقل عن أئمتها كالمبرد وأبى عبيدة والفراء ، كما أنه يتعرض أحيانا للقراءات السبع ، ولا يفوته أن يعرض لمذاهب العلماء الفقهية فى كل مناسبة ، ويذكر اختلافاتهم وأدلتهم ، ويدلى بدلوه بين الدلاء ، فيرجح ، ويستظهر ، ويستنبط ، ويعطى نفسه حرية واسعة فى الاستنباط ، لأنه يرى نفسه مجتهداً لا يقل عن غيره من المجتهدين .

نقله للروايات الموضوعة والضعيفة :

غير أنى آخذ عليه — كرجل من أهل الحديث — أنه يذكر كثيراً من الروايات الموضوعة ، أو الضعيفة ، ويمر عليها بدون أن ينبه عليها .

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله .... الآية » وقوله فى الآية (٦٧) منها « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ... الآية » يذكر من الروايات ما هو موضوع على ألسن الشيعة ، ولا ينبه على أنها موضوعة ، مع أنه يقرر عدم صلاحية مثل هذه الروايات للاستدلال على إمامة على ، ففى الآية الأولى يقول (.... وهم

(١) مقدمة الكتاب ص ١ — ٤

راكعون ، جملة حالية من فاعل الفعلين الذين قبله ، والمراد بالركوع : الخشوع والخضوع ، أى يقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، وهم خاشعون لا يتكبرون وقيل : هو حال من فاعل الزكاة ، والمراد بالركوع هو المعنى المذكور ، أى يضعون الزكاة فى مواضعها غير متكبرين على الفقراء ، ولا مترفعين عليهم ، وقيل المراد بالركوع على المعنى الثانى : ركوع الصلاة . ويدفعه عدم جواز إخراج الزكاة فى تلك الحال [١]) اهـ

ثم نراه يذكر فى ضمن ما يذكر من الروايات عن ابن عباس أنه قال تصدق على بخاتم وهو راكع ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم للسائل : من أعطاك هذا الخاتم ؟ قال : ذلك الراكع ، فأنزل الله فيه « إنما وليكم الله ورسوله ... الآية [٢] » ، ثم يمر على هذه الرواية الموضوعة باتفاق أهل العلم ولا ينبه على ما فيها

وفى الآية الثانية نجده يروى عن أبى سعيد الخدرى أنه قال : (نزلت هذه الآية « يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك .. » على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غدير خم ، فى على بن أبى طالب رضى الله عنه) ويروى عن ابن مسعود أنه قال : (كنا نقرأ على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك ، أن عليا مولى المؤمنين ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس [٣]) - ثم يمر على هاتين الروايتين أيضاً بدون أن يتعقبهما بشىء أصلا .

ذمه للتقليد والمقلدين :

كذلك نلاحظ على الشوكانى أنه لا يكاد يمر بآية من القرآن تنعى على المشركين تقليدهم آباءهم إلا ويطبقها على مقلدى أئمة المذاهب الفقهية ، ويرميهم بأنهم تاركون لكتاب الله ، معرضون عن سنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ونحن وإن كنا لا نمنع من الاجتهاد من له قدرة عليه بتحصيله لأسبابه وإلمامه بشروطه

---

(١) ج ٢ ص ٤٨ (٢) ج ٢ ص ٥٠ (٣) ج ٢ ص ٥٧

إلا أنا لا ننكر أن فى الناس من ليس أهلا للاجتهاد ، وهؤلاء لابد لهم من التقليد . ولست فى شك من أن الشوكانى مخطىء فى حملاته على المقلدة ، كما أنه قاس إلى حد كبير حيث يطبق ماورد من الآيات فى حق الكفرة على مقلدى الأئمة وأتباعهم . وإليك بعض ماقاله فى تفسيره :

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » قال : مانصه : (... وإن فى هذه الآية الشريفة لأعظم زاجر ، وأبلغ واعظ المقلدة ، الذى يتبعون آباءهم فى المذاهب المخالفة للحق ، فإن ذلك من الاقتداء بأهل الكفر لا بأهل الحق ، فإنهم القائلون: « إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون[1] » والقائلون « وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها[2] » والمقلد لولا اغتراره بكونه وجد أباه على ذلك المذهب ، مع اعتقاده بأنه الذى أمر الله به ، وأنه الحق لم يبق عليه ، وهذه الخصلة هى التى بقى بها اليهودى على اليهودية ، والنصرانى على النصرانية ، والمبتدع على بدعته ، فما أبقاهم على هذه الضلالات إلا كونهم وجدوا آباءهم فى اليهودية أو النصرانية أو البدعة وأحسنوا الظن بهم ، بأن ماهم عليه هو الحق الذى أمر الله به ، ولم ينظروا لأنفسهم ، ولا طلبوا الحق كما يجب ، ولا بحثوا عن دين الله كما ينبغى ، وهذا هو التقليد البحت والقصور الخالص . فيامن نشأ على مذهب من هذه المذاهب الإسلامية ، أنا لك النذير المبالغ فى التحذير من أن تقول هذه المقالة ، وتستمر على الضلالة ، فقد اختلط الشر بالخير ، والصحيح بالسقيم ، وفاسد الرأى بصحيح الرواية ، ولم يبعث الله إلى هذه الأمة إلا رسولا واحداً أمرهم باتباعه ، ونهى عن مخالفته فقال : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا[3] » ولوكان محض رأى أئمة المذاهب وأتباعهم حجة على العباد ،

---

(١) فى الآية (٢٣) من سورة الزخرف .

(٢) فى الآية (٢٨) من سورة الأعراف .

(٣) فى الآية (٧) من سورة الحشر .

لـكان لهذه الأمة رسل كثيرون متعددون بعدد أهل الرأى ، المـكلفين للناس بما لم يـكلفهم الله به . وإن من أعجب الغفلة ، وأعظم الذهول عن الحق ، اختيار المقلدة لآراء الرجال ، مع وجود كتاب الله ووجود سنة رسوله ، ووجود من يأخذونهما عنه ، ووجود آلة الفهم لديهم ، وملـكة العقل عندهم[1]) اهـ .

وفى سورة التوبة عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣١) « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون » يقول ما نصه : (.. وفى هذه الآية ما يزجر من كان له قلب أو ألقى السمع وهـو شهيد عن التقليد فى دين الله ، وإيثار ما يقوله الأسلاف على ما فى الـكتاب العزيز ، والسنة المطهرة ؛ فإن طاعة المتمذهب لمن يقتدى بقوله ، ويستن بسنته من علماء هذه الأمة ، مع مخالفته لما جاءت به النصوص ، وقامت به حجج الله وبراهينه ، ونطقت به كتبه وأنبياؤه ، هو كاتخاذ اليهود والنصارى الأحبار والرهبان أربابا من دون الله . للقطع بأنهم لم يعبدوهم ، بل أطاعوهم ، وحرموا ما حرموا ، وحللوا ما حللوا وهذا هو صنيع المقلدين من هذه الأمة ، وهو أشبه به من شبه البيضة بالبيضة ، والتمرة بالتمرة ، والماء بالماء . فيا عباد الله ، ويا أتباع محمد بن عبد الله : ما بالـكم تركتم الـكتاب والسنة جانبا ، وعمدتم إلى رجال هم مثلـكم فى تعبد الله لهم بهما ، وطلبه منهم للعمل بما دلا عليه وأفاداه ؟ فعلتم بما جاءوا به من الآراء التى لم تعمد بعماد الحق ، ولم تعضد بعضد الدين ، ونصوص الـكتاب والسنة تنادى بأبلغ نداء ، وتصوت بأعلى صوت بما يخالف ذلك ويباينه ، فاعرتموهما آذانا صما ، وقلوبا غلفا ، وأفهاما مريضة ، وعقولا مهيضة ، وأذهانا كليلة ، وخواطر عليلة ، وأنشدتم بلسان الحال :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فدعوا — أرشدكم الله وإياى — كتباً كتبها لـكم الأموات من أسلافـكم ، واستبدلوا بها كتاب الله خالقهم وخالقـكم ، ومتعبدهم ومتعبدكم ، ومعبودهم

(١) جـ ٢ ص ١٨٩

ومعبودكم ، واستبدلوا بأقوال من تدعونهم بأئمتكم وما جاءوكم به من الرأى، بأقوال إمامكم وإمامهم ، وقدوتكم وقدوتهم ،وهو الإمام الأول محمد بن عبدالله صلى الله عليه وسلم .

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

اللهم هادى الضال ، مرشد التائه ، موضح السبيل .. اهدنا إلى الحق ، وأرشدنا إلى الصواب ، وأوضح لنا منهج الهداية[1]) اه .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٥٢، ٥٣، ٥٤) من سورة الأنبياء « إذ قال لأبيه وقومه ماهذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون قالوا وجدنا آباءنا لها عابدين « قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين » نجده يذم المقلدة ، وأئمة المذاهب بما لا يليق أن يصدر من عالم فى حق عالم آخر ربما كان أفضل منه عند الله ، وذلك حيث يقول : (.... وهكذا يجيب هؤلاء المقلدة من أهل هذه الملة الإسلامية ، فإن العالم بالكتاب والسنة إذا أنكر عليهم العمل بمحض الرأى المدفوع بالدليل .. قالوا : هذا قد قال به إمامنا الذى وجدنا آباءنا له مقلدين ، وبرأيه آخذين . وجوابهم هو ماأجاب به الخليل ههنا « قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين »أى فى خسران واضح لايخفى على أحد ، ولا يلتبس على ذى عقل ؛ فإن قوم إبراهيم عبدوا الأصنام التى لاتضر ولا تنفع ، ولا تسمع ولا تبصر ، وليس بعد هذا الضلال ضلال ، ولا يساوى هذا الخسران خسران . وهؤلاء المقلدة من أهل الإسلام استبدلوا بكتاب الله، وبسنة رسوله كتاباً قد دونت فيه اجتهادات عالم من علماء الإسلام ، زعم أنه لم يقف على دليل يخالفها ، إما لقصور منه ، أو لتقصير فى البحث ، فوجد ذلك الدليل من وجده ، وأبرزه واضح المنار ، كأنه علم فى رأسه نار ، وقال : هذا كتاب الله، أو هذه سنة رسول الله ، وأنشدهم :

دعوا كل قول عند قول محمد فما آمنٌ فى دينه كمخاطر

(١) ج ٢ ص ٢٣٧

فقالوا كما قال الأول :

وما أنا إلا من غزية إن غوت   غويت وإن ترشد غزية أرشد

وقد أحسن من قال :

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى   ومنهج الحق له واضح [١] اه .

حياة الشهداء :

هذا . . وإن الشوكانى ليقرر فى تفسيره هذا : أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، حياة حقيقية لامجازية ، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٦٩) من سورة آل عمران « ولاتحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون » (. . . . وقد اختلف أهل العلم فى الشهداء المذكورين فى هذه الآية من هم ؟ . فقيل : شهداء أحد . وقيل: فى شهداء بدر . وقيل : فى شهداء بئر معونة . . وعلى فرض أنها نزلت فى سبب خاص فالإعتبار بعموم اللفظ لابخصوص السبب . . ومعنى الآية عند الجمهور : أنهم أحياء حياة محققة . ثم اختلفوا : فمنهم من قال : إنها ترد إليهم أرواحهم فى قبورهم فيتنعمون . وقال مجاهد : يرزقون من ثمر الجنة ، أى يجدون ريحها وليسوا فيها . وذهب من عدا الجمهور إلى أنها حياة مجازية ، والمعنى : أنهم فى حكم الله مستحقون للنعم فى الجنة والصحيح الأول ، ولا موجب للمصير إلى المجاز ، وقد وردت السنة المطهرة بأن أرواحهم فى أجواف طيور خضر ، وأنهم فى الجنة يرزقون ويأكلون ويتمتعون) [٢] .

التوسل :

ولكنه مع هذه الموافقة للجمهور ، نراه يقف من مسألة التوسل بالأنبياء ، والأولياء موقف المعارضة ، ويفيض فى الإنكار على من يفعل ذلك فى سورة

---

(١) جـ ٣ ص ٣٩٨ .

(٢) جـ ١ ص ٣٦٥ .

يونس عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٩) « قل لا أملك لنفسى ضراً ولا نفعاً إلا ماشاء الله . . . » يقول مانصه : « . . . وفى هذا أعظم واعظ ، وأبلغ زاجر لمن صار دينه وهجيراه المناداة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، والاستغاثة به عند نزول النوازل التى لا يقدر على دفعها إلا الله سبحانه ، وكذلك من صار يطلب من الرسول صلى الله عليه وسلم مالا يقدر على تحصيله إلا الله سبحانه ، فإن هذا مقام رب العالمين ، الذى خلق الأنبياء والصالحين وجميع المخلوقين ، ورزقهم وأحياهم ويميتهم ، فكيف يطلب من نبي من الأنبياء ، أو ملك من الملائكة ، أو صالح من الصالحين ، ماهو عاجز عنه غير قادر عليه ويترك الطلب لرب الأرباب ، القادر على كل شيء ، الخالق الرازق ، المعطى المانع ، وحسبك بما فى هذه الآية موعظة، فإن هذا سيد ولد آدم ، وخاتم الرسل يأمره الله بأن يقول لعباده : لاأملك لنفسى ضراً ولا نفعا . فكيف يملكه لغيره ؟ وكيف يملكه غيره ممن رتبته دون رتبته ، ومنزلته لا تبلغ إلى منزلته لنفسه فضلا عن أن يملكه لغيره ؟ فيا عجبا لقوم يعكفون على قبور الأموات الذى صاروا تحت أطباق الثرى ، ويطلبون منهم من الحوائج مالا يقدر عليه إلا الله عز وجل . كيف لايتيقظون لما وقعوا فيه من الشرك ، ولا يتنبهون لما حل بهم من المخالفة لمعنى (لا إله إلا الله) ومدلول (قل هو الله أحد) .

وأعجب من هذا ، اطلاع أهل العلم على مايقع من هؤلاء ولا ينكرون عليهم ولا يحولون بينهم وبين الرجوع إلى الجاهلية الأولى ، بل إلى ماهو أشد منها ، فإن أولئك يعترفون بأن الله سبحانه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، الضار النافع ، وإنما يجعلون أصنامهم شفعاء لهم عند الله ، ومقربين لهم إليه . وهؤلاء يجعلون لهم قدرة على الضر والنفع ، وينادونهم تارة على الاستقلال ، وتارة مع ذى الجلال ، وكفاك من شر سماعه ، والله ناصر دينه ، ومطهر شريعته من أوضار الشرك ، وأدناس الكفر . ولقد توسل الشيطان ـ أخزاه الله ـ بهذه الذريعة إلى ماتقر به عينه ، وينثلج به صدره ، من كفر كثير من هذه الأمة

المباركة ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا !!! . . . إنا لله وإنا إليه راجعون [1]) اهـ .

موقفه من المتشابه :

ثم إن المؤلف — كما قلنا فى ترجمته — سلفى العقيدة ، فكل ما ورد فى القرآن من ألفاظ توهم التشبيه حملها على ظاهرها ، وفوض الكيف إلى الله ، ولهذا نراه مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة « وسع كرسيه السموات والأرض » يقول :) الكرسى : الظاهر أنه الجسم الذى وردت الآثار بصفته كما سيأتى بيان ذلك . وقد نفى وجوده جماعة من المعتزلة، وأخطأوا فى ذلك خطئا بيناً ، وغلطوا غلطاً فاحشاً . وقال بعض السلف . إن الكرسى هنا عبارة عن العلم ، ومنه قول الشاعر :

تحف بهم بيض الوجوه وعصبة   كراسى بالأخبار حين تنوب

ورجح هذا القول ابن جرير . وقيل : كرسيه : قدرته التى يمسك بها السموات والأرض ، كما يقال : اجعل لهذا الحائط كرسيا . . . أى ما يعمده . وقيل : إن الكرسى هو العرش . وقيل : هو تصوير لعظمته ولا حقيقة له . وقيل . هو عبارة عن الملك . والحق القول الأول . ولا وجه للعدول عن المعنى الحقيقى إلى مجرد خيالات وضلالات [2]) اهـ .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش . . . . الآية » يقول ما نصه : (قد اختلف العلماء فى معنى هذا على أربعة عشر قولا ، وأحقها وأولاها بالصواب مذهب السلف الصالح : أنه استوى سبحانه عليه بلا كيف ، بل على الوجه الذى يليق به مع تنزهه عما لا يجوز عليه [3]) اهـ .

موقفه من آراء المعتزلة :

وبالرغم من أن الزيدية تأثروا كثيراً بتعاليم المعتزلة ، وأخذوا عنهم آراءهم

---

(١) ج ٢ ص ٤٢٩ .   (٢) ج ١ ص ٢٤٤ .   (٣) ج ٢ ص ٢٠١

وعقائدهم فى غالب مسائل الكلام ، فإنا نجد صاحبنا لا يميل إلى القول بمبادئهم بل ونجده يرد عليهم ، ويعارضهم معارضة شديدة فى كثير من المواقف .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة « وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ... الآية » يقول ما نصه : (... وإنما عوقبوا بأخذ الصاعقة لهم ، لأنهم طلبوا ما لم يأذن الله به من رؤية الدنيا . وقد ذهبت المعتزلة ومن تابعهم إلى إنكار الرؤية فى الدنيا والآخرة . وذهب من عداهم إلى جوازها فى الدنيا ، ووقوعها فى الآخرة . وقد تواترت الأحاديث الصحيحة بأن العباد يرون ربهم فى الآخرة ، وهى قطعية الدلالة ، لا ينبغى لمنصف أن يتمسك فى مقابلها بتلك القواعد الكلامية التى جاء بها قدماء المعتزلة ، وزعموا أن العقل قد حكم بها ، دعوى مبنية على شفا جرف هار ، وقواعد لا يغتر بها إلا من لم يحظ من العلم بنصيب نافع ...[١] اهـ .

كذلك نراه يرد على الزمخشرى فى دعواه : أن دخول الجنة مستحق بسبب العمل الصالح ، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة الأعراف « ... ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » (... قال الكشاف : بسبب أعمالكم لا بالتفضل كما تقول المبطلة اهـ . أقول : يا مسكين . . هذا قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما صح عنه « سددوا وقاربوا واعملوا . إنه لن يدخل أحد الجنة بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله برحمته » والتصريح بسبب لا يستلزم نفى سبب آخر ، ولولا التفضل من الله سبحانه وتعالى على العامل بإقداره على العمل لم يكن عمل أصلا ، فلو لم يكن التفضل إلا بهذا الإقدار لكان القائلون به محقة لا مبطلة . وفى التنزيل « ذلك الفضل من الله[٢] » وفيه « فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل[٣] » اهـ[٤]) .

---

(١) جـ ١ ص ٧٢ .

(٢) فى الآية (٧٠) من سورة النساء .

(٣) فى الآية (١٧٥) من سورة النساء .

(٤) جـ ٢ ص ١٩٦

كذلك نراه ينكر على المعتزلة القائلين : بأن العين لا تأثير لها فى المعين ، وذلك حيث يقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة يوسف « وقال يابنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة ... الآية » (وقد أنكر بعض المعتزلة كأبى هاشم والبلخى ، أن للعين تأثيراً ، وليس هذا بمستنكر من هذين وأتباعهما ، فقد صار دفع أدلة الكتاب والسنة بمجرد الاستبعادات العقلية دأبهم وديدنهم ، وأى مانع من إصابة العين بتقدير الله سبحانه لذلك ، وقد وردت الأحاديث الصحيحة بأن العين حق ، وأصيب بها جماعة فى عصر النبوة . ومنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأعجب من إنكار هؤلاء لما وردت به نصوص هذه الشريعة ما يقع من بعضهم من الازدراء على من يعمل بالدليل المخالف . لمجرد الاستبعاد العقلى ، والتنطع فى العبارات ، كالزمخشرى فى تفسيره ؛ فإنه فى كثير من المواطن لا يقف عند دفع دليل الشرع بالاستبعاد ، حتى يضم إلى ذلك الوقاحة فى العبارة ، على وجه يوقع المقصرين فى الأقوال الباطلة ، والمذاهب الزائفة . وبالجملة ، فقول هؤلاء مدفوع بالأدلة المتكاثرة . وإجماع من يعتد به من هذه الأمة سلفاً وخلفاً ، وبما هو مشاهد فى الوجود ، فكم من شخص من هذا النوع الإنسانى ، وغيره من أنواع الحيوان هلك بهذا السبب[1]) اهـ

ويقف الشوكانى من المعتزلة موقف المعارضة فى مسألة غفران الذنوب . فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر « قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعاً ... الآية» نجده يقول : (... وأما ما يزعمه جماعة من المفسرين من تقييد هذه الآية بالتوبة ، وأنها لا تغفر إلا ذنوب التائبين . وزعموا أنهم قالوا ذلك للجمع بين الآيات ، فهو جمع بين الضب والنون ، وبين الملاح والحادى ، وعلى نفسها براقش تجنى ، ولو كانت هذه البشارة العظيمة مقيدة

---

(١) جـ ٣ ص ٣٨ .

بالتوبة لم يكن لها كثير موقع ، فإن التوبة من المشرك يغفر الله له بها ما فعله من الشرك بإجماع المسلمين ، وقد قال « إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء[١]» فلو كانت التوبة قيداً فى المغفرة لم يكن للتنصيص على الشرك فائدة ، وقد قال سبحانه : « وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم[٢] قال الواحدى : المفسرون كلهم قالوا : إن هذه الآية فى قوم خافوا إن أسلموا أن لا يغفر لهم ما جنوا من الذنوب العظام ، كالشرك ، وقتل النفس، ومعاداة النبى صلى الله عليه وسلم . قلت : هب أنها فى هؤلاء فكان ماذا ؟ فإن الاعتبار بما اشتملت عليه من العموم لا بخصوص السبب ، كما هو متفق عليه بين أهل العلم . ولو كانت الآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية مقيدة بأسبابها غير متجاوزة لها ، لارتفعت أكثر التكاليف عن الأمة إن لم ترتفع كلها ، واللازم باطل بالإجماع ، فالملزوم مثله[٣]) اهـ .

موقف الشوكانى من مسألة خلق القرآن :

هذا . . ولم يرض الشوكانى موقف أهل السنة ، ولا موقف المعتزلة من مسألة خلق القرآن ، وإنما رضى أن يكون من العلماء الوقوف فى هذه المسألة ، فلم يجزم فيها برأى ، وراح ينحى باللائمة على من يقطع بأن القرآن قديم أو مخلوق ، فعندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة الأنبياء « ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون » يقول ما نصه : (. . . وقد استدل بوصف الذكر بكونه محدثا على أن القرآن محدث ، لأن الذكر هنا هو القرآن ، وأجيب بأنه لا نزاع فى حدوث المركب من الأصوات والحروف ، لأنه متجدد فى النزول ، فالمعنى : محدث تنزيله ، وإنما النزاع فى

---

(١) فى الآية (١١٦) من سورة النساء
(٢) فى الآية (٦) من سورة الرعد
(٣) جـ ٤ ص ٤٥٧

الكلام النفسى(١) . وهذه المسألة — أعنى قدم القرآن وحدوثه — قد ابتلى بها كثير من أهل العلم . . . ولقد أصاب أئمة السنة بامتناعهم من الإجابة إلى القول بخلق القرآن وحدوثه ، وحفظ الله بهم أمة نبيه عن الابتداع ، ولكنهم — رحمهم الله — جاوزوا ذلك إلى القول بقدمه ، ولم يقتصروا على ذلك حتى كفروا من قال بالحدوث ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من قال : لفظى بالقرآن مخلوق ، بل جاوزوا ذلك إلى تكفير من وقف ، وليتهم لم يجاوزوا حد الوقف ، وإرجاع العلم إلى علام الغيوب ، فإنه لم يسمع من السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إلى وقت قيام المحنة وظهور القول فى هذه المسألة : شىء من الكلام ، ولا تنقل عنهم كلمة فى ذلك . فكان الامتناع من الإجابة إلى مادعوا إليه ، والتمسك بأذيال الوقف ، وإرجاع علم ذلك إلى عالمه . هو الطريقة المثلى ؛ وفيه السلامة والخلوص من تكفير طوائف من عباد الله ، والأمر لله سبحانه(٢) اهـ

هذا هو أهم ما فى تفسير الشوكانى من البحوث التى أعطى فيها لنفسه حرية واسعة ، خولت له أن يسخر من عقول العامة ، وأن يهزأ من تعاليم المعتزلة ، وأن يندد ببعض مواقف أهل السنة . وأحسب أن الرجل قد دخله شىء من الغرور العلمى ، فراح ، يوجه لومه لهؤلاء وهؤلاء ، وليته وقف منهم جميعاً موقف الحاكم النزيه ، والناقد العف . . . وعلى الجملة ، فالكتاب له قيمته ومكانته ، وإن كان لا يعطينا الصورة الواضحة للتفسير عند الإمامية الزيدية ونرجو أن نوفق إلى العثور على بعض ما لهم فى التفسير ، وأحسب أنه كثير . والكتاب مطبوع فى خمس مجلدات ، ومتداول بين أهل العلم .

---

(١) ليس هذا هو محل النزاع ، لأن الكلام النفسى بمعنى أنه صفة أزلية قائمة بذات الله تعالى ليست بحرف ولا صوت ، منزهة عن التقديم والتأخير ولوازم الكلام اللفظى ، ومنزهة عن السكوت النفسى وعن الآفة الباطنة . . . الكلام النفسى بهذا المعنى يقول به الأشعرى وينفيه باقى الفرق — انظر محاضرات التوحيد للمرحوم الشيخ محمود أبى دقيقة ص ١٢٨ — مطبعة الإرشاد سنة ١٩٣٦ م .

(٢) جـ ٣ ص ٣٨٤ .

الخوارج

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

كلمة إجمالية عن الخوارج :

بعد مقتل عثمان رضى الله عنه ، نشط أنصار على رضى الله عنه فى الدعوة له ، حتى أخذوا له البيعة من المسلمين ، ليكون خليفة لهم . . . ولكن لم تكد تتم له البيعة حتى قام ثلاثة من كبار الصحابة ينازعونه الأمر ، لا عتقادهم أن الحق فى غير جانبه . وهؤلاء الصحابة هم : معاوية بن أبى سفيان ، وطلحة بن عبدالله ، والزبير بن العوام .

وكان لعلى - رضى الله عنه - شيعة وأنصار ، وكان لمعاوية رضى الله عنه شيعة وأنصار كذلك . وكانت حروب طاحنة بين الفريقين !! . كان الغلب فيها لعلى وحزبه ، إلى أن جاءت موقعة صفين ، فكاد الفشل يحيق بجيش معاوية ، وأوشكت الهزيمة أن تحدق به ، لولا أن لجأ إلى حيلة رفع المصاحف على أسنة الرماح ، طلبا للهدنة ، ورغبة فى التحكيم بين الحزبين . وبعد أخذ ورد بين جيش على فى قبول التحكيم وعدمه . رأى على رضى الله عنه قبول التحكيم ، رغبة منه فى حقن الدماء . واختار معاوية : عمرو بن العاص ليمثله واختار أصحاب على : أبا موسى الأشعرى .

وكان قبول على - رضى الله عنه - لمبدأ التحكيم أول عامل من عوامل التصدع فى جيشه وحزبه ، إذ أن بعض شيعته رأوا أن التحكيم خطأ ، لأن الحق ظاهر فى جانب على . ولا يعتوره شك فى نظرهم ، وقبول التحكيم دليل الشك من على فى أحقيته بالخلافة ، وهم إنما قاموا معه فى حروبه لاعتقادهم بأن الحق فى جانبه ، فكيف يشك هو فيه ؟؟ . . .

لم يرض هؤلاء بفكرة التحكيم . فخرجوا على علىّ ، ولم يقبلوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، لقبوله التحكيم ، وإلا إذا نقض ما أبرم

من الشروط بينه وبين معاوية ، ولكن عليا رضى الله عنه لم يستجب لرغبتهم هذه ، فأخذوا كلما خطب على أو ضمه وإياهم مكان جامع رفعوا أصواتهم بقولهم : (لا حكم إلا لله) .

وكان التحكيم ، وفيه خدع عمرو بن العاص أبا موسى الأشعرى ، فلم يكن إلا تحكيما فاشلا . أمال قلوب كثير من الناس إلى ناحية الخوارج ، وأخيراً ، وبعد يأس الخوارج من رجوع على إليهم اجتمعوا فى منزل أحدهم ، وخطب فيهم خطبة حثهم على التمسك بمبدئهم والدفاع عنه ، وطلب منهم الخروج من الكوفة إلى قرية بالقرب منها يقال لها حروراء ، فخرجوا إليها ، وأمروا عليهم عبد الله ابن وهب الراسبى [1] . ووقعت بينهم وبين على حروب طاحنة هزمهم فيها ، ولكن لم يقض عليهم . وأخيراً دبروا له مكيدة قتله ، فقتله عبد الرحمن بن ملجم .

وجاءت دولة الأمويين ، فكان الخوارج شوكة فى جنبها يهددونها ويحاربونها ، حتى كادوا يقضون عليها . ثم جاءت الدولة العباسية ، فكان بينهم وبينها حروب كذلك ، ولكن لم يكونوا فى قوتهم الأولى ، لتفرق كلمتهم وتشتت وحدتهم ، وضعف سلطانهم ، وخور قواهم .

دبت فى وحدة الخوارج جرثومة التفرق ، وأصيبوا بداء التحزب ، فبلغ عدد أحزابهم عشرين حزبا ، كل حزب يفارق الآخر فى المبدأ والعقيدة ... ولكن يجمع الكل على مبدأين اثنين :

أحدهما : إكفار على ، وعثمان ، والحكمين ، وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمين .

وثانيهما : وجوب الخروج على السلطان الجائر .

وهناك مبدأ ثالث يقول به أكثر الخوارج ، وهو : الإكفار بارتكاب الكبائر [2] .

---

(١) نسبة إلى راسب . حى من الأزد .

(٢) انظر الفرق بين الفرق ص ٥٥ .

هذا .. وقد وضع الخوارج مبدأ للخلافة فقالوا : (إن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين ، وإذا اختير الخليفة فليس يصح أن يتنازل ، أو يحكم ، وليس بضرورى أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ، ولو كان عبداً حبشياً ، وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله ، وإلا وجب عزله ، ولهذا أمروا عليهم عبد الله بن وهب الراسبي ، ولم يكن قرشيا [١]) .

وعلى هذا حكموا بصحة خلافة أبي بكر وعمر ، وبصحة خلافة عثمان فى سنيه الأولى ، فلما غير ، وبدل ولم يسر سيرة الشيخين — كما زعموا — وجب عزله ، وأقروا بصحة خلافة على أولا ، ثم خرجوا عليه بعد أن أخطأ فى التحكيم ، وكفر به كما يزعمون !! ..

ولا يسعنا فى تلك العجالة إلا أن نطوى الحديث عن التعرض لكل فرقة من فرق الخوارج ، ولكن نكتفى بالكلام عن أشهرها ، وهى ما يأتى :

أولا — الأزارقة : وهم اتباع نافع بن الأزرق ، وهم يكفرون من عداهم من المسلمين ، ويحرمون أكل ذبائحهم ومنا كحتهم ، ولا يجيزون التوارث بينهم ، ويعاملونهم معاملة الكفار من المشركين .. إما الإسلام ، وإما السيف ، ودارهم دار حرب ، ويحل قتل نسائهم وأطفالهم ، ولا يقولون برجم الزانى المحصن ، ولا يقولون بحد من يقذف المحصنين من الرجال .. أما قاذف المحصنات فعليه الحد قطعا . ولا يرون جواز التقية .

ثانياً — النجدات : وهم أتباع نجدة بن عامر ، وهم يرون أنه لا حاجة للناس إلى إمام قط ، بل عليهم أن يتناصفوا فيما بينهم ، فإن رأوا أن الحاجة تدعوا إلى إمام أقاموه ، وإلا فلا . كما أنهم يكفرون من يقول بإمامة نافع ابن الأزرق ، ويكفرون من يكفر القاعدين عن الهجرة لنافع وحزبه ، ويقولون : إن الدين أمران :

---

(١) فجر الاسلام ج ١ ص ٣١٧

أحدهما : معرفة الله تعالى ، ومعرفة الرسول ، والإقرار بما جاء به جملة . فهذا واجب معرفته على كل مكلف .

وثانيهما: ما عدا ما تقدم، فالناس معذورون بجهالته إلى أن تقوم عليهم الحجة . فمن استحل شيئا حراما باجتهاد فله عذره ؛ وهم يعظمون جريمة الكذب ، ويجعلونها أكبر جرما من شرب الخمر والزنى .

ومن بدع نجدة: أنه تولى أصحاب الحدود من موافقيه، وقال : لعل الله يعذبهم بذنوبهم في غير نار جهنم، ثم يدخلهم الجنة، وزعم أن النار يدخلها من خالفه في دينه.

ثالثا ـ الصفرية : وهم أتباع زياد بن الأصفر ، وهم يقولون بأن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أنهم لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم كما ترى الأزارقة ذلك . ومن الصفرية من يخالف في ذلك فيقول : كل ذنب له حد في الشريعة لا يسمى مرتكبه مشركا ، ولا كافرا ، بل يدعى باسمه المشتق من جريمته يقال : سارق ، وقاتل ، وقاذف . وكل ذنب ليس فيه حد معلوم في الشريعة مثل الإعراض عن الصلاة فمرتكبه كافر . . ولا يسمى مرتكب واحد من هذين النوعين جميعا مؤمنا ، ومنهم من يقول: إن صاحب الذنب لا يحكم عليه بالكفر حتى يرفع إلى الوالي فيحده ويحكم بكفره .

رابعا ـ الإباضية: وهم أتباع عبد الله بن إباض، وهم أعدل فرق الخوارج، وأقربها إلى تعاليم أهل السنة ، وهم يجمعون على أن مخالفيهم من المسلمين ليسوا مشركين ، ولا مؤمنين. ولكنهم كفار . ويروى عنهم أنهم يريدون كفر النعمة ، وأجازوا شهادة مخالفيهم من المسلمين، ومناكحتهم، والتوارث معهم، وحرموا دماءهم في السر دون العلانية، لأنهم محاربون لله ولرسوله ، ولا يدينون دين الحق ودارهم دار توحيد إلا معسكر السلطان، واستحلوا من غنائمهم: الخيل والسلاح، وكل ما فيه قوة حربية لهم . ولم يستحلوا غنائم الذهب والفضة ، بل يردونها لأهلها .

واختلفوا في النفاق على ثلاثه أقوال :

فريق يرى أن النفاق براءة من الشرك والإيمان معا، ويحتج بقوله تعالى في الآية (١٤٣) من سورة النساء « مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء » .

وفريق يرى أن كل نفاق فهو شرك ، لأنه ينافى التوحيد .

وفريق ثالث يرى أن النفاق لا يسمى به غير القوم الذين سماهم الله تعالى منافقين .

وهناك مخالفة لبعض الإباضية فى بعض المسائل ، لا نعرض لها هنا ، مخافة التطويل .

هذه هى أهم فرق الخوارج ، وهذه هى أهم ما لهم من تعاليم وعقائد ؛ نضعها بين يدى القارىء قبل أن نتكلم عن موقفهم من التفسير ، ليكون على علم بها ، وليعلم بعد ذلك مقدار الصلة بينها و بين مالهم من تفسير .

مواقف الخوارج من تفسير القرآن الكريم

تعددت فرق الخوارج ، وتعددت مذاهبهم وآراؤهم ، فكان طبيعيا — وهم ينتسبون إلى الإسلام ، ويعترفون بالقرآن — أن تبحث كل فرقة منهم عن أسس من القرآن الكريم ، تبنى عليها مبادئها وتعاليمها ، وأن تنظر إلى القرآن من خلال عقيدتها ، فما رأته فى جانبها — ولو ادعاء — تمسكت به ، واعتمدت عليه ، وما رأته فى غير صالحها حاولت التخلص منه بصرفه وتأويله ، بحيث لا يبقى متعارضاً مع آرائها وتعاليمها .

سلطان المذهب يغلب على الخوارج فى فهم القرآن :

والذى يقرأ تاريخ الخوارج ، ويقرأ ما لهم من أفكار تفسيرية ، يرى أن المذهب قد سيطر على عقولهم ، وتحكم فيها ، فأصبحوا لا ينظرون إلى القرآن إلا على ضوئه ، ولا يدركون شيئاً من معانيه إلا تحت تأثير سلطانه ، ولا يأخذون منه إلا بقدر ما ينصر مبادئهم ويدعو إليها .

فمثلا نرى أن أكثر الخوارج يجمعون على أن مرتكب الكبيرة كافر ، ومخلد فى نار جهنم ، ونقرأ فى الكتب التى تكلمت عن الخوارج فنجد ابن أبى الحديد — وهو ممن تعرض لهم فى كتابه (شرح نهج البلاغة) — يسوق لنا أدلتهم التى أخذوها من القرآن ، وبنو عليها رأيهم فى مرتكب الكبيرة ، كما نجده يناقش هذه الأدلة ، ويفندها دليلا بعد دليل . ونرى أن نمسك عن مناقشة ابن أبى الحديد لهذه الأدلة ، ويكفى أن نسوق للقارىء الكريم هذه الآيات التى استندوا إليها ، ووجهة نظرهم فيها ؛ فهى التى تعنينا فى هذا البحث ، وهى التى ترينا إلى أى حد تأثر الخوارج بسلطان العقيدة فى فهم نصوص القرآن . . . فمن هذه الأدلة ما يأتى :

قوله تعالى فى الآية (٩٧) من سورة آل عمران « ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غنى عن العالمين » قالوا : فجعل تارك الحج كافراً .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٨٧) من سورة يوسف « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » قالوا : والفاسق — لفسقه وإصراره عليه آيس من روح الله ، فكان كافراً .

ومنها قوله تعالى فى الآيات (٤٤) من سورة المائدة: «ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون » قالوا : وكل مرتكب للذنوب فقد حكم بغير ما أنزل الله .

ومنها قوله تعالى فى الآية (١٤ و ١٥ و ١٦) من سورة الليل « فأنذرتكم ناراً تلظى * لا يصلاها إلا الأشقى * الذى كذب وتولى » قالوا : وقد اتفقنا مع المعتزلة على أن الفاسق يصلى النار ، فوجب أن يسمى كافراً .

ومنها قوله تعالى فى الآية (١٠٦) من سورة آل عمران « يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت وجوههم أكفرتهم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » قالوا : والفاسق لا يجوز أن يكون ممن ابيضت وجوههم ، فوجب أن يكون ممن اسودت ، ووجب أن يسمى كافراً ؛ لقوله بما كنتم تكفرون » .

ومنها قوله تعالى فى الآيات (٣٨) وما بعدها إلى آخر سورة عبس «وجوه يومئذ مسفرة * ضاحكة مستبشرة * ووجوه يومئذ عليها غبرة * ترهقها قترة أولئك هم الكفرة الفجرة » قالوا : والفاسق على وجهه غبرة ، فوجب أن يكون من الكفرة الفجرة .

ومنها قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة سبأ « ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور » قالوا : والفاسق لا بد أن يجازى ، فوجب أن يكون كفورا .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة الحجر « إن عبادى ليس لك عليهم سلطان إلا من اتبعك من الغاوين » وقال فى الآية (١٠٠) من سورة النحل « إنما سلطانه على الذين يتولونه والذين هم به مشركون » قالوا : فجعل الغاوى الذى يتبعه مشركا .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٢٠) من سورة السجدة « وأما الذين فسقوا فمأواهم النار كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وقيل لهم ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون » قالوا : فجعل الفاسق مكذبا .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة الأنعام « ... ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون » قالوا : فأثبت الظالم جاحداً ، وهذه صفة الكفار .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » .

ومنها قوله تعالى فى الآيات (١٠٢ ، ١٠٣ ، ١٠٤ ، ١٠٥) من سورة المؤمنون « فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ، ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم فى جهنم خالدون . تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون . ألم تكن آياتى تتلى عليكم فكنتم بها تكذبون » قالوا : فنص سبحانه على أن من تخف موازنيه يكون مكذبا ، والفاسق تخف موازينه فكان مكذبا ، وكل مكذب كافر .

ومنها قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة التغابن « هو الذى خلقكم فمنكم كافر ومنكم مؤمن » قالوا . وهذا يقتضى أن من لا يكون مؤمنا فهو كافر ، والفاسق ليس بمؤمن ، فوجب أن يكون كافرا [1] ...

هذه بعض الآيات التى تمسك بها الخوارج فى موقفهم من مرتكب الكبيرة الذى لم يتب ، والتى حسبوا أنها حجج دامغة لمذهب مخالفيهم من المسلمين . ولا يسع الذى يعرف سياق هذه الآيات وسباقها ، ويعرف الآيات والأحاديث الواردة فى شأن عصاة المؤمنين ، ويتأمل قليلا فى هذه التخريجات والاستنتاجات التى يقولون بها ، لا يسعه بعد هذا كله : إلا أن يحكم بأن القوم متعصبون ، ومندفعون بدافع العقيدة ، وسلطان المذهب .

وهناك نصوص من القرآن استغلها أفراد من الخوارج ، لتدعيم مبادئهم التى

---

(١) أنظر شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الثانى ص ٣٠٧ — ٣٠٨ .

يشذون بها عمن عداهم من بعض فرق الخوارج. وهى فى مظهرها التفسيرى أكثر تعصبا ، وأبلغ تعنتا ، فمن ذلك : أن نافع بن الأزرق كان لا يرى جواز التقية التى هى فى الأصل من مبادىء الشيعة ، ويستدل على حرمتها بقوله تعالى فى الآية (٧٧) من سورة النساء « .... إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله »

ويرى نجدة بن عامر جواز التقية ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى فى الآية (٢٨) من سورة غافر « وقال رجل مؤمن من آل فرعون يكتم إيمانه » .

وأظهر من هذا : أن نجدة بن عامر كان لا يصوب نافع بن الأزرق فيما يقول به من إكفار القعدة ، واستحلال قتل أطفال مخالفيه ، وعدم رد الأمانات إلى مخالفيه ، وغير ذلك من آرائه التى شذ بها ، فأرسل نجدة إلى نافع رسالة يقول له فيها : (... وأكفرت الذين عذرهم الله تعالى فى كتابه من قعدة المسلمين وضعفتهم . قال الله عز وجل - وقوله الحق ووعده الصدق - : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله [١] » ثم سماهم - تعالى - أحسن الأسماء فقال « ما على المحسنين من سبيل [٢] » . ثم استحللت قتل الأطفال وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قتلهم ، وقال الله جل ثناؤه « ولا تزر وازرة وزر أخرى [٣] » ، وقال سبحانه فى القعدة خيراً فقال « وفضل الله المجاهدين على القاعدين أجرا عظيما [٤] » ، فتفضيله المجاهدين على القاعدين لا يدفع منزلة من هو دون المجاهدين .. أو ما سمعت قوله تعالى « لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر [٥] » ، فجعلهم من المؤمنين ، ثم إنك لا تؤدى الأمانة إلى من خالفك والله تعالى قد أمر أن تؤدى الأمانات إلى أهلها ، فاتق الله فى نفسك ، واتق يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، فإن الله بالمرصاد ، وحكمه العدل ، وقوله الفصل . والسلام) .

(١ ، ٢) فى الآية (٩١) من سورة التوبة.
(٣) فى الآية (١٦٤) من سورة الأنعام .
(٤ ، ٥) فى الآية (٩٥) من سورة النساء.

فرد عليه نافع بكتاب جاء فيه : (... وعبت مادنت به من إكفار العقدة وقتل الأطفال ، واستحلال الأمانة من المخالفين ، وسأفسر لك إن شاء الله

أما هؤلاء القعدة ، فليسوا كمن ذكرت ممن كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأنهم كانون بمكة مقهورين محصورين لا يجدون إلى الهرب سبيلا ، ولا إلى الاتصال بالمسلمين طريقا ، وهؤلاء قد تفقهوا فى الدين وقرءوا القرآن والطريق لهم نهج واضح ، وقد عرفت ماقاله الله تعالى فيمن كان مثلهم إذ قالوا « كنا مستضعفين فى الأرض[١] » فقال : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها[٢] » وقال سبحانه : « فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله[٣] » . وقال : « وجاء المعذرون من الأعراب ليؤذن لهم[٤] » فخبر بتعذيرهم ، وأنهم كذبوا الله ورسوله . ثم قال : « سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم[٥] » فانظر إلى أسمائهم وسماتهم

وأما الأطفال ، فإن نوحا نبى الله كان أعلم بالله منى ومنك ، وقد قال « رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا ، إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا »[٦] فسماهم بالكفر وهم أطفال وقبل أن يولدوا ، فكيف كان ذلك فى قوم نوح ولا نقوله فى قومنا . . والله تعالى يقول « أكفاركم خير من أولئكم أم لكم براءة فى الزبر[٧] » وهولاء كمشركى العرب لا يقبل منهم جزية ، وليس بيننا وبينهم إلا السيف أو الإسلام .

وأما استحلال أمانات من خالفنا ، فإن الله تعالى أحل لنا أموالهم كما أحل دماءهم لنا ، فدماؤهم حلال طلق وأموالهم فىء للمسلمين ...)[٨] .

(١ ، ٢) فى الآية (٩٧) من سورة النساء .

(٣) فى الآية (٨١) من سورة التوبة .

(٤ ، ٥) فى الآية (٩٠) من سورة التوبة .

(٦) فى الآيتين (٢٦ ، ٢٧) من سورة نوح

(٧) الآية (٤٣) من سورة القمر

(٨) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد المجلد الأول ص ٣٨٢ .

ولا شك لدينا فى أن نافع بن الأزرق متعصب فى فهمه للآيات على النحو الذى جاء فى رسالته هذه ، وهو تعصب بلغ به إلى درجة المغالطة ، وإلا فهو جهل منه بمواقع كلام الله ، ومدلول آياته .

مدى فهم الخوارج لنصوص القرآن :

هذا .. وإن الخوارج عندما ينظرون إلى القرآن لا يتعمقون فى التأويل ولا يغوصون وراء المعانى الدقيقة ، ولا يكلفون أنفسهم عناء البحث عن أهداف القرآن وأسراره ، بل يقفون عند حرفية ألفاظه ، وينظرون إلى الآيات نظرة سطحية ، وربما كانت الآية لا تنطبق على مايقصدون إليه ، ولا تتصل بالموضوع الذى يستدلون بها عليه ، لأنهم فهموا ظاهراً معطلا ،وأخذوا بفهم غير مراد .

ولقد يعجب الإنسان ويدهش عند مايقرأ ماللقوم من سخافات فى فهمهم لبعض نصوص القرآن ، أو قعهم فيها التنطع والتمسك بظواهر النصوص ، ولكى لا أتهم بالقسوة فى حكمى هذا ، أضع بين يدى القارىء الكريم بعض ما جاء عن القوم ، حتى لا يجد مفراً من الحكم عليهم بمثل ماحكمت به .

(روى أن عبيدة بن هلال اليشكرى اتهم بامرأة حداد رأوه يدخل منزله بغير إذنه « فأتوا قطرياً [1] فذكروا ذلك له ، فقال لهم . إن عبيدة من الدين بحيث علمتم ، ومن الجهاد بحيث رأيتم ، فقالوا : إنا لا نقاره على الفاحشة ، فقال : انصرفوا .. ثم بعث إلى عبيدة فأخبره وقال : إنا لا نقار على الفاحشة ، فقال : بهتونى ياأمير المؤمنين فما ترى ؟ قال : إنى جامع بينك وبينهم ،فلاتخضع خضوع المذنب ، ولا تتطاول تطاول البرىء .. فجمع بينهم فتكلموا ، فقام عبيدة فقال بسم الله الرحمن الرحيم « إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم :... » الآيات (١١ وما بعدها من سورة النور) فبكوا وقاموا إليه فاعتنقوه وقالوا : استغفر لنا . . ففعل [2]) .

---

(١) هو قطرى بن الفجاءة الزعيم الثالث للازارقة .

(٢) الكامل للمبرد جـ ٢ ص ٢٣٦ :

(ويروى أن واصل بن عطاء وقع هو وبعض أصحابه في يد الخوارج فقال لأصحابه : اعتزلوا ودعونى وإياهم ـ وكانوا قد أشرفوا على العطب ـ فقالوا : شأنك .. فخرج إليهم فقالوا : ماأنت وأصحابك ؟ قال : مشركون مستجيرون ليسمعوا كلام الله ويعرفوا حدوده ، فقالوا : قد أجرناكم . قال : فعلمونا : فجعلوا يعلمونه أحكامهم ، وجعل يقول : قد قبلت أنا ومن معى . قالوا فامضوا مصاحبين فإنكم إخواننا . قال : ليس ذلك لكم . قال الله تعالى « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه[1] »فأبلغونا مأمننا ، فنظر بعضهم إلى بعض ثم قالوا : ذلك لكم ، فساروا بأجمعهم حتى بلغوهم المأمن[2])

ومن الخوارج من أداه تمسكه بظاهر النصوص إلى أن قال (لو أن رجلا أكل من مال يتيم فلسين وجبت له النار ، لقوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة النساء « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً » ولو قتل اليتيم أو بقر بطنه لم تجب له النار ، لأن الله لم ينص على ذلك[3])

وهذا هو ميمون العجردى زعيم الميمونية[4] من الخوارج ، يرى جواز نكاح بنات الأولاد وبنات أولاد الإخوة والإخوات ويستدل على ذلك فيقول : (إنما ذكر الله تعالى فى تحريم النساء بالنسب الأمهات ، والبنات والأخوات والعمات ، والخالات ، وبنات الأخ ، وبنات الأخت ، ولم يذكر بنات البنات ولا بنات البنين ، ولا بنات أولاد الإخوة ولا بنات أولاد الأخوات[5]

---

(١) فى الآية (٦) من سورة التوبة
(٢) الكامل للمبرد جـ٢ ص ١٠٦
(٣) تلبيس إبليس ص ٩٥
(٤) يعدهم صاحب الفرق بين الفرق من غير فرق المسلمين .
(٥) الفرق بين الفرق ص ٢٦٤ - ٢٦٥

ويروى أن رجلا من الإباضية أضاف جماعة من أهل مذهبه ، وكانت له جارية على مذهبه قال لها : قدمى شيئاً فأبطأت ، فحلف ليبيعها من الأعراب ، فقيل له : تبيع جارية مؤمنة من قوم كفار ، فقال « وأحل الله البيع وحرم الربا [١] » (فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة) .

وأيضاً نرى أن الخوارج خرجوا على عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها ، وقالوا : لم خرجت من بيتها ، والله تعالى يقول : « وقرن فى بيوتكن [٢] » . (فى الآية (٣٣) من سورة الأحزاب) .

وأيضاً فإن الأزارقة قالوا : من قذف امرأة محصنة فعليه الحد . ومن قذف رجلا محصنا فلا حد عليه [٣] .. وهذا لأن الله تعالى نص على حد قاذف المحصنات ، ولم ينص على حد قاذف المحصنين .

وقالوا — أيضاً — بأن سارق القليل يجب عليه القطع [٤] ، أخذاً بظاهر قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاءاً بما كسبا نكالا من الله » .

وغير هذا كثير نجده عنهم فى بطون الكتب ، وهو لا يدع مجالا للشك فى أن الخوارج قوم سطحيون فى فهمهم لآيات القرآن الكريم . ولإدراك معانيه.

موقف الخوارج من السنة وإجماع الأمة ، وأثر ذلك فى تفسيرهم للقرآن :

ولقد كان من أثر جمود الخوارج عند ظواهر النصوص القرآنية . أنهم لم يلتفتوا إلى ما جاء من الأحاديث النبوية ناسخا لبعض آيات الكتاب . أو مخصصاً

(١) التبصير فى الدين ص ٣٥ .

(٢) التبصير فى الدين ص ٣٦ .

(٣) التبصير فى الدين ص ٢٩ .

(٤) التبصير فى الدين ص ٢٩ .

لبعض عموماته ، أو زائدا على بعض أحكامه ، ويظهر أن هذا المبدأ قد تملك قلوب الخوارج ، وتسلط على عقولهم ، فنتج عنه أن وضع بعضهم على رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الحديث ، وهو : (إنكم ستختلفون من بعدى ، فما جاءكم عنى فاعرضوه على كتاب الله وما خالفه فليس عنى) فقد قال عبدالرحمن المهدى : (الزنادقة والخوارج وضعوا حديث : ما أتاكم عنى فاعرضوه على كتاب الله .... إلخ[1]) .

كما كان من أثر هذا الجمود عند ظواهر القرآن أيضاً ، أنهم لم يلتفتوا إلى إجماع الأمة ، ولم يقدروه عند فهمهم لنصوص القرآن ، مع أن الإجماع فى الحقيقة يستند إلى أصل من الكتاب أو السنة ، وليس أمراً مبتدعا فى الدين ، أو خارجا على قواعده وأصوله .

وفى هذا كله نجد العلامة ابن قتيبة يحدثنا عن بعض أحكام احتج بها الخوارج ، وهى مخالفة لإجماع الأمة . ومناقضة لما صح عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقالوا : يبطلها القرآن .. فيقول :

(.... قالوا : حكم فى الرجم يدفعه الكتاب .. قالوا : رويتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رجم ، ورجمت الأئمة من بعده ، والله تعالى يقول فى الإماء « فإن أتين بفاحشة فعليهن نصف ما على المحصنات من العذاب »[2] والرجم إتلاف للنفس لا يتبعض ، فكيف يكون على الإماء نصفه ؟ . . وذهبوا إلى أن المحصنات ، ذوات الأزواج .. قالوا : وفى هذا دليل على أن المحصنة حدها الجلد[3]) .

(قالوا : حكم فى الوصية يدفعه الكتاب .. قالوا : رويتم أن رسول الله

---

(١) انظر القول الفصل لشيخ الإسلام صبرى ص ٦٤ — ٦٥ (هامش) . وقد اغتر بهذا الحديث الموضوع كثير من المسلمين ، وكان ذريعة لتشكيك بعض الناس فى عقائدهم .

(٢) فى الآية (٢٥ من سورة النساء) .

(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤١ .

صلى الله عليه وسلم قال: (لا وصية لوارث)، والله تعالى يقول «كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين[١]».. والوالدان وارثان على كل حال لا يحجبهما أحد عن الميراث . وهذه الرواية خلاف كتاب الله عز وجل[٢]) .

(قالوا: حكم فى النكاح يدفعه الكتاب .. قالوا: رويتم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: (لا تنكح المرأة على عمتها، ولا على خالتها) وأنه قال: (يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب) . والله عز وجل يقول «حرمت عليكم أمهاتكم[٣]» . . . إلى آخر الآية، ولم يذكر الجمع بين المرأة وعمتها وخالتها، ولم يحرم من الرضاع إلا الأم المرضعة والأخت بالرضاع .. ثم قال «وأحل لكم ماوراء ذلكم»، فدخلت المرأة على عمتها وخالتها، وكل رضاع سوى الأم، والأخت فيما أحله الله تعالى[٤]) .

يحدثنا ابن قتيبة بهذا عنهم، ثم يتولى بنفسه الرد عليهم فى ذلك كله رداً مسهبا فيه إزالة كل شبهة، ودفع كل حجة وردت على ألسن القوم، ولا نطيل بذكر ذلك . ومن أراد الوقوف عليه، فليرجع إليه فى تأويل مختلف الحديث) ص ٢٤١ — ٢٥٠ .

الإنتاج التفسيرى للخوارج :

لم يكن للخوارج من الإنتاج التفسيرى مثل ما كان للمعتزلة، أو الشيعة، أو غيرهما من فرق المسلمين، التى خلفت لنا الكثير من كتب التفسير، وكل ماوصل إلينا من تفسير الخوارج الأول لم يزد عن بعض أفهام لهم لبعض الآيات القرآنية تضمنها جدلهم، واشتملت عليها مناظراتهم، وذكرنا لك

---

(١) فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة.
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٢ .
(٣) الآية (٢٣) من سورة النساء .
(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

منها كل ماوصل إلى أيدينا ، وجميع ما استخلصناه من بطون الكتب المختلفة .

ولكن هل هذا هو كل ما كان للخوارج من تفسير ؟ وهل وقف إنتاجهم عند هذا المقدار الضئيل ؟ أو كان لهم مع هذا كتب مستقلة فى التفسير ، ولكن فقدتها المكتبة الإسلامية على طول الأيام ومر العصور ؟ .

الحق أنى وجهت لنفسى هذا السؤال ، وكدت أعجز عن الجواب عنه ... ولكن هيأ الله لى ظرفا جمعنى مع رجل من الإباضية(١) المعاصرين ، يقيم فى القاهرة ، فوجهت إليه هذا السؤال نفسه ، فأفهمنى أن الإنتاج التفسيرى للخوارج كان قليلا بالنسبة لإنتاج غيرهم من فرق الإسلام ، ومع هذا فلم تحتفظ المكتبة الإسلامية من هذا النتاج القليل إلا ببعض منه . لبعض العلماء من الإباضية فى القديم والحديث .

فسألته : وهل تذكر شيئاً من هذه الكتب ؟ فذكر لى من الكتب ما يأتى :-

١ — تفسير عبد الرحمن بن رستم الفارسى .. من أهل القرن الثالث الهجرى .

٢ — تفسير هود بن محكم الهوارى .. من أهل القرن الثالث الهجرى .

٣ — تفسير أبى يعقوب ، يوسف بن إبراهيم الورجلانى .. من أهل القرن السادس الهجرى .

٤ — داعى العمل ليوم الأمل .. للشيخ محمد بن يوسف اطفيش .. من أهل القرن الحاضر .

٥ — هميان الزاد إلى دار المعاد ... له أيضاً .

٦ — تيسير التفسير .. له أيضاً .

فقلت له وهل يوجد شىء من هذه الكتب إلى اليوم ؟ .. فقال لى :

---

(١) هو الشيخ إبراهيم إطفيش ، الموظف بالقسم الأدبى بدار الكتاب المصرية

أما تفسير عبد الرحمن بن رستم ، فغير موجود . وأما تفسير هود بن محكم ، فموجود ، ومتداول بين الإباضية فى بلاد المغرب .. وهو يقع فى أربع مجلدات ، وقد أطلعنى منه على جزء . مخطوطين عنده ، وهما الأول والرابع . أما الأول : فيبدأ بسورة الفاتحة ، وينتهى بآخر سورة الأنعام . وأما الرابع : فيبدأ بسورة الزمر ، وينتهى بآخر القرآن .

قال : وأما تفسير أبى يعقوب الورجلانى ، فغير موجود ، ويذكر المحققون من علمائنا أنه من أحسن التفاسير بحثاً ، وتحقيقاً ، وإعراباً .

وأما تفسير داعى العمل ليوم الأمل ، فلم يتمه مؤلفه ؛ لأنه عزم على أن يجعله فى اثنين وثلاثين جزءا ، ثم عدل عن عزمه هذا ، واشتغل بتفسير هميان الزاد إلى دار المعاد .

وقد أطلعنى محدثى على أربعة أجزاء من تفسير داعى العمل ، فى مجلدين مخطوطين بخط المؤلف ، أما أحد المجلدين : فإنه يحتوى على الجزء التاسع والعشرين ، والجزء الثلاثين من أجزاء الكتاب ، وهو يبدأ بسورة الرحمن ، وينتهى بآخر سورة التحريم ، وأما المجلد الثانى : فإنه يحتوى على الجزء الحادى والثلاثين ، والجزء الثانى والثلاثين ، وهو يبدأ بسورة تبارك ، وينتهى بآخر القرآن . وقد وجدت بالمجلد الأخير بعض ورقات فيها تفسير أول سورة (ص) ويظهر - كما قال محدثى - إن المؤلف قد ابتدأ تفسيره هذا بسورة الرحمن إلى أن انتهى إلى آخر سورة الناس ، ثم بدأ بسورة (ص) ووقف عندها ولم يتم .

وأما تفسير هميان الزاد ، فموجود ومطبوع فى ثلاثة عشر مجلداً كباراً ، ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية ، ونسخة أخرى عند محدثى .

وأما تيسير التفسير ، فموجود ومطبوع فى سبع مجلدات متوسطة الحجم ، ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، وأخرى عند محدثى أيضاً .

أسباب قلة إنتاج الخوارج فى التفسير :

وأنت ترى أن هذه الكتب المذكورة ، ما وجد منها ومالم يوجد ، كلها

للإباضية وحدهم ، ولعل السر فى ذلك : أن جميع فرق الخوارج ماعدا الإباضية بادت ولم يبق لها أثر .

أما الإباضية فموجودون إلى يومنا هذا ، ومذهبهم منتشر فى بلاد المغرب ، وحضر موت ، وعمان ، وزنجبار .

ولكن بقى بعد هذا سؤال يتردد فى نفسى ، ولعله يتردد فى نفس القارىء أيضا ، وهو : ما السر فى أن الخوارج قل إنتاجهم فى التفسير ؟

والجواب عن هذا السؤال — كما أعتقد — ينحصر فى أمور ثلاثة وهى ما يأتى :

أولا : أن الخوارج كان أكثرهم من عرب البادية ، ومن قبائل تميم على الأخص ، وقليل منهم كان يسكن البصرة والكوفة مع احتفاظه ببداوته ، فكانوا لغلبة البداوة عليهم أبعد الناس عن التطور الدينى ، والعلمى ، والاجتماعى ، وكانوا يمثلون الإسلام الأول فى بساطته ، وعلى فطرته ، بدون أن تشوبه تعاليم الأمم الأخرى . أضف إلى ذلك : احتفاظهم بأهم خصائص أهل البدو من سذاجة التفكير ، وضيق التصور ، والبعد عن التأثر بحضارة الأمم المجاورة لهم .

ثانيا : أنهم شغلوا بالحروب من مبدأ نشأتهم . وكانت حروبا قاسية وطويلة ، ومتتابعة ... أسلمتهم حروب على إلى حروب الأمويين ، وأسلمتهم حروب الأمويين إلى حروب العباسيين التى تركتهم فى حالة تشبه الاحتضار ، وتؤذن بالفناء ، فكان من الطبيعى أن لاتدع الحرب لهم من الوقت ما يتسع للبحث والتصنيف .

ثالثا : أن الخوارج — مع ماهم عليه من شذوذ — كانوا يخلصون لعقيدتهم ، ويتمسكون بإيمانهم إلى حد كبير ، ويرون أن الكذب جريمة من أكبر الجرائم ، وبه — عند جمهورهم — يخرج الإنسان من عداد المؤمنين . فلعل هذا دعاهم إلى عدم الخوض فى تفسير القرآن ، وجعلهم يتورعون عن البحث وراء معانيه ،

مخافة أن لا يصيبوا الحق فيكونوا قد كذبوا على الله ... وقد سئل بعضهم : لم لم تفسر القرآن ؟ فقال : (كلما رأيت قوله تعالى « ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، (١) » أحجمت عن التفسير) .

من أجل هذا كله لم يكن ينتظر من الخوارج أن يؤلفوا لنا فى التفسير كما ألف غيرهم ، وليس التفسير وحده هو الذى حرم من تصنيف الخوارج وتأليفهم بل كل العلوم فى ذلك سواء ، وما وجد لهم من مؤلفات فى علم الكلام أو الفقه ، أو الأصول ، أو الحديث ، أو التفسير ، أو غير ذلك من العلوم فكله من عمل الإباضية وحدهم ، لأن هذه الفرقة هى التى عاشت وانتشرت فى كثير من بلاد المسلمين ، واستمرت إلى يومنا هذا ، وتأثرت بتعاليم المعتزلة وغيرهم ، وسايرت التطور العلمى والاجتماعى

وبعد : فهذا هو تراث الخوارج فى التفسير ، وهو تراث نادر عزيز ، وماوجد منه أندرو أعز ، وأرى أن أكتفى بالكلام عن هميان الزاد إلى دار المعاد وحده ، وعذرى فى ذلك : أن ماوجدناه من تفسير هود بن محكم ، لم يتيسر لنا الاطلاع عليه الاطلاع الكافى الذى يعطينا فكرة واضحة عنه ، وعن مؤلفه ، وذلك راجع إلى رداءة خطه ، وضياع بعض أوراقه ، وتآكل بعضها .

وما وجدناه من تفسير داعى العمل ليوم الأمل . لم يكن أكثر حظا من من تفسير هود بن محكم :

وأما تيسير التفسير ، فهو فى الحقيقة خلاصة لما تضمنه هميان الزاد فلم يكن الكلام عنه بمعطينا فكرة جديدة عن التفسير عند الإباضية أو عندمفسره على الأقل

---

(١) الآيات (٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦) من سورة الحاقة :

هميان الزاد إلى دار المعاد

لمحمد بن يوسف إطفيش

التعريف بمؤلف هذا التفسير[١] :

مؤلف هذا التفسير هو محمد بن يوسف بن عيسى بن صالح إطفيش الوهبي[٢]، الإباضي، وهو من وادي ميزاب بصحراء الجزائر من بلاد المغرب. نشأ بين قومه، وعرف عندهم بالزهد والورع. واشتغل بالتدريس والتأليف وهو شاب لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره، وانكب على القراءة والتأليف، حتى قيل إنه لم ينم في ليلة أكثر من أربع ساعات. وله من المؤلفات في شتى العلوم ثروة عظيمة تربو على الثلاثمائة مؤلف.. فمن ذلك: نظم المغني لابن هشام في خمسة آلاف بيت.. وكان ذلك في شبابه، وشرح كتاب التوحيد للشيخ عيسى بن تبغورين وهو من أهم مؤلفاته في علم الكلام، وشرح كتاب العدل والإنصاف في أصول الفقه لأبي يعقوب يوسف بن إبراهيم الورجلاني، وله في الحديث وفاء الضمانة بأداء الأمانة، وهو مطبوع في ثلاث مجلدات، وجامع الشمل في حديث خاتم الرسل، وهو مطبوع في مجلد واحد. وله في الفقه شرح كتاب النيل. وهو مطبوع في عشر مجلدات، وله مؤلفات أخرى في النحو والصرف. والبلاغة، والفلك، والعروض. والوضع، والفرائض، وغيرها.

وأما التفسير فله فيه داعي العمل ليوم الأمل.. لم يتم، وهميان الزاد إلى دار المعاد.. وهو ما نحن بصدده. وتيسير التفسير.. وهو مختصر من السابق. هذا، وقد توفي المؤلف سنة ١٣٣٢ هـ اثنين وثلاثين وثلاثمائة وألف من الهجرة، وله من العمر ست وتسعون سنة.

---

(١) اعتمدنا في هذه الترجمة على ما حدثنا به الشيخ إبراهيم اطفيش، وهو تلميذ المؤلف وابن أخيه.

(٢) الوهبي نسبة الى عبد الله بن وهب الراسبي، الزعيم الأول للخوارج.

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعتبر هذا التفسير هو المرجع المهم للتفسير عند الإباضية من الخوارج ، غير أنه لا يصور لنا حالة التفسير عندهم فى عصورهم الأولى ؛ وذلك لقرب عهد مؤلفه ، وتأخره عن زمن كثير من علماء التفسير الذين وافقوه على مذهبه ، والذين خالفوه فيه .

ولقد جرت سنة الله بين المؤلفين أن يأخذ اللاحق من السابق ، وأن يستفيد المتأخر من المتقدم ، وصاحبنا فى تفسيره هذا ، استمد من كتب من سبقه من المفسرين على اختلاف نحلهم ومشاربهم وإن كان يدعى فى مقدمته أنه لا يقلد فيه أحداً إلا إذا حكى قولا . أو قراءة ، أو حديثا ، أو قصة ، أو أثراً اسلف . وأما نفس تفاسير الآى ، والرد على بعض المفسرين ، والجواب ، فمن عنده إلا ما نسبه لقائله . كما يدعى أنه كان ينظر بفكره فى الآية أولا ، ثم تارة يوافق نظر جار الله الزمخشرى ، والقاضى البيضاوى . . وهو الغالب ، وتارة يخالفهما ، ويوافق وجها أحسن مما أثبتاه أو مثله .

ومهما يكن من شىء فلا يسعنا إلا أن نقول : إن الرجل — وقد قرأ الكثير من كتب التفسير — تأثر بما جاء فيها ، واستفاد الكثير من معانيها مما يدعونا إلى القول بأن تفسيره يمثل التفسير المذهبى للخوارج الإباضية فى أواخر عصورهم فقط ، وبعد أن خرجوا من عزلتهم التى مكثوا فيها مدة طويلة من الزمن .

نقرأ فى هذا التفسير فنجد أن صاحبه يذكر فى أول كل سورة عدد آياتها ، والمكى منها والمدنى ، ثم يذكر فضائل السورة ، مستشهدا لذلك فى الغالب بالأحاديث الموضوعة فى فضائل السور ، ثم يذكر فوائد السورة بما يشبه كلام المشعوذين الدجالين ، ثم بعد ذلك كله يشرح الآيات شرحا وافيا ، فيسهب فى المسائل النحوية ، واللغوية ، والبلاغية ، ويفيض فى مسائل الفقه ، والخلاف بين الفقهاء كما يتعرض لمسائل علم الكلام ويفيض فيها ، مع تأثر كبير بمذهب المعتزلة ، كما لا يفوته أن يعرض للأبحاث الأصولية والقراءات ، وهو مكثر إلى

حد كبير من ذكر الإسرائيليات التى لا يؤيدها الشرع ، ولا يصدقها العقل . كما يطيل فى ذكر تفاصيل الغزوات التى كانت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم . ثم هو بعد ذلك لا يكاد يمر بآية يمكن أن يجعلها فى جانبه إلا مال بها إلى مذهبه ، وجعلها دليلا عليه ، ولا بآية تصارحه بالمخالفة إلا تلمس لها كل ما فى طاقته من تأويل ؛ ليتخلص من معارضتها .. وقد يكون تأويلا متكلفاً ، وفاسداً ، لا ينجيه من معارضة الآية له ، لكنه التعصب الأعمى .. يدفع الإنسان إلى أن ينسى عقله ، ويطرح تفكيره الصائب ، ليمشى مع الهوى بعقل فارغ وتفكير خاطىء !! . وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير ، لتقف على مسلك صاحبه فى فهمه لآيات القرآن الكريم .

حقيقة الإيمان :

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢ و ٣) من سورة البقرة « ... هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون » نراه يقرر : أن الإيمان يطلق على مجموع الاعتقاد ، والإقرار ، والعمل ، ثم يقول : (فمن أخل بالاعتقاد وحده ، أو به وبالعمل ، فهو مشرك من حيث الإنكار ، منافق أيضاً من حيث أنه أظهر ما ليس فى قلبه ، ومن أخل بالإقرار وحده ، أو بالإقرار والعمل ، فهو مشرك عند جمهورنا وجمهور قومنا . وقال القليل : إنه إذا أخل بالإقرار وحده ، مسلم عند الله من أهل الجنة ، وإن أخل به وبالعمل ففاسق كافر كفر نعمة ... وإن أخل بالعمل فقط ، فمنافق عندنا ، فاسق ضال ، كافر كفراً دون شرك غير مؤمن الإيمان التام ... ثم قال : واختلف الخوارج .. وهم الذين خرجوا عن ضلالة على ، فقالت الإباضية الوهبية ، وسائر الإباضية فيمن أخل بواحد من الثلاثة : ما تقدم من إشراكه بترك الاعتقاد ، أو بترك الاقرار ، وينافق بترك العمل ، ويثبتون الصغيرة . وقال الباقون كذلك وإنه لا صغيرة . ومذهب المحدثين أن انضمام العمل والإقرار إلى الاعتقاد

على التكميل لا على أنه ركن . ونحن نقول : انضمامهما إليه ركن ، وهما جزء ماهيته .....(١)) هـ ا .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة «... وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار. : الآية» نراه يحاول محاولة جدية فى تحقيق أن العمل جزء من الإيمان ، ولا يتحقق الإيمان بدونه ، فيقول : (ترى الإنسان يقيد كلامه مرة واحدة بقيد ، فيحمل سائر كلامه المطلق على هذا التقييد ، فكيف يسوغ لقومنا أن يلغوا تقييد الله ـ عز وجل ـ الإيمان بالعمل الصالح مع أنه لا يكاد يذكر الفعل من الإيمان إلا مقرونا بالعمل الصالح؟ بل الإيمان نفسه مفروض لعبادة من يجب الإيمان به وهو الله تعالى ، إذ لا يخدم الإنسان مثلا سلطانا لا يعتقد بوجوده ، وثبوت سلطته ، فالعمل الصالح كالبناء النافع ، المظلل المانع للحر ، والبرد والمضرات ، والايمان أس ، ولا ينفع الأس بلا بناء عليه ، ولو بنى الإنسان ألوفا من الأسس ولم يبن عليها لهلك باللصوص ، والحر ، والبرد ، وغير ذلك : فإذا ذكر الإيمان مفرداً قيد بالعمل الصالح . وإذا ذكر العمل الصالح ، فما هو إلا فرع الإيمان ؛ إذ لا نعمل لمن لا نقر بوجوده . وفى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان ، دليل على أن كلا منهما غير الآخر ؛ لأن الأصل فى العطف المغايرة بين المتعاطفين ، ففى عطف الأعمال الصالحات على الإيمان إيذان بأن البشارة بالجنات : إنما يستحقها من جمع بين الأعمال الصالحات والإيمان .) اهـ(٢) .

موقفه من أصحاب الكبائر :

كذلك نجد المؤلف يحاول أن يأخذ من القرآن ما يدل على أن مرتكب الكبيرة مخلد فى النار وليس بخارج منها .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية(٨١) من سورة البقرة « بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون» يقول :

(١) جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٢) جـ ١ ص ٢٦٠ ـ ٣٦١ .

(... « سيئة » خصلة قبيحة ، وهى الذنب الكبير ، سواء كان نفاقاً أو إشراكاً، ومن الذنوب الكبيرة : الإصرار . فإنه نفسه كبيرة ، سواء كان على الصغيرة أو الكبيرة ، والدليل على أن السيئة : الكبيرة قوله « فأولئك أصحاب النار » . ويحتمل وجه آخر وهو أن السيئة: الذنب صغيراً أو كبيراً ، ثم يختص الكلام بالكبيرة بقوله « وأحاطت به خطيئته » وإن قلت : روى قومنا عن ابن عباس رضى الله عنهما أن السيئة هنا الشرك . وكذا قال الشيخ هود - رحمه الله - إنها الشرك . قلت : ما ذكرته أولى مما ذكراه ، فإن لفظ السيئة عام ، وحمله على العموم أولى ، إذ ذلك تفسير منهما لا حديث ، ولا سيما أنهما وقومنا يعترفون بأن الكبيرة تدخل فاعلها النار ، ولم يحصروا دخولها على الشرك ، ومعترفون بأن لفظ الخلود يطلق على المكث الكبير ، سواء كان أبدياً ، أو غير أبدى ، وادعاء أن الخلود فى الموحدين بمعنى المكث الطويل ، وفى الشرك بمعنى المكث الدائم ، استعمال للكلمة فى حقيقتها ومجازها ، وهو ضعيف ، وأيضاً ذكر إحاطة الخطيئات ولو ناسب الشرك كغيره . لكنه أنسب بغيره ، لأن الشرك أقوى « وأحاطت به خطيئته » ربطته ذنوبه وأوجبت له دخول النار ، فصار لا خلاص له منها ، كمن أحاط به العدو ، أو الحرق ، أو حائط السجن ، وذلك بأن مات غير تائب) اهـ[1] .

حملته على أهل السنة :

ونرى المؤلف كلما سنحت له الفرصة للتنديد بجمهور أهل السنة القائلين بأن صاحب الكبيرة من المؤمنين يعذب فى النار على قدر معصيته ، ثم يدخل الجنة بعد ذلك ، ندد بهم ولمزهم .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة البقرة « ... والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون » يقول .(... وترى أقواما ينتسبون إلى الملة الحنيفية يضاهئون اليهود فى قولهم : لن تمسنا النار إلا أياماً معدودات)[2] .

---

(١) ٢ ص ١٤٠ . (٢) جـ ١ ص ٢٢٨ .

مغفرة الذنوب .

ثم إن المؤلف حمل كل آيات العفو والمغفرة على مذهبه القائل : بأن الكبائر لا يغفرها الله إلا بالتوبة منها والرجوع عنها ، ويحمل على الأشاعرة القائلين بأن الله يجوز أن يغفر لصاحب الكبيرة وإن لم يتب .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٨٤) من سورة البقرة «وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ...» يقول (.. ولا دليل فى الآية على جواز المغفرة لصاحب الكبيرة الميت بلا توبة منها ، كما زعم غيرنا ، لحديث هلك المصرون) [١] اه .

وعند قوله تعالى فى الآية (١٢٩) من سورة آل عمران (ولله ما فى السموات وما فى الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » يقول: (يغفر لمن يشاء الغفران له بأن يوفقه للتوبة ، ويعذب من يشاء تعذيبه بأن لا يوفقه . وليس من الحكمة أن يعذب المطيع الموفى ، وليس منها أن يرحم العاصى المصر ، وقد انتفى الله من أن يكون ظالماً ، وعد من الظلم : النقص من حسنات المحسن ، والزيادة فى سيئات المسيء ، وليس من الجائز عليه ذلك ، خلافا للأشعرية فى قولهم : يجوز أن يدخل الجنة جميع المشركين ، والنار جميع الأبرار . وقد أخطئوا فى ذلك ..) اه [٢] ،

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة الزمر (.. إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم) يقول : (بشرط التوبة منها . بدليل التقييد بها فى مواضع من القرآن والسنة ، والمطلق يحمل على المقيد. وقد ذكرت فى القرآن مراراً شرطا للغفران ، فذكرها فيما ذكرت . ذكر لها فيما لم تذكر ، وإنما تحذف لدليل ، والقرآن فى حكم كلام واحد لا يتناقض حاشاه ، وأيضا يليق أن يذكر لهم أنه يغفر الكبائر بلا توبة مع أنه ناه عنها، لأن ذلك يؤدى بهم إلى الاجتراء عليها . وقد أخفى الصغائر لئلا يجترأ عليها من حيث أنه غفرها . ويدل

---

(١) ج ٣ ص ٤٤٣ .

(٢) ج ٤ ص ٢٤٠ – ٢٤١

لذلك تعقيب الآية بقوله « وأنيبوا إلى ربكم » لئلا يطمع طامع كالقاضي — يريد البيضاوى ـ فى حصول المغفرة بلا توبة . ويدل له أيضا قراءة ابن مسعود وابن عباس « يغفر الذنوب جميعا لمن يشاء » أى لمن يشاؤه بالتوبة ... وأما قوله (إنه هو الغفور الرحيم) فاستئناف معلل لمغفرة الذنوب بالتوبة ، أى يغفرها ، ويقبل التوبة منها . لأن من شأنه الغفران العظيم والرحمة العظيمة وملكه وغناه واسع لذلك . والمراد بالآية : التنبية على أنه لا يجوز لمن عصى الله ـ أى عصيان كان ـ أن يظن أنه لا يغفر له ، ولا يقبل توبته ، وذلك مذهبنا معشر الإباضية وزعم القاضي وغيره : أن الشرك يغفر بلا توبة ومشهور مذهب القوم : أن الموحد إذا مات غير تائب : يرجى له ، وأنه إن شاء عذبه بقدر ذنبه وأدخله الجنة . وإن شاء غفر له . ومذهبنا : أن من مات على كبيرة غير تائب : لا يرجى له) اهـ [1] .

رأيه فى الشفاعة :

ويرى المؤلف : أن الشفاعة لا تقع لغير الموحدين ، ولا لأصحاب الكبائر ومن خلال رأيه هذا ينظر إلى آيات الشفاعة فلا يرى فيها إلا مايتفق ومذهبه

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٨) من سورة البقرة (واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون) يقول : (. . . . وإن قلت : فهل الشفاعة والفداء بالعدل واقعان ولكن لا يقبلان ؟ أم غير واقعين ؟ قلت : غير واقعين . . . أما من تأهل للشفاعة من الملائكة ، والأنبياء والعلماء والصالحين ، فلا يتعرضون بها لمن ظهرت شقاوته لهم ، فإن تعرضوا بها لهم قبل أن تظهر لهم ، قيل لهم : إنهم بدلوا وغيروا ، وليسوا أهلا لها ، فيتركوا التعرض لها . وأما من لم يتأهل لها فمشغول بنفسه لا يدرى مايفعل به [2]) اهـ .

---

(١) جـ ١٢ ص ٧٢ .

(٢) جـ ٢ ص ١٧

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٢٣) من السورة نفسها (... ولا يقبل منها عدل ولا تنفعها شفاعة ..) يقول : (« ولا تنفعها شفاعة » لعدمها هناك فالمراد أنه لا شفاعة تنفعها ، فالشفاعة هنالك منفية من أصلها ، وليس المراد أنه هناك شفاعة لا تقبل . وإنما ساغ ذلك ، لأن القضية السالبة تصدق بنفى الموضوع ، كما تصدق بنفى المحمول ، فكما تقول : ليس زيد قاعدا فى السوق وتريد أنه فيها لكنه قائم ، كذلك تقول : ليس زيد قاعدا فيها ، وتريد أنه ليس فيها أصلا وذلك مخصوص بالمشرك ، فإنه لا شفاعة له هنالك إلا شفاعة القيام لدخول النار ، ولا نفع له فى دخول النار ، وإنما الشفاعة للموحد التائب[1]) اه

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٩) من سورة الأنعام « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء ... الآية » يقول : (... فالآية نص أو كالنص فى أن لا شفاعة لأهل الكبائر . أى أنت برىء منهم على كل وجه وقد علمت عن عمر وأبى هريرة أن الآية فى أهل البدع من هذه الأمة[2]) اه

رؤية الله تعالى :

ويرى صاحبنا : أن رؤية الله تعالى غير جائزة ولا واقعة لأحد مطلقا ، ويصرح بذلك فى تفسيره لآيات الرؤية ، ويرد على أهل السنة الذين يقولون بجوازها فى الدنيا ، ووقوعها للمؤمنين فى الآخرة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة البقرة (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ... الآية) نراه يذكر ماورد من الروايات فى هذا الباب ، ومن الروايات رواية تفيد : أن موسى سأل ربه أن ينظر إليه بالمجاهرة ، يعقب عليها فيقول : (وهذه الرواية تقتضى أن موسى يجيز الرؤية ، حتى سألها ومنعها .. وليس كذلك ، بل إن صح سياق هذه الرواية فقد سألوه الرؤية قبل ذلك ، فنهاهم عن ذلك وحرمه ، أو سكت انتظارا للوحى

---

(١) ج ٢ ص ٢٩٩ (٢) ج ٦ ص ٢٧٤

فى ذلك ، فلما فرغ وخرج ، عاودوه ذكر ذلك ، فقال لهم : قد سألته على لسانكم كما تحبون ، لأخبركم بالجواب الذى يقمعكم لا لجواز الرؤية ،فتجلى للجبل بعض آياته فصار دكا ، فكفروا بطلب الرؤية ، لاستلزامها اللون ، والتركيب، والتحيز ،والحدود ، والحلول .. وذلك كله يستلزم الحدوث ، وذلك كله محال على الله ، وإذا كان ذلك مستلزما عقلا لم يختلف دنيا وأخرى ، فالرؤية محال دنيا وأخرى ، ولا بالإيمان، والكفر ، والنبوة ، وعدمها [1]) اهـ .

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) من سورة النساء ويسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة .. الآية) يقول : (فأخذتهم الصاعقة بظلمهم إذ سألوا رؤية الله جل وعلا الموجبة للتشبيه .. وقالت الاشعرية : الصاعقة إنما هى من أجل امتناعهم من الإيمان بما وجب إيمانه إلا بشرط الرؤية ، لا من أجل طلب الرؤية . وهو خلاف ظاهر الآية ، مع أن الرؤية توجب التحيز ، والجهات ، والتركيب والحلول ، واللون ، وغير ذلك من صفات الخلق . ويدل لما قلته قوله تعالى : (لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار [2]) والأشعرية لما أفحموا قالوا : بلا كيف . وحديث الرؤية إن صح فمعناه : يزدادون يقينا بحضور ماوعد الله فى الآخرة ، فلا يشكون فى وجود الله . وكمال صدقه ، وقدرته ، كما لا يشكون فى البدر [3]) اهـ .

أفعال العباد :

وإذا كان المؤلف يتأثر بآراء المعتزلة أحياناً ، فإنه يصرح بمخالفتهم فى بعض المسائل ، فمثلا نراه يقرر : أن أفعال العباد كلها بإرادة الله تعالى وأن العبد لايخلق أفعال نفسه . ونراه يرد على المعتزلة ولا يرضى موقفهم من هذه المسألة

---

(١) جـ ٢ ص ٤٢ .

(٢) فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام

(٣) جـ ٥ ص ١٧٣

فمثلا عند ما فسر قوله تعالى فى الآية (١٠٧) من سورة الأنعام (..ولو شاء الله ما أشركوا وما جعلناك عليهم حفيظاً ... الآية) يقول : (ولو شاء الله عدم إشراكهم بالله تعالى ما أشركوا به تعالى شيئاً ، فالآية دليل على أن إشراكهم بإرادة الله ومشيئته ، وفيه رد على المعتزلة فى قولهم : لم يرد معصية العاصى . . وزعموا أن المعنى : لو شاء الله لأكرههم على عدم الإشراك . ولزم عليهم أن يكون مغلوباً على أمره إذا عصى ولم يرد المعصية ، بل أراد الإيمان منهم ولم يقع . . - تعالى الله عن ذلك - . والحق أن المعصية بإرادته ومشيئته ، مع اختيار العاصى . . لا جبر . للذم عليها والعقاب والنهى عنها [1]) ا هـ)

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦٢) من سورة الزمر (الله خالق كل شىء) يقول : (من إيمان . وكفر ، وخير ، وشر ، مما هو كائن دنيا وأخرى [2]) ا هـ .

موقفه من المتشابه .

كذلك نجد المؤلف يقف من المتشابه موقف التأويل ، ويعيب على من يقول بالظاهر ، وإن فوض علمه وكيفيته لله

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢١٠) من سورة البقرة (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) يقول . (إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام ... على حذف مضاف أى أمر الله . بدليل قوله تعالى (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى أمر ربك [3]) والحاصل ، أن مذهبنا ومذهب هؤلاء - يريد المعتزلة ومن وافقهم - تأويل الآية عن ظاهرها إلى ما يجوز وصف الله به [4]) ا هـ

---

(١) جـ ٦ ص ٦٨ (٢) جـ ١٢ ص ٧٧
(٣) فى الآية (٣٣) من سورة النحل (٤) جـ ٢ ص ١٥٧

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤٢) من سورة المائدة(..وإن حكمت فاحكم بينهم بالقسط إن الله يحب المقسطين) نراه يذكر الحديث القائل (إن المقسطين على منابر من نور يوم القيامة عن يمين الرحمن ، وكلتا يديه يمين) ثم يقول :(ويمين الرحمن عبارة عن المنزلة الرفيعة ، والعرب تذكر اليمين فى الأمر الحسن ، ودل لذلك قوله : وكلتا يديه يمين ، والتأويل فى مثل ذلك هو الحق . وأما قول سلف الأشعرية فى مثل ذلك . إنا نؤمن به وننزهه عن صفة الخلق ونكل معناه إلى الله ، ونقول . هو على معنى يليق به . . وكذا طوائف من المتكلمين ؛ لجمود وتعام عن الحق [1]) اهـ

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٤) من سورة الأعراف (إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش ... الآية) يقول (.. واستوى بمعنى استولى بالملك ، والغلبة ، والقوة ،والتصرف فيه كيف شاء ، والعرش جسم عظيم وذلك مذهبنا ومذهب المعتزلة ، وأبى المعالى وغيره من حذاق المتكلمين ، وخص العرش بذكر الاستيلاء لعظمته [2] اهـ

موقفه من تفسير الصوفية

ونجد المؤلف يبدى رأيه فى تفسير الصوفية بصراحة تامة ؛ ويحمل على من يفسر هذا التفسير ، فيقول عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة البقرة (... ومما رزقناهم ينفقون) . (.... قيل ويحتمل أن يراد الإنفاق من جميع مارزقهم الله من أنواع الأموال ؛ والعلم ، وقوة البدن ، والجاه ، وفصاحة اللسان .. ينفعون بذلك عيال الله سبحانه وتعالى على الوجه الجائز وقيل . المعنى ومما خصصناهم به من أنوار معرفة الله — جل وعلا — يفيضون ... وهذا القول والذى قبله أظنهما للصوفية أو لمن يتصوف ، وليس تفسير الصوفية عندى مقبولا إذا خالف الظاهر ، وكان تكلفا . أو خالف أسلوب العربية

---

(١) جـ ٥ ص ٣٢٩ (٢) جـ ٦ ص ٣٦١

ولا أعذر من يفسر به ولا أقبل شهادته ، وأتقرب إلى الله تعالى ببغضه والبراءة منه ، فإنه ولو كان فى نفسه حقاً لكن جعله معنى للآية أو للحديث خطأ لأنه خروج عن الظاهر وأساليب العرب التى يتخاطبون بها وتكلف من التكلف الذى يبغضه الله ، فإن القولين وإن ناسبهما قوله صلى الله عليه وسلم إن علما لا يقال به ككنز لا ينفق منه الذى رواه الطبرانى فى الأوسط ، لكن لا يصحان تفسيراً للآية ، إذ لا يتبادر ذلك ولا يجرى على أسلوب العرب والقول الأخير أبعد وأنا أعد اعتقادى ذلك نوراً ومعرفة أفاضها الله الرحمن الرحيم على . وقد أقبل القول الذى قبله . لأنه قريب من أسلوب العرب . وقليل التكلف والصحيح أن المراد . النفقه الواجبة وغير الواجبة من المال [١]) اهـ

موقفه من الشيعة

وصاحبنا لا يسلم للشيعة استدلالهم على إمامة على بقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة المائدة « إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » بل نراه يفند احتجاجهم بالآية فيقول : وزعم الشيعة أن الذين آمنوا الذى يقيمون الصلاة ... إلى راكعون . المراد به على بن ابن طالب وأن جملة « هم راكعون » حال من واو « يؤتون الزكاة وهى مقارنة وأنه أعطى الزكاة وهو فى الصلاة راكع سأل سائل وهو فى ركوع الصلاة فأعطاه خاتمه فى حال ركوعه وأراد به الزكاة ، وعبر عنه بالجمع تعظيما وهى دعوى بلاد ليل عليها والأصل العموم ، والأصل أن لا يطلق لفظ الجمع على المفرد ومن دعوى الشيعة أن المراد بالولى فى الآية المتولى للأمور المستحق للتصرف فيها ، وأن هذه الآية دليل على إمامة على .... وهذا أيضا تكلف بلاد ليل [٢]) اهـ

رأيه فى التحكيم

ونرى المؤلف يتأثر فى تفسيره هذا بعقيدته فى مسألة التحكيم بين على ومعاوية

---

(١) جـ ١ ص ٢٢٠ (٢) جـ ٥ ص ٣٧٦

رضى الله عنهما ، فيفر من الآيات التى تعارضه ، ويمكن أن تكون مستنداً لمخالفيه .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النساء « وإن خفتم شقاق بينهما فابعثوا حكما من أهله وحكما من أهلها . . . الآية » نراه يقول : (. . ولا دليل فى الآية على جواز التحكيم ، لأن مسألة الحال إنما هى ليتحقق بالحكمين ما قد يخفى من حال الزوجين ، بخلاف ما إذا ظهر بطلان إحدى الفرقتين بأن الله قد حكم بقتالها ، وأيضا المراد هنا : الإصلاح مثلا لا مجرد بيان الحق[١]) اه .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٩ ، ١٠) من سورة الحجرات « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . . إلى قوله . . . لعلكم ترحمون » يقول : ... والإصلاح بالنصح والدعاء إلى حكم الله . . . ثم يقول : وسمع على رجلا يقول فى ناحية المسجد (لا حكم إلا الله) فقال : كلمة حق أريد بها باطل . . . لكم علينا ثلاث : لا نمنعكم مساجد الله أن تذكروا فيها اسم الله ، ولا نمنعكم الفىء ما دامت أيديكم فى أيدينا ، ولا نبدأكم بقتال (قلت) الحق أنه إذا حكم الله بحكم فى مسألة فلا حكم لأحد فيها سواه ، فالحق مع الرجل ، ولو كان على أعلم عالم . ثم قال : قيل : وفى الآية دليل على أن البغى لا يزيل اسم مؤمن ؛ لأن الله سماهم مؤمنين مع كونهم باغين .. وسماهم إخوة مؤمنين (قلت) لا دليل ؛ أما وإن طائفتان من المؤمنين ... فتسميتهم فيه مؤمنين : باعتبار مايظهر لنا قبل ظهور البغى وأما إنما المؤمنون إخوة .. فتسميتهم فيه مؤمنين إخوة : باعتبار ما ظهر لنا قبل البغى ، فقوله وأصلحوا بين أخويكم فى معنى اهدوهم إلى الحال التى كانوا عليها قبل . أو المراد بالمؤمن الموحد لا الموفى ؛ بدليل لا يزنى الزانى حين يزنى وهو مؤمن ، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . وأما لفظ آمن وإيمان ، فلا يختصان بالموفى) اه[٢] .

---

(١) جـ ٤ ص ٤٧٨

(٢) جـ ١٢ ص ٥١٧

إشادته بالخوارج وحطه من قدر عثمان وعلى ومن والاهما :

ثم إنه لا تكاد تأتى مناسبة لذكر الخوارج إلا رفع من شأنهم ، ولا لذكر على ، أو عثمان ، أو من يلوذ بهما إلا وغض من شأنهم ، ورماهم بكل نقيصة .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعـــالى فى الآيتين (١٠٥ ، ١٠٦) من سورة آل عمران « ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم يوم تبيض وجوه وتسود وجوه .. الخ » نراه يعيب على من يقول من المفسرين : إن الذين تفرقوا واختلفوا هم من خرج على عليّ عند قبوله التحكيم ويقول : إن أمر الحكمين لم يكن حين نزلت الآية ، بل فى إمارة على ، وتفرقوا واختلفوا صيغتان ماضويتان ، ولا دليل على صرفها للاستقبال ، ولا على التعيين لمن ذكر ، بل دلت الآية على خلوصهم من ذلك ، وعلى أنهم المحقون الذين تبيض وجوههم ، فمن خالفهم فهو داخل فى قوله تعالى « وأما الذين اسودت وجوهم أكفرتم بعد إيمانكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وهو يعم كل من كفر بعد إيمانه . واعلم أنه قد خرج على على حين أذعن للحكومة صحابة كثيرون — رضى الله عنهم — وتابعون كثيرون ، فترى المخالفين يذمون ويشتمون من خرج عنه ، ويلعنونه ، غير الصحابة الذين خرجوا عنه ، والخروج واحد إما حق فى حق الجميع ، وإما باطل فى حق الجميع ... فإذا كان حقا فى جنب الكل ، فكيف يشتمون من خرج عليه غير الصحابة ، وإن كان باطلا فى جنب الكل ، فقد استحق الصحابة الشتم أيضاً ... عافاهم الله . ونرى المخالفين يروون أحاديث لم تصح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد يصح الحديث ويزيدون فيه . وقد يصح ويؤولونه فينا وليس فينا) .. ثم سرد المؤلف بعض الأحاديث التى حملت عليهم ، وردها بعدم صحتها ، أو بحملها على غلاة الخوارج كالصفرية ، أو بحملها على من قبل التحكيم .. ثم قال : والدليل الأقوى على أن تلك الأحاديث ليست فينا ولا فيمن اقتدينا بهم ، وأن الراضين بالتحكيم هم المبطلون ، ما رواه أبو عمر ، وعثمان بن خليفة : أن رجلا من تلاميذ أبى موسى الأشعرى عبد الله بن قيس ، لقيه بعد ما وقع فيما وقع من أمر

التحكيم ، فقال له : قف يا عبد الله بن قيس أستفتك ، فوقف . . وكان التلميذ قد حفظ عنه أنه حكى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : سيكون فى هذه الأمة حكمان ضالان مضلان يضلان ويضل من اتبعهما قال : فلا تتبعهما وإن كنت أحدهما . ثم قال له التلميذ : إن صدقت فعليك لعنة الله ، وإن كذبت فعليك لعنة الله . ومعنى ذلك : إن كانت الرواية التى رواها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم صحيحة ثم وقع فيها ، فعليه لعنة الله ، وإن كان كاذبا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فعليه لعنة الله ؛ لنقله الكذب عن رسول الله . لا محيص عن الأمرين جميعاً . . .[1]) اهـ .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٩) من سورة التوبة « إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليما ويستبدل قوما غيركم . . الآية » نراه يحاول الغض من شأن عثمان الذى بذل ماله فى غزوة تبوك دفاعا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ونصرة لدين الله فيقول : (. . وعن عمران بن حصين أن نصارى العرب كتبت إلى هرقل : إن هذا الرجل الذى يدعى النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم ، فبعث رجلا من عظمائهم ، وجهز معه أربعين ألفا ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم ولم يكن للناس قوة ، وكان عثمان قد جهز عيراً إلى الشام ، فقال : يارسول الله . . هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية . قال صاحب المواهب : قال عمران بن حصين : فسمعته يقول : لا يضر عثمان ما عمل بعدها — والعهدة على القسطلانى وعمران — فإن صح ذلك فمعنى ذلك : الدعاء له بالخير ، لا القطع بأنه من أهل الجنة . وعن عبد الرحمن بن سمرة : جاء عثمان بن عفان بألف دينار فى كمه حين جهز جيش العسرة ، فنثرها فى حجره صلى الله عليه وسلم ، فرأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقلبها فى حجره ويقول : ما ضر عثمان ما عمل بعد اليوم ، فإن صح هذا فذلك أيضاً دعاء . وإنما قلت ذلك لأخبار سوء وردت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم . .[2]) .

---

(١) جـ ٤ ص ١٨٥ — ١٨٦ .

(٢) جـ ٧ ص ٢١٣ .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٠٣) وما بعدها من سورة الكهف « قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا ... الآيات إلى قوله « ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتى ورسلى هزوا » يقول (... وزعم علىٌّ أنهم أهل حروراء، وهم المسلمون الذين خرجوا عنه ؛ لعدم رضاهم بالتحكيم فيما كان لله فيه حكم . وسأله ابن الكواء فقال : منهم حروراء . وسئل أهم مشركون ؟ فقال : لا ، فقال : أمنافقون ؟ فقال : لا .. بل إخواننا بغوا علينا .. وذلك خطأ تشهد به عبارته ؛ لأنه ليس الإنسان إلا مؤمنا أو مشركا أو منافقا ، فإذا انتفى الشرك والنفاق عن أهل حروراء فهم مؤمنون . والمؤمن لا يوصف بالبغى وهو مؤمن ، ومن بغى دخل فى حدود النفاق . وأيضا الباغى من يرى التحكيم فيما كان لله فيه حكم ، والسافك دماء من لم يتبعه على هذه الزلة . وأيضا أهل حروراء لم يكفروا بآيات الله ، ولا بلقائه ، بل مؤمنون بآيات الله وبالبعث . والأخسرون أعمالا قد وصفهم الله سبحانه وتعالى بكفر الآيات واللقاء ، ولست أقول ذلك معجباً بنفسى ، ولا متعجبا ممن عصى ، بل حق ظهر لى فصرحت به[1]) اه .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٥٥) من سورة النور « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ... الآية » يقول : (... قال المخالفون عن الضحاك : إن الذين آمنوا هم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى ، وإن استخلافهم : إمامتهم العظمى ، وسيأتى ما يدل على بطلان دخول عثمان وعلى فى ذلك .. ثم قال : وفى أيام أبى بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلى . وبعدهم ، كانت الفتوح العظيمة ، وتمكين الدين لأهله ، لكن لا دليل فى ذلك على إصابة عثمان وعلى ، فإنهما وإن كانت خلافتهما برضى الصحابة ، لكن ما ماتا إلا وقد بدلا وغيرا فسحقا .. كما فى أحاديث عنه صلى الله عليه وسلم أنهما مفتونان[2]) .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى آخر الآية السابقة « ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون » يقول : (... أقول — والله أعلم بغيبه — إن أول من

---

(١) ج ١٠ ص ١٨٣ و ١٨٤ .

(٢) ج ١٠ ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

كفر بتلك النعمة وجحد حقها : عثمان بن عفان .. جعله المسلمون على أنفسهم، وأموالهم، فخانهم فى كل ذلك . زاد فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ووسعه وابتاع من قوم وأبى آخرون فغصبهم ، فصاحوا به فسيرهم للحبس، وقال : قد فعل بكم عمر هذا فلم تصيحوا به، فكلمه فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد فأطلقهم من السجن ، وقد جمع فى ذلك غصب المال، وقذف عمر رضى الله عنه . واستعمل أخاه لأمه وهو الوليد بن عقبة . ونزل «واتقوا فتنة » بحضرة أبى بكر، وعمر - رضى الله عنهما - وعثمان - ، وعلى ، فقال لعثمان : بك تفتح وبك تشب ، وقال لعلى : أنت إمامها، وزمامها ، وقائدها ، تمشى فيها مشى البعير فى قيده وقال لضرس بعض الجلوس فى نار جهنم أعظم من جبل أحد . وقال : يثور دخانها تحت قدمى رجل يزعم أنه منى وليس منى ، ألا إن أوليائى المتقون (. إلى آخر ماذكره من النقائص فى حق على وعثمان رضى الله عنهما[1] . .) .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الشورى« قل لا أسألكم عليه أجراً إلا المودة فى القربى . . الآية » يقول : (. . فمودة قرابته صلى الله عليه وسلم من لم يبدل منهم ولم يغير ، مثل فاطمة ، وحمزة ، والعباس ، وابنه — رضى الله عنهم — واجبة) . . ثم ذكر روايات كثيرة فى الحث على حب آل البيت ومودتهم . . وبعد ما فرغ منها قال : (لكن المراد بآله : آله الذين لم يبدلوا، فخرج على ونحوه ممن بدل ، فإنه قتل من قال صلى الله عليه وسلم: لا يدخل قاتله الجنة . ولم يصح عندنا معشر الإباضية رواية : أنه لما نزلت قيل : من قرابتك الذين تجب علينا مودتهم ؟ فقال : على، وفاطمة ، وابناهما ...[2]) اه .

اعتداده بنفسه وحملته على جمهور المسلمين :

هذا . . وإن المؤلف ليفخر كثيراً فى مواضع من تفسيره بنفسه وبأهل نحلته ، ويرى أنه وحزبه أهل الإيمان الصادق ، والدين القويم ، والتفكير السليم ، وأما من عداهم : فضالون مضلون ، مبتدعون مخطئون .

(١) ج ١٠ ص ٢٨٢ – ٢٨٣ . (٢) ج ١٢ ص ٢٢٧ .

فمثلا نجده عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٧٠) من سورة البقرة « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا . الآية » يقول ما نصه: (.. واعلم أن الحق هو القرآن والسنة ، وما لم يخالفهما من الآثار ، فمن قام بذلك ، فهو الجماعة والسواد الأعظم ، ولو كان واحداً ؛ لأنه نائب النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة ، والتابعين الذين اهتدوا ، وكل مهتد ، ومن خالف ذلك ، فهو مبتدع ضال ، ولو كان جمهورا ، هذا ما يظهر لى بالاجتهاد ، وكنت أقرره للتلاميذ عام تسع وسبعين ومائتين وألف .. فأصحابنا الإباضية الوهبية هم الجماعة والسواد الأعظم وأهل السنة ولو كانوا أقل الناس ، لأنهم المصيبون فى أمر التوحيد ، وعلم الكلام ، والولاية ، والبراءة ، والأصول دون غيرهم[1]) اه .

وعند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١١٢) من سورة هود « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك . الآية » يقول ما نصه: (. واعلم يا أخى - رحمك الله - أنى استقريت هذه المذاهب المعتبرة كمذهبنا معشر الإباضية . ومذهب المالكية ، ومذهب الشافعية ومذهب الحنفية ، ومذهب الحنبلية ، بالمنقول والمعقول ، فلم أر مستقيما منها فى علم التوحيد والصفات سوى مذهبنا ، فإنه مستقيم خال عن التشبيه والتعطيل . حججه لا تقاومها حجة ، ولا نثبت لها ، والحمد لله وحده[2]) اه .

هذا هو مفسرنا الإباضى ، وهذا هو تفسيره الذى ملأه بالدفاع عن العقيدة الزائفة ، والتعصب للمذهب الفاسد ، وهو بعد - كما ترى - لا يسلم من مجاراة المعتزلة فى بعض عقائدهم ، كما لم يسلم من الأحاديث الموضوعة التى جرت على ألسن وضاع الخوارج ، لينصروا بها مذهبهم ؛ ويروجوا له بين الناس .

---

(١) ج ٢ ص ٤٥٥ - ٤٥٦ . (٢) ج ٨ ص ٢١٣ .

الفصل الخامس

تفسير الصوفية

تمهيد

أصل كلمة تصوف ـ معناها ـ نشأته وتطوره ـ أقسامه

أصل كلمة تصوف :

وقع الاختلاف فى أصل هذه الكلمة (تصوف) فقيل : إنها مشتقة من الصوف ، وذلك لأن الصوفية خالفوا الناس فى لبس فاخر الثياب فلبسوا الصوف تقشفاً وزهداً . وقيل : إنه من الصفاء ؛ وذلك لصفاء قلب المريد ، وطهارة باطنه وظاهره عن مخالفة ربه . وقيل : إنه مأخوذ من الصُّفة التى ينسب إليها فقراء الصحابة المعروفون بأهل الصفة . ويرى غيرهم أنه لقب غير مشتق. قال القشيرى رحمه الله : (ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ، ولا قياس ، والظاهر أنه لقب . ومن قال باشتقاقه من الصفاء أو من الصفة فبعيد من جهة القياس اللغوى . قال . وكذلك من الصوف ؛ لأنهم لم يختصوا به[1]) اهـ .

معنى التصوف :

وأما معنى التصوف . . فقيل : (هو إرسال النفس مع الله على ما يريده[2]) . وقيل : (هو مناجاة القلب ومحادثة الروح ، وفى هذه المناجاة طهرة لمن شاء

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٢ .

(٢) دائرة المعارف للبستانى المجلد السادس ص ١٣٣ .

أن يتطهر ، وصفاء لمن أراد التبرؤ من الرجس والدنس ، وفى تلك المحادثة عروج إلى سماء النور والملائكة ، وصعود إلى عالم الفيض والإلهام . وما هذا الحديث والنجوى إلا ضرب من التأمل، والنظر ، والتدبر فى ملكوت السموات والأرض . بيد أن الجسم والنفس متلازمان وتوأمان لا ينفصلان ، ولا سبيل إلى تهذيب أحدهما بدون الآخر . فمن شاء لنفسه صفاء ورفعة فلا بد له أن يتبرأ عن الشهوات وملذات البدن . . فالتصوف إذن : فكر وعمل . ودراسة ، وسلوك[1]) .

نشأة التصوف وتطوره :

والتصوف بهذا المعنى موجود منذ الصدر الأول للإسلام فكثير من الصحابة كانوا معرضين عن الدنيا ومتاعها ، آخذين أنفسهم بالزهد والتقشف ، مبالغين فى العبادة ، فكان منهم من يقوم الليل ويصوم النهار ، ومنهم من يشد الحجر على بطنه تربية لنفسه وتهذيباً لروحه، غير أنهم لم يعرفوا فى زمنهم باسم الصوفية ، وإنما اشتهر بهذا اللقب فيما بعد من عرفوا بالزهد والتفانى فى طاعة الله تعالى ، وكان هذا الاشتهار فى القرن الثانى الهجرى ، وأول من سمى بالصوفى : أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠ هـ خمسين ومائة من الهجرة[2]

وفى هذا القرن وما بعده تولدت بعض الأبحاث الصوفية ، وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التى تواضعوا عليها ، وأخذت هذه الأبحاث تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها . وبمقدار ما اقتبسه القوم من المحيط العلمى الذى يعيشون فيه تطورت هذا الأبحاث والنظريات .

ولقد استفاد المتصوفة من الفلاسفة والمتكلمين والفقهاء ما كان له الأثر الأكبر فى هذا التطور الصوفى ، غير أنهم أخذوا من الفلسفة بحظ وافر ، بل وكونوا فلسفة خاصة بهم ، حتى أصبحنا نرى بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالمتصوفة ،

---

(١) دروس فى تاريخ الفلسفه للدكتور مدكور ، ويوسف كرم ص ١٤٠ .

(٢) كشف الظنون جـ ١ ص ١٥٠

وأصبحنا نرى بعضهم يدين بمسائل فلسفية لا تتفق ومبادىء الشريعة ، مما أثار عليهم جمهور أهل السنة ، وجعلهم يحاربون التصوف الفلسفى ، ويؤيدون التصوف الذى يدور حول الزهد ، والتقشف، وتربية النفس ، وإصلاحها . . . وما زال أهل السنة يحاربون التصوف الفلسفى حتى كادوا يقضون عليه فى نهاية القرن السابع الهجرى .

ومن ذلك الوقت دخل فى التصوف رجال من غير أهله، تظاهروا بالورع والطاعة ، وتحلوا بالزهد الكاذب والتقشف المصطنع ، فأصبحنا نرى بعض الجهلاء الأميين يشرفون على الطريق ، ويتولون تربية الأتباع والمريدين ، ووقفت التعاليم الصوفية عند دائرة محدودة ، هى دائرة الأوراد والأذكار ، وإن تعدتها فلا أكثر من بعض الأبحاث الضيقة فى الفقه والتفسير والحديث .

أقسام التصوف :

مما تقدم يتضح لنا أن التصوف ينقسم إلى قسمين أساسيين :

تصوف نظرى : وهو التصوف الذى يقوم على البحث والدراسة .

وتصوف عملى : وهو التصوف الذى يقوم على التقشف والزهد والتفانى فى طاعة الله . وكل من القسمين كان له أثره فى تفسير القرآن الكريم ، مما جعل التفسير الصوفى ينقسم أيضاً إلى قسمين : تفسير صوفى نظرى. وتفسير صوفى فيضى أو إشارى . وسنتكلم على كل قسم منهما بما يفتح الله به ويوفق إليه :

أولا — التفسير الصوفى النظرى

وجد من المتصوفة — كما قلنا — من بنى تصوفه على مباحث نظرية ،وتعاليم فلسفية ، فكان من البدهى أن ينظر هؤلاء المتصوفة إلى القرآن نظرة تتمشى مع نظرياتهم ، وتتفق وتعاليمهم .

وليس من السهل أن يجد الصوفى فى القرآن ما يتفق صراحة مع تعاليمه ، ولا مايتمشى بوضوح مع نظرياته التى يقول بها، إذ أن القرآن عربى جاء لهداية الناس لا لإثبات نظرية من النظريات ، ربما كانت فى الغالب مستحدثة وبعيدة عن روح الدين وبداهة العقل .

غير أن الصوفى حرصاً منه على أن يتسلم له تعاليمه ونظرياته ، يحاول أن يجد فى القرآن ما يشهد له أو يستند إليه ، فتراه من أجل هذا يتعسف فى فهمه للآيات القرآنية ، ويشرحها شرحا يخرج بها عن ظاهرها الذى يؤيده الشرع ، وتشهد له اللغة .

ابن عربى شيخ هذه الطريقة :

ونستطيع أن نعتبر الأستاذ الأكبر محيي الدين بن عربى شيخ هذه الطريقة فى التفسير ، إذ أنه أظهر من خب فيها ووضع ، وأكثر أصحابه معالجة للقرآن على طريقة التصوف النظرى ، وإن كان له من التفسير الإشارى ما يجعله فى عداد المفسرين الإشاريين إن لم يكن شيخهم أيضاً .

تأثر ابن عربى بالنظريات الفلسفية :

نقرأ لابن عربى فى الكتب التى يشك فى نسبتها إليه ، كالتفسير المشهور باسمه ، وفى الكتب التى تنسب إليه على الحقيقة كالفتوحات المكية،والفصوص، فنراه يطبق كثيراً من الآيات القرآنية على نظرياته الصوفية الفلسفية .

فمثلا يفسر بعض الآيات بما يتفق والنظريات الفلسفية الكونية ، فعند قوله تعالى فى الآية (٥٧) من سورة مريم فى شأن إدريس عليه السلام : « ورفعناه مكاناً عليا » نجده يقول : (وأعلى الأمكنة المكان الذى تدور عليه رحى عالم الأفلاك ، وهو فلك الشمس ، وفيه مقام روحانية إدريس ، وتحته سبعة أفلاك، وفوقه سبعة أفلاك ، وهو الخامس عشر)... ثم ذكر الأفلاك التى تحته ، والتى فوقه ، ثم قال : (وأما علو المكانة فهولنا أعنى المحمديين كما قال تعالى :

« وأنتم الأعلون والله معكم[١] » فى هذا العلو ، وهو يتعالى عن المكان لاعن المكانة[٢] .

وعند قوله تعالى فى الآية (٨٧) وما بعدها من سورة البقرة : « ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ... — إلى قوله — .. كأنهم لايعلمون » يقول : (... والظاهر أن جبرائيل هو العقل الفعال ، وميكائيل هو روح الفلك السادس وعقله المفيض للنفس النباتية الكلية الموكلة بأرزاق العباد ، وإسرافيل هى روح الفلك الرابع وعقله المفيض للنفس الحيوانية الكلية الموكلة بالحيوانات ، وعزرائيل هو روح الفلك السابع الموكل بالأرواح الإنسانية كلها يقبضها بنفسه أو بالوسائط التى هى أعوانه ويسلمها إلى الله تعالى[٣]) .

وعند قوله تعالى فى الآيتين (١٩ ، ٢٠) من سورة الرحمن « مرج البحرين يلتقيان * بينهما برزخ لايبغيان » يقول : « مرج البحرين » بحر الهيولى الجسمانية الذى هو الملح الأجاج ، وبحر الروح المجرد الذى هو العذب الفرات « يلتقيان » فى الوجود الإنسانى « بينهما برزخ » هو النفس الحيوانية التى ليست فى صفاء الروح المجردة ولطافتها ، ولا فى كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها « لايبغيان » لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته ، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله من جنسه ، ولاالبدن يجسد الروح ويجعله مادياً ... سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء[٤]) اهـ .

تأثره فى تفسيره بنظرية وحدة الوجود :

كذلك نرى ابن عربى يتأثر فى تفسيره للقرآن بنظرية وحدة الوجود ، التى هى أهم النظريات التى بنى عليها تصوفه ، فنراه فى كثير من الأحيان يشرح

---

(١) فى الآية (٣٥) من سورة محمد عليه السلام

(٢) الفصوص ج ١ ص ٢٦

(٣) تفسير ابن عربى ج ١ ص ٥١

(٤) تفسير ابن عربى ج ٢ ص ٢٨٠

الآيات على وفق هذه النظرية . حتى إنه ليخرج بالآية عن مدلولها الذى أراده الله تعالى .

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة النساء « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة . . الآية » نجده يقول: « اتقوا ربكم » اجعلوا ما ظهر منكم وقاية لربكم ، واجعلوا ما بطن منكم — وهو ربكم — وقاية لكم ؛ فإن الأمر ذم وحمد ، فكونوا وقايته فى الذم ، واجعلوه وقايتكم فى الحمد تكونوا أدباء عالمين)(١) .

وفى تفسيره لقوله تعالى فى الآيتين (٢٩ و ٣٠) من سورة الفجر « . . فادخلى فى عبادى * وادخلى جنتى » يقول : (. . . وادخلى جنتى التى هى سترى ، وليست جنتى سواك ، فأنت تسترنى بذاتك الإنسانية فلا أعرف إلا بك ، كما أنك لا تكون إلا بى فمن عرفك عرفنى ، وأنا لا أعرَف فأنت لا تعرف ، فإذا دخلت جنته دخلت نفسك ، فتعرف نفسك معرفة أخرى ، غير المعرفة التى عرفتها حين عرفت ربك بمعرفتك إياها ، فتكون صاحب معرفتين : معرفة به من حيث أنت ، ومعرفة به بك من حيث هو لا من حيث أنت ، فأنت عبد رأيت رباً ، وأنت رب لمن له فيه أنت عبد ، وأنت رب وأنت عبد لمن له فى الخطاب عهد . . الخ)(٢) .

وفى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) « . . . ربنا ما خلقت هذا باطلا » أى شيئا غيرك ؛ فإن غير الحق هو الباطل ، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك « سبحانك » ننزهك أن يوجد غيرك . أى يقارن شىء فردانيتك أو يثنى وحدانيتك . . .(٣)) اه .

ومثلا عند قوله تعالى فى الآيتين (٩ و ١٠) من سورة الشمس « قد أفلح من

---

(١) الفصوص ج ١ ص ٥٠ .

(٢) الفصوص ج ١ ص ١٩١–١٩٢

(٣) تفسير ابن عربى ج ١ ص ١٤١

زكاها * وقد خاب من دساها ، يقول : (تحقيق هذا الذكر أن النفس لا تزكوا إلا بربها ، فيه تشريف وتعظيم فى ذاتها ، لأن الزكاة ربو ، فمن كان الحق سمعه وبصره وجميع قواه ، والصورة فى الشاهد صورة خلق ، فقد زكت نفس من هذا نعته ، وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، كالأسماء الإلهية لله . والخلق كله بهذا النعت فى نفس الأمر ، ولولا أنه هكذا فى نفس الأمر ما صح بصورة الخلق ظهور ولا وجود ، ولذلك خاب من دساها ؛ لأنه جهل ذلك فتخيل أنه دسها فى هذا النعت ، وما علم أن هذا النعت لنفسه نعت ذاتى لا ينفك عنه ويستحيل زواله . لذلك وصفه بالخيبة حيث لم يعلم هذا ، ولذلك قال «قد أفلح» ففرض له البقاء ، والبقاء ليس إلا لله ، أو لما كان عند الله ، وما ثم إلا ... أو ما هو عنده ، فخزائنه غير نافذة ، فليس إلا صور تعقب صوراً ...[1]) اهـ.

.. وغير هذا كثير من قسر الآيات وإخضاعها لنظرية وحدة الوجود التى يدين بها ابن عربى .

قياسة الغائب على الشاهد :

كذلك نجد ابن عربى يفهم بعض النصوص القرآنية فهماً خيالياً منتزعاً من المشاهد المحسوس ، فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الرحمن . « الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان * الشمس والقمر بحسبان * والنجم والشجر يسجدان * والسماء رفعها ووضع الميزان * ألا تطغوا فى الميزان * وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان » . يقول ما نصه : (« الرحمن * علم القرآن » على أى قلب نزل «خلق الإنسان» فعين له الصنف المنزل عليه «علمه البيان» أى نزل له البيان فأبان عن المراد الذى فى الغيب «الشمس والقمر بحسبان» ميزان حركات الأفلاك «والنجم والشجر يسجدان» لهذا الميزان ، أى من أجل هذا الميزان ، فمنه ذو ساق وهو الشجر . ومنه ما لا طاق له وهو النجم ، فاختلفت السجدتان . «والسماء رفعها» وهى قبة الميزان «ووضع الميزان» ليزن به الثقلان «ألا تطغوا فى الميزان» بالإفراط والتفريط من أجل الخسران «وأقيموا الوزن

(١) الفتوحات جـ ٤ ص ١١٩ .

بالقسط» مثل اعتدال نشأة الإنسان ، إذ الإنسان لسان الميزان «ولا تخسروا الميزان» أى لا تفرطوا بترجيح إحدى الكفتين إلا بالفضل . وقال تعالى «ونضع الموازين القسط[1]» فاعلم أنه مامن صنعة ولا مرتبة ولا حال ولا مقام إلا والوزن حاكم عليه علماً وعملا ، فللمعانى ميزان بيد العقل يسمى المنطق ، يحتوى على كفتين تسمى المقدمتين ، وللكلام ميزان يسمى النحو يوزن به الألفاظ لتحقيق المعانى التى تدل عليه ألفاظ ذلك اللسان ، ولكل ذى لسان ميزان وهو المقدار المعلوم الذى قرنه الله بإنزال الأرزاق فقال : «وما ننزله إلا بقدر معلوم[2]» «ولكن ينزل بقدر ما يشاء[3]» وقد خلق جسد الإنسان على صورة الميزان ، وجعل كفتيه : يمينه وشماله ، وجعل لسانه : قائمة ذاته . فهو لأى جانب مال ، وقرن الله السعادة باليمين ، وقرن الشقاء بالشمال ، وجعل الميزان الذى يوزن بالأعمال على شكل القبان ، ولهذا وصف بالثقل والخفة : ليجمع بين الميزان العددى وهو قوله تعالى «بحسبان» وبين ما يوزن بالرطل ، وذلك لا يكون إلا فى القبان ، فلذلك لم يعين الكفتين ، بل قال : فأما من ثقلت موازينه . . . فى حق السعداء ، وأما من خفت موازينه . . فى حق الأشقياء ، ولو كان ميزان الكفتين لقال : وأما من ثقلت كفة حسناته فهو كذا ، وأما من ثقلت كفة سيئاته فهو كذا . وإنما جعل ميزان الثقل هو عين ميزان الخفة كصورة القبان ، ولو كان ذا كفتين لوصف كفة السيئات بالثقل أيضاً إذا رجحت على الحسنات ، وما وصفها قط إلا بالخفة فعرفنا أن الميزان على شكل القبان . . .) اهـ[4] .

إخضاعه قواعد النحو لنظرانه الصوفية :

وكذلك يخضع ابن عربى التفسير الصوفى النظرى إلى القواعد النحوية

(١) فى الآية (٤٧) من سورة الأنبياء .

(٢) فى الآية (٢١) من سورة الحجر .

(٣) فى الآية (٢٧) من سورة الشورى .

(٤) الفتوحات ج ٣ ص ٦ .

أحياناً ، ولكنه خضوع يكيفه الصوفى على حسب ما يرضى روحه ويوافق ذوقه ، فنجد ابن عربى مثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الحج « ومن يعظم حرمات الله فهو خير له عند ربه » يقول : (. . . وقوله « عند ربه » العامل فى هذا الظرف فى طريقنا : قوله : « ومن يعظم » أى من يعظمها عند ربه ، أى فى ذلك الموطن ، فلتبحث فى المواطن التى تكون فيها عند ربك ما هى ؟ . . . كالصلاة مثلا ، فإن المصلى يناجى ربه ، فإذا عظم حرمة الله فى هذا الموطن كان خيراً له . . . والمؤمن إذا نام على طهارة فروحه عند ربه ، فيعظم هناك حرمة الله ، فيكون الخير الذى له فى مثل هذا الموطن المبَشرَة التى تحصل له فى نومه أو يراها له غيره . والمواطن التى يكون العبد فيها عند ربه كثيرة فيعظم فيها حرمات الله على الشهود . . .) اهـ [1].

---

(١) الفتوحات ج ٤ ص ١١٥ .

التفسير الصوفى النظرى فى الميزان

من هذه الأمثلة السابقة كلها نستطيع أن نقرر فى صراحة واطمئنان : أن التفسير الصوفى النظرى تفسير يخرج بالقرآن — فى الغالب — عن هدفه الذى يرمى إليه !! . . يقصد القرآن هدفاً معيناً بنصوصه وآياته ، ويقصد الصوفى هدفاً معيناً بأبحاثه ونظرياته . وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد ، فيأبى الصوفى إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده ، إلى ما يقصده هو ويرمى إليه، وغرضه بهذا كله : أن يروج لتصوفه على حساب القرآن ، وأن يقيم نظرياته وأبحاثه عن أساس من كتاب الله، وبهذا الصنيع يكون الصوفى قد خدم فلسفته التصوفية ولم يعمل للقرآن شيئاً ، اللهم إلا هذا التأويل الذى كله شر على الدين وإلحاد فى آيات الله !! . .

رأينا ابن عربى يميل ببعض الآيات إلى مذهبه القائل بوحدة الوجود ، ورأينا غيره كأبى يزيد البسطامى ، والحلاج ، وغيرهما ، يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه . ووحدة الوجود — عندهم — معناها أنه ليس هناك إلا وجود واحد كل العالم مظاهر ومجال له ، فالله سبحانه هو الموجود الحق ، وكل ما عداه ظواهر وأوهام ، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز . وهذه النظرية سرت إلى بعض المتصوفة عن طريق الفلاسفة ، وعن طريق الإسماعيلية الباطنية الذين خالطوهم وأخذوا عنهم مذهبهم القائل بحلول الإله فى أئمتهم، وصوروه — أعنى الصوفية — بصورة أخرى تتفق مع مذهب الباطنية فى الحقيقة ، وإن اختلفت فى الإصطلاح والألفاظ . . . !! [1] .

هذا المذهب الذى خول لمثل الحلاج أن يقول : أنا الله ، ولمثل ابن عربى

---

(١) وحدة الوجود ليست هى نظرية الحلول ، غاية الأمر أن أصحاب القول بوحدة الوجود ينقسمون إلى فريقين : فريق يقول بالحلول، وفريق لا يقول به ؛ أنظر الفلسفة الإسلامية للدكتور محمد البهى ص ٤٧

أن يقول : إن عجل بنى إسرائيل أحد المظاهر التى اتخذها الله وحل فيها ، والذى جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان لا فرق بين سماوى وغير سماوى ؛ إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلى فى صورهم وصور جميع المعبودات.

هذا المذهب الذى يذهب بالدين من أساسه . . هل يكون سائغا ومقبولا أن نجعله أصلا نبنى عليه أفهامنا لآيات القرآن الكريم ؟ . . وهل يليق بابن عربى وهو الأستاذ الأكبر، أن ينظر من خلاله إلى مثل قوله تعالى فى الآيتين (٦ و ٧) من سورة البقرة « إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون : ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ولهم عذاب عظيم » .

فيقول شارحا لهذا النص القرآنى : (يا محمد ... إن الذين كفروا : ستروا محبتهم فىّ . . دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذى أرسلتك به ، أم لم تنذرهم لا يؤمنون بكلامك ؛ فإنهم لا يعقلون غيرى ، وأنت تنذرهم بخلقى وهم ما عقلوه ولا شاهدوه ، وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيرى ، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً فى العالم إلا منى ، وعلى أبصارهم غشاوة من بهائى عند مشاهدتى ، فلا يبصرون سواى ، ولهم عذاب عظيم عندى . . أردهم بعد هذا المشهد السنى إلى إنذارك وأحجبهم عنى ، كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قربا . . أنزلتك إلى من يكذبك ، ويرد ما جئت به إليه منى فى وجهك ، وتسمع فى ما يضيق له صدرك ، فأين ذلك الشرح الذى شاهدته فى إسرائك ؟ فهكذا أمنائى على خلقى الذين أخفيتهم رضاى عنهم[1]) اه .

وهل يجدر بمثل هذا الصوفى الكبير أن يتأثر بمذهبه فى وحدة الوجود فيقول فى قوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة الإسراء : وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه » : (. . . فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر ، ونحن نحمله على الحكم كشفاً . . وهو الصحيح ؛ فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء

---

(١) الفتوحات ج ١ ص ١١٥ .

إلا لنقربهم إلى الله زلفى ، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة بصورة من استنابهم ، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم . ولهذا يقضى الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم ، وإن أخطئوا فى النسبة فما أخطئوا فى المقام ، ولهذا قال : إن هى إلا أسماء سميتموها[1] ، أى أنتم قلتم عنها : إنها آلهة . . . وإلا فسموهم ، فلو سموهم لقالوا : هذا حجر ، أو شجر ، أو ما كان ، فتتميز عندهم بالإسمية ، إذ ما كل حجر عُبِدَ ولا اتخذ إلها ، ولا كل شجر ، ولا كل جسم منير ، ولا كل حيوان . فلله الحجة البالغة عليهم بقوله : قل سموهم . . [2]) .

وأصرح من هذا أنه لما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٣) من سورة البقرة « وإلهكم إله واحد » قال : (. . . إن الله تعالى خاطب فى هذه الآية المسلمين ، والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله ، فما عبدوا إلا الله ، فلما قالوا : ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة ، فقال الله لنا : إن إلهكم والإله الذى يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذى أشرك به واحد ، كأنكم ما اختلفتم فى أحديته . . فقال : وإلهكم ، فجمعنا وإياهم إله واحد ، فما أشركوا إلا بسببه فيما أعطاهم نظرهم . ومن قصد من أجل أمر ما فذلك الأمر على الحقيقة هو المقصود لا من ظهر أنه قصد ، كما يقال : من صحبك لأمر أو أحبك لأمر ولى بانقضائه ؛ ولهذا ذكر الله أنهم يتبرءون منهم يوم القيامة . وما أخذوا إلا من كونهم فعلوا ذلك من نفوسهم ، لا أنهم جهلوا قدر الله فى ذلك ، ألا ترى الحق لما علم هذا منهم كيف قال : وإلهكم إله واحد ؟ . ونبههم فقال : « قل سموهم » فيذكرونهم بأسمائهم المخالفة أسماء الله ، ثم وصفهم بأنهم فى شركهم قد ضلوا ضلالا بعيداً ، أو مبينا ؛ لأنهم أوقعوا أنفسهم فى الحيرة ؛ لكونهم عبدوا ما نحتوا بأيديهم ، وعلموا أنه لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم من الله شيئا ، فهى شهادة من الله بقصور نظرهم وعقولهم . ثم أخبرنا الله أنه قضى ألا نعبد إلا إياه بما نسبوه من الألوهية

---

(١) فى الآية (٢٣) من سورة النجم .

(٢) الفتوحات ج ٣ ص ١١٧

لهم أى جعلوهم كالنواب لله والوزراء ، كأن الله استخلفهم ، ومن عادة الخليفة أن يكون فى رتبة من استخلفه عند المستخلف عليه ؛ فلهذا نسبوا الألوهية لهم ابتداء من غير نظر فيمن جعل ذلك. وقول من قال : أجعل الآلهة إلهاً واحداً إنما كان من أجل اعتقادهم فيما عبدوه أنهم آلهة دون الله المشهود له عندهم بالعظمة على الجميع ، فأشبه هذا القول ما ثبت فى الشرع الصحيح من اختلاف الصور فى التجلى ، ومعلوم عند من يشاهد ذلك أن الصورة ما هى هذه الصورة ، وكل صورة لا بد أن يقول المشاهد لها : إنها الله . لكن لما كان هذا من عند الله ، وذلك الآخر من عندهم أنكر عليهم التحكم فى ذلك ؛ كما ثبت فى قوله تعالى : « فأينما تولوا فثم وجه الله[١] » هذا حقيقة ؛ فوجه الله موجود فى كل جهة يتولى أحد إليها ، ومع هذا لو تولى الإنسان فى صلاته إلى غير الكعبة مع علمه بجهة الكعبة لم تقبل صلاته ؛ لأنه ما شرع له إلا استقبال هذا البيت الخاص بهذه العبادة الخاصة ، فإذا تولى فى غير هذه العبادة التى لا تصح إلا بتعيين هذه الجهة الخاصة ، فإن الله يقبل ذلك التولى ، كما أنه لو اعتقد أن كل جهة يتولى إليها ما فيها وجه الله لكان كافراً وجاهلا ، ومع هذا فلا يجوز له أن يتعدى بالأعمال حيث شرعها الله ، ولهذا اختلفت الشرائع : فما كان محرما فى شرع ما ، حلله الله فى شرع آخر ، ونسخ ذلك الحكم الأول فى ذلك المحكوم عليه بحكم آخر فى عين ذلك المحكوم عليه ، قال الله تعالى : « لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا[٢] » ، فما نسخ من شرع واتبعه من اتبعه بعد نسخه فذلك المسمى هوى النفس الذى قال الله فيه لخليفته داود « إنا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق[٣] » يعنى الحق الذى أنزلته إليك « ولا تتبع الهوى[٤] » ، وهو ما خالف شرعك « فيضلك عن سبيل الله[٥] » ، وهو ما شرعه الله لك على الخصوص . فإذا علمت هذا وتقرر لديك ، علمت أن الله إله واحد فى كل شرع عيناً ، وكثير صورة وكوناً ،

---

(١) فى الآية (١١٥) من سورة البقرة
(٢) فى الآية (٤٨) من سورة المائدة
(٣ و ٤ و ٥) فى الآية (٢٦) من سورة ص

فإن الأدلة العقلية تكثره باختلافها فيه ، وكلها حق ومدلولها صدق ، والتجلى فى الصورة كثرة أيضا لاختلافها ، والعين واحدة ، فإذا كان الأمر هكذا فما تصنع ؟ أو كيف يصح لى أن أخطىء قائلا ؟ ولهذا لا يصح خطأ من أحد فيه ، وإنما الخطأ فى إثبات الغير وهو القول بالشريك ، فهذا القول بالعدم . لأن الشريك ليس ثم ، وذلك لا يغفره الله ، لأن الغفر الستر ، ولا يستر إلا من له وجود ، والشريك عدم فلا يستر .. فهى كلمة تحقيق « إن الله لا يغفر أن يشرك به[1] » لأنه لا يجده . فلو وجده لصح وكان للمغفرة عين تتعلق بها . وما فى الوجود من يقبل الأضداد إلا العالم من حيث ما هو واحد ، وفى هذا الواحد ظهرت الأضداد ، وما هى إلا أحكام عين الممكنات فى عين الوجود التى بظهورها علمت الأسماء الإلهية المتضادة وأمثالها ...[2]) اهـ .

رأينا فى التفسير الصوفى النظرى :

ورأيى الذى أدين الله عليه : أن مثل هذا التفسير القائم على نظرية وحدة الوجود ما كان لنا أن نقبله مهما كان قائله .

كذلك ليس لنا أن نقبل التفسير الذى أسس على نظريات الفلاسفة الذين بحثوا فى الطبيعة وما وراء الطبيعة ، والذى جرى عليه ابن عربى وغيره من المتصوفة فى تفسيرهم لبعض الآيات القرآنية .. لا نقبله على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذى جاء القرآن من أجله ، وإن كنا نقبله — إن صح — على أنه مما تحتمله الآية ما دام لا يعارض القرآن ولا ينافيه . على أن كل ما جاء من ذلك لا يعدو أن يكون ظنيا ، وقد يظهر خطؤه فى يوم من الأيام ، فكيف نحمل عليه القرآن الكريم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟

أما التفسير الذى يبنى على قياس الغائب على الشاهد كتفسير ابن عربى لحقيقة الميزان الذى توزن به الأعمال يوم القيامة ، فهذا أيضا ضرب من التخمين ،

---

(١) فى الآية (١١٦) من سورة النساء .

(٢) الفتوحات ج ٤ ص ١٠٦ و ١٠٧

والتخمين لا يجوز أن يدخل فى فهم الأشياء التى لا يتوصل إلى حقيقتها إلا من طريق السمع عن المعصوم صلى الله عليه وسلم .

وأما التفسير الذى يبنى على قواعد نحوية أو بلاغية ، فهذا إن ساعده السياق والسباق قُبِل، وإلا أعرضنا عنه ، وأخذنا بما يصححه النظر ويقويه الدليل .

هذا هو رأينا فى التفسير الصوفى النظرى ، وليس لدينا من المعاذير ما نستطيع أن نتلمسه للقوم حتى نصحح لهم مثل هذا التفسير الذى يقوم على نظريات فاسدة تذهب بالدين من أساسه . وإذا صح — وما أرانى أرتضى ذلك — أن نغض الطرف عما قالوه فى التفسير من بيان لحقائق الموجودات علويها وسفليها . وحقائق الملائكة ، والروح ، والعرش ، والكرسى ، وأمثال ذلك ، فلا يصح أن نغض الطرف بحال عما قالوه من التفسير المبنى على وحدة الوجود . وإذا أمكننا — على كره — أن نتسامح فى بعض عبارات شديدة جرى بها لسان صوفى أخذه الوجد ، وارتفع به الحال ، وغاب عن نفسه ، وشاهد مالا نشاهد ، فقال فى لحظة نسى فيها نفسه فلم ير إلا الله : أنا الحق ، أو أنا الله ، فليس فى مقدورنا أن نتسامح فى مثل هذه التفاسير التى جرت بها ألسنة القوم وأقلامهم وهم فى حالة الهدوء النفسى، يقدرون مايقولون، ويشعرون بكل ما ينطقون أو يكتبون .

هذا ولم نسمع بأن أحداً ألف فى التفسير الصوفى النظرى كتاباً خاصاً يتتبع القرآن آية آية ، كما ألف مثل ذلك بالنسبة للتفسير الإشارى ، وكل ما وجدناه من ذلك هو نصوص متفرقة اشتمل عليها التفسير المنسوب إلى ابن عربى ، وكتاب الفتوحات المكية له ، وكتاب الفصوص له أيضاً ، كما يوجد بعض من ذلك فى كثير من كتب التفسير المختلفة المشارب .

ثانيا — التفسير الصوفى الفيضى أو الإشارى

حقيقته :

التفسير الفيضى أو الإشارى : هو تأويل آيات القرآن الكريم على خلاف ما يظهر منها بمقتضى إشارات خفية تظهر لأرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة .

الفرق بينه وبين التفسير الصوفى النظرى :

وعلى هذا فالفرق بين التفسير الصوفى الإشارى والتفسير الصوفى النظرى من وجهين :

أولا : أن التفسير الصوفى النظرى ، ينبنى على مقدمات علمية تنقدح فى ذهن الصوفى أولا ، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك .

أما التفسير الإشارى ، فلا يرتكز على مقدمات علمية ، بل يرتكز على رياضة روحية يأخذ بها الصوفى نفسه حتى يصل إلى درجة تنكشف له فيها من سجف العبارات هذه الإشارات القدسية ، وتنهل على قلبه من سحب الغيب ما تحمله الآيات من المعارف السبحانية .

ثانياً : أن التفسير الصوفى النظرى ، يرى صاحبه أنه كل ما تحتمله الآية من المعانى ، وليس وراءه معنى آخر يمكن أن تحمل الآية عليه . . وهذا بحسب طاقته طبعاً .

أما التفسير الإشارى ، فلا يرى الصوفى أنه كل ما يراد من الآية ، بل يرى أى هناك معنى آخر تحتمله الآية ويراد منها أولا وقبل كل شىء : ذلك هو المعنى الظاهر الذى ينساق إليه الذهن قبل غيره .

هل للتفسير الإشارى أصل شرعى ؟

ربما يجول بخاطر القارىء الكريم هذا السؤال وهو : هل للتفسير الإشارى

أصل شرعى يقوم عليه ، أو هو أمر جد بعد ظهور المتصوفة وذيوع طريقتهم
وللجواب عن هذا السؤال نقول :

لم يكن التفسير الإشارى بالأمر الجديد فى إبراز معانى القرآن الكريم ، بل هو أمر معروف من لدن نزوله على رسول الله صلى الله عليه وسلم .. أشار إليه القرآن ، ونبه عليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وعرفه الصحابة رضوان الله تعالى عليهم وقالوا به .

أما إشارة القرآن إليه ، ففى قوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء « ... فمال هؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً » ، وقوله فى الآية (٨٢) منها أيضاً : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً » ، وقوله فى الآية (٢٤) من سورة محمد عليه السلام : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » ، فهذه الآيات كلها تشير إلى أن القرآن له ظهر وبطن . وذلك لأن الله سبحانه وتعالى حيث ينعى على الكفار أنهم لا يكادون يفقهون حديثا ، ويحضهم على التدبر فى آيات القرآن الكريم لا يريد بذلك أنهم لا يفهمون نفس الكلام ، أو حضهم على فهم ظاهرة ، لأن القوم عرب ، والقرآن لم يخرج عن لغتهم فهم يفهمون ظاهره ولا شك . وإنما أراد بذلك أنهم لا يفهمون عن الله مراده من الخطاب ، وحضهم على أن يتدبروا فى آياته حتى يقفوا على مقصود الله ومراده ، وذلك هو الباطن الذى جهلوه ولم يصلوا إليه بعقولهم[1] .

وأما تنبيه الرسول صلى الله عليه وسلم ، فذلك فى الحديث الذى أخرجه الفريابى من رواية الحسن مرسلا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (لكل آية ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ، ولكل حد مطلع) وفى الحديث الذى أخرجه الديلمى من رواية عبد الرحمن بن عوف مرفوعا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (القرآن تحت العرش له ظهر وبطن يحاج العباد) .

فى هذين الحديثين تصريح بأن القرآن له ظهر وبطن . ولكن ما هو الظهر وما هو البطن ؟ اختلف العلماء فى بيان ذلك :

---

(١) انظر الموافقات ج ٣ ص ٣٨٢ - ٣٨٣

فقيل . ظاهرها — أى الآية — لفظها . وباطنها تأويلها :

وقال أبو عبيدة : إن القصص التى قصها الله تعالى عن الأمم الماضية وما عاقبهم به ظاهرها الإخبار بهلاك الأولين ، وحديث حدث به عن قوم ، وباطنها وعظ الآخرين وتحذيرهم أن يفعلوا كفعلهم ، فيحل بهم مثل ما حل بهم . . . ولكن هذا خاص بالقصص ، والحديث يعم كل آية من آيات القرآن .

وحكى ابن النقيب قولا ثالثاً : وهو أن ظهرها ما ظهر من معانيها لأهل العلم ، وبطنها ما تضمنته من الأسرار التى أطلع الله عليها أهل الحقائق .

هذا هو أشهر ما قيل فى معنى الظهر والبطن . وأما قوله فى الحديث الأول: ولكل حرف حد ، فمعناه على ما قيل . لكل حرف حد أى منتهى فيما أراد الله من معناه أو لكل حكم مقدار من الثواب والعقاب . والأول أظهر . وقوله: ولكل حد مطلع ، ومعناه على ما قيل أيضاً : لكل غامض من المعانى والأحكام مطلع يتوصل به إلى معرفته ويوقف على المراد به . وقيل : كل ما يستحقه من الثواب والعقاب يطلع عليه فى الآخرة عند المجازاة . والأول أظهر أيضا .

وأما الصحابة فقد نقل عنهم من الأخبار ما يدل على أنهم عرفوا التفسير الإشارى وقالوا به . أما الروايات الدالة على أنهم يعرفون ذلك فمنها :

ما أخرجه ابن أبى حاتم من طريق الضحاك عن ابن عباس أنه قال . (إن القرآن ذو شجون وفنون ، وظهور وبطون ، لا تنقضى عجائبه ، ولا تبلغ غايته، فمن أو غل فيه برفق نجا، ومن أخبر فيه بعنف هوى، أخبار وأمثال، وحلال وحرام ، وناسخ ومنسوخ ، ومحكم ومتشابه ، وظهر وبطن ، فظهره التلاوة ، وبطنه التأويل ، فجالسوا به العلماء ، وجانبوا به السفهاء) .

وروى عن أبى الدرداء أنه قال : (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يجعل للقرآن وجوها) .

عن ابن مسعود أنه قال : (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن) . وهذا الذى قالوه لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر .

وأما الروايات الدالة على أنهم فسروا القرآن تفسيراً إشاريا ، فما رواه البخارى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : (كان عمر يدخلنى مع أشياخ بدر ، فكأن بعضهم وجد فى نفسه فقال : لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال عمر : إنه من حيث علمتم : فدعاه ذات يوم فأدخله معهم ، فما رئيت أنه دعانى يومئذ إلا ليريهم . قال . ماتقولون فى قوله تعالى « إذا جاء نصر الله والفتح » فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وسكت بعضهم فلم يقل شيئا ، فقال لى : أكذاك تقول يا ابن عباس ؟ فقلت لا . قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم أعلمه له . قال : إذا جاء نصر الله والفتح ، وذلك علامة أجلك ، فسبح بحمد ربك واستغفره ، إنه كان توابا ، فقال عمر : ما أعلم منها إلا ما تقول[١]) اهـ

فبعض الصحابة لم يفهم من السورة أكثر من معناها الظاهر ، أما ابن عباس وعمر ، فقد فهما معنى آخر وراء الظاهر ، هو المعنى الباطن الذى تدل عليه السورة بطريق الإشارة :

وأيضا ما ورد من أنه لما نزل قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة المائدة « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا » فرح الصحابة وبكى عمر رضى الله تعالى عنه وقال : ما بعد الكمال إلا النقص ، مستشعرا نعيه عليه الصلاة والسلام ، فقد أخرج ابن أبى شيبة (أن عمر رضى الله تعالى عنه لما نزلت الآية بكى ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم ما يبكيك؟ قال أبكانى أنا كنا فى زيادة من ديننا ، فأما إذا كمل فإنه لم يكمل شىء قط إلا نقص ، فقال عليه الصلاة والسلام : صدقت[٢]) :

فعمر رضى الله عنه أدرك المعنى الإشارى : وهو نعى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأقره النبى على فهمه هذا : وأما باقى الصحابة : فقد فرحوا بنزول الآية ؛ لأنهم لم يفهموا أكثر من المعنى الظاهر لها :

---

(١) البخارى باب التفسير ج ٦ ص ١٧٩ .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٦ ص ٦٠ .

هذه الأدلة مجتمعة تعطينا أن القرآن الكريم له ظهر وبطن .. ظهر يفهمه كل من يعرف اللسان العربى .. وبطن يفهمه أصحاب الموهبة وأرباب البصائر. غير أن المعانى الباطنية للقرآن لا تقف عند الحد الذى تصل إليه مداركنا القاصرة، بل هى أمر فوق ما نظن وأعظم مما نتصور. ولقد فهم ابن مسعود أن فى فهم معانى القرآن مجالا رحباً ومتسعاً بالغاً فقال: (من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن) وإلى هذا أشار الله تعالى بقوله «مافرطنا فى الكتاب من شىء[1]»، وقال «.. ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء[2]».

التفاوت فى إدراك المعانى الباطنة وإصابتها :

غير أن هذه المعانى المتكاثرة التى يشتمل عليها باطن القرآن لم تكن فى متناول المفسرين جميعاً، كما أنهم لم يكونوا متساوين فى القدر الذى أدركوه منها، بل تفاوتوا فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى الأخذ بالأسباب، كما أنهم لم يكونوا جميعا مصيبين فيما وصلوا إليه منها وأدركوه، بل أصابوا فى بعض منها وأخطأوا فى بعض آخر، وما أخطأوا فيه : بعضه عن جهل، وبعضه عن تعمد خبيث ونية سيئة، فالإمامية مع قولهم بالظاهر على ما به، قالوا بالباطن أيضا، ولكنهم تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق وعقيدتهم الفاسدة والباطنية. لم يعترفوا بظاهر القرآن واعترفوا بالباطن فقط، ولكنهم أيضا تعمدوا أن يفسروا الباطن على ما يتفق ونواياهم السيئة، وكلا الفريقين ضال مبتدع.

أما الصوفية أهل الحقيقة وأصحاب الإشارة، فقد اعترفوا بظاهر القرآن ولم يجحدوه، كما اعترفوا بباطنه، ولكنهم حين فسروا المعانى الباطنة خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا، فبينما تجد لهم أفهاما مقبولة سائغة، تجد لهم بجوارها أفهاما لا يمكن أن يقبلها العقل أو يرضى بها الشرع؛ ولهذا أرى أن أستعرض بعض ما للقوم من أفهام فى التفسير، ثم أحكم عليها حكما مجردا عن كل شىء إلا عن الحق والإنصاف، ثم بعد هذا أذكر شروط التفسير الإشارى. وهى الشروط التى إذا توافرت فيه جاز لنا قبوله والأخذ به، وإلا أسقطناه ورفضناه مهما كان لقائله من المكانة فى نفوسنا أو فى نفوس القوم.

---

(١) فى الآية (٣٨) من سورة الانعام. (٢) فى الآية (١١١) من سورة يوسف.

التفسير الإشارى فى الميزان

قلنا : إن القرآن له ظهر وبطن وذكرنا لك أهم الأقوال فى معنى الظاهر والباطن . ومهما يكن من شىء فإن ظاهر القرآن — وهو المنزل بلسان عربى مبين — هو المفهوم العربى المجرد . وباطنه هو مراد الله تعالى وغرضه الذى يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب . هذا هو خير ما يقال فى معنى الظاهر والباطن .

وعلى ذلك نقول : إن كل ما كان من المعانى العربية التى لا ينبنى فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر ، فالمسائل البيانية ، والمنازع البلاغية ، لامعدل لها عن ظاهر القرآن ، فإذا فهم الإنسان مثلا الفرق بين ضيق فى قوله تعالى فى الآية (١٢٥) من سورة الأنعام « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجاً كأنما يصعد فى السماء » وبين ضائق فى قوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة هود « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك » وعرف أن (ضيق) صفة مشبهة دالة على الثبوت والدوام فى حق من يرد الله أن يضله ، وأن (ضائق) اسم فاعل يدل على الحدوث والتجدد وأنه أمر عارض له صلى الله عليه وسلم . إذا فهم الإنسان مثل هذا فقد حصل له فهم ظاهر القرآن .

إذاً فلا يشترط فى فهم ظاهر القرآن زيادة على الجريان على اللسان العربى ، وإذاً كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربى فليس من تفسير القرآن فى شىء .. لا مما يستفاد منه ولا مما يستفاد به . ومن ادعى فيه ذلك فهو مبطل فى دعواه .

أما المعنى الباطن ، فلا يكفى فيه الجريان على اللسان العربى وحده . بل لا بد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى فى قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير ، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمراً خارجا عن مدلول اللفظ القرآنى ، ولهذا اشترطوا لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين :

أولهما : — أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر فى لسان العرب بحيث يجرى على المقاصد العربية :

وثانيهما : أن يكون له شاهد نصاً أو ظاهراً فى محل آخر يشهد لصحته من غير معارض .

أما الشرط الأول : فظاهر من قاعدة كون القرآن عربياً . فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق ، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس فى ألفاظه ولا فى معانيه مايدل عليه ، وما كان كذلك فلا يصح أن ينسب إليه أصلا ؛ إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه . ولا مرجح يدل على أحدهما ، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر ، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال فى كتاب الله بغير علم :

وأما الشرط الثانى : فلأنه إن لم يكن له شاهد فى محل آخر أو كان وله معارض صار من جملة الدعاوى التى تدعى على القرآن ، والدعوى المجردة عن الدليل غير مقبوله باتفاق العلماء[1] :

إذا توافر هذان الشرطان فى معنى من المعانى الباطنة قبل ؛ لأنه معنى باطن صحيح ، وإلا رفض رفضاً باتاً ؛ لأنه معنى باطن فاسد وتقول على الله بالهوى والتشهى :

إذا عرفنا هذا كله ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم فى معانى القرآن الباطنة ، وجدنا الكثير منها يمكن أن يكون من قبيل الباطن الصحيح ، وكثير منها أيضاً هو من قبيل الباطن الفاسد المرفوض . وكبرى المشاكل أن بعضها منسوب إلى رجال من أهل العلم لهم مكانة علمية ودينية فى نفوسنا ، بل وبعضها منسوب إلى رجال من الصحابة ، وهم أعرف الناس بكتاب الله وما يحويه من المعانى والأسرار .

---

(١) الموافقات ج ٣ ص ٣٩٤ .

فمن الأفهام الباطنة المنقولة عنهم ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول : ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة « .. فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون » من قول سهل التسترى : («فلا تجعلوا لله أندادا» أى أضدادا ، فأكبر الأضداد : النفس الأمارة بالسوء ، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله[١]) اهـ .

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة داخلة تحت عموم الأنداد حتى لو فصل لكان المعنى : فلا تجعلوا لله أنداداً لا صنما ، ولا شيطاناً ، ولا النفس ، ولا كذا ، ولا كذا .. وهذا مشكل من حيث الظاهر ، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله ، سواء أكان صنما أم غير صنم ، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم ، ولم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح ، وبيان ذلك :

أن الناظر فى القرآن الكريم، قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار ، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية ؛ لأنه يجامعه فى القصد أو يقاربه ، وسهل التسترى — رحمه الله — حين قال فى الآية ما قال ، لم يرد أنه تفسير للآية ، بل أتى بما هو ند فى الاعتبار الشرعى؛ وذلك لأن حقيقة الند : أنه المضاد لنده، الجارى على مناقضته ، والنفس الأمارة هذا شأنها ؛ لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها ، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها ، وهذا هو الذى يعنى به الند بالنسبة لنده ، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه ، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل فى الآية ، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين — جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتباراً، وجهة كون الخطاب - وإن كان موجها للمشركين — فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار .

أما ما يشهد له من الجهة الأولى : فقوله تعالى فى الآية (٣١) من سورة

---

(١) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٤ .

التوبة : «اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله» وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله ، ولكنهم ائتمروا بأوامرهم ، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان ، فما حرموا عليهم حرموه ، وما أباحوا لهم حللوه ، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله ، فقال الله سبحانه : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله » وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه .

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية : فهو أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال لبعض من توسع فى الدنيا من أهل الإيمان أين تذهب بكم هذه الآية ؟ « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا » وكان هو يعتبر نفسه بها ، مع أن الآية نزلت فى حق الكفار لقوله تعالى «ويوم يعرض الذين كفروا على النار أذهبتم طيباتكم .. الآية[1] » فعمر رضى الله عنه ، له فى الآية نظر واعتبار ، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه ، حذراً منه وخوفا أن يكون التوسع فى المباحات سببا فى الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها ، فإذا صح لعمر رضى الله عنه أن ينزل الآية على المتوسعين فى المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم ، صح لسهل أيضاً أن ينزل الآية على النفس الأمارة وإن لم تنزل فيها كذلك .

ومن ذلك أيضاً ما جاء فى قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة البقرة « .. .. ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين » من قول سهل رحمه الله . (لم يرد الله معنى الأكل فى الحقيقة ، وإنما أراد معنى مساكنة الهمة لشىء هو غيره .. أى لا تهتم بشىء هو غيرى . قال : فآدم عليه السلام لم يعصم من الهمة والفعل فى الجنة ، فلحقه ما لحقه من أجل ذلك . قال : وكذلك كل من ادعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظراً إلى هوى نفسه . لحقه الترك من الله عز وجل مع ما جبلت عليه نفسه إلا أن يرحمه الله . فيعصمه من تدبيره وينصره على عدوه وعليها .. .. قال : وآدم لم يعصم عن مساكنة قلبه إلى تدبير نفسه للخلود لما أدخل الجنة ، ألا ترى أن البلاء دخل عليه من أجل سـكون القلب إلى ما وسوست به نفسه ، فغلب الهوى والشهوة العلم والعقل والبيان ونور القلب ؛

(١) الآية (٣٠) من سورة الاحقاف .

لسابق القدر من الله تعالى ، كما قال عليه السلام : الهوى والشهوة يغلبان العلم والعقل[١]) اهـ .

وبالنظر فى كلام سهل هذا نرى أنه ادعى فى الآية خلاف ما ذكره المفسرون من أن المراد النهى عن نفس الأكل ، لا عن سكون الهمة لغير الله . وإن كان هذا منهيا عنه أيضاً ، لكن يمكن أن يكون لهذا الكلام الذى قاله سهل وجه يجرى عليه، وذلك أن النهى فى الآية لا يصح حمله على نفس القرب مجرداً ، إذ لا مناسبة فيه ظاهرة ، ولأنه لم يقل به أحد ، وإنما النهى عن معنى فى القرب وهو إما التناول والأكل. وإما غيره وهو شىء ينشأ الأكل عنه، وذلك مساكنة الهمة ، فإنه الأصل فى تحصيل الأكل ، ولا شك فى أن السكون لغير الله لجلب منفعة أو دفع مفسدة منهى عنه .

فهذا التفسير له وجه ظاهر فكأنه يقول : لم يقع النهى عن مجرد الأكل من حيث هو أكل، بل عما ينشأ عنه الأكل من السكون لغير الله. إذ لو انتهى عما نهى الله عنه لكان ساكنا لله وحده : فلما لم يفعل وسكن إلى أمر فى الشجرة غره به الشيطان وهو الخلود فى الجنة، أضاف الله إليه لفظ العصيان فقال فى الآيتين (١٢١ ، ١٢٢) من سورة طه «وعصى آدم ربه فغوى * ثم اجتباه ربه فتاب عليه وهدى» .

مثل هذا — وهو كثير فى كلام الصوفية — لا نعدم له وجها نحمله عليه حتى يكون تفسيراً صحيحاً ومقبولا .

ولكن هناك أقوال لهم فى التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائراً وعجزاً عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة . فمن ذلك :

ما يروونه عن ابن عباس أنه فسر (الۤمۤ) فقال: (الألف: الله . واللام: جبريل والميم محمد صلى الله عليه وسلم . . وأن الله أقسم بنفسه وجبريل ومحمد عليهما السلام[٢]) .

وهذا إن صح نقله فهو مشكل إلى حد بعيد ، ذلك لأن الإشارة إلى الكلمة

---

(١) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٦ – ١٧ .

(٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ١٢ .

بحرف ليس معهوداً فى كلام العرب . اللهم إلا إن دل عليه الدليل اللفظى أو الحالى كقول الشاعر :

* فقلت لها قفى فقالت قاف *

أراد : قالت وقفت .

وقول زهير :

بالخير خيرات وإن شراً فا ولا أريد الشر إلا أن تا

أراد : وإن شراً فشر ، وأراد : إلا أن تشاء .

وقول الآخر :

نادوهموا ألا الجموا ألاتا قالوا جميعاً كلهم ألافا

أراد : ألا تركبون . قالوا : ألا فاركبوا .

وقوله عليه الصلاة والسلام « كفى بالسيف شا » أراد . شاهيا(١) .

. . . . ولكن أين الدليل على ما ذكر فى قوله (الۤمۤ) ؟

على أنه لم يقم دليل من الخارج يدل على هذا التفسير ، إذ لو كان له دليل لاقتضت العادة نقله ، لأنه من المسائل التى تتوفر الدواعى على نقلها لو صح أنه مما يفسر ويقصد تفهيم معناه . . . ولما لم يثبت شىء من ذلك دل على أنه من قبيل المتشابهات ، فإن ثبت له دليل عليه صرنا إليه وإلا توقفنا :

ومثل هذا المروى عن ابن عباس — ولعله أشكل منه — ما قاله سهل التسترى فى تفسيره للبسملة حيث قال : (« بسم الله الرحمن الرحيم » الباء : بهاء الله عز وجل ، والسين : سناء الله عز وجل ، والميم : مجد الله عز وجل ، والله : هو الاسم الأعظم الذى حوى الأسماء كلها ، وبين الألف واللام منه حرف مكنى

(١) انظر تفسير القرطبى ج ١ ص ١٥٥ — ١٥٦

غيب من غيب إلى غيب ، وسر من سر إلى سر ، وحقيقة من حقيقة إلى حقيقة ، لا ينال فهمه إلا الطاهر من الأدناس ، الآخذ من الحلال قواما ضرورة الإيمان . والرحمن : اسم فيه خاصية من الحرف المكنى بين الألف واللام . والرحيم : هو العاطف على عباده بالرزق فى الفرع ، والابتداء فى الأصل ، رحمة لسابق علمه القديم) اهـ[١] .

وما فسر به (الم) فاتحة البقرة وهو قوله (الم . اسم الله عز وجل فيه معان وصفات يعرفها أهل الفهم به ، غير أن لأهل الظاهر فيه معان كثيرة ، فأما هذه الحروف إذا انفردت ، فالألف : تأليف الله عز وجل . ألف الأشياء كما شاء ، واللام : لطفه القديم . والميم : مجده العظيم) وقال : (لكل كتاب أنزله الله تعالى سر ، وسر القرآن فواتح السور ؛ لأنها أسماء وصفات ، مثل قوله المص والر ، والمر ، وكهيعص ، وطسم ، وحمعسق ، فإذا جمعت هذه الحروف بعضها إلى بعض كانت اسم الله الأعظم ، أى إذا أخذ من كل سورة حرف على الولاء أى على ما أنزلت السورة وما بعدها على النسق (الر) و (حم) و (ن) معناه الرحمن . وقال ابن عباس والضحاك : الم : معناه أنا الله أعلم . وقال على رضى الله عنه : هذه أسماء مقطعة ، إذا أخذ من كل حرف حرفاً لا يشبه صاحبه فجمعن كان اسم من أسماء الرحمن ، إذا عرفوه ودعوه به كان الإسم الأعظم الذى إذا دعى به أجاب . .) اهـ[٢] .

وما قاله أبو عبد الرحمن السلمى فى تفسير (الم) فاتحة البقرة وهو قوله : (الم : قيل : إن الألف ألف الوحدانية ، واللام : لام اللطف ، والميم : ميم الملك ، معناه من وجدنى على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له . . . . فأخرجته من رق العبودية إلى الملك الأعلى ، وهو الاتصال بمالك الملك ، دون الاشتغال بشىء من الملك . . وقيل : الم ، معنى الألف : أى

(١ و ٢) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٩ و ١٠ و ١١ و ١٢ .

أفرد سرك ، واللام ليت جوارحك لعبادتى ، والميم : أقم معى بمجرى رسومك وصفاتك ، أزينات بصفات الأنس بى ، والمشاهدة إياى ، والقرب منى ..) اهـ[١] :

فهذا الذى قاله سهل التسترى والذى قاله أبو عبد الرحمن السلمى مشكل كالمروى عن ابن عباس ، بل وأعظم منه إشكالا حيث ادعوا أن هذه الحروف ترمز إلى أسرار غيبية ومعان مكنية ، وإذا جمعت هذه الحروف على طريقة مخصوصة كان كذا وكذا ، بل ويدعون أحيانا أن هذه الحروف هى أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة ، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى فى خطابه العرب الأمية التى لا تعرف شيئا من ذلك ، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن ، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل برهانى أو إقناعى ، وكل ما أقوله فيها : إنها دعاوى محالة على الكشف والإطلاع ، ودعوى الكشف والإطلاع لا تصلح دليلا شرعياً بحال من الأحوال ،

ومن المواضع المشكلة أيضاً ، ولكنها أخف إشكالا مما مر .. ماجاء عنهم من نحو تفسير سهل التسترى لقوله تعالى فى الآية (٩٦) من سورة آل عمران : « إن أول بيت وضع للناس .. الآية» بقوله : (أول بيت وضع للناس بيت الله عز وجل بمكة ، هذا هو الظاهر ، وباطنها الرسول يؤمن به من أثبت الله فى قلبه التوحيد من الناس[٢])

ومن ذلك تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النساء « .. والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل .. » حيث يقول — بعد ذكره للتفسير الظاهر — (.. وأما باطنها ، فالجار ذى القربى : هو القلب ، والجار الجنب : هو الطبيعة ، والصاحب بالجنب : هو العقل المقتدى بالشريعة ، وابن السبيل : هو الجوارح المطيعة لله ..) اهـ[٣]

---

(١) حقائق التفسير ص ٩ .

(٢و٣) تفسير القرآن العظيم للتسترى ص ٤١ و ٤٥

وتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤١) من سورة الروم : « ظهر الفساد فى البر والبحر » بقوله : (مثل الله الجوارح بالبر ، ومثل القلب بالبحر ، وهو أعم نفعاً وأكثر خطراً ، هذا هو باطن الآية ، ألا ترى أن القلب إنما سمى قلبا لتقلبه وبعد غوره ؟ ..) اهـ(١)

وتفسير ابن عطاء الله السكندرى لقوله تعالى فى الآية (٣٣) من سورة (يس) (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون » بقوله: «القلوب الميتة بالغفلة أحييناها بالتيقظ والاعتبار والموعظة ، وأخرجنا منها حبا معرفة صافية تضىء أنوارها على الظاهر والباطن)(٢) .

هذا وأمثاله من كلام الصوفية لو قلنا إنهم أرادوا به تفسير الآيات القرآنية وبيان معانيها التى تحمل عليها لا غير لكان هو بعينه مذهب الباطنية ؛ وذلك لأن المعانى التى حملوا عليها الألفاظ فى الآيات السابقة لا تعرفها العرب مدلولات لهذه الألفاظ ، لا بالوضع الحقيقى ولا بالوضع المجازى المناسب ، وليس فى مساق الآيات ما يدل على هذه المعانى المذكورة ، ومعلوم أن القرآن عربى ومخاطب به العرب الذين يفهمون ألفاظه وتراكيبه ، فهذه الآيات المذكورة آنفا لا يفهم منها العربى أكثر من المعانى المتبادرة إلى فهمه ، والتى تنساق إلى ذهنه ابتداء . فلا يفهم من البيت الحرام ، ولا من الجار ذى القربى ، والجار الجنب ، والصاحب بالجنب ، وابن السبيل ، ولا من البر والبحر ، ولا من الأرض والحب ، إلا ما يفهمه العربى من هذه الألفاظ وما وراء ذلك فليس عليه دليل .

وأيضاً لم ينقل لنا عن السلف الصالح من الصحابة والتابعين تفسير للقرآن يماثل هذا التفسير أو يقاربه ، ولو كان عندهم معروفاً لنقل؛ لأنهم أدرى بمعانى القرآن ظاهرها وباطنها باتفاق الأمة ، وغير معقول أن يأتى آخر هذه الأمة بأهدى

---

(١) المرجع السابق

(٢) حقائق التفسير للسلمى ص ٢٨٤

عما كان عليه أولها ، ولاهم أعرف بالشريعة منهم ، ولا أدرى بلغة القرآن من قومه الذين نزل بلسانهم وعلى لغتهم .

ولكن إجلالنا لهؤلاء المفسرين ووثوقنا بهم من الناحية العلمية والدينية ، واعترافهم فى تفاسيرهم — التى نقلنا عنها — بالمعانى الظاهرية للقرآن وإنكارهم على من يقول بباطن القرآن دون ظاهره .. كل هذا يجعلنا نحسن الظن بالقوم ، فنحمل أمثال هذه المعانى على أنها ليست من قبيل التفسير ، وإنما هى ذكر منهم لنظير ما ورد به القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير كما قال ابن الصلاح فى فتاواه(١) .

مقالة الشاطبى فى التفسير الإشارى :

ولزيادة الإيضاح أذكر لك ما قاله الشاطبى فى هذا الموضوع :

قال رحمه الله : الاعتبارات القرآنية الواردة على القلوب ، الظاهرة للبصائر ، إذا صحت على كمال شروطها فهى على ضربين :

أحدهما : ما يكون أصل انفجاره من القرآن ويتبعه سائر الموجودات ، فإن الإعتبار الصحيح فى الجملة هو الذى يخرق نورُ البصيرة فيه حجبَ الأكوان من غير توقف ، فإن توقف فهو غير صحيح أو غير كامل ، حسبما بينه أهل التحقيق بالسلوك .

والثانى ما يكون أصل انفجاره من الموجودات : جزئيها أو كليها ، ويتبعه الاعتبار فى القرآن .

فإن كان الأول ، فذلك الاعتبار صحيح ، وهو معتبر فى فهم باطن القرآن من غير إشكال ؛ لأن فهم القرآن إنما يرد على القلوب على وفق ما نزل له القرآن ، وهو الهداية التامة على ما يليق بكل واحد من المكلفين ، وبحسب التكاليف وأحوالها ، لا بإطلاق ، وإذا كانت كذلك فالمشى على طريقها مشى على الصراط

---

(١) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩ .

المستقيم، ولأن الاعتبار القرآنى قلما يجده إلا من كان من أهله عملا به على تقليد أو اجتهاد، فلا يخرجون عند الإعتبار فيه عن حدوده كما لم يخرجوا فى العمل به والتخلق بأخلاقه عن حدوده، بل تنفتح لهم أبواب الفهم فيه على توازى أحكامه، ويلزم من ذلك أن يكون معتداً به لجريانه على مجاريه. والشاهد على ذلك مانقل من فهم السلف الصالح فيه، فإنه كله جار على ماتقضى به العربية، وما تدل عليه الأدلة الشرعية.

وإن كان الثانى، فالتوقف عن اعتباره فى فهم باطن القرآن لازم، وأخذه على إطلاقه فيه ممتنع، لأنه بخلاف الأول، فلا يصح القول باعتباره فى فهم القرآن، فنقول:

إن تلك الأنظار الباطنة فى القرآن فى الآيات المذكورة - يريد «والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل» وما ذكره معها مما تقدم لنا ذكره - إذا لم يظهر جريانها على مقتضى الشروط المتقدمة فهى راجعة إلى الاعتبار غير القرآنى وهو الوجودى (1) ويصح تنزيله على معانى القرآن لأنه وجودى أيضا. فهو مشترك من تلك الجهة غير خاص، فلا يطالب فيه المعتبر بشاهد موافق إلا مايطلبه المربى، وهو أمر خاص، منفرد بنفسه، لايختص بهذا الموضع، فلذلك يوقف على محله، فكون القلب جاراً ذا قربى، والجار الجنب هو النفس الطبيعى ... إلى سائر ماذكر، يصح تنزيله اعتباريا مطلقا، فإن مقابلة الوجود بعضه ببعض فى هذا النمط صحيح وسهل جداً عند أربابه، غير أنه مغرر بمن ليس براسخ أو داخل تحت إيالة راسخ

وأيضاً فإن من ذكر عنه مثل ذلك من المعتبرين لم يصرح بأنه المعنى

---

(1) مثال الاعتبار: الخارجى مايروونه عن بعضهم فى معنى قوله تعالى فى الاية (٣) من سورة القدر ليلة القدر خير من الف شهر» قال ألف شهر هى مدة الدولة الاموية، لانها مكثت ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر وأن ذلك من الله تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم حين أطلعه على ملوك بنى أمية واحداً واحداً فسرى عنه بهذه السورة. هذا المعنى لم يؤخذ من القرآن؛ بل أخذ من الخارج والواقع فى ذاته؛ بمصادفة مطابقة العدد، واللفظ لا ينبو عنه. لكنه لا دليل من الشرع على كونه هو المعنى المقصود) اهـ هامش الموافقات جـ ٣ ص ٤٠٤.

المقصود المخاطب به الخلق ، بل أجراه مجراه وسكت عن كونه هو المراد وإن جاء شيء من ذلك وصرح صاحبه أنه هو المراد ، فهو من أرباب الأحوال الذين لا يفرقون بين الاعتبار القرآنى والوجودى ، وأكثر ما يطرأ هذا لمن هو بعد فى السلوك ، سائر على الطريق ، لم يتحقق بمطلوبه . ولا اعتبار بقول من لم يثبت اعتبار قوله من الباطنية وغيرهم ... [١]) اهـ

فالشاطبى — رحمه الله — يقرر فى كلامه هذا : أن مثل هذا النوع الأخير من كلام الصوفية راجع إلى الاعتبار غير القرآنى ، ومع ذلك فيمكن تنزيله على معانى القرآن . كما أنه يقرر : أن من قال هذا لم يذكر عنه أنه قاله على أنه تفسير للآية وبيان للمقصود منها ، وهذا من حسن ظنه بالقوم .

مقالات بعض العلماء فى التفسير الإشارى :

وإذا نحن رجعنا إلى أقوال العلماء التى قالوها فى تفسير الصوفية وجدناها جميعاً تقوم على حسن الظن بهم ، وإليك بعضاً منها :

مقالة ابن الصلاح :

قال ابن الصلاح فى فتاواه — وقد سئل عن كلام الصوفية ، فى القرآن — « وجدت عن الإمام أبى الحسن الواحدى المفسر رحمه الله تعالى أنه قال : صنف أبو عبد الرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان قد اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر . قال ابن الصلاح : وأنا أقول : الظن بمن يوثق به منهم أنه إذا قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيرا ، ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة من القرآن العظيم . فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية ، وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ماورد به القرآن ، فإن النظير يذكر بالنظير ، ومن ذلك قتال النفس فى الآية المذكورة — يريد قوله تعالى فى الآية (١٢٣) من سورة التوبة « ياأيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » فكأنه قال أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار ، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا فى مثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس [٢] .)

---

(١) الموافقات جـ ٣ ص ٤٠٣ — ٤٠٥ (٢) فتاوى ابن الصلاح ص ٢٩

مقالة سعد الدين التفتازانى :

وقد علق التفتازانى على قول النسفى فى كتابه العقائد (والنصوص على ظواهرها ، فالعدول عنها إلى معان يدعيها أهل الباطن إلحاد) فقال — رحمه الله - : (وسموا الباطنيه لادعائهم أن النصوص ليست على ظواهرها ، بل لها معان باطنة لا يعرفها إلا المعلم ، وقصدهم بذلك نفى الشريعة بالكلية . . ثم قال : وأما ما يذهب إليه بعض المحققين من أن النصوص محموله على ظواهرها ومع ذلك ففيها إشارات خفية إلى دقائق تنكشف على أرباب السلوك ، ويمكن التطبيق بينها وبين الظواهر المرادة ، فهو من كمال الإيمان ومحض العرفان [١] اهـ

مقالة ابن عطاء الله السكندرى :

ونقل السيوطى عن ابن عطاء الله السكندرى أنه قال فى كتابه لطائف المنن (اعلم أن تفسير هذه الطائفة لكلام الله وكلام رسوله بالمعانى الغريبة ليس إحالة للظاهر عن ظاهره ، ولكن ظاهر الآية مفهوم منه ما جلبت الآية له ودلت عليه فى عرف اللسان ، وثم أفهام باطنة تفهم عند الآية والحديث لمن فتح الله قلبه ، وقد جاء فى الحديث « لكل آية ظهر وبطن » فلا يصدنك عن تلقى هذه المعانى منهم أن يقول لك ذو جدل ومعارضة : هذا إحالة لكلام الله وكلام رسوله . . فليس ذلك بإحالة ، وإنما يكون إحالة لو قالوا : لا معنى الآية إلا هذا ، وهم لم يقولوا ذلك ، بل يقرون الظواهر على ظواهرها مرادا بها موضوعاتها ويفهمون عن الله تعالى ما أفهمهم [٢]) اهـ

فهؤلاء العلماء حسنوا ظنهم بالقوم ، فحملوا أقوالهم الغريبة التى قالوها فى القرآن على أنها ذكر لنظير ماورد به القرآن ، أو على أنها إشارات خفية ، ومعان إلهامية ، تنهل على قلوب العارفين ، ونزهوهم عن إرادة التفسير الحقيق لكتاب الله بمثل هذه الشروح الغريبة التى نقلت عنهم ، وهذا عمل حسن

(١) العقائد النسفية وشرحها لسعد الدين التفتازانى ص ١٤٢

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٥

وصنع جميل من هؤلاء العلماء ، وقد تابعناهم عليه حملا لحال المؤمن على الصلاح ... ولكن لم يلبث أن تبدد حسن ظننا بالقوم على أثر تلك المقالة التى قرأناها لابن عربى فى فتوحاته . . وفيها يصرح بأن مقالات الصوفية فى كتاب الله ليست إلا تفسيرا حقيقيا لمعانى القرآن، وشرحا لمراد الله من ألفاظه وآياته ويذكر لنا أن تسميتها إشارة ليس إلا من قبيل التقية ،والمداراة لعلماء الرسوم أهل الظاهر ...، وفى هذه المقالة يحمل حملة شعواء على أهل الرسوم - على حد تعبيره - الذين ينكرون عليه وعلى غيره من الصوفية . وإليك ما قاله بالنص لتقف على رأيه الصريح الذى لا مواربة فيه ولا التواء .

مقالة ابن عربى فى التفسير الإشارى :

قال رحمه الله : (اعلم أن الله عز وجل لما خلق الخلق ، خلق الإنسان أطوارا . فمنا العالم والجاهل ، ومنا المنصف والمعاند ، ومنا القاهر ومنا المقهور ومنا الحاكم ومنا المحكوم ، ومنا المتحكم ومنا المتحكم فيه ،ومنا الرئيس والمرءوس ومنا الأمير والمأمور ، ومنا الملك والسوقة ، ومنا الحاسد والمحسود وما خلق الله أشق ولا أشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته العارفين به من طريق الوهب الإلهى الذى منحهم أسراره فى خلقه ، وفهمهم معانى كتابه وإشارات خطابه فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنه للرسل عليهم السلام لما كان الأمر فى الوجود الواقع على ماسبق به العلم القديم - كما ذكرنا - عدل أصحابنا إلى الإشارات . فكلامهم - رضى الله عنهم - فى شرح كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إشارات ، وإن كان ذلك حقيقة وتفسيرا لمعانيه النافعة ، ورد ذلك كله إلى نفسهم مع تقريرهم إياه فى العموم ، وفيما نزل فيه ، كما يعلمه أهل اللسان الذين نزل الكتاب بلسانهم ، فعم به سبحانه عندهم الوجهين كما قال تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم [1] » يعنى الآيات المنزلة فى الآفاق وفى أنفسهم ،فكل آية منزلة لها وجهان: وجه يرونه فى نفوسهم ووجه آخر يرونه فيما خرج عنهم ، فيسمون مايرونه فى نفوسهم إشارة ليأنس

---

(١) فى الآية (٥٣) من سورة فصلت

الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك ، ولا يقولون فى ذلك إنه تفسير ، وقاية لشرهم وتشنيعهم فى ذلك بالكفر عليه ، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق ، واقتدوا فى ذلك بسنن الهدى ، فإن الله كان قادرا على تنصيص ما نأوله أهل الله فى كتابه ، ومع ذلك فما فعل ، بل أدرج فى تلك الكلمات الإلهية التى نزلت بلسان العامة علوم معانى الاختصاص التى فهمها عباده حين فتح لهم فيها بعين الفهم الذى رزقهم) .

(ولو كان علماء الرسوم ينصفون ، لاعتبروا فى نفوسهم إذا نظروا فى الآية بالعين الظاهرة التى يسلمونها فيما بينهم . فيرون أنهم يتفاضلون فى ذلك ، ويعلو بعضهم على بعض فى الكلام فى معنى تلك الآية ، ويقر القاصر بفضل غير القاصر فيها ، وكلهم فى مجرى واحد . ومع هذا الفضل المشهود لهم فيما بينهم فى ذلك ، ينكرون على أهل الله إذا جاءوا بشىء مما يغمض عن إدراكهم ، وذلك لأنهم يعتقدون فيهم أنهم ليسوا بعلماء وأن العلم لا يحصل إلا بالتعلم المعتاد فى العرف ، وصدقوا ، فإن أصحابنا ما حصل لهم ذلك العلم إلا بالتعلم وهو الإعلام الرحمانى الربانى قال تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم * الذى علم بالقلم * علم الإنسان مالم يعلم »(١) ، فإنه القائل « أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا » ، وقال تعالى : « خلق الإنسان * علمه البيان »(٢) ، فهو سبحانه معلم الإنسان . فلا شك أن أهل الله هم ورثة الرسل عليهم السلام ، والله يقول فى حق الرسول : « وعلمك مالم تكن تعلم »(٣) ، وقال فى حق عيسى « ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل »(٤) ، وقال فى حق خضر صاحب موسى عليهما السلام « وعلمناه من لدنا علما »(٥) ، فصدق علماء الرسوم عندنا فيما قالوا : إن العلم لا يكون إلا بالتعلم وأخطئوا فى اعتقادهم أن الله لا يعلم من ليس بنبى ولا رسول يقول الله : « يؤتى الحكمة من يشاء »(٦) ، وهى العلم ، وجاء بمن وهى نكرة . ولكن علماء الرسول لما آثروا الدنيا على الآخرة ، وآثروا جانب الخلق على جانب الحق ، وتعودوا أخذ العلم من الكتب ومن أفواه الرجال الذين من جنسهم ، ورأوا فى زعمهم أنهم من أهل الله بما علموا وامتازوا به عن العامة ، حجبهم ذلك عن أن يعلموا أن لله عباداً تولى

---

(١) الآيات (١، ٢، ٣، ٤، ٥) من سورة العلق .
(٢) الآيتان (٣، ٤) من سورة الرحمن (٣) فى الآية (١٣) من سورة النساء .
(٤) الآية (٤٨) من سورة آل عمران (٥) فى الآية (٦٥) من سورة الكهف
(٦) فى الآية (٢٦٩) من سورة البقرة .

الله تعليمهم فى سرائرهم بما أنزله فى كتبه وعلى ألسنة رسله. وهو العلم الصحيح عن العالم المعلم الذى لا يشك مؤمن فى كمال علمه ولا غير مؤمن ؛ فإن الذين قالوا : إن الله لا يعلم الجزئيات ما أرادوا نفى العلم عنه، وإنما قصدوا بذلك أنه تعالى لا يتجدد له علم بشىء ، بل علمها مندرجة فى علمه بالكليات ، فأثبتوا له العلم سبحانه مع كونهم غير مؤمنين ، وقصدا تنزيهه سبحانه فى ذلك وإن أخطئوا فى التعبير عن ذلك ، فتولى الله بعنايته لبعض عباده تعليمهم بنفسه بإلهامه وإفهامه إياهم « فألهمها فجورها وتقواها[1] » فى إثر قوله : « ونفس وما سواها[2] » فبين لها الفجور من التقوى إلهاماً من الله لها لتجتنب الفجور وتعمل بالتقوى) .

(وكما كان أصل تنزيل الكتاب من الله على أنبيائه ، كان تنزيل الفهم على قلوب بعض المؤمنين به ، فالأنبياء عليهم السلام ما قالت على الله ما لم يقل لها ، ولا أخرجت ذلك من نفوسها ولا من أفكارها ، ولا تعلمت فيه ، بل جاءت من عند الله ، كما قال تعالى : « تنزيل من حكيم حميد[3] » ، وقال فيه إنه « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه[4] » ، وإذا كان الأصل المتكلم فيه من عند الله ، لا من فكر الإنسان ورويته — وعلماء الرسوم يعلمون ذلك — فينبغى أن يكون أهل الله العاملون به أحق بشرحه وبيان ما أنزل الله فيه من علماء الرسوم ، فيكون شرحه أيضا تنزيلا من عند الله على قلوب أهل العلم كما كان الأصل . وكذا قال على بن أبى طالب رضى الله عنه فى هذا الباب (ما هو إلا فهم يؤتيه الله من يشاء من عباده فى هذا القرآن) . فجعل ذلك عطاء من الله ، يعبر عن ذلك العطاء بالفهم عن الله ، فأهل الله أولى به من غيرهم . فلما رأى أهل الله أن الله قد جعل الدولة فى الحياة الدنيا لأهل الظاهر من علماء الرسوم ، وأعطاهم التحكم فى الخلق بما يفتون به ، وألحقهم بالذين يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة غافلون — وهم فى إنكارهم على أهل الله يحسبون أنهم يحسنون صنعا — سلم أهل الله لهم أحوالهم لأنهم علموا من أين تكلموا ، وصانوا عنهم

(١ ، ٢) الآية (٧ ، ٨) من سورة الشمس .

(٣ ؛ ٤) فى الآية (٤٢) من سورة فصلت ؛ على التقديم والتأخير .

أنفسهم بتسميتهم الحقائق إشارات ، فإن علماء الرسوم لاينكرون الإشارات، فإذا كان فى غد يوم القيامة يكون الأمر فى الكل ، كما قال القائل :

سوف ترى إذا انجلى الغبار   أفرس تحتك أم حمـــار

كما يتميز المحق من أهل الله، من المدعى فى الأهليه غداً يوم القيامة . قال بعضهم:

فإذا اشتبكت دموع فى خدود   تبين من بكى ممن تباكى

أين عالم الرسوم من قول على بن أبى طالب رضى الله عنه حين أخبر عن نفسه أنه لو تكلم فى الفاتحه من القرآن لحمل منها سبعين وقراً ؟ هل هذا إلا من الفهم الذى أعطاه الله فى القرآن ؟ فاسم الفقيه أولى بهذه الطائفة من صاحب علم الرسم ، فإن الله يقول فيهم : « ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون[١]» فأقامهم مقام الرسول فى التفقه فى الدين والإنذار،وهو الذى يدعو إلى الله على بصيرة كما يدعو رسول الله صلى الله عليه وسلم على بصيرة، لا على غلبة ظن كما يحكم عالم الرسوم، فشتان بين من هو فيما يفتى به وبقوله على بصيرة منه فى دعائه إلى الله وهو على بينة من ربه ، وبين من يفتى فى دين الله بغلبة ظنه) .

(ثم إن من شأن عالم الرسوم فى الذب عن نفسه أنه يجهل من يقول : فهمنى ربى ، ويرى أنه أفضل منه ، وأنه صاحب العلم إذ يقول من هو من أهل الله : إن الله ألقى فى سرى مراده بهذا الحكم فى هذه الآية ، أو يقول : رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى واقعتى فأعلمنى بصحة هذا الخبر المروى عنه وبحكمه عنده . قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه فى هذا المقام . . . يخاطب علماء الرسوم: أخذتم علمكم ميتا عن ميت، وأخذنا علمنا عن الحى الذى لايموت يقول أمثالنا : حدثنى قلبى عن ربى ، وأنتم تقولون حدثنى فلان . . وأين هو؟ قالوا : مات . عن فلان . . وأين هو ؟ قالوا : مات . وكان الشيخ أبو مدين — رحمه الله — إذا قيل له : قال فلان ، عن فلان ، عن فلان يقول : ما نريد نأكل قديداً . هاتوا ائتونى بلحم طرى - يرفع همم أصحابه - فأولئك أكلوه لحماً طرياً ، والواهب لم يمت ، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد) .

---

(١) فى الآية (١٢٢) من سورة التوبة .

(والفيض الإلهى والمبشرات ماسد بابها، وهى من أجزاء النبوة، والطريق واضحة، والباب مفتوح، والعمل مشروع. والله يهرول لتلقى من أتى إليه يسعى: وما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم، وهو معهم أينما كانوا. فمن كان معك بهذه المثابة من القرب - مع دعواك العلم بذلك والإيمان به - لم تترك الأخذ عنه والحديث معه، وتأخذ عن غيره ولا تأخذ عنه فتكون حديث عهد بربك؟ .[1]) اه

رأينا فى مقالة ابن عربى :

ونحن لا ننكر على ابن عربى أن ثم أفهاما يلقيها الله فى قلوب أصفيائه وأحبابه، ويخصهم بها دون غيرهم، على تفاوت بينهم فى ذلك بمقدار ما بينهم من تفاوت فى درجات السلوك ومراتب الوصول. كما لا ننكر عليه أن تكون هذه الأفهام تفسيراً للقرآن وبيانا لمراد الله من كلامه، ولكن بشرط: أن تكون هذه الأفهام يمكن أن تدخل تحت مدلول اللفظ العربى القرآنى، وأن يكون لها شاهد شرعى يؤيدها. أما أن تكون هذه الأفهام خارجة عن مدلول اللفظ القرآنى، وليس لها من الشرع ما يؤيدها فذلك مالا يمكن أن نقبله على أنه تفسير للآية وبيان لمراد الله تعالى، لأن القرآن عربى قبل كل شىء كما قلنا، والله سبحانه وتعالى يقول فى شأنه «كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون[2]»، وحاشا لله أن يلغز فى آياته، أو يعمى على عباده طريق النظر فى كتابه، وهو يقول «ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر[3]».

هذا هو ما أدين الله عليه بالنسبة لكلام الصوفية، وعذرى فى ذلك أنى لم أسلك مسلك القوم، ولم أذق ذوقهم، ولم أعرف اصطلاحاتهم التى يصطلحون عليها، ولعلى إذا سلكت هذا الطريق، وانكشف لى من أستار الغيب ما انكشف لهم، أو على الأقل فهمت لغة القوم ووقفت على مصطلحاتهم. لعلى إذا حصل لى شىء من هذا تبدل رأيى وتغير حكمى، فسلمت لهم كل ما يقولون به، مهما كان بعيداً وغريباً. وقد سأل رجل بعض العلماء أن يقرأ عليه تائية ابن الفارض فقال له: (دع عنك هذا، من جاع جوع القوم وسهر سهرهم رأى ما رأوا)[4].

(١) الفتوحات المكية ج ١ ص ٢٧٩ - ٢٨٠

(٢) الآية (٣) من سورة فصلت

(٣) الآية (١٧) من سورة القمر، وفى مواضع أخرى من السورة نفسها

(٤) شذرات الذهب ج ٥ ص ١٩١

يقولون : إنهم يدركون بعض المعانى بعين اليقين ، وما من شأنه أن يدرك بعين اليقين لا يمكن أن يدرك بعلم اليقين ، إذاً فلابد لمن يريد أن يحكم على القوم حكما صحيحا أن يجتهد فى الوصول إلى ما وصلوا إليه بالعيان ، دون أن يطلبه عن طريق البيان ، فإنه طور وراء طور العقل ، والشاعر يقول :

علم التصوف علم ليس يعرفه   إلا أخو فطنة بالحق معروف
وليس يعرفه من ليس يشهده   وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف[1]

ويقول ابن خلدون : (وليس البرهان والدليل بنافع فى هذه الطريق رداً وقبولا ، إذ هى من قبيل الوجدانيات)[2] .

ويقول الآلوسى فى مقدمة تفسيره ج ١ ص٨ : (فالإنصاف كل الإنصاف التسليم للسادة الصوفية الذين هم مركز الدائرة المحمدية ما هم عليه ، واتهام ذهنك السقيم فيما لم يصل ؛ لكثرة العوائق والعلائق إليه :

وإذا لم تر الهلال فسلم   لأناس رأوه بالأبصار

ويقول الآلوسى أيضا بعد أن نقل عن ابن عربى ما قاله فى تفسير الفاتحة فى فتوحاته : (فإذا وقع الجدار ، وانهدم الصور ، وامتزجت الأنهار ، والتقى البحران ، وعدم البرزخ ، صار العذاب نعيما ، وجهنم جنة ، ولا عذاب ولا عقاب ، إلا نعيم وأمان ، بمشاهدة العيان . الخ) : يقول الآلوسى بعد نقله لهذا الكلام الغريب : (وهذا وأمثاله محمول على معنى صحيح يعرفه أهل الذوق ولا ينافى ما وردت به القواطع : ثم قال : وإياك أن تقول بظاهره مع ما أنت عليه ، وكلما وجدت مثل هذا لأحد من أهل الله تعالى ، فسلمه لهم بالمعنى الذى أرادوه ، مما لا تعلمه أنت ولا أنا ، لا بالمعنى الذى ينقدح فى عقلك ، المشوب بالأوهام فالأمر والله وراء ذلك .[3]) اهـ

ومثل هذه الأقوال أشبه ما تكون بالإكراه لنا على قبول وجدانيات القوم وشطحاتهم مهما أوغلت فى البعد والغرابة ، وتوريط لنا بتسليم كل مايقولون تحت تأثير مالهم فى نفوسنا من المكانة العلمية والدينية : ومهما يكن

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٢ .   (٢) مقدمة ابن خلدون ٥٢٥ .
(٣) تفسير الآلوسى ج ١ ص ١٤٢ - ١٤٣

من شيء فأنا عند رأيي لا أتحول عنه ، حتى إذ ماجمعت جوع القوم ، وسهرت سهرهم،ووجدت مواجيدهم، سلمت لهم بكل مايقولون(ومن ذاق عرف)

والخلاصة : أن مثل هذه التفاسير الغريبة للقرآن ، مزلة قدم لمن لم يعرف مقاصد القوم، وليتهم احتفظوا بها عند أنفسهم،ولم يذيعوها على الناس فيوقعوهم فى حيرة واختلاف : منهم من يأخذها على ظاهرها ويعتقد أن ذلك هو مراد الله من كلامه، وإذا عارضه ماينقل فى كتب التفسير على خلافه فربما كذب به أو أشكل عليه : ومنهم من يكذبها على الإطلاق ، ويرى أنها تقول على الله وبهتان: ليتهم فعلوا ذلك ، إذاً لأراحونا من هذه الحيرة ، وأراحوا أنفسهم من كلام الناس فيهم ، وقذف البعض لهم بالكفر والإلحاد فى آيات الله ! !

شروط قبول التفسير الإشارى

تبين لنا فيما سبق أن التفسير الإشارى منه ما هو مقبول ومنه ما ليس بمقبول فعلينا بعد ذلك أن نذكر الشروط التى يجب أن تتوفر فى التفسير الإشارى - وإن كنا تعرضنا لأهمها فيما سبق - حتى يكون تفسيراً مقبولا وإليك هذه الشروط :
أولا : أن لا يكون التفسير الإشارى منافيا للظاهر من النظم القرآنى الكريم .

ثانيا : أن يكون له شاهد شرعى يؤيده :
ثالثا : أن لا يكون له معارض شرعى أو عقلى
وهذه الشروط الثلاثة قد أوضحناها فيما سبق، فلا حاجة بنا إلى إعادة توضيحها.
رابعا : أن يدعى أن التفسير الإشارى هو المراد وحده دون الظاهر ، بل لا بد أن نعترف بالمعنى الظاهر أولا ، إذ لا يطمع فى الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر (ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم التفسير الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل أن يجاوز الباب[١]).
إذا علمت هذا ، علمت بصورة قاطعة أنه لا يمكن لعاقل أن يقبل ما نقل عن بعض المتصوفة من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة « من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه » فقال : معناه (« من ذل » من الذل «ذى» إشارة إلى النفس « يشف » من الشفاء « ع » أمر من الوعى[٢]. وما نقل عن بعضهم من أنه فسر قوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة العنكبوت « وإن الله لمع المحسنين » فجعل « لمع » فعلا ماضيا بمعنى أضاء و « المحسنين » مفعوله[٣] .
هذا التفسير وأمثاله إلحاد فى آيات الله، والله تعالى يقول «إن الذين يلحدون فى آياتنا لا يخفون علينا[٤]»، قال الآلوسى فى تفسير هذه الآية: (أى ينحرفون

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٤
(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٨٤
(٣) مبادىء التفسير للخضرى ص ٩
(٤) فى الآية (٤٠) من سورة فصلت

فى تأويل آيات القرآن عن جهة الصحة والإستقامة فيحملونها على المحامل الباطلة ، وهو مراد ابن عباس بقوله : يضعون الكلام فى غير موضعه[١])

هذه هى الشروط التى إذا توفرت فى التفسير الإشارى كان مقبولا ، ومعنى كونه مقبولا عدم رفضه لا وجوب الأخذ به ، أما عدم رفضه فلأنه غير مناف للظاهر ولا بالغ مبلغ التعسف ، وليس له ماينا فيه أو يعارضه من الأدلة الشرعية

وأما عدم وجوب الأخذ به ، فلأنه من قبيل الوجدانيات ، والوجدانيات لا تقوم على دليل ولا تستند إلى برهان ، وإنما هى أمر يجده الصوفى من نفسه ، وسر بينه وبين ربه . فله أن يأخذ به ويعمل على متقضاه ، دون أن يلزم به أحدا من الناس سواه .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٢٤ ص ١١٢

أهم كتب التفسير الإشارى

من العلماء من وجه همته إلى التفسير الظاهر ولم يتعرض للتفسير الإشارى، كالبيضاوى، والزمخشرى مثلا . ومنهم من جعل غالب همه فى التفسير الظاهر وتعرض للتفسير الإشارى بقدر، كما فعل النيسابورى، والآلوسى . ومنهم من غلبت عليه ناحية التفسير الإشارى ومع ذلك فهو يتعرض أحيانا للتفسير الظاهر، كما فعل سهل التسترى . ومنهم من وجه همته كلها للتفسير الإشارى . ولم يحم حول المعانى الظاهرة، كما فعل أبو عبد الرحمن السلمى، ومنهم من أعرض عن الظاهر وجمع فى تفسيره بين التفسير الصوفى النظرى والتفسير الصوفى الإشارى كما فعل صاحب التفسير المنسوب لابن عربى .

وليس ضروريا أن نتكلم عن تفسير النيسابورى والآلوسى من ناحية مافيهما من التفسير الإشارى ; لأنهما أقرب إلى أهل الظاهر منهما إلى أهل الإشارة إذ كان كلامهما عن التفسير الإشارى أمراً عارضا وتابعاً لغيره ، وقد سبق الكلام عنهما فى كتب التفسير بالرأى المحمود .

ويكفى هنا أن نتكلم عن أهم الكتب التى وجه أصحابها فيها كل عنايتهم ، أوجلها نحو التفسير الإشارى . وإليك أهم هذه الكتب :

١ ـ تفسير القرآن العظيم

للتسترى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن عيسى بن عبدالله ، التسترى ، المولود بتستر[1] سنة ٢٠٠هـ مائتين . وقيل سنه ٢٠١ إحدى ومائتين من الهجرة .

كان ـ رحمه الله ـ من كبار العارفين ، ولم يكن له فى الورع نظير. وكان صاحب كرامات ، ولقى الشيخ ذا النون المصرى ـ رحمه الله ـ بمكة . وكان له اجتهاد وافر ورياضة عظيمة . أقام بالبصرة زمنا طويلا ، وتوفى بها سنة ٢٨٣ هـ ثلاث وثمانين ومائتين ، وقيل سنة ٢٧٣ هـ ثلاث وسبعين ومائتين ، فرحمه الله رحمة واسعة[2] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

هذا التفسير مطبوع فى مجلد صغير الحجم ، ولم يتعرض فيه مؤلفه لتفسير القرآن آية آية ، بل تكلم عن آيات محدودة ومتفرقة من كل سورة . ويظهر لنا أن سهلا ـ رضى الله عنه ـ لم يؤلف هذا الكتاب ، وإنما هى أقوال قالها سهل فى آيات متفرقة من القرآن الكريم ، ثم جمعها أبو بكر محمد بن أحمد البلدى ، المذكور فى أول الكتاب ، والذى يقول كثيرا ، قال أبو بكر : سئل سهل عن معنى كذا . فقال كذا ، ثم ضمنها هذا الكتاب ونسبها إليه .

نقرأ فى هذا الكتاب ، فنجد مؤلفه يقدم له بمقدمة يوضح فيها معنى ظاهر

(١) تستر بضم التاء الاولى ، وسكون السين المهملة ؛ وفتح التاء الثانية : بلد من الاهواز .

(٢) انظر وفيات الاعيان جـ ١ ص ٣٨٩ .

القرآن وباطنه ، ومعنى الحد والمطلع ، فيقول : (ما من آية فى القرآن إلا ولها أربعة معان : ظاهر ، وباطن ، وحد ، ومطلع . فالظاهر : التلاوة ، والباطن : الفهم ، والحد : حلالها وحرامها . والمطلع : إشراق القلب على المرادبها . فقهاً من الله عز وجل . فالعلم الظاهر علم عام ، والفهم لباطنه والمراد به خاص : قال تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء « فمال هؤلاء القوم لايكادون يفقهون حديثا » أى لايفقهون خطابا) اهـ[١] :

ويقول فى موضع آخر : قال سهل : إن الله تعالى ما استولى ولياً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم إلا علمه القرآن ، إما ظاهراً وإما باطنا . قيل له : إن الظاهر نعرفه فالباطن ما هو ؟ قال : فهمه ، وإن فهمه هو المراد) اهـ[٢] :

فمن هاتين العبارتين ، نأخذ أن سهلا التسترى يرى : أن الظاهر هو المعنى اللغوى المجرد . وأن الباطن هو المعنى الذى يفهم من اللفظ ويريده الله تعالى من كلامه : كما نأخذ منه : أنه يرى أن المعانى الظاهرة أمر عام يقف عليها كل من يعرف اللسان العربى ، أما المعانى الباطنة ، فأمر خاص يعرفه أهل الله بتعليم الله إياهم وإرشادهم إليه :

كذلك نجد سهلا ـ رضى الله عنه ـ لم يقتصر فى تفسيره على المعانى الإشارية وحدها . بل نجده يذكر أحيانا المعانى الظاهرة ، ثم يعقبها بالمعانى الإشارية ، وقد يقتصر أحيانا على المعنى الإشارى وحده ، كما يقتصر أحيانا على المعنى الظاهرى ، بدون أن يعرج على باطن الآية :

وحين يعرض سهل للمعانى الإشارية لايكون واضحا فى كل مايقوله ، بل تارة بالمعانى الغريبة التى نستبعد أن تكون مرادة لله تعالى ، وذلك كالمعانى التى نقلناها عنه سابقا فى معنى البسملة ، وألـم فاتحة البقرة ، وتارة يأتى بالمعانى

---

(١) ص ٣ .

(٢) ص ٧ ولعلك تجد فى هذه العبارة مايؤكد ما قلناه من أن الكتاب من وضع إحد تلاميذه : أبو بكر محمد بن أحمد البلدى .

الغريبة التى يمكن أن تكون من مدلول اللفظ أو مما يشير إليه اللفظ ، وذلك هو الغالب فى تفسيره :

كذلك نجد المؤلف ينحو فى كتابة هذا منحى تزكية النفوس ، وتطهير القلوب ، والتحلى بالأخلاق والفضائل التى يدل عليها القرآن ولو بطريق الإشارة . . : وكثيرا ما يسوق من حكايات الصالحين وأخبارهم ما يكون شاهداً لما يذكره ، كما أنه يتعرض فى بعض الأحيان لدفع إشكالات قد ترد على ظاهر اللفظ الكريم ، وإليك نماذج من تفسيره :

فى سورة الأعراف عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (١٤٨) « واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار » يقول ما نصه :(عجل كل إنسان ما أقبل عليه فأعرض به عن الله من أهل وولد ، ولا يتخلص من ذلك إلا بعد إفناء جميع حظوظه من أسبابه ، كما لم يتخلص عبدة العجل من عبادته إلا بعد قتل النفوس) اهـ(١) :

وفى سورة الشعراء عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٧٨ ، ٧٩ ، ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢) حكاية عن إبراهيم عليه السلام « الذى خلقنى فهو يهدين * والذى هو يطعمنى ويسقين * وإذا مرضت فهو يشفين * والذى يميتنى ثم يحيين * والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » يقول ما نصه :(« الذى خلقنى فهو يهدين » أى الذى خلقنى لعبوديته يهدينى إلى قربه « والذى هو يطعمنى ويسقين » قال : يطعمنى لذة الإيمان ويسقينى شراب التوكل والكفاية : « وإذا مرضت فهو يشفين » قال : يعنى إذا تحركت بغيره لغيره عصمنى ، وإذا ملت إلى شهوة من الدنيا منعها عنى . « والذى يميتنى ثم يحيين » قال : الذى يميتنى ثم يحيينى بالذكر . « والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » قال: أخرج كلامه على شروط الأدب بين الخوف والرجاء ، ولم يحكم عليه بالمغفرة) اهـ(٢) :

---

(١) ص ٦٠ .

(٢) ص ١٠٦

وفى سورة الصافات عند قوله تعالى فى الآية (١٠٧) « وفديناه بذبح عظيم » قال ما نصه : (إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أحب ولده بطبع البشرية، تداركه من الله فضله وعصمته حتى أمره بذبحه . إذ لم يكن المراد منه تحصيل الذبح ، وإنما كان المقصود تخليص السر من حب غيره بأبلغ الأسباب ، فلما خلص السر له ، ورجع عن عادة الطبع ، فداه بذبح عظيم) اهـ[1] .

فهذه المعانى كلها مقبولة ويمكن إرجاعها بدون تكلف إلى اللفظ القرآنى بدون معارضة شرعية أو عقلية .: والكتاب - فى الغالب - يسير على هذه الطريقة ، وهى لاشوب فيها .

---

(١) ص ١٢٠ .

٢ — حقائق التفسير

للسلمى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير ، هو أبو عبد الرحمن ، محمد بن الحسين بن موسى ، الأزدى السلمى ، المولود ٣٣٠ هـ ثلاثين وثلاثمائة من الهجرة ، وقيل غير ذلك .

كان رحمه الله شيخ الصوفية وعالمهم بخراسان ، له اليد الطولى فى التصوف، والعلم الغزير ، والسير على سنن السلف ، أخذ الطريق عن أبيه ، فكان موفقا فى جميع علوم الحقائق ومعرفة طريق التصوف . وكان على جانب عظيم من العلم بالحديث ، حتى قيل : إنه حدث أكثر من أربعين سنة إملاء وقراءة . وكتب الحديث بنيسابور ، ومرو . والعراق ، والحجاز ، وصنف سننا لأهل خراسان ، وأخذ عنه بعض الحفاظ : منهم الحاكم أبو عبد الله ، وأبو القاسم القشيرى ، وغيرهما ، ولقد خلف ـ رحمه الله ـ من الكتب ما يزيد على المائة : منها ما هو فى علوم القوم ، ومنها ما هو فى التاريخ ، ومنها ما هو فى الحديث ، ومنها ما هو فى التفسير .

ولكن السلمى مع وفرة جلالته ، وعظيم منزلته بين مريديه ، لم يسلم كغيره من الصوفية من الطعن عليه ،. قال الخطيب : قال محمد بن يوسف النيسابورى القطان : كان السلمى غير ثقة ، يضع للصوفية ، وكأن الخطيب لم يرض هذا الطعن فيه ، فقال حكاية هذا القول : (قدر أبى عبد الرحمن عند أهل بلده جليل ، وكان مع ذلك محمودا صاحب حديث) قال ابن السبكى صاحب طبقات الشافعية : (قول الخطيب فيه هو الصحيح ، وأبو عبد الرحمن ثقة ، ولا عبرة بهذا الكلام فيه) هذا ، وقد كانت وفاته سنة ٤١٢ هـ اثنتى عشرة وأربعمائة من الهجرة ، فرحمه الله رحمة واسعة[١] .

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة إلى طبقات المفسرين للسيوطى ص ٣١ ، وإلى طبقات الشافعية للسبكى جـ ٣ ص ٦٠ — ٦٢ :

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير فى مجلد واحد كبير الحجم ، ومنه نسختان مخطوطتان بالمكتبة الأزهرية ،

قرأت فى هذا التفسير ، فوجدته يستوعب جميع سور القرآن ، ولكنه لا يتعرض لكل الآيات بل يتكلم عن بعضها ويغضى عن بعضها الآخر ، وهو لا يتعرض فيه لظاهر القرآن ، وإنما جرى فى جميع ما كتبه على نمط واحد ، وهو التفسير الإشارى ، وهو إذ يقتصر على ذلك لا يعنى أن التفسير الظاهر غير مراد ؛ لأنه يصرح فى مقدمة تفسيره : أنه أحب أن يجمع تفسير أهل الحقيقة فى كتاب مستقل كما فعل أهل الظاهر .

ثم إن أبا عبد الرحمن السلمى . لم يكن له مجهود فى هذا التفسير أكثر من أنه جمع مقالات أهل الحقيقة بعضها إلى بعض ، ورتبها على حسب السور والآيات ، وأخرجها للناس فى كتاب سماه : حقائق التفسير .

وأهم من ينقل عنه السلمى فى حقائقه : جعفر بن محمد الصادق ، وابن عطاء الله السكندرى ، والجنيد ، والفضيل بن عياض ، وسهل بن عبد الله التسترى ، وغيرهم كثير .

وإليك بعض ما قاله فى مقدمته لتعلم أن السلمى حين اقتصر على المعانى الإشارية لم يجحد المعانى الظاهرة للقرآن ، ولتعلم أيضاً أن مجهوده فى هذا التفسير إنما هو الجمع والترتيب .

قال رحمه الله : (... لما رأيت المتوسمين بالعلوم الظواهر سبقوا فى أنواع فرائد القرآن : من قراءات ، وتفاسير ، ومشكلات ، وأحكام ، وإعراب ، ولغة ، ومجمل ، ومفسر ، وناسخ ، ومنسوخ ، ولم يشتغل أحد منهم بجمع فهم خطابه على لسان الحقيقة إلا آيات متفرقة ، نسبت إلى أبى العباس بن عطاء ، وآيات ذكر أنها عن جعفر بن محمد على غير ترتيب ، وكنت قد سمعت منهم فى ذلك حروفاً فاستحسنتها ، أحببت أن أضم ذلك إلى مقالتهم ، وأضم أقوال المشايخ أهل

الحقيقة إلى ذلك ، وأرتبه على السور حسب وسعى وطاقتى ، واستخرت الله فى جمع شيء من ذلك . واستعنت به فى ذلك وفى جميع أمورى ، وهو حسبى ونعم المعين) اهـ[1]

طعن بعض العلماء على هذا التفسير :

غير أن الاقتصار على المعانى الإشارية ، والإعراض عن المعانى الظاهرة فى هذا المؤلف ، ترك للعلماء مجالا للطعن على هذا التفسير وعلى صاحبه من أجله ، فالجلال السيوطى رحمه الله يذكر أبا عبدالرحمن السلمى فى كتابه طبقات المفسرين ضمن من صنف فى التفسير من المبتدعة ويقول : (وإنما أوردته فى هذا القسم لأن تفسيره غير محمود[2]) . والحافظ الذهبى رحمه الله يقول عن السلمى : (... وله كتاب يقال له حقائق التفسير ، وليته لم يصنفه . فإنه تحريف وقرمطة ، ودونك الكتاب فسترى العجب[3]) ويقول السبكى فى طبقات الشافعية : (وكتاب حقائق التفسير ، كثر الكلام فيه من قبل أنه اقتصر فيه على ذكر تأويلات ، ومحال للصوفيه ينبوعنها اللفظ[4] .

وقدمر بك آنفا أن الإمام أبا الحسن الواحدى قال :(صنف أبو عبدالرحمن السلمى حقائق التفسير ، فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر) .

وهذا هو الإمام ابن تيمية يطعن على تفسير السلمى من ناحية أخرى فيقول : (وما ينقل فى حقائق السلمى عن جعفر الصادق عامته كذب على جعفر كما قد كذب عليه فى غير ذلك[5]) اهـ .

رأينا فى هذه الطعون :

هذا ، وإن عد السيوطى السلمى فى ضمن المفسرين من أهل البدع غلو منه وإجحاف .

---

(١) ص ١ — ٢ . (٢) طبقات المفسرين ص ٣١ .

(٣) طبقات الشافعية للسبكى ج ٣ ص ٦١ .

(٤) المرجع السابق . (٥) منهاج السنة ج ٤ ص ١٥٥ .

وما قاله الذهبي من أن ما فى الحقائق تحريف وقرمطة — يريد أنه كتفسير القرامطة من الباطنية — فهذا غير صحيح ؛ لأن الرجل يقر الظواهر على ظواهرها ، والقرامطة بخلاف ذلك .

وأما ما قاله السبكى من أن السلمى قد اقتصر فى حقائقه على تأويلات للصوفية ينبو عنها اللفظ فهذه كلمة حق لا غبار عليها .

وأما قول الواحدى : إنه لو اعتقد أن ما فى الحقائق تفسير لكفر باعتقاده هذا فنقول فيه : إن أبا عبد الرحمن لم يعتقد أن هذا تفسير ، وإنما قال : إنه إشارات تخفى وتدق إلا على أربابها ، كما صرح بذلك فى مقدمة حقائق التفسير[1] .

وأما قول ابن تيمية : إن ما ينقل فى حقائق السلمى من التفسير عن جعفر عامته كذب على جعفر ، فهذه كلمة حق من ابن تيمية ؛ إذ أن غالب ما جاء فيه عن جعفر الصادق كله من وضع الشيعة عليه ، ولست أدرى كيف اغتر السلمى وهو العالم المحدث بمثل هذه الروايات المختلفة الموضوعة ...

نماذج من تفسير السلمى :

وإذ قد فرغنا من الحديث على حقائق التفسير ، فاسمع بعض ما جاء فيه ؛ لتحكم أنت بدورك عليه :

فى سورة النساء عند قول الله تعالى فى الآية (٦٦) « ولو أنا كتبنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم » يقول : (قال محمد ابن الفضل « اقتلوا أنفسكم » بمخالفة هواها « أو اخرجوا من دياركم » أى أخرجوا حب الدنيا من قلوبكم « مافعلوه إلا قليل منهم » فى العدد ، كثير فى المعانى ، وهم أهل التوفيق والولايات الصادقة) اهـ[2] .

وفى سورة الرعد عند قوله تعالى فى الآية (٣) « وهو الذى مد الأرض

---

(١) ص ١

(٢) ص ٤٩

وجعل فيها رواسى » يقول : (قال بعضهم : هو الذى بسط الأرض وجعل فيها أوتادا من أوليائه وسادة من عبيده فإليهم الملجأ ، وبهم النجاة ، فمن ضرب فى الأرض يقصدهم فاز ونجا ، ومن كان بغيته لغيرهم خاب وخسر . سمعت على بن سعيد يقول : سمعت أبا محمد الحريرى يقول : كان فى جوار الجنيد إنسان مصاب فى خربة ، فلما مات الجنيد وحملنا جنازته حضر الجنازة فلما رجعنا تقدم خطوات وعلاموضعا من الأرض عاليا ، فاستقبلنى بوجهه وقال : ياأبا محمد . . إنى لراجع إلى تلك الخربة وقدفقدت ذلك السيد ، ثم أنشد شعرا

وما أسفى من فراق قوم　　هم المصـــابيح ، والحصون
والمدن ، والمزن ، والرواسى　　والخير ، والأمن ، والسكون
لم تتغـير لنـا الليـالى　　حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب　　وكل ماء لنا عيون) اهـ (١)

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآيه (٦٣) « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءاً فتصبح الأرض مخضرة » يقول : (قال بعضهم : أنزل مياه الرحمةمن سحائب القربة ، وفتح إلى قلوب عباده عيونا من ماء الرحمة ، فانبتت فاخضرت بزينة المعرفة ، وأثمرت الإيمان ، وأينعت التوحيد . أضاءت بالمحبة فهامت إلى سيدها ، واشتاقت إلى ربها فطارت بهمتها ، وأناخت بين يديه ، وعكفت فأقبلت عليه ، وانقطعت عن الأكوان أجمع ، ذاك آواها الحق إليه ، وفتح لها خزائن أنواره ، وأطلق لها الخيرة فى بساتين الأنس ، ورياض الشوق والقدس) (٢) .

وفى سورة الرحمن عند قوله تعالى فى الآية (١١) « فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » يقول : (قال جعفر : جعل الحق تعالى فى قلوب أوليائه رياض أنسه ، فغرس فيها أشجار المعرفة ، أصولها ثابتة فى أسرارهم ، وفروعها قائمة بالحضرة فى المشهد ، فهم يجنون ثمار الأنس فى كل أوان ، وهو قوله تعالى

---

(١) ص ١٢٨　　(٢) ص ٢١٢

« فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام » أى ذات الألوان ، كل يجتنى منه لونا على قدر سعته ، وما كوشف له من بوادى المعرفة وآثار الولاية)[١]

وفى سورة الانفطار عند قوله تعالى فى الآيتين (١٣ و ١٤) « إن الأبرار لفى نعيم * وإن الفجار لفى جحيم » يقول : (قال جعفر : النعيم المعرفة والمشاهدة ، والجحيم النفوس ، فإن لها نيرانا تتقد[٢] .

وفى سورة النصر عند قوله تعالى فى أولها « إذا جاء نصر الله والفتح » يقول . (قال ابن عطاء الله : إذا شغلك به عما دونه فقد جاءك الفتح من الله تعالى ، والفتح هو النجاة من السجن البشرى بلقاء الله تعالى . .)[٣] اهـ

(١) ص ٣٤٤
(٢) ص ٣٨٥
(٣) ص ٤٠٢

٣ — عرائس البيان فى حقائق القرآن
لأبى محمد الشيرازى

التعريف بمؤلف هذا التفسير :

مؤلف هذا التفسير هو أبو محمد روزبهان بن أبى النصر ، البقلى ، الشيرازى، الصوفى ، المتوفى سنة ٦٦٦ هـ ست وستمائة من الهجرة النبوية[١]

التعريف بهذا التفسير :

جرى مؤلف هذا التفسير على نمط واحد وهو التفسير الإشارى ، ولم يتعرض للتفسير الظاهر بحال ، وإن كان يعتقد أنه لا بد منه أولا ، يدل على ذلك قوله فى المقدمة : (ولما وجدت أن كلامه الأزلى لا نهاية له فى الظاهر والباطن ، ولم يبلغ أحد إلى كماله وغاية معانيه ، لأن تحت كل حرف من حروفه بحراً من بحار الأسرار ، ونهراً من أنهار الأنوار ، لأنه وصف القديم وكمال لا نهاية لذاته ولا نهاية لصفاته .. قال الله تعالى « ولو أن مافى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله[٢] »وقال « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى[٣]» فتعرضت أن أغرف من هذه البحور الأزلية غرفات من حكم الأزليات ، والإشارات والأبديات ، التى تقصر عنها أفهام العلماء وعقول الحكماء ، اقتداء بالأولياء ، وأسوة بالخلفاء ، وسنة للأصفياء ، وصنفت فى حقائق القرآن ، ولطائف البيان ، وإشارة الرحمن فى القرآن ، بألفاظ لطيفة وعبارات شريفة ، وربما ذكرت تفسير آية لم يفسرها المشايخ ، ثم أردفت بعد قولى أقوال مشايخى مما عباراتها ألطف ، وإشاراتها أظرف ببركاتهم ، وتركت كثيراً منها ليكون كتابى أخف محملا وأحسن تفصيلا ، واستخرت الله تعالى فى ذلك ، واستعنت به ، ليكون

---

(١) كشف الظنون ج ٢ ص ٢١ ولم نقف على أكثر من هذا فى ترجمته

(٢) فى الآية (٢٧) من سورة لقمان (٣) فى الآية (١٠٩) من سورة الكهف

لمراده ، ومواطئاً لسنة رسوله وأصحابه وأولياء أمته ، وهو حسبي وحسب كل ضعيف .. وسميته بـ (عرائس البيان فى حقائق القرآن) .. الخ)[١] .

فأنت ترى من هذه المقدمة أن صاحبنا يعترف بالمعانى الظاهرة للقرآن ، ويقرر أن ما ذكره فى كتابه ما هو إلا سوانح سنحت له من حقائق القرآن ، وإشارات تجلت له من جانب الرحمن ، كما ترى فيها وصفه لكتابه والمسلك الذى سلكه فيه . غير أنى ألحظ من قوله (واستعنت به ليكون موافقاً لمراده ، ومواطئاً لسنة رسوله) أنه يريد أن يقرر أن كل ما فى كتابه من المعانى ليس إلا تفسيراً لكتاب الله وبياناً لمراده منه ، وهذا هو ما لا نقره عليه ، ولا نسلمه له ، لأن هذه المعانى الغريبة التى يأتى بها فى تفسيره لا يمكن أن تكون داخلة تحت مدلول اللفظ القرآنى ، ولا يعقل أن تكون مرادة لله تعالى من خطابه لأفراد الأمة . وحسبه أن نقره على أنها ذكر لنظير ما ورد به القرآن .

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير :

فى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (٩١) « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج » يقول : (وصف الله زمرة أهل المراقبات ، ومجالس المحاضرات ، والهائمين فى المشاهدات . والمستغرقين فى بحار الأزليات ، الذين أنحلوا جسومهم بالمجاهدات ، وأمرضوا نفوسهم بالرياضات ، وأذابوا قلوبهم بدوام الذكر ، وجولانها فى الفكر ، وخرجوا بعقائدهم الصافية ، عن الدنيا الفانية بمشاهدته الباقية ، بأن رفع عنهم بفضله حرج الامتحان ، وأبقاهم فى مجالس الأنس ورياض الإيقان ، وقال « ليس على الضعفاء » يعنى الذين أضعفهم حمل أوقار المحبة « ولا على المرضى » الذين أمرضهم مرارة الصبابات « ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون » الذين يتجردون عن الأكوان بتجريد التوحيد وحقائق التفريد « حرج » عتاب من جهة العبودية والمجاهدة ، لأنهم مقتولون بسيف المحبة ، مطروحون بباب الوصلة ، ضعفهم من الشوق ، ومرضهم من الحب ، وفقرهم من حسن الرضا ..) ا هـ[٢]

---

(١) جـ ١ ص ٢ — ٣ (٢) جـ ١ ص ٣٢٩

وفى سورة النحل عند قوله تعالى فى الآية (٨١) « والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكنانا وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر وسرابيل تقيكم بأسكم كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون » يقول : (يعنى ظلال أوليائه ؛ ليستظل بها المريدون من شدة حر الهجران ، ويأوون إليها من قهر الطغيان، وشياطين الإنس والجان؛ لأنهم ظلال الله فى أرضه ، لقوله عليه السلام « السلطان ظل الله فى أرضه ، يأوى إليه كل مظلوم » ، « وجعل لكم من الجبال أكنانا » أكنان الجبال : قلوب أكابر المعرفة ، وظلال أهل السعادة من أهل المحبة ، يسكن فيها المنقطعون إلى الله « وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر » جعل للعارفين سرابيل روح الإنس ، لئلا يحترقوا بنيران القدس « وسرابيل تقيكم بأسكم » سرابيل المعرفة وأسلحة المحبة ، لتدفعوا بها محاربة النفوس والشياطين ثم زاد نعمته ومنته عليهم بقوله « كذلك يتم نعمته عليكم » ....) اهـ[1] .

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٠ ، ٢١) « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين * لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين * » يقول : (.... إن طير الحقيقة لسليمان طير قلبه فتفقده ساعة ، وكان قلبه غائباً فى غيب الحق، مشغولا بالمذكور عن الذكر ، فتفقده وما وجده . فتعجب من شأنه .. أين قلبه إن لم يكن معه ؟... فظن أنه غائب عن الحق وكان فى الحق غائبا ، وهذا شأن غيبة أهل الحضور من العارفين ساعات لا يعرفون أين هم، وهذا من كمال استغراقهم فى الله. فقال « لأعذبنه عذاباً شديداً أو لأذبحنه أو ليأتينى بسلطان مبين » لأعذبنه بالصبر على دوام المراقبة والرعاية ، وألقينه فى بحر النكرة من المعرفة. ليفنى ثم يفنى عن الفناء « أو أذبحنه بسيف المحبة أو بسيف العشق . أو ليأتينى من الغيب بسواطع أنوار أسرار الأزل ....)[2] اهـ .

هذا .. والكتاب مطبوع فى جزءين ، يضمهما مجلد كبير ، وتوجد منه نسخة بالمكتبة الأزهرية .

---

(١) ص ٥٢٤ — ٥٢٥ (٢) جـ ٢ ص ٨١٣

٤ ـ التأويلات النجمية

لنجم الدين داية وعلاء الدولة السمنانى

التعريف بمؤلفى هذا التفسير :

ألف هذا التفسير نجم الدين داية ، ومات قبل أن يتمه ، فأكمله من بعده علاء الدولة السمنانى ، وسنوضح ذلك فيما بعد عند الكلام عن هذا التفسير ، إذاً فقد اشترك نجم الدين دايه وعلاء الدولة السمنانى فى هذا التفسير ، وإذاً لزم الكلام عن حياة كل من الشيخين .

أما نجم الدين داية :

فهو الشيخ نجم الدين ، أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن شاهادر الأسدى الرازى المعروف بداية ، المتوفى سنة ٦٥٤هـ أربع وخمسون وستمائة من الهجرة

كان من خيار الصوفية ، أخذ الطريق عن شيخه نجم الدين أبى الجناب المعروف بالبكرى ، وكان مقيما أول أمره بخوارزم ، ثم خرج منها أيام حروب جنكيزخان إلى بلاد الروم ، وهناك لقى صدر الدين القنوى وأخذ عنه ، ويقال : إنه استشهد فى حروب جنكيزخان ، كما يقال إنه مدفون بالشونزية ببغداد . قرب السرى السقطى والجنيد [1] :

وأما علاء الدولة السمنانى :

فهو أحمد بن محمد بن أحمد بن محمد السمنانى ، البيانانكى ، الملقب بعلاء الدولة ، وركن الدين ، والمولود سنة ٦٥٩ هـ تسع وخمسين وستمائة . تفقه وطلب الحديث على كثير من شيوخ عصره ، حتى برع فى العلم قال الذهبى : (كان إماماً جامعاً . كثير التلاوة ، وله وقع فى النفوس ، وكان يحط على ابن عربى ويكفره

---

(١) انظر نفحات الانس ص ٤٩١

وكان مليح الشكل ، حسن الخلق ، غزير الفتوة ، كثير البر يحصل له من أملاكه نحو تسعين ألفا فينفقها فى القرب . أخذ عن صدر الدين بن حمويه ، وسراج الدين القزوينى ، وإمام الدين بن على مبارك البكرى . وذكر أن مصنفاته تزيد على ثلاثمائة[١]) اهـ . وذكره الأسنوى فى طبقاته وقال : (كان عالماً مرشداً ، له كرامات وتصانيف فى التفسير والتصوف وغيرهما[٢]) ومن مصنفاته مدارج المعارج ، وتكملة التأويلات النجمية . وذكر صاحب كشف الظنون أن له تفسيراً كبيراً فى ثلاثة عشر مجلداً[٣] ، ولكن لم يبين لنا إن كان هذا التفسير على طريقة القوام أو طريقة المفسرين . وكان رحمه الله قد دخل بلاد التتار ، ثم رجع وسكن تبريز وبغداد ، ومات فى رجب سنة ٧٣٦ هـ ست وثلاثين وسبعمائة من الهجرة .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفيه فيه :

يقع هذا التفسير فى خمس مجلدات كبار ، ومنه نسخة مخطوطة بدار الكتب ، وهى التى رجعنا إليها . ينتهى المجلد الرابع عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧و١٨) من سورة الذاريات « كانوا قليلا من الليل مايهجعون ० وبالأسحار هم يستغفرون » وهذا هو نهاية ما وصل إليه نجم الدين داية فى تفسيره ، أما المجلد الخامس ، فهو تكملة لهذا التفسير ، كتبه علاء الدولة ، وجعله تتمة لكتاب نجم الدين داية ، وقد قدم لهذه التكملة بمقدمة طويلة لا يفهمها إلا من يعرف لغة القوم واصطلاحاتهم ، ولهذا يقول فيها : (... ولا يؤمن أحد بالذى قلته إلا بعد السلوك ، ومشاهدته من حيث العيان ما سمعه من هذا البيان ... [٤]) ثم بعد

---

(١) الدرر الكامنة جـ ١ ص ٢٥٠ — ٢٥٢ .

(٢) طبقات المفسرين للداودى ص ٢٨ .

(٣) كشف الظنون . جـ ١ ص ٢٣٨

(٤) جـ ٥ ص ؟ يلاحظ أننا لا نذكر رقم الصفحات ، لأن النسخة التى بأيدينا لم ترقم صفحاتها

أن فرغ من المقدمة ، فسر الفاتحة على طريقة القوم ، مع أن نجم الدين فسرها أول الكتاب . ثم بعد ذلك ابتدأ بسورة الطور ، وانتهى عند آخر القرآن . ويلاحظ أنه لم يكمل تفسير سورة الذاريات، التى مات نجم الدين قبل أن يفرغ من تفسيرها .

والذى يقرأ فى هذا التفسير ، ويقارن بين ما كتبه نجم الدين داية ؛ وبين ما كتبه السمنانى ، يلحظ أن هناك فرقا بين التفسيرين ؛ ذلك أن الجانب الذى كتبه نجم الدين يتعرض فيه أحيانا للتفسير الظاهر، ثم يعقبه بالتفسير الإشارى قائلا : والإشارة فيه إلى كذا وكذا ، وما يذكره من التفسير الإشارى سهل المأخذ ؛ لأنه لا يقوم على قواعـــد من الفلسفة الصوفية . كما أنه يربط بين الآيات .

أما الجانب الذى كتبه السمنانى فلا يعرج فيه على المعانى الظاهرة ، كما أنه ليس فيه السهولة التى فى الجانب الذى كتبه نجم الدين ، بل هو تفسير معقد مغلق ، والسر فى ذلك : أنه بناه على قواعد فلسفية صوفية، هذه القواعد ذكرها فى مقدمة التكملة ، وهى يطول ذكرها ، ويصعب فهمها ، ويكفى أن أشير هنا إلى بعض منها .

فمثلا نراه يقرر فى هذه المقدمة : أن كل آية لها سبعة أبطن، كل بطن يخالف الآخر . فالمعنى الذى يجرى على هـذا البطن يغاير المعنى الذى يجرى على البطن الآخر ، ثم يوضح لنا هذه البطون السبعة : فبطن مخصوص بالطبقـة القالبية ، وبطن مخصوص باللطيفة النفسية ، وبطن مخصوص باللطيفة القلبية ، وبطن مخصوص باللطيفة السرية ، وبطن مخصوص باللطيفة الروحية ، وبطن مخصوص باللطيفة الخفية ، وبطن مخصوص باللطيفة الحقية . ولتوضيح ذلك فسر لنا قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء « يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . الآية » على هذه البطون السبعة سبع تفسيرات ، كل يخالف الآخر . ثم هو لم يقف عند هذا الحـد ، بل تعداه إلى القول بأن لكل آية سبعين بطنا بل سبعمائة ، ووضح ذلك بكلام يطول ذكره .

وعلى الجملة ، فهذا التفسير المعروف بالتأويلات النجمية يعد من أهم كتب التفسير الإشارى ، وهو أقرب إلى الفهم من غيره لولا هذه التكملة . وإليك نماذج منه . بعضها لنجم الدين وبعضها لعلاء الدولة ؛ لتعرف الفرق بين التفسيرين وتلمس اختلاف المشربين .

من تأويلات نجم الدين :

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (٢٤٩) «فلما فصل طالوت بالجنود قال إن الله مبتليكم بنهر فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده . . .» يقول : (والإشارة فيها : أن الله تعالى ابتلى الخلق بنهر الدنيا ، وماء زينتها ، وما زين للخلق فيها ؛ لقوله تعالى « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين . . الآية[1] » ليظهر المحسن من المسىء ، وليميز الخبيث من الطيب ، والمقبول من المردود ، وكما قال تعالى «إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا[2] » ، ثم امتحنهم وقال تعالى « فمن شرب منه فليس منى ومن لم يطعمه فإنه منى » يعنى من أوليائى ، ومحبى وطلابى ، وله اختصاص بقربى ، وقبولى ، والتخلق بأخلاقى ، ونيل الكرامة منى . كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول : (أنا من الله ، والمؤمنون منى) « إلا من اغترف غرفة بيده » يعنى : من قنع من متاع الدنيا على مالا بد منه : من المأكول ، والمشروب ، والملبوس ، والمسكن ، وصحبة الخلق . على حد الاضطرار بمقدار القوام ، كما كان النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه . وكان يقول (اللهم ارزق آل محمد قوتا (أى ما يمسك رمقهم ...[3]) اه .

وفى سورة التوبة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٣) « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين»

---

(١) الآية (١٤) من سورة آل عمران .
(٢) الآية (٧) من سورة الكهف .
(٣) جـ ١

يقول (« يا أيها الذين آمنوا » أى صدقوا محمداً صلى الله عليه وسلم فيما دلهم إلى الله بإذنه . « قاتلوا الذين يلونكم من الكفار » أى جاهدوا كفار النفس وصفاتها بمخالفة هواها صفاتها ، وتبديل وحملها على طاعة الله : والمجاهدة فى سبيله ، فإنها تحجبك عن الله « وليجدوا فيكم غلظة » أى عزيمة صادقة فى فنائها بترك شهواتها ولذاتها ومستحسناتها ، ومنازعتها فى هواها ، وحملها على المتابعة فى طلب الحق « واعلموا أن الله مع المتقين » بجذبة الوصول ، ليتقوا به عما سواه ، كما يتقى المرء بترسه عن النشاب ، والرمح والسيف)[1] .

وفى سورة يوسف عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٠ و ٣١) « وقال نسوة فى المدينة امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً إنا لنراها فى ضلال مبين فلما سمعت بمكرهن أرسلت إليهن وأعتدت لهن متكئاً وآتت كل واحد منهن سكينا وقالت اخرج عليهن فلما رأينه أكبرنه وقطعن أيديهن وقلن حاش لله ما هذا بشراً إن هذا إلا ملك كريم » يقول : (يشير بالنسوة إلى صفات البشرية النفسانية من البهيمية ، والسبعية ، والشيطانية فى مدينة الجسد « أمراة العزيز » وهى الدنيا « تراود فتاها عن نفسه » تطالب عبدها وهو القلب . كان عبداً فى البداية لحاجته إليها للتربية . فلما كمل القلب وصفا عن دنس البشرية استأهل المنظر الآلهى ، فتجلى له الرب تبارك وتعالى فتنور القلب بنور جماله وجلاله ، فأحتاج إليه كل شىء ، وسجد له حتى الدنيا « قد شغفها حباً » أى أحبته الدنيا غاية الحب ، لما ترى عليه آثار جمال الحق . ولما لم يكن لنسوة صفات البشرية أطلاع على جمال يوسف القلب ، كن يلمن الدنيا على محبته ، فقلن « إنا لنراها فى ضلال مبين » « فلما سمعت » زليخا الدنيا « بمكرهن » فى ملامتها « أرسلت إليهن » أى الصفات « وأعدت لهن متكئاً » أى هيأت طعمة مناسبة لكل صفة منها « وآتت كل وحدة منهن سكينا » وهو سكين الذكر « وقالت » زليخا الدنيا ليوسف القلب « اخرج عليهن » وهو إشارة إلى غلبة أحوال القلب على صفات البشرية « فلما رأينه » أى وقعن على جماله وكماله

---

(١) ٢ ج ٢

« أكبرنه » أكبرن جماله أن يكون جمال بشر « وقلن حاش لله ماهذا بشراً » أى جمال بشر « إن إلا ملك كريم » ما هذا إلا جمال ملك كريم ، وهو الله تعالى بقراءة من قرأ ملك بكسر اللام)[1] اهـ .

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآيتين (١٧ و ١٨) « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير فهم يوزعون * حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنكم سليمان وجنوده وهم لايشعرون » يقول . (« وحشر لسليمان جنوده من الجن » أى صفته الشيطانية « والإنس » أى صفته النفسانية « والطير » أى صفته الملكية « فهم يوزعون » عن طبيعتهم بالشريعة . ليسخروا لسليمان القلب وينقادوا له « حتى إذا أتوعلى وادى النمل » وهو هوى النفس الحريصة على الدنيا وشهواتها « قالت نملة » وهى النفس اللوامة « يا أيها النمل » أى الصفات النفسانية « ادخلوا مساكنكم » محالكم المختلفة وهى الحواس الخمس « لايحطمنكم » لايهلكنكم « سليمان » القلب « وجنوده » المسخرة له « وهم لايشعرون » لأنهم الحق ، وأنتم الباطل ، فإذا جاء الحق زهق الباطل ، كما أن الشمس إذا طلعت تبطل الظلمة وتنفيها ، وهى لاتشعر بحال الظلمة وما أصابها)[2] اهـ .

من تأويلات السمنانى :

فى سورة التحريم عند قوله تعالى فى الآية (١١) : « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » يقول : (« وضرب الله مثلا للذين آمنوا » يعنى القوى المؤمنة من قوى النفس اللوامه « امرأة فرعون » يعنى القوةالصالحة القابلة تحت القوة الفاسدة الفاعلة المستكبرة ، ماضرها كفر القوة الفاعلة الفاسدة إذا كانت صالحة هى بنفسها «إذ قالت رب ابن لى عندك بيتاً فى الجنه ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » يعنى إذ قالت اللطيفة الصالحة القابلة فى مناجاتها مع ربها : ابن لى بيتا فى أخص أطوار القلب .... وقالت أيضاً فى مناجاتها : نجنى من هذه القوة الفاسدة والفاعلة وعملها . ونجنى من أنوانها وقواها الظالمة ...)[3] اهـ .

(١) جـ ٣ ص ؟ (٢) جـ ٤ ص ؟ . (٣) جـ ٥ ص ؟

وفى سورة الشمس عند قوله تعالى فى الآيات (١١) وما بعدها « كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث اشقاها . . . (إلى آخر السورة) » يقول : (« كذبت ثمود بطغواها إذ انبعث اشقاها » يعنى إذ انبعثت اللطيفة، وأسرعت إلى الطاغية انبعث اشقى قوى النفس على إثر اللطيفة الصالحة، ليعقر ناقة شوقها « فقال لهم رسول الله » اى اللطيفة « ناقة الله وسقياها » اى احذروا عقر ناقة الشوق وشربها من عين الذكر « فكذبوه فعقروها » بتكذيبهم صالح اللطيفة النفسية، وعقروا ناقة الشوق « فدمدم عليهم ربهم بذنبهم » اى اهلكهم الله « فسواها » اى عمهم بذلك العذاب « ولا يخاف عقباها » ولا يخاف القوى العاقرة فى عقر ناقة الشوق عاقبة الأمر ، فأهلكهم بطغيانهم لرسوله وتكذيبهم إياه)[1] اهـ .

٥ — التفسير المنسوب لابن عربى

من مؤلف هذا التفسير ؟

هذا التفسير طبع مجرداً فى مجلدين ، وطبع على هامش عرائس البيان فى حقائق القرآن ، لأبى محمد بن أبى النصر الشيرازى ، الصوفى ، الذى تكلمنا عنه فيما مضى . وكلتا النسختين ينسب فيهما التفسير لابن عربى ، وبعض الناس يصدق هذه النسبة ، ويعتقد أن هذا التفسير من عمل ابن عربى نفسه ، والبعض الآخر لا يصدق أن هذا التفسير من عمل ابن عربى ، بل يرى أنه من عمل عبد الرزاق القاشانى ، وإنما نسب لابن عربى : ترويجا له بين الناس ، وتشهيراً له بشهرة ابن عربى . وممن يرى هذا الرأى الأخير : المرحوم الشيخ محمد عبده فى مقدمة التفسير التى اقتبسها المرحوم الشيخ رشيد رضا من درسه ، ورواها عنه بالمعنى ، ووضعها فى مقدمة تفسير المنار . وذلك حيث يذكر وجوه التفسير يعد منها التفسير الإشارى ، ثم يقول : (وقد اشتبه على الناس فيه كلام الباطنية بكلام الصوفية ، ومن ذلك : التفسير الذى ينسبونه للشيخ الأكبر محي الدين ابن عربى ، وإنما هو للقاشانى الباطنى الشهير ، وفيه من النزعات ما يتبرأ منه دين الله وكتابه العزيز)[1] اه .

ونحن مع الأستاذ الإمام فى أن هذا التفسير للقاشانى ، لا « لابن عربى » وإن كنا لا نوافقه على دعواه أن القاشانى من الباطنية ، كما سنوضحه بعد إن شاء الله تعالى .

هذا ، وإنى حين أميل لهذا الرأى — أعنى كون التفسير للقاشانى — أؤيده بما يأتى :

أولا : أن جميع النسخ الخطية منسوبة للقاشانى ، والاعتماد على النسخ المخطوطة أقوى ، لأنها الأصل الذى أخذت عنه النسخ المطبوعة .

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ١٨ .

ثانياً : قال فى كشف الظنون : (تأويلات القرآن) المعروف بتأويلات القاشانى ، هو تفسير بالتأويل على اصطلاح أهل التصوف إلى سورة (ص) للشيخ كمال الدين أبى الغنائم عبد الرزاق جمال الدين الكاشى السمرقندى ، المتوفى سنة ٧٣٠ ﻫ [١] ثلاثين وسبعمائة ، أوله الحمد لله الذى جعل مناظم كلامه مظاهر حسن صفاته ... الخ [٢]) وقد رجعنا إلى مقدمة التفسير المنسوب لابن عربى ، فوجدنا أوله هذه العبارة المذكورة بنصها .

ثالثاً : فى تفسير سورة القصص من هذا الكتاب عند قوله تعالى فى الآية (٣٢) « واضمم إليك جناحك من الرهب » يقول : (.... وقد سمعت شيخنا نور الدين عبد الصمد قدس روحه العزيز فى شهود الوحدة ومقام الفناء عن أبيه أنه ... الخ [٣]) . ونور الدين هذا هو نور الدين عبد الصمد بن على النطنزى الأصفهانى ، والمتوفى فى أواخر القرن السابع ، وكان شيخا لعبد الرزاق القاشانى ، المتوفى سنة ٧٣٠ ﻫ ثلاثين وسبعمائة من الهجرة ، كما يستفاد ذلك من كتاب نفحات الأنس [٤] فى مناقب الأولياء ص ٥٣٤ — ٥٣٧ . وغير معقول أن يكون نور الدين عبد الصمد النطنزى المتوفى فى أواخر القرن السابع الهجرى شيخا لابن عربى المتوفى سنة ٦٣٨ﻫ ثمان وثلاثين وستمائة من الهجرة .

لهذا كله نستطيع أن نؤكد أن هذا التفسير ليس لابن عربى ، وإنما هو لعبد الرزاق القاشانى الصوفى .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه .

هذا التفسير جمع مؤلفه فيه بين التفسير الصوفى النظرى ، وبين التفسير

(١) فى الاصل سنة ٨٨٧ وهو خطأ .

(٢) كشف الظنون ص ١٨٧ . ولكن لم نعرف من أتم هذا التفسير والكتاب من أوله إلى آخره يسير على طريقة واحدة

(٣) تفسير ابن عربى ج ٢ ص ١١٦

(٤) هذا الكتاب باللغة التركية ؛ وقد رجعنا اليه بمعونة الاستاذ الشيخ زاهد الكوثرى وكيل المشيخة الاسلامية العثمانية بدار الخلافة سابقا

الإشارى ، ولم يتعرض فيه للكلام عن التفسير الظاهر بحال من الأحوال .

أما ما فيه من التفسير الصوفى النظرى : فغالبه يقوم على مذهب وحدة الوجود ، ذلك المذهب الذى كان له أثره السيىء فى تفسير القرآن الكريم .

وأما ما فيه من تفسير إشارى : فكثير منه لا نفهم له معنى ، ولا نجد له من سياق الآية أو لفظها ما يدل عليه ، ولو أن المؤلف - رحمه الله - كان واضحاً فى كلامه ، كما كان التسترى واضحا ، أو جمع بين التفسير الظاهر والتفسير الباطن لهان الأمر ، ولكنه لم يفعل شيئاً من ذلك ، مما جعل الكتاب مغلقاً ، وموهما لمن يقرؤه أن هذا مراد الله من كلامه ، كما كان هذا هو السبب الذى من أجله قال الأستاذ الإمام فى القاشانى : إنه باطنى . وأنا مع اعترافى بأن الكتاب فى جملته أشبه ما يكون بتفسير الباطنية ، من ناحية ما فيه من المعانى التى تقوم على نظرية وحدة الوجود ، وما فيه من المعانى الإشارية البعيدة — مع اعترافى بهذا أخالف كل من يقول : إن القاشانى من الباطنية . ذلك لأن تاريخ الرجل يشهد له بأنه كان من المتصوفة المشهود لهم بالزهد والورع . وأيضاً فإنا نعلم أن الباطنية ينكرون المعانى الظاهرية للقرآن ، ويقولون : إن المراد هو الباطن وحده ، أما صاحبنا ، فلم يذهب هذا المذهب ، بل نجده فى مقدمة تفسيره يعترف بأن الظاهر مراد ولا بد منه أولا ، كما نبه على أنه لا يحوم فى كتابه هذا حول ناحية التفسير الظاهر ، ولعله فعل ذلك لأنه وجد من المفسرين من اعتنى بالظواهر دون الإشارات ، فأراد هو أن يعتنى بالناحية الإشارية دون الناحية الظاهرية للقرآن . فألف كتابه على النحو الذى نراه وإليك بعض ما جاء فى هذه المقدمة ، لتعلم أن الرجل ليس باطنيا ، ولتعلم أيضاً منهجه الذى نهجه فى تفسيره ، وطريقته التى سار عليها فى شرحه لكتاب الله . قال رحمه الله :

(وبعد ، فإنى طالما تعهدت تلاوة القرآن ، وتدبرت معانيه بقوة الإيمان ، وكنت مع المواظبة على الأوراد ، حرج الصدر . قلق الفؤاد ، لا ينشرح بها قلبى ولا يصرفنى عنها ربى ، حتى استأنست بها فألفتها ، وذقت حلاوة كأسها وشربتها ، فإذا أنا بها نشيط النفس ، فلج الصدر ، متسع البال ، منبسط القلب ،

فسيح السر ، طيب الوقت والحال ، مسرور الروح بذلك الفتوح ، كأنه دائماً فى غبوق وصبوح ، تنكشف لى تحت كل آية من المعانى ما يكل بوصفه لسانى لا القدرة تفى بضبطها وإحصائها ، ولا القدرة تصبر عن نشرها وإفشائها ، فتذكرت خبر من أنبى ما ازدهانى ، مما وراء المقاصد والأمانى ، قول النبى الأمى الصادق عليه أفضل الصلوات من كل صامت وناطق : (ما نزل من القرآن آية إلا ولها ظهر وبطن ، ولكل حرف حد ولكل حد مطلع) وفهمت منه أن الظهر : هو التفسير ، والبطن : هو التأويل ، والحد : ما يتناهى إليه المفهوم من معنى الكلام والمطلع مايصعد إليه منه فيطلع على شهود الملك العلام وقد نقل عن الإمام المحقق السابق جعفر بن محمد الصادق عليه السلام أنه قال لقد تجلى الله لعباده فى كلامه ، ولكن لايبصرون، وروى عنه عليه السلام أنه خرمغشيا عليه وهو فى الصلاة فسئل عن ذلك فقال : مازلت أردد الآية حتى سمعتها من المتكلم بها . . . فرأيت أن أعلق بعض مايسنح لى فى الأوقات من أسرار حقائق البطون وأنوار شوارق المطلعات ، دون مايتعلق بالظواهر والحدود ، فإنه قد عين لها حد محدود ، وقيل : من فسر برأيه فقد كفر . وأما التأويل فلا يبقى ولا يذر ، فإنه يختلف بحسب أحوال المستمع وأوقاته ، فى مراتب سلوكه وتفاوت درجاته ، وكلما ترقى عن مقامه انفتح له باب فهم جديد ، واطلع به على لطيف معنى عتيد ، فشرعت فى تسويد هذه الأوراق بما عسى يسمح به الخاطر على سبيل الانفاق ، غير حائم بقيعة التفسير ، ولا خائض فى لجة من المطلعات مالا يسعة التقرير مراعيا لنطق الكتاب وترتيبه ، غير معيد لما تكرر منه أو تشابه فى أساليبه ، وكل ما لا يقبل التأويل عندى ، أو لايحتاج إليه فما أوردته أصلا ، ولا أزعم أنى بلغت الحد فيما أوردته كاملا فإن وجوه الفهم لا تنحصر فيما فهمت ، وعلم الله لا يتقيد بما علمت ، ومع ذلك فما وقف الفهم منى على ماذكر فيه ، بل ربما لاح لى فيما كتب من الوجوه ماتهت فى محاويه ، وما يمكن تأويله من الأحكام الظاهر منها إرادة ظاهرها فما أولته إلا قليلا ، ليعلم به أن للفهم إليه سبيلا ، ويستدل بذلك على نظائرها إن جاوز مجاور عن ظواهرها ، إذ لم يكن فى تأويلها بد من تعسف ، وعنوان المروءة ترك التكلف

وعسى أن يتجه لغيرى وجوه أحسن منها طوع القياد ، فإن ذلك سهل لمن تيسر له من أفراد العباد . ولله تعالى فى كل كلمة كلمات ينفد البحر دون نفادها ، فكيف السبيل إلى حصرها وتعدادها . ولكنها أنموذج لأهل الذوق والوجدان يحتذون على حذوها عند تلاوة القرآن فينكشف لهم ما استعدوا له من مكنونات علمه ، ويتجلى عليهم ما استطاعوا له من خفيات غيبه ، والله الهادى لأهل المجاهدة ، إلى سبيل المكاشفة والمشاهدة ، ولأهل الشوق إلى مشارب الذوق ، إنه ولى التحقيق ، وبيده التوفيق [1]) اهـ .

فمن هذه المقدمة يمكنك أن تحكم على الكاشانى بأنه صوفى لا باطنى ، كما أنك تجد فيها منهجه الذى سار عليه فى تفسيره ، ولو تصفحت الكتاب لوجدت أنه سار على الطريقة التى رسمها لنفسه ولم يحد عنها ، وإليك نماذج منه .

نماذج من التفسير الاشارى :

فى سورة البقرة عند قوله تعالى فى الآية (١٢٦) « وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير » يقول ما نصه : (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا الصدر الذى هو حرم القلب ، بلدا آمنا من استيلاء صفات النفس ، واغتيال العدو اللعين ، وتخطف جن القوى البدنية أهله ، وارزق أهله من ثمرات معارف الروح أو حكمه أو أنواره ، « من آمن منهم بالله واليوم الآخر » : من وحد الله منهم وعلم المعاد . « قال ومن كفر » : أى ومن احتجب أيضاً من الذين سكنوا الصدر ، ولا يجاوزون حده بالترقى إلى مقام العين ، لاحتجابهم بالعلم الذى وعاؤه الصدر ، فأمتعه قليلا من المعانى العقلية ، والمعلومات الكلية ، النازلة إليهم من عالم الروح على قدر ما تعيشوا به ، ثم أضطره إلى عذاب نار الحرمان والحجاب ، وبئس المصير مصيرهم لتعذبهم بنقصانهم . وتألمهم بحرمانهم [2]) اهـ .

---

(١) ج ١ ص ٣ — ٥ (٢) ج ١ ص ٥٧

وفى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (٩٥) «إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ومخرج الميت من الحى ذلكم الله فأنى تؤفكون» يقول ما نصه : (إن الله فالق حبة القلب بنور الروح عن العلوم والمعارف . ونوى النفس بنور القلب عن الأخلاق والمكارم ، ويخرج حى القلب عن ميت النفس تارة باستيلاء نور الروح عليها ، ومخرج ميت النفس عن حى القلب أخرى بإقباله عليها ، واستيلاء الهوى وصفات النفس عليه ، ذلكم الله القادر على تقليب أحوالكم ، وتقليبكم فى أطواركم ، فأنى تصرفون عنه إلى غيره[1]) .

نماذج التفسير المبنى على وحدة الوجود :

فى سورة آل عمران عند قوله تعالى فى الآية (١٩١) «ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار» يقول : (ربنا ما خلقت هذا الخلق باطلا ، أى شيئا غيرك ، فإن غير الحق هو الباطل، بل جعلته أسماءك ومظاهر صفاتك . سبحانك : ننزهك أن يوجد غيرك أى يقارن شىء فردانيتك ، أو يثنى وحدانيتك . . .)[2] اه

وفى سورة الواقعة عند قوله تعالى فى الآية (٥٧) «نحن خلقناكم فلولا تصدقون» يقول : (نحن خلقناكم بإظهاركم بوجودنا وظهورنا فى صوركم[3]) اه .

وفى سورة الحديد عند قوله تعالى فى الآية (٤) «وهو معكم أينما كنتم» يقول : (وهو معكم أينما كنتم بوجودكم به ، وظهوره فى مظاهركم[4]) اه .

وفى سورة المجادلة عند قوله تعالى فى الآية (٧) «ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم .. الآية» يقول : (لا بالعدد والمقارنة ، بل بامتيازهم عنه بتعيناتهم . واحتجابهم عنه بماهياتهم وإنياتهم ، وافتراقهم منه بالإمكان اللازم

---

(١) ج ١ ص ٢١٥ .
(٢) ج ١ ص ١٤١
(٣) ج ٢ ص ٢٩١
(٤) ج ٢ ص ٢٩٤

لماهياتهم وهوياتهم ، وتحققهم بوجوبه اللازم لذاته ، واتصاله بهم بهويته المندرجة فى هوياتهم ، وظهوره فى مظاهرهم ، وتستره بماهياتهم ووجوداتهم المشخصة ، وإقامتها بعين وجوده ، وإيجابهم بوجوبه ، فبهذه الاعتبارات هو رابع معهم ، ولو اعتبرت الحقيقة لكان عينهم ؛ ولهذا قيل : لولا الاعتبارات لارتفعت الحكمة)[1] اهـ .

وفى سورة المزمل عند قوله تعالى فى الآيتين (٨ و ٩) « واذكر اسم ربك وتبتل إليه تبتيلا * رب المشرق والمغرب . . . » يقول : (واذكر اسم ربك الذى هو أنت ، أى اعرف نفسك ، واذكرها ، ولا تنسها ، فينسك الله ، واجتهد لتحصيل كمالها بعد معرفة حقيقتها . . . . « رب المشرق والمغرب » أى الذى ظهر عليك نوره ، فطلع من أفق وجودك بإيجادك ، أو المغرب الذى اختفى بوجودك ، وغرب نوره فيك واحتجب بك)[2] اهـ

هذه بعض النماذج التى تكشف لك عن روح هذا التفسير ، ولو أنك تصفحت هذا الكتاب لوجدته يقوم فى الغالب على مذهب صاحبه فى وحدة الوجود ، ولعل هذا هو السر الذى من أجله نسب الكتاب لابن عربى ؛ فإن ابن عربى يقول بوحدة الوجود ، ويبنى كثيراً من تفسيره لبعض الآيات على هذا المذهب ، فلاتحاد المذاهب وتشابه التفسير وقع الإلتباس ، فنسب التفسير لابن عربى ، أو قصدت النسبة ليروج الكتاب كما قلنا ، وأمن من فعل ذلك من افتضاح أمره ؛ اعتماداً على الاتحاد فى المذهب ، والتشابه فى التفسير .

وإذ قد جرنا الحديث إلى ابن عربى ، فأرى إتماما للفائدة أن أذكر نبذة عن حياة هذا الرجل ، وعن مذهبه فى التفسير ، وليقف القارىء بعد ذلك على مقدار التشابه بين ابن عربى والقاشانى فى فهم كتاب الله تعالى ، والكشف عن معانيه .

---

(١) جـ ٢ ص ٣٠٠

(٢) جـ ٢ ص ٣٥٢

ابن عربى ومذهبه
فى تفسير القرآن الكريم

ترجمة ابن عربى[1] :

هو أبو بكر محيي الدين محمد بن على بن محمد بن أحمد بن عبد الله الحاتمى ، الطائى ، الأندلسى ، المعروف بابن عربى بدون أداة التعريف ، كما اصطلح على ذلك أهل المشرق ، فرقاً بينه وبين القاضى أبى بكر بن العربى صاحب أحكام القرآن . وكان بالمغرب يعرف بابن العربى بالألف واللام ، كما كان يعرف فى الأندلس بابن سراقة .

ولد بمرسية سنة ٥٦٠ هـ ستين وخمسمائة من الهجرة ثم انتقل إلى إشبيلية سنة ٥٦٨ هـ ثمان وستين وخمسمائة ، وبقى بها نحواً من ثلاثين عاماً ، تلقى فيها العلم على كثير من الشيوخ حتى ظهر نجمه ، وعلا ذكره ، وفى سنة ٥٩٨ هـ ثمان وتسعين وخمسمائة ، نزح إلى المشرق وطوف فى كثير من البلاد : فدخل الشام ، ومصر ، والموصل ، وآسيا الصغرى ، ومكة ، وأخيراً ألقى عصاه واستقر به النوى فى دمشق ، وتوفى بها فى سنة ٦٣٨ هـ ثمان وثلاثين وستمائة ، ودفن بها ، فرحمه الله رحمة واسعة .

ابن عربى بين أعدائه ومريديه :

كان ابن عربى شيخ المتصوفة فى وقته ، وكان له أتباع ومريدون ، يعجبون به إلى حد كبير ، حتى لقبوه فيما بينهم بالشيخ الأكبر ، والعارف بالله ، كما كان له أعداء ينقمون عليه ، ويرمونه بالكفر والزندقة ، وذلك لما كان يدين به

---

(١) رجعنا فى هذه الترجمة لترجمته المذكورة فى آخر الفتوحات ، وهى ملخصة من نفح الطيب ، وإلى شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩١ ، وإلى دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ، العدد الثالث ، ودائرة المعارف للبستانى المجلد الاول ص ٥٩٩

من القول بوحدة الوجود ، ولما كان يصدر عنه من المقالات الموهمة ، التي تحمل في ظاهرها كل معاني الكفر والزندقة ، فمن المعجبين بابن عربي : قاضي القضاة مجد الدين محمد بن يعقوب الشيرازي الفيروزابادي صاحب القاموس ، وقد كتب كتاباً يدافع فيه عنه ، رداً على رضي الدين بن الخياط الذي كتب عن عقيدة ابن عربي ورماه بالكفر . وكمال الدين الزملكاني ، من أكابر مشايخ الشام ، والشيخ صلاح الدين الصفدي ، والحافظ السيوطي ، الذي ألف في الدفاع عنه كتاباً سماه (تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربي) وسراج الدين البلقيني ، وتقي الدين بن السبكي ، وغيرهم .

ومن الناقمين عليه : ابن الخياط السابق ذكره ، والحافظ الذهبي ، وابن تيمية عدو الصوفية على الإطلاق . ولقد بلغ من عداوة بعض الناس لابن عربي أنهم حاولوا اغتياله بمصر ، ولكن الله سلمه وأنجاه .

مكانته العلمية :

لم تقتصر براعة ابن عربي على التصوف ، بل برع مع ذلك في كثير من العلوم ، فكان عارفا بالآثار والسنن . أخذ الحديث عن جمع من علمائه . وكان شاعراً وأديباً ، ولذلك كان يكتب الإنشاء لبعض ملوك الغرب . وقد بلغ مبلغ الاجتهاد والاستنباط ، وتأسيس القواعد والمقاصد التي لا يحيط بها إلا من طالعها ، ووقف على حقيقتها . ويقال إنه كان من أنصار مواطنه ابن حزم ومذهبه الظاهري ، ولكنه مع ذلك أبطل التقليد .

مذهب ابن عربي في وحدة الوجود :

أما مذهبه في وحدة الوجود فهو : أنه يرى أن الوجود حقيقة واحدة . ويعد التعدد والكثرة أمراً قضت به الحواس الظاهرة (وقد أداه قوله بوحدة الوجود إلى قوله بوحدة الأديان ، لا فرق بين سماويها وغير سماويها ، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم ، وصور جميع المعبودات ، والغاية الحقيقية من عبادة العبد لربه : هو التحقق من وحدته الذاتية معه . وإنما الباطل

من العبادة : أن يقصر العبد ربه على مجلى واحد دون غيره ، ويسميه إلها[١]) .

(وبالجملة ، فمنزلة ابن عربى العلمية كبيرة ، ولا أدل على ذلك من مؤلفاته الكثيرة التى تدل على سعة باعه ، وتبحره فى العلوم الظاهرة والباطنة ، وقد بلغ ما بقى منها إلى اليوم مائة وخمسون كتابا ، ويظهر أن هذا العدد ليس إلا نصف ما ألفه ابن عربى فى الواقع[٢]) . وأهم هذه المؤلفات الفتوحات المكية ، الذى ذاع صيته . وكلف به كثير من الرجال ، ثم فصوص الحكم ، وله ديوان فى الأشعار الصوفية ، وكتاب الأخلاق ، وكتاب مجموع الرسائل الإلهية ، وغير ذلك من مؤلفاته الكثيرة .

غير أن هذه المؤلفات ، يوجد فى تضاعيفها كثير من الكلمات المشكلة ، التى سببت خوض الناس فى عقيدته ، ورميهم إياه بالكفر والزندقة ، ولكن أتباعه ومريديه ومن أعجب به من العلماء لم يأخذوا هذه الألفاظ على ظواهرها بل قالوا : إن ما أوهمته تلك الظواهر ليس هو المراد ، وإنما المراد أمور اصطلح عليها متأخرو أهل الطريق غيرة عليها . حتى لا يدعيها الكذابون . وقد قال السيوطى فى كتابه تنبيه الغبى على تنزيه ابن عربى : (والقول الفصل فى ابن عربى : اعتقاد ولايته ، وتحريم النظر فى كتبه ؛ فقد نقل عنه هو أنه قال : نحن قوم يحرم النظر فى كتبنا . قال السيوطى : وذلك لأن الصوفية تواضعوا على ألفاظ اصطلحوا عليها . وأرادوا بها معانى غير المعانى المتعارفة ، فمن حمل ألفاظهم على معانيها المتعارفة بين أهل العلم الظاهر كفر . نص على ذلك الغزالى فى بعض كتبه وقال : إنه شبيه بالمتشابه من القرآن والسنة ، من حمله على ظاهره كفر)[٣] .

ومما استدلوا به على أن ابن عربى لا يريد الظاهر الموهم من كلامه : مايروونه عنه من أنه أنشد بعض إخوانه هذا البيت وهو من نظمه :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراه ولا يرانى

---

(١) هامش دائرة المعارف الإسلامية المجلد الاول ص ٢٣٣

(٢) دائرة المعارف الاسلامية المجلد الاول ص ٢٣٦

(٣) شذرات الذهب جـ ٥ ص ١٩١

فاعترض عليه السامع وقال : كيف تقول إنه لا يراك ، وأنت تعلم أنه يراك فقال مرتجلا :

يا من يرانى مجرما ولا أراه آخذا
كم ذا أراه منعما ولا يرانى لائذا (١)

قالوا : فهذا يدل على أن كلام الشيخ لا يراد به ظاهره ، وإنما له محامل تليق به .

ومن العلماء من ينزه ابن عربى عن هذه العبارات الموهمة ويقول : إن ما جاء من ذلك فهو مدسوس عليه ، ويروون فى ذلك أن الشعرانى الذى اختصر الفتوحات قال : (وقد توقفت حال الاختصار فى مواضع كثيرة منه ، لم يظهر لى موافقتها لما عليه أهل السنة والجماعة . فحذفتها من هذا المختصر . وربما سهوت فتبعت ما فى الكتاب ، كما وقع للبيضاوى مع الزمخشرى ، ثم لم أزل كذلك أظن أن المواضع التى حذفت ثابتة عن الشيخ محيى الدين ، حتى قدم علينا الأخ العالم الشريف شمس الدين السيد محمد بن السيد أبى الطيب المدنى المتوفى سنة ٩٥٥ هـ فذاكرته فى ذلك ، فأخرج إلى نسخة من الفتوحات التى قابلها على النسخة التى عليها خط الشيخ محيى الدين نفسه بقونيه ، فلم أرفيها شيئا مما توقفت فيه وحذفته ، فعلمت أن النسخ التى فى مصر الآن كلها كتبت من النسخة التى دسوا على الشيخ فيها ما يخالف عقائد أهل السنة والجماعة ، كما وقع له ذلك فى كتاب الفصوص وغيره (٢)) .

ومهما يكن من شىء ، فابن عربى معقد فى أفكاره ، موهم فى ألفاظه وتعابيره مشكل فى أكثر ما يقول . ومع كل هذا فلا أتهمه فى عقيدته ، لجهلى باصطلاحات القوم ورموزهم . وكلمة الإنصاف فيه — كما أعتقد — قول الحافظ الذهبى عنه (وله توسع فى الكلام ، وذكاء ، وقوة خاطر ، وحافظة ، وتدقيق فى التصوف وتآليفه جمة فى العرفان ، ولولا شطحه فى الكلام لم يكن به بأس)(٣) .

---

(١) ترجمة المؤلف الموجودة بخاتمة الفتوحات جـ ٤ ص ٥٥٧ .

(٢) خاتمة الفتوحات ص ٥٥٥ . (٣) دائرة المعارف للبستانى ص ٥٩٩ .

مذهب ابن عربى

فى تفسير القرآن الكريم

يقوم مذهب ابن عربى فى التفسير غالبا على نظرية وحدة الوجود التى يدين بها ، وعلى الفيوضات والوجدانيات التى تنهل عليه من سحائب الغيب الإلهى ، وتنقذف فى قلبه من ناحية الإشراق الربانى .

أما من الناحية الأولى : ناحية التأثر بمذهب وحدة الوجود . فإنا نراه فى كثير من الأحيان يتعسف فى التأويل ، ليجعل الآية تتمشى مع هذه النظرية. وهذا - فيما اعتقد - منهج كله شر فى التفسير ، فهو يبدل فيما أراد الله من آياته ، ويقسرها على أن تتضمن مذهبه ، وتكون أسانيد له ، وهذا ليس من شأن المفسر المنصف ، الذى يبحث فى القرآن بحثا مجرداً عن الهوى والعقيدة .

وأما من الناحية الثانية : ناحية الفيض الإلهى ، فهو واسع الباع فيها ، وقد مرت بك مقالته فى التفسير الإشارى ، ورأيت كيف ادعى أن كل مايجرى على لسان أهل الحقيقة من المعانى الإشارية فى القرآن هو فى الحقيقة تفسير وشرح لمراد الله ، وإنما عبر عنها بالإشارة . تقية من أهل الظاهر ، ورأيت كيف ادعى أن أهل الله - وهم الصوفية - أحق الناس بشرح كتابه ؛ لأنهم يتلقون علومهم عن الله ، فهم يقولون فى القرآن على بصيرة ، أما أهل الظاهر فيقولون بالظن والتخمين .

ثم هو لايرى فرقا بين القرآن نفسه ، وبين تفسير أهل الله له ، من ناحية أن كلامنهما حق ثابت ، وصدق لايعتريه شك ، فإذا كان القرآن لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؛ لأنه من عند الله ، فكذلك أقوال أهل الحقيقة فى التفسير ، لايأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، لأنها منزلة على قلوبهم من عند الله .

يقرر ابن عربى كل هذه المبادىء ، ويصرح بها فى فتوحاته ، وأنا لازلت

واقفاً عند رأيي الذى قررته آنفا ، وهو : أن دعوى الفيض والإلهام لا يصح أن تكون أصلا يحكم به على كتاب الله تعالى .

هذا ... وإن ابن عربى لم نظفر له . بكتاب فى التفسير ولكن نجد صاحب كشف الظنون يقول : إنه (صنف تفسيراً كبيراً على طريقة أهل التصوف فى مجلدات . قيل إنه فى ستين سفرا ، وهو إلى سورة الكهف ، وله تفسير صغير فى ثمانية أسفار على طريقة المفسرين[1]) وإذا كنا لم نظفر بهذين الكتابين ، فإنا قد ظفرنا بما فيه بعض الكفاية عنهما ، وهو تفسيره لبعض الآية التى وجدناها متفرقة فى غضون مؤلفاته ، كالفصوص ، والفتوحات . إليك بعضاً منها لتكون على بصيرة . ولتطمئن إلى حكمى على الرجل فى شرحه لكتاب الله تعالى :

نماذج من التفسير الصوفى النظرى :

فى سورة نوح عند قوله تعالى فى الآية (٢٥) «مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا ناراً . فلم يجدوا لهم من دون الله أنصاراً» يقول : («مما خطيئاتهم أغرقوا» فهى التى خطت بهم فغرقوا فى بحار العلم بالله وهو الحيرة «فأدخلوا نارا» فى عين الماء ... «فلم يجدوا لهم من دون الله أنصارا» فكان الله عين أنصارهم فهلكوا فيه إلى الأبد[2]) .

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٢٧ ، ٢٨) من سورة نوح أيضاً : «إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرا كفارا رب اغفرلى ولو الدى ولمن دخل بيتى مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا» يقول ما نصه: («إنك إن تذرهم» أى تدعهم وتتركهم ، «يضلوا عبادك» : أى يحيروهم فيخرجوهم من العبودية إلى ما فيهم من أسرار الربوبية ، فينظروا أنفسهم أربابا ، بعدما كانوا عبيداً ، فهم العبيد الأرباب «ولا يلدوا» : أى لا ينتجوا ولا يظهروا «إلا فاجرا» :

---

(١) كشف الظنون ج ١ ص ٢٢٣ .

(١) فصوص الحكم ج ١ ص ٢١٩ .

أى مظهراً ما ستر «كفارا» أى ساترا ما ظهر بعد ظهوره ، فيظهرون ماستر فيهم ، ثم يسترونه بعد ظهوره . فيحار الناظر ، ولا يعرف قدر الفاجر فى فجوره، ولا الكافر فى كفره ، والشخص واحد «رب اغفر لى» أى استرنى واستر من أجلى ، فيجهل مقامى وقدرى ، كما جهل قدرك «وما قدروا الله حق قدره[1]» «ولو الدى» كنت نتيجة عنهما ، وهما العقل والطبيعة «ولمن دخل بيتى» أى قلبى «مؤمنا» أى مصدقا بما يكون فيه من الإخبارات الإلهية ، وهو ما حدثت به أنفسهم «وللمؤمنين» من العقول «والمؤمنات» من النفوس «ولا تزد الظالمين» من الظلمات أهل الغيب المكتنفين خلف الحجب الظلمانية «إلا تبارا» أى هلاكا ، فلا يعرفون نفوسهم وشهودهم وجه الحق دونهم[2]) ا هـ .

وفى سورة النساء عند قوله تعالى فى الآية (٨٠) «من يطع الرسول فقد أطاع الله» يقول : (لأنه لا ينطق إلا عن الله، بل لا ينطق إلا بالله ، بل لا ينطق إلا الله منه فإنه صورته[3]) .

نماذج من التفسير الإشارى :

فى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (٥٧ ، ٥٨) «وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون * والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون» نراه يذكر : أنه لما أدركته الفطرة التى لا بد منها لكل داخل فى الطريق ، وتحكمت فيه ، رأى الحق سبحانه ، فتلا عليه هاتين الآيتين ، قال : فعلمت أنى المراد بهذه الآية ، وقلت : ينبه بما تلاه علينا على التوفيق الأول الذى هدانا الله به على يد عيسى وموسى ومحمد سلام الله عليهم جميعهم ؛ فإن رجوعنا إلى هذا الطريق ، كان بمبشرة على يد عيسى ، وموسى

---

(١) فى الآية (٦٧) من سورة الزمر .

(٢) الفصوص جـ ١ ص ١٢٣ .

(٣) الفتوحات جـ ٤ ص ١٢٢ .

ومحمد عليهم السلام . « بين يدى رحمته » وهى العناية بنا « حتى إذا أقلت سحابا ثقالا » وهو ترادف التوفيق « سقناه لبلد ميت » وهو أنا « فأحيينا به الأرض بعد موتها » وهو ماظهر علينا من أنوار القبول ، والعمل الصالح ، والتعشق به . ثم مثل فقال : « كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » يشير بذلك إلى خبر ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم فى البعث ـ أعنى حشر الأجسام ـ من أن الله يجعل السماء تمطر مثل منى الرجال . . الحديث . ثم قال « والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه » وليس سوى الموافقة والسمع والطاعة لطهارة المحل « والذى خبث » وهو الذى غلبت عليه نفسه والطبع ، وهو معتنى به فى نفس الأمر « لايخرج إلا نكدا » مثل قوله : إن لله عبادا يقادون إلى الجنة بالسلاسل ، وقوله فى الآية (١٥) من سورة الرعد « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » فقلنا طوعا يا إلهنا)[١] اهـ .

وفى سورة الحج عند قوله تعالى فى الآيتين (٣٢ و ٣٣) « ومن يعظم شعائر الله فإنها من تقوى القلوب . لكم فيها منافع إلى أجل مسمى ثم محلها إلى البيت العتيق » نجده يفسر « شعائر الله » فيقول (شعائر الله أعلامه ، وأعلامه الدلائل الموصلة إليه) ويفسر قوله «ثم محلها إلى البيت العتيق» فيقول : («ثم محلها إلى البيت العتيق» ، وهو بيت الإيمان عند أهل الإشارات ، وليس إلا قلب المؤمن الذى وسع عظمة الله وجلاله)[٢] .

وفى سورة لقمان عند قوله تعالى فى الآية (١٦) « يابنى إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن فى صخرة . . . الآية » نجده يفسر قوله تعالى « فتكن فى صخرة » فيقول : (أى عند ذى قلب قاس لاشفقة له على خلق الله . قال تعالى ـ فى الآية (٧٤) من سورة البقرة ـ « ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة . . . »)[٣] .

---

(١) الفتوحات ج ٤ ص ١٧٢ .
(٢) الفتوحات ج ٤ ص ١٠٩ .
(٣) الفتوحات ج ٤ ص ١١٤ .

نماذج من التفسير الظاهر :

فى سورة الأنعام عند قوله تعالى فى الآية (١٥٣) «وأن هـذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلـكم وصاكم به لعلـكم تتقون» ، يقول : («وأن هذا صراطى مستقيما» ، فأضافه إليه . ولم يقل صراط الله ، ووصفه بالاستقامة .. ثم قال «فاتبعوه» ، الضمير يعود على صراطه «ولا تتبعوا السبل» يعنى شرائع من تقدمه ومناهجهم من حيث ما هى شرائع لهم ، إلا إن وجد حكم فيها فى شرعى فاتبعوه من حيث ما هو شرع لنا لا من حيث ما كان شرعا لهم «فتفرق بكم عن سبيله» يعنى تلك الشرائع . عن سبيله : أى عن طريقه الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، ولم يقل عن سبيل الله : لأن الـكل سبيل الله ، إذ كان الله غايتها . «ذلـكم وصاكم به لعلـكم تتقون» ، أى تتخذون تلك السبيل وقاية تحول بينـكم وبين المشى على غيره ...[1]) اهـ

وهذا تفسير مقبول ، لجريانه على مقتضى الظاهر من الآية ، ولـكن نجد صاحبنا أحيانا يشطح فى فهمه لظاهر الآيات شطحات لا نستطيع أن نسلمها له على ظاهرها ، وإنما أقول على ظاهرها ، لأنه ربما كان يعنى من وراء هذا الظاهر معنى لا غبار عليه ، أراده هو ، وجهلته أنا ، فمن ذلك أنه يقول : (اعلم ـ وفقك الله ـ أن الله أخبر عن نبيه ورسوله عليه السلام فى كتابه أنه قال «إن ربى على صراط مستقيم[2]» ، فوصف نفسه بأنه على صراط مستقيم ، وما أخطأ هذا الرسول فى هذا القول . ثم إنه ما قال ذلك إلا بعد قوله : «ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها» ، فما ثم إلا من هو مستقيم على الحقيقة على صراط الرب ، لأنه ما ثم إلا من الحق آخذ بناصيته ، ولا يمكن إزالة ناصيته من يد سيده وهو على صراط مستقيم ، ونـكر لفظ دابة فعم ، فأين المعوج حتى نعدل عنه ؟ فهذا جبر ، وهذه استقامة ، فالله يوفقنا فى إنزال كل حكمة فى موضعها ..) اهـ .

---

(١) الفتوحات ج ٢ ص ٢١٧ .

(٢) فى الآية (٥٦) من سورة هود .

هذه بعض النماذج من تفسير ابن عربى . ومنها تستطيع أن تحكم على فهمه لمعانى القرآن ، كما تستطيع أن تقارن بينها وبين ما فى تأويلات الكاشانى ، المنسوبة لابن عربى ، لتقف على مقدار التشابه بين التفسيرين ، وتأثر كل منهما بعقيدته فى وحدة الوجود .

وبعد ... فهذا هو تفسير الصوفية ، وهؤلاء هم أهمُّ مفسريه ، وهذه هى أهم الكتب المؤلفة فيه ولعلى أكون قد أوفيت البحث حقه، وألممت بالموضوع من جميع نواحيه .

الفصل السادس

تفسير الفلاسفة

كيف وجدت الصلة بين التفسير والفلسفة ؟

فى إبان شوكة الملة الإسلامية ترجمت كتب الفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ، ويرجع الفضل الأكبر فى هذا العمل إلى العباسيين وحدهم ؛ إذ أنهم نظموا الترجمة الإسلامية وشجعوها .

بدأ المنصور هذه الحركة المباركة ، وتعهدها أبناؤه وأحفاده من بعده ، وبلغ بها المأمون خاصة القمة ، وأضحت بغداد كعبة علمية يحج إليها الطلاب من كل مكان .

ولكى يحقق العباسيون غايتهم استخدموا طائفة من الفرس والهنود والصابئة ، والمسيحيين ، الذين كانوا على اتصال وثيق بالدراسات القديمة ، فنقلوا إلى اللغة العربية كتب فلاسفة اليونان ، والهند ، والفرس ، وغيرهم ، ثم أذيعت هذه الكتب بين المسلمين ، فقرءوها قراءة النهم المتعطش لهذا النوع من العلم الذى لم يكن لهم به عهد من قبل .

قرأ بعض المسلمين هذه الكتب الفلسفية ، فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث ؛ لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين ، ولا تتفق معه بحال من الأحوال ، فكرسوا حياتهم للرد عليها ، وتنفير الناس منها ، وكان على رأس هؤلاء : الغزالى ، والفخر الرازى ، الذى تعرض فى تفسيره لنظريات الفلاسفة التى تبدو فى نظره متعارضة مع الدين ، ومع القرآن على الأخص ، فردها وأبطلها بمقدار ما أسعفته الحجة ، وانقاد له الدليل .

وقرأ بعض المسلمين هذه الكتب فأعجبوا بها إلى حد كبير ، رغم ما فيها من نظريات تبدو متعارضة مع نصوص الشرع القويم ، وتعاليمه التى لا يلحقها

الشك ، ولا تحوم حولها الشبهة . . نعم أعجبوا بها رغم هذا ، لأنهم وجدوا أن فى مقدورهم أن يوفقوا بين الحكمة والعقيدة ، أو بين الفلسفة والدين ، وأن يبينوا للناس أن الوحى لا يناقض العقل فى شىء ، وأن العقيدة إذا استنارت بضوء الحكمة تمكنت من النفوس ، وثبتت أمام الخصوم ... رأوا أن هذا فى مقدورهم ، فبذلوا كل ما يستطيعون من حلول ليصلوا الفلسفة بالدين ، ويؤاخوا بينهما ، حتى يصبح الدين فلسفة ،والفلسفة دينا، وفعلا وصل فلاسفة المسلمين إلى هذا التوفيق ، ولكنه توفيق إن أرضى بعض المسلمين فقد أغضب الكثير منهم ؛ ذلك لأنهم لم يصلوا فى توفيقهم إلا إلى حلول وسطى ، صوروا فيها التعاليم الدينية تصويراً يبعد كثيراً عن الصور الثابتة المأثورة ، ومثل هذه الحلول لا تصلح للتوفيق بين جانبين متقابلين وطرفين متنافرين ؛ ولذلك لم يجد الغزالى ومن لف لفه صعوبة فى الرد على هؤلاء الفلاسفة الموفقين ، وإبطال محاولاتهم ، التى ظنوا أنهم أرضوا بها رجال الدين الواقفين عند حدوده وتعاليمه .

كيف كان التوفيق بين الدين والفلسفة ؟

ثم إن الفلاسفة الموفقين بين الدين والفلسفة ، كانت لهم طريقتان يسيرون عليهما فى توفيقهم :

أما الطريقة الأولى : فهى طريقة التأويل للنصوص الدينية والحقائق الشرعية ، بما يتفق مع الآراء الفلسفية ، ومعنى هذا إخضاع تلك النصوص والحقائق إلى هذه الآراء حتى تسايرها وتتمشى معها .

وأما الطريقة الثانية : فهى شرح النصوص الدينية والحقائق الشرعية بالآراء والنظريات الفلسفية ، ومعنى هذا أن تطغى الفلسفة على الدين وتتحكم فى نصوصه ، وهذه الطريقة أخطر من الأولى ، وأكثر شراً منها على الدين .

الأثر الفلسفى

فى تفسير القرآن الكريم

مما تقدم يتضح لك أن علماء المسلمين لم يكونوا جميعا على مبدأ واحد بالنسبة للآراء الفلسفية، بل وجد منهم من وقف منها موقف الرفض وعدم القبول، كما وجد منهم من وقف موقف الدفاع عنها والقبول لها. وكان من هؤلاء وهؤلاء أثر ظاهر فى تفسير القرآن الكريم.

أما الفريق المعاند للفلسفة: فإنه لما فسر القرآن اصطدم بهذه النظريات الفلسفية، فرأى من واجبه كمفسر أن يعرض لهذه النظريات ويمزجها بالتفسير، إما على طريق الدفاع عنها وبيان أنها لا تتعارض مع نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات الصحيحة عنده، والمسلمة لديه. وإما على طريق الرد عليها، وبيان أنها لا يمكن أن تساير نصوص القرآن، وذلك بالنسبة للنظريات التى لا يسلمها ولا يقول بها.

وهو فى الحالة الأولى يشرح القرآن على ما يوافق هذه النظريات التى لا يراها متعارضة مع الدين، وفى الحالة الثانية لا يمشى على ضوء النظريات الفلسفية فى تفسيره، بل يفسر النصوص على ضوء الدين والعقل وحدهما، دون أن يكون للرأى الفلسفى دخل فى شرح النص القرآنى وبيان معناه، وممن فعل هذا فى تفسيره: الإمام فخر الدين الرازى، ودونك التفسير فسترى فيه ما ذكرته.

وأما الفريق المسالم للفلسفة: المصدق بكل ما فيها من نظريات وآراء، فإنه لما فسر القرآن سلك طريقا كله شر وضلال، إذ أنه وضع الآراء الفلسفية أمام عينيه، ثم نظر من خلالها إلى القرآن، فشرح نصوصه على حسب ما تمليه عليه نزعته الفلسفية المجردة من كل شىء إلا من التعصب الفلسفى... وأخيراً وجدنا أنفسنا أمام شروح لبعض آيات القرآن، هى فى الحقيقة شروح لبعض النظريات الفلسفية، قصد بها تدعيم الفلسفة وخدمتها على حساب القرآن الكريم، الذى هو أصل الدين ومنبع تعاليمه.

من تفسير الفارابى :

فمن هذه الروح التى طغت عليها الفلسفة ، ماتجده للفارابى المتوفى سنة ٣٣٩هـ تسع وثلاثين وثلاثمائة من الهجرة فى كتابه فصوص الحكم ، من تفسيره لبعض الآيات والحقائق التى جاء بها القرآن. تفسيراً فلسفياً بحتا، فمن ذلك أنه يفسر الأولية والآخرية الواردة فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد «هو الأول والآخر» تفسيراً أفلوطونياً مبنياً على القول بقدم العالم فيقول : إنه (الأول من جهة أنه منه ويصدر عنه كل موجود لغيره ، وهو أول من جهة أنه بالوجود لغاية قربه منه ، أول من جهة أن كل زمانى ينسب إليه بكون ، فقد وجد زمان لم يوجد معه ذلك الشىء ، ووجد إذ وجد معه لا فيه . هو أول ؛ لأنه إذا اعتبر كل شىء كان فيه أولا أثره ، وثانياً قبوله لا بالزمان . هو آخر ؛ لأن الأشياء إذا لوحظت ونسبت إليه أسبابها ومبادئها وقف عنده المنسوب ، فهو آخر لأنه الغاية الحقيقية فى كل طلب ، فالغاية مثل السعادة فى قولك : لم شربت الماء ؟ فتقول : لتغيير المزاج ، فيقال : ولم أردت أن يتغير المزاج ؟ فتقول : للصحة ، فيقال : لم طلبت الصحة ؟ فتقول : للسعادة والخير ، ثم لا يورد عليه سؤال يجب أن يجاب عنه ؛ لأن السعادة والخير يطلب لذاته لا لغيره ... فهو المعشوق الأول ، فلذلك هو آخر كل غاية ، أول فى الفكرة آخر فى الحصول ، هو آخر من جهة أن كل زمان يتأخر عنه ، ولا يوجد زمان متأخر عن الحق . . .)[1] اهـ .

ويشرح الظاهر والباطن الوارد فى قوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الحديد أيضاً « . . . والظاهر والباطن » فيقول : (لا وجود أكمل من وجوده ، فلا خفاء به من نقص الوجود ، فهو فى ذاته ظاهر ، ولشدة ظهوره باطن ، وبه يظهر كل ظاهر كالشمس تظهر كل خفى وتستبطن لا عن خفاء)[2] اهـ .

كما يشرح هذه الجملة مرة أخرى فيقول : (هو باطن لأنه شديد الظهور ،

---

(١) فصوص الحكم ص ١٧٤ — ١٧٥ ضمن المجموع من مؤلفات أبى نصر الفارابى.
(٢) فصوص الحكم ص ١٧٠

غلب ظهوره على الإدراك فخفى ، وهو ظاهر من حيث أن الآثار تنسب إلى صفاته ، وتحجب عن ذاته فتصدق بها ...) اهـ [1] .

ويفسر الوحى بقوله : (والوحى لوح من مراد الملك للروح الإنسانية بلا واسطة ، وذلك هو الكلام الحقيقى ، فإن الكلام إنما يراد به تصوير مايتضمنه باطن المخاطب فى باطن المخاطب ليصير مثله ، فإذا عجز المخاطب عن مس باطن المخاطب بباطنه مس الخاتم الشمع فيجعله مثل نفسه ، اتخذ فيما بين الباطنين سفيراً من الظاهرين ، فتكلم بالصوت أو كتب أو أشار . وإذا كان المخاطب لاحجاب بينه وبين الروح اطلع عليه اطلاع الشمس على الماء الصافى فانتقش منه : لكن المنتقش فى الروح من شأنه أن يسيح إلى الحس الباطن إذا كان قوياً ، فينطبع فى القوة المذكورة فيشاهد ، فيكون الموحى إليه يتصل بالملك باطنه ، ويتلقى وحيه الكلى بباطنه ...) اهـ [2] .

كما يشرح الملائكة بأنها (صورة علمية ، جواهرها علوم إبداعية قائمة بذواتها ، تلحظ الأمر الأعلى فينطبع فى هويتها ما تلحظ ، وهى مطلقة : لكن الروح القدسية تخاطبها فى اليقظة ، والروح البشرية تعاشرها فى النوم) اهـ [3]

من تفسير إخوان الصفا :

ومن الشروح الفلسفية للقرآن أيضا ما نجده فى رسائل إخوان الصفا ، الذين لازلنا نجهل الكثير عن تاريخ نشأتهم ، وتكوينهم والذين كانوا يمتون فى أغلب الظن بصلة إلى الباطنية الإسماعيلية .

فمن ذلك أنهم يشرحون الجنة والنار ، بما يفهم منه أن الجنة هى عالم الأفلاك وأن النار هى عالم ما تحت فلك القمر ، وهو عالم الدنيا ، ففى حديثهم عن تجرد النفس واشتياقها إلى عالم الأفلاك ، يقررون أنه لا يمكن الصعود إلى ما هناك بهذا الجسد الثقيل الكثيف ، ويقولون : (إن النفس إذا فارقت

---

(١) فصوص الحكم ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) فصوص الحكم ص ١٦٣ (٣) المرجع السابق ص ١٤٦

هذه الجنة ، ولم يعقها شيء من سوء أفعالها ، أو فساد آرائها ، وتراكم جهالاتها أو رداءة أخلاقها ، فهي هناك في عالم الفلك في أقل من طرفة عين بلا زمان ، لأن كونها حيث همتها أو محبوبها كما تكون نفس العاشق حيث معشوقه فإذا كان عشقها هو الكون مع هذا الجسد ، ومعشوقها هو الملذات المحسوسة المموهة الجرمانية ، وشهواتها هذه الزينات الجسمانية ، فهي لا تبرح من ههنا ولا تشتاق الصعود إلى عالم الأفلاك ، ولا تفتح لها أبواب السماء ولا تدخل الجنة مع زمرة الملائكة ، بل تبقى تحت فلك القمر ، سائحة في قعر هذه الأجسام المستحيلة المتضادة ، تارة من الكون إلى الفساد ، وتارة من الفساد إلى الكون « كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (في الآية (٥٦) من سورة النساء) « لابثين فيها أحقابا » (الآية (٢٣) من سورة النبأ) مادامت السموات والأرض ، لا يذوقون فيها برد عالم الأرواح الذى هو الروح والريحان ، ولا يجدون لذة شراب الجنان المذكور في القران ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله قالو إن الله حرمهما على الكافرين » (الآية (٥٠) من سورة الأعراف) الظالمين لأنفسهم ويروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : (الجنة في السماء والنار في الأرض [1]) اهـ .

ومن ذلك أنهم يفسرون الملائكة بأنها كواكب الأفلاك فيقولون : (إن كواكب الفلك هم ملائكة الله وملوك سمواته .. خلقهم الله تعالى لعمارة عالمه ، وتدبير خلائقه ، وسياسة بريته ، وهم خلفاء الله في أفلاكه كما أن ملوك الأرض هم خلفاء الله في أرضه [2]) اهـ .

كذلك يرى إخوان الصفا (أن نفس المؤمن بعد مفارقة جسدها تصعد إلى ملكوت السماء وتدخل في زمرة الملائكة ، وتحيي بروح القدس ، وتسبح في فضاء الأفلاك ، في فسحة السموات ، فرحة ، مسرورة منعمة ، متلذذة ،

---

(١) رسائل إخوان الصفا ج ١ ص ٩١ — ٩٢ المطبعة العربية سنة ١٩٢٨ م .

(٢) المصدر السابق ج ١ ص ٩٨

مكرمة ، مغتبطة) ويقولون إن ذلك هو معنى قول الله عز وجل فى الآية (١٠) من سورة فاطر « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه »[١]) .

كذلك يشرح إخوان الصفا الشياطين شرحا فلسفيا بحتا لا يتفق مع ماجاء به الدين فيقولون : (إن الله أشار إلى النفوس ووساوسها بقوله — فى الآية (١١٢) من سورة الأنعام — «شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا» فشياطين الجن هى النفوس المفارقة الشريرة التى قد استجنت عن إدراك الحواس . وشياطين الإنس هى النفوس المتجسدة المستأنسة بالأجساد) اهـ . . . .[٢] .

ثم يقولون : (أمثال هذه النفوس التى ذكرناها ـ يعنون النفوس الخبيثة ـ هى شياطين بالقوة ، فإذا فارقت أجسادها كانت شياطين بالفعل[٣]) .

كما يفهمون أن تسمية الله الشهداء فى قوله فى الآية (٦٩) من سورة النساء « فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا » بهذا الإسم إنما هو لشهادتهم تلك الأمور الروحانية المفارقة للهيولى ، ويعنون بها جنة الدنيا ونعيمها[٤] .

ثم إن إخوان الصفا يعتقدون أن القرآن ما هو إلا رموز للحقائق البعيدة عن أذهان العامة ، ويقولون : (إن النبى صلى الله عليه وسلم يخبر خواص أمته بما جاء به واعتقده بالتصريح فى السر والعلن ، غير مرموز ولامكتوم ، ثم يشير إليها ، ويرمز عنها عند العوام بالألفاظ المشتركة ، والمعانى المحتملة للتأويل بما يعقلها الجمهور ، وتقبلها نفوسهم[٥] وغير خاف أن هذا هو عين مذهب الباطنية القائل بأن ظواهر القرآن غير مرادة .

---

(١) المصدر السابق جـ ٤ ص ١١٠ و ١١١ . مطبعة تحفة الآخبار سنة ١٣٠٦ هـ

(٢) رسائل إخوان الصفا جـ ٤ ص ١٧٢ ، مطبعة تحفة الاخبار سنة ١٣٠٦ هـ

(٣) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٧٤

(٤) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٨٦

(٥) المرجع السابق جـ ٤ ص ١٨٥

هذه بعض شروح الفلاسفة من المسلمين لآيات القرآن الكريم ، وهى كما ترى شروح تقوم على نظريات فلسفية ، بحتة لا يمكن أن يتحملها النص القرآنى بحال من الأحوال .

هذا ... ولم نسمع أن فيلسوفا من هؤلاء الفلاسفة الذين تحكمت الفلسفة فى عقولهم ، ألف لنا تفسيراً كاملا للقرآن الكريم ، وكل ماوجدناه لهم فى ذلك لا يعدو بعض أفهام قرآنية مفرقة فى كتبهم التى ألفوها فى الفلسفة . وأكثر من وجدنا له أثراً فى التفسير من هؤلاء الفلاسفة هو الرئيس أبو على بن سينا ، إذ قد عثر له على تفسير قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور « الله نور السموات والأرض .الآية »[1] وعلى تفسير سورة الإخلاص، والمعوذتين[2] وبعض آيات أخرى ، ولهذا سأعتبر ابن سينا الشخصية الأولى التى كان لها أكبر أثر فى التفسير الفلسفى . فأذكر نبذة عن حياته ، ثم أعرض لمسلكه فى التفسير فأقول :

ترجمة ابن سينا :

هو الرئيس أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا . كان أبوه من أهل بلخ ، ثم انتقل إلى بخارى ، وفى قرية من قراها ولد له أبو على ابن سينا سنة ٣٧٠ هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة . ثم انتقل مع أهله إلى بخارى، ثم طوف أبو على بعد ذلك فى البلاد ، واشتغل بالعلوم ، وحصل كثيراً من الفنون . حفظ القرآن وله من العمر عشر سنين، وأتقن الأدب، وحفظ أشياء من أصول الدين ، والحساب والجبر ، ثم تعلم المنطق على أبى عبد الله الناتلى ، وفاقه ، ثم اشتغل بالعلوم الطبيعية والإلهية . ثم رغب فى علم الطب فقرأ الكتب المؤلفة فيه ، حتى أصبح بارعا لا يعدله أحد فيه . كل هذا ولم يتجاوز السادسة عشرة من عمره ، ثم لم تأت عليه سن الثامنة عشرة إلا وقد فرغ من

---

(١) يوجد هذا التفسير فى كتاب جامع البدائع .

(٢) يوجد تفسير هذه السور الثلاث فى رسائل ابن سينا .

تحصيل العلوم التى عاناها ، مما يدل على ذكائه الخارق وذهنه الثاقب . أما تصانيفه فكثيرة ، تقارب المائة مصنف ، ومن أهمها : كتاب الشفاء فى الحكمة . والنجاة والإشارات ، والقانون ، وغير ذلك من كتبه القيمة ، التى انتفع الناس بها كثيراً .

ولقد جمع أبو على ابن سينا إلى شهرته العلمية شهرة أخرى سياسية ، إذ أنه كان يتقلد مع والده الأعمال للسلطان ، ولما اضطربت أمور الدولة خرج أبو على من بخارى ، وطوف ببلاد كثيرة حتى وصل إلى همدان ، وهناك تقلد الوزارة لشمس الدولة ، ثم ثار الجند عليه ، وأغاروا على داره ، ونهبوها ، وقبضوا عليه ، وسألوا شمس الدولة قتله فامتنع ، ثم أطلق فتوارى ، ثم أعاده شمس الدولة وزيراً بعد ذلك ، ولما مات شمس الدولة توجه إلى أصبهان ، ثم أدركه مرض شديد مات على أثره ، وكانت وفاته بهمذان سنة ٤٢٨ هـ ثمان وعشرين وأربعمائة من الهجرة ، ودفن بها ، فرحمه الله[1] .

مسلك سينا فى التفسير :

ابن سينا كمسلم يدين بالقرآن ، وفيلسوف محب للفلسفة حريص على سلامة ما فيها من آراء ، كان حريصا كل الحرص على أن يوفق بين الدين والفلسفة ، حتى يرضى ناحيته الدينية والفلسفية . وكان طبيعيا ــ والقرآن هو الدعامة الأولى من دعائم الإسلام ــ أن يوفق ابن سينا بين نصوص القرآن والنظريات الفلسفية التى تبدو معارضة لها ، وفعلا قام بهذه العملية التى كانت ــ فيما أعتقد ــ شراً على الدين ، وإبطالا لحقائق القرآن الصريحة الثابتة .

نظر ابن سينا إلى القرآن ، ونظر إلى الفلسفة ، فحكم النظريات الفلسفية فى النصوص القرآنية ، فشرحها شرحا فلسفيا بحتاً ، وكانت طريقته التى يسلكها فى شرحه غالبا هى شرح الحقائق الدينية بالآراء الفلسفية ، وذلك لأنه كان يعتقد أن القرآن ما هو إلا رموز رمز بها النبى صلى الله عليه وسلم لحقائق تدق على

(١) انظر وفيات الأعيان ج ص ٢٧١ ــ ٢٧٥ ، وشذرات الذهب ج ٣ ص ٢٣٤ ــ ٢٣٧

أفهام العامة ، عجزت أفهامهم عن إدراكها ، فرمز إليها النبي بما يمكنهم أن يدركوه ، وأخفى عنهم ما يعجز عن إدراكه عامة الناس إلا الخواص منهم ، وهو يقول : (إن المشترط على النبى أن يكون كلامه رمزا ، وألفاظه إيماء ، وكما يذكر أفلاطون فى كتاب النواميس : إن من لم يقف على معانى رموز الرسل لم ينل الملكوت الإلهى ، وكذلك أجلة فلاسفة يونان وأنبياؤهم كانوا يستعملون فى كتبهم المرموز والإشارات ، التى حشوا فيها أسرارهم ، كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون . . . وما كان يمكن النبى محمداً صلى الله عليه وسلم أن يوقف على العلم أعرابيا جافيا ، ولاسيما البشر كلهم ، إذ كان مبعوثا إليهم كلهم) اهـ[1] .

وعلى هذا الأساس نظر ابن سينا إلى نصوص القرآن كرموز لا يعرف حقيقتها إلا الخواص أمثاله ، ففسرها تفسيراً حكم فيه ما لديه من نظريات فلسفية ، فكان فى عمله هذا فاشلا ، وبعيداً عن حقيقة الدين ، وروح القرآن الكريم .

وإليك بعض ما قاله ابن سينا فى بعض نصوص القرآن الكريم ، لتقف على مقدار تهافته ، وبعده عن حقائق القرآن الثابتة .

عرض ابن سينا لشرح قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الحاقة « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » ففسر العرش بأنه الفلك التاسع الذى هو فلك الأفلاك ، وفسر الملائكة الثمانية التى تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التى تحت الفلك التاسع . وإليك عبارته بنصها :

قال : (وأما ما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم عن ربه عز وجل من قوله « ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » (فنقول) إن الكلام المستفيض فى استواء الله تعالى على العرش من أوضاعه : أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية ، وتدعى المشبهة من المتشرعين أن الله تعالى على العرش لا على سبيل حلول . هذا ، وأما فى كلام الفلسفى فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٤ – ١٢٥ . مطبعة هندية سنة ١٩٠٨ م

الذى هو فلك الأفلاك ، ويذكرون أن الله تعالى هناك ، وعليه لا على حلول ، كما بين أرسطو فى آخر كتاب سماع الكيان . والحكماء المتشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم . هذا . . وقد قالوا : إن الفلك يتحرك بالنفس ؛ لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية . والذاتية إما طبيعية ، وإما نفسية ، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال ، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى ولا تتغير أبد الدهر ، وقد ذاع فى الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعاً ، لا يموتون كالإنسان الذى يموت ، فإذا قيل إن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت ، والحى الناطق الغير الميت يسمى ملكا ، فالأفلاك تسمى ملائكة . فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية ،ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك . والحمل يقال على وجهين : حمل بشرى ، وهو أولى باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان ، وحمل طبيعى كقولنا الماء محمول على الأرض . والنار على الهواء ، والمعنى هنا الحمل الطبيعى لا الأول . وقوله: يومئذ، والساعة ، والقيامة ، فالمراد بها ما ذكره الشارع : أن من مات قامت قيامته . ولما كان تحقيق النفس الإنسانية عند المفارقة آكد جعل الوعد والوعيد ، وأشباههما إلى ذلك الوقت[1]) اه .

كذلك نجد ابن سينا يفسر الجنة والنار والصراط تفسيراً فلسفيا بعيدا عن المأثور الثابت الصحيح ، فيقسم العوالم إلى ثلاثة أقسام : عالم حسي ،وعالم خيالى وهمى ، وعالم عقلى . والعالم العقلى عنده هو الجنة ، والعالم الخيالى هو النار ، والعالم الحسى هو عالم القبور . أما الصراط فيقول فى شرحه : (اعلم أن العقل يحتاج فى تصور أكثر الكليات إلى استقراء الجزئيات ، فلا محالة أنها تحتاج إلى الحس الظاهر ، فتعلم أنه يأخذ من الحس الظاهر إلى الخيال إلى الوهم ، وهذا هو من الجحيم طريق وصراط دقيق صعب حتى يبلغ ذاته العقل ، فهو إذاً يرى كيف الحد صراطا وطريقاً فى عالم الجحيم ، فإن جاوزه بلغ عالم العقل ، فإن وقف فيه وتخيل الوهم عقلا ، وما يشير إليه حقاً ، فقد وقف

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٨ – ١٢٩ .

على الجحيم ، وسكن فى جهنم ، وهلك وخسر انا مبينا) .

كذلك يفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة المدثر : « عليها تسعة عشر » تفسيراً فلسفيا بعيداً عن هدف القرآن ، فيقرر أن النفس الحيوانية هى الباقية الدائمة فى جهنم ، وهى منقسمة إلى قسمين : إدراكية ، وعملية ، والعملية. شوقية ، وعضبية ، والعلمية : هى تصوارت الخيال المحسوسات بالحواس الظاهرة ، وتلك المحسوسات ستة عشر ، والقوة الوهمية الحاكمة على تلك الصور حكما غير واجب واحدة ـ ذاتيان ، وستة عشر ، وواحدة تسعة عشر . . . ثم يقول: (وأما قوله « وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة » فمن العادة فى الشريعة تسمية القوى اللطيفة الغير المحسوسة ملائكة) اهـ(١)

كما يفسر أبواب الجنة الثمانية ، وأبواب النار السبعة تفسيراً فلسفيا صرفا ، فيقول . (وأما ما بلغ النبى محمد عن ربه عز وجل أن للنار سبعة أبواب ، وللجنة ثمانية أبواب ، فإذ قد علم أن الأشياء المدركة إما مدركة للجزئيات كالحواس الظاهرة وهى خمسة ، وإدراكها الصور مع المواد ، أو مدركة متصورة بغير مواد كخزانة الحواس المسماة بالخيال ، وقوه حاكمة عليها حكماً غير واجب وهو الوهم ، وقوة حاكمة واجباً وهو العقل ، فذلك ثمانية . فإذا اجتمعت الثمانية جملة أدت إلى السعادة السرمدية ، والدخول فى الجنة ، وإن حصل سبعة منها لاتستتم إلا بالثامن أدت إلى الشقاوة السرمدية . والمستعمل فى اللغات أن الشىء المؤدى إلى الشىء يسمى بابا ، فالسبعة المؤدية إلى النار سميت أبوابا لها ، والثمانية المؤدية إلى الجنة سميت أبوابا لها(٢)) .

ويفسر ابن سينا قوله تعالى فى الآية (٣٥) من سورة النور « الله نور السموات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كأنها كوكب درى يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضىء

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

(٢) رسائل ابن سينا ص ١٣٢

ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شىء عليم ، فيقول : (النور اسم مشترك لمعنيين : ذاتى ومستعار . والذاتى هو كمال المشف من حيث هو مشف كما ذكرها أرسطاطاليس ، والمستعار على وجهين : إما الخير ، وإما السبب الموصل إلى الخير ، والمعنى ههنا هو القسم المستعار بكلى فى قسميه .. أعنى أن الله تعالى خير بذاته وهو سبب لكل خير ، كذلك الحكم فى الذاتى وغير الذاتى . وقوله « السموات والأرض » عبارة عن الكل . وقوله « مشكاة » فهو عبارة عن العقل الهيولانى والنفس الناطقة ، لأن المشكاة متقاربة الجدران جيدة التهيء للاستضاءة . لأن كل ما يقارب الجدران كان الانعكاس فيه أشد ، والضوء أكثر . وكما أن العقل بالفعل مشبه بالنور ، كذلك قابله مشبه بقابله وهو المشف ، وأفضل المشفات الهواء ، وأفضل الأهوية هو المشكاة ، فالمرموز بالمشكاة هو العقل الهيولانى الذى نسبته إلى العقل المستفاد كنسبة المشكاة إلى النور ، والمصباح هو عبارة عن العقل المستفاد بالفعل . لأن النور كما هو كمال للمشف كما حد به الفلاسفة ومخرج له من القوة إلى الفعل ، ونسبة العقل المستفاد إلى العقل الهيولانى كنسبة المصباح إلى المشكاة . وقوله « فى زجاجة » لما كان بين العقل الهيولانى والمستفاد مرتبة أخرى وموضع آخر نسبته كنسبة الذى بين المشف والمصباح ، فهو الذى لا يصل فى العيان المصباح إلى المشف إلا بتوسط وهو المسرجة ، ويخرج من المسارج الزجاجة لأنها من المشفات القوابل للضوء . ثم قال بعد ذلك « كأنها كوكب درى » ليجعلها الزجاج الصافى المشف ، لا الزجاج الذى لا يستشف ، فليس شىء من المتلونات يستشف « توقد من شجرة مباركة زيتونة » يعنى به القوة الفكرية التى هى موضوعة ومادة للأفعال العقليه ، كما أن الدهن موضوع ومادة للسراج ...)[1] وهكذا استمر ابن سينا فى شرح هذه الآية فارجع إليه إن شئت ، وسترى أن شرحه هذا مزيج من فكرتى أفلاطون وأرسطو حيث جمع فيه بين ما يعرف لأفلاطون من التعبير : (الخير) و (الكل) ، وما يعرف لأرسطو من أقسام العقل .

---

(١) رسائل ابن سينا ص ١٢٥ — ١٢٨ .

ويقول فى تفسير قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق «ومن شر النفاثات فى العقد» : (قوله تعالى «ومن شر النفاثات فى العقد» إشارة إلى القوة النباتية . فإن النباتية موكلة بتدبير البدن ونشوه ونموه ، والبدن عقد حصلت من عقد بين العناصر الأربعة المختلفة المتنازعة إلى الانفكاك ، لكنها من شدة انفعال بعضها عن بعض صارت بدنا حيوانيا . والنفاثات فيها هى القوى النباتية ، فإن النفث سبب لأن يصير جوهر الشىء زائداً فى المقدار من جميع جهاته . . أى الطول والعرض والعمق . وهذه القوى هى التى تؤثر فى زيادة الجسم المغتذى والنامى من جميع الجهات المذكورة ... إلخ[1]) .

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٥) من سورة الفلق أيضاً «ومن شر حاسد إذا حسد» فيقول : (عنى به النزاع الحاصل بين البدن وقواه كلها ، وبين النفس[2]) .

وفى سورة الناس يفسر قوله تعالى فى الآية (٤) «من شر الوسواس الخناس» فيقول : (هذه القوة التى توقع الوسوسة هى القوة المتخيلة بحسب صيرورتها مستعملة للنفس الحيوانية ، ثم إن حركتها تكون بالعكس ، فإن النفس وجهها إلى المبادىء المفارقة ، فالقوة المتخيلة إذا جذبتها إلى الاشتغال بالمادة وعلائقها فتلك القوة تخنس أى تتحرك بالعكس وتجذب النفس الإنسانية إلى العكس ، فلهذا سمى خناسا[3]) .

ويفسر قوله تعالى فى الآية (٦) من سورة الناس أيضا «من الجنة والناس» فيقول : (الجن هو الاستتار ، والإنس هو الاستئناس ، فالأمور المستترة هى الحواس الباطنة ، والمستأنسة هو الحواس الظاهرة[4]) اهـ .

رأينا فى تفسير الفلاسفة :

هذا هو بعض ما قاله ابن سينا فى شرحه لبعض نصوص القرآن الكريم ،

---

(١) جامع البدائع ص ٢٧ – ٢٨ مطبعة السعادة سنة ١٩١٧ م .

(٢) المرجع السابق ص ٢٨ (٣) المرجع السابق ص ٣١

(٤) المرجع السابق ص ٢١ – ٢٣ .

وهو كما ترى عين ما يذهب إليه الباطنية فى تأويلاتهم للآيات القرآنية ، ولا أحسب أن مسلما مهما كان محبا للفلسفة والفلاسفة يقر ابن سينا وأمثاله على دعوى أن الحقائق القرآنية رموز وإشارات لحقائق أخرى ، دقت عن أفهام العامة ، وخفيت على عقولهم القاصرة ، فرمز إليها النبى بآيات القرآن الكريم .

هذا ، ولعل القارىء الكريم يلحظ معى أن الإمامية الإثنى عشرية، والباطنية الإسماعيلية ، ومتطرفى الصوفية ، ورجال الفلسفة الإسلامية ، كلهم يسيرون على نمط واحد هدام لمقاصد القرآن ومراميه ، ذلك هو مايعبرون عنه بالرمز، أو الإشارة ، أو الباطن . ويظهر لنا أنها عدوى سرت إلى المسلمين من قدماء الفلاسفة[1] ، ثم تلقتها هذه الفرق بصدر رحب ، وتقبلتها بقبول حسن، لأنهم رأوا فيها عونا كبيراً على ترويج بدعهم ، ونشر ضلالاتهم بين المسلمين !! ...

---

(١) انظر ما قلناه عن بيرون اليهودى عند كلامنا عن البابية .

الفصل السابع

تفسير الفقهاء

كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهى

١ — التفسير الفقهى من عهد النبوة إلى مبدأ قيام المذاهب الفقهية .

نزل القرآن الكريم مشتملا على آيات تتضمن الأحكام الفقهية التى تتعلق بمصالح العباد فى دنياهم وأخراهم ، وكان المسلمون على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يفهمون ما تحمله هذه الآيات من الأحكام الفقهية بمقتضى سليقتهم العربية . وما أشكل عليهم من ذلك رجعوا فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم جدت للصحابة من بعده حوادث تتطلب من المسلمين أن يحكموا عليها حكماً شرعياً صحيحاً ، فكان أول شىء يفزعون إليه لاستنباط هذه الأحكام الشرعية هو القرآن الكريم . ينظرون فى آياته، ويعرضونها على عقولهم وقلوبهم، وإن أمكن لهم أن ينزلوها على الحوادث التى جدت فيها ونعمت ، وإلا لجأوا إلى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإن لم يجدوا فيها حكماً اجتهدوا وأعملوا رأيهم على ضوء القواعد الكلية للكتاب والسنة ، ثم خرجوا بحكم فيما يحتاجون إلى الحكم عليه .

غير أن الصحابة فى نظرهم لآيات الأحكام كانوا يتفقون أحياناً على الحكم المستنبط، وأحياناً يختلفون فى فهم الآية، فتختلف أحكامهم فى المسألة التى يبحثون عن حكمها ، كالخلاف الذى وقع بين عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فى عدة الحامل المتوفى عنها زوجها ، فعمر رضى الله عنه حكم بأن عدتها وضع الحمل، وعلى حكم بأن عدتها أبعد الأجلين : وضع الحمل ، ومضى أربعة أشهر وعشرة أيام . وسبب هذا الخلاف تعارض نصين عامين فى القرآن ، فإن الله سبحانه

جعل عدة المطلقة الحامل وضع الحمل ، وجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً من غير تفصيل . فذهب على رضى الله عنه إلى العمل بالآيتين معا ، وأن كل آية منهما مخصصة لعموم الأخرى . وذهب عمر رضى الله عنه إلى أن آية الطلاق مخصصة لآية الوفاة ، وقد تأيد رأى عمر رضى الله عنه بما ورد أن سبيعة بنت الحارث الأسلمية مات عنها زوجها ، فوضعت الحمل بعد خمسة وعشرين يوماً من موته ، فأحلها رسول الله صلى الله عليه وسلم للأزواج(١) .

وكالخلاف الذى وقع بين ابن عباس وزيد بن ثابت فى تقسيم ميراث من مات عن زوج وأبوين ، فابن عباس رضى الله عنه أفتى بأن للزوج النصف ، وللأم الثلث ، وللأب الباقى تعصيباً ، تمسكا بظاهر قوله تعالى فى الآية (١١) من سورة النساء : « فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث » . وزيد بن ثابت رضى الله عنه ومعه بقية الصحابة أفتوا بأن للزوجة ثلث الباقى بعد فرض الزوج ، نظراً لأن الأب والأم ذكر وأنثى ورثا بجهة واحدة ، فللذكر مثل حظ الأنثيين(٢)) .

مثل هذا الخلاف كان يقع مع الصحابة رضى الله عنهم حسبما يفهمه كل منهم فى النص القرآنى ، وما يحيط به من أدلة خارجية ، ومع هذا الاختلاف فقد كان كل واحد من المختلفين يطلب الحق وحده ، فإن ظهر له أنه فى جانب من خالفه رجع إلى رأيه وأخذ به .

التفسير الفقهى فى مبدأ قيام المذاهب الفقهية :

ظل الأمر على هذا إلى عهد ظهور أئمة المذاهب — الأربعة وغيرها — وفيه جدت حوادث كثيرة للمسلمين لم يسبق لمن تقدمهم حكم عليها ، لأنها لم تكن على عهدهم ، فأخذ كل إمام ينظر إلى هذه الحوادث تحت ضوء القرآن والسنة ، وغيرهما من مصادر التشريع ، ثم يحكم عليها بالحكم الذى ينقدح فى ذهنه ، ويعتقد

(١) انظر تاريخ التشريع للخضرى ص ١١٣ .

(٢) انظر تاريخ التشريع الاسلامى للأساتذة : السبكى والسايس والبربرى ص ٩٦ .

أنه هو الحق الذى يقوم على الأدلة والبراهين . وكانوا يتفقون فيما يحكمون به أحيانا، وأحيانا يختلفون حسبما يتجه لكل منهم من الأدلة . غير أنهم مع كثرة اختلافهم فى الأحكام لم تظهر منهم بادرة التعصب المذهب ، بل كانوا جميعاً ينشدون الحق ويطلبون الحكم الصحيح، وليس بعزيز على الواحد منهم أن يرجع إلى رأى مخالفه إن ظهر له أن الحق فى جانبه ، فهذا هو الشافعى رضى الله عنه كان يقول : إذا صح الحديث فهو رأيى ، وكان يقول : الناس عيال فى الفقه على أبى حنيفة ، وكان يقول لأحمد بن حنبل وهو تلميذه فى الفقه : إذا صح الحديث عندك فأعلمنى به ، وكان يقول: إذا ذكر الحديث فالك النجم الثاقب... إلى غير ذلك مما يدل على انتشار روح التقدير والحب بين أولئك الفقهاء . . وهذه هى سنة أسلافهم من الصحابة والتابعين[1] .

التفسير الفقهى بعد ظهور التقليد والتعصب المذهبى :

ثم خلف من بعد هؤلاء الأئمة خلف سرت فيهم روح التقليد لهؤلاء الأئمة.. التقليد الذى يقوم على التعصب المذهبى ، ولا يعرف التسامح ، ولا يطلب الحق لذاته ولا ينشده تحت ضوء البحث الحر ، والنقد البرىء .

ولقد بلغ الأمر ببعض هؤلاء المقلدة إلى أن نظروا إلى أقوال أئمتهم كما ينظرون إلى نص الشارع . فوقفوا جهدهم العلمى على نصرة مذهب إمامهم وترويجه، وبذلوا كل ما فى وسعهم لإبطال مذهب المخالف وتفنيده ، وكان من أثر ذلك أن نظر هذا البعض إلى آيات الأحكام فأولها حسبما يشهد لمذهبه إن أمكنه التأويل ، وإلا فلا أقل من أن يؤولها تأويلا يجعلها به لا تصلح أن تكون فى جانب مخالفيه، وأحيانا يلجأ إلى القول بالنسخ أو التخصيص، وذلك إن سدت عليه كل مسالك التأويل . فهذا عبد الله الكرخى المتوفى سنة ٣٤٠ هـ وهو أحد المتعصبين لمذهب أبى حنيفة يقول: (كل آية أو حديث يخالف ما عليه أصحابنا فهو مؤول أو منسوخ)[2] .

---

(١) انظر تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٢) تاريخ التشريع الاسلامى للاساتذة : السبكى والسايس والبربرى ص ٢٨١ :

ومع هذا الغلو فى التعصب المذهبى، فإننا لم نعدم من المقلدين من وقف موقف الإنصاف من الأئمة ، فنظر فى أقوالهم نظرة الباحث الحر الذى يساير الدليل حتى يصل به إلى الحق أيا كان قائله .

وكان لهؤلاء وهؤلاء — أعنى المتعصبين وغير المتعصبين — أثر ظاهر فى التفسير الفقهى، فالمتعصبون ينظرون إلى الآيات من خلال مذهبهم فينزلونها عليه ، وغير المتعصبين ينظرون إليها نظرة خالية من الهوى المذهبى ، فينزلونها على حسب ما يظهر لهم ، وينقدح فى ذهنهم .

تنوع التفسير الفقهى تبعاً لتنوع الفرق الإسلامية :

وإذا نحن تتبعنا التفسير الفقهى فى جميع مراحله ، وجدناه يسير بعيداً عن الأهواء والأغراض من مبدأ نزول القرآن إلى وقت قيام المذاهب المختلفة، ثم بعد ذلك يسير تبعا للمذاهب ، ويتنوع بتنوعها ، فلأهل السنة تفسير فقهى متنوع بدأ نظيفاً من التعصب ، ثم لم يلبث أن تلوث به كما أسلفنا ، وللظاهرية تفسير فقهى يقوم على الوقوف عند ظواهر القرآن دون أن يحيد عنها ، وللخوارج تفسير فقهى يخصهم ، وللشيعة تفسير فقهى يخالفون به من عداهم . . . وكل فريق من هؤلاء يجتهد فى تأويل النصوص القرآنية حتى تشهد له أو لا تعارضه على الأقل . . مما أدى ببعضهم إلى التعسف فى التأويل ، والخروج بالألفاظ القرآنية عن معانيها ومدلولاتها .

الإنتاج التفسيرى للفقهاء :

هذا وإنا إذا ذهبنا لنبحث عن مؤلفات فى التفسير الفقهى ، فإنا لا نكاد نعثر على شىء من ذلك قبل عصر التدوين . اللهم إلا متفرقات تؤثر عن فقهاء الصحابة والتابعين ، يرويها عنهم أصحاب الكتب المختلفة ، أما بعد عصر التدوين فقد ألف كثير من العلماء على اختلاف مذاهبهم فى التفسير الفقهى :

فمن الحنفية :

ألف أبو بكر الرازى المعروف بالجصاص والمتوفى سنة ٣٧٠ هـ سبعين

وثلاثمائة من الهجرة أحكام القرآن ، وهو مطبوع فى ثلاث مجلدات كبار ، ومتداول بين أهل العلم .

وألف أحمد بن أبى سعيد المدعو بملا جيون من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، التفسيرات الأحمدية فى بيان الآيات الشرعية ، وهو مطبوع بالهند فى مجلد كبير ، ومنه نسخة فى مكتبة الأزهر ، وأخرى فى مكتبة الجامعة المصرية (جامعة القاهرة) .

ومن الشافعية :

ألف أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى المتوفى سنة ٥٠٤ هـ . أربع وخمسمائة من الهجرة ، كتابه أحكام القرآن ، وهو مخطوط فى مجلد كبير ، وموجود فى دار الكتب المصرية ، وفى المكتبة الأزهرية .

وألف شهاب الدين ، أبو العباس أحمد بن يوسف بن محمد الحلبى ، المعروف بالسمين ، والمتوفى سنة ٧٥٦ هـ ست وخمسين وسبعمائة من الهجرة ، كتابه (القول الوجيز فى أحكام الكتاب العزيز) ويوجد منه فى مكتبة الأزهر الجزء الأول ، وهو ينتهى عند قوله تعالى فى سورة البقرة « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ... الآية » ، وهو مخطوط بخط المؤلف .

وألف على بن عبد الله محمود الشنفكى من علماء القرن التاسع الهجرى ، كتابه (أحكام الكتاب المبين) وتوجد منه نسخة فى المكتبة الأزهرية ، مخطوطة بخط المؤلف ، فى مجلد متوسط الحجم .

وألف جلال الدين السيوطى . المتوفى سنة ٩١١ هـ إحدى عشرة وتسعمائة من الهجرة ، كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) وهو موجود فى المكتبة الأزهريه ، ومخطوط فى مجلد متوسط الحجم .

ومن المالكية :

ألف أبو بكر بن العربى المتوفى سنة ٥٤٣ هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة . كتابه أحكام القرآن ، وهو مطبوع فى مجلدين كبيرين . ومتداول بين أهل العلم .

وألف أبو عبد الله القرطبي المتوفى سنة ٦٧١ هـ إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة ، كتابه (الجامع لأحكام القرآن) وهو مخطوط بدار الكتب المصرية، وقد قامت بطبعه دار الكتب فتم منه إلى الآن أربعة عشر جزءا ينتهى الجزء الرابع عشر عند آخر سورة (فاطر) ومابقى منه على أهبة الطبع[1] .

ومن الزيدية :

ألف حسين بن أحمد النجرى . من أهل القرن الثامن الهجرى ، كتابه (شرح الخمسمائة آية) ولم يصل إلى أيدينا هذا التفسير .

وألف شمس الدين بن يوسف بن أحمد من علماء القرن التاسع الهجرى ، (الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة) ومنه نسخة فى دار الكتب المصرية ، مخطوطة فى ثلاث مجلدات ، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثانى منه فى مجلد واحد مخطوط ،

وألف محمد بن الحسين بن القاسم من علماء القرن الحادى عشر الهجرى ، كتابه (منتهى المرام ، شرح آيات الأحكام) ولم نقف على هذا التفسير .

ومن الإمامية الإثنى عشرية :

ألف مقداد السيورى ، من أهل القرن الثامن الهجرى، كتابه (كنز الفرقان فى فقه القرآن) ومنه نسخة بدار الكتب المصرية ، مطبوعة فى مجلد صغير على هامش تفسير الحسن العسكرى .

وهناك كتب أخرى فى تفسير آيات الأحكام ذكرها صاحب كشف الظنون ، لا نطيل بذكرها ، كما لا نطيل بالكلام عن كل ما وصل إلينا من الكتب ، ويكفى أن نعرض لأهمها وهو ما يأتى :

---

(١) كان هذا وقت تأليف هذا الكتاب ، أما الآن فقد تم طبع هذا التفسير ولما نفدت نسخه أخذت دار الكتب فى طبعه للمرة الثانية ؛ كما يجرى الآن طبعه ضمن سلسلة (كتاب الشعب) .

١ ـ أحكام القرآن

للجصاص (الحنفى)

ترجمة المؤلف :

هو أبو بكر ، أحمد بن على الرازى ، المشهور بالجصاص[١] . ولد رحمه تعالى ببغداد سنة ٣٠٥ هـ خمس وثلاثمائة من الهجرة .

كان إمام الحنفية فى وقته ، وإليه انتهت رياسة الأصحاب . أخذ عن أبى سهل الزجاج ، وعن أبى الحسن الكرخى ، وعن غيرهما من فقهاء عصره . واستقر التدريس له ببغداد ، وانتهت الرحلة إليه ، وكان على طريق الكرخى فى الزهد، وبه انتفع ، وعليه تخرج ، وبلغ من زهده أنه خوطب فى أن يلى القضاء فامتنع، وأعيد عليه الخطاب فلم يقبل . أما مصنفاته فكثيرة . أهمها كتاب أحكام القرآن وهو ما نحن بصدده الآن ، وشرح مختصر الكرخى، وشرح مختصر الطحاوى، وشرح الجامع الكبير للإمام محمد بن الحسن الشيبانى ، وكتاب أصول الفقه ، وآخر فى أدب القضاء ، وعلى الجملة فقد كان الجصاص من خيرة العلماء الأعلام، وإليه يرجع كثير من الفضل فى تدعيم مذهب الحنفية على البراهين والأدلة .

هذا وقد ذكره المنصور بالله فى طبقات المعتزلة ،[٢] وسيأتيك فى تفسيره ما يؤيد هذا القول .

أما وفاته فكانت سنه ٣٧٠ هـ سبعين وثلاثمائة من الهجرة ، فرحمه الله ورضى عنه[٣] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يعد هذا التفسير من أهم كتب التفسير الفقهى خصوصاً عند الحنفية ، لأنه

(١) الجصاص نسبة إلى العمل بالجص .

(٢) شرح الأزهار جـ ٢ ص ٤ .

(٣) انظر ترجمته فى الفوائد البهية فى تراجم الحنفية ص ٢٧ — ٢٨ .

يقوم على تركيز مذهبهم والترويج له ، والدفاع عنه . وهو يعرض لسور القرآن كلها ، ولكنه لا يتكلم إلا عن الآيات التى لها تعلق بالأحكام فقط ، وهو — وإن كان يسير على ترتيب سور القرآن — مبوب كتبويب الفقه ، وكل باب من أبوابه معنون بعنوان تندرج فيه المسائل التى يتعرض لها المؤلف فى هذا الباب .

استطراده لمسائل فقهية بعيدة عن فقه القرآن :

هذا ... وإن المؤلف — رحمه الله — لا يقتصر فى تفسيره على ذكر الأحكام التى يمكن أن تستنبط من الآيات ، بل نراه يستطرد إلى كثير من مسائل الفقه والخلافيات بين الأئمة ، مع ذكره للأدلة بتوسع كبير ، مما جعل كتابه أشبه ما يكون بكتب الفقه المقارن ، وكثيراً ما يكون هذا الاستطراد إلى مسائل فقهية لا صلة لها بالآية إلا عن بعد .

فمثلا نجد عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة البقرة : « وبشر الذين آمنو وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » يستطرد لمذهب الحنفية فى أن من قال لعبيده : من بشرنى بولادة فلانة فهو حر ، فبشره جماعة واحداً بعد واحد أن الأول يعتق دون غيره[١] .

ومثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٢٦) من سورة يوسف : « وشهد شاهد من أهلها إن كان قميصه قد من قبل ... الآية » نجده يستطرد لخلاف الفقهاء فى مدعى اللقطة إذا ذكر علامتها ، وخلافهم فى اللقيط إذا ادعاه رجلان ووصف أحدهما علامة فى جسده ، وخلافهم فى متاع البيت إذا ادعاه الزوج لنفسة وادعته الزوجة لنفسها ، وخلافهم فى مصراع الباب إذا ادعاه رب الدار والمستأجر ... وغير ذلك من مسائل الخلاف التى لا تتصل بالآية إلا عن بعد[٢] .

---

(١) ج ١ ص ٣٣ .

(٢) ج ٣ ص ٣١٠ — ٣١٢ .

تعصبه لمذهب الحنفية :

ثم إن المؤلف — رحمه الله وعفا عنه — متعصب لمذهب الحنفية إلى حد كبير ، مما جعله فى هذا الكتاب يتعسف فى تأويل بعض الآيات حتى يجعلها فى جانبه ، أو يجعلها غير صالحة للاستشهاد بها من جانب مخالفيه ، والذى يقرأ الكتاب يلمس روح التعصب فيه فى كثير من المواقف .

فمثلا عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة « ثم أتموا الصيام إلى الليل » نجده يحاول بتعسف ظاهر أن يجعل الآية دالة على أن من دخل فى صوم التطوع لزم إتمامه(١) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٢) من سورة البقرة « وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن ... الآية » نجده يحاول أن يستدل بالآية من عدة وجوه على أن للمرأة أن تعقد على نفسها بغير الولى وبدون إذنه(٢) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النساء « وآتوا اليتامى أموالهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ... الآية » وقوله فى آية (٦) منها « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشدا فادفعوا إليهم أموالهم ... الآية » نجده يحاول أن يأخذ من مجموع الآيتين دليلا لمذهب أبى حنيفة القائل بوجوب دفع المال لليتيم إذا بلغ خمساً وعشرين سنة ، وإن لم يؤنس منه الرشد(٣) .

حملة الجصاص على مخالفيه :

ثم إن الجصاص مع تعصبه لمذهبه وتعسفه فى التأويل ، ليس عف اللسان مع الإمام الشافعى رضى الله عنه ولا مع غيره من الأئمة ، وكثيراً ما نراه يرمى

(١) ج ١ ص ٢٧٤ — ٢٨٥ .
(٢) ج ١ ص ٤٧٢ — ٤٧٤ .
(٣) ج ٢ ص ٥٦ — ٥٩ .

الشافعى وغيره من مخالفى الحنفية بعبارات شديدة ، لاتليق من مثل الجصاص فى مثل الشافعى وغيره من الأئمة رحمهم الله .

فمثلا عندما عرض لآية المحرمات من النساء فى سورة النساء نجده يعرض للخلاف الذى بين الحنفية والشافعية فى حكم من زنى بامرأة ، هل يحل له التزوج بينتها أولا ؟ ثم يذكر مناظره طويلة جرت بين الشافعى وغيره فى هذه المسألة، ويناقش الشافعى فيما يرد به على مناظره ، ويرميه بعبارات شنيعة لاذعة كقوله: (فقد بأن أن ماقاله الشافعى وما سلمه له السائل كلام فارغ لامعنى تحته فى حكم ما سئل عنه[1]) .

وقوله (ماظننت أن أحداً ممن ينتدب لمناظرة خصم يبلغ به الإفلاس من الحجاج أن يلجأ إلى مثل هذا ، مع سخافة عقل السائل وغباوته[2]) .

وقوله حين لم يرقه أحد أجوبة الشافعى على سؤال مناظره (ولو كلم بذلك المبتدئوو من أحداث أصحابنا لما خفى عليهم عوار هذا الحجاج ، وضعف السائل ، والمسئول فيه[3]) .

ومثلا عند ذكره لمذهب الشافعى فى الترتيب بين أعضاء الوضوء نجده يقول : (وهذا القول مما خرج به الشافعى عن إجماع السلف والفقهاء[4]) كأن الشعافعى فى نظر الجصاص ممن لايعتد برأيه ، حتى ينعقد الإجماع بدونه .

تأثر الجصاص بمذهب المعتزلة .

كذلك نجد الجصاص يميل إلى عقيدة المعتزلة ، ويتأثر بها فى تفسيرة ، فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٢) من سورة البقرة : « واتبعوا ماتتلوا الشياطين على ملك سليمان . . . الاية » نجده يذكر حقيقة السحر ويقول إنه :

(١) ج ٢ ص ١٤٣
(٢) ج ٢ ص ١٤٣ :
(٣) ج ٢ ص ٢٤٥ :
(٤) ج ٢ ص ٤٤٠ — ٤٤١ :

(متى أطلق فهو اسم لكل أمر هو باطل لاحقيقة له ولا ثبات [١]) كما ينكر حديث البخارى فى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقرر أنه من وضع الملاحدة[٢] .

ومثلا عند ماتعرض لقوله تعالى فى الآية (١٠٣) من سورة الأنعام « لاتدركه الأبصار .. الآية » نجده يقول : (معناه لاتراه الأبصار. وهذا تمدح بنفى رؤية الأبصار كقوله تعالى (فى الآية (٢٥٥) من سورة البقرة)« لا تأخذه سنة ولا نوم ، وما تمدح الله بنفيه عن نفسه فإن إثبات ضده ذم ونقص ، فغير جائز إثبات نقيضه بحال ... فلما تمدح بنفى رؤية البصر عنه لم يجز إثبات ضده ونقيضه بحال ; إذ كان فيه إثبات صفة نقص . ولا يجوز أن يكون مخصوصاً بقوله تعالى فى الآيتين (٢٢ ، ٢٣) من سورة القيامة « وجوه يومئذ ناضرة « إلى ربها ناظرة » لأن النظر محتمل لمعان : منها انتظار الثواب ، كما روى عن جماعة من السلف ، فلما كان ذلك محتملا للتأويل لم يجز الاعتراض به على مالا مساغ للتأويل فيه . والأخبار المروية فى الرؤية إنما المراد بها العلم لو صحت ، وهو علم الضرورة الذى لاتشوبه شبهة ،ولا تعرض فيه الشكوك ، لأن الرؤية بمعنى العلم مشهورة فى اللغة[٣]) اهـ .

حملة الجصاص على معاوية رضى الله عنه :

كما أننا نلاحظ على الجصاص أنه تبدو منه البغضاء لمعاوية رضى الله عنه ، ويتأثر بذلك فى تفسيره . فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآيات (٣٩ و ٤٠ و ٤١) من سورة الحج « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير « الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق .... » إلى قوله « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر

(١) ج ١ ص ٤٨ .
(٢) ج ٢ ص ٥٥ .
(٣) ج ٣ ص ٥ .

ولله عاقبة الأمور » يقول : (.. وهذه صفة الخلفاء الراشدين ، الذين مكنهم الله في الأرض وهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلى رضى الله عنهم . وفيه الدلالة الواضحة على صحة إمامتهم ، لإخبار الله تعالى بأنهم إذا مكنوا فى الأرض قاموا بفروض الله عليهم ، وقد مكنوا فى الأرض فوجب أن يكونوا أئمة قائمين بأوامر الله منتهين عن زواجره ونواهيه ، ولا يدخل معاوية فى هؤلاء ؛ لأن الله إنما وصف بذلك المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم ، وليس معاوية من المهاجرين ، بل هو من الطلقاء[1]) اهـ .

ومثلا فى سورة النور عند قوله تعالى فى الآية (٥٥) . « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض ... الآية » يقول : (وفيه الدلالة على صحة إمامة الخلفاء الأربعة أيضاً ؛ لأن الله استخلفهم فى الأرض ومكن لهم كما جاء الوعد ، ولا يدخل فيهم معاوية ؛ لأنه لم يكن مؤمناً فى ذلك الوقت[2]) اهـ .

وفى سورة الحجرات عند قوله تعالى فى الآية (٩) : « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . . . الآية » ، نجده يجعل عليا رضى الله عنه هو المحق فى قتاله ، أما معاوية ومن معه فهم الفئة الباغية . وكذلك كل من خرج على على[3] .

وما كان أولى بصاحبنا أن يترك هذا التحامل على معاوية الصحابى ، ويفوض أمره إلى الله ، ولا يلوى مثل هذه الآيات إلى ميوله وهواه .

هذا . . . والكتاب مطبوع فى ثلاث مجلدات كبار ، ومتداول بين أهل العـــلم .

---

(١) جـ ٣ ص ٣٠٣ — ٣٠٤ .
(٢) جـ ٣ ص ٤٠٦
(٣) جـ ٣ ص ٤٩٢

٢ ـ أحكام القرآن

لكيا الهراسى (الشافعى)

ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير هو عماد الدين ، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الطبرى ، المعروف بالكيا[١] الهراسى ، الفقيه الشافعي ، المولود سنة ٤٥٠ هـ خمسين وأربعمائة من الهجرة .

أصله من خراسان ، ثم رحل عنها إلى نيسابور ، وتفقه على إمام الحرمين الجوينى مدة حتى برع ، ثم خرج من نيسابور إلى بيهق ودرس بها مدة ، ثم خرج إلى العراق ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد إلى أن توفى سنة ٥٠٤ هـ أربع وخمسمائة من الهجرة . وكان رحمه الله فصيح العبارة ، حلو الكلام ، محدثاً ، يستعمل الأحاديث فى مناظراته ومجالسه ، فرضى الله عنه وأرضاه[٢] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه

أهمية هذا التفسير ومبلغ تعصب صاحبه لمذهب الشافعى :

يعتبر هذا التفسير من أهم المؤلفات فى التفسير الفقهى عند الشافعية ؛ وذلك لأن مؤلفه شافعي لا يقل فى تعصبه لمذهبه عن الجصاص بالنسبة لمذهب الحنفية ، مما جعله يفسر آيات الأحكام على وفق قواعد مذهبه الشافعى ، ويحاول أن يجعلها غير صالحة لأن تكون فى جانب مخالفيه .

وليس أدل على روح التعصب عند المؤلف من مقدمة تفسيره التى يقرر

---

(١) الكيا بكسر الكاف وفتح الياء (المخففة) معناه فى اللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس . اهـ وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٩٠ .

(٢) انظر وفيات الأعيان جـ ١ ص ٥٨٧ — ٥٩٠

فيها (إن مذهب الشافعى رضى الله عنه أسد المذاهب وأقومها ، وأرشدها وأحكمها ، وإن نظر الشافعى فى أكثر آرائه ومعظم أبحاثه . يترقى عن حد الظن والتخمين ، إلى درجة الحق واليقين ، والسبب فى ذلك أنه — يعنى الشافعى — بنى مذهبه على كتاب الله تعالى الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وأنه أتيح له درك غوامض معانيه ، والغوص على تيار بحره لاستخراج ما فيه، وأن الله تعالى فتح له من أبوابه ، ويسر عليه من أسبابه، ورفع له من حجابه ما لم يسهل لمن سواه ، ولم يتأت لمن عداه ...[٢]) .

يقرر صاحبنا هذا ، وأنا لا أنكره عليه ، ولا أغض من مقام الشافعى رحمه الله ، ولكننى أقول : إن تقديم الكتاب بمثل هذا الكلام ناطق بأن الرجل متعصب لمذهبه ، وشاهد عليه بأنه سوف يسلك فى تفسيره مسلك الدفاع عن قواعد الشافعى ، وفروع مذهبه ، وإن أداه ذلك إلى التعسف فى التأويل .

وإذا لم يكفك هذا دليلا على تعصب الرجل فدونك الكتاب ، لتقف بعد القراءة فيه على مبلغ تعصب صاحبه وتعسفه .

تأدبه مع الأئمة وحملته على الجصاص :

غير أن الهراسى — والحق يقال — كان عف اللسان والقلم مع أئمة المذاهب الأخرى ، ومع كل من يتعرض للرد عليه من المخالفين، فلم يخض فيهم كما خاض الجصاص فى الشافعى وغيره ، وكل ما لاحظناه عليه من ذلك هو أنه وقف من الجصاص موقفاً كان فيه شديد المراس ، قوى الجدال ، قاسى العبارة، إذ أنه عرض لأهم مواضع الخلاف التى ذكرها الجصاص فى تفسيره وعاب فيها مذهب الشافعى ، ففند كل شبهة أوردها ، ودفع كل ما وجهه إلى مذهب الشافعى ، بحجج قوية يسلم له الكثير منها ، كما أنه اقتص للشافعى من الجصاص، فرماه بالعبارات الساخرة ، والألفاظ المقذعة « والجزاء من جنس العمل » .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٢٣) من سورة النساء . « حرمت عليكم أمهاتكم . . الآية » نجده يرد على الجصاص ما استدل به لمذهبه القائل

(١) ص ٢ .

بأن الزنى بامرأة يحرم على الزانى أصول المرأة وفروعها ، ويفند ما رد به الجصاص على الشافعى فى هذه المسألة ، ثم يقول فى شأن الجصاص (إنه لم يفهم معنى كلام الشافعى رضى الله عنه . ولم يميز بين محل ومحل ، ولكل مقام مقال ، ولتفهم معانى كتاب الله رجال ، وليس هو منهم[١]) .

كما يقول (وقد ذكر الشافعى مناظرة بينه وبين مسترشد طلب الحق فى هذه المسألة ، فأوردها الرازى متعجباً منها ، ومنبها على ضعف كلام الشافعى فيها ، ولا شىء أدل على جهل الرازى وقلة معرفته بمعانى الكلام من سياقه لهذه المناظرة ، واعتراضاته عليها[٢]) .

ويقول بعد قليل : (ولم يعلم هذا الجاهل معنى كلام الشافعى رضى الله عنه فاعترض عليه بما قاله ، وعجب الناس من ذلك ، فقال : فى هذه المناظرة أعجوبة لمن تأمل . فكان كما قال القائل :

وكم من عائب قولا صحيحاً   وآفته من الفهم السقيم[٣]

كما يقول فى موضع آخر : (وكيف يتصدى للتصنيف فى الدين من هذا مبلغ علمه ، ومقدار فهمه ، فيرسل الكلام من غير أن يتحقق ما يقول ... ثم يتعرض للطعن فيمن لو عمر عمر نوح ما اهتدى إلى مبادىء نظره فى الحقائق ، فنسأل الله تعالى التوفيق ، ونعوذ به من عمى البصيرة واتباع الهوى[٤]) .

هذا .. وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليبين لنا فى مقدمة تفسيره الحامل له على تأليفه ، ومنهجه الذى سلكه ، وتقديره لكتابه فيقول :

(ولما رأيت الأمر كذلك ـ يريد رجحان مذهب الشافعى على غيره ـ أردت أن أصنف كتاباً فى أحكام القرآن ، أشرح ما ابتدعه الشافعى رضى الله عنه

---

(١) ص ٢١٣
(٢) ص ٢١٤
(٣) ص ٢١٥
(٤) ص ٢٢٦

من أخذ الدلائل فى غوامض المسائل ، وضممت إليه ما نسجته على منواله ، واحتذيت فيه على مثاله ، على قدر طاقتى وجهدى ، ومبلغ وسعى وجدى ... ولا يعرف قدر هذا الكتاب ، وما فيه من العجب العجاب ، ولباب الألباب ، إلا من وفر حظه من علوم المعقول والمنقول ، وتبحر فى الفروع والأصول ، ثم انكب على مطالعة هذه الفصول ، بمسكة صحيحة ، وقريحة همة غير قريحة[1]) .

ثم إن المؤلف يتعرض لآيات الأحكام فقط ، مع استيفاء ما فى جميع السور . والكتاب مخطوط فى مجلد كبير ، وموجود فى دار الكتب المصرية ، وفى المكتبة الأزهرية .

---

(١) ص ٢ .

٣ ــ أحكام القرآن

لابن العربى (المالكى)

ترجمة المؤلف :

هو القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد المعافرى ، الأندلسى، الإشبيلى ، الإمام ، العلامة ، المتبحر ، ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها . . كان أبوه من فقهاء إشبيلية ورؤسائها .

ولد أبو بكر سنة ٤٦٨ هـ ثمان وستين وأربعمائة من الهجرة ، وتأدب ببلده، وقرأ القراءات ، ثم رحل إلى مصر ، والشام ، وبغداد ، ومكة . وكان يأخذ عن علماء كل بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه ، والأصول ، وقيد الحديث ، واتسع فى الرواية ، وأتقن مسائل الخلاف والكلام ، وتبحر فى التفسير ، وبرع فى الأدب والشعر . . . وأخيراً عاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير ، لم يأت به أحد قبله ، ممن كانت له رحلة إلى المشرق .

وعلى الجملة ، فقد كان ـ رحمه الله ـ من أهل التفنن فى العلوم ، والاستبحار فيها ، والجمع لها ، متقدما فى المعارف كلها ، متكلما فى أنواعها . نافذا فى جمعها ، حريصا على أدائها ونشرها ، ثاقب الذهن فى تمييز الصواب منها ، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق ، مع حسن المعاشرة ، وكثرة الاحتمال ، وكرم النفس ، وحسن العهد ، وثبات الود . سكن بلده وشوور فيه ، وسمع ، ودرس الفقه والأصول ، وجلس للوعظ والتفسير ، ورحل إليه للسماع . قال القاضى عياض ـ وهو ممن أخذوا عنه ـ : (استقضى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذ أحكامه ، وكانت له فى الظالمين سورة مرهوبة ، وتؤثر عنه فى قضائه أحكام غريبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه) .

هذا وقد ألف ـ رحمه الله ـ تصانيف كثيرة مفيدة ، منها : أحكام القرآن . . وهو ما نحن بصدده الآن ، وكتاب المسالك فى شرح موطأ مالك ، وكتاب

القبس على شرح موطأ مالك بن أنس ، وعارضة الأحوذى على كتاب الترمذى، والقواصم والعواصم ، والمحصول فى أصول الفقه . وكتاب الناسخ والمنسوخ ، وتخليص التلخيص ، وكتاب القانون فى تفسير القرآن العزيز ، وكتاب أنوار الفجر فى تفسير القرآن .. قيل : إنه ألفه فى عشرين سنة ، ويقع فى ثمانين ألف ورقة ، وذكر بعضهم أنه رأى هذا التفسير وعد أسفاره فوجد عدتها ثمانين مجلدا . وبالجملة فقد خلف — رحمه الله — كتبا كثيرة ، انتفع الناس بها بعد وفاته ، كما نفع هو بعلمه من جلس إليه فى حياته . هذا . . وقد كانت وفاته — رحمه الله — سنة ٥٤٣ هـ ثلاث وأربعين وخمسمائة من الهجرة منصرفه من مراكش ، وحمل ميتا إلى مدينة فاس ودفن بها . فرضى الله عنه وأرضاه(١) .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه .

يتعرض هذا الكتاب لسور القرآن كلها ، ولكنه لا يتعرض إلا لما فيها من آيات الأحكام فقط ، وطريقته فى ذلك أن يذكر السورة ثم يذكر عدد ما فيها من آيات الأحكام ، ثم يأخذ فى شرحها آية آية . . قائلا : الآية الأولى وفيها خمس مسائل (مثلا) ، والآية الثانية وفيها سبع مسائل (مثلا) وهكذا، حتى يفرغ من آيات الأحكام الموجودة فى السورة .

تفسير ابن عربى بين إنصافه واعتسافه :

هذا . . وإن الكتاب يعتبر مرجعا مهما للتفسير الفقهى عند المالكية ، وذلك لأن مؤلفه مالكى تأثر بمذهبه ، فظهرت عليه فى تفسيره روح التعصب له ، والدفاع عنه ، غير أنه لم يشتط فى تعصبه إلى الدرجة التى يتغاضى فيها عن كل زلة علمية تصدر من مجتهد مالكى ، ولم يبلغ به التعسف إلى الحد الذى يجعله يفند كلام مخالفه إذا كان وجيها ومقبولا ، والذى يتصفح هذا التفسير يلمس منه روح الإنصاف لمخالفيه أحياناً ، كما يلمس منه روح التعصب المذهبى التى تستولى على صاحبها فتجعله أحياناً كثيرة يرمى مخالفه وإن كان إماما له

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب — ٢٨١ — ٢٨٤ .

قيمته ومركزه بالكلمات المقذعة اللاذعة ، تارة بالتصريح ، وتارة بالتلويح .
ويظهر لنا أن الرجل كان يستعمل عقله الحر ، مع تسلط روح التعصب عليه ، فأحيانا يتغلب العقل على التعصب ، فيصدر حكمه عادلا لا تكدره شائبة التعصب ، وأحياناً — وهو الغالب — تتغلب العصبية المذهبية على العقل ، فيصدر حكمه مشوبا بالتعسف ، بعيداً عن الإنصاف .

طرف من إنصافه .

وإذا أردت أن أضع يدك على شيء من إنصاف الرجل واستعماله لعقله ، فانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٧) من سورة البقرة : «أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ... الآية » حيث يقول : (المسألة السادسة عشرة : قوله تعالى « ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد » الاعتكاف فى اللغة هو اللبث ، وهو غير مقدر عند الشافعى ، وأقله لحظة ، ولا حد لأكثره. وقال مالك وأبو حنيفة : هو مقدر بيوم وليلة ، لأن الصوم عندهما من شرطه. قال علماؤنا : لأن الله تعالى خاطب الصائمين . وهذا لا يلزم فى الوجهين : أما اشتراط الصوم فيه بخطابه تعالى لمن صام فلا يلزم بظاهره ولا باطنه ، لأنها حال واقعة لا مشترطة ، وأما تقديره بيوم وليلة لأن الصوم من شرطه فضعيف، فإن العبادة لا تكون مقدرة بشرطها ، ألا ترى أن الطهارة شرط فى الصلاة ، وتنقضى الصلاة ، وتبقى الطهارة ؟ . . . [1]) اهـ .

فأنت ترى أن المؤلف — رحمه الله — لم يرقه هذا الاستدلال الذى أظهر بطلانه ، وهذا دليل على أنه يستعمل عقله الحر أحياناً ، فلا يسكت على الزلة العلمية فيما يعتقد ، وإن كان فيها ترويج لمذهبه .

وانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى فى الاية (٦) من سورة المائدة « ياأيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة .. الاية » حيث يقول : (المسألة السابعة والعشرون فى قوله تعالى « برءوسكم » .. ثم يذكر أن العلماء اختلفوا فى مسح

---

(١) جـ ١ ص ٤٠

الرأس على أحد عشر قولا،ثم يأخذ فى بيانها واحداً واحداً. ثم يقول:(ولكل قول من هذه الأقوال مطلع من القرآن والسنة) ثم يذكر لنا مطلع كل قول ، ثم يقول بعد أن يفرغ من هذا كله:(وليس يخفى على أحد عند اطلاعه على هذه الأقوال والأنحاء والمطلعات أن القوم لم يخرج اجتهادهم عن سبيل الدلالات فى مقصود الشريعة . ولا جاوز طرفيها إلى الإفراط ، فإن للشريعة طرفين ، أحدهما طرف التخفيف فى التكليف، والآخر طرف الاحتياط فى العبادات، فمن احتاط استوفى الكل ، ومن خفف أخذ بالبعض . . .)[1] اهـ

فأنت ترى أنه يصوب كل ما قيل فى مسح الرأس .

وانظر إليه فى الآية السابقة حيث يقول : (المسألة السادسة والأربعون) نزع علماؤنا بهذه الآية إلى أن إزالة النجاسة غير واجبة ، لأنه قال : إذا قمتم إلى الصلاة : تقديره - كما سبق - وأنتم محدثون فاغسلوا وجوهكم وأيديكم ، فلم يذكر الاستنجاء وذكر الوضوء ، ولو كان واجبا لكان أول مبدوء به . . وهى رواية أشهب عن مالك . وقال ابن وهب: لا تجزىء الصلاة بها لا ذاكرا ولا ناسياً . . . والصحيح رواية ابن وهب ، ولا حجة فى ظاهر القرآن،لأن الله سبحانه وتعالى إنما بين فى آية الوضوء صفة الوضوء خاصة ، وللصلاة شروط : من استقبال الكعبة ، وستر العورة ، وإزالة النجاسة . . . وبيان كل شرط منها فى موضعه . .)[2] .

فأنت ترى أنه لا يميل إلى رواية أشهب عن مالك . ولا يرى فى ظاهر الآية ما يشهد له .

طرف من تعصبه لمذهبه :

وإن أردت أن أضع يدك على شىء من تعصب ابن العربى ، فانظر إليه عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٨٦) من سورة النساء « وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها . . الآية » حيث يقول . (المسألة السابعة) إذا

---

(١) ج ١ ص ٢٣٥ - ٢٣٦ .

(٢) ج ١ ص ٢٤٠ .

كان الرد فرضاً بلا خلاف ، فقد استدل علماؤنا على أن هذه الآية دليل على وجوب الثواب فى الهبة للعين ، وكما يلزمه أن يرد مثل التحية يلزمه أن يرد مثل الهبة : وقال الشافعي : ليس فى هبة الأجنبى ثواب . . . وهذا فاسد ، لأن المرء ما أعطى إلا ليعطى ، وهذا هو الأصل فيها ، وإنا لا نعمل عملا لمولانا إلا ليعطينا ، فكيف بعضنا لبعض . .)[1] اهـ .

حملته على مخالفى مذهبه :

وإن أردت أن تقف على مبلغ قسوته على أئمة المذاهب الأخرى وأتباعهم، فانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢٩) من سورة البقرة «الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان ، ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً . . . الآية » حيث يقول : (المسألة الرابعة عشرة) هذا يدل على أن الخلع طلاق ، خلافا لقول الشافعي فى القديم إنه فسخ . وفائدة الخلاف أنه إن كان فسخا لم يعد طلقة . قال الشافعي : لأن الله تعالى ذكر الطلاق مرتين وذكر الخلع بعده ، وذكر الثالث بقوله تعالى « فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » . . . وهذا غير صحيح ، لأنه لو كان كل مذكور فى معرض هذه الآيات لا يعد طلاقا لوقوع الزيادة على الثلاث لما كان قوله تعالى « أو تسريح بإحسان » طلاقا ، لأنه يزيد به على الثلاث ، ولا يفهم هذا إلا غبى أو متغاب ، . الخ)[2] .

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء « . . . وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماءاً . . . الآية » حيث يقول: « المسألة الثامنة والعشرون» قوله تعالى: «ماءاً» قال أبو حنيفة : هذا نفى فى نكرة وهو يعم لغة ، فيكون مفيداً جواز الوضوء بالماء المتغير . وغير المتغير لانطلاق اسم الماء عليه . . قلنا : استنوق الجمل إلى أن يستدل أصحاب أبى حنيفة باللغات ، ويقولون على ألسنة العرب وهم ينبذونها

---

(١) جـ ١ ص ١٩٤ – ١٩٥ .
(٢) جـ ١ ص ٨٢ .

فى أكثر المسائل بالعراء . واعلموا أن النفى فى النكرة يعم كما قلتم ، ولكن فى الجنس ، فهو عام فى كل ما كان من سماء ، أو بئر ، أو عين ، أو نهر ، أو بحر عذب أو ملح ، فأما غير الجنس فهو المتغير فلا يدخل فيه ، كما لم يدخل فيه ماء الباقلاء . . . . » اهـ[1] .

ونجده فى موضع من كتابه يرمى أبا حنيفة بأنه كثيراً ما يترك الظواهر والنصوص للأقيسة[2] ، ويقول عنه فى موضع آخر إنه (سكن دار الضرب فكثر عنده المدلس ، ولو سكن المعدن كما قيض الله لمالك ، لما صدر عنه إلا إبريز الدين وإكسير الملة ، كما صدر عن مالك[3]) اهـ .

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة : « ياأيها الذين آمنو إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم . . . الآية » حيث يقول فى تعريض ساخر : (المسألة الحادية عشرة) قوله عز وجل « فاغسلوا » وظن الشافعى — وهو عند أصحابه معد بن عدنان فى الفصاحة بله أبى حنيفة وسواه — أن الغسل صب الماء على المغسول من غير عرك ، وقد بينا فساد ذلك فى مسائل الخلاف . وفى سورة النساء ، وحققنا أن الغسل مس اليد مع إمرار الماء ، أو ما فى معنى اليد[4]) اهـ .

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء « . . فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ذلك أدنى ألا تعولوا » حيث يقول :(المسألة الثانية عشرة) قوله تعالى « ذلك أدنى ألا تعولوا » اختلف الناس فى تأويله على ثلاثة أقوال : الأول : أن لا يكثر عيالكم . . قاله الشافعى . الثانى . أن لا تضلوا . . قاله مجاهد . الثالث : أن لا تميلوا . . قاله ابن عباس

---

(١) ج١ ص١٨٦
(٢) ج١ ص١٧٦
(٣) ج١ ص٣١٨
(٤) ج١ ص٢٣٢

والناس . . قلنا : أعجب أصحاب الشافعى . بكلامه هذا ، وقالوا هو حجة ، لمنزلة الشافعى فى اللغة،وشهرته فى العربية،والاعتراف له بالفصاحة،حتى لقد قال الجوينى:هو أفصح من نطق بالضاد، مع غوصه على المعانى ومعرفته بالأصول . . واعتقدوا أن معنى الآية: فانكحوا واحدة إن خفتم أن يكثر عيالكم ، فذلك أقرب إلى أن تنتفى عنكم كثرة العيال . . قال ابن العربى : (كل ماقال الشافعى، أو قيل عنه ، أو وصف به ، فهو كله جزء من مالك و نغبة من بحره ، ومالك أوعى سمعا ، وأثقب فهما ، وافصح لسانا ، وأبرع بيانا ، وأبدع وصفاً ، ويدلك على ذلك مقابلة قول بقول فى كل مسألة وفصل) ثم تكلم بعد ذلك عن معنى لفظ «عال» فى اللغة . ثم قال : (والفعل فى كثرة العيال رباعى لامدخل له فى الآية ، فقد ذهبت الفصاحة ، ولم تنفع الضاد المنطوق بها على الاختصاص .) اه (١) .

وانظر إليه عندما تعرض لقوله تعالى فى سورة النساء « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات . . . الآية » حيث يقول : (المسألة الخامسة) قال أبو بكر الرازى إمام الحنفية فى كتاب أحكام القرآن : ليس نكاح الأمة ضرورة ، لأن الضرورة مايخاف منه تلف النفس، أو تلف عضو، وليس فى مسألتنا شىء من ذلك . قلنا : هذا كلام جاهل بمنهاج الشرع ، أو متهكم لا يبالى بموارد القول . نحن لم نقل إنه حكم نيط بالضرورة، إنما قلنا: إنه حكم علق بالرخصة المقرونة بالحاجة ، ولكل واحد منهما حكم يختص به، وحالة يعتبر فيها.ومن لم يفرق بين الضرورة والحاجة التى تكون معها الرخصة، فلا يعنى بالكلام معه ، فانه معاند أو جاهل ، وتقرير ذلك إتعاب للنفس عند من لا ينتفع به)(٢) اه .

فأنت ترى من هذه الأمثلة كلها . أن الرجل ليس عف اللسان مع الأئمة ،

---

(١) ج ١ ص ١٣١ . (٢) ج ١ ص ١٦٤ .

ولا مع أتباعهم ، وهذه ظاهرة من ظواهر التعصب المذهبي، الذى يقود صاحبه إلى مالا يليق به ، ويدفعه إلى الخروج عن حد اللطاقة والكياسة .

احتكامه إلى اللغة :

ثم إن المؤلف — رحمه الله — كثيراً ما يحتكم إلى اللغة فى استنباط المعانى من الآيات ، وفى الكتاب من ذلك أمثلة كثيرة يمكن الرجوع إليها بسهولة(١) .

كراهته للإسرائيليات :

كما أنه شديد النفرة من الخوض فى الإسرائيليات ، ولذلك عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة البقرة « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة . . الآية » نجده يقول :(المسألة الثانية) فى الحديث عن بنى إسرائيل : كثر استرسال العلماء فى الحديث عنهم فى كل طريق ، وقد ثبت عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج » ومعنى هذا الخبر : الحديث عنهم بما يخبرون به عن أنفسهم وقصصهم ، لا بما يخبرون به عن غيرهم ؛ لأن أخبارهم عن غيرهم مفتقرة إلى العدالة والثبوت إلى منتهى الخبر ، وما يخبرون به عن أنفسهم ، فيكون من باب إقرار المرء على نفسه أو قومه ، فهو أعلم بذلك ، وإذا أخبروا عن شرع لم يلزم قبوله ، ففى رواية مالك عن عمر رضى الله عنه أنه قال : رآنى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أمسك مصحفاً قد تشرمت حواشيه ، فقال ما هذا ؟ قلت : جزء من التوراة ، فغضب وقال : والله لو كان موسى حياً ما وسعه إلا اتباعى(٢)) اهـ .

---

(١) انظر ما قاله عند تفسير قوله تعالى فى سورة النساء « ذلك أدنى ألا تعولوا » ج ١ ص ١٣١ ، وما قاله عند تفسير قوله تعالى فى سورة النساء أيضا « فاهجروهن فى المضاجع » ج ١ ص ١٧٥

(٢) ج ١ ص ١١

نفرته من الأحاديث الضعيفة :

كذلك نجد ابن العربى شديد النفرة من الأحاديث الضعيفة ، وهو يحذر منها فى تفسيره هذا ، فيقول لأصحابه بعد أن بين ضعف الحديث القائل بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم توضأ مرة وقال : هذا وضوء لا يقبل الله الصلاة إلا به ، وتوضأ مرتين مرتين ، وقال : من توضأ مرتين مرتين آتاه الله أجره مرتين ، ثم توضأ ثلاثا ثلاثا وقال : (هذا وضوئى ووضوء الأنبياء من قبلى ، ووضوء أبى إبراهيم) يقول لهم بعد ما بين ضعف هذا الحديث : (وقد ألقيت إليكم وصيتى فى كل ورقة ومجلس ، أن لا تشتغلوا من الأحاديث بما لا يصح سنده ..) اهـ[1] .

هذا والكتاب مطبوع فى مجلدين كبيرين ، ومتداول بين أهل العلم .

---

(١) جـ ص ٢٤١

٤ ـ الجامع لأحكام القرآن

لأبي عبد الله القرطبي (المالكي)

ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير : هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبى بكر بن فرح — بإسكان الراء والحاء المهملة — الأنصارى ، الخزرجي ، الأندلسى ، القرطبي المفسر .

كان — رحمه الله — من عباد الله الصالحين ، والعلماء العارفين ، الزاهدين فى الدنيا ، المشغولين بما يعنيهم من أمور الآخرة ، وبلغ من زهده أن اطرح التكلف ، وصار يمشى بثوب واحد وعلى رأسه طاقية ، وكانت أوقاته كلها معمورة بالتوجه إلى الله وعبادته تارة ، وبالتصنيف تارة أخرى ، حتى أخرج للناس كتبا انتفعوا بها . ومن مصنفاته : كتابه فى التفسير المسمى بالجامع لأحكام القرآن ، وهو ما نحن بصدده ، وشرح أسماء الله الحسنى ، وكتاب التذكار فى أفضل الأذكار ، وكتاب التذكرة بأمور الآخرة ، وكتاب شرح التقصى ، وكتاب قمع الحرص بالزهد والقناعة ورد ذل السؤال بالكتب والشفاعة . قال ابن فرحون : لم أقف على تأليف أحسن منه فى بابه . وله كتب غير ذلك كثيرة ومفيدة .

سمع من الشيخ أبى العباس بن عمر القرطبي ، مؤلف المفهم فى شرح صحيح مسلم بعضَ هذا الشرح ، وحدث عن أبى على الحسن بن محمد البكرى ، وغيرهما . وكان مستقراً بمنية ابن خصيب ، وتوفى ودفن بها فى شوال سنة ٦٧١هـ إحدى وسبعين وستمائة من الهجرة ، فرحمه الله رحمة واسعة[١] .

---

(١) انظر الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب لابن فرحون ص ٣١٧ - ٣١٨

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

وصف العلامة ابن فرحون هذا التفسير فقال: (هو من أجل التفاسير وأعظمها نفعا ، أسقط منه القصص والتواريخ ، وأثبت عوضها أحكام القرآن واستنباط الأدلة ، وذكر القراءات والإعراب والناسخ والمنسوخ[١]) وذكر المؤلف رحمه الله فى مقدمة هذا التفسير السبب الذى حمله على تأليفه ، والطريق الذى رسمه لنفسه ليسير عليه فيه ، وشروطه التى اشترطها على نفسه فى كتابه فقال : (وبعد ، فلما كان كتاب الله هو الكفيل بجمع علوم الشرع الذى استقل بالسنة والفرض ، ونزل به أمين السماء إلى أمين الأرض ، رأيت أن أشتغل به مدى عمرى ، وأستفرغ فيه منتى[٢] ، بأن أكتب فيه تعليقا وجيزا يتضمن نكتا من التفسير ، واللغات ، والإعراب ، والقراءات ، والرد على أهل الزيغ والضلالات ، وأحاديث كثيرة شاهدة لما نذكره من الأحكام ونزول الآيات ، جامعا بين معانيها . ومبينا ما أشكل منها بأقاويل السلف ومن تبعهم من الخلف . . . . . وشرطى فى هذا الكتاب : إضافة الأقوال إلى قائليها ، والأحاديث إلى مصنفيها ، فإنه يقال : من بركة العلم أن يضاف القول إلى قائله ، وكثيراً ما يجىء الحديث فى كتب الفقه والتفسير مبهما ، لا يعرف من أخرجه إلا من اطلع على كتب الحديث ، فيبقى من لا خبرة له بذلك حائراً لا يعرف الصحيح من السقيم ، ومعرفة ذلك علم جسيم . فلا يقبل منه الاحتجاج به ولا الاستدلال حتى يضيفه إلى من خرجه من الأئمة الأعلام ، والثقات المشاهير من علماء الإسلام ، ونحن نشير إلى جمل من ذلك فى هذا الكتاب ، والله الموفق للصواب . وأضرب عن كثير من قصص المفسرين ، وأخبار المؤرخين ، إلا مالا بد منه ، ومالا غنى عنه للتبيين ، واعتضت من ذلك تبيين آى الأحكام ، بمسائل تفسر عن معناها ، وترشد الطالب إلى مقتضاها ، فضمنت كل آية تتضمن حكما أو حكمين فما زاد مسائل أبين فيها ما تحتوى عليه من أسباب النزول ،

---

(١) الديباج المذهب ص ٣١٧

(٢) المنة : القوة .

والتفسير ، والغريب ، والحكم . فإن لم تتضمن حكما ذكرت ما فيها من التفسير والتأويل . . . وهكذا إلى آخر الكتاب ، وسميته بالجامع لأحكام القرآن ، والمبين لما تضمنه من السنة وأحكام الفرقان . . .) اهـ[1]

والذى يقرأ فى هذا التفسير يجد أن القرطبى — رحمه الله — قد وفى بما شرط على نفسه فى هذا التفسير ، فهو يعرض لذكر أسباب النزول ، والقراءات ، والإعراب ، ويبين الغريب من ألفاظ القرآن ، ويحتكم كثيراً إلى اللغة ، ويكثر من الاستشهاد بأشعار العرب ، ويرد على المعتزلة ، والقدرية ، والروافض ، والفلاسفة ، وغلاة المتصوفه ، ولم يسقط القصص بالمرة ، كما تفيده عبارة ابن فرحون ، بل أضرب عن كثير منها ، كما ذكر فى مقدمة تفسيره ، ولهذا نلاحظ عليه أنه يروى أحيانا ما جاء من غرائب القصص الإسرائيلى .

هذا . . وإن المؤلف — رحمه الله — ينقل عن السلف كثيراً عما أثر عنهم فى التفسير والأحكام ، مع نسبة كل قول إلى قائله وفاءاً بشرطه ، كما ينقل عمن تقدمه فى التفسير ، خصوصا من ألف منهم فى كتب الأحكام ، مع تعقيبه على ما ينقل منها . وممن ينقل عنهم كثيرا : ابن جرير الطبرى ، وابن عطية ، وابن العربى ، والكيا الهراسى ، وأبو بكر الجصاص .

وأما من ناحية الأحكام ، فإنا نلاحظ عليه أنه يفيض فى ذكر مسائل الخلاف ما تعلق منها بالآيات عن قرب ، وما تعلق بها عن بعد ، مع بيان أدلة كل قول .

إنصاف القرطبي وعدم تعصبه :

وخير ما فى الرجل أنه لا يتعصب لمذهبه المالكى ، بل يمشى مع الدليل حتى يصل إلى ما يرى أنه الصواب أياً كان قائله .

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة البقرة : « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين » نجده عند المسألة السادسة عشرة

---

(١) القرطبي ج ١ ص ٢ — ٣

من مسائل هذه الآية يعرض لإمامة الصغير ، ويذكر أقوال من يجيزها ومن يمنعها ، ويذكر أن من المانعين لها جملة : مالكا ، والثورى ، وأصحاب الرأى ، ولكنا نجده يخالف إمامه لما ظهر له من الدليل على جوازها ، وذلك حيث يقول : (قلت : إمامة الصغير جائزة إذا كان قارئا ، ثبت فى صحيح البخارى عن عمرو بن سلمة قال : كنا بماء ممر الناس ، وكان يمر بنا الناس فنسألهم ما للناس ؟ ما هذا الرجل ؟ فيقولون : يزعم أن الله أرسله ... أوحى إليه كذا .. أوحى إليه كذا ، فكنت أحفظ هذا الكلام ، فكأنما يقر فى صدرى ، وكانت العرب تلوم إسلامها فيقولون : اتركوه وقومه ، فإنه إن ظهر عليهم فهو نبى صادق ، فلما كانت وقعة الفتح بادر كل قوم بإسلامهم ، وبدر أبى قومى بإسلامهم ، فلما قدم قال : جئتكم والله من عند نبى الله حقا .. قال : صلوا صلاة كذا فى حين كذا ، فإذا حضرت الصلاة فليؤذن أحدكم ، وليؤمكم أكثركم قرآناً ، فنظروا فلم يكن أحد أكثر منى قرآناً ، لما كنت أتلقى من الركبان .. فقدمونى بين أيديهم وأنا ابن ست أو سبع سنين ، وكانت على بردة إذا سجدت تقلصت عنى ، فقالت امرأة من الحى : ألا تغطون عنا إست قارئكم ؟ فاشتروا ، فقطعوا لى قميصا ، فما فرحت بشىء فرحى بذلك القميص) اه[1] .

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٧٣) من سورة البقرة « ... فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ... » نراه يعقد المسألة الثانية والثلاثين من مسائل هذه الآية فى اختلاف العلماء فيمن اقترن بضرورته معصية ، فيذكر أن مالكا حظر ذلك عليه ، وكذا الشافعى فى أحد قوليه .... وينقل عن ابن العربى أنه قال : (عجبا ممن يبيح له ذلك مع التمادى على المعصية ، وما أظن أحداً يقوله : فإن قاله فهو مخطىء قطعا) ثم يعقب القرطبى على هذا كله فيقول : (قلت : الصحيح خلاف هذا ، فإن إتلاف المرء نفسه فى سفر المعصية أشد معصية مما هو فيه ، قال الله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة النساء « ولا تقتلوا أنفسكم » ، وهذا عام ، ولعله يتوب فى ثانى الحال ، فتمحو التوبة عنه ما كان ...[2]) اه

---

(١) ج ١ ص ٣٥٣ .

(٢) ج ٢ ص ٢٣٢ .

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ... الآية » نجده يعقد المسألة السابعة عشرة من المسائل التى تتعلق بهذه الآية فى اختلاف العلماء فى حكم صلاة عيد الفطر فى اليوم الثانى ، فيذكر عن ابن عبد البر أنه لا خلاف عن مالك وأصحابه أنه لا تصلى صلاة العيد فى غير يوم العيد ، ويذكر عنه أيضاً أنه قال : (لو قضيت صلاة العيد بعد خروج وقتها لأشبهت الفرائض ، وقد أجمعوا فى سائر السنن أنها لا تقضى ، فهذه مثلها) ثم يعقب القرطبى على هذا فيقول : (قلت : والقول بالخروج — يعنى لصلاة العيد فى اليوم الثانى — إن شاء الله أصح ، للسنة الثابتة فى ذلك ، ولا يمتنع أن يستثنى الشارع من السنن ما شاء ، فيأمر بقضائه بعد خروج وقته ،وقد روى الترمذى عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم (من لم يصل ركعتى الفجر فليصلهما بعد ما تطلع الشمس) ...قلت : وقد قال علماؤنا : من ضاق عليه الوقت ، وصلى الصبح، وترك ركعتى الفجر ،فإنه يصليهما بعد طلوع الشمس إن شاء ، وقيل لا يصلهما حينئذ . ثم إذا قلنا يصليهما .. فهل ما يفعله قضاء ؟ أو ركعتان ينوب له ثوابهما عن ثواب ركعتى الفجر ؟ قال الشيخ أبو بكر : وهذا الجارى على أصل المذهب ، وذكر القضاء تجوز . قلت : ولا يبعد أن يكون حكم صلاة الفطر فى اليوم الثانى على هذا الأصل ، لاسيما مع كونها مرة واحدة فى السنة ، مع ما ثبت من السنة : ثم روى عن النسائى بسنده (أن قوما رأوا الهلال فأتوا النبى صلى الله عليه وسلم فأمرهم أن يفطروا بعد ما ارتفع النهار، وأن يخرجوا إلى العيد من الغد . وفى رواية : ويخرجوا لمصلاهم من الغد[1]) اهـ .

ومثلا نجده عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٧٨) من سورة البقرة « أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم...:الآية» نجده فى المسألة الثانية عشرة من مسائل هذه الآية يذكر خلاف العلماء فى حكم من أكل فى نهار رمضان ناسياً . . . فيذكر عن مالك أنه يفطر وعليه القضاء ، ولكنه لا يرضى ذلك الحكم

(١) ج ٢ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ .

فيقول : (وعند غير مالك ليس بمفطر كل من أكل ناسياً لصومه . قلت : وهو الصحيح ، وبه قال الجمهور إن من أكل أو شرب ناسياً فلا قضاء عليه ، وإن صومه تام ، لحديث أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أكل الصائم ناسياً أو شرب ناسياً فإنما هو رزق ساقه الله تعالى إليه ، ولا قضاء عليه . . . »[1]) اهـ .

ومثلا عند ماتعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٦) من سورة البقرة «لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين » نجده يذكر فى المسألة السادسة من مسائل هذه الاية اختلاف العلماء فى حكم المتعة ، فيذكر من يقول بوجوبها ، ويذكر من يقول بندبها ، ويعد فى ضمن القائلين بالندب مالكا رحمه الله . ثم يقول : (تمسك أهل القول الأول بمقتضى الأمر ، وتمسك أهل القول الثانى بقوله تعالى « حقا على المحسنين » و « على المتقين » ولو كانت واجبة لأطلقها على الخلق أجمعين . والقول الأول أولى ؛ لأن عمومات الأمر بالإمتاع فى قوله « متعوهن » وإضافة الإمتاع إليهن بلام التمليك فى قوله « وللمطلقات متاع » أظهر فى الوجوب منه فى الندب . وقوله «على المتقين» تأكيد لإيجابها ؛ لأن كل واحد يجب عليه أن يتقى الله فى الإشراك به ومعاصيه ، وقد قال تعالى فى القرآن فى الآية (٢) من سورة البقرة « هدى للمتقين[2] ») اهـ .

موقفه من حملات ابن العربى على مخالفيه :

كذلك نجد القرطبى ـ رحمه الله ـ كثيرا ما يدفعه الإنصاف إلى أن يقف موقف الدفاع عمن يهاجمهم ابن العربى من المخالفين ، مع توجيه اللوم إليه أحيانا ، على ما يصدر منه من عبارات قاسية فى حق علماء المسلمين ، الذاهبين إلى ما لم يذهب إليه .

---

(١) جـ ٢ ص ٣٢٢ .

(٢) جـ ٣ ص ٢٠٠

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة النساء «... ذلك أدنى ألا تعولوا» نراه يروى عن الشافعى أنه فسرها على معنى ألا تكثر عيالكم ثم يقول: (قال الثعلبى: وما قال هذا غيره وإنما يقال: أعال بعيل إذا كثر عياله، وزعم ابن العربى: أن عال على سبعة معان لاثامن لها، يقال: عال: مال، الثانى: زاد. الثالث. جار. الرابع: افتقر. الخامس: أثقل.. حكاه ابن دريد. قالت الخنساء: (ويكفى العشيرة ماعالها). السادس: عال قام بمؤنة العيال، ومنه قوله عليه السلام «وابدأ بمن تعول». السابع. عال. غلب، ومنه عيل صبره أى غلب، ويقال: أعال الرجل: كثر عياله. وأما عال بمعنى كثر عياله فلا يصح، قلت: أما قول الثعلبى (ما قاله غيره) فقد أسنده الدارقطنى فى سننه عن زيد بن أسلم، وهو قول جابر بن زيد.. فهذان إمامان من علماء المسلمين وأئمتهم قد سبقا الشافعى إليه. وأما ما ذكره ابن العربى من الحصر وعدم الصحة فلا يصح. وقد ذكرنا. عال الأمر اشتد وتفاهم.. حكاه الجوهرى. وقال الهروى فى غريبه: (وقال أبو بكر: يقال عال الرجل فى الأرض يعيل فيها إذا ضرب فيها. وقال الأحمر: يقال: عالنى الشىء يعيلنى عيلا ومعيلا إذا أعجزك وأما عال كثر عياله فذكره الكسائى وأبو عمرو الدورى وابن الأعرابى. قال الكسائى أبو الحسن على بن حمزة: العرب تقول: عال يعول وأعال يعيل أى كثر عياله. وقال أبو حاتم: كان الشافعى أعلم بلغة العرب منا.. ولعله لغة. قال الثعلبى المفسر: قال أستاذنا أبو القاسم ابن حبيب: سألت أبا عمرو الدورى عن هذا — وكان إماماً فى اللغة غير مدافع — فقال هى لغة حمير وأنشد:

وإن الموت يأخذ كل حى بلا شك وإن أمشى وعالا

يعنى: وإن كثر ما شيته وعياله. وقال أبو عمرو بن العلاء: لقد كثرت وجوه العرب حتى خشيت أن آخذ على لاحن لحناً. وقرأ طلحة بن مصرف: ألا تعيلوا وهى حجة الشافعى رضى الله عنه. وقدح الزجاج وغيره فى تأويل عال من العيال بأن قال: إن الله تعالى قد أباح كثرة السرارى وفى ذلك تكثير العيال. فكيف يكون أقرب إلى ألا تكثر العيال؟ وهذا القدح غير صحيح، لأن

السرارى إنما هى مال يتصرف فيه بالبيع ، وإنما القادح : الحرائر ذوات الحقوق الواجبة . وحكى ابن الأعرابى : أن العرب تقول : عال الرجل إذا كثر عياله[١]) اه .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٧) من سورة النحل « ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً » نراه يعيب على ابن العربى تشنيعه على من يقول من الحنفية وغيرهم بحل النبيذ ، وجعله إياهم مثل أغبياء الكفار فيقول : (وهذا تشنيع شنيع ، حتى يلحق فيه العلماء الأخيار فى قصور الفهم بالكفار[٢]) اه .

وعلى الجملة . فإن القرطبى رحمه الله فى تفسيره هذا حر فى بحثه ، نزيه فى نقده ، عف فى مناقشته وجدله ، ملم بالتفسير من جميع نواحيه ، بارع فى كل فن استطرد إليه وتكلم فيه .

أما الكتاب فقد كان الناس محرومين منه إلى زمن قريب ، ثم أراد الله له الذيوع بين أولى العلم فقامت دار الكتب المصرية بطبعه ، فتم منه إلى الان أربعة عشر جزءاً تنتهى بآخر سورة فاطر ، وعسى أن يعجل الله بإتمام ما بقى منه ، حتى يتم به النفع إنه سميع مجيب[٣] .

---

(١) جـ ٥ ص ٢١ – ٢٢ .
(٢) جـ ١٠ ص ١٣٠ .
(٣) وقد حقق الله الرجاء وتم طبع الكتاب كما قدمنا .

٥ ـ كنز العرفان فى فقه القرآن

لمقداد السيورى (من الإمامية الاثنى عشرية)

ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير ، هو مقداد بن عبد الله بن محمد بن الحسن بن محمد السيورى[١] أحد علماء الإمامية الاثنى عشرية،والمعروف بينهم بالعلم، والفضل والتحقيق ، والتدقيق وله مؤلفات كثيرة ، منها : تفسيره هذا ، ومنها التنقيح الرائع فى شرح مختصر الشرائع ، وشرح مبادىء الأصول ... وغير ذلك ، وكان فى أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الهجرى[٢] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يتعرض هذا التفسير لآيات الأحكام فقط،وهو لا يتمشى مع القرآن سورة سورة على حسب ترتيب المصحف ذاكراً ما فى كل سورة من آيات الأحكام كما فعل الجصاص وابن العربى مثلا ، بل طريقته فى تفسيره : أنه يعقد فيه أبوابا كأبواب الفقه، ويدرج فى كل باب منها الآيات التى تدخل تحت موضوع واحد فمثلا يقول : باب الطهارة ، ثم يذكر ما ورد فى الطهارة من الآيات القرآنية ، شارحا كل آية منها على حدة ، مبينا مافيها من الأحكام على حسب مايذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية فى فروعهم، مع تعرضه المذاهب الأخرى،ورده على من يخالف ما يذهب إليه الإمامية الاثنا عشرية .

هذا . وإن طريقته التى يسلكها فى تدعيم مذهبه وترويجه ، وإبطال مذهب مخالفيه ، لا تخرج عن أمرين اثنين :

أولهما : الدليل العقلى .

---

(١) السيورى : نسبة إلى السيور ؛ وهو مايقد من الجلد؛ أو إلى بلد من بلاد اليمن كما فى روضات الجنات .

(٢) انظر روضات الجنات ص ٥٦٦ – ٥٦٧ .

ثانيهما : دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت .

أما الدليل العقلى ، فيندر أن يسلم له كمستند يستند إليه فى صحة ما يشذ به.

وأما دعوى أن ما ذكره هو ما ذهب إليه أهل البيت ، فتلك دعوى كثيراً ما تكون كاذبة ، يلجأ إليها الشيعة عندما يعوزهم الدليل، وتخونهم الحجة. وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار شذوذ صاحبه .

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٤٣) من سورة النساء « . . . وإن كنتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فلم تجدوا ماء فتيمموا صعيداً طيبا . . . » يقول : (. . . فتيمموا أى فتعمدوا واقصدوا صعيداً طيبا، أى شيئاً من وجه الأرض كقوله « صعيداً زلقا[1] » طيبا : أى طاهراً. ولذلك قال أصحابنا : لو ضرب المتيمم يده على حجر صلب ومسح: أجزأه. وبه قالت الحنفية . وقالت الشافعية: لا بد أن يعلق باليد شىء، لقوله « فامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه[2] » وفيه نظر ، لجواز كون من هنا ابتدائية . والوجه : المراد بعضه ، وهو الجبهة عند أكثر أصحابنا، إما لكون الباء للتبعيض . أو للنصوص عن أهل البيت عليهم السلام. فمسح الجبهة إلى طرف أنفه الأعلى . وكذا المراد باليدين : ظهر اليد من الزند إلى أطراف الأصابع .) اهـ[3]

ويقول عندما تعرض لآية التيمم فى سورة المائدة: (وتجب ضربة واحدة للوضوء واثنتان للغسل) ثم يرد على الحنفية والشافعية القائلين بأن التيمم ضربتان: واحدة للوجه وأخرى لليدين، وأن المراد بالوجه كله، وباليدين إلى المرفقين . . يرد عليهم فيقول: (وروايات أهل البيت تدفع ذلك[4]) .

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٣٠) من سورة البقرة « . . فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره » يقول: (. . . مدلول الآية انه إذا طلقها الزوج

---

(١) فى الآية (٤٠) من سورة الكهف (٢) فى الآية (٦) من سورة المائدة

(٣، ٤) ص ٨ ، ٩

عقيب الطلقتين تنكح زوجا غير ذلك المطلق وهذا الحكم عند أصحابنا مخصوص بما عدا طلاق العدة ، فإن ذلك يحرم فى التاسعة أبدا — وطلاق العدة هو أن يطلق المدخول بها على الشرائط ثم يراجعها فى العدة ثم يطلقها مرة ثانية ويفعل كما فعل أولا ، ثم يطلقها ثالثة ، فإذا فعل ذلك ثلاثة أدوار حرمت عليه عندهم أبداً[١]) اه ،

وهكذا يسير المؤلف بهذا الشذوذ فى كثير من الأحكام ، وبهذا التعسف والتخبط فى فهم نصوص القرآن ، والذى يقرأ الكتاب يرى الكثير من ذلك ، ويعجب من محاولاته الفاشلة فى استنباط ما يشذ به من الآيات التى تجبهه ، ولا يمكن أن تتمشى مع مذهبه بحال من الأحوال . هذا ، وإن الكتاب مطبوع على هامش تفسير الحسن العسكرى ، وموجود بدار الكتب .

---

(١) ص ٢٥٢

٦ – الثمرات اليانعة والأحكام الواضحة القاطعة

ليوسف الثلائى (الزيدى)

ترجمة المؤلف :

مؤلف هذا التفسير هو شمس الدين يوسف بن أحمد بن محمد بن أحمد ابن عثمان الثلائى ، الزيدى الفقيه ، أحد أصحاب الإمام المهدى ، وأحد أساطين العلم وجبال التحقيق عند أصحابه . ارتحل الناس إليه من الأقطار إلى ثلا ، وكان إذا قرأ امتلأ الجامع بالطلبة ، وباقيهم بكتبهم فى الطاقات من خارج المسجد .

أخذ عن الفقيه حسن النحوى ، وله تصانيف ، منها : الزهور والرياض ، والثمرات اليانعة ، وهو أجل مصنف عند الزيدية ، وهو ما نحن بصدده الآن ، توفى رحمه الله بثلا فى شهر جمادى الآخرة سنة ٨٣٢هـ اثنتين وثلاثين وثمانمائة من الهجرة[١] .

التعريف بهذا التفسير وطريقة مؤلفه فيه :

يقع هذا التفسير فى ثلاثة أجزاء كبار ، ومنه نسخة خطية كاملة بدار الكتب المصرية، ويوجد بالمكتبة الأزهرية الجزء الثانى فقط .وهو مخطوط فى مجلد كبير ، يبدأ من قوله تعالى فى الآية (٤) من سورة المائدة « يسألونك ماذا أحل لهم . . . الاية » وينتهى عند قوله تعالى فى الآية (٣٦) من سورة النور « فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه » .

قرأت فى هذا التفسير فوجدت المؤلف يقتصر على آيات الأحكام،متمشيا مع ترتيب المصحف فى سورة وآياته، يذكر الآية أولا .ثم يذكر ما ورد فى سبب نزولها إن كان لها سبب،ثم يقول:ولهذه الاية ثمرات.هى أحكام شرعية : الأولى: كذا والثانية: كذا ... إلى أن ينتهى من كل ما يتعلق بالاية من الأحكام .

---

(١) انظر شرح الازهار جـ ١ ص ٤٣ .

اعتماد المؤلف على الروايات التى لا تصح :

ويلاحظ على هذا التفسير أن مؤلفه لا يتحرى الصحة فيما ينقله من الأحاديث . وما يذكره من ذلك يمر عليه مراً سابرياً بدون أن يعقب عليه بكلمة واحدة تشعر بضعف الحديث أو وضعه ، فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الاية (٥٥) من سورة المائدة «إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون » نراه يذكر الروايات الواردة فى سبب نزول هذه الاية ، ويذكر ضمن ما يذكر : أنها نزلت فى على بن أبى طالب لما تصدق بخاتمه فى الصلاة وهو راكع(١) . وقد علمنا أن هذه رواية موضوعة لا أساس لها من الصحة ، ولكن المؤلف يذكرها ، ثم يأخذ فى تفريع الأحكام على هذه القصة المكذوبة ، كأنها عنده من الثابت الصحيح .

تقديره لكشاف الزمخشرى :

كذلك يلاحظ على المؤلف فى تفسيره هذا أنه كثير النقل عن الكشاف للزمخشرى ، مما يدل على أنه معجب به وبتفسيره إلى حد كبير ، ولعل ذلك ناشىء عما بين الرجلين من صلة التمذهب بمذهب الاعتزال .

مسلكه فى أحكام القرآن :

أما مسلك المؤلف فى أحكام القرآن ، فإنه يسرد أقوال السلف والخلف فى المسألة ، فيعرض لما ورد عن الصحابة والتابعين ، ويعرض لمذهب الشافعية ، والحنفية ، والمالكية ، والظاهرية ، والإمامية .. وغيرهم من فقهاء المذاهب ، ذاكراً لكل مذهب دليله ومستنده فى الغالب . كما يذكر بعناية خاصة مذهب الزيدية واختلاف علمائهم فى المسألة التى يعرض لها ، مع الإفاضة فى بيان أدلتهم التى استندوا إليها ، والرد على من يخالفهم فيما يذهبون إليه . . كل هذا بدون أن نلحظ على الرجل شيئاً من القدح فى مخالفيه ، كما يفعل غيره ممن سبق الكلام عنهم . وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير لتقف على مقدار دفاع المؤلف عن مذهبه ، وعمله على تأييده بالبراهين والأدلة .

(١) جـ ٢ ص ٥٨

رأيه فى نكاح الكتابيات :

فمثلا عند ماتعرض لقوله تعالى فى الآية (٥) من سورة المائدة « اليوم أحل لكم الطيبات ... (إلى قوله) والمحصنات من الذين أوتو الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن ... الآية » نراه يعرض لأقوال العلماء فى حكم نكاح الكتابيات فيقول : (... ظاهر الاية جواز نكاح الكتابية ، وهذا مذهب أكثر الفقهاء والمفسرين، ورواية عن زيد بن على ، والصادق ، والباقر ، واختاره الإمام يحيى بن حمزة وقال : إنه إجماع الصدر الأول من الصحابة ، وإن عثمان قد نكح نائلة بنت الفرافصة وهى نصرانية ، فلما توفى عثمان خطبها معاوية ، فقالت : وما يعجبك منى؟ قال ثنياتك، فقلعتهما وأمرت بهما إليه ، ونكح طلحة نصرانية، ونكح حذيفة يهودية . وقال القاسم ، والهادى ، والناصر ، ومحمد بن عبدالله، وعامة القاسمية ، وهو مروى عن ابن عمر : أنه لايجوز لمسلم نكاح كافرة كتابية كانت أو غيرها ، واحتجوا بقوله تعالى فى سورة البقرة « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن[١] . قالوا : هذا فى المشركات لا فى الكتابيات . قلنا : اسم المشرك ينطلق على أهل الكتاب ، بدليل قوله تعالى . بعد ذكر اليهود والنصارى فى قوله « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ... (إلى قوله تعالى) سبحانه وتعالى عما يشركون[٢] ، وعن ابن عمر : لا أعلم شركا أعظم من قول النصارى إن ربها عيسى . وعن عطاء : قد كثر الله المسلمات ، وإنما رخص لهم يومئذ . قالوا : إنه تعالى عطف أحدهما على الاخر فدل أنهما غيران حيث قال تعالى « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين[٣] ، قلنا : هذا كقوله تعالى « الوصية للوالدين والأقربين[٤] » قالوا : الاية مصرحة بالجواز فى قوله تعالى « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » قلنا : قوله تعالى فى سورة الممتحنة « ولا تمسكوا بعصم الكوافر[٥] » وقوله تعالى فى سورة النور (الخبيثات للخبيثين

---

(١) فى الآية (٢٢١)

(٢) الآية (٣١) من سورة التوبة

(٣) أول سورة البينة

(٤) فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة

(٥) فى الآية (١٠)

والخبيثون للخبيثات والطيبات للطيبين والطيبون للطيبات[1] ، وقوله تعالى فى سورة النساء « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ما ملكت أيمانكم[2] » فشرط الإيمان فى هذا يقتضى التحريم .فتأول هذه الآية بأنه أراد المحصنات من أهل الكتاب الذين قد أسلموا ؛ لأنهم كانوا يتكرهون ذلك ، فسماهم باسم ما كانوا عليه . وقد ورد مثل هذا فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به[3] »، وقوله تعالى « الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم[4] » وقوله تعالى « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله .. »[5] — قالوا : سبب النزول وفعل الصحابة يدل على الجواز ، وإنا نجمع بين الايات الكريمة فنقول : قوله تعالى «ولا تنكحوا المشركات » عام ونخصه بقوله تعالى « والمحصنات من الذين أتوا الكتاب من قبلكم » أو نقول أراد بالمشركات الوثنيات ، وبالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب ما أفاده الظاهر . أو يكون قوله تعالى « والمحصنات » ناسخا لتحريم الكتابيات بقوله « ولا تنكحوا المشركات » . قلنا : نقل ماذكرتم بما روى أن كعب بن مالك أراد أن يتزوج بيهودية أو نصرانية فسأل النبى صلى الله عليه وآله عن ذلك فقال : إنها لا تحصن ماءك . وروى أنه نهاه عن ذلك. وبأنا نتأول قوله تعالى « والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب» فنجمع ونقول: وتخصيص المشركات بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب متراخ ،والبيان لايجوز أن يتراخى . قالوا روى جابر بن عبد الله عن النبى عليه السلام أنه قال : أحل لنا ذبائح أهل الكتاب وأحل لنا نساؤهم ، وحرم عليهم أن يتزوجوا نساءنا . قال فى الشفاء : قال علماؤنا : هذا حديث ضعيف النقل . قالوا : قوله صلى الله

---

(١) فى الآية (٢٦).
(٢)فى الآية (٢٥) .
(٣) فى الآية (٤٨) من سورة العنكبوت
(٤) فى الآية (١٤٦) من سورة البقرة .
(٥) فى الآية (٩٩)من سورة آل عمران.

عليه وآله فى المجوس : سنوابهم سنة أهل الكتاب . . . الخبر فأفاد جواز ذبائحهم ، ونكاح نسائهم . قلنا : الجواز منسوخ بأدلة التحريم . ثم إنا نقوى أدلتنا بالقياس ، فنقول : كافرة فأشبهت الحربية ، أولما حرمت الموارثة حرمت المناكحة ، أو لما حرم نكاح الكافر للمسلمة حرم العكس . قالوا : لا حكم للاعتبار مع الأدلة ...) اهـ (١)

المسح على الخفين :

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة المائدة « يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة . . . الآية » نراه يعرض لمسألة المسح على الخفين فيقول : (... إن المسح على الخفين والجوربين لا يجوز ، وهو مروى عن على عليه السلام ، وابن عباس، وعمار بن ياسر ، وأبى هريرة ، وعائشة . وقال عامة الفقهاء . . . . إنه يجوز المسح عليهما . حجتنا هذه الآية ، وهى قوله تعالى « وأرجلكم » فأمرت بتطهير الرجلين ، والماسح على الخفين لا يكون مطهراً لهما ، وكذلك الأخبار التى دلت على الغسل للقدمين . فأما ماروى أنه صلى الله عليه وآله مسح على الخفين وأمر به ، فهذه الأخبار كانت بمكة وبعد هجرته صلى الله عليه وآله ، ثم نزلت سورة المائدة بعد ذلك فكانت ناسخة ويدل على هذا ما رواه زيد بن على عن آبائه عليهم السلام عن على عليه السلام قال : لما كان فى ولاية عمر جاء سعد بن أبى وقاص فقال : يا أمير المؤمنين ما لقيت من عمار ، قال : وما ذاك ؟ قال : خرجت وأنا أريدك ومعى الناس ، فأمرت منادياً فنادى بالصلاة ، ثم دعوت بطهور فتطهرت ومسحت على خفى ، وتقدمت أصلى ، فاعتزلنى عمار ، فلا هو اقتدى بى ولا هو تركنى ، فجعل ينادى من خلفى : يا سعد : أصلاة من غير وضوء ؟ فقال عمر : يا عمار . أخرج مما جئت به ، فقال : نعم . . كان المسح قبل المائدة ، فقال عمر : يا أبا الحسن ما تقول ؟ قال : أقول إن المسح كان من رسول الله صلى الله عليه وآله

---

(١) جـ ٢ ص ٦ — ٧

وسلم فى بيت عائشة ، والمائدة نزلت فى بيتها ، فأرسل عمر إلى عائشة فقالت : كان المسح قبل المائدة ، فقل لعمر : والله لأن يقطع قدماى بعقبهما أحب إلى من أن أمسح عليهما ، فقال عمر : لا نأخذ بقول امرأة ، ثم قال : أنشد الله امرأ شهد المسح من رسول الله لما قام ، فقام ثمانية عشر رجلا كلهم رأى رسول الله صلى الله عليه وآله يمسح وعليه جبة شامية ضيقة الكمين ، فأخرج يده من تحتها ثم مسح على خفيه ، فقال عمر : ما تقول يا أبا الحسن ؟ فقال : سلهم . . أقبل المائدة أم بعدها ؟ فسألهم ، فقالوا : ما ندرى ، فقال على عليه السلام : أنشد الله امرأ مسلماً علم أن المسح قبل المائدة لما قام ، فقام اثنان وعشرون رجلا ، فتفرق القوم وهؤلاء يقولون لا نترك ما رأينا . وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس : والله ما مسح رسول الله بعد المائدة ، ولأن أمسح على ظهر عير بالفلاة أحب إلى من أن أمسح على الخفين . وعن على عليه السلام سبق : الكتاب الخفين — قيل معناه قطع — وعن أبى هريرة : ما أبالى على خفى مسحت أو على ظهر حمار . فثبت فللنسخ بما ذكر . وأما قول جرير : رأيت رسول الله يمسح . وكان إسلامه بعد المائدة فروايته لا تقبل مع إنكار أمير المؤمنين ، ولأنه لحق بمعاوية فكان ذلك قدحا . هذا كلام أهل المذهب والمسألة إجماعية من أهل البيت عليهم السلام) [1] اهـ .

وهكذا نجد المؤلف — رحمه الله — يناقش مخالفيه من أصحاب المذاهب الأخرى مناقشة حادة ، وإن دلت على شىء فهو قوة ذهن الرجل ، وسعة اطلاعه . هذا . . ولا يكاد القارىء لهذا التفسير يجد فيه خلافا كثيرا للمذاهب الفقهية الأخرى ، كما هو الشأن فى كتب التفسير الفقهى للإمامية الاثنى عشرية ، وهذا راجع إلى تقارب وجهات النظر بين الزيدية وأهل السنة فى أصول الفقه وفروعه .

---

(١) جـ ٢ ص ١٨ - ١٩

الفصل الثامن

التفسير العلمى

معنى التفسير العلمى :

نريد بالتفسير العلمى : التفسير الذى يحكم الاصطلاحات العلمية فى عبارات القرآن ، ويجتهد فى استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها .

التوسع فى هذا النوع من التفسير وكثرة القائلين به :

وقد وقع هذا النوع من التفسير ، واتسع القول فى احتواء القرآن كل العلوم ما كان منها وما يكون ، فالقرآن فى نظر أصحاب هذه الطريقة يشمل إلى جانب العلوم الدينية الاعتقادية والعملية ، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها ، وتعدد ألوانها .

الإمام الغزالى والتفسير العلمى :

ويظهر لنا — على حسب ما قرأنا — أن الإمام الغزالى كان — إلى عهده — أكثر من استوفى بيان هذا القول فى تفسير القرآن ، وأهم من أيده وعمل على ترويجه فى الأوساط العلمية الإسلامية ، على رغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن .

وبين أيدينا كتاب الإحياء للغزالى نتصفحه فنجده يعقد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن ، فى فهم القرآن وتفسيره بالرأى من غير نقل . وفيه ينقل عن بعض العلماء (أن القرآن يحوى سبعة وسبعين ألف علم ومائتى علم ، إذ كل كلمة علم ، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف . إذ لكل كلمة ظاهر وباطن، وحد ومطلع [1]) ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال (من أراد

---

(1) الإحياء ج ٣ ص ١٣٥ مطبعة لجنة نشر الثقافة الاسلامية سنة ١٣٥٦ هـ .

علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن [١]) ثم يقول بعد ذلك كله : (وبالجملة فالعلوم كلها داخلة فى أفعال الله عز وجل وصفاته ، وفى القرآن شرح ذاته وأفعال وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها ، وفى القرآن إشارة إلى مجامعها [٢]) ثم يزيد على ذلك فيقول : (بل كل ما أشكل فهمه على النظار ، واختلف فيه الخلائق فى النظريات ، والمعقولات . فى القرآن إليه رمز ودلالات عليه ، يختص أهل الفهم بدركها [٣]) .

ثم إننا نتصفح كتابه (جواهر القرآن) الذى ألفه بعد الإحياء كما يظهر لنا من مقدمته ، فنجده يزيد هذا الذى قرره فى الإحياء بيانا وتفصيلا ، فيعقد الفصل الرابع منه لكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن عن تقسيمات وتفصيلات تولاها لانطيل بذكرها ، ويكفى أن نقول : إنه قسم علوم القرآن إلى قسمين :

الأول : علم الصدف والقشر ، وجعل من مشتملاته . علم اللغة ، وعلم النحو ، وعلم القراءات ، وعلم مخارج الحروف . وعلم التفسير الظاهر .

والثانى : علم اللباب . وجعل من مشتملاته : علم قصص الأولين ، وعلم الكلام ، وعلم الفقه وعلم أصول الفقه ، والعلم بالله واليوم الآخر ، والعلم بالصراط المستقيم ، وطريق السلوك [٤] .

ثم يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن ، فيذكر علم الطب والنجوم ، وهيئة العالم ، وهيئة بدن الحيوان ، وتشريح أعضائه وعلم السحر ، وعلم الطلسمات ... وغير ذلك ثم يقول : (ووراء ما عددته علوم أخرى ، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها ، ولا حاجة إلى ذكرها بل أقول : ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التى لا يتمارى فيها أن فى الإمكان والقوة

---

(١) المرجع السابق .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق :
(٤) جواهر القرآن ص ٢١ – ٣١ مطبعة كردستان سنة ١٣٢٩ هـ .

أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود ، وإن كان فى قوة الآدمى الوصول إليها ، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن ، فلن يوجد فى هذه الأعصار على بسيط الأرض من يعرفها ، وعلوم أخر ليس فى قوة البشر أصلا إدراكها والإحاطة بها ، ويحظى بها بعض الملائكة المقربين ، فإن الإمكان فى حق الآدمى محدود ، والإمكان فى حق الملك محدود إلى غاية من النقصان ، وإنما الله سبحانه هو الذى لا يتناهى العلم فى حقه [1])

ثم يقول بعد ذلك (ثم هذه العلوم ما عددنا وما لم نعددها ، ليست أوائلها خارجه من القرآن . فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله تعالى ، وهو بحر الأفعال ، وقد ذكرنا أنه بحر لا ساحل له ، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد ، فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال مثلا — الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم « وإذا مرضت فهو يشفين [2] » ، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله ، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته ، ومعرفة الشفاء وأسبابه ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان وقد قال الله تعالى « الشمس والقمر بحسبان [3] » ، وقال « وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب [4] » ، وقال « . . . وخسف القمر وجمع الشمس والقمر [5] » ، وقال « يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل [6] » ، وقال « والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم [7] » ، ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان

---

(١) جواهر القرآن ص ٣١ — ٣٢

(٢) الآية (٨٠) من سورة الشعراء

(٣) الآية (٥) من سورة الرحمن

(٤) فى الآية (٥) من سورة يونس

(٥) فى الآيتين (٨ و ٩) من سورة القيامة .

(٦) فى الآية (٦١) من سورة الحج و (٢٩) من سورة لقمان .

(٧) الآية (٣٨) من سوره يس

وخسوفهما ، وولوج الليل فى النهار ، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض ، وهو علم برأسه ولا يعرف كمال معنى قوله « ياأيها الإنسان ماغرك بربك الكريم . الذى خلقك فسواك فعدلك فى أى صورة ما شاء ركبك »[1] ، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطنا ، وعددها وأنواعها ، وحكمتها ومنافعها . وقد أشار فى القرآن فى مواضع اليها ، وهى من علوم الأولين والآخرين ، وفى القرآن مجامع علم الأولين والاخرين . وكذلك لا يعرف معنى قوله « سويته ونفخت فيه من روحى »[2] ، مالم يعلم التسوية ، والنفخ ، والروح . ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق ، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها ، ولو ذهبت أفصل ماتدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال ، ولا يمكن الإشارة إلا إلى مجامعها . . . فتفكر فى القرآن ، والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والاخرين[3] . . .) اهـ .

الجلال السيوطى والتفسير العلمى :

كذلك نجد العلامة جلال الدين السيوطى ينحو منحى الغزالى فى القول بالتفسير العلمى ، ويقرر ذلك بوضوح وتوسع فى كتابه (الإتقان) فى النوع الخامس والستين منه ، كما يقرر ذلك أيضا بمثل هذا الوضوح والتوسع فى كتابه (الإكليل فى استنباط التنزيل) ونجده يسوق من الايات والأحاديث والاثار مايستدل به على أن القرآن مشتمل على كل العلوم

فمن الايات : قوله تعالى فى الاية (٣٨) من سورة الأنعام « مافرطنا فى الكتاب من شىء » ، وقوله فى الاية (٨٩) من سورة النحل « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء)[4]

ومن الأحاديث : ما أخرجه الترمذى وغيره : أن رسول الله صلى الله عليه

---

(١) الايات (٦ و ٧ و ٨) من سورة الإنفطار .

(٢) فى الاية (٢٩) من سورة الحجر وفى الاية (٧٢) من سورة ص .

(٣) جواهر القرآن ص ٣٢ — ٣٤ .

(٤) الإتقان جـ ٢ ص ١٣٥ .

وسلم قال : (ستكون فتن ، قيل : وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله .. فيه نبأ ماقبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم [١]) وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الله لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوضة [٢]) .

ومن الاثار : ماأخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود أنه قال : (من أراد العلم فعليه بالقرآن . فإن فيه خبر الأولين والاخرين [٣]) وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود رضى الله عنه أنه قال : (أنزل فى القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ، لكن علمنا يقصر عما بين لنا فى القرآن [٤]) .

ثم نجده بعد أن يسوق هذه الأدلة وغيرها يذكر لنا عن بعض العلماء أنه استنبط أن عمر النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث وستون سنة من قوله تعالى فى الاية (١١) من سورة المنافقين « ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها » فإنها رأس ثلاث وستين سورة ، وعقبها بالتغابن ليظهر التغابن فى فقده [٥]) .

أبو الفضل المرسى والتفسير العلمى :

ثم ذكر عن أبي الفضل المرسى أنه قال فى تفسيره : (جمع القرآن علوم الأولين والاخرين . بحيث لم يحط بها علما حقيقة إلا المتكلم به ، ثم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، خلاما استأثر به سبحانه وتعالى ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس حتى قال ، لوضاع لى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله تعالى ، ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ماحمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه ، فنوعوا

---

(١) الإتقان جـ ٢ ص ١٣١
(٢) الاكليل ص ٢ .
(٣) الاتقان جـ ٢ ص ١٢٦
(٤) الاكليل ص ٢
(٥) الاكليل ص ٢ والاتقان جـ ٢ ص ١٢٦

علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته ، وتحرير كلماته ، ومعرفة مخارج حروفه ، وعددها ، وعدد كلماته ، وآياته ، وسوره ، وأحزابه ، وأنصافه ، وأرباعه ، وعدد سجداته . والتعليم عند كل عشر آيات... إلى غير ذلك من حصر الكلمات المتشابهة ، والآيات المتماثلة ، من غير تعرض لمعانيه ، ولا تدبر لما أودع فيه ، فسموا القراء

واعتنى النحاة بالمعرب منه والمبنى من الأسماء والأفعال ، والحروف العاملة ، وغيرها ، وأوسعوا الكلام فى الأسماء وتوابعها ، وضروب الأفعال . واللازم ، والمتعدى ، ورسوم خط الكلمات ، وجميع ما يتعلق به ، حتى إن بعضهم أعرب مشكله ، وبعضهم أعربه كلمة كلمة .

واعتنى المفسرون بألفاظه ، فوجدوا منه لفظا يدل على معنى واحد ، ولفظا يدل على معنيين ، ولفظا يدل على أكثر . فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الخفى منه ، وخاضوا فى ترجيح أحد محتملات ذى المعنيين والمعانى ، وأعمل كل منهم فكره ، وقال بما اقتضاه نظره .

واهتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة القطعية ، والشواهد الأصلية والنظرية ، مثل قوله تعالى « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا[1] » إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة ، فاستنبطوا منها أدلة على وحدانية الله ، ووجوده ، وبقائه ، وقدمه ، وقدرته ، وعلمه ، وتنزيهه عما لا يليق به ، وسموا هذا العلم بأصول الدين .

وتأملت طائفة منهم معانى خطابه ، فرأت منها ما يقتضى العموم ، ومنها ما يقتضى الخصوص ، إلى غير ذلك ، فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا فى التخصيص ، والإضمار ، والنص ، والظاهر ، والمجمل ، والمحكم ، والمتشابه ، والأمر ، والنهى ، والنسخ ... إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة ، واستصحاب الحال ، والاستقراء ، وسموا هذا الفن أصول الفقه .

---

(١) فى الآية (٢٢) من سورة الانبياء

وأحكمت طائفة صحيح النظر ، وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام ، وسائر الأحكام ، فأسسوا أصوله ، وفرعوا فروعه ، وبسطوا القول فى ذلك بسطا حسنا ، وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً .

وتلمحت طائفة ما فيه من قصص القرون السابقة ، والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم ، حتى ذكروا بدء الدنيا ، وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ .

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم ، والأمثال ، والمواعظ التى تقلقل قلوب الرجال ، وتكاد تدكدك الجبال ، فاستنبطوا مما فيه من الوعد ، والوعيد ، والتحذير ، والتبشير ، وذكر الموت ، والمعاد والنشر ، والحشر ، والحساب ، والعقاب ، والجنة ، والنار ، فصولا من المواعظ ، وأصولا من الزواجر ، فسموا بذلك الخطباء والوعاظ .

واستنبط قوم مما فيه من أصول التعبير ، مثل ما ورد فى قصة يوسف فى البقرات السمان ، وفى منامى صاحبي السجن ، وفى رؤياه الشمس والقمر والنجوم ساجدة ، وسموه تعبير الرؤيا ، واستنبطوا تأويل كل رؤيا من الكتاب ، فإن عز عليهم إخراجها منه فمن السنة التى هى شارحة للكتاب ، فإن عز فمن الحكم والأمثال ، ثم نظروا إلى اصطلاح العوام فى مخاطباتهم وعرف عاداتهم ، الذى أشار إليه القرآن بقوله : وأمر بالمعروف(١) ، .

وأخذ قوم مما فى آية المواريث من ذكر السهام وأربابها وغير ذلك ، علم الفرائض ، واستنبطوا منها من ذكر النصف ، والثلث ، والربع ، والسدس ، والثمن ، حساب الفرائض ، ومسائل العدل ، واستخرجوا منه أحكام الوصايا .

ونظر قوم إلى ما فيه من الآيات الدالات على الحكم الباهرة ، فى الليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، ومنازله ، والبروج ، وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت .

---

(١) الآية (١٧) من سورة لقمان .

ونظر الكتاب والشعراء إلى ما فيه من جزالة اللفظ ، وبديع النظم ، وحسن السياق ، والمبادىء والمقاطع ، والمخالص ، والتلوين فى الخطاب ، والإطناب ، والإيجاز ، وغير ذلك واستنبطوا منه المعانى ، والبيان ، والبديع .

ونظر فيه أرباب الإشارات، وأصحاب الحقيقة، فلاح لهم من ألفاظه معان ودقائق ، جعلوا لها أعلاما اصطلحوا عليها ، مثل : الفناء ، والبقاء والحضور ، والخوف ، والهيبة ، والأنس ، والوحشة ، والقبض والبسط ، وما أشبه ذلك .

هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه ، وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل : الطب ، والجدل ، والهيئة ، والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، والنجامة ، وغير ذلك من العلوم .

أما الطب : فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة ، وقد جمع ذلك فى آية واحدة وهى قوله تعالى « وكان بين ذلك قواما[1] » وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله ، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله فى قوله تعالى « شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس[2] » . ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب ، وشفاء الصدور .

وأما الهيئة : ففى تضاعيف سورة من الآيات التى ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ، وما بث فى العالم العلوى والسفلى من المخلوقات .

وأما الهندسة : ففى قوله تعالى « انطلقوا إلى ظل ذى ثلاث شعب « لا ظليل ولا يغنى من اللهب [3] » ، فإن فيه قاعدة هندسية ، وهو أن الشكل المثلث لا ظل له.

وأما الجدل : فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات ، والنتائج ، والقول

---

(١) فى الآية (٦٧) من سورة الفرقان .

(٢) فى الآية (٦٩) من سورة النحل .

(٣) الآيتان (٣٠ و ٣١) من سورة المرسلات

بالموجب ، والمعارضة ، وغير ذلك شيئاً كثيراً . ومناظرة إبراهيم نمرود ، ومحاجته قومه أصل فى ذلك عظيم .

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل : إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة ، وإن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى وما بقى ، مضروب بعضها فى بعض .

وأما النجامة : ففى قوله تعالى: «أو أثارة من علم[١]» فقد فسره بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التى تدعو الضرورة إليها ، كالخياطة فى قوله «وطفقا يخصفان[٢]» . والحدادة آتونى زبر الحديد[٣] » ، والبناء فى آيات ، والنجارة «واصنع الفلك بأعيننا[٤]» ، والغزل «نقضت غزلها[٥]» . والنسج «كمثل العنكبوت اتخذت بيتا[٦]» . والفلاحة «أفرأيتم ما تحرثون . . الآيات[٧]» ، والصيد فى آيات . والغوص «والشياطين كل بناء وغواص[٨]» ، «وتستخرجون منه حلية[٩]» . والصياغة «واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا[١٠]» . والزجاجة «صرح ممرد من قوارير[١١]» . «المصباح فى زجاجة[١٢]» . والفخارة «فأوقد لى يا هامان على الطين[١٣]» ، والملاحة

(١) فى الآية (٤) من سورة الأحقاف .

(٢) » » (٢٢) من سورة الأعراف . وفى الآية (١٢١) من سورة طه .

(٣) » » (٩٦) » » الكهف

(٤) » » (٣٧) » » هود .

(٥) » » (٩٢) » » النحل .

(٦) » » (٤١) » » العنكبوت.

(٧) الآيات (٦٣) وما بعدها من سورة الواقعة

(٨) فى الآية (٣٧) » » ص .

(٩) » » (١٤) » » النحل .

(١٠) » » (١٤٨) » » الأعراف

(١١) » » (٤٤) » » النمل

(١٢) » » (٣٥) » » النور

(١٣) » » (٣٨) » » القصص .

« أما السفينة .... الآية[١] » والكتابة « علم بالقلم[٢] » وفى آيات أخر . والخبز « أحمل فوق رأسى خبزا[٣] » . والطبخ « بعجل حنيذ[٤] » والقصارة ، « وثيابك فطهر[٥] » ، قال الحواريون[٦] ، وهم القصارون . والجزارة « إلا ماذكيتم[٧] » والبيع والشراء فى آيات ، والصبغ « صبغة الله[٨] » ، « جدد بيض وحمر[٩] » ، والحجارة « وتنحتون من الجبال بيوتا[١٠] » والكيالة والوزن فى آيات كثيرة ، والرمى « وما رميت إذ رميت[١١] » ، « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة[١٢] » .

وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات ، والمشروبات ، والمنكوحات . وجميع ما وقع ويقع فى الكائنات ما يحقق معنى قوله « ما فرطنا فى الكتاب من شىء[١٣] » قال السيوطى : انتهى كلام المرسى ملخصا مع زيادات[١٤] » .

ثم بعد روايته لهذه المقالة الطويلة ، نجده يذكر عن أبى بكر بن العربى أنه قال فى كتابه قانون التأويل : (علوم القرآن خمسين علما ، وأربعمائة علم ،

---

(١) فى الآية (٧٩) من سورة الكهف .
(٢) « « (٤) « « القلم
(٣) « « (٣٦) « « يوسف
(٤) « « (٦٩) « « هود
(٥) « « (٤) « « المدثر
(٦) « « (٥٢) « « آل عمران وفى آية (١١٤) من سورة المائدة ، و (١٤) من سورة الصف
(٧) فى الآية (٣) من سورة المائدة
(٨) « « (١٣٨) « « البقرة
(٩) « « (٢٧) « « فاطر
(١٠) « « (١٤٩) « « الشعراء
(١٤) « « (١٧) « « الأنفال
(١٢) « « (٦٠) « « « «
(١٣) « « (٣٨) « « الأنعام
(١٤) الإكليل ص ٢ — ٥ ، والإتقان جـ ٣ ص ١٢٦ — ١٢٨ .

وسبعة آلاف علم ، وسبعون ألف علم ، على عدد كلم القرآن مضروبة فى أربعة ، إذ لكل كلمة ظهر وبطن ، وحد ومطلع ، وهذا مطلق دون اعتبار التركيب وما بينها من روابط ، وهذا ما لا يحصى ، وما لا يعلمه إلا الله[1] اه .

وأخيراً عقب السيوطى على هذه النقول وغيرها فقال : (وأنا أقول : قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شىء ، أما أنوع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هى أصل إلا وفى القرآن ما يدل عليها ، وفيه عجائب المخلوقات ، وملكوت السموات والأرض ، وما فى الأفق الأعلى وماتحت الثرى و و... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات[2]) اه .

ومن هذا يتبين لك كيف ظهرت آثار الثقافات العلميـة للمسلمين فى تفسير القرآن الكريم . وكيف حاول هؤلاء العلماء المتقدمون أن يجعلوا القرآن منبع العلوم كلها ، ماجد منها وما يجد إلى يوم القيامة .

ولو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم ، لوجدنا أن هذه النزعة — نزعة التفسير العلمى — تمتد من عهد النهضةالعلمية العباسية إلى يومنا هذا ، ولوجدنا أنها كانت فىأول الأمر عبارة عن محاولات . يقصد منهاالتوفيق بين القرآن ، وما جد من العلوم ، ثم وجدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان الغزالى ، وابن العربى ، والمرسى ، والسيوطى ، ولوجدنا أيضا أن هذه الفكرة قد طبقت عملياً ، وظهرت فى مثل محاولات الفخر الرازى ، ضمن تفسيره للقرآن .

ثم وجدت بعد ذلك كتب مستقلة فى استخراج العلوم من القرآن ، وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم ، وراجت هذه الفكرة فى العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم ، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع ، كما ألفت بعض التفاسير التى تسير على ضوء هذه الفكرة . ونرى أن نؤجل البحث عن التفسير العلمى فى هـذه المرحلة الأخيرة إلى خاتمة الرسالة ، حيث نعرض لألوان التفسير فى العصر الحديث إن شاء الله تعالى .

---

(١) الاتقان جـ ٢ ص ١٢٨

(٢) الاتقان جـ ٢ ص ١٢٩ — ٢٣٢

إنكار التفسير العلمى

إذا كانت فكرة التفسير العلمى قد راجت عند بعض المتقدمين ،وازدادت رواجا عند بعض المتأخرين ، فإنها لم تلق رواجاً عند بعض العلماء الأقدمين ، كما أنها لم تلق رواجا عند بعض المتأخرين منهم أيضاً .

إنكار الشاطبى للتفسير العلمى :

ويظهر لنا على حسب ما قرنا أن زعيم المعارضة لهذه الفكرة فى العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولى ، أبو إسحق إبراهيم بن موسى الشاطبى ، الأندلسى ، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ تسعين وسبعمائة من الهجرة ؛ وذلك أنا نجده فى كتابه (الموافقات) يعقد بحثاً خاصا لمقاصد الشارع ، وينوع هذه المقاصد إلى أنواع تولى شرحها وبيانها ، والذى يهمنا هنا النوع الثانى منها وهو (بيان قصد الشارع فى وضع الشريعة للأفهام) وفى المسألة الثالثة من مسائل هذا النوع نجده يقرر أن (هذه الشريعة المباركة أمية ؛ لأن أهلها كذلك [١] فهو أجرى على اعتبار المصالح[٢]) ... ثم دال على ذلك بأمور ثلاثة لانطيل بذكرها ،ثم عقب بفصل ذكر فيه (ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس ، وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق ، واتصاف بمحاسن الشيم، فصححت الشريعة منها ماهو صحيح وزادت عليه ، وأبطلت ما هو باطل، وبينت منافع ماينفع من ذلك ، ومضار مايضر منه) ثم ذكر من العلوم الصحيحة التى كان للعرب اعتناء بها علم النجوم ومايختص به من الاهتداء فى البر، والبحر ،واختلاف الأزمان باختلاف سيرها. ومايتعلق بهذا المعنى، ثم قال: (وهو معنى مقرر فى اثناء القرآن فى مواضع كثيرة كقوله تعالى « وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر

---

(١) يريد أن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم أوفق برعاية المصالح التى يقصدها الشارع الحكيم اهـ من الشارح جـ٢ ص ٦٩ .

(٢) الموافقات جـ ٢ ص ٦٩ .

والبحر[١]، وقوله « وبالنجم هم يهتدون[٢]، وقوله « والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لهـا أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون[٣]، وقوله « هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب[٤]، وقوله « وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة . . الآية[٥]، وقوله « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين[٦]، وقوله « يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج[٧]، وما أشبه ذلك من الآيات .

وذكر علم الأنواء ، وأوقات نزول الأمطار ، وإنشاء السحاب ، وهبوب الرياح المثيرة لها ، وعرض لما ورد فى ذلك من القرآن مثل قوله تعالى « هو الذى يريكم البرق خوفا وطمعا وينشيء السحاب الثقال * ويسبح الرعد بحمده . . الآية[٨]، وقوله « أفرأيتم الماء الذى تشربون* أأنتم انزلتموه من المزن ام نحن المنزلون*[٩]، وقوله « والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها[١٠]، . . . وغير ذلك من الآيات .

---

(١) فى الآية (٦٧) من سورة الأنعام
(٢) « « (١٦) « النحل
(٣) « « (٣٩ و ٤٠) من سورة يس
(٤) « « (٥) من سورة يونس
(٥) « « (١٢) « الإسراء
(٦) « « (٥) « الملك
(٧) « « (١٨٩) من سورة البقرة
(٨) الآيتان (١٢ و ١٣) من سورة الرعد
(٩) « (٦٨ و ٦٩) من سورة الواقعة
(١٠) فى الآية (٩) من سورة فاطر

وذكر علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية . قال : وفى القرآن من ذلك ما هو كثير . . . قال تعالى « ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم . . . الآية »[1] . وقال تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا »[2].

وذكر علم الطب ، وبين أنه كان فى العرب منه شىء مبنى على تجارب الأميين، لا على قواعد الأقدمين . قال : (وعلى ذلك المساق جاء فى الشريعة لكن على وجه جامع ، شاف ، قليل ، يطلع منه على كثير ، فقال تعالى « كلوا وأشربوا ولا تسرفوا[3] » .

وذكر التفنن فى علم فنون البلاغة ، والخوض فى وجوه الفصاحة ، والتصرف فى أساليب الكلام . . قال : (وهو أعظم منتحلاتهم ، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن . قال تعالى : « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً »[4]) .

وذكر ضرب الأمثال . واستشهد بقوله تعالى « ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل[5] » .

وذكر من العلوم التى عنى بها العرب وأكثرها باطل أو جميعها ، علم العيافة والزجر ، والكهانة ، وخط الرمل ، والضرب بالحصى ، والطيرة ، قال : (فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ، ونهت عنه كالكهانة ، والزجر ، وخط الرمل . وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب ؛ فإن الكهانة والزجر كذلك، وأكثر هذه الأمور تخرص على علم الغيب من غير دليل فجاء النبى صلى الله عليه وسلم بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض ، وهو الوحى والإلهام ،

---

(١) فى الآية (٤٤) من سورة آل عمران :
(٢) « « (٤٩) من سورة هود
(٣) « « (٣١) من سورة الأعراف :
(٤) « « (٨٨) من سورة الإسراء :
(٥) « « (٥٨) من سورة الروم ، وفى الآية (٢٧) من سورة الزمر :

وبقى للناس من ذلك بعد موته عليه السلام جزء من النبوة وهو الرؤيا الصالحة ، وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة (١)) .

ثم بعد هذا البيان الذى أوضح فيه الشاطبي أن الشريعة فى تصحيح ماصححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم ، ولم تخرج عما ألفوه ، نراه يزيد هذا البيان إسهابا ، وإيضاحاً ، ويتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين ، مفنداً هذا الزعم ، الذى اعتقد أن قائليه قد تجاوزوا به الحد فى دعواهم على القرآن . وذلك حيث يقول فى المسألة الرابعة من مسائل النوع الثانى من المقاصد — أعنى مقاصد وضع الشريعة للإفهام — (ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها — وهم العرب ينبنى عليه قواعد : منها : أن كثيرا من الناس تجاوزوا فى الدعوى على القرآن الحد ، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبعيات والتعاليم كالهندسة وغيرها من الرياضيات ، والمنطق وعلم الحروف ، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباها ، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح) (٢) .

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم فى القرآن فيقول : (. . إن السلف الصالح — من الصحابة والتابعين ومن يليهم كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه ، ولم تبلغنا أنه تكلم أحد منهم فى شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم ، وما ثبت فيه من أحكام التكاليف ، وأحكام الآخرة ، وما يلى ذلك ، ولو كان لهم فى ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة ، إلا أن ذلك لم يكن فدل على أنه غير موجود عندهم ، وذلك دليل على أن ، القرآن لم يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا . نعم تضمن علوما من جنس علوم العرب أو ماينبنى على معهودها مما يتعجب منه

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٧١ - ٧٦

(٢) الموافقات جـ ١ ص ٧٩

أولوا الألباب ، ولا تبلغه إدراكات العقول الراجحة ، دون الاهتداء بأعلامه ، والاستنارة بنوره ، أما أن فيه ماليس من ذلك فلا[1]) .

ثم أخذ الشاطبي بعد هذا فى ذكر ما استند إليه أرباب التفسير العلمى من الأدلة فقال : (وربما استدلوا على دعاهم بقوله تعالى « ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء[2] وقوله « ما فرطنا فى الكتاب من شىء[3] » ونحو ذلك ، وبفواتح السور — وهى مما لم يعهد عند العرب — وبما نقل عن الناس فيها ، وربما حكى من ذلك عن على بن أبى طالب رضى الله عنه وغيره أشياء[4]) .

ثم أخذ الشاطبي رحمه الله يفند هذه الأدلة فقال :

فأما الآيات : فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد ، او المراد بالكتاب فى قوله «ما فرطنا فى الكتاب من شىء » : اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها مايقتضى تضمنه لجميع العلوم النقلية والعقلية .

وأما فواتح السور : فقد تكلم الناس فيها بما يقتضى أن للعرب بها عهداً ، كعدد الجمل الذى تعرفوه من أهل الكتاب، حسبما ذكره اصحاب السير ،اوهى من المتشابهات التى لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى ، وغير ذلك . وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم،فلا دليل فيها على ما ادعوا، ومايقل عن على أو غيره فى هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن مالا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه مايقتضيه ، ويجب الاقتصار فى الاستعانة على فهمه على كل مايضاف علمه إلى العرب خاصة، فبه يوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية ، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه ، وتقول على الله ورسوله فيه ، والله اعلم ، وبه التوفيق)[5] .

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص ٧٩ — ٨٠

(٢) فى الآية (٨٩) من سورة النحل

(٣) « (٣٨) « الإنعام

(٤) الموافقات جـ ٢ ص ٨٠

(٥) « جـ ٢ ص ٨١— ٨٢

هذه هى الخلاصة الشاملة لمقالة الشاطبى فى هذا الموضوع ، وذلك هو رايه فى التفسير العلمى الذى شغف به بعض العلماء المتقدمين والمتأخرين ، واحسب أنى —وقد وضعت بين يدى القارىء مقالة كل فريق وما يستند إليه من أدلة— قد أنرت له الطريق ، وأوضحت له السبيل ؛ ليختار لنفسه ما يحلو ، بعد أن يحكم على أحدهما بأنه خير مقالة وأحسن دليلا .

* **

اختيارنا فى هذا الموضوع

أما أنا فاعتقادى أن الحق مع الشاطبى رحمه الله ، لأن الأدلة التى ساقها لتصحيح مدعاه أدلة قوية ، لا يعتريها الضعف، ولا يتطرق إليها الخلل ، ولأن ما أجاب به على أدلة مخالفيه أجوبة سديدة دامغة لا تثبت أمامها حججهم ، ولا يبقى معها مدعاهم .

وهناك أمور أخرى يتقوى بها اعتقادنا أن الحق فى جانب الشاطبى ومن لف لفه ، فمن ذلك ما يأتى :

أولا — الناحية اللغوية :

وذلك أن الألفاظ اللغوية لم تقف عند معنى واحد من لدن استعمالها إلى اليوم ، بل تدرجت حياة الألفاظ وتدرجت دلالاتها ، فكان لكثير من الألفاظ دلالات مختلفة ، ونحن وإن كنا لا نعرف شيئاً عن تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعانى المختلفة للكلمة الواحدة ، نستطيع أن نقطع بأن بعض المعانى للكلمة الواحدة حادث باصطلاح أرباب العلوم والفنون ، فهناك معان لغوية ، وهناك معان شرعية ، وهناك معان عرفية ، وهذه المعانى كلها تقوم بلفظ واحد ، بعضها عرفته العرب وقت نزول القرآن ، وبعضها لا علم للعرب به وقت نزول القرآن ، نظراً لحدوثه وطروه على اللفظ ، فهل يعقل بعد ذلك أن نتوسع هذا التوسع العجيب فى فهم ألفاظ القرآن ، وجعلها تدل على معان جدت باصطلاح حادث ، ولم تعرف للعرب الذين نزل القرآن عليهم ؟ وهل يعقل أن الله تعالى إنما أراد بهذه الألفاظ القرآنية هذه المعانى التى حدثت بعد نزول القرآن بأجيال ، فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الألفاظ من عند الله ، وتليت أول ما تليت على من كان حول النبى صلى الله عليه وسلم ؟ . . أعتقد أن هذا أمر لا يعقله إلا من سفه نفسه ، وأنكر عقله .

ثانياً — الناحية البلاغية :

عرفت البلاغة بأنها مطابقة الكلام لمقتضى الحال، ومعلوم أن القرآن فى أعلى

درجات البلاغة ، فإذا نحن ذهبنا مذهب أرباب التفسير العلمى وقلنا بأن القرآن متضمن لكل العلوم، وألفاظه متحملة لهذه المعانى المستحدثة، لأوقعنا أنفسنا فى ورطة لا خلاص لنا منها إلا بما يخدش بلاغة القرآن، أو يذهب بفطانة العرب، وذلك لأن من خوطبوا بالقرآن فى وقت نزوله إن كانوا يجهلون هذه المعانى. وكان الله يريدها من خطابه إياهم لزم على ذلك أن يكون القرآن غير بليغ، لأنه لم يراع حال المخاطب وهذا سلب لأهم خصائص القرآن الكريم . وإن كانوا يعرفون هذه المعانى فلم لم تظهر نهضة العرب العلمية من لدن نزول القرآن الذى حوى علوم الأولين والآخرين ؟ ولم لم تقم نهضتهم على هذه الآيات الشارحة لمختلف العلوم وسائر الفنون ؟ . . وهذا أيضاً سلب لأهم خصائص العرب ومميزاتهم .

ثالثاً — الناحية الاعتقادية :

القرآن الكريم باق ما تعاقب الملوان ، ونظامه نافع لكل عصر وزمان ، فهو يتحدث إلى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، وهو يساير حياتهم فى كل ما يمرون به من مراحل الزمن . وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة ، وقانون الدين الذى جعله الله خاتم شرائع السموات إلى أهل الأرض .

هذا ما يجب على كل مسلم أن يعتقده ويدين به ، حتى يسلم له دينه ، ولا يرتاب فيه ، فإذا نحن ذهبنا مذهب من يحمل القرآن كل شىء ، وجعلناه مصدراً لجوامع الطب ، وضوابط الفلك ، ونظريات الهندسة ، وقوانين الكيمياء ، وما إلى ذلك من العلوم المختلفة، لكننا بذلك قد أوقعنا الشك فى عقائد المسلمين نحو القرآن الكريم ، وذلك لأن قواعد العلوم وما تقوم عليه من نظريات ، لاقرار لها ولا بقاء ، فرب نظرية علمية قال بها عالم اليوم ، ثم رجع عنها بعد زمن قليل أو كثير ، لأنه ظهر له خطؤها. وأمام سمعنا وبصرنا من المثل ما يشهد بأن كثيراً من جوامع العلم لا يضبطها اليوم أحد إلا تغير ضبطه لها بعد ذلك، وكم بين نظريات العلم قديمة وحديثة من تناف وتضاد، فهل يعقل أن يكون القرآن محتملا

لجميع هذه النظريات والقواعد العلمية على ما بينها من التنافى والتضاد ؟ وإذا كان هذا معقولا ، فهل يعقل أن يصدق مسلم بالقرآن بعد هذا ، ويكون على يقين بأنه كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ؟؟ ...

الحق أن القرآن لا يعنى بهذا اللون من حياة الناس، ولا يتعهده بالشرح ولا يتولاه بالبيان، حتى يكون مصدرهم الذى يرجعون إليه فى تعرف حياتهم العلمية الدنيوية.

ويبدو لنا أن أنصار هذه الفكرة — فكرة التفسير العلمى — لم يقولوا بها ، ولم يعملوا على تأييدها إلا بعد أن نظروا إليها كوجه من وجوه إعجاز القرآن الكريم ، وبيان صلاحيته للحياة ، وتمشيه معها على اختلاف أحوالها وتطور أزمانها . ولكن . (ما هكذا ياسعد تورد الإبل) فإن إعجاز القرآن غنى عن أن يسلك فى بيانه هذا المسلك المتكلف ، الذى قد يذهب بالإعجاز ، وهناك من ألوان الإعجاز غير هذا ما يشهد للقرآن بأنه كتاب الله المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم .

وإذا كان أرباب هذا المسلك فى التفسير يستندون إلى ما تناولته بعض آيات القرآن من حقائق الكون ومشاهده ، ودعوة الله لهم بالنظر فى كتاب الكون وآياته التى بثها فى الآفاق وفى أنفسهم ، إذا كانوا يستندون إلى مثل هذا فى دعواهم أن القرآن قد جمع علوم الأولين والآخرين، فهم مخطئون ولا شك وذلك لأن تناول القرآن لحقائق الكون ومشاهده ، ودعوته إلى النظر فى ملكوت السموات والأرض وفى أنفسهم ، لا يراد منه إلا رياضة وجدانات الناس ، وتوجيه عامتهم وخاصتهم إلى مكان العظة والعبرة ، ولفتهم إلى آيات قدرة الله ودلائل وحدانيته ، من جهة ما لهذه الآيات والمشاهد من روعة فى النفس وجلال فى القلب ، لا من جهة ما لها من دقائق النظريات وضوابط القوانين . فليس القرآن كتاب فلسفة أو طب أو هندسة ....

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أن القرآن غنى عن أن يعتز بمثل هذا التكلف ، الذى يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنسانى الاجتماعى ، فى إصلاح الحياة ، ورياضة النفس ، والرجوع بها إلى الله تعالى .

وليعلم أصحاب هذه الفكرة أيضا ، أن من الخير لهم ولكتابهم أن لا ينحوا بالقرآن هذا المنحى فى تفسيرهم رغبة منهم فى إظهار إعجاز القرآن وصلاحيته للتمشى مع التطور الزمنى ، وحسبهم أن لا يكون فى القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية ثابتة ، وحسب القرآن أنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين علمية، تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل من الصحة .

* * *

الخاتمة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث

التفسير بين ماضيه وحاضره :

لم يترك الأوائل للأواخر كبير جهد فى تفسير كتاب الله ، والكشف عن معانيه ومراميه ، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم الذى جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة ، فتناولوه من أول نزوله بدراستهم التفسيرية التحليلية ، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ ، وتلون بألوان مختلفة مرت بك كلها . أو مر بك على التحقيق ما وصلنا إليه فى دراستنا وقراءتنا الواسعة المستفيضة .

والذى يقرأ كتب التفسير على اختلاف ألوانها ، لا يدخله شك فى أن كل ما يتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة قد وفاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقه من البحث والتحقيق ، فالناحية اللغوية ، والناحية البلاغية ، والناحية الأدبية ، والناحية النحوية ، والناحية الفقهية ، والناحية المذهبية ، والناحية الكونية الفلسفية . كل هذه النواحى وغيرها تناولها المفسرون الأول بتوسع ظاهر ملموس ، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل عصرنا بقليل - من عمل جديد ، أو أثر مبتكر يقومون به فى تفاسيرهم التى ألفوها ، اللهم إلا عملا ضئيلا لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين ، أو شرحا لغامضها ، أو نقداً وتفنيدا لما يعتوره الضعف منها ، أو ترجيحا لرأى على رأى ، مما جعل التفسير يقف وقفة طويلة مليئة بالركود ، خالية من التجديد والابتكار .

مميزات التفسير فى العصر الحديث :

ولقد ظل الأمر على هذا ، وبقى التفسير واقفا عند هذه المرحلة - مرحلة الركود والجمود - لا يتعداها ، ولا يحاول التخلص منها . حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة ، فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى

أن يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كان لها اعتماد كبير على مادونه الأوائل في التفسير - أثرت في الاتجاه التفسيرى للقرآن تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حشرت في التفسير حشراً ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو على أصحابه عليهم رضوان الله تعالى، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، يظهر روعة القرآن، ويكشف عن مراميه الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر بين القرآن وما جد من نظريات علمية صحيحة، على تفاوت بين الموفقين في الغلو والاعتدال، وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن هو الكتاب الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله... وهناك غير هذه الآثار آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيرى في هذا العصر الحديث، نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها: التوسع العلمي والتأثر بالمذهب والعقيدة، والإلحاد الذي قام على حرية الرأي الفاسد.

ألوان التفسير في العصر الحديث:

وعلى ضوء ما تقدم، نستطيع أن نجمل ألوان التفسير في العصر الحديث في الألوان الأربعة الآتية وهي أهمها:

أولا: اللون العلمي.

ثانياً: اللون المذهبي.

ثالثاً: اللون الإلحادي.

رابعا: اللون الأدبي الاجتماعي.

وسأتكلم عن هذه الألوان الأربعة للتفسير في العصر الحديث، على حسب ترتيبها، وبمقدار ما استفدت من قراءتي في كتب التفسير وما يتصل به من مؤلفات جدت في هذا العصر، والله ولي التوفيق.

اللون العلمى

للتفسير فى عصرنا الحاضر

تكلمنا عن التفسير العلمى فيما سبق ، وبينا أن هذا اللون من التفسير كان موضع أخذ ورد بين العلماء الأقدمين ، فمنهم من أيده وقال به ، ومنهم من فنده ومنع منه .

وقلنا : إن التفسير العلمى كان أكثر رواجا وأعظم قبولا لدى المتأخرين ، وأجلنا القول فى هذه النقطة الأخيرة ، ووعدناك بالتوسع فيها عندما نعرض لهذه الخاتمة التى نحن بصددها ، ووفاء بوعدى أقول :

رواج التفسير العلمى فى عصرنا الحاضر .

إن هذا اللون من التفسير — أعنى التفسير العلمى الذى يرمى إلى جعل القرآن مشتملا على سائر العلوم ماجد منها ومايجد — قد استشرى أمره فى هذا العصر الحديث ، وراج لدى بعض المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم ، وعناية بالقرآن الكريم ، وكان من أثر هذه النزعة التسفيرية التى تسلطت على قلوب أصحابها ، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب يحاول أصحابها فيها أن يحملوا القرآن كل علوم الأرض والسماء ، وأن يجعلوه دالا عليها بطريق التصريح أو التلميح ، اعتقاداً منهم — كما قلنا — أن هذا بيان لناحية من أهم نواحى صدقه ، وإعجازه ، وصلاحيته للبقاء .

أهم الكتب التى عنيت بهذا اللون :

ومن أهم هذه الكتب التى ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية ، فيما يتعلق بالأجرام السماوية ، والأرضية ، والحيوانات ، والنباتات ، والجواهر المعدنية) للإمام الفاضل والطبيب البارع ، محمد بن أحمد الإسكندرانى من علماء القرن الثالث عشر الهجرى ، وهو كتاب

كبير الحجم ، يقع فى ثلاث مجلدات . ومطبوع بالمطبعة الوهبية بمصر سنة ١٢٩٧ هـ ومنه نسخة بدار الكتب المصرية .

ورسالة عبد الله باشا فكرى فى مقارنة بعض مباحث الهيئة ، بالوارد فى النصوص الشرعية ، وقد طبعت بالقاهرة سنة ١٣١٥ هـ .

و بين أيدينا كتاب (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد) لرجل الإصلاح الإسلامى المرحوم السيد عبد الرحمن الكواكبى . وهو عبارة عن مجموع مقالات له ، نشرها فى بعض الصحف عند مازار مصر سنة ١٣١٨ هـ وقد طبع هذا الكتاب وأبهم اسم مؤلفه ورمز له (الرحالة ك) . وفى هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ ينحاز انحيازاً بليغاً إلى هذا اللون من ألوان التفسير ، فيصف القرآن بأنه (شمس العلوم وكنز الحكم[1]) ويقرر بأن السر فى إحجام العلماء عن تفسير قسمى الآلاء والأخلاق من القرآن ، وبيان مايشتمل عليه من العلوم المختلفة هو (أنهم كانوا يخافون مخالفة رأى بعض السلف القاصرين فى العلم فيكفرون فيقتلون) ثم يقول : (وهذه مسألة إعجاز القرآن . وهى أهم مسألة فى الدين ، لم يقدروا أن يوفوها حقها من البحث ، واقتصروا على ماقاله بعض السلف أنها هى فصاحته ، وبلاغته ، وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون[2]) .

ثم نراه يأخذ فى بيان اشتمال القرآن على ماجد من نظريات علمية تؤيد إعجاز القرآن ، فيقول : (إنه لو أطلق للعلماء عنان التدقيق وحرية الرأى والتأليف كما أطلق لأهل التأويل والخرافات : لرأوا فى ألوف من آيات القرآن ألوف آيات من الإعجاز ... لرأوا فيه كل يوم آية تتجدد مع الزمان والحدثان ، تبرهن على إعجازه بصدق قوله تعالى: « ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين[3] » برهان عيان لا مجرد تسليم وإيمان ، ومثال ذلك : أن

---

(١) ص ٢٢ .

(٢) ص ٢٣ .

(٣) فى الآية (٥٩) من سورة الأنعام .

العلم كشف فى هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة ، تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوربا وأمريكا ، والمدقق فى القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به فى القرآن منذ ثلاثة عشر قرنا . وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن ، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه .

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هى الأثير ، وقد وصف القرآن بدء التكوين فقال « ثم استوىٰ إلى السماء وهى دخان »[1] .

وكشفوا أن الكائنات فى حركة دائمة دائبة ، والقرآن يقول : « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها ... (إلى أن يقول) وكل فى فلك يسبحون[2] » .

وحققوا أن الأرض منفتقة من النظام الشمسى والقرآن يقول : « ... أن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما[3] » .

وحققوا أن القمر منشق من الأرض . والقرآن يقول « أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها[4] » ، ويقول : « اقتربت الساعة وانشق القمر[5] » :

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن ، يقول « خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن[6] » ، وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعى أن تميد الأرض ، أى ترتج فى دورتها ، والقرآن يقول : « وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم[7] » .

وكشفوا أن التغيير فى التركيب الكيماوى بل والمعنوى ناشىء عن تخالف نسبة المقادير ، والقرآن يقول : « وكل شىء عنده بمقدار[8] » .

---

(١) فى الآية (١١) من سورة فصلت .
(٢) فى الآية (٤٠) من سورة يس .
(٣) فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء .
(٤) فى الآيه (٤١) من سورة الرعد (٥) أول سورة القمر .
(٦) فى الآيه (١٢) من سورة الطلاق .
(٧) فى الآيه (١٥) من سورة النحل وآية (١٠) من سورة لقمان .
(٨) فى الايه (٨) من سورة الرعد :

وكشفوا ان للجمادات حياة قائمة بماء التبلور ، والقرآن يقول : « وجعلنا من الماء كل شيء حي[1] » وحققوا ان العالم العضوى - ومنه الانسان - ترقى من الجماد ، والقرآن يقول : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين »[2] .

وكشفوا ناموس اللقاح العام فى النبات ، والقرآن يقول « خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض[3] » . ويقول . فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى[4] »، ويقول : « اهتزت وربت وانبتت من كل زوج بهيج[5] » ، ويقول : « ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين[6] » .

وكشفوا طريقة إمساك الظل ،أى التصوير الشمسى والقرآن يقول: «ألم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا الشمس عليه دليلا[7] » .

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء ، والقرآن يقول - بعد ذكره الدواب والجوارى بالريح - « وخلقنالهم من مثله مايركبون[8] ».
وكشفوا وجود المكروب وتأثيره الجدرى وغيره من المرض . والقرآن يقول : «وأرسل عليهم طيراً أبابيل [9] » ، اى متتابعة مجتمعة «ترميهم بحجارة من سجيل[10] » ، أى من طير المستنقعات اليابس ... إلى غير ذلك من الآيات

---

(١) فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء .
(٢) » » (١٢) من سورة المؤمنون.
(٣) » » (٣٦) من سورة يس :
(٤) » » (٥٣) من سورة طه :
(٥) » » (٥) من سورة الحج :
(٦) » » (٣) من سوره الرعد :
(٧) » » (٤٥) من سورة الفرقان :
(٨) » » (٤٢) من سورة يس :
(٩) » » (٣) من سورة الفيل :
(١٠) » » (٤) من سورة الفيل .

الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية ، وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضى أن كثيرا من آياته سينكشف سرها فى المستقبل فى وقتها المرهون ، تجديداً لإعجازه مادام الزمان وما كر الجديدان[1]) اهـ .

وبين أيدينا كتاب (إعجاز القرآن) للمرحوم مصطفى صادق الرافعى ، وهو من أنصار هذه النزعة التفسيرية ومن المؤيدين لها ، وفى هذا الكتاب نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ يعقد بحثاً خاصا لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن القرآن (بآثاره النامية ، معجزة أصلية فى تاريخ العلم كله على بسيط هذه الأرض ، من لدن ظهر الإسلام إلى ماشاء الله ..[2]) ثم يستطرد إلى ذكر بعض ما نقله السيوطى فى الإتقان والإكليل عن العلامة المرسى فى اشتمال القرآن على سائر العلوم ، وهنا نجده يعلق استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول : (قال بعض المتأخرين : إن الميقات مشار إليه فى القرآن بقوله تعالى « رفيع الدرجات[3] » قال : فإن عدد (رفيع) بحساب الجمل ثلاثمائة وستون ، وهى عدد درج الليل والنهار) . ثم يقول الرافعى نفسه بعد هذا : (وإذا أطلق حساب الجمل فى كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور ، وتواريخها ، وأسرارها ، ولولا أن هذا خارج عن غرض الكتاب لجئنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث[4]) .

ثم نرى الرافعى ـ رحمه الله ـ يسترسل فى حديثه إلى أن يقول : (وقد استخرج بعض علمائنا من القرآن مايشير إلى مستحدثات الاختراع ، ومايحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية ، وبسطوا كل ذلك بسطاً ليس هو من غرضنا فنستقصى فيه[5] . على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة ، ولعل متحققا

---

(١) ص ٢٣ ـ ٢٥ .

(٢) ص ١٠٨ .

(٣) فى الآية (١٥) من سورة غافر :

(٤) ص ١١٣ ـ ١١٤ (هامش) مطبعة الاستقامة سنة ١٣٥٩ هـ .

(٥) وهنا نرى المؤلف يعلق على قوله هذا بذكر بعض ما نقلناه عن طبائع الاستبداد للكواكبى من استخراج بعض العلوم من القرآن الكريم .

بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن ، وأحكم النظر فيه ، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ، ولا يلتوى عليه أمره ، لاستخرج منه إشارات كثيرة تومىء إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها ، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها) ثم يقول : (وقد أشار القرآن إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ماوصفناه آنفا ، وذلك قوله تعالى « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شىء شهيد[1] » ، ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ماخرجت فى معانيها من قوله تعالى « فى الآفاق وفى أنفسهم » هذه آفاق ، وهذه آفاق أخرى . فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح فى الأفهام شىء ...[2]) اهـ .

كذلك نجد المرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل ، الطبيب المعروف . ينحاز إلى هذا اللون من ألوان التفسير فى كتابه (الاسلام والطب الحديث) الذى جمع فيه مقالاته التى نشرها فى مجلة الأزهر . وبين أيدينا هذا الكتاب ، وهو مطبوع بمطبعة الاعتماد سنة ١٣٥٧ هـ وفيه نجد المؤلف رحمه الله يقرر أن القرآن (ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك ، ولكنه يشير أحيانا إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم[3]) كما يقرر أن كثيراً من آيات القرآن (لا يفهم شيئاً من معناها الحقيقى إلا من درس العلوم الحديثة[4]) كما يؤكد أن العلم الحديث (كشف عن معنى بعض الآيات ، وسينكشف الباقى منها كلما تقدمت العلوم ، ثم يأتى وقت يكون فيه العلماء الماديون أقرب الناس إلى الدين[5]) .

وفى هذا كما ترى اتهام للصحابة ومن جاء بعدهم من سلف الأمة بأنهم لم يفهموا المعانى الحقيقية لبعض الآيات القرآنية ، لجهلهم بهذه العلوم المستحدثة

---

(١) الآية (٥٣) من سورة فصلت .
(٢) ص ١٢٤ — ١٢٦ :
(٣) « ١ .
(٤) « ١ .
(٥) « ١١٢ .

وهذا اتهام نعيذ منه صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسلف الأمة رضوان الله عليهم .

وإذا نحن تتبعنا ما فى هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن ، ولا يهدف إليه من وراء خطابه للعرب الأمية .

فمثلا نجده يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٢) من سورة البقرة « وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقا لكم » تحت عنوان (الحياة تحت ضوء القرآن) وفيه يقول :

(. . . هذه الآية الكريمة معناها — والله أعلم — (وتأمل قوله معناها) أن اللحوم والأسماك والألبان . . . إلخ أفضل فى التغذية من البقول والقمح والذرة ، وليست الأفضلية فى مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم فى كل نوع ، لأن هذا يجب أن لا يكون سببا مهما للأفضلية . . .) ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسبة المواد الزلالية . ثم يقول : (وقد اهتدت أخيراً لجنة الأبحاث بإنجلترا إلى أن قيمة المواد الزلالية تختلف فى نوعها ، وفى المقدار منها الذى يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق ، ورأوا أن اللحوم بالنسبة للمواد الزلالية ونوعها لها قيمة أكثر من اللبن والذرة مثل البيان التالى :

لحوم	لبن البقر	أرز	بطاطس	فول	دقيق	ذرة
١٠٤	١٠٠	٨٨	٧٩	٧٠	٤٠	٣٠

ثم يقول : (إن هذه النتيجة التى لخصها القرآن الشريف (واعجب لقوله : لخصها القرآن الشريف) لم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة . .)[١] .

وغير هذا كثير فى كتاب (الإسلام والطب الحديث) مما لا نصدق أنه

---

(١) ص ١٣ — ١٥ .

مراد الله من خطابه للعرب بالقرآن ، وإن كان لا يتعارض — كما قلنا — مع ما ثبت من ذلك علميا وتحققت صحته .

هذا ، وإن أعظم علماء العصر الحديث تشيعا للنزعة التفسيرية العلمية ، وأكثرهم إنتاجا لهذا التفسير العلمى ، هو المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى : إذا أنه على حسب مارأينا أكثر من جمع فى هذا وأطال فى تفسيره «الجواهر» الذى يقع فى خمسة وعشرين جزءاً كباراً ، والمطبوع بمصر سنة ١٣٤١ — ١٣٥١هـ ولهذا أرى أن أتكلم عنه بما يكشف عن طريقة مؤلفه ومنهجه الذى سلكه فيه .

***

الجواهر فى تفسير القرآن الكريم

للشيخ طنطاوى جوهرى[1]

الدوافع التى حملت المؤلف على كتابة هذا التفسير :

خلق الفيلسوف الإسلامى المرحوم الشيخ طنطاوى جوهرى - كما يقول هو عن نفسه - : (مغرماً بالعجائب الكونية. معجباً بالبدائع الطبيعية ، مشوقاً إلى ما فى السماء من جمال ، وما فى الأرض من بهاء وكمال) ثم كان منه - كما يقول - أنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية ، ألفى أكثر العقلاء وبعض أجلة العلماء عن تلك المعانى معرضين ، وعن التفرج عليها ساهين لاهين ، فقليل منهم من فكر فى خلق العوالم وما أودع فيها من الغرائب ، فدفعه ذلك إلى أن ألف كتباً كثيرة مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية ، وجعل آيات الوحى مطابقة لعجائب الصنع ، وحكم الخلق ، وكان من أهم هذه الكتب كتاب (نظام العالم والأمم) و (جواهر العلوم) و (التاج المرصع) و (جمال العالم) و(النظام والإسلام) و (الأمة وحياتها) ولكنه وجد أن هذه الكتب - رغم كثرتها ، وانتشارها ، وترجمتها إلى اللغات الأجنبية - لم تشف غليله ، فتوجه إلى ذى العزة والجلال ، أن يوفقه إلى أن يفسر القرآن تفسيراً ينطوى على كل ما وصل إليه البشر من علوم ، فاستجاب الله دعاءه ، وتم له ما أراد .

متى وكيف شرع المؤلف فى كتابة هذا التفسير :

ابتدأ المؤلف هذا التفسير أيام أن كان مدرساً بمدرسة دار العلوم ، فكان يلقى تفسير بعض آيات على طلبتها . وبعضها كان يكتب فى مجلة الملاجىء العباسية ، ثم والى سيره فى التفسير حتى أخرج لنا هذه الموسوعة الكبيرة .

---

[1] ولد سنة ١٢٨٧ هـ - ١٨٧٠ م وتوفى سنة ١٣٥٨ اهـ - ١٩٤٠ م . عن كتاب الأعلام للزركلى جـ ٣ ص ٣٣٣ - ٣٣٤ ط ثانية اهـ . وفى كتاب الأعلام الشرقية للأستاذ (زكى مجاهد) جـ ٢ ص ١١٦ - ١١٧ ط القاهرة : أنه توفى فى سنة ١٣٥٩ هـ - ١٩٣٩ م وفيه نظر .

غرض المؤلف من تفسيره :

ولقد أمل المؤلف ـ رحمه الله ـ من وراء هذا التفسير ـ كما يقول ـ (أن يشرح الله به قلوباً ، ويهدى به أمماً ، وتنقشع به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين، فيفهموا العلوم الكونية) وقال : (وإنى لعلى رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين ، وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون ، وليقرأن فى مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول ، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون ، وليرفعن الله مدنيتهم إلى العلا ، وليكونن داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية ، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة فى الزراعة، والطب ، والمعادن ، والحساب ، والهندسة ، والفلك ، وغيرها من العلوم والصناعات) .

مسلك المؤلف فى تفسيره :

ولقد وضع المؤلف فى تفسيره هذا ما يحتاجه المسلم من الأحكام، والأخلاق، وعجائب الكون ، وأثبت فيه غرائب العلوم وعجائب الخلق ، مما يشوق المسلمين والمسلمات ـ كما يقول ـ إلى الوقوف على حقائق معانى الآيات البينات فى الحيوان والنبات ، والأرض والسموات .

هذا . وإن المؤلف ـ رحمه الله ـ ليقرر فى تفسيره أن فى القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية ، فى حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية ، كما يقرر (أن الإسلام جاء لأمم كثيرة ، وأن سور القرآن متممات لأمور أظهرها العلم الحديث)(١) .

وكثيراً ما نجد المؤلف ـ رحمه الله ـ فى تفسيره يهيب بالمسلمين أن يتأملوا فى آيات القرآن التى ترشد إلى علوم الكون ، ويحثهم على العمل بما فيها ، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها ، وينعى على من أغفلها من السابقين الأولين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة .

---

(١) رجعنا فى هذا إلى مقدمة الكتاب وخاتمته وجمعناه ملخصا .

نجد المؤلف يكرر هذه النغمة فى كثير من مواضع الكتاب فيقول فى موضع منه : (يا أمة الإسلام : آيات معدودات فى الفرائض اجتذبت فرعا من علم الرياضيات ، فما بالكم أيها الناس بسبعمائة آية فيها عجائب الدنيا كلها .. هذا زمان العلوم ، وهذا زمان ظهور نور الإسلام ، هذا زمان رقيه ، ياليت شعرى.. لماذا لا نعمل فى آيات العلوم الكونية مافعله آباؤنا فى آيات الميراث ؟ ولكنى أقول: الحمد لله .. الحمد لله ، إنك تقرأ فى هذا التفسير خلاصات من العلوم ، ودراستها أفضل من دراسة علم الفرائض ؛ لأنه فرض كفاية ، فأما هذه فإنها للازدياد فى معرفة الله وهى فرض عين على كل قادر . . . إن هذه العلوم التى أدخلناها فى تفسير القرآن ، هى التى أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء فى الإسلام، فهذا زمان الانقلاب ، وظهور الحقائق ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم(١)) اهـ .

ويقول فى موضع آخر: (إن نظام التعليم الإسلامى لابد من ارتقائه، فعلوم البلاغة ليست هى نهاية علوم القرآن ، بل هى علوم لفظه ، وما نكتبه اليوم علوم معناه ، وانطباقها على العلوم التى أظهرها الله فى الأرض ، ولعل هذا الزمان سيظهر فيه آثار من قوله تعالى «ثم إن علينا بيانه »(٢) فإن البيان المذكور فى سورة القيامة فسر بمعنى أننا نبينه بلسانك فتقرأه كما أقرأك جبريل، وبمعنى أنه إذا أشكل شىء من معانيه فنحن نبينه لك، وعلينا بيان مافيه من الأحكام والعجائب. ولا جرم أن ما يتجدد اليوم من العلوم مما ذكر فى هذا التفسير وما لم يذكر ، من البيان الذى أكد الله أنه يظهره لأمة الإسلام ، فالحمد لله الذى وفق فى هذا التفسير لبعض العرفان تصديقاً لما ذكر الله من أن عليه البيان)(٣) .

ويقول فى موضع آخر : (... لماذا ألف علماء الإسلام عشرات الألوف من الكتب الإسلامية فى علم الفقه . . وعلم الفقه ليس له فى القرآن إلا آيات

---

(١) الجواهر جـ ٣ ص ١٩ (٢) الآية (١٩) من سورة القيامة .
(٣) الجواهر جـ ٢٥ ص ٤٠ .

قلائل لاتصل مائة وخمسين آية ؟ فلماذا كثر التأليف فى علم الفقه ، وقل جداً فى علوم الكائنات التى لا تخلو منها سورة ؟ بل هى تبلغ سبعمائة وخمسين آية صريحة ، وهناك آيات أخرى دلالتها تقرب من الصراحة . فهل يجوز فى عقل أو شرع أن يبرع المسلمون فى علم آياته قليلة . ويجهلوا علما آياته كثيرة جداً ؟ إن آباءنا برعوا فى الفقه ، فلنبرع نحن الآن فى علم الكائنات . . لنقم به ؛ لترقى الأمة . . . » اهـ[١] .

لم يلق تفسير الجواهر قبولا لدى كثير من المثقفين :

هذه المقالات — وغيرها كثير فى تفسير الجواهر — نجد أغلبها قد صدر من المؤلف فى مقام الرد على من كان يوجه إليه اللوم والاعتراض على ما كان منه من تحميل القرآن الكريم علوماً ونظريات مستحدثة لا عهد للعرب بها ، ولا صلة للقرآن بشىء منها .

ويظهر لمن يتصفح هذا التفسير أن المؤلف — رحمه الله — لاقى الكثير من لوم العلماء على مسلكه الذى سلكه فى تفسيره ، مما يدل على أن هذه النزعة التفسيرية لم تلق قبولا لدى كثير من المثقفين .

مصادرة المملكة السعودية لتفسير الجواهر .

ولعل هذا المنزع فى تفسير القرآن الكريم هو السر الذى من أجله صادرت المملكة العربية السعودية هذا الكتاب ، ولم تسمح بدخوله إلى بلادها ، كما يجد القارىء ذلك فى نص الكتاب المرسل من المؤلف إلى الملك عبد العزيز آل سعود ، ملك نجد والحجاز ص ٢٣٨ من الجزء الخامس والعشرين .

طريقة المؤلف فى هذا التفسير :

هذا وإنى — بعد أن قرأت الكثير من هذا التفسير — أستطيع أن أعطيك صورة واضحة عن منهج المؤلف وطريقته التى سلكها فيه ، وذلك أن المؤلف رحمه الله يفسر الآيات القرآنية تفسيراً لفظياً مختصراً ، لا يكاد يخرج عما فى

---

(١) الجواهر جـ ٢٥ ص ٥٣ .

كتب التفسير المألوفة لنا والمتداولة بين أيدينا ، ولكنه سرعان مايخلص من هذا التفسير الذى يسميه لفظياً ، ويدخل فى أبحاث علمية مستفيضة يسميها هو لطائف أو جواهر . . هذه الأبحاث عبارة عن مجموعة كبيرة من أفكار علماء الشرق والغرب فى العصر الحديث ، أتى بها المؤلف ، ليبين للمسلمين ولغير المسلمين أن القرآن الكريم قد سبق إلى هذه الأبحاث ونبه على تلك العلوم قبل أن يصل إليها هؤلاء العلماء بقرون متطاولة .

ثم إننا نجد المؤلف - رحمه الله - يضع لنا فى تفسيره هذا كثيرا من صور النباتات ، والحيوانات ، ومناظر الطبيعة ، وتجارب العلوم ، بقصد أن يوضح للقارىء مايقول توضيحا يجعل الحقيقة أمامه كالأمر المشاهد المحسوس .

كذلك نجد المؤلف - رحمه الله - يستشهد أحيانا على ما يقول بما جاء فى الإنجيل ، واعتماده فيما ينقل على إنجيل (برنابا) لأنه - كما يرى - أصح الأناجيل ، بل هو الإنجيل الوحيد الذى لم تصل إليه يد التحريف والتبديل كما قيل .

وكثيراً ما نرى المؤلف - رحمه الله - يشرح بعض الحقائق الدينية بما جاء عن أفلاطون فى جمهوريته ، أو بما جاء عن إخوان الصفا فى رسائلهم ، وهو حين ينقلها يبدى لنا رضاه عنها ، وتصديقه بها ، مع أنها تخالف الثابت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم .

كما أنه يستخرج كثيراً من علوم القرآن بواسطة حساب الجمل الذى لا نصدق أنه يوصل إلى حقيقة ثابتة ، وإنما هى عدوى تسربت من اليهود إلى المسلمين ، فتسلطت على عقول الكثير منهم .

هذا . . وإنا لنجد المؤلف - رحمه الله - يفسر آيات القرآن تفسيراً علميا يقوم على نظريات حديثة ، وعلوم جديدة ، لم يكن للعرب عهد بها من قبل ، ولست أرى هذا المسلك فى التفسير إلا ضرباً من التكلف ، إن لم يذهب بغرض القرآن ، فلا أقل من أن يذهب بجلاله وجماله .

وإليك بعض ما جاء فى هذا التفسير :

نماذج من هذا التفسير :

فمثلا ، عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦١) من سورة البقرة «وإذ قلتم ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها قال أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير . . . الآية» نجده يقول : (الفوائد الطبية فى هذه الآية) ثم يأخذ فى بيان ما أثبته الطب الحديث من نظريات طبيه ، ويذكر مناهج أطباء أوروبا فى الطب ، ثم يقول : (أو ليست هذه المناهج هى التى نحا نحوها القرآن؟ أوليس قوله «أتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير» رمزاً لذلك ؟ كأنه يقول : العيشة البدوية على المن والسلوى . . وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما . مع الهواء النقى والحياة الحرة ، أفضل من حياة شقية فى المدن بأكل التوابل ، واللحم ، والإكثار من ألوان الطعام ، مع الذلة ، وجور الحكام ، والجبن ، وطمع الجيران من الممالك ، فتختطفكم على حين غفلة وأنتم لاتشعرون. بمثل هذا نفسر هذه الآيات . بمثل هذا فليفهم المسلمون كتاب الله ...)[1] اهـ

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦٧) وما بعدها من سورة البقرة «وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة .. الآيات إلى آخر القصة» نجده يعقد بحثاً فى عجائب القرآن وغرائبه ، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب ، ويذكر فيما يذكر علم تحضير الأرواح فيقول: (.. وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجه . . إن هذه الآية تتلى ، والمسلمون يؤمنون بها ، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولا ، ثم بسائر أوربا ثانياً . .) ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم ، وكيف كان انتشاره بين الأمم ، وفائدة هذا العلم ، ثم قال أخيراً : (ولما كانت السورة التى نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته ، وكذلك حماره ، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل ، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فرارا من الطاعون ، فماتوا ثم أحياهم . . وعلم الله أننا

---

(١) الجواهر ج ١ ص ٦٦ — ٦٧ .

نعجز عن ذلك ، جعل قبل ذكر تلك الثلاثة فى السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح فى مسألة البقرة ، كأنه يقول : إذا قرأتم ماجاء عن بنى إسرائيل فى إحياء الموتى فى هذه السورة عند أواخرها . فلاتيأسوا من ذلك ، فإنى قد بدأت بذكر استحضار الأرواح ، فاستحضروها بطرقها المعروفة ، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون ، ولكن ليكن المحضر ذا قلب نقى خالص على قدم الأنبياء والمرسلين ، كالعزير ، وإبراهيم ، وموسى ، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعاينة ، وأنا أمرت نبيكم أن يقتدى بهم فقلت : « فبهداهم اقتده » ...)اهـ[1]

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة آل عمران (ألم) نجده يعقد بحثاً طويلا عنوانه (الأسرار الكيمائية ، فى الحروف الهجائية ، للأمم الإسلامية ، فى أوائل السور القرانية)وفيه يقول :(انظر رعاك الله . تأمل.. يقول الله : أ . ل . م - طس - حم - وهكذا يقول لنا : أيها الناس ، إن الحروف الهجائية ، إليها تحلل الكلمات اللغوية ، فما من لغــــه فى الأرض إلا وأرجعها أهلها إلى حروفها الأصلية ، سواء أكانت اللغة العربية أم اللغات الأعجمية ، شرقية وغربية ، فلا صرف ، ولا إملاء ، ولا اشتقاق إلا بتحليل الكلمات إلى حروفها ، ولاسبيل لتعليم لغة وفهمها إلا بتحليلها ، وهذا هو القانون المسنون فى سائر العلوم والفنون .

ولا جرم أن العلوم قسمان : لغوية وغير لغوية ، فالعلوم اللغوية مقدمه فى التعليم؛ لأنها وسيلة إلى معرفة الحقائق العلمية من رياضية وطبيعية وإلهية ، فإذا كانت العلوم التى هى آلة لغيرها لا تعرف حقائقها إلا بتحليلها إلى أصولها . فكيف إذاً تكون العلوم المقصودة لنتائجها المادية والمعنوية ؟ فهى أولى بالتحليل وأجدر بإرجاعها إلى أصولها الأولية التى لا تعرف الحساب الا بمعرفة بسائط الأعداد ، ولا الهندسة إلا بعد علم البسائط والمقدمات ، ولا علوم الكيمياء إلا بمعرفة العناصر وتحليل المركبات اليها ، فرجع الأمر إلى تحليل العلوم[2]) اهـ .

---

(١) الجواهر جـ ١ ص ٧١ — ٧٧ .

(٢) الجواهر جـ ٢ ص ١٠ — ١١ .

ومثلا نراه يعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٤) من سورة النور : « يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » وقوله فى الآيات (٢٠ و ٢١ و ٢٢) من سورة فصلت «حتى إذا ماجاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون * وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذى أنطق كل شىء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * وما كنتم تستترون أن يشهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولاجلودكم ولكن ظننتم أن الله لايعلم كثيرا مما تعملون * » وقوله فى الآية (٦٥) من سورة يس « اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » ثم يقول : (.. أوليس الاستدلال بآثار الأقدام ، وآثار أصابع الأيدى فى أيامنا الحاضرة ، هو نفس الذى صرح به القرآن ، وإذا كان الله يعلم مافى البواطن بل هو القائل للانسان : « كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا[1] » والقائل : « بل الإنسان على نفسه بصيرة »[2] أفلا يكون ذكر الأيدى والأرجل والجلود وشهادتها يوم القيامة ليلفت عقولنا إلى أزمن الدلائل ماليس بالبينات المشهورة عند المسلمين ؟ وأن هناك ماهو أفضل منها ؟ .. وهى التى يحكم بها الله فاحكموا بها . ويكون ذلك القول لينبهنا ويفهمنا أن الأيدى فيها أسرار ، وفى الأرجل أسرار ، وفى النفوس أسرار :. فالأيدى لاتشتبه ، والأرجل لاتستبه ، فاحكموا على الجانين والسارقين بآثارهم .... أو ليس فى الحق أن أقول : إن هذا من معجزات القرآن وغرائبه ؟ وإلا فلماذا هذه المسائل التى ظهرت فى هذا العصر تظهر فى القرآن بنصها وفصها ...[3]) اه .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٥ و ٦) من سورة طه : « الرحمن على العرش استوى * له مافى السموات وما فى الأرض ومابينهما وماتحت الثرى » نجده يقول : (... قوله « وما بينهما » دخل فى ذلك عوالم السحاب والكهرباء وجميع العالم المسمى (الآثار العلوية) وهو من علوم الطبيعة قديماً

(١) فى الآية (١٤) من سورة الاسراء .

(٢) الآية (١٤) من سورة القيامة .

(٣) الجواهر ج ٣ ص ٩٠ .

وحديثاً . وقوله : « وماتحت الثرى » يشير لعلمين لم يعرفا إلا فى زماننا ، وهما علم طبقات الأرض ، المتقدم مرارا فى هذا التفسير ، وعلم الآثار ، المتقدم بعضه فى سورة يونس ... فالله هنا يقول . « وما تحت الثرى » ليحرص المسلمون على دراسة علوم المصريين التى تظهر الآن تحت الثرى ...) اهـ[1] .

ومثلا عند قوله تعالى فى الآية (٣٠) من سورة الأنبياء « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقا ... الآية » يقول : (ها أنت قد اطلعت على ما أبرزه القرآن قبل مئات السنين ، من أن السموات والأرض أى الشمس والكواكب وما هى فيه من العوالم ، كانت ملتحمة ففصلها الله تعالى ، وقلنا : إن هذه معجزة ، لأن هذا العلم لم يعرفه الناس إلا فى هذه العصور ، ألا ترى أن كثيراً من المفسرين قالوا : إن الكفار فى ذلك الوقت ليس لديهم هذا العلم . فكان جوابهم على ذلك أنهم أخبروا به فى نفس هذه الآية ، فكأن الآيه تستدل عليهم بنفس ما نزلت به ، وذلك أن هذه الأمور لم تخلق . وقد أخذ العلماء يؤولون تأويلات شتى لفرط ذكائهم وحرصهم رحمهم الله ، وها نحن أولاء نجد هذه العلوم المكنونة المخزونة قد أبرزها الله على أيدى الفرنجة ، كما نطق القرآن هنا ، كأنه يقول : سيرى الذين كفروا أن السموات والأرض كانت مرتوقة ففصلنا بينهما ، فهو وإن ذكرها بلفظ الماضى فقد قصد منه المستقبل كقوله تعالى : « أتى أمر الله[2] » ، وهذه معجزة تامة للقرآن ، وعجيبه من أعجب ما يسمعه الناس فى هذه الحياة الدنيا ...) اهـ[3] .

ومثلا عند قوله تعالى فى الآية (١٥) من سورة الرحمن « وخلق الجان من مارج من نار » نجده يقول : (... والمارج المختلط بعضه ببعض ، فيكون اللهب الأحمر والأصفر والأخضر مختلطات ، وكما أن الإنسان من عناصر مختلفات هكذا الجان من أنواع من اللهب مختلطات ، ولقد ظهر فى الكشف الحديث أن الضوء مركب من ألوان سبعة غير ما لم يعلموه . فلفظ المارج يشير إلى تركيب

---

(١) الجواهر ج ١٠ ص ٦٤ — ٦٥ .

(٢) أول سورة النحل .   (٣) الجواهر ج ١٠ ص ١٩٩ :

الأضواء من ألوانها السبعة ، وإلى أن اللهب مضطرب دائماً ، وإنما خلق الجن من ذلك المارج المضطرب ، إشارة إلى أن نفوس الجان لاتزال فى حاجة إلى التهذيب والتكميل. تأمل فى مقال علماء الأرواح الذين استحضروها إذ أفادتهم إن الروح الكاملة تكون عند استحضارها ساكنة هادئة ، أما الروح الناقصة فإنها تكون قلقة مضطربة . .) اهـ[1] .

وعند قوله تعالى فى الآية (٣٥) من السورة نفسها « يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس فلا تنتصران » يقول : (. . . إنه عبر هنا بشواظ من نار وفيما تقدم بقوله « من مارج من نار » والشواظ والمارج كلاهما اللهب الخالص ، فلماذا جعل الجان مخلوقاً من مارج ولم يقل من شواظ ؟ فاعلم أن المارج فيه معنى الاضطراب كما تقدم . وقد أبنت ذلك هناك ، وهذا الاضطراب يفيد اضطراب الروح كما تقدم فى علم الأرواح ، وأيضاً اختلاط الألوان الآن معروف فى التحليل فهو من هذا القبيل . . . وهذه الفكرة لم تعرف قط إلا فى زماننا هذا ، فإن تحليل الضوء والعلم بأنه مختلط ، والاطلاع على عالم الأرواح الناقصة وأنها مضطربة ، لم يكن إلا فى زماننا ، وهذا من أعاجيب القرآن التى لاتدرك إلا بقراءة العلوم ، وليس يعقلها الناس بفن البلاغة المعروف ، فلا أصحاب المعلقات يدركونها ، ولا الذين بعدهم يعلمونها ، فهل لمثل امرىء القيس، أو لأبى العلاء ، أو المتنبى أن يتناولوا هذه المعانى فى أقوالهم ؟ كلا . . . فهذه بلاغه لاتخطر ببالهم، وأنى لهم علم الروح حتى يخصصوها بلفظ مارج ؟ وعند إنزال العذاب يذكرون الشواظ[2]) اهـ .

ومثلا فى سورة الزلزلة نجده يفسرها تفسيراً لفظياً مختصراً ، ثم يذكر مافيها من لطائف ، مستعرضا ما وقع من حوادث الزلزال فى إيطاليا ، وما وصل إليه العلم الحديث من استخراج الفحم والبترول من الأرض ،

---

(١) الجواهر جـ ٢٤ ص ١٧ .

(٢) الجواهر جـ ٢٤ ص ٢٧ .

وما كثر فى هذا الزمان من استخراج الدفائن من الأرض ، مثل ما كشف فى مصر من آثار قدمائها ، ثم يقول — بعد ما يفيض فى هذا وغيره :(ألست ترى أن هذه السورة — وإن كانت واردة لأحوال الآخرة — تشير من طرف خفى إلى ماذكرنا فى الدنيا ؟ فالأرض الآن كأنها فى حال زلزلة ، وقد أخرجت أثقالها كنوزها وموتاها وغيرها ، والناس الآن يتساءلون ، وهاهم أولاء يلهمون الاختراع ، وهاهم أولاء مقبلون على زمان تنسيق الأعمال بحيث تكون كل أمة فى عمل يناسبها ، وكل إنسان فى عمله الخاص به وينتفع به[1]) اهـ .

ومثلا نجده بعد أن يفرغ من تفسير سورة الكوثر ، وسورة الكافرون ، وسورة النصر ، يذكر لنا بحثاً مستفيضا عنوانه : (تطبيق عام على سورة الكوثر والنصر وما بينهما) وفيه نجده يتأثر بنزعته التفسيرية العلمية إلى درجة جعلته يحمل نصوص الشارع من المعانى الرمزية مايستبعد أن يكون مرادا لها ، وذلك أنه يقرر أولا أن هذه السور لم تكن خاصة بزمان النبوة ، ولا بفتح مكة ونصر جيشها ، لأن هذه الأمة كانت عند نزول هذه السور فى أول عمرها ، وسيطول إن شاء الله ، وكم سيكون لها من فتوح وانتصارات . ثم قال : (وإذا كان الأمر كما وصفنا ونحن أبناء العرب ، وورثة النبى الذى جاء منا صلى الله عليه وسلم . ولغتنا فى مصر ، والشام ، والعراق ، وشمال أفريقيا ، هى لغة القرآن فلنبين للناس بعدنا سر هذه السور ، فقد كان العلماء قبلنا يكتمونها ؛ خوفا من أهل زمانهم ، ولكننا الآن يجب علينا إبرازه وإظهاره ، لتأخذ هذه الأمة بعدنا حظها من الحياة ، وقسطها من الإصلاح . . .) ثم أخذ يبين لنا الكوثر ، وأوصاف كيزانه ، وطيره ، وأوصاف من سيرد عليه من المسلمين ، بما جاء فى الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ... ثم قال — بعد هذا كله — : (اعلم أن هذه الأحاديث وردت لغاية أرقى عما يراها الذين لا يفكرون ، كم أمم جاءت قبلنا وجاء فيهم مصلحون ، فماذا فعلوا ؟ ألقوا إليهم العلم بهيئة جميلة ، وصورة مفرحة ، وبهجة وجمال . ولا نزال نرى كل أمة

---

(١) [illegible] اهـ ج ٢٥ ص ٢٤٩ – ٢٥١ .

حاضرة كفائتة . جميعهم يصيغون مايريدون من الجمال ، والحكمة ، والعلم ، ورقى الأمة بهيئة تسر الجمهور ...) ثم يقول : (الجاهل يسمع الدرو الياقوت وشرابا أحلى من العسل ، فيفرح ويعبد الله ليصل إلى هذه اللذات التى تقر بها عينه .... والعالم ينظر فيقول : إن هذا القول وراءه حكمة ووراءه علم ، لأنى أرى فى خلال القول عجائب . فلماذا يذكر أن الكيزان أو الأباريق أو نحو ذلك عدد نجوم السماء ! وأى دخل لنجوم السماء هنا ؟ ولماذا عبر به ؟ ... ثم يقول: لماذا ذكر أن الذين يرون الحوض عليهم آثار الوضوء ؟ ولم ؟ ... ولم ؟ ... الحق أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم يريد أمرين: أمراً واضحاً جليا يفرح به جميع الناس ، وأمراً يختص بالقواد والعظماء

إن النبوة بأمر الله ، والله جعل فى أهل الأرض فلاحين لايعرفون إلا ظواهر الزرع ، وجعل أطباء يستخرجون منافع من الحب والشجر ، وحكماء يستخرجون علوماً ، وكل لايعرف إلا علمه ، فالطبيب يشارك الفلاح فى أنه يأكل ، ولكنه يمتاز عنه بإدراك المنافع الطبية . هكذا حكماء الأمة الإسلامية يشاركون الجهلاء فى أنهم يفهمون الحوض كما فهموه ، ويردونه معهم كما يردونه ، ولكن هؤلاء يمتازون بأنهم قواد الأمة الذين يقودونها . فماذا يقولون ؟ يقولون إن النبى صلى الله عليه وسلم يريد معانى أرقى . إن الجنة فيها مالا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، فليس الماء الذى هو أحلى من العسل وأبيض من الثلج كل شىء هناك . ثم إن الجنة لا ظمأ فيها . وأى شىء عدد نجوم السماء ؟ ولماذا اختصت النجوم بالعدد والوضوء بالأثر ؟ والذى نقوله . إن الحوض يرمز به للعلم مع بقائه على ظاهره ، فلا المسك الإذفر ، ولا أنواع الجواهر النفيسة من در وياقوت ، ولا حلاوة العسل الذى فى ذلك الماء ، ولا اتساع الحوض إلا أفانين العلم ومناظر بدائعة المختلفة المناهج ، العذبة المشارب ، السارة للناظرين ..) ثم يخلص من هذا كله إلى الاستدلال على أن ماذهب إليه من قبيل الكناية التى هى لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة المعنى الأصلى ، ثم يقول - بعد بيان هذه الكناية - (... هنا يكون النصر ولا يكون

إلا بعد ان يتجافى الناس عن أفعال الملحدين والكافرين ، وجعل العلوم مرتبطة بالربوبية كما تشير إليه سورة الكافرون . هنا يكون نصر الله والفتح ويدخل الناس فى هذه العلوم الحقيقية افواجا . وعلى حكماء المسلمين الذين بعدنا متى نشروا هذه الآراء العلمية وأمثالها ، ورأوا المسلمين تقدموا ونصروا العلم على الجهل فى العالم الإنسانى ، واصبح المسلمون قائمين بما وعدهم ربهم من أنهم خير أمة أخرجت للناس ، وأنهم رحمة للعالمين ، متى رأى العلماء ذلك فيعلموا أن هذا هو النصر فى زماننا ، وهو الفتح ، واذاً فعلى القائمين بذلك أن يحمدوا ربهم ويستغفروه .....[1]) الخ .

هذا هو تفسير الجواهر ، وهذه نماذج منه وضعتها امام القارىء ، ليقف على مقدار تسلط هذه النزعة التفسيرية على قلم مؤلفه وقلبه .

والكتاب - كما ترى - موسوعة علمية، ضربت فى كل فن من فنون العلم بسهم وافر ، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازى ، فقيل عنه: (فيه كل شىء إلا التفسير) بل هو أحق من تفسير الفخر بهذا الوصف وأولى به، واذا دل الكتاب على شىء ، فهو أن المؤلف رحمه الله كان كثيرا ما يسبح فى ملكوت السموات والأرض بفكره ، ويطوف فى نواح شتى من العلم بعقله وقلبه ، ليجلى للناس آيات الله فى الآفاق وفى أنفسهم ، ثم ليظهر لهم بعد هذا كله أن القرآن قد جاء متضمنا لكل ما جاء ويجىء به الإنسان من علوم ونظريات، ولكل ما اشتمل عليه الكون من دلائل وأحداث ، تحقيقا لقول الله تعالى فى كتابه : « مافرطنا فى الكتاب من شىء[2] » ، ولكن هذا خروج بالقرآن عن قصده ، وانحراف به عن هدفه ، وقد عرفت رأينا فى المسألة فلا نعيده .

---

(١) الجواهر ج ٢٥ ص ٢٦٩ — ٢٧٣ .

(٢) فى الآية (٣٨) من سورة الانعام .

إنكار بعض العلماء المعاصرين لهذا اللون من التفسير

لم يقف العلماء فى العصر موقف الإجماع على قبول هذا اللون من التفسير ، بل نراهم مختلفين فى قبوله والقول به ، كما كان الشأن بين من سبقهم من العلماء الأقدمين . . .

وإذا كنا قد وجدنا من العلماء المحدثين من انحاز إلى هذه الفكرة فى التفسير وتأثر بها فى مؤلفاته ، فإنا نجد بجوار هؤلاء أيضاً كثرة من العلماء لم ترض عن هذا اللون من التفسر ، ولم تستسغ أن تشرح به كتاب الله تعالى ، ولم تغمض عينها أو تمسك قلمها عن رد هذه الفكرة على أهلها وتناولهم إياها بالنقد والتفنيد .

نجد هذه المعارضة فى كثير من المحاورات والاعتراضات التى وجهت إلى صاحب الجواهر ، وذكرها لنا فى تفسيره .

كما نجد بعض أساتذتنا المعاصرين ينعون على من يأخذ بهذه الفكرة ويقول بها ، ومن بين هؤلاء أستاذنا الشيخ محمود شلتوت . فقد تناول هذا الموضوع بالبحث فى العدد ٤٠٧ و٤٠٨ من السنة التاسعة لمجله الرسالة (إبريل سنة ١٩٤١ م) وفيه يرد على من يذهب إلى هذا اللون من التفسير بحجج قوية واضحة .

وهذا هو الأستاذ الشيخ أمين الخولى يتناول هذا الموضوع فى كتابه (التفسير : معالم حياته . منهجه اليوم) وفيه يرد على أنصار هذا المذهب فى التفسير بحجج قوية واضحة ، استفدنا منها كثيراً فى تأييد ما اخترنا ، من المذهبين .

وهذا هو المرحوم السيد محمد رشيد رضا . نجده فى مقدمة تفسيره ينعى على من تأثروا فى تفسيرهم بنزعاتهم العلمية ، فشغلوا تفاسيرهم بمباحث النحو ، والفقه ، ونكت المعانى ، والبيان ، والإسرائيليات ، وغير ذلك ، ويعد هذا صارفا يصرف الناس عن القرآن وهديه ، ثم ينعى على الفخر الرازى ما أورده فى تفسيره من العلوم الحادثة فى الملة ، ويعد هذا صارفا يصرف

الإنسان عن القرآن وهديه، كما يتوجه بمثل هذا اللوم على من قلد الفخر الرازى فى مسلكه من المعاصرين ، وأظنه أراد صاحب الجواهر ، وذلك حيث يقول : (. . . وقد زاد الفخر الرازى صارفا آخر عن القرآن ، هو ما يورده فى تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها ، وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة ، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصولا طويلة - بمناسبة كلمة مفردة كالسماء والأرض - من علوم الفلك والنبات والحيوان ، تصد قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن) اهـ[1] .

وأخيراً فهذا هو شيخنا العلامة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى - رحمه الله رحمة واسعه - نجده فى تقريظه لكتاب (الإسلام والطب الحديث) لا يرضى عن هذا المسلك فى التفسير، رغم أنه مدح الكتاب وأشاد بمجهود مؤلفه ، وذلك حيث يقول : (لست أريد من هذا - يعنى ثناءه على الكتاب ومؤلفه - أن أقول : إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلا بالأسلوب التعليمى المعروف ، وإنما أريد أن أقول إنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته به، ليبلغ درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ، ليبنوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها فى الزمان الذى هم عائشون فيه[2]) اهـ .

وفى موضع آخر يقول : (يجب أن لا نجر الآية إلى العلوم كى نفسرها ، ولا العلوم إلى الآية : ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها[3]) اهـ .

ومن هذا كله يتبين أن التفسير العلمى فى العصر الحديث إن كان قد لقى قبولا ورواجا عند بعض العلماء ، فإنه لم يلق مثل هذا القبول والرواج عند كثير منهم، وقد علمت فيما سبق أى الرأيين أقرب إلى الحق وأحرى بالقبول .

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٧ (٢) الإسلام والطب الحديث ص د

(٣) المرجع نفسه ص ٣ .

اللون المذهبى

للتفسير فى عصرنا الحاضر

لم يبق من الفرق المنسوبة إلى الإسلام فى هذا العصر الحديث من له كيان ، أو شيء من الكيان - حسبما نعلم - إلا أهل السنة ، والإمامية الإثنا عشرية ، والإمامية الإسماعيلية ، والزيدية ، والإباضية من الخوارج ، والبهائية من الباطنية . . هذه هى الفرق التى لا تزال فى اعتبارنا قائمة إلى يومنا هذا ، محتفظة بتعاليمها وعقائدها التى تسير عليها من أول عهدها ومبدأ ظهورها .

وإذا كنا قد وقفنا لكل فرقة من هذه الفرق فى عصورها السابقة على عمل ظاهر فى تفسير كتاب الله ، وشرحه على حسب ما تمليه عقيدة المفسر، وما يوحى به إليه ، فإننا لا نعدم هذا اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم فى هذا العصر الحديث ، ولكن بمقدار ما بقى من هذه المذاهب قائماً إلى هذا العصر الذى نتكلم عنه ، ونتحدث عن ألوان التفسير فيه .

نعم بقى اللون المذهبى لتفسير القرآن الكريم قائماً فى هذا العصر الحديث ، بمقدار ما بقى قائماً من المذاهب الإسلامية .

فأهل السنة فسروا القرآن ، وألفوا الكتب فيه بما يتفق وعقيدتهم ، كما نرى ذلك واضحاً فيما خلفته لنا مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده من كتب فى التفسير .

والإماميه الاثنا عشرية فسروا القرآن وألفوا الكتب فيه بما يتمشى مع مذهبهم ، ويتفق مع أهوائهم ومشاربهم ، ومن أحدث كتبهم التى اطلعنا عليها فى التفسير : كتاب (بيان السعادة فى مقامات العبادة) للشيخ سلطان محمد الخراسانى ، من أهل القرن الرابع عشر الهجرى ، وقد سبق لنا الكلام عنه مفصلا ، وكتاب (آلاء الرحمن فى تفسير القرآن) للشيخ محمد جواد النجفى ،

المتوفى سنة ١٣٥٢ ﻫ وقد سبق الكلام عنه بإيجاز عند الكلام على أهم كتب التفسير عند الإمامية الاثنى عشرية .

والإباضية من الخوارج فسروا القرآن وألفوا فيه الكتب بما يناسب عقيدتهم ، ويساير مذهبهم، كما نجد ذلك فى كتاب (هميان الزاد ، إلى دار المعاد) للشيخ محمد بن يوسف إطفيش ، المتوفى سنة ١٢٣٢ وقد مر الكلام عنه أيضاً.

والبهائية من الباطنية نظروا إلى القرآن من خلال عقيدتهم ، فأولوا وحرفوا ، كما نجد ذلك جليا فى رسائل أبى الفضائل الجرفادقانى . أحد رجال البهائية فى هذا العصر .

أما الزيدية ، فهى وإن كانت لا تزال قائمة إلى يومنا هذا ، إلا أنا لم نقف لها على شيء فى التفسير فى هذا العصر الحديث .

وأما المعتزلة . فنحن وإن كنا لا نسمع عن قيامها فى هذا العصر كفرقة لها كيان ، ووحدة ، ومقومات، إلا أنا نرى أثراً كبيراً لتعاليمها فى تفسير القرآن فى العصر الحديث ، كما يظهر ذلك جليا فى تفاسير الإمامية الاثنى عشرية . والإباضية ، ومقالات بعض المحدثين من المفسرين .

كل هذه الفرق الموجودة فى هذا العصر ، أضفت على التفسير لونا مذهبيا ، يقوم على تأييد العقيدة ، وخدمتها على حساب القرآن الكريم ، ولا أريد أن أطيل بذكر نماذج من هذا اللون التفسيرى ، إذ قد سبق لنا الكلام عن هذه الكتب التى ذكرتها ، وذكرت لك منها ما يعطيك صورة واضحة عن اللون المذهبي فى هذا العصر .

اللون الإلحادى

للتفسير فى عصرنا الحاضر

منى الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له ، ويعملون على هدمه بكل ما يستطعون من وسائل الكيد ، وطرق الهدم . وكان من أهم الأبواب التى طرقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة : تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة ، تتنافى مع ما فى القرآن من هداية ، وتناقض ماهو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ما سولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء !! . . .

منى الإسلا بهذا من أيامه الأولى ، ومنى بمثل هذا فى أحدث عصوره ، فظهر فى هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله ، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم ، ويقضى حاجات فى نفوسهم ، فأدخلوا فى تفسير القرآن آراء سخيفة ، ومزاعم منبوذة ، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم .

الباعث على هذا اللون من التفسير :

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ما ذهبوا إليه من أفهام زائفة فى القرآن بعوامل مختلفة ، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته ، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده فى تفسير كتاب الله . . . جديد لا تقره لغة القرآن ، ولا يقوم على أصل من الدين .

ومنهم من تلقى من العلم حظاً يسيرا ، ونصيباً قليلا ، لايرقى به إلى مصاف العلماء ، ولكنه اغتر بما لديه ، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين فى العلم ، ونسى أنه قل فى علم اللغة نصيبه ، وخف فى علم الشريعة وزنه ، فراح ينظر فى كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأى أصل من أصول التفسير ، ثم أخذ يهذى بأفهام

فاسدة ، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين ، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلى حجة ، ولا تتكىء على دليل .

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية ، ولم يسر على عقيدة معروفة ، ولكنه لعبت برأسه الغواية ، وتسلطت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة ، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل فى قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء ، فأخذ يؤوله بما يتفق معها ، تأويلا لا يقرره العقل ولا يرضاه الدين .

هؤلاء جميعاً خاضوا فى القرآن على عماية ، فلم يراعوا فى فهمه قوانين البلاغة ، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة ، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم ، وأنصفوا البحث الحر ، والرأى الطليق .

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالا يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبابه ، ويدفعهم الإيمان والأخلاص إلى أن يبعدوا عنه هذه الخبائث ، التى يراد أن تلصق به أو تنزل فى رحابه . . لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شر مستطير ، ولنتج عن أفكارهم وأهوائهم فتنة فى الأرض وفساد كبير .

وأنا إذ أعرض لهذا اللون من التفسير ، لا أريد أن أذكر أحداً من أصحابه باسمه ولقبه ، إذ ربما كان هذا سبباً للفتنة ، وباعثاً على العداوة ، وكثير منهم أحياء يرزقون ، ويكفى أن أضع يد القارىء على المراجع التى أنقل عنها تفسير هؤلاء القوم . وآراءهم فى القرآن الكريم ، وهى مراجع ميسورة لكل من يريد أن يرجع إليها ويطلع عليها .

وجدنا من أصحاب هذا اللون من ألوان التفسير ، رجلا يكتب بحثاً طويلا تحت عنوان (القرآن والمفسرون) وفيه يعرض لنواحى التقصير فى تفسير كافة المفسرين لكتاب الله تعالى ، ويحمل عليهم حملة شديدة نكراء ، ويوجه إليهم جميعاً نقده الساخر ، ولومه اللاذع ، بدون أن يستثنى منهم مفسراً واحداً على كثرتهم ، وكثرة المعتدلين منهم .

رأيناه يتهم المفسرين جميعاً بأنهم تأثروا فى تفاسيرهم بعقائدهم ، فأمالوا آيات القرآن نحو آرائهم ، فى تعسف ظاهر ، وتكلف غير مقبول[1] . ورأيناه

يرميهم جميعا بأنهم كثيراً ما يكتفون بذكر إسرائيليات ليس لها سند أصلا ، فضلا عن طمعهم فى تصحيح هذه الأسانيد المكذوبة ، ونراه يذكر لهما الاتهام الأخير مثلا من أقوالهم فى تفسير قصة أيوب عليه السلام ، ثم يأخذ فى تفنيد ما ذهبوا إليه ، وإبطال ما قالوا به ، بأدلة كثيرة ذكرها ، وبعد هذا كله تناول هو قوله تعالى فى الآيات (٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤) من سورة (ص) : وأذكر عبدنا أيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الشيطان بنصب وعذاب ۞ اركض برجلك هذا مغتسل بارد وشراب ووهبنا له أهله ومثلهم معهم رحمة منا وذكرى لأولى الألباب ۞ وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث إنا وجدناه صابراً نعم العبد إنه أواب » .

تناول الكاتب هذه الآيات ، فشرحها شرحا يخالف ماذهب إليه المفسرون جميعا . مدعيا أن ما ذهب إليه هو الذى يساير كل ما ورد من آيات القصص فى القرآن ، ومؤكداً أنه هو الذى يتفق مع بلاغة القرآن ، وقدسية الأنبياء ، فقال :

(يجب أن ننظر فى الآية نظرة أخرى — يعنى خلاف ما عليه المفسرون تساير بها نظائرها من آيات القصص ونحن إذا التفتنا إلى ما فى هذه الآية من أن أيوب عليه السلام قد عزى النصب والعذاب للشيطان فقال « مسنى الشيطان بنصب وعذاب » كان ذلك ما نعا كل المنع من أن يراد بالنصب والعذاب داء أصاب أيوب ، وكان من نتائجه ما ذكره المفسرون ... إذ الشيطان لا يملك للإنسان إلا أن ينزغه ، ويوسوس إليه ، فيلويه عن الخير إلى الشر ، وعن العزم فى سبيل الغاية إلى التردد والهزيمة ، وإنه ما من نبى ولا رسول إلا وقد نزل به هذا المصاب .. مصاب إعراض الناس واستهوائهم بالدعوة والداعين ، وصد الشيطان لهم عن سبيل الله « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى .. الآية »[٢] وما كانت شكوى الأنبياء إلا من إعراض أممهم عن الاستجابة ، ولا كان حزنهم

---

(١) انظر مجلة الإيمان العدد الثانى من السنة الثانية سنه ١٣٥٤ هـ .

(٢) الآية (٥٢) من سورة الحج .

الذى كان يبلغ أحياناً حد الإهلاك للنفس إلا لبطء فى سير الدعوة إلى الله تعالى . انظر قوله تعالى « ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون »[1] وقوله تعالى « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا[2] » .

ولما كانت الشكوى تشعر بوهن فى العزيمة ، وضعف فى الثقة . وعدم القوة فى السير إلى الغاية ، كان جواب تلك الشكاية أن قيل له « اركض برجلك » فالمراد بالركض هنا ؛ عقد العزيمة وتأكيدها ، واستتمام الثقة وإكمالها ، والمضاء بقوة وبغير تردد ولا توان إلى الغاية ، فهى كناية من أعذب الكنايات وأروعها ، وهى من وادى — شمر عن ساعد الجد . شمر عن ساقيك — غير أنها أوفر منها صياغة وترفعا . إذ من المعروف المشاهد أن السائر إلى جهة بغير تردد ، بل بقوة وعزيمة ، ترى لرجليه ضربا ، وتسمع لقدميه على الأرض وقعا . ولما كان تردد المرء فى غايته ، ووهن عزيمته إليها . وضعف ثقته بها ، صدأ يغشى الأرواح ، ومرضا يتعب النفوس ويضايق الصدور ، كان عقد العزيمة واستكمال الثقة غسلا للروح من صدئها ، وشفاء للنفس من مرضها ، ونقعا لغلة الصدور ؛ لذلك قال الله لرسوله أيوب « هذا مغتسل بارد وشراب » . والآية كما ترى ليس فيها مرجع لاسم الإشارة إلا الركض المفهوم من قوله « اركض » المكنى به عن توثيق العزم ، والأخذ بالحزم ، كما هو مقتضى النظم الكريم ، الجارى لقواعد اللغة ، التى تأبى أن يكون لاسم الإشارة مرجع غير هذا من الماء والعين ، كما يقتضيه تفسير المفسرين ؛ إذ ليس فى النظم ما يدل عليهما بأى وجه من وجوه الدلالة . ولما كان أيوب عليه السلام باعتباره رسولا لابد أن يأتمر فى إخلاص الأنبياء بأمر ربه ، بين الله ثمرة جهاده وصبره ، ومضاء عزمه ، فقال: « ووهبنا له أهله ومثلهم معهم » أى هدينا له أهله فآمنوا به واستجابوا لدعوته ، وهدينا له مثلهم من غير أهله ، فليس المراد بالهبة هنا هبة الخلق والإيجاد ، بل هبة الهداية والإرشاد ؛ بدليل تعبيره بالأهل دون التعبير بالذرية والولد ، كما

---

(١) فى الآية (١٢٧) من سورة النحل .

(٢) فى الآية (٦) من سورة الكهف .

فى قوله تعالى « ووهبنا له من رحمتنا أخاه هرون نبيا[1] » ، إذ كل ما يهتم له الأنبياء إنما هو أن يهدى الله بهم ، لا أن يولد لهم . ولم يتحدث القرآن عن هبة يحيى لزكريا ، وإسحق لإبراهيم إلا لأن هبة الإيجاد فيهما قد تضمنت أمرين عظيمين: (الأول) أنه قد ولد لإبراهيم ولزكريا عن كبر وشيخوخة ويأس وقنوط . (والثانى) أن الموهوب لكل منهما رسول لا ولد عادى ، فوضع المنة فى هذا : كونهما رسولين لا كونهما ولدين) .

(ثم بين الله بعد ذلك سيرة أيوب التى أمره أن يسير بها فى قومه ، وهى اللين فى القول . والرفق فى الدعوة ، والعظة بالحسنى ، وتلك هى الخطة التى رسمها الله لجميع أنبيائه ، انظر كيف يقول لموسى وهرون « اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى[2] » . ويقول لرسوله الكريم: « ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك[3] » . « واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين[4] » وبين الله ذلك فقال : « وخذ بيدك ضغثا فاضرب به ولا تحنث » أى لا ترفع فى وجوه قومك رمحا ولا عصا ، ولا تغلظ لهم القول ، ولا تخاشنهم فى الطلب . بل لوح فى وجوههم بالرياحين والأزهار ، ولا تأثم بالغلظة والجفوة ، فإنك بخفض الجناح والجدال بالتى هى أحسن تبلغ منهم مالا تبلغه بالسيف ، والعصا ، والخشونة ، والغلظة . فانظر إلى مافى الآية من كناية ما أجملها وأعلاها ، وما أخصبها وأرواها ، وانظر كم تعطيك على هذا الوجه من فنون البلاغة ، وكم تمنحك من جزالة فى الأسلوب ، ثم هم — يريد المفسرين — بعد ذلك يمسخونها ويشوهونها ، فيجعلونها منقطعة عما قبلها ، وما بعدها ، فتقلق فى مرقدها ، وتنبو فى مضجعها ، إذ يجعلونها متوقفة فى فهمها على معونة أجنبية من الكلام الذى هى فيه ، وذلك من أدعى الدواعى لانحطاط

---

(١) فى الآية (٥٣) من سورة مريم
(٢) الآيتان (٤٣ و ٤٤) من سورة طه
(٣) فى الآية (١٥٩) من سورة آل عمران
(٤) فى الآية (٢١٥) من سورة الشعراء

الـكلام عن المستوى العالى لـكلام البشر ، فضلا عن مستوى الإعجاز الذى يجب أن يكون عليه القرآن الـكريم) .

(هذا ما رأيت أن تؤول به تلك الآيات ، استناداً إلى ما جرى عليه قصص القرآن ، وتحامياً لما يترتب على ما فسر به المفسرون تلك الآيات من خدش قدس أيوب عليه السلام ، باعتباره نبيا رسولا ، ومن منافاة ذلك لحكمته السامية ، وتفاديا من أن يحدثنا القرآن عن أمر عادى ، وهو أن شخصا مرض ثم دعا ربه فشفاه من مرضه ... ذلك الحديث الذى لا يتحدث به عظيم من الناس فضلا عن الله تعالى ، ولا يحدث به عن رجل عادى فضلا عن أيوب الرسول الـكريم ...) اهـ[1]

هذا هو التفسير الصحيح فى نظر صاحبه ، وأحسب أن القارىء الـكريم سوف لا يتردد فى الحكم عليه بأنه تفسير منابذ لبلاغة القرآن ، ومخالف لظاهره الذى عرف منذ عهد الصحابة والتابعين ، وأى شىء يقف فى سبيل المعنى الظاهر حتى نعدل عنه إلى مجاز أو كناية فيها تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول ؟ اللهم لا شىء إلا دعوى التجديد ، والثورة على القديم ، والعمل على هدم آراء العلماء الذين عرف الناس مبلغ خدماتهم للعلم ، ودفاعهم عن الدين .

ولا أطيل بذكر ما أفند به هذا الرأى الشاذ وما يحمله من دعاوى غير صحيحة على المفسرين جميعا ، فقد سبقنى إلى هذا أحد أساتذتى الأجلاء ، ولست ببالغ مبلغه من العلم ، ولا بآت بأكثر مما أتى به فى الرد على صاحب هذا الرأى[2] .

ووجدنا من أصحاب هذا اللون رجلا آخر دفعه حب التجديد المزيف إلى أن يساير روح الإلحاد ويجارى من يتهمون الشريعة الإسلامية بالقسوة فى

---

(١) مجلة الإيمان العدد الثالث من السنة الثانية سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) صاحب الرد المفحم هو أستاذنا العلامة الشيخ السيد محمد الخضر حسين ، وقد نشره فى مجلة الهداية الإسلامية .. العدد العاشر والثانى عشر من المجلد السابع ، والعدد الثانى والثالث والرابع من المجلد الثامن .

أحكامها وحدودها . فراح يتأول آيات الحدود بما يوافق هواه وهوى أصحابه ، فحمل الأمر فيها على الإباحة . . وجعل الأمر في ذلك مفوضا إلى رأى ولى الأمر وحده ، وهو وإن كان قد استعمل الأسلوب اللولبى فيما أبداه ، وطرح الموضوع الذى عالجه فى صورة سؤال ألقاه شخص خالى الذهن ليتعرف وجه الحق فى المسألة ، هو وإن كان قد فعل ذلك مفضوح أمره فصدر المقال يكشف لنا عن نية صاحبه ، ويفيدنا بكل صراحة أن الكاتب يريد أن يتأول آيات الحدود بحمل الأوامر الواردة فيها على الإباحة ، وإليك ما جاء فى هذه المقالة لتقف على حقيقة الأمر ، ولتعرف نية الكاتب وما يهدف إليه فى مقاله .

قال هذا الكاتب تحت عنوان (التشريع المصرى وصلته بالفقه الإسلامى): (قرأت فى السياسة الأسبوعية الغراء مقالا بهذا العنوان(١) . حوى أفكاراً أثارت فى نفسى من الرأى ما كنت أريد أن أرجئه إلى حين ، فإن النفوس لم تتهيأ بعد لفتح باب الاجتهاد ، حتى إذا ظهر المجتهد فى هذا العصر برأى جديد ، كتلك الآراء التى كان يذهب إليها الأئمة المجتهدون فى عصور الاجتهاد ، قابلها الناس بمثل ما كانت تقابل به تلك الآراء من الهدوء والسكون ، وإن بدا عليها ما بدا من الغرابة والشذوذ ، لأن الناس فى تلك العصور كانوا يألفون الاجتهاد وكانوا يألفون شذوذه وخطأه ، إلفهم لصوانه وتوفيقه . أما فى هذا العصر ، فإن الناس قد بعد بهم العهد بالاجتهاد ، حتى صار كل جديد يظهر فيه شاذا فى نظرهم ، وإن كان فى الواقع صواباً ، وما أسرعهم فى ذلك إلى التشنيع والطعن فى الدين ، والمحاربة فى الرزق ، فلا يجد من يرى شيئاً من ذلك إلا أن يكتمه أو يظهره بين أخصائه ، ممن يأمن شرهم ولا يخاف كيدهم ، وتضيع بهذا على الأمة آراء نافعة فى دينها ودنياها ، ولكنى سأقدم على ما كنت أريد إخفاءه من ذلك إلى حين ، وسأجتهد ما أمكننى فى أن لا أدع لأحد مجالا فى ذلك التشنيع الذى يقف عقبة فى سبيل كل جديد) . . . ثم أشاد بما كتبه صاحب المقال المشار إليه ثم قال : (ولكن يبقى بعدا هذا فى تلك الحدود ذلك الأمر الذى

---

(١) هذا المقال المشار إليه يوجد بالعدد الخامس من السنة السادسة(سنة١٩٧٣م)

سنثيره فيها ، ليبحث فى هدوء وسكون فقد نصل فيه إلى تذليل تلك العقبة التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى من ناحية تلك الحدود بوجه آخر جديد . . . وسيكون هذا بإعادة النظر فى النصوص التى وردت فيها تلك الحدود ، لبحثها من جديد بعد هذه الأحداث الطارئة ، وسأقتصر فى ذلك — الآن — على ذكر ما ورد فى تلك الحدود من النصوص القرآنية ، وذلك قوله تعالى فى حد السرقة : « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله والله عزيز حكيم * فمن تاب من بعد ظلمه وأصلح فإن الله يتوب عليه إن الله غفور رحيم [1] » ، وقوله تعالى فى حد الزنى : « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين[2] » فهل لنا أن نجتهد فى الأمر الوارد فى حد السرقة وهو قوله تعالى (فاقطعوا) والأمر الوارد فى حد الزنى وهو قوله تعالى (فاجلدوا) فنجعل كلا منهما للإباحة لا للوجوب ، ويكون الأمر فيهما مثل الأمر فى قوله تعالى : « يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين [3] » ، فلا يكون قطع يد السارق حدا مفروضاً ، لا يجوز العدول عنه فى جميع حالات السرقة ، بل يكون القطع فى السرقة هو أقصى عقوبة فيها ، ويجوز العدول عنه فى بعض الحالات إلى عقوبات أخرى رادعة ، ويكون شأنه فى ذلك شأن كل المباحات التى تخضع لتصرفات ولى الأمر ، وتقبل التأثر بظروف كل زمان ومكان . وهكذا الأمر فى حد الزنى سواء أكان رجما أم جلدا ، مع مراعاة أن الرجم فى الزنى لا يقول به فقهاء الخوارج ؛ لعدم النص عليه فى القرآن الكريم ، وهل لنا أن نذلل بهذا عقبة من العقبات التى تقوم فى سبيل الأخذ بالتشريع الإسلامى ، مع أنا فى هذه الحالة لا نكون قد أبطلنا نصا ولا ألغينا حداً ،

---

(١) الآيتان (٣٨ و ٣٩) من سورة المائدة .

(٢) الآية (٢) من سورة النور .

(٣) الآية (٣١) من سورة الأعراف .

وإنما وسعنا الأمر توسيعاً يليق بما امتازت به الشريعة الإسلامية من المرونة والصلاحية لكل زمان ومكان ، وبما عرف عنها من إيثار التيسير على التعسير . والتخفيف على التشديد ...)[1] اهـ .

فأنت ترى من هذا المقال مقدار ما وصل إليه الكاتب من الجرأة على كتاب الله ، إذ أول آية السرقة وآية الزنى تأويلا غير مقبول بأى حال من الأحوال ، ومن ينظر إلى آية السرقة وآية الزنى لا يفهم منهما إلا أن الأمر فيهما للوجوب ، فليس لأحد أن يعدل عنه مطلقا ، وذلك الأمر فى قوله تعالى « فاقطعوا » وقوله « فاجلدوا » وارد فى الوجوب القاطع ؛ فإن بناء الأمر بالقطع فى آية السرقة على قوله « والسارق والسارقة » ، وبناء الأمر بالجلد فى آية الزنى على قوله « الزانية والزانى » يصرفه عن احتمال الإباحة إلى الوجوب ؛ وهذا لأن تعليق الحكم على شخص ، موصوف بوصف يؤذن بأن المقتضى للحكم هو ذلك الوصف الذى قام بالشخص ، وإذا كان ذلك الوصف جناية مثل السرقة والزنى ووضع الشارع لهما حكما فى صيغة الأمر ولم يذكر حكما غيره ، لا يصح أن يقال : إن هذا الأمر محتمل للإباحة كما احتملها الأمر فى قوله « خذوا زينتكم عند كل مسجد ... الآية » .

ثم إن قوله تعالى فى آية السرقة « جزاء بما كسبا نكالا من الله » ، وقوله فى آية الزنى « ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله » وقوله « وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين » يؤكد أن الأمر فى الآيتين للوجوب لا للاباحة .

ثم إن هناك من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم القولية والعملية ما يؤكد كون الأمر للوجوب فى الآيتين .

فهل يجوز للكاتب بعد هذا كله أن يتهجم على آيات الحدود بمعول ذلك التأويل الذى تنكره اللغة . ولا تقره السنة ولا يتفق وحكمة التشريع ؟

---

(١) السياسة الأسبوعية ص ٦ من العدد السادس من السنة السادسة (٥٠ فبراير سنة ١٩٣٧ م)

اللهم إن هذا التأويل لا يجوز ، ولهذا فإنه لم يصادف غفلة من عقول العلماء وأقلامهم ، فقام كثير منهم بالرد على صاحبه ، وتفنيد ما ذهب إليه [1] ، ولقد تنبه القائمون على أمر الأزهر حينئذ إلى خطر هذا الرأى وما يجره على الدين من بلاء . فجوزى صاحب المقال على ما كان منه جزاء إن كان بسيطا فى حد ذاته ، فهو يدل على أن أفكار الكاتب لم تلق قبولا ولم تجد رواجا فى محيط العلماء . .

ووجدنا غير هذا وذاك من تأثر ببعض الآراء الفلسفية فراح ينكر بعض الحقائق الدينية الثابتة ، ويتأول ما ورد منها فى القرآن بما يتمشى مع مذاهب الفلاسفة ، فأنكر حقيقة الشيطان ، وتأويل ما جاء من لفظ الشيطان فى قوله تعالى فى الآية (١١٧) من سورة النساء : « إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا » فقال ما نصه : (. . . والمعنى أن هؤلاء لم يجيبوا حين أشركوا بالله داعى العقل أو داعى فطرة ، وإنما أجابوا نزعات الشر المنبثة فى العالم على مقتضى سنة الله من الابتلاء بعوامل الخير وعوامل الشر ، فهم بذلك يتبعون قوة خفية أطلق عليها كلمة (شيطان) جريا على عادة العرب المألوفة ، إذ كانوا يتصورون قوى الشر شياطين تتحدث وتناجى وتغرى وتدفع إلى ما تريد) . . ثم قال : (هذا هو الشيطان الذى يلى المشرك يباشر كله أمره . ويتخذه وليا يأمره وينهاه . . . [2]) اهـ .

وفى موضع آخر نجد [3] صاحب هذا الرأى يعود إليه فيؤكده ، ولست أدرى ماذا يفعل فى سياق الآية . وفى القرائن التى احتفت بها ، والصفات التى انتظمتها مما يؤكد أن المراد هو إبليس ، ذلك الكائن الخارجى المستقل المستتر عن أعين الناس ، كما لا أدرى كيف يفعل بالأحاديث الثابتة عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، والتى تقرر أن الشيطان حقيقة لها وجود خارجى .

---

(١) خير من رد عليه أستاذنا السيد محمد الخضر حسين فى مجلة الهداية الإسلامية العدد السابع من المجلد التاسع (مارس سنة ١٩٣٧ م)

(٤) مجلة الايمان السنة الخامسة العدد ٢١ ص ١١ .

(٣) مجلة الإيمان السنة الخامسة العدد ٢٤

وأنكر بعضهم وجود عالم الجن ، وتأول ما جاء من ذلك صريحا فى آيات القرآن الكريم ، ففسر قوله تعالى فى أول سورة الجن : « قل أوحى إلىّ أنه استمع نفر من الجن ... الآية » بأن الجن قبيلة من العرب[1] .

وهذا تأويل ينافى صريح القرآن فى مواضع كثيرة ، فضلا عن أنه لا يقوم على دليل يصححه .

ووجدنا غير هؤلاء جميعاً رجلا نكس على رأسه ، فطوعت له نفسه أن يخوض فى تفسير كتاب الله على ما به من غواية وعماية ، وأخيراً طلع على الناس بكتاب مختصر فى تفسير القرآن الكريم ، تفسيراً جمع فيه الكثير من وساوسه وأوهامه . ثم سول له الغرور أن يسميه :

الهداية والعرفان فى تفسير القرآن بالقرآن

أحدث هذا التفسير ضجة كبرى فى المحيط العلمى ، وقام رجال الأزهر وقعدوا من أجله ، ثم ألفت لجنة من بعض العلماء لتنظر فى هذا الكتاب ، ثم لتحكم عليه بما ترى فيه ، ثم رفعت اللجنة تقريرها لشيخ الأزهر إذ ذاك ، وفيه تفنيد لآراء الرجل وحكم عليه بأنه (أفاك خراص ، اشتهى أن يعرف فلم ير وسيلة أهون عليه وأوفى بغرضه من الإلحاد فى الدين بتحريف كلام الله عن مواضعه ، ليستفز الكثير من الناس إلى الحديث فى شأنه وترديد سيرته) .

ثم صودر الكتاب واختفى عن أعين الناس « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

قرأت ما جاء فى تقرير اللجنة الأزهرية ، ولكننى أردت أن أطلع على الكتاب نفسه ، فعملت كل ما أستطيع حتى استصدرت تصريحاً من دار الكتب المصرية بالاطلاع على هذا الكتاب الذى منع من التداول بين الناس .

حملته على جميع المفسرين :

جاءنى الكتاب وقرأت فيه ، فوجدت مؤلفه قد قدم له بمقدمة عاب فيها

---

(١) انظر مجلة الهداية الإسلامية المجلد الثامن العدد الحادى عشر ٧٠٣١

المفسرين وكتب التفسير جميعا فقال : (وقد بلغ الدس والحشو فى التفاسير أنك لا تجد أصلا من أصول القرآن إلا وتجد بجانبه رواية موضوعة ؛ لهدمه وتبديله ، والمفسرون قد وضعوا هذا فى كتبهم من حيث لا يشعرون)[1] اهـ .

طريقته فى التفسير :

ثم قال بعد ذلك : (فهذا كله — يعنى الدس والحشو فى التفاسير — دعانى إلى تفسيرى ، وأن تكون طريقتى فيه كشف الآية وألفاظها بما ورد فى موضوعها من الآيات والسور ، فيكون من ذلك العلم بكل مواضع القرآن ، ويكون القرآن هو الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجتماع ، وقد اخترت أن تكون على عدد الآيات فى المصحف لتبقى الهداية بالترتيب الذى اختاره الله ، وليمكن الباحث عن معنى الآية أن يلاحظ سياقها فيقرأ ما سبقها وما لحقها من الآيات ليكون على علم تام وهداية واعظة ...[2]) اهـ

ونعل القارىء الكريم يلحظ كما ألحظ أن المؤلف يرمى من وراء قوله (... ويكون القرآن هو الذى يفسر نفسه كما أخبر الله . ولا يحتاج إلى شىء من الخارج غير الواقع الذى ينطبق عليه ويؤيده من سنن الله فى الكون ونظامه فى الاجتماع) . أنه يريد أن يهدر صلة السنة بالقرآن الكريم ، وينفى أن منزلتها منه منزلة المبين من المبين . والله تعالى يقول : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم[3] » اهـ .

ويظهر لنا أن المؤلف قد ركب رأسه فراح يهدم سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يعترف بما لها من مكانة فى تفير القرآن الكريم ، فقال مقالته السابقة ، كما أنه راح يهدم ما للسنة من المكانة فى التشريع الإسلامى فقال

---

(١) ص (ب) .
(٢) ص ج — د .
(٣) فى الآية (٤٤) من سورة النحل .

فى قوله تعالى فى الآية (٦٣) من سورة النور « فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم » : يفيدك أن المخالفة المحذورة هى التى تكون الإعراض عن أمره ، وأما التى تكون للرأى والمصلحة فلا مانع منها بل هى من حكمة الشورى[1]) فأنت ترى أنه يجيز مخالفة أمر الرسول للمصلحة ، وهذا عناد ومكابرة ومخالفة صريحة لقوله تعالى « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا » ، ولغير هذا من الآيات التى وردت فى وجوب طاعته عليه السلام وهى كثيرة . ثم أى مصلحة تخالف ما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ . .

هذا ولا أريد أن أطيل بذكر ما جاء فى هذا الكتاب من أباطيل وأضاليل ويكفى أن أذكر طرفاً مما حواه من ذلك ليتبين القارىء أن الرجل (جامد على المحسوسات ، جاحد لكثير مما أخبر به القرآن ، منكر لأحكام قررها القرآن والسنة وأجمع عليها الصحابة وأئمة المسلمين من بعدهم) .

إنكاره لمعجزات الأنبياء عليهم السلام :

وقف هذا الرجل من معجزات الأنبياء عليهم السلام موقفاً شاذاً غريبا . يقوم على إنكارها وجحدها والذهاب بها — عن طريق التأويل الفاسد — إلى أن تكون من قبيل الممكن الذى يدخل تحت مقدور كل إنسان رسول أو غير رسول ، وهو يصرح بهذا فى كثير من المواضع ، فيقول فى بعض المواضع : (وبعد هذا تعلم أن الله ينادى الناس بأنهم لا ينبغى أن ينتظروا من الرسول آية على صدقه فى دعوته غير ما فى سيرته ورسالته[2]) وفى موضع آخر يقول : (واعلم أن آيات الله فى نصر أنبيائه لا تناقض سننه فى خلقه وكونه[3]) وفى موضع ثالث يقول : (وقد كانت كل آياتهم حججا وبراهين من

(١) ص ٢٨١ .
(٢) ص ١٦١ .
(٣) ص ٢٩٠ .

سيرتهم ورسالتهم . فلا يمكن أن يأتوا بدليل على صدقهم من غير الدعوة نفسها ، فتكون هناك علاقة بين الدعوة ودليلها فتدبر)[١] وفى موضع رابع يقول : (وإن آيتهم على صدق دعوتهم لا تخرج عن حسن سيرتهم ، وصلاح رسالتهم ، وأنهم لا يأتون بغير المعقول ، ولا بما يبدل سنته ونظامه فى كونه[٢]) .

على هذا الأساس تناول الرجل آيات المعجزات فخرج بها عن مدلولها الحقيقى الذى أراده الله تعالى .

موقفه من معجزات عيسى عليه السلام :

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٩ غ) من سورة آل عمران فى شأن عيسى عليه السلام : « . . . أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيي الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين » نجده يقول ما نصه : (كهيئة الطير) يفيدك التمثيل لإخراج الناس من ثقل الجهل وظلماته إلى خفة العلم ونوره (الأكمه) من ليس عنده نظر (الأبرص) المتلون بما يشوه الفطرة ، فهل عيسى يبرىء هذا بمعنى أنه يكمل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة ؟ أم بمعنى أنه يكمل التكوين الروحى والفكرى بالهداية الدينية ؟ (فى بيوتكم) يعلمهم التدبير المنزلى[٣]اهـ .

وإذا كان المؤلف قد تردد فى معنى إبراء الأكمه والأبرص هنا بين تكميل التكوين الجسمانى بالأعمال الطيبة ، وبين تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية ، فإنه ليس تردد الشاك فى أى الأمرين كان ، وإنما هو تردد يبدو منه فى صراحة

---

(١) ص ٢٩٧
(٢) ص ٢٠٦
(٣) ص ٤٥

ووضوح ميله إلى أن المراد هو التكوين الروحى لاغير، وإنك لتجده يصرح فى موضع آخر بأن المراد هو تكميل التكوين الروحى بالهداية الدينية، وذلك عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١١٠) من سورة المائدة «... وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى ...» .. من هذا تعرف أن عيسى نبى أرسله الله إلى بنى إسرائيل ليشفى نفوسهم، ويحيى موت قلوبهم، فآيته فى دعوته وسيرته وهدايته. عاش ومات كغيره من الأنبياء فى بشريته، فلم يكن خارقا فى سنته، ولا ممتازا بما يدعو ألوهيته وعبادته[١]).

كذلك تجده ينكر أن يكون عيسى عليه السلام قد تكلم فى المهد وذلك حيث يؤول قوله تعالى فى الآية (٤٦) من سورة آل عمران «... ويكلم الناس فى المهد وكهلا ...» ما نصه: (فى المهد: فى دور التمهيد للحياة وهو دور الصبا، علامة على الجرأة وقوة الاستعداد فى الصغر. وكهلا: علامة على أنه لا يفل عزمه بالشيخوخة والكبر — ويصح أن يكون المعنى يكلم الناس الصغير منهم والكبير علامة على تواضعه ومباشرة دعوته بنفسه[٢]) اهـ.

وتأول أيضاً قوله تعالى فى الآية (٢٩) من سورة مريم «فأشارت إليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا» فقال: (أى كان ذلك النهار ولداً صغيراً فكيف يأمرنا وينهانا ونحن كبار القوم فهذا ابن حرام[٣]).

ولما رأى أن قوله تعالى قبل ذلك فى الآية (٢٧) فأتت به قومها تحمله» لا يتفق مع تأويله السابق تأوله أيضاً فقال: (تحمله على ما يحمل عليه المسافر، ومنه تفهم أنه كان فى سياحة طويلة[٤]).

---

(١) ص ٩٧
(٢) ص ٤٤
(٣) ص ٢٣٩
(٤) ص ٢٣٩

موقفه من معجزات موسى عليه السلام :

وعند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٦٠) من سورة الأعراف «وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا» قال : (ويصح أن يكون الحجر اسم مكان ، واضرب بعصاك الحجر : معناه : اطرقه واذهب إليه ، والغرض أن الله هداه إلى محل الماء وعيونه[1]) .

وعند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٦٣) من سورة الشعراء «فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم» قال ما نصه : («البحر» الماء الواسع «اضرب بعصاك البحر» اطرقه واذهب إليه «فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم» هذا بيان لحالة البحر، يصوره لك بأنه مناطق بينها طرق ناشفة يابسة ، راجع ١٦٠ فى الأعراف ، ثم راجع طه فى ٧٧ و ٧٨ ولتعرف كيف اهتدى إلى طريق يبس مر منه ، واقرأ استعمال الضرب فى السير فى قصة أيوب فى ص . . .)[2] .

وفى سورة الأعراف عند قوله تعالى فى الآيتين (١٠٧و١٠٨) «فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين * ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين» يقول (مثال من قوة حجته وظهور برهانه[3]) .

وعند قوله تعالى فى الآيات (١١٨) إلى (١٢٢) من نفس السورة «فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون» إلى قوله «رب موسى وهرون» يقول (يصور لنا كيف كشفت حجته تزييف حجتهم حتى سلموا له وآمنوا به[4]) .

موقفه من معجزة إبراهيم عليه السلام :

وعند ما عرض لقوله تعالى فى الآية (٦٩) من سورة الأنبياء (قلنا يا نار

---

(١) ص ١٣١

(٢) ص ٢٩٠

(٣) ص ١٢٦

(٤) ص ١٢٦

كونى برداً وسلاما على إبراهيم .. الخ) نجده ينكر أن يكون إبراهيم عليه السلام قد ألقى فى النار وخرج منها سالما ، وذلك حيث يؤول الآية بما يخالف الظاهر فيقول : (معناه نجاه من الوقوع فيها — راجع ٦٤ فى المائدة و ٢٦ فى النحل، وترى فى الآية وباقى القصة أن الله نجاه بالهجرة وخيب تدبيرهم[١]) .

موقفه من معجزات داود عليه السلام :

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٧٩) من سورة الأنبياء : « . . . . وسخرنا مع داود الجبال يسبحن والطير وكنا فاعلين » يقول : (يسبحن » يعبر عما تظهره الجبال من المعادن التى كان يسخرها داود فى صناعتها الحربية « والطير » يطلق على ذى الجناح وكل سريع السير من الخيل والقطارات البخارية والطيارات الهوائية[٢]) .

موقفه من معجزات سليمان عليه السلام :

وعندما عرض لقوله تعالى فى الآية (٨١) من سورة الأنبياء : « ولسليمان الريح عاصفة تجرى بأمره إلى الأرض التى باركنا فيها . . . . » نجده يقول : (« تجرى بأمره » الآن تجرى بأمر الدول الأوربية وإشارتها ، فى التلغرافات والتليفونات الهوائية . اقرأ سبأ)[٣] .

وفى سورة النمل عند قوله تعالى فى الآية (١٦) « وورث سليمان داود وقال يا أيها الناس علمنا منطق الطير . . . » يقول : « منطق الطير » كل من يربى الطير ويؤلفه يمكنهم أن يتعلموا منطقه وماذا يريد ، ويمكنهم أن يستعملوه فى الرسائل وغيرها)[٤] .

---

(١) ص ٢٥٦
(٢) ص ٢٥٧
(٣) ص ٢٥٧
(٤) ص ٢٩٧

وفى قوله تعالى فى الآية (١٨) من السورة نفسها « حتى إذا أتوا على وادى النمل قالت نملة ياأيها النمل ادخلوا مساكنكم ... » نجده يقول : (« نملة » : قبيلة « النمل » قبائل الوادى) [١] .

وفى قوله بعد ذلك فى الآية (٢٠) من السورة أيضاً « وتفقد الطير فقال مالى لا أرى الهدهد أم كان من الغائبين » نجده يقول : (« الهدهد » اسم : طائر فهل يكون من ذوى الجناحين ؟ ويكون كلامه كناية عما يحمل من رسائل ؟ أم من الخيالة ؟ . السوارى ؟ أو الطيارين الآخرين ؟ راجع الأنبياء) [٢] .

وفى قوله بعد ذلك فى الآيات من (٣٨) إلى (٤٢) من السورة نفسها : « قال ياأيها الملأ أيكم يأتينى بعرشها قبل أن يأتونى مسلمين * قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين * قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك فلما رآه مستقراً عنده قال هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر ومن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن ربى غنى كريم * قال نكروا لها عرشها ننظر أتهتدى أم تكون من الذين لا يهتدون * فلما جاءت قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو وأوتينا العلم من قبلها وكنا مسلمين » فى هذه الآيات نراه يقول : (« بعرشها » بملكها ، يريد أن يضع خطط الحرب ونظام الدخول فى البلاد ، فطلب الخريطة التى فيها مملكة سبأ ليهاجمها ويريها أنه جاد غير هازل « عفريت من الجن » أحد القواد . . ويظهر أنه لم يفهم أن المسألة علمية جغرافية تحتاج إلى الذى « عنده علم من الكتاب» من الكتابة والرسم والتخطيط (قبل أن يرتد إليك طرفك) الغرض أنه يأتى به حالا وقد أتى به ، ويحتمل أنه رسمه فى الحال أو كان عنده مرسوما ، ولو كان عهد الفوتوغرافيا قديماً لصح ان يكون ذلك الرسم بها ، وترى ان سليمان يشكر الله على مافى المملكة من العلماء العاملين فى كل فن ، ونأخذ من القصة ان الله يعظم شأن العلم ويدعونا إلى التمسك بالأسباب

---

(١) ص ٢٩٧ (٢) ص ٢٩٧

الكونية لتشييد الملك وإقامة الدولة « وأوتينا العلم » يؤيد لك أن المسألة علمية « مسلمين » منقادين لله ، يعنى أنهم جمعوا بين العلم والتربية على الخلق العظيم ، وهذا أحسن حافظ لنظام الملك وعزة الدولة)[١] اﻫ .

موقفه من معجزة الإسراء :

وعندما تعرض لقوله تعالى فى أول سورة الإسراء : « سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير » نجده يقول : (« أسرى » الإسراء يستعمل فى هجرة الأنبياء .. انظر ٧٧ فى طه و ١٣٨ فى الأعراف و ٥٢ فى الشعراء و ٢٣ فى الدخان و ٨١ فى هود و ٦٥ فى الحجر ، ثم تدبر آخر النحل وعلاقته بالإسراء ، المسجد الحرام ، الذى له حرمة يحترم بها عند جميع الناس ٢١٧ و ٢١٨ فى البقرة و ٢٥ فى الحج « المسجد الأقصى » الأبعد ، مسجد المدينة .. وقد بارك الله حوله ، فكان للنبى صلى الله عليه وسلم هناك ثمرة وقوة ، وكان بالإسراء الفتح والنصر فكان ذلك من آيات الله انظر ٢٠ يس و ١٠٨ فى التوبة ثم ارجع إلى الإسراء فاقرأ إلى ٦٠ و ٩٣)[٢] .

إنكاره للملائكة والجن والشياطين :

كذلك نجد صاحب هذا الكتاب يؤول الملائكة ، والجن ، والشياطين ، بما لا يتفق والحقائق الشرعية الثابتة .

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣٤) من سورة البقرة « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان الكافرين » نجده يقول : (« الملائكة » رسل النظام وعالم السنن ، وسجودهم للإنسان معناه أن الكون مسخر له . راجع ٢٩ ، ثم انظر الملك فى ١٥ (إبليس) اسم لكل

---

(١) ص ٢٩٨ – ٢٩٩ .

(٢) ص ٢١٩ .

مستكبر على الحق . ويتبعه لفظ الشيطان والجان ، وهو النوع المستعصى على الإنسان تسخيره[1]) .

وعند قوله تعالى فى الآية (٧١) من سورة الأنعام : « قل أندعو من دون الله مالا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران ... الآية » نجده يقول : (« الشياطين » تطلق على الحيات والثعابين ، تستهوى من يتبعها ليقتلها فيهوى معها وتضله بتعرجها راجع ٢٧٥ فى البقرة[2]) .

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٢٦ و٢٧) من سورة الحجر : « ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون * والجان خلقناه من قبل من نار السموم » يقول : (يمثل لك بوصف الإنسان ، النوع الهادىء صاحب الطبع الطينى الذى تشكله كما تريد . « والجان » النوع المتشرد صاحب الطبع النارى ، إذا قاربته يؤذيك ويغويك ، ولا تستطيع أن تمسكه وتعدله ، والنوعان موجودان فى كل أمة ، فتدبر السياق من أول السورة ، وراجع القصة فى البقرة[3]) اهـ

وعند قوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة النمل « وحشر لسليمان جنوده من الجن والإنس » يقول (« الجن » يطلق على العالم الخفى والظاهر القوى ، وجن كل شىء أوله ومقدمته . وجن الجيش قواده ورؤساؤه « والإنس » طائعوه ومرءوسوه اقرأ الجن[4]) .

وعند قوله تعالى فى الآية (١٥٨) من سورة الصافات « وجعلوا بينه وبين الجنة نسبا ولقد علمت الجنة إنهم لمحضرون » يقول : (الجنة أو الجن : سادتهم وكبراؤهم[5]) .

---

(١) ص ٧ .
(٢) ص ١٠٥ .
(٣) ص ٢٠٤ .
(٤) ص ٢٩٧ .
(٥) ص ٢٥٦ .

وعند قوله تعالى فى الآيتين (٣٧ و ٣٨) من سورة (ص) « والشياطين كل بناء وغواص ، وآخرين مقرنين فى الأصفاد ، نجده يقول : (« الشياطين » يطلقون على الصناع الماهرين والأشقياء المجرمين « مقرنين فى الأصفاد » مسلوكين فى القيود ، ومنها تفهم أن سليمان كان يشغل المسجونين من أصحاب الصناعات للانتفاع بهم ...[١]) .

إنكاره لأحكام من الدين لم ينازع فيها أحد من من المجتهدين :

ولقد سولت للمؤلف نفسه أن يتأول بعض آيات الأحكام على غير ما أراد الله ، وعلى مقتضى هواه الذى لا يخضع لقواعد اللغة ولا لأصول الشريعة !! .

حد السرقة :

فمثلا عند قوله تعالى فى الآية (٣٨) من سورة المائدة « والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما ... الآية » يقول : (واعلم أن لفظ السارق والسارقة يعطى معنى التعود . أى أن السرقة صفة من صفاتهم الملازمة لهم ، ويظهر لك من هذا المعنى : أن من سرق مرة أو مرتين ولا يستمر فى السرقة ولم يتعود اللصوصية لا يعاقب بقطع يده ، لأن قطعها فيه تعجيز له ، ولا يكون ذلك إلا بعد اليأس من علاجه[٢]) .

حد الزنى :

وعند قوله تعالى فى الآية (٢) من سورة النور . « الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ... الآية) نجده يقول : (« الزانية والزانى » يطلق هذا الوصف على المرأة والرجل إذا كانا معروفين بالزنى وكان من عادتهما وخلقهما ، فهما بذلك يستحقان الجلد[٣]) .

(١) ص ٣٠٩ .
(٢) ص ٨٨ .
(٣) ص ٢٧٤ .

تعدد الزوجات :

فى الآية (٣) من سورة النساء « وإن خفتم ألا تقسطوا فى اليتامى فانكحوا ماطاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ... الآية » نجده يقول : (« من النساء » نساء اليتامى الذين فيهم الكلام (هكذا بالأصل) لأن الزواج منهن يمنع الحرج فى أموالهن ، ومن هذا تفهم أن تعدد الزوجات لايجوز إلا للضرورة التى يكون فيها التعدد مع العدل أقل ضرراً على المجتمع من تركه ، لتعلم أن التعدد لم يشرع إلا فى هذه الآية بذلك الشرط السابق واللاحق « وإن خفتم ألا تقسطوا » « فإن خفتم ألا تعدلوا »[١]) .

فهو يريد أن يبيح تعدد الزوجات إلا إذا كن يتامى فى حجره ، وأمن من نفسه عدم الجور ، ولم يقل أحد بالشرط الأول مطلقا ، ومن يطلع على سبب النزول يعلم خطأ من يشترط هذا الشرط فى التعدد .

التسرى :

وعند قوله تعالى فى نفس الآية السابقة « فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ماملكت أيمانكم» نجده يقول: (انظر آية ٢٥ إلى ٢٨ من النساء)[٢] وفى الآية ٢٥ وهى قوله تعالى « ومن لم يستطع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات فمن ماملكت أيمانكم من فتياتكم المؤمنات » يقول : (فيه عناية بالخادمات ، وتسهيل لمن يريدون الزواج . ولا يستطيعون النفقات على ذوات البيوتات ، انظر (٣٣) فى النور و(٦٠) فى الكهف ثم (٣٠ و ٣٦ و ٤٢ و ٦٢) فى يوسف « العنت » الحرج انظر(٢٢٠) فى البقرة و(٧) فى الحجرات و(١٢٨) فى التوبة و(١١٨) فى آل عمران . وفى هذه الآية رد على الذين يتخذون ملك اليمين من الخادمات والوصيفات للتمتع بهن كالزوجات ، بحجة أنهن مشتريات بالمال ،

---

(١) ص ٦١ .

(٢) المرجع السابق .

أو أسيرات بالحرب ، فليس فى الإسلام عرض امرأة يباح بغير الزواج ، مملوكة كانت أو مالكة ، فتدبر ذلك فى الآيات)(١) .

وفى قوله تعالى فى الآيتين (٥ و ٦) من سورة المؤمنون « والذين هم لفروجهم حافظون ٭ إلا على أزواجهم أوما ملكت أيمانهم . . . الآية يقول : (اقرأ المعارج ، والنور ، وأوائل البقرة(٢)) .

ثم قال فى المعارج عند قوله تعالى فى الآيتين (٢٩ و ٣٠) « والذين هم لفروجهم حافظون ٭ إلا على أزواجهم أو ماملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين ٭» مانصه : (« أو ملكت أيمانهم » من الخدم ، فإن لهم ماليس لغيرهم ، فقد يكون فى الإنسان فروج أى عيوب ونقائص يسيئه أن يراها الناس فيه ، ولكن لا يسيئه أن يراها خدمه(٣)) .

فأنت ترى من هذا أنه يحرم التسرى ، ويفسر الفروج بالعيوب ، وهذا بعد عن قوانين اللغة ، ومبادىء الشريعة .

الربا

كذلك نجد المؤلف يميل إلى أن الربا المحرم شرعا هو الفاحش فقط ، ولهذا نراه عندما يعرض لآيات الربا فى سورة البقرة يفسر (الربا) فيقول : (الربا هو الزيادة من الربح فى رأس المال ، وهو معروف أو مقيد بالآية (١٣٠) فى آل عمران ، فانظرها أولا(٤)) يريد قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة » ثم يقول بعد ذلك : (« ذروا ما بقى » «فلكم رءوس أموالكم » « وإن كان ذو عسرة» كل ذلك يفيدك أن الكلام فى المعاملة الحاضرة ، ويبشر من يتوب بأنه لا يحاسب على ما كسبه من قبل « فله ماسلف »

---

(١) ص ٤٥٥ .
(٢) ص ٢٦٧
(٣) ص ٤٥٥ :
(٤) ص ٣٧ .

انظر (٣٨) فى الأنفال[١]) . يريد قوله تعالى « قل للذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ماقد سلف » .

ثم قال بعد ذلك عندما عرض لقوله تعالى فى الآية (١٣٠) من سورة آل عمران « يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة واتقوا الله لعلكم تفلحون » : («الربا أضعافا مضاعفة» أى الربا الفاحش وبمعنى آخر: الربح الزائد عن حده فى رأس المال، وتقدره كل أمة بعرفها . راجع فى جزائه أواخر البقرة، وقصة اليهود فى أواخر النساء ، ثم ارجع إلى (٥) فى النساء و(٤٣)[٢] .

زكاة الزروع :

كذلك نجد المؤلف يذهب فى زكاة الزروع مذهبا لم يقل به أحد من المجتهدين فضلا عن أنه يصادم ماجاء من السنة الصحيحة فى بيان المقدار الواجب فى زكاة الزروع ، وذلك حيث يفسر قوله تعالى فى الآية (١٤١) من سورة الأنعام «وآتوا حقه يوم حصاده» فيقول: («وآتوا حقه» يفيد أن فى كل هذا الخارج من الأرض حقاً لابد من إعطائه « يوم حصاده » زمن تحصيله ، وكما أمر المالكين بإيتاء هذا الحق ، أمر الحاكم العام بأخذه ، والعمل على جبايته لبيت المال ، وقد ترك التقدير للأمة بحسب الحال)[٣]. أقول : وليس للأمة دخل فى تقدير مقررات الزكاة بعد أن قدرها الرسول عليه الصلاة والسلام ، وقررها على الأمة .

مصارف الزكاة :

كذلك تخبط المؤلف فى شرحه لبعض مصارف الزكاة ، وذلك حيث فسر قوله تعالى فى الآية (٦٠) من سورة التوبة « ... وفى الرقاب » فقال : (فى خلاصها من الاستعباد . وفى هذا الزمان تجد أكثر المسلمين رقابهم مملوكة للأجانب، فيجب أن يتعاونوا على فك رقابهم، وفى الزكاة حق لهذا التعاون[٤] .

---

(١) ص ٣٨ . (٢) ص ٥٣ . (٣) ص ١١٣ (٤) ص ١٥٠

الطلاق :

كذلك نجد المؤلف يذهب إلى أن الطلاق لا يقع إلا إذا كان سببه أمراً يخل بنظام العشرة، وآتيا من قبل المرأة، وذلك حيث يقول في قوله تعالى في الآية (١) من سورة الطلاق «.. لا تخرجوهن من بيوتهن ولا يخرجن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة» ما نصه : («.. بيوتهن» بيوت الزوجية . راجع البقرة من (٢٢٦ — ٢٤٢) والأحزاب(٤٠)، والتحريم(٥)، والنور(٥ — ١٠) لتعرف أن الطلاق وإن كان في يد الرجل لا يقع إلا بسبب يخل بنظام العشرة الزوجية)[١] .

هذا بعض ما جاء في هذا الكتاب الذي هذى به صاحبه ، وفيه غير هذا كثير مما يدل على أن الرجل قد ركب متن الغواية ، ومشى يخبط خبط الأعشى في مهمه متسع من الضلالة ! ! .

وحسبي أن أكون قد أطلعت القارىء على بعض ما جاء في هذا الكتاب ، ولست في حاجة إلى أن أطيل بذكر ما يبطل هذه الأوهام ويفندها ؛ فإني لست في مقام الرد والتفنيد، وإنما أنا في مقام بيان لون من ألوان التفسير في هذا العصر وإذا كان القارىء الكريم يود أن يقف على إبطال هذه المزاعم التي حشا بها المؤلف كتابه ، فليرجع إلى قرار اللجنة الأزهرية ، التي ألفت للرد على هذا الكتاب[٢] ، وليرجع إلى ما كتبه شيخنا العلامة السيد محمد الخضر حسين في الجزء الثالث من رسائل الإصلاح[٣]، ولا شك أنه سيجد فيما كتب هنا وهناك ما يكفي لأن يذهب بتلك التأويلات أدراج الرياح ، وما ينادي بأن صاحب هذه التأويلات قد انحرف عن الهدى ، فهوى إلى مكان سحيق . ؟

---

(١) ص ٤٥٥ .

(٢) العدد الثالث والرابع من المجلد الثاني من مجلة نور الاسلام (الازهر سنة ١٣٥٠ هـ)

(٣) ص ١٤٠ — ١٦٠ .

اللون الأدبى الاجتماعى

للتفسير فى عصرنا الحاضر

يمتاز التفسير فى هذا العصر بأنه يتلون باللون الأدبى الاجتماعى ، ونعنى بذلك : أن التفسير لم يعد يظهر عليه فى هذا العصر ذلك الطابع الجاف . الذى يصرف الناس عن هداية القرآن الكريم ، وإنما ظهر عليه طابع آخر ، وتلون بلون يكاد يكون جديداً وطارئا على التفسير ، ذلك هو معالجة النصوص القرآنية معالجة تقوم أولا وقبل كل شىء على إظهار مواضع الدقة فى التعبير القرآنى ، ثم بعد ذلك تصاغ المعانى التى يهدف القرآن إليها فى أسلوب شيق أخاذ ، ثم يطبق النص القرآنى على مافى الكون من سنن الاجتماع ، ونظم العمران .

مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده
وأثرها فى التفسير

وإذا كان هذا اللون الأدبى الاجتماعى يعتبر فى نظرنا عملا جديداً فى التفسير ، وابتكارا يرجع فضله إلى مفسرى هذا العصر الحديث ، فإنا نستطيع أن نقول بحق : إن الفضل فى هذا اللون التفسيرى يرجع إلى مدرسة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده للتفسير . . هذه المدرسة للتى قام زعيمها ، ورجالها من بعده بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى ، وهداية الناس إلى ما فيه من خير الدنيا وخير الآخرة .

نعم قامت هذه المدرسة بمجهود كبير فى تفسير كتاب الله تعالى . مجهود نحمد لها الكثير منه ، ولا نوافيها على بعض منه قليل .

محاسن هذه المدرسة :

فالذى تحمده لهذه المدرسة: أنها نظرت للقرآن نظرة بعيدة عن التأثر بمذهب من المذاهب ، فلم يكن منها ما كان من كثير من المفسرين من التأثر بالمذهب إلى الدرجة التى تجعل القرآن تابعاً لمذهبه ، فيؤول القرآن بما يتفق معه ، وإن كان تأويلا متكلفاً وبعيداً .

كما أنها وقفت من الروايات الإسرائيلية موقف الناقد البصير ، فلم تشوه التفسير بما شوه به فى كثير من كتب المتقدمين، من الروايات الخرافية المكذوبة، التى أحاطت بجمال القرآن وجلاله ، فأساءت إليه وجرأت الطاعنين عليه !! .

كذلك لم تغتر هذه المدرسة بما اغتر به كثير من المفسرين من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة التى كان لها أثر سيء فى تفسير القرآن الكريم !! . . .

ولقد كان من أثر عدم اغترار هذه المدرسة بالروايات الإسرائيلية ، والأحاديث الموضوعة ، أنها لم تخض فى تعيين ما أبهمه القرآن ، ولم تجرؤ على الخوض فى الكلام عن الأمور الغيبية ، التى لا تعرف إلا من جهة النصوص

الشرعية الصحيحة ، بل قررت مبدأ الإيمان بما جاء من ذلك مجملا، ومنعت من الخوض فى التفصيلات والجزئيات ، وهذا مبدأ سليم ، يقف حاجزاً منيعا دون تسرب شيء من خرافات الغيب المظنون إلى المعقول والعقائد .

كذلك نجد هذه المدرسة أبعدت التفسير عن التأثر باصطلاحات العلوم والفنون ، التى زج بها فى التفسير بدون أن يكون فى حاجة إليها ، ولم تتناول من ذلك إلا بمقدار الحاجة ، وعلى حسب الضرورة فقط .

ثم إن هذه المدرسة ، نهجت بالتفسير منهجا أدبيا اجتماعياً ، فكشفت عن بلاغة القرآن وإعجازه ، وأوضحت معانيه ومراميه ، وأظهرت ما فيه من سنن الكون الأعظم ونظم الاجتماع، وعالجت مشاكل الأمة الإسلامية خاصة ، ومشاكل الأمم عامة ، بما أرشد إليه القرآن ، من هداية وتعاليم .جمعت بين خيرى الدنيا والآخرة، ووفقت بين القرآن وما أثبته العلم من نظريات صحيحة، وجلت للناس أن القرآن كتاب الله الخالد، الذى يستطيع أن يساير التطور الزمنى والبشرى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، ودفعت ما ورد من شبه على القرآن، وفندت ما أثير حوله من شكوك وأوهام، بحجج قوية قذفت بها على الباطل فدمغته فإذا هو زاهق كل هذا بأسلوب شيق جذاب يستهوى القارىء ، ويستولى على قلبه ، ويحبب إليه النظر فى كتاب الله ، ويرغبه فى الوقوف على معانيه وأسراره .

هذا ما نحمده لهذه المدرسة ، ولا نستطيع أن نغمطها عليه ، أو نقلل من فضلها فيه .

عيوب هذه المدرسة :

أما ما نأخذه على هذه المدرسة، فهو أنها أعطت لعقلها حرية واسعة، فتأولت بعض الحقائق الشرعية التى جاء بها القرآن الكريم، وعدلت بها عن الحقيقة إلى المجاز أو التمثيل، وليس هناك ما يدعو لذلك إلا مجرد الاستبعاد والاستغراب . استبعاد بالنسبة لقدرة البشر القاصرة ، واستغراب لا يكون إلا ممن جهل قدرة الله وصلاحيتها لكل ممكن .

كما أنها بسبب هذه الحرية العقلية الواسعة جارت المعتزلة فى بعض تعاليمها

وعقائدها، وحملت بعض ألفاظ القرآن من المعانى مالم يكن معهوداً عند العرب فى زمن نزول القرآن وطعنت فى بعض الأحاديث: تارة بالضعف، وتارة بالوضع، مع أنها أحاديث صحيحة رواها البخارى ومسلم ، وهما أصح الكتب بعد كتاب الله تعالى بإجماع أهل العلم ، كما أنها لم تأخذ بأحاديث الآحاد الصحيحة الثابتة ، فى كل ما هو من قبيل العقائد ، أو من قبيل السمعيات ، مع أن أحاديث الآحاد فى هذا الباب كثيرة لا يستهان بها .

ومايقال من أن خبر الواحد لاتثبت به عقيدة إجماعا ،فيه نظر من وجوه :

الأول : أن دعوى الإجماع باطلة . فإن للعلماء أربعة أقوال فى إفادة خبر الواحد العلم :

١ — يفيد الظن مطلقاً . ٢ — يفيد العلم بقرينة .

٣ — يفيد العلم من غير قرينة باطراد .

٤ — يفيد العلم من غير قرينة لا باطراد

الثانى : إذ جرينا على أن خبر الواحد يفيد العلم ، أمكن أن تثبت به عقيدة، وإذا جرينا على أنه يفيد الظن ، أمكن أن تثبت به العقيدة إذا احتفت به قرائن — على المختار — لإفادته العلم حينئذ ، ومن هنا جزم ابن الصلاح وغيره بأن أحاديث الصحيحين التى لم تنتقد عليهما تفيد العلم ؛ فإن الأمة قد تلقتهما بالقبول ، وهى معصومة من الخطأ ، وظن المعصوم لا يخطىء[1] .

الثالث : أنه ليس المراد من العقيدة كل مايعتقد، وإلا لتناول ذلك الفروع الفقهية ، فإنه لا يسوغ العمل بها إلا بعد اعتقاد صحة الحكم فيها ، وإنما المراد بالعقائد أصولها ، وهو ما كان الإخلال بها موجبا للكفر ، كالإيمان بالله وباليوم الآخر . وأما الأحاديث الواردة فى الحوادث الماضية ، أو المستقبلة، أو المتعلقة بتفاصيل اليوم الآخر ومافيه ، فلا يشترط فيها التواتر ، لأن هذه الأمور ليست من قبيل العقائد التى يترتب على عدم تصديقها الكفر والعياذ بالله تعالى ، ولكن يكتفى فيها بأن تكون من طريق صحيح .

---

(١) انظر مقدمة ابن الصلاح فى علوم الحديث ص ١٤ — ٣٥

أهم رجال هذه المدرسة :

هذا .. وإن أهم رجال هذه المدرسة، وهو الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده زعيمها وعميدها ، ثم المرحوم السيد محمد رشيد رضا ، والمرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى ، وهما خير من أنجبت هذه المدرسة ، وخير من ترسم خطا الأستاذ الإمام ، وسار على منهجه وطريقته فى التفسير .

ولست أرى القارىء بحاجة إلى أن أترجم لحياة هؤلاء الرجال الثلاثة ، فالعهد بهم قريب ، وليس يخفى على من له صلة بالحركة العلمية فى هذا العصر شىء من معالم حياتهم ، ويكفى أن أتكلم عن إنتاج كل واحد منهم فى التفسير وعن منهجه الذى سلكه فيه ، وسيقف القارىء — إن شاء الله تعالى — على ماقلته عن هذه المدرسة ، وماذكرته لها من أثر محمود فى التفسير ، وما ذكرته عنها من أثر يؤخذ عليها ولا يحمد لها .

١ — الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده[١]

إنتاجه فى التفسير :

إذا نحن ذهبنا نستقصى ما أنتجه لنا الأستاذ الإمام من عمل فى التفسير، فإنا نجد له تفسيره المشهور لجزء (عم) ذلك التفسير الذى ألفه بمشورة من بعض أعضاء الجمعية الخيرية الإسلامية، ليكون مرجعاً لأساتذة مدارس الجمعية فى تفهيم التلاميذ معانى ما يحفظون من سور هذا الجزء، وعاملا للاصلاح فى أعمالهم وأخلاقهم، ولقد أتم الأستاذ الإمام تفسير هذا الجزء فى سنة ١٣٢١هـ إحدى وعشرين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة، ببلاد المغرب، وبذل جهده كما يقول : (فى أن تكون العبارة سهلة التناول، خالية من الخلاف وكثرة الوجوه فى الإعراب، بحيث لا يحتاج فى فهمها إلا أن يعرف القارىء كيف يقرأ، أو السامع كيف يسمع، مع حسن النية وسلامة الوجدان[٢]).

كذلك نجد له تفسيرا مطولا لسورة (العصر) كان قد ألقاه على هيئة محاضرات، أو دروس على علماء مدينة الجزائر ووجهائها فى سنة ١٣٢١ هـ (سنة ١٩٠٢ م[٣]) ويقول الأستاذ الإمام : إنه قرأ تفسير هذه السورة فى سبعة أيام، وكل درس لا يقل عن ساعتين، أو ساعة ونصف[٤].

كذلك نجد له بعض بحوث تفسيرية، عالج فيها بعض مشكلات القرآن، ودفع بها بعض ما أثير حول القرآن من شكوك وإشكالات، كشرحه لقوله تعالى فى الآية (٧٨) من سورة النساء «وإن تصبهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن تصبهم سيئة يقولوا هذه من عندك، قل كل من عند الله فمال هؤلاء القوم

---

(١) ولد سنة ١٨٤٨ م وتوفى فى سنة ١٩٠٥ م .

(٢) مقدمة تفسير جزء (عم) ص ٢ .

(٣) تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن الشيخ، رشيد .

(٤) تفسير المنار جـ ١ ص ١٣ .

لا يكادون يفقهون حديثاً ، وقوله فى الآية (٧٩) من السورة نفسها « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك ، وأرسلناك للناس رسولا وكفى بالله شهيدا » وجمعه بينهما ، وتوفيقه بين ما يظن فيهما من تناف وتضاد ، وهو نسبة أفعال العباد تارة إلى الله تعالى ، وتارة إلى العبد .

وكشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥) من سورة الحج « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى إلا إذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته . . . إلى قوله « أو يأتيهم عذاب يوم عقيم » وإبطاله لقصة الغرانيق ، وتفنيده لما بنى عليها من تفسير يذهب بعصمة النبى صلى الله عليه وسلم ، ويرفع الأمان عن الوحى الذى تكفل الله بحفظه .

وكتفسيره لقوله تعالى فى الآية (٣٧) من سورة (الأحزاب) : « وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا » ورده لما ألصق بها من أحاديث باطلة ، تصور النبى صلى الله عليه وسلم بصورة الرجل الشهوانى ، وإبطاله لكل ما أثير حول هذه القصة — قصة زيد وزينب — من مطاعن رمى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم زوراً وبهتاناً .

وكذلك نجد من آثار الأستاذ الإمام فى التفسير ، تلك الدروس التى ألقاها فى الأزهر الشريف على تلاميذه ومريديه ، وكان ذلك بمشورة تلميذه السيد محمد رشيد رضا ، وإقناعه به ، كما يقول هو فى مقومة تفسيره[1] .

وقد ابتدأ الأستاذ الإمام بأول القرآن فى غرة المحرم سنة ١٣١٧ ، وانتهى عند تفسير قوله تعالى فى الآية (١٢٦) من سورة النساء « ولله ما فى السموات ومافى الأرض وكان الله بكل شىء محيطا » وذلك فى منتصف المحرم

---

(١) جـ ١ ص ٤ من تفسير المنار .

سنة ١٣٢٣ هـ ، إذ توفى — رحمه الله — لثمان خلون من جمادى الأولى من السنة نفسها[١] .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد ألقى هـذه الدروس فى التفسير على طلابه ولم يدون شيئاً منهـا ، فإنا لا نرى حرجا من جعلها أثراً من آثاره فى التفسير ، وذلك :

لأن تلميذه السيد محمد رشيد رضا كان يكتب فى أثناء إلقاء هذه الدروس مذكرات يودعها ما يراه أهم أقوال الأستاذ الإمام ، ثم يحفظ ما كتب ليمده بما يذكره من أقواله وقت الفراغ ، ثم قام بعـد ذلك بنشر ما كتب فى مجلته (المنار) وكان — كما يقول هو فى مقدمة تفسيره — يطلع الأستاذ الإمام على ما أعده للطبع ، كلما تيسر ذلك بعد جمع حروفه فى المطبعة وقبل طبعه ، فـكان ربما ينقح فيه بزيادة قليلة ، أو حذف كلمة أو كلمات . قال : (ولا أذكر أنه انتقد شيئاً مما لم يره قبل الطبع ، بل كان راضيا بالمكتوب ، بل معجبا به[٢] ..)

هذا هو كل ما وصلت إليه من إنتاج الأستاذ الإمام فى التفسير ، وهو وإن كان إنتاجا يعد قليلا بالنسبة لهذه الشخصية البارزة ، إلا أنه — والحق يقال — كان له أثر بالغ فى تطور التفسير واتجاهاته ، كما سيظهر لك فيما بعد إن شاء الله تعالى .

منهجه فى التفسير :

كان الأستاذ الإمام هو الذى قام وحده من بين رجال الأزهر بالدعوة إلى التجديد ، والتحرر من قيود التقليد ، فاستعمل عقله الحر فى كتاباته وبحوثه ، ولم يجر على ما جمد عليه غيره من أفـكار المتقدمين ، وأقوال السابقين ، فـكان له من وراء ذلك آراء وأفـكار خالف بها من سبقه ، فأغضبت عليه الكثير من أهل العلم ، وجمعت حوله قلوب مريديه والمعجبين به .

---

(١) المرجع نفسه .

(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ١٥ .

هذه الحرية العقلية ، وهذه الثورة على القديم ، كان لهما أثر بالغ فى المنهج الذى نهجه الشيخ لنفسه . وسار عليه فى تفسيره .

وذلك : أن الأستاذ الإمام اتخذ لنفسه مبدءاً يسير عليه فى تفسير القرآن الكريم ، ويخالف به جماعة المفسرين المتقدمين . وهو فهم كتاب الله من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة : وذلك لأنه كان يرى أن هذا هو المقصد الأعلى للقرآن ، وما وراء ذلك من المباحث فهو تابع له ، أو وسيلة لتحصيله[١] .

يقرر الأستاذ الإمام هذا المبدأ فى التفسير ، ثم يتوجه باللوم إلى المفسرين الذين غفلوا عن الغرض الأول للقرآن. وهو مافيه من هداية وإرشاد. وراحوا يتوسعون فى نواح أخرى من ضروب المعانى ، ووجوه النحو ، وخلافات الفقه ، وغير ذلك من المقاصد التى يرى الأستاذ الإمام أن الإكثار فى مقصد منها (يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى ، ويذهب بهم فى مذاهب تنسيهم معناه الحقيقى[٢]) .

لهذا نرى الأستاذ الإمام يقسم التفسير إلى قسمين :

أحدهما : جاف مبعد عن الله وكتابه ، وهو ما يقصد به حل الألفاظ ، وإعراب الجمل ، وبيان ما ترمى إليه تلك العبارات والإشارات من النكت الفنية . قال : وهذا لا ينبغى أن يسمى تفسيرا . وإنما هو ضرب من التمرين فى الفنون ، كالنحو ، والمعانى ، وغيرهما .

وثانيهما : ذهاب المفسر إلى فهم المراد من القول ، وحكمة التشريع فى العقائد والأحكام ، على الوجه الذى يجذب الأرواح ، ويسوقها إلى العمل والهداية المودعة فى الكلام ؛ ليتحقق فيه معنى قوله تعالى « هدى ورحمة » ونحوهما من

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ١٧ .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ١٨

الأوصاف قال الأستاذ الإمام :(وهذا هو الغرض الأول الذى أرمى إليه فى قراءة التفسير[١]) .

هذا .. وإن الأستاذ الامام لايريد من كلامه السابق أن يهمل الناحية البلاغية أو النحوية مثلا فى تفسير القرآن ، ولكنه يريد أن يأخذ المفسر من ذلك بمقدار الضرورة ، فيبين المفسر — مثلا — من وجوه البلاغة ، وضروب الإعراب بقدر مايحتمله المعنى ، وعلى الوجه الذى يليق بفصاحة القرآن وبلاغته. وذلك بدون أن يتجاوز مقدار الحاجة .

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام — وقد وضع لنفسه هذه الخطة فى التفسير — يشترط شروطا لا بد من توفرها عند من يريد أن يفسر القرآن تفسيرا يحقق الغرض منه ، وقد ذكرناها بجملتها عند كلامنا عن العلوم التى يحتاج إليها المفسر .

القرآن لايتبع العقيدة وإنما تؤخذ العقيدة من القرآن :

ويرى الأستاذ الإمام : أن القرآن الكريم هو الميزان الذى توزن به العقائد لتعرف قيمتها ، ويقرر أنه يجب على من ينظر فى القرآن أن ينظر إليه كأصل تؤخذ منه العقيدة ، ويستنبط منه الرأى ، وينعى على ما كان من أكثر المفسرين ، من تسلط العقيدة عليهم ، ونظرتهم للقرآن من خلالها ، حتى تأولوا القرآن بما يشهد لعقائدهم ، ويتمشى معها ، وفى هذا يقول : (إذا وزنا ما فى أدمغتنا من الاعتقاد بكتاب الله تعالى ، من غير أن ندخلها أولا فيه ، يظهر لنا كوننا مهتدين أو ضالين . وأما إذا أدخلنا ما فى أدمغتنا فى القرآن ، وحشرناها فيه أولا ، فلا يمكننا أن نعرف الهداية من الضلال، لاختلاط الموزون بالميزان. فلا يدرى ما هو الموزون به) .

(أريد أن يكون القرآن أصلا تحمل عليه المذاهب والآراء فى الدين ، لا أن تكون المذاهب أصلا والقرآن هو الذى يحمل عليها . ويرجع بالتأويل أو التحريف إليها ، كما جرى عليه المخذولون ، وتاه فيه الضالون[٢]) .

---

(١) تفسير المنار حـ١ ص ٢٥ .

(٢) تفسير سورة الفاتحة ص ٥٤ .

كيف كان يقرأ الأستاذ الإمام التفسير ويكتبه .

تناول الأستاذ الإمام تفسير القرآن الكريم بالتأليف والتدريس ، أما ناحية التأليف ، فحدودة ضيقة ، كما ظهر لك فيما سبق . وأما ناحية التدريس فكانت أوسع إلى حدما من ناحية التأليف ؛ فقد ألقى — رحمه الله — دروساً فى التفسير بالجامع الأزهر الشريف ، مدة ست سنوات ، قرأ فيها ما يقرب من خمسة أجزاء من أجزاء القرآن ، كما ألمعنا إليه فيما تقدم .

كذلك ألقى دروساً فى التفسير بمدينة الجزائر من بلاد المغرب ، كما ألقى دروساً فى التفسير أيضاً فى مساجد بيروت ... فى المسجد الكبير ، وفى مسجد (الباشورة) [١] .

وكان من عادة الأستاذ الإمام فى دروسه : أنه يراعى حال من يستمعون إليه ، فإذا حضره جماعة من البلداء الخاملى الفكر شرح لهم المعنى بكلمات قليلة وإذا كان هناك من يتنبه لما يقول ويلقى له بالا ، يفتح الله عليه بكلام كثير . بهذا يحدث الأستاذ الإمام عن نفسه [٢]

ويحدثنا تلميذه السيد محمد رشيد رضا عن طريقة الأستاذ الإمام فى دروس التفسير فيقول : (كانت طريقته فى قراءة الدرس على مقربة مما ارتآه فى كتابة التفسير ، وهو أن يتوسع فيه فيما أغفله أو قصر فيه المفسرون ، ويختصر فيما برزوا فيه من مباحث الألفاظ ، والإعراب ، ونكت البلاغة ، وفى الروايات التى تدل عليها ، ولا تتوقف على فهمها الآيات . [٣]) .

وكان الإستاذ الإمام يعتمد فى دروسه وكتابته فى التفسير على عقله الحر وكان — كما يقول عنه بعض الكاتبين — (لا يلتزم فى التفسير كتابا ، وإنما يقرأ فى المصحف ، ويلقى مايفيض الله على قلبه [٤]) .

---

(١) محمد عبده لعثمان أمين ١٠١

(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ١٤ .

(٣) المرجع نفسه ض ١٥ .

(٤) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٠١

وكان من دأبه أنه لا يرجع إلى كتاب من كتب التفسير قبل إلقاء دروسه حتى لا يتأثر بفهم غيره ، وكل ما كان منه أنه إذا ماعرض له وجه غريب من الإعراب ، أو كلمة غريبة فى اللغة رجع إلى بعض كتب التفسير ، ليرى ما كتب فى ذلك ، وقد حدث عن نفسه بذلك فقال :(إننى لا أطالع عند ماأقرأ لـكننى ربما أتصفح كتاب تفسير إذا كان هناك وجه غريب فى الإعراب ، أو كلمة غريبة فى اللغة [1]) .

غير أننا نجد تلميذه السيد محمد رشيد رضا يذكر أن الأستاذ الإمام كان (يتوكأ فى ذلك — يعنى فى دروسه فى التفسير — على عبارة تفسير الجلالين الذى هو أوجز التفاسير ، فكان يقرأ عبارته فيقرها ، أو ينتقد منها مايراه منتقداً ثم يتكلم فى الآية أو الآيات المنزلة فى معنى واحد بما فتح الله عليه ، مما فيه هداية وعبرة [2]) .

وسواء أقلنا إن الأستاذ الإمام كان يرجع إلى كتب التفسير أم لا يرجع إليها ، فإنه كان يحكم عقله فيما يلقى وفيما يكتب ، غير ملتفت إلى ماسبق به من أقوال فى التفسير ، ولا بواقف عند اعتبارات المؤلفين وأفهامهم وقوف من يخضع لها ، ويسلم بها ، على ما فيها من غث وسمين .

نعم لم يجمد الأستاذ الإمام على ما فى كتب قدماء المفسرين ، ولم يلغ عقله أمام عقولهم ، بل على العكس من ذلك وجدناه يندد بمن يكتفى فى التفسير بالنظر فى أقوال المتقدمين فيقول : (التفسير عند قومنا اليوم ومن قبل اليوم بقرون ، هو عبارة عن الاطلاع على ما قاله بعض العلماء فى كتب التفسير ، على ما فى كلامهم من اختلاف يتنزه عنه القرآن « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً » [3] ولبث أهل العناية باطلاع على كتب التفسير يطلبون لأنفسهم معنى تستقر عليه أفهامهم فى العلم بمعانى الكتاب ، ثم يبثونه فى الناس

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ١٤ ويظهر من سياق الكلام أن صحة العبارة (قبل أن أقرأ كما نبه على ذلك فى حاشية الكتاب .

(٢) تفسير المنار ج ١ ص ١٥ .

(٣) فى الآية (٨٢) من سورة النساء .

ويحملونهم عليه ، ولكنهم لم يطلبوا ذلك ، وإنما طلبوا صناعة يفاخرون بالتفنن فيها ، ويمارون فيها من يباريهم فى طلبها ، ولا يخرجون لإظهار البراعة فى تحصيلها عن حد الإكثار من القول ، واختراع الوجوه من التأويل والإغراب فى الإبعاد عن مقاصد التنزيل) .

(إن الله تعالى لا يسألنا يوم القيامة عن أقوال الناس وما فهموه ، وإنما يسألنا عن كتابه الذى أنزله لإرشادنا وهدايتنا ، وعن سنة نبينا الذى بين لنا ما نزل إلينا « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم »)[١] .

(يسألنا هل بلغتكم الرسالة ؟ هل تدبرتم ما بلغتم ؟ هل عقلتم ما عنه نهيتم وما به أمرتم ؟ وهل عملتم بإرشاد القرآن ، واهتديتم بهدى النبى ، واتبعتم سنته ؟ عجبا لنا ننتظر هذا السؤال ونحن فى هذا الإعراض عن القرآن وهديه ، فيا للغفلة والغرور[٢]) اهـ

كما وجدناه يعرف لنا الفهم الصحيح للقرآن فيقول : (... وأعنى بالفهم ما يكون عن ذوق سليم تصيبه أساليب القرآن بعجائبها ، وتملكه مواعظه فتشغله عما بين يديه مما سواه . لا أريد الفهم المأخوذ بالتسليم الأعمى من الكتب أخذاً جافا ، لم يصحبه ذلك الذوق وما يتبعه من رقة الشعور ولطف الوجدان ، الذين هما مدار التعقل والتأثر والفهم والتدبر) اهـ[٣] .

ومما يذكر فى هذا المقام أنه (لما أبدى الأستاذ الإمام رأيا طريفا فى تفسير بعض الآيات ، قال له أحد المجاورين : إن ما قلته لا يوافق عليه الجمل — يعنى بالجمل أحد المؤلفين ممن كتبوا الحواشى على تفسير الجلالين — فقال الأستاذ على الفور : إننى أقرر ما يدل عليه المعنى الجليل ، والكلام البليغ ، ولا يعنينى أوافق عليه الجمل أو الحمار[٤]) .

---

(١) فى الآية (٤٤) من سورة النحل .
(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٧
(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٧
(٤) محمد عبده لعثمان أمين ص ١٢٥

كل هذا يدلنا على أن الأستاذ الإمام كان حراً فى تفكيره وفهمه للقرآن ، صريحاً فى نقده ونصحه للتفسير والمفسرين ، جريئا فى ثورته على القديم، ودعوته إلى التحرر مما أحاط بالعقول من القيود ، وما أوغلت فيه من الركود والجمود

هذا . . وإن الأستاذ الإمام لم يكن كغيره من المفسرين الذين كلفوا بالإسرائيليات فجعلوا منها شروحا لمبهمات القرآن ، بل وجدناه على العكس من ذلك نفوراً منها ، وشروداً من الخوض فيها ، لاعتقاده أن الله تعالى لم يكلفنا بالبحث عن الجزئيات والتفصيلات لما جاء به مبهما فى كتابه ، ولو أراد منا ذلك لدلنا عليه فى كتابه أو على لسان نبيه ، وهو يصرح بأن هذا هو « مذهبه فى جميع مبهمات القرآن يقف عند النص القطعى لا يتعداه ، ويثبت أن الفائدة لا تتوقف على سواه (١) » .

وإذا نحن تتبعنا أقواله فى مبهمات القرآن وجدناه محافظا على هذا المبدأ ، لا يعدل عنه ولا يحيد ، إلا فى مواضع قليلة نادرة .

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (١٠ و ١١) من سورة الانفطار « وإن عليكم لحافظين * كراما كاتبين » نجده يقول : « ومن الغيب الذى يجب علينا الإيمان به ما أنبأنا به فى كتابه : أن علينا حفظة يكتبون أعمالنا حسنات وسيئات ، ولكن ليس علينا أن نبحث عن حقيقة هؤلاء ، ومن أى شىء خلقوا ، وما هو عملهم فى حفظهم وكتابتهم ، هل عندهم أوراق واقلام ومداد كالمعهود عندنا ... وهو يبعد فهمه ؟ او هناك الواح ترسم فيها الأعمال ؟ وهل الحروف والصور التى ترسم هى على نحو ما نعهد ؟ أو إنما هى أرواح تتجلى لها الأعمال فتبقى فيها بقاء المداد فى القرطاس إلى أن يبعث الله الناس ؟ كل ذلك لا نكلف العلم به ، وإنما نكلف الإيمان بصدق الخبر وتفويض الأمر فى معناه إلى الله ، والذى يجب علينا اعتقاده من جهة ما يدخل

---

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ٣٢٠

فى عملنا ، هو : أن أعمالنا تحفظ وتحصى ، لا يضيع منها نقير ولا قطمير[1]) اهـ

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) وما بعدها من سورة البروج « قتل أصحاب الأخدود » . . . إلى آخر القصة يقول : (أما تعيين أصحاب الأخدود ، وأنى كانوا ؟ ومن هم أولئك المؤمنون ؟ وأين كان منزلهم من الأرض؟ فقد كثرت فيه الروايات ، والأشهر أن المؤمنين كانوا نصارى نجران، عندما كان دينهم دين توحيد ، ليس فيه حدث ولا بدعة . وأن الكافرين كانوا أمراء اليمن ، أو اليهود الذين لا يبعدون عن هؤلاء فى حقيقة الوثنية ، غير أن المؤمن لا يحتاج فى الاعتبار وإشعار الموعظة قلبه إلى أن يعرف القوم ، والجهة ، وخاصة الدين الذى كان عليه أولئك أو هؤلاء ، حتى يطير وراء القصص المشحونة بالمبالغات ، والأساطير المحشوة بالخرافات ، وإنما الذى عليه : هو أن يعرف من القصة ما ذكرناه أولا ، ولو علم الله خيراً فى أكثر من ذلك لتفضل علينا به)[2] اهـ .

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآيتين (٦ و ٧) من سورة الفجر « ألم تر كيف فعل ربك بعاد * إرم ذات العماد » نجده يقول : وقد يروى المفسرون هنا حكايات فى تصوير إرم ذات العماد ، كان يجب أن ينزه عنها كتاب الله . فإذا وقع إليك شىء من كتبهم ، ونظرت فى هذا الموضع منها ، فتخط ببصرك ما تجده فى وصف إرم ، وإياك أن تنظر فيه)[3] اهـ .

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٦ و ٧ و ٨ و ٩) من سورة القارعة « فأما من ثقلت موازينه * فهو فى عيشة راضية * وأما من خفت موازينه * فأمه هاوية » نجده يقول : وتقدير الله الأعمال وما تستحقه من الجزاء فى ذلك اليوم ، إنما يكون على حسب ما يعلم ، لا طريقة ما نعلم ، فعلينا أن نفوض الأمر فيه إليه سبحانه على الإيمان به ، ومن عجيب ما قال بعض

---

(١) تفسير جزء (عم) ص ٢٦

(٢) « « « ص ٥٩

(٣) « « « ص ٧٩

المفسرين « إنه ميزان بلسان وكفتين كأطباق السموات والأرض ، ولا يعلم ماهيته إلا الله » فما ذا بقى من ماهيته بعد لسانه وكفتيه حتى يفوض العلم فيه إلى الله ؟ والكلام فيه جرأة على غيب الله بغير نص صريح متواتر عن المعصوم، ولم يرد فى الكتاب إلا كلمة ميزان ، وقد عرفت ما يمكننا أن نفهم منها لننتفع بما نعتقد ، وما عدا ذلك فعلمه إلى الله سبحانه . وقد قالوا : إن منكر الميزان بالمعنى المعروف لا يكفر ، إذا كان القائل به يحدد له لسانا وكفتين ، مع أن البشر اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموزون . أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص الذى هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه ؟ أيأبى عالم الغيب والشهادة أن يستعمل فى وزن المعانى والمعقولات إلا ذلك الميزان الذى اخترعه بعض البشر قبل أن يبلغ بهم العلم ما بلغ بأهل العصر الحاضر وما سيبلغ بأهل العصور المقبلة ؟ على أن جميع ما اخترع البشر وما يخترعون مهما دق ولطف ، إنما هو معيار الأثقال الجسمانية والأوزان المحسوسة ، وهلا يكون الأليق بالمقام الإلهى أن يكون ميزان المعانى المعقولة لديه أسمى وأعلى من أن يكون على نمط ما يستعمله البشر ، مهما ارتقت المعارف وسمت بهم العلوم ؟ وهل يليق بمن يخاف مقام ربه أن يجرؤ على القول بوجوب الاعتقاد بأن الميزان الذى يزن الله به الأعمال يوم القيامة هو الميزان الذى تستعمله القبائل ، التى لم تزل فى مهد الإنسانية الأولى ؟ . . ميزان ضعفاء العقول قصار الأنظار ، الذين لا يعرفون قيمة للإيمان بالغيب . ولا لحياء العقل من الله ، وإطراقه عن أن ينظر إلى ما تشامخ من غيوب الله تعالى علمه ، وتعاظمت قدرته) .

(عليك أيها المؤمن المطمئن إلى ما يخبر الله به أن توقن أن الله يزن الأعمال . ويميز لكل عمل مقداره ، ولا تسل كيف يزن ، ولا كيف يقدر ، فهو أعلم بغيبه ، والله يعلم وأنتم لا تعلمون[1]) اه .

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٤٧

معالجته للمسائل الاجتماعية :

ثم إنا نجد الأستاذ الإمام لايكاد يمر بآية من القرآن، يمكنه أن يأخذمنها علاجا للأمراض الاجتماعية ، إلا أفاض فى ذلك بما يصور للقارىء خطر العلة الاجتماعية التى يتكلم عنها ، ويرشده إلى وسيلة علاجها والتخلص منها ، كل هذا يأخذه الأستاذ الإمام من القرآن الكريم ، ثم يلق به على أسماع المسلمين وغير المسلمين ، رجاء أن يعودوا إلى الصواب ، ويثوبوا إلى الرشاد .

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة العصر من التفسير المطول لها « وتواصوا بالصبر » نجده يقول : (... والصبر ملكة فى النفس يتيسر معها احتمال مايشق احتماله ، والرضى بما يكره فى سبيل الحق . وهو خلق يتعلق به بل يتوقف عليه كمال كل خلق ، وما أُتِىَ الناس من شىء مثل ما أتوا من فقد البصر أو ضعفه . كل أمة ضعف الصبر فى نفوس أفرادها ، ضعف فيها كل شىء ، وذهبت منها كل قوة ، ولنضرب لذلك مثلا : نقص العلم عند أمة من الأمم كالمسلمين اليوم ، إذا دققت النظر وجدت السبب فيه ضعف الصبر ؛ فإن من عرف بابا من أبواب العلم ، لا يجد فى نفسه صبرا على التوسع فيه ، والتعب فى تحقيق مسائله ، وينام على فراش من التقليد هين لين ، لا يكلفه مشقة ، ولا يجشمه تعبا ، ويسلى نفسه عن كسله بتعظيم من سبقه ، ولو كان عنده احترام حقيقى لسلفه ، لاتخذهم أسوة له فى عمله ، لحذا حذوهم ، وسلك مسلكهم ، وكلف نفسه بعض ماحملوا أنفسهم عليه، واعتقد كما كانوا يعتقدون أنهم ليسوا بمعصومين) .

(ثم هو إذا تعلم لا يجد صبرا على مشقة دعوة الناس إلى علم ما يعلم ، وحملهم على عرفان ما يعرف ، ولا جلداً على تحصيل الوسائل لنشر ما عنده ، بل متى لاقى أول معارضة قبع فى بيته وترك الخلق للخالق كما يقولون) .

(يجلس الطالب لدرسه سنة أو سنتين، ثم تعرضه مشقة التحصيل ، فيترك الدرس أو يتساهل فى فهمه إلى حرفة أخرى يظنها أربح له ، فينقطع عن الطلب ، ويذهب فى الجهل كل مذهب ، وكل هذا من ضعف الصبر) .

(يبخل البخيل بماله ، ويجهد نفسه فى جمعه وكنزه ، وتعرض له وجوه البر فيعرض عنها ، ولا ينفق درهما فى شيء منها ، فيؤذى بذلك وطنه وملته ، ويترك الشر والفقر يأكل قومه وأمته ، ولو نظرنا إلى ما قبض يده لوجدناه ضعف الصبر ، ولو صبر على محاربة خيال الفقر اللائح فى ذهنه يهدده بالنزول به ، لما أصيب بذلك المرض القاتل له ولأهله) .

(يسرف المسرف فى الشهوات ، ويتهتك المتهتك فى المنكرات، حتى ينفد المال ، وتسوء الحال ، ويستبدل الذل بالعز ، والفقر بالغنى ، ولا سبب لذلك إلا ضياع صبره فى مقاومة الهوى . وضبط نفسه عن مواقع الردى ، ولو صبر فى مجاهدة تلك النزعات لما كان قد خسر ماله ، وأفسد حاله . . . وهكذا لو أردت أن أعد جميع الرذائل ، وأبحث عن عللها الأولى ، لوجدتموها تنتهى إلى ضعف الصبر أو فقده . ولو سردت جميع الفضائل وطلبت ينبوعها الذى تستمد منه حياتها لما وجدت لها ينبوعا سوى الصبر . أفلا يكون جديراً بعد هذا بأن يخص بالذكر ؟[1]) اهـ .

ثم يبين بعد ذلك وسائل الدعوة إلى الخير فيقول : (. . . يجب على العلماء ومن يتشبه بهم ، أن يتعلموا من وسائل القيام بالواجب ما تدعو إليه الحال ، على حسب الأزمان واختلاف أحوال الأمم ، وأول ما يجب عليهم فى ذلك أن يتعلموا التاريخ الصحيح ، وعلم تكوين الأمم ، وارتفاعها وانحطاطها ، وعلم الأخلاق وأحوال النفس ، وعلم الحس والوجدان ، ونحو ذلك مما لابد منه فى معرفة مداخل الباطل إلى القلوب ، ومعرفة طرق التوفيق بين العقل والحق ، وسبل التقريب بين اللذة والمنفعة الدنيوية والأخروية ، ووسائل استمالة النفوس عن جانب الشر إلى جانب الخير ، فإن لم يحصلوا على ذلك كله فوزر العامة عليهم . ولا تنفعهم دعوى العجز ؛ فإنهم ينفقون من أزمانهم فى القيل والقال ، والبحث فى الألفاظ والأقوال ، ما كان يكفيهم أن يكونوا بحار

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٨٧ — ٨٩ .

علم ، وأعلام هدى ورشد ، فليطلبوا العلم من سبله التى قام عليها السلف الصالح ، والله كفيل أن يمدهم بمعونته ، أما وقد انقطعوا إلى مايعجزهم عن القيام بأمره ، فلن يقبل الله لهم عذراً ، بل فليتربصوا حتى يأتى أمر الله) .

(لو قضى الزمان بأن يكون من وسائل التمكن من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واشتغال الناس بالحق عن الباطل ، وبالطيب عن الخبيث أن يضرب الإنسان فى الأرض ويمسحها بالطول والعرض ، وأن يتعلم اللغات الأجنبية ، ليقف على مافيها مما ينفعه فيستعمله ، وما يخشى ضرره على قومه فيدفعه ، لوجب على أهل العلم أن يأخذوا من ذلك بما يستطيعون ، ولهم فى سلف الأمة من القرون الأولى إلى نهاية القرن الرابع من الهجرة أحسن أسوة ، وأفضل قدوة ، وكل مايهونون به على أنفسهم مما يخالف ذلك فإنما هى وساوس شيطان . يشغلهم بها عن النظر فى معانى القرآن ، ويحرمهم من التعرض لرحمة الرحمن)[1] اهـ

ومثلا عند قوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الإنفطار « إن الأبرار لفى نعيم » نراه يوضح معنى البر وما يكون بة الإنسان من الأبرار ، ثم يقول : (فلا يعد الشخص براً ولا باراً حتى يكون للناس من كسبة ومن نفسه نصيب فلا يغترن أولئك الكسالى الخاملون ، الذين يظنون أنهم يدركون مقام الأبرار بركعات من الخشية خاليات ، وبتسبيحات وتكبيرات وتحميدات ملفوظات غير معقولات ، وصيحات غير لائقات بأهل المروءة من المؤمنين والمؤمنات ، ثم بصوم أيام معدودات ، لايجتنب فيها إيذاء كثير من المخلوقات ، مع عدم مبالاة الواحد منهم بشأن الدين قام أم سقط ، ارتفع أو انحط ؛ ومع حرصه وطمعه وتطلعه لما فى أيدى الناس ، واعتقاده الاستحقاق لما عندهم ؛ لا لشىء سوى أنهم عاملون فى كسب المال وهو غير عامل ؛ وهم يجرون على سنة الحق وهو مستمسك بسنة الباطل ، وهم يتجملون بحلية العمل وهو منها عاطل ، فهؤلاء

(١) مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ٩٩ — ١٠٠

ليسوا من الأبرار ، بل يجدر بهم أن يكونوا من الفجار[١]) اه .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى أول فى سورة العاديات : « والعاديات ضبحاً * فالموريات قدحا فالمغيرات صبحا * فأثرن به نقعا * فوسطن به جمعاً » نجده يقول : (... وكان فى هذه الآيات القارعات ، وفى تخصيص الخيل بالذكر فى قوله : « وأعدو لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم[٢] » وفيما ورد فى الأحاديث التى لا تكاد تحصر مايحمل كل فرد من رجال المسلمين على أن يكون فى مقدمة فرسان الأرض مهارة فى ركوب الخيل ، ويبعث القادرين منهم على قنية الخيل على التنافس فى عقائلها ، وأن يكون فن السباق عندهم يسبق بقيه الفنون إتقانا . أفليس من أعجب العجب عندهم أن ترى أمة هذا كتابها قد أهملت شأن الخيل والفروسية، إلى أن صار يشار إلى راكبيها بينهم بالهزء والسخرية ، وأخذت كرام الخيل تهجر بلادهم إلى بلاد أخرى ؟ أليس أغرب مايستغرب أن أناساً يزعمون أن هذا الكتاب كتابهم ، يكون طلاب العلوم الدينية منهم أشد الناس رهبة من ركوب الخيل ، وأبعدهم عن صفات الرجولية ، حتى وقع من أحد أساتذتهم المشار إليهم بالبنان عندما كنت أكلمه فى منافع بعض العلوم ، وفوائدها فى علم الدين أن قال :(إذا كان كل مايفيد فى الدين نعلمه لطلبة العلم ، كان علينا إذاً أن نعلمهم ركوب الخيل)؟ يقول ذلك ليفحمنى وتقوم له الحجة على ، كأن تعليم ركوب الخيل مما لا يليق ولا ينبغى لطلبة العلم ، وهم يقولون إن العلماء ورثة الأنبياء ، فهل هذه الأعمال وهذه العقائد تتفق مع الإيمان بهذا الكتاب ؟ أنصف ثم احكم)[٣] اه .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٣) من سورة الماعون

---

(١) تفسير جزء عم ص ٣٧ .

(٢) فى الآيه (٦٠) من سورة الأنفال.

(٣) تفسير جزء عم ص ١٤٢ .

« ... ولا يحض على طعام المسكين » نجده يقرر : (أن قوله ولا يحض على طعام المسكين ، كناية عن الذى لا يجود بشىء من ماله على الفقير المحتاج إلى القوت الذى لا يستطيع له كسبا) ... ثم يقول : (وإنما جاء بالكناية ليفيدك أنه إذا عرضت حاجة المسكين ، ولم تجد ماتعطيه ، فعليك أن تطلب من الناس أن يعطوه . وفيه حث للمصدقين بالدين على إغاثة الفقراء ولو بجمع المال من غيرهم وهى طريقة الجمعيات الخيرية ، فأصلها ثابت فى الكتاب بهذه الآية ، وبنحو قوله تعالى فى الآيتين (١٧ و ١٨) من سورة الفجر « كلا بل لا تكرمون اليتيم ه ولا تحاضون على طعام المسكين » ونعمت الطريقة هى لإغاثة الفقراء ، وسد شىء من حاجات المساكين ...) اهـ[١] .

ومن أجل هذه الروح التى تسيطر على الأستاذ الإمام فى تفسيره ، نجد الشيخ المراغى — رحمه الله — يقول . (وكانت دروسه يجد علماء الاجتماع فيها تطبيق القرآن على معارفهم[٢]) .

تفسيره للقرآن على ضوء العلم الحديث .

كذلك نجد الأستاذ الإمام - رحمه الله - يتناول بعض آيات القرآن فيشرحها شرحاً يقوم على أساس من نظريات العلم الحديث، وغرضه بذلك: أن يوفق بين معانى القرآن التى قد تبدو مستبعدة فى نظر بعض الناس ، وبين ماعندهم من معلومات توشك أن تكون مسلمة عندهم ، أوهى مسلمة بالفعل ، وهو — وإن كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض نبيل — يخرج أحيانا بمثل هذا الشرح والبيان عن مألوف العرب ، وما عهد لديهم وقت نزول القرآن .

فمثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى أول سورة الإنشقاق « إذا السماء انشقت» نجده يقول : (انشقاق السماء ، مثل انفطارها الذى مر تفسيره فى سورة إذا السماء انفطرت . وهو فساد تركيبها ، واختلال نظامها ، عندما يريد

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٦٢ (٢) محمد عبدة لعثمان أمين ص ١٢٢

الله خراب هذا العالم الذى نحن فيه ، وهو يكون بحادثة من الحوادث التى قد ينجر إليها سير العالم ، كأن يمر كوكب فى سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ، ويحدث من ذلك غمام وأى غمام ، يظهر فى مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع ، فتكون السماء قد تشققت بالغمام ، واختل نظامها حال ظهوره) اهـ [١] .

هذا التفسير من الأستاذ الإمام عمل جليل يشكر عليه ، إذ غرضه من ذلك تقريب معانى القرآن وما يخبر به من عقول الناس ، بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم . ولكن هل لا بد فى فساد الكون من أن يترتب على مثل هذه الظاهرة الكونية ؟ وهل يعجز الله عن إفساده وإخلاله بأمر آخر غير ذلك ؟ أليس الأولى بنا أن نؤمن بما جاء به القرآن ، ولا نخوض فيما وراء ذلك من تفصيلات كما هو مذهب الشيخ ؟ أحسب أن الشيخ يضرب ذلك مثلا ، ولا يريده على أنه أمر لا بد منه .

ومثلا عندما يعرض لتفسير سورة الفيل ، بعد أن ذكر ما قيل فى إرسال الطير على أبرهة ، وما جاءت به بعض الروايات من أن الذى أصابهم هو داء الجدرى والحصبة يقول : (وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة ، أن ذلك الجدرى أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش ، بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح ، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذى يحمل جراثيم بعض الأمراض ، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس ، الذى تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات فإذا اتصل بجسده دخل فى مسامه ، فأثار فيه تلك القروح التى تنتهى بإفساد الجسم وتساقط لحمه ، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله فى إهلاك من يريد إهلاكه من البشر ، وإن هذا الحيوان الصغير الذى يسمونه الآن بالميكروب لا يخرج عنها ، وهو فرق وجماعات لا يحصى عددها إلا بارئها ولا يتوقف ظهور أثر قدرة الله تعالى فى قهر الطاغين على أن يكون الطير فى

---

[١] تفسير جزء عم ص ٤٩

ضخامة رءوس الجبال . ولا على أن يكون من نوع عنقاء مغرب ، ولا على أن يكون له ألوان خاصة به ، ولا على معرفة مقادير الحجارة وكيفية تأثيرها فلله جند من كل شيء .

وفى كل شيء له آية تدل على أنه الواحد[1]) اﻫ .

وهنا أيضا نجد الأستاذ الإمام قد خالف طريقته فى مبهمات القرآن فراح يخوض فى التفصيلات والجزئيات ، ثم جوز أن تكون الطير هى ما يسمى اليوم بالميكروبات ، كما جوز أن تكون الحجارة هى جراثيم بعض الأمراض ، وهذا مالا نقره عليه ، لأن هذه الجراثيم التى اكتشفها الطب الحديث لم يكن للعرب علم بها وقت نزول القرآن ، والعربى إذا سمع لفظ الحجارة فى هذه السورة لا ينصرف ذهنه إلى تلك الجراثيم بحال من الأحوال ، وقد جاء القرآن بلغة العرب ، وخاطبهم بما يعهدون ويألفون .

وإذا كان الأستاذ الإمام قد أعطى لعقله الحرية الكاملة فى تفسيره للقرآن الكريم ، فإنا نجده يغرق فى هذه الحرية ويتوسع فيها ، إلى درجة وصلت به إلى ما يشبه التطرف فى أفكاره ، والغلو فى آرائه .

موقفه من حقيقة الملائكة وإبليس :

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآيات (٣٤) وما بعدها من سورة البقرة « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم » إلى آخر القصة نجده يقول : (وذهب بعض المفسرين مذهبا آخر فى فهم معنى الملائكة ، وهو أن مجموع ماورد فى الملائكة من كونهم موكلين بالأعمال من إنماء نبات وخلقة حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة ، وهو أن هذا النمو فى النبات لم يكن إلا بروح خاص ، نفخه الله فى البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة وكذلك يقال فى الحيوان والإنسان فكل أمر كلى قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية فى إيجادة ، فإنما

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٥٨ .

قوامه بروح إلهى سمى فى لسان الشرع ملكا ومن لم يبال فى التسمية بالتوقيف يسم هذه المعانى القوى الطبيعية ، إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة ، أو قوة يظهر أثرها فى الطبيعة . والأمر الثابت الذى لا نزاع فيه ، هو أن فى باطن الخلقة أمراً هو مناطها ، وبه قوامها ونظامها ، لا يمكن العاقل أن ينكره ، وان أنكر غير المؤمن بالوحى تسميته ملكا ، وزعم أنه لا دليل على وجود الملائكة ، أو أنكر بعض المؤمنين بالوحى تسميته قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، لأن هذه الأسماء لم ترد فى الشرع ، فالحقيقة واحدة والعاقل من لاتحجبه الأسماء عن المسميات ، وإن كان المؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لايدرك كنهه ، والذى لا يؤمن بالغيب يقول لا أعرف الروح ، ولكن أعرف قوة لا أفهم حقيقتها . ولا يعلم إلا الله علام يختلف الناس ، وكل يقر بوجود شىء غير ما يرى ويحس ، ويعترف بأنه لا يفهمه حق الفهم ، ولا يصل بعقله إلى إدراك كنهه ؟ وماذا على هذا الذى يزعم أنه لا يومن بالغيب - وقد اعترف بما غيب عنه — لو قال : أصدق بغيب أعرف أثره ، وإن كنت لا أقدر قدره فيتفق مع المؤمنين بالغيب ، ويفهم بذلك ما يرد على لسان صاحب الوحى ، ويحظى بما يحظى به المؤمنون ؟) .

(يشعر كل من فكر فى نفسه ، ووازن بين خواطره عند مايهم بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن فى نفسه تنازعا كأن الأمر قد عرض فيها على مجلس شورى . فهذا يورد وذاك يدفع ، واحد يقول افعل ، وآخر يقول لا تفعل ، حتى ينتصر أحد الطرفين ، ويترجح أحد الخاطرين فهذا الشىء الذى أودع فى أنفسنا ونسميه قوة وفكراً ، وهى فى الحقيقة معنى لايدرك كنهه ، وروح لا تكتنه حقيقتها ، لايبعد أن يسميه الله ملكا ، أو يسمى أسبابه ملائكة ، أو ما شاء من الأسماء ، فإن التسمية لا حجر فيها على الناس ، فكيف يحجر فيها على صاحب الإرادة المطلقة ، والسلطان النافذ والعلم الواسع [١]) .

تفسير المنار ج ١ ص ٢٦٧ — ١٦٨ .

ثم قال الأستاذ الإمام بعد ذلك[1] : (فإذا صح الجرى على هذا التفسير ، فلا يستبعد أن تكون الإشارة فى الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ، ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التى بها قوامها ونظامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات ، لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذى خص به . خلق بعد ذلك الإنسان ، وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها فى عمارة الأرض ، وعبر عن تسخير هذه القوى بالسجود الذى يفيد معنى الخضوع والتسخير ، وجعله بهذا الاستعداد الذى لاحد له ، والتصرف الذى لم يعط لغيره : خليفة الله فى أرضه، لأنه أكمل الموجودات فى الأرض ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة ، عبر عنها بإبليس ، وهى القوة التى لزها الله بهذا العالم لزاً ، وهى التى تميل بالمستعد للكمال ، أو بالكامل إلى النقص ، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم ، أو تقطع سبيل البقاء ، وتعود بالموجود إلى الفناء ، أو التى تعارض فى اتباع الحق ، وتصد عن عمل الخير ، وتنازع الإنسان فى صرف قواه إلى المنافع والمصالح التى تتم بها خلافته ،فيصل إلى مراتب الكمال الوجودى التى خلق مستعداً للوصول إليها .. تلك القوة التى ضللت آثارها قوماً فزعموا أن فى العالم إلهاً يسمى إله الشر ، وماهى بإله ، ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكمته إلا هو) .

قال : (ولو أن أنفسنا مالت إلى قبول هذا التأويل ، لم تجد فى الدين ما يمنعها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب ، وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق[2]) اهـ .

ثم يعود فى موضع آخر إلى تقرير التمثيل فى القصة فيقول : (وتقرير التمثيل فى القصة على هذا المذهب هكذا : أن إخبار الله الملائكة بجعل الإنسان خليفة فى الأرض هو عبارة عن تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه ، التى بها قوامه ونظامه ، لوجود نوع من المخلوقات يتصرف فيها، فيكون به كمال الوجود

---

(١) غالب ماينسب للامام فى هذا التفسير مروى بالمعنى عنه .

(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ٢٦٩ .

فى هذه الأرض ، وسؤال الملائكة عن جعل خليفة يفسد فى الأرض لأنه يعمل باختياره ، ويعطى استعداداً فى العلم والعمل لاحد لهما ، هو تصوير لما فى استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان أنه لاينافى خلافته فى الأرض . وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان لعلم كل شىء فى هذه الأرض ، وانتفاعه به فى استعمارها ، وعرض الأسماء على الملائكة ، وسؤالهم عنها ، وتنصلهم فى الجواب تصوير لكون الشعور الذى يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدوداً لايتعدى وظيفته . وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له ، ينتفع فى ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى فى ذلك . وإباء إبليس واستكباره عن السجود تمثيل لعجز الإنسان عن إخضاع روح الشر ، وإبطال داعية خواطر السوء ، التى هى مثار التنازع والتخاصم والتعدى والإفساد فى الأرض ، ولولا ذلك لجاء على الإنسان زمن يكون فيه أفراده كالملائكة بل أعظم ، أو يخرجون عن كونهم من هذا النوع البشرى[1]) اهـ .

والذى ينظر فى هذا التأويل الذى جوزه الشيخ ، وفى سياق الآية وألفاظها وما فيها من محاورة ومقاولة ، لايسعه إلا أن يرده ، وإن حاول قائلة أن يروج له بجعله الأوامر التى وردت فى الآية من قبيل الأمر التكوينى ، لا الأمر التكليفى .

موقفه من السحر :

ولقد كان من أثر إعطاء الأستاذ لنفسه الحرية الواسعة فى فهم القرآن الكريم ، أنا نجده يخالف رأى جمهور أهل السنة ، ويذهب إلى ماذهب إليه المعتزلة ، من أن السحر لاحقيقة له ، ولذلك عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٤) من سورة الفلق « ومن شر النفاثات فى العقد » نجده بعد أن يفسر معنى النفث والعقد ، يفسر المراد بالنفاثات فى الآية فيقول : (المراد بهم هنا هم النمامون ، المقطعون

---

(١) تفسير المنار ج ١ ص ٢٨١ — ٢٨٢ .

لروابط الألفة ، المحرقون لها بما يلقون عليها من ضرام نمائمهم ، وإنما جاءت العبارة كما فى الآية ؛ لأن الله جل شأنه أراد أن يشبههم بأولئك السحرة المشعوذين، الذين إذا أرادوا أن يحلوا عقدة المحبة بين المرء وزوجه - مثلا - فيما يوهمون به العامة ، عقدوا عقدة ثم نفثوا فيها وحلوها . ليكون ذلك حلا للعقد التى بين الزوجين . والنميمة تشبه أن تكون ضرباً من السحر ؛ لأنها تحول ما بين الصديقين من محبة إلى عداوة ، بوسيلة خفية كاذبة . والنميمة تضلل وجدان الصديقين ، كما يضلل الليل من يسير فيه بظلمته ؛ ولهذا ذكرها عقب ذكر الغاسق ..[1]) .

إنكاره لبعض الأحاديث الصحيحة :

ثم راح الشيخ - رحمه الله - يرد ماجاء من الروايات فى سحر الرسول صلى الله عليه وسلم فقال : (وقد رووا هنا أحاديث فى أن النبى صلى الله عليه وسلم سحره لبيد ابن الأعصم ، وأثر سحره فيه ، حتى كان يخيل له أنه يفعل الشىء وهو لا يفعله ، أو يأتى شيئاً وهو لا يأتيه ، وأن الله أنبأه بذلك ، وأخرجت مواد السحر من بئر ، وعوفى صلى الله عليه وسلم مما كان نزل به من ذلك ، ونزلت هذه السورة ، ولايخفى أن تأثير السحر فى نفسه عليه السلام حتى يصل به الأمر إلى أن يظن أنه يفعل شيئاً وهو لا يفعله ، ليس من قبيل تأثير الأمراض فى الأبدان ، ولا من قبيل عروض السهو والنسيان فى بعض الأمور العادية ، بل هو ماس بالعقل ، آخذ بالروح ، وهو مما يصدق قول المشركين فيه « إن تتبعون إلا رجلا مسحورا[2] » ، وليس المسحور عندهم إلا من خولط فى عقله ، وخيل له أن شيئاً يقع وهو لا يقع ، فيخيل إليه أنه يوحى إليه ، ولا يوحى إليه ، وقد قال كثير من المقلدين الذين لا يعقلون ماهى النبوة ولا مايجب لها : إن الخبر بتأثير السحر فى النفس الشريفة قد صح فيلزم الاعتقاد به ، وعدم التصديق

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١ .

(٢) الآية (٨) من سورة الفرقان.

به من بدع المبتدعين ، لأنه ضرب من إنكار السحر ، وقد جاء القرآن بصحة السحر ، فانظر كيف ينقلب الدين الصحيح . والحق الصريح فى نظر المقلد بدعة ، ونعوذ بالله .. يحتج بالقرآن على ثبوت السحر ، ويعرض عن القرآن فى نفيه السحر عنه صلى الله عليه وسلم، وعده من افتراء المشركين عليه ويؤول فى هذه ولا يؤول فى تلك ، مع أن الذى قصده المشركون ظاهر ، لأنهم كانوا يقولون : إن الشيطان يلابسه عليه الصلاة والسلام ، وملابسة الشيطان تعرف بالسحر عندهم، وضرب من ضروبه، وهو بعينه أثر السحر الذى نسب إلى لبيد ، فإنه خولط فى عقله وإدراكه فى زعمهم) .

والذى يجب اعتقاده أن القرآن مقطوع به ، وأنه كتاب الله بالتواتر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم ، فهو الذى يجب الاعتقاد بما يثبته . وعدم الاعتقاد بما ينفيه ، وقد جاء بنفى السحر عنه عليه السلام ، حيث نسب القول بإثبات حصول السحر له إلى المشركين أعدائه ، ووبخهم على زعمهم هذا ، فإذاً هو ليس بمسحور قطعاً . وأما الحديث فعلى فرض صحته ، هو آحاد ، والآحاد لا يؤخذ بها فى باب العقائد ، وعصمة النبى من تأثير السحر فى عقله عقيدة من العقائد ، لا يؤخذ فى نفيها عنه إلا باليقين ، ولا يجوز أن يؤخذ فيها الظن والمظنون ، على أن الحديث الذى يصل إلينا من طريق الآحاد إنما يحصل الظن عند من صح عنده ، أما من قامت له الأدلة على أنه غير صحيح ، فلا تقوم به عليه حجة ، وعلى أى حال، فلنا، بل علينا أن نفوض الأمر فى الحديث. ولا نحكمه فى عقيدتنا ، ونأخذ بنص الكتاب وبدليل العقل ، فإنه إذا خولط النبى فى عقله كما زعموا جاز عليه أن يظن أنه بلغ شيئاً وهو لم يبلغه ، أو أن شيئاً نزل عليه وهو لم ينزل عليه ، والأمر ظاهر لا يحتاج إلى بيان . إلخ)[1] .

وهذا الحديث الذى يرده الأستاذ الإمام رواه البخارى وغيره من أصحاب الكتب الصحيحة ، وليس من وراء صحته ما يخل بمقام النبوة ، فإن السحر

---

(١) تفسير جزء عم ص ١٨١ — ١٩٢ .

الذى أصيب به عليه الصلاة والسلام كان من قبيل الأمراض التى تعرض للبدن بدون أن تؤثر على شيء من العقل ، وقد قالوا إن مافعله لبيد بن الأعصم بالنبي صلى الله عليه وسلم من السحر لايعدو أن يكون نوعا من أنواع العقد عن النساء ، وهو الذى يسمونه (رباطا) ، فكان يخيل إليه أن عنده قدرة على إتيان إحدى نسائه ، فإذا ماهم بحاجته عجز عن ذلك . أما السحر الذى نفى عنه صلى الله عليه وسلم فراد به الجنون ، وهو مخل ولاشك بمقام النبوة . وقد قالوا « يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون » .

ثم إن الحديث رواية البخارى وغيره من كتب الصحيح ، ولكن الأستاذ الإمام ومن على طريقته لا يفرقون بين رواية البخارى وغيره فلا مانع عندهم من عدم صحة مايرويه البخارى ، كما أنه لوصح فى نظرهم فهو لايعدو أن يكون خبر آحاد لايثبت به إلا الظن ، وهذا فى نظرنا هدم للجانب الأكبر من السنة التى هى بالنسبة للكتاب فى منزلة المبين من المبين ، وقد قالوا : إن البيان يلتحق بالمبين ، وليس هذا الحديث وحده هو الذى يضعفه الشيخ ، أو يتخلص منه بأنه رواية آحاد ، بل هناك كثرة من الأحاديث نالها هذا الحكم القاسى ، فمن ذلك أيضاً حديث الشيخين (كل بنى آدم يمسه الشيطان يوم ولدته أمه إلا مريم وابنها) فإنه قال فيه : (إذا صح الحديث فهو من قبيل التمثيل لا من باب الحقيقة[1]) .

فهو لايثق بصحة الحديث رغم رواية الشيخين له ، ثم يتخلص من إرادة الحقيقة على فرض الصحة ، بجعل الحديث من باب التمثيل ، وهو ركون إلى مذهب المعتزلة . الذين يرون أن الشيطان لاتسلط له على الإنسان إلابالوسوسة والإغواء فقط .

وبعد .... فهذا هو إنتاج الأستاذ الامام فى التفسير ، وهذا هو مسلكه ومنهجه فيه ، ولعلى أكون قد أرضيت الحقيقة ، ولم أتجن على الشيخ ، أو أتهمه بما هو منه برىء .

---

(١) تفسير المنار ج ٣ ص ٢٩٠ .

٢ ـ السيد محمد رشيد رضا[١]

كيف اتصل الشيخ رشيد بالأستاذ الامام :

نشأ السيد محمد رشيد رضا فى طرابلس الشام ، وفيها تلقى العلم عن شيوخها وعلمائها ، وجلس يفيدهم بعلمه ، ويرشدهم بنصحه ووعظه ، وفى هذه الأثناء وقع فى يده نسخة من جريدة العروة الوثقى ، التى كان يقوم بإخراجها والكتابة فيها رجل الإصلاح جمال الدين الأفغانى ، وتلميذه الشيخ محمد عبده ، فقرأ الشيخ رشيد مافى الجريدة ، فأعجب بالرجلين إعجاباً شديداً ، ورغب فى الاتصال بالسيد جمال الدين الأفغانى فلم يسعده الحظ ، ثم تعلق أمله بالاتصال بخليفته الشيخ محمد عبده ، فأسعده الحظ فى هذه المرة ، واتصل بالشيخ فى رجب سنة ١٣١٥ هـ وكان أول اقتراح عرضه عليه ، أن يكتب تفسيراً للقرآن على نهج ما كان يكتب فى جريدة العروة الوثقى ، وبعد أخذ ورد بين الشيخين أقتنع الأستاذ الإمام بأن يقرأ دروساً فى التفسير بالجامع الأزهر ، ولم يلبث إلا قليلا حتّى قام بإلقاء دورسه فى التفسير على طلابه ومريديه .

وكان الشيخ رشيد ـــ رحمه الله ـ ألزم الناس لهذه الدروس ، وأحرضهم على تلقيها وضبطها . فكان يكتب بعض مايسمع ، ثم يزيد عليه بما يذكره من دروس الشيخ بعد ذلك ، ثم قام بنشر ما كتب على الناس فى مجلته (المنار) ، ولكنه لم يفعل ذلك إلا بعد مراجعة أستاذه لما كتب ، وتناول له بالتنقيح والتهذيب[٢] .

لهذا كله نستطيع أن نقول إن الشيخ رشيد هو الوارث الأول لعلم الأستاذ الإمام ، إذ أنه أخذ عنه فوعى ما أخذ ، وألف فى حياته وبعد وفاته ، فكان لايحيد عن منهجه أو ينحرف عن أفكاره . وليس غريباً مايرويه الشيخ رشيد

---

(١) ولد فى سنة ١٢٨٢ هـ وتوفى فى سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) اختصرنا هذا الموضوع من مقدمة تفسير المنار جـ ١ ص ١٠ ـــ ١٥ .

من أن الأستاذ الإمام – رحمه الله – كان يقول : (صاحب المنار ترجمان أفكارى)[١] كما أنه ليس غريباً ما يحدث به أحد تلاميذ الشيخ رشيد ، من أن الأستاذ الإمام وصف الشيخ رشيداً بأنه (متحد معه فى العقيدة ، والفكر ، والرأى ، والخلق ، والعمل[٢]) .

إنتاج الشيخ رشيد فى التفسير :

وإذا نحن تتبعنا ما كتبه الشيخ رشيد من تفسير للقرآن الكريم لوجدنا أنه أكثر رجال مدرسة الأستاذ الإمام إنتاجاً فى التفسير ؛ وذلك أنه كتب تفسيره المسمى بتفسير القرآن الحكيم ، والمشهور بتفسير المنار . . ابتدأ بأول القرآن وانتهى عند قوله تعالى : (١٠١) من سورة يوسف « رب قد آتيتنى من الملك وعلمتنى من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت ولي فى الدنيا والآخرة توفنى مسلماً وألحقنى بالصالحين » ثم عاجلته المنية قبل أن يتم تفسير القرآن كله .

هذا القدر من التفسير مطبوع فى اثنى عشر مجلداً كباراً ، ينتهى المجلد الثانى عشر عند قوله تعالى فى الآية (٥٣) من سورة يوسف : « وما أبرىء نفسى . . الآية » .

وقد أكمل الأستاذ بهجت البيطار تفسير سورة يوسف . وطبع تفسير هذه السورة بتمامها فى كتاب مستقل يحمل اسم الشيخ رشيد رحمه الله .

هذا . . وقد فسر الشيخ من القصار سورة الكوثر ، والكافرون ، والإخلاص ، والمعوذتين ، ولا نعرف له إنتاجا فى التفسير أكثر من هذا ، وهو إنتاج لا بأس به ، وفيه تتجلى روح الأستاذ الإمام ممزوجة بروح تلميذه ، فالمصادر هى المصادر ، والهدف هو الهدف ، والمنهج هو المنهج ، والأفكار هى الأفكار ، لا فرق بين الرجلين إلا فيما هو قليل نادر .

---

(١) ج ٢ ص ٤٩٨ .

(٢) المحدث بهذا هو الأستاذ عبد الرحمن عاصم فى مقال كتبه عن حياة الشيخ رشيد بالعدد ١٢ من السنة الخامسة من مجلة نور الإسلام .

مصادره فى التفسير :

أما مصادره فى التفسير فإنه كان يستعين ببعض آيات القرآن على فهم بعض آخر منه ، خصوصاً إذا تكررت الآيات فى موضوع واحد ، وكان يستعين أيضاً بما صح عنده من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبما جرى عليه سلف الأمة من الصحابة والتابعين ، وبأساليب لغة العرب وسنن الله فى خلقه[١] ، ومستعيناً بعد ذلك كله بعقله المتحرر من التقليد للمفسرين ، إلا فيما يقتنع به من أقوالهم ، وأقوال شيخه على الأخص ، ويحدثنا بعض تلاميذه : (أنه كان لا يراجع ما يكتب فى التفسير إلا بعد أن يكتب فهمه فى الآية ، حذراً من تأثير أقوال المفسرين على نفسه ، وإذا آتاه الله فهماً فى القرآن لم يسبق إليه، أو لم يطلع عليه إلا بعد كتابته من عنده فإنه يتحدث إلى إخوانه شاكراً ، وقد يقصه على أهل بيته مغتبطاً مسروراً[٢]) .

هدفه من التفسير :

وأما هدفه فى التفسير فهو عين ما يهدف إليه الأستاذ الإمام ، فإذا كان الأستاذ الإمام يصرح بأن هدفه من التفسير هو (فهم الكتاب من حيث هو دين يرشد الناس إلى ما فيه سعادتهم فى حياتهم الدنيا وحياتهم الآخرة[٣]) . فإن صاحبنا يصرح بمثل ذلك فى كثير من مواضع كتابه ، فيقول بعد أن يوجه اللوم إلى من حشروا فى التفسير من قواعد العلوم ، ومسائل الفنون ، وموضوعات الحديث ، وخرافات الإسرائيليات ، ما يصرف الناس عن هداية القرآن ، يقول : (إن حاجة الناس صارت شديدة إلى تفسير تتوجه العناية الأولى فيه إلى هداية القرآن على الوجه الذى يتفق مع الآيات الكريمة ، المنزلة فى وصفه . وما أنزل لأجله ،من الإنذار، والتبشير،والهداية ، والإصلاح[٤]).

---

(١) انظر تفسير المنار جـ ٦ ص ١٩٦ .

(٢) من مقال نشره الأستاذ عبد الرحمن عاصم عن الشيخ رشيد فى مجلة نور الإسلام السنة الخامسة العدد ١٢ سنة ١٣٥٤ هـ .

(٣) تفسير المنار جـ ١ ص ١٧ .

(٤) تفسير المنار جـ ١ ص ١٠ .

يريد أنه سيعمل تفسيره على هذا النمط ليسد حاجة الناس ، ويقول فى موضع آخر : (إن قصدنا من التفسير بيان معنى القرآن ، وطرق الاهتداء به فى هذا الزمان[1]) .

منهجه فى التفسير :

وأما منهجه فيه فهو عين ما نهجه الأستاذ الإمام ، فلا تقيد بأقوال المفسرين ، ولا تحكم للعقيدة فى نص القرآن ، ولا خوض فى إسرائيليات ، ولا تعيين لمبهمات ، ولا تعلق بأحاديث موضوعة ، ولا حشد لمباحث الفنون ، ولا رجوع بالنص إلى اصطلاحات العلوم ، بل شرح للآيات بأسلوب رائع ، وكشف عن المعانى بعبارة سهلة مقبولة ، وتوضيح لمشكلات القرآن ، ودفاع عنه يرد ما أثير حوله من شبهات ، وبيان لهدايته ، ودلالة إلى عظيم إرشاده ، وتوقيف على حكم تشريعه ، ومعالجة لأمراض المجتمع بناجع دوائه ، وبيان لسنن الله فى خليقته .

ولكننا نجد الشيخ رشيد — رحمه الله — يحيد عن هذا المنهج بعض الشئ ، وذلك بعد وفاة شيخه ، واستقلاله بالعمل ، ويحدثنا هو بذلك فيقول :

(وإننى لما استقللت بالعمل بعد وفاته : خالفت منهجه ـ رحمه الله تعالى ـ بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة ، سواء كان تفسيراً لها ، أو فى حكمها ، وفى تحقيق بعض المفردات ، أو الجمل اللغوية ، والمسائل الخلافية بين العلماء ، وفى الإكثار من شواهد الآيات فى السور المختلفة ، وفى بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها ، بما يثبتهم بهداية دينهم فى هذا العصر ، أو يقوى حجتهم على خصومه من الكفار والمبتدعة ، أو يحل بعض المشكلات التى أعيا حلها . بما يطمئن به القلب ، وتسكن إليه النفس[2]) اهـ .

---

(١) تفسير المنار جـ ٤ ص ٤٢ .

(٢) تفسير المنار جـ ١ ص ١٦ .

ويبدو لنا أن هذا التوسع الذى كان من الشيخ رشيد خصوصاً فى المسائل الاجتماعية ، لم يدفعه إليه إلا كونه رجلا (صحفياً) اتصل عن طريق مجلته بالناس على اختلاف منازعهم ومشاربهم ، وفيهم المتدين ، والملحد . والكافر ، فأراد أن يتمشى بكتابته مع الجميع ، فيثبت المتدين على دينه ، ويرد الملحد عن إلحاده ، ويكشف عن محاسن الإسلام ؛ لعل الكافر أن يثوب إلى رشده ويرجع عن كفره[1] .

آراؤه فى التفسير :

أما آراؤه فى التفسير فهى كآراء شيخه ، تقوم على حرية واسعة فى الرأى واعتداد عظيم بالفهم ، وثقة قوية بما عنده من العلم ، وعدم تقيد ببعض المسلمات عند العلماء ؛ ولهذا نجد له أفكارا غريبة فى تفسير القرآن استقل ببعض منها ، وقلد شيخه فى بعضها الآخر .

رأيه فى أصحاب الكبائر :

فمثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة فى شأن المرابين : « ومن عاد فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » نجده يخالف أهل السنة ، ويؤكد أن صاحب الكبيرة التى فى درجه أكل الربا وقتل العمد إذا مات ولم يتب منها يخلد فى النار ، ولا يخرج منها أبداً فيقول : (أى ومن عاد إلى ما كان يأكل من الربا المحرم بعد تحريمه ، فأولئك البعداء عن الاتعاظ بموعظة ربهم ، الذى لا ينهاهم إلا عما يضرهم فى أفرادهم أو جمعهم ، هم أهل النار الذين يلازمونها كما يلازم الصاحب صاحبه ، فيكونون فيها خالدين) .

(وقد أول الخلود المفسرون ؛ لتتفق الآية مع المقرر فى العقائد والفقه من كون المعاصى لاتوجب الخلود فى النار ، فقال أكثرهم : إن المراد . ومن عاد إلى تحليل الربا واستباحته اعتقاداً ، ورده بعضهم بأن الكلام فى أكل الربا ، وما ذكر عنهم من جعله كالبيع هو بيان لرأيهم قبل التحريم . فهو ليس بمعنى

---

(١) كان الشيخ رشيد ينشر ما يكتبه فى التفسير تباعا بمجلته (المنار) ثم جمع ما كتب فى كتاب واحد وهو تفسيره المتداول بين أهل العلم .

استباحة المحرم ، فإذا كان الوعيد قاصرا على الاعتقاد بحله لايكون هناك وعيد على أكله بالفعل) .

(والحق أن القرآن فوق ما كتب المتكلمون والفقهاء ، يجب إرجاع كل قول فى الدين إليه ، ولا يجوز تأويل شىء ليوافق كلام الناس ، وما الوعيد بالخلود هنا إلا كالوعيد بالخلود فى آية قتل العمد . وليس هناك شبهة فى اللفظ على إرادة الاستحلال . ومن العجيب أن يجعل الرازى الآية هنا حجة على القائلين بخلود مرتكب الكبيرة فى النار ، انتصارا لأصحابه الأشاعرة ، وخير من هذا التأويل تأويل بعضهم الخلود بطول المكث . أما نحن فنقول : ما كل ما يسمى إيمانا يعصم صاحبه من الخلود فى النار ، الإيمان إيمانان : إيمان لا يعدو التسليم الإجمالى بالدين الذى نشأ فيه المرء أو نسب إليه ، ومجاراة أهله ولو بعدم معارضتهم فيما هم عليه . وإيمان هو عبارة عن معرفة صحيحة بالدين عن يقين بالإيمان ، متمكنة فى العقل بالبرهان ، مؤثرة فى النفس بمقتضى الإذعان ، حاكمة على الإرادة المصرفة للجوارح فى الأعمال ، بحيث يكون صاحبها خاضعا لسلطانها فى كل حال ، إلا ما لا يخلو عنه الإنسان من غلبة جهالة أو نسيان . وليس الربا من المعاصى التى تنسى ، أو تغلب النفس عليها خفة الجهالة والطيش كالحدة وثورة الشهوة ، أو يقع صاحبها منها فى غمرة النسيان كالغيبة والنظرة ، فهذا هو الإيمان الذى يعصم صاحبه بإذن الله من الخلود فى سخط الله ، ولكنه لا يجتمع مع الإقدام على كبائر الإثم والفواحش عمدا ، إيثاراً لحب المال واللذة ، عن دين الله ومافيه من الحكم والمصالح. وأما الإيمان الأول: فهو صورى فقط ، فلا قيمة له عند الله تعالى ؛ لأنه تعالى لا ينظر إلى الصور والأقوال ، ولكن ينظر إلى القلوب والأعمال ، كما ورد فى الحديث والشواهد على هذا الذى قررناه فى كتاب الله تعالى كثيرة جدا . وهو مذهب السلف الصالح ، وإن جهله كثير مما يدعون اتباع السنة حتى جرءوا الناس على هدم الدين ، بناء على أن مدار السعادة على الاعتراف بالدين وإن لم يعمل به ، حتى صار الناس يتبجحون بارتكاب الموبقات ، مع الاعتراف بأنها من كبائر ما حرم ، كما بلغنا عن بعض

كبرائنا أنه قال: إنى لا أنكر أنى آكل الربا ولكننى مسلم أعترف بأنه حرام، وقد فاته أنه يلزمه بهذا القول الاعتراف بأنه من أهل هذا الوعيد ، وبأنه يرضى أن يكون محاربا لله ولرسوله ، وظالما لنفسه وللناس ، كما سيأتى فى آية أخرى ، فهل يعترف باللزوم ؟ أو ينكر الوعيد المنصوص فيؤمن ببعض الكتاب ويكفر ببعض ؟ نعوذ بالله من الخذلان)[١] اهـ .

تقليده لشيخه فى قصة آدم :

كذلك نجد صاحب المنار يقلد شيخه فى موقفه من قصة آدم وإبليس وما يتعلق بها فيقول :

(وهذا التفصيل مبنى على كون الأمر بالسجود للتكليف ، وأنه وقع حوار بين الرب سبحانه وبين إبليس . وأما على القول بأن الأمر للتكوين ، وأن القصة بيان لغرائز البشر والملائكة والشياطين ، فالمعنى : أنه تعالى جعل ملائكة الأرض المدبرة بأمر الله وإذنه لأمورها بالسنن التى عليها مدار نظامها كما قال : « فالمدبرات أمراً[٢] » مسخرة لآدم وذريته ، إذ خلق الله هذا النوع مستعدا للانتفاع بها كلها ، بعلمه بسنن الله تعالى فيها ، وبعلمه بمقتضى هذه السنن كخواص الماء ، والهواء ، والكهرباء ، والنور ، والأرض : معادنها ، ونباتها ، وحيوانها ، وإظهاره لحكم الله تعالى وآياته فيها ، ومستعداً لاصطفاء الله بعض أفراده ، واختصاصهم بوحيه ورسالته ، وإقامة من اهتدى بهم لدينه وميزان شرعه ، وقد أشير إلى ذلك فى الآية (٣١) من سورة البقرة بقوله تعالى « وعلم آدم الأسماء كلها » إلا أنه جعل الشيطان عاتيا متمرداً على الإنسان ، بل عدواً له ، من حيث إن الإنسان بروحه وسط بين روح الملائكة المفطورين على طاعة الله وإقامة سننه فى صلاح الخلق ، وبين روح الجن الذى يغلب على شرارهم — وهم الشياطين — التمرد والعصيان . وقد أعطى الإنسان إرادة

---

(١) تفسير المنار جـ ٣ ص ٩٨ — ٩٩ . وراجع أيضا ما كتبه عن قتل العمد جـ ٥ ص ٣٣٩ — ٣٤٥ .

(٢) الآية (٥) من سورة النازعات .

واختياراً من ربه فى ترجيح ما به يصعد إلى أفق الملائكة ، وما به يهبط إلى أفق الشياطين)[1] اه .

تذرعه بالمجاز والتشبيه :

كذلك نجد صاحب المنار يصرف بعض ألفاظ القرآن عن ظواهرها ، ويعدل بها إلى ناحية المجاز أو التشبيه ، وذلك فيما يبدو مستبعداً ومستغرباً لو أجرى على حقيقته ، وهذا المسلك الذى جرى عليه الشيخ رشيد هو مسلك شيخه ، ومسلك الزمخشرى وغيره من المعتزلة ، الذين اتخذوا التشبيه والتمثيل سبيلا للفرار من الحقائق التى يصرح بها القرآن ، ولا تعجز عنها قدرة الله ، وإن بعدت عن منال البشر .

فمثلا نجد صاحب المنار عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٤٧) من سورة النساء : « يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوهاً فنردها على أدبارها ... الآية » نراه يستظهر أن المعنى المراد هنا هو (آمنوا بما نزلنا مصدقاً لما معكم من قبل أن نطمس وجوه مقاصدكم التى توجهتم إليها فى كيد الإسلام ، ونردها خاسئة خاسرة إلى الوراء ، بإظهار الإسلام ونصره عليكم ، وفضيحتكم فيما تأتونه باسم الدين والعلم الذى جاء به الأنبياء ، وقد كان لهم عند نزول الآية شىء من المكانة والمعرفة والقوة ، فهذا ما نفسرها به ، على جعل الطمس والرد على الأدبار معنويين .... ثم سرد بعض أقوال المفسرين فى هذه الآية ، ثم بين أن ما اختاره هو رأى شيخه الذى مال إليه فى دروسه[2]) .

رأيه فى السحر :

ثم إن صاحب المنار لا يرى السحر إلا ضربا من التمويه والخداع ، وليس له حقيقة كما يقول أهل السنة ، وهو يوافق بهذا القول قول شيخه وقول

---

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ٣٣٢ .

(٢) تفسير المنار ج ٥ ص ١٤٥ - ١٤٦ .

المعتزلة من قبله ، ولهذا نراه عندما فسر قوله تعالى فى الآية (٧) من سورة الأنعام : « ولو نزلنا عليك كتاباً فى قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين» نجده يقول: (والآية تدل على أن السحر خداع باطل، وتخييل يرى ما لا حقيقة له فى صورة الحقائق[١] ...) .

وهذا ولم يستطع الشيخ رشيد أن يرد حديث البخارى فى سحر رسول الله صلى الله عليه وسلم كما فعل شيخه ، ولكنه تأول الحديث على أنه كان من قبيل العقد عن النساء ، وبين أن عذر من طعن فى الحديث هو أن هشاما راوى الحديث عن أبيه عن عائشة مطعون فيه من كثير من أئمة الجرح والتعديل[٢] .

رأيه فى الشياطين :

وهو يرى أن شياطين الجن لا تسلط لها على الإنسان إلا بالإغواء فقط ، ويقول : (كل ما يدعيه بعض الدجالين من تسلط الشيطان ، أو ملوك الجان على بعض الناس ، وقدرتهم على نفعهم وضرهم ، فهو كذب وحيل من شياطين الإنس وحدهم[٣]) .

رأيه فى الجن :

كما يرى أن الجن لا ترى للإنسان على أى حال من الأحوال ، ويرجح أن من ادعى رؤية الجن فذلك وهم منه وتخيل ، ولا حقيقة له فى الخارج ، أو لعله رأى حيوانا غريباً كبعض القردة فظنه أحد أفراد الجن[٤] . يقول هذا ثم يعرض فى (الهامش) لذكر حديث أبى هريرة فيمن كان يسرق تمر الصدقة ،

---

(١) تفسير المنار ج ٧ ص ٣١١ .

(٢) انظر تفسير سورة الفلق من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٢٩ — ١٣٤ .

(٣) تفسير سورة الناس من مجموعة تفسير الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن ص ١٤١ .

(٤) انظر تفسير المنار ج ٧ ص ٥١٦ .

وإخبار النبي له بأنه شيطان — وهو فى البخارى — ولغيره من الأحاديث التى تدل على أن الإنسان يرى الجنى ويبصره ، ثم يقول بعد أن يفرغ من سرده للروايات (والصواب أنه ليس فى هذه الروايات كلها حديث صحيح[١] . .)

بل ونجده يزيد على ذلك فيجوز أن تكون ميكروبات الأمراض نوعا من الجن . وذلك حيث يقول عندما تعرض لتفسير قوله تعالى فى الآية (٢٧٥) من سورة البقرة : « الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس . . . الآية » : (.... والمتكلمون يقولون : إن الجن أجسام حية خفية لا ترى ، وقد قلنا فى المنار غير مرة : إنه يصح أن يقال : إن الأجسام الحية الخفية التى عرفت فى هذا العصر بواسطة النظارات المكبرة وتسمى بالمكروبات ، يصح أن تكون نوعا من الجن ، وقد ثبت أنها علل لأكثر الأمراض[٢]) .

رأيه فى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم :

ولقد نجد صاحب المنار يذهب فى معجزات النبي صلى الله عليه وسلم مذهباً بعيداً ، فيقرر أنه لامعجزة للنبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن الكريم،وينكر بعض معجزاته الكونية ، ويتأول ما يشهد لها من آيات ، ويجحد صحة مايقوم بإثباتها عن الأحاديث ، وما يسلمه من بعض الآيات الكونية فهو فى نظره إكرام للنبى من ربه ، وليس من قبيل المعجزة ، أو الحجة على صدق دعوته .

يذهب إلى هذا ويستدل له بمثل قوله تعالى فى الآية (٥٩) من سورة الإسراء : « وما منعنا أن نرسل بالايات إلا أن كذب بها الأولون ... الآية » وبمثل قوله عليه السلام من رواية أبى هريرة عند الشيخين وغيرهما : (ما من نبى من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلى ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) .

---

(١) المرجع السابق (هامش)

(٢) تفسير المنار ج ٣ ص ٩٦

ولكن صاحب المنار يستشعر معارضة بعض نصوص القرآن والحديث لما ساقه من أدلة على مدعاه فيقول : (وقد يعارضه — يعنى الحديث السابق — آية انشقاق القمر مع ما ورد فى أحاديث الصحيحين وغيرهما من أن قريشا سألوا النبى صلى الله عليه وسلم آية على نبوته فانشق القمر فكان فرقتين ، ولكن فى الأحاديث الواردة فى انشقاقه عللا فى متنها وأسانيدها ، وإشكالات علمية ، وعقلية ، وتاريخية ، فصلناها فى المجلد الثلاثين من المنار ، وبينا أن ما تدل علية الآيات القرآنية المؤيدة بحديث الصحيحين الصريح فى حصر معجزة نبوته صلى الله عليه وسلم فى القرآن وكون الآيات المقترحة تقتضى إجابة مقترحيها عذاب الاستئصال ، هو الحق الذى لا ينهض لمعارضته شىء[1]) .

وإذا كان الشيخ رشيد قد تخلص هنا من معارضة الحديث بالطعن فيه ، فإنه قد تخلص فى موضع آخر من معارضة الآية ، حيث فسر انشقاق القمر بظهور الحجة[2] !! . . .

رأيه فى مسائل من الفقه :

كذلك نجد صاحب المنار يعطى نفسه حرية واسعة فى استنباط الأحكام من القرآن الكريم ، مما جعله يخالف جمهور الفقهاء ، ويسفههم فيما ذهبوا إليه وإذا أردت مثالا لذلك فارجع إلى ما كتبه على قوله تعالى فى الآية (١٨٠) من سورة البقرة : « كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين بالمعروف حقاً على المتقين » فستجد أنه لم يعبأ بما عليه جمهور العلماء من أهل السنة من أن حكم هذه الآية منسوخ ، بصرف النظر عن كون الناسخ آية المواريث أو حديث لاوصية لوارث ، الذى جنح الشافعى فى الأم إلى أن متنه متواتر[3] ، فراح — رحمه الله — يؤكد بكل ما يملك من

(١) تفسير المنار ج ١١ ص ٣٣٢ وانظر الوحى المحمدى للمؤلف ص ٦٩ — ٧٠ مطبعة المنار سنة ١٣٥٤ هـ .

(٢) انظر القول الفصل ص ١٦٣ .

(٣) نيل الأوطار للشوكانى ج ٦ ص ٤٠ المطبعة العثمانية سنة ١٣٥٧ هـ .

حجة : أن حكم الوصية للوالدين والأقربين باقلم ينسخ ، كما راح يفند كل دليل تمسك به الجمهور . ولا أطيل بذكر ما قال فى هذا الموضوع ، ويكفى أن أقول لك : إنه أنهى البحث فى هذه المسألة بقوله : (وصفوة القول : أن الآية غير منسوخة بآية المواريث ، لأنها لا تعارضها ، بل تؤيدها ، ولا دليل على أنها بعدها ، ولا بالحديث ، لأنه لا يصلح لنسخ الكتاب ، فهى محكمة ، وحكمها باق ، ولك أن تجعله خاصاً بمن لا يرث من الوالدين أو الأقربين كما روى عن بعض الصحابة ، وأن تجعله على إطلاقه ، ولا تكن من المجازفين الذين يخاطرون بدعوى النسخ فينبذ ما كتبه الله عليه بغير عذر ، ولا سيما بعد ما أكده بقوله : « حقاً على المتقين »[1]) .

وإن أردت مثالا آخر فارجع إلى ما ذهب إليه فى آية التيمم من سورة النساء ، فسترى أنه يقرر : أن المسافر يجوز له التيمم ولو كان الماء بين يديه ولا علة تمنعه من استعماله إلا كونه مسافراً ، ويخالف بذلك جماعة الفقهاء ، ويحمل عليهم حملة شديدة فيما ذهبوا إليه من أن المسافر لا يجوز له التيمم مع وجود الماء ، كما ينكر على من استشكل الاية من المفسرين ، ويقول فيما يقول: (سيقول أدعياء العلم من المقلدين ، نعم . . إن الآية واضحة المعنى ، كاملة البلاغة على الوجه الذى قررتم، ولكنها تقتضى عليه أن التيمم فى السفر جائز ولو مع وجود الماء . وهذا مخالف للمذاهب المعروفة عندنا ، فكيف يعقل أن يخفى معناها هذا على أولئك الفقهاء المحققين ؟ وكيف يعقل أن يخلفوها من غير معارض لظاهرها أرجعوها إليه ؟ . . ولنا أن نقول لمثل هؤلاء — وأن كان المقلد لا يحتاج لأنه لا علم له — وكيف يعقل أن يكون ابلغ الكلام وأسلمه من التكلف والضعف معضلا مشكلا ؟ واى الأمرين أولى بالترجيح ؟ ألطعن ببلاغة القرآن وبيانه ، لحمله على كلام الفقهاء ؟ او تجويز الخطأ على الفقهاء ؛ لأنهم لم يأخذوا بما دل عليه ظاهر الآية من غير تكلف ، وهو الموافق الملتئم مع غيره من رخص السفر ، التى فيها قصر الصلاة وجمعها ، واباحة الفطر فى

(١) تفسير المنار جـ ١ ص ١٤١ .

رمضان ، فهل يستنكر مع هذا أن يرخص للمسافر فى ترك الغسل والوضوء ، وهما دون الصلاة والصيام فى نظر الدين،) ... إلى أن قال: (ألا إن من أعجب العجيب ، غفلة جماهير الفقهاء عن هـــذه الرخصة الصريحة فى عبارة القرآن ، التى هى أظهر وأولى من قصر الصلاة وترك الصيام ، وأظهر فى رفع الحرج والعسر الثابت بالنص وعليه مدار الأحكام ...) ثم قال : (وإذا ثبت أن التيمم رخصة للمسافر بلا شرط ولا قيد ، بطلت كل تلك التشديدات التى توسعوا فى بنائها على اشتراط فقد الماء ، ومنها ما قالوا من وجوب طلبه فى السفر ، وما وضعوه لذلك من الحدود كحد القرب وحد الغوث ..[1]) .

حملته على بعض المفسرين :

هذا .. ولا يفوتنا أن نقول ، إن صاحب المنار كان كثير التوسع فيما يتعقب به أحيانا قدماء المفسرين ، خصوصا الفخر الرازى منهم ، مع قسوة منه عليهم فى الكثير الغالب[2] .

حملته على البدع والخرافات :

كما أنه كان كثير الاستطراد إلى تتبع بدع المسلمين،والكشف عن عوارها والإرشاد إلى علاجها ، مع تشدد وتعسف منه فى كثير من الأحيان .

شرحه لمبهمات القرآن بما جاء فى التوراة والإنجيل :

كذلك لا يفوتنا أن ننبه على أن صاحب المنار كان مع شدة لومه على المفسرين الذين يزجون بالإسرائيليات فى تفاسيرهم ، ويتخذن منها شروحاً لكتاب الله ، يخوض هو أيضا فيما هو من هذا القبيل ويتخذ منه شروحاً لكتاب الله ، وذلك أنه كثيراً ما ينقل عن الكتاب المقدس أخباراً وآثاراً

---

(١) تفسير المنار جـ ٥ ص ١١٨ — ١٢٢ .

(٢) انظر ما عقب به على الزمخشرى وغيره من المفسرين الذين فسروا الركون بالميل اليسير فى قوله تعالى فى الآية (١١٣) من سورة هود « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا .. الآية » جـ ١٢ ص ١٦٩ — ١٧٩ .

يفسر بها بعض مهمات القرآن ، أو يرد بها على أقوال بعض المفسرين[٣]. وكان الأجدر بهذا المفسر الذى يشدد النكير على عشاق الإسرائيليات ، أن يكف هو أيضاً عن النقل عن كتب أهل الكتاب ، خصوصا وهو يعترف أنه قد تطرق إليها التحريف والتبديل .

دفاعه عن الإسلام :

وأخيراً فلا يفوتنا أن الرجل قد دافع عن الإسلام والقرآن ، وكشف عما أحاط بهما من شكوك ومشاكل ، وقد استعمل فى ذلك لسانه وقلمه ، وضمنه مجلته وتفسيره ، وتلك مزية للرجل يحمد عليها ، ولا ننسى ماله من أفكار جريئة ومتطرفة .

---

(١) انظر ما نقله عن الفصل الخامس والعشرين من سفر الخروج عن التابوت وما حواه ج ٢ ص ٤٨٢ — ٤٨٣ ؛ واستشهادة على مافسر به استجابة الله لدعاء موسى وهارون حيث قالا كما جاء فى الآيتين (٨٨ و ٨٩) من سورة يونس .. « ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم * قال قد أجيبت دعوتكما .. الآية ، بما جاء فى سفر الخروج ج ١١ ص ٤٧٤ .

٣ — الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى[1]

الأستاذ المراغى فى مدرسة الشيخ محمد عبده :

لم نعرف من رجال هذه المدرسة رجلا تأثر بروح الأستاذ الإمام ، ونهج على طريقته من التجديد واطراح التقليد ، والعمل على تنقية الإسلام من الشائب التى ألصقت به ، وتنبيه الغافلين عن هديه وإرشاده ، مثل الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغى عليه رحمة الله ورضوانه .

تربى هذا الرجل فى مدرسة الأستاذ الامام . وتخرج منها وهو يحمل بين جنبيه قلباً مليئاً بالرغبة فى الإصلاح، والثورة على كل مايقف فى سبيل الإسلام والمسلمين .

هذا القلب الفتى ، العامر بما فيه من حب للخير ورغبة فى الإصلاح ، دفع بالرجل إلى ميدان الحياة الاجتماعية ، وترقى به فى مراتب المناصب الدينية ، وأخيراً وقف به عند الغاية ، فإذا بالرجل شيخا للأزهر،وإذا بروح الإصلاح والتجديد تتدفق من فوق منبره ، وعلى قلوب طلابه وغير طلابه ، ثم تنساب جارفة إلى نواح من الحياة مختلفة ، فتعمل فيها عمل السحر ، والحياة والنور .

لم يلازم الشيخ المراغى أستاذه الامام ملازمة طويلة كما لازمه الشيخ رشيد ولم يجلس إليه كثيراً مثل ماجلس ، ولكنه كان على رغم ذلك أعمق أثرا وأكثر تحقيقا لما تهدف إليه هذه المدرسة من ضروب الاصلاح وصنوف التجديد ، والسر فى ذلك — كما يظهر لنا — هو تقلب الشيخ فى مختلف المناصب الدينية الكبيرة ، ثم ما كان فيه من جاذبية وقدرة على استجلاب قلوب سامعيه واستمالتها إليه ، مما أجلس بين يديه الملك ، والأمير ، والوزير ، والشيخ الكبير والطالب الصغير ، ورجل الشارع .

جلس هؤلاء جميعا يستمعون إليه ويأخذون عنه،فكان الميدان فسيحا أمام

---

(١) ولد فى سنة ١٨٨١ م وتوفى فى سنة ١٩٤٥ م .

الشيخ ، يلقى فيه بآرائه وأفكاره ، فتجد الدعوة قبولا من مستمعيه، ورواجاً عند مريديه . . ثم لا تلبث أن تنتشر فتعم كل شيء .

وإذا كان كتاب الله هو الدستور الذى شرعه الله تعالى للأمة الإسلامية ، وجعل فيه خيرها وسعادتها فى الدنيا والآخرة ، فلم لا يكون هو الباب الذى يصل منه الشيخ إلى ما يرجوه من خير ، وما يهدف إليه من إصلاح ؟

إنتاجه فى التفسير :

طرق الشيخ هذا الباب ، فعقد دروسا دينية فى تفسير القرآن الكريم ، استمع إليها الكثير من الناس على اختلاف طبقاتهم، من الملك إلى رجل الشارع كما قلت، وأذيعت هذه الدروس أيضاً فى كثير من ممالك الأرض، ودول الإسلام وأخيراً طبعت هذه الدروس ، ووزعت على الناس ليعم نفعها، ويزداد أثرها .

لم تكن هذه الدروس على شيء من الكثرة ، ولم يكن مقدار ماتناولته من آيات القرآن بالمقدار الكبير ، الذى كنا نرغب ونطمع فى أن تزود به المكتبة الإسلامية .

نعم . . . لم تتناول هذه الدروس من آيات القرآن إلا مقداراً قليلا ، وإذا نحن ذهبنا نستقصيه فإنا لا نجده أكثر من شرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧٧) من سورة البقرة « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب . . . . » إلى قوله « أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون[1] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٣٣ — ١٣٨) من سورة آل عمران « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض . . . . » إلى قوله « هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين[2] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (١٣ و ١٤) من سورة الشورى « شرع

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد البوصيرى بالاسكندرية فى رمضان سنة ١٣٥٦ هـ .

(٢) ألقى هذا المسجد بمسجد الحسين بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦ هـ .

لكم من الدين ما وصى به نوحا ... » إلى قوله « وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب[1] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٥١ — ١٥٣) من سورة الأنعام « قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم . » إلى قوله « ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون[2] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٨٣ — ١٨٦) من سورة البقرة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام ..... » إلى قوله « ... وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون[3] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٢٤ — ٢٩) من سورة الأنفال « يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم ... » إلى قوله « والله ذو الفضل العظيم[4] » .

وشرحه لسورة الحجرات[5] ، وشرحه لسورة الحديد[6] ، وشرحه لسورة لقمان[7] ،

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٦٠ — ١٦٥) من سورة الأنعام « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها » .. إلى آخر السورة[8] .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١٩٩ — ٢٠٦) من سورة الأعراف « خذ العفو وأمر بالعرف » إلى آخر السورة[9] .

---

(١) ألقى هذا الدرس بمسجد السلطان أبى العلاء بالقاهرة فى رمضان سنة ١٣٥٦ هـ.
(٢) « « « « « الحنفى « « « « ١٣٥٦ هـ.
(٣) « « « « « السيدة زينب « « « « ١٣٥٦ هـ.
(٤) « « « « « البوصيرى بالإسكندرية « « « ١٣٥٦ هـ.
(٥) فى دروس ثلاثة فى شهر رمضان سنة ١٣٥٨ هـ .
(٦، ٧) ألقى تفسير هذه السورة فى رمضان سنة ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ هـ .
(٨، ٩) ألقى تفسيرها فى رمضان سنة ١٣٦١ هـ .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٣٠ — ٣٤) من سورة فصلت « إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا ... إلى قوله « كأنه ولى حميم[١] » .

وشرحه لأوائل سورة الأعراف .. إلى قوله فى الآية (٩) « ... ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون »[٢] .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١١٢ — ١٢٣) من سورة هود « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ... » إلى آخر السورة[٣] .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيتين (٥٨ و ٥٩) من سورة النساء « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ... » إلى قوله : « ذلك خير وأحسن تأويلا[٤] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآية (١٧) من سورة الرعد « أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها .... إلى قوله « كذلك يضرب الله الأمثال[٥] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٨٣ — ٨٨) من سورة القصص « تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً فى الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين .. » إلى آخر السورة[٦] .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (١ — ١٠) من سورة الفرقان « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ... » إلى قوله « ويجعل لك قصوراً[٧] » .

وشرحه لقوله تعالى فى الآيات (٦٣ — ٧٧) من سورة الفرقان أيضاً

---

(١) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦١ هـ .

(٢) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢ هـ .

(٣) ألقى هذا التفسير فى رمضان سنة ١٣٦٢ هـ .

(٤) ألقى هذا الدرس فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ .

(٥) ألقى هذا الدرس فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ .

(٦) ألقى هذا الدرس فى رمضان سنة ١٣٦٣ هـ — وقد قدم شرحه لهذه الآيات بالكلام عن قصة قارون مع قومه وبين موضع العبرة فيها .

(٧) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦٠ هـ .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ... » إلى قوله « فقد كذبتم فسوف يكون لزاما[1] » .

وشرحه لسورة العصر[2] .

وشرحه لسورة الملك[3] .

هذا هو كل ما للأستاذ المراغى — رحمه الله — من إنتاج فى التفسير ، وهو على قلته عمل كبير وعظيم ، بالنظر لما يهدف إليه من إصلاح ، وما يحمل فى طياته من توجيه حسن فى التفسير .

وحسب الشيخ أن يكون قد لفت قلوب كثيره من المسلمين إلى القرآن ، بعد أن أعرضوا عن هديه ، وضلوا عن إرشاده ، وتلك حسنة نرجو له برها وذخرها عند الله .

منهجه فى التفسير :

يتتبع الإنسان إنتاج الأستاذ الأكبر فى التفسير ، ويستقصى ما عرض له من آيات القرآن الكريم ، فيلحظ أن الشيخ — رحمه الله تعالى — كان يختار لدروسه من آيات القرآن ما تتجلى فيه دلائل قدرة الله وآيات عظمته ، وما تظهر فيه وسائل هداية البشر ، ومواضع العظة والعبرة ، كما يلحظ أيضاً أنه وجه جانباً كبيراً من عنايته إلى الآيات التى يجمعها وقضايا العلم الحديث صلة القربى ؛ ليظهر للناس أن القرآن لا يقف فى سبيل العلم ، ولا يصادم ما صح من قواعده ونظرياته ، وذلك بما يهديه الله إليه من الدقة فى التوفيق بين قضايا القرآن ، وقضايا العلم الحديث . . دقة لا يبلغ شأوها ، ولا يدرك خطرها إلا من شغل نفسه ، وكد فهمه فى هذا السبيل .

---

(١) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين فى سنة ١٣٥٩ هـ .

(٢) ألقاه بدار جمعية الشبان المسلمين سنة ١٣٦١ هـ .

(٣) وهو آخر دروسه فى التفسير رحمه الله ، إذ توفى فى رمضان سنة ١٣٦٤ هـ ولم يقع لنا تفسير هذه السورة ، وقد اعتمدت فيما نقلته عنه فيها على ما سمعته بنفسى من دروسه فى تفسيرها .

مصادره فى التفسير :

وأعتقد أن الشيخ — رحمه الله — كان يستند فى تحضير دروسه على كتاب الله تعالى بجمع ما كان من الآيات فى موضوع واحد . لعل ما أجمل فى موضع فسر فى موضع آخر ، وما أبهم فى آية بين فى آية أخرى ، وكان يستند أيضاً إلى ما صح من بيان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبيان السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، ثم على أساليب اللغة وسنن الله فى الكون ، ثم على ما كتبه قدماء المفسرين ، ولكنه لم يلغ عقله فى هذا كله ، بل كان يضع هذه المصادر كلها أمام نظره ، ويعرض ما فيها على قلبه وعقله ، فما أعجبه منها أقره ، ومالم يطمئن إليه نبذه وأعرض عنه .

لم نسمع عن الأستاذ المراغى — رحمه الله — أنه فسر القرآن بدون أن ينظر أولا فيما كتبه المفسرون ، ولم يبلغنا عنه أنه ادعى لنفسه أنه أتى بما لم يأت به الأوائل فى التفسير ، بل على العكس من ذلك وجدناه يعترف بالفضل الأقدمين . ولا ينسى ما كان لهم من مجهود طيب وأثر محمود ، وذلك حيث يقول عن تفسيره : (ما هو إلا ثمرات من غرس أسلافنا الأقدمين ، وزهرات من رياضهم[١]) .

لم يتحامل الشيخ — رحمه الله — على المفسرين كما تحامل غيره ، ولم يرم فى وجوههم بالعبارات القاذعة اللاذعة ، بل كان عفاً فى نقده ، نزيهاً فى عبارته ، وهذا أدب ما أجمله بالعلماء ، وبخاصة مع أسلافهم ومتقدميهم .

موقفه من مبهمات القرآن :

هذا ، وإن الأستاذ المراغى — رحمه الله — قد نهج فى تفسيره منهج شيخه ، فوجدناه لا يخوض فى مبهمات القرآن بالتفصيل . ولا يدخل فى جزئيات سكت عنها القرآن ، وأعرض عنها الرسول صلى الله عليه وسلم ، فلا الروايات

---

(١) مقدمة تفسيره لسورة الحديد .

الموضوعة أو الضعيفة بكافية عنده عنده حتى يزج بها فى تفسيره ، ولا الأخبار الإسرائيلية بمقبولة لديه ، حتى يجعل منها شروحاً لما أجمله القرآن وسكت عن تفصيله ، فلهذا نراه عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣٣) من سورة آل عمران « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين » نجده يقول بعد أن ينتهى من تفسير الآية ما نصه : (والآية تدل بظاهرها على أن الجنة مخلوقة الآن ، لأن الفعل الماضى يفهم هذا . غير أنه من الجائز أن يكون من قبيل قوله تعالى « ونفخ فى الصور فصعق من فى السموات ومن فى الأرض [١] » فلا يدل على خلقها الآن ، والبحث فى هذا لا فائدة له ، ولا طائل تحته [٢]) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٣) من سورة البقرة « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم . الآية » وجدناه يقول : (.. ونحن لا نعلم ما هو الذى فرضه الله على الأمم السابقة من قبل ، أهو شهر رمضان كما قال بعض الناس ؟ أم غيره ؟ وليس لنا ما يهدينا إلى شىء معين من دليل يطمئن إليه القلب . والتشبيه لا يدل على المماثلة فى كل شىء ، فنحن نؤمن بأن صوما فرض على الأمم السابقة ، لا نعلم مقداره ولا كيفيته . ولا يزال الصوم معروفا عند الأمم الأخرى على أوضاع مختلفة .. [٣]) .

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٢) من سورة لقمان « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله . الآية » وجدناه يقول ما نصه : (اختلف الناس فى لقمان هذا من هو ؟ ومن أى الأمم هو ؟ فقيل : إنه من بنى إسرائيل . وقيل : إنه كان عبداً حبشياً . وقيل . إنه أسود من سودان مصر . وقيل : إنه يونانى . ومن الناس من جعله نجارا ، ومنهم من جعله راعى غنم ، ومنهم من

---

(١) فى الآية (٦٨) من سورة الزمر .

(٢) ص ٢١ من الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ مطبعة وزارة الأوقاف سنة ١٩٣٨

(٣) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ٦ مطبعة الازهر سنة ١٩٣٩

قال إنه نبي ، ومنهم من قال : إنه حكيم . وكل هذه أقوال ليس لها سند يعول عليه، وبعد أن وصفه الله بالحكمة فلا يرفع من شأنه أنه كان من أشرف الأمم، ولا يضع من قدره أنه كان زنجيا مملوكا[1]) .

عنايته بإظهار أسرار التشريع :

كذلك نجد الأستاذ الأكبر يهتم فى تفسيره اهتماما كبيرا بإظهار سر التشريع الإسلامى ،وحكمة التكليف الإلهى؛ ليظهر محاسن الإسلام،ويكشف عن هدايته للناس .

فمثلا عند ما تعرض لآيات الصوم فى سورة البقرة ، نجده يفيض فى سر الصوم وحكمته فيقول : (الصيام أحد الأركان الخمسة التى بنى عليها الإسلام،وهو رياضة بدنية،وتهذيب خلق ، وتطهير روحى؛ ذلك أن الاسترسال فى الشهوات، والانغماس فى اللذات حجاب بين الروح وبين الكمالات القدسية والفيض الإلهى ، يعوقها عن تلقى الإلهام وعن لذة الإتصال ، ولذلك يلجأ أرباب المقامات والعارفون إلى الصوم ، كلما أحسوا بعداً عن الذات الإلهية ، وانزعج خاطرهم شوقا إلى القرب منها) .

(وفى الصبر على الحرمان من اللذات التى تنازع إليها النفس ، وتقتضيها الطبيعة ، تربية للإرادة ، وتقوية على المضى فى العزم ، وعدم نقض العقد والعهد إذا وسوس الشيطان وزين للنفس الخروج عن العهود ؛ لما فيها من المشقات ، وفى تقوية الإرادة على هذا النحو إعداد لتلقى التكاليف الإلهية بالقبول والطمأنينة ، وتثبيت لملكة المراقبة والخوف من الله ، وتقوية لخلق الحياة ، وفى هذا كل الخير ، وبه تتحقق تقوى الله ، وتستعد النفس للسخاء ، والبذل والتضحية ، إذا دعى الداعى ، وحان وقت الفصل بين شجعان الرجال وجبنائهم ، وبين كرامهم وأنذالهم) .

(وليس يخفى أن كل شىء فى هذه الحياة ممكن . الفقر بعد الغنى ، والمرض

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٨ مطبعة الأزهر سنة ١٩٤٢ م .

بعد الصحة ، والذلة بعد العز ، والنزوح عن الأوطان بعد الطمأنينة فيها ، وتغلب الأعداء بعد الغلب عليهم وقهرهم . . . وما إلى ذلك مما هو بسبيل أن يعرض للإنسان . وعروض هذه الأشياء على نفس مدللة ، وجسم مترف ، ينام بقدر ، ويأكل بقدر ، ويمرح فى اللذات بين الأهل والعشيرة ، قد يصدمه صدمة لا يقوى على احتمالها ، أو يسوق إليه الجزع ويورثه اليأس) .

(لذلك كله اقتضت حكمه الحكيم العليم ، أن يجعل من العبادات مايروض الأجسام ويهذب الأخلاق ، ويطهر الأرواح ويزكيها . . وكان من هذه العبادات الصوم) .

(وكما عنى الإسلام بتزكية الأرواح وتهذيب الأخلاق ، فقد عنى بتربية الأجسام ، وحرم كل ما هوضار بها ، وأباح الطيبات وكل ما هو نافع ومفيد ؛ ذلك أن الإسلام يريد رجلا عاملاً فى الحياة ، مهذب الأخلاق ، طاهر الأعراق ، قوياً لا يهاب الموت ، يدفع عن الدين ويدافع عن الوطن ، ويذود عن العشيرة ، ويريد رجلا رحيما حسن المعاشرة ، سلس القياد لأهله ، وعشيرته ، وبنى وطنه ، يريد رجلا لا تلهيه الدنيا عن الاتصال بالخالق وأداء حقوقه . . . . إلخ[1]) .

معالجته للمشاكل الاجتماعية :

كذلك نجد الشيخ المراغى - رحمه الله - يعرض لمشاكل المجتمع وأسباب الانحطاط فى دول الإسلام ، فيعالج كل ذلك بما يفيضه الله على قلبه وعقله ولسانه ، من هداية القرآن وإرشاده .

ولقد كان الأستاذ - رحمه الله - بصيراً بمواطن الداء ، وأسباب الشفاء ، فكان يهدف فى دروسه إلى علاجها واستئصالها ، وكان كثيراً مايوجه الخطاب إلى أرباب الحل والعقد فى الدولة - وهم غالبية المستمعين له - ويلفت أنظارهم إلى ما فى أعناقهم من أمانات ، وما عليهم من تبعات ، ثم يأخذ

(١) الدروس الدينية لسنة ١٩٥٧ هـ ص ٦ — ٧ .

بيدهم إلى حيث يكون صلاحهم ، وصلاح من تحت إمرتهم ورعايتهم .. يدفعه فى هذا كله إخلاصه لربه . ولوطنه ، ولأمته ....

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٣) من سورة الشورى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا .. الآية » نجده يقول : (... والحكمة فى هذه الشرائع الإلهية : أن الإنسان إذا ترك إلى مداركه الحسية ونظرياته العقلية، ضل وكره الحياة ، وكان أشقى من أنواع الحيوان ، وشقاؤه يكون من ناحية العقل نفسه ، فقد دلت التجارب على أن العقل غير المؤيد بالشرع الإلهى يذهب مذاهب شتى ، منها الصواب ومنها الضلال ، وهو فيما عدا المحسات والماديات ضلاله أكثر من صوابه . وهذه آراء العلماء فى الفلسفة والأخلاق ، يشبه بعضها هذيان المحموم ، وبعضها لا يدرك له محصل على كثرة ما يقولون من مقدمات وبراهين . وهذه مذاهب الاجتماع قديمها وحديثها، لم تسعد الأمم بها ، فلابد من هداية تصدر عن المعصوم يحملها من عند الله العلى الحكيم . وقد دلت التجارب أيضاً على أن الأمم التى عملت بالهدى كله أو بعضه سعدت بمقدار ذلك الهدى الذى عملت به) .

(وأما أنه لولا الدين لما احتمل الإنسان هذه الحياة ، فإنها على قصرها مملوءة بالمصائب والويلات، فمن فقر مدقع ، إلى مرض مزمن، ومن فقد الأهل والعشيرة ، إلى فقد العزة والجاه ، ومن شرف رفيع ، إلى ذلة ومهانة ... واحتمال هذا كله إذا لم يكن أمام الإنسان أمل ينتظره ، وحياة دائمة فيها سعادة دائمة ليس فى طاقة الإنسان ، فالاعتقاد بالآخرة يرفه العيش ، ويجعل المؤمن فى سعادة نفسية، ويقويه على احتمال الصعاب ، وعلى الصبر على معاشرة الناس، فلابد من نظام يعتقد فيه العصمة من الخطأ ، ويهدر معه حكم العقل إذا حصل تعارض بينهما . فإن دائرة العقل محدودة ، وهى قاصرة عن إدراك خفايا المستقبل) .

وإذا قيل : إن التدين مقيد للحرية ، ومانع من التمتع باللذات، فكيف تكون فيه السلوى والعزاء ؟ فالجواب : أن الإسلام أباح الطيبات وحرم الخبائث ، ولم يحظر من اللذات إلا ما يضر الإنسان ، وليست السعادة فى حرية البهائم ،

بل فى حرية يسبح بها فيما فيه خيره وسعادته ، ويحظر عليه فيها ما فيه ضرره وشقاؤه ، وقوام آداب الأمم وفضائلها ، التى قامت عليها صروح المدنية الحقة مستند إلى الدين ، وبعض العلماء يحاول تحويلها عن أساس الدين ، وبناءها على أساس العقل والعلم ، غير أنه لاشبهة فى أن الأمم التى تروم هذا التحول تقع فى اضطراب وفوضى لا تعلم عاقبتهما ، وليس من الميسور أن تبنى للعامة قواعد الفضيلة على أساس علم الأخلاق ، أو أية قاعدة علمية أخرى ، ولكن من الميسور دائماً أن تبنى قواعد الفضيلة على أساس العصمة للدين ، فالذى يحاول العلماء : وهم وخيال(1)) .

ومثلا عند ما تعرض لقوله تعالى فى الآية (١٨٥) من سورة البقرة : « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان» نجده بعد أن يشرح الآية ، ويذكر ما فى القرآن من هداية يقول : (هذا هو القرآن الذى سعد به المسلمون بحياة روحية هى المثال الأعلى للنفس الإنسانية، وبحياة جثمانية طاهرة بريئة ، وبحياة علمية لا يزال ما بقى من نورها يستمتع به الناس ، وهو موضع للعجب ومثار للاكبار والإجلال) .

(سعدوا به حقبة ، ثم انحرفوا عنه فعاقبهم الله بما هم فيه من ذل وهوان ، حتى أصبحوا يخافون تخطف الناس لهم ، وصاروا فى حاجة إلى غيرهم فى كل مرافق الحياة ، ووصل بهم الجهل إلى حد أن ظنوا أن كل ماعند غيرهم خير يجلب ، وكل ما عندهم شر ينبذ ، وأنه لا حياة لهم إلا بالقدوة . . القدوة حتى فيما علم غيرهم شره وفساده ، وحاولوا نبذه وطرحه ، وقد أصبح المسلمون مثلا سيئة للاسلام ، يحتج بهم عليه والدين منهم برىء) .

(الدين يطلب رجالا صدقوا ماعاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر ، رجالا باعوا أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، رجالا خلقاء بأن يكونوا خلفاء عن الله فى الأرض ، يعلمون سرها ، ويسخرونه للخير ودفع الأذى، يدفعون عوادى الزمان بمناكبهم كأنهم بنيان مرصوص، يعرفون للكرامة

---

(1) الدروس الدينية لسنة ١٣٦٥ هـ ص ٣٤ — ٣٦

قدرها ، وللعزة موضعها ، ويميزون بين الأعداء والأصدقاء ، ويعلمون أن متاع الحياة الدنيا قليل . وأن الآخرة خير وأبقى [١]) .

وعندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٥) من سورة الحديد : لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس . . . الآية » .

وجدناه يقول بعد ما شرح الآية : (ذكر الله - سبحانه - الكتاب والميزان والحديد وقرنها بعضها ببعض . فالكتاب : إشارة إلى الأحكام المقتضية للعدل والإنصاف . والميزان : إشارة إلى سلوك الناس على وفق هذه الأحكام . والحديد : إشارة إلى مايحملهم على اتباع هذه الأحكام إذا تمردوا « والله سبحانه — وهو العليم الحكيم — لا يضع للخلق من القوانين إلا مافيه مصلحتهم وخيار الخلق تكفيهم تلاوة الكتاب وعلمه لاتباع مافيه ، وغيرهم لابد له من وازع ، وهو سلطان الحاكم المشار إليه بالحديد ، ولذلك وجدت التعاذير فى الإسلام ، ووجدت الحدود . أما ترك الناس أحراراً من غير وازع . فهو ضار بالمجتمع الإنسانى ، وموجب للتراخى فى إقامة العدل واتباع القانون ، جرب هذا فى العصور المختلفة ، وقامت الشواهد الناطقة فى العصر الحديث عليه . وعلم أن الأمم التى لم تحط أخلاقها بوازع ؛ انحدرت إلى الدرك الأسفل وأضلتها الشهوات وقد كانت درة عمر سلكا قويا للنظام الإسلامى فلما رفعت ضعف ذلك الرباط [٢]) .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الآية (٦) من سورة لقمان « ومن الناس من يشترى لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم . . . الاية » نجده يقول (... من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالا وبرسالة محمد ، ويعظمهما ويجلهما فإذا قلت له : لم لا تقطع يد السارق ؟ وتحد القاذف ؟ ولم لا تحكم القرآن فى الحياة ونحن مؤمنون به ؟ هز كتفيه وابتسم ؛ أو زاد : إنها رجعية لا يحتملها

(١) الدروس الدينية لسنة ١٤٥٧ هـ ص ١٥ — ١٦ .

(٢) تفسير سورة الحديد ص ٤٢ — ٤٣ .

تمدين العصر الحديث !! . . أليس هذا استهزاءاً بالآيات ؟ واشتراءاً للباطل ؟ وضلالا عن سبيل الله ؟) .

(هناك مقلدون للمذاهب فى العقائد والأحكام . إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذاهبهم ، ولوا عنها وإن كانوا لايسخرون بها ؛ بل يسخرون بمن يعرضها ، أليس هذا شراء للباطل وبيعاً للحق بغير علم ؟) .

(هناك مذاهب ابتدعت فى الدين للضلال والإضلال بسبب السياسة ، وفسر مبتدعوها الايات فى التأويل ليردوها إلى مذاهبهم المبتدعة وجاء أتباعهم فقلدوهم) .

(أما المبتدعون فأمرهم واضح . . اشتروا الضلالة بالهدى !! . .)

(وأما الأتباع فكان عليهم أن ينظروا فى الآيات ويتدبروها عملا بقوله سبحانه « فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا » [١] فهم أيضاً اشتروا الضلالة بالهدى ولهم بعض العذر . . .) [٢] .

ومثلا عند تفسيره لقوله تعالى فى الاية (٦) من سورة الحجرات « ياأيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ . . . الآية » نجده يقول : (. . . والتثبت فى الأخبار فضيلة ليست كثيرة عند الناس ، وأكثر الناس يقعون فى تصديق الأخبار من حيث لا يشعرون ، ولبعض مهرة الكاذبين حيل تخفى على أشد الناس تثبتا من الأخبار) .

(وكثيراً ما يقع عدم التثبت من العظماء الذين يملكون النفع والضرر يجيئهم ذلك : من ناحية استبعاد أن يكذب بطانتهم عليهم وهو مدخل للخطر عظيم)

(والذين هم فى أشد الحاجة إلى العمل بهذه الاية هم الذين بيدهم مقاليد

---

(١) الآية (٥٩) من سورة النساء .

(٢) تفسير سورة لقمان ص ٩ — ١٠

الأمور ؟ وبيدهم الضر والنفع . أما الذين لا يملكون ضراً ولا نفعاً لحاجتهم إليها أقل من حاجة هؤلاء) .

(والآية على العموم : أدب عظيم لابد منه لتكميل النفس ، وإعدادها لتعرف الحق والبعد عن مواطن الباطل . . .) (١) .

توفيقه بين القرآن والعلم الحديث :

هذا . . وإن الإستاذ المراغى - رحمه الله - كان مع اعتقاده أن القرآن قد أتى بأصول عامة ، لكل مايهم الإنسان معرفته والعلم به ، يكره أن يسلك المفسر للقرآن مسلك من يجر الآية القرآنية إلى العلوم ، أو العلوم إلى الآية ، كى يفسرها تفسيراً علمياً يتفق مع نظريات العلم الحدشث .

نعم . . كره الشيخ هذا المسلك فى التفسير ، وجهر بخطأ أصحاب المولعين به ، وكرر هذا فى مواضع كثيرة ، فكان مما قاله فى بعض المواضع من دروسه فى التفسير : (وجد الخلاف بين المسلمين فى العقائد والأحكام الفقهية . ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها ، وتأويله لبعض النظريات العلمية التى لم يقر قرارها ، وذلك خطر عظيم على الكتاب ، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى ، والنظريات التى لم تستقر لا يصح أن يرد إليها كتاب الله) (٢)

ولكن الأستاذ المراغى مع هذا كله كان يرى أن يكون مفسر كتاب الله على شىء من العلم ببعض نظريات العلم الحديث ، ليستطيع أن يأخذ منها دليلا على قدرة الله ، ويستلهم منها مكان العبرة والعظة .

كان الشيخ يرى هذا ، ويعتقد أنه هو المسلك السليم لفهم القرآن الكريم ، فجهر به فى أحد دروسه فى التفسير فقال . (ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ، ومادته وأبعاده ، وأقداره ، وأوزانه ؟ لكنه يجب أن

---

(١) تفسير سورة الحجرات ص ١١

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٦ هـ ص ٤٢

يلم بطرف يسير منه ، ليدل به على القدرة الإلهية ويشير إليه للعظة والاعتبار)[١]

ثم وجدنا الأستاذ المراغى بعد هذا يشرح قوله تعالى فى الآية (١٠) من سورة لقمان « خلق السموات بغير عمد ترونها وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم وبث فيهما من كل دابة وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيهما من كل زوج كريم » شرحاً يقوم على هذا المبدأ الذى ارتضاه فقال (« خلق السموات بغير عمد ترونها » السموات مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات ، ونجوم وسدائم وهى مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة فى الفضاء ، كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الإلهى ونظام الجاذبية ، ولا يمكن أن يكون لها عمد والله هو ممسكها ومجريها إلى الأجل المقدر لها فإذا قيل . إن نظام الجاذبية وهو الناموس الإلهى قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول . إن لها عمداً غير منظورة وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شىء مادى تعتمد عليه ، وجب أن نقول : إنه لا عمد لها ، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة فى الفضاء ... ثم قال : قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها وقرر الكتاب الكريم أن الله « استوى إلى السماء وهى دخان »[٢] وهذا الذى قرره الكتاب الكريم هو الذى دل عليه العلم وقد قال العلماء . إن حادثاً كونيا جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها وإن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعا كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت فى قبضة جذبتها والأرض واحدة من هذه السيارات فهى بنت الشمس ، والشمس هى المركز لكل هذه السيارات ..... فليست الأرض هى مركز العالم كما ظنه الأقدمون ، بل الشمس هى مركز هذه المجموعة والشمس

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣ — ١٤ .

(٢) فى الآية (١١) من سورة فصلت

وتوابعها قوى صغيرة فى العالم السماوى ، وأين هى من الشعرى اليمانية التى قال الله سبحانه فيها « وأنه هو رب الشعرى »[١] فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوى قوة الشمس (٢٦) مرة ، وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء ، فلو فرض أن الشعرى اليمانية حلت محل الشمس يوما من الأيام ، لانتهت الحياة فجأة ، بغليان الأنهار ، والمحيطات والقارات الجليدية ، التى حول القطبين . وضوء الشعرى اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات ، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق ، فانظر إلى هذا البعد السحيق) :

(وليست الشعرى اليمانية أكبر نجم فى السماء ، فهناك بعض النجوم قدرتها تزيد على قدرة الشعرى أكثر من عشرة آلاف مرة) .

(وعظمة السماء ليست فى الشمس وتوابعها ، كلا . . إن عظمتها فى مدنها النجومية ، فى أقدارها . وأوزانها وأضوائها ، وأبعادها ، على اختلاف أنواعها) .

(وهناك نجم يسمى الميرة أكبر من شمسنا بما يزيد عن ثلاثين مليوناً من المرات ، وهناك السدائم ، وهى قريبة من الخلق أول الأمر ، ثم يقف علم الإنسان ، والله تعالى وحده الذى يعلم خلقه « ما أشهدتهم خلق السموات والإرض ولا خلق أنفسهم »[٢] .

« وألقى فى الأرض رواسى أن تميد بكم » أى خلق الجبال فى الأرض لئلا تميد الأرض وتضطرب ، ولبيان هذا يمكن أن نقول باختصار : إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس ، وعكوفها على الدوران حولها على بعد منها ، وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواد ملتهبة كالشمس ، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما فى جوفها من المواد المنصهرة ، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت ، وحدث من التجعد نتوءات وأغوار ، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التى غلفت الأرض ، وهناك جبال جدت عن اشتداد الضغط فى الرواسب التى فى قاع البحر ،

(١) الآية (٤٩) من سورة النجم .
(٢) فى الآية (٥١) من سورة الكهف .

وجبال نارية جدت من خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها) .

(والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها ، وتوزعها ، وتغير اتجاهها ، وتكسر حدتها ، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات ، والتي يتغذى بواسطتها الحيوان والإنسان ، وتحفظها من أن تمور) .

(فالجبال أولا حبست النار في جوف الأرض ، وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة ، والجبال توزع ضغوط الطبقات ، ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح ، فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض ، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح ....) وهكذا مشى الشيخ إلى آخر الآية[1] .

حرية الرأى في تفسيره :

ثم إن الشيخ المراغي — رحمه الله — كان كغيره من رجال هذه المدرسة لا يتقيد بأقوال الأئمة ، ولا يقف عند مذهب مخصوص ، ولا يقول برأى معين إلا إذا اقتنع به ، وإلا فلا عليه أن يتركه إلى ماهو صواب في نظره .

فمثلا عندما تعرض لقوله تعالى في الآية (١٨٤) من سورة البقرة « .. فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر .. » نجده يقول بعد أن يذكر خلاف علماء الفقه في السفر المبيح للفطر : (وقد روى أحمد ومسلم وأبو داود عن أنس : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقصر الصلاة مسيرة ثلاثة أميال . وروى عن ابن أبي شيبة بإسناد صحيح أنه كان يقصر في الميل الواحد ، وإذا نظرنا إلى أن نص القرآن مطلق ، وأن كل ما رواه في التخصيص أخبار آحاد ، وأنهم لم يتفقوا في التخصيص ، جاز لنا أن نقول : إن السفر مطلقاً مبيح للفطر ، وهذا رأى داود وغيره من الأئمة[2]) .

---

(١) تفسير سورة لقمان ص ١٣ — ١٥

(٢) الدروس الدينية لسنة ١٣٥٧ هـ ص ١١

ومثلا عندما تعرض لقوله تعالى فى الآية (٢٧) من سورة لقمان « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله .. الآية، نجده بعد أن يبين أن عدد السبعة فى الآية مراد به الكثرة يقول: (وعلى هذا يمكن أن يقال فى أبواب النار، اما الأبواب الثمانية للجنة ، فقد أريد بالزيادة فيها على النار أن يدل على أن مسالكها أكثر من مسالك النار ؛ لراحة أهلها ، وزيادة العناية بهم) .

(وكذلك يقال فى السموات السبع والأرضين السبع، والعرب تذكر السبعة للكثرة ، وتذكر السبعين للكثرة كذلك ، ومنه « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم[1] » ، ومن المعلوم أن الله لا يغفر لهم فى السبعين ، ولا فى السبعة الآلاف ، ونظيره « فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعا فاسلكوه[2] » يراد فى سلسلة طويلة هائلة ، ولا يراد التقدير بهذا العدد[3]) والواقع أن هناك فرقا بين ما ورد من نحو قوله : استغفر لهم الخ وقوله : فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً ، وبين ما ورد فى عدة أبواب الجنة والنار ، وعدة السموات والأرض، فإن الأول ذكر فى مقام التهويل ، فلا يراد التحديد وإنما يراد الكثرة ، بخلاف الثانى فإنه ليس كذلك .

ومثلا نجد الأستاذ المراغى فى دروسه الأخيرة عندما تعرض لقوله تعالى فى الاية (٥) من سورة الملك « ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين .. الآية » يشرح كون النجوم رجوما للشياطين بما معناه: (أن ما فى السماء من النجوم دلائل قاطعة على تمام قدرة الله تعالى ، فالله سبحانه وتعالى زين السماء الدنيا بهذه الكواكب، وجعلها على هيئات مخصوصة ونظام محكم، لتكون حججاً دامغة ، وأدلة قوية على من يجحدون قدرة الله وينكرون وجوده) . سمعناه يقول ما هذا معناه ، ثم يستدل على ما ذهب إليه بأنهم يقولون : (ألقمته

---

(١) فى الآية (٨٠) من سورة التوبة (٢) فى الآية (٢٣) من سورة الحاقة .

(٣) تفسير سورة لقمان ص ٣٦ .

حجراً) يعنى أقمت عليه الحجة فلم يحر جواباً ، ثم يستشعر الشيخ بعد ذلك أن فى القرآن آيات كثيرة تصادم هذا الفهم ، كقوله تعالى فى الآيات (٦ — ١٠) من سورة الصافات « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل شيطان مارد * لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب . دحورا ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب » ، وكقوله فى الآيتين (٨و٩) من سورة الجن « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصدا » يستشعر الشيخ مصادمة هذه الآيات لرأيه فيقول ما معناه : (وهناك آيات أخرى فى هذا المقام ، تبدوا مخالفة لهذا المعنى ، ولكن يمكن حملها عليه ، وليس فى الوقت متسع لذلك ، وسنعرض لها فى موضع غير هذا) .

ولست أدرى كيف كان يستطيع الشيخ - رحمه الله - أن يحمل كل الايات الواردة فى هذا الموضوع على المعنى الذى قاله حملا صحيحاً ، وهى كما ترى صريحة فى أن الشياطين كانوا يصعدون إلى السماء ويسترقون السمع ، ثم منعوا من ذلك عند رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، فمن حاول منهم استراق السمع — كما كانوا يفعلون من قبل — رمى بشهاب من السماء فحال بينه وبين ما يريد .

وخاتمة المطاف فى هذه الدروس التى ألقاها الأستاذ الأكبر فى التفسير : أنه كان منها — كما قيل — أمران عظيمان لهما خطر هما فى الحياة الدينية : كانت عاملا قوياً فى توجيه المسلمين ونشئهم الطيب الطاهر إلى الجانب الدينى ، ولفت أنظارهم إلى ما فى كتاب الله من تشريع حكيم ، وأدب جم كريم ، وإرشاد قيم مفيد . فحببت إليهم الدين . وزينته فى قلوبهم ، وهرعوا إليه يتعرفون حكمه ، وأحكامه ويتلمسون بها حياة طيبة ونهضة قوية . أساسها الدين والخلق الكريم .

وكانت هذه الدروس أيضاً : منار هدى وإرشاد ، يلقى أشعته الوضاءة على عقول المشتغلين بتفسير القرآن ، فيضىء لهم الطريق الذى ينبغى أن يسلكوه فى فهم كتاب الله ، واستخلاص آدابه وأحكامه ، خالصة مما جاورها من

إسرائيليات وتأويلات أبعدت أهل الدين عن الدين، وشغلتهم فى تفسير القرآن بما لا يمت إلى روحه ومعناه، وكذلك صورت الدين لغير أهله الذين يتحسسون له عيباً صورة لا تتفق وما له من جلال وجمال[1] .

هذا .. وإنا لنرجو للشيخ المراغى عند ربه ما كان يرجوه هو لنفسه من وراء مجهوده فى التفسير وهو :

(أن يضعه الله سبحانه فى كفة الحسنات من ميزان أعماله ، وأن يجعله ضياء ونوراً يسعى بين يديه « يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ») .

---

(١) مقدمة الشيخ شلتوت لتفسير سورة الحجرات للشيخ المراغى .

رجاء واعتذار

وبعد ... فهذا ما يسره الله لى وأعاننى عليه ، ولعلى أكون وقد طوقت بالقارىء الكريم فى نواح شتى من مناهج التفسير، وأخذت بيده إلى حيث أطلعته على ألوان مختلفة منه ، من مبدأ نزول القرآن إلى عصرنا هذا ، وكشفت له عن طرائق القوم فى فهمهم لنصوص كتاب الله، وأريته كيف حاول كل ذى نحلة أن يقيم نحلته على أساس من القرآن، وكيف تحايل على فهم آياته، وتصرف فى تأويل عباراته ، كل من حاول أن يجعل القرآن شاهداً له ، ودليلا على مايهدف إليه، من حق تبلج ، أو باطل تلجلج .. لعلى بعد هذا كله أكون قد أرضيت عشاق التفسير خاصة ، وأهل العلم عامة ، وحققت رغبة طالما ترددت فى صدورهم . وقضيت حاجة كثيراً ما تطلعت لها نفوسهم ، واشرأبت إليها أعناقهم .

ولعلى بعد ذلك أن لا أكون قد أسأمت القارىء الكريم من طول دعتنى إليه ضرورة البحث ، ودفعتنى إليه رغبة الاستيفاء والاستقصاء .

واعتقادى — رغم هذا الطول — أن فى هذا البحث تركيزاً كبيراً ، واختصاراً كثيراً ، إذ أن كل موضوع من موضوعات هذا الكتاب يصلح لأن يكون كتاباً وحده ، وكتاباً موسعاً مسهباً .

وأرجو أن يهىء الله لى رشداً من أمرى ، ومتسعاً من وقتى ، لأجعل من هذا الكتاب كتباً متعددة ، فيها إسهاب أوسع من هذا الإسهاب ، واستيفاء أشمل من هذا الاستيفاء .

وحسبى بهذا العمل الذى يعتبر باكورة عملى فى التأليف أن أكون قدمت إلى المكتبة الإسلامية بحثاً فيه جدة وطرافة ، وفيه متعة علمية ، ولذة روحية ، تستهوى القارىء ، وتستحوذ على مشاعره وحسه .

حسبى هذا ، حسبى وأن أكون قد أرضيت رغبتى العلمية ؛ التى لم آل فى

إرضائها جهداً ، ولم أدخر فى إشباعها وسعا ، فإن رضى الناس بعد ذلك ، فذلك من فضل الله ، وإن كانت الأخرى ، فذلك هو جهد المقل ، وطاقة الناشىء ، الذى لا يزال يرقب من وراء الغيب أملا فسيحاً ، وكالا صريحاً .

هذا .. ولا يفوتنى أن أعتذر إلى القارىء الكريم عما قد يكون فى هذا الكتاب من أخطاء هينة لا تخفى على فطانته ، ولا تدق عن إدراكه ، فإن مر بها فرجائى اليه أن يتلمس لها عذرا ، وأن يصححها مشكورا ، وتلك شيمة الكرام أهل الخلق الطاهر والأدب الحميد ، وأن لا يكون ممن قال فيهم الشاعر :

فإن رأوا زلة طاروا بها فرحا عنى وما وجدوا من صالح دفنوا

والله سبحانه وتعالى أسأل أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجهه ، وأن ينفع به أناساً أخلصوا قلوبهم لله ، وأن ينفعنى به فى دنياى وآخرتى ، وأن يحقق لى به ما تصبو إليه نفسى ، وتسمو إليه همتى ... والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لو لا أن هدانا الله ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين ،

محمد حسين الذهبي

حدائق حلوان فى عصر الجمعة الموافق { ١٩ من ربيع الثانى سنة ١٣٨١ هـ .
٢٩ من سبتمبر سنة ١٩٦١ م .

قد تم بحمد الله تعالى طبع الجزء الثانى
من كتاب التفسير والمفسرون
فى ٢٨ ربيع الثانى سنة ١٣٩٦ هـ
فى ٢٨ إبريل سنة ١٩٧٦ م

رقم الإيداع ٣١٤٧ / ١٩٧٦
الترقيم الدولى ISBN٩٧٧-٧٢٠٥-١٠٥-١٠٥

الفهرس العام

للجزء الثانى

الموضوع | صفحة

الشيعـــة
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

الإمامية الإثنا عشرية
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

البابية والبهائية

الزيدية

وموقفهم من تفسير القرآن الكريم

الموضوع	صفحة
الخـــوارج	
وموقفهم من تفسير القرآن الكريم	

الموضوع | صفحة

الفصل الخامس

تفسير الصوفية

(تمهيـــد)

(أصل كلمة تصوف ـ معناها ـ نشأته وتطوره ـ أقسامه)

الموضوع	صفحة

الموضوع	صفحة

الموضوع | صفحة

الفصل السابع
تفسير الفقهاء

(كلمة إجمالية عن تطور التفسير الفقهى)

الموضوع	الصفحة

الفصل الثامن

التفسير العلمي

الموضوع	الصفحة

الخاتمة

كلمة عامة عن التفسير وألوانه فى العصر الحديث

الموضوع | صفحة

انتهى بحمد الله تعالى

المراجـــع

كتب التفسير بالمأثور :

١ — جامع البيان . فى تفسير القرآن : ابن جرير الطبرى ، الأميرية ١٣٢٣ هـ

٢ — بحر العلوم : أبو الليث السمرقندى ، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٣)

٣ — الكشف والبيان عن تفسير القرآن : أبو إسحق الثعلبى ، بعض نسخه مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٣٦) ٥٥٦١

٤ — معالم التنزيل : الحسين بن مسعود البغدادى ، المنار ١٣٤٥ هـ

٥ — المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز : ابن عطية الأندلسى ، بعض نسخه مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ١٠ و ٣٥٦

٦ — تفسير القرآن العظيم لابن كثير : للحافظ عماد الدين ابن كثير ، التجارية (مصطفى محمد) ١٣٥٦ هـ

٧ — الجواهر الحسان : عبد الرحمن الثعالى ، طبع الجزائر ١٣٢٣ هـ

٨ — الدر المنثور : جلال الدين السيوطى ، الميمنية ١٣١٤ هـ

٩ — تنوير المقباس من تفسير ابن عباس : أبو طاهر الفيروزابادى الأزهرية ١٣٤٤ هـ

كتب التفسير بالرأى المحمود :

١ — مفاتيح الغيب : الفخر الرازى ، الأميرية ١٢٨٩ هـ

٢ — أنوار التنزيل وأسرار التأويل: البيضاوى ، دار الكتب العربية ١٣٣٠هـ

٣ — مدارك التنزيل وحقائق التأويل : النسفى ، السعادة ١٣٢٦ هـ

٤ — الباب التأويل فى معانى التنزيل : الخازن ، التقدم ١٣٢١ هـ

٥ — البحر المحيط : أبو حيان ، السعادة ١٣٢٨ هـ

٦ — تفسير الجن : الجلال المحلى والجلال السيوطى ، دار إحياء الكتب ١٣٤٥ هـ
٧ — غرائب القرآن ورغائب الفرقان : النيسابورى ، الأميرية ١٣٢٣ هـ
٨ — السراج المنير : الخطيب الشربينى ، الأميرية ١٢٩٩ هـ
٩ — إرشاد العقل السليم : أبو السعود ، المصرية ١٣٤٧ هـ
١٠ — روح المعانى : الآلوسى ، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة

كتب تفسير المعتزلة :

١ — تنزيه القرآن عن المطاعن : القاضى عبد الجبار . الجمالية ١٣٢٩ هـ
٢ — أمالى الشريف المرتضى : الشريف المرتضى ، السعادة ١٣٢٥ هـ
٣ — الكشاف : الزمخشرى ، مطبعة محمد مصطفى ١٣٠٨ هـ

كتب تفسير الإمامية الأثنى عشرية :

١ — مقدمة مرآة الأنوار ومشكاة الأسرار : عبد اللطيف الكازرانى ، طبع العجم ١٣٠٣ هـ
٢ — تفسير العسكرى : الحسن العسكرى ، طبع تبريز ١٣١٤ هـ
٣ — مجمع البيان : أبو على الطبرسى ، طبع طهران ١٣١٤ هـ
٤ — الصافى : ملامحسن الكاشى . طبع فارس ١٢٤٤ هـ
٥ — تفسير القرآن : السيد عبد الله العلوى ، طبع طهران ١٣٥٢ هـ
٦ — بيان السعادة : سلطان الخراسانى ، طبع طهران ١٣١٤ هـ

كتب تفسير الزيدية :

١ — فتح القدير : الشوكانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩ هـ

كتب تفسير الخوارج :

١ — هميان الزاد إلى دار المعاد : محمد إسفيش ، طبع زنجبار ١٣١٤ هـ

تفاسير الصوفية :

١ — تفسير القرآن الكريم : سهل التسترى ، السعادة ١٩٠٨ هـ
٢ — حقائق التفسير : أبو عبد الرحمن السلمى ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٠٩٢)
٣ — عرائس البيان فى حقائق القرآن : أبو محمد روزبهان ، طبع الهند ١٣١٥ هـ
٤ — التأويلات النجمية : نجم الدين داية وعلاء الدولة البيانانكى ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٦ م
٥ — تفسير ابن عربى (تأويلات القاشانى) : عبد الرزاق القاشانى ، الأميرية ١٢٨٣ هـ

تفاسير الفقهاء :

١ — أحكام القرآن (حنفى) : الجصاص ، البهية المصرية ١٣٤٧ هـ
٢ — أحكام القرآن (شافعى) : الكيا الهراسى ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (٣٩٨) ٧٨٦٦
٣ — الإكليل فى استنباط التنزيل (شافعى) : الجلال السيوطى ، نسخة مخطوطة بمكتبة الأزهر تحت رقم (١٧٨٥) بخيت
٤ — أحكام القرآن (مالكى) : أبو بكر بن العربى ، السعادة ١٣٣١ هـ
٥ — الجامع لأحكام القرآن (مالكى) : القرطبى ، دار الكتب ١٩٣٥-١٩٤٥م
٦ — كنز العرفان فى فقه القرآن (إثنا عشرى) : مقداد السيورى ، طبع تبريز ١٣١٤ هـ
٧ — الثمرات اليانعة (زيدى) : الفقيه يوسف الثلاثى ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم (٤١)م

كتب التفسير فى العصر الحديث :

١ — الجواهر فى تفسير القرآن الحكيم : طنطاوى جوهرى ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٠ — ١٣٥١ هـ

٢ — الهداية والعرفان : أبو زيد الدمنهورى ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٤٩ هـ
٣ — تفسير جزء (عم) : الشيخ محمد عبده ، مطبعة مصر ١٣٤١ هـ
٤ — تفسير سورة الفاتحة وست سور من خواتيم القرآن : الشيخ محمد عبده ، والشيخ رشيد رضا ، المنار ١٣٥٣ هـ
٥ — تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) : السيد محمد رشيد رضا ، المنار ١٣٤٦ هـ
٦ — الدروس الدينية : الشيخ محمد مصطفى المراغى ، مطبعة الأزهر ١٣٥٦ - ١٣٦٤ هـ

علوم القرآن :

١ — مقدمة التفسير : الراغب الأصفهانى ، الجمالية ١٣٢٩ هـ
٢ — مقدمة فى أصول التفسير : ابن تيمية ، الترقى بدمشق ١٩٣٩ م
٣ — جواهر القرآن : الغزالى ، كردستان العلمية ١٣٢٩ م
٤ — الإتقان : الجلال السيوطى ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٥ م
٥ — الفوز الكبير فى أصول التفسير : ولى الله الدهلوى ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٦ هـ
٦ — مبادىء التفسير : محمد الخضرى الدمياطى ، النيل ١٣٢١ هـ
٧ — المدخل المنير : محمد حسنين مخلوف العدوى ، مطبعة المعاهد ١٣٥١ هـ
٨ — التفصيل فى الفرق بين التفسير والتأويل : حامدالعمادى ، نسخة مخطوطة بدار الكتب تحت رقم ٢٤٤٤ مجاميع
٩ — التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم : أمين الخولى ، دار المعلمين للطبع والنشر ١٩٤٤ م
١٠ — المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن الكريم (جزء أول) : جولد زيهر تعريب على حسن عبد القادر ، العلوم ١٩٤٤ م
١١ — إعجاز القرآن : مصطفى صادق الرافعى ، الاستقامة ١٩٤٠ م

١٢ — منهج الفرقان : محمد أبو سلامة ، مطبعة شبرا ١٩٣٨ م
١٣ — مناهل العرفان : عبد العظيم الزرقانى ، مطبعة شبرا ١٣٥٩ ﻫ

كتب الحديث وعلومه :

١ — صحيح البخارى : أبو عبد الله البخارى ، الخيرية ١٣٢٠ ﻫ
٢ — صحيح مسلم : مسلم بن الحجاج ، الأميرية ١٣٢٥ ﻫ
٣ — سنن الترمذى : أبو عيسى الترمذى ، الأميرية ١٢٩٢ ﻫ
٤ — مسند الإمام أحمد : الإمام أحمد بن حنبل ، الميمنية ١٣١٣ ﻫ
٥ — نيل الأوطار . الشوكانى ، العثمانية ١٣٥٧ ﻫ
٦ — فتح البارى شرح البخارى : ابن حجر العسقلانى ، الخيرية ١٣١٩ ﻫ
٧ — إرشاد السارى شرح البخارى : القسطلانى ، الأميرية ١٣٢٥ ﻫ
٨ — شرح صحيح مسلم : محي الدين النووى ، الأميرية ١٣٢٥ ﻫ
٩ — تأويل مختلف الحديث : ابن قتيبة ، كردستان ١٣٢٦ ﻫ
١٠ — منهاج السنه : ابن تيمية ، الأميرية ١٣٢٢ ﻫ
١١ — معرفة علوم الحديث: الحاكم النيسابورى ، دار الكتب المصرية ١٩٣٧ﻫ
١٢ — مقدمة ابن الصلاح : أبو عمر بن الصلاح ، طبع الهند ١٢٥٧ ﻫ
١٣ — تدريب الراوى : الجلال السيوطى ، الخيرية ١٣٠٧ ﻫ
١٤ — هدى السارى مقدمة فتح البارى : ابن حجر العسقلانى ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٧ ﻫ
١٥ — الأسلوب الحديث : أمين الشيخ . مطبعة شبرا ١٩٤٠ م

كتب اللغة :

١ — القاموس المحيط : مجد الدين الفيروزابادى ، المصرية ١٩٣٥ م
٢ — تاج العروس شرح القاموس : السيد مرتضى الزبيدى ، الخيرية ١٣٠٦ ﻫ
٣ — لسان العرب : ابن منظور ، الأميريه ١٣٠٢ ﻫ
٤ — أساس البلاغة : الزمخشرى ، الأميرية ١٣٢٧ ﻫ

كتب الفقه والأصول :

١ — فتاوى ابن تيمية : ابن تيمية ، كردستان العلمية ١٣٢٩ هـ
٢ — أعلام الموقعين : ابن القيم ، مطبعة فرج الله الكردى ١٣٢٥ هـ
٣ — الموافقات : أبو إسحق الشاطبي ، مطبعة المكتبة التجارية الطبعة الأخيرة
٤ — المستصفى : أبو حامد الغزالى ، الأميرية ١٣٢٤ هـ
٥ — مسلم الثبوت وشرحه : محب الله عبد الشكور وعبد العلى الأنصارى ، الأميرية ١٣٢٤ هـ
٦ — شرح التلويح : سعد الدين التفتازانى ، دار الكتب العربية ١٣٢٧ هـ
٧ — جمع الجوامع وشرحه : ابن السبكى ، والجلال المحلى ، الأزهرية ١٣٣١ هـ

كتب التاريخ والرجال :

١ — الإصابة فى تمييز الصحابة : أحمد بن على العسقلانى ، الشرفية ١٩٠٧ م
٢ — أسد الغابة فى معرفة الصحابة : ابن الأثير الجزرى ، الوهبية ١٢٨٠ هـ
٣ — تهذيب التهذيب : ابن حجر العسقلانى طبع الهند ١٣٢٥ هـ
٤ — ميزان الاعتدال : الحافظ الذهبي ، السعادة ١٣٢٥ هـ
٥ — لسان الميزان : ابن حجر العسقلانى ، طبع الهند ١٣٣١ هـ
٦ — خلاصة تذهيب الكمال : صفى الدين الخزرجى ، الخيرية ١٣٢٢ هـ
٧ — طبقات الشافعية الكبرى : تاج الدين السبكى ، الحسينية الطبعة الأولى
٨ — الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب : ابن فرحون السعادة ١٣٢٩ هـ
٩ — نيل الابتهاج : أحمد بابا التبنكى السعادة ١٣٢٩ هـ
١٠ — الفوائد البهية فى تراجم الحنفية : محمد اللكنوى ، السعادة ١٣٢٤ هـ
١١ — الفهرست : ابن النديم ، الرحمانية ١٣٤٨ هـ
١٢ — الضوء اللامع لأهل القرن التاسع : شمس الدين السخاوى ، مطبعة القدسى ١٣٥٥ هـ

١٣ — شذرات الذهب : عبد الحي بن العماد ، مطبعة القدسي ، ١٣٥٠ ﻫ
١٤ — مروج الذهب : أبو الحسن المسعودي ، البهية ١٣٤٦ ﻫ
١٥ — مقدمة ابن خلدون : عبد الرحمن بن خلدون ، الشرفية ١٣٢٧ ﻫ
١٦ — طبقات المفسرين : الجلال السيوطي ، طبع ليدن ١٨٣٩ م
١٧ — طبقات المفسرين : الداودي ، نسخة مخطوطة بدار الكتب نمرة ١٦٨
١٨ — تهذيب الأسماء واللغات : محيي الدين النووي ، إدارة الطباعة المنيرية الطبعة الأخيرة
١٩ — وفيات الأعيان : ابن خلكان ، الأميرية ١٢٩٩ ﻫ
٢٠ — فوات الوفيات : محمد بن شاكر الكتبي ، الأميرية ١٢٨٣ ﻫ
٢١ — العقد المنظوم في ذكر أفاضل الروم : على بن لالى بالى ، الميمنية ١٣١٠ﻫ
٢٢ — معجم الأدباء : ياقوت الحموي ، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٦ م
٢٣ — الدرو الكامنة في أعيان المائة الثامنة : ابن حجر العسقلاني ، طبع الهند ١٣٤٨ ﻫ
٢٤ — روضات الجنات في أحوال العلماء والسادات : محمد باقر الموسوي ، طبع فارس ١٣٠٧ ﻫ
٢٥ — بغية الوعاة في طبقات النحاة : الجلال السيوطي ، السعادة ١٣٢٦ ﻫ
٢٦ — أعيان الشيعة : السيد محمد الأمين الحسيني ، مطبعة ابن زيدون بدمشق ١٢٥٣ ﻫ
٢٧ — ترجمة الرجال المذكورة في شرح الأزهار : أحمد بن عبدالله الجنداري التمدن ١٣٣٢ ﻫ
٢٨ — تاريخ التشريع الإسلامي: محمد (بك) الخضري مطبعة عيسى الحلبي ١٩٣٠م
٢٩ — مذكرة تاريخ التشريع الإسلامي : السبكي ، السايس ، البربري ، وادي الملوك ١٩٣٦ م
٣٠ — نظرة عامة في تاريخ التشريع الإسلامي : على حسن عبد القادر ، العلوم ١٩٤٢ م

٢١ — تاريخ الجدل : محمد أبو زهرة ، العلوم ١٩٣٤ م

كتب التوحيد والملل والنحل :

١ — الفرق بين الفرق : أبو منصور البغدادى ، المعارف ١٣٢٨ هـ
٢ — التبصير فى الدين : أبو المظفر الإسفرايينى ، الأنوار ١٩٤٠ م
٣ — شرح المواقف : السيد الشريف ، السعادة ١٩٠٧ م
٤ — تبيين كذب المفترى : ابن عساكر ، مطبعة التوفيق بدمشق ١٣٤٧ هـ
٥ — إيثار الحق على الخلق : أبو عبد الله اليمانى ، الآداب ١٣١٨ هـ
٦ — شرح العقائد النسفية : سعد الدين التفتازانى ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٣٢١ هـ
٧ — الإكليل فى المتشابه والتنزيل ضمن مجموعة الرسائل الكبرى : ابن تيمية العامرة الشرفية ١٣٢٣ هـ
٨ — الفصل : على بن حزم ، الأدبية ١٣٢٠ هـ
٩ — الملل والنحل : محمد الشهرستانى ، الأدبية ١٣٢٠ هـ
١٠ — كشف أسرار الباطنية : محمد بن مالك اليمانى ، الأنوار ١٣٥٧ هـ
١١ — فضائح الباطنية : أبو حامد الغزالى ، طبع ليدن ١٩١٦ م
١٢ — تعريف الشيعة : عبد الرزاق الحسنى ، العرفان ١٣٥٢ هـ
١٣ — الوشيعة فى نقد عقائد الشيعة : موسى جاد الله ، الشرق ١٣٥٥ هـ
١٤ — كتاب بهاء الله : بهاء الله ، السعادة ١٩٢٠ م
١٥ — رسائل أبى الفضائل : أبو الفضائل الإيرانى ، السعادة ١٩٢٠ م
١٦ — مفتاح باب الأبواب : ميرزا محمد مهدى خان المنار ١٣٢١ هـ
١٧ — خطابات ومحادثات عبد البهاء : عبد البهاء عباس جمع ع ج س ، السعادة ١٩٢٠ م
١٨ — المبادىء البهائية : معرب عن مجلة كوكب الغرب الأمريكية رعمسيس ١٩٢١ م
١٩ — الحجج البهية : أبو الفضائل الإيرانى ، السعادة ١٩٢٥ م
٢٠ — محاضرة عن البهائية : عبد العزيز نصحى ، السلفية ١٣٥٢ هـ

كتب التصوف :

١ — الفتوحات المكية : ابن عربى ، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ
٢ — الفصوص : ابن عربى ، الزمان ١٣٠٤ هـ
٣ — إحياء علوم الدين : أبو حامد الغزالى ، مطبعة لجنة نشر الثقافة الإسلامية ١٣٠٦ هـ
٤ — تلبيس إبليس : ابن الجوزى ، النهضة ١٩٢٨ م

كتب الفلسفة .

١ — رسائل إخوان الصفا : إخوان الصفا ، الآداب ١٣٠٦ هـ
٢ — فصوص الحكم : الفارابى ، السعادة ١٩٠٧ م
٣ — رسائل ابن سينا : أبو على بن سينا ، مطبعة هندية ١٩٠٨ م
٤ — جامع البدائع : ابن سينا ، السعادة ١٩١٧ م
٥ — تاريخ الفلسفة : الدكتور مدكور - يوسف كرم ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٠ م

كتب المعلومات العامة :

١ — الكتاب المقدس : المطبعة الأمريكانية ببيروت ١٩٣٠ م
٢ شرح نهج البلاغة : ابن أبى الحديد ، دار الكتب العربية ١٣٢٩ هـ
٣ - الحيوان : الجاحظ ، السعادة ١٣٢٥ هـ
٤ — الكامل : المبرد ، الخيرية ١٣٠٨ هـ
٥ — كشف الظنون : ملا كاتب جلبى ، دار الطباعة المصرية ١٢٧٤ هـ
٦ — فجر الإسلام : أحمد (بك) أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٥ م
٧ — ضحى الإسلام : أحمد (بك) أمين ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٣٣ هـ
٨ — رسائل الإصلاح : محمد الخضر حسين ، مطبعة القدسى ١٣٥٨ هـ

٩ — القول الفصل : شيخ الإسلام صبرى ، مطبعة عيسى الحلبي ١٣٦١ ﻫ
١٠ — الرسالة المستطرفة : محمد الكتاني ، طبع بيروت ١٣٢٢ ﻫ
١١ — طبائع الاستبداد ، ومصارع الاستعباد : عبد الرحمن الكواكبي الجمالية
١٢ — اللؤلؤ المنظوم فى مبادىء العلوم . أبو عليان ، الحسينية ١٣٢٥ ﻫ
١٣ — المبادىء النصرية : نصر الحويجى ، الخيرية ١٢٢٠ ﻫ
١٤ — محمد عبده : عثمان أمين ، مطبعة عيسى الحلبي ١٩٤٤ م
١٥ — الإسلام والطب الحديث : عبد العزيز إسماعيل باشا ، الاعتماد ١٣٥٧ﻫ
١٦ — النماذج الخيرية : منير الدمشقى ، إدارة الطباعة المنيرية ١٣٤٩ ﻫ
١٧ — دائرة المعارف الإسلامية : أحمد الشنتناوى وشركاه . مطبعة لجنة الترجمة ١٩٣٣ م
١٨ — دائرة المعارف للبستانى : المعلم بطرس البستانى ، طبع بيروت ١٨٧٦ م
١٩ — مجلة الإيمان : علماء الوعظ والإرشاد
٢٠ — مجلة نور الإسلام : علماء الوعظ والإرشاد
٢١ — مجلة نور الإسلام (الأزهر) : الأزهر الشريف
٢٢ — مجلة الهداية الإسلامية : جمعية الهداية الإسلامية
٢٣ — مجلة المقتطف : دار المقطم
٢٤ — مجلة السياسة الأسبوعية : محمد حسين هيكل (باشا)
مجموع المراجع ١٧١ مرجعاً

تم والحمد لله

